

ذكريات طبيبة عراقية

الدكتورة سانحة أمين زكي

دار الحكمة
لندن

● ذكريات طبيبة عراقية

● المؤلف : د. سانحة أمين زكي

● الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

● الناشر : دار الحكمة ـ لندن

ISBN 1 904923 15 1

88 Chalton Street, London, NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk





88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

ذكريات طبيبة عراقية

بقلم

الدكتورة سانحة أمين زكي

الاهداء

الى أحفادي الخمسة

جعفر وسعاد وزهراء وبيداء وهند



مقدمة وتوطئة

ان مذكراتي هذه هي تاريخ شخصي لما رأيته وخبرته في مجال حياتي الخاصة وخدماتي المدنية التي شهدت تطوراً ونمواً في العراق بشكل يصعب تصديقه لمن لم يلمسه مباشرة .

قررت ان اكتب هذه الذكريات عن حياتي لأنني فتاة تحجبت وانا طالبة في سن الثالثة عشر ، ثم درست دراسة مختلطة مع الطلاب والطالبات في كلية الطب في بغداد في سن السادسة عشر من العمر .

النشأة والوالدان

ولدت في بغداد سنة ١٩٢٠ وانتمي بمولدي الى اصول عراقية عريقة ومتعددة من الاكراد والعرب والتركمان . سكن جدي ، والد والدي (على محمد آغا) ، وهو من قبيلة (دزئي) الكردية في لواء اربيل ، مدينة بغداد وكان ضابطاً في الجيش العثماني ، سكن في شارع (الفضل) قرب اصدقائه الضباط من بغداد اولاد الحاج (حبيب العزي) وهم عرب اقحاح من (بني عِزْ) ، وتزوج جدي من ابنتهم ذات الاسم الفارسي العربي (بسمي عالم) أي سرور العالم ، وكانت تلك التسمية قد اطلقت على احدي بنات السلطان في استانبول . حدث هذا الزواج في حدود سنة ١٨٨٤ .

في ذلك الزمن لم يكن التفريق بين الاجناس مهماً ، المهم ان يكون القرين مسلماً ، و من الجنسية العثمانية ، واذا كان الشخص ضابطاً في (شانلي عسكري) أي (الجيش المعلّى) ، فهذا يعني انه شخص يدافع عن امة الاسلام امام القوم الكافرين فيكون اكثر قبولاً كصهر في العائلة .

ولد (لعلي آغا) وزوجته اربعة اولاد وابنة واحدة وكان والدي اكبرهم سناً ، ولما كان والدهم واخوالهم جميعاً ضباطاً في جيش الدولة العثماني ، فقد حذا الاولاد الثلاثة الكبار حذوهم وتخرجوا ضباطاً من الكلية العسكرية في استانبول

عاصمة الدولة العثمانية آنذاك .

تخرج والدي (محمد أمين) وهو الابن البكر من الثانوية العسكرية في بغداد وسافر الى استانبول لاكمال دراسته في المدرسة الحربية هناك ، وعاد ضابطاً بعد ثلاث سنوات الى بغداد ، وكان في نيته الذهاب الى العاصمة الالمانية (برلين) للدراسة العالية هناك لكونه حاز على السبق إذ كان الاول في صفه اثناء التخرج ، وكان اصدقائه في الكلية يسمونه (امين باش) لان باش تعني (الاول) .

فقد الضابط الشاب (محمد امين) والدته خلال ايام قليلة بسبب مرض الكوليرا في بغداد ، وتوفى والده بعد شهر واحد بعين المرض ، واصبح هو الاخ الاكبر والسند الوحيد لاخوته الصغار الاربعة .

صرف النظر عن الذهاب الى برلين ولكنه ظل آسفاً وحزيناً على ذلك الحرمان الكبير ، وبقى يذكره لنا الى اخير ايامه .

تزوج الضابط الشاب في بغداد من ابنة خالته (حليمة خان) في سنة ١٩٠٧ ، وقام مقام الوالدين في رعاية اخوته الصغار في داره .

ولدت له بنتاً (فاطمة بتول) في سنة ١٩٠٨ وابناً (احمد مختار) في سنة ١٩١٣.

في سنة ١٩١٨ ايام الهدنة بعد الحرب العالمية الاولى ، توفيت زوجته بمرض التيفوئيد في كركوك .

تقدم والدي لخطبة (فوزية خان) من صديقه خالي (بهجت صالح الهرمزي) لان والدها توفي قبل سنوات قليلة . كان عمر (فوزية) سبعة عشر عاماً .

لقد سمع والدي من زوجته الاولى قبل وفاتها وهي جارة لبيت والدتي ، ان البنات في هذا البيت متعلمات ، ويتكلمن التركية والعربية وانهن شقراوات وجميلات ، وهما اختان توأمتان متشابهتان تماماً .

لقد دخلت والدتي (فوزية) المدرسة في لواء الموصل ومعها توأمها (رمزية) ومعهما اختا تكبرهم قليلاً ، وكان ذلك اثناء الحرب . اما خالاتي الاكبر سناً فلم يدخلن المدرسة لعدم وجود مدارس للبنات آنذاك .

أمي واخواتها كن يتكلمن اللغة التركية مع الآخرين في البيت ، والعربية

فيما بينهن لانهن تربين في المدن الجنوبية اثناء عمل والدهن في وظيفة (المدعي العام) ايام الحكومة العثمانية ، حيث اشتغل في بغداد والعمارة وكربلاء ، وتوفي في كركوك سنة ١٩١٤.

تنتمي والدتي الى (التركمان) في كركوك من ناحية والدها ووالدتها ولغتهم في البيت هي التركية .

معظم اهل والدتي كانوا موظفين مدنيين في الحكومة ، وبعضهم اصحاب قرى ومزارع في كركوك .

في بيتنا كان كلام الوالدين معنا دائماً باللغة العربية ، وكانا يتكلمان اللغة التركية بينهما فقط .

لم نتعلم الا القليل من اللغة التركية من اقاربنا من كركوك .

تربينا تربية عربية عراقية في المدارس ، ونشأنا ونحن نحب الاكراد والتركمان باعتبار القرابة بيننا ولكنها عن بعد ، لاننا عشنا وكبرنا في بغداد وفي بغداد فقط .

كان والدي ضابطاً في الجيش العثماني اولاً ، وبعدها في الجيش العراقي ، ثم انتقل الى وزارة المعارف في بداية العهد الملكي ، ثم انتخب نائباً عن لواء بغداد في المجلس النيابي وتقاعد في سنة ١٩٣٥ .

لم يكن لدينا أي شخص من العائلتين من يشتغل بالتجارة او الصناعة .

كانت والدتى شابة في السابعة عشر من عمرها وكانت تعتبر سيدة متعلمة أي انها (تقرأ وتكتب) ، وكان ذلك نادراً جداً بين النساء .

ولدت انا في سنة ١٩٢٠ وكنت الطفلة الاولى بأسم (سانحة بلقيس) .

كانت بغداد قرية كبيرة نائمة في احضان العصور المظلمة منذ قرون طويلة خاصة من حيث مكانة المرأة التي كانت تنظر الي الرجل نظرة العبد الى سيده والمملوك الى مالكه . وفرض الرجل على المرأة الحجاب الثقيل وظلت قعيدة حبيسة في دارها متعة وخادمة لرجل هو في الغالب الأعم جاهل ومتخلف وفي اسفل درجات المدنية الحديثة التي اشرقت في الغرب منذ النهضة الحديثة لخمسة قرون مضت .

بعد سنة من ولادتي ، توج الملك فيصل الاول ملكاً على العراق سنة ١٩٢١ وانفتحت امام العراق بداية جديدة عصرية ومباركة للبلاد كلها ، وبصورة خاصة امام المرأة ، إذ تلقت المرأة عهداً جديداً لم تر مثله من قبل في تاريخها القديم او الحديث وذلك بسبب انتشار التعليم بين البنات . في خلال سنوات قليلة تحولت المرأة من شخص طفيلي عاجز تعيش وتخدم الرجل والاطفال ، الى سيدة متعلمة تكسب رزقها بنفسها كما يفعل الرجال .

لقد شاهدت ما جرى من التطور في العهد الملكي ، ذلك التطور الذي شمل جميع المملكة العراقية الحديثة بتعليمها للجنسين وما جرى من رفع شأن المستوى العلمي في المدارس ، وكذلك المستوى الصحي في المستشفيات وتنظيم الشرطة وما قامت به من شق الطرق والجسور في البلاد ، وارسالها الطلاب الى الخارج للتعلم ورؤية العالم الجديد وطريقة تنظيمها للجيش العراقي الحديث ، ولكنني سأتخذ من تطور النساء في العراق المثل على ذلك الانقلاب الشامل الذي عم البلاد من الشمال الى الجنوب بعد نومة عميقة استغرقت قرون في عهود التخلف والانحطاط الذي اصاب بلاد الرافدين منذ الغزو المغولي الغاشم .

لقد كان لي ولأقراني الفتيات ميزة السبق في حياتنا بسبب بداية التعليم في بلادنا في ذلك الزمن ، ولو ولدت قبل ذلك بسنوات قليلة لما تمكنت حتى من التعليم الاساسي للبنات لانه لم يكن موجوداً في العراق من قبل .

عهد الملك فيصل الاول.. مسيرة نحو الافضل

كانت دراستي الابتدائية ، وتفوقي على الكثير من اولاد العائلة والاصدقاء في الصفوف الاولى ،أمراً غريباً بين ابناء جيل والدي ، ولكن الوالد اهتم في قضية تعليم بناته والمساواة بينهن وبين الاولاد في المعاملة لانه كان واثقاً من تساوي النساء والرجال حسب قابلياتهم ، وكانت تشاركه في ذلك والدتي القارئة الذكية التي قرأت الكثير من القصص الاجنبية والتي اعجبت بها واستهوتها وكرهت تخلفنا وتدهورنا في ذلك الزمن المتأخر الجاهل .

منذ الطفولة ، شعرت بالظلم الواقع على المراة في مجتمعنا وكنت ارغب

باصرار ان تتمتع البنات بما ينعم به الاولاد من الحرية في الرياضة مثل الكشافة والسباحة وغيرها من الاشباء التى كانت ممنوعة للبنات منعاً باتاً .

كنت احترم الرجال ولا الومهم ، ولكني كنت اود المساواة معهم ومشاركتهم الحرية .

ان كل هذه الآراء الجديدة تعود الى عهد الملك فيصل الاول وعنايته بتعليم البنات وكانت الحافز الى الطالبات للأهتمام والجد بالدراسة والتعلم .

دخلت المدرسة في سن الرابعة في زمن الملك فيصل الاول والمدارس قليلة جداً في بغداد وفي الموصل وبعدها افتتحت دار المعلمات الابتدائية للمرة الاولى في المدرسة المركزية خلال السنوات الاولى من حكم الملك فيصل ، وبعد مرور عشر سنوات كانت هناك مدارس عديدة ابتدائية للبنات في بغداد والمدن الكبرى ، ومدرسة دار (المعلمات الابتدائية) التي خرجُت معلمات عراقيات في الوقت الذي اشتدت فيه الحاجة اليهن .

كانت المعلمات يحصلن على نفس الاجور الذي يتقاضاها المعلمون الرجال . وكان بين تلك المعلمات العراقيات اللواتي تخرجن من دار المعلمات في بغداد معلمات لايقل عددهن عن عشرين منهن لاازال اتذكر الكثير من اسمائهن الى الآن وكنت في اثناء الدراسة الابتدائية ، ومنهن بنات اشخاص بدرجة رؤساء الوزراء امثال بنت ياسين باشا الهاشمي (مديحة) وكانت معلمة ، واختها (صبيحة) تدرس في الجامعة الامريكية في بيروت . وكذلك كانت بنت اخت نوري باشا السعيد (الست نظيمة نشأت) ، وبقية المعلمات كلهن من عائلات مختلفة ، موسرة ومتوسطة ودينية محترمة ، واذكر بصورة خاصة منهن الست (صبيحة الشيخ داود) ، وكن جميعاً في المدرسة المركزية للبنات .

في العشرينات ، كانت هؤلاء المعلمات على درجة كبيرة من الاناقة العصرية في الملابس والاعتناء بالشعر اضافة الى طريقتهن في الكلام المهذب والعناية بما يجري في البلد وفي العالم بسبب الجرائد والمجلات . واصبحت النساء الشابات المتزوجات يحسدن المعلمات ويسعين لصداقتهن والتعرف بهن ومحاكاتهن في الملابس الانيقة والتصرف المهذب . .

افتتح الصف الاول الثانوي في المدرسة المركزية للبنات سنة ١٩٣٠ .

تخرجت الطالبات بعدها وتقدمن الى المدارس العالية ويعني ذلك الكليات المختلطة ، ودخلت اول طالبة في كلية الطب مع الطلاب فيعهد الملك فيصل سنة ١٩٣٣ ، وهي (ملك غنام) ، ابنة الصحافي المشهور (رزوق غنام) وكان ذلك المرة الاولى في تاريخنا كله ، ان تدرس الفتاة العلم مع الرجال في بلاد الرافدين! . . .

تخرجت انا من الثانوية ، وتم قبولي طالبة في كلية الطب ١٩٣٦ ايام الملك غازي . دخلت مع ست من الطالبات وكانت كلية الطب تضمست طالبات قبلنا في صفوف مختلفة .

وفي هذه السنة دخلت فتاة في كلية الحقوق للمرة الاولى وكانت معلمة لمدة أربع سنوات وهي صبيحة الشيخ داود .

دخلت اختي لمعان كلية الطب وكان عدد الطالبات في كلية الطب عشرين طالبة .

دخلت طالبات كثيرات في كليات اخرى يدرسن في كليات الحقوق والصيدلة ودار المعلمين العالية والهندسة .

تخرجت من كلية الطب سنة ١٩٤٣وحصلت على الشهادة من يد الامير (عبد الأله) الوصي على الملك الطفل فيصل الثاني في قاعة الملك فيصل في باب المعظم .

سافرت الى القاهرة في ١٩٤٤ مع وفد نسائي ، والى لندن في ١٩٤٦ مع مجموعة من الاطباء والطبيبات الذين سافروا الى بريطانيا وامريكا . وتبعتني اختي الدكتورة لمعان بعد سنة واحدة وكان مجموع الطبيبات اللاتي سافرن الى لندن وامريكا لايقل عن عشرة واستمر الذهاب الى الخارج يتزايد .

في١٩٥٠التحقت بكلية الطب للتدريس في فرع (العلاج الطبي والتداوي) مع استاذ بريطاني ، ولم اكن الوحيدة بل كانت طبيبات اخريات يعملن في فروع اخرى من كلية الطب ومن الجملة اختي لمعان طبيبة في مستشفى الاطفال .

في سنة ١٩٥٨ كانت عندنا معلمات وطبيبات وصيدلانيات ومحاميات وصحافيات ومهندسات ، وشاعرات تقدمن بالشعر (الحديث) في اوائل خطواته

الى الامام ، وكانت للعراق ملحقة صحافية في القنصلية العراقية في مدينة نيويورك .

في تموز عام ١٩٥٨ كان لوالدي ما اراد منذ زمن بعيد . بناته الاربع وحفيداته من ابنته الكبرى وإبنة اخيه كلهن تخرجن من المدارس العالية . كان ذلك ما اراد طيلة حياته ، وقد تحقق له ذلك وقد بلغ خمسة وسبعين عاماً من العمرحين وافته المنية .

هكذا كانت مسيرة العراق الحديث . . .

توقف المسيرة ومرحلة التيه

وعلى حين غرة ، استولت على البلاد في صبيحة يوم ساخن مثل يوم الحشر ، جماعة من الضباط لايعرف الناس عن اعمالهم شيئاً ، وشاهدت افجع مأساة دامية انتقلت بنا من شعب مثقف جديد ، الى شعب من البرابرة قام فريق منهم بهدم النظام القائم من دون ان يكون لهم اتجاه ثابت اواهداف سياسية معينة قتلوا الناس الذين كانوا على رأس النظام ولم يحترموا العلم الابيض الذي رفعوه علامة للاستسلام ، ولم يستثنوا حتى النساء ، وسحلوا جثث كبار المسؤلين وتقطيعهم كما تقطع الخراف .

هذا التاريخ اذكره بالحسرة والندم الى يومنا هذا . هذا التاريخ الذي جعل العراق الغني بلد الذهب الاسود الى بلد مثقلٍ بالديون يشقى ابناؤه في الحصول على الطعام واللباس .

لم يدخل بقلبي الكره والضغينة تجاه احد من قبل ، الا تجاه الذين رفعوا الاصوات الصاخبة والايادي الدموية المحفزة للجيش العراقي من خارج العراق ، وكذلك الذين رفعوا اسلحتهم وقوضوا النظام الملكي في العراق بالقوة . وقدكان وراء هذا الدمار العربي ، القوى الخفية المستترة التي دبرت هذه المؤامرة لسنوات لكي تدفع الشعوب العربية الى الوراء .

ذكرت سابقاً انني اشعر بالقرابة والمحبة الى القوميات الثلاث التي انتمي اليها . والى الشعب العراقي بعربه واكراده وتركمانه بالمسلمين الشيعة والسنة

والمسيحيين . والان ، وبعد كل هذه السنوات الطوال وقد اصبحت الكرة الارضية قرية كبيرة وانا من ضمنها ، واعلم ما يجري فيها في كل دقيقة ، وحيث انفتح عهد جديد وتبدلت كل المقاييس في الشرق وفي الغرب . بدأت اشاهد العالم كله لافرق بين البيض او السود او السمر مع مساواة بين الرجال والنساء ، بعيدة عن التعصب والتقاليد ما دام الجميع يتعاونون على حياة فضلى وحرية ونظام وامن للعالم كله .

انني إذ اكتب هذه الذكريات واعبر عن هذا المشاعر اضع نصب عيني اولادنا واحفادنا ابناء العراق والامة العربية ، آملة ان اكون قد نقلت صورة واضحة عن حياة عشناها وانتقلنا فيها خلال سنوات قليلة من الظلام الى النور ومن التخلف الى التقدم والحضارة بجهود القادة والرواد الذين قاموا بتأسيس المملكة العراقية في اوائل القرن العشرين وعلى رأسهم الملك فيصل الاول . كانت صدورنا واحلامنا مفعمة بالآمال بحياة غنية زاهرة لاتعرف الحدود! . . . ولكن شاءت الظروف ان تضع نهاية فاجعة لذلك كله والقت بنا على طريق ملتوية مليئة بالحفر والمطبات دعك عنك المجازر والحروب والمصير المجهول .

وليس لي الا ان ادعو الله سبحانه وتعالى ان يحفظ اجيالنا القادمة ويفتح قلوبهم وعيونهم ويهديهم سواء السبيل .

الثناء والشكر

السبب الذى جعلني أستعد واكتب عذه المذكرات هما شخصان كريمان .

الاول هو الشخص الذي علمني استعمال الكومبيوتر وانا في فترة متأخرة من حياتي .

انه احد اقربائي ومثل ولدي (مجدي فوزي الخطيب) شاب من لواء كركوك ولد في بغداد ورأيته يولد وينمو في بغداد مع والدته التي كانت في عمري . طلب مني (مجدي) وزوجته الامريكية المولد العربية الاصل ان اتعلم الكومبيوتر عندما سمع رغبتي في كتابة مذكراتي عن العراق اثناء وجودي في امريكا ، وقدم لي كتاباً صغيراً عن تعليم هذه الجهاز . ضحكت من ذلك لآنني كنت قد تجاوزت

السبعين من العمر ، وسألته :

- هل سأتعلم مع طلاب رياض الاطفال؟

ولكنني ما امسكت بالكومبيوتر وتعلمت بعض الامور الضرورية حتى اقتنيت هذه الآلة وتعلمتها برغبة قوية ولكن ببطء شديد مع الاسف ، وتركت الكتابة على الورق .

والشخص الثاني الذي جعلني استمر في الكتابة هو الصديق الكريم معالي السيد(عبد الغني الدلي ، ابو حازم) وزير الزراعة في وزارة الدكتور فاضل الجمالي ، الذي قرأ نبذة كتبتها عن مدرستي السيدة (سارة) زوجة الدكتور المرحوم (محمد فاضل الجمالي) ، واخذ الاوراق بنفسه ومعه زوجته الصديقة (بهيجة) عندما ذهبا الى عمان وقدمها الى المسز جمالي . وقد اعجبت المسر جمالي بما قرأت وترجمت النبذة الى اللغة الانكليزية وارسلتها إلي بالبريد من الاردن الى بريطانيا .

بعد ذلك واصل السيد(ابو حازم) تشجيعي على الكتابة ، بقراءة ما اكتب والتعليق عليه . ولولا تشجيعه واهتمامه بما اكتب لما تمكنت ان اكتب هذه المذكرات والتي تعبر عن آرائي وحقائق الحياة كما خبرتها انا ، ولا مسؤلية للآخرين عما كتبت .

كذلك اقدم شكري للكاتب السيد (محمد رسول هاوار) الذي كتب بعض الحقائق القديمة عن السيدة (حفصة خان) في السليمانية اثناء الاحتلال البريطاني للعراق في زمن الحرب العالمية الاولى .

الى هؤلاء جميعاً اقدم شكري وامتناني الوافي .

ذكريات ضبابية

لايتمكن أي شخص تذكر ايام حياته الاولى بوضوح ، كل شي يبدو غير مميز كالضباب ، كنت اعرف (ماما) و(بابا) و(كاكة) اي خالتي ، و(دايي) خال والدي و(ماوي) اختى الاصغر واسمها (لمعان) ، واخ كبير اسمه (احمد) وعائشة معنا واسميها (ننة) . وكنت اجد من الجميع حباً جماً!

هؤلاء الناس اعرفهم واحبهم ولاافكر (لماذا) احبهم ، (لماذا) هذه ، تأتى بعد فترة اخرى من العمر .

هذه بعض الصور والحوادث التي لم انسها ابداً حدثت وانا دون الرابعة من العمر .

شابة جميلة ، تشبه أمي تماماً ، لها نفس لون الوجه الابيض الوردى والقامة الطويلة ، والشعر الاشقر الطويل المسترسل والذى يصل الى خصرها عندما تظفره الى ظفيرتين وأحياناً ترفعه فوق رأسها على شكل كعكة كبيرة . لم اعرف انها اخت والدتى التوأم ، وانها عروس عمى (حسن فهمى) اخ والدي الاصغر . كنت اناديها ، (أبلا رمزية) واضحك لان اسم والدتى (فوزية) يشبه اسمها . كانت تجلس على كرسى طويل وتضع وسادة ورائها ، والكل يعاملها باقصى درجات الاهتمام . لم ادر بأنها مريضة ، اذ لم اكن اعلم ما هو المرض آنذاك . كنت احبها ، واحب صوتها الخافت الرقيق ، وكانت تعطينى قطعاً من الشكولاتة ملفوفة باوراق لماعة . بقيت في بيتنا مدة ، ثم سافرت .

وقبل ذلك بايام ، جاء والدي ومعه رجل لم اره من قبل . ضحك الرجل عندما رآنى ، قبلنى ورفعنى في الهواء عالياً وانزلنى عدة مرات وانا اضحك واقهقه . رجل يبدو انيقاً جداً ، يرتدى بدلة غامق اللون ، وله لحية صغيرة شقراء ، ويلبس نظارات ذهبية رفيعة ، وساعة جيب بسلسلة ذهبية . اخرجت الساعة من مكانها وبدأت العب بها . لقد احببت الزائر الجديد! . .

قال والدي ، انه (دايي)! . . لم اصدق ذلك . عندى (دايي واحد) ، شخص اعرفه واحبه كما احب والدي ، فكيف يكون هذا الزائر (دايي) آخر؟

قال والدي انه (دايي بهجت) الاخ الكبير (لماما)! . .ثم ضحك وقال (انه يعيش في بلدة اسمها ـ كفري ـ وانه قائمقام كفرى) . اخذت اردد كلمة قائمقام بصعوبة عدة مرات لاتعلمها!

لم ادر ان (دايي) الجديد محروم من الاطفال! . .بعد ذلك غادرنا .

في نفس الليلة ، زارنا (الدايي) المعهود ، أي خال والدي . اخبرته وانا اجلس على ركبتيه بانني رأيت شخصاً في بيتنا اثناء الغداء ، ولما سألنى عمن يكون ، خفت ان اقول اسمه (دايي) أيضاً ، وقلت (رجل لااعرفه!) . ولم يزعل مني (دايي) عندما اخبره والدي عن خالى ، كما كنت اظن ، بل قال لي (الا تعرفين خالك (الدايي) الآخر؟) .

بعد فترة قصيرة ، وكنا في الصيف في الطابق الاسفل ، فوجئت بأمي وحدها ، وهى جالسة على ارض الغرفة تبكى بصوت مسموع وبحرقة شديدة . انتابنى الخوف وجنست امامها وشاركتها البكاء ولا اظننى شاهدتها تبكى من قبل . خففت أمي بكائها وربتت على رأسى لكي تسكتنى ، ولكنها لم تشرح لي سبب البكاء ، ثم غادرت أمي البيت وذهبت الى بيت (كاكة) أي خالتي ، وهو يبعد عن بيتنا بمسافة قصيرة . طلبت من (عائشة) ان تأخذنى اليها . ذهبنا ، ورأيت أمي وحدها مضطجعة على مرتبة على الارض ، والغرفة كلها خالية من الكراسى ومفروشة بمراتب على الارض . ورأيتها ترتدى فستاناً اسود اللون ولفت حول رأسها منديلاً اسود اللون لماعاً ، وينسدل شعرها الاشقر على شكل ظفيرتين طويلتين . لم تكن تبكى ولكن وجهها كان احمر اللون متورماً . جلست قربها وانا مرتعبة وخائفة . نظرت الي وقالت لي بلهجة الاطفال : (ماما أواه) أي ماما مريضة! . .

اضطجعت قربها وعانقتها وبكيت! . .

لم يخبرنى احد ما حدث . كانوا يهمسون لئلا افهم . اخبرتنى (عائشة) في البيت بأن (آبلا رمزية) خالتي الجميلة ماتت في (كفرى) حيث سافرت لترى اخاها خالى (بهجت) وان نزيفا فجائياً في الصدر قضى عليها ، وهى في سن الثانية والعشرين! . . .

استيقظت في صباح يوم مشمس في بيتنا ، وكنا في الطابق العلوي ومعنى ذلك كنا في موسم الشتاء ، وكنا ننام انا و(لمعان) اختى الاصغرومعنا (عائشة) في غرفة واحدة .

واذا بخالتي (كاكة) وابنتها الكبرى يأخذونى الى الغرفة المجاورة ، ولم تكن هذه غرفة نوم والدي . رأيت سريراً تضطجع فوقه أمي ، وقربها مهد صغير ينام فيه طفل مغطى باغطيه بيضاء . قالت خالتي :

– هذا الطفل هو اخوك الصغير!

تعجبت من ذلك اشد العجب ، وبقيت انظر للطفل وانا مسحورة . رأيته كأجمل شى في العالم!

لم اسمع بأن طفلاً سيولد ، ولم ادر ماهى الولادة ، ورأيت الوليد وكأنه هبط علينا من السماء! ولا ادرى لم خبئوا الامر على ، ولكنها كانت عادة أمي دائماً ، كما رأيتها فيما بعد!

ابنة خالتي الكبرى (سنية) ، وهى اصغر من أمي بسنتين فقط ، بدأت تكتب على اوراق صغيرة ، وتلفها وتضعها في منديل . طلبوا مني ان اسحب ورقة من المنديل ، ولم افهم ماكانوا هم عليه ، سحبت ورقة وقرأتها (سنية) وقالت الاسم هو (أمجد) . ثم طلبوا ان اختار ورقة اخرى ففعلت وكان عليها اسم (خلوق) ، وكان هذا اسم ابن الشاعر التركى المشهور (توفيق فكرت) . قرروا على هذا الاسم ، وكان والدي يرغب في اسم (محمود) ، لذلك اصبح الوليد (محمود خلوق) ، ولكن اسمه بقى (خلوق) بيننا .

بعد ايام قليلة بدأت اعراض (الحصبة) تظهر على وعلى لمعان اختى . البسونا ملابس حمراء اللون واغطية على الفراش حمراء أيضاً وقالوا ان اللون الاحمر يشفى الحصبة . وكانوا يخافون العدوى الى الوليد الجديد ، ومنعونا من دخول غرفة الطفل ، دون ان ندرى لماذا المنع . ولا ازال اذكر ان بقعاً حمراء ظهرت على وجهى وجسمى ووجه لمعان . وكانت ابنة خالتي تعتنى بنا ، لانهم منعوا أمي من التقرب منا بسبب الوليد . ولم يعرفوا آنذاك ان الطفل الحديث الولادة لاتصيبه عدوى الحصبة! . .

الموصل

سمعت باننا سنذهب الى الموصل ، لان والدي اصبح مديراً للمعارف هناك . لم اعرف ماهى الموصل ، ولا معنى مدير معارف .

قالت أمي اننا سنسافر بواسطة (الشومندفير) ، وتقولها بلهجة الاتراك أي انها تطيل الياء الاخيرة ، وهكذا كانوا يسمون القطار في تلك الايام ، وهذه كلمة اخرى لااعلم عنها شي ، لكنها حفزتنى واثارت اهتمامى .

كنت في الرابعة من العمر ، اختى لمعان عمرها سنتان ، وخلوق الصغير في الشهر الثانى من عمره . غادرنا البيت في مساء احد الايام ، الوالدان واحمد اخى الكبير ، وعائشة ،والاثنان في حوالى الحادية عشر من العمر . (في تلك الفترة ، لم اكن اعرف عمرى او عمر الآخرين!) . وكان معنا جماعة من الاهل مودعين ، ولا اتذكرهم بالضبط!

دخلنا (قمارة) القطار وتعجبت مما يحوى عليه من مقاعد وافرشة لطيفة ، وكان معنا مقدار كثير من الطعام الذى اتينا به من البيت . وفى (قمارة) مجاورة رأيت سيدة تعرف والدتى ومعها طفلان ، اكبرهما اصغر مني ، بعمر لمعان اختى ، واصغر منه طفل حديث الولادة مثل (خلوق) اخى . ان السيدة هي زوجة السيد (تحسين على) ، ومعها اولادها (صلاح الدين) والوليد هو (خالد) ، والعائلة تسافر مثلنا لان السيد (تحسين على) عُين في الموصل .

نظرت الى (ام صلاح) وسألتنى مداعبة :

- اي من الطفلين اجمل ، خالد ابنها ام خلوق؟

عجبت من السؤال جداً ، اهناك مجال للمقارنة! الا ترى هذه السيدة ان خلوق هو اجمل طفل! اردت ان اجيب بشدة ، ولكن عمر السيدة جعلنى اخفف من ردى عليها فقلت :

- ان اخي خلوق اجمل بقليل من ولدها خالد! . .

- ثم ذهبت الى أمي اخبرها بهذه المقارنة ، والححت عليها ان تذهب وتخبر (ام صلاح) ان ابنها خلوق اجمل من خالد! . .

(ولقد بقيت اشعر بأن أمي واخوتى كانوا اجمل من جميع الآخرين حتى سن العاشرة من العمر! . .) .

تحرك (الشومندوفير) أي القطار ، وانتابنى شعور كأننى انزلق بهدوء في الهواء . لم يكن أي شى يعرقل السكة كما يحدث مع السيارة او العربة ، واستمتعت بهذا الشعور الجديد ولن انساه ابداً .

كان الظلام مخيماً في الخارج ولم اتمكن من رؤية شى ورقدنا بسرعة .

في الصباح خرجنا من القطار عندما وصلنا (شرقاط) حيث ينتهى الخط الحديدى ، وركبنا السيارات لكي نصل الموصل .

وصلنا البيت ، ولاازال اذكره لأنني سكنته سنتين ، وهى مدة طويلة في الطفولة .

كان البيت على ربوة تعلو كثيراً عن الشارع العريض امامنا ، وعندما نهبط من البيت الى الشارع يكون امامنا في الجهة المعاكسة وعلى اليمين جامع اسمه (النبى شيت) . الباب الكبير لبيتنا ، اسود اللون ذو بابين اثنين نفتح باب واحد والثانى يبقى مسدوداً اكثر الاحيان .

البيت يتكون من قسمين ، القسم الذى يطل على الشارع وهو القسم الاصغر يسمى (الديوخانة) وفيه (حوش) صغيروايوان وسرداب صغير ، وفى الطابق العلوى من (الديوخانة) ، توجد غرفة للضيوف الرجال وامامها شرفة تطل على(حوش) الديوخانة . وقربها غرفة للخادم الجديد (يونس) وهو من الموصل ،ويذهب باحمد اخى الى المدرسة ثم يعيده منها ، كان احمد قد جاوز العاشرة من عمره ، وكذلك يقوم يونس بشراء الاشياء البسيطة للبيت ، وكان رجلاً مؤدباً وكنا نحب احاديثه المضحكةعن مدينتة الموصل ويرويها بلهجة موصلية اصيلة! . .وقد بقى في بيتنا الى ان تركنا الموصل .

بعد الديوخانة يوجد مر (مجاز) ذوسقف على شكل قبة عالية جداً ، ثم ندخل البيت الداخلى أي (الحرم) .

في الحرم (حوش) كبير وبه حديقة داخلية نسميها (البقجة) ، والبيت مكون من طابقين العلوى لفصل الشتاء والسفلى للصيف . لاتذكر ما كنا نأكل من طعام وفاكهة اظنها تشبه اكلنا في بغداد ولكنى اذكر البطيخ الاحمر (الرقي) في بغداد ويسمى (الشمزي) في الموصل ، وكانوا يضعون اعداداً منه قرب المطبخ ، وحجمه اكبر بكثير من (الرقي) في بغداد ، وكنا نلعب به ونجلس على الرقى الكبير ونقول نحن الخيالة والرقى هي الخيول!

كنا ننام في غرفة واحدة انا ولمعان وعائشة ، اما (خلوق) فيرقد في مهده في غرفة الوالدين و(احمد) له غرفته الخاصة . والطباخة (فريدة) وهى من الموصل لها غرفتها الكبيرة في اعلى الدرج .

في القسم الاسفل من البيت ، توجد غرفتان كبيرتان ، وامامهما يوجد قسم من البيت يسمى (الزهرة) وهو محل اوطأ من مستوى البيت بدرجات قليلة فيه فسحة مفتوحة وباب وغرفة للنوم بعد الغداء في الصيف ، وهذه (الزهرة) بارضها ودرجاتها ، مبنية كلها من المرمر المحلى ذي اللون الابيض الذى يميل الى الزرقة . وقد وضعت والدتى (ارجوحة) صغيرة في الزهرة لي وللمعان . وفى احد الايام وانا في الارجوحة اردت ان اظهر شجاعتى ، واخذت اتأرجح بحماس كبير ، سقطت على الارض واصبت بجرح وراء الحنك من الخلف ونزف الدم بكثرة . كانت أمي خارج البيت ، واذا الطباخة فريدة (تخرط) بعض (المرمر) من الارض بواسطة سكين المطبخ وتضع غبار المرمر على الجرح ، واذا بالنزيف ينقطع رأساً! . .

واذكر كذلك في امسيات الصيف ، كنا نجلس في (الحوش) ونرى اليراعات اللامعة تطير فوقنا ، واليراعة حشرة بحجم نحلة صغيرة ، لاتلسع ، وتطير في الليل ويشع منها ضوء صغير ، وتبدو وكأنها اضواء طائرة في الهواء . وكنا نحبها جداً . ولم ار مثلها في بغداد ابداً ، وتعلمت شعراً عنها :

فاصغوا الى ما حلَّ باليراعة   الحلوة اللطيفة اللماعة

لا اذكر كيف ذهبت الى المدرسة للمرة الاولى . اسم المدرسة (المدرسة الخزامية) للبنات ، ولم يخبرنى احد معنى اسم المدرسة الابعد فترة طويلة . الخزامى ازهار جميلة تتفتح في الربيع . . .

في المدرسة كانت الطالبات يلبسن صداري سوداء اللون وعليها ياقات بيضاء ، اما المديرة والمعلمات فيلبسن ما شائت لهن انفسهن ، وكانت ملابس المعلمات انيقة وجميلة . والمعلمات وكل تلميذة تتجاوز سن العاشرة ترتدى عباءة سوداء في الطريق ، وكل من وصلت سن الثالثة عشرة ترتدى غطاء اسود على الوجه (البوشى) وفى سن الرابعة ، كنت اراهم (كبار) جداً! . .

المديرة (مريم خانم بوغوص) واختها المعاونة (لوسى خانم) كانت لهما ملابس مختلفة للطريق ، اذ يرتدين معاطف طويلة فوق ملابسهن ، وعلى الرأس قماش طويل ابيض اللون بحيث يلف الرأس والرقبة ويبقى الوجه مكشوفاً . وهما من مدينة (ماردين) اصلاً ، وكلامهن اللغة العربية ، وقد سكنوا الموصل بعد تكوين المملكة العراقية .

قالت فريدة الطباخة بفخر :

- انهما من الدين المسيحي! . .

لكون ذلك دينها أيضاً .

في المدرسة ، الصف التمهيدى مقسماً الى ثلاثة اقسام حسب العمر ، صف (الجيم) للاصغر سناً ، وصف (الباء) لمن كان في سن الخامسة ، وصف (الالف) لذوى السنوات الستة ، وبعد ذلك ينتقلون الى الصف الاول وهم في سن السابعة . وكنت في صف (الجيم) .

احببت المدرسة منذ اليوم الاول وكنت العب مع البنات واحب المدرسات . وكانت (عائشة) تذهب معى الى المدرسة ، وسجلتها احدى المعلمات في الصف الثانى وهى لاتعرف القراءة او الكتابة . كنا نذهب للمدرسة مشياً لقربها من بيتنا .

الثلج للمرة الاولى

في احد الايام ، طلبت أمي ان ابقى في البيت لآن الجو غائم وبارد وربما امطرت ثلجاً . لم افهم كلامها ولم ادرما هو الثلج . اصررت على الذهاب الى المدرسة مع عائشة . قبل الانتهاء من الدوام ، صرفتنا المديرة بسرعة . اثناء العودة

والجو غائم معتم جداً كنت ابكى طيلة الوقت وعائشة تحاول اسكاتى بكلامها ، وحال وصولنا الى البيت انفجرت عائشة تبكى معى ، وجلسنا قرب المدفأة ونحن نرتجف! . .بقى اليوم معتماً جداًومكفهراً بغيوم سوداء واصبح النهار ليلاً .

في اليوم التالى كانت الشمس ساطعة ونظرت من النافذة واذا بي ارى منظراً ساحراً لم ار مثله في حياتى! . .الثلج الناصع يغطى البيوت والشارع والسطوح وكانت الاشجار والفسحة الممتدة امام بيتنا الى الافق كلها تبدو بيضاء نقية ، والشمس ترسل اشعتها اللامعة الوردية التي حولت المنظر امامنا الى لوحة سحرية رائعة! . .

هذا اول منظر للثلج اراه في حياتى ، وكان جماله يفوق التصور . . .

في اليوم التالى ذهبت للمدرسة ، واذا البنات يعرفن الثلج وماهو ، ويلعبن بكرات ثلجية ناصعة البياض ويبنين الدمى المختلفة منه ، وقد شاركتهم في ذلك كله! . .

رأيت (خالة) جديدة ، أي اختاً لامى ، تعيش في الموصل مع زوجها الموظف وهو من ابناء عمها من كركوك ، ولها ابنة تكبرنى بسنة واحدة اسمها (واجدة) .

رأيت خالتي تتكلم العربية بطلاقة مثلنا ، ولكن ابنتها (واجدة) كانت تتكلم العربية بلهجة غريبة هي لهجة اهل كركوك التركمانية .

كنت اعلم ان أمي واخواتها يتكلمن اللغة العربية مثل العرب تماماً لان والدهم كان يعمل في بغداد والعمارة ووظيفته (المدعي العام) ولكن في البيت يتكلمون اللغة التركية ، بلهجة تركمان (كركوك) ، ولم اكن ادرى آنذاك بأن أمي من كركوك ولا ادرى ما هم (التركمان) . ولكنني لم اعجب بلهجة (واجدة) الغريبة . . .

تسجلت (واجدة) في صف (الباء) .

كنا نتعلم النشيد والرياضة ،وفى الدرس تكتب المعلمة على السبورة حروفاً وتذكر اسم الحرف ونحن نكرر اسم الحرف ورائها ، ولم نكن نعرف ماهو الحرف . كانت هذه هيالطريقة الصوتية من القراءة (الخلدونية) .

في احد الايام كنت جالسة في حضن والدي وهو يقرأ الجريدة اليومية

وسمعني اقرأ ببطء اسم الجريدة (العالم العربى) . نظر الى ولم يصدق ما سمع . طلب مني ان اقرأ كلمات اخرى ، فعلت ذلك بثقة وببطء . طار والدي فرحاً ، أذ تعلمت ان اقرأ بعد فترة قصيرة من ذهابى الى المدرسة! . .

يبدو بأنني تعلمت القراءة دون ان ادرى! . . . وفى فترة قصيرة جداً! . . .

كانت أمي لا تستريح دون عمل اشياء مهمه في البيت في وقت الصباح ، مع وجود الطباخة دائماً واثنين من البنات اللواتى تبنتهن وتمنحهن حبها واهتمامها ، وقد ساعدوها في العناية بالاطفال الصغار وهما (عائشة) واصلها من كركوك ، اتت الى بيتنا قبل ولادتي ، و(بدور) واصلها من الموصل . وهما الآن في سن الحادية عشر من العمر .

كانت والدتي تهتم بترتيب البيت ، وتلاحظ نوعية الاكل وتقوم بخدمة والدي بنفسها وتشعر ان ذلك من واجبها ، وتهتم بالاطفال واحتياجهم بصورة كبيرة وتخيط الملابس على مكينة خياطة (سنجر) تشتغل باليد ، وأحياناً كانت تطرز على مربع خشبى ذو ارجل ، ومساحته حوالى متر مربع يسمى ال (كركاف) . وتنام بعد الغداء لفترة قصيرة وتنهض لكي تتهيأ لزيارة صديقاتها بعد الظهر او يأتون لزيارتها . وترجع الى البيت وقت غروب الشمس صيفاً وشتاء . وقبل النوم تقرأ كتاب في اللغة العربية او التركية ، وعادة يكون من احد القصص المشهورة .

وقد اعتادت ذلك طيلة حياتها .

كانت تهتم بمظهرها اهتماماً كبيراً وتشترى حقائب يدوية جميلة واحذية عالية . في البيت تترك شعرها على شكل ظفيرتين طويلتين ، وبعد الظهر وقبل الخروج ترفعه الى الاعلى على شكل كعكة مستديرة الى الوراء ويسمى (طوبوز) باللغة التركية . وكانت تلبس ملابس طويلة وعليها احزمة مختلفة جميلة والمظهر العام يشبه المظهر (الفكتوري) . وفى الطريق تلبس عباءة سوداء وغطاء الوجه الاسود (بوشي) .

كنت ارى أمي في ذلك الوقت وكأنها اجمل امرأة في العالم! . . .

كان لها صديقات ومعارف واقرب واحدة لديها (صبيحة خان) زوجة القائد العسكرى (خليل زكى) لانها من كركوك وتمت لامى بعلاقة مصاهرة . وكذلك

السيدة (ام خالد) زوجة المتصرف السيد (عبد العزيز القصاب) وهو صديق والدي ، وكذلك زوجة المقدم آنذاك السيد (امين العمرى) ، وبيوتهم قريبة من بيتنا والسيدة (ام صلاح) زوجة السيد (تحسين على) وعدد كبير من المعلمات والمديرة في مدرستنا (الخزامية) .

بالقرب من بيتنا على الجهة اليمنى يسكن (عقيد) متقاعد من الجيش العثمانى ولم اكن اعرف رتبته آنذاك ومعه ابنته الشابة (مديحة) ويبدو ان زوجته متوفاة . كانت (مديحة) لطيفة تحب الاطفال وكثيراً ما دعتنى لاجلس معها ومع والدها ويعزف الاثنان على العود ويغنون اغانى عربية وتركية جميلة . ومما اذكره انشودة :

ظبية الانس ريبى الي عودي وارجعي

ويمزجون معها انشودة تركية بنفس اللحن تماماً آنذاك :

جناق قلعة ايجنده وردولر بني .

كان عود الاب عوداً مزيناً بالكثير من الصدف والعاج والوان مختلفه من لخشب البنى الرقيق .

سألنى الاب ان كان والدي يعزف على العود ، وكان جوابى اننا لانملك عوداً في البيت! . . تعجبت جداً من ان والدي يمسك بالعود ويعزف عليه . وجدت الامر غريباً .

ان الفتاة كانت (مديحة صالح زكى) ، وقد ارسلها ابوها الى باريس لتدرس (طب الاسنان) وعادت ، الفتاة الاولى في طب الاسنان في العراق في الثلاثينات .

في احد الايام وكان الوقت صيفاً . رأيتهم في البيت يخرجون الارائك والكراسى من غرفة الضيوف وفرشوا الغرفة بمراتب على الارض وتحتها سجاد وابسطة ، وشاهدت نساء يجلسن للبكاء مع أمي وخالتي . وكنا نذهب مع (احمد) اخى ويونس بعيداً عن الدار نتمشى في (البرية) لكي لانرى ما يحدث في البيت . لم يخبرنى احد ما حدث . والدتي لاترغب ان يحزن الاطفال في هذا العمر ، ولكنني اصررت على (بدور) ان تخبرنى . قالت بدور ان (دايي) وهو

شقيق والدتي قد توفى في بلدة (كفرى) حيث انه كان القائمقام فيها . وقد كان خالى يتمشى في اصيل احد الايام ، والخادم وراءه على مسافة ، واذا به يرى شخصاً هارباً تفتش عنه الشرطة ، وكان الشخص من اشقياء الاكراد . ركض خالى وطلب من المتهم الوقوف ، واذا المجرم الهارب وكان مسلحاً ، يشهر مسدسه ويصوبه الى خالى الذي سقط على الارض جريحاً ، وهرب القاتل الى الجبال . لم افهم كلمة (مسلح) وسألت (بدور) عن معناها واخبرتنى انه يحمل مسدس . ركض الخادم ونادى الناس . نقلوا خالى الجريح الى داره وهناك توفي بعد ساعة .

تذكرت (دايي) الانيق الرشيق ، لحيته الصغيره ، عويناته الذهبية ، ساعته اللماعة وضحكاته المرحة . توفى في نفس قضاء (كفرى) حيث ماتت في بيته اخته الشابة (آبلا رمزية) قبل زمن قصير! . . .والآن دفن قربها في نفس المقبرة .! . . .

(ورجعت زوجته الى كركوك ومعها الصبى (احسان) ، ابن اخ زوجها الذى توفى منذ سنوات والذي كان يسكن مع عمه) .

سمعت ان (ساطع بك) في الموصل وسوف يزور المدرسة . اهتم والدي للامر كثيراً وكذلك المديرة ، ولم ادرِ لماذا . معظم الاشياء تبدو كالالغاز تحصل فجأة دون ان ندرى . بدأت اتخيل شكل (ساطع بك) . تصورته طويل القامة مهيباً شامخاً . دخل المدرسة ومعه والدي ، وكان يمشي بين والدي والمديرة والمعاونة . وجدته اقصر من والدي بكثير ، واقصر من المديرة ، ومنظره غريب ، يلبس على رأسه خوذة تشبه خوذة العسكر ولكن ملابسه كانت مدنية . تجول في المدرسة ، ودخل صفنا لدقائق قليلة وتكلم مع والدي ومع المديرة باللغة التركية وبصوت ضعيف ، ثم غادروا صفنا وذهبوا الى غرفة المديرة .

هذا هو ساطع الحصرى مؤلف (القراءة الخلدونية) التى نقرأها كل يوم! . . وقد تعلمنا القراءة السريعة بواسطتها . قيل انه سماها على اسم ابنه (خلدون) .

في البيت سألت والدي ماذا يعمل (ساطع بك) ، ولاادرى بماذا اجاب ، ولكنني احسست بأنه يكن له المديح والاعجاب! . .

حفلة في المدرسة

المدرسة مزينة بالاعلام والبيارق الكبيرة والصغيرة ، والوان براقة معلقة على خيوط في كل مكان . البنات الكبار في حماسة وحركة ، وكراسي مصفوفة حول باحة المدرسة ، وانا انتظر أمي ان تأتي الى المدرسة هذا اليوم . انها حفلة كبرى! . .

اجلسونا نحن الاطفال بناحية معينة ، والكبار بناحية اخرى . المعلمات يرتدين اجمل ملابسهن مع الحلي ، ولم الاحظ على المديرة او اختها تغيير في قيافتهم البسيطة . بدأت وفود من النساء المدعوات بالوصول ورأيت أمي تجلس في منتصف الصف الاول ، وكان شعرها الاشقر مرفوعاً عالياً ويبدو جميلاً .

بدأت الطالبات الكبار بالمشى مشية عسكرية وهن ينشدن اناشيدعن الموصل ، والوطن والعراق مثل نشيد :

لي في الحدباء ، مهوى املي

وكان الهتاف والتصفيق للمعلمات والتلميذات . وكنا نشترك في التصفيق والابتهاج والفرحة دون ان نعرف السبب ، ثم غنت المدرسة كلها نشيد عن الوصل :

لست ياموصل الاَّ — دار عــز وكــرامهْ
انت فردوس العراق — حبذا فيك الاقامهْ
انتِ بدر ،هو شمس — انت تاج ، هو هامهْ

لم اكن ادرى بأن الموصل بكاملها ، وخاصة تلاميذ المدارس ، مأخوذة بمظاهرات واغانى واناشيد حول الموصل . لم ار سوى حفلة المدرسة وظننتها حفلة مدرسية ، ولكنها لم تكن حفلة اعتيادية كما سنرى .

كنت أحياناً اقف على الرابية الصغيرة حيث يقع بيتنا ، وانظر الى اسفل لارى الشارع امامنا ، حيث كانت تمر منه العربات على شكليها ، واحدة للركوب سوداء اللون ويجرها حصانان ، والثانية للحمل ، وهي من خشب مفتوحة ويسحبها حيوان واحد كبير ، بغل في اكثر الاحيان ويسمونها (برجقة) ، اما السيارات واللوريات فلم تكن كثيرة . وكان بعض الناس يأتون على ظهور الخيل او الحمير ، ولم بكن المرور مزدحماً ابداً ، وكنا نعبر الشارع بامان دائماً .

وقفت بجانبي فتاة اعرفها ، وكانت اكبر مني ببضع سنوات واخذت تنظر الى الشارع وقد رأينا اشياء غريبة . شاهدنا كوكبة من الفرسان تسرع في الشارع ، وكان عدد الفرسان اكثر من عشرين خيالاً ، يلبسون ملابس عسكرية بلون نيلي غامق وعلى رؤوسهم (قلبق) من فرو اسود وينظرون اماهم بصمت تام ويرفعون رؤوسهم بمنتهى الزهو والكبرياء والشموخ! . . رأيتهم يشاهدون الناس وكأنهم يملكون المكان! . وقد خفت منهم قليلاً! . .

ساد الصمت على جميع الناس في الشارع كما لو كان الشارع خالياً .

بعد ان ابتعدوا عنا قالت الفتاة لي :

ـ (انهم العصمنلي!) .

لم افهم كلامها! . .اعلم بأن العصمللى في (استانبول) ، واننى لم ارهم في حياتى! . .

لم افهم لم اتوا الينا! . .

سألت أمي عن (العصمللي) ، فلم تجب على سؤالى كما اريد ، او اجابت ولم افهم جوابها قالت ان ابن خالها (ناظم بك النفطجي) هو الآن في الموصل ولم يتصل لزيارة بيتنا واشياء اخرى لم افهمها .

عرفت بعد سنوات ان (ناظم النفطجي) كان عضواً في الهيئة التركية التى تطالب بالموصل ، وهو من مدينة كركوك التابعة للموصل في زمن الدولة العثمانية ، وهو يطالب ان ينضم (لواء الموصل) القديم الى الجمهورية التركية الجديدة . وقد سمع (ناظم) بأن والدي وضع جهده مع المدارس كلها ، اذ كانت المدارس تهتف وتنادى بانتمائها الى المملكة العراقية والملك فيصل ، لذلك لم يقابل والدي ، ولم يسلم على والدتى ، واستمر هذا الانقطاع لسنوات طويلة! . . .

تحول عمل والدي الى بغداد وصار علينا السفر اليها .

كانت ايام تحضير وهرج ومرج لعدة ايام ، سيدات يأتين الى بيتنا ويسلّمن على الوالدة ويمسحن دموعهن ، وهى تبكى معهم . لقد اعتادت على جو الموصل واهلها . (فريدة) الطباخة اصرت على المجئ معنا الى بغداد لانها تعودت علينا .

غادرنا الموصل الوالدان واطفال ثلاثة واخى الكبير (احمد) ومعناعائشة وبدور وفريدة . وكان (يونس) يبكى واتى معنا الى المحطة في شرقاط .

في السيارة الى شرقاط ، ركبنا انا ولمعان مع والدي في القسم الخلفي من السيارة وجلس احمد الى الامام ، وامى وخلوق والبنات وفريدة في سيارة اخرى ، وسيارات فيها اصدقاء الوالد . الطريق لم يكن معبداً بين الموصل وشرقاط ، وكانت فيه حفراً وارتفاعات وانخفاضات كثيرة . وأحياناً كانت تقفز بنا السيارة فنرتفع في الهواء انا ولمعان ونصل برؤسنا قرب الغطاء الاعلى (التنتة) ثم نهبط على المقعد وذلك يدعونا الى الضحك العالى في كل رمية ترمينا بها السيارة ، وكان والدي يضحك معنا بصوت عالٍ مسروراً لضحكنا ومرحنا ، ولم يكن يلذ له شيء اكثر من مرح اطفاله .

في شرقاط نزلنا من السيارات وركبنا القطار . احمد اشار بيده الى جبال بعيدة وقال : (جبال حمرين!) . لم تكن عالية جداً ولكنها كانت مترامية تسير نحو الافق . احببت منظر تلك الجبال رغم انها خالية من الاشجار او المياه ، بدت وكأنها تغيير كبير في سطح الارض وانا لم اشاهد الا الأراضي المسطحة والبوادي! لم اعلم في ذلك الوقت بأنني لن اشاهد هذه الجبال او غيرها الا بعد ستة سنوات! . .

دخلنا القطار ، واذا بخلوق الصغير وعمره سنتان الآن ، واصبح يمشي ويركض وله شعر اشقر ذهبي وعيون سوداء كبيرة ، وهو نشط ، كثير الحركة لا يخاف من شيء رأيته يكف عن الحركة وينام في حضن أمي رأساً حينما تحرك القطار!

وقد احسست بحركة القطار الرتيبة الناعمة وكأننا نتزحلق فوق سكة الحديد كما حدث في اول مرة قبل عامين ، وقد سرني هذا الشعور مرة اخرى .

استيقظنا صباحاً ورأيت البيوت والنخيل تسير بالجهة المعاكسة ،

واذا باحمد يهتف عدة مرات بفرح :

(مرحباً بغداد! . .) . كان عمره اثنتي عشرة سنة ويذكر بغداد جيداً . اما انا فلم اتذكر من بغداد أي شيء! . . والصور القديمة التى ذكرتها كانت خيالاً لا رابطة فيها! . .لقد نسيت الجميع! . . نسيت بيت خالتي و(دايي) واختى الكبرى (بتول) .

ركبنا العربات ووصلنا البيت في شارع الفضل . . وكنت في السادسة من العمر .

لا ادري ماذا جرى سوى ان أمي أخذتني ولمعان وذهبنا الى بيت خالتي القريب لكي نسلم عليهم . البيت بغدادى لطيف ذو طابقين وفى وسط الدار حديقة (بقجة) واشجار وفى وسطها شجرة سدر (نبق) عالية وفيها ارجوحة من حبل متين . وهنالك خالتي وسيدة معها هي ابنتها الكبرى (سنية) ، اخذونا في احضانهم واشبعونا تقبيلاً . . .سنية اصغر من أمي (خالتها) بسنتين فقط . وكانت سنية بيضاء البشرة ذات شعر اسود منبسط وعيون خضراء واسعة وانف صغير . وسمعت أمي تناديها بلهجة حب وتدليل لم اسمعها ابداً تبديها لشخص كبير ، بأسم (سناوى) وكأن سناوى كانت طفلة كبيرة مدللة! . . اظهروا تعجباً من نمونا خلال سنتين وضحكوا على لهجتنا المصلاوية . واصرت خالتي و(سناوى) ان نبقى حتى ترجع الابنه الصغرى (امينة) من المدرسة لكي تفاجئها وترى كيف سيكون لقائها معنا . لم اذكر أي شى عن (امينة) مطلقاً . بقيت انتظرها لكي اراها . لم ادر اهى كبيرة ام صغيرة اتمكن ان العب معها!

دخلت امينة من الباب واندفعت نحو امها واختها ثم وقفت فجأة تنظر الينا! فتاة في سن الثانية عشر ترتدى صدرية المدرسة السوداء ، لون وجهها ابيض ومتورد رغم وجود ندبات على خديها من تأثير (اخت بغداد) وهي ذات شعر اشقر قصير وله تجعدات خفيفة ، وكان شعرى اسوداً املساً ، لاح لي شعرها الاشقر

وكأنه تاج على رأسها . ذهبت امينة الى أمي لتقبلها ثم هجمت علينا تقبلنا وتحتضننا بكل محبة وشوق وظلت تقبلنا لمدة دقائق! . وبدأنا باحتضانها وتقبيلها ايضاً ، وارتفعت اصوات الكبار بالضحك المرح . وكانت أمي تسمي امينة ، (امون) .

تعلقت بأمينة (امون) منذ ذلك اليوم واصبحت اراها اجمل فتاة في العالم! . . .

اتى الى البيت اولاد خالتي الاثنين ، (حسين الرحال) وهو يكبر أمي بثلاثة اشهر ، أي ان عمره حوالى اربعة وعشرين سنة واخوه الاصغر (محمد الرحال) كان شاباً يبلغ الثامنة عشر من عمره ، وقد اظهروا الكثير من المحبة والسرور للقائنا! . .

امي ، وقد اتت لتوها من الموصل ذات العادات المتعصبة سألت خالتي بتعجب لماذا لاترتدى امينة العباءة في الطريق . قالت خالتي بأن لها عباءة ولكنها لاترتديها . نصحت والدتى امينة ان تلبس العباءة لئلا يتكلم ضدها الناس! .

وقد كان سن الثانية عشر سن لباس العباءة بصورة اكيدة من دون (البوشى) ، أي غطاء الوجه .

اما زوج خالتي ، الميرآلاى المتقاعد (على صائب بك الرحال) ، فقد كان نائماً في السرداب ، ويشكو من فالج نصفى ويمشي بصعوبة مع استعمال العصا ، ولايخرج من البيت . ولا اظنه كان يدرى ان ابنته تذهب الى المدرسة بدون العباءة ، واما اخوها (حسين) وكان عائداً من المانيا قبل فترة قصيرة ، واصبح ضد كل العقائد والتقاليد الشرقية . هذه اشياء لم اكن ادرى بها الا بعد سنوات طويلة .

في صباح اليوم التالى وقفت في الباب واجلت نظرى في الشارع . انه يختلف عن شارعنا في الموصل . في الموصل كان المكان عريضاً ينحدر الى اسفل لكي يصل الشارع ، والجهة الثانية من الشارع فيها بيوت قليلة متباعدة ووراءها الفضاء الواسع الذى يمتد حتى الافق كنا نسميه (البرِّية) . لم اشاهد هذا العدد من البيوت التراصة ولا هذا العدد من الحوانيت قرب بيتنا في الموصل والشارع هنا

تمر منه السيارات والعربات وعربات الخشب الكبيرة (البرجقة) والحيوانات مثل الخيل والحمير وأحياناً البقر .

رأيت اصحاب الحوانيت يعرفون اسمي وقد اصابنى التعجب والارتياح لان الناس تعرفنى وترحب بقدومي منهم (عطار) له دكان جميل به زجاجات كبيرة ونظيفة موضوعة في دواليب على جدران الحانوت تحوي انواع الحلويات للاطفال وكان يلبس على رأسه العمامة الخاصة واسمها (الجراوية) قال انه (عمو عباس) وجنبه شاب يرتدى (دشداشة) عارى الرأس يحمل بيده مكوى وقال انه (جاسم الاوتجى) أي المكوي ، وعلى اليمين عرفنى الحلاق (عمو توفيق) وهوكبير السن ويرتدي كشيدة ، وقرب الحلاق قهوة كبيرة جداً اسمها (قهوة حاجى عزيز) (وهذه ليست قهوة عزاوى المشهورة في اغنية القبانجى)! . .

لم اتذكر أي شخص فيهم! . .كانوا غرباء عن ذاكرتى تماماً ، ولكنني مسرورة لوجودهم وترحيبهم بي! . . لقد تذكرني جميعهم .

وبينما انا مأخوذة ومندهشة من تبدل المناظر حولي . . رأيت عباءة حريرية سوداء تضمنى من الوراء وذراعين تحتضنانى . انها امينة (امون) جائت لترانا في الصباح لان اليوم كان (جمعة) وقد لبست عباءة سوداء كما طلبت منها أمي بالامس ، ولم تلبس البوشى لانها كانت صغيرة .

كان الدخول الى البيت من الشارع (شارع الفضل) من خلال دهليز طويل مسقف يحوي على ثلاثة بيوت ، الاول يعود الى ابنة خالة والدي (خالة معروفة) وهى اخت زوجة ابى الاولى التى توفيت في ايام الهدنة ، ونركت له بنتاً (فاطمة بتول) وصبياً (احمد مختار) . والبيت الثانى يعود الى اختها الزوجة المرحومة الاولى لوالدي ، والثالث يعود لوالدي ونحن نسكن به الآن .

كان زوج (الخالة معروفة) هو العقيد المتقاعد (حامد المدفعى) بوجهه المتكبر المغرور وشاربه المرتفع الى اعلى وله ثلاثة اولاد كبار وثلاث بنات اصغر من الاولاد . الابن الاصغر كان في (الثانوية المركزية) ، اسمه (عبد الرزاق حامد المدفعى) وكان رياضياً معروفاً في المدرسة . وقد اعطاه الملك فيصل الاول عدة جوائزا . .

ابنته الكبرى (سعدية) تزوجت وبعد سنوات عديدة دخلت ابنتها الى فرع ـ فتح ـ في فلسطين وقتلت هناك في بداية السبعينيات! . .

المدرسة (المركزية) كانت احسن مدرسة للبنات في بغداد . ولكن المدرسة (البارودية) كانت في شارع (الفضل) وعلى مقربة من دارنا ويمكن الوصول اليها خلال دقائق قليلة ، وهى امام بيت خالتي تماماً . تقرر الذهاب الى المدرسة (البارودية) للتسجيل .

ذهبت مع أمي بعد ظهر يوم . دخلنا من باب كبير مفتوحة ، واجتزنا ممراً طويلاً جداره الايمن مبنى من الطابوق والايسر مغطى بحصران ثخينة مثبتة على عمد خشبية عالية ويغطى الحصران نبات متسلق كثيف بحيث يفصله عن البيت الملاصق له حيث يسكن اصحاب المدرسة والبيت . صاحب البيت هو (توفيق بابان) وامى على علاقة قديمة مع اخواته الثلاثة .

دخلنا الى فناء واسع (حوش) فيه طابقان وسطح ، ومطبخ كبير . والغرف مبنية حول الاركان الاربعة للبيت . صعدنا الى الطابق الاعلى ، حيث استقبلتنا المديرة (الست هلن غالى) ومعها اثنتان من المعلمات . المديرة اصلها من مدينة (ماردين) والمعلمات من بغداد في سن الشباب وعلى درجة عالية من الاناقة بملابس قصيرة وشعر قصير . قدمت المديرة الشاي والكعك لوالدتى ولى وللمعلمات . رحبت المديرة بقدومى وقالت بأنني سوف اداوم في (الصف التمهيدى) طبعاً ، لان الصف الاول هو لمن وصل سن السابعة من العمر . احتجت والدتى على ذلك ، وقالت اننى اقرأ (القراءة الخلدونية) واتمكن من الكتابة ، واعرف الارقام . تعجبت المديرة وقالت يجب ان نختبرها .

اتوا بالقراءة (الخلدونية) وبلوحة ذات سبورة سوداء صغيرة . قرأت القراءة بسهولة ، ثم طلبن مني ان اكتب كلمات على السبورة ، كتبتها بصورة صحيحة ، ثم كتابة ارقام حسابية عرفتها كلها . اظهرت المديرة والمعلمات اعجابهن ، واتفقن مع أمي بأن الدراسة في الصف التمهيدى هي مضيعة للوقت ، وانني ساداوم في

الصف الاول منذ الغد! وهكذا حصلت على سنة واحدة وكنت اصغر تلميذة في صفي الى الاخير .

كنت احب المدرسة جداً منذ الايام الاولى في الموصل ، لذلك دخلت المدرسة في بغداد بشوق كبير كالطائر يطير الى عشه! . . .

بدأت الدوام في اليوم التالى ، واختى (لمعان) ترافقنى وتجلس معى في الصف ومعى في فترة الفرصة . وكانت لمعان طفلة هادئة جداً ، لا تنطق بشى اثناء الدرس وأحياناً تنام وهى جالسة معى على الصف . وقد كانت مملوءة الخدين ذات شعر اشقر وعيون زرقاء . وبسبب ذلك اطلقت أمي عليها اسم (ماوى) وهى كلمة تركية تعنى (ازرق) أي (ذات العيون الزرقاء) وكنا نسميها ماوى في البيت ، و(لمعان) في المدرسة .

وافقت المعلمات لوجود لمعان معى في الصف بسبب هدوئها ، ولكن بعد فترة قصيرة اعترضت معلمة الدين والقراءة ، (الست زكية) ، وهى المعلمة الوحيدة التى ترتدى الملابس من الطراز القديم ، وكانت سيدة سوداء اللون محترمة جداً بين المعلمات والطالبات ، وهى تلبس (القفطان) واسمه في بغداد (صاية) ، وتضع عصابة حريرية سوداء على رأسها اسمها (البويمة) و(الجتاية) من القطن الاسود لكي تغطى جانبى الوجه . وكانت الوحيدة التى تدخن السيكارة في وقت الفرص .

نظرت الى (الست زكية) ثم قالت بلهجة آمرة ، ان آخذ اختى الى الصف التمهيدى الآن ، ومنعتني من جلبها الى الصف الاول بعد ذلك .

اطعتها رأساً دون كلام ، وامسكت بيد لمعان وخرجنا الى الدرج ، لان الصف التمهيدى في الطابق الاسفل ، وعلى الدرج اخبرت لمعان ان الصف التمهيدى اجمل واحسن من الصف الاول ، واننى اذهب اليها في الفرصة لكي نلعب معاً دائماً! . .

دخلت لمعان الصف الجديد واندمجت مع البنات وصارت تلعب واياهم في الفرصة دون ان اذهب اليها . وكان عمرها اربع سنوات . وقد قضت سنتين في الصف التمهيدى قبل ان يسمحوا لها بالذهاب للصف للاول .

ان لمعان الصغيرة ، ذات الأربع سنوات ، تعلمت القراءة في الصف التمهيدى بسرعة .

في احد الايام في صفنا الاول ، سألت الست زكية احدى البنات (الكبيرات) في السن ، وكانت البنت في حوالى الحادية عشرة من العمر ان تكتب بعض الكلمات على السبورة ، ولم تتمكن الطالبة من الكتابة . رفعت يدي اطلب ان اكتب الكلمة انا ، نظرت الي الست زكية وقالت :

- لالن تكتبى انت! . .اذهبي الى الصف التمهيدى ونادى اختك الصغيرة .

نزلت الدرج بسرعة وطلبت من معلمة لمعان ان تسمح لها بالذهاب الى صفنا لفترة قصيرة ، اذنت المعلمة واصطحبت لمعان الى صفنا ، وكانت الطالبة المذكورة لاتزال واقفة امام السبورة . طلبت الست زكية من لمعان ان تكتب نفس الكلمة التى استعصت على الطالبة الكبيرة . اخذت لمعان الطباشير وكتبت الكلمة بصورة صحيحة . طلبت منها المعلمة ان تكتب كلمات من القراءة الخلدونية ، وقد كتبت الجميع بصورة صحيحة . مدحت المعلمة لمعان ، ثم نزلت معها الى صفها ، وعندما رجعت الى صفى وجدت البنت الكبيرة في الصف تبكي! .

بعد انتهاء الصف وخروج البنات الى الفرصة ، اوقفتنى الست زكية ، وقالت :

- قولى لوالدتك ان تلد بنات شاطرات مثلكن! . . (وكانت تعرف أمي شخصياً) . اجبتها بفخر واهتمام :

- أن أمي ولدت قبل ايام قليلة بنتاً اخرى! . .

اخذت الست زكية تردد كلمة (ماشالله! . . . ماشالله! . .) عدة مرات .

وقد حدثت الولادة قبل ايام قليلة في احد الامسيات في بيتنا ، أخذتني خالتي الى غرفة هي ليست غرفة نوم الوالدين ، ورأيت أمي مضطجعة على فراش وبقربها طفل صغير ملفوف بقماش ابيض ، وحولها خمسة او ستة من نساء العائلة يضحكن ويشربن الشاي ، وقلن لي :

- انها اخت جديدة لك! . . وكنا نريد ولداً آخر وليس ابنة اخرى! . .

صاروا البنات سبحة! ثلاث بنات وولد واحد! . .

اضافت اخرى (الاب اصبح له اربع بنات وولدان!) والكل يضحكن ويهزرن ، قالت اخرى :

- الطفلة حلوة ! . . لحسن الحظ!

لم افهم معظم هذا الكلام . لم اعرف ما هو الحمل ، ولم ادر بأن أمي حامل وانها تنتظر وليداً قادماً!

هذه المواضيع ليست للاطفال وانا في السادسة من العمر! . .

وقفت مسرورة وحائرة قرب الطفلة! . . لم افهم كلامهن ولا ما ذا يقلن ولكنني احسست عن الفرق بين ولادة الولد والبنت للمرة الاولى بين هؤلاء الاقارب ، وشعرت بحب كبير تجاه الوليدة الجديدة وبنفور عظيم من كلام الاقارب . ولهذا السبب ، كنت شديدة الفخر امام الست زكية وانا اخبرها بأن أمي ولدت بنتاً! . . .

ويجب ان اضيف بأنني لم اسمع كلمة واحدة حول هذا الموضوع من قبل ابي او أمي طيلة حياتى معهما ، وهو شى غريب في عالمنا العربى الشرقى ، بل وفى العالم كله ، لان الولد هو المفضل في جميع الاقطار ! . .

نعود الى ايام المدرسة البارودية . في المدرسة كنا نرتدى صدرية سوداء باكمام طويلة مع ياقة بيضاء مستديرة ولها اثنان من الجيوب وحزام يربط من الخلف . وكان للبنات الحق في قص الشعر ، او ارساله طويلاً على شكل ظفيرتين . وهنا اذكر بأنني واخواتى كان شعرنا قصيراً منذ البداية والى الآن . وكانت المعلمات العراقيات على درجة كبيرة من الاناقة الاوربية بملابس قصيرة جداً ، حسب مودة ذلك الزمن ، وشعر قصير جداً وتسمى هذه القصة (الاكارصون) أي القصة الغلامية (على غرار صبي) باللغة الفرنسية ، مع ميل لتقليد اللهجة السورية لان معلماتهم في دار المعلمات كانوا من سوريا . وفى الطريق يرتدين العباءة السوداء والبوشى (نقاب الوجه الاسود) . اما المعلمات المسيحيات واليهوديات فكن يسرن سافرات في الشارع مع ارتداء برنيطة فوق الرأس .

انتشرت بين الناس اغنية (لمحمد القبنجى) تشير الى قص الشعر كعادة مستهجنة :

يابنية بنت البيت قصت شعرها!

وكنا نحن الاطفال نكره هذا الغناء ونحتقره! . .

في كل صباح في الاصطفاف قبل الدخول الى الصف ،نغنى نشيداً وأحداً لاازال اذكر منه أبياتاً وهى :

نزرع صباحاً كلمة الالطاف ظهراً ومساء ليلاً ونهار

والنشيد تلحينه على احدى التراتيل المسيحية الغربية المشهورة ، ولا ازال اسمعها في موسم عيد الميلاد (كرسمس) في كل عام ، على لحن (كود كينك وينسيسلاس) .

وبعد الظهر ، قبل الذهاب للبيت ، تصطف الصفوف كلها وتنشد نشيداً وأحداً للمساء ، وله ترتيل مسيحي جميل :

ربنا امنحنا مساء نعمة قبل المنام وامنح القلب سلاماً وازل عنه الظلام

لم يكن في هذه الاناشيد شيء ديني معين ، ولكنها كانت تراتيل جميلة ولم يعترض عليها احد .

وكانت بعض الاناشيد معربة عن اناشيد تركية امثال :

(ان أمي لم تلدنى لسوى الحرب العوان) ونشيد (وطنى والحق سينجده) و(نفسى الى العليا تطوى مداها) ، وهى اناشيد تعلمها والدي في المدرسة وبعده والدتى . ولم نكن نفهم المعانى لهذه الكلمات لكننا نحفظها ونحبها .

كانت زوجة (ساطع الحصرى) السيدة (ام خلدون) تلحن اناشيد اجنبية بعد ان يكتبها الشعراء باللغة العربية خاصة نشيد العلم ، (يا علم الامة انا معك ، انا معك) واناشيد للاطفال مثل (ام عميش) ونشيد (الصياد الجسور) وغيرها .

وادخلت المعلمات السوريات اناشيد خاصة للبنات ، وهذه الاناشيد تلح على تعليم الفتاة مثل :

سيرى الى اوج العلى ولا تخشي وبالاً يابنة العرب

ونشيد آخر :

بنى العراق استفيقوا حسبكم ذاك السبات
عبثاً نيل المعالى دون تهذيب الفتاة

واناشيد عديدة عن الملك فيصل الاول منها :

انت يا دار السلام ، فاخرى كل الانام
بالهمام ابن الهمام ، فيصل نجل النبي

وفى الصف الرابع الابتدائى وصلنا النشيد الجديد :

بلاد العرب اوطاني من شام لبغـدان
ومن نجد الى يمـــن الى مصر فتطوان

اما في درس (المحفوظات) فقد كنت احفظ الشعر بسهولة ، ولكننا تعلمنا هذه القصيدة (لامرء القيس) وانا في الصف الثاني وفى السابعة من العمر :

وليل كموج البحر ارخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلى

ولا ادرى ان كنا فهمنا منه شيئاً ، بل لاادرى ان كانت المعلمة نفسها فهمته .

وشعر آخر في نفس هذه السنة ، عن شاب على فراش الموت وهو يودع امه وحياته كلها! وقد احتجت والدتي على هذا الشعر بلطف ، من المعلمة وكانت تعرفها شخصياً ، فقالت المعلمة ان القصيدة تعلمتها في (دار المعلمات) من معلمتها السورية!

قالت والدتي :

- لاتهتمي بالمعلمة! . . ولا تجعلوا الاطفال يحزنون! . .

اما الاشعار الاخرى عن (حب الوطن) وعن (الفلاح) و(حب الام) فكانت مفهومة .

وكنا نتدرب على الرياضة البدنية داخل الفناء (الحوش) ، منها جر الحبل ، والنط على الحبل ، ولعبة الصياد ، والعاب سويدية وبعض التمثيليات الغنائية . ولم نكن ندرى ان المديرة السابقة قبلنا بسنوات قليلة وهي (السيدة معزز) جعلت البنات يقمن بالرياضة البدنية على سطح المدرسة ، وكيف اعترض عليهم ذلك السيد (فهمى المدرس) من بيته القريب وكيف ارضوه بمنع الرياضة البدنية للبنات على السطح!

في الصف الاول بدأنا بالقراءة والمحفوظات وحفظ السور من (جزء عم) والحساب والنشيد والرياضة البدنية . كنت احب الدروس كلها واحفظها بعض

الدروس بسرعة في وقت الدرس مع المعلمة ، واعيد ذلك على ابي وامي في البيت ، وكان والدي يفخر بذلك . في الامتحان النهائيكنت الاولى في الصف ، وقد فرح والدي بالنتيجة ، ولكنه لم يكافئنى بأية جائزة! . . ولم انس ذلك له لسنوات عديدة! . . .

في الصف الثاني في درس الجغرافيا كنت على معرفة جيدة في الخرائط البسيطة ، لان مكتبة والدي كانت تحوى الكتب والكثير من الخرائط على الجدران وفى الاطالس المصرية والتركية القديمة . كنت ارى خارطة العراق الادارية وافهم ما تعنيه كلمة المتصرفيات الاربع عشرة . وتعلمت اسماء بحيرات خارج العراق مثل بحيرة (وان) و(اورميا) ، والبحر الابيض المتوسط وبحر (قزوين) والبحر الاسود . وهذه معلومات فوق مستوى الطالبات آنذاك .

وعندما بدأت المعلمة تدريسنا بعض الفصول العملية في منطقة فارغة نسميها (الخرابة) ، وهى بقسم المطبخ من البيت ، جلبوا لنا بعض الرمل النظيف والماء ، وكانت المعلمة تطلب من البنات ان نبنى (جزيرة) ، ارض محاطة بالماء ، او (بحيرة) ، او (مضيق) بين بحرين ، او (برزخ) ضيق بين ارضين يفصلهما الماء . كنت اجيد العمل بسرعة وبصورة صحيحة ، لأنني كنت اراها في البيت في خرائط مكتبة والدي .

وكنت اميل الى النظر الى الخرائط المختلفة ، واتخيل نفسى في اماكن بعيدة ، مثل الصين او افريقيا ، او امريكا ، ولكن القارة التى كانت تجذبنى اليها كانت القارة الاوربية لاسباب ما كنت اعرفها تماماً .

واثناء الصف الرابع ، وانا في التاسعة من العمر ، زارنا مفتش من وزارة المعارف ، وكان اسم المفتش (نورى ثابت) ، وهو الذى اصبح صحفياً فيما بعد وسمى جريدته (حبزبوز) واصبحت احسن جريدة كاريكاتورية في العراق . كنا في درس الجغرافيا ، وكانت التى تقوم بالتدريس مديرة المدرسة (الست شمة جورج) . دخل المفتش ومعه شخص آخر وبدأ بسأل بعض الاسئلة ، ثم سأل ان كان لدينا مدينة على بحر في العراق . رفعت يدى وقلت (الفاو) في لواء البصرة ، واذا به يسأل اذا كنا نعرف بلداً ليس على البحر . كنت اعرف بلداً وأحداً ليس

لديه بحر ، رفعت يدى ووقفت وقلت (سويسرة) دون ان انظر الى الاطلس . وقد نال ذلك رضى المفتش ، ثم سأل عن بلد آخر لا بحر له . لم ترفع يدها اية واحدة منا .

قال المفتش افتحوا الاطلس وفتشوا .

فتحت الاطلس على القارة الاوربية ، ورفعت يدى ، وكنت الوحيدة وقلت (النمسا) فقال المفتش :

- هذا صحيح ، ولكن نفس البنت تجيبني دائماً! . .

نظرت الى الاطلس مرة اخرى وقلت :

- تشكيسلوفاكيا ! . .

ضحك المفتش وقال (قولى جيكوسلوفاكيا!)

سأل المديرة عن اسمى ، ولما سمعه ابتسم وقال :

- مثل ابوها ، تعرف جغرافيا!

وكنت دائماً اقص على ابى وامى ما يحدث في المدرسة .

اما موضوع الحساب ، فقد كان درساً لطيفاً في السنوات الاولى ، ولم اجد أي صعوبة في الاعمال الاربعة الى ان وصلنا درس الكسور في الصف الرابع . لم افهم كيف يكون الربع اصغر من الثلث مع ان الاربعة اكبر من الثلاثة؟ سألت والدتى فاجابت مثل المعلمة دون ان تشرح السبب . لذلك سألت أمي جارنا المجاور لنا وهو (عمو ابو نزهت او السيد سعيد الآغا) ان يشرح لي الموضوع ، اجلسنى على كرسي امامه ، وبواسطة اعواد الشخاط فسر لي كيف ان النصف هو اكبر من الثلث وكسر العود الى نصفين ، ثم كسر عود آخر الى ثلاث اقسام ،ثم عود آخر اليااربعة اقسام ، وقد فهمت الموضوع خلال دقائق قليلة! . . .

ولكن موضوع الحساب كان الموضوع الوحيد الذى جابهته بصعوبة الى آخر سنوات المتوسطة .

اما الموضوع الذى احببته واستولى على منذ البداية ، كان موضوع التاريخ .

بدأنا بصورة غير منتظمة من الصف الثانى بدراسة اول شخص وهو (حمورابى) وانه ملك (بابل) قرب مدينة (الحلة) ، لم نفهم سوى ان الآثار القديمة

موجودة في المتحف ولم نكن تدرى ما هي . ولكن شخصية (حمورابى) اعجبتنى جداً . ثم انتقلنا الى (بختنصر) في الدرس التالى ، وبعده (الاسكندر الكبير) ، ثم (محمد على باشا) في مصر ، وكل ذلك في كتاب صغير للتاريخ .

كنا نتعلم في درس الدين عن الرسول محمد (صلعم) وتاريخه وعائلته كلها . وقد علمنى والدي ارجوزة حول اجداد النبي الى (عدنان) الجد الاكبر للعائلة النبوية تبدأ :

محمد نبينا اذ ينتسب وهو بن عبدالله عبد المطلب

هاشم عبدمناف وقصي كلاب مرة كعب ابن لؤى

ولما نصل الى الجد الاكبر ، عدنان ،تنتهى القصيدة الى الشطر الاخيروهو :

الى هنا متفق عليه واختلفوا من آدم اليه!

وكنت اعرف تفاصيل قليلة عن (موقعة بدر) و(موقعة احد) والهجرة ، والذهاب للمدينة وفتح مكة ، وجد الرسول ، وعمه ابي طالب وامه (آمنة بنت وهب) و(حليمة السعدية) واوائل الاسلام الثلاثة (خديجة الكبرى) اول النساء ، و(ابو بكر الصديق) اول الرجال ، و(على بن ابى طالب) اول الفتيان من والدتي .

في سن الثامنة تعلمت ما تعنى (السنة) ، وانها كانت سنة ١٩٢٨ وتزيد كل سنة عاماً وأحداً ، ووجدت ذلك شيئاً جديداً مهماً واخذت اتكلم عن السنوات ما قبلها باعتبارها سنوات غابرة قديمة!

وفى هذه السن قرأت كتاباً جديداً لادخل له بالمدرسة ، وكان هذا الكتاب اول كتاب مطالعة في حياتي . قرأته لانه سحرنى ، وعرفت بأن الكتاب هو موضع سرور ولذة ما لايجاريه شيء! . . وهكذا اصبح الكتاب الذ سمير لدى الى النهاية .

كان الكتاب في مكتبة والدي ، وهو يضع الكتب العربية والتركية في رفوف مدرجات خاصة والكتب الاجنبية في رفوف مدرجات اخرى .

في البداية لم تكن هذه الكتب تعنى شيئاً بالنسبة لي . كانت كلها كتب الوالد! اقرأ أحياناً منها جملاً قليلة ثم اغلقها لأنني لاافهم معانيها .

كان الكتاب الذى رأيته باللغة العربية عن(الدولة العثمانية) طبع في اثناء

تولى السلطان (محمد رشاد) الخلافة ، بعد ان نفى السلطان (عبد الحميد الثانى) عن السلطة . ولم اعرف آنذاك من هو عبد الحميد او محمد رشاد او أي شي عن الدولة العثمانية . اعرف انهم (العصمنلي) وانهم كانوا في العراق ثم رحلوا ، ولم اعلم لم جائوا ولم رحلوا .

يبدو ان الكتاب كان لصغار التلاميذ قبل الحرب للاولى ولذلك تمكنت من قراءته بسهولة . في اول صفحة كان السلطان (عثمان) وهو جد هؤلاء السلاطين والخلفاء الذين حكموا العالم الاسلامي وغيره مدة خمسة قرون! لم استطع ترك الكتاب من يدي ، كان الوقت صيفاً والجميع في الطابق الاسفل ، بقيت في الطابق الاعلى بمفردي وانزويت في ركن صغير على (اريكة) كبيرة لاتنزل الى الطابق السفلى لحجمها الواسع ، وبقيت اقرأ بنهم كبير! . وعندما انزل الى الطابق الاسفل ، كنت اخبئ الكتاب داخل الاريكة لكي لايراه الاطفال ويلعبوا به! واخذت اصعد يومياً بعد الغداء الى الطابق الاعلى والاولاد في لعبهم ، واستمر في القراءه .

قرأت كيف هاجمهم (تيمورلنك) المغولى ، ثم كيفية سقوط (القسطنطنية) عاصمة دولة الروم الكبيرة ، وهى المدينة التى حاصرها الامويون ثم العباسيون ثلاث مرات ولم يتمكنوا من فتحها .

وقد وضع الاتراك اسماً جديداً للقسطنطينية وهو (استانبول) ، وكان السلطان (محمد الفاتح) هو الذى فتحها . وتعلمت كيف اصبح السلطان التركى «سليم الاول» (خليفة) الاسلام وهو ليس اول خليفة للاسلام من خارج عشيرة النبى (قريش) فقط ، بل انه لم يكن من العرب! . . .كان الاتراك من السنة الحنفية (اتباع الامام ابو حنيفة) الذى حلل الخلافة للمسلمين جميعاً ، وانها ليست موقوفة على عشيرة (قريش) فقط .

وعندما دخل السلطان (سليم) الى مصر في زمن الخلافة العباسية في مصر ، ذهب وقبل يدى الخليفة العباسى الذى قال له

- انك الآن حامى الحرمين الشريفين! .

فاجابه السلطان سليم :

- انني خادم الحرمين الشريفين! . .

وهكذا اصبح خليفة المسلمين السلطان التركي! . . .

وقد دخلت بلاد وادى الرافدين وسورية برضاها تحت حكم ولده (السلطان سليمان القانوني) وكيف تغلب هذا السلطان على بلاد البلقان الاوربية ووصل الى (فيينا) وحاصرها! وقد اصبح اقوى شخص في الشرق ! .

ولم اصدق ما اخبرتني به والدتي ان هذا الخليفة العظيم ، قتل ابنائه الكبار لكي يصبح ابنه الصغير وهو ابنه من زوجته الروسية ولياً للعهد! . . .

سألت والدي عن هذه الجريمة ، واذا به يمنعنى عن قراءة اشياء غير مطلوبة في المدرسة! . . .

في سن الثامنة من عمري ، تبدلت نظرتى الى السلاطين جميعاً لقسوتهم وطمعهم! . . .

الكتاب كان يحوى صورة لكل سلطان . وكنت اكره ملابس السلاطين واعجب كيف يتمكن السلطان من الابقاء على عمامته الكبيرة وهو يحارب العدو! . .

اعجبت بالسلطان (سليم الثانى) لانه ابدل القيافة الى الثياب الاوربية وتبديل العمامة بالطربوش! . .يبدو ان السلاطين (اصبحوا افندية) بقيافتهم الجديدة .

اثناء الصف الرابع ، كنا ندرس الدولة العباسية ، وجاء ذكر (ابو مسلم الخراساني) وكيف قتله الخليفة (المنصور) خوفاً من تعاظم نفوذه ، رغم كونه القائد العام الذى تغلب على جيوش الامويين . وكان الكتاب يمتدح عمل المنصور بقتل ابومسلم .

واذا المديرة وكانت تدرسنا التاريخ ، تقول :

- لقد كان الخراساني ضيفاً في بيت المنصورنفسه عندما قتل! . انها نقطة سوداء في اعمال المنصور! . .

سألت أمي مرة اخرى عن هذه الحادثة ، فقالت :

- المنصور قتل الخراسانى غدراً! وسوف تقرأين الكثير عن الغدر والموت في

كتب التاريخ! . ثم اخبرتنى عن (هارون الرشيد) وقصته مع (البرامكة) حيث ارضعت امهم هارون مع اولادها ، وكان ينادى اباهم (يحيى ، يا ابت) وينادى الابن (جعفر بيااخي) كما تدل قصص (الف ليلة وليلة) . بعد سنوات ، حكم على جعفر بالموت وسجن العائلة التى تفرقت ايدي سبأ ، ولم يعرف السبب الاصلي . ولاتزال الناس في العراق تكرم اسم البرامكة ، وتسمى الرجل الكريم الجواد (برمكي) الى هذا اليوم .

في سن الثامنة من العمر اخبرنى (احمد) اخى ، ان الكشافة سوف تمر من شارع (الفضل) وتتجمع في منطقة (الشيخ عمر) في يوم الخميس بعد الظهر للتمرين هناك ، وفى يوم الجمعة سوف يحضر الملك لرؤيتهم ولاعطائهم الجوائز .

وفي يوم الخميس كان شارع الفضل مزدحماً بالمشاهدين على جانبى الطريق لرؤية الكشافة . شاهدنا المدارس تسير الواحدة بعد الاخرى وكان اخى (احمد) بين كشافة المدرسة (المأمونية) وقد صفقنا له عند رؤيته وكنا امام باب بيتنا! . . .

كانت المدارس تسيربأنتظام جميل وتتقدم كل مدرسة فرقة موسيقية من الطبول والابواق والصناجات المعدنية وبرأسها طالب يحمل العلم وعليه اسم المدرسة . كانت الموسيقى جميلة ولباس الكشافة رائعاً ، بربطة العنق الملونة والصافرة المعدنية في الجيب والاحزمة الجلدية ، كل هذا بدا لي كمنظر يخلب الالباب! . .احزننى ان البنات ليس لهن كشافة وفرق موسيقية .

في اليوم التالى كان يوم الاستعراض في ساحة الشيخ عمر ذهبنا الى هناك مع الوالدة وجلسنا تحت خيمة عسكرية خاصة للسيدات والكثير من المعلمات .

قلت لصديقتى وهى تجلس جنبى :

- في السنة القادمة سوف تخرج البنات للكشافة! . . .

اجابتني :

ـ أي كشافة والبنات محجبات؟

بدأت منذ ذلك اليوم اكره الحجاب الذى يمنع البنت من ركوب الدراجة في الشارع ويمنعها من الرياضة والكشافة وسائر الالعاب .

كنت ارى ابن عمتى (سعدون) وهو في نفس عمري ، يذهب الى النهر يومياً

للسباحة ، واصبح سباحاً ماهراً ، وابن جارنا (عدنان) ابن المقدم (ايوب صبرى) يذهب مع والده ليتدرب على ركوب الخيل ولعبة (البولو) أي لعبة الكرة والصولجان ، وهو اصغر مني قليلاً .

اما والدي وهو يلعب هذه اللعبة مع عمى كل اسبوع على الخيل ، لم يطلب مني ان اذهب معه ابداً! . .

يبدو ان الناس تفضل الاولاد على البنات في الاشياء الجميلة والحسنة! . . .

باغتنى غضب شديد . . . في البيت لم نر هذه الفروق ابداً! . . . ولكن الامور الخارجية كانت شيئاً آخر! . . .

حمدت ربى اننى لاازال صغيرة ، ولن اكبر الا بعد سنوات طوال . ظننت الأربع سنوات القادمة ستكون مدة طويلة جداً! . . .

ولكنها اتت وبسرعة بعد فترة قصيرة جداً كما لاحت لي . .

القفص الحديدي الصغير جنازة النائب)

كان لصيق بيتنا ويطل على شارع الفضل ، بيت الخالة (معروفة) ، وهي ابنة خالة والدي واخت زوجته الاولى المتوفاة ، ورغم ذلك كان بينها وبين والدتي ود كبير وكانت والدتي تعاملها كما لوكانت خالتها لأن ولدها الاكبر بسن والدتي وكانت ابنتها الصغرى تكبرني بسنوات قليلة وكنت العب معها وآنس اليها . في الصيف ، كانوا يجلسون في الردهة الداخلية (الحوش) وقسم (الطرار) مفروش يالمقاعد الكبيرة والكراسي ، وقربها مطارح تطنية مفروشة على ابسطة على الارض . وكانت الام والعمة والجدة يفضلن الجلوس عليها . والاولاد هم ثلاثة شبان في العشرينات من العمر وبنتان اصغر منهما في حوالى الخامسة عشر والعاشرة .

كانت الصور في (الطرار) هي صور فوتوغرافية لوالدهم (حامد المدفعي) وهو يرتدى (القلبغ) التركى المصنوع من الفرو على رأسه ، وهو قرب المدفع اثناء الحرب العالمية الاولى ، وكذلك صورته وهو واقف مع عربة مدفع يجرها حصان .

والدهم كان لايزال يشبه الالمان بشواربه المتجهة الى اعلى ووجهه الصارم .

كان اولاده يفخرون بتلك الصور ، ولكنني كنت اراه شخصاً مخيفاً واتجنب الكلام معه .

في بيتهم هذا في غرفة في الطابق الثانى من البيت تطل على الشارع فيها (شناشيل) البيت والتى تسمى (الاورسى) أي غرفة الجلوس الكبرى ، وفي جدار الغرفة قفص صغير يخرج خارج بناء البيت . كان القفص مستطيل الشكل وهو محل صغير مفتوح للهواء من كل جانب على شكل اضلاع متوازية وبينها فراغات ينفذ منها الهواء في الجدران الثلاثة والسقف والجدار الرابع الذى ينفتح على الغرفة فيه باب خشبي يغلق ويفتح حسب الحاجة واثناء الصيف توضع ادوات ماء الشرب من الفخار (التنك) للتبريد وكذلك بعض اصص الازهار لكي تضفى الجمال والالوان على الشارع .

ادهشني واعجبنى القفص الصغيروانا اراه للمرة الاولى ، انه صغير لايتسع لاكثر من طفلة صغيرة ان تجلس فيه .

ازحت قناني الماء الفخار (التنك) ، ووضعت وسادة صغيرة وجلست انظر الى الناس في الشارع رائحين وغادين وانا انظر وارى ما يبيعه البائعون فوق رؤوسهم من فوق واود لو يلمحني الاطفال من الشارع في محلي العالي المكشوف الجوانب .

اصبح القفص محلي المحبوب في بيت الخالة . وبدأت اتصور نفسي اطير فوق المدينة بالقفص ، وارى البيوت والشوارع . اصبحت ارى أحلاماً عن الطيران في قفص كهذا في سماء صاحية او بين الغيوم دون ان ادرى الى اين اذهب اذا استطعت ان اطير! . .

من هذا القفص الجميل رأيت اول جنازة في حياتي .

لم اكن قد سمعت بكلمة جنازة من قبل . رأيت النساء في بيت الخالة في هرج واهتمام لمشاهدة ما سيجري في الشارع امامنا . جلسن قرب الشبابيك وعليها المشبكات الجشبية التى تمنع الناس من رؤيتهن من الخارج ، وجلست انا في القفص وسدوا على الباب الخشبى لئلا يراهن الناس من الشارع .

قيل لي ان جد صديقتي (لبيبة) التي ولدت انا وهي في نفس الاسبوع ، وهو (عبد الوهاب افندي النائب) قد توفى وان (الجنازة) ستمر من امامنا . كنت

اعرف عن الموت ، ولكن (الجنازة) كانت شيء غريب . علمت بأنني سأرى شيء مؤلم وجديد ، وجلست انتظر الجنازة بقليل من الرهبة والخوف .

كان بيت (النائب) في نهاية شارع الفضل قرب السوق ، وسوف يمرّ موكب الجنازة الى جهة رأس الكنيسة والصابونجية من امامنا تماماً .

امتلأ الشارع بأناس بمختلف الملابس من العمائم الى الافندية (الذين يلبسون الملابس الاوروبية) الى لابسى العقال العربي واهل (الجراوية) أي العامة من العمال . وعلى جانبى الشارع وقفت نساء من الطبقة الفقيرة قرب الابواب سافرات الوجوه ومعهن الاطفال .

بعد مدة رأيت جماعات تدق الدفوف والطبول وترفع اعلاماً وبنود باحجام مختلفة ، ثم رأيت الجنازة مرفوعة عالياً وملفوفة بطاقة سوداء حريرية وبها بعض الكلمات والنقوش الذهبية وفوق التابوت ءمامة بيضاء .

الناس كانت تنادى مع دق الطبول والدفوف :

ـ شال بحر العلم شال! . .

رأيت في اول صف وراء النعش وجهاً اعرفه ، هو عم (لبيبة) صديقتي وهو اصغر اولاد الميت وندعوه (عمو جلال) اظنه كان في حوالى سن الخامسة عشر ، وهو طالب مدرسة وكان يرتدى لباس الافندية ، وهو حاسر الرأس ، وصدر قميصه مفتوح ويمسك به شخصان واحد من كل جانب ،وكان يصيح بأشياء لم اسمعها بسبب الدفوف والطبول واصوات الناس .

وكان لعبد الوهاب افندي النائب ستة اولاد متزوجون وأربع بنات ، وكبيرهم كان (حسين افندي النائب) وهو رجل في منتصف العمر له ثلاث بنات الكبرى ابنته (فطينة) التي اصبحت شاعرة في المستقبل .

مرت الجنازة بصورة بطيئة ، وكانت تنطلق اصوات صراخ العويل بين النساء في الطريق ، مع اصوات الدعاء والصلوات من الرجال .

ارهبني مرور التابوت واخافني دون ان اذكر ذلك للآخرين . واصبحت كلما ارى جنازة في الشارع او في سيارة احزن وارتهب واقضى وقتي بالتفكير قبل النوم كيف يتمكن الناس من وضع جسم انسان في التراب في المقبرة ويرجعون

الى بيوتهم ، وابقى افكر بامي وابي واخوتي لمدة طويلة قبل ان انام .

سمعت ان جنازة المرحوم عبد الوهاب النائب ، قد عادت الى جامع (الفضل) لكي يدفن هناك بعد ان صلوا عليه في جامع الشيخ عبد القدر الكيلاني .

عاشوراء

المراسيم عند مسلمي الشيعة

كنت في الثامنة من عمري ، وكان الوقت عصراً في الصيف اثناء العطلة المدرسية ، اتت صديقتي (لبيبة النائب) وهمست في أذني ان هنالك (قراية) في بيت قرب بيتهم ، وانها ستذهب مع اختها وابنة عمها (فطينة) واختها ماهرة وستكون معهم شابة سوداء تشتغل عندهم اسمها (خماسة) ، لم لااذهب معهم؟

لم اعرف ماهي (القراية) ولم اسمع بها من قبل . والدتي كانت تزور صديقاتها عصراً وترجع قبل حلول الظلام . لذلك وافقت رأساً ومعي اختي لمعان و(عائشة) من بيتنا والتى اصبحت كبيرة تناهز الرابعة عشر من عمرها .

دخلنا الى دار قريبة من بيت النائب ، الباب مفتوحاً والنساء يتوافدن عليها . داخل البيت (الحوش) كان كبيراً وفى الوسط حديقة داخلية ، وكان كل شيء على درجة كبيرة من النظافة . كان البيت مفروشاً بمراتب ومنادر على الارض وتحتها سجادات او حصران ، ووراء المراتب والمنادر كان هناك ارائك وكراسى ، وكل شيء مغطى بأغطية نظيفة جداً . وكانت النساء (الضيفات) يجلسن على المراتب او على الكراسي وينزلن العباءة من على الرأس الى فوق الكتفين ، لتكشف عن ثيابهن ، ومعظمهن يرتدين ملابس شعبية والكثير من الحلي الذهبية . اما المسنات من النساء فقد كن يرتدين الفوطة السوداء على رؤوسهن وثيابهن سوداء ويلبسن القليل من الحلي .

وتجلس جماعة من (الملايات) على مرتبات على الارض مقابل الضيفات ، ما عدا (الملا الكبيرة) التي تجلس على كرسي كبير ذو جوانب عالية طيلة الوقت .

فهمت ، وللمرة الاولى ، ان (القراية) هي في (عاشور) ولم اكن اعرف اسم عاشور او شهر محرم الهجري . قيل لي ان القراية تستمر لمدة عشرة ايام ويقتل الامام الحسين فى اليوم العاشر ، وان (الملاية) هي التي تقرأ عن استشهاد الامام (الحسين) وجماعته في ارض كربلاء في العراق! . . .

كان عدد الملايات سبعة ، وكلهن في سن الشباب ، ما عدا الملا الكبيرة التى كانت في منتصف العمر بدينة بعض الشئ ، ترتدي ثوباً اسود طويلاً وتغطي رأسها بفوطة سوداء وتضع على الفوطة مشبكاً ذهبياً تلتمع به احجار الفيروز ، وتضع خاتماً واحداً في يدها به حجر فيروز كبير . اما الملايات الشابات ، رأيتهن يلبسن اثواباً ملونة شعبية طويلة تحت العباءة التى يبقينها فوق اكتافهن ، ويلبسن الكثير من الحلي ، كالخواتم الذهبية المتعددة وعليها الياقوت والفيروز والعقيق ، واساور ذهبية على الرسغين وقلائد عديدة ، ويضعن على فوطة الرأس السوداء مشابك ذهبي فيها احجار كريمة ، وعند الكثير منهن شاهدت (سن ذهبية) واحدة هي السن الثانية من القواطع .

رأيت الملايات الشابات يضحكن ويمزحن مع الضيفات قبل ابتداء القراية ، وكأنهن في حفلة .

اثناء القراية تجلس الملايات على المراتب مقابل الضيفات ، وفي يد كل منهن كتاب اسود ، يحوى شيئاً محزناً على الماساة ، وتقف واحدة منهن بعد الاخرى امام الناس لتقرأ الكلام الحزين المؤلم ثم تجلس لكي تعقبها ملاية اخرى تقرأ وهى واقفة وتجلس وتعقبها ملاية ثالثة ورابعة .

كلامهن كله بالعامية العراقية . وتقوم الملايات في الاخير باللطم وهن وقوفاً ويسمى ذلك (الجاينة) ، قبل ان تقرأ الملا الكبيرة كلامها كآخر من يتكلم .

والنساء يبدأن البكاء والنحيب وكأن كل واحدة فقدت احد احبائها في تلك اللحظة . وبالرغم من صغر سنى ، اثركلام الملايات على وبكيت بحرقة ، بينما كانت الصغيرات امثالي لايعلمن ما يجرى ، و(القراية) لهن كانت محل لرؤية الاجتماع واستماع للملايات والنساء .

وفي الاخير ، تبدأ الملا الكبيرة بالكلام باللغة العربية الفصحى ، وهي

جالسة على الكرسي الكبير ذو المساند ، وتقرأ اقساماً مبوبة عن سفرة الامام الحسين من الحجاز الى ارض العراق من كتاب اسود اللون ويسود الحاضرات جميعاً السكون والانقطاع عن البكاء لسماع صوت الملا الكبيرة .

وعند الانتهاء تبدأ الملا بصوت لطيف وعربية فصحى ، تدعو الى الله ان يمن على التاس بعطفه ، وتطلب الشفاء للمرضى وتطلب ايقاف الحروب وغير ذلك من الادعية والصلوات . اذكر انها دعت الى الله ان يوقف (حرب برزان) وهي قبائل من الاكراد في الشمال يقيادة (الملا مصطفى البرزاني)

لم افهم ما معنى برزان ولا حربه! . .

وقد رأيت الملا مصطفى البرزاني في (كلالة) قريته في شمال العراق ايام رأسة السيد عبد الرحمن عارف ،عندما زرنا تلك المنطقة سنة ١٩٦٧ بعد وقف الحرب هناك ، أي بعد ان تجاوز عمري الاربعين! . .

عدنا الى البيت والدنيا لاتسعنى من العجب والحماس . لقد شاهدت مسرحيات (جورج ابيض) و(حقي الشبلي) من قبل واعجبت بها كثيراً ، ولكن الملايات وهن غير متعلمات ، وقد سيطرن على الجميع بكلامهن المنتظم الجميل بصورة تامة وجعلن يبكين ويسكتن بكلام الملايات فقط! . .

كانت القراية وكأنها مسرحية فنية هائلة وباللغة العامية عن مأساة عائلة يقدسها الناس في جميع انحاء العالم الاسلامي! . .

عادت والدتي مساء وسمعتني وانا اصفق على الايقاع الذي سمعته للمرة الاولى في حياتي . ارتاعت الوالدة بأننا شهدنا قراية وكلها عن الاموات . سألتنا باهتمام إن كنا ارتهبنا؟ هل بكينا؟ من الذي اقترح الذهاب؟ هل نرسلكم الى المدرسة ثم تتعلمون من نساء جاهلات؟

كان اعتراض والدتي على ذهابنا ونحن صغار ، هو تأثرها الكبير من الفاجعة في طفولتها اثناء اشتغال والدها كمدعي عام حيث سكنوا في العمارة وكربلاء ، ورأت القرايات هناك . وهي قد فقدت اثنين من اخوانها اثناء الحرب العالمية الاولى ثم شقيقتها التوأم وكانت عروساً لعمى (حسن فهمي) لمدة سنة واحدة ، لذلك كانت القراية تؤلمها بشدة وتبكى بكاء مراً عند سماع الملايات يصفن ما حل

بالحسين واخوانه واقاربه ، واقوال السيدة (زينب) على وفاة اخوتها .

لم ترغب منا ان نشاهد الاحزان والمآسي ونحن في سنوات الطفولة الاولى .

لم اعترض على والدتي بل قلت لها انا فرحة بذهابي الى القراية وقد تعلمت الكثير ، ولم اذكر لها عن بكائي وحزني .

ارتاحت أمي واغلقت الموضوع .

في اليوم التالى ذهبت مع لمعان وعائشة الى بيت النائب وزرنا معهم القراية مرة اخرى ، وبعدها كل يوم حتى انتهى اليوم العاشر . تعلمت الكثير حول مأساة كربلاء

تعلمت اسماء اسرة الحسين مثل العباس والقاسم وزينب وسكينة واولاد مسلم والحر بن الرياح ، كما حفظت الاسماء المقيتة مثل يزيد والشمر قبل ان نتعلمها في المدرسة .

في اليوم السادس ، رأيت يوم مقتل (القاسم) الشاب زوج (سكينة بنت الحسين) ، اذ رأيت سكينة بملابس العرس البيضاء تمثلها احدى الملايات ، وتقوم ملاية اخرى بدور (القاسم) وتلبس الملابس الرجالية العربية ، وترتفع هلاهل النساء وبكائهن عندما يظهر العروسان وهما يقبلان بعضهما ، ويذهب القاسم الى الحرب ، بعد دقائق تظهر (سكينة) بملابس الحداد السوداء لان زوجها قد قتل . وتبدو الملايات بحالة رهيبة من الحزن الشديد ، ويشتد بكاء النساء ونحيبهن ورأيت البعض اغمى عليهن من شدة الحزن! . . .

سمعت عن (العباس) الرجل القوي الذي يهابه الجميع ، وهو اخ للحسين من ام اخرى غير فاطمة الزهراء ، وهو يقتل في اليوم السابع من عاشوراء .

وفى اليوم العاشر يستشهد الامام (الحسين) ، ويستغرق هذا اليوم فترة طويلة جداً بالبكاء واللطم والجاينة ، وتبكي النساء كما لم يبك احد بهذه الصورة .

وهكذا تنتهى التمثيلية المحزنة ، وهي اسوأ مأساة في تاريخ العرب كله! . . .

رأيت بضعة قرايات بعد ذلك في اوقات مختلفة ، ولكن القراية الاولى كانت اشدها تأثيراً على نفسي! . .

السباية

موكب العزاء في عاشوراء للرجال يسمى (السباية) وتقام في العشرة ايام الاولى من شهر عاشور .

سمعت عن السباية ، ورأيتها للمرة الاولى وعمري في الحادية عشرة ، وكنت قد كبرت كثيراً عن الثامنة عندما رأيت القراية للنساء للمرة الاولى .

شاهدت السباية مرتين فقط ، يوماً بعد آخر ولم ارها بعد ذلك . الاولى مع صديقات والدتى في بيت السيد جمال بابان قرب جامع (الخلاني) في وقت المساء . وفى السباية الثانية ذهبنا مع اقاربنا عصراً الى بيت في جانب (الكرخ) ولم تكن معنا الوالدة .

كان اول ما جلب انتباهي وخوفي من السباية هم (اهل الزناجيل) أي ضاربي ظهورهم بالسلاسل . كانوا يسيرون في خطين متوازيين بانتظام تام على جانبى الطريق ، وتفصل مابين هذين الخطين مسافة عريضة تبلغ بضعة امتار . الكل يرتدى ملابس سوداء وطاقية (عرقچين) اسود على الرأس او يكون الرأس عارياً ، والثوب محفوراً في القسم الاعلى الخلفي في منطقة الكتفين ، لكي يتعرى الجلد هناك ، ويكون الضرب بالزنجيل على الجلد مباشرة ، او قد يترك القسم العلوي من الجسم عارياً . وكل واحد من ضاربي الزناجيل يحمل سلسلتين معدنيتبن كبيرتين ، سلسلة واحدة في كل يد ، ويمشي في هذين الخطين المتوازنين ، وورائهم يسير اصحاب النقارات والصناجات النحاسية المعدنية وهم يعزفون بصورة بطيئة جداً ، ووراء الجماعة الموسيقية ، رأيت اولاداً صغاراً بملايس سوداء ويحملون سلسة معدنية واحدة صغيرة الحجم ، ويضربون ظهورهم العارية بها . قيل ان الام (تنذر) ابنها الصغير ان يضرب الزنجيل اثناء ولادته .

يسير ضاربو الزناجيل بصورة بطيئة جداً مثل الجيش اثناء الجنازة بالموسيقى البطيئة يضربون ظهورهم العارية على وقعها البطئ الرتيب . ويسود في الجو الصمت والسكون على الجميع .

واثناء مرور اهل الزناجيل ، يصيح شخص واحد منهم في المقدمة بصوت عال جهوري بجملة محزنة عن (الحسين) ، ويجيبه شخص واحد آخر في مؤخرة

الموكب بجملة اخرى بنفس الصوت العالي الرنان . لاحظت ان من يصيحون هكذا ، لهم لكنة فارسية واضحة وخاصة عند ذكر اسم الامام الحسين (يا هوسين! . .) .

لابد وانهم من الاخوة من جارتنا الشرقية ايران .

اصابني الكثير من الخوف والرهبة من اهل الزناجيل ، بوجوههم الحزينة العابسة وعضلاتهم المشدودة وسلاسلهم الكبيرة الثقيلة . ماذا يحدث لو انهم هاجموا احد الاشخاص! . . .

بعد اهل الزناجيل تاتي اجواق متعددة من (اللطامة) ، أي الذين يضربون صدورهم باياديهم . وهنا يختفي الهدوء والسكون الذى ساد اثناء مرور اهل الزناجيل ، وتبدأ اصوات الرجال وهم يصرخون بكلمات محزنة عن الحسين وعائلته كل جماعة تنادي بصوت واحد ، وتاتيهم كلمات اخرى من الجماعة التى تسير ورائهم مباشرة بكلمات تكمل ما قيل من قبل الجماعة الاولى . والكل يهتفون بأعلى اصواتهم . وتستمر جماعات اللطامة لمدة طويلة وهي تسير الى محل معين ، ثم يتفرقون .

اثناء زيارتى لسباية (للكرخ) ، رأيت من البلقون ، جثة مخضبة بالدم وبها رقبة خروف مذبوح ازيلت رأسه وكان يبدو وكأنه جثة انسان مذبوح . كان المنظر دموياً مخيفاً .

في اليوم العاشر ويسمى يوم (الطبك) ، حيث يقتل الامام الحسين عليه السلام وتنتهى السباية في وقت الظهر . وسمعت انها تنتهي في بيت (النواب) قي الكرخ حيث يأكل الجميع طعام الغداء هناك .

لم ار (المطبرين) الذين يجرحون انفسهم عليجباههم ويسيرون والدم يقطر من جروحهم ، ولكنني سمعت عنهم فقط .

ذكريات عائلية

كانت خالتي الكبرى زوجة (على صائب بك الرحال) الضابط العثمانى المتقاعد برتبة (مير آلاى) ، ورأيته مريضاً مشلولاً يمشي بصعوبة كبرى لخطوات

قليلة ويستعمل لذلك العصى . سمعت وانا في السابعة من العمر ، بأن ولده (حسين) قد باع بيتهم الجميل ، ذا الحديقة الداخلية الواسعة وفى وسطها شجرة (نبك) كبيرة ، وكانت ابنته الصغرى (امينة) لها ارجوحة من الحبل طويلة كنت اتسلى بها عندما اذهب اليهم . وقيل ان (حسين) استولى على الحصة كلها .

غادرت العائلة البيت القديم ، واستأجروا بيتاً في منطقة (تبة الكاور) ، على مسافة ابعد من بيتنا . كان البيت فخماً ، له (ديوخانة) وحرم داخلى كبير جداً ، وفى وسطه حديقة داخلية واسعة جداً وفيها شجرة (نبك) اطول واكبر من شجرتهم القديمة ، وقد علقوا ارجوحة من حبل وهى اكبر من الارجوحة القديمة! . . .اسعدني ذلك جداً! . .

كان هذا البيت مجاوراً لبيت (توفيق برتو) وهو ضابط عثمانى متقاعد ، وله اربع بنات وولد واحد هو ابنه (برتو) أيضاً ، وهو ضابط في الجيش العراقى . اما البنات ، الكبرى (نظمية ام عدنان) متزوجة من (تحسين العسكرى) اخو جعفر باشا العسكرى ، والثانية (مديحة) زوجة (ابراهيم كمال) ، (معزز) غير متزوجة وكانت مديرة في احد المدارس الابتدائية للبنات ، واصغرهن (دردانة) ، وكانت غير متزوجة وتقوم بتدريسنا في مدرستنا (البارودية) ، وكانت مخطوبة الى (مظفر احمد) .

الشخصية المهمة هنا كانت (الست معزز) في هذا البيت وقد رأيتها للمرة الاولى . كانت (معزز) خطيبة (عمو صبيح) ، وهو زوج اختى الكبرى وابن خال والدي . لقد قدم لها النيشان والخاتم ، وكانوا على وشك الزواج ، ولكن الخطبة فسخت لأسباب لا اعرفها ، وتزوج (عمو صبيح) من اختى الكبرى ، وكانت اختى في سن السابعة عشر لاتزال طالبة تدرس في مدرسة (الراهبات)! .

كانت (معزز) طويلة القامة ، مملوءة القوام ، ذات شعر اسود قصير جداً وعيون سوداء براقة تكلم الجماعة بالعربية والتركية بصوره ودودة وبصوت نظيف .

نظرت الي (معزز) وبدأت افكر- ان اختى (بتول) اجمل منها واصغر سناً . اين (بتول) الصبية ، الناشئة ، البيضاء ، الخجول ، خريجة (مدرسة الراهبات) ، من هذه السيدة اللبقة الناطقة والآمرة .

قيل ان معزز، عندما كانت مديرة لمدرسة البارودية سمحت لبعض الطالبات بالخروج الى ساحة الاستقبال في الكرخ، بمناسبة وصول الامير غازى اليبغداد بزى الكشافة يتقدمهن العلم العراقى، وكبيراهنّ في سن الثانية عشر وهى (فردا) بنت الدكتور (محمد شكري صكبان). والنقد كان موجهاً الى المديرة بسبب ارتدائهن ملابس الكشافة الخاصة بالطلبة، وعد عملهن انتهاكاً للفضيلة وخدشاً لحرمات المجتمع.

كذلك كانت (معزز) المديرة اول عراقية تدخل مودة (قص الشعر) الى العراق، وبدأت بنشر هذه المودة بين طالباتها، وكانت تقوم بعملية قص الشعر بنفسها في المدرسة، عندما تسألها الطالبة عن بذلك.

وقد اطلق الرجال على (معزز) اسم (المرأة المسترجلة).

وكان (حسين الرحال) جارها الآن، شديد الاعجاب بمعزز! انها تمثل امامه المرأة المتعلمة المثقفة السافرة في بلاد متأخرة.

وقد تقدم لخطوبة (معزز) عدة شبان في بغداد، ولكنها سافرت الى بيروت وتزوجت من طبيب لبنانى (الدكتور روضة)، وعاشت هناك وبرزت في فن الرسم والنحت في لبنان وحصلت على عدة جوائز عديدة.

(قيل الكثير من ان نورى السعيد كان يتراسل مع (معزز) ويكتب لها ما يدور في البلد ويستنير بآرائها له!...)[1].

توفى زوج خالتي (على صائب بك) وهم في هذه الدار. وبعد اشهر قليلة انتقلوا كلهم الى السكن بعيداً في منطقة اسمها (الصليخ)، يفصلها عن بغداد اراضٍ كلها بساتين تمتد الى الشط (نهر دجلة)، وقرب الشط، توجد بيوت كبيرة (بغدادية)، قليلة يملكها بعض اليهود الاغنياء، وكان اليهود يملكون اجمل البيوت في الاعظميه والصليخ والكرادة والسنك.

بيت خالتي استأجروا احد هذه البيوت قرب الشط. (ولاتزال هذه البيوت موجودة الى الآن!). ولم يكن لديهم سيارة، اذ كانت السيارات الخاصة قليلة

١ـ في كتاب لخيري، العمري ببعض رسائله اليها (باللغة الانكليزية وقد ترجمتها له ونشرها.

جداً ، ولم تكن هناك تلفونات في البيوت ،

اتفقوا مع سائق تاكسى ان يذهب بهم صباحاً الى بغداد للعمل في الحكومة ، ولذهاب (امينة) الى المدرسة ويعود بهم مساء الى البيت .

وكنا نستأجر (تاكسي) لزيارتهم . وكانت السيارة تمر في ارض ضيقة بين البساتين المتلاصقة على الجانبين ، وكنا نرى من بين البساتين فلاحين وفلاحات يحملون اغراضهم اوما حصدوا من مزارعهم ويختفون بين الاشجار ، وأحياناً تجلب السيارات انتباههم ويشيرون لنا بالتحية بأيديهم .

احببت بيت خالتي الجديد في منطقة الصليخ لانه يختلف عن بيتنا تماماً .

كان بيتنا في وسط بغداد ، تحيطنا المنازل من كل صوب ، وكل ما نرى من اشجار هي في البيوت التى نزورها داخل المنازل المختلفة ، والان في بيت خالتي اجد نفسى بعيدة جداً عن المدينة ، لانتحرك من دون سيارة معنا!

وكنت شديدة التعلق (بامينة) ، وفى احيان كثيرة كنت ابقى هناك عندهم ليوم اويومين ولااعود الى البيت مع الوالدة والاطفال ، ابقى في بيت الخالة الى يوم السبت ، وانزل معهم الى المدرسة في الصباح .

ولقد رأيت من الطيور والحيوانات عن كثب مالم ار ذلك من قبل .

اذكر في البيت وجود اعشاش (السنونو) بعدد كبير قد يصل الى عشرة اعشاش منتشرة في الطارمة العليا ، وفى ردهة (الطرار) ، وفى السرداب و(المجاز) . وهى اعشاش مبنية بعناية ودقة لاتصدق ، وحجمها مثل كرة كبيرة تقارب حجم كرة القدم ، وللعش مدخل صغير جداً ، كنت اتعجب كيف يدخل السنونو الذى لايزيد حجمه عن العصفور في هذا المدخل الضيق . ولم يجرأ أحداً ان يخرب هذه الاعشاش على كثرتها ، لان السنونو طائر جميل الشكل ، ذو ذيل يتفرع كذيل المقص ولون ريشه قاتم في الظهر وابيض على البطن ، وكذلك ان هدم عش للطيور يعد عملاً اثيماً يعاقب الله عليه! . .

بقيت الاعشاش في مكانها كما هي . وكنا نغنى للسنونو اغنية تدل على شكله :

راسهْ جرس ، ذيلهْ مقصْ ،

بطنهْ شحمْ ، ظهرهْ فحمْ

كانت البساتين مليئة بالنخيل وتحتها اشجار البرتقال والليمون والنارنج ، والتوت اي (التكي) الابيض والاحمر (تكي الشام) . كنا نتسلق على اشجار التوت الاحمر ونأكل مانشاء . ونتحدث مع الخبازة وابنتها ، وناكل الخبز الحار اللذيذ . رأينا الحيوانات عن قرب ، البقر والخراف والنعاج والحمير . وكلها جميلة ، ولكن اجمل حيوان رأيناه بينهم كان (كراً) حديث الولاده ، وهو وليد الحمار وكان لونه ابيض ناصع ، اذناه منتصبتان مثل اذن الغزال ، وكان جلده نظيفاً لامعاً ، اخذ الاطفال يقبلونه كما يقبلون طفلاً جميلاً! . .رحت انظر الى الحمير الكبار واتعجب ، كيف يتبدل هذا (الكر) الجميل ، ويصبح على شكل الحمار المسكين عندما يكبر! . .

كنت كذلك احب صوت ماكنة الماء وهى تسحب الماء من النهر وتروى البساتين بواسطة السواقى ، وكان الصوت رتيباً ، منتظماً كأنه موسيقى بعيدة . وكنت احب ان اصنع احواض من الطين النظيف او اعمل تماثيل صغيرة على شاطئ النهر .

بعد سنة واحدة ، انتقلوا من هذا البيت الجميل ، وسكنوا بيتاً في وسط بغداد ، محاطاً بالبيوت من كل جانب . سألت خالتي عن سبب الانتقال من هذا البيت اللطيف ، اجابت ان السكن في بغداد اسهل ، ثم اضافت : (ان هذا البيت هو ليس بيتنا!) .

شيء واحد افرحنى ، ان بيتهم الجديد كان على مقربة من بيتنا مرة اخرى! . .

دايي او خال والدي

(دايي) كلمة يطلقها الاطفال (كلمة تركية تطلق على الخال) ، وكان كنت القب خال والدي ، ولم يكن متزوجاً ، وكان ولعه بي كبيراً . انه القائمقام المتقاعد (عزت الحاج حبيب العزى) ، وقد كان كبير العائلة في ذلك الوقت . بيته مكون من اولاد اخيه (صبيح نجيب) وزوجته (بتول) اختى الكبرى وشقيقه (فضلى) ، وامهم (الحاجة بهيه خان ام صبيح)واخته (الحاجة هدية خان) . وبالقرب منهم

بيتنا ، وقربنا بيت عمى (محمد صالح زكى) واولاده الصغار ، وعلى مسافة ابعد بيت عمتى وهى زوجة (محمود رامز) واولادها .

كان خال والدي ضابطاً عثمانياً متقاعداًبرتبة (قائمقام عسكرى) أي (عقيد) وهو لم يخدم في الحكومة العراقية . وكان طويل القامة ، مستقيم الجسم ، وله شاربان معقوفان الى اعلى ، ويلبس عوينات ذات اطار ذهبي رفيع ، ويمشي مشية عسكرية ، وكان يلبس اللباس المدنى الغربى ونكنه احتفظ بالطربوش ولم يلبس السدارة .

وكان والدي يقول لي : (لا تفعلي أي شيء مزعج لئلا يزعل دايي! . .) حتى لو كان دايي في بيته! . . كنت اظن ان (دايي) يعرف كل شيء! . . ولم اظن ان والدي كان يمزح معى ، لذلك كنت اخاف ان يزعل دايي مني! . . ولكنى لم اره يزعل مني ولا مرة واحدة ، بقيت طفلته المحبوبة دائماً! . .

في احد الايام اختفى دايي لفترة ، ولم اسمع ماحدث . واذا أمي تقول سوف نذهب ازيارة دايي الذى عاد من (بعقوبة) ومعه العروس التى تزوجها هناك! . . .

في سن السادسة ، كنت اظن العائلة كما هي دائماً ، ولم اعرف بالضبط ماهى العروس سألت أمي لماذا اتت العروس ، قالت أمي ان العروس من (بعقوبة) وانها من (الججان) او كما يقول الناس (الشيشان) وهى بالاصل من بلاد بعيدة من (قفقاسيا لم افهم هذا الكلام! . . .ولامعنى العروس ، وكلمة (الجُجان) ولا (قفقاسيا) . . .كانت أمي تتكلم باشياء غامضة ، ليس لها معنى عندى! . . .

كان الوقت صيفاً ، وافراد العائلة جالسين على ارائك في (الحوش) ، ورأيت العروس نهضت لترحب بوالدتى ، امرأة طويلة القامة جداً ، نحيفة شقراء الشعر بظفيرتين طويلتين ، وذات عيون زرقاء واسعة وفم واسع واسنان طويلة . وكانت ترتدى ثوباً اخضر اللون طويلاً يصل الكاحل ، وحذاء مرتفعاً جعلها اطول من جماعة النساء كلهن . كان اسم العروس (كميلة) .

قبلتنى العروس وجاست قرب (دايي) ، اجلسنى دايي قربه من الجهة الثانية . ابتسمت العروس واعطت دايي قطعة من الكعك ، وهو يلاطفها ويكلمها برقة وود . لم ار دايي يكلم أحداً من الكبار بهذه الطريقة الجديدة . انها طريقته معى فقط وانا طفلة! . .

قدمت لي العروس قطعة من الحلوى ، رفضت الحلوى منها ، وشعرت بنفوراً آنياً نحوها . وكلما كانت تحدث دايي ، كان غضبي يزداد منها! . .خاصة وان اختي الكبرى (بتول) تناديها :

(باجي كميلة) ، وتبتسم معها كثيراً . كلمة باجي في بغداد تعني الاخت الكبرى .

وبعد قليل ذكرت العروس بأن بغداد بها تراب كثير بعكس بعقوبة ، واذا بي اصرخ بها قائلة : (اذهبي الى بعقوبة لاننا لانريدك هنا! . .) . وهذه اول مرة اصرخ على شخص كبير! . .

ولعجبي الكبير ، رأيت العروس لم تغضب ، بل استغرقت في الضحك هي والجميع معها ، خاصة دايي حيث قبلنى وقال : (انا احبك لا تخافي! . .)

لم افهم سبب ضحكهم مني ولكن والدي ضحك وقال ان ذلك سببه الغيرة من حب دايي للعروس! . .

بعد يومين دعا والدي ابا العروس (اسماعيل آغا الججان) ، وابنه (شكرى آغا) اخو العروس مع ابنته الطفلة (صبيحة) ، وعمرها سبع سنوات ، و(دايي) وبعض افراد عائلتنا على العشاء . تساءلت أمي من والدي عن قيافة اسماعيل آغا وابنه ، وهل يلبسون لباس القفقاس ، ويضعون على رؤوسهم (القلبق) ام لا . شاقنى الحديث ، واخذت انتظر قدوم اضيافنا (الججان) بشوق لكي ارى ملابسهم! . .

اتت الجماعة مع الاسف ، بملابس عربية معهودة . كان اسماعيل آغا يرتدى ملابس عربية بيضاء كلها حتى العباءة والكوفية بيضاء ، وللعباءة حاشية ذهبية ، وفوق الكوفية البيضاء عقال ذهبي ثخين ، وكان مفرطاً في الطول ، وجهه شديد البياض متورد ، وعيونه زرقاء ، وله شارب ابيض ولحية صغيرة بيضاء . وكان ابنه بنفس الدرجة من بياض الوجه والعيون الزرقاء ، وكذلك الابنة الصغيرة . وقد طغى اسماعيل آغا على الجميع بشخصيته وكلامه وضحكاته العالية .

طلب والدي مني ومن لمعان ان ننشد احد الاناشيد لهم ، وقد صفقوا لنا عندما انتهينا من النشيد . وكانت هذه عادة ان ننشد نشيداً او اثنين امام الضيوف الكبار ، ويستحسنوا ذلك . . .

بعد العشاء ، سمعت اسماعيل آغا يتجشأ بصوت مسموع عدة مرات ، ولم تكن هذالعادة جارية عندنا ، لان رجالنا تربوا في (استانبول) وتعلموا على اصول (العصمنلي) ، ولكنى لم اقل شيئاً! . .

بعد مرور سنتين ، توفى دايي العزيز! . .وكان مصاباً بداء السكر . وبالنسبة لي ، كان هذا اول شخص يموت وهو في وسط العائلة . وقد كان الحزن عليه كبيراً ، وقد دفن في مقبرة (الاعظمية) .

وقد كانت التعزية للنساء في بيتنا ، وللرجال في بيته هو .

وفى يوم الاربعين ، اقامت زوجته (تهليلة) في بيتنا للرجال ، لان (عمو صبيح) يرفض العادات القديمه في بيته . وطلبوا حضور (المولوى) . وقد اخذتنا سنة النوم نحن الاطفال ولم نشاهد المولوى الذى رقص ساعات طويلة في تلك الليلة! . .

بعد ذلك كنت اشاهد (الملا) يأت الى بيتنا ويجلس في (المجاز) لقراءة القرآن الكريم يومين في كل اسبوع ، وامتد ذلك سنوات طويلة ، و(الملا) مستمر في قراءة الذكر الحكيم مرتين في الاسبوع الى سنوات الاربعينات ، وانا طالبة في كلية الطب ، حيث توفى الملا الى رحمة الله ، وكنا نعتبره جزء من بيتنا .

بقيت زوجة (دايي) الفاضلةعلى علاقة بافراد العائلة كلهم . وقد عاشت حوالى الثلاثين عاماً بعد زوجها ، وعاشت في بعقوبة ، وتأتى الى بغداد لمده طويلة وتسكن في بيت صبيح ، ثم مع بتول زوجته بعد وفاة صبيح الى ان توفيت في الخمسينات .

٠٠

عمي محمد صالح زكي

في سن السابعة ، انتقل عمى (محمد صالح زكي) الى بيتنا بسبب وفاة زوجته بعد ان ولدت ولدها الثالث بفترة قصيرة ، واتى مع ثلاثة اطفال ،ولدين وبنتاً واحدة ، واتى مع اولاده بامرأة سوداء كانت تعتنى بالاطفال منذ ولادتهم ، وكنا نسميها (دادي) ولو ان اسمها كان (فضة) ، وكلمة دادى تقال للمربيات السود كنوع من الاحترام . وكذلك جلب معه المراسل (عيدان) وهو رجل صغير

الجسم يرتدى ملابس عسكرية ويقوم بالخدمة خارج البيت مثل شراء الاكل اليومى ، او يأخذ الاولاد الى المدرسة ثم يعيدهم للبيت وغير ذلك من الامور البيتية . وهو لايدخل البيت ، بل يبقى قرب الباب الخارجى في(المجاز) . وكنا الاطفال نحب (عيدان) ونخاف من (دادى) . . .وكانت دادى طويلة القامة ، نحيفة ، ذات انف افطس وعيون سوداء ثاقبة ، وهى (تعرف كل شى!) عما يدور بين الاطفال ، وعن جميع اهل البيت! . . .

وكان عمى يعتمد عليها لانها تهتم بالاطفال كثيراً .

كان لدينا ثماني غرف في الطابق العلوي ، وقد افردت لهم غرفتان ، واحدة لعمى والاخرى لاطفاله الثلاثة ولدادى التى تنام معهم في الغرفة وقد امتلأ البيت بعد مجيئهم ، ولكن أمي رحبت بقدومهم من اعماقها ، وكانت شديدة الحزن لوفاة امهم وتيتمهم في هذه السن الغضه . وكانت اعمار الاطفال بعمر اخوتى ، (زيد) اصغر مني بسنتين ، وهو بعمر لمعان تماماً ، و(اديبة) اصغر من خلوق بثلاثة اشهر ، والصغير (عادل) اكبر من اختى عادلة بثلاث ايام فقط! . . .كنا الخمسة الكبار نلعب معاً ، وكنت انا الرئيسة لأنني الكبرى بينهم! وكنا نحب بعضنا حباً شديداً واستمر الى النهاية! . .

كنا نلعب ، وأحياناً اقص عليهم قصصاً خيالية حول حيوانات كنت (املكها) ، وهذه الحيوانات تأتى الي في منتصف الليل ، والكل نيام ، وانا العب مع الاسود والنمور واقرود والغزلان وانواع اخرى رأيتها في (السركس) الذى ذهبنا اليه كلنا قبل مدة قصيرة ، كان الصغار يصدقون هذه القصص ، ويحسدونى عليها ويطلبون مني ان ايقظهم في منتصف الليل لكي يلعبوا مع الحيوانات هذه! وكنت اقول ان الحيوانات تأتى لرؤيتى فقط . كانت قصص الحيوانات موضع سرورى ولذتى بقدر سرور ولذة الاطفال انفسهم! . .

وقد كنت اقرأ قصص الاطفال الملونة والتى تأتى من مصر ، وكانت والدتى تهتم بشرائها ، واقرأها عليهم ، عن الحمام والقطط والدب والذئب ونقضى اوقاتاً طويلة مع هذه القصص الصغيرة . بعد ان غادراولاد عمي بيتنا ، وكبرنا ، كانت هذه القصص مورد سرور لنا عند استعادتها .

في سن السابعة ، بدأت اشعر بالعيد واهميته . العيد الصغير ، ثم العيد الكبيربعده! . . . ملابس جديدة واحذية جديدة وشرائط ملونة للشعر ، وعمل الكعك (الكليجة) اللذيذة قبل العيد بيومين او ثلاثة ، كنا نرجع من المدرسة ، واذا عمل الكليجة على وشك الانتهاء ، تقوم به أمي وعائشة وبدور والطباخة ، وامامهن مناضد خشبية واطئة ملساء تماماً وهن يجلسن على مرتبات موضوعة على الارض . اسرع انا لكي اشترك معهم في عمل (البعبع) ، والبعبع هي قطع عجين على شكل انسان يعمله الاطفال وهى لاتحوى على الحشو ، ولا يأكله سوى الاطفال .

بعد الانتهاء ، توضع الكليجة في صينيات كبيرة ، وترسل الى الفرن في السوق ، ويذهب بها (عيدان) ومعه حمال ، وتعود الى البيت محمرة ولذيذة! . . .

في اليوم الذى يسبق العيد نسميه (عرفات) حتى وان كان العيد هو عيد الفطر .

في ايام طفولتنا كانت الاعياد في الصيف ، والملابس صيفية .

في صباح العيد ، نرتدى الملابس والاحذية الجديدة ونذهب لمعايدة الوالد وهو في غرفة المكتبة ، ابتداءاً مني انا الكبرى ثم الاصغر فالاصغر من اخوتى واولاد عمى نقبل يده وهو يقبلنا ويمنحنا النقود (العيدية) هاشاً باشاً . نذهب الى (ماما) والدتى ، نقبل يدها فتقبلنا بلهفة وهى تمدح ملابسنا الجديدة وقيافتنا ، ونستلم منها (العيدية) أيضاً .

وفى ايام العيد ، نتعايد مع العم والخالة العمة ، وكل واحد يعطى عيدية للاطفال . وفى هذا العيد ، ظننتنى اغنى واحدة ، لأنني لم ار كل هذه النقود في الجزدان الصغير الذى احمله .

في اول صباح للعيد ، تأتى فرقة شعبية تعزف الحاناً مفرحة تدعو لحياة صاحب البيت واهله ، ويعطى لهم بعض النقود من قبل اهل البيت . ولا ازال افرح لدى سماعى تلك الموسيقى والالحان الشعبية الى هذه الايام .

ذهبنا للمرة الاولى الى (المراجيح) مع (عيدان) ، وهو المحل الذى تنصب فيه

الاراجيح ، ودولاب الهواء والفرارات . رأينا الجموع الغفيرة من الصغار اولاداً وبنات ، ومعظم البنات كانوا من اطفال المدرسة البارودية لان المكان في فسحة من شارع الرشيد (فضوة) قرب زقاق (الطوب) ، مقابل وزارة الدفاع ، كان اسمها (القلعة) ، ولم يكن امامها الطاق الكبير المعروف ، لان الطاق بنى بعد فترة من ذلك الزمن .

كان الاطفال بملابس جديدة زاهية وشرائط ملونة ، يحملون (العيدية) في الجزدان الصغير ، والاولاد ببدلات جديدة وسدائر جديدة على رؤوسهم . قسم من الاولاد ، يستأجر حماراً ويدور به مزهواً ، والبقية في الاراجيح والفرارات ، وقد اعجبت (بدولاب الهواء) كاحسن لعبة رأيتها ، وكنت اضع اختى لمعان معى في دولاب الهواء واضع يدى امامها لئلا تسقط ، ونعيد الكرة مرة بعد اخرى .

كانت الاراجيح ودولاب الهواء وغيرها ، بدائية مبنية من اخشاب غليظة خشنة ، ولكنها كانت امينه ولم تقع حوادث مؤسفة لحسن الحظ!

وكانت الفسحة مملوءة بأنواع باعة الاكل مثل (ابيض وبيض) ، وهو نوع من الساندويش يجمع البيض بالطرشى والخضر يعرفه اهل بغداد كلهم ، كذلك باعة الحلويات والكعك والحلاوة وبائع (الجقجه قدر) ، وهو نوع من الجلاتين الثخين يغطى بالمكسرات مثل الجوز واللوز والفستق ، وبائعوا الشربت باباريق كبيرة نحاسية اللون تحمل على الظهر وهى مزينة بالخرز والسلاسل ، وبائعوا اللبن ، و(شربت زبيب) . وقد حذرت أمي (عيدان) ان يمنعنا من اكل أي شى لان الاطعمة وسخة . الا اننا لم نر ذلك ، بل كان كل شى يبدو نظيفاً ولذيذاً . اكلنا اشياء كثيرة وشربنا الشربت وغبره ولم يحصل لنا مكروه . كان الناس ياكلون ويشربون بانشراح .

ومن الغريب رؤيتى الشبان الكبار يتبادلون القبلات اثناء التهانئ بالعيد ، ولم يكن ذلك من المناظر المألوفة لدى .

بقيت انظر ماحولى وارى علامات البهجة على الوجوه ، ويمتلئ قلبى فرحاً وكأن العالم كله يرقص فرحاً بالعيد! . . .

في وقت الغداء ، كان الكبار في بيت (دايي) خال والدي ، وبيته على مسافة خطوات منا وكان معه اخته الصغرى ، خالة والدي ولا تزيده بالعمر الا قليلاً ،

واولاد اخيه (صبيح نجيب) واخوه (فضلى) وزوجة صبيح ، اختى الكبرى (بتول) ، وام صبيح (الحاجة بهية خان) واعمامى وزوجاتهم واولادهم وعمتى واولادها . وكان الغداء (القوزى) او الخروف المحشى .

بعد سنتين من هذا التاريخ ، وكنت في سن التاسعة ولازال في سن الاراجيح واللعب والشيطنة ، وانا في فرحة العيد ، سألتنى أمي سؤالآ بقى في فكرى مدة طويلة : (الا تزالين ترين العيد قمة الافراح بالنسبة لك)؟

اجبتها وانا اضحك سروراً : (وهل هنالك اجمل واحلى من العيد! . .) .

رأيتها تبتسم ابتسامة غريبة وقالت : (انا كنت اظن ذلك في طفولتى . . ارجو ان لاتتغيرى مثلى! . .) .

الزكريا

لم تكن أمي تحتفل الاحتفالات السنوية التى يقوم بها معظم الناس مثل (ليلة زكريا) . ولم اسمع هذه الكلمة من قبل . (امينة) ابنة خالتي دعتنا للحضور الى بيتهم للاحتفال بها ، واخبرتنى بأنني سأحب الحفلة كثيراً . ارتدينا نحن الاطفال اجمل ملابسنا وذهبنا مع أمي وعائشة الى بيت الخالة ، وكان الوقت عصراً .

رأينا خالتي وبناتها وعمتهم وصديقة امينه ووالدتها في شغل من ترتيب مأكل متعددة في اوعية صغيرة وكبيرة لوضعها في صينية كبيرة جداً موضوعة على منضدة واطئة . تعجبت لانهم ، ، لايأكلون في صينية بل يجلسون على طاولة الاكل . ولكن الصينية جعلتنى انظر باهتمام واعجاب لانها كانت مزينة بمزهريات فخارية من نوع شعبى وبسيط وبداخلها اوراق خضراء من الآس وورق النارنج ، والمزهريات على شكل اباريق او (تنكة) ، وفى حافة الصينية ، وبين اطباق الاكل والمزهريات توجد شموع من الوان متعددة ، كالاحمر والازرق والاخضر او بيضاء وهى من الكافور الابيض وفى وسط الصينية شمعة كبيرة طويلة جداً ، صفراء اللون لانها من شمع العسل . ولم تشعل الشموع الا بعد ان هبط الظلام ، واثناء ضحكنا وتصفيقنا . لم ار في حياتى هذه الكثرة من الشموع المضيئة والوانها

الزاهية . اصبح البيت في نظرى ، وكأنه اجمل بيت في الدنيا! . .

والزكريا هي للنساء والاطفال ، ولايحضر الرجال في البيت ، لذلك لم يكن اولاد خالتي في البيت معنا الزكريا تقام احتفالاً بالولد البكر في البيت ، اذا نذرت الام له ذلك قبل ولادته لكي يعيش ، وأحياناً يكون النذر من اجل البنت اذا لم يكن لدى ا لام اطفال آخرون . في اول يوم (الاحد) من شهر (شعبان) تصوم الام ليوم واحد ، وأحياناً ، يصحب الصيام عدم النطق لهذا اليوم ، وهو ما يسمى في العراق (صيام خرسانى) . ويصحب الام اشياء مضحكة لانها تنسى وتستجيب لمن يتكلم قربها من الناس ، ولكن النسيان لايبطل صومها اذا كانت ناسية فعلاً ، وتستمر في عدم النطق وعدم الاكل طيلة النهار .

كانت خالتي تصوم عن الاكل فقط وتتكلم كالمعتاد . وكانت الزكريا ، لابنها الاكبر (حسين الرحال) . وعندما رأيت حسين ، كان شاباً اكبر من أمي (خالته) بثلاث اشهر ، أي ان والدة أمي وابنتها خالتي(ام حسين) ولدتا في نفس الوقت! وهذه الولادات كانت تحدث بكثرة في ذلك الوقت! . . .

لم يخبرنى احد عن (النبي زكريا) ، وكيف انه نادى ربه نداء خفيا ، وانه لم يكلم الناس لمدة ثلاثة ايام ، سمعت فقط انه كان نبياً وعلينا تقديس اسمه كما نفعل مع سائر الانبياء ، واشتد فرحى لان يوم زكريا يجب ان يقام به في كل سنة ، واننا سنرى هذه الحفلة في سنوات اخرى كثيرة لاتنتهى! . . .

اما أمي ، وقد كان لديها اربعة اطفال بصحة جيدة ، وولدتهم بسهولة وبسرعة ، فلم تجد أي ضرورة ان تحتفل بالزكريا لكي يعيشوا . ولكنها كانت تذهب الى بيت اختها للزكريا كل سنة ونلتذ بالزيارة كثيراً! . . .

بعد سنوات ، كنت احتج واغضب لان بيتنا لم يحتفل (بالزكريا) مثل الآخرين . وعند ولادة اخى (مأمون) ، وانا في سن الرابعة عشر واتمكن من ابداء رأى ، قررت اقامة (الزكريا) من اجله ، وافقت أمي ، واحتفلنا بصورة كبيرة . وقد اصبحت مناسبة سنوية لاقامة احتفال في البيت ليجلب الفرح والمسرة .

هنا يجب ان اضيف ، ان أمي لم تكن تقيم لنا حفلات ايام ميلادنا ، وهى عادة لم تكن قد شاعت في بغداد ، رغم كونها سجلت ايام الولادة لنا في دفتر

حافظت عليه لسنوات عديدة . وقد اصررت انا ان نقيم حفلة (يوم ميلاد) اخى مأمون ، وقد وافقت الوالدة على ذلك وضحكت قائلة :

ـ اصبحت انت تقررين ما يحدث في البيت! . .

لكن ذلك لم يحدث ، لان أمي كان لها الامر الاخير في النهاية .

اخذنا نحتفل بيوم الميلاد للطفلين الاصغرين ، (مأمون ورجاء) بعده . ولكن الكبار الخمسة ، اربع بنات وولد واحد ، لم يحتفل بيوم ميلادنا احد! . . .

ليلة المحيا

يبدو ان شهر (شعبان) يحظى بمناسبة سعيدة اخرى للاطفال ، (ليلة المحيا) في منتصف شهر شعبان . انها لاتعنى مأكل خاصة او البسة جديدة ، انها تعنى الالعاب النارية للاطفال في المساء . نشترى العاب نارية ملونة تأتى بشكل علب الكبريت اسمها (شخاط الليل) ، وينطلق منها لهيب احمر اواخضر او ازرق ، و(عين الشمس) وهى اسلاك رفيعة مطلية بمادة ينطلق منها ومضات لامعة واشعاع فضى اللون كالنجوم الصغيرة ، وكذلك (الطرقات) ، وهى خيوط رفيعة عليها مادة متفجرة اذا اشعلت وتحدث أصواتاً عالية .

كنا نلعب بهذه الالعاب النارية في داخل البيت ، ولاندرى مايحدث في الخارج .

في الشارع كنا نشاهد بعض الصبيان الكباريفجرون كرات صغيرة تنفجر بقوة وتطلق صوتاً مثل صوت الرصاص اسمه (البوتاس) ، وكنا نخاف من البوتاس ونكره من يستعمله .

وفى احدى سنوات (المحيا) ، وقفت احدى الخدم عندناواشارت لنا ان نقف معها في الباب وكانت تأتى جماعات من النساء من الطبقة الفقيرة يتجولن بين البيوت وهن يصفقن ويغنين ويضربن (الدنبك) ويزغردن بالهلاهل . بعدها مرت جوقة موسيقية شعبية للرجال تغنى ألحاناً عراقية قديمة وتحمل انواراً ساطعة . الوحيدة التى سرت من هذه التجمعات ، كانت الخادمة نفسها!

السركس الاول في العراق

في الصف الثانى ابتدائي ، في اثناء الاصطفاف الصباحى ، وقفت المعلمة (ست فريدة نورى العزاوى) امام كلها المدرسة وقالت يوجد لدينا فرقة (سركس) في بغداد وانها للصغاروالكبار ، اذهبوا وسوف ترون الحيوانات الضارية كالاسود والنمور والافيال . لم ندر ماهو (السركس) ولكن كلام المعلمة ارسل البسمات الى وجوه الطالبات! . . .يبدو انه شيء جديد جميل .

وكما هو معتاد ، يوم للنساء والاطفال معاً ، ويوم آخر للقسم المختلط للرجال والنساء ، وهذا يشمل الرجال وجالية اجنبية كبيرة مع زوجاتهم واكثرهم من الانكليز ، ومن القوات في معسكر في (الهنيدى) واجانب آخرين . . . .

اشترينا التذاكر من المدرسة ، وذهبنا ، وكنا أمي وانا ولمعان وخلوق الصغير وعمره ثلاث سنوات وو (عائشة) و(بدور) التى ترعى خلوق دائماً .

ركبنا العربانة الى منطقة (باب الشيخ) في بغداد ، ولم اكن ادرى ماهو باب الشيخ . سألت أمي لماذا لم نر باب الشيخ من قبل . جوابها القاطع دائماً اسكتني :

ـ لم تخسروا خسارة كبرى ، انها محلة اخرى من محلات بغداد العتيقة! . . .

وصلنا المحل والناس تفد بالعربات والسيارات ، ورأيت خيمة هائلة الحجم لم ار خيمة بهذا الحجم ابداً! . . .

دخلنا واذا الخيمة الكبيرة خالية في وسطها ، ويحيط بها مقاعد كثيرة على شكل مدرجات ترتفع حول الخيمة وتصل الى سقف الخيمة تقريباً من كل النواحى . وجدنا محل في الصف الاول ، ونظرت حولى واذا الخيمة مليئة بمعلمات وطالبات من مدرستنا والكثير ممن لااعرف من النساء والاطفال .

في وسط الخيمة وضعوا مشبكاً على شكل دائرة وفى الداخل مقاعد ودرجات خشبية ودخل اثنان من النمور الكبيرة بجلدهم المخطط وافواهم المفتوحة وعيونهم الفاتحة الصفراء ومعهم رجل يحمل سوطاً طويلاً ، اخذت النمور تصعد وتنزل على المساند والدرجات بكل مهارة . بعدها رأينا اسداً ولبؤة مشيا فقط داخل المشبك ، وتعالى صراخ الاطفال وتصفيقهم لرؤية الاسود ، ثم ازيل المشبك

الدائرى لانتهاء دور الحيوانات الضارية ، وادخل بعدهم فيل وحيد اثار الاطفال كثيراً . لم يحتج الفيل الى مشبك واقى ، انه لايؤذي وقد احبه الجميع! . .

بعدها صعدت فتيات كلهن بيضاوت جداً وبشعر اشقر قصير ، يلبسن تنورات في منتهى القصر وجوارب طويلة مشبكة تصل الى الخصر لونها ابيض . ارتقين الحبال واخذن يمشين فوقها في الهواء ، وكل فتاة تحمل مظلة فقط في يدها .

ثم لعبوا رجالاً ونساء العاباً عالية وخطرة وهم قرب سطح الخيمة الشامخ العلو ووضعوا تحتهم خيمة مشبكة قريبة من الارض لتحميهم اذا سقطوا من هذا الارتفاع الهائل . وقد خاف المشاهدون من هذه المناظر المرعبة اكثر من خوفهم من الحيوانات . واثناء هذا العرض كان اللاعبون يتكلمون باصوات عالية الواحد مع الآخر ولم ندر بأى لغة كانوا يتكلمون .

وكذلك رأينا الرجال (المضحكين) ذوى الوجوه المصبوغة بالابيض الذى يشبه الطباشير الابيض وشعور سوداء بلون الفحم الحجرى والفم الاحمر الكبير ،ولم نفهم كلامهم .

عند الخروج ، تساءلت السيدات فيما بينهن ان كانت كل النساء في اوربا يتسلقن الحبال ويمشين عليها في الهواء بهذه السهولة! . .

كان الناس يتصورون ان هذا هو شغل عادى لجميع النساء الاوربيات ، ولا يمكن ان نصبح مثلهن ابداً! . .

لم اعلم عن جنسسية (اهل السركس) ومن أي بلاد جاروا ! . . .

فرح والدي لرؤيتنا (السركس) والحيوانات ولم ادر ان كان ذهب مع اصدقائه في ايام الرجال ام لا لانه لا يخبرنا بذلك عادة . اظنه وجد الانسب ان تذهب أمي مع الاطفال دون ان يكون هو المسؤل عن ذلك .

انه رجل لايخرج مع الاطفال ابداً . .

المسرح

جورج ابيض

في الصف الثاني أيضاً وعمرى سبع سنوات وكنت في بيت خالتي ، سمعت خالتي وبناتها يتكلمن مع أمي بكل اهتمام وابتهاج عن موضوع جديد لم افهمه . ذكروا اسم فرقة (جورج ابيض) التمثيلية المصرية ، وان جورج ابيض (يمثل) وتمثيله رائع وعظيم! . .

لم اكن ادرى ماهو التمثيل ولا فرقة التمثيل ، لم تكن هناك مسرحية في بغداد لكي نشاهدها! . . يبدو انها اول فرقة تمثيلية تصل العراق للمرة الاولى .

كانت لدى خالتي مطبوعات تصور جورج ابيض وفرقته . رأيت جورج ابيض في الصورة كرجل مسن جدأ وكذلك زوجته (دولت ابيض) ، لم تكن شابة ، وكذلك اعضاء الفرقة كلها . لم اهتم بهم بعد رؤيتى صورهم . سألتهم اهذا الرجل (ابيض) جداً؟ضحكت أمي وقالت ان (ابيض) هو لقبه وسوف نراه في الغد .

كانت المسرحية في (السينما الوطنى) في شارع الرشيد امام شريعة (سيد سلطان على) والحفلات مرتين في اليوم ، بعد الظهر للسيدات وفى المساء مختلط للرجال والنساء .

ذهبنا بعد الظهر انا ولمعان مع أمي ، وكانت الرواية عن (نابليون) اظن اسمها (فرخ النسر) النسر الصغير ، وكان جورج أبيض يقوم بدور نابليون .

لم افهم الكثير من الكلام ، وكان باللغة العربية الفصحى وبلهجة مصرية غريبة ولكنها جميلة سحرتنى تماماً لوقعها الجميل ، واحببت الملابس التاريخية والسيوف والاضوية الساطعة . ظننت جورج ابيض نابليون نفسه بملابسه العسكرية وقبعته العريضة وعندما يكتب ، كان يستعمل ريشة بيضاء طويلة كقلم حبر تصورته اعظم الملوك كافة .

ورغم عدم امكاني متابعة القصة ، لكن الجو سحرني بصورة شديدة .

وقد احببت حتى الستارة الحمراء الجميلة التى تهبط بين كل فصل وآخر ، والباعة الصبيان وهم يرتدون ملابس داكنة ذات ازرار معدنية ليبيعوا الشاي

والحليب او المرطبات الباردة (صودا ، سيفون ، نامليت) مع الكيك اللذيذ ، ورأيت ان الكيك لديهم هو الذ كيك في البلد . والسيدات يرتدين ابهى الملابس وهن جالسات في الصالة الكبيرة او في الشرفة او في المقاصير . . .

واثناء الفترة بين الفصول يظهر رجل خارج الستارة ويجلس على كرسى وبيده العود ويعزف ألحاناً موسيقية يحبها الناس ، وأحياناً تصحبه مغنية تغنى معه الحان (ام كلثوم) ، واذكر احدى الالحان :

(مالى فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة الاك)

كان الجميع يرددون هذه الاغنية التي حفظتها دون ان افهم معناها ، وقيل بأن الموسيقار كان (سامى شوا) عازف الكمنجاة الشهير كان العازف آنذاك .

قبل ارتفاع الستارة للمشهد التالى ، بضربون على ارضية المسرح بخشبة كبيرة من وراء الستار لكي ينقطع الحديث والاصوات قبل البدء بالتمثيل ، عندذلك يسكت الجميع وتتجه العيون الى المسرح بلهفة .

وبعد الانتهاء من التمثيلية كان يعقبها فصل مضحك يمثله شخص اسود لطيف جداً ويسمى (كشكش بك) وهوليس نجيب الريحاني المشهور ، كان اسمه (عبد النبى) كشكش ، وكان محبوباً عند الناس كلهم! . . .

اصبحت (السينما الوطنى) عندى اجمل محل في بغداد! . . .

ويجب ان اذكر هنا باننى سمعت اللهجة المصرية مثل لهجة (كشكش بك) عندما كنت اتفرج على (صندوق الولايات) او مايسمى صندوق (العجائب او صندوق الدنيا) عند المصريين ، وكنت احب تلك اللهجة ، اما في التمثيلية فاصبحت اللهجة المصرية كأنها موسيقى جميلة اطرب لسماعها! . .

في الصباح اخبرت معلمة الصف (الست مكية) عن التمثيلية ، وانها اجمل شى رأيته في حياتى . المعلمة كانت في تلك الايام من اعز الناس لدي . اجيب عن كل سؤال تسأل عنه في الصف ، وهى تمدحني علناً امام البنات ، كما انها صديقة والدتى . كنت اشعر بأن المدرسة كلها تدور حولها ، أي حول (الست مكية صالح) . واذا بها تقول انها ستأخذنى معها كلما تذهب الى (جورج ابيض) في الايام التى لاتذهب اليها أمي .

وافقت أمي على ذهابى معها بشرط ان تذهب معنا لمعان ، ذات الخمس سنوات . وكانت لمعان ترغب في الذهاب ما دمت سأذهب انا . ولم ادر ماالذى فهمته لمعان من كلام الممثلين ، وعمرها خمس سنوات! . . .

ذهبت مع أمي و(الست مكية) الى (جورج ابيض) عدة مرات ، وكانت المعلمة تأخذنا بنفسها الى البيت .

ومن اسماء الروايات التى شاهدتها اذكر (نابليون) و(اوديب الملك) ، ولا اذكر اسماء اخرى شاهدتها أيضاً .

سمعت لغطاً بين النسوة من جماعة أمي ، عن اشياء لم اسمع مثلها ابداً .

قيل ان ابنة احدى العائلات الكبيرة تعلقت بشاب جميل من الممثلين وانها تذهب وراء الستار لتراه ، وواحدة اخرى اوشكت ان تلقى نفسها من اللوج الى المسرح الذى كان يقع تحت اللوج مباشرة لكي ترى نفس ذلك الشاب! . . كنت اسمع كلامهم ولا يحق لي ان اسأل او اتكلم! . . .في الكثير من الاحوال كانوا يظنون بأنى لااسمع كلامهم ولا افهمه! . .والحقيقة كنت اهتم باقوال الكبار وافهم بعض الاشياء القليلة .

اذكر ان والدي اعترض على ذهابنا عدة مرات الى التمثيليات ، وكان يظن ان أمي تذهب الى بيت اختها ، ولكن ما ان تعود الى البيت وهى مملوءة بالحماس حتى تسرد عليه القصة بحذافيرها . وكانت تسرد القصص بطريقة بارعة واخاذة . يبدأ والدي بالانصات اليها دون اهتمام ، ثم تستحوذ القصة على اهتمامه ، واحياناً تستجيب والدتى الى بعض قضايا البيت قبل الانتهاء من القصة ، يناديها ويطلب منها ان تكمل القصة! . .

وهنا اذكر ان المعلمة اللطيفة (الست مكية) تحولت الى مدرسة اخرى في منتصف السنة التالية . عندما بدأت المعلمة الجديدة تدرسنا بدلاً منها ، كنت اشعر وكأنني مريضة حقاً لغياب الست مكية! .

من المحزن ان تموت (الست مكية) وانا في الصف الاول المتوسط ، ماتت غرقاً في نهر دجلة في الاعظمية وهى تخوض مع بعض صديقاتها وكلهن لايعرفن السباحة! . . وقد ذهبت الى مجلس العزاء الذى اقيم في مدرستها وبكيت طويلاً! . .

بعد ذهاب (جورج ابيض) ، تشكلت للمرة الاولى فرقة تمثيل في بغداد ، اسسها (حقى الشبلى) واسمها (الفرقة الوطنية) .ودخلت معه ممثلة واحدة اسمها (مديحة) وهى متعلمة تعليماً بسيطاً .

شاهدنا مسرحياته البسيطة بالنسبة الى جورج ابيض طبعاً ولكننا اعجبنا به وبمجهوده . ورأينا مسرحيات طلابية كانت تقيمها المدرسة الثانوية المركزية للبنين ، ومسرحيات دار المعلمين الابتدائية .

وقد ذهب حقى الشبلى الى مصر ، ودرس التمثيل وعمل مع فرقة (فاطمة رشدي) قبل ان يعود الى العراق . . .ثم عاد وذهب الى (باريس) لاكمال دراسته في التمثيل ، ولما عاد الى بغداد ثانية ، عين مدرساً للتمثيل في (معهد الفنون الجميلة) ولكنه ظل متحمساً وعاملاً في سبيل تأسيس مسرح عراقى ، ولكن الظروف لم تسعفه . . .ويعتبر (حقى الشبلى) بحق ، من رئد التمثيل المسرحى في العراق . وقد توفى في الستينات .

زيارة الكاظمية للمرة الاولى

في بوم من ايام العطلة الصيفية ، وانا في سن السابعة من العمر ، ايقظتنى أمي في ساعة مبكرة من الصباح والاطفال كلهم نيام في السطح ، وطلبت ان ابدل ملابسى بسرعة لان (الحجية) تنتظر لتأخذنى معها الى (الكاظمية) . وكانت (الحجية) هي (الحاجة بهية خان ام صبيح) ، زوجة خال والدي المتوفى وام (عمى صبيح) زوج اختى الكبرى (بتول) . كنت اعتبر (الحجية) عجوزاً مسنة وذات مركز يحترمها الكبير والصغير في العائلة بسبب شخصيتها القوية الرزينة . وقد تأكد لي الآن بأن سنها آنذاك كان في اوائل الخمسينات! . . .

لم اكن ادرى بالضبط ماهى (الكاظمية) سوى انها محل بعيد جداً عن بيتنا ، واننى سأكون الوحيدة التى ستشاهد الكاظمية من بين كل الاطفال الصغار وعائشة وبدور . كنت فرحة جداً بهذه السفرة وبدت كأعجوبة غريبة! .

أمي تعرف (الكاظمية) من قبل ولكنها وهى في العشرينات من عمرها آنذاك ،كانت لاتستهويها زيارة المقابر ابداً ، ووالدي يشاطرها نفس الرأى! . .

لبست اجمل ثيابى ، وكانت ثياب الاطفال قصيرة وبدون اكمام ، وربطت أمي شريطاً اخضر اللون في شعرى القصير جداً .

خرجنا (بيبى حجية) وانا وركبنا عربة كالعادة في الاماكن القريبة ، لان التاكسى هو فقط للاماكن البعيدة ، والسيارات الخاصة كانت قليلة جداً ومنها سيارة ابنها (صبيح) وكان بستعملها للذهاب الى وظيفته العسكرية .

ركبنا العربة من البيت في شارع الفضل الى شارع الرشيد من جهة (الصابونجية) ، وعبرنا على الجسر العتيق العائم (في محل جسر المأمون) الحالى ووقفنا في محطة (الكارى) في (اكرخ) . اعطت الحجية النقود لسائق العربة ، واذا به يقول :

ـ زيارة مقبولة انشالله! . .

وهذه اول مرة اسمع سائق العربة يتكلم بهذه الصورة . اجابته الحجية بكلمات دعاء .

ركبنا (الكارى) ، وهو قاطرة ركاب واحدة من طابقين وتسير على سكة حديد ويجرها حصان . لم ار الحصان لأننا صعدنا من الخلف وجلسنا في القسم الاعلى . بعد قليل تحرك (الكارى) وشعرت بنفس شعورى اثناء ركوب القطار الى الموصل ، الطريق ينزلق بسهولة تامة رتيبة ولطيفة .

سار الكارى بين البيوت ثم دخلنا بين بساتين جميلة واكواخ ضغيرة ثم رأينا بيتاً كبير له حديقة جميلة وبها تماثيل غزلان . قالت الحجية انه بيت (الجلبى) الذي اشتراه من النواب ، ولم اعرف من هو (الجلبى) ولم اسأل عنه .

ولادرى ان كان البيت الكبير في مكانه ام لا في الوقت الحاضر . توقف الكارى ، ووصلنا الكاظم! . . .كان المكان بيننا وبين الحضرة مليئاً بالناس ، واشتدت دهشتى عندما رأيت البوابه الكبيرة الهائلة ووالقباب وخاصة المنائر الذهبية الاربعة اللامعة تحت اشعة الشمس ، وانا لم ار من قبل الا منارة واحدة في كل جامع . دخلنا الباب الكبير الى فسحة كبيرة جداً مليئة بالناس ، قسم يجلس على الارض خاصة النساء ، ومعهم اطفال صغار نيام على الارض ، او يبكون ويصرخون . اسرعنا نحو باب القبة الداخلية الكبرى واعطينا احذيتنا الى

(الكشوان) الذى يحافظ على الاحذية ويسحبها بواسطة عصا ذات رأس معقوف .

نظر الى الكشوان وانا ارتدى الفسطان القصير ذو الاكمام القصيرة بأستياء ولكنه لم يقل شيئاً ، ولكن قربه كانت امرأة تنظر الينا بعبوس شديد وعداء سافر وسألت الحاجة بصوت جاف :

ـ لم لاتلبس البنت العباءة! . .

اعتذرت الحاجة بأن البنت صغيرة .

فقالت المرأة بصوت عالى :

ـ علموها من الآن على العباءة .

دخلنا الى القبة الكبيرة وانا لاازال مأخوذة بما ارى . رأيت عدداً لايصدق من المرايا فوق الحيطان المرتفعة والسقف المقوس العالى . رأيت قفصاً كبيراً من الفضة بحجم حجرة صغيرة والناس يمسكون القفص بكلتا يديهم ويقبلونه والكل يبكى بدموع غزيرة ويردد آيات من القرآن الكريم وبضعة رجال يتلون بصوت عالٍ جداً صلوات وآيات .

شعرت بالخوف من مظاهر الحزن والبكاء ، وبكيت قليلاً دون ان ادرى ، وبكيت الحجية ايضاً .

بعدذلك اقتربنا من القفص الفضى وامسكنا به بكلتا يدينا وقالت الحجية :

ـ اندعي! . . .

ولم اعرف كيف اندعي . سألتها فقالت :

ـ اطلبى من الله ان يطيل عمر ابيك وامك! . .

اغمضت عينى مثلها ودعوت للوالدين ولاخوتى واخواتى .

ولكن الحجية لم تنورنى ابداً عن الامام موسى الكاظم ولا عن اسباب بكاء الناس .

عدنا الى البيت بالكارى اولاً ثم العربة ، عبرنا نهر دجلة على نفس الجسر ، ورجعنا الى البيت وانا باشد الشوق لاقص عليهم ما رأيت .

ابتسم والدي وانا اخبره كيف ان المرأة في الحضرة اخافتنى بسبب فسطانى القصير وسأل والدتى :

ـ لم لم تلبسيها فسطاناً طويلاً؟
كان جواب الوالدة ان فساطين الاطفال كلها قصيرة ولا يوجد لديهم فسطان طويل ما عدا ملابس النوم ! . . .

ولازال اذكر ذلك اليوم البعيد والتأثير الكبير الذى احدثه ذلك الجمع الحاشد من الناس على طفلة صغيرة لاتعرف شيئاً عن القبور المقدسة ولا الملابس الضرورية لهذه الزيارات .

الآنسة مي

كان والدي يدعونى (الآنسة مي) منذ كنت في سن السادسة من العمر . لم اكن اعرف من هي الآنسة مي ، ولكنى كنت احس بأنه اسم به شى من المديح والثناء علي . وهذه عادة والدي مع الاطفال يهتم بهم كثيراً وهم صغار ، ثم يقل الاهتمام بالتدريج حتى يصلوا سن العاشرة ، وبعد ذلك يضع الامور بيد الوالدة تماماً وبعيدة عن الاب .

كنت في سن التاسعة ، في الصف الرابع الابتدائى ، لذلك كنت لازال احمل لقب (الآنسة مي) الطفولى لدى والدي اثناء المديح . طلب والدي من ابنته (الآنسة مي) ، أي انا ، ان احفظ قصيدة جديدة . كنت سريعة الحفظ للاشعار ، ذكر ان القصيدة هي (للمنفلوطي) ، واذكر انى ضحكت لهذا الاسم الغريب . اخبرتنى والدتى ، وكانت جالسة معنا ، انه شخص مشهور ولوالدي عدة كتب في المكتبه عنه .

ذكر والدي ان القصيدة عن امرأة تطلب من ابنها ان يموت ولايسلم نفسه للعدو . وذكر بأن الام هي (اسماء بنت ابو بكر الصديق) وكنت اعرف اول الخلفاء الراشدين ، ولكنى لم اعرف ان ابنته (اسماء) وابنها هو (عبد الله بن الزبير) ولم ادر من هو (الزبير) . تعلمت هذه المعلومات من والدي بصورة بسيطة ، واخبرنى عن (الحجاج) وقسوته .

وقال ان (الحجاج) غلب (عبد الله بن الزبير) الثائر على الامويين وشنقه وعلق جثته على الاعواد لمدة طويلة ، الى ان اتت امه ، (اسماء ، ذات النطاقين)

وهى عجوز ونصف عمياء وقالت تحت جثة ابنها :

- اما آن لهذا الفارس ان يترجل! . .

ولما سمع الحجاج بذلك ، امر بانزال الجثة ودفنها! . . .

اثارت هذه القصة الحزن الكبير لدي! حفظت القصيدة بسرعة ، وكان والدي يستمع الى ويصحح (الضمة والفتحة) اثناء القائى . واخيراً اخبرنى بأني سوف اتلو القصيدة في حفلة مدرسية في دار المعلمين ، وقد كان هو مديرها لمدة سنة واحدة .

والدتى اخبرت مديرتى والمعلمات ودعتهم الى امسية الحفلة ، وقد حضرن جميعاً وكذلك بيت خالتي واصطحبت أمي معها اختى لمعان وعائشة .

كانت بناية دار المعلمين في الكرخ (الجانب الايسر من بغداد) . محل الاحتفال كان في قاعة كبيرة وفيها مسرحاً للتمثيل ذو ستارة جميلة . وفى نهاية القاعة ، توجد شرفة خشبية عالية مزينة بنقوش جميلة هي محل جلوس النساء ، وبذلك يشاهدن المسرح بسهولة ، وفوق هذه الشرفة مكتوب ، بخط جميل كلمة : (الوطن قبل كل شى ، وفوق كل شيء!) .

كنت ارتدى ثوباً يمثل الوان العلم العراقى الاربعة ، تنورة سوداء ، مع بلوز ابيض ، وسترة حمراء وفى شعرى شريط اخضر اللون .

قدمنى عريف الحفل قبل البدء بالمسرحية ، ولا ادرى ماذا قال . كانت الابيات الاولى للشعر هي :

إن (أسماء) في الورى خيرُ انثى صنعت في الوداع خير صنيعِ

وقد هتف الحاضرون لدى سماعهم الابيات الحماسية مثلاً قولها لابنها :

ان موتاً في ساحة الحرب خير لك من عيش ذلة وخضوع

وقولها أيضاً :

لا تسلم الا ُالحياة! والا هيكل شأنه وشأن الجذوع

وبعد الانتهاء ، كان التصفبق طويلاً وعالياً .

كان والدي جالساً يبتسم . جلست بجانبه وتحدثت مع من كان قربه ، ثم اسرعت الى نهاية القاعة لكي ارى المديرة والمعلمات . امتدحوا القائى وسمعوا

صوتى واضحاً وهم في نهاية القاعة .

وكانت المسرحية حول (عبد الكريم الريفى) تدور حول فرنسا واستعمارها لشمال افريقيا ، وكان حماس الطلاب رائعاً!

وفى الختام ، انشد الطلاب نشيد : (بلاد العرب اوطانى) ،ثم نشيد فيه تمجيد للملك فيصل الاول :

وطنى والحق سينجدهً مازلت بحبــى اعبدهً

ان اخلق ثوب كرامتنا يا فيصل انت مجددهً!

وفى كل مرة يذكر اسم فيصل ، ينهض الجميع من مقاعدهم! . . . .

ولادة ابنة اختي بثينة، وامل اختي الصغرى

ولدت اختي الكبرى بنتاً اسماها والدها (بثينة) ، كان هذا الاسم عير مألوف في بغداد في ذلك الوقت ، والناس اصبحوا في شغف لتسمية الاطفال بالاسماء العربية القديمة للاطفال .

كانت بثينة طفلة جميلة وكانت اول حفيدة لوالدي ، اما بالنسبة الي لقد جعلتني (خالة) وانا في سن التاسعة فقط وشعرت بالزهو وكأنني كبرت في المنزلة . لم اكن اعلم ان اختي كانت حاملاً لانهم لايخبروننا بمواضيع هي للكبار فقط .

ولدت اختي في المستشفى الملكي وهذه هي المرة الاولى ولادة طفل في العائلة في المستشفى لان زوجها لم يرغب ان تولدها قابلة في البيت .

اخذ افراد العائلة يتندرون بهذا العادة الجديدة .

كذلك لم اعلم بان والدتي كانت حاملاً ونحن بانتظار طفل جديد آخر ، خاصة وان الوقت كان شتاء والملابس ثخينة ، فلم اشاهد التغيير في شكل والدتي . حدثت الولادة وكان والدي مسافراً خارج بغداد .

ارسلونا الى بيت اختى الكبيرة في عصر احد الايام وكان الوقت شتاء ، وكانت الطفلة بثينة نائمة وكان عمرهاُ ثلاثة شهور . ولما رجعنا في المساء رأيت خالتي وبناتها الاثنتين ، ومعهم (الجدة أي القابلة) في غرفة الوالدين ، وامى في

الفراش وخالتي تحمل طفلاً جديداً ملفوفاً بقماش ابيض وتضحك :
ـ اخت صغيرة اخرى! . .اصبح لأمك اربعة بنات وولد واحد! . .

كنت قد سمعت الكثير عن الفروق بين الولد والبنت ،في الالعاب الرياضية والكشافة وركوب الدراجات في الشارع وغيرها ، واصبحت لااطيق ان اسمع هذا الموضوع . ولحسن الحظ ، لم نسمع من والدي او والدتى أي كلام عن هذا الامر . كان والدي يشجعنا على الدراسة والنجاح في المدرسة دائماً ، وكذلك أمي . لذلك لم اجد مايمكن ان اقوله امام خالتي سوى ان اتحداها بالكلام قلت لها بعناد شديد :

ـ البنات احسن! . .فرحت لانها بنتاً! . . وكررت ذلك عدة مرات امامهن .

الطفلة الوليدة كانت كبيرة الحجم ، بيضاء جداً وعيونها مفتوحة ، نظرت اليها وقلت : ما اجملها! . .

واذا بخالتي وبناتها يشرن كعادتهم دائماً :
ـ انظرى الى انفها ، انه كبير جداً! . .

واذا بامى تقول : هذا من تأثير الولادة وسوف يصغر بعد ايام! . . .

فرحت لان أمي دافعت عن الوليدة الجديدة! . . . اما انا فلم اشاهد أنفاً كبيراً ، بل رأيت طفلة جميلة!

وقد احببت الطفلة منذ اللحظة الاولى! . .

في الصباح كنا نلعب لعبة (التوكي) انا ولمعان في الطابق الاسفل واذا بصديقة لمعان في المدرسة وهي ماجدة ابراهيم تدخل في بيتنا مسرعة وسألت عن (الجدة) وركضت عدواً الى الطابق الثاني وانا ولمعان نعدو خلفها دخلت غرفة والدتي وقالت ان امها في حالة الولادة وتطلب الجدة الآن . نهضت الجدة رأساً وتوجهت نحو الباب مع ماجدة الى بيتهم .

عادت الجدة الى بيتنا بعد الظهر وقالت ان السيدة ولدت بنتاً واسمها (نافعة) . وبذلك تصغر اختي امل بحوالى اثنتي عشرة ساعة .

+ تزوجت نافعة صديقنا خليل الداغستاني بعد ان طلق زوجته الاولى الانكليزية في الخمسينات ومن عليه الله باطفال من الزوجة نافعة .

في المدرسة سألتني المعلمات عن أمي وعن اسم الطفلة الجديدة ، قلت اسمها (امل) فقالت الست (فريدة نوري العزاوي) ، انها ستكون الامل الجديد . .!

عاد والدي بعد ثلاثة ايام ، وكنا نلعب (التوكى) أيضاً في الطابق الاول ، اعطيته الخبر وقلت وانا اضحك ،ان الطفلة حلوة جداً ولكن الجميع ارادوا ولداً! . .

ضحك والدي وارتقى الدرج بسرعة ، وتبعته . وقد اظهر سروره الكبير بالطفلة ، وفي اليوم السابع نحرت ذبيحة ابتهاجاً بالسلامة واحتفلت العائلة! . . .

وسرعان ما كبرت الوليدة واصبحت طفلة ممتلئة صحة ونشاطاً ، بيضاء وردية اللون ، شقراء الشعر تعلمت الكلام بسرعة وتعلق بها الوالدان تعلقاً شديداً وكانت أمي تفخر بنموها السريع وكلماتها الفصيحة واصبحت البنت الرابعة لوالدتي (والخامسة لوالدي) ، اصبحت معشوقة البيت كله! . .

وخالتي لاتسكت عن ذلك بل تضحك منهم وتقول :

ـ حقهم! . . محرومين بنات! . .

بعد ولادة امل باسابيع قليلة ، اجرى والدي اصلاحات كبيرة في الدار مع البنائين والنجارين وصباغي البيوت . خلعوا الطابوق الفرشي في ساحة البيت وصبوا البيت كله بالاسمنت المسلح الاملس ، وابدلوا ارض الطرار بكاشي ملون جميل النقوش ، واعيد طلاء البيت والغرف بطلاء زيتي وبالوان فاتحة لطيفة ، وحفروا في وسط حديقة الدار الداخلية حوضاً كبيراً للماء مثمن الشكل مع فسقية (شذروان) في وسط الحوض ، ونصبوا فوق اطراف الحوض اربعة تماثيل لاربعة من البط من السمنت الملون حول الحوض ، وكانت البط من صنع الاستاذ (فتحي صفوت قيردار) ، اذ كانت هديته للحوض الجديد .

واستبدل الحمام الى حمام اكبر ، فيه محل لنزع الملابس ولبسها ، ووضعوا صفائح حديدية في ارض الحمام وغطيت بالاسمنت بحيث تصبح اثناء وضع النار في الشتاء تحت القدر النحاسي الضخم شديدة الحرارة ولايمكن ان نمشي فوقها دون لباس القبقاب الخشبي ، واضيف الى الحمام(الدوش) في السقف .

كذلك ابدلت (القمرية) القديمة ، بواحدة اكبر واعلى منها ، وصبغت باللون الاخضر ، ووضعواعليها الاشجار المتسلقة كدوالي العنب ومعه الليف والنيليفور .

بعد ذلك رأيت عمى (محمد صالح) المقدم في الجيش آنذاك ، والذى كان يعيش في بيتنا مع اولاده الثلاثة ، ومربيتهم (دادى) الافريقية السوداء ، رأيته وهو يشتغل بكل همة ونشاط ليرسم جداريات على الحيطان التى اصبحت ملساء لامعة بعد الصبغ الجديد . وكانت صوره جميلة ، للريف ، وللغروب ونهر دجلة وغيره على الجدران .

كان عمى يرتقى سلماً خشبياً لكي يصعد ويجلس فوق لوحة خشبية عالية جداً تشبه ما يصنع البنائون عندما يشتغلون في اماكن عالية عن الارض ، ومعه ادوات الرسم والفرش وقطع من القماش لمسح الفرش والدهن . وكنا نراقبه وهو معلق فوق رؤسنا يشتغل ساعات طويلة . وتبقى اللوحة الخشبية العالية في مكانها لمدة ايام حتى ينتهى منها ويتحول الى المحل التالى . وقد احببنا الصور كلها ، ولكن ابن عمى الاكبر (زيد) وعمره سبع سنوات ، وهو فنان مثل ابيه تماماً ، كان مبهور بها وشديد الفخر بما ينجز والده من رسوم وكأن والده سحُار ماهر! . . .

وقد اضافت هذه الصور الجدارية الكثير من الجمال والرونق الى البيت المتجدد! . .

لم اعلم آنذاك عن السبب في هذا الاهتمام الشديد بالرسوم الكثيرة ، لان عمى اخذ اجازة شهر قضاها بالرسم . ظننت الامر هدية للبيت ، وكان نعم الهدية! . . . ولكن السبب الاصلى ، انه كان يستعد للزواج مرة ثانية بعد وفاة زوجته الاولى .

لم تخبرنى أمي عن الزواج الا بعد ان سمعتها تتكلم مع خالتي وانا انصت لهم . منعتنى أمي ان اقول شيئاً للاطفال خاصة لاولاده ، ولكن الجميع كانوا اصغر من ان يفهموا الموضوع .

قبل زواج عمي بقليل حدث في بيتنا زواج لشخصين .

كانت العائلة تعرف سيدة من عائلة كردية تسكن في بغداد منذ مدة ولها لهجة كردية واضحة اثناء كلامها اللغة العربية ، وكانت تأتى لزيارة افراد العائلة ، والجميع يقيم لها الاحترام والمحبة واسمها (ام نوري) وهى صديقة خالة والدي بصورة خاصة . وكانت تسكن في زقاق (جامع على افندى) الذى يتفرع من شارع

(الفضل) الى محلة (الطوب) ، وتسكن مع ابنها الشاب الوحيد (نورى) وهو معلم في الابتدائية .

وقرب بيتهم ام نوري ، بيت اولاد وبنات المرحوم (السيد سلمان) وهو والد (ياسين باشا الهاشمى) احد رؤساء الوزارة في ذلك الوقت واخيه (طه الهاشمى) من كبار رجال الجيش واصبح رئيساً للوزراء فيما بعد أيضاً ، وكل يسكن مع عائلته في بيوت اخرى . وكان لياسين باشا اخوات في سن الزواج ، وارادت (ام نورى) ان تخطب البنت الكبرى الى ولدها (نورى) . اتت الى والدي وطلبت منه ان يقوم بالخطبة مع ياسين باشا الهاشمي الذي يعرف والدي من ايام استانبول .

رجع والدي مسروراً بعد الخطبة ، لأن ياسين باشا وافق على الخطبة وقال لوالدي اثناء الكلام :

ـ انها اختك أيضاً! . .اذا توافق انت على هذا الزواج فأنا موافق أيضاً! . . .

وهكذا تمت الخطوبة ووزعت بطاقات الدعوة للرجال بأسم والدي لعقد قران (نورى فتاح) في بيتنا! . .

وفى صباح يوم الجمعة في فصل الصيف ، وكان البيت مملوء بالارائك والكراسى ، اذ كانت الدعوة كبيرة جداً ! . . .ورأينا الحلوى والمناديل الحريرية البيضاء ، لكننا لم نر من الدعوة شيئاً ، لان أمي ارسلتنا الى بيت خالتي في الصباح ، ولما عدنا ظهراً ، كانت الحفلة منتهية والكراسى المصفوفة كلها خالية ، ولايوجد من الناس سوى الأهل .

وقد سر عمي مدح الجميع للصور الجدارية الجديدة كذلك اعجبوا بالحوض والبطات الاربعة والقمرية العالية وعناقيد العنب ، وشجرة الرمان الكبيرة وشجرتين كبيرتين من (الاخلامور) يصلان الى مستوى السطح .

وسمعت عمى (محمد صالح) يقول كيف ان (بكر صدقى) ، وكان بين المدعوين ، وهو وعمى درسا معاً من ايام المدرسة (الرشدية) و(الحربية) وتخرجا معاً ، الح عليه ان يرسم له صورة جديدة لكي يضعها في بيته! . . وان عمى وعده بعمل ذلك! . .

الذي قمت بتدريسهم في كلية الطب بعد سنوات عديدة

أمي تبنت فتاتين من اعمار متقاربة . الاولى (عائشة) من لواء كركوك ، والثانية (بدور) من لواء الموصل . وقد كان مركزهن معنا كالأخوات الكبار ، كنا نحن الاطفال نسمع منهن ونقوم بما يشرن علينا من التصرفات والعادات ، خاصة امام الآخرين . وكن اكبر مني بنحو ست سنوات . وامي تحبهن وتسمع منهن دائماً ، وكن يحبونها بدرجة كبيرة ، ويعملن أي شيء في سبيلها .

عائشة داومت في المدرسة وتخرجت من دار المعلمات كمعلمة للدراسة الابتدائية . وقدكان لها ميل خاص الى الفنون الجميلة كالرسم والخياطة ، وكانت هي الخياطة في البيت في كافة الامور .

اما(بدور) فأنها لم تهتم بالمدرسة والدروس ، وكانت سيدة بيت ممتازة ، تحب النظافة والترتيب وتعشق الاطفال الصغار وتظن بأننا احسن من كل الاطفال في كل شيء! . . . كانت (بدور) على جانب كبير من الجمال بوجهها الابيض وشعرها الفاحم السواد المسبل وانفها الصغير وفمها الباسم في اكثر الاحيان ، وكانت أمي تفكر في مصيرها في المستقبل ، أي بعد بضعة سنوات ، في ان تتزوج شخصاً متعلماً . اما انا فكنت احب بدور جداً وافضلها على(عائشة) ذات الرأى الشديد والعنود دائماً .

يبدو ان بقالاً شاباً قرب بيتنا رآى (بدور) وهى تشترى منه بعض الاشياء للبيت واعجب بها ، ويبدو انها استجابت له ، فارسل امه لتخطبها . أمي اخبرت (بدور) ان تنتظر وتتزوج (افندى) متعلم . أجابتها(بدور) :

ـ انا لست بنتاً لأفندى ، والبقال انسان شريف جداً! . .

وافقت أمي رأساً لما رأت اصرارها ، واخبروا ام البقال وتمت الخطبة والمهر بسكون لأن والدي كان غير راض على هذا الزواج . كنت انا في نفسى ، في جانب (بدور) لأنني احبها واريد لها ما تريد! . .

وكان العريس يعيش مع امه واخيه واولاده .

اشترت أمي لها اثاث غرفة نوم جديدة وغرفة جلوس جديدة واشترت لها ملابس كثيرة ،مع ثوب العرس الابيض والاكليل والورود والحذاء الابيض الفضى .

في يوم العرس ، اصبت انا بنوبة حمى عالية اصابتنى في ذلك اليوم فقط .

ذهب الجميع للعرس وبقيت في البيت . في اليوم التالى ذهبت لأراها . رأيتها جالسة على كرسى ومرتدية احد ثيابها الجديدة ولكنني لم ارها في ثوب العرس . وكانت تبدو سعيدة جداً! . .

لقد اندمجت مع عائلة زوجها تماماً ، وتركت فراغاً كبيراً في بيتنا . -

زواج عمي

بدأت أمي تتكلم عن خطوبة عمى محمد صالح (ابو زيد) وانا اصغى لكل ماتقول لأختها وبنات اختها ، وقد شاقنى الموضوع جداً ، لأنني اعرف العروس الجديدة واستحسن شكلها .

وقد كانت هي واخواتها صديقات لأمى منذ وقت طويل . اختها الكبرى متزوجة من السيد (حسن فؤاد) وقد كان مدير شرطة لواء الموصل ، وابنته - (ساهرة) وكانت طفلة آنذاك .

وقد تزوجت فيما بعد من السيد جميل الراوى وولدت ابنتها (بلقيس) التى تزوجت الشاعر المشهور (نزار قبانى) وماتت بسبب قنبلة في السفارة العراقية في بيروت ، واخت العروس الصغرى متزوجة من السيد (احمد الراوي) ، وكان مدير شرطة لواء بغداد آنذاك ، والعروس المقبلة هي الوسطى بين الاخوات ، وعمرها يناهز الخامسة والعشرون (عمر عمى في بداية الاربعين) .

في بيتنا فرشوا غرفتين الواحدة للنوم ، والثانية للاستقبال ، فاصبح عندنا غرفتان للضيوف . وكان الاثاث الجديد فخماً وجميلاً . ورأيت ادوات التواليت كلها من الفضة الخالصة على الطراز الشرقى القديم ، والمرآة والامشاط وفرش الشعر وحتى (حجر الحمام وكيس الحمام) مغلف بفضة خالصة .

قامت بخياطة ثوب العرس الابيض الجميل ، خياطة يهودية اسمها (فكتوريا) وهى اشرفت على تطريز غطاء الفراش الحريرى واغطية السرير والمساند والملاءات ، وكانت (فكتوريا) سيدة طويلة القامة ، مليئة الجسم كثيرة الغرور والكبرياء ، لاتتحمل ان ينتقد عملها أحداً ، لانها تخرجت من (الآتيليه! . .) وكلمة آتيليه كأسم فقط ، كانت تعنى الكثير بالنسبة (لسيدات بغداد) وكأنها

مركز الازياء في العالم ، مع انها كانت مدرسة للفنون المنزلية للبنات اليهوديات ، تبرع بفتحها احد اثرياء اليهود على حسابه .

كانت حفلة العرس النسائية في بيتنا . واصر اهل العروس ان تكون الحفلة عائلية فقط ، لان العروس فقدت اخاها الشاب قبل اشهر قليلة وكانت لاتزال في الثوب الاسود اثناء الخطبة .

في يوم العرس ارتدت العروس ثوباً ابيض جميلاً ، وعلى رأسها الطرحة البيضاء الرقيقة وعليها ورود الياسمين الناصعة ، وتحمل بيدها باقة زهور ، لكن امها واخواتها ، بقين بالملابس السوداء حتى وهن يحطن بالعروس . ولم يكن بالحفلة أي طرب او موسيقى بسبب الحداد .

عمتى علقت بأن (نصيب البنت قد اتى ، ولن يقف في وجهة النصيب أي شيء حتى الحداد! . .) .

اندمجت العروس مع افراد الاسرة ، وقد احبها عمي زوجها ، وتعلق بها اولاده . اظنها احسن زوجة اب رأيتها في بلادنا . كانت هادئة الطبع ، لينة الجانب لاتعرف الخشونة في المعاملة ، ترحب بكل من يدخل بيتها ، ذكية جداً ، تقرأ الجرائد والمجلات والقصص . وقد انجبت خمسة اطفال! .

وقد كسبت حبى واحترامى لها من الصغر الى النهاية . وحضرت مراسيم وفاتها وكنت قادمة لزيارة بغداد من لندن سنة ١٩٨٢ . وفقدت العائلة بوفاتها شخصية عزيزة لايوجد مثلها الا نادراً! . . .

عرس عمو فضلي

فضلى نجيب العزى ، ابن خال والدي الاصغر ، والاخ الوحيد (لصبيح نجيب) .

عرسه لم يكن في بيتنا بل في في بيت اخت زوجة والدي الاولى (خالة معروفة خالة اختى بتول واخى احمد) . وقد كان البيت ملاصق لبيتنا .

في العائلة لايوجد لدينا رجال يميلون للطرب والحفلات الغنائية ، ولكن (عمو فضلى) اصر على ان يكون في عرسه بهجة وطرب .وكان له ما اراد .

ان (فضلى نجيب العزى) شخص ولد ومعه فالج خفيف في جسمه الايسر ، وكان يمشي وهو يعرج قليلاً ، ولكنه لم يحتج الى عصا لتساعده . - اثناء المدرسة كانوا يسمونه (فضلى تيمورلنك) لأن القائد المغولى الكبير الذى غزا بلاد الشرق كان يعرج قليلاً- ويظهر ان ذلك جعل منه رجلاً ضحوكاً صريحاً سريع الخاطر ملئ بالسخرية من كل شيء امامه . وكانت افراد العائلة يحبون كلامه ويحترمون نكاته اللاذعة الذكية ولاتكتمل الجلسة العائلية الا بوجوده . وكان برغم كل ذلك شديد الاحترام لوالدي ولاخيه صبيح بسبب فرق العمر وكذلك لوالدته (الحجية) . وكان سنه في الثامنة والعشرين من العمر اثناء زواجه .

العروس كانت تلميذة في الابتدائية ، وعمرها خمسة عشر عاماً وقد فقدت والديها وهى طفلة صغيرة وربتها عمتها التى لم يكن لديها اطفال ، ونشأت كطفلة وحيدة مدللة ومحبوبة جداً .

في يوم (المهر) ، اقامت العمة حفلة (المولد النبوى) ورأيت العروس للمرة الاولى ، وكانت تجلس على كرسى عالٍ ويحيط بها بعض الفتيات من اقاربها . لم اقترب من الجمع كثيراً لأن جماعة الاطفال ، وانا منهم ، كنا نجلس في محل معين ، لكي نتفرج على الغناء . لم تعجبنى اغانى (المولد) ، كانت طويلة ورتيبة ، ولم افهم منها شيئاً .

اعجبنى شكل العروس ولباسها الجميل وطولها الفارع ، وظننت انها امرأة كاملة ، وهى في الحقيقة فتاة مراهقة لاتكبرنى الا بستة اوسبعة اعوام فقط! . .

بعد ايام قصيرة ، كان يوم العرس في البيت الملاصق لبيتنا . وكان الوقت شتاء ، والحفلة كانت في الطابق العلوى . وهنا رأيت العروس بملابس العرس البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء شفافة وتاج جميل وتحمل زهور بيضاء . وكان هناك نساء قريبات من العروس يعزفن العود والدنبك والدف ، وهن يغنين ويصفقن . وكنا في بيتنا ، نعتبر هذا الغناء والرقص شيء لانرتضيه ولا يلذ لنا سماعه! . .اشياء متخلفة شعبية ودونية حسب افكار (المتنطعين) في العائلة ، وهم كثر! . . .

وفجأة ، دخلت راقصة شابة لطيفة الشكل تلبس ثوباً شديد اللمعان وشعرها

الكث الاسود الطويل منثور على كتفيها ، وبدأت ترقص بشكل اعجب المدعوات جميعاً ، وقد اعجبنا بها نحن الاطفال واخذنا نصفق لها ونشجعها طيلة الوقت . قيل انها من (الكاولية) أي الغجر ، ارسلها قريب وصديق قديم للعريس ، الضابط الرئيس (ايوب صبرى العزى) .

في المساء ، خرجت المدعوات من النساء ، ولم يكن قد جاء العريس بعد . جلست قرب العروس واخذت اتطلع الى وجهها باعجاب ، واذا بها تقربنى وتضع ذراعيها حولى وتقبلنى! . .قبلتها انا كذلك وانا مندهشة ، واذا بها ترفع من على الاريكة بجوارها دمية كبيرة! . .ثم اضافت :

- العبى بهذه الدمية ثم ارجعيها قبل ذهابك الى البيت ، انها لعبتى المفضلة! . .

تعجبت من شابة تلعب بالدمى ، ولكنى لم اقل شيئاً ، وعرفت بعد ذلك ان الشابة حافظت على الكثير من مشاعر الطفولة ، وانها لاتزال تلعب بهذه الدمى الجميلة! . . .لقد لعبت بالدمية واحببت العروس الجديدة (بدرية) ، كما احببت دميتها ، وبقيت احبها الى النهاية .

ولدت بدرية ستة اطفال ، توفى احدهم صغيراً ، وعاش ثلاثة اولاد وابنتان ، درسوا وتخرجوا . سمعت بخبر وفاتها انا في المملكة السعودية ، ارسلت البرقية لاولادها وانا اشعر ان العائلة التى عرفتها كطفلة بدأ الكبار الاعزاء فيها يتناقصون الواحد بعد الآخر! . .

الانتهاء من المدرسة البارودية

في سن التاسعة والنصف ، ونحن في العطلة الصيفية ، كنت فخورة امام الاطفال بانني سوف اذهب الى المدرسة (المركزية) بعد انتهاء العطلة ،وسأتعلم لغة جديدة في الصف الخامس ، اللغة الانكليزية . واذا بعمى (محمد صالح) وامي تناديه باسم (ابو زيد) واذا به يتكلم بكلام لم اسمعه من قبل في بيتنا . وكان يكلم والدتى بصوت هادئ كعادته دائماً :

- ان سانحة قد كبرت ، ويجب ان ترتدى جوارب طويلة بدلاً من هذه

الجوارب القصيرة ، خاصة لان ملابسها قصيرة بالكاد تغطى ركبتيها! . .

بهت انا من هذا الكلام الغريب . ولكن أمي ضحكت وقالت :

ـ انها صغيرة ، لندعها تتمتع بالطفولة ، وتلبس ملابس الصغار . (ابو زيد) ، انا احب الاطفال اطفالا وليس اقزاماً للكبار! . .

لكن عمى لم بسكت ، بل اضاف بلهجته الهادئة الحاسمة :

ـ ان سانحة يجب ان تمتنع من الذهاب مع الاطفال مع (عيدان) المراسل ، ويجب ان تخرج من البيت مع امها فقط! . .

لم تشأ أمي ان تناقشه ، لان الاحترام بينهما كان كبيراً . سكتت ولم تقتنع بكلامه .

اما انا ، فقد شعرت وكأن عمى الذى احبه ويحبنى قد اصبح شخصاً غريباً يريد ان يشوه على طفولتى ويجعلنيكالنساء الكبار! . . . لن اصغى اليه ، لن اسمعه! . . .كرهته وصرت اتجنبه كلما رأيته ، ودام ذلك لسنوات عديدة! . . .

اخبرت أمي والدي ، حول الجوارب القصيرة والخروج مع الاطفال مع (عيدان) .

نظر والدي الينا من غرفته ونحن تلعب في حوش الدار ، ورآنى الرئيسة بين الاطفال وقد شددت حزاماً جلدياً وبه سيف خشبى صغير كما كان الاطفال الاخرين يلبسون أيضاً . كنا نلعب عصابات ونتحارب! . . . لم يقل شيئاً عن كلام اخيه واعتبر الموضوع لايستحق الكلام! . . . وهذا حقق لي سنتين او ثلاثة احتفظت خلالها بطفولتى التى كنت احبها ، ولا اطيق حياة الكبار كما كنت اراها امامي! . .

بيت الرحاّل

كنت احب بيت خالتي حباً جماً وأحياناً اقضى معهم ايام الخميس وارجع الى بيتنا يوم الجمعة .

وكان السبب في حبى الكبير بهم هو هدوء بيتهم ، لم يكن لديهم اطفال ، وكنت اذهب عندهم واصبح الطفلة الوحيدة هناك ،بينما في بيتنا انا الطفلة الكبرى وورائى اخوات واخوان واولاد عمى . والسبب الثانى كان عندهم اعتقاد

واضح بأن الرجال والنساء متساوون في كل شيء . وهذا العقيدة آتية من الولد الاكبر (حسين الرحال) الذى ذهب الى المانيا في ايام الهدنة لمدة قصيرة وهو دون العشرين من العمر واكتسب الكثير من التفكير الاوروبي .

ومن اسباب مؤازرة (حسين) للمرأة هو ما حدث لاخته (سنية) وزوجها ابن عمهم المقدم (مهدى الرحال) . لقد جعلته ينفر ويكره الكثير من الاحوال السائدة حول حقوق الرجل على زوجته ، واصبح دائم السخرية من الشرائع كلها ويريد تبديلها بأى شكل . ولهذا كان شديد الاعجاب (بمصطفى كمال) رئيس الجمهورية التركية الحديثة وتحريره للمرأة التركية .

في هذا الوقت كانوا يعيشون معاً ، امهم خالتي ، وحسين الابن الاكبر وهو غير متزوج وفى سن أمي خالته وعمره سبعة وعشرون عاماً ، و(سنية) اخته وتصغره حسين بسنتين وزوجها المقدم (مهدى الرحال) وهو ابن عمهم ، و(امينة) الاخت الصغرى وكانت صبية في الخامسة عشر من عمرها طالبة في السنة الاولى من دار المعلمات اما الاخ الاصغر (محمد) فقد كان مهندساً يشتغل في الجنوب وعمره لايتجاوز الحادية والعشرين .

هنا يجب ان اذكر ان (سنية) كانت قد تركت زوجها وعادت الى بيت والدها في اول زواجها قبل عشرة اعوام ، ولكن زوجها رفض ان يطلقها وتزوج عليها امرأة ارمنية فاضلة ولدت له ولداً اسمه (خالد) . في هذه الفترة التى انا بصددها ، كان عمر خالد اربع سنوات ولم اكن قد رأيته ، وقد كبر (خالد الرحال) واصبح من كبار الفنانين في النحت في العراق منذ الخمسينات .

وكنت احب (امينة) الصغرى و(سنية) الكبرى ، اما اخوانهم فلا اعرف عنهم الا القليل ، وكنت اخاف من(حسين الرحال) وأتحاشاه ، بسبب بدانته ورأسه الضخم وعيونه الزرقاء الكبيرة النافذة وصوته القوى الآمر ، ولكن اخته (سنية) اخبرتنى انه يعمل الكثير من اجل المرأة . ولم ادر ماذا كان يفعل من اجل المرأة ، ولكن خوفى منه قل كثيراً . سمعت منه انه يعتقد بما يعتقد به (مصطفى كمال باشا) الذى حرر المرأة في البلد الاسلامي الوحيد في العالم (تركية) ، وان العالم الاسلامي كله متأخر ومتخلفا . . وكنت اسمع عن (مصطفى كمال باشا) .

رئيس جمهورية تركيا الحديثة ، وكان قد اصبح البطل الذى غلب الجيش اليونانى وادخل الاصلاحات في البلاد ، خاصة ، مساواة الرجل والمرأة ، الزواج بزوجة واحدة فقط وسفورالمرأة وغيرذلك . وقد اثرعلى العالم الاسلامي والعربى تأثيراً كبيراً ـ .

(ولم يكن قد بدأ بتغيير الحروف العربية في اللغة التركية الى حروف لاتينية في ذلك الوقت ، وهو الامر الذى اثار العواطف الاسلامية في كل العالم الاسلامي) .

رايت التأثير في ايران في المجلات والاصلاحات التى قام بها الشاه (رضا خان) والمدارس للبنات ، ورأيت صور الشاه (امان الله خان) ملك الافغان وزوجته (الملكة ثريا) وهى تجاس معه سافرة وتلبس ملابس اوروبية . وكذلك التأثير الكبير على النهضة النسائية في مصر .

اصبحت اميل الى كلام (حسين) واستمع لما يقول مع اخته . وكان يحترم اخته (سنية) ويقدرها . وصرت اسميه في نفسى (حسين المتمدن) رغم خوفى منه ، وكل شخص يعتقد بالافكار القديمة الضيقة والمحافظة اسميه (متعصب) . . . وكان برأس المتعصبين في نظرى هو عمى (محمد صالح! . .) وهو الرقيق المهذب دائماً! . . .

كنت استمع الى اغانى في بيت خالتي لم تكن موجودة في بيتنا على (الكرامفون) . كان في بيتنا اسطوانات قليلة لاغانى تركية قديمة واناشيد مدرسية حديثة ، اما في بيت خالتي فقد كانت لديهم اسطوانات كثيرة اكثرها مصرية (لام كلثوم) و(محمد عبد الوهاب) و(سيد درويش) واغانٍ بعضها تركية اوايرانية . وكنت افضل (محمد عبد الوهاب) على الجميع ولا احب صوت (ام كلثوم) الرفيع ، او التكرار (لسيد درويش) ولم اكن افهم معانى الكلمات في جميع الاغاني ! . .

بدأت اقرأ عندهم مجلات مختلفة لايشتريها والدي . كان والدي يشترى مجلة (الهلال) ومجلة (المقتطف) وكنت اتطلع الى الصور في(الهلال) ولكن اجد المقالات صعبة . اما (المقتطف) فلم اكن انظر اليها لعدم وجود الصور فيها والمقالات

علمية للكبار فقط . في بيت خالتي وجدت مجلات لطيفة مسلية ومصورة مثل مجلة (كل شيء) ومجلة (العروسة) و(اللطائف المصورة) وكنت افهم اكثر المواضيع . ان (مهدى الرحال) زوج (سنية) ، يعلم ان زوجته لاتحب الخروج ، فكان يشترى لها مجلتين او اكثر في الاسبوع وكلها مجلات مصرية ، وقد يتأخر في شراء أي شيء ما عدا شراء المجلات الاسبوعية لها! . .وكانت هذه العادة من مزاياه الجيدة .

كانت المجلات المصرية حافلة بصورالامير الصغير (فاروق) ولى عهد المملكة المصرية ، واخواته الصغيرات الثلاث (فوزية وفائزة وفائقة) وجمالهن الرائع وكنَّ جميعاً دون العاشرة من العمر . وكان الملك (فؤاد) والدهم ملك مصر ، بوجهه المتكبر البدين وشاربه المنتصب الى الاعلى .

تعلمت اسماء ملوك اخرين في بلاد بعيدة ، مثل الملك جورج الخامس ملك بريطانيا وامبراطور الهند وزوجته الملكة مارى ، والبرنس اوف ويلس ولى عهدهما ، والطفلة (اليزابيت) الملكة الحالية لبريطانيا واختها الصغرى (مارغريت روز) ووالدهما (الدوق اوف يورك) الذى اصبح الملك (جورج السادس) بعد سنوات . وكانت الالقاب الغربية لها وقع ساحر في نفسى مثل (برنس ودوق) . ورأيت صور ملوك السويد والنرويج وملك البلجيك وملكة هولندة وبعض ملوك البلقان وادهشنى ان ملك البانيا كان اسمه (احمد زوغو) ، أي انه كان مسلماً! . . . كذلك قرأت عن الشاه (رضا بهلوى) وقبعته البهلوية الغريبة وابنه (شاهبور محمد رضا) ، وصور الزعيم الهندي (غاندى) بجسمه الهزيل العارى ، ما عدا مئزراً يلفه على اسفل جسمه وبيده مغزلاً لكي ينسج ملابسه منه .

رأيت وقرأت اخباراً عن (ايمى جونسون) الطيارة البريطانية التى طارت بمفردها من لندن الى استراليا! . . . ورأيت فتيات يسبحن في البحر ، ويركبن الدراجات ويسقن السيارات . اسماء ملكات حكمن بلادهم مثل الملكة (اليزابيت) الاولى ، والملكة (فكتوريا) والكثير من ذلك . تعلمت هذه الاسماء وانا دون العاشرة من العمر ، وتبدلت آرائى وافكارى عن بلادنا وعن كل بلاد الشرق! . .

اصبحت اوروبا البلاد المحبوبة المرغوبة بالنسبة لي! . . .وكل شخص يذكر

شيء ضد النساء اوالبنات ، اذكر له اوروبا المتحضرة القوية! . .ان اوروبا اصبحت ملاذى لمدة سنين عديدة اثناء المناقشة والجدال حول المرأة من سنوات الطفولة والمراهقة ، مع اني لم اسافر الى الغرب الا بعد ان تجاوزت العشرين من العمر .

المدرسة المركزية للبنات

شعرت بالزهو يوم اصطحبتنى والدتى في بداية السنة الدراسية ، وانا في سن العاشرة للذهاب الى المدرسة الجديدة التى كنت انتظر الذهاب اليها بشوق كبير اي (المدرسة المركزية) الكبيرة! . . . ومعنا اختى (لمعان) في الثامنة من عمرها وفى الصف الثانى ، و(عادلة) وعمرها اربع سنوات ، لكي تتسجل في الروضة .

دخلنا المدرسة ورأت والدتى الست (عفت) وهى آنسة(٢) تركية ومعلمة الرسم في المدرسة ، (وخالة السيد نجدة فتحى صفوة) والوالدة تعرفها جيداً . تعجبت الست (عفت) من كونى في الصف الخامس وفى سن العاشرة ، ثم بدأت تساعد أمي لتسجيلنا بسرعة وذكرت بأن الصف الخامس يحوي على ثلاث شعب ، تعجبت من كبر هذا الصف! . .تسجلت في شعبة (باء) .

بعدها اخذتنا الست (عفت) لكي نرى المدرسة وبدأنا نتجول في الساحة الكبيرة وانا اكاد اطير فرحاً بما ارى! . . ولقد رأيت اشياء كثيرة في المدرسة خلال الايام الاولى .

ساحة واسعة كبيرة جداً تضم ثلاث ابنية كبيرة ، بناية كبيرة على الشارع ذات طابقين كبيرين للدراسة الابتدائية ، الطابق الاول للصفوف الثلاثة الاولى ، والطابق الثانى لصف الرابع والخامس والسادس وفيها شرفة كبيرة تطل على ساحة المدرسة والبنايات الاخرى فيها . وفى غرفة صغيرة في الطابق الاول يوجد محل (للفراشة) التى تبيع الكعك والحلويات للطالبات . كان المكان شديد الاهمية عند الطالبات! . .

البناية الكبيرة الثانية مبنية في وسط الساحة وهي من طابقين اثنين ، في

---

٢ ـ في وقتها كانت آنسة .

الطابق الاول ، (روضة الاطفال) بصفوفها الثلاثة حسب عمر الاطفال (الصف الاحمر) للاطفال في سن الرابعة من العمر ويلبسون صدارى حمراء اللون ، ثم (الصف الاخضر) بصدارى خضراء اللون للاطفال في سن الخامسة ، و(الصف الازرق) لاطفال السادسة من العمر ويرتدون صدارى بلون ازرق . وفى البناية باب خاص لأطفال الروضة .

وفي الطابق الثاني في هذه البناية توجد الصفوف الثلاثة لطالبات دار المعلمات وكذلك غرفة الادارة ، وغرفة للمعلمات ، كما توجد غرفة اجتماع وفيها مسرح بسيط ، وغرفة اخريتحوى ادوات رياضية مثل الاعلام والرماح وحصان القفز والخطوط الخشبية المتوازية وغيرها .

وفى هذه البناية أيضاً الباب الكبير في المدرسة بدرج عال حيث تقف المديرة والمعلمات في وقت الاصطفاف الصباحي ، وتصطف الصفوف على ثلاثة جهات واكثرية الصفوف لها شعبتين او ثلاثة .

اما البناية الكبيرة الثالثة ، فقد كانت في الجهة اليسرى خلف البناية الوسطى وفى مستوى اعمق من البنايات الاخرى ونهبط اليها بواسطة درج كبير مفتوح من الرخام الابيض بارتفاع عشرة درجات لكي نصل الى الساحة حيث نرى بناية على شكل حرف (الأيل) الانكليزى ذات طابقين . هذا هو القسم الداخلى لسكنى طالبات دار المعلمات من خارج بغداد .

كانت الابنية كلها جميلة ، ولكن القسم الداخلى كان ابدعها منظراً . . .

في الطابق الاول في الفسم الداخلى ، غرفة مكتب مديرة الداخلى وجنبها غرفة نومها . والمديرة كانت سيدة لبنانية اسمها (لولو ضومط) بنت (اميل ضومط) . ثم غرفة كبيرة للطالبات فيها بيانو وبعض الكتب والمجلات وغرفة كبيرة للاكل فيها باب ينفتح على مطبخ كبير جداً فيه الكثير من الرفوف الخشبية والدواليب ، وبقرب المطبخ غرفة للطباخة السورية .

اما الطابق الثانى فهو محل غرف نوم الطالبات ودواليبهن والحمامات .

في جهة اليمين من المدرسة يوجد محل لشرب الماء متكون من انبوب حديدى طويل جداً وفيه عدد كبير من الحنفيات فيها ثقوب صغيرة بحيث يندفع

الماء الى اعلى ونتمكن من الشرب دون ان تمس شفاهنا ثقب الحنفية . وهذا شيء نظيف لم نر مثله في المدرسة (البارودية) .

وفى نهاية الساحة الخلفية تقع المراحيض واحدة جنب الاخرى عددها عشرة ، كل مرحاض لصف معين من الصف الاول الى دار المعلمات وواحدة للمعلمات . (الروضة لهم محلات خاصة) . وكانت المديرة تؤنب الصف يوم الخميس امام جميع المدرسة اذا كان مستوى النظافة في المرحاض دون المطلوب .

وقد استرعى اعجابي وجود اعشاش كبيرة فوق سطح البناية الوسطى وكلها اعشاش طير اللقلق ، حوالى ثلاثة او اربعة اعشاش كبيرة ، وفى كل عش اثنان من اللقالق ، وحتى منارة الجامع القريب من المدرسة وهو (جامع الخاتون) ، عليه بضعة اعشاش اخرى من اللقالق . وهى تطلق بمناقيرها أصواتاً عالية متتابعة تشبه اصوات صفاقات خشبية تلعب في الهواء ، ويستمر ذلك لفترة طويلة . كنا نحب هذا الطير ونسميه (الحاج لقلق!) . أحياناً والمدرسة كلها ساكتة في اثناء الدروس لانسمع أي صوت سوى اصوات اللقالق الكثيرة كأنها فرقة موسيقية راقصة ذات صفاقات تلعب في الهواء! . .

في وقت الاصطفاف صباحاً يدق الجرس وتقف كل طالبة مع صفها ، كل اثنتين معاً ، الصفوف الابتدائية من الصف الاول الى الصف السادس تقف امام باب البناية الكبيرة ، وصفوف دار المعلمات يقفن على الجانبين . وتقف المديرة (المسز كير) الامريكية وتتكلم معنا باللغة الانكليزية . لا نفهم كلامها ولكن السكوت كان سائداً لان معاونة المديرة الست (الس قندلفت) كانت تترجم ماتقوله المديرة الى اللغة العربية . وبعد انتهاء كلام المديرة ، لا ننشد نشيداً كما في المدرسة البارودية ، انما تضع احدى المعلمات اسطوانة موسيقية بلحن مارش غربى عسكرى جميل ، ويبدأ كل صف بسير الى قاعته .

سرت مع صفى وصعدنا الدرج الى الطابق الثانى في البناية المبنية على الطريق دون ان نرى الطريق لأن الشبابيك مفتوحة كلها على ساحة المدرسة فقط .والمشية الى الصف طويلة ، ولذلك تقف طالبات مراقبات في محلات معينة لمنع الكلام اثناء الدخول الى الصف ، والا تكتب المراقبة اسمها ، لذلك كانت

الصفوف تمشي بكل هدوء وسكون الى الصف .

كانت المديرة امريكية من اصل سويدي شقراء الشعر ذات عيون زرقاء ، وكنا نظنها (سيدة عجوز) . ولكنها كانت نشيطة جداً . وأحياناً ، اثناء الفرص عندما تجد الاوراق القديمة مرمية على الارض ، كانت تنحنى وتلم الاوراق بيدها وترميها بصندوق القمامة دون ان تنادى الفراشات لرفعها وكنا نحن الطالبات نخجل من ذلك ونسرع معها نلتقط الاوراق من الارض ونرميها ـ في المزبلة . ﴾غادرت المس كير الى العراق سنة ١٩٣١ وعادت اليها بعد ثلاثين عاماً للزيارة أي في سنة ١٩٦٠ ، لذلك لم تكن كبيرة السن كما كنا نعتقد! . .

في الصف كان عدد البنات المسيحيات واليهود اكثر من ربع العدد وكان التفاهم والصداقة بين الجميع سهلاً وطبيعياً والفرق الوحيد بينهم وبين المسلمات هو الحجاب في الشارع . كانت المسيحيات واليهود سافرات ويرتدين القبعة (البرنيطة) في الطريق . اما المسلمات فهن يرتدين العباءة منذ سن الحادية او الثانية عشر ثم يعقب ذلك حجاب الوجه (البوشى) بعد سنة او سنتين .

في سن العاشرة لم اكن البس العباءة وكنت اظن السنتين مدة طويلة جداً لكي افكر بالعباءة وكنت اكره الحجاب من تأثير بيت خالتي وافكارهم العصرية! . . .

في الصف رأيت طالبة واحدة يزيد عمرها عن سنى سنة واحدة فقط ، واصبحت صديقتى الوحيدة .

كان اسمها (بلقيس عمر دراز) ابوها موظف كبير في مديرية السكك وذكرت ان اصله افغانى وامها عراقية من اصل تركى ، وكان لبلقيس اخ صغير في الروضة معنا اسمه (جاويد) ـ كبر واصبح طياراً مدنياً معروفاً في الخطوط الجوية العراقية فيما بعد .

وكانت هناك اربعة طالبات كنت اجدهن اقرب الى من الطالبات الاخريات لان اعمارهن في سن الثالثة عشر ، ولكنهم لم يجتمعن معنا (انا وبلقيس) لأننا كنا من الصغار! . . اما الاربعة فقد كن :

اديبة ابراهيم رفعت ، وقد اصبحت مديرة دار المعلمات في المستقبل ، بعد ان

تخرجت من دار المعلمين العالية ، وقد كانت ذكية اجتماعية حاضرة الذهن وتصلح ان تكون المراقبة في الصف .

(بتول جعفر الملائكة) ، وكانت طويلة القامة تدرس دروسها بانتظام وتحصل على الدرجات العالية ، وقد تخرجت من المدرسة ودرست في الجامعة الامريكية في بيروت واصبحت مديرة لاحدى المتوسطات .

(ساجدة الكبيسى) وكانت جميلة وذات شخصية قوية ولكنها لا تميل الى الافكار الحديثة ، وقد تخرجت من دار المعلمات في بغداد واصبحت معلمة في المدرسة المركزية الابتدائية ، ثم تركت العمل بعد زواجها .

(بوران احمد مريود) ، ذكية مشرقة الوجه ، لم تكمل دراستها بل تزوجت في بغداد وهى سورية الاصل ، اتت مع اهلها الى بغداد بعد ان مات والدها (احمد مريود) في بداية سنوات العشرين وهو يقاتل الفرنسيين في الشام فدعى العائلة الملك فيصل الاول واسكن الام والاولاد في بغداد . وكان معنا في المدرسة اخو (بوران) الاصغر (حسان) في الروضة ، والذى اصبح وزيراً (بعد سنوات) في سوريا .

وكانت (بوران) تردد بيت الشاعر شوقى :

سلام من صبا بردى ارق ... ودمع لايكفكف يا دمشق

ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصف يدق

دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم انه نور وحق! . . .

اما الطابات الاخريات ، واعرف منهن طالبة تكبرنى بسبعة اعوام ، فقد كن الكثيرات في الصف . والطالبات لحسن الحظ ، كن يعاملننى كما لو كنت اختهن الصغرى . لم ادر انه خلال سنوات ثلاث سوف الحق بهن في الطول واستوى معهن .

المعلمات السوريات

هكذا كنا نسمى المعلمات بصورة عامة ولم نسميهن لبنانيات ، مع ان الاكثرية كانوا من بيروت واكثرهن مسيحيات . وقد درست عليهن لمدة سبع سنوات

الى نهاية المدرسة الثانوية ، وليس لدى لهن سوى المديح والثناء بتأثيرهن الطيب الكبير على الطالبات في تلك السنوات الحرجة من العمر! . .

كانت المعلمات في سن الشباب وعلى درجة من الاناقة الحديثة والزى المحتشم ، ولم يذكرن الاديان بأي شكل اوصورة ولم يظهرن بأن بلادهن قد تطورت الى الامام اكثر من العراق ابداً . وقد تعلمنا منهن مبادى العلوم الحديثة كلها واللغة الانكليزية وادخلن علينا الادب المهجرى من (جبران خليل جبران وايليا ابو ماضى وميخائيل نعيمة وغيرهم) وبدأنا نقرأ اشعاراً جديدة لاتمت الى اللغة العربية القديمة ومواضيعها المعروفة ، بصورة تدريجية لطيفة . كانت معلمات اللغة العربية منهن على جانب كبير من معرفة اللغة العربية ويتفوقن كثيراً على المعلمات العراقيات من خريجات دار المعلمات . وقد ادخلوا علينا الاغانى الغربية الجميلة باللغة العربية نغنيها مع البيانو اثناء النشيد .

اما في ساعات الغضب والشدة مع بعض الطالبات العنيدات فلم نسمع سوى الاصوات الرقيقة والكلام العفيف النظيف التى تحاول المعلمه به ان ترشدنا الى العمل الطيب بدلاً من سوء السلوك والوقاحة امام الاخرين . وهكذا تصرفن معنا بتواضع وبسمو! . . وقد تأثر بهن المعلمات العراقيات اللواتى درسن عندهن واصبحت الكلمة الخشنة السليطة لايصح ان تستعمل مع الطالبات لأن القليل من العبوس وعدم الرضى كان كافياً لردع الطالبات عن الرعونة والطيش .

كانت اسماء الكثير من المعلمات السوريات غربية اجنبية مع لقب عربى ، وقسم منهن كانت اسماؤهن عربية صرفة . مثلا ، كانت الاسماء التى اذكرها الآن (اليس قندلفت) وهي نائبة المديرة ثم اصبحت المديرة قي السنة التالية (ايما صليبي) و(ملفينا غرزوزى) ، (اوجينى ابو شديد) ، (اليونور قمر)اما المعلمات من ذوى الاسماء العربية فكن (عفيفة حداد) ، (وداد خوري) و(لولو ضومط) مديرة القسم الداخلى . كذلك كانت معلمة مسلمة من فلسطين اسمها (صفية اللبابيدى) اخت معلم اسمه (يحيى اللبابيدى) الذى كان مشهوراً في تأليف وتلحين الاناشيد المدرسية والوطنية والاخلاص للملك . ومنها

اهلاً بمولانا الملك مليك ارض الرافدين

وفى هذه الايام تعلمت اسماء اعياد لم اسمع بها من قبل مثل عيد (كرسمس) عيد الميلاد و(نيو بير) عيد رأس السنة ، وكنت اعرف (عيد الميلاد) باللغة العربية فقط . ولاول مرة وجدت الطالبات يرسلن بطاقات العيد للمعلمات المفضلات لديهن ، ففعلت ذلك وارسلت ثلاث بطاقات الى ثلاث معلمات .

وفى ايام الاعياد هذه تغيبت المديرة والمعلمات والطالبات المسيحيات يومين في عيد الميلاد وبعدها يوم واحد في رأس السنة الميلادية الجديدة . ولكن الدوام استمر في المدرسة وقضينا معظمه في الالعاب الرياضية او الاناشيد .

وعندما تعود المعلمات من عطلة عيدهن ، تشكر كل منهن الصف على البطاقات دون ذكر اسماء من ارسل البطاقة .

وقد كانت هناك معلمات عراقيات درسنا على ايديهن في الصف الخامس والسادس الابتدائى وهن (الست صبيحة الشيخ داود) ، و(سعدية الخطيب) وفى الصف السادس (الست عفيفة رؤف) (وقد تزوجت من السيد عبد الفتاح ابراهيم ، اليسارى المعروف) و(الست وفيقة عبد الله المميز) وكانت معلمة الدين عراقية من طراز قديم كنا نسميها (باكزة خانم) على الطراز التركى . ومعلمة الرسم تركية (الست عفت) ، ومعلمة الخياطة تتكلم اللغة العربية بلهجة تركية واضحة اسمها (حسيبة الراوندوزى) اخت ضابط كبير اسمه (امين باشا الرواندوزى) .

وهنا اود ان اتكلم عن واحدة من احسن المعلمات اللواتى رأيتهن في حياتى وهي الست المهذبة اللطيفة صبيحة الشيخ داود .

وكانت الست (صبيحة) شابه رشيقة ذات وجه صبوح وشعر اسود متموج وصوت جميل ولها ابتسامة حاضرة للطالبات . وكانت فخورة بأن والدها (الشيخ احمد) ووالدتها واخاها (سلمان) قد ناضلوا في شأن فتح المدارس للبنات منذ الايام الاولى لدخول الانكليز في البلد . وانها استقبلت الملك (فيصل) عند وصوله الى بغداد وركبت على ظهر جمل والقت قصيدة (للخنساء) وهى في العاشرة من عمرها في اول احتفال ب (سوق عكاظ) يجرى في بغداد برعاية الملك فيصل . لم اسمع هذا الحديث منها ولكن الطالبات كن يرددن هذه الحوادث .

كانت الست صبيحة قريبة جداً وودودة مع الطالبات ، ولكن كان لها كبريائها الخاصة . كنا نحبها ونحترمها جداً! . .

كانت تدرسنا التاريخ والجغرافيا . لااقول انها درستنا شيئاً خارج عن الكتاب ولكن دخولها الى الصف كان كشرارة كهربائية تتألق بيننا ، كل واحدة تستمع اليها وكل واحدة ترجو الاجابة الصحيحة على اسئلتها ، وعند الانتهاء من الحصة نأسف لان الدرس انقضى بهذه السرعة . لقد كانت هي ملأى بالوطنية ومحبة البلاد ومحبة الملك والعائلة المالكة ، وكانت صديقة الاميرات بنات الملك فيصل ، تزورهن وتلعب معهن العاباً رياضية مختلفة في قصرهم .

في صباح احد الايام ، وبعد شهرين من دخولى المدرسة ، دخلت علينا (الست صبيحة) واخبرتنا بأن رئيس الوزراء قد انتحر! . . .لم يكن في تلك الايام الراديو في البيوت : والاخبار كانت تنتشر بواسطة الجرائد . كلمة الانتحار بالكاد كنت اعرفها ، ولم اسمع أحداً ينتحر قبلاً . واسم (عبد المحسن السعدون) ليس من الاسماء التى اعرف عنها الا القليل جداً في سن العاشرة ، سمعت اسماء مثل (جعفر باشا ونورى باشا وياسين باشا) وانهم اصحاب المناصب العالية المقربون من الملك ، ولكنها اسماء بعيدة عنى .

(لم اكن اعلم ان السعدون كان الوحيد في ذلك الوقت الذى بذل جهوداً مالية وابوية حنونة وهو رئيس الوزراء بجانب الملك فيصل الاول لمؤازرة الدكتور البريطانى سندرسن الذى كان يصر على فتح كلية طب رغم اعتراض كل الاطباء في بغداد وهذه كانت الكلية التى تخرجت منها في المستقبل! . .) كل هذا كان خارج اهتمامى آنذاك اثناء الطفولة! . .

كلام الست صبيحة والطالبات عن انتحار (السعدون) جعلنى اشعر بان مصيبة قد حلت في البلاد . انتابنى الحزن العميق خاصة وان أحاديث الموت والجنازة كانت لاتزال تؤثر بي تأثيرا غامضاً وعميقا . ذاع الخبر بين الطالبات واخذ البعض من طالبات دار المعلمات يبكين . وجاء احد بائعى الجرائد الى الباب بجرائد اضافية مجللة بالسواد للخبر الفاجع مع صورة الفقيد ووصيته لابنه الكبير(علي) . وكانت الوصية باللغة التركية وبجنبها الترجمة باللغة العربية .

وقد قرأت الخبر في البيت أيضاً . ورأيت والدي وامى في حالة من الحيرة والعجب .

انتحار رئيس الوزراء كان له دوى شديد بين الناس خاصة وصيته التى تقول (ان الامة تنتظر الخدمة والانكليز لايوافقون) . كانت عيناى تغرورقان بالدموع كلما اقرأها ، وقد قرأتها مراراً! . وقلنا وكررنا ان الانكليز كانوا ـ كالعادة ـ هم السبب! . . . وبكيناه وبكينا اولاده .

ولكن احد اقربائى وكان يعرف الكثيرعن السعدون ، قال ان السعدون كانت له اوقات اكتئاب شديدة ، وان زوجته صعبة الاطوار ، وانه خسر في تلك الليلة مبالغ كبيرة في لعب الورق ، كل هذه الامور ربما اجتمعت وادت الى هذه المأساة الاليمة ، ولكن من المعلوم أيضاً ان السعدون كان قد دخل ذلك المساء في النادي في مناقشة حادة مع احد النواب المحامين وان المحامي تجرأ على السعدون! . . .

وقد ابنت الجرائد السعدون لفترة طويلة ، وابنه الكثير من الشعراء! . .

وانتشرت بين الطالبات قصيدة للرصافى كان مطلعها :

شب الاسى في قلوب الشعب مستعرا

يوم ابن سعدون عبد المحسن انتحرا

والحقيقة ان قضية وجود مرض الاكتئاب عند الفقيد اسفر عن وجهه مرة اخرى عندما انتحر ولده (على) بعد فترة قليلة من وفاة والده!

وبعد وفاة (السعدون) بسنوات قليلة ، وقبل وفاة الملك فيصل الاول نصب في بغداد تمثالان في نفس اليوم صنعا في مدينة (روما) . الاول للملك فيصل بالملابس العربية راكباً على حصان ووجهته بلاد (سوريا) نحو الغرب ، ونصب في جهة (الكرخ) في منطقة الصالحية ، والثانى لعبد المحسن السعدون مرتدياً السدارة على رأسه ، واقفاً وكأنه يخطب ، نصب في جانب (الرصافة) في شارع سمي شارع (السعدون) .

في حوالي منتصف السنة ، اتت الست (صبيحة الشيخ داود)الى صفنا بسرعة وقالت ان جلالة الملك قد وصل الى المدرسة وسوف يزور الصفوف وخرجت بسرعة الى الصفوف الاخرى لتخبرهم .

يبدو ان الزيارة كانت سريعة لاننا لم نزين المدرسة بالاعلام ولم يعرف بها الا المديرة ولم يحاولوا ان يقاطعوا التدريس . لم نر الوفد الملكى لدى دخوله لاننا كنا في الصفوف . دخل الملك وحاشيته البناية الوسطى وزاروا الصفوف هناك ثم توجهوا نحو القسم الابتدائى ، زاروا الصفوف الاولى ثم صعدوا للطابق الثاني لزيارة صفوف الرابع والخامس والسادس . وفى كل صف يدخل فيه نسمع اصوات التصفيق من قبل الطالبات . ثم وصلوا الينا ، صفقنا كثيراً لكنه لم يقف اكثر من دقيقة واحدة ، ابتسم وحيا الصف بيده وخرج باسماً دون ان يقول شيئاً .

هذه هي المرة الثانية التى ارى بها ابتسامة ذلك الملك الوسيم الجليل وارى بهجة الطالبات والمعلمات وفرحهن برؤية اهتمام الملك بالدراسة وبالمدرسة .

في شهر نيسان من هذه السنة ١٩٣٠ ، بدأت في المدرسة حركة رياضية كبيرة من جانب معلمة الرياضة ، ومعها طالبات دار المعلمات . اخذت الطالبات يتبارين في الباسكت بول ، وجر الحبل ، والركض السريع ، وقفز العرض ، والقفز العالى لانتقاء الاحسن للحفلة التى ستقيمها المدرسة .

اما الابتدائية فكان نصيبها فقط ، ان تشترك في مسيرة (مارش) حول المدرسة وبعدها العاب سويدية . الملابس كانت رياضية من تنورة زرقاء وبلوز ابيض ، ولكل صف قطعة قماش تلف على الرقبة بلون معين . واشترك بعض اطفال الصفوف الاولى برقصات غربية .

بدأنا نتمرن على المسيرة والالعاب السويدية كل يوم صباحاً .

في يوم الافتتاح ، حضرت الحقلة امهات الطالبات ، وبدأنا بالمسيرة لكل المدرسة والنشيد هو :

حطموا يا نشئ عنكم   واكسروا هذى القيودْ
فــزمان النحس ولى   واتى عصر الســعودْ

ثم بدأت الالعاب السويدية للأبتدائية . ثم شاهدنا بنات دار المعلمات يتبارين بمختلف المباريات وافرحنى ان تفوز ابنة خالتي (امينة الرحال) بالجائزة الاولى في القفز العالى ، وكانت في الصف الثانى من دار المعلمات . واخذت رسوم الفائزات بالكؤس والمداليات .

المدرسة كلها والمعلمات كنا على اقصى درجة من الحماس والفخر والفرح .
سررت جداً لهذه الحفلة الرياضية . انها تعويض صغير للبنات لاقامة استعراض رياضي عام يتبارين امام الطالبات والامهات .

في اثناء الصف السادس الابتدائي ، ولدت أمي الصبي الثاني ، وكنت ادرى بأن والدتي حامل وكنت اود ان ترزق بولد آخر لأنني كبرت على العناد والتحدى واخذت اشعر ان أمي ترغب بولد آخر بصورة اكيدة . وقد دخلت أمي المستشفى الملكي للولادة للمرة الاولى لاننا ولدنا كلنا في البيت مع نفس (الجدة) أي القابلة . وكانت عادة دخول المستشفى للولادة عادة جديدة .

ولدت أمي صبياً واسمته (فاروق) وكان طفلاً جميلاً ، ذا لون ابيض وشعر اشقر وعينان شهلاوان . وقد وقعنا جميعاً في حب هذا الطفل الصغير .

الحركة النسائية

منذ سنواتنا الاولى في المدرسة كنا ننشد ونحفظ الاناشيد والقصائد عن ثلاثة مواضيع بصورة عامة وهي اناشيد وقصائد عن (الوطن) وعن (الملك) و(تعليم البنات) .

كنا نعلم ان الرجال كانوا اصحاب الكلام في الجرائد والمجلات في الدفاع عن المرأة اذ لم تكن هنالك نساء لهن القابليات الادبية او العلمية للكتابة ، لان معظمهن كن اميات او شبه اميات ، ما عدا نساء قليلات كتبن بعض المقالات القليلة في الصحف في بداية العهد الملكي .

ان من كتب وأثر على تغيير ورفع مستوى المرأة في مختلف الامور كانوا من الرجال ، وبعضهم اصابته طعنات معنوية كبيرة بسبب ذلك . يبدو ان معظم من آزر المرأة آثر ان يمضي في هذا الدرب العسير ، لكي يغير الحالة المتخلفة الراهنة للنساء بصورة سريعة .

في زمن طفولتنا نحن ، انتشر تعليم البنات في المدارس ، خاصة في بغداد والمدن الكبيرة ، ولكن الحجاب كان عاماً بين جميع النساء من الطبقة الغنية والمتوسطة اما الفلاحات كن يكشفن وجوههن دائماً .

وافق الرجال على التعليم ولكنهم عارضوا السفور بشدة! . . لم تكن هنالك سيدة مسلمة سافرة ابداً ، السافرات كن من المسيحيات واليهوديات في المدارس وغيرها ، وكذلك النساء الاوروبيات طبعاً .

بعض الشعراء وقفوا منذ البداية في جانب تشجيع المرأة لتلقى العلم والادب ونبذ الحجاب وبصورة خاصة الشاعر جميل صدقى الزهاوى الذي كان اول عراقي آزر تحرر المرأة قبل الحرب الاولى بسنوات عندما كتب مقالاً في جريدة (المؤيد) المصرية تحت عنوان (المرأة والدفاع عنها) وذكر فيها مضار الحجاب وختم المقال بهذا البيت :

أخّر المسلمين عن امم الارض حجاب تشقى به المسلمات

وذاق من جراء ذلك الامرين من رجال الدين ومن جماهير الشعب واطلقوا عليه لقب (زنديق) وعزل من وظيفته في مدرسة الحقوق .

وفي بداية العهد الفيصلي كتب قصيدة (اسفري) :

اسفري فالحجاب يابنة فهر هو داء في الاجتماع وخيم

ولم تثر هذه القصيدة أي اعتراض عليها .

معروف الرصافى كان الشاعر الآخر الذي اخذ يدعو الى نعليم النساء ومن اقوال الرصافى التى تأثرنا بها :

فولِيها عند الدفاع يبيعها وحليلها عند الطلاق يضيعها

وكلاهما متحكم في امرها هذا يعريها وذاك يجيعها

وفي الثلاثينات كنا نقرأ ونحفظ قصائد الشعراء المصرين والسورين وشعراء المهجر ، وهم يكتبون عن الامهات والفتيات ومساواة المرأة بالرجل في حقوقها ومسؤلياتها . اما في الحفلات المدرسية كانت معظم المواضيع تدور حول مركز المرأة العصرية في هذا العصر وعن السفور والحجاب .

وقد شاعت بيننا قصيدة حول السفور لشاعر ضابط في الجيش ، نظمها وهو طالب في الكلية العسكرية الملكية واسمه (محمد بسيم الذؤيب) حول الحجاب اسمها (ارفعيه) :

ارفعيه ، مزقيه ، واطرحيه

بين احجار القبور
وانهضى سافرة الوجه وغني ،
هكذا كان السفور

وكذلك قصيدة (غادة اليابان) لحافظ ابراهيم ، ولو انها لاتدعو الى السفور ولكنها تمدح ذهاب الفتاة الى معسكرات الجيش وخدمة الجنود المصابين .

اما الشاعر الشعبى الملا (عبود الكرخى) فقد كان ضد السفور ويكتب اشياء مضحكة حول محبذى السفور ، ولكنه كان شاعراً قديراً ومتمكناً بحيث كنا نحبه لقريحته الشعرية ، ونقرأ جريدته كل اسبوع ونضحك على مايقول من اشياء عجيبة وغريبة لاتخطر على البال! . . لم يظهر شاعر شعبى مثل (عبود الكرخى) ابداً ، والناس كلها كانت تحب اشعاره وكل ما يكتب ، ولكننا نعتبره شعبياً وبعيداً عن الدراسة والعلم! . .

وكتب بعض الكتاب في الصحف المحلية ، ومنهم (رفائيل بطي) و(حسين الرحال) وغيرهم . بعض الرجال بدأ ينشر مقالات باسماء نسائية مثل (فتاة غسان) التى كان يكتبها (سامى شوكت) والتى لم اكن اقرأها آنذاك ولكنى اسمع عنها من اقربائى . وبدأ تأثير الجرائد اليومية والمجلات وغيرها يظهر بشكل سريع .

اما من اشتغل لقضية المرأة في معاهد العلم وفوق مقاعد الدراسة فهو مدير المعارف العام الاستاذ (ساطع الحصرى) ، فقد نجح في فتح عدة مدارس للبنات في بغداد اولاً ثم في المدن الاخرى ، خاصة (دار المعلمات) في بغداد التى بدأت تسد الحاجة الى المعلمات في البلد . وبعدها بدأ فتح صفوف الدراسة الثانوية للبنات . واهم ما صنع الحصري للنساء ، هو وضعه في قانون التدريس بأن الرواتب متساوية للذكور والاناث ، ولم يفهم الناس اهميتها في حينها ، ولكنه عادل رواتب المعلمات بالمعلمين منذ البداية ، وهذا انطبق في المستقبل على الطبيبات والسكرتيرات ، بل وجميع الموظفات في البلد فلم تحصل عندنا في العراق فروق بين رواتب النساء والرجال كما كانت الحالة في البلاد الاوروبية . كان هذا من حسنات السيد ساطع العصري .

وان تأثير الملك فيصل واضحاً في تشجيع البنات ومؤازرة (ساطع الحصرى) لفتح مدارس البنات . وقد شجع بناته الاميرات (عزة وراجحة) الدراسة في القصر بواسطة معلمات من المدرسة المركزية للعلوم والآداب والفنون كالرسم والتطريز . وكانت عندهم فرقة للعب الباسكت بول والتنس .

وكذلك بعث (ياسين باشا) بناته الى بيروت للدراسة وكانت ابنته (صبيحة) من اوائل من حصل على شهادة (ب .ع .) من الجامعة الامريكية هناك .

واول من حصلن على شهادة (ب . ع .) من الجامعة الامريكية في بيروت من العراقيات في سنة ١٩٣٢ هما (كزين صبيح نشأت) وكان والدها من وزراء الملك فيصل ، و(مليحة ياملكى) وهى ابنة (مصطفى باشا ياملكى) واحد من كبار رجال الجيش . ولدى عودتهن الى بغداد نبذن الحجاب ولبسن القبعات الاوروبية . وكانت (كزين) بنت عمة قريبتى (امينة الرحال) وهذا ما جعل (امينة الرحال) ابنة خالتي ان تتشجع وتسفر عن وجهها وهي في سن الثامنة عشر .

يجب ان اذكر والدي كان اكبر مشجع للمرأة في بيتنا وفى بيوت اقاربه كلهم . لقد تربينا في البيت على مستوى واحد للاولاد والبنات في كل شيء ، في الاكل وشراء الملابس والاحترام للصغار . وكان احترامه للبنات واضحاً ، بحيث استطيع ان اقسم انه لم يقل كلمة سيئة واحدة لبناته طيلة حياته! . . . وكنا نحبه ونهابه كثيراً . اما اولاده فقد نالهم بعض العقوبات القليلة منه اثناء فترة المراهقة فقط ، وظلوا يحترمونه ويهابونه الى الاخير .

اما تأثيره على الاقارب ، كان عندما عدنا من (الموصل) ، اذ وجد ابنتى اخته في البيت بدون مدرسة ، لان الوالد ،وهو الضابط القديم والنائب في مجلس النواب انذاك السيد (محمود رامز) رفض ارسالهن للمدرسة . كانت المدرسة المركزية للبنات قرب بيتهم . اصر والدي على تسجيلهما في نفس ذلك اليوم! . . وقد درستا وتخرجتا من دار المعلمات الابتدائية ، ودرسن كمعلمات في المدارس الابتدائية لسنوات عديدة .

(كذلك دخولى بعد سنوات الى كلية الطب وتقدمى في الدراسة ودخول اختى لمعان بعدى ، فتح الطريق للاخريات في العائلة . عمى (محمد صالح)

الذى لم يحبذ ذلك ، ادخل ابنته بعد سنوات قليلة الى كلية دار المعلين العالية المختلطة ، ثم اخواتى الصغريات وبنات اختى الكبيرة وبنات عمى الصغار ، كلهن درسن في المعاهد العالية في بغداد وفى الخارج وتخرجن واشتغلن في وظائف مختلفة) .

وكان يلذ لوالدي ان يسمع عن أي امرأة ذات شأن في امور الحياة . اذكر له انه كان معجباً بالتأثير الغريب على وجود (المس بيل) ومركزها بين الانكليز وبين العراقيين ، وينسى كونها انكليزية تتحكم في بلدنا ـ وهذا ما يكرهه ـ ويقول ، انها امرأة ذكية قادرة على خدمة بلادها كالرجال . هذه السيدة (الخاتون) التى يطيعها كبار رجالنا! . . .

انا لم اعرف عن (المس بيل) شيئاً لانها ماتت وانا بسن صغيرة .

كان يقرأ عن (المدام كوري) وعملها العظيم في اكتشاف (الراديوم) واهميتها العلمية ، ويتكلم عن ذلك باعجاب وتقدير . . . . يقرأ كتب (الانسة مي) وتأثيرها الادبى في العالم العربى ويعجب بها . . .سمع عن طيران (ايمى جونسون) بمفردها من انكلترا الى استراليا . . .وبعدها الطيارة (اميليا ايرهاردت) الامريكية ، حين اختفت في الجو ولم يعثروا عليها او على آثارها .

+بعد مرور سنوات طويلة ،في ١٥ تموز سنة ١٩٥٨ كان اسفه شديداً عندما قتلت السيدة الفاضلة (بيبية ام عبد الامير الاسترباذى) وهى تحاول مساعدة السيد (نورى السعيد) على الهرب من الغوغاء التى كانت تتحكم بالشوارع ، وقتلت في سبيل ذلك ، وقال والدي عنها :

هذه السيدة تعادل عشرة رجال بشجاعتها وأبائها وهدوئها المنقطع النظير! . . .

فاطمة رشدي ١٩٣٠

دخلت الست (صبيحة الشيخ داود) الى الصف ذات يوم وقالت ان فرقة (فاطمة رشدي) وصلت الى بغداد وان الرواية الاولى ستكون (مصرع كليوباترا) وهى مسرحية شعرية جديدة من تاليف امير الشعراء (احمد شوقى) . ولم اكن اعرف ان المسرح الشعرى كان شيئاً جديداً جداً في العالم العربى . بل لم اكن

اعرف شئاً عن التمثيل سوى انه فن جميل لايضارعه أي فن آخر وذلك تاثير (جورج ابيض! . . .)

كان الشاعر العظيم (احمد شوقى) لايزال حياً! . .(اظنه مات بعد ذلك بسنة واحدة)

اشتريت بطاقات الحفلة النهارية التى تقام بعد الظهر للسيدات وذهبنا مع الوالدة ، لمعان اختي وانا ومعنا بنات عمتى الاثنتين .

في هذه التمثيلية فهمت معظم ما دار من حديث بين الممثلين . انها نقلة كبرى عن تمثيليات (جورج ابيض) التى رأيتها قبل ثلاث سنوات والتى لم افهم بدايتها من نهايتها . بدت (فاطمة رشدي) في دور كليوباترا كملكة جميلة جداً ، ترتدى التاج والجوهرات الرائعة ويسجد لدخولها الجميع ، تأمر وتطاع! و(بشارة واكيم) بدور القيصر (انطونيو) وروعة شخصيته العسكرية ، والرومان وملابسهم وخوذهم المعدنية وسيوفهم اللامعة ، يقابلهم المصريون بملابسهم الفرعونية وآلهتهم الغريبة ، والمؤامرات حول الملكة والقيصر ، وحفلة الغناء والرقص ، والمغنى غنى شعراً من (كليوباترا) الى (انطونيو) :

انا انطونيو ، وانطونيو انا   ما لروحينا عن الحب غنى

ثم موت القيصر ، وانتحار الملكة بواسطة افعى حقيقية كانت تتلوى بين اصابعها عندما اخرجتها من سلة التين . وبكت المشاهدات لموتها وهى جالسة على العرش بابهى الزينة والجمال .

زوجها (عزيز عيد) قام بدور رئيس الكهنة ، وهو ممثل قدير ، ولكنه كان كبير السن قصير القامة اصلع الرأس وفى كل مرة يظهر على المسرح تسرى بين المشاهدات همهمة اسف مسموعة لكونه زوج فاطمة الشابة الجميلة ويقلن :

ـ حيف هذا رجلها! . . أي (اهذا زوجها! وآسفاه!)

وكان في الفرقة ممثلون ذوو شهرة استمرت طيلة حياتهم مثل (بشارة واكيم وستيفان روستى وعباس فارس) ومن الممثلات (امينة محمد وبهية امير) . وكانت مع فاطمة ابنتها (عزيزة عيد) وعمرها حوالى الست سنوات ومثلت دور (قيصرون) ، ابن كليوباترا من (يوليوس قيصر) .

وكان مع الفرقة المغنى (سيد فوزى) وقد غنى لها اغنية (انا انطونيو ، وانطونيو انا) . وقد عشق الناس هذه الاغنية واصبحنا نسمعها في كل مرة نمر قرب احدى المقاهى في البلد .

وقد اشترك في التمثيلية (حقى الشبلى) الذى كان يدرس في مصر ، واثناء الفترة طلبت المشاهدات ان يغنى (حقى) لهم اغنية وقد فعل ذلك وغنى (يا من يحن اليك فؤادى) ، وكانوا يقاطعونه بالتصفيق ويطلبون منه التكرار ، رغم وجود المغنى المشهور (سيد فوزى) . اما في التمثيلية فقد اعطى (لحقي الشبلى) دور القائد (اكتافيوس) وهو دور صغير في نهاية الرواية ، ولكن المشاهدات صفقن (لحقى) طويلاً .

شاهدنا على الاقل اربعاً من المسرحيات اذكر واحدة ثانية منها بالذات وهى (غادة الكاميليا) وهى من تأليف (اسكندر دوماس) الابن ، ومشهورة جداً . وقد بكيت انا والكثير من المشاهدات عندما تموت البطلة في النهايه ، بسبب الدور الذى يقوم به زوجها (عزيز عيد) ، واشتدت على الزوج الشتائم واللعنات من قبل المشاهدات .

كانت (جماعتنا) ، ونحن حوالى السبعة اوالثمانية من الاولاد والبنات ، انا ولمعان اختى ، لبيبة النائب وابنة عمها ماهرة ، آمنة صبرى مراد .وسلوى الحصرى ، ومن الاولاد اذكر منهم ثلاثة ، نزار على جودت وخلدون الحصرى وعدنان صبرى مراد ، وكانت اعمارنا ما بين الثامنة والعاشرة من العمر نخرج اثناء الفترة ونذهب الى الكواليس ونتكلم مع الممثلين والممثلات ولكن اهتمامنا الكبير كان ، رؤية (فاطمة رشدى) في الفترة هذه . ولكننا كنا نرى الممثلين اكثر من رؤيتنا لفاطمة! انها تجلس لوحدها في غرفة صغيرة لتعيد ترتيب شكلها ولتشرب القهوة من امرأة سوداء شابة اتت من مصر فقط لكي تقوم بخدمة الممثلة المشهورة .

في احد الايام حضر احد المصورين واخذ يلتقط صور(لفاطمة) ، اشارت (فاطمة) الينا نحن البنات ، ان نأتى قربها ، واحطنا بها ، والتقطت لنا بعض الصور وظهرت واحدة من الصور بعد فترة في مجلة مصرية اسمها (العروسة) تحت اسم (فاطمة رشدى واطفال بغداد) . . .وقد اشترينا كلنا ذلك العدد من العروسة! . . .

اهتم الجميع (بفاطمة رشدى) ونظم الشاعر (جميل صدقى الزهاوى) قصيدة عنها القاها امامها ، وكتب الكتاب الكثير عنها في الجرائد وصارت حديث الناس ، خاصة بين طبقة المعلمات ، وتعلمت الكثيرات تواليت الشعر مثل (فاطمة) وحتى بعض اللهجة المصرية! . . .

وانتشر في السوق كتاب مسرحية (مصرع كليوباترا) التى اختفت نسخه بسرعة من الاسواق لرواجها . ولا ازال اذكر الكثير من المسرحية التى حفظت بعضها أنذاك! . . . (في المدرسة الثانوية حفظت الرواية كلها) .

في المدرسة سألتنى فتاة (كبيرة) في حوالى الخامسة عشر من العمر ومن دار المعلمات ان كنت قد شاهدت المسرحية ، ثم ذكرت بأنها ستقوم بتحضير فرقة من الطالبات لكي تمثل الرواية في بيتها وان والديها يشجعونها على هذه الفعاليات . اسم البنت (زكيه اسماعيل حقى) وكانت فتاة ذكيه وذات شخصية قوية ، وكانت معها طالبة اخرى من دار المعلمات تقوم بدور (انطونيو) . وطلبت مني ان اقوم انا واخرى (من الابتدائية أيضاً) بدور اثنتين من وصيفات الشرف المقربات من الملكة ، وهما الوصيفات اللواتى ينتحرن مع الملكة في نهاية الرواية حزناً عليها! . وادخلت ولدين في الحادية عشرة من العمر في الرواية ، واحد منهم اخوها في دور مرافق (لانطونيو) وولد قريبهم في نفس العمر ليقوم بدور (انشو) مضحك الملكة .وجميع الممثلات الآخريات كانوا من دار المعلمات .

وقد جعلت من السرداب محل الكواليس ، نخرج وندخل منه ، وامام السرداب (الطرار) اصبح المسرح وله ثلاث جدران فقط ومفتوح على (الحوش) وبه اعمدة ، ووضعت ستارة ذات شقين على الاعمدة وكانت تفتح وتسد بسهولة .

طبعت (زكية) البطاقات ووزعتها على الطالبات ، وبصفتى من الفرقة ، دعوت اختى (المعان) واخى (خلوق) ذا الستة سنوات لحضور المسرحية . وكان محل جلوس المشاهدات في (الحوش) امام المسرح . وقد نجحت الرواية وصفقت المشاهدات لنا طويلاً . واعقب التمثيل حفلة شاى للجميع قامت بها ام (زكية) خير قيام .

تشجعت انا لنجاح المسرحية ، وعند ابتداء العطلة الصيفية قررت مع بعض

صديقتى (لبيبة النائب) ان نقوم بالتمثيل وان نشرك معنا (زيد) ابن عمى وعمره مثل عمر(لمعان) ثمانى سنوات وثلاثة اولاد ليقوموا بدور الجنود وهم اولاد (القلمجى) اصغرهم (مصطفى) عمره ستة اعوام واكبرهم (امين) وعمره احدى عشرة سنة . وبدأنا باعداد القبعات والاحذية ، واشترينا الورق المقوى واصباغاً مائيه لملابس الجنود ، وسيوفاً خشبيه صبغت بلون معدنى ابيض ومقابض حمراء وكنا في غاية السعادة . ويبدو ان خال الاولاد في بيت القلمجى ، غضب عليهم بسبب الجلبة التى احدثوها اثناء قيلولته ، فقام من مكانه ومزق الاحذية والسيوف والقبعات التى كنا نضعها في بيتهم .

وهكذا صرفنا النظر عن التمثيل وعن (مصرع كليوباترا) ونحن اطفال اثناء العطلة الصيفيه وبين جيل قديم! . . .

سفرة الى كركوك

في العطلة الصيفية لسنة ١٩٣١ كان والدي على وشك السفر الى لندن لانجاز عمل يتعلق بوزارة المعارف حول طبع (اطالس) للخرائط الجغرافية باللغة العربية ، واحد لطلاب المدارس الثانوية ، والآخر وهو الاصغر حجماً ، لطلاب المدارس الابتدائية .

اختار والدي ان يسافر بالقطار الى استانبول وبعدها الى القارة الاوروبية بدلآ من الذهاب الى بيروت بالسيارة ثم ركوب البحر الى اوروبا ، لان والدي يكره الرحلات البحرية . في تلك الايام لم تكن هناك شركات للطيران المدنى ، والطائرات المدنية كانت قليلة وهى اما ملك الحكومات ، او لبعض ا لشركات الصناعية الكبيرة .

والدتى لم تر بلدها كركوك منذ زواجها قبل اثني عشر عاماً ، لذلك اقترحت ان نذهب لزيارة اختها في كركوك طيلة العطلة ، ووافق والدي على ذلك .

بدأت أمي تشترى الهدايا للاقارب . . .والدي اخذنا جميعاً الى المصور (الدورادو) لنأخذ صورة تذكارية قبل السفر .

سافر والدي وبرفقته اخوه الاصغر عمي (حسن فهمي) الى اوروبا .

اما نحن فقد كان عددنا كبيراً للسفر الى كركوك ، والدتى وستة اطفال اكبرهم في الحادية عشرة وهى انا ، والاصغر الطفل (فاروق) وعمره تسعة شهور ، و(عائشة) الشابة ، وخادمة في الرابعة عشرة من عمرها لكي تعنى بالطفل (فاروق) . هذا يجعل عددنا تسعة انفار من بيتنا ، ومعنا اثنان من بيت (الرحال) ، خالتي وابنتها الصغرى (امينة الرحال) وهى تخرجت قبل ايام من دار المعلمات ، وكانت مسرورة لانها سوف تتعين كمعلمة في نهاية العطلة! . . .

اخى الكبير (احمد) بقى في بغداد ضيفا في بيت عمى .

اخذنا القطار من محطة شمالى بغداد في المساء لكي نصل كركوك في صباح اليوم التالى ، وانا لاتسعنى الدنيا من الفرح والابتهاج . واثناء سير القطار انتابنى نفس الشعور القديم عندما ذهبت للموصل قبل سنوات ، شعرت وكأننى انزلق في الهواء بكل سهولة اثناء سير القطار فوق السكة الحديد . وعندما ابتعدنا عن محطة مدينة (بعقوبة) ، توقف القطار في احدى المحطات واذا باصوات الباعة تنادى باللغتين العربية والتركية : (ركي وقربوز) والآخر يصيح (لبن ويوغرط) . اشتدت الفرحة لدى ، وكأننى اسافر الى بلد آخر بعيد جداً له لغة مختلفة غريبة! . . .

استيقظت في الصباح ، واذا القطار يسير في منطقة ذات جبال صخرية متصلة تمتد بعيداً ، والأراضي تغطيها الصخور الكبيرة والصغيرة والحصى في كل مكان ، اين الرمل والطين الذى يحيطنا في اطراف بغداد .

إنها جبال (حمرين) اراها للمرة الثانية بعد مرور ما يقارب الست سنوات ، ولم اكن قد نسيتها ، ولكنها عادت الى مخيلتى بقوة! . . .

بدأت اسماء المحطات تبدو غريبة الوقع : (كفرى) وكنت اعرف هذا الاسم حيث توفيت خالتي وخالي ، ثم (طوز خورماتو) ، (طاووق) ، (تسعين) وبعدها محطة كركوك .

ركبنا في المحطة عربات اعتيادية تجرها الخيول كما في بغداد ووصلنا بيت خالتي الكبير في منطقة (شاطرلو) ، وزوج خالتي كان (حسين بك النفطجى) وهو من اولاد خال أمي .

دخلنا من الباب الواسع وهو بشكل طاق كبير من الصخر المحلى ، وداخل الطاق كراسى مصفوفة وامامها طاولات لجلوس الرجال ، وهنالك مجرى مائى صغير يأتى من جهة الحرم الى الديوخانة ويسيل الى الخارج .

نقلت الشنط والامتعة من قبل رجال يلبسون الزى التركمانى والكردى بعمائمهم الملونةالخاصة الى باب الحرم فقط لانهم لايدخلون الى الداخل ، ثم حملت الخادمات النساء الشنط الى الداخل . وكانت ملابس النساء الخادمات كلها ملابس اهل الشمال حيث تتشابه ملابس التركمانيات والاكراد تماماً .

البيت واسع ورحب تتوسطه حديقة داخلية كبيرة ذات اشجار وازهار مختلفة ونخلة واحدة فقط تبدو وحيده بين الاشجار الأخرى . كانت اشجار النخيل نادرة في كركوك .

البيت له طابق واحد والغرف مبنية في جهة واحدة من البيت فقط على الشارع العريض ، وامام الغرف شرفة عريضة تمتد امام الغرف ولها اعمدة تعلوها الاقواس والغرف والشرفة ترتفع عن ارض الدار بما يساوي نصف المتر . والبناية مبنية كلها من الصخر المحلى (الحجر) . سقوف الغرف مقوسة كالطاق ، والجدران كلها لها (روازين) مختلفة ولطيفة . رأيت الصخر في البناء اجمل من الطابوق لدينا في بغداد . السقوف موجودة فوق الغرف والشرفة فقط وبقية البيت الكبير مفتوح كله .

سلمنا على الخالة واولادها العشرة . ستة اولاد واربع بنات ، اعمارهم تتراوح ما بين الست سنوات عمر الطفل الاصغر (عبد اللة) الى سن السادسة والعشرين سن الولد الاكبر (ابراهيم) ، والكل ابناء ام واحدة هي خالتي (جميلة) . كانت أمي تكبر ابن اختها (ابراهيم) بسنتين فقط ، وكان عمر خالتي في الاربعين لانها تزوجت وهى في الثالثة عشرة من عمرها! . .

حان وقت تناول طعام الغداء ونصبوا مائدتين واحدة للاطفال والعدد ثمانية ، وواحدة للكبار ، وانا طبعاً جلست مع الاطفال وكان مجلساً مؤنساً كعادتنا . ولكن في وقت العشاء ، اتى ابن خالتي الثانى وامسك يدى واجلسنى على المائدة الكبيرة وقال :

ـ هنا سوف تجلسين معنا كل يوم! . .

شعرت بالزهو وكأنما كبرت في يوم واحد وجلست على مائدة الكبار من اولاد خالتي الاربعة الكبار وثلاث من شقيقاتهم وامينة وامى وخالتي الكبرى . (خالتي ام البيت تأكل مع زوجها في حجرته عندما يعود الى البيت) .

بعث (ترفيعى) هذا الى مائدة الكبار الغيرة في قلب ابنهم (صلاح الدين) لانه ظل بأكل على مائدة الاطفال وكان سنه يزيد عن سنى بسنة واحدة! . .

كانت وجبات الاكل من الذ الساعات خاصة في وقت الافطار . كنا نأكل معاً الكبار والصغار ويبلغ عددنا مايقارب الثلاثين شخصاً ، ونجلس تحت قمرية عنب تتدلى منها العناقيد الحمراء والبيضاء ، على حصران وسجاجيد خفيفة على الارض ويتوسطنا السماور الكبير واباريق الشاي ، وتكون رئيسة هذه الجلسة الممتعة هي البنت الكبرى لخالتي ، الباسمة دائماً والتى تصب الشاي وهى جالسه على مرتبة ، ونتناول منها الاكواب والاستكانات . ونأكل ما يأتيهم من قريتهم (طوبزاوة) من البيض والزبد والجبن واللبن مع اقراص حارة من الخبز الذى يخبز في نفس دارهم في الجهة المعاكسة من البيت ، لان الخبازة تخبز مرتين في اليوم في الصباح وفى المساء . وهى امرأة كردية شابة بدينة قليلاً وجميلة الشكل .

في وقت الغداء نجلس على مائدة الكبار حوالى اثنى عشر شخصاً ونسمع ما دار بين الرجال من الضيوف او الخدم في الديواخانة من اولاد خالتي ، وعادة ما تكون قصصاً مؤنسة يلتذ الجميع بسماعها عن الفلاحين والخدم .

كان الاكل لذيذاً ، ويطبخون الكثير من الحنطة بمختلف ادوارها من (القرة خرمان ، والحبية ، والبرغل) وغيرها ، اما (الرز) فقد كان من نوع (نكازة) .

الطباخة ترسل الطعام الى الديواخانة يومياً ظهراً ومساء ، لاطعام الضيوف والخدم ، وكانت القدور في المطبخ كلها من النوع الواسع جداً .

اما (الرقى) عندهم فهو كبير جداً في نوعيه المستدير والمستطيل ، وكل (رقية) تعادل ثلاث اضعاف الحجم لرقى بغداد . (وقد اختفى هذا النوع من الرقى في كركوك منذ سنوات واصبح حجمه بحجم رقى سامراء) . وكان عندهم نوع من الخيار الكبير جداً من نوع (تعروزي او ترعوزي) حجمه بحجم رجل صغير اسمه

في كركوك (دام ديره كي) وهو خيار تنعدم فيه طعم ورائحة الخيار الرطبة اللذيذة ، ورفضنا نحن الصغار ان نأكل منه .

كـان اسوأ مـاعندهم الماء! . . . هناك مـجرى نـهر طبيـعى يأتى من الجـبـال ويدخل في البيت الى حوض صغير داخل البيت ، ثم يخرج النهر الى الديوخانة ثم الى الخارج . لم نكن ندرى نحن الصغار ، ان هذا هو ماء الشرب أيضاً . كان الماء يسيل صافياً رائقاً ، ولكنه مفتوح الى الخارج كأى ساقية ويدخل فبه أي شيء في سبيله . كانوا في البيت يملأون الماء من الصباح الباكر من الحوض ويضعونه في اوعيـة طينية مفخورة (الحِب) ويضعون تحت (الحبوب) اناء آخر يجمع الماء النظيف في (البواكة) ، للشرب منه! . . . وقد كرهت طعم الماء جداً ، وكنت اشرب اللبن الخفيف (الشنينة) بدلاً من الماء ، ولم اسمع أحداً من الآخرين كره هذا الماء مثلما كرهته انا! وكأننى انا فقط بنت نهر دجلة العذب وحنفياته الصافية النقية في بغداد! . .

كـان كلام الكبـار من اولاد خالتي معنا ، يمس الوطن كـمـا نعرفه . وانا وقد اكملت الدراسة الابتدائية وقرأت بعض الكتب العربية والمترجمة ، اصبحت اشعر ان لي الحق في الجدال مع الكبار من اقربائى بجرأة ، ان رأيتهم يحملون على ما يخصنى من اراء احملها عن الوطن وحب البلاد .

كانوا يحملون على (الثورة العربية) وكل من آزرها وتحارب مع الدولة المسلمة الكبرى ، الدولة العثمانية ، وادخل الاجانب الى بلادنا . وقالوا ان لواء الموصل (ومنه كركوك واربيل والسليمانية) لم يدخل فيه الانكليز في الحرب الماضية ولذلك كانت المنطقة جزء من تركيا ويجب ان تعود الى تركية! . . .

كان هذا الكلام كبيراً جداً على ، مع انه يقال بشكل هزلى وفكاهى عادة ، لكي يكيدوا به لابنة خالتهم (امينه الرحال) وكانت هي تجادلهم بطريقتها القوية ، اما انا فاحاول كل ما في وسع طفلة الحادية عشر ان تتجادل مع شباب فوق العشرين من العمر ، مشربين بحب تركية الحديثة والغازى مصطفى كمال باشا! . .

وكان ابن عمتهم (ناظم النفطجى) الذى ذهب الى الموصل مع البعثة التى

كـانت تحـاول اسـترجـاع الموصـل الى تركـيـة اثناء وجودنا في الموصل ، يسكن في البيت الكبير قبالتهم في كركوك ، وكانوا يحترمونه كما لو كان ملكاً قد نزل من السماء! . . .

اثارت حمـاسـتى وجـدلى والفكاهة ضـد اولاد الخالة الجدل معى واصبح معظم حـديثنا حول العراق ودخول الانكليز في بلادنا واطلق وأحداً منهم على اسم (مس قـحطان) أي ابنة قـحطان جـد العـرب ، واصـبح هذا الاسم اسـمى هناك! . . (رغم اصولى العربية والكردية والتركمانية مجتمعاً) وكنت اقول اننى اتكلم هكذا لكونى من (العرب المستعربة) .

ورغم كل شيء كـان بسـود بيننا الحب والالفـة بين الاولاد والبنات ، ولم نخرج عن حـدود الادب او الفكاهه ولم يزعج احـدنا الآخر طيلة الوقت ، وبقـينا نحبهم ويحبوننا الى الاخير! . .

ان الكلام معهم بدأ يؤثر على قليلاً لانني بدأت احس بعد فترة ، ماذا لو ان العرب لم يحاربوا الاتراك وحاربوا ضد الانكليز؟ . ان الانكليز والفرنسيين خدعوا العرب واستولوا على بلادنا . ا اكانت الثورة العربية مجرد خداع لشعب عربى متخلف تازر مع الاجنبى وحارب ضد الدولة المسلمة؟لم اخبر أمي بما كنت اشعر فيه ، لانها عراقية وطنية وملكية! . . وكانت لاتحب الدولة العثمانية! . .

كنا نعجب بتحرير المرأة في تركيـة ، ولكنني كنت اعرف ان الاتراك ضـدنا تماماً منذ نهاية الحرب ، فكيف اعجب ببلد يكرهنا ويسمينا خونة وملاعين؟

هذه القصة ظلت تلاحقنى لمدة طويلة ، ولكن حبى للملك فيصل بقى كما كـان ، انه القـائد والوالد والملك . انه ادخل تحرير المرأة الى البـلاد بصـورة فعـالة ، بالمدارس والعلم ، ولاشئ يمحو هذا العمل العظيم .

كانوا يمدحون (مصطفى كمال باشا) ويسمونه (الغازى) فيما بينهم ، وكنت امدح مليكنا وحكمه . انه فتح لنا المدارس وساعد على جلب المعلمات من الخارج وادخل السينما الى البلد وارسال البعثات الى اوروبا وامريكا وفتح انظار العراق على العـالم الغـربى بصورة طبيـعيـة . ان تغـيـيره للبـاس الرأس (السـدارة بدلاً من الطربوش) فـرحت به النـاس ولبـسـوه بسـرعـة ، لكنه لم يجـبـر أحـداً على لبس

السدارة ، بينما غضبت جماعات كبيرة من الاتراك بسبب اصرار مصطفى كمال على الناس لبس القبعة الاوروبية .

الشئ الوحيد الذى لم يتدخل به الملك هو حجاب النساء ، والحجاب ظل سائداً في زمن الملك فيصل والملك غازى . (ولم يبدأ السفور التدريجي والسريع بين النساء الا في منتصف ايام الحرب العالمية الثانية أي بعد مرور عشرة سنوات عن هذا التاريخ) .

لم يتمكن اقاربى في كركوك ان يتكلموا عن سفور المرأة التركية ابداً ، لان اخواتهم في كركوك كانوا يعيشون في ظل نظام طاغٍ تحت ظل حجاب صارم لم ار مثله منذ ذلك الوقت .

لم يتزوج أي واحد من اولاد خالتي اوبناتها لان زواجهم صعب ، ويجب ان بكون بين افراد العائلة القريبين فقط ، كما سمعت بعد ذلك . البنت الكبرى كانت مخطوبة لابن عمتها ، ولكنه مات قبل العقد ، اي قبل سنتين بمرض (التيفوئيد) وهى الآن تجاوزت العشرين من عمرها ولاادرى ان كان هنالك خطيب آخر في العائلة لها . اما الاختان الصغريان وهما دون العشرين ولكل واحدة خطيب من اولاد العم والشابين يدرسان في المدارس الآن .

كان جو البيت سعيداً هانئاً بين الاخوة والاخوات يتبادلون النكات والفكاهات ، والحب بينهم كبيراً وعميقاً ، مع الاحترام الشديد للام وحبها واطاعتها ، والخشوع التام والكامل للاب ، لان الشخص الوحيد الذى يكلم الاب يومياً هي زوجته فقط ، وابنه الاصغر (عبد الله) وهو في السابعة من العمر ، ولايتكلم معه من اولاده او بناته اذا لم يستدعيهم امامه اذا اراد الكلام معهم وهذا لايحصل الا نادراً! . .

في اليوم الاول ، بعد الانتهاء من طعام الغداء ، لاحظت في البيت حركة غريبة ، رأيت جميع من في البيت من الخادمات وهن منتشرات في ذلك البيت الكبير يتركن ماكن يفعلن وينهضن واقفات دون كلام ، وقبل ان اسأل ماحدث ، رأيت الاطفال يصمتون ويقفوا بدون حركة وكذلك الاخوان الكبار والبنات كلهم وقفوا بسكون تام كل في مكانه في كل ناحية من البيت ، ووجدت الاب يدخل

الى الحرم من الديواخانة ويتوجه نحو حجرته دون ان ينظر الى أي واحد من هؤلاء الواقفين الصامتين . دخل الغرفة بسرعة وذهبت نحو الغرفة أيضاً زوجته خالتي . وما ان دخل غرفته الا وعادت الحركة الى الآخرين واستمروا على اشغالهم او كلامهم كالسابق .! . . .

ادهشنى هذه التصرف الغريب وكأنى اراه على مسرح! . .لقد رأيت (عمو حسين بك) ، وهذا ماكنا نسميه في بغداد ، ولم اره مختلفاً عن الاخرين من الاقارب عندما يزور بغداد ، ولكن هذا الخضوع العسكرى من اهل بيته ، لم ار مثله من قبل ولا من بعد! . . .اغرمت بهذا المظهر من الاحترام والحب المسرحى وترائى لي وكأنه (جورج ابيض) في دور (نابوليون) ، بحيث قررت في نفسى ان نفعل نفس الشئ في بيتنا مع والدنا عندما نعود الى بغداد ، ولكن نسيت ذلك لدى عودتيالى بغداد ورجوعنا الى اجواء الحرية في البيت .

رأيت احدى الخادمات تجلب صينية وعليها طعام الغداء وادخلته في غرفة الاب ، واكل الاب والام معاً داخل الغرفة . بعدذلك اتت خالتي واخذتنا الاطفال الى غرفة الاب للسلام عليه . قبلنا يده وأحداً بعد الاخر ابتداء مني ، واظهر هوالبشر والفرح كما نعهده في بغداد . سألنا عن مدارسنا وصفوفنا ثم طلب ، كعادة الكبار ان نغنى له نشيداً مدرسياً فغنينا له نشيد : (ان أمي لم تلدنى لسوى الحرب العوان) ، وهو مترجم عن نشيد باللغة التركية ، طرب من ذلك وغنى معنا نفس النشيد باللغة التركية . كل هذا ولم يبد من اولاده احد معنا في الغرفة ، وكان لديه اربعة اولاد صغار ، لم يجرأوا على دخول الغرفة مالم يناديهم باسمائهم .

هذا هو الاب ،وهو من اولاد خال أمي ، السيد المهاب في الدار والكل يخشاه! . . كان طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، ذا شعر كثيف خالطه بعض الشيب ، وله وجه وسيم جداًببشرة بيضاء وردية ويفيض صحة وعافية ، وعينان عسليتان باسمتان دائماً معنا نحن ضيوفه الاطفال . يتكلم اللغة التركمانية في البيت ككل اهل كركوك ويتكلم العربية معنا بلهجة تشبه لغة البدو والفلاحين العرب في القرى عندهم ، و(مكسرة) قليلاً الى التركية . وقد بدأنا نحن ، انا واخوتى ان

نقف ونصمت عندما يدخل البيت ويتوجه نحو غرفته مثلما يفعل الاخرون! . .

كان الاب يترك البيت صباحاً الى الديواخانة او الى القرية ، وبعود ظهراً ، وينام ساعة بعد الغداء ويخرج الى الخارج ولا يعود الا لوقت العشاء اذا لم يكن لديه ضيوف . زوجته تأكل معه وتقص له ماجرى في البيت من الاشياء المضحكة او السارة وهو يستأنس بذلك جداً . ولا تذكر له اشياء مزعجة اومتعبة ابداً .

كانت له سيارة واحدة وعربة ذات جوادين ، وللعربة مكان خاص في الديواخانة (كراج) وكذلك للخيول . وكان يفضل استعمال العربة على السيارة . وكان يضحكنا انه دائماً يسمى خيول العربة (بيكير) او (كديش) بالعربية ، ولايطلق كلمة (حصان اوفرس) الا على الخيل الاصيلة التى يملك عدداً منها .

وقد علمت بأن (حسين النفطجى) ، رفض ان يصوت للملك فيصل الاول ، اثناء التصويت الاول في سنة ١٩٢١ ،وكان من القلة القليلة التى ارادت ان تعطى لواء الموصل الى تركيا . وهو خال (ناظم النفطجى) الشخص الذى كان في اللجنة التركية في الموصل ايام وجودنا هناك . وعندما انضمّت الموصل للعراق ، شاهد (آل النفطجى) اناس آخرين غيرهم يحكمون كركوك بطبيعة الحال ، وهم ظلوا على الرف . كانوا يكرهون الانكليز ويكرهون تاثيرهم على البلاد! . . .

لم يضطهد الحكم الفيصلى (حسين النفطجى) ، بل ظل في بلده مهاباً محترماً ، يملك القرى والاطيان في لواء كركوك الى نهاية حياته . (وفى سنة ١٩٣٨ انتخب نائباً عن كركوك ايام الملك غازى!) .

زوجته ، (خالتي جميلة) كانت سيدة ذات وجه مليح ، وشخصية قوية وهدوء تام في تصرفاتها . كانت تحكم البيت بنفوذها وهدوئها وكان اولادها وبناتها يدينون لها بالحب الصادق ولايرفع أي منهم صوته امامها او يزيل الكلفة في حضورها . وكانت سعيدة ببيتها واولادها وخاصة بزوجها وبنفوذه التام على البيت وهى من وراء جعله بذلك المركز في البيت . وكان نصف آله بالنسبة لها وجعلته نصف آله بالنسبة لاولاده أيضاً! . . .

لم تتحمل أي مصاعب في تربية اولادها ، كل طفل اوطفلة كانت له مرضعة (تركمانية اوكردية) لارضاعه والاهتمام به . وهى كأم موجودة في البيت

دائماً ، لاتحب الخروج الا نادراً مثل الذهاب الى اعراس او مآتم العائلة والاقارب الاقربون . وكانت تشعر بالرضى التام عن حياتها ، وترى ان زوجها واولادها لايضاهيهم شيء في العالم ، وبيتها اجمل من كل البيوت! . . .كانت لاتقوم بأى عمل في البيت لوجود الخدم ، وبعضهن نفس المرضعات اللواتى ارضعن الاولاد قبلاً مع اثنتين من البنات الكرديات ، وكلهن يقمن بخدمة البيت ، اثنتان للطبخ وواحدة خبازة والبقية للتنظيف . رأيت ستّاً منهن في البيت وهم خليط من اصل تركمانى او كردى . خالتي تقضى وقتها جالسة على اريكة وتقوم بحياكة الصوف الذى يأتيهم من اغنامهم لكي تتسلى . وهي لم تذهب الى المدرسة مثل والدتى لذلك كان لديها عادة ان تجلس بعد العشاء قبل رجوع زوجها وتسمع أمي او احدى بناتها تقرأ لها قصصاً مترجمة عن الانكليزية او الفرنسية الى اللغة العربية او التركية ، ويستغرق ذلك عدة ايام لقراءة الكتاب الواحد . وكانت خالتي تعيد على زوجها ما سمعته من أمي او من احدى بناتها يوماً بعد يوم كل مساء لانه يحب ويهتم لسماع هذه القصص الى ان تنتهى الرواية .

بنات خالتي وكانوا أربعاً ، واحدة تجاوزت العشرين ربيعاً ، واثنتان دون العشرين ، والصغرى في سن التاسعة ، في سن اختى (لمعان) ، وهى الوحيدة التى تداوم في المدرسة ، وكانت في الصف الثالث الابتدائى . اما البنات الكبار ، فلم يداومن في المدرسة ابداً ، بل تعلمن القراءة والكتابة في البيت بواسطة معلمات مسيحيات وعلوم الدين بواسطة سيدة تعلم القرآن وعلوم الدين . وفى تلك الايام كانت اللغة التركية تكتب بحروف عربية! . .

البنات الثلاث الكبار كن يتكلمن اللغة التركمانية فقط دون أي معرفة باللغة العربية لانهن لم يدخلن المدرسة . اما الابنت الصغرى والاولاد ، فكلهم يتكلمون العربية مع لكنة تركية واضحة .

امهم خالتي ، تتكلم العربية مثلنا تماماً لانها نشأت مع والدها ، وكان (المدعى العام) في ايام الدولة العثمانية واشتغل في بغداد والمتصرفيات الجنوبية كالعمارة وكربلاء لسنوات عديدة ، وكل اولاده وبناته نشأوا وهم يتكلمون التركية في البيت والعربية في خارج البيت ، وجميع اخوان أمي واخواتها يحسنون اللغة

العربية والتركية تماماً ، خالية من أي لكنة غريبة ، ولكن هذا لاينطبق على اقربائنا الآخرين في كركوك الذين يتكلمون اللغة العربية بسهولة ولكن بلهجة تركمانية واضحة .

نعود الى البنات ، ملابسهن مثل ملابسنا ولكن بتنورات طويلة وباكمام طويلة ، ولم ار واحدة منهن تلبس ملابس التركمان ابداً . رأيتهن باديات الرشاقة والاناقة في قاماتهن الطويلة وفى جمال وجوههن الصبوحة ، وعلى جانب كبير من البشاشة واللطف مع الجميع . وهن لايخرجن الانادراً جداً ، اليبعض بيوت الاهل اوعند الاعراس ـ على قلتها ـ ، او للذهاب مع العائلة الى القرية القريبة من كركوك (طوب زاوة) لفترة اسابيع اثناء الصيف .

اقمشة الملابس تأتى من السوق الى البيت بواسطة (دلالة) يعرفونها ، والخياطة تأتى الى البيت بدورها لخياطة الالبسة . البنت الكبرى كانت تخيط الملابس البسيطة لها ولاخواتها .

لم اسمع اية واحدة من البنات تتذمر لأنني كنت قليلة الكلام معهن بسبب اللغة ، ولكنى اعلم انهن يتذمرن عند (امينة) بنت خالتي التى تناهزن سناً وتتكلم لغتهن التركية .

وهن يغبطن (امينة) لانها ذهبت قبل سنة الى بيروت في مؤتمر نسائى وكانت في السادسة عشر من عمرها دون ان تصحبها والدتها . والان (امينة) على وشك ان تعين معلمة براتبها الخاص ، دون حاجة لطلب المال من اهلها . انها حرية لم يسمعن بوجودها في العائلة! . . . يبدو ان حياة القرون الوسطى اصبحت شيئاً ممجوجاً في جميع انحاء العراق! . .

اما انا كنت العب مع الاخت الصغيرة لأنني اتفاهم معها باللغة العربية التى تعلمتها في المدرسة ، واعرف ما يدور في مدرستها مثلنا . ولكنها وهي في سن التاسعة من العمر ، اصغر من ان تتذمر اوتدرك .

اضيف مرة اخرى واقول بأنني اعجبت باللطف والبشاشة والفكاهة عند جميع اهل البيت . لم ار وأحداً منهم يغضب ابداً طيلة اكثر من شهرين في بيتهم! . . .

كانت خالتي اماً لعشرة اطفال ستة من الاولاد الذكور واربعة من البنات . كان ثلاثة من اولادها اشخاص شبه غرباء في كركوك في ذلك الوقت ، يلبسون القبعات التركية ويتكلمون بلهجة استانبول . ارسلهم والدهم الى استامبول للدراسة في وقت واحد منذ اربع سنوات في سنة ١٩٢٧ ، ولاادرى ان كان ذلك بسبب عدم وجود ثانوية في كركوك . ارسل الولدين الاكبرين والولد الرابع ولم يرسل ابنه الثالث لان الاب رأى ان ابنه الثالث لايحب الدراسة . وكانت اعمارهم كبيرة بالنسبة للصفوف الثانوية ، ولكنهم قبلوا في استانبول ودخل الكبار في صف واحد وكانت اعمارهم تتجاوز العشرين بقليل ، والاصغر كان في نحو العاشرة من عمره ، دخل الابتدائية .

والان اكملوا الدراسة الثانوية واكمل الاصغر الدراسة الابتدائية . وهم يرجعون الى كركوك كل سنة في بداية العطلة الصيفية ثم يعودون الى تركية في شهر ايلول .

الدراسة والمعيشة في استانبول اثرت على الاولاد الثلاثة تأثيراً عميقاً وشديداً . اصبحوا لايقيمون لاحد وزن في عالمنا هذا ، الا لتركية وللغازى مصطفى كمال باشا! . . .كانوا حبهم واحترامهم لرئيس الجمهورية التركية يصل الى درجة التقديس والعبادة! . .

ولكن رغم اعجابهم بمنجزات هذا الرئيس التركى واعطائه المرأة التركية الحقوق الكاملة مثل الرجل لم يحاولوا ان يجعلوا اخواتهم في البيت يأخذن شيء من هذه الحرية! . . . ان البنات يعشن كما عاشت امهاتن وجداتهن في الماضى . والسبب كان وجود الاب وتأثيره الطاغى على الجميع ،ولن يجرأ أحداً ان يبدل الوضع بأى حال! . .

الاخوة كانوا يشركون البنات في الاحاديث العامة ويفسرون ما يجرى من امور في تركية وكأن تركية كانت قدس الاقداس ، والبنات يعدن آراء اخوتهن كالاسطوانة! . . . وانالم اتمكن بسني آنذاك ان اتناقش معهن او ابدل آراء اخوتهن ، وكان ذلك مايغيضنى بشدة واكتم ذلك بنفسى .

ولكن ، بدات احس ما كنت اسمعه من (امينة الرحال) بصورة خفية ، بأن

الوضعية بها الكثير من المتناقضات . الاولاد الثلاثة الكبار يتكلمون عن عالم آخر في استانبول حيث يدرسون ، في مدارس مختلطة الاولاد مع البنات ، وسفور المرأة التركية والاماكن الجميلة التى شاهدوها ، وكل هذا بلهجة استامبولية متمدنة وكأنهم يعيشون هناك في جنة الفردوس . والبنات يسمعن الكلام كل سنة عندما يرجع الاخوة الى كركوك في الصيف ، لذلك بدأت كركوك تضيق في عيونهن! . . .انهن لم يزرن بغداد الى الآن! . .

ساءلت نفسى عن اقاربى هؤلاء وهم من المزارعين الكبار ومالكى الاطيان في كركوك هل هم من الاغنياء؟ . .

هذا البيت الذى يطعم حوالى اربعين شخصاً كل يوم ، بقسم النساء والرجال . ان البيت على سعته يتكون من طابق واحد فقط في قسم النساء ، والاثاث بسيط من طراز شرقى قديم لاينم على البذخ ولاتوجد صور على جدران البيت ما عدا اطباق قديمة لطيفة وضعت على روازين في غرفة الضيوف وطيور مجففة معلقة على الجدران .

مائدة الطعام في قسم (الحرم) بسيطة يجلس عليها اثناعشر شخصاً ، ومائدة اصغر للاطفال والجميع يستعملون ادوات المائدة على الطريقة التركية ، ولكن ادوات المائدة والاقداح كلها من نوع بسيط موجود في الاسواق كلها .

وملابس افراد العائلة غربية ولكنها بسيطة أيضاً مثل ملابس (الافندية) و(الخانمات) في بغداد ، ولم تكن كثيرة او باذخة كما في بغداد .

الاشياء الثمينة والباذخة كانت فقط في السجاد الفارسى في الغرف وعلى بعض الجدران .

ولا ادرى ان كان لديهم حساب في احد البنوك ام لا ، لأنني لم افكر بهاذا الموضوع . كنت ارى خالتي تضع النقود في صندوق خشبى اسود كبير مقفول بمفتاح وتخرج منه ما تحتاج .

اكلهم يأتى من القرى مابين حبوب وخضروات ولحوم بكميات كبيرة .

عندهم ارض كبيرة كان يسحب منها النفط الخام بطرق بدائية منذ ازمان بعيدة ، وهم رفضوا ان يتركوا (شركة النفط الاجنبية) تحفر في اراضيهم قبل الحرب

الاولى ، وبعد دخول الانكليز الى العراق ، حفروا ماشاءوا بعيداً عن اراضيهم وكأنهم غير موجودين اصلاً ، ولم يحصلوا على أي شيء من الارباح طبعاً . اسم بيت (النفطجى) كان اسمهم منذ زمن بعيد عندما كان النفط الخام يباع من اراضيهم ، ويجلب الى المدينة مثلما يجلب الماء في ذلك الزمن .

انتهت العطلة الصيفية . وعدنا الى بغداد ورجع الوالد في نفس الوقت من سفرته الاوروبية .

كانت سفرة ممتعة وجديدة وقد اثرت على تأثيراً كبيراً لازمني لمدة سنوات طويلة .

المدرسة المتوسطة

عدنا من كركوك وانتهت العطلة الصيفية وذهبنا جميعاً للمدرسة . أمي قررت ان ترسل (امل) اختى الصغيرة الى الروضة وكان عمرها ثلاث سنوات فقط . وكانت اختى (عادلة) لاتزال في الروضة أيضاً . وهكذا بقى عندها (فاروق) الصغير فقط في النهار! . . .

كنت فرحة لأنني انهيت الابتدائية ، وسوف نداوم في البناية الوسطى الكبرى حيث صفوف دار المعلمات .

في المدرسة وقفت المديرة امامنا وبدأت تقسم البنات الى قسمين :

القسم الاول ، من ترغب في الدخول الى دار المعلمات ،

والقسم الثانى ، من ترغب ان تدخل في الصف الاول المتوسط .

يبدو انهم فتحوا الصف الاول المتوسط من قبل سنة واحدة فقط دون ان ندرى الفرق ، والبنات اصبحن الآن في الصف الثانى المتوسط ، وسنكون نحن في السنة الاولى من المتوسطة .

وقبل ان اسأل عن التقسيم اشارت على المديرة ان اقف في قسم الصف المتوسط قبل ان اتكلم .

عند ذلك علمت بأن المدرسة اصبح فيها مدرستان اثنتان بعد الابتدائية ، الاولى هي دار المعلمات ، والثانية هي المدرسة المتوسطة والتى ستصبح ثانوية فيما بعد .

لقد تعجبت الطالبات من ازدياد طولى خلال العطلة الصيفية . اصبحت اقترب بطولى منهن . قلت في نفسى ، بأنني كبرت وازداد طولي وسوف العب مع البنات (كرة السلة) في درس الرياضة الآن ، وهى لعبة كنت احرم منها دائماً بسبب صغر سني .

لم البس العباءة الى الآن ، وسنى يناهز الثانية عشرة .

في البيت تركت العاب الدمى الجميلة وتركت اللعب بالطائرة الورقية التى كنا نطيرها في السطح ، وتركت العاب العصابات والبوليس . . .بدأت اجد نفسى اكبر من ان العب مع اخوانى الاطفال وارى احاديثهم بسيطة ولاتلذ لي كالسابق .

انصرفت الى جمع طوابع البريد ، خاصة لأنني اعرف اسماء معظم البلاد الكبرى والعواصم ، وجعلت الصغار من اخوتى وابناء عمى يتعلمون اسماء البلاد المختلفة واسماء عواصمها . بدأنا نذهب الى السينما كثيراً مع أمي واختى وبدأت اجمع اعلانات السينما الملونة واتبادل بها مع الآخرين ، وكانت هواية ممتعة جداً وصرت اعرف اسماء الممثلين والممثلات في السينما .

اصبحت ارى في السينما عالماً بعيداً جديداً فيه كل ما ارغب من بيوت بديعة الى اناس من النساء والرجال يقصدون الغابات البعيدة والمجاهل القصية لمعرفة ما يجرى هناك ، في افريقيا وبورنيو والقطبين الشمالى والجنوبى وغيرها . ورأيت الناس يرتدون الملابس الجميلة في الحفلات ، ويرقصون ويطربون ، اشكالهم جميلة نساء ورجالاً واطفال وكذلك بيوتهم وحدائقهم وكأنهم يعيشون في بلاد اخرى لاعلاقة لها بعالمنا هذا! . . والبعض منهم يكتشفون ويخترعون في الطبيعة وفى المخترات العلمية . . . اصبحت ارى ما في السينما والبلاد الغربية الراقية موطنيالروحي . . . وكنت ارى ان عالمنا سوف يتبدل بسرعة وسوف نكون مثل البلاد الاوروبيه بسرعة وفى زماننا نحن! . .

كنت اريد ان تصبح كل امرأة جميلة مثل (كريتا كاربو) او (مارلين ديتريش) والرجال مثل (كارى كوبر) والفتيات والفتيان امثالنا مثل (ديانا دربين) و (ميكى رونى) والاطفال مثل (شيرلى تمبل)! . . .

اما في البيت ، كان التأرجح بين الطفولة والصبا مزعجاً . بدأت ارى الاقارب كلهم وكأنهم ينظرون الى نموي الجسدى السريع ، وكأنهم لم يروا طفلة تكبر من قبل! . . .

وقد قيل لي انى قد كبرت كثيراً عن الاطفال الاخرين في البيت ويجب ان اجلس مع الكبار ، وكنت انزعج من ذلك واكره جلسة الكبار . أحياناً اسالهم

وبخشونة ان كنت انا وحدى الصغيرة التى كبرت! . . . واقول بأنني لااهتم بهم ان كبروا وان صغروا ، فلماذا هذا الاهتمام بي؟ وانا لااهتم بهم ولابافكارهم؟

ان الكبار في العائلة اصبحوا مصدر ازعاج بالنسبة لي ولااود ان اسمع عنهم ولا منهم! . .

لم ادر ما كنت اريد! . . ارى هدوء الطفولة وجمالها يختفى بسرعة ، وانى سوف انتمى الى الكبار الذين امقت طريقة حياتهم كلها! . .

كنت افكر هل اكون مثل نساء العائلة ، واترك حرية الطفولة واجوائها؟ هل اريد ان اكون مثل أمي ، او خالاتى او عمتى او (بيبى حجية) او حتى اختى الكبرى (بتول) ، ولها الآن طفلتان جميلتان وهى فقد بدأت تسمن بسرعة كبيرة .

لن اكون مثلهن ابداً! . .

انهن مستعبدات للرجال وينجبن الاطفال دائماً ، ومعيشتهن كلها بيد الرجل ان كان كريماً او بخيلاً مهذباً او فضاً! . .لقد رأيت النساء في السينما ووجدت الفرق الهائل بين العالمين ولكن ، اين انا من ذلك العالم البعيد! . . كانت البلاد الغربية مفصولة عن حياتنا وكأنها في كوكب آخر! . . .

الرجال في العائلة ، كانت مجالسهم بينهم تبدو وكأنها متفتحة في الفكر والكلام وتفكيرهم اسمى بكثير من النساء ، وكنت افضل ان استمع اليهم بدلاً من النساء ، ولكن حياتهم جامدة وكسولة وليس فيها شيء غريب او جديد ، اين هم من جماعات الغرب في السينما او في القصص الاجنبية بعاداتهم ولباسهم واحترامهم للعادات الحديثة والافكار الجديدة . . .اصبحت ابتعد فكرياً عن اهلى كلهم رجالاً ونساء ، وعن كل ما يقولون او يفعلون! . . .

كانت أمي وصديقاتها يظهرن امتعاضهن من نفوذ الرجال الكامل عندنا والفرق بينهن وبين نساء الغرب . واذكر ان احدى الصديقات قالت وكأنها تمزح :

ـ لماذا نهتم بالرجل؟ لا لشئ سوى انه يعيشنا! . . والا هل هنالك سبب آخر؟ اجابت اخرى :

ـ الاطفال أيضاً ، انهم من الضروريات في الحياة! . .

وكلهن يضحكن ويسخرن من الموضوع وكأنه قضاء مكتوبا!

هذه المواضيع كانت تؤثر علي جداً . اخذت احتقر الرجال واكره النساء! الرجال احسن قليلاً لان لهم الحرية التامة في ممارسة اعمالهم والشجاعة في القول ، ولكن اولئك النساء البدينات اللواتى يتحدثن في امور سخيفة ، ويضحكن بغباوة لاقل الامور ، وخضوعهن المطلق لارادة الزوج دائماً جعلتنى انفر منهن تماماً . كانت هذه امور في داخلى لااستطيع ان ابوح بها او لعلنى كنت لااستطيع ان ابوح بها بطريقة سليمة .

في احد الايام . وعمتى الوحيدة جالسة تتكلم مع ابى ، وانا استمع اليهما ، لأنني احب ان اسمع كلام الكبار دائماً ، وانصرف جميع الاطفال بعيداً عنا يلعبون . بدأت عمتى تتكلم عما كانت تفعله وهى صغيرة وكيف يجب ان اكون مثلها تقوم بخدمة اخوانها وماذا كانت تفكر به من امور كانت قديمة وسلفية بالنسبة لي . لم اجب على كلامها بغير الابتسام ، لاننا لانجادل الكبار . نظرت اليها وانا اقول في نفسي :

- لن اكون مثلك يا عمتى! . .

واذا والدي يرد عليها وهو يبتسم ، وكأنه يقرأ وجهى :

- لن تسمع منك! . .

ورغم كل شيء ، كنت احب اهلى رجالاً ونساء واحترم شخصياتهم! . . .ولم ادر كيف افسر ذلك! . .وبقيت احبهم الى الاخير ، ولازلت استعيد ذكراهم في مخيلتى ، واحن اليهم والى كلامهم واصواتهم وضحكاتهم الى الآن في مخيلتي! . .

في احدى الامسيات ، نادى على والدي وهو في غرفته وكانت أمي هناك أيضاً . . .قال لي وهو يبتسم كعادته معنا ، بأن على ان البس العباءة لأنني كبرت في السن واصبحت بنتاً صبية . لم اجرأ على مناقشته ، ولكنى عبست وجهى قليلاً وقلت شيئاً ممقوتاً عن العباءة وعن الذين يلبسونها .

نظر الى وقال :

- السفور هو فقط بين المسيحيات واليهود ونحن لسنا منهم وسوف يعيبنا الناس! . . .

ثم طلب من أمي ان تشترى العباءة في الغد . وهكذا كان . . .

والدي قلما يطلب منا عمل أي شيء الا القليل جداً . لم اجروأ عليمناقشته او مخالفته ولكنى شعرت كأن شيئاً قد كسر ارادتى واطاحها! . .

لم يشر والدي الى سفور (امينة الرحال) ابنة خالتي ، وكانت (امينة) قد اسفرت منذ حوالى السنة الماضية وقبلها كانت متحجبة . وقد اثار ذلك استياء الناس ، ولكنه تم ذلك برضاء اخيها الاكبر (حسين الرحال) .

كانت (امينة) آنذاك تعيش مع اخيها (حسين) ومع امها في بيت في شارع (ابو نواس) ، وهى منطقة جديدة ومعظم سكانها من البهود والنصارى ، والنساء سافرات كلهن ، ويلبسن القبعة الاوروبية . (امينة) بدأت تلبس (مانطو) طويل باكمام طويلة وتلبس القبعة الغربية أي (البرنيطة) ، وامتزجت بذلك المحيط . ولكن مجيئها الى بيوت اقاربها كان يبدو غريباً في الشوارع الاسلامية القديمة ، خاصة وهى منذ سنة اصبحت معلمة وتدرس في المدرسة البارودية للبنات وهى قرب بيتنا ، وامام بيتهم القديم ، فكان الجميع يعرفها وبذكرون كم كان والدها المرحوم (على صائب بك) متديناً اي متعصباً جداً في الامور الاجتماعية .

لم يذكر والدي استياءه من (امينة) ، لانه لايذكر استياءه من الاخرين ابداً ما عدا اولاده ، ولكنه حرص ان لااقوم بما قامت به لانه يعرف اعجابى (بأمينة (وحبى لها وتقليدى لما تقوم من اعمال اجدها عصرية . لبست العباءة دون (البوشى) لفترة من الزمن .

ضحك علي بعض اقاربى من الرجال والنساء وسخروا قائلين ان العباءة جزء من عاداتنا وانها باقية ولن تزول! . .لم اجد في الموضوع ما يضحك ، كنت اعبس دائماً لهذا القول واجيب بتحدى :

ـ ان عمرى اثنا عشر عاماً فقط ، ولكن انتظروا المستقبل القريب . سوف نتغير كلنا! . . .

العباءة وتحية الشاعر (طاغور)

استدعتنى المديرة (الست الس قندلفت) وسألتنى ان كنت اتمكن من حفظ صفحة صغيرة باللغة الانكليزية لكي القيها هذا اليوم بعد الظهر، في محطة القطار تحية للشاعر الهندى المشهور (طاغور) الذى سيصل الى بغداد. عبست بوجه المديرة وقلت ان ابى طلب مني ان البس العباءة قبل ايام قليلة، هل اذهب للبيت واطلب منه ان اخلع العباءة لهذا الغرض؟ طلبت مني ان اذهب للبيت وارجع بسرعة لكي ابدأ بحفظ الكلمة باللغة الانكليزية.

عدت الى البيت ووالدي لايزال هناك. وافق على اشتراكى بالموضوع وعلى خلعى العباءة مؤقتاً. اسرعت الى المدرسة واخبرت المديرة. جلست مع (الست اليونور قمر) طيلة الصباح لكي تفسر لي الكلمة وكيفية لفظها لفظاً صحيحاً. وكانت معظم الكلمات الانكليزية جديدة على جداً، ولكن ذاكرتى ساعدتنى وحفظت تلك التحية بصورة صحيحة .... هذا مع اننى لم اسمع بأسم (طاغور) قبل ذلك اليوم!...

في وقت العصر أخذتني المعلمة ومعى تلميذتان من الابتدائية وكل واحدة تحمل باقة جميلة من الورد لتقديمها للشاعر الكبير. والبنات كن (ساهرة سامى سليمان وسالمة الخفاف) وكن في الصف الرابع الابتدائى. وصلنا المحطة، ووصل القطار ونزل منه شخص غريب لم ار مثله من قبل. شيخ كبير ضامر الوجه وبلحية بيضاء طويلة، وعارى الرأس عن شعر طويل ابيض وعيون نفاذة وملايس بيضاء ناصعة. ظننته رجلاً من الاساطير!...

تقدمت نحوه جماعات هنديه من الرجال والنساء وكل جماعة قلدته قلادة من الورود الجميلة حتى غطوا صدره بالازهار الملونة الرائعة وهم يهتفون باللغة الهندية. ولاادرى من استقبله من رجال الحكومة ولكنني اذكر بينهم عمى (حسن فهمى) في ملابس الشرطة كان هناك، وكان لقبه (مدير الحركات) في الشرطة العامة. وقد رآنى وتكلم معى.

اخذتنا المعلمة امام الشاعر، قدم الصغار الورد، وبدأت القى الكلمة الانكليزية احيى بها:

- الشاعر المحترم العزيز الذى شرفنا بحظوره في بلادنا . . . وانا احييه بأسم طالبات المدرسة المركزية الاولى للبنات ، . . . والى نهاية الكلمة القصيرة .

شكرنى الشاعر الكبير ووضع يده على رأسى . وقد صفق الناس وخاصة جماعة الهنود بشدة! . .

ان حادثة خلع العباءة امام (طاغور) ، جعلتنى اشعر ان والدي لايحب الحجاب ، ولكنه يمشي على ما يمشي عليه الناس ، ولذلك صفحت عنه في نفسى! . .

المطالعة في الابتدائية

في الماضى ، كنت ادخل مكتبة والدي في البيت وكنت اعرف بأن هذه الكتب على الرفوف لاتعنى شيئاً بالنسبة لي سوى بعض المجلات المجلدة مثل (الهلال) اتفرج على صورها او بعض كتب اجنبية للحيوانات والنباتات الملونة .

كنت في العاشرة من العمر عندما قرأت كتاباً كبيراً لقصة بوليسية مترجمة عن اللغة الفرنسية حول اختطاف ولد وبنت من الغابة . رأيت نفسى واثقة من معانى الكلمات ولم اشعر بملل بل استمتعت بكل القصة واصبحت لدى الجرأة ان اقرأ غيرها .

وذات يوم ، رأيت أمي تمسح عينها وهى تكمل كتاب (العبرات) للمنفلوطى ثم تضعه في مكتبة والدي . اخذت الكتاب وبدات بقراءة القصص كلها ، وهى قصص قصيرة ، فهمت معظم فحواها وبكيت عليها جميعاً بدموع غزيرة دون ان اخبر أمي ، لان القصص حزينة وليست للاطفال بالنسبة لوالدتي .

كان ذلك عهد جديد بدأ لدى ، وبدأت اقرأ واقرأ! . . .

معظم البدايات كانت روايات بوليسية فرنسية مثل (جونسون) و(ملتون توب) و(ذو الوشاح الاسود) ثم قصص (طرزان) وبعض من قصص انكليزية للمؤلف (شارلس جارفس) ثم قصص المنفلوطى مثل (بول وفرجينى) و(ماجدولين) و(سيرانو دي بطيرك) (القنصلية) وكانت هذه كتب قرأتها في الصف الخامس والسادس الابتدائي .

وقد احببت الكتب البوليسية وبقيت اقرأها لمدة طويلة ، ولازال اشاهد قصص اجاثا كرستى وكولومبو وايرونسايد في التلفزيون الى الآن .

في نهاية الصف السادس كنت اعرف العواصم لكل البلاد العربية والآسيوية وجميع دول اوروبا ودول امريكا الشمالية والجنوبية ما عدا امريكا الوسطى ودول افريقيا السوداء . وجعلت الاطفال في البيت كلهم يتعلمون هذه العواصم وكأننا نلعب (حزورة) .

وكنت اعرف الاعلام في معظم هذه البلاد وارى العلم العراقى العلم الاجمل! . .

في سنوات الدراسة المتوسطة قرأت كتب مترجمة عن اللغة الفرنسية وكان والدي يجلبها لامى . قرأت عشاق فنيسيا وباردليان وكابيتان والساحر العظيم . وبعدها القصص التى تدور حول الثورة الفرنسية واعدام الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت ، ثم نابليون وفتوحاته الكبيرة وحياته عن زوجته جوزفين وبعدها الزوجه الثانية مارى لويز ابنة ملكة النمسا مارى تيرزا ، واكثر معلوماتى كانت عن فرنسا ، وكنت استطيع ان اعد اسماء اثنين واربعين ملكاً حكموا فرنسا!

(كان ذلك بسيطاً لان من حكم فرنسا من الملوك كانوا ثمانية عشر تحت اسم لويس وعشرة باسم شارل واربعة باسم هنري وهكذا . .)

اما معلوماتى عن التاريخ الاسلامي ، فقد قرأت القصص التاريخية الاسلامية لجرجى زيدان كلها(ثمانية عشر) من (فتاة غسان) في اواخر العهد الجاهلي الى عصر السلطان عبد الحميد في الانقلاب العثمانى) .

فاروق اخي الصغير

في سنة ١٩٣٣ وكنت في الصف الثانى المتوسط عندما داهمنى الحزن بشدة مرتين خلال سنة واحدة! . .

منذ ولادة (فاروق) اخى الصغير قبل عامين ، كانت أمي تشعر ان الله قد من عليها باطفال اصحاء اربعة بنات وولدين ،و تشعر ان العدد كان كافياً وافياً . وكان اصغر الاطفال (فاروق) قداكمل السنة الثانية من العمر الآن وهو يشبه رسوم الملائكة في الصور المشهورة ، في شكله الجميل وشعره الاشقر وصوته الملائكى وتصرفاته الذكية ، وكنا نعامله في البيت ، صغارنا وكبارنا وكأنه اعجوبة الزمن .

الوالد كعادته ، يتعلق بالطفل الاصغر بشدة دائماً ، وعندما يدخل البيت يهرع الي الصغير اولآ قبل ان يتكلم مع الاخرين . ولعله كان يرغب ان يولد له طفل جديد كل سنة! . .

فاروق الصغير اصيب (بالحصبة) . في الايام الاولى كان لديه حمى ككل حالات الحصبة ، وامى تمرنت على اعراض الحصبة لان اطفالها الخمسة مروا بهذا المرض بسلام . اثناء المرض ظهرت بثرة كبيرة في اعلى رقبة الطفل وادى ذلك الى الاصابة بمرض وبيل فيه حمى عالية وتقلصات عضليه شخصها بمرض (التيتانوس) او (الكزاز) الدكتور (ماكس ماكوفسكى) الذى كان اسمه (الالمانى) معروفاً عند كافة اهل بغداد . ويبدو انه اخبر والدي باللغة الالمانية بأن المرض لاعلاج له . وقد نقل والدي الخبر الى أمي همساً لكي لانسمع نحن . في لحظات قليلة تبدلت أمي امام عينى واصبحت شبحاً لنفسها ، اذ علت وجهها الوردى صفرة شاحبة وغارت عيناها الواسعتان وجلست قرب سرير الصغير لتراه ولتعنى به وهو غائب عن الشعور . وجلس قربه والدي وهو يهمس بحنان ان : (لايذهب ويتركنا) . وكنا في الغرفة المجاورة نبكى فاروقنا الصغير ، انا ولمعان وخلوق ومعنا (عائشة) تبكى . اتت أمي وطلبت منا ان ندخل الغرفة بهدوء لكي نرى فاروق قبل رحيله عنا .

دخلت عليه انا اولاً ، ورأيت محياه الصغير الجميل قد اصبح شاحباً ابيض دون أي اثر للدم في الوجه ، وشعره الاشقر الذهبي ملتصقاً بالوسادة ، ولاادرى ان كان ينظر الى ام لا ، لان عينيه كانتا مفتوحتين وفيها نظرة الالم ، وكادت نظرته تفقدنى رشدى . خرجت من الغرفة دون ان ارى قدمى . ثم راته لمعان وخلوق ، وجلسنا في الغرفة الاخرى نبكى وندعو الله ان يحدث من لدنه معجزة! . .

لم تحدث عندنا معجزة ، وتوفى فاروق في صباح اليوم التالى! . . .

ولاانسى كيف وضعوه في التابوت الصغير ، ونحن نراهم من الطابق الثانى ، وكيف نقلوه الى المقبرة . وقد تم دفنه في مقبرة (الاعظمية) ، قرب قبر خال والدي (دايى) كما نسميه .

تغير الجو في البيت كله . اصبحت أمي لاتخرج لزيارة صديقاتها ، ولايعجبها ان تلبس الملابس اللطيفة التى كانت تلبسها قبلاً .

أحياناً نرجع من المدرسة ونرى وجهها محمراً ، والدموع لم تجف من مآقيها لانها كانت تخفيها عنا لئلا نتألم ، ولم نجرأ ان نسألها ان كانت تبكى ام لا . وهى لا تذكر عن موته شيئاً ، لان الكلام عنه يفتح لها البكاء والنواح . واخفت صورة كبيرة له كانت معلقة على الجدار ، واخفت سريره الصغير . وصرنا خميعاً نخشى الكلام معها الا في بعض الشؤون الصغيرة . واصبح والدي يعود الى البيت وبالكاد يطلب شيئاً من أمي لانه لاينوى ان يزعجها بأى شيء مهما كان صغيراً .

وعاد والدي يتكلم مع اختى الصغرى (امل) ويدللها كما كان يفعل مع فاروق قبلاً ، ولكنه ظل الى الاخير يستعيد ذكرى فاروق .

اعتبر وفاة (فاروق) كأول وفاة تحدث في حياتى ،حدثت وانا في سن الصبا ، وفى داخل بيتنا واختطفت اصغر واجمل طفل عندنا! . . .بدأت افهم شيئاً عن معنى القدر ومعنى الحزن والاسى ! . . .

وفى تلك السنة ١٩٣٢ نفسها ، ونحن في الصف الاول المتوسط في قاعة الدرس اتت احدى المعلمات بسرعة واخبرتنا ان جلالة الملك بالمدرسة وسوف يزور الصفوف . انتابنا نحن الطالبات الشعور العميق بأن الملك يهتم بنا ويحاول ان يرى

التقدم الذى حصل خلال سنتين منذ زيارته المدرسة في المرة الاخيرة .

لبست الطالبات المسلمات عباءاتهن ، وكان عدد المسيحيات واليهوديات يعادل ثلث الصف وهن سافرات . كنت قد لبست العباءة قبل اسابيع قليلة فقط ، ولذلك لم اضع على رأسى العباءة التى كنت اكرهها جداً . . .

كان الدرس (انشاء) في اللغة العربية وكانت الطالبة (ساجدة الكبيسى (تقرأ بعض المقاطع للصف والمعلمة (نجلاء عقراوى) تفسر لنا الجمل الجميلة او الاخطاء في الانشاء وقد داومنا على الدرس .

موضوع الطالبة كان عن (الثورة العربية) ضد الدولة العثمانية . فجأة وصل الينا الملك والموكب الصغير ومديرتنا حوله . طلب الملك بعد ان صافح المعلمة ان تستمر الطالبة في القراءة ، واستمع وهو يبتسم لفترة رأيناها قصيرة ، وكانت الطالبة تقرأ باهتمام شديد ، ثم شكرها وصافح المعلمة وذهب .

لم نستطع ان نكمل الدرس بعد رؤية الملك المحبوب . لقد كنا ننظر الى اهم شخص شجع المرأة في بلادنا وآزرها حتى دخلت الكليات العالية .

قبل عشرة سنوات لم تدرى (المس بيل) عدد النساء اللواتى يقرأن في البلد لكي تدعوهن الى تشكيل جمعية نسائية! . . .والان ، لايوجد لواء في العراق بدون مدارس للبنات وحتى الكثير من الاقضية تحوى مدارس للبنات مطلوبة من الناس .

في هذه المرة رأيت عن قرب الملك المحبوب ، ذو الوجه الابوى اللطيف بأبتسامته الساحرة وحضوره الرائع ولم اعلم ويالاسف ، بأنني اراه للمرة الاخيرة! . . .

يجب ان اذكر اخر مرة رأيت الملك فيصل الاول ، وهو المشجع الاول لتدريس البنات وتعليمهن واهم شخص وافق على دخول البنات الى الكليات المختلطة في العراق عندما طلب منه الصحفى (رزوق غنام) بأن ابنته وقد تخرجت من المدرسة الثانوية في بيروت وتنوى ان تدخل كلية الطب في بغداد ، وافق على طلبه باهتمام وقبلت (ملك غنام) كأول فتاة دخلت الكلية في العراق وكانت الوحيدة في تلك السنة . . .

قبلت ودخلت الكلية ولم يصدر عن ذلك اعتراض من أي احد! . .

في العطلة الصيفية سنة ١٩٣٣ ، وانا اتطلع بشوق للذهاب الى الصف الثالث المتوسط ، كنت اقرأ الجرائد بصورة منتظمة واهتم بما يجرى من امور . وكانت اخبار الملك اهم من جميع الاخبار كلها .

قبل اشهر قليلة نصب في بغداد تمثالان واحد للملك فيصل في شارع الصالحية في جانب الكرخ ،وهو بالملابس العربية وعلى صهوة حصان ، ووجهه نحو الغرب كأنه ذاهب الى سوريا! . .والتمثال الثانى كان للمرحوم (عبد المحسن السعدون) في جانب الرصافة وسمى الشارع باسمه (شارع السعدون) . وقد اظهر كثير من الناس الفرحة والسرور لذلك لان الفنون ونصب التماثيل تعتبر من علامات الترقى والحضارة ، وكان قبل ذلك تمثال واحد في العاصمة هو تمثال الجنرال (مود) فاتح بغداد في سنة ١٩١٧ ، في جانب الكرخ ، قرب دار الاعتماد البريطانية .

كان الملك فيصل مدعواً الى لندن بصورة رسمية للمرة الاولى ، واستقبله الملك الامبراطور (جورج الخامس) استقبالاً ملكياً حافلاً ومعه رجال الجيش البريطانى والحرس الملكى من ذوى القبعات ذات الفرو الاسود يحيطون الموكب ، لان العراق دخل عضواً في (عصبة الامم) .

وقد رأينا الاستقبال العظيم في السينمايعرض قبل عرض الاخبار العامة في كل السينمات . وظهر الملك فيصل بثياب المارشالية ذات الياقة الذهبية وهو يلبس قبعة عسكرية بيضاء مثقلة بالريش الابيض ، وهو جالس مع الملك جورج الخامس بالعربة الملكية في طريقهم الى قصر (بكينكهام) . وكنا نقول بحماس المراهقة :

- وكأن فيصل هو الملك الامبراطور! . . . انه سيصبح امبراطوراً للعرب! . . .
- الشعب العراقى رحب وهتف بما وصل اليه العراق من مكانة سياسية .

كان العراق اول دولة عربية تدخل (عصبة الامم) ، وقبل دخول مصر ببضع سنوات! . .

في نهاية الاحتفالات والمراسيم ، كان الملك يحتاج الى راحة للتخلص من العناء الشديد الذى تحمله لعدة سنوات طوال ، وآثر ان يمضى بعض فصل الصيف

براحة وبعيداً عن العمل ، في سويسرة الهادئة الجميلة . ولكن راحته هذه لم تستمر سوى يومين اوثلاثة فقط كما سيأتي! . .

اخذنا نقرأ في الجرائد ان (الآثوريين او التيارية) في شمال لواء الموصل ، وهم يسكنون بين الاكراد ،وقد عطف عليهم سكان الشمال دائماً ، وانهم اصبحوا عراقيين مثل كل الشعب . ولكن ، عندما دخل العراق الى (عصبة الامم) عرفوا ان السلطة ستكون بيد العراقيين ولبس بيد الانكليز ، ساءهم ذلك وراحوا يطلبون اشياء مضرة للبلاد ، ومنها ان يكون لديهم ادارة مستقلة .

اخذت اسائل والدي ، لم اسمهم آثوريون او تيارية؟

(الآشوريون) كانوا من سكان العراق القدماء ولكنهم انقرضوا الآن . ثم لماذا يسمون (المسيحيين) فقط اشوريين ، والاشوريون كانوا سكان البلد قبل المسيحية وقبل الاسلام؟وهل نسمى سكان جنوب العراق (بابليين) . ان (بابل) مثل (نينوى) كانت بلاداً عظيمة وقد انقرضت وزالت الآن! . . لم اجد الجواب الشافى فيما يدور في الشمال عندنا لامن ناحية والدي ولا من الجرائد! . .

(التيارية او الآثوريون) الذين نراهم أحياناً في الشوارع يرتدون اللباس الخاكى العسكرى ببنطلونات قصيرة وعلى رؤوسهم قبعة من الخاكى تتميز بريشة واحدة على جانب القبعة ، وشكلهم يختلف عن الانكليز لانهم لايملكون اللون الابيض الوردى الشمالى ، والانكليز تبدو وجوههم مهذبة متمدنة ، اما (التيارية) فقد كانوا يسيرون في الشوارع بغطرسة وتحد وبشوارب سخيفة مفتولة الى اعلى وكأنهم هم الذين فتحوا بغداد وليس الجنرال (مود)! . .

سمعنا انهم ارتكبوا مذبحة في كركوك في اوائل العشرينيات وقتلوا الكثير من الناس العزل ، لذلك كانت رؤيتهم تثير الكره والخوف في النفوس . وكنت ارى بعضهم يقف كحرس على بناية في (الباب الشرقى) ، على نهر دجلة ، ويبدو ان من يسكن تلك الدار شخصية بريطانية مهمة جداً ، لان في مدخل الدار الواسعة ، يوجد مدفعان كل واحد على احد جوانب المدخل وفوهة المدفع باتجاه شارع الرشيد ، ويرتفع العلم البريطانى عالياً فوق البناية .

هكذا كان رأى الناس ورأى الطلاب ضد (الاثوريين) بسبب سلوكهم القاسى

والغطرسة في تعاملهم مع للناس! . .

كتبت الجرائد ان الجيش العراقى بقيادة (بكر صدقى) ذهب لتأديبهم ، وكذلك لمع اسم الوزير (حكمت سليمان) . وقد سافر ولى العهد الامير (غازى) مع الجيش ، وكان عمر الامير واحد وعشرون عاماً فقط! . .

ومن العائلة عندنا ، اشترك (صبيح نجيب العزى) وهو مدير الشرطة العام في الذهاب مع الجيش وكذلك عمى (حسن فهمى) وهو مدير الحركات في الشرطة العامة .

كان الرئيس الروحي للآثوريين شاب اسمه (المار شمعون) ولم اسمع بأسمه من قبل! . .

انتهت المعارك بسرعة واستسلم الاثوريون الى الجيش وفر بعضهم مع (المار شمعون) الى خارج العراق .

اصبح (بكر صدقى) البطل الوطنى عند الناس جميعاً! . . .

الملك فيصل قطع العلاج والراحة وعاد مسرعاً الى بغداد ، بعد ايام قليلة من وصوله الى سويسرة . كان الملك يرغب في معالجة الامر بالمفاوضات والمباحثات دون الوصول الى القتال .

لم تكتب الجرائد عندنا ان الجيش العراقى سبب قتل مئات من الاطفال والنساء والشيوخ من (الاثوريين) بل كتبوا ان الانكليز اغتاضوا جداً من القتال! . . . وقد فرح الناس من غيظ الانكليز لان كل شيء ضد الانكليز يعنى الاخلاص والوطنية للبلد في ذلك الحين! . . .

اخذت الجرائد تكتب عن قوة وبطولة (بكر صدقى) ، وارتفعت منزلة (الامير غازى) الى السماء في نظر الشعب . وباتوا يسمون (غازى) البطل المفدى ويفضلونه على والده باعتبار ان الملك يميل الى جانب الانكليز .

كان استقبال الناس للملك في بغداد فاتر جداً ، وتم تجاهله وسط التهليل والترحيب الذي كان يلقاه ولده (غازى) والقادة في الجيش وكأن الناس يتسائلون :

- لم جاء الملك للتدخل والآثوريين هم عملاء البريطانيين؟

وقال الناس أيضاً ان الانكليز هم الذين ارسلوا الملك الى بغداد بسرعة لكي

يساعد الاثوريين ويوقف حركات الجيش! . . .

الغريب ان الانكليز لم يتدخلوا عسكرياً في هذه الحرب! . .

اصبح (غازى) هو البطل الوطنى عند الشعب! . . .

وكانت هذه تجربة مثيرة وقاسية جداً للملك ، بعد انتهاء الانتداب ودخول العراق في عصبة الامم ! وقد ادت الى قلقه واضطرابه وفقدانه الشهية مع الضعف الشديد في بدنه . لذلك تقرر ان يعود الى سويسرة مرة اخرى للتداوى .

اخبرتنى صديقتى وهى طالبة معنا ، وتنتمى الى (الشرفاء) الذين جاؤا من الحجاز مع العائلة المالكة ، بأن والدها سمع من الملك فيصل نفسه ان الناس هتفوا للامير (يعيش الملك غازى) ، وان الملك قال لجماعته (سوف يصبح ملكهم قريباً! . .) .

بعد مرور ايام قليلة على سفر الملك ، سمعنا ان الملك توفى فجأة على اثر نوبة قلبية اصابته في مدينة (برن) العاصمة السويسرية وكان الى جانبه الملك (على) أخوه الاكبر ، و(نورى السعيد) ، (ورستم حيدر) و(تحسين قدرى) .

ظهرت ملحقات الجرائد تعلن في وسط النهار ، وهى مجللة بالسواد تنعى الملك إذ لم يكن هنالك راديو للاذاعة بعد . (اذاعة لاسلكية) .

احدثت هذه الخسارة التى لاتعوض مفاجئة مؤثرة وهائلة وتحول اتجاه الرأى العام الى ماكان عليه الملك في نفوس العراقيين من حب واعزاز ، وذلك بالتعبير عن الحزن الواسع العميق الذى اصاب الامة العراقية .

اتذكر انه ترك بغداد في يوم الجمعة ، ووصلت انباء موته في الجمعة الى تلتها ، ووصل الجثمان الى بغداد في الجمعة الثالثة .

وانا اذكر الجمعات الثلاث ، لأنني فتحت ملفاً خاصاً ووضعت به كل الصور والقصائد التى دخلت بيتنا ، وجللت الملف بالسواد واسميته (ملف الملك العظيم) وحفظته في صندوق خشبى صغير خاص بي لمدة طويلة ، لا افتحه الا لبعض الصديقات فقط! . .

اخذت مواكب الحزن والعزاء تسير في الشوارع كل يوم ، والكثير قدموا من مختلف ارجاء العراق الى بغداد إنتظاراًللجنازة الملكية .

رثى الشعراء الملك فيصل عند وفاته . قال معروف الرصافى :

قضى بدر المكارم والمعالي ... وحيـدرة المعارك والمغازي

بنى مجداً عـراقياً جديداً ... فأسسه على المجد الحجازي

وقد نظم الشاعر الشعبى (الملا عبود الكرخى) قصيدة باللغة العامية انتشرت بين الناس :

ا سفينة التايهة وطرها الفلك ... مات فيصل يا غريب اذكر هلك! . .

اما انا فقد شعرت بالمصيبة وكأنها كارثة لايمكن حدوثها! . . .كأن العالم قد انهز وسقط! . .

في سن الثالثة عشرة ، كنت اتصور ان كل شيء سيبقى كما هو وكما عهدته دائماً ، البيت ، والوالدان ، والمدرسة ، والملك ، والنخيل ، والنهران العظيمان . فما الذى حدث لنا؟

فقدنا الملك فيصل! . . .غاب مؤسس الدولة العراقية! . .

لم ار والدي بهذه الدرجة من الحزن لانه لايبكى . رايت عيناه تغرورق لاول مرة في حياتى عند وفاة اخى (فاروق) في الشتاء الماضى ، وها ان عيناه تغرورق مرة ثانية الآن! . . . كان يقرأ ما تقوله الصحف بامعان وهو يهز رأسه اسفاً على الملك . وهو اول من سمعت يقول بأسى منذ اليوم الاول للوفاة :

- سوف تبدأ المشاكل! . .

بدأ الناس ، كل الناس ، يشعرون وكأنهم فقدوا كنزاً لايقدر ، وصاروا يذكرون محاسن الملك بحزن واسى! . .

في يوم الجنازة ، ذهبنا مع أمي الى بيت احد اقاربنا في مدخل شارع الاعظمية مقابل وزارة الخارجية القديمة وجلسنا في الشرفة المطلة على الشارع ، وكان الشارع يغص بالوفود الشعبية ورجال القبائل من مختلف اطراف العراق يمشون في وسط الشارع ، والنساء من البدويات والفلاحات يملئن جانبى الطريق ، وهن يلطمن صدورهن ويصرخن باصوات عالية رهيبة ، والكل سائر الى جهة (الاعظمية) حيث مقر المقبرة الملكية .

كذلك رأينا طلاب من الثانوية المركزبة وهم يرتدون اشارات تدل على انهم

يعملون مع الشرطة للقيام بحفظ الامن . وكان الطلاب على جانب عظيم من الاهتمام بالامن والحزن الصامت ، ورأينا ابن خالنا الوحيد الذى كان في الصف المنتهى في الثانوية (إحسان رفعت) يحاول مع الشرطة القيام بالامن . حاول اخى (خلوق) الصغير ان يجلب انتباهه نحونا ، ولكن في هذا الضجيج والصراخ والبكاء كان الامر مستحيلاً . +(لم يكن احد منا على علم بانني ساكون زوجة هذاالابن الخال بعد احدى عشرة سنة! . . كان هذا الامر في خفايا وطيات المستقبل البعيد! . .) .

بعدذلك وصلت فرقة الجنود الموسيقية وكانت تسير مع الجنازة ، وسمعنا اصوات المشية العسكرية البطيئة الحزينة ورأينا الابواق والطبول المتشحة بالسواد! . .

شاهدنا في سيارات مفتوحة الملك (علي والامير عبد الله والامير زيد) بعد الجنازة مباشرة ، وساروا جميعاً مع آلاف الناس الى منطقة الاعظمية ، وهى بعيدة عن البيت الذى كنا فيه فلم نر شيئاً من مراسيم الجنازة .

ساد البلد الحزن الحقيقى لفقدان الملك الكبير ،وكتبت عنه الجرائد والمجلات العربية والاجنبيه . ولكن المقال الذى ما ازال اذكره ، مقال من قبل شخص سورى لم اسمع اسمه من قبل يخاطب اهل بلاده في سورية ووهو يحب الملك فيصل ، وكان ضد فكرة اقامة تمثال للملك فيصل في دمشق ، باعتبار ان ذلك حرام عند المسلمين وان النبى (ص) حطم الاصنام في الكعبة عند فتح (مكة) . ظننت ان الكاتب من المعممين المتعصبين القدماء ، ثم ظهر انه شاب من دمشق باسم (على الطنطاوى) ، ليسانس حقوق وكان عنوان مقالته :

لا تماثيل في الاسلام

وفيهايقول : هل يعوز فيصل الخلود حتى تخلدوه بهذه الاحجار الصم؟ . .

الا تفتحون مدرسة تبث الصالح من مبادئه وتخلد ذكراه؟ . .الا تشيدون باسمه مستشفى؟ . .الا ان نصب التماثيل حرام في دين محمد عليه الصلاة والسلام وان تبدل الزمن وتغيرت الدنيا . . . .فيا ايها الملأ اقلعوا عن هذه الفكرة ، واذا لم يكن بد من تقليد الغربيين واتباعهم الى (جحر الضب) ، فليكن ذلك مع

غير فيصل المسلم ، وفى غير دمشق حصن الاسلام ، والسلام! . . . .

من الغريب اننى كنت اذكر هذا المقال وقد قرات الكثير عن السيد (على الطنطاوى) عبر السنوات اللاحقة . رأيت (على الطنطاوى) مرة واحدة في مدينة (جدة) في منتصف الثمانينات وكان مريضاً في المستشفى عندنا ، وكان عمره قد تجاوز الخامسة والثمانين ، وكنت اقرأ احدى كتبه عن ذكرياته الماضيه ،واذا بي ارى فيه المقال هذا الذى قرأته بعد وفاة الملك فيصل في الثلاثينات . هذا المقال لم اتفق معه في الماضى ، ولا بعد خمسين عاماً! . . .

لم اذكر هذا المقال القديم (للطنطاوى) عندما رأيته في مدينة جدة ، بل قلت له اننى اسمع حلقاته الاسبوعية في التلفزيون كل جمعة ، وكل يوم في شهر رمضان (بعد الافطار) بشوق واهتمام .

وكنت لااتفق معه باشياء كثيرة كان يقولها للناس ولكنني كنت ارى كلامه واسلوب حديثه وكأنها قطع ادبية جميلة ملذة للسامعين .

كان عمر (على الطنطاوى) قد تجاوز الخامسة والثمانين آنذاك وكان لايزال يتحف الناس بحلقاته الاسبوعية كل يوم جمعة ، واحاديثه اليومية في شهر رمضان .

وبعد فترة وجيزة من وفاة الملك فيصل سمعنا ان ابنه الملك غازى خطب الاميرة (عالية) ابنة عمه الملك علي وان الزواج سيكون قريباً .

فرح الناس بهذا الخبر جداً بسبب حبهم للملك الشاب . لم تكن هناك حفلة عرس كبيرة ، بسبب حداد العائلة لوفاة الملك فيصل الاول .

رغم ذلك دهش الكثير من الناس ، لان الامير (غازى) قبل وفاة والده ، كان مسموعاً بأنه يرغب في زواج الآنسة (نعمت) ابنة ياسين باشا الهاشمى ! . . .

+(وقد سألت السيدة نعمت قبل وفاتها بفترة قصيرة ، وكانت قد اصبحت (جدة) منذ زمن ، عن هذا الموضوع ، فاذا بها تضحك بطريقتها اللطيفة وقالت :

- كانت لدى رزمة من رسائل غازى ، وان نورى باشا طلب قراءة الرسائل واخذ الرزمة منها ولم يعدها! . .) .

اهى غيرة ومنافسة بين الساسة الكبار للتقرب من الملك . . .من يدرى! . .

تزوج الملك غازى بزوجة نادرة المثال خلقاً واخلاقاً ، الملكة الهاشمية (عالية) بنت الملك على ، وبعد سنة ولد لهما طفل سمياه (فيصل) واصبح والياً للعهد . وكان الملك غازى في الثالثة والعشرين من عمره .

الملك فيصل الاول

اذكر في سن السابعة من عمري في المدرسة ،كنت ارى صورة للملك فيصل الاول على الجدار في كل صف من صفوف المدرسة .

الصورة تمثل الملك بملابس الكشافة . وتحت الصورة سطرين اثنين الاول هو ، (صاحب الجلالة الملك فيصل الاول) ، والسطر الثانى هو(حامى الكشافة العراقية) . سألت المعلمة ما معنى كلمة (حامى الكشافة) ، ولكنى لم افهم من اجابتها شيء ما .

كان للملك وجهاً جميلاً نحيفاً ، وله لحية صغيرة وابتسامة ابوية رائعة ، وكنا نحبه جداً .

كانت اغانينا اكثرها عليه وعلى آل الرسول الذى ينتمى اليه الملك .

لم اكن قد رأيت الملك شخصياً ، ولكنى اشعر وكأنه يعرفنى وانا اعرفه .

كنت ارى في الشارع سيارة كبيرة حمراء اللون جميلة وتتبعها سيارة اخرى سوداء فيقول لنا المراسل (عيدان) :

- انها سيارة الملك! . .

ولكنى لم ار الملك فيها .

وقد رأيت بيت الملك عدة مرات من الخارج والبيت الكبير يقع علىنهر دجلة ، والشارع يتفرع من شارع الرشيد في طريق ضيق بين المدرسة (المأمونية) ووزارة الدفاع في القلعة ، وينتهى الطريق الى الشط (النهر) وتسمى هذه المنطقة من الشط (شريعة) ، حيث تقف الزوارق بانتظار الزبائن لكي يعبروا الى جهة الكرخ . وعندما نذهب مع أمي لزيارة الاصدقاء في الكرخ ، كنا نقف في الشريعة وعلى يسار الشريعة (الثانوية المركزية للبنين) ، وعلى يمين الشريعة بيت الملك . وكنا نحدق ابصارنا نحو بيت الملك . انه بيت كبير بالنسبة لبيوت بغداد . جدرانه

عالية ملساء مصبوغة بلون احمر غامق ، فيها باب كبيرة يقف عليها جنديان مع سلاحهما . وتوجد باب صغيرة اخرى يجلس فيها رجل اسود اللون ، يرتدى ملابس عربية بيضاء في غاية النظافة ، وعلى رأسه العقال المذهب كالذى يرتديه الملك واخوته . والرجل ينكلم بلهجة حجازية جميلة . كان يصنع القهوة امام البيت . وكنا ننظر الى العبد باحترام كبير ، انه في خدمة الملك ، ويجب احترامه .

وكنت اسمع عن الملك من عمى (محمد صالح) ، وهو ضابط في الجيش العراقى برتبة (مقدم) في ذلك الوقت ، من فصيلة (الخيالة) ، اي الفرسان في (كتيبة الهاشمى) ، وهى الكتيبة التى تسير مع الملك في ذهابه وايابه . وكنت اغبط عمى لانه يرى الملك كثيراً .

وكان عمى يسكن في بيتنا مع اولاده الصغار بعد وفاة زوجته . في كل صباح يأتى جندى خيال ومعه فرسين ، الاول لعمى ، والثانى للجندى . يركب عمى الحصان ويسير الجندى على الحصان الاخر ورائه على مسافة جطوات من الحصان الاول . وعمى خيال ماهر ، ويبرع في لعبة (البولو) (الكرة والصولجان) وكثيراً ما يلعبها مع والدي . حصانه جميل دائماً بسرجه اللامع ، والاعنة الجلدية البنية اللون ، والركاب المعدنى الفضى اللون . ان واجب الجندى السائس ، ان يحافظ على اقصى درجة من النظافة والعناية الفائقة للحصان . كان من واجب عمى الذهاب مع الملك والخيالة الآخرون الى جامع (السراى) في كل يوم جمعة لاجل الصلاة مع الملك ، ويجب ان تظل الخيول كلها بهدوء وسكينة في ذلك الشارع الضيق ، ولا يحصل ذلك الا عندما تتعب الخيول . لذلك كان عمى يرسل حصانه مع الجندى السائس في يوم الخميس بعد الظهر لكي يهرول به في طريق (بعقوبة) الى (خان بنى سعد) ويرجع به راكضاً . في يوم الجمعة يبقى الحصان تعباً هادئاً سلساً اثناء صلاة الملك! . . .

في سن الثامنة رأيت الملك للمرة الاولى! . .

شاهدت اقواساً من سعف النخيل وبها اضوية كهربائية ملونة مع شرائط ملونة وازهار في شارع (الرشيد) ، وفوق الاقواس كتابات ترحيبية بقدوم الملك الذى كان في(اوروبا) للتداوى . وكان اسم (اوروبا) يبدو كأسم من بلاد سحرية بها كل مايعرفه البشر من علوم وفنون! . .

الملك سوف يعود غداً الى بغداد! . .

تبرع احد الاقارب ان يأخذنا ، انا ولمعان ، الى محل في شارع الرشيد به شرفة كبيرة تطل على الشارع ولنرى الملك اثناء مروره .

العمارة تقع قرب (جسر مود) ، محل (جسر الاحرار الآن) ، في الجزء الغربى من الشارع قرب (سينما سنترال) ، والشرفة كانت ممتلئة بأناس لانعرفهم ، كما كانت كل الشرفات الاخرى على طرفى الشارع مليئة بالناس . اما في الارصفة ، فقد احتشدت صفوف الناس ، وامتلات المخازن وابواب الدكاكين بحيث اصبح المرور على الارصفة للمشى صعب جداً .

وكانت الاقواس والورود والاضوية الملونة تضفى البهجة على الشارع وكأنه في عيد عظيم! . .

سمعنا أصواتاً بعيدة تهتف وتصفق ، ان الموكب الملكى في طريقه الينا! . .وصل الموكب الملكى وانبعث الهتاف عالياً يشق الفضاء . كان الملك جالساً في سيارة مفتوحة وهو يرتدى بزة اوروبية مدنية ،ويجلس قربه اخاه الاكبر (الملك على) وهو يرتدى الملابس العربية وعلى رأسه عقال مذهب ثخين .

كان الملك يحيي بيده الحشود الكبيرة على جانبى الطريق باسماً ، والجماهير تهتف وتصفق لحياة الملك ، والملك يلتفت تارة الى اليمين واخرى الى اليسار وتارة الى فوق حيث الشرفات المليئة بالناس . وكانت ابتسامته مشرقة صادقة تنير وجهه الوسيم . ويبدو انه كسب قلوب الناس بتحيته اللطيفة وابتسامته العذبة ، لان الهتاف كان يتضاعف كثيراً والسيارة تسير بين الجموع! . .

بدا لي مشهد الملك وهو يمر ، كأبدع مشهد رأيته في حياتى! . . .

لقد كنت احب الملك كما يحبه الاطفال جميعاً ، كبطل اسطورى نتغنى به في اناشيدنا ، ونسميه (مليك ارض الرافدين) و(فخر العروبة) و(ابن الرسول) ولكن رؤيتى له جعلته يترائى وكأنه شخص مقدس لايضاهيه أي شخص في الجلال والبهاء! . . .

كنت اطير حماسة في طريق العودة الى البيت لكي اقص مارأيت لابى

وامى! . . وقد اخبرتهم مارأيت بكل التفاصيل ، وعند الانتهاء قلت لوالدي :ـ
ـ الآن اعلم انه ابن الرسول ! . . .الا يشبه نبينا العظيم؟
ابتسم والدي وقال :ـ انه الملك! . .ولكن لايوجد للرسول شبيه! . .

الست امت

في خريف سنة ١٩٣٣ عدنا الى المدرسة في نهاية العطلة الصيفية ، وليس للطالبات من حديث الا عن الالم لوفاة الملك فيصل العظيم ، وعن حبنا للملك الشاب ودعائنا له وللبلاد . هكذا كان حبنا للملك والوطن في تلك السنوات! . .

راينا المديرة الجديدة وكانت (الست امت سعيد) وهى معروفة عند الطالبات ، اذ كانت معلمة في المدرسة المركزية عندما كنت في الصف الخامس الابتدائى ، ثم سافرت الى امريكا لمدة سنتين وعادت الى بغداد . اما المديرة البنانية السابقة (الست الس قندلفت) ، وكانت مديرتنا لمدة ثلاثة سنوات ، فأنها بقيت في بيروت بلدها .

وقد اتت (الست الس) الى بغداد مرة واحدة كزائرة في سنة ١٩٥٧ ، ورحبت بها عدد من طالباتها القديمات ، وكن انذاك في مراكز كبيرة ومتعددة في وزارة المعارف .

فرحنا جميعاً(بالست امت) وكانت تبدو سعيدة برجوعها الي المدرسة المركزية . ويظهر انها غيرت ترتيب ادارة المدرسة عما كان عليه .

(الست امت) نفسها ، اصبحت مديرة دار المعلمات والصفوف المتوسطة الثلاثة والصف الوحيد من الثانوية ، او (الصف الرابع) الثانوي ، وهو الاول في العراق للبنات وفى السنة القادمة يصبح لنا الصف الخامس وبذلك تكتمل الثانوية المركزية للبنات تماماً! . .

اما الصفوف الابتدائية ، فاصبح الآن لها مديرة اخرى ، اسم المديرة (الست مديحة تحسين) وهى ابنة اخت (الست امت) ، درست في انكلترا وعادت في هذه السنة الى بغداد .

كانت هناك كالعادة مديرة للروضة (الست الينور قمر) اللبنانية الاصل ،

ومديرة اخرى للقسم الداخلي وكانت من مصر واسمها (زينب صدقي) .

الست امت وابنة اخيها من مدينة (حلب) ، قدموا الى العراق في بداية العهد الملكى مع صهرهم السيد (على جودت الايوبى) وزوجته (السيدة نازك) اخت الست (مديحة) وخالتهم هي (الست امت) المديرة الآن . دراسة البنات في العراق بكل اخلاص واهتمام لمدة سنوات عديدة استمرت الى نهاية حياتها .

يجب ان اذكر بأنني كنت من اسوأ الطالبات في الدروس الفنية اليدوية مثل دروس الخياطة والتطريز والرسم . والغريب اننى كنت احب مشاهدة الرسوم واللوحات الفنية . ولا اكره الخياطة اوالتطريز وكنت اغبط الطالبات القليلات من ذوى المهارة في هذا المضمار اللطيف أي الخياطة والتطريز . اما في الرسم ، فلم تكن لدينا أي طالبة تحسن منه شيئاً! . .اظن السبب هو ضعف تأثير المعلمات في تعليم الطالبات . ان المعلمة قد تعرف الخياطة اوالرسم ولكنها لاتعرف ان تغرس في الطالبات محبة هذه الفنون والطريقة العملية لاجادتها .

في دروس اللغة العربية ، كنت احب الشعر والانشاء والمطالعة ، ولكنى كنت اكره (الاعراب) كنت اتعلم القواعد (النحو) واجيب المعلمة بسهولة اثناء الدرس ثم انسى ذلك بسرعة ، وقد بقي الاعراب شيئاً عويصاً لدى ، ولايزال صعباً الى الآن! . . .

كانت معلمة اللغة العربية عندنا الست (نجلاء طنوس) ، وكان وجودها المتميز وقابلياتها الفائقة وحبها للشعر العربى العصرى جعلنى اعشق اللغة العربية بشكل غريب وجديد على .

بدأنا نحفظ قصائد شعراء (المهجر) مثل (جبران خليل جبران ، وايليا ابو ماضى ، ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة) وغيرهم ، في قصائد بها آراء جديدة تتكلم عن محبة (الامهات) ، وحب الاطفال والكلام عن العشاق الشباب وعن جمال الازهار والوانها ، وموسيقى الاشجار والغابات ، والانهار وهى تتجمد في الشتاء ، وعظمة البحر بروعته واهواله ، والهجرة والاغتراب الى اماكن قصية وبعيدة ، وغيرها من مواضيع لم نعرف بوجودها قبلاً! . .

اصبحت ارى اللغة العربية بعيون اخرى جديدة ، وكأنها موسيقى رائعة

تعكس ما اشعر بهِ من عواطف انا عاجزة عن التعبير عنه ، تأتي من قبل اناس على بعد آلاف الاميال منا ، في (المهجر) النائى البعيد ، ولكنهم يحسون بمشاعرنا نحن ، نحن الجيل الجديد! . .

اصبحت اعتز بشغف حتى بشكل الكلمة الواحدة في الكتاب او المجلة وكأن كل كلمة هي شيء حي يحدثني بصورة خاصة! . . وصرت اسيرة المطالعة والكتاب تماماً ، وهى اسارة رائعة لا يشبهها شيء ! . . .

(بقيت الست (نجلاء طنوس) في العراق لانها تزوجت الاستاذ الدكتور (متى عقراوى) وبقيت تدرس في مدرسة دار المعلمات ، وكان تأثيرها على لغة الطالبات تأثيراً محسوساً جداً ، وبعدها سافرت مع زوجها الذى تعين في منظمة (اليونسكو) في باريس بعد الحرب العالمية الثانية) .

اما معلمة اللغة الانكليزية فكانت المعلمة الامريكية القديرة (المس باول) كما في السنة الماضية ولكن اسمها تغير في هذه السنة واصبحنا نخاطبها (مسز جمالى) لانها تزوجت الدكتور محمد فاضل الجمالى (المرشد العام) في وزارة المعارف اثناء العطلة الصيفية الماضية . وكان تأثيرها على لغتى الانكليزية كبيراً جداً! . . . وقد تعلمنا منها اشعاراً واغانى واناشيد عديدة . وقد علمت اخواتى واخى واولاد عمى هذه الاناشيد كلها آنذاك ، ولاازال اذكر هذه الاناشيد الى هذا اليوم .

في هذه السنة الثالثة في المتوسطة ، اتت الى صفنا طالبة عراقية جديدة لم نرها من قبل ، كانت تدرس في بيروت قبلا ، ودخلت في القسم الداخلى لانها لم تكن من بغداد بل كانت من جماعة (اليزيدية) من قضاء (سنجار) في لواء الموصل ، وابوها كان امير اليزيدية اسمه (اسماعيل بك) وهى الآن ابنة عم الرئيس الحالى لليزيدية (سعيد بك) . اسم الطالبة هو (ونسة اسماعيل) . ونسة كانت جميلة جداً ، وترتدى الملابس البيروتية الانيقة وتتكلم اللغة الانكليزية بسهولة لانها كانت في مدرسة الامريكان في بيروت ، وتعرف الكثير من اللغة والاغانى الانكليزية . وكان عمرها حوالى الثمانية عشر عاماً . وقد اعجبت الطالبات بها واخذن يقلدنها في حركاتهن وفى ترتيب شعرهن . ولم نشعر ابداً

انها كانت يزيدية او انها كانت غريبة عنا .

وكنت اهتم (بونسة) بصورة خاصة لان والدي ، اثناء وظيفته في الموصل في العشرينات ، سعى الى فتح المدارس لليزيديين لنشر التعليم في اقضية (سنجار) و(شيخان) .

غادرت (ونسة) المدرسة الى بيتها في (سنجار) في عطلة نصف السنة ولم ترجع ! . . سمعنا بأن تزوجت من ابن عمها (سعيد بك) ، وهو اكبر منها بكثير ويعيش بطريقة اهل (سنجار) القديمة . عاشت (ونسه) معه فترة ، ثم سمعنا انها تطلقت من زوجها .

وقد تزوجت من احد الضباط العراقيين ، ثم تطلقت منه . وذهبت الى مصر ومعها اخوها ، وبعدها تزوجت طبيباً مصرياً . وان الرئيس (جمال عبد الناصر) كان يحترمها واخاها بشكل خاص .

رأيت (ونسة) في القاهرة في الستينات وعرفنا بعضنا بسبب الاسم لان مرور عشرين عاماً على ايام المدرسة غيرتنا بشكل كبير . وكانت (ونسة) لاتزال مليحة الوجه رشيقة القوام . وكانت اخبارها في الاعمدة النسائية في الجرائد عند حضورها الحفلات والاجتماعات النسوية .

وفى عام ١٩٨٥ رأيت ونسة ثانية في (جدة) ، وسألت من تكون السيدة؟ . .لان عشرين عاماً اخرى مرت علينا منذ لقيانا الاخير في القاهرة وكنا في دعوة في بيت ام احد الامراء .

وكان مع (ونسة) ابنها المهندس ، وابنتها المتزوجة من دكتور عراقى يشتغل في (جدة) هو (شهاب احمد عزت القيسى) ، وهو ابن الدكتوراحمد عزة القيسى عميد كلية الطب في سنوات ١٩٥٨ ـ الى ١٩٦٣ اما زوج (ونسة) المصري فقد توفى ، وكانت لديه جنسية سعوديه اورثها لزوجته واولاده .

في هذه السنة ، ١٩٣٤ توفيت معلمة الدين (باكزة خانم) وكانت تدرس القرآن الكريم ودرس الدين في المدرسة ، وكانت اكبر من غيرها من المعلمات ، وهى من الترتيب التركى القديم . كنا نخافها ، ولم نكن نجرأ ان نوجه لها كلمة لانعرفها تمس مواضيع الدين . ويبدو انها ماتت فجأة في بيتها . حزنت المدرسة كلها عليها ،

وتوقفت عن الدراسة ليوم واحد! . . وقد تركت (باكزة خانم) طفلة وطفل واعمارهم دون سن السادسة .

الولد ، سهيل حلمى ، بعد سنوات كبر ودخل الى كلية الطب في بغداد ، وقد درسته علم (مفردات الطب) .

بدأت الست (صبيحة الشيخ داود) معلمتنا في الابتدائية في تدريسنا درس الدين ونحن قي المتوسطة . اتت الينا وكان ترحيبنا بها كبيراً جداً . اظهرت فرحها بنا ، لاننا خلال ثلاث سنوات كنا نراها على البعد مع الصفوف الابتدائية . بدأت الكلام وقالت ما معناه ، لنرى مالذى تعلمتم في هذه السنوات الثلاث من الدراسة المتوسطة . وبدأت تسألنا اسئلة عن الدين ، وثم عن اسباب اعتقادنا بالآله العظيم والنبى (محمد ص) بصورة علمية ، وكانت هي على جانب كبير من الاعتقاد الدينى تؤمن بالاسلام والفروض ولكن بصورة علمية صريحة . بدأنا نجيبها ، رغم الضحك والخوف الذى اعترى بعض الطالبات اللواتى لايفكرن بالدين الا انه صيام وصلاة فقط . ولم يكن من بين الطالبات من تصلى ، ولكن معظمهن يصمن في شهر (رمضان) .

اصبح درس الدين الجديد مع (الست صبيحة) من الذ واجمل الدروس . وقد تعلمنا الكثير عن تأثير الدين الاسلامي على المرأة ، وحقوق المرأة وواجباتها ، وكيف ان المرأة لمدة قرون طويلة لم تحصل على حقوقها بل كان عليها الواجبات فقط والطاعة العمياء لرجال العائلة . كنت من اكثر الطالبات حديثاً حول حرية المرأة ومساواتها مع الرجل في العلوم والفنون وخاصة في الرياضة ، وكانت الرياضة في تلك الايام تهمنى اكثر بكثير من كل الاشياء الاخرى .

في خلال هذه السنة ، قرأنا بفرح في الجرائد ان الملك المحبوب غازى ، خطب ابنة عمه الاميرة (عالية) ابنة الملك (على) ملك الحجاز السابق ، وانها وصلت الى بغداد من استامبول وان العرس سيكون قريباً . ورغم تمنيات الجرائد بالتبريك وبالتهاني الصافية الخالصة ، لم تكن هناك حفلة عرس كبيرة بالمناسبة ، بسبب حداد العائلة المالكة لوفاة الملك فيصل الاول .

كانت الست (امت سعيد) تهتم بالحفلات الرياضية بين الطالبات وتشجع

الفعاليات غير المدرسية . وبمناسبة قرب (عيد النهضة) ، وهو يوم (٩ شعبان) في كل عام ، وهو اليوم الذى اعلن الملك (حسين بن على) اثناء الحرب العالمية الاولى ، الثورة ضد الاتراك وتأليف الدولة العربية . اصبح هذا اليوم يوم عطلة للبلاد كلها! . . .

ارتدينا بفرح وغبطة ملابس جديدة للرياضة وهى بنطلون واسع ازرق اللون بطول الركبة ، ومعه قميص ابيض ، واصبح للمدرسة منظر صيفى رائع يموج بالحركة . وقد سمعت الست (امت) وانا اغنى لطالبات صفى اناشيد جديدة حول (النهضة العربية) كنت قد تعلمتها من (زيد) ابن عمى ، وهو في الصف السادس الابتدائى . وكانت اناشيد جميلة جداً من حيث معانيها الحماسية والحانها المؤثرة . وطلبت مني الست (امت) ان اعلم جميع الطالبات هذه الاناشيد . وكنت اقف امام طالبات دار المعلمات والثانوية مرة ومعى معلمة الموسيقى تعزف على البيانو ، واخرى امام الابتدائية لكي يتعلمن الاناشيد بدورهن .

ولا ازال اذكر تلك الاناشيد الجميلة والشعور الوطنى الطاغى الذى كان يتملك الطالبات! . . . في النشيد الاول كنا نغنى للملك غازى (الذى لم يقتل بعد سنوات قليلة في حادثة سيارة فقط ، بل انقطعت ذريته تماماً بعد ان قتل ضابط متوحش ابنه فيصل) . من هذا النشيد :

عاهل الدولة العظيمْ دمْ   صاحب العلى الجسيمْ
فشعبك الحر الكريمْ   فداك والله المعينْ
يا مالكاً قلوبنا   وحامياً شعوبنا
يا كاشفاً كروبنا   ايدت بالفوز العظيم

اما الاناشيد الاخرى فكانت عن (الثورة العربية) :

بمثل اليوم يا عربُ   دعاة المجد قد ركبوا
خيولاً فوقها وثبوا   فنالوا ما له رغبوا

والنشيد الثالث :

هلموا نفاخر الامما   بيوم قد غدا علما
فهذا يوم نهضتنا   بعقد الفخر قد نظما

وكانت عندنا معلمة نرويجية طويلة القامة قوية الجسم اخذت تمرن الطالبات على السير الرياضى والالعاب السويدية ، ومسابقات على الطفر العالى والعريض والطفر على الحصان الخشبى وبعض التمرينات الرياضية والرقصات الصعبة التى قامت بها بعض البنات وهن يتبارين او يرقصن على الاعمدة المتوازية او على الارض .

وكانت هناك (دبكة) كردية قامت بها طالبات (السليمانية) في دار المعلمات ، وكلهن يسكن في القسم الداخلى . وقد ارتدت الطالبات ملابسهن الكردية الملونة الجميلة ولبسن الحلي الذهبية على رؤسهن وفى اعناقهن واصابعهن وهن ينشدن اغانى كردية مرحة مع الموسيقى . و(دبكة) اخرى عربية من طالبات يلبسن ملابس البدو البسيطة وهن ينشدن اغنيات الصحراء الحرة والبوادي الرائعة .

وشارك (صفنا وحده) ، غناء اناشيد انكليزية للمرة الاولى ، ونحن نقوم برقصات غربية عسكرية وبحرية اثنائها ، كما علمتنا (المسز جمالى) . وقد حرصت هي على تبديل الاسماء الانكليزية في الاناشيد الى اسم الملك غازى! . . .

ونظراً لعدم وجود محلات كافية للمدعوات ، تكررت الحفلة يومين متتاليين ، يوم لامهات الطالبات ويوم آخر للضيفات الاجنبيات والعربيات وغيرهن ، لان الست (امت) ارادت ان يرى الجميع هذه الحفلة الكبرى والتى كانت هي السبب في نجاحها الكبير .

وكانت هذه اكبر حفلة مدرسية رأيتها اثناء دراستى في المدارس .

دخلنا الامتحان النهائى للصف الثالث المتوسط ولم نكن ندرى بأننا سوف نفارق المدرسة المركزية بعد العطلة الصيفية مباشرة! . . .

مسز فاضل الجمالي في المتوسطة

كنت اناهز الثالثة عشرة من العمر في سنة ١٩٣٣ وكنت في الصف الثاني المتوسط في المدرسة المركزية للبنات ، دخلت علينا مديرة المدرسة الست (أليس

قندلفت) ، وقفنا كالعادة لدخول المديرة وكان بصحبتها سيدة اخرى . قالت المديرة إنها تعرفنا بالمعلمة الجديدة وان المعلمة أجنبية لا تتكلم اللغة العربية ، ثم غادرت المديرة وتركت المعلمة معنا .

جلسنا على المقاعد وبقيت المعلمة واقفة وهي تبتسم .

نظرت الى المعلمة بدقة ، وجهها شديد البياض ومتورد مثل وجه والدتي ، شعرها اشقر غامق مرفوع الى أعلى ، وهي طويلة القامة جداً! . . .ستكون اطول واحدة في المدرسة! . . انها ستعلمنا اللغة الانكليزية ، وهي تجهل العربية! . . كيف سنفهم منها؟

دارت هذه الخواطر في مخيلتي .

ظلت المعلمة تنظر الينا باسمة ثم قالت بالانكليزية :

ـ أنا مس باول .

ثم كتبت على السبورة مس سارة باول ، وكررت اسمها مس باول مرة ثانية دون ان تذكر اسم سارة .

بعدها رسمت على السبورة خارطة الولايات المتحدة وفوق الحدود الشمالية كتبت (كندا) ووضعت نقطة صغيرة جداً في جنوب كندا وكتبت كلمة (ريجاينا) وقالت :

ـ هنا في ريجاينا ولدت ، ولكني تربيت في الولايات المتحدة .

اضافت الينا انها ستعلمنا انشودة نغنيها لها كل صباح وكتبت على السبورة باللغة الانكليزية :

صباح الخير لك يامس ياول

صباح الخير لك .

وقالت أن النشيد على لحن (هابي برثداي تو يو) في اعياد ميلاد الناس في البلاد الغربية . ولم تكن عادة احياء ميلاد الناس قد بدأت عندنا .

افرحنا هذا الخبر . . .فرصة غناء قصيرة قبل درس الانكليزي كل صباح! . . لابد وأن المس باول ستكون (سهلة) معنا جداً! . .ولكن العكس كان ذلك . لان المس باول ، رغم كونها مهذبة الى اقصى درجات التهذيب ، ولم نسمعها تلفظ

كلمة غضب واحدة علينا ، الا انها كانت حازمة جداً في الدرس ، وسيطرت على الصف بصورة كاملة ، وكنا نستمع اليها طيلة الوقت ولم يكن في الصف اثر للوشوشة او الهمس بين الطالبات الا نادراً .

في اول يوم طلبت منا كتابة وظيفة في البيت ، في اليوم التالي عادت معظم الطالبات بدون الوظيفة . طلبت من كل واحدة لم تكتب الوظيفة مالذي منعها من الكتابة . كان الجواب واحد من سببين اثنين ، اما كلمة(نسيت) واما (غداً اجلبه) .

لم يبد على المس باول الغضب ابداً . طلبت منا وظيفة اخرى للبيت وقالت ، ان كلمتي (نسيت) او (غداً اجلبه) او عدم جلب الوظيفة يعني ذلك صفراً في ذلك اليوم! . . . وفي اليوم التالي اتت الوظائف كاملة من جميع الطالبات! . . .

وهكذا كانت معنا دائماً . . .

علمتنا اشياء صعبة بصورة سهلة جداً ، مثلاً ، في الدقائق الخمس الأولى من كل درس نكتب كلنا كلمات واحدة مثلاً نكتب من واحد والى العشرين بالحروف وليس بالارقام ونستمر على ذلك لمدة اسبوع وهي تأخذ الاوراق كل يوم تصلحها وتعيدها قي اليوم التالي . في نهاية الاسبوع نتعلم هذه الكلمات تماماً ونبدأ بأخرى في الاسبوع التالي كتبنا اسماء ايام الاسبوع وفي الاسبوع الثالث كتبنا اسماء الاشهر وهكذا تعلمنا الكلمات الصعبة والمهمة في خمسة دقائق كل يوم .

وقد علمتنا الكثير من الاغاني والاشعار ومعانيها .

في احد الايام رأت ان نقوم بتمثيل مسرحية عن (الحليب) . ثم ذكرت ان الحليب قي بلادها يباع في زجاجات مكتوب عليها (حليب) وليس في زجاجات فارغة مكتوب عليها ويسكي او شراب كما كان العادة عندنا عندما نشتري من بائعة الحليب . بدا على وجوهنا الخجل ولم ندر ما نجيب . ثم اضافت :

ـ لاتخجلن من هذه الاشياء بل اصلحنها! . .هذا مايجب ان يفعله الشباب . . اصلاح النواقص . ان العراق القديم قد بدأ حديثاً بالنهضة العصرية . . الامور كلها ستتحسن في العراق بسرعة! . .

وقد قمنا بتمثيل مسرحية (الحليب واهميته) . والمسرحية تدور عن فتاة وصبي من مختلف اقطار الارض ونلبس ملابس تلك الاقطار ، اثنتان من العراق واثنتان من الهند ومن اليابان والاسكيمو وغيرها من الاقطار وقمت انا بدور الهولندية ومعي فتاة بدور الصبي الهولندي ولبست ثياباً زرقاء اللون وفوقها صدرية بيضاء وقبعة بيضاء كما يلبس اهالي هولندة القدماء .

مثلنا المسرحية في القسم الداخلي من المدرسة ، وكانت ناجحة جداً ، والحاضرات كن من الطالبات والمعلمات في المدرسة فقط .

زار الدكتور فاضل الجمالي ومعه جماعة من الامريكان المدرسة . لم نكن نعرف عن الدكتور الجمالي شيئاً سوى انه (المرشد العام) في وزارة المعارف .

وقفت طالبات المدرسة كلها بأصطفاف تام ، والمعلمات والمديرة وقفن فوق الدرج في وسط المدرسة .

تكلم شخص امريكي وهو من لجنة (الكشف التهذيبي لدراسة التعليم في العراق) ، وكان الدكتور الجمالي يقوم بالترجمة . ثم تكلم الدكتور الجمالي نفسه وعلق على اهمية الدراسة للبنات وأنه يهنئ البلاد برؤية هذا العدد من الطالبات . كان عدد الطالبات حوالى ٥٠٠ طالبة .

كان الدكتور الجمالي أنيقاً في ملابسه ، وودوداً ومتواضعاً .

في اليوم التالي ، ولاندري من الذى بدأ بالكلام ، شاعت بيننا ان الدكتور الجمالي هو خطيب المس باول . احدث هذا الحديث لغطاً لطيفاً بين الطالبات كالعادة ، واخذوا المقارنة بين من هو الاجمل بين الاثنين! . . .

في اثناء العطلة الصيفية سمعنا ان الزواج قد تم بين الدكتور الجمالي والمس باول .

في بداية السنة الجديدة وكنا في الصف الثالث المتوسط ، لم ندر كيف نخاطب المس باول . . .بقينا نسميها(مس باول) كالعادة . ولكن احدى الطالبات تجرأت ونادتها بأسم (مسز جمالي) . اجابتها مس باول بهدؤها المعهود (نعم) .

بدأنا كلنا نسميها مسز جمالي ، واختفى اسم مس باول تماماً .

في هذه السنة طلبت منا المسز جمالي ان نتكلم اللغة الانكليزية في درسها

حتى بين الطالبات ، والتي تتكلم العربية تعطيها عقوبة على شكل (ريال) فضي عراقي يبقى في يدها الى نهاية الدرس ما لم تتكلم طالبة اللغة العربية عند ذلك تعطيها الريال وتتخلص منه هي ، وينتقل بذلك الريال من واحدة الى الاخرى بين الطالبات اللواتي تكلمن اللغة العربية اثناء الدرس ، والعقوبة تكون لمن يصيبها الريال في نهاية الدرس . تكتب المسز جمالي اسم الطالبة وتأخذ منها الريال .

كانت عقوبة الريال تخيفنا وتضحكنا في نفس الوقت ، وصاحبة الريال تتربص لمن تتكلم باللغة العربية لكي تتخلص من الريال قبل انتهاء الدرس .

في نهابة الشهر ينقص من درجات الطالبة بسبب عدد الريالات لديها في ذلك الشهر .

في احد الايام كان الريال عندي واذا انا اسمع كلمة عربية تفوهت بها مسز جمالي نفسها . سارعت باعطائها الريال وتخلصت منه قبل انتهاء الدرس .

في السنة الثانية بدأت المسز جمالي تتكام معنا عن اشياء اجتماعية في اللغة الانكليزية مثل التعاون مع الآخرين ، المسؤولية الاجتماعية ، الاهداف العليا للمجتمع وغيرها . . .

بدأت اراها وكأنها من عالم آخر ، امراة تملك كل الحقائق واصبح كلامها عندي هو (علم اليقين) . تدخل علينا في الدرس وكأنها مروحة علم وأدب وطيب تفوح علينا ، اصبحت اجدها احسن واحدة في المدرسة ، بل في العالم كله! . . .

في ذات يوم ، كنت اطري المسز جمالي امام أمي في البيت ، وكانت أمي في الثلاثين من عمرها ، قلت :

ـ انني احب المسز جمالي بقدر حبي لك! . .

وبدلا من ان تضحك ، رأيت أمي تغضب وتقول :

ـ اتحبين معلمة ، اجنبية ، درستك سنتين فقط بقدر حبك لي؟ انت طفلتي الاولى! . . يالك من شقية! .

خرجت الى غرفة اخرى وجلست مع اختي (لمعان) التي تعجبت لأنني ازعجت أمي ، نظرت الى اختي وقلت بحماس :

ـ نعم! . . نعم! . . احبها مثل أمي! . .

قبل نهاية السنة الثالثة اقيمت في المدرسة كلها حفلة رياضية كبرى للصفوف الابتدائية والثانوية ودار المعلمات وتشمل الالعاب الاولمبية والمسابقات المختلفة والرقصات الكردية والعربية والاجنبية .

اضاف صفنا اناشيد بحرية وعسكرية باللغة الانكليزية للمرة الولى في المدرسة وهي من المسز جمالي .

ابدلت المسز جمالي اسماء الابطال الاجانب في الاناشيد ووضعت اسم الملك (غازي) في الاناشيد ، وانشدنا اناشيد وطنية وبحرية باللغة الانكليزية .

اثناء العطلةالصيفية سمعت بولادة (ليث) اول اطفال آل الجمالي وفرحت بالخبر كثيراً .

في السنة القادمة تركنا المدرسة المركزية الجميلة ، وانتقلنا نحن الصفوف المتوسطة والثانوية الى مدرسة اخرى في (العاقولية) ، وبقيت المسز جمالي في المدرسة المركزية وهي تضم الروضة والابتدائية ودار المعلمات والقسم الداخلي ، وانقطعت عن تدريسنا .

حاشية عن الدكتور فاضل الجمالي وزوجته

اصبح الجمالي وزيراً ، ثم صار رئيساً للوزراء مرتين . واصبح عضواً نائباً عن الملك اثناء الزيارات الملكية الى الخارج ، ولكن بقيت زوجته تعمل في كلية الملكة عالية للبنات مع الست امت سعيد . كنت اراها تركب (الباص) في الذهاب والاياب الى الكلية اذا لم يكن معها سيارتهم .

هذه اول مرة اجد زوجة رئيس الوزراء تركب الباص .

وقد اخبرني زوجي بأن الدكتور فاضل الجمالي ساعده لدخول البعثة عندما تخرج من الثانوية وسافر الى جامعة كالفورنيا في امريكا حيث حصل على درجة مهندس في هندسة النفط .

في صيف ١٩٤٥ حضرنا حفلة جميلة في شرفة اوتيل (مود) على نهر دجلة بمناسية عودة الوفد العراقي من مؤتمر سان فرانسسكو . وقد كان الجمالي هو نجم

تلك الحفلة البهيجة التي اقامها السيد (آرمين ماير) بهذه المناسبة التاريخية ، حيث وقع العراق على ميثاق الامم المتحدة في سان فرنسسكو .

في سنة ١٩٥٠ بعد رجوعنا من لندن ، طلبت مني المسز جمالي ان اكون الطبيبة المسؤلة لتلاميذ مدرسة (رمزي) ، وهي مدرسة للاطفال من ذوي العاهات العقلية ، اسستها المسز جمالي بنفسها . وافقت على ماطلبته مني واصبحت ازور المدرسة كلما يتمرض الطفل هناك .

اصبحنا نلتقي مع الدكتور الجمالي وزوجته في بيتهم وفي بيتنا وفي نادي العلوية بين أن وأخر .

كان الجميع يصف الجمالي بأنه (مثقف ولكنه ضعيف) . وكالعادة عندنا نوافق على هذه الاوصاف السيئة عند كبار الساسة رآساً من دون تدقيق .

كنت اظن الجمالي ضعيف .

الجمالي ضعيف؟ هل هذا صحيح؟

لقد رأيته يقف امام (المهداوي) المهرج بصورة لم يقفها غيره ما عدا (سعيد قزاز) الذي اطاحوا برأسه . ان الجمالي فاق الجميع في دفاعه عن نفسه .

لقد قال لتلك المحكمة البدائية الغاشمة انه فعل ما فعله في عمله لكونه يستند الى اعتقاد جازم بأنه طريق الخير للبلاد . لم اسمعه يذكر ولا مرة واحدة بأنه قام بعمل بسبب امر من فلان او فلان .

قال انه دافع عن فلسطين ، وعن الوحدة مع سورية ، والوحدة مع الاردن ودافع عن (ميثاق بغداد) من اجل الدفاع عن العراق . وذكر الكثير عن الاعمال التربوية الاخرى .

وعندما سأله المهداوي بسخرية :

ـ ماذا جنيت من اعمالك هذه؟

ابتسم الجمالي ابتسامة اسى ويأس واجابه شعراً :

ـ السيف اصدق انباء من الكتب! . . .

ان قراءة دفاع الجمالي في محكمة المهداوي يعادل قراءة سفر جليل! . .

دابت على زيارة الست سارة الجمالي عندما كان زوجها في السجن محكوماً بالاعدام .

كنت ازورها وهي في بيتها ولم ار أي شخص آخر هناك . كنت اجدها تجلس وحدها بهدوء وكبرياء ، امام الالة الطابعة تطبع ما يدور في خلدها . كانت مثالاً للثبات الواثق من نفسه الرفيع الهادئ . طلبت مني ان اعطيها سندانة لأبي ليث في السجن . اعطيتها سندانة بها زهر القرنفل .

اخبرتني بعد ذلك ان ابو ليث يعتني بالنبتة كثيراً .

في صيف ١٩٦١ كنت في اسبانياوسمعت انهم اطلقوا سراحه من السجن الرهيب مع غيره من رجال العهد الملكي . ارسلت برقية تهنئة اليهم . وعند رجوعي الى بغداد كانت العائلة قد رحلت الى الخارج . حمدت الله على خروجهم سالمين .

في لندن رأيت العائلة بضع مرات ، ومعهم اولادهم (اسامة وعباس) مع زوجاتهم واولادهم .

والان وقد غادرنا هذا الشخص العالم ، المثقف ، المتواضع ، القوي ، الشخص العفيف اليد واللسان الرجل الذي حاول ان يبقي العراق الجديد حراً لافرق بين عربي وكردي اومسلم ومسيحي او سني وشيعي .

العزاء لنا جميعاً ، خاصة للسيدة الفاضلة رفيقته لستة عقود ، ولاولاده وللعراق والعروبة .

في بداية الصف الرابع ، كان رئيس الوزراء (على جودت الايوبى) ، وقد اجرى انتخابات لمجلس نيابى جديد ، وانتخب والدي نائباً عن لواء بغداد ، وقد كان مديراً للثانوية المركزية للبنين .

المدرسة الثانوية

انتهت العطلة الصيفية وذهبنا جميعاً الى المدرسة المركزية كعادتنا . لقد اصبحت في الصف الرابع الثانوى! . . واذا (الست امت) تطلب من طالبات الصفوف المتوسطة والصفوف الثانوية الذهاب الى بناية اخرى فتحت للمدرسة الثانوية للبنات في هذه السنة . لم تكن بناية المدرسة الثانوية هذه جديدة ، بل انها كانت المدرسة (الغربية المتوسطة للبنين) ، وقد بنت وزارة المعارف مدرسة

جديدة للبنين في منطقة (باب المعظم) ، ونقلت الصفوف المتوسطة والثانوية من المدرسة المركزية للبنات الى بناية المدرسة (الغربية المتوسطة) للبين القديمة بسبب ضيق المكان في المدرسة المركزية . بقيت في المدرسة المركزية للبنات (دار المعلمات) بصفوفها الثلاث ، و(القسم الداخلى) و(المدرسة الابتدائية) و(روضة الاطفال) .

شعرنا بالحزن والاسف لمفارقة المدرسة الكبيرة الجميلة ، وكم كنا نود ان نتخرج منها! . .

كانت المدرسة الاخرى على مسافة قليلة من المدرسة المركزية ، في ازقة مبلطة ولكنها ضيقة لاتسع مرور السيارات او العربات ، وكان الطريق اليها سيراً على الاقدام .

المدرسة تقع في مدخل محلة (العاقولية) ، وقد وضعوا عليها اسم المدرسة الجديدة (الثانوية المركزية للبنات والقسم المتوسط) .

والبناء بيت بغدادى كبير جداً استأجرته او امتلكته وزارة المعارف لاستعماله كمدرسة ، وهى اكبر بكثير من المدرسة (البارودية) الابتدائية ، وكان البيت يعود لآل (الربيعى) سابقاً .

دخلنا المدرسة وانشرحنا من الجو المفتوح في الداخل . البناية ذات طابقين ، وعلى درجة عالية من الصيانة والعناية بالوان جدرانها وابوابها . ومثل معظم بيوت بغداد الكبيرة فيها باب ضخم أسود اللون ، ومدخل (مجاز) كبير جداً لايوجد فبه شباك ، ثم باب آخر مبنى على شكل قوس لكي ندخل قسم (الحرم) سابقاً ، والذى اصبح الآن هو المدرسة . فسحة الدار كبيرة وداخلها حديقة صغيرة ذات اشجار قليلة . في الطابق الارضى يوجد سرداب كبير وله شبابيك حديدية تطل على فسحة البيت ، وهناك غرفة كبيرة واحدة ، (اصبحت غرفة المكتبة) ، ثم غرفة صغيرة قرب باب المطبخ (اصبحت غرفة النشيد بعد وضع الة البيانو داخلها) ، وفى الناحية الاخرى (طرار) ، أي غرفة بثلاث جدران وسقف وبدون باب ، وامامها عمودان لكي تتحمل ثقل الشرفة العليا العريضة فوقها .

صفوف الطالبات ، وغرفة المديرة وغرفة المعلمات كانت كلها في الطابق الثانى . طلبوا منا ان نذهب الى الصفوف . وكانت الصفوف كلها كبيرة في العدد

وواسعة في الحجم ، ما عدا صفنا نحن (الرابع ثانوي) .

صفنا كان اصغر الصفوف عدداً ، ثمانية عشر طالبة فقط ، وحجم الغرفة صغير جداً . ويبدو ان جماعة كبيرة رسبن في الامتحان النهائى في المتوسطة ، وقررن ان يكملن الدراسة في دار المعلمات وبقين في المدرسة المركزية لكي يتخرجن معلمات بعد سنة واحدة .

كنا نعلم بأن فرعنا سيكون فرعاً علمياً كما كان الصف الذى سبقنا . ولكن المديرة وهى (الست امت) نفسها ، قررت ان صفنا سيكون فرعاً ادبياً! . . قلت لها انى ارغب ان ادرس في الفرع العلمى ، عبست بوجهى وقالت (هذا الصف عدده قليل وسيكون فرعاً ادبياً فقط ! . .) . سكت ، واسفت للخبر .

اخبرت والدي بذلك في البيت ، فلم يجد ما يقول . وهكذا انتميت للفرع الادبى .

وفى هذا الفرع علينا ان نختار لغة اجنبية اخرى مع اللغة الانكليزية وهى اما اللغة الفرنسية او الالمانية ، ولكن بما ان عددنا قليل ، يجب ان نكتفى جميعاً بلغة اجنبية واحدة وسوف تكون اللغة الالمانية ، كما قالت (الست امت)

(ان تعليم اللغتين الفرنسية والالمانية قد الغى من الصف الادبى في الثانوية بعد فشل حركة مايس سنة ١٩٤١) .

يبدو ان ما اسفت له بسبب دخولي الفرع الادبي جاء على خلاف ماشعرت ، فقد وجدته فرعاً من الذ والطف واجمل من جميع السنوات الماضيه كلها! . . والسبب ، هو عدم وجود دروس الرياضيات وهو الموضوع الذى كنت امقته ، وكذلك الفيزياء التى افهمها ولكن لا التذ بدراستها ، والكيمياء التى كانت لابأس بها لدى . ولم يبق لدينا من الدروس العلمية في الفرع الادبى سوى درس (البايولوجى) او علم الاحياء ، مرة اومرتين في الاسبوع لا اتذكر .

كانت معلمة اللغة العربية (الست ماتيلدا ديب) اقدر واحسن من درسنى اللغة العربية . كانت لديها الماجستير في اللغة العربية من الجامعة الامريكية في بيروت ، وكانت تعشق هذه اللغة بكل جوارحها وقد اثرت علي تأثيراً عميقاً لايزول! . . .

درستنا (البلاغة الواضحة) لمدة سنتين تعلمنا منها (البيان والبديع والمعانى)، وعرفت التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والطباق والجناس وغيرها، ودرسنا الروايات الشعرية لاحمد شوقى(مصرع كليوباترا) لسنة واحدة، و(مجنون ليلى) للسنة التالية. وقرأنا رواية (رفائيل) للامارتين وترجمة (احمد حسن الزيات) لمدة سنة نقرأها ثم ننقدها، وفى السنة التالية كانت رواية (آلام فرتر) ترجمة الاديب احمد حسن الزيات.

في نفس السنة درسنا اربعة شعراء عباسيين هم: المتنبى والمعرى وابو تمام والبحترى.

بدأت اقرأ مجلة (الرسالة) الاسبوعية لاحمد حسن الزيات للمرة الاولى وهى مجلة يشتريها والدي منذ بدايتها قبل سنتين او اكثر ولم اكن اقرأها قبلاً. واصبحت هذه المجلة بالنسبة لي وكأنها دورة علمية جديدة دخلتها، وصارت وكأنها نعمة من النعم!...

تعلمت من (الرسالة) اسماء الكتاب العرب المعاصرين من مصر ولبنان وسوريا والعراق. ولحسن الحظ، كان والدي قد ارسل المجلات القديمة من (الرسالة) الى التجليد لحفظها، وكانت كلها في مكتبته. اخذت اقرأها الواحدة بعد الاخرى، وكنت كلما انتهى من مجلة واحدة اشعر وكأننى تعلمت شيئاً جديداً وفذاً!..

تعلمت من مجلة (الرسالة) اسماء العقاد والرافعى وابراهيم المازنى وحسين هيكل وطه حسين وسعيد العريان وعلى الطنطاوى وسيد قطب. وقد تمتعت بقراءة الكاتب (درينى خشبة) الذى ترجم اقاصيص الالياذة الى اللغة العربية وفتح لدى موضوع جديد غريب عن اساطير الاغريق القديمة (لهوميروس) ولاازال اجد ذلك ملذآ الى الآن.

كذلك تعلمت اسماء شعراء معاصرين من مصر مثل محمود حسن اسماعيل وعلى الجارم وعلى محمود طه وابراهيم ناجى والشاعرة العراقية رباب الكاظمى التى كانت تسكن مصر مع والدها الشاعر عبد المحسن الكاظمى.

ومن بلاد الشام الاخطل الصغير والشاعر القروي ومطران شاعر القطرين .

وفى السنة التالية تعلمنا عن شعراء الاندلس والمعلقات الاندلسية .

واضافة الى هذه الدروس درستنا الست (ماتيلدة) (علم الاجتماع) و(علم الاقتصاد) ولم يكن ذلك من اختصاصها ، وكذلك درستنا تاريخ (اوروبا الحديث) باللغة العربية .

اما معلمة اللغة الانكليزية فقد كانت امريكية اسمها (مس سميتن) علمتنا القراءة والاناشيد وكذلك قراءة القصص المكتوبة بلهجة بسيطة للاجانب وللاطفال . وقد قرأت الكثير من هذه القصص واستفدت من اللغة جداً .

اما المعلمة التى بثت بي الروح في تعلم لغتها الجديدة فكانت المعلمة الشابة الجميلة (فراو هوبر) ، زوجها كان يدرس اللغة الالمانية للصفوف الادبية في الثانوية المركزية للبنين . وعندما يأتى الى باب المدرسة ليأخذها معه ، يبدو الاثنان كصورة رياضية جميلة عن الشباب الالماني كما كان يريده زعيمهم (هتلر) في ذلك الحين .

كانت تعلمنا اللغة الالمانية بطريقة سهلة وجذابة بحيث بدأت الطالبات يتقنها بدرجة اتقانهن اللغة الانكليزية تقريباً بعد مرور سنة واحدة عليهن . حتى الطالبات اليهوديات احببن هذه اللغة واشعارها واغانيها رغم كرههن (لهتلر) ولكل شيء المانى! . . اما انا فكنت اجلس في البيت الساعات الطوال لكي اتعلم القواعد الالمانية المعقدة ، وقد تعلمتها بدرجة جيدة . وقد كانت تعطينا بعض الاشعار للشعراء الالمان (جوته) و (شيللر) وغيرهم ولاتطلب منا ان نحفظها بل نقرأها فقط ، ولكنى كنت اجلس في البيت واحفظ كل تلك الاشعار واعيدها امامها في الصف . كذلك تعلمنا الكثير من الاغانى القديمة والاناشيد العسكرية الجرمانية وكلها شجية وجميلة خاصة في صوت المعلمة الصافى الرنان .

وهنا يجب ان اذكر معلمة الموسيقى اللبنانية الست (انيسة فرح) . كانت تعلمنا الاناشيد بصوتها الجميل العالى (سوبرانو) . وهى التى علمتنا عن الفروق في اصوات الغناء الغربى حسب الترتيب الموسيقى الكلاسيكى . وعلمتنا اناشيد مشهورة مترجمة الى اللغة العربية عن قطع موسيقية من الموسيقيين العالميين ،

وكذلك أيضاً اناشيد عربية وطنية وقومية واجتماعية .

توفى الملك (على) عم الملك غازي الاكبر ونحن في الصف الرابع ودفن في المقبرة الملكية ، واعلن عليه الحداد الرسمى لثلاثة ايام . وقد حزنت لموت الملك (على) ، ولكنى حزنت لفقدان الملك غازى عمه الوحيد الذى كان يسكن قربه في بغداد . بقيت افكر بكل اهتمام وكأن أحداً سوف يسألنى انا عما سيحدث للملك! . . اخذت اتسائل بحزن مع نفسى :

ـ من الذى يشاور الملك ان احتاج الى صديق ناصح وشخص لايخون بعد عمه الملك على؟ من الذى يعطيه الثقة والامان ، وهو محاط فقط بسيدات من عائلته محجبات لايختلطن الا بنساء مثلهن وبعيدات عن كل شيء سوى امورهن الشخصية؟

كانت أمي تضحك وتسكتنى عن هذا الحديث الذى لاطائل تحته الا حبى للملك والبلاد في سن الصبا الباكر .

لم اكن اعرف الا القليل عن السياسة ولكنى فرحت بهذا الخبر ، وبان والدي سوف يسرد لنا اشياء عن المجلس النيابى كالمناقشات والخطابات السياسية . ولكن ذلك لم يتم . لان رئيس الوزراء (على جودت) استقال بعد فترة قصيرة جداً ، بسبب تآمر بعض رؤساء العشائر مع بعض المسؤلين الذين تألبوا ضد الحكومة وتمردوا عليها . ولما ارادت الوزارة الاستعانة بالجيش لاخماد عصيان العشائر الثائرة ، امتنع (طه الهاشمى) وهو رئيس اركان الجيش وشقيق (ياسين الهاشمى) ، عن استعمال الجيش ، فاسقط بيد الوزارة واستقالت . وشكل الوزارة ياسين باشا الهاشمى . ولم ينتخب والدي نائباً هذه المرة . تقاعد والدي عن العمل في الحكومة ، ولم يشتغل في اية وظيفة اخرى بعد ذلك .

اذكر بصورة خاصة اسف والدي الشديد على هذا التمرد العسكرى ، وهو الضابط القديم ، وقوله :

– هذه بداية لتمرد الجيش وعصيان الحكومة ، سوف يصبح الجيش اداة ضغط سياسية للوصول الى الحكم! . . ومن هو الذى يستطيع ان يوقف الجيش؟ . .

وكأنه كان يقرأ المستقبل! . . .

سمعت أيضاً بأن معارضى الهاشمى عمدوا الى اسلوب الهاشمى نفسه وتآمروا ضد الحكومة القائمة ، بواسطة دفع العشائر الى الثورة والعصيان عليها . ولكن ياسين الهاشمى ومعه وزير الداخلية (رشيد عالى الكيلانى) اعلنوا الاحكام العرفية في جميع العراق ، وضربت العشائر الثائرة بشدة وقسوة ، واشرف بنفسه (رشيد عالى الكيلانى) على ضرب العشائر ، وكان (طه الهاشمى) رئيس اركان الجيش ومعه الفريق (بكر صدقى) ، الذى استعمل القسوة الشديدة لاخماد حركة العشائر وتثبيطهم بعنف واذلال .

كنت اقرأ مواضيع في الصحف والتى كانت تقول ان (ياسين الهاشمى (سوف يحكم عشرة سنوات ، لانه قال ذلك في احد خطاباته في البصرة! . . .ولم يكن هنالك من يقف بوجهه! . . .

في تلك الايام ، كان كل الضباط القدماء ينظرون الى الغازى (مصطفى كمال) وذلك قبل ان يسمى نفسه (كمال اتا تورك) رئيس جمهورية تركيا وكأنه المثل الاعلى ، وكل يسعى الى فعل ما فعل في تركيا الحديثة . وهذا ينطبق ليس فقط على ضباطنا ، بل على ضباط أخرين في البلاد العربية كلها وغيرها ، حسب اقوال المجلات والصحف وان الشاه (رضا خان) شاه ايران كان من اشد المعجبين بالغازي (مصطفى كمال) .

ومثل ما حدث في تركيا في منع الالقاب القديمة للناس ، اصدر (ياسين الهاشمى) امراً الغى بموجبه الالقاب التركية مثل (باشا وبك وافندى) ، واستبدالها بلقب عربى بسيط هو (سيد) ، اما لقب (السيد) ، بلام التعريف ، سيكون فقط لمن هو سيداً أي هاشمى النسب .

ولاازال اذكر سيدة من سلالة الرسول كانت تزور بيتنا وهى تمزح مع الحاضرات :

- من الآن وصاعداً سوف نخاطب اليهود ونقول يا سيد حسقيل ويا سيد شميل! . . .

وادى ذلك الى ضحك الحاضرات .

لكن ذلك هذا التغيير قد حدث في الالقاب بسرعة في العراق واصبح لقب (سيد) شائعاً عند جميع الناس .

كان اسم ياسين الهاشمى هو (بسمارك العرب) عند بعض الجرائد العراقية ، وبسمارك هو الذى وحد الشعوب الالمانية وجعلها دولة واحدة . الهاشمى لم يوحد أي شيء ، ولكن ، من كان يدرى مقدار طموحه واحلامه وخيال (جمهورية) مصطفى كمال الحديثة في رؤس الجميع! . . خاصة والملك غازى لم يتزوج ابنة ياسين الصغرى ولن تصبح (نعمت) ملكة للعراق كما كان المأمول! . . .

من الاسباب التى اضعفت مركز الملك غازى بالنسبة للوزارة ، هو زواج شقيقتة الكبرى الاميرة (عزة) من شخص يوناني من جزيرة (رودس) حيث كانت تصطاف مع شقيقتها (الاميرة راجحة) وقد نشرت الجرائد التركية هذا الخبر ووصل الى بغداد . وقد قرأت هذه الجرائد بحزن وبأسى ، خاصة وان الجرائد التركية شنعت بالحادث ، وقالت ما معناه ان الاميرة من نسل الرسول الكريم . واذكر الست (صبيحة الشيخ داود) ، وكانت معاونة للمديرة عندنا ، قرأت الجريدة اخذت تبكى بالم وحزن ثم ذهبت الى بيتها لانها لم تستطع ان تشتغل في ذلك اليوم . كان حبها للعائلة المالكة كبيراً عميقاً ، وبقيت تحبهم الى النهاية! . .

بعد مرور اسابيع على تأليف الوزارة الهاشمية ، انتقل زوج اختى (صبيح نجيب العزى) من وظيفته وهو مديراً للشرطة العامة ، الى وزارة الخارجية وتعين كمستشار للمفوضبة في مدينة (برلين) عاصمة المانيا .

(صبيح نجيب) ضابط قديم في الحرب العظمى ، وا شترك مع الشريف (فيصل) في الحجاز في الثورة ضد الاتراك ، ثم في العهد الملكى الفيصلى بقى في الجيش واصبح مدير الاركان في الجيش العراقى ، واخيراً ، مديراً للشرطة العامة لعدة سنوات . وقد اشتغل هن اجل جهاز الشرطة بكل جهده وكان يحب هذه الوظيفة ويفخر بما انجزت في عهده من مدارس للشرطة والمعاونين بحيث اصبحت الشرطة العراقية ممتازة بين دول الشرق العربى . اما تعيينه مستشاراً

للمفوضيه في برلين ، فلم يكن هو راغباً فيه واعتبر ارساله اليخارج العراق شبه ابعاد له عن بغداد .

اما انا ، فرأيت هذا (الابعاد) وكأنهم يرسلون الشخص الى الفردوس ، لكنني لم اقل شيئاً! . . .

في يوم سفر (صبيح نجيب) وزوجته اختى الكبيرة (بتول) اجتمعت العائلة كلها في بيتهم الكبير في الكرادة ، وساد الحزن بيننا جميعاً خاصة والدته الحاجة (ام صبيح) ، التى بكت كثيراً ورفضت ان تذهب معهم الى (برلين) ، او كما قالت : الى البلاد الاجنبية اذ لعلها تموت هناك وتدفن وحيدة بين النصارى؟

لذلك بقيت في بغداد في هذا البيت الكبير الذي تتجاوز حديقته الفين متراً وليس معها سوى الخادم الاسود (احمد) الذى تربي عندها منذ الحرب الاولى .

اما انا ، بالرغم من حزنى لفراقهم ، كنت اغبط اختى على السفر الى اوروبا ، تلك البلاد المتمدنة الراقية والتى سحرتنى منذ طفولتى . بدأت امزح معها في يوم السفر واقول : انها ستتعلم كل الاشياء الجديدة الرائعة وتصبح اوروبية تماماً! . . .

كانت اختى في السابعة والعشرين من عمرها ، ولاتزال متحجبة ولكن لحسن حظها ، كانت تتكلم الفرنسية التى تعلمتها من مدرسة الراهبات في بغداد . وكان لديها اطفال ثلاثة ، بنتين في سن السابعة والخامسة ، وولد عمره ثلاث سنوات .

لقد ذرفنا الكثير من الدموع لفراقهم لان السفر في تلك الايام كان صعباً ، ولم نكن ندرى متى سنراهم ثانية! . . (وقد بقوا سنتين ونصف سنة في برلين وسويسرة بدت في تلك الايام كأنها مدة طويلة جداً ، وعادوا الى بغداد في سنة ١٩٣٧) .

رحب والدي بدراستى اللغة الالمانية في المدرسة ، وشجعنى على الاهتمام بهذه اللغة ، لكي اذهب الى بيت اختي في برلين بعد التخرج من الثانوية ، وادرس الطب هناك . ويبدو ان تعلمى اللغة الالمانية ذكره بالايام الخوالى في استانبول ، ودراسته تلك اللغة هناك . ولاول مرة بدأت اسمع منه نشيداً ألمانيا عسكرياً كان يلقيه بصوت خافت شجى عن حب الالمان لبلادهم والتى يسمونها

(فاتر لاند) وتعني بلد الآباء وقد تعلمت منه ذلك النشيد .

بدأنا نتكلم والدي وانا عن سفرى الى برلين بين حين وآخر وهو يتكلم عن متاحف برلين وجمال شوارعها واهتمام اهلها بالعلوم وخاصة الكيمياء ، وبالموسيقى والرياضة . كنت اسمعه وانا فرحة جذلى واتخيل نفسي في برلين وشوارعها وجامعتها واناسها . ولكن هذه السفرة لم تحصل كما سنرى! . .

ومن الاشياء التى كنا نضحك بيننا نحن الاولاد والبنات هو ان (هتلر) عندما استقبل اختى وزوجها في حفلة الاستقبال الاولى ، انحنى على يد اختى وكأنه يقبل يدها بالطريقة الدبلوماسية الغربية .ولذلك بقينا نسميها دعابة : (السيدة التى قبل هتلر يدها) عندما عادت الى بغداد .

يجب ان اضيف ان السبب في محبتى للغة الالمانية كان من تأثير تلك المعلمة القديرة واهتمامها بنا . لقد تعلمنا اغنيات واناشيد عديدة من اناشيد الاطفال البسيطة في البداية الى الاناشيد العسكرية الهتلرية ، ولم نكن ندرى انها هتلرية ، وكذلك اغنيات الرعاة والفلاحين القديمة ، وبعض الرقصات الريفية الجرمانية التى تبشر بالربيع وجمال الازهار والطيور . كانت هي نفسها معلمتنا في (الرياضة البدنية) وعلمتنا الكثير من الرياضة السويدية ، والمسابقات والمباريات .

ألف الوزارة للمرة الاولى السيد علي جودت الايوبي سنة ١٩٣٥ .

اذكر في ذلك الوقت حادثة بقيت في ذهني . طلبت مني مديرتنا السيدة (أمة سعيد) وهى خالة (السيدة نازك ام نزار) ان اذهب الى حفلة شاي اقامتها السيدة نازك في بيتها لزوجة السفير البريطانى وجماعة من نساء الانكليز . كنت في سن الخامسة عشر وعلي ان احضر بين سيدات اجنبيات كبيرات في السن . لم اكن ادرى مالذى ساقول لهن! . . .

ذهبت الى بيت فخامة السيد على جودت في شارع (العسكرى) والبيت يطل على نهر دجلة . قدمتنى (ام نزار) الى زوجة السفير وتحدثنا باللغة الانكليزية وبدأت تسألنى عن المدرسة ، اجبت السيدة الكبيرة بلغتى الانكليزبة البسيطة عن المدرسة ومالذى ادرس آنذاك ، والسيدة (أمة سعيد) تنظر الي من بعد وتهز رأسها لي بتشجيع خفى! . . .

وقد تحدثت مع بعض السيدات الانكليزيات طويلاً ، عما اقرأ من الكتب الانكليزية وكنت اقرأ كتباً مبسطة وقصيرة كتبت للاجانب ، من كتب كبار الادباء مثل جارلس ديكنز واوسكار وايلد وبرنارد شو وغيرهم .

وسألوني ان كنت اقوم بالسباحة او ركوب الخيل او لعب التنس . اجبتهم بحزن وغضب ، ان هذه الالعاب الرياضية هي للفتيان فقط وليست للفتيات في ارضنا! . . .في المدرسة كنا نلعب كرة السلة والكرة الطائرة والالعاب السويدية .

كانت الحفلة لطيفة استمتعت بها جداً ، ورجعت الى البيت وانا اشعر بالزهو لكلامى في الحفلة باللغة الانكليزية بين جماعة من الضيفات الانكليزيات! . . . ولم ادر لم دعتنى المديرة الى هذه الحفلة! . .

اصاب والدتى شعور الارتياح ، ان تذهب ابنتها بين جماعة من الانكليزيات وتتحدث معهم وظنت اننى اتقن اللغة الانكليزية تماماً ، واخبرت اختها وبنت اختها بذلك! . . .

في هذه السنة ، رأينا مجموعة من معلمات الابتدائية العراقيات ، سجلن انفسهن كطالبات خارجيات يأتين الى مدرستنا بعد انتهاء دوامنا عصراً كطالبات في الصف الرابع أي مثلنا ، ويقوم بتدريسهم معلمون ومعلمات من خارج مدرستنا .

والمعلمات هن خريجات الصف الثالث من دار المعلمات الابتدائية وسوف يقدمن الامتحان في الصف الخامس مثلنا (الفرع الادبى) ويصبحن خريجات الثانوية . وقد ساعدتهن الست (امت سعيد) على ذلك . وكانت احدى هؤلاء المعلمات (صبيحة الشيخ داود) ، وكانت معاونة للمديرة عندنا وهى معلمة منذ عشرة سنوات على الاقل وكذلك (امينة الرحال) كانت معلمة منذ ثلاث سنوات و(سعدية فتاح) وشقيقتين للكاتب الشيوعى عبد القادر اسماعيل البستانى وهن (عفيفة ورفيعة اسماعيل البستانى) وغيرهن ممن لا اتذكر .

وقد تخرجت الست صبيحة ودخلت كلية الحقوق ، وكانت اول امرأة تدخل في تلك الكلية! . .وبعد ثلاث سنوات راق (لامينة الرحال) و(رفيعة البستانى) الدخولى كلية الحقوق ، ولكن استاذهم المصرى (مصطفى كامل) خطب (رفيعة)

في نهاية السنة الاولى وتزوجها وذهب بها الى مصر ولم يرجعوا الى العراق ثانية .

اما (امينة) فقد حصلت على شهادة الحقوق) .

في الربيع من هذه السنة ١٩٣٥ ، ولد للملك غازى وزوجته الملكة عالية ، ولد سمياه (فيصل) على اسم جده العظيم . واحتفلت البلاد والجرائد والمدارس بهذا الحدث السار البهيج . وقد قرأت بعد سنين عديدة عن الدكتور سندرسن ، وكان طبيب الملك فيصل والملك غازى بعده بأن الملك غازى وعده ان يهبه سيارة اذا كان مولوده الاول ولداً . واحدثت ولادة الولد الوريث فرحاً شديداً للملك غازى . وقد بر الملك بوعده واهدى سيارة من طراز (همبر) الى الدكتور سندرسن في اليوم التالى لولادة فيصل! . . .

في بداية السنة الخامسة الثانوية ، نادتنى المعلمة الالمانية (الفراو هوبر) ، وقد عادت من برلين حيث قضت العطلة الصيفية ، واخبرتنى بأنها التقت مع اختى في برلين ورأت اطفالها الثلاث والجميع بخير ، وان بيتهم في برلين جميل جداً .

اخبرتها ان رسالة واحدة تأتينا اسبوعياً منهم الى والدي وهو يجيبهم رأساً . شيئاً وأحداً احزننى ان اراه عن (الفراو هوبر) انها فقدت رشاقتها وقوامها الرياضى الانيق واصبحت تلبس فسطاناً واسعاً ، لقد كانت حاملاً للمرة الاولى! . .

معنى ذلك انها سوف تمتنع عن درس الرياضة البدنية لنا وتكتفى في تدريسنا اللغة الالمانية فقط . كنت احب درسها للرياضة بقدر حبى لدرسها في اللغة الالمانية! . .

اما الدروس الالمانية فقد استمرت كما كانت في السنة الماضية في التعليم والاغانى والاناشيد .

في هذه السنة تعينت لدينا مديرة انكليزية جديدة اسمها (المسز كندى) ، وهى زوجة لاستاذ في كلية الطب في بغداد ، الدكتور (ولتر كندى) . اما (الست امت سعيد) ، فقد عادت مديرة الى دار المعلمات .

كانت (المسز كندى) قديرة ونشيطة جداً ، ولم تكن تعرف اللغة العربية ابداً ، ولكنها قامت بوظيفتها خير قيام . ولقد درستنا (تاريخ اوروبا الحديث)

باللغة الانكليزية ، وبالرغم من ان الكتاب كان اصعب بكثير من دروس القراءة والاشعار باللغة الانكليزية ، الا ان الصف تمكن من متابعة الدروس ودرسنا معها عن الثورة الفرنسية وعهد نابليون وتمكنت الطالبات من شرح المواضيع باللغة الانكليزية اثناء الدرس .

وقد علمتنا المديرة في الحفلات بعض الرقصات الاسكوتلاندية الجميلة مع لبس (التنورات) القصيرة السكوتلاندية ذات المربعات . ولازال الى الآن وانا ارى هذه الرقصات بين اهل سكوتلاندة على التلفزيون ، واسترجع اغانيهم اللطيفة وافرح لذكريات ماض مضى .

تعينت في الدرسة معلمة عراقية للتدريس في الصفوف المتوسطة اسمها (مائدة الحيدرى) ، وقد تخرجت من الجامعة الامريكية في بيروت من درجة (الجونير كوليج) ، وهذه الدرجة تخول لهم التدريس في المدارس المتوسطة . وكنت اعرف الست (مائدة) قليلاً . كانت تشبه طالبة جامعة امريكية في وجهها الابيض الوردى اللطيف والذى يغطيه النمش البنى علي انفها وخديها ، وبشعرها الاحمر اللامع وعويناتها المستديرة . كان صفنا يجاور غرفة المعلمات ، واثناء الفرص كنت انا وصديقتى (ناجية حمدى) لاننزل الى فناء الدار ، بل نقف في الشرفة ننتظر ان تخرج الست مائدة لكي نحادثها . وكان الحديث معها طلياً ملذاً لايشبهه شيئاً . كانت صريحة جداً بكل ماتعتقده ولاتحاول ان تتظاهر بشيء غريب عنها وهذا ماكنت اتعجب منه .

ان البنات والنساء في بلدنا لايصرحون بالكثير امام الاخرين . وها انى ارى فتاة شابة جميلة ومثقفة تقول افكارها كما تشاء وتسمع وتحترم افكار الاخرين . وهى مليئة بالمرح والسرور وتضحك بملئ قلبها ان سمعت افكار اخرى ، وكان مرحها يعدى الاخرين فهى تضحك ضحكات عميقة طويلة مليئة بالفرح والانشراح من كل قلبها وكأنها طفلة في سن السابعة من العمر لاخوف ولاشك في داخلها ، ونحن نضحك معها وكأن لاشئ يمكن ان يغطى على مرحنا وسرورنا .

كانت تحب الموسيقى والاغانى الامريكية اللطيفة وتحب الرياضة وتلبس

الملابس اليومية الانيقة دون تكلف او اهتمام ظاهر . وقد شكلت فرقة لكرة السلة وانتخبت البنات مثلما ارادت ، وقد انتخبتنى في هذه الفرقة وكنا نلعب مرتين في الاسبوع بعد الدوام ونلبس البنطلون القصير ذو اللون الاخضر الجميل مثل الذى جلبته معها من الجامعة في بيروت .

وقد ملأ قلبى فرحاً ، روية فتاة عراقية في شخصيتها ، غربية في تمدنها ، مليئة بالفرح والتفائل والنظر الى المستقبل الباهر امامنا! . . .انها تضفى الفرح والسرور على محيطها واطرافها! . . . .

اصبحت ، وانا في سن السادسة عشر اراها كالقدوة التى يجب اتباعها والتخلق باخلاقها! . . .

كان عندنا جمعيات غير مدرسية ، كل جمعية مع احدى المعلمات المسؤلات . كانت هناك (الجمعية العربية) و(الجمعية الانكليزية) ، وقد انتميت انا الى الجمعية الانكليزية .

الست (ماتيلدة) كانت المسؤلة عن الجمعية العربية ، وقاموا بحفلة ناجحة جداً حول شعراء العرب من الجاهلية الى العصر الحديث . وكانت كل طالبة تلبس ملابس الشاعر الذى تقرأ قصيدته وعلى الطالبات ان يحزرن اسم الشاعر : مثلا (امرؤ القيس) وهو امير من امراء العرب قبل الاسلام ، يلبس ملابس العربى المتحضر ، (والشنفرى) بملابس البدو الفقيرة ، و(الخنساء) بملابس العرب البسيطة ، و(الولادة) وهى اميرة تلبس الملابس الاندلسية الفاخرة ، و(احمد شوقى) بلباسه الغربى والطربوش ، والرصافى وسدارته و(الزهاوى) وشعره المسترسل على عنقه وكتفيه .

اما الجمعية الانكليزية التى انتميت اليها ، كانت المعلمة المسؤلة الست (مليحة ياملكى حكيم) وهى عراقية تخرجت من الجامعة الامريكية في بيروت . قررنا ان نمثل الرواية المشهورة (سندريللا) باللغة الانكليزية ، وهى قصة البنت اليتيمة التي تذهب الى حفلة كبيرة في بيت الامير وتفقد احدى حذائيها هناك . وقد قمت انا بدور (سندريللا) ، وقامت بدور الامير (فطينة النائب) .

وكانت حفلة ناجحة حسب قول (المسز كندى) التى اظهرت استحسانها لنا

وللمعلمة (الست مليحة) .

كانت هذه السنة اجمل سنوات حياتى في الدراسة وكنت انظر بلوعة واسف لانقضاء الشهور واقتراب الامتحان النهائى الذى سوف ينهينا عن هذه المدرسة ويرسلنا الى عالم مجهول .

انى المتين! .

تأبين الشاعر جميل صدقي الزهاوي

كنا في عجلة من امرنا نحن الطالبات للكتابة عن الزهاوى الشاعر . كنا نعرف اسمه الكبير في البلاد ، ولكننا لم ندرس عنه شيئاً في المدرسة . الطالبة (امت الزهاوى) كتبت عن عائلته ، وهى من اقاربه ، وقد ساعدها والدها في التفاصيل ، والطالبة (اديبة ابراهيم رفعت) سألت الست المعلمة (رفيعة الخطيب) لكي تساعدها ، ولم اكن ادري بمن اطلب المساعدة . طلبت مني والدتى ان اسأل ابن اختها (حسين) الذى يعرف هذه المواضيع ،خاصة وان الزهاوى امتحن الطالب (حسين الرحال) اثناء تخرجه من المدرسة في ايام الحرب الماضية .

ذهبت مع أمي الى بيت خالتي الكبرى حيث يسكن ابنها حسين وابنتها (امينة) في بيت في منطقة باب الشيخ ، لان امينة كانت تعلم في مدرسة (باب الشيخ) للبنات .

في هذا البيت تعرفت على قريبى (حسين الرحال) للمرة الاولى عن كثب .

كان لحسين شأن كبير في الدفاع عن حقوق المرأة في الجرائد في بداية الحكم الملكى ، وكان هو اول من (تكلم) عن الماركسية والشيوعية مع جماعته ولكن دون ان يكتب شيئاًوهو لم ينتمى الى أي حزب ولكنه بقى مؤيداً للماركسية والشيوعية في ذهنه الى اخير حياته .

كان (حسين) بالنسبة لي وكأنه خالى اخ لامي ، لانه بعمر والدتى ، ولم اكن اراه الا قليلاً لانه لايجلس مع اقاربه النساء عادة ، وكنا كاطفال لانقترب منه كثيراً .

سألت حسين ان كان يمنحنى بعض المعلومات عن الشاعر الزهاوى بمناسبة

الحفلة الاربعينية التي سنقيمها في بهو الامانة . واذا به يبتسم ويستجيب بكل سرور .

بدأ يتكلم عن الزهاوى وعن طبعه اللطيف وكلامه واحترامه للمرأة بصورة عامة دون خوف من الاوساط الدينية المتشددة في بداية العشرينيات وشاعريته الفياضة رغم الحملات المنكرة التى كانت تعارضه . وكيف انكر المتحاملون عليه شاعريته وغمطوا مواهبه ، بالكثير من التشنيع والتجريح . ولكنه كان يشن عليهم القصائد الصادقة لتحرير المرأة الشرقية وتناول حياتها الزوجية منذ بداية القرن عندما عاد من استامبول ورجع اليبغداد ، واثار أيضاً بعض القضايا الدينية ، واثار عليه علماء الدين وابناء الشعب .

لم يستغرق هذا الكلام من (حسين) الا فترة قصيرة ، ولم ينظر الى كتاب اوفهرس بل كان يعرف التفاصيل كلهافى ذهنه . وقد جعل لكلمتى صيحة استقلال اقتصادى لجميع النساء ، اذ شجعنى في طلب النساء للحصول على موارد مالية خاصة لهن والخروج من ربقة الاستعباد المادى للرجل .

كبر (حسين) في نظرى من اجل هذه المقالة للزهاوي ، وصرت انظر اليه وكأنه استاذاً كبيراً يجب ان يدرس الطلاب كلهم ، والمثقف الكبير الذى لايخاف الاخرين! . .

اخذت اتقصد الكلام معه عندما اذهب الى بيتهم لكي استمع الى آرائه وافكاره واصبحت اناقشه أحياناً ، وبدأت افكر بما يقول من اشياء غريبة لم اسمع بها قبلا وامى تشترك بالكلام أيضاً ولاتؤمن بما يقول . كانت تقول ان حسين قاس وشديد داخل البيت انه لايحب اهله واقاربه ، وان حبه للفقراء هو حباً نظرياً فقط .

و كانت أمي تناقشه احسن بكثير من مناقشى اياه . قال يوماً :

- انا لااتحدث عن بلادنا المتخلفة الجاهلة ، انا اقارن فقط في البلاد الاوروبية المرأة غير متساوية مع الرجل في الاجور بينما في الاتحاد السوفييتى المرأة كالرجل متساوية ، ماذا تفضلان؟

لم ادر بماذا اجيب .

ابتـدرته والدتي وقـالـت ان الصـور والروايات والسـينمـا تدل على ارتفـاع مـستوى الحياة في اوروبا ، وفيـها كل شيء جميل وعظيم ، اما في روسـيا بلاد (المسقوف) ، ان البلاد جائعة ولباسهم قبيح ، دعنا نرى الجمال والثقافة الاوروبية واذهب انت الى بلاد (البولشوويك) وعش هناك! . .

هكذا كانت تنطق الكلمة الروسية (البولشفيك) .

اما انا فقد شاقني كلامه ودفاعه عن النساء ، والعدالة الاجتماعية بين الناس وظننته يدافع عن الحق في كل مكان .

اخذت اسأل امه واخته عن دراسته واذا به حاز على شهادة الحقوق مؤخراً بعد ان درس في القسم المسائي وهو موظف .

انه هو حسين الرحال ، ذلك الذى رجع الى بغداد من المانيا بعد ان سكن بها اشهراً قليلة ، وقد حلق شاربه تماماً وكان ذلك في العشرينيات وانه ظهر للناس آنذاك ، حسب قول أمي ، وكأنه قد ارتكب اثماً بغداد! . . لم يكن الناس قد رأوا شخصاً حليق الشاربين! . . وهو أيضاً نفسه الذى شجع اخته امينة على السفور في بداية الثلاثينات ، واظنها كانت اول من اسفرت في بغداد ، ثم شجعها ان تشترى سيارة وتسوق في شوارع بغداد وكان ذلك نادر جداً . الاوروبيات فقط كن يسقن السيارة في بغداد وكان عددهن قليل .

رأيت حسين ملئ بالثقة بنفسه وانه شخص لايخاف! . .

كان حسين يتكلم اللغة الالمانية لذلك اخبرته بأنني اتعلم هذه اللغة وسوف اذهب الى اختى في برلين للدراسة . واذا به يقول :

- ان هتلر نازى وهو أي حسين يكره النازية وان هتلر يدير عجلة التاريخ الى الوراء .

لم افهم ما قال تماماً ، لكنني اردت ان اريه بأنني افهم ما يدور في العالم واذا بكلمة تحضرنى عنه فسألته :

- هل انت شيوعى؟

ظننت انه سوف يضحك من ذلك واذا به يحتد ويغضب بسرعة ويقول :

- من علمك هذا الكلام؟ . .لماذا تسألين؟لا انا لست شيوعياً ابداً! . .

في تلك السنوات لم اكن ادرى ان الشيوعية شيء مخيف! . . اندهشت جداً، رأيت حسين الذى لايخاف، قد خاف من كلامى! . .

لم اره يمدح أحداً، بل كان يهجو الجميع! . .فهذا رجعى، وهذا متخلف، وهذا جاهل، وذلك لص، ولكن كلامه كان (كلاماً) فقط بين جماعته . كأن يتكلم وكانه يقول انه من طينة اخرى! . .

بعد سنة من احاديثى معه، سمعت بأن صديقيه (عبد القادر اسماعيل البستانى واخيه يوسف) سحبت منهم الجنسية العراقية وغادرا البلاد . فهمت آنذاك سبب خوف حسين الرحال من كلمة شيوعى! . .وكانت هذه اول مرة يسحب من الناس جنسيتهم . وكان ذلك بعد انقلاب (بكر صدقى) .

وكنا في الصف الخامس، عندما توفى الشاعر (جميل صدقى الزهاوى)، قررت المدرسة ان تقيم حفلة تأبينية في يوم الاربعين لوفاته في (بهو الامانة) . اجتمعت (الست انيسة) مع معلمة اللغة العربية (الست ماتيلدا) و(الست نجلاء طنوس) وهى كانت تدرس في دار المعلمات، وابدلوا كلمات شعر (شهداء الثورة) السورية ضد الفرنسيين في العشرينات ويبدأ :

ابت العين ان تذوق المناما   والمنايا تغتال منا الكراما

الى كلمات حول الشاعر الزهاوى، الذى كان من انصار الدفاع عن المرأة وتغنى باشعار عنها منذ بداية العصر الملكى الفيصلى . وهكذا يبدأ النشيد عن الزهاوى الراحل :

ايها الشاعر العظيم المفدى   انت رب القوافى دون مراء

تمت القصيدة في يومين قبل الحفلة الاربعينية لوفاته وتعلمتها فرقة النشيد، وكانت من اجمل الاغانى الحزينة التى القيت . ولاازال اذكر كلام المديرة الجديدة في تلك السنة وهى (المسز كندى) الانكليزية عندما سمعت هذا النشيد :

- لم لاتغنوا الاناشيد بهذه الطريقة الجميلة؟ان الطالبات عندكم يغنين بصوت واحد لايتغير من البداية والى النهاية . ان كلمات الغناء لها معان متعددة ترتفع وتهبط، لم لا تنشدون اشعاركم بهذه الطريقة دائماً! . .

في الحفلة النى افتتحت بهذا النشيد الحزين اولآ، ثم القت قريبة الشاعر

الطالبة (امت الزهاوى) وتكلمت عن اسرته وهو من قرية (زهاو) الكردية ، ثم عن دراسته ثم اعماله في استانبول وبغداد ، وبعدها تلتها الست صبيحة الشيخ داود ، ثم دورى انا ثم الطالبة اديبة ابراهيم رفعت وقد تكلمنا عن اعماله واستشهدنا باشعاره في سبيل المرأة ، وانه كان يشن حملة على كل من يقف في طريق المرأة وحريتها ولاشك انه نجح في اثارة الاهتمام بالمرأة العراقية ، وهو نادى الى تحرير المرأة من عام ١٩١٥

عندما عاد من استامبول الى بغداد حيث تناول الحياة الزوجية والمنزلية بصورة عامة ، وقد ادى ذلك الى هياج بعض رجال الدين وعلى رأسهم الشيخ (سعيد النقشبندى) وسارت مظاهرات صاخبة حملت الوالى (ناظم باشا) على اقالة الزهاوى من وظيفته في كلية الحقوق في بغداد .

ومن اشعاره عن الحجاب الذى يعيبه ويرجعه الى العادات لا الى الدين :

منعــوهن ان يريــــن ضياء فتعــــودن عيشة الظلمات

دفنوهن قبل موت صـــــريح في قبور سود من الحجرات

ان هذا الحجاب في كـل ارض ضــــــرر للفتيان والفتيات

لم يكن وضعه من الدين شيئاً انما قـــــد اتى من العادات

وهتفت الطالبات في النهايه باحياء ذكراه! . .

وقد كتبت الجرائد وامتدحت هذه الحفلة النسائية الناجحة .

اخيراً بدأ الامتحان النهائى وكان مكان الامتحان في دار المعلمات ، والمراقبات ليست معلماتنا بل كانوا من دار المعلمات . وقد جلسنا في نفس الصف الذى كان صفنا في السنة الثالثة المتوسطة . انتظرنا النتائج بعد مرور اسابيع رأيناها طويلة . اخذنا النتائج النهائية ويبدو ان صفنا الصغير نجح كله دون اكمال! . . والسبب هو صغر الصف واجتماع عدد من الطالبات بدرجة عالية من السعى والذكاء مع علو شأن المدرسات ووجود منتصف الطالبات من اليهوديات ، وهن مشهورات بالدراسة والاهتمام .

ويجب ان اضيف هنا عن تعليقى عن اليهود في المدارس كما رأيتهم في المدرسة وبعدها في الكلية . لم يكن اليهود اكثر او اقل ذكاء من الاخرين . كانوا

كالجميع يتراوحون بين جماعة اذكياء وجماعة اقل منهم ذكاء مثل الحال عند الاخرين ، ولكن اليهود يبذلون سعياً وجهداً اكثر من الاخرين وينجحون في الدروس بسهولة بسبب مجهودهم هذا ، ولم ار عندهم معلومات خارجية تفوق الاخرين ابداً . في ذلك الحين ، كان الشخص الذكى والمجتهد يتقدم على الخميع ، مهما كانت قوميته او دينه .

الكلية الطبية الملكية

في منتصف شهر تشرين الاول ذهبت مع والدي الى كلية الطب ، ودخلنا الى غرفة العميد الدكتور (احمد قدرى) . رحب بنا وقال لي بأنني تأخرت عن الدوام اسبوعين وابتسم وقال : عليك ان تدرسي وتدرسي! . .

طلب مني والدي ان ابقي العباءة على رأسى ، ولكن العميد قال ان ذلك مستحيل في الدراسة الطبيه ، سكت والدي ولم يقل شيئاً .

كنت البس ثوباً باكمام طويلة وعالى العنق تماماً كما طلب مني العميد في اثناء المقابلة في الشهر الماضى . وبعدها طلب العميد من الفراش ان يوصلنى الى قاعة المحاضرة رقم (١) حيث كان الصف الاول .

كان الصف ينتظر وصول الاستاذ ، والكل في اماكنهم . القاعة مدرجة وبها مدرجين ، والصف الخلفى يكاد يقارب السقف . اعجبنى ذلك ، لان صفوف المدارس لم يكن فيها مدرجات . رأيت جماعة البنات يجلسن في الصف الاول ، كان عددهن خمسة فتيات ، جلست معهن ورأيت اننى اعرفهن جميعاً ماعدا واحدة لم ارها من قبل ، وكانت اكبرهن عمراً . اثنتين من الطالبات كن معى في صف واحد وهم من الفرع الادبى ، يبدو انهم ادخلوا البنات في الكلية بسهولة للتشجيع . اثنتين اخريتين من الصف العلمى الذى سبقنا ولم يدخلن كلية الطب الا هذه السنة والبنات الاربعة كلهن من اليهود ، اما الخامسة التى لم ارها من قبل كانت (درزية) من لبنان اتت الى العراق كمعلمة للبنات ، ثم تزوجت من ضابط طيار في القوة الجوية العراقية وهو من مدينة الموصل ثم طلبت الدخول الى كلية الطب .

بعد دقائق قليلة دخل شاب بملابس انيقة جداً يحمل دفتراً كبيراً ، وكان هذا هو السكرتير الذي يقوم بمراقبة دوام طلاب الصف الاول ، وكان لبنانى الاصل يسكن العراق اسمه (ألبير عباجي) . نادى عباجي اولآ اسماء الطلاب بالاحرف الهجائية وكان يستعمل اسم العائلة فقط دون الاسم الاول ، وفى النهاية نادى اسماء البنات كذلك باسم العائلة ولكنه كان يضع لقب (مس) كما في اللغة الانكليزية . كان اسمى (مس امين زكى) .

شاهدت سبورة سوداء اجنبية انيقة معلقة على الحائط بصورة مستوية ويحيطها اطار خشبى بنى اللون من نوع جيد مثل اخشاب الاثاث الجيد ، وا لسبورة مقسمة الى قسمين يربطهما حبل اذا اصعدت احدهما باتجاه السقف ، تنخفظ الاخرى باتجاه الارض ، ويتمكن الاستاذ ان يكتب الكثير دون الحاجة الى محو الكتابة الاولى . كذلك رأيت امام مقاعد الصف الاول حيث نجلس والسبورة يوجد طاولة طبية واطئة تكفى جثة انسان ، مصنوعة من مادة فخارية صلبة (فرفورى) بيضاء اللون ومثبتة على عتلة معدنية بالارض وهذه الطاولة لا تستعمل الا في المستشفيات . وعلى يمين الاستاذ ، يوجد هيكل عظمى كامل معلق في قفص زجاجى . وامام الاستاذ منصة ترتفع وتنخفض ، وبجنبها جهاز فيه عدسة مكبرة في الاسفل لم ار مثلها من قبل ، ثم رأيتها تشتغل وهى عدسة تعكس على الحائط صور وخرائط مكبرة من الكتب او من مقاطع الميكرسكوب الزجاجية ليتمكن الجميع من رؤيتها مع الاستاذ واسمها (ابيدايسكوب) كما توجد ستائر سوداء تغطى الشبابيك اثناء تشغيل هذه العدسة لتوضيح الصور .

دخل الاستاذ الانكليزى ليحاضر في (علم الفيزياء) ، وكان يرتدى (العباءة) او المعطف الاسود الذى يرتديه اساتذة الجامعات الانكليزية . كان سنه حوالى الاربعين عاماً ، انيق الهيئة ووجهه يميل الى الجمود والكبرياء . تكلم بلهجة انكليزية واضحة عن درس الميكانيك في (الفيزياء) دون سلام او كلام .

كان علم الفيزياء ابعد العلوم عندي للدراسة ، لأنني درسته في الصف الثالث المتوسط وبصورة بسيطة جداً . وانا على الرغم من معلوماتى الجيدة في اللغة الانكليزية ، اجد نفسى جاهلة ليس لعلم الفيزياء نفسه فقط ، بل كنت

لااعرف ماذا تعنى كلماته لغوياً! . . .

قلت في نفسى :

- كان يجب ان ادرس هذه الدروس في العطلة الصيفية بدلا من الذهاب الى كركوك! . . .الم يفكر والدي بهذه الصعوبة . كيف يجتمع الفرع الادبى الذي درست فيه في الثانوية وكلية الطب؟

لقد اتيت متأخرة اسبوعين ، والطلاب كانوا قد تعلموا عن الدروس والاساتذة واللغة الانكليزية لدروس كانوا يعرفونها من قبل في الفرع العلمى في الثانوية! . . لذلك شعرت بأنني دخلت المكان غريبة ، ومثلى مثل الطالبتين معى من الفرع الادبى في الثانوية كما ذكرت .

لحسن الحظ ، كانت هناك طالبة معنا تخرجت قبلى بسنة وهى من الفرع العلمى ، وكنت اعرفها قليلاً في المدرسة ، وقد اظهرت لي منتهى الود والمحبة منذ لحظة وصولى الى الكلية ، واسمها (لطيفة حييم لاوي) وهي ذكية ، متفتحة يملؤها حسن الفهم والتقدير للأمور ، لذلك بدأت اشعر معها بالاطمئنان وتخلصت من الشعور بالغربة الذى شعرت به في البداية .

كان لنا ثلاثة اساتذة انكليز ، كلهم على اتم مايكون من العلم والتهذيب . كان علينا ان ندرس اربعة مواضيع في الصف ألاول وهى (الفيزياء والكيمياء والبيولوجى (علم الحياة) والتشريح) . ولم احب أي منها ما عدا البيولوجى الذى درسته في الثانوية ، وكنت اجد درس الفيزياء فظيعاً! . .

كانت ساعات الدروس طويلة ، منذ التاسعة صباحاً الى الرابعة بعد الظهر .

من الساعة التاسعة الى العاشرة درس نظرى يعقبه درس نظري آخر ومن الساعة الحادية عشر الى الواحدة درس عملى في المختبر ، يعقب ذلك ساعة واحدة للغداء وبعدها درس عملى آخر لمدة ساعتين الى الساعة الرابعة بعد الظهر . ونصل البيت في حوالى الخامسة مساء . بعد ذلك يجب ان ندرس في البيت ما سمعنا من محاضرات النهار .

اعيد واقول ان الدروس كانت كلها غريبة على . اللغة الانكليزية العلمية ، وعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة (البيولوجى) وبالاخص درس التشريح .

دخلت قاعة التشريح وانا مع الطالبات ، ورأيت جثة عارية ممددة على طاولة من الفخارالابيض الطبي وكانت جثة رجل . والتشريح لطلاب الصف الاول هو للساق ولذراع الميت . ونحن بدأنا بتشريح الذراع اولآ . كنا ستة طالبات كل ثلاثة في جهة من جثة الميت ومعنا طالب واحد في كل جهة من الجثة ، والقسم الباقى من الجسم يشرحه طلاب الصف الثانى ، والارجل يشرحها قسم آخر من الصف الاول عندما نكون نحن في مختبر الكيمياء او البيولوجى . وهذا كان الترتيب على كل جثة في القاعة . وفى كل مرة بشتغل نصف طلاب الصف الاول مع نصف طلاب الصف الثانى ثم نتبادل في اليوم التالي .

رأيت الطالبات يشرحن ذراع الميت باهتمام وبدون خوف لانهن تعودن ذلك . خفت ان المس الجثة في البداية ، ولكن لما لمستها وجدتها باردة جداً ومتصلبة لاعلاقة له بملمس البشر . شعرت وكأننى المس تمثالآ ! . . زال مني الخوف رأساً .

ان الماء في الحوض الذى يضعون فيه الجثث لحفظها توضع فيه مواد كيماوية التى تحفظ الجثة من التعفن ، فتتصلب وتبقى باردة ببرودة الماء الذى يحفظها . وقد احزنتنى رؤية الميت وكونه فقير لااهل له وليس هناك من يدفنه! . .ولكن ، تلك هي الطريقة لدراسة التشريح في كل كليات الطب في العالم! . .

في البيت سألتنى أمي وهى تمزح ، ان كنت اقوى على اكل اللحم بعد رؤيتى الجثث! . .كان جوابى لاعلاقة بين الامرين . ان الجثث هي اشبه (بتماثيل) منها الى الجسم البشرى الحى .

كانت قضية تشريح الجثث هي اهم مايسألنى عنه الكبار والصغار والاصدقاء ، وقد مللت من اعادة الكلام عليهم الى درجة كنت اول ما ارى شخص اعرفه اقول :

- اسألوا ماشئتم عن الكلية ، ما عدا قضية الجثث! . .لااريد الكلام عنها . .

كان استاذ التشريح بريطانياً من سكتلاندة ، ويشتغل معه الدكتور (بيثون رسام) وهو من الموصل ، والدكتور (عبد القادر سرى) وهو من سوريا وكان الطلاب يسمونه (ابو شوارب) بسبب شواربه الكثيفة التى يرفعها الى اعلى كما كان يصنع الاتراك العثمانيون .

بعد سنوات قليلة تزوج الملازم (رشاد سليم) وهو الاخ الاكبر للفنان (جواد سليم) ، الى ابنة الدكتور عبد القادر سرى .

ان علم التشريح يستغرق سنتين اثنين ، في الصف الاول نشرح الذراع والساق وفى السنة الثانية نكمل تشريح الجوف البطني والجوف الصدرى والدماغ .

في درس البيولوجى (علم الحياة) ، ندرس (علم الحيوان) لمدة ستة اشهر و(علم النبات) لمدة ثلاثة اشهر . وكان درس علم الحيوان من الذ الدروس لدى لأنني كنت افهم الموضوع خاصة الدروس العملية بتشريح الضفدع والسمكة وديدان الامعاء وغيرها .

كان الاستاذ (بوزويل) الشاب الانكليزي من احسن الاساتذة في المحاضرات ، وكانت يعيش مع عروسه الجديدة قرب كلية الطب في (العيواضية) . وقد انجبا ولدين في بغداد اثناء اقامتهما . وقد بقى في بغداد سنوات طويلة وتركها بعد ثورة الجيش في ١٩٥٨ .

اما دروس الكيمياء والفيزياء فأنها كانت الحيرة الكبرى بالنسبة لي . تحسنت قليلاً في دروس الكيمياء العملية وصرت اتابع مايطلبه الاستاذ منا .

بسبب الدروس العملية في الكيمياء اصبح لطلاب الصف الاول ان القسم العلوى من الصدرية البيضاء التى نرتديها مغطاة بثقوب صغيرة كثيرة ملونة بسبب المواد الكيماوية التى تسقط علينا اثناء درس الكيمياء العملى وذلك يحدث لجميع الطلاب ، ولن تكون لدينا صدرية سالمة من الثقوب الا في الصف الثانى .

اما الدروس النظرية خاصة في درس الفيزياء كنت اجدها كابوساً القى على .

في نهاية الشهر الاول من الدوام في الكلية وقع اول انقلاب عسكرى ، وبصورة فجائية تحت أسم الفريق (بكر صدقى) .

قيل ان الجيش ارغم وزارة (ياسين الهاشمى) على التخلى من الحكم وان الملك غازى طلب من (حكمت سليمان) ان يؤلف الوزارة ، واصبح (بكر صدقى) رئيساً لاركان الجيش في مكان (طه الهاشمي) وهوالاخ الاصغر لياسين الهاشمي رئيس الوزراء .

لاول مرة بدأت اقرأ التفاصيل عن الوزارة الجديدة والمؤامرة على وزارة (ياسين الهاشمى) واسقاطها .

كانت حركة انقلاب بكر صدقى ، اول حركة سياسية في البلد اثارت انتباهى الى مايحدث وجعلتنى اتابع كل ما حدث بعدها من امور سياسية في مستقبل العراق ، وكانت معظمها امور اسائت الى العراق كثيراً! . .

فهمت ما حدث من كلام والدي ومن الجرائد التى كانت تتهجم على الهاشمى واصحابه .

يبدو ان (طه الهاشمى) رئيس اركان الجيش ، سافر الى بريطانيا وتركيا ،وجعل من (بكر صدقى) وكيلا لرآسة اركان الجيش في محله ، وكان المفروض ان الرجلين كانا من الاصدقاء! . . .

يبدو ان بعض الوزراء الذين يكرهون (ياسين الهاشمى) رئيس الوزراء ، تآمروا مع بكر صدقى وحسنوا له سهولة العمل في غياب (طه الهاشمى) والمركز الذى سيفوز به ان هو اسقط الهاشمى وجماعته ، ويصبح هو رئيساً لاركان الجيش! . . (وبكر صدقى) كان أيضاً معجباً بالغازى (مصطفى كمال) رئيس جمهورية تركيا مثل كل الضباط الاخرين في ذلك الوقت إذ كانوا مفتونين به وبطريقة حكمه في تركيا الجديدة واسقاطه الخلافة العثمانية! ، ولهذا السبب عندما حدثت مناورات عسكرية كانت تحدث سنوياً كل عام وتجرى في منطقة (جلولاء) ، زحف الجيش على اثرها بأمر من (بكر صدفى) باتجاه العاصمة ، والقت طائرتان عسكريتان منشورات تتضمن التهديد للحكومة وان الجيش سوف يستولى على العاصمة اذا بقيت وزارة الهاشمى في الحكم . ثم القت الطائرتان قنابل حقيقية على دار الحكومة وهددت بأكثر اذا لم تستقيل وزارة الهاشمى .

هرب (ياسين الهاشمى) رئيس الوزراء و(رشيد عالى الكيلانى) وزير الداخلية الى خارج العراق . اما (نورى السعيد) وزير الخارجية فقد اختفى ومعه ابنه (صباح) وزوجة صباح المصرية (عصمت) التى تزوجها (صباح) منذ اسابيع قليلة .

بعد سنوات طويلة في الستينات بعد ثورة الجيش كنت اتكلم مع السيدة عصمت السعيد فقالت :

- تزوجت مع انقلاب بكر صدفي وهربت ، واثناء حركة (رشيد عالى) ضد بريطانيا هربت ثانية والان انا هاربة ولاجئة للمرة الثالثة! . . . .

هللت الجرائد لبكر صدقى ورحبت بحكمت سليمان ، وشتمت الوزارة الهاشميه وكل وزرائها .

في البداية لم ار في الموضوع الا ان اختى الكبرى ستعود مع زوجها الى بغداد لان الهاشمى نقل زوجها الى الخارج والان سأراهم ثانية ! . .

ولكني وجدت والدي في اسف والم بما تم من هذا الانقلاب وسألنى ان كنت اذكر ما قاله عن عصيان الجيش في ضرب العشائر الثائرة ايام وزارة (على جودت الايوبى) ، وقال :

- ان هذا هو بداية العصيان على الدولة ، وان الجيش اذا تدخل يصبح هو المسيطر! .

في اليوم التالى للانقلاب ، سمعنا خبراً مريعاً . ان (جعفر باشا العسكرى) وزير الدفاع قي وزارة ياسين الهاشمي ذهب الى (جلولاء) ليرى (بكر صدقى) ويقدم له رسالة من الملك غازى تقول ، بأن وزارة الهاشمى استقالت ولا لزوم ان يتقدم الجيش الى بغداد .

ذهب (العسكرى) من بغداد الى جلولاء ومعه مرافق واحد ، ولم يعد بعدها! . .

يبدو ان بكر صدقى وجد ان قدوم (جعفر العسكرى) الى قطعات الجيش قد يفسد ما كان يتأمله من النصر فاصدر امراً بقتل العسكري! . . .

لم نسمع ذلك، من الجرائد او الاخبار الرسميه ، ولكن الناس عرفوا ماحدث وكان شعور الاسى والحزن ظاهراً عند الجميع . كان جعفر العسكرى محبوباً من الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم ضباطاً وجنوداً ومدنيين نساء ورجالاً! . . .

والدي كان من اوائل الذين سمعوا بالخبر . لم اجده يبكى بدموع الحزن والاسى الا في وقت موت اخى الصغير الجميل (فاروق) قبل اربعة سنوات ، وسكب العبرات لوفاة الملك فيصل ، وقد بكى (العسكرى) هذه المرة من كل قلبه! . .

وبدأ يقص علينا : كيف كانا في الكلية العسكرية في استامبولـ ينامان في اسرة متجاورة في عنبر النوم . وان جعفر كان من اشجع الطلاب في دروس الرياضة وأجرأهم في المغامرة ومن احسنهم في الدروس النظرية . كان الطلاب يسمون والدي لقب (امين باش) لان الباش تعنى الاول في الصف . وكيف انه عندما اصبح جعفراً رئيساً لوزراء العراق بقى ينادى والدي بلقب (باش) .

اخبرني والدي ان والد جعفر العسكرى ، وهو ضابط عسكرى كبير في الماضى ، يسمى (مصطفى بك البهلوان) وكلمة بهلوان معناها البطل الهصور في اللغة التركية ، وان جعفرا نفسه كان بطل آخر .

وعندما كان جعفر العسكرى ممثلا سياسياً للعراق في بريطانيا زار والدي الممثلية في لندن للسلام عليه هناك ، واذا بجعفر يمسك الباسطون كأنه يمسك بندقية امام الباب ويقول باللغة التركية :

- تنكب سلاح! . .

كما كان يصنع والدي اثناء دراستهم في استانبول .

ثم اخذ يضحك ويمزح كعادته وكانت فكاهات جعفر طاغية ولطيفة .

واضاف والدي قائلاً : والآن يموت جعفر وبأيدى ضباط من الجيش وهو الذى اسس الجيش العراقى! . .انتظروا المستقبل القريب وسوف يقتل الضباط بعضهم تباعاً! . .

بعد فترة كنت مع أمي في بيت احد اصدقائنا الاكراد في شارع (العسكرى) على النهر وهو بيت (الميرزا فرج) التاجر الكردي المعروف ، وحديقتهم ملاصقة مع حديقة بيت السيد (مولود مخلص) . سمعت السيدة زوجة الميرزا تصف لنا كيف أنهم خافوا جداً في الليلة الماضيه حين سمعوا فجأة اصوات الرصاص وسيارة تمر بسرعة امام شارعهم وسمعوا صوت السيد (مولود مخلص) وهو يشتم (بكر صدقى) بأعلى صوته في الشارع :

ـ بكر! . . هل تريد ان تقتلنى يا بكر! . . .

ثم اضافت السيدة الكردية وهى تبتسم :

ـ ان مولود مخلص شتم (بكر) وكل الاكراد معه وشتم (حكمت) وكل

الاتراك معه ، وباعلى صوت! . .مع ان (مولود مخلص) صديق (للميرزا فرج) جداً! . .

بدأت النساء يتكلمن عن التعديات على الناس من قبل الضباط في وسط الشارع نهاراً ، وفى الملاهى في الليل حيث يسمعن من ازواجهن مايحدث .

وقد سمعنا بعد ايام قليلة ، ان (مولود مخلص) سافر خلسة الى لبنان ونجا بحياته .

في عهد هذه الوزارة تعين عمى (حسن فهمى) مديراً عاماً للشرطة . وكان (بكر صدقى) وعمى يلتقيان في الامسيات معاً في مآدبهم وحفلاتهم! . . لكن بكر صدقى رفض ان يغير مكان (صبيح نجيب) في الخارج وبقى في مكانه في جنيف .

اما عمى العقيد (محمد صالح) وقد كان في نفس الصف مع بكر صدقى اثناء دراستهم في ثانوية (الاعدادى عسكرى) وبعدها في الكلية الحربية ، وهما في نفس العمر ، وقد كانوا اصدقاء لكن اذواقهم مختلفة في نواحى الراحة والتسلية . عمى فنان يميل الى الرسم وحياة الهدوء والعائلة ، وبكر صدقى يحب السهر والاجتماعات الليلية ، لذلك لم يكونا يلتقيان .

سمعنا ان (بكر صدقى) ينوى الزورج من امرأة نمساوية وانه طلب من عمى ان يرسم له بعض الصور الزيتية وان عمى وافق على ذلك . وقد رسم له من لوحات صغيرة من ايام الحرب في قفقاسيا وحيث اسر عمي في مدينة (باطوم) على البحر الاسود . وقد كبر ثلاث لوحات منها وربطها مع بعضها على شكل ستارة (بروانة) جميلة اهديت للعريس (بكر صدقى) الذى جاوز الخمسين من عمره بينما كان لعمي خمسة اولاد اكبرهم في سن الخامسة عشر! . . .

كان عمى يضحك ويقول :

– ان بكر صدقى (يتكهرب) عندما يرى امرأةجميلة! . .وانه رغم قسوته مع الرجال فأنه رقيق جداً مع النساء! . .

وهناك قصة سمعتها في ذلك الوقت من نساء (عجائز) . ان بكر صدقى كان قد خطب امرأة مليحة الشكل ومن العائلات المعروفة اسمها (جميلة خان) ،

وهى شقيقة احد الضباط الكبار (اسعد نيازى) من كركوك . في ليلة العرس دخل العريس ورآها للمرة الاولى . ولسبب لم يعرفه احد انفصل عنها منذ رؤيته لها ، وعاشا عيشة انفصال كامل منذ ليلة العرس لمدة شهور ، ولم يسيي اليها ، ثم ترك البيت وذهب ليعيش مع امرأة معروفة من الناس اسمها (حظية) . وكان الضباط الكبار يذهبون الى بيت (حظية) لكي يقابلوا بكر صدقي خارج الدوام! . . .

ان (بكر صدقى) طلق زوجته التركمانية (جميلة خان) بعد حدوث الانقلاب الذى تسمى بأسمه! . .

ولم يتزوج بكر صدقى الا في هذه الايام ، أي قبل وفاته بقليل! . .

في الكلية ، كانت عندنا ثلاث فصول في السنة كالترتيب الانكليزى ، الفصل الاول ينتهى في كانون الاول والفصل الثانى ينتهى في نيسان والفصل الثالث ينتهى في نهاية حزيران .وفى الفصلين الاولين امتحانات فصلية ونهاية الفصل الثالث هو موعد الامتحانات العامة .

في امتحانات الدروس الفصلية كانت درجاتى قليلة ، وكان ذلك يؤلمني جداً! . . انا الكبرى في العائلة وكنت دائماً الصغرى في صفى منذ البداية . اهذه انا التى لاعرف هذه العلوم في الكتب ، والتى يعرفها غيرى في الصف بسهولة؟ . . ماذا جرى لي؟

الطالبات معى من الفرع (الادبى) كن يعانين مثلى من صعوبة هذه الدروس (الدخيلة) . كنا نجلس أحياناً وقت الغداء ونستعيد بعض اشعار الماضى في الثانوية ، ونشير بمقت نحو الكتب الصعبة الحاضرة! . .

في الامتحانات النهائية نجحت طالبات الفرع العلمى ورسبنا ، نحن طالبات الفرع الادبى .وعلينا ان نشتغل في الصيف لنمتحن مرة ثانية في شهر ايلول .

قضيت الاجازة الصيفية في درس مستمر وانا كارهة للدراسة والتعب . سنة صعبة متعبة يعقبها صيف مزعج طويل اقضيه في الدراسة ! . .

جماعة الاهل تقول : اهذا ما اردت في دخولك كلية الطب! . . .هذا عمل رجال اقوياء وليس عمل فتيات! . .

في وسط عملى هذا في شهر آب في الصيف سمعت فجأة ان (بكر

صدقى) قتل في الموصل ، وكان في طريقه الى تركيا بدعوة من حكومتها ، وقتل معه (محمد على جواد) آمر القوة الجوية . رأيت والدي يعلق على الموضوع باعتقاد جازم :

- بشر القاتل بالقتل! . . .

وهو يقصد مقتل زميل صفه (جعفر العسكرى) .

ورأيت والدي يجلس وحيداً في مكتبه ، لعله كان يفكر حال العراق الحالي .

مات بكر صدقى الذى قال بعض الناس انه كان يطمح بعرش الملك غازى ، انه الرجل الذى حكم العراق بقوة وغطت اعماله على اعمال الملك ورئيس الوزراء بدكتاتورية عسكرية لاتعرف ماتريد سوى السلطة والجاه! . . .

نعته الجرائد وابدت الاسف في الايام الاولى فقط ثم سدت تلك الجرائد .

وقد جلبت الحكومة جثمان بكر صدقي من الموصل ، وكان (حكمت سليمان) لايزال رئيساً للوزراء ، فأمر بجنازة عسكرية للفريق (بكر صدقى) في موكب عسكرى مهيب ودفن في مقبرة باب المعظم . ولاازال اذكر احدى الجرائد تكتب عنه (الرصاص بدل التمثال) ، لانهم كانوا في طريق اقامة تمثال له عندما كان حياً! . . .

لم اشاهد جنازة بكر صدقي .

يعد حوالى شهرين عثروا على جثمان جعفر العسكرى .

كان الناس قد سمعوا تفاصيل مقتل العسكري في منطقة من أراضي ديالى ودفنت جثته في احد البساتين ، وان صاحب البستان رأى العملية من بعيد ، وبعد ان رحل القتلة وحل الظلام اتى مع زوجته فحفرا القبر واخرجا الجثة واعادا دفنها في مكان آخر قرب ساقية جافة ، ولم يعرفا هوية القتيل .

بعد مرور شهرين من قتل بكر صدقى تمكنت الحكومة من معرفة ماحدث .

نقل جثمان المغفور له (جعفر العسكرى) في احتفال عسكرى كبير ودفن في حديقة المقبرة الملكية في الاعظمية .

لم اتمكن من رؤية هذه الجنازة أيضاً ، كنت في الدوام وقرأت التفاصيل من الجرائد .

سمعت من جماعة من (النساء) من صديقات والدتي ، بأن الناس احتشدوا في الشارع لمشاهدة جنازة (جعفر العسكرى) وهى تمر في طريقها الى المقبرة الملكية ، والناس كلهم في حالة حزن عليه ، والنساء كلهم متحجبات تماماً في الطريق ، سمعن بأن امرأة واحدة وهى تحت الحجاب التام ، (زغردت او هلهلت) عند مرور الجنازة امامها لمرة واحدة فقط واختفت بسرعة ، وهو عمل يدل على التشفى والرضى ، وقيل ان السيدة التي زغردت كانت من عائلة الوزير المرحوم (توفيق الخالدي) الذي قتل قبل سنوات ولم يعثر على القاتل ، وقد قيل ان الجريمة دبرت من قبل جعفر العسكري ونوري السعيد .

لم تعش حكومة (حكمت سليمان) بعد مقتل (بكر صدقى) سوى ايام قلائل . لان الضباط في الموصل اصروا على اسقاط الوزارة . اختير (جميل المدفعى) رئيساً للوزراء . وقد اراد (جميل المدفعى) ان يسدل الستار على ما مضى ولا ينتقم من احد! . .

كنت انتظر مع والدي نتائج الامتحانات لكي نتهيأ للذهاب الى بيت اختى في برلين ، وكنت في غاية الفرح! . . سوف اسافر الى اوروبا حيث العالم غير العالم ، والناس غير الناس! . . سوف اخرج من القرون الوسطى في الشرق ، وارى مدنية القرن العشرين! . .كنت انتظر الايام يوماً بعد يوم . . .

بعد فترة قصيرة ، حضرتنى كلمات المتنبى : ما كلما يتمنى المرء يدركه! . .

تغير محل زوج اختى من برلين في المانيا ، واصبح مندوباً في (عصبة الامم) في جنيف في سويسرة . ويبدو ان زوج اختى كان ينتظر رجوعه الى بغداد وهو على احر من الجمر ، ولا يريد البقاء هناك وقد اخبر والدي بذلك .

بقيت انتظر ما سيقوله ابى عن الدراسة العالية وارسالى الى بيت اختى في برلين كما كان يقول . يبدو أن زوج اختى كان يترقب الرجوع الى بغداد طيلة الوقت . وكنا نشعر بذلك من رسائله الكثيرة الى والدي ، وهكذا يبدو بأني لن اذهب الى اوروبا للدراسة .

طلبت من والدي الذهاب الى بيروت الى الجامعة الامريكية ، لكن والدي اراد لي كلية الطب . وقد اخبرته بأنني من (الفرع الادبى) ، فقال ان دراسة الادب

سهلة وتتعلميها وتدرسيها كما تريدين (اوهكذا كان يظن! . .) ولكن (الطب) هو علم ، ويجب ان يتفرغ له الشخص . وقد كان والدي منذ طفولتى يقول بأن الطب هو العلم الحقيقى بالنسبة للبنات .

ـ كنت اود ان اذهب الى جامعة بيروت لكي ادرس التاريخ وبعض اللغات الاجنبية والشرقية وآدابها ولكنى لم اجرأ ان اناقش والدي في هذا الموضوع لئلا يفقد اهتمامه بدراستى ، وكان هو الشخص الوحيد الذى اراد لي الدراسة العالية في العائلة ، لذلك اطعته في كل ما اراد! . .

ان دراسة الطب تحتاج الى سنوات طويلة من الدراسة ، واختى الكبرى وزوجها قد يعودان الى بغداد قريباً ، لذلك قرر والدي ان اقدم الطلب الى كلية الطب في بغداد وننسى السفر الى برلين وغيرها! . .

حزنت جداً لعدم السفر الى اوروبا وذكرت ذلك لوالدي بأسف . واذا به يضحك ويقول :

ـ ابنتى! . . في زمانكم هذا ، سيكون الذهاب الى امريكا كالذهاب الى الموصل! . . انتظرى سنوات قليلة فقط! . .

وكانت امريكا هي ابعد محل عندنا للسفر والدراسة! . .

لم اصدق بما قال ، وظننت انه يواسينى بسبب الامتناع عن سفرة برلين للدراسة! . .

قلت في نفسى :

- ما اكثر ما يقوله الاباء لاولادهم عن اشياء لن تحصل! . .

في كلية الطب في بغداد كانت هناك طالبات قليلات يدرسن فيها ، وقد وصلت الطالبة الاولى (ملك غنام) الى الصف الرابع وبعدها طالبات في الصفوف الثالثة والثانية أيضاً .

لم اجرأ على مناقشة والدي ابداً لئلا يتغير اتجاهه بالتعليم الجامعى ويمنعنى من الدراسة . لذلك قررت ان اطيعه رأساً ، وقدمت اوراق الدخول الى كلية الطب .

تذكرت ان والدي كان يقول لي وانا صبية صغيرة بأننى سأصبح طبيبة ،

وكنت دائماً اوافق على مايقول لأنني اردت الدراسة العالية دائماً . واذكر اثناء طفولتى ان احد عمومتى كان يهزأ مني بلطف ويقول بأنني ساصبح طبيبة في المستقبل واعالج (الحاجة) خالته ، (وهنا يبدأ بالتكلم معى بلسان اجنبى ، أي بالعربية المكسرة كما يتكلم الاطباء الانكليز عندنا) ، ويقول :

ـ هاجة ، انت يسير زين ، يسير زين ، لاتخاف من ابرة! . . .

(أي لاتخافى يا (حاجة) لانك سوف تتحسنين لا تخافي من الحقنة الجلدية!) ، وكأننى انا اقول ذلك لها عندما اصبح طبيبة واتكلم كالاجانب! . .

وكان الجميع يأنسون بكلامه هذا ويضحكون خاصة (الحاجة) نفسها .

في يوم المقابلة في كلية الطب ، رافقنى والدي الى المستشفى الملكى حيث تمت المقابلة في قاعة صغيرة قرب دار (التمريض الخاص) ودخل معى الى غرفة المقابلة حيث اجتمعت لجنة القبول . استقبل اعضاء اللجنة والدي بحفاوة كبيرة وفرح ظاهر ، لأنني اول فتاة مسلمة تتقدم لدخول الكلية .

وكان والدي يعرف اعضاء اللجنة شخصياً . كان الرئيس الدكتور (احمد قدرى) ومن الاعضاء الدكتور (عبد الرحمن الجوربه جى) والدكتور (مظفر الزهاوى) والدكتور (صبيح الوهبى) وطبيب انكليزى واحد .

خلعت العباءة ووضعتها جانباً ووقفت انظر اليهم . اخبرهم والدي رأساً بأن عمرى هو دون المعدل لئلا يعترضوا على ذلك في المستقبل ، كنت في سن السادسة عشرة وستة اشهر ، وكان العمر المقرر ثمانية عشر عاماً ، وذكر لهم اننى متخرجة من القسم الادبى ، ثم ابتسم وقال بأنها تميل الى الروايات والكتب الادبية .

وافقت اللجنة على قبولى رغم هذه العقبات رأساً وبكل سرور . نظر الى الدكتور (احمد قدرى) وقال بلهجته السورية :

ـ خلاص! . . لامحل للروايات والادبيات الآن . كل ذلك سوف ينتهى! . ثم استطرد يقول ، انه اثناء دراسته الطب في فرنسا ، سأله احد الطلاب ان كان قد قرأ رواية (مدام بوفارى) ، ولما كان جوابه سلباً ، سخر منه زميله . ولكن في نهاية السنة نجحت انا ورسب زميلى محب الكتب الادبية! . .

ساءنى هذا الكلام قليلاً بسبب حبى للروايات الادبية ، ولكنى لم اقل شيئاً .

اضاف الدكتور (احمد قدرى) بأن على ان ارتدى ملابس باكمام طويلة وياقات عالية والتنورة يجب ان تغطى الركبتين وتحتها لمسافة عدة اصابع .

بعد ذلك اجرى احد الاطباء فحصاً طبياً سريعاً وانا بكافة ملابسى جالسة على كرسى ، ويبدو انى اضطربت وبدأت اشعر بضربات النبض في اذنى . قال الدكتور :

ـ انك نحيفة جداً ، ويجوز عندك فقر دم! لكن هذا شيء بسيط نعالجه بسرعة! .

وكنت قد فقدت الكثير من وزنى اثناء الامتحانات النهائية واصبح لونى شاحباً .

طلب العميد من والدي ان يرسلنى الى محل لطيف لمدة اسبوعين حتى يحين فتح الدوام في الكلية .

وبهذا تم قبولى رأساً في كلية الطب برغم تخرجى من الفرع الادبى ، وكون عمرى اصغر من المعدل ، واحتمال وجود فقر الدم عندى ،

عدت مع والدي الى البيت واخبرنا الاخرين ان القبول قد تم . طلبت من والدي ان اذهب الى كركوك للراحة والاستجمام حتى يحين الدوام ، وتصورت انه سيرفض ، واذا به يوافق على الذهاب على شرط ان تذهب والدتي واخوتي معي .

ذهبنا جميعاً الى كركوك ، بعد خمسة اعوام من زيارتنا الاولى لهم ، وسعدت أمي برؤية اخواتها واقاربها ، ثم عادت الى بغداد ومعها الاولاد كلهم بعد ثلاث ايام لان المدارس سوف تفتح قريباً وتركتني في كركوك .

بقيت انا في كركوك ومعى احدى خالاتى لكي ترافقنى الى بغداد عند العودة . لم يخطر ببال احد بأنني وانا في سن السادسة عشر ، اتمكن من الرجوع الى بغداد بمفردى اذا اخذت قطار الصباح من كركوك والذى يصل بغداد مساء . ولا اظننى كنت اجرأ على ذلك بمفردى . كانت حياتى مرتبطة بالاخرين ، نذهب الى المدرسة صباحاً ونحن جماعة ، ونعود معاً ، واذا ذهبنا الى محل آخر نكون بصحبة الوالدة او مع احد الكبار .

قضيت في كركوك شهراً وأحداً لان الدوام تأخر في الكلية ، وكان شهراً جميلاً في ايلول . . . ذهبنا الى القرية عندهم اسمها (طوب زاوة) حيث يوجد بيت كبير وبسيط جداً داخل بستان جميل ويحيط بالبستان سور من الحجر يبلغ ارتفاعه مترين تفريباً . رأيت اشياء لم ارها من قبل ، مثلاً رأيت البطيخ الاحمر (الرقى) ينمو بعروق صغيرة تمتد على الارض . . .بينما في بغداد ، اراه بكثرة عند البقالين ، وأحياناً يكومونه على الرصيف ، ولكنى لم ادر انه ينمو وهو ملاصق للارض تقريباً . جلست مع ابنة خالتي على الحشيش وفتحنا البطيخة ، لم اذق الذ من تلك الثمرة! والغريب انها كانت باردة وحلوة رغم شروق الشمس عليها .

كذلك رأيت ارانب وغزلاناً تركض حرة في داخل وخارج البستان وهى ليست ملكاً لاحد . ورأيت الكثير من الطيور الكبيرة والصغيرة .

اخذت آكل بشهية كل ما يأتى من القرية من المأكولات ، وكنت احب اكل مناطق شمالى العراق من رز (النكازة) الى البرغل الى خبز التنور في البيت .

تعجب اهلى واقاربي في كركوك واستنكروا دخولى الى كلية مع الرجال ، خاصة النساء منهن . بدأن يسألنني :

- اتجلس فتاة شابة مثلك مع الفتيان للدراسة؟ والاخرى تسال :

- خلال سنة اذا تزوجت الآن سيكون لك طفل ، اليس هذا خير من الدراسة؟

ولم اكن اجادلهم على كلامهم هذا لأنني كنت سأعود الى بغداد ، وادخل الكلية وانسى كل ماقيل لي من حديث اهلنا في كركوك .

رجعت الى بغداد ومعى خالتي ، وسمعت مادار بين الاهل عن دخولى الكلية .

اعمامى لم نسمع منهم شيئاً لاخير ولاضير . والسبب هو احترامهم لوالدي وهو كبيرهم سناً ولكنني لم اسمع منهم تشجيعاً ولا ضّده . ولم نسمع شيء من اهلنا في جنيف . ولكن من فتح باب الجدال كان زوج عمتى (محمود رامز) وهو الشخص الذى اصر والدي عليه لكي يرسل بناته الى المدرسة قبل سنوات ، والان تخرجت ابنتاه ويقومان بالتدريس في المدارس الابتدائية والاب راض عن

ذلك . لكنه الآن يعترض على دخولى كلية الطب بسبب الاختلاط بين الجنسين . ارسل عمتى زوجته الى والدي وقال انه يحرم عليها دخول بيتنا اذا دخلت (سانحه) كلية الطب! . . .

لم يكترث والدي بكلام (محمود رامز) ولم يجادل اخته (عمتى) . تركها تتكلم ثم ذهبت الى بيتها .

عمتى لم تدخل بيتنا او ندخل الى بيتها لمدة ستة اعوام! . . .وكان هذا يدعو الى الاسف الشديد لأننا كنا نحب عمتى الوحيدة وهى تحبنا! . .

اصيبت عمتى بمرض داء السكر اثناء تخرجى من الكلية . طلب والدي ان اذهب ومعى اختى لمعان وكانت طالبة في كلية الطب أيضاً لزيارة عمتى بعد ستّ سنوات .بكت عمتى عندما رأتنا ! . . بدأت اذهب اليها يومياً لاعطائها زرقة الانسولين قبل ذهابى الى المستشفى . وهكذا بعد مرور ست سنوات زال الغضب عن محمود رامز وتصالح مع والدي! . .

الحرب العالمية الثانية

بعد وفاة الملك غازى باشهر قليلة ، واثناء العطلة الصيفية اعلنت الحرب بين بريطانيا والمانيا ودخلت فرنسا بجانب بريطانيا .

في البداية لم يحدث أي تغيير على الناس سوى دلائل طفيفة من جراء الحرب . ولم يحدث شيء بشأن تعبئة الجيش العراقى ، ولكن العلاقات مع المانيا قطعت وغادر سفير المانيا (الهر غروبا) العراق ، وسمعت بأن معلمنى في الثانوية ، الالمانية الشابة (الفراو هوبر) وزوجها غادرا العراق مع السفير أيضاً .

في الكلية ، كان معظم الطلاب الى جانب المانيا ويحبون (هتلر) ، بسبب قضية فلسطين بين العرب واليهود والسخط الذى اثارته بريطانيا في دعمها للقضية الصهيونية ، وكذلك خيانة الحلفاء للملك (الحسين بن على) ملك الحجاز بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن الطلاب حافظوا على دوامنا في الكلية ، بصورة منتظمة وهادئة وبقى احترامنا للاساتذة الانكليز كبيراً كما كان دائماً

اما بالنسبة لي فأن الدروس في هذه السنة ، وهى السنة الثالثة ، كانت نحو

دراسة العلوم الطبية الاصلية مثل (الباكتريولوجى) أي علم الجراثيم المرضية ، و(علم العقاقير الطبية اوالفارماكولوجى) و(الباثولوجى) وهو التخريبات المرضية في الجسم . كذلك بدأنا نرتاد ردهات المرضى ونسميها (القاوش) لكي نرى المريض ، ونفحصه ونتعلم الادوية التى تعطى له . ولقد وجدت هذه الدروس ليست فقط مفيدة ولكنها ملذة وتثير في النفس الكثير من الاسئلة والاجوبة ، وبدأنا نتناقش مع الطلاب حول الامراض ومعالجتها معظم الوقت . وكان ذلك سبب لمعرفة قابليات الطلاب فيما بيننا ودرجة معلوماتهم بصورة واقعية .

ظهرت النتائج في نهاية الامتحان الفصلى الاول واذا بي احصل على اعلى درجة في (الفارماكولوجى) أي علم العقاقير الطبية وثانى درجة في علم (البكتريولوجى) وكذلك في علم (الباثولوجى) . . .وقد هنأنى الاستاذ (بيتى) استاذ البكتريولوجى على ذلك! . .ومن ذلك الحين ، مشيت على هذا المستوى في كل الدروس الى ان تخرجت! . . .وقد شعرت بالفرح لهذا التفوق ، وكذلك شعر والدي بهذا الشعور ، وهو الذى كان يحس بأنني اتمكن من هذه المواضيع واتميز فيها اذا درستها بصورة وافية . وقد درستها بصورة وافية جداً الى النهاية! . .

في هذه السنة ، دخلت (لمعان) اختى الى الكلية الطبية ، وهى من الفرع العلمى في الثانوية ، وسارت في الدروس مثل الآخرين ونجحت بسهولة . كانت لمعان في الابتدائية والثانوية اما ان تكون الاولى او الثانية في كل سنة . اما في الكلية فقد كانت تنجح بدرجة عالية ولكنها لم تكن الاولى .

لقد افرحت (لمعان) والدي كونها الاولى في الصف الى نهاية الثانوية ، وافرحته انا في السنوات الاربعة من كلية الطب! . لقد كان هو (الاول) في الدراسة في الكلية العسكرية وسمى بأسم (امين باش) من قبل الطلاب ، وبقى يهتم (بالاولية) الى الاخير . لم تكن الاولية تهمنى ابداً ، لولا اهتمام والدي بها! . . .

الدراسة السريرية في ردهات المستشفى

اثناء الدراسة في الردهات وكنا نسميه الردهة (القاوش)، تعلمت الكثير من اللهجات المحلية في الارياف من الجنوب والى الشمال والى لكنات الاكراد المختلفة وهم يأتون من مناطق السليمانية او شمال لواء الموصل او من الفيلية قرب مدينة (مندلى) و(خانقين). لاحظت ان جميع هؤلاء الناس لم يعرفوا اعمارهم الحقيقة، وكنت اسمع بعض الاجوبة المضحكة بشأن العمر. اجابنى رجل يقارب الستين ان عمره اثنا عشرة عاماً، وفتاة في الرابعة عشر اجابت ان عمرها خمسون عاماً! . . وتعلمنا ان لانضحك على الاجوبة الغريبة من المريض.

القاوش او الردهة يضم مرضى دون اجور. كان المستوى على درجة عالية من النظافة، الفراش له اغطية قطنية بيضاء (شراشف) واحدة على الفراش والاخرى تحت البطانيات، وتوجد لكل مريض منضدة صغيرة لها دولاب الى الاسفل لوضع اشياء المريض الخاصة. واثناء الاكل يعطى لكل مريض صينية خاصة له فيها للاكل وملاعق للاستعمال. وتدور الممرضة الكبرى (المس كنكستون) بسرعة حول الردهات كلها اثناء الطعام. وكانت الممرضات العراقيات يقمن بدورهن تماماً، وهن مسيطرات على الوضع بكل جد وايمان. ولم نجد ممرضة جالسة دون عمل. اذا فرغت من اعمالها اليومية، فأنها تجلس مع ممرضات اخريات لكي يقمن بوضع القطن الطبى في محلاته واللفائف الجراحية حيث تبقى في الردهات حسب الطلب.

كان التفتيش اليومى للمستشفى دقيقاً وشاملاً.

مدير المستشفى وهو عميد كلية الطب كان الدكتور صائب شوكت، يبدأ بزيارة العيادات الخارجية، ثم الردهات كلها، ثم دائرة التمريض الخاص ثم مكتبة الكلية وبعدها يبدأ بعمله الخاص به. وبهذه الطريقة يرى الجميع يقومون بأعمالهم منذ الصباح الباكر.

في هذه السنة، حدث حادث اهتزت له الحكومة بشدة، ولكن الطلاب لم يهتموا به كثيراً. قتل وزير المالية (رستم حيدر). كان شخصية مهمة في البلد، وقد جاء من سوريا مع الملك فيصل الاول وبقى في العراق وتبوأ مراكز عديدة مع

الملك فيصل والملك غازى في البلاط الملكى ، وكان في هذا الوقت وزيراً للمالية . ولم نكن نحن الطلاب نعرف عنه الكثير ، لكن مقتله ادى الى ان تتعرض عائلتنا لهزة مخيفة . لقد توقف (صبيح نجيب) زوج اختى وابن خال والدي ومعه عمى (حسن فهمى) بالاضافة الى جماعة كبيرة منهم (ابراهيم كمال وعارف قفطان ونجيب الراوى) وغيرهم . افرج عن الجميع بعد ايام قليلة ماعدا (صبيح نجيب وابراهيم كمال) حكم عليهم بالسجن سنة واحدة ولكن اطلق سراحهم بعد فترة أيضاً .

والسبب في حكم صبيح نجيب كان غريباً . كان (صبيح) مدعواً الى مأدبة عشاء في بيت (حمدى الباجةجى) وكان نورى السعيد ورستم في المأدبة نفسها . دخل صبيح ووجد امامه صديقه الشيخ (بهاء الدين الشيخ سعيد) وهو معمم ، قد خلع عمامته فلم يعرفه صبيح للوهلة الاولى بدون عمامة ، ثم قال له ضاحكاً :

- متى اضع العمامة تعرفونى! . .

وهى كلمة معروفة عند الناس .

بعد العشاء تكلم (رستم) عن بعض الشؤن المالية مما اثار حنق (صبيح) وتلاسن الاثنان ومن جملة ماقاله صبيح لرستم :

- لم لاترجع الى بلادك؟ ويقصد سوريا . . .

بعد ايام قليلة قتل مفوض شرطة مفصول اسمه (ابراهيم حسين فوزى) رستم حيدر في مكتبه . انكر القاتل الجريمة اول الامر ثم غير افادته ووجه الامر الى الشخصيات التى زعم انها معادية للقتيل . وقد قيل ان نورى السعيد كان وراء توجيه تهمة التحريض الى بعض المسؤلين .

وقد دفن (رستم حيدر) في تكريم كبير الى جانب (جعفر العسكرى) في حديقة المقبرة الملكية .

ولم يعلم السبب في قتل (رستم) . انه كان في جانب الانكليز وضد (هتلر) والالمان! . .قالت جماعة من الناس ان بعض المتحمسين لقضية فلسطين في بغداد ، وهم ضد الانكليز ، ارادوا التخلص منه بسبب تأثيره الكبير على (طه الهاشمى) .

صدر الحكم باعدام قاتل رستم حيدر وقيل انهم اخبروا القاتل بقرار تنفيذ حكم الاعدام قيل دقائق من تنفيذه وان القاتل هتف بسقوط نورى السعيد قبل اعدامه .

رجع صبيح نجيب من السجن الى بيته ، وكان اول شخص يزوره في البيت هو نورى السعيد! . . .اثناء ذلك نزلت ابنة صبيح الكبرى (بثينة) وعمرها عشرة سنوات فناداها ابوها وهو يبتسم :

ـ تعالى سلمى على عمك ، ولو انه لايستحق السلام! . .

اثرت هذه الحادثة على (صبيح) ، اذ فقد الكثير من اهتمامه وعزيمته الدائبة في متابعة شؤون البلد وانصرف عن المجتمعات واخذ يهتم بامور مزرعة اخيه الاصغر كهواية تشغله عن الاخرين ولم يقترب من الجماعة العسكرية التى بدأت ترفع رأسها عالياً وتطغى ، حتى استولت على السلطة الكاملة! . .

في فصل الربيع ، تحركت الجيوش الالمانية في القارة الاوروبية ، ثم اخذت تقصف بريطانيا جوياً! . .اثار ذلك شباب العراق ، خاصة التحدي الالمانى للعالم الاستعمارى وعدائه للصهيونية ، وجعلت منزلة كبرى لحزب (النازى) في نفوس الشباب العربى . بدأنا جميعاً نقرأ الجرائد ونصغى للاذاعات وخاصة اذاعة (يونس بحرى) من المانيا وهو يبدأها :

- هنا برلين! . . حي العرب! . . .

كان الناس جميعاً يستمعون الى برلين كل مساء ، ليس فقط في العراق ، بل في سوريا ومصر والسودان وليبيا ودول شمالى افريقيا كلها .

احتلت جيوش هتلر البلجيك ، وهولندة والنرويج خلال ايام قصيرة . كانت الطائرات البريطانية تلقى المناشير على الجيوش الالمانية الغازية وعلى الجيش الفرنسى المهزوم! . . كان ذلك يثيرالضحك والسخرية بين الناس كلهم ، هتلر يلقى القنابل والانكليز يلقون المناشير! . .

عند دخول الالمان الى (باريس) عاصمة النور والمدنية ، ارتفعت منزلة هتلر في نفوس الناس الى درجات البطولة! . . وقد سمى بعض الناس اولادهم بأسم (هتلر) ولو انه اسم اجنبى غير اسلامي وغير عربى! . .

اخذ الناس يتابعون الاخبار يومياً .

كانت لوالدي خارطة كبيرة في مكتبه ، وكان بضع اشارات بعد كل موقعة ، مؤشراً تحركات الجيوش ولم تكن هناك تحركات سوى للجيش الالمانى وهو يكتسح البلاد . جيوش الحلفاء تتراجع ، والجيش الفرنسى يستسلم ، والجيش البريطانى ينهزم من ميناء (دنكرك)الفرنسى الى بلاده تاركاً ورائه جميع معداته واسلحته في فرنسا كغنيمة للالمان المنتصرين .

في بيتنا شخص واحد لم تغره هذه الانتصارات ، وكان ذلك والدي! . . انه وهو العسكرى العثمانى المدرب كان يعرف مدى قوة الانكليز ودهائهم! . .

تعلم الناس اسماء الغواصات وطرقها ، واصبحوا يعرفون الغواصات الالمانية مثل (يسمارك ، وكراف سبى ، وشارنهرست) وحاملات الطائرات البريطانية التى غرقت مثل (رويال اوك ، وآرك رويال) في البحر الابيض المتوسط .

وقد لاقى سقوط باريس كمدينة غير محصنة شعور الرهبة لجيوش هتلر ، لان الناس لم يفهموا سرعة انهيار الجيش الفرنسى الجبار واستسلامه المهين .

هلل معظم العرب لسقوط باريس بسبب احتلال فرنسا لسوريا وشمال افريقيا . واذكر قصبدة اظنها (لبدوى الجبل) يقول فيها متشفياً :

عشرون عاما شربنا الكأس مترعة باريس! . .خري وذوقي طعمهاالآنا! . .

اما في مصر ، حيث تلقى الكثير من الكتاب والشعراء العلم والادب في البلاد الفرنسية ، شق عليهم ذلك وكتبوا عن شعورهم في الجرائد المصرية بصورة واضحة . واذكر ما كتب احد الشعراء بكائية عن باريس في مجلة (الرسالة) تبدأ :

يسألوني عن يراعي وقصيدي؟ اسفاً باريس! . .قد مات نشيدي! . .

اظن الشاعر كان (على محمود طه) المهندس ، وهو صاحب قصيدة (الجندول) المشهورة ايضا .

واذكر ان الجميع تشفى بسقوط الجيش الفرنسى ، ولكنني حزنت على (باريس) ، مدينة النور والحرية واعلى مستويات الثقافة في العالم آنذاك! . .

ان استعمار الدول الغربية لمنطقتنا منذ الحرب العالمية الاولى بقي كضربة

هزت النفوس ، واهانت الدين الاسلامي والقومية العربية . لذلك اصبح (عدو عدوي ، صديقي! . .) ولم يفكر معظم الناس بأن (هتلر) نفسه يؤمن بسيادة العنصر الجرماني ، ويطمح باستعمار شعوب آسيا وافريقيا كلها! . .

بلادنا كانت جزء من منطقة لم يحكمها الاجنبى لمدة ثلاثة عشر قرناً ، اذ كانت تحكم بواسطة خلفاء الاسلام ، حتى لو كان الخليفة تركياً ، مثل خلفاء آل عثمان .

واثناء الحرب العالمية الاولى كان شيوخ العرب في العراق وهم مسلمون من الشيعة ، آزروا الخليفة المسلم وحاربوا ضد الانكليز . وكان الناس في الجوامع والمساجد يدعون بعد كل صلاة (الله ينصر السلطان) . واثناء الحرب الاولى ، انتقلت جماعة كبيرة من اكراد السليمانية الى الجنوب واختلطوا مع القبائل العربية ليظهروا استعدادهم للحرب ضد الاجنبى . واثناء الحماسة الكبرى للحرب كانت (هوسة) كبيرة للعرب والاكراد معاً ، وكان شيخ العرب اسمع (عبد الهادى) ، وشيخ الاكراد اسمه (الشيخ محمود بن كاكة احمد الشيخ) وكانت الناس تغنى للاثنين :

ثلثين الجنة (لهادينا) ،

وثلث (لكاكة احمد) واكراده ،

هكذا كانت الروح في البلاد . ولذلك اصبحت اهانة الحلفاء من قبل (يونس بحرى) علناً في راديو برلين ، وكأنها تنطق بما تريد ان تقوله جماهير الناس للحلفاء طيلة الوقت .

كان يونس بحرى يذيع وكأنه يتحدى العالم كلما سقطت عاصمة اوروبية امام جحافل هتلر ، او اذا غرقت احدى البوارج البريطانية . وتعلم الطلاب منه ان يسموا رئيس وزراء بريطانيا (شرشل الخرف) ، وكان يونس بحري يصب جام غضبه على الامير عبد الآله وعمه الامير عبد الله امير شرقى الاردن ، وعلى نورى السعيد ، وجميل المدفعى وعلي جودت ، ويثير قضية وفاة الملك غازى ، ويحرض الجماهير في مصر والعراق وشرقى الاردن ضد الحلفاء .

برز اسم (ديغول) كقائد فرنسى يرفض استسلام فرنسا لهتلر ، والتجأ الى

الجانب البريطاني لكي يحارب بجانبهم . وبدأ الطلاب يشبهونه بشخص يحاول عبثاً مناطحة هتلر، جبار العصر! . .اصبح اسم ديغول يثير الرثاء بين الطلاب! . .

اما اذاعة (لندن) فقد كانت تعطى الاخبار كما هي ، وتعلن ان غرقت احدى بوارجها الكبيرة او طائراتها بلغة خالية من اثارة العواطف او الشتائم او التهريج . ولم يكن لديها ماتثير به عواطف الناس ، لم يكن لديها سوى الخسارة مصحوبة بالصمود البريطانى المتين! . .

في العائلة عندنا ، عاد زوج اختى (صبيح نجيب) وعائلته الى بغداد ، وقد تعين بمنصب المدير العام لوزارة الخارجية . فرحنا جداً بعودتهم بعد مدة تقارب ثلاث سنوات . رأيت اختى قد فقدت الكثير من وزنها وتتحرك بسرعة ورشاقة وتعلمت الكثير من اللغة الفرنسية التى درستها في مدرسة الراهبات في بغداد . ولكنني تفاجئت بأن الاولاد الثلاثة كانوا يتكلمون اللغة الفرنسية مع والديهم ومع المربية السويسرية التى اتت معهم ، وقد نسوا العربية تماماً! . .ولحسن حظى وجدت ان اللغة الالمانية التى تعلمتها في المدرسة الثانوية كانت كافية ان اتكلم معهم لانهم تعلموها في برلين ثم نسوا الكثير منها . كذلك كنت اكلم المربية السويسرية باللغة الالمانية . وقد افادنى ذلك بأن استعيد ماتعلمته من اللغة الالمانية واكثر ، وصرت اتكلم بسهولة وطلاقة ولكن بلغة بسيطة .

تأثر الجميع من عدم تمكنهم الكلام مع الاطفال خاصة جدتهم الحاجة (ام صبيح) . والدي بدأ يتكلم الفرنسية مع الاطفال ولم يكن هناك الكثير من ناطقى الفرنسية في العائلة لمحادثتهم .

الاطفال فقد كبروا كثيراً واصبحت وجوههم وردية مثل اطفال جبال الالب . الكبرى (بثينة) في سن الثامنة واختها (سهيلة) في السابعة من العمر و(زهير) وعمره خمسة سنوات .

وقد بقيت المربية السويسرية مدة سنتين ثم رجعت الى بلادها ، وتعلم الاطفال لغتهم العربية ولكنهم حافظوا على الفرنسية بواسطة قراءة الكتب الى الاخير .

بعد فترة قصيرة ، ابدل المدفعى بعض اعضاء الوزارة وعين (صبيح نجيب) وزيراً

للدفاع ، وطلب من (صبيح) ان يتشدد مع (الضباط الاربعة) الذين اصبحوا في مركز قوى جداً في العراق بعد مقتل بكر صدقي ولم اكن ادري لم كان ذلك .

والضباط الاربعة كانوا من العقداء وهم (صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد) .

كان صبيح ذو شخصية قوية ، وفى ايام شبابه ، ايام الثورة العربية كان الشريف الامير فيصل ابن الحسين يدعوه مازحاً (هندنبرج) بأسم القائد الالمانى ايام الحرب الاولى . لأعتداده الكبير بنفسه وبمعلوماته ، وبقى الامير (زيد) وهو صديق قديم لصبيح يناديه مزاحاً بهندنبورج دائماً . وكان الملك (غازى) يحب (صبيح) ويحترمه لان صبيح كان احد اساتذة غازى في الكلية العسكرية .

عندما اصبح (صبيح نجيب) وزيراً للدفاع ، يبدو انه لم يعرف الى أي درجة وصل التمرد والتنمر بين هؤلاء الضباط الاربعة ، وتصور انه سوف يتمكن عليهم ، وذلك بتغيير مراكزهم في الجيش وابعادهم الواحد عن الآخر .

سمعت والدي يقول ان الضباط بحاجة الى درس من (صبيح) لكي يدخلوا في طاعة الحكومة . سألت والدي :

ـ وهل يتمكن منهم؟اجاب والدي :

ـ دون شك! . . .انهم كضباط ، لايقارنوا بصبيح! . .

اغاظ جماعة الضباط الاربعة تعيين (صبيح) وزيراً للدفاع رغم ان (صبيح) كان رئيساً لكلية الاركان العراقية في السابق ، وكان اكبر منهم مركزاً في الجيش . بدأ الضباط الاربعة يقولون ان (صبيحاً) كان خارج الجيش واشتغل في الشرطة وفي وزارة الخارجية لعدة سنوات ، وبأنه كان متحكماً ومغروراً! . .

خاف جماعة الضباط الاربعة من (صبيح) وجرأته ، واسرعوا بانتفاضة كبيرة ، واقدموا على انذار القوات التى تحت امرتهم ان تتزود بالسلاح وان تحتل النقاط الرئيسية في بغداد ، واتصلوا بالمدفعى وطلبوا منه ان يغير بعض الاشياء واهمها تغيير (صبيح نجيب) ووضع (طه الهاشمى) وزيراً للدفاع بدله .

لم يتمكن المدفعى من الاستجابة للضباط وخاف من احتمال سفك الدماء وهو الرجل الذى يتصف بالاناة والحلم والاعتدال ، لذلك قدم استقالته الى

الملك ، وفقد (صبيح) وزارة الدفاع والسلطة للوقوف امام الضباط! . . .

وقد عاد الى وزارة الخارجية برتبة المدير العام .

اسندت الوزارة الجديدة الى السيد نورى السعيد ، وكان يسند الضباط الاربعة بشدة .

سمعت من (صبيح نجيب) ان نورى السعيد هو من اوائل من وضعوا اسس تدخل الجيش في السياسة منذ نجاح انقلاب بكر صدقى . وقد اصطفى هؤلاء الاربعة لتنقيذ مؤامراته وتطلعاته ، ولولاه لما تمكنوا من هذه الجرأة على الحكومة . وانه هو الذى دفع (بصلاح الدين الصباغ) وجماعته وأزرهم لكي يصبح رئيساً للوزراء وينتقم من كل الذين آزروا (بكر صدقى) كبارهم وصغارهم! . . .

اما وضعنا في الكلية بعد امتحانات الاكمال في شهر ايلول ، فقد انفصلت اثنتان من الطالبات من الكلية بسبب رسونهن في الدروس الثلاث ، اما انا ، فلحسن الحظ اولسوئه ،نجحت في درس واحد ، هو درس الفيزياء ، ولهذا بقيت في الدوام سنة ثانية في الصف الاول لادرس مادتى الكيمباء والبيولوجى مرة ثانية ، واعفيت من درس الفيزياء لأنني نجحت في الامتحان به فقط! . . يبدو ان كرهى لدرس الفيزياء جعلنى اهتم به اكثر من الدروس الاخرى .

طلبت من والدي ان يرسلنى الى الجامعة في بيروت مرة ثانية ، لم يوافق وقال اننى سأكون فيوضع احسن في هذه السنة . لاادرى سبب حبه لدراسة الطب! . . . ولاادرى ، لماذا لم يدرس الطب في بداية حياته ليصبح طبيباً وارتاح! . .

هكذا بقيت لاول مرة في نفس الصف! . .

هل شعرت بالخجل والنقص؟ ابداً! . .

لم اشعر بالنقص لأنني كنت ـ مقتنعة بأنني اعيد السنة لاسباب واضحة . لقد دخلت كلية الطب ولم اكن متهيأة لذلك! . .وقد حفزنى ذلك على الدراسة والاهتمام بحيث تبدلت الامور كلها في السنوات المقبلة! . . .

دخلت مجموعة من الطالبات الجديدات حوالى التسعة او العشرة واذكر اثنتبن من الارمن ، واربعة من اليهود واربعة من المسلمات وكلهن من الفرع

(العلمى) . ان الصف الادبى في الثانوية اختفى مع تخرجنا وذهاب الست (امت) الى دار المعلمات ، واصبح الفرع علمياً فقط .

بدأت الدراسة في السنة الجديدة ووجدت نفسى اسير مع الطلبة بسهولة . اسفت لابتعادى عن صديقتى في السنة السابقة (لطيفة) ، رغم فرحى بنجاحها الى الصف الثانى ، وصرت اراها اقل من الماضى وكان جزء من اعجابى بالكلية هي وجودها معى بوجهها الباسم ومزاحها الذهني الذكى في كل ماتقول .

لحسن الحظ دخلت طالبة الى الكلية اعرفها جيداً منذ سنوات الابتدائية ، وهى (امت الزهاوى) وقد تخرجت من القسم العلمي في الثانوية واصبحنا صديقتان نشتغل معاً في الدروس العملية . وبقدر ماكنت امزح واضحك مع (لطيفة) اثناء العمل معها في السنة الماضية كان كلامى مع (امت) مختلف جداً . كنا نتحدث عن الدروس والمحاضرات في الكلية ونتناقش كثيراً .

بدأنا ندخل في قضايا اجتماعية كبيرة كنا نرى اننا نتمكن من تعديلها واصلاحها . كنا نجد ان الحرية الكاملة التى يتمتع بها الرجال ، والطريقة السلبية التى تعيشها الفتاة لاتحتمل! . . .بدأنا نحس بأننا سوف نتمكن من رفع شأن المرأة ، ونرى انه لاحد لقدرتنا في الاصلاح عندما (يحين الوقت! . . .) .

لم نكن ندرى بالضبط عن (هذا الوقت الذي سيحين) ، فكرنا ان (الناس) سوف تسمع منا وتقتنع واننا سوف نبدل المحيط كله! . . .كنا نشجع بعضنا البعض وكبرت عندنا (الأنا) الى درجة عظيمة ، اصبحنا نرى الطلبة الاخرين وكأنهم لاهم عندهم سوى الدروس والامتحانات! . . اما(نحن!) . فسوف ندافع عن حقوق المرأة ونغير المحيط مهما كلف الامر! . .

الدروس اخذت الامور تسير بصورة طبيعية ، وفى احد الدروس في (الكيمياء العضوية) ، امتحنا الاستاذ (هوكنز) المتشدد المخيف ، واتت النتائج -وقد حصلت على اعلى درجة في الامتحان الفصلى! . . . قرأ الاستاذ درجتي وقال :

- كيف رسبت في درس الكيمياء قي الماضي ، والان تنالين اعلى درجة؟

قالها امام جميع الطلاب في الصف! . .

كانت هذه الخطوة التي دفعتني الى الامام! . . .

دخلنا الامتحان النهائى وعبرت الى الصف الثانى بنجاح .

فرح والدي بنجاحي ، وقال ان الصعوبة اختفت وزال تأثير الصف الادبي في الثانوية ومن الآن وصاعداً يجب ان امشى مع الصف بسهولة .

في الصف الثانى كان عندنا درسان هما التشريح والفسيولوجى ، ووجدت الدرسين كما يجده الاخرين دروس ملذة وتحتاج الى ساعات طويلة في اليوم .

كنت ارجع الى البيت والساعة تقارب الرابعة بعد الظهر ، وادرس حوالى الساعتين في البيت في اول المساء لكي اتمكن من النوم في العاشرة ليلاً .

جلبت الى البيت جمجمة بشرية وعظام من اليد والرجل في شنطة جلدية ، ارتاعت أمي من ذلك وبقيت تفكر بالشخص الميت وسهولة الحصول على عظامه لانه فقير! . .طلبت مني ان اضع العظام جميعاً في دولاب في غرفتى واقفله لانها لاتريد رؤية العظام امامها! . .

الامتحان النهائى لدرس التشريح كذلك الفسيولوجى مع فروعه العملية الثلاث في نهاية السنة الثانية . كان استاذ الفسيولوجى (الدكتور والتر كندى) هو زوج مديرتنا في الثانوية (مسز كندى) . وكنا نراها أحياناً تآتى وتذهب عن طريق المستشفى لان بيتهم ملاصق للمستشفى . وقد ولدت ابنها الاول في بغداد .

كان يشتغل مع الاستاذ (كندى) في الدروس العملية الدكتور (كرجى ربيع) وكان مدرساً ممتازاً وطبيباً ماهراً جداً .

استاذ التشريح كان من اسكوتلاندة واسمه (هندرسن) وهو لطيف في المعاملة ولكنه شديد في الدرجات .

في الامتحان النهائى للصف الثانى ، إجتزت الامتحان بسهولة وبدرجات عالية .

الرياضة في الكلية

كنت وصديقتى (امت) نحب الرياضة منذ الدراسة الابتدائية والثانوية وكنا تشترك في مختلف الالعاب بفرح وبهجة لايعادلها شيء اثناء ذلك! . .

تبدلت الامور في الكلية . والسبب الاول هو الوقت ، كنا نحضر محاضرات

عدة مرات في اليوم وتعقبها المختبرات الكثيرة والعمل في قاعة التشريح وكلها داخل الابواب ولانرى الشمس الا من شبابيك هذه القاعات ما عدا خروجنا في ساعة الغداء حيث نجلس في الحديقة ونتمتع برؤية الشمس ونرى الغيوم والاشجار ونشم هواء حراً عليلاً ، ما عدا ايام المطر حيث نجلس داخل المطعم ، وكذلك في ايام الصيف الحارة .

اصابنا الملل والكسل من هذه الراحة الجسدية الاجبارية ، وسببها كلها هو الاختلاط بين الطلاب والطالبات اذ كيف نلعب الرياضة تحت اعين الطلاب؟ جلسنا نحن الاثنتين وقررنا ان نبدأ بحركة رياضية تقوم بانعاشنا مهما كانت ضئيلة . كانت هناك ساحة واجدة للتنس مهجورة لم نشاهد أحداً يأتى اليها . قررنا ان نبدأ بهذه الساحة ونطلب من العمادة الموافقة على ترميمها ، وقد توفقنا في ذلك . كانت لدى مضرب تنس قديم كنت استعمله اثناء الثانوية حيث كنا نلعب التنس في بيت الست (ناهدة) واختها(مائدة) الحيدرى . وقد تدربت على هذه اللعبة واصولها بصورة حسنة . اما (امت) فلم تكن تعرف هذه اللعبة ولكن حماسها كان كبيراً .

لم ندرى ماذا نقول في البيت ، لان الكلية مختلطة وقد لايرضى الاب عن ذلك . في تلك الليلة كنا في بيت اختى الكبرى وفكرت ان افتح الموضوع بين الجميع لئلا اسمع الانتقادات فيما بعد . فتحت الموضوع واذا (بعمى صبيح) زوج اختى ينهض ويجلب مضرباً جديداً واعطاه الى . اسرعت وخابرت (امت) ، ولااذكر كيف حصلت هي على المضرب الجديد بسرعة ولكننا جلبنا المضارب وخبئناها داخل الدولاب الصغير الخاص في الممشى في الكلية حيث يضع كل طالب اغراضه الخاصة داخل دولابه . قررنا ان نأتى ساعة واحدة قبل المحاضرة الاولى التى تبدأ في الساعة التاسعة ونلعب التنس ثم نقفل المضرب والكرات واحذية التنس في الدولاب ونحضر المحاضرة .

وقد فعلنا ذلك بسهولة ، واخذنا نلعب التنس يومياً في الصباح! . .

وبمناسبة اصلاح ساحة التنس ، بدأ الطلاب الاخرون يلعبون بدورهم ، واخذ البعض يأتى مثلنا قبل المحاضرة الاولى لكي يلعب .

كانت ساحات التنس قديمة متروكة تركها الانكليز منذ سنوات .
اتصلنا بالدكتور(عبد المجيد القصاب) وهو وكيل العميد للطلاب وطلبنا تشكيل فرقة رياضية لكي نتمكن من جمع المال وصرفه على ساحات التنس العتيقة . وقد وافق الدكتور القصاب على طلبنا واجرينا انتخابات خاصة للرياضة انتهت بفوزى مع الفتيان الخمسة .
اشتغلت مع الطالب احمد الشماع بجمع التبرعات من الاساتذة كلهم ، وقد ابدوا المساعدة التامة مع المديح لعملنا وكان من تبرع بالسهم الاكبرهما الدكتور صائب شوكت والدكتور سندرسن بصورة خاصة .
خلال ايام قليلة قام الطالب احمد الشماع بشراء الادوات كالطين الاحمر والجدار المشبك التي احاط الساحات وشبكات التنس وباب حديدية من المشبكات يمكن قفلها في النهاية لئلا يدخل الساحة احد من الخارج وكتبنا على الباب الفضية اللون كلمة :
(العقل السليم في الجسم السليم) باللون الاحمر القاني .
تمكنا من تعمير ثلاث ساحات تنس جديدة ووضعنا بعض المساطب اطرافها من الخارج .
اخذت الطالبات يلعبن التنس مع الطلاب أيضاً واذكر اللواتي كن يلعبن التنس بكثرة الى ما بعد التخرج انا وامت الزهاوي وأصتغيك طوقاليان وسمحة شينا وأمنة صبري مراد وجوزفين عبودي شابى والكثيرات غيرهن .
كان بعض لاعبي التنس من الطلاب على مستويات رفيعة باللعب واذكر منهم صبري عبد الاحد واحمد الشماع وداود مسيح وامين جريديني وغيرهم ممن لا تحضرني اسمائهم الآن . وقد تبرعت (المسز سندرسن) بكاس لمن يفوز بهذه اللعبة كل سنة وازدحمت اللعبة بالمتنافسين لهذه البطولة .
واشترت الفرقة الرياضية طاولة للعبة تنس المنضدة (البنك بونك) ، واصبحت اللعبة المرغوبة من الجميع لسهولتها . واصبحنا نلعب هذه اللعبة بعد الغداء مباشرة . وقلت الرغبة في الانعزال بين الطالبات والطلاب واصبحنا نعرف بعضنا اكثر .

وبدأت المسابقات اليومية في التنس وكرة المنضدة تسير بصورة طبيعية ومنتظمة .

تشكلت بعد ذلك فرقة كرة الطائرة وقد لعبت الطالبات هذه اللعبة في وسط تشجيع الطلاب .

سمعنا قصيدة لاحدى الطالبات الجميلات نظمها طالب مفصول من الكلية لرسوبه المتواصل وكان بالرغم من طيبته رث الشكل وذو شعريحتاج للمشط والفرشاة ولكنه شاعر يصغي الجميع لقصائده .

والقصيدة رجز عن طالبة كانت تلعب الكرة الطائرة وهي ترتدي صليباً ذهبياً حول عنقها اذكر منها بعض الابيات :

قد شغلتْ عنكِ عيون الجمعِ　　بالاذرع البضة ذات اللمعِ
وارتعش الصليب في عناقها　　يا ويحه اصبح من عشاقها
يا ليتني كنت انا الصليبُ　　اشمُ نحراً قاع منه الطيب

الملك غازي

بعد سقوط وزارة ياسين الهاشمى ، وبعد مقتل بكر صدقى ، اخذت اخبار الملك غازى تجذب وتخلب قلوب الناس ، مثل وطنيته الكبيرة وفروسيته الرائعة ، وسياقة السيارات بسرعة هائلة ، والسباحة والتزحلق على الماء ، وصيد الطيور والحيوانات ، وحبه للطيران وبراعته فيه .

والملك استقطب حب الناس له بصورة خاصة بسبب اذاعته الخاصة التي كان يذيعها من بناية (الحارثية) قرب قصر (الزهور) كان الملك غازي يتكلم من الاذاعة بنفسه احياناً .

كان يطالب بالكويت ، التي كانت جزء من ولاية البصرة في ايام الدولة العثمانية . وكذلك كان يناصر اهل فلسطين ضد القوى الصهيونية مناصرة قوية ، والمفروض ان بريطانيا تؤازر القوى الصهيونية منذ البداية . هذا ماجعل الناس تعتقد ان بريطانيا تكره الملك غازي والملك يكره بريطانيا .

كل هذا جعل الشباب ينظرون الى الملك (غازى) كمثل اعلى لهم! . . .

كان حب الناس للملك كبيراً بحيث انهم سمعوا ان الملك ، وكان يحب الضحك والمزاح ، كان يمزح مع (صباح) وهو ابن نورى السعيد الوحيد ، وكان صباح طياراً ممتازاً ، اذ اقنعه الملك ان يصطحب معه احد العبيد الذى يخاف من ركوب الطائرة ان يركب في طائرة مع (صباح) ويطير به الى الاعلى .

كان الملك يراقبهم من الارض وهو يضحك . يبدو ان العبد ابدى الاضطراب والخوف في الطائرة صغيرة ، مع (صباح) بدرجة ان الطائرة اضطربت ثم سقطت الى الارض! . . ولكن الله حفظ حياة (صباح) والعبد معه ولم يصب (صباح) الا بكسور في العظام .

اما الناس فقد وجدوا تصرفات الملك الشاب لطيفة في كل مايعمل ، ولم يلمه أحداً على هذا التصرف الصبيانى مع (صباح) او غيره! . .

وقد حدثت هذه الحادثة في ايام وزارة (ياسين الهاشمى) ، وجعلت (نورى السعيد) ان يسرع في زواج ولده الوحيد حالما يشفى من الكسور .

تزوج (صباح) من (عصمت) كما مر ذكره وهى شابة مصرية حسناء ومثقفة وابنة (على فهمى باشا) في مصر . وقد تمت الخطبة في استانبول واقيمت حفلة العرس في بغداد .

وقد كتبت الجرائد كلها عن الزواج ودعت (لصباح) بالهناء والرفاه .

دام حكم (الملك غازى) ستة سنوات ، وكان الجيش والناس وخاصة الطلاب باختلاف اعمارهم يحبون الملك وكأنه واحد منهم .

ولم اره عن قرب ابداً . لم يزرنا ، لا في ايام المدرسة ، ولا في كلية الطب .

رأيته في حفلات الكشافة وهويجلس في الشرفة الملكية ، وكذلك في الشوارع عندما يمر بسيارته في طريقه الى البلاط الملكى ، وامامه جندى يركب عجلة بخارية . وكان الملك يرتدى نظارات قاتمة دائماً ، ويرفع يده وهوفي السيارة يحيى الناس في الشوارع ويبتسم ، وكانت ابتسامته تسحر الشعب! . .

كنت اشاهد الناس تقف على جانبى الشارع للتحية والتصفيق للملك وهم من اصحاب الحوانيت يخرجون الى خارج الحانوت لمشاهدة الملك وتحيته . اما الطلاب صبياناً وبنات فيقفون على الرصيف وقفة عسكرية ويأدون التحية

العسكرية وهم في اقصى حالات الفخر والزهو! . . .وكنت انا اراه المثل الاعلى في البلد ، وان مستقبله حافل بالآمال الجسام للعراق .

كان حب الملك بالنسبه للطلاب يصل الى درجة التقديس! . . وصور الملك بدأت تظهر في الصحف يومياً! . . . فهو اما فوق جواده الابيض ، واما في ميدان سباق الخيل الملكى واما في سيارة مفتوحة جميلة ، او في احدى الطائرات ، او يتزحلق فوق نهر دجلة! . .

استقال جميل المدفعى في نهاية السنة ، وشكل (نورى السعيد) الوزارة في بداية السنة الجديدة . وبعد ايام قليلة قرأنا في الجرائد كلها وجود مؤامرة كبرى يديرها (حكمت سليمان) لقتل الملك غازى اثناء مأدبة كبرى تقام في قصر الامير (عبد الأله) . كان شاهد الاتهام في هذه المؤامرة هو الامير عبد الآله نفسه! . . وقيل ان الامير استند في شهادته على ما اخبره به ضابط اسمه (حلمى عبد الكريم) ، وهو من اقارب نورى السعيد . وكان حلمى يسكن في بيت امام دارنا في شارع الفضل آنذاك ، وهو ، أي حلمى عبد الكريم ، سمع (نورى) يهدد كل من له علاقة بمؤامرة (بكر صدقى) وبمقتل (جعفر العسكرى) . وان المؤامرة تشمل قتل خمسين من الناس من بينهم الملك غازى وتنصيب (عبد الآله) في مكانه .

قرأنا الاخبار العجيبة ، ولم نصدقها! . .

من الذى يتآمر على الملك غازى وهو حبيب الشعب البطل ، . . . .ولأجل من؟ . .الامير (عبد الآله)! . . .وهو الذى لم يكن معروفاً بين الشعب ، والقلة الذين يعرفون عنه ، انه ابن عم الملك غازى وابوه الملك (على) بن الحسين ، وانه شاب خجول ووسيم الشكل ، وهو موظف في وزارة الخارجية ، وانه درس في (كلية فكتوريا) في مصر وتركها قبل ان يحصل على شهادة التخرج منها! . . .

من الذى يفكر ان يبدل الملك البطل بشخص غير معروف تقريباً! . .لو ان الملك غازى عاش ، لبقى (عبد الآله) كموظف في الخارجبة ، يعيش حياته الخاصة ويموت دون ان يشعر به الآخرون ويحمل لقبه الشريف او الامير مثل حال الامراء من اقاربه ، كما في العائلات المالكة في بلاد العالم! . . .

واذكر ان احد اقاربنا ، وهو شاب يمزح ويهزل من كل شيء يراه ، سألته عما

رأى في حفلة استعراض الجيش في يوم ميلاد غازى الاخير ، واذا به يقول وبلهجة الجد والفخر :

- الملك! . .الملك الذى كان يمتطى حصانه في ذلك الاستعراض . . كان اجمل واكثر جلالة من أي شيء آخر! . .

قالها واغرورقت عيناه بدموع العاطفة والمحبة .

قلت في نفسى آنذاك ، اذا احبه هذا الشخص المثقف الساخر الذى يهزأ بكل الاشياء تقريباً وبهذه الدرجة العميقة ، فالناس الاخرين يجب ان يعبدوه محبة واعزازاً . . . افرحنى ذلك الشعور .

تذكرت قصيدة عامية نظمها (الملا عبود الكرخى) في يوم ميلاد الملك الاخير ، اذكر منها شطراً يقول فيه :

آني اتعجب على نجم الفلكْ

يشوفك تشوفه ، ولا ينزل الك؟

وقد حفظ بعض الناس تلك القصيدة اللطيفة وتندروا بها! . .

في الكلية عندنا ، اجمع الطلاب جميعاً ان حديث المؤامرة سخيف جداً ولا يستحق ان نهتم به .

ولكن قرأنا في الجرائد بعد ذلك ان الحكومة بدأت بمحاكمة المتآمرين وكان عددهم كبيراً ، واولهم (حكمت سليمان) و(حلمى عبد الكريم) واشخاصاً آخرين ، وحكم على بعضهم بالاعدام ثم استبدلت العقوبة الى لاشغال الشاقة لمدة سنوات متفاوتة .

- ظن الجميع ان المؤامرة كاذبة وانها بدأت لمعاقبة الناس الذين تآزروا مع (بكر صدقى) في انقلابه وقتلوا (جعفر العسكرى) ، وان نورى السعيد لم يوافق على سياسة جميل المدفعى في اسدال الستار على مؤامرة (بكر صدقى وحكمت سليمان ،) والان حان وقت (نورى) للانتقام من المتآمرين! . . .

في يوم ٤ نيسان أي يوم وفاة الملك غازى تبدلت حالة الشعب كله! . .

هنا ، ساحاول ان اتمكن ان اصف ذلك اليوم بمعظم ما حدث لي وانا في سن التاسعة عشر . . .

في الصباح كنت اسير في الطريق الى الكلية وكنت على عجلة من امرى ولم اجد (عربة) للذهاب بسرعة ، وكان الطريق الى الكلية يستغرق حوالى عشرين دقيقة مشياً . كانت طلائع الحر بدأت في الجو . في نهاية الشارع حيث يتصل شارع (الفضل) بشارع (الرشيد) في منطقة (الصابونجية) سمعت صراخ شابة من احد البيوت ، وكان الباب مفتوحاً والفتاة تصرخ بصوت عالى :

- مات! . .مات! . .

وكانت الفتاة جالسة على الارض ولم يكن قربها احد وذلك غريب ، وسمعت صوت امرأة تكلمها من الطابق الاعلى .

واصلت سيرى مسرعة باتجاه الكلية ، وظننت بأن المسكينة فقدت احد اقاربها .

دخلت البوابة الخارجية للمستشفى ووصلت بوابة الكلية ، واذا بصوت رجل يقول :

- واغازياه! . .

ظننت الشخص يكرر ما كتبه الكاتب (على الطنطاوى) قبل ايام قليلة في مجلة (الرسالة) المصرية ، وهو يستحث الملك غازى ان يفعل شيئاً في قضية سوريا ، وكتب المقالة تحت عنوان (واغازياه! . .) على وزن (وا معتصماه! . .) .

لم اهتم بهذا الكلام . وصلت باب سكرتير العميد المفتوح دائماً ولمحت الدكتور

(عبد الهادى الباجه جى) يستمع الى السكرتير ويتهاوى على الكرسى وكأنه اصابته صدمة وهو يقول :

- شلون؟ متى؟

اسرعت في طريقى الى قاعة المحاضرات واذا الوجوه واجمة ، شاحبة ، وسمعت من قال : الملك مات! . .

اصابتنى البهتة ، والتجم لساني . لم اصدق! . .

كان الطلاب في القاعة يسودهم السكون ، وهم بحالة عدم تصديق للخبر! . . لقد سمعوا الخبر تواً .

كان الحادث المروع قد حدث ليلا ، ولم يعرف الناس الخبر حتى الصباح! . . .

وجدت نفسى اتبع الطالبة (نورا زيتون رمضاني) وهى في الصف الثالث ، الى قاعة فارغة وجلست امامى تحكى لي عما سمعته عن موت الملك وانا اصغى دون ان اسمع . لم افهم شيئا من اقوالها! . .كنت نصف واعية! . .

طلبت احدى الطالبات من سكرتبر الكلية سيارة للذهاب الى (قصر الزهور) في جانب (الكرخ) وعلى مسافة اميال من الكلية الطبية ، لتقديم العزاء الى الملكة . جلست في السيارة مع الطالبات .

تقديم العزاء الى الملكة! . . .

كنا نحن بحاجة الى تعزية! . . شعرت وكأن شيئاً من نفسى قد تقطع ، وأن شيئاً قد مات في داخلى! . .شعرت ان الوطن قد فرغ تماماً وخلا واصبح كالصحراء الموحشة! . .

سارت بنا السيارة وكنا ستة طالبات نرتدى ملابس الكلية الطبية الخاصة . كنا ثلاث مسلمات واثنتين من اليهود وواحدة مسيحية . وكان الاسى والحزن مرسوما على وجوهنا الشاحبة كلها . . .

في الشوارع ، الناس كانت تسير على غير هدى والكل في حالة ذهول ودهشة لاحد لها! . . .

دخلنا بوابة (قصر الزهور) ، ووقفنا امام الباب الكبير ، واذا باستقبالنا مديرتنا القديمة (الست امت السعيد) مديرة (دار المعلمات) وهى صديقة للملكة واخواتها الاميرات . ويبدو ان (الست امت) كانت تسيطر على مايجرى في القصر بكل كفائة كعادتها . قادتنا الى غرفة كبيرة واخذتنا الى المكان التى تجلس فيه الملكة (عالية) ، وقفنا امامها! . .

كانت الغرفة خالية من الاثاث والمقاعد المرتفعة على عادة العراقيين في الحداد ، ومفروشة بمراتب فوق السجاد على الارض ، وكانت الملكة جالسة على احدى المراتب وحولها اخواتها الثلاثة ، والغرفة مليئة بعشرات من السيدات كلهن يتشحن بالملابس السوداء . لم يكن هنالك محل لجلوسنا .

وقفنا امام الملكة ورؤسنا مطرقة . رفعت الملكة عيونها الينا والدموع تترقرق

فيها وهزت رأسها شاكرة بحزن واسى . انحنت الطالبة (نورا زيتون رمضانى) الى الاسفل نحو الملكة وتمتمت بعض كلمات العزاء بالنيابة عنا جميعاً وقد كانت هي الاحسن من يتكلم بيننا في هذا الوضع .

اما انا ، فكنت وكأننى فقدت السمع والكلام ، لم اسمع ماقالت الملكة ولا كلام الطالبة (نورا) .

اخذتنا (الست امت) الى الغرفة المجاورة ، وفيها أيضاً عدد كبير من النساء ، وفيها كراسى للجلوس . جلسنا على الكراسى وقدمت لنا القهوة العربية .

خرجنا الى الحديقة وتوجهنا الى السيارة المشؤمة ، وهى على مسافة قصيرة من القصر .

كانت السيارة مهشمة في القسم الامامى ، والزجاج في المقدمة وفى الجانب مكسور اليقطع صغيرة ولكنها بقيت واقفة في مكانها دون ان تسقط على الارض . وعلى السيارة دماء يابسة . وقرب السيارة العمود الكهربائى الذى انخلع من مكانه ملتوياً ومرمياً على الارض . وتوجد حفرة فارغة حيث كان العمود وفى اسفل العمود كتلة ملتصقة به من الاسمنت حيث كانت تسند العمود في الارض .

كانت السيارة المفتوحة حمراء اللون ومن اجمل ما رأيت من السيارات! . .

امام الملكة تمالكت دموعى ، ولكن امام منظر السيارة المهشمة ، انهمرت دموعى كالسيل ، وودت من كل قلبى لو اننى مت بدلاً من الملك! . . .

لم يصادفنى حزن شديد وعميق بهذا الشكل طيلة حياتى! . . .

لقد مات اخى الصغير ، وكان حزنى شديداً ، وكنت في سن الثالثة عشر . . .وبعده باشهر توفى الملك فيصل الاول وترك في نفسى حزناً عميقاً اذكره الى الآن . . .اما في وفاة الملك غازى ، فقد شعرت كأن الدنيا.قد انتهت ولم يبق لها معنى! . .

تبدل في نظرى العراق والبلاد العربية وكل ما كان يدور في خاطرى من آمال واحلام حول عالمنا العربى . من الذى سيرفع الراية في سيرنا؟بمن سوف نزهو ونختال بين الامم؟

نظرت الى الشمس ، وكانت مشرقة واليوم جميل . . .مالفائدة! . .لماذا تشرق

الشمس ، وكيف بكون النهار لطيفاً؟لماذا . .وكيف! . .

نظرت الى الاشجار فتذكرت الشعر :

ايا شجر الخابور ، مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف! . .

رجعنا الى الكلية واذا البلد الآن يموج بمئآت من الالاف من الناس ، من قصر الزهور والى الكلية . النساء من الفلاحات والطبقات الفقيرة يلطمن الوجوه ويرسلن اساهن وحزنهن الى عنان السماء ، كتوسل الى الله لكي يغير هذا الحكم على الملك . اما الرجال كانوا يسيرون في مواكب حزن منتظمة وكأن كل واحد منهم فقد اعز اولاده ، يسيرون كنقابات للعمال كل نقابة على حدة رافعين الاعلام السوداء واصواتهم تهز العاصمة هزاً .

الكل يطلب الانتقام من العدو! . .والعدو كان الانكليز ، ومن يقف ورائهم من الناس وخاصة (نورى السعيد وعبد الآله ،) كما كانوا يعتقدون آنذاك! . .

واذكر من صراخ الرجال في بعض المواكب :

واهتزت اركان السما من صدمته السيارة . .

الله واكبر يا عرب غازى انفقد من داره! . .

وجماعتين يتناوبان في القول :

راح غازينا ابن سيد البشرْ

يا حسافة بعمره ما شاف الهنا

وتجيبها الاخرى :

كوموا نسأل رستم ونورى السعيد

عالمصيبه الحلت بسيد العرب! .

وصلنا كلية الطب فقيل ان الفاتحة في كلية الحقوق وكانت قريبة منا أنذاك .

كانت الفاتحة للطلاب والطالبات معاً ، متخطين بذلك التقاليد التى تفصل بين الجنسين في الفاتحة . جلسنا في البهو الكبير وكانت صورة الملك غازى معلقة على الجدار ، ومجللة بقماش اسودا! . .

نظرت الى الصورة .

لقد احتفلنا بعيد ميلاده قبل ثلاث اسابيع وكان عمره سبعة وعشرون

عاماً . . .وهلل العراق من شماله الى جنوبه بالملك الحبيب . . . . والان نقيم مأتماً لوفاته! . . .

جلسنا ولم نسمع اية خطابة او كلمة بالمناسبة . .ساد الصمت على الحاضرين ، ولكنه كان صمت مشرب بغضب حاد ومكبوت لانعلم كيف نظهره وعلى من نصبه . لم يصدق احد منا ان الحادث كان قضاء وقدراً! . .الجميع يفكر انها مؤامرة! انها غدر! . انها خيانة عظمى! . .

عدت الى البيت وعادت اختى لمعان وكانت طالبة في الصف الخامس الثانوى واخبرتنى عما فعلت الطالبات في الثانوية من البكاء والنحيب . في ذلك المساء لم نذق لاانا ولا لمعان لقمة واحدة من الطعام .

في اليوم الخامس من نيسان وكان جثمان الملك في البلاط الملكى في شارع الاعظمية والناس يذهبون في مواكب منظمة لرؤية الملك مسجى ويلفه العلم العراقى واكاليل الزهور ، واحاطت به نصف دائرة من الحرس ، من الجندى الى الزعيم .

وقد ابدى الناس الشيء الكثير من الحزن واللطم . لم اذهب الى البلاط لان عدد جمهور الناس كان هائلاً جداً . سمعنا عن جثمان الملك في البلاط من احد اقربائنا .

في اليوم السادس من نيسان خرجت مع الطلاب والطالبات من الكلية وسرنا الى البلاط الملكى ووقفنا على الرصيف المواجه للبلاط . قامت الشرطة بواجبها واصبح شارع الاعظمية خالياً من الناس تماماً من بدايته والى المقبرة الملكية . اما الارصفة فقد امتلأت على جانبى الشارع والى الاعظمية ، وامتلأت الشبابيك والشرفات بالناس في جميع البيوت في هذا الشارع الممتد الطويل ، والاعلام السوداء مرفوعة في كل مكان . . .ومن اشد الاشياء تأثيراً على الجميع ، ظهور الطائرات العراقية في سماء بغداد ترفرف على اجنحتها اعلام سوداء حداداً على غازى! . .

ظهر الجنود من البلاط ، ثم عربة مدفع حاملة جثمان الملك وسار الموكب باتجاه المقبرة الملكية وسار الجميع بذلك الاتجاه حتى وصلنا المقبرة الملكية .

نفخ الجنود بابواقهم ، وسمعنا اصوات المدافع تحيى الملك لآخر مرة ،انا اصغى وكأننى لااسمع . وعدنا جميعاً الى بيوتنا وكنا مثل من فقد شيئاً لايعوض! . . .

وقد ظهر تقرير الاطباء (البارد) حول موت الملك غازى :

نتعى بمزيد من الاسف وفاة صاحب الجلالة الملك غازى الاول في الساعة الثانية والدقيقة الاربعين من ليلة ٤/٣ نيسان متأثراً من كسر شديد للغاية في عظام الجمجمة ، وتمزق واسع في المخ . حصلت هذه الجروح نتيجة اصطدام سيارة صاحب الجلالة ، عندما كان يقودها بنفسه بالقرب من قصر الزهور الساعة الحادية عشر والنصف من تلك الليلة . ولقد فقد صاحب الجلالة شعوره بعد الاصطدام ولم يسترجع شعوره حتى اللحظة الاخيرة ليلة ٤/٣ نيسان ١٩٣٩ .

وقد وقع خمسة اطباء هذا التقرير وهم : سندرسن باشا ، والجراح ابراهام ، وهما بريطانيان وثلاثة اطباء عراقيين هم صائب شوكت ، وصبيح الوهبى ، وجلال حمدى .

اقيمت التعازى لمدة ثلاث ايام ، وكان يرئسها عمه الامير عبد الله ، امير شرقى الاردن . واعلن ان الحداد الرسمى لمدة اربعين يوماً .

واعلن ان ولد غازى الوحيد الامير (فيصل) البالغ من العمر اربعة سنوات قد اصبح ملكاً على العراق بأسم (الملك فيصل الثانى) وأن خال الملك الصغير ، الامير (عبد الآله) يصبح الوصى عليه الى ان يبلغ الملك سن الثامنة عشر من العمر! . .

قيل الكثير عن مقتل غازى ، من انه عاد من قصر (الحارثية) الذى يحوى اذاعة راديو يديرها الملك بنفسه وكان الناس يستمعون الى هذه الاذاعة يومياً ، وانه تلقى حال عودته الى قصر الزهور مكالمة تلفونية ، ترك القصر على اثرها وعاد الى بيت (الحارثية) وانه كان مخموراً . والناس كلها تكذب هذا الخبر وتقول ان العبد الذى يجلس ورائه قتله بضربة على رأسه ثم افتعل الحادث . وكانوا يتكلمون عن مؤامرة دبرها الانكليز مع نورى السعيد وعبد الآله وصباح ابن نورى السعيد وكأن المؤامرة حقيقة واضحة لاتحتاج الى دليل . وقيل ان العبد قد مات أيضاً .

وفى اليوم التالى لوفاة الملك بدأت التظاهرات في الموصل واتجهت الى

القصلية البريطانية وقتل المتظاهرون القنصل البريطاني هناك .

ازداد شك الناس لان الوصى اصبح الامير (عبد الآله) وليس الامير زيد ابن الحسين . وقالوا ان المؤامرة ضد الملك حدثت كما ارادوا ، وقتل غازى واصبح عبد الآله وصياً على الملك الصغير .

وقد زاد في الامر ، ان احدا من رجال الصحافة العراقية اسمه (يونس بحرى) وكان يدير جريدة اسمها (العقاب) هرب من بغداد في يوم موت غازى وذهب الى المانيا ، واصبح يذيع باللغة العربية بأن الملك غازى قتل ، نتيجة مؤامرة ويسمى ما حدث :

- امر دبر بليل! . .

(ليتنى مت بدلآ عنه! . .)

قالتها سيدة فقدت زوجها وعندها خمسة اولاد وبنات تتراوح اعمارهم ما بين المراهقة والطفولة وكانت تحرص عليهم وتخاف جداً ان تموت وتترك الاولاد قبل ان يكبروا . وهذه اول مرة تطلب بها ان تموت قبلهم فداء للملك! . .

كان هذا الشعور الذى يسودها ، يسود الشباب بصورة خاصة .

اقفلت الملاهى والاماكن الليلية ابوابها لعدة ايام . وعندما اعيد فتحها ، سمعنا ان المغنيات والراقصات في اكبر ملهى في بغداد ظهرن في ملابس سوداء وغنين اناشيد الحزن والحداد على المسرح! . .

لم يبق شاعر في العراق لم ينظم قصيدة على الملك وكلها تبكى غازى وتطلب الانتقام! . .

لاازال اذكر مطلع قصيدة لاحد من الطلاب في الكلية وهو الشاعر الرقيق (محمد سليمان فيضي) :

الله اكبر! مايقول الحادى غازي   قضى! انى اضعت رشادى!

وقد اهدانى نسخة من القصيدة بسبب اهتمامى الشديد بالشعر .

يبدو ان العقداء الاربعة تقبلوا ماحدث ، وتقبلوا الامير عبد الآله كوصى على الملك الطفل بهدوء ورضى ، ولم نسمع عنهم أي اعتراض او شك في الموضوع الذى اقام البلد كله واقعده! . .

بعد اسبوع واحد توفيت عندنا في العائلة الحاجة (بهية خان ام صبيح) وهى زوجة خال والدي وام (صبيح نجيب) زوج اختى الكبرى . والسيدة هي كبيرة نساء العائلة والكل يحبها ويحترمها ، عمرها حوالى الخامسة والستين وكانت على درجة كبيرة من الذكاء والشخصية! . .

ذهبنا الى دارهم في الكرادة ورأيت الجثمان وكيفية وضع الجثة في التابوت .

هذه امرأة احبها واحترمها كثيراً . ولكن هل بكيت؟ هل حزنت؟

كنت انظر الى ما يجرى بوجه جامد وشعور ميت .كنت لاازال افكر (هل هناك من يحزن على الموت وقد مات غازى)! . شعرت وكأنه لاشئ يحتل أي اهتمام لدى بعد الآن . وكان لسان حالى يقول للملك غازى :

من شاء بعدك فليمتْ فعليك كنت احاذر! . .

وقد صدم ولديها (صبيح وفضلى) لانها توفيت خلال ساعة بعد ان شكت من مغص في المعدة . وداهمتها الوفاة على شكل نوبة قلبية عندما اوت الى فراشها .

ابنها (صبيح) يبدو شاحباًوعليه امارات عدم تصديق ما حدث ، كذلك كان ابى واعمامى ، اما ابنها الاصغر (فضلي) فأنه كان يبكيها بدموع غزيرة والم عميق لانه لم ينتمى الى تلك المؤسسة العسكرية الصارمة التى ينتمى اليها والدي واقربائى الاخرين من العائلة .

اما انا ، ولولا ماحدث من فقدان الملك ، لحزنت كل الحزن على (بيبى حاجية) ، السيدة الجليلة ذات الشخصية المهيبة والصوت الجهورى وباحاديثها المسلية وامثالها الطريفة! . .

كان الدفن في مقبرة (الشيخ عبد القادر الكيلانى) ، وكان موكب الدفن كبير جداً .

صائب شوكت

في سنة ١٩٤٠ وانا في الصف الثالث في كلية الطب، كان عميد كلية الطب الدكتور الجراح صائب شوكت. كان استاذ الجراحة في الكلية الدكتور (براهام) البريطانى والدكتور صائب يدرسنا الجراحة السريرية ويلقي المحاضرة باللغة الانكليزية أيضاً. لقد تعلم الدكتور صائب الطب في استانبول باللغة التركية وتدرب على الجراحة في المانيا وكانت لغته الالمانية احسن من الانكليزية، ولكننا لم نر أي صعوبة في فهم انكليزيته السريعة والمتمكنة.

كان الدكتور صائب طويل القامة قوي الشكل ذا شعر اشيب يمشطه الى الوراء، ووكنا نراه يمشي بخطوات سريعة واثقة في طول المستشفى وعرضه منذ الصباح الى وقت الغذاء، يدور على الكلية ودار الاشعة والعيادات الخارجية ويزور المكتبة ثم يمر على الردهات كلها، وثم الى دار التمريض الخاص. وأحياناً يتوقف في احدى الردهات الجراحية امام الطلاب ويعطى درساً عن احد المرضى في الردهة وطريقة فحص المريض وتشخيصه وعلاجه، وكان يسأل الطلاب اسئلة دقيقة حول فهمهم للموضوع.

كنا نلتذ بدروسه، ونخاف من ان يسأل احدنا سؤالآ يصعب الاجابة عليه. وكان رغم سيطرته الكبيرة على الطلاب رقيقاً معهم اثناء التدريس حتى عند عدم تمكنهم الاجابة الصحيحة.

كان المرضى يتفائلون بالدكتور صائب ويرددون :

- صائب بك شافنى وشخص المرض! . .

وقد كان الدكتور صائب رئيساً لنادى (المثنى). والنادى كان يدعو الى الوطنية والقومية العربية كما كنا نسمع نحن الطلبة، وينتمى الي النادي الكثير من دعاة الوحدة العربية، وكان هذا يرفع من شأن الدكتور صائب بين الاطباء والطلاب.

وقد سمعنا بأنه ذهب في ايام العطلة في سنة ١٩٣٩ بسيارته الحمراء المكشوفة الى المانيا وفرنسا وغيرها لمدة شهرين ثم عاد بالسيارة الى بغداد . ولم تكن هذه من الرحلات المألوفة عندنا قي العراق آنذاك والناس الاغنياء لايذهبون ابعد من سوريا ولبنان بسياراتهم او بسيارات (نيرن) اوغيرها ، ولهذا بدا لنا الدكتور صائب شوكت وكأنه مثرى مغامر مثل اهل اوروبا ! . . .

كان للدكتور ولد واحد فقط (سهام) وعمره حوالى العشر سنوات ، وبالرغم من وطنية الوالد ، كان للولد مربية المانية ، ويتكلم اللغة التركية في البيت لان والدته العراقية تربت في تركيا ولا تعرف الا القليل من اللغة العربية! . . .

في احد الايام قص علينا (صائب بك) ما حدث له ايام دراسته في استانبول وكان في كلية الطب في القسم العسكرى . خرج الطالب صائب يوماً ماشياً من الكلية ووجد آمر الكلية العسكرية التركى ومعه الجنرال الالمانى الكبير (ليمان فون ساندرس) الذى يشرف على التدريب العسكرى التركى والاثنان على ظهور الخيل في الشارع . يبدو ان الطالب الشاب (صائب) حاول ان يتراجع ويختفى خلف الباب لعل الشخصين الكبيرين يمروا دون رؤيته ، ولكن آمر الكلية رآه وصرخ به ان يتقدم . تقدم صائب امامهم فطلب منه الآمر ان يؤدي التحية العسكرية ثم يذهب الى نقطة في الشارع في مشية عسكرية ثم يعود اليهما ويسلم سلاماً عسكرياً آخر ثم يمشي في الشارع ويعود امامهما . وقد جعله يكرر هذه المشية والسلام عدة مرات لئلا يعيد هذا الاهمال مرة اخرى قبل ان يتركه يذهب .

والقصة الاخرى للدكتور صائب حدثت قبل ذهابه الى المانيا للتدرب على الجراحة هناك هو ومعه ضباط آخرون من كلية الطب

يبدو ان (انور باشا) وهو (الصدر الاعظم) أي رئيس الوزراء اظهر الرغبة لكي يتحدث مع الاطباء العسكريين قبل سفرهم الى المانيا ، وقد تعجب هؤلاء الشبان عما سينصحهم به (انور باشا) ويرشدهم . جلسوا امامه قلقين خائفين . واذا به يبدأ :

- اذا رأيتم ان زملاءكم الالمان من يلبس ملابس باذخة ، اذهبوا واشتروا اشياء اغلى واجمل منها! . . واذا اكل الالمان في مطاعم غالية ، اذهبوا الى نفس المطاعم

وادفعوا (للجرسون) نقوداً اكثر مما يدفع الآخرون! . . .اي لاتدعوا الالمان يتفوقون عليكم في هذه الاشياء! . .

- وهكذا كانت نصائح رئيس الوزراء ان يصبحوا اكثر اناقة من الآخرين وان ينفقون نقودهم بكثرة لكي يبهروا الالمان المتكبرين دون الاشارة الى اشياء مهمة اخرى .

حركة رشيد عالي الكيلاني

في خريف ١٩٣٩ اعلنت (دول الحلفاء) بريطانيا وفرنسا ، الحرب على المانيا ، ثم دخلت ايطاليا الحرب بجانب المانيا وسميت هذه الدول (دول المحور) .

استولت المانيا على معظم القارة الاوروبية ، وبقيت بريطانيا وحيدة في شمال اوروبا تحت رحمة القنابل الالمانية ، ونسمع عنها من (يونس بحرى) يومياً عن اذاعة برلين

العربية .

في العراق عندنا اصبح الجيش عاملاً فعالاً في تبديل الحكومات من وراء الستار ، وكنا كطلاب وبعيدين عن الحكومة ، نعلم بذلك ، ونعرف اسماء العقداء الاربعة المتنفذين ، وقد كانوا بجانب دول المحور .

سمعنا ان الضباط الاربعة يملكون في الجيش سلطة كبرى منذ مقتل بكر صدقي . وقد ايدهم نورى السعيد كثيراً .

كانت اكثرية الناس بجانب هتلر وانتصاراته وضد بريطانيا العظمى ، والتى اصبحت عندنا تسمى (بريطانيا العجوز الهرمة) كما كان يسميها (يونس بحري) من اذاعة المانيا .

نورى السعيد اثناء اعلان الحرب ضد المانيا ، وقد كان الوصي كذلك .

لم نكن نعرف نحن الطلاب عن المفتى الحاج امين الحسينى الا القليل . لقد جاء الى العراق ومعه اصحابه لاجئين الى العراق وكان الناس يرون في المفتى رمزاً للثورة العربية ضد الانكليز . ولم نكن ندرى ان الشباب القومى وبعض الضباط قد التفوا حول المفتى بصورة كبيرة وسرية أيضاً . كان يدعو الى تحرير

فلسطين ، واستقلال سوريا ، والعراق ومصر ، ويدعو الى محاربة الانكليز والفرنسيين واخراجهم من البلاد العربية والاتفاق مع المانيا ضدهم .

حولوا ولاءهم الى (طه الهاشمى) الذى اصبح رئيساً للوزراء . وبعدها انفضوا عنه الى (رشيد عالى الكيلانى) بسبب المفتي والسفير الالماني (غروبا) وكنا نحن الطلاب نسمع بالاخبار من الجرائد ومن الناس وتنتشر الاخبار بسرعة كبيرة .

كانت انتصارات المانيا العسكرية وكأنها انتصارات العرب ضد الانكليز! . . . واصبح (رشيد عالى) وكأنه زعيم البلاد ومعه العقداء الاربعة .

اذكر في تلك السنة ، دخل الكلية عندنا طالبان كانا يدرسان الطب في المانيا ولم يتمكنا من الرجوع اليها بعد قطع العلاقات بينها وبين العراق وهما (خيرى الدباغ) و(ادوار زيا) . وكان هذان الطالبان من عبدة النظام العسكرى في المانيا ، وحب الزعيم الالمانى الهر هتلر ، وكنا نؤازرهم ونحسدهم على رؤية تلك البلاد الجديدة التى ستكون المثل الاعلى للعالم كله! . . .وقد كانوا يحيون الطلاب الآخرين برفع الذراع الايمن الى فوق على طريقة الشباب النازية .

دخل هذان الطالبان الصف الثانى في الكلية وتخرجا بعد اربعة اعوام .

كنا كطلاب مع جميع الشعب العراقي على درجة كبري بما يحدث في الحكومة وكنا نقرأ الجرائد يومياً .

ازدادت العلاقات تأزماً بين الوصى ونورى السعيد والكثير من الوزراء بأعتبارهم من جهه بريطانيا وعندنا معاهدة معهم للنزول الى ارض العراق اثناء اشتداد المعارك ، وبين رشيد عالى والعقداء الاربعة من جهه اخرى وبلغت الازمة اوجها يوم واحد نيسان ١٩٤١ حيث احاط الجيش قصر الوصى لكي يرغموه على تعيين (رشيد عالى الكيلانى) رئيساً للوزراء بدلاً من (طه الهاشمى) . ولكن الوصى هرب من قصره وتوجه الى البصرة ومنها نقل الى عمان حيث يحكم عمه الامير (عبد الله) هناك ومعه جميل المدفعى وعلى جودت الايوبى . ولم ندر كيف غاب (نورى السعيد) من بغداد ، ولكنه التقى مع الوصى والجماعة الآخرين في عمان .

في اليوم الثانى سيطر القادة على بغداد واعلنوا تأليف (حكومة الدفاع

الوطنى) برأسة رشيد عالى الكيلانى ومعه رئيس اركان الجيش والعقداء الاربعة .

وقد اصدر رئيس اركان الجيش بياناً معادياً للوصى .

بعد ايام ، تمكن رشيد عالى من عزل الوصى الامير عبد الآله ، وتعيين شخص كبير السن من ذوى القرابة مع العائلة الهاشمية اسمه (الشريف شرف) في مكانه ، ولم نكن نعرف حتى اسمه ، وقيل انه يقطن في بيت بسيط في (الاعظمية) .

اقسم رئيس الوزراء اليمين امام المجلس النيابى على ان يراعي الدستور ، واصبح الوصى الجديد بعد ان حلف اليمين ، رئيساً للدولة بموجب النظام الدستورى والشرعى .

وقد قدم (طه الهاشمى) استقالته الى الوصى الجديد الشريف شرف ، الذى دعى رشيد عالى الكيلانى بصفة رسمية ان يشكل الوزارة .

هتف الشعب تأييداً لعزل الامير عبد الآله وصادق على حكومة رشيد عالى جميع افراد الشعب كما كنا نعتقد ، حسب البرقيات والاخبار التى بدأت تصل طيلة الوقت من رؤساء القبائل والشعراء والكتاب ، وكلها تذاع على الراديو والجرائد يومياً! . .

في اليوم الاول من شهر مايس وصلت الكلية صباحاً واذا بأحد الطلاب وهو يسرع في مشيته قال لنا :

- انتهى الامر ، لايوجد دروس هذا اليوم! . . لقد ذهب الاساتذة الانكليز كلهم! . . العلاقات قطعت بيننا وبين بريطانيا! . . .

لم نصدق ما سمعنا! . .عندنا معاهدة مع بريطانيا! . . هل الغوا المعاهدة؟ماذا حدث؟مالذى حدث للاساتذة؟اين هم؟من الذى سوف يدرسنا الآن؟

لم اسمع كلمة واحدة تقال ضد الاساتذة من قبل أي طالب! . .لقد كانوا لنا مثالاً للاحترام والثقه بالنفس .

لكننا كنا في شغل شاغل عن الاساتذة والدراسة . الوطن في خطر! . .

كان حماسنا نحن الطلاب هائلاً! . .كنا نريد ان نشارك الجيش والحكومة! . .ولم ندر ماذا نعمل! . وبينما كنا بهذه الحماسة قيل لنا هنالك خطيب في قاعة الاجتماع .

اندفع الجميع نحو القاعة . جلسنا على الكراسى وقسم جلسوا على الشبابيك او على الارض بسبب الازدحام .

صعد رجل مصرى شاب لم اسمع اسمه من قبل . قيل انه رئيس جمعية (مصر الفتاة) في مصر ، وكان اسمه (مصطفى الوكيل) .

لا اتذكر كلامه بعد هذه السنوات الطويلة ، ولكنه كان من احسن ما سمعت من الخطابات المثيرة القوية ، وكانت فصاحته وصوته ولهجته المصرية المهذبة لاتجارى! . .

اذكر فقط كلامه الاول اذ يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

بسم الله الواحد الاحد ، نتحد ضد الانكليز . . .

بسم الله العلى الصمد ، نصمد للانكليز . .

بسم الله الكبير القهار ، نقهر الانكليز . . .

بسم الله المنتقم الجبار ، ننتقم من الانكليز! . . .

وقد نهضت وقعدت جموع الطلاب في القاعة مرات عديدة اثناء الخطابة ، وكان الهتاف مثل الرعد دوياً .

في اليوم التالى لبسنا ملابس (الخاكى) طلاباً وطالبات وخرجنا الى الشارع في مسيرة طلابية وقد كان خروج البنات في الشوارع شيئاً غير مألوف . واشتركت معنا في المسيرة (وداد) الابنة الثانية لرئيس الوزراء (رشيد عالى) وكانت طالبة في المدرسة الثانوية .

كان الدكتور (عبد المجيد القصاب) يقود الطلاب ، وهو في اوج الحماسة . ويظهر انه ابدل رأيه في استمرار المسيرة ، فطلب منا الرجوع الى الكلية بعد مسافة قصيرة . رجعنا الى ساحة الكلية واذا الدكتور القصاب ينذرنا بأننا تحت الانذار العسكرى لمدة اربع وعشرين ساعة ، ولا يمكن ان نتحرك الى خارج الكلية! . .بدأنا نفكر كيف ستقضى هذه الجموع الليلة في الكلية! . . .

وصل الدكتور صائب شوكت عصراً الى الكلية ووقف في اعلى الدرج وقال :

ـ الغي الانذار . اذهبوا الى بيوتكم ، واحضروا غداً! . .

كنا قد اخبرنا البيت تلفونياً ، بأننا تحت الانذار في الكلية ، لذلك كان ارتياح الوالدين كبيراً عندما عدنا انا ولمعان اختى الى البيت قبل المساء

ولاول مرة يشذ والدي عن لهجته اللطيفة المرشدة وهو يقول افعلوا او لاتفعلوا الشئ الفلانى كأمر ضروري ، رأيت لهجته تعبة جداً وهو يقول :

- يا بناتي! . .ارجو ان لاتخلعوا فؤادي! . .اي كما قالها باللغة البغدادية :

- بابا! . . لاتشلعون قلبى! . .

وقد كررها مرتين او ثلاثة! . .

وانا كنت اصر بأننا في خدمة الوطن! . .وان الوطن يحتاجنا الآن ، وحاجته هي اكثر من اناشيد واغانى ننشدها في المدارس فقط! . . .

والدي كان خائفاً ان تنتشر الفوضى والاضطراب ، ويرغب ان يعرف ما نعمل .

في اليوم التالى ذهبنا الى الكلية واردنا ان نفعل شيئاً له فائدة .

كان هناك مبنى جديد داخل المستشفى قرب الكلية ، وفيه الرمل والاسمنت والطابوق بكميات كثيرة . بدأنا نشتغل كعمال البناء ، الشباب يحملون اقمشة من الجنفاص ويربطونها حول اعناقهم ، والبنات يملأن هذا الجنفاص بالرمل بواسطة المسحاة الى ان يمتلى ويذهب به الشباب الى اطراف المستشفى الكبير لكي يستعمل اثناء الحريق في الغارات الجوية .

(لحسن الحظ ، لم يقصفوا المستشفى او الدور المحيطة به) .

الفتيان اشتركوا في (كتائب الشباب) مع السيد يونس السبعاوى ، وهو وزير الاقتصاد . اما نحن البنات ، فقد بدأنا نذهب الى مدرسة (الفنون المنزلية) وهى قريبة من كلية الطب ، في باب المعظم . وهناك كانت الطالبات والمدرسات يخبزن الفطائر (كليجة) التي ترسل الى الجنود في (سن الذبان) قرب بحيرة (الحبانية) .

اشتركنا معهن وكنا نرسل الفطائر يومياً الى الطلاب الذين يذهبون كل يوم الى سن الذبان ويعودون الى بغداد وهكذا . وبعد مرور بضعة ايام اشتد القصف الجوى على (الفلوجة) وعندذلك منع الطلاب من الذهاب الى هناك .

وكنا نذهب الى الردهات في المستشفى ، حيث اخليت كلها من المرضى ، وادخلوا الجنود الجرحى وكانت الهدايا من الحلويات تأتى من كل مكان الى الجنود وكنا نساعد في تقديم الحلوى لهم .

اما حركة (كتائب الشباب) فكانت حركة تنظيم شبه عسكرية وتضم طلاب المدارس والكليات وكانت مهمتها الحراسة وحفظ الامن وحماية مؤخرة الجيش . وقد اندفع السبعاوى في حركته واعطى السلاح للاعضاء واخذهم الى مكان في اليوسفية وعسكر بهم هناك . وقد اشتركوا في بعض الاعمال الفدائية قرب جبهة القتال .

وقد انتشرت اخبار حركة (رشيد عالى) في جميع الاقطار وخاصة البلدان العربية .

وقد خرج الطلاب في الشوارع في القاهرة والشام وبيروت يؤيدون العراق .

وفى بيروت قصة فتاة عراقية اعرفها منذ ايام المدرسةوهي (فاطمة العسكري) وكانت آنذاك طالبة في الجامعة الامريكية في بيروت ، وكان السيد (نورى السعيد) زوج عمة فاطمة واخته زوجة عمها جعفر العسكري!

خرجت فاطمة تسير في مقدمة المظاهرة ، وكانت تحمل العلم العراقى بيدها ووراءها الطلاب العراقيون والعرب الآخرون .

بعد ذلك انتشر الخبر في بغداد وادى الى استياء معظم اقاربها ، واصبحت النساء من عائلتها واصحابهن يطلقون عليها لقب (ام البيارق! . .) أي حاملة الاعلام بين الرجال وفى وسط الشوارع .

ان حركة رشيد عالى ، كانت عسكرية تماماً ولم يتمكن الطلاب من التأثير على الامور سوى الذهاب الى الحبانية او الفلوجة وان كنا نتوقع ان يطلب منا بعض الامور الكبيرة فجأة ، ولكن لم يطلب من الطلاب عمل أي شيء عسكرى! . .

توقفت عندنا الدروس ، وكنا نذهب الى الردهات لكي نرى الجرحى من الجنود ونستمع الى احاديثهم . وبعدها نتناقش على الامور العراقية والدولية .

والغريب اننا كنا نصدق اخبار الاذاعة والجرائد . وكنا نظن ان القوة الجوية

العراقية حطمت طيارات بريطانية معادية كثيرة ، وان الطيارين الالمان اندهشوا من مهارة الطيارين العراقيين وبدؤا يتعلمون منهم! . .ولم نسمع عن ضرب الطيارة الالمانية التى يطيرها الميجر (بلومبرك) ابن الجنرال (بلومبرك) وزير الدفاع الالمانى ، الذي حاء ليساعد القوة الجوية العراقية ووفاته في العراق الا بعد ايام! . .اطلق عليها الشرطة النار ظناً انها طيارة بريطانية وقتلوا الطيار الالمانى الشاب! . .

وقيل ان البدو قتلوا (ابو حنيك) الانكليزى أي (غلوب باشا) الذى يشتغل في الجيش الاردني ، ولم يكن ذلك صحيحاً . جعلونا نعتقد اننا نقوم بانتصارات واسعة باهرة وأن الالمان على وشك الهجوم لمساعدتنا وغير ذلك من اخبار كان يذيعها (محمد صديق شنشل) مدير الدعاية العام ، وزوج شقيقة (السبعاوى) .

رأى بعض الطلاب العقيد (صلاح الدين الصباغ) في سيارته في الشارع والعلم يرفرف عليها وكأنه القائد الحارس لكل هذه البلاد ، ولم نعلم انه لم يذهب الى جبهة القتال في الحبانية ابداً! . . .

وكان العلماء يصدرون الفتاوى للجهاد المقدس كل يوم ، وكل يوم نسمع البلاغات الحربية والمناشير العسكرية في الراديو وفى الجرائد . ورأينا الطائرات البريطانية تحوم في افق بغداد ،وهي طائرات سوداء هائلة الحجم قصفت مناطق معينة من بغداد

تصحبها صافرات الانذار ذات الصوت المخيف ، ولكن الناس بصورة عامة لم يشعروا بالخوف او الرهبة ، وكان بعضهم يطلق على الطائرات الكبيرة رصاص المسدسات من السطوح! . .

وقد سافر الملك الصغير ووالدته الملكة عالية الى لواء اربيل وحلوا ضيوفاً في بيت (ملا افندي) احد وجهاء المدينة .

كان والدي هو الوحيد في بيتنا الذى لايصدق اخبار بغداد او اخبار (يونس بحرى) من المانيا .

كانت اذاعة برلين العربية هي مصدر الاخبار لكل العراق ،ومذيعها (يونس بحرى) الشهير ، اما اذاعة لندن الكئيبة فأنها كانت تثير الاستهزاء والسخرية ، وخاصة اخبار(صمودهم) القادم لهم بعد ثلاث سنين كما قال ذلك (شرشل)

بنفسه ، عندما كانت المانيا تكتسح القارة اوروبية خلال ايام او اسابيع فقط! . . .

كنا في العراق ، نعتقد وصول مساعدات من المانيا وايطاليا مع الطائرات وان الوضع العسكرى جيد جداً والنصر النهائى سيكون لنا! . .كنا جميعاً واثقين بالنصر النهائى! . . .

اما والدي فقد كان واثقاً من ان اخبار بغداد كانت كاذبة ، وأن رشيد عالى وعقداءه والمفتى الحسينى كلهم ينتظرون مساعدة من الالمان ، وهذه المساعدة غير موجودة! . .وقد كان بستمع الى اذاعات برلين ولندن والى اذاعة تركيا يومياً . ورغم ذهاب بعض وزرائنا الي تركيا للتفاوض ، لم تتكلم تركيا عن مساعدات المانية قادمة الى العراق ابداً ، وكان سفير المانيا في تركيا آنذاك ، (فون بابن) وهو سفبر كبير لهتلر . كان والدي دائماً يصف خطاباتهم وكلامهم في الجرائد والاذاعة ككتاب غوغائيين يختارون بهرجة الالفاظ والكلام المزخرف ويخرجون عن الصواب في الرأي والصدق في الامور . وكان كلامه يزعجنا جداً ، نحن اولاده ، دون ان نجرأ لمناقشته او الجدل معه .

زارنا فجأة ، احد الاقارب ، وهو (احسان رفعت) وهو ابن خالنا الوحيد ، رغم كثرة عدد ابناء وبنات الخالات الذى يتجاوز عددهم الثلاثين (من ست خالات! . .) . وكانت أمي واخواتها يحملن الكثير من الحب والاعزاز لهذا الشاب . وكنا جميعاً نحبه ونحترمه لانه الحفيد الوحيد لجدى والد أمي .

دخل (احسان) وهو يرتدى الملابس العسكرية ويحمل نجمتين على كتفه . لقد دخل الدورة لعسكرية في بغداد بعد عودته من امريكا ، حيث درس في جامعة (كاليفورنيا) واصبح مهندساً في النفط . وكان أنذاك يشتغل في شمال الموصل في منطقة (عين زالة) حيث يوجد النفط فيها . اسعدنا ان نراه بيننا وهو برداء الجيش . اخذنا نسأله عن تلك المنطقة وما حدث فيها .

اذا بأجابته لاتشفى غليلنا . قال ان بنزين الطائرات يختلف عن بانزين السيارات ، ولدينا منه كميات قليلة جداً لان الانكليز اخذوا منه الكثير ونقلوه ،وليس لدينا ما نقدم للالمان ما يكفيهم لطائراتهم .

وقال ان بعض افراد القبائل اتوا الى المحطة البترولية وارادوا تحطيم الاجهزة

هناك ونهب ما يمكن نهبه ، فاوقفهم (احسان) بقوله :

- ان المحطة كانت تشتغل مع الانكليز لمدة طويلة ولم يتقرب منها احد ، وهى الآن ملك لدولة العراق ، أي ملكنا كلنا ، وعلينا ان نحافظ عليها ونستفيد من نفطها ولا ننهبه او نخربه! . .

فأمسك كبير القوم عن عملية التخريب واوقف الاخرين ، ثم هتفوا كلهم بحياة العراق ، وانصرفوا جميعاً! . .

وبعدها بدأ يتكلم عن جهل الجميع ، الدولة والناس بأمور الحرب ، وأن الخطابات في الاذاعة والجرائد هي ضرب من الكذب ودس الرؤوس في الرمل مثل النعامة .

وعندما شاهدنا في البيت ونحن في غمرة الحماس والفخر تعجب من طالبات في كلية الطب ونحن نظهر الحماس كما يظهره الاميون من اهل المقاهى دون التفكير في حرب ضروس مع عدو يفوقنا في كل شيء! . .

غضبت جداً لهذا الكلام الذى وجدته يقارب الخيانة وقلت اشياء تدل على ان التضحية بالنفس هو ما نحتاج اليه ، وان الكلام عن الصعوبات والعراقيل مضرة للناس ، وان الجيش والحكومة تعرف كيف تتصرف ازاء المصاعب .

دخلت أمي الى الغرفة واسكتتنا بقولها :

- ان (احسان) يقضي وقته وحيداً في (عين زالة) في الشمال ، لان الموظفين الاخرين وكلهم اجانب ، اختفوا في سفاراتهم . و(احسان) يحافظ على نفط الحكومة ، ويشتغل اكثر مما تشتغلون انتم في الكلية في هذه الايام . (وكنا لانعمل شيئاً في الكلية! . .) اسكتن عن هذا الموضوع ولا تتناقشن مع احسان! . .

وهكذا جعلتنا أمي نترك الجدال في هذا الموضوع الوطنى الشائك .

في منتصف شهرمايس ، سمعت بأن اختى الكبرى سافرت مع زوجها (صبيح نجيب) واطفالها الثلاثة الى (ايران) في سيارتهم ، بصحبة السيد (توفيق السويدى) وعائلته .

اعترانى الغضب الشديد لذلك الحادث ، وصرت اتكلم بصوت يسمعه والدي ، الذى لااتمكن من الكلام معه بهذا الشكل ، وصرت انتقد كل من يهرب

من الخطر بسرعة الى الخارج ، ولكن في وقت السلام يرغب ان يكون وزيراً! . . .

كنت اقصد (صبيح نجيب) (وتوفيق السويدى) وغيرهم . تظاهر والدي انه لم يسمعنى وهو جالس من مكانه . وقد طلبت مني والدتى ان اسكت عن هذا الكلام (لئلا يسمعه والدي) ، وقد اذعنت لها .

وبعد ايام قليلة رأينا اهل الثورة والجيش انفسهم ، من رئيس الوزراء الى العقداء الاربعة الى الشريف (شرف) والمفتى (امين الحسينى) ، وبقية الوزراء ، قد غادروا البلاد أيضاً الى ايران والجيش البريطانى يضرب ناحية (التاجى) القريبة من بغداد بشدة وقوة . لقد غادرت البلد الحكومة ، خفية في الليل ، دون أي صوت او صورة! . . .

لم يقل لي والدي كلمة واحدة عمن يهرب في وقت الخطر ، ولا من الذى يستفيد اذا كان يملك القوة بصورة غاشمة! . . .

عاد الى العاصمة الامير عبد الآله ومن معه من الوزراء في اول يوم من شهر حزيران ، ورحبت به الاذاعة العراقية والجرائد اليومية . وهبط علينا ، نحن الطلاب ، الغضب والصمت الرهيب .

وفى نفس الوقت ، انفجرت اعمال خطيرة من اراقة الدماء ، ونهب الاموال من المخازن والبيوت ضد اليهود في بغداد ، وقد نظم الانفجار ضباط وجنود هاربون من الخدمة العسكرية وكانوا يأملون القيام بثورة مضادة ومعهم اناس من الغوغاء واللصوص ، وقتلوا بضع مئات من الناس . وقد تطوع الكثير من الناس لحماية اليهود العزل! . . . وهذه اول مرة يحدث فيها هذا الحادث المؤسف والمخزى في العراق .

وقد تمكنت (لجنة الامن الداخلى) التى ألفها (ارشد العمرى) ، بعد هروب حكومة رشيد عالى ليلاً ، واختفائهم في ايران ، ان تستنجد بقوات اخرى من الجيش لكي يستتب الامر . ودامت هذه الحوادث المؤسفة لمدة يومين! . .

ولقد بقيت لمدة ايام طويلة اخجل ان اتكلم مع صديقاتى اليهوديات! . .ماذا يمكن ان اقول بعد حادث (الفرهود) المخزى؟

وقد الف السيد (جميل المدفعى) الوزارة الجديدة ووطن نفسه على اعادة الهدوء الى البلاد! . .

بدأ الناس بارسال البرقيات الى الجرائد ودار الاذاعة وفيها التحيات والتمنيات الطيبة للنصر بعد ان زالت (الفتنة العمياء) ، وهذا ما اطلقته الجرائد والاذاعة على حركة رشيد عالى ، وكيف رجع الحق الى محله . . .الخ من امثال الجدل في تقييم الحركات الفاشلة .

الصفوف المتقدمة (سينيرس)

عدنا الى المحاضرات والدروس كالعادة . لم نسمع من الاساتذة كلمة واحدة عما حدث لبيوتهم من نهب وتخريب ، ماعدا الاستاذ (ميلز) ، استاذ (الصحة العامة) ، قال :

لو ان النهب كان لأثاث البيت فقط لهان الامر ، ولكنهم حطموا حتى الزجاجيات المكرسكوبية التى جمعتها منذ سنوات عديدة وكلها عن الدراسات عن الامراض في هذه البلاد! . . .

كان الاستاذ ميلز ينشربحوثه في المجلات الطبية المختلفة منذ سنوات! . . .

شعرنا بشيء من الخجل من اجل الاستاذ الكبير ، ولكن . .كما خسرنا نحن المعركة ، كان لابد ان يخسروا شيئاً هم أيضاً! . . .ولو اننى كنت افضل ان تكون الخسارة في جيشهم وليس مع مثل هذا الاستاذ الجليل اللطيف ، ذو الشعر الابيض والجسم النحيل! . .

في ذلك الوقت ، كان رئيس الوزراء السيد (جميل المدفعى) ، وقد حاول ان يطبق سياسة (اسدال الستار) على ما جرى من حوادث في العراق بعد حركة (رشيد عالى الكيلانى) ، التى سميت من قبل الحكومة والصحف (بالفتنة العمياء) آنذاك ، واعلنت الحكومة ان بريطانيا هي البلد الحليف لنا ، وما حدث من تغيير الوصى الشرعى على العرش لم يكن دستورياً ، واظهروا الاسى والاسف على النفوس التى قتلت في حركة عمياء خاطئة .

اما نحن الطلاب ، فقد عدنا الى دروسنا ولكن الغضب العام كان لايزال في النفوس . . .اصابنا الخجل والعار بسبب ضعف جيشنا ، وفرار العقداء الاربعة ورئيس الوزراء ووزارته كلها الى ايران ، ودجل دار الاذاعة العراقية حول انتصارات

الجيش العراقى والقوة الجوية الملكية وغير ذلك من الاكاذيب المعيبة .

رأينا بعض الاطباء في المستشفى الملكى عينوا في مستشفيات اخرى باعتبارهم قد آزروا حركة رشيد عالي ، وكان اكبرهم الدكتور صائب شوكت الذى سافر الى تركيا وبقى هناك بضع سنين ، والدكتور صبيح الوهبى والدكتور اكرم القيماقجى الى مستشفى الكرخ وهما اختصاصيان بالجراحة والدكتور عبد المجيد القصاب وهو من الاطباء الامراض الباطنية الذي استقال من الوظيفة وانصرف الى عيادته .

استمر دوامنا في الكلية طيلة شهور الصيف من دون عطلة صيفية . وجرى امتحاننا كالعادة . حصلت على الاولية في درس (الصحة العامة) وفى (المجموع!) . . .وفزنا بالاولية في درس (الطب العدلى) انا و(امت الزهاوى) بالتساوى .

اما في دروس الامراض الباطنية والجراحة العامة والولادة والامراض النسائية ، فقد امتحنا بها كدروس فصلية فقط لان الامتحانات النهائية لهذه الدروس ستكون في نهاية العام الاخير في نهاية السنة القادمة .

في شهر حزيران من سنة ١٩٤١ أي بعد اسابيع قليلة من انتهاء حركة رشيد عالي الفاشلة ، هاجمت الجيوش الالمانية الهائلة الاتحاد السوفييتى .

وبعد فترة قصيرة اعطت وزارة الاعلام في العراق للجرائد والمجلات السماح في ان يمدحوا الاتحاد السوفييتى بأعتباره انه اصبح دولة تحارب في جانب بريطانيا والغرب .

هنا اود ان اقول بأنني لم انتم الى أي حزب سياسى طيلة حياتى ، رغم اهتمامى الشديد بالشؤون العامة . وكنت استمع الى مايقال ، واجيب على ما يدور في العالم ولكنى كنت لاارغب ان اسير وراء احد كما يسير الاخرون مالم اتفق بالفكر والرأى .

كنت ادرس الطب ، ولم يخطر ببالى يوماً ان اشتغل بالسياسية وبقيت الى الاخير بعيدة عنها ، خاصة كونى فتاة في بلد عربى ، ولم نسمع آنذاك عن أي امرأة في كافة البلاد العربية انها اشتغلت بالسياسة واصبحت شخصية مرموقة .

كان ذلك يبدو من الامور المستحيلة! . . وحتى في بلاد الغرب كلها ، كان نصيب المراة في السياسة لايزال قليلاً جداً! . .

بالاضافة الى ذلك لم ار شخصاً او حزباً اوحوا الي بأن طريقهم في السياسة هو الطريق الامثل لكي اسير معه او اتبعه ! . . بقيت من الناحية السياسية افضل النظام الاشتراكى (بصورة نظرية) باعتباره النظام الامثل من ناحية المساواة للفقراء والمحرومين في هذا العالم ، مع ميولي الكبيرة الى الحرية الفردية التى يتمتع بها الافراد في العالم الاوروبى الديمقراطى والولايات المتحدة الامريكية ، هذا مع العلم بأنني لم اجرب النظام الاشتراكى او ديمقراطية الغرب الا من المطالعة والكتب .

لن انسى رؤيتى الجيش البريطانى المحتل في بغداد للمرة الاولى سنة ١٩٤١! . . .

كنت اسمع فيما مضى من والدتى وكانت صبية في سن الرابعة عشرة ، كيف دخل الجيش الانكليزى الى بغداد في اثناء الحرب العالمية الاولى ، وكيف هلع الناس من ذلك ، لأن الجيش كان جيشاً اجنبياً لا رحمة لديه على الناس . ولكن ذلك الجيش ، دخل بلادنا وعلى رأسه الجنرال (مود) الذى اعلن ان جيشه دخل العراق محرراً لا فاتحاً ، وتصرف الجيش تصرفاً انسانياً مدنياً مع الناس ، كما حدثنا الاهل! . .

رغم ذلك ، ظل الشعب يكره وجود الاجنبي في البلاد ولا يريد ان يعترف بأنهم قدموا خدمات للبلد وكان ينتظر جلائهم عن العراق بأسرع وقت ممكن .

كنت سائرة في شارع الرشيد في منطقة (العاقولية) لكي اذهب الى احدى المكتبات في شارع (المتنبى) ، وقبل ان اعبر الشارع ، رأيت منظراً جعلنى اقف مشدوهة في مكانى! . .

رأيت جندياً بريطانياً شاباً طويل القامة اشقر الشعر ، يرتدي الخاكى العسكرى وعلى رأسه خوذة بيضاء ناصعة ، وفى يديه كفوف طويلة بيضاء تصل الى حد المرفقين ، اوقف المرور لكل السيارات المحلية في الشارع ، وكان يشير الى شاحنات (لوريات) عسكرية بريطانية تمتد على طول شارع الرشيد بحيث لم

اشاهد نهاية لهاوكانت متجه من الباب الشرقي نحو باب المعظم . كانت اللوريات كبيرة جداً ، خاكية اللون وسقوفها مرتفعة جداً عن الارض ، وكان السائق يجلس في مقعد عالٍ يقارب سقف الشاحنة مما لم اره من قبل . رأيت اللوريات نظيفة لماعة وتثير شيء من الرهبة في النفوس ، شرعت الشاحنات بالسير وكان انتظامها دقيقاً جداً وتسير بسكون ، ومن دون صوت بوق من اية منها ، وكانت تسير بأتجاه (باب المعظم) . والناس في شارع الرشيد وقفوا جميعاً وهم ينظرون ما يجرى بصمت عميق وسكون غريب! . . .بعد فترة وجدتها طويلة رأيت دراجات بخارية تمر يقودها (هنود) يرتدون عمامات من قماش الخاكى كملابسهم ولهم لحى كثيفة .

اقشعر جلدى وارتجف جسمى كله! . .اهذا هو الاحتلال الثانى بعد سنة ١٩١٧؟

ايحكمنا الهنود وهم من بلاد مستعمرة؟ من هم هؤلاء الهنود؟ اهم (كركة) ام (هندوس)؟

قال شخص من الناس بصوت منخفض :

- انهم من (السيخ)! . . .

عدت الى البيت رأساً دون الذهاب الى المكتبة في شارع المتنبي .

بعد فترة قصيرة ، استقال (جميل المدفعى) وترأس الوزارة السيد (نورى السعيد) .

لم تكن هذه الوزارات او تغييرها تعنى لنا أي شى نحن الطلاب! . . . اصبحنا نكره أي شي له علاقة بالحكومة ، خاصة وقد انعكست الازمة الاقتصادية قبل كل شي في السلع والاشياء الضرورية وفى ارتفاع اسعارها بنسب خيالية خلال اسابيع بل حتى خلال ايام قليلة في الاكل والفواكه والشاي والسكر والاقمشة .

كنا نلوم الحكومة على كل هذه المصاعب ونلوم وجود افراد الجيش البريطانى في بغداد الذى رفع ايجار البيوت والعقارات والمخازن والحوانيت الى درجات لم نكن قد سمعنا بها من قبل . كذلك اتت اعداد كبيرة من الجنود (البولنديين) للبقاء في العراق مع الجيش البريطانى .

الحكومة احدثت مديرية عامة (للتموين) ثم اصبحت وزارة جديدة هي (وزارة التموين) . وبدأت مديرية التموين توزع بعض المواد الضرورية كالشاي والسكر بنظام البطاقات .

اختفت الاقمشة والسلع من الاسواق ، واصبح هم البعض من التجار واصحاب الأراضي الزراعية اكتناز الثروات الهائلة . الطبقة الوسطى انسحقت بسبب ارتفاع الاسعار وندرة وجود السلع .

بدأت النساء تلبس احذية مصنوعة على كعوب من الخشب ، واستعملت من اطارات السيارات القديمة كعوب للاحذية والنعال ، واخذ الناس يكسرون الزجاجات الفارغة لاستعمالها اقداحاً للشرب لندرة الاقداح الزجاجية في الاسواق ،

والكل يقول همساً ، ان الحكومة عبارة عن عصابة لصوص همها ابتزاز اموال الشعب .

وعندما اهتمت وزارة نوري السعيد بملاحقة الاشخاص الذين اشتركوا مع (رشيد عالى) وحركته واطلق عليهم أسم (الفيلق او الطابورالخامس) وارسلتهم معتقلين الى ناحية (الفاو) في البصرة . . .وكان من بينهم اشخاص معروفون ولهم وزن في البلد مما اثار الانتقادات اللاذعة بين الناس مع معارضة سلبية قوية في النفوس .

استعانت الحكومة بالمثقفين اليساريين لكي يهاجموا انصار المحور . ورأينا الصحف والمجلات العراقية وغيرها من صحف لبنان ومصر كلها تنادى بالدفاع عن الاتحاد السوفييتى ، الذى اصبح على حين غرة «بلاد العدل والاخوة والحرية» . وكانت مجلة في بغداد اسمها (المجلة) تكتب قصصاً ومقالات عن الحرية والعدالة في الاتحاد السوفييتى ، وسكتت عن شتم الامبراطورية البريطانية التى كانت تشتمها قبل اشهر قليلة عندما كان الاتحاد السوفييتى بجانب المانيا وانتزع قسماً من بولونيا التى اختفت كدولة في اوروبا .

تبدلت (بريطانياالعجوز) الآن ، واصبحت تسمى (الصديقة) و(الدولة الحليفة) ، بدون أي حياء من جانب اليساريين . وانتشرت بيننا اوراق سرية لا ادرى

من كان يجلبها وهى (الشرارة) و(القاعدة) وكلها شيوعية ترفع الاتحاد السوفييتى الى القمة وتشتم اعضاء الحكومة العراقية بصراحة وقوة .

كذلك تأسست جمعية اسمها جمعية (مكافحة النازية) وانتمى اليها اليساريون ، ولم ندر كيف نكافح (النازية) لان النازية قد نامت في العراق بعد الهزيمة الكبيرة التي سميت (الفتنة العمياء) .

كنت اعرف بعض البنات عندنا في الكلية وكن على درجة رفيعة في التصرف الاجتماعى ، واذا بهن يتغيرن الى الضد من ذلك بحيث اصبحن فتيات غريبات عما كنت اعرف عنهن . اخذت كل واحدة تصف الاشخاص رجالاً ونساء ، بكل احتقار وبصورة واضحة مثلاً :

- هذا الشخص حشرة يجب سحقه! . . ، وهذا عميل للنازية يبيع اهله في سبيل المال! . . ، وهذا جاسوس يتلصص على الناس! . . ، وغير ذلك من الكلام والاساءة والشتم المخيف من من؟ ممن كنت اجدهن مثالاً يحتذى في الماضى القريب! . . .لقد أيدن المانيا عندما حالفتها روسيا ، والان يشتمون المانيا التى هاجمت الاتحاد السوفييتى ويمدحن بريطانيا العدوة القديمة! . . .

اصبح الشيوعيون يمارسون نشاطهم بصورة شبه علنية ، واصبحت كلمة (جاسوس) تقال لكل من هب ودب! . . وانتشرت الدعوة للشيوعية بشكل منظمات وخلايا بين مختلف الطبقات ما بين عسكريين ومدنيين لخلق الكراهية والبغضاء في نفوس الناس ضد نظام الحكم والقوانين .

وانتشرت القصائد والاشعار عن الحرب في البلاد الروسية وكلها تمجد الشيوعية واشيوعيين وكلها تثير حماس الجماهير لجهود الحلفاء الحربى . وانتشرت بين الطلاب محبة المجتمع الاشتراكى الجديد الذى قالوا لاطبقات فيه وتسود افراده المساواة التامة للنساء والرجال . اصبح المجتمع الاشتراكى وكأنه الفردوس الذى سيقام على الارض! . .

ادى الكلام عن الاشتراكية والشيوعية الى اشمئزازى من هذا (الدين) الجديد الذى يؤله (ماركس) ويقدس (لنين وستالين) . كنت اقول ان الشيوعية نظرية اجتماعية فيها الجيد والسئ لم لا نتحدث عنها بدون ادخال العاطفة في

الموضوع؟ . .ولكن ذلك كان عند جماعة اليسار نوع من (الكفر) ، والتباحث في هذا الموضوع هو كالحديث عن الايمان بالدين لا مجال فيه ولا جدل .

واصبح لقبى بين الاصدقاء بأنني (بورجوازية) لانني كنت اتجادل حول دينهم الجديد . وكنت امزح معهم واقول :

– اود ان اصبح بورجوازية غنية وانا لااملك شيئاً من المال . . .اعطونى المال وسأكون بورجوازية اصلية! . . .

السنتين الاخيرة

في السنة الخامسة في الكلية ، كانت الدروس حول المواضيع (الفرعية) في دروس الطب الباطنى والجراحة العامة . (مثل الامراض العصبية والنفسية والامراض الجلدية والامراض الزهرية وامراض العيون وامراض الاذن والانف والحنجرة والامراض البولية وطب الاسنان) . كنا نتلقى المحاضرات الاولى في الساعة الثامنة صباحاً ، يعقبها الذهاب الى العيادات الخارجية الى الساعة الواحدة ظهراً ، وبعدها نحضر محاضرات الى الساعة الثالثة بعد الظهر . وفى كل عيادة خارجية نداوم لمدة شهر كامل ثم نتحول الى غيرها .

وكان الاطباء في العيادات الخارجية كلهم من العراقيين ما عدا واحد منهم وهو الدكتور (هوف) استاذ الامراض (العقلية والعصبية) وقد كان من بلاد النمسا ، غادر بلاده منذ ان اندمجت النمسا مع المانيا باعتبار النمسا بلداً ألمانيا ، وبدأ اضطهاد اليهود في النمسا . وقد كان الدكتور (هوف) استاذاً يهودياً في كلية الطب في العاصمة (فيينا) ، وقد فقد مركزه هناك واتى الى بغداد .

تعرفنا علي مختلف الاطباء اثناء الدوام وصرنا نعرف طريقة علاج كل واحد منهم ، وقد كانت الدروس في العيادات الخارجية ملذة جداً .

في امراض العيون كنا نداوم مع الاستاذ (جلال عزاوى) يوماً ، ومع الدكتورالمساعد (احمد سهيل) في اليوم الذى يليه .

كان الاستاذ العزاوى في منتصف العمر ، طويل القامة يميل الى السمنة خاصة في منطقة البطن ، وذا شعر كثيف ابيض اللون ويرتدي السترة السوداء

والبنطلون الاسود ذو الخطوط الرمادية كما هي عادة الاطباء البريطانيين والاساتذة العراقيين آنذاك ، ويلبس السدارة دائماً . وكان يحزن لرؤية صغار المرضى يشكون من امراض العيون الحادة ، باجفان متورمة وعيون مسدودة ويصرخ بالأم الفلاحة ويقول بأن الطفل لن يشفى مادامت ايديها قذرة! وهى لاتدرى العلاقة بين اليد القذرة ومرض عيون ولدها! . . أي كيف نعالج الجهل مع الفقر؟

كان للدكتور جلال العزاوى قابلية كبيرة في معرفة المريض واين يسكن وماذا يعمل من قبل ان يخاطبه بكلمة واحدة ، ويكون على صواب في معظم الحالات . رأيته يسأل امرأة ، قبل ان تتكلم معه ، ان كانت تسكن محلة في جانب (الكرخ) ، وانها ايرانية ، وزوجها يبيع (الكبة) ، قبل ان تتفوه المرأة بكلمة واحدة! . .

ولما رأى دهشتى ، لأنني رأيته يتكلم مثل (شرلوك هولمز) في الكتب ، ضحك وقال :

– ان هذه المرأة الفقيرة غطت وجهها تماماً ، وهذا مالاتفعله الفلاحات اوالطبقات الفقيرة عندنا لانهن يكشفن عن وجوههن ، ان الحجاب على الوجه هو من عادات العجم ، ثم شاهد على العباءة السوداء التى ترتديها المرأة بقع واثار صفراء اللون ، وهو يعرف ان بياعى (الكبة) في الكرخ هم من الايرانيين ويستعملون هذه المادة الصفراء في (الكبة) ، ولذلك استنتج مكان المرأة وعملها وجنسيتها رأساً! . .

ولما رأى اهتمامنا نحن الطلاب ـ وكنا خمسة في كل جماعة ـ بدأ يخبرنا عن عمله اثناء الحرب الاولى قبل ربع قرن ، وكان في منطقة جبال (القفقاس) ، يحارب ضد الجيش الروسى . وأنه كان بعرف الجنود الاتراك من لهجتهم وشكلهم ويصيح على كل واحد منهم :

– تعال هنا يا ارزروملى! وماذا صنعت يا ريزه لي! وانت يا قيصرلى! متى اتيت؟ وهذه كلها اسماء بعض المدن في الاناضول ، وكانوا يتعجبون لانه عرف بلدهم قبل ان ينطقوا بأى كلمة! . .

تم نظر الي وقال : اسألى عمك (محمد صالح) . كنا معاً في الفرقة في جبال القفقاس قرب (البحر الاسود) اثناء الحرب! . .

ثم بدأ يصف اكله وشربه هناك :

- كان معى جنديان قرب البحر ، الاول يصيد السمك ، والثانى لديه (طاوة) على النار يقلى السمك ، وانا آكل السمك . . .وبدأ يعيد الجملة مرة بعد اخرى :

- ذاك يصيد ، والاخر يقلى وانا آكل! . .كررها عدة مرات وكانت تثير الابتسام والضحك بين الطلاب .

وكذلك وصف نفسه عندما دعاه رئيسه الطبيب التركى الى بيته هناك لعل ابنته تراه من الشباك لأنه كان ينوى تزويجها من الدكتور جلال :

- وكيف كنت انا في ذلك الزمن؟ كنت شاباً طويلاً ممشوقاً وجهى ابيض شعرى مجعد (مكعكل) ، ولكنى لم انو الزواج! . .

بدأنا نضحك ولم نصدق ان دكتورنا الشيخ الكبير ذا الشعر الابيض والقوام البدين كان كما يقول في الماضي! .

كان الاستاذ العزاوى شخصاً مهيباً وكان كريماً مع الفقراء من المرضى ، بغدادياً في كل تصرفاته وشمائله يرضى بسرعة ويغضب بسرعة والكل راض عن رآسته لقسم العيون والطلاب لا يرغبون عنه بديلاً! . .

اما الدكتور (احمد سهيل) ، فقد كان دون الاربعين عمراً ، تخرج من كلية الطب العراقية وتخصص في امراض العيون في بريطانيا . وكان طويل القامة يرتدي ملابس انكليزية فاخرة ويضع قبعة (برنيطة) بريطانية فوق رأسه ويتقن اللغة الانكليزية ويميل الى التحدث بها طيلة الوقت مع الطلاب بلهجه بريطانية متعالية! . . كان طبيباً متمرساً حاذقاً في امراض العيون ، ولكنه يخيف المرضى المساكين لأنه ضيق الصدر ويظن ان المريض يجب ان يفهم ما يريده بسرعة . وكنا نحاول ، انا وصديقتى (امت) ان نشرح للمريض ما يجب عمله قبل ان يفقد الدكتور صبره .

بعد ذلك بشهر انتقلنا الى العيادة الخارجية لامراض (الاذن والانف والحنجرة) مع الدكتور (قاسم البزركان) . وكان درسه في العيادة الخارجية من الذ الدروس .

كان يعرفنا جميعاً ويعرف آبائنا واعمامنا واقاربنا دون ان نعرفه من قبل .

ومن الاشياء التى لاحظها الطلاب عليه انه كان لايلبس ربطة العنق الطويلة ابداً ، بل يلبس بدلها الربطة المعقودة على شكل فراشة (بابيون) دائماً ، وكانوا يداعبونه عليها . وكان هو يداعب المرضى ، مثلا ، طلب من احد المرضى المغنين في الاذاعة ان يغنى قليلا قبل ان يفحصه ، وطلب من احد المعممين ان يشنف آذاننا بأيات من الذكرالحكيم .

اثناء الفحص يصر على ان نفحص المريض بدقة كاملة ويسألنا اسئلة صعبة يجب علينا ان نجيبها بدقة . وطيلة الوقت يتصرف مع الطلاب بسهولة ولطف وكأنه واحد منهم . ولكن لما حل وقت الامتحان الفصلى لهذا الدرس ، دخل (قاسم البزركان) واذا به قد اصبح شخصاً آخراً . اختفت من وجهه الابتسامة ، وجعل الطلاب يجلسون في اماكنهم بدق ئق قليلة وقال ان من ينظر الى الطالب قربه او يكلمه ، سوف اجعله يترك الصف رأساً! . .أي انه تصرف معنا كما لو كنا تلاميذ صغار يخيفنا بتهديده ونحن في الصف الخامس من كلية الطب .

بعد انتهاء الامتحان زالت العبوسة من وجهه وعادت اليه البشاشة وقال :

- هذا هو الامتحان! . .ولكل حادث حديث! . .

في العيادة الخارجية للامراض الزهرية كنا مع الدكتور (فتح الله عقراوى) وكان معنا في الصف ابن اخيه (غانم عقراوى) ولكنه لم يكن من بين جماعتنا الخمسة ، كان مع خمسة اخرى . كان الدكتور يرى العديد من المرضى ، ولم يكن لدينا (الانتى بيوتيك) أي مضادات الحياة آنذاك ، لان مادة (البنسيلين) كانت في ادوارها الاولى ولايملكها الا الجيش البريطانى ونستعمل فقط لمعالجة الجنود في الحرب . وكانت معالجة الامراض الزهرية في ذلك الوقت تستغرق مدة طويلة والشفاء التام لايحصل دائماً . (تحسن العلاج بصورة كبرى باستعمال مضادات الحياة) .

بعد مرور اكثر من سنة ، وبعد ان قرأنا الكثير في المجلات الطبية عن (البنسيلين) وانجازاته في العلاج الطبى ، تمكن الدكتور (سندرسن) ان يحصل من الجيش البريطانى مقداراً قليلا يكفى لعلاج شخص واحد ، واستعمله على

مريضة واحدة فقط في دار التمريض الخاص تشكو من التهاب الرئة ، وهى زوجة السيد (صالح جبر) احد الوزراء آنذاك . كانت الالتهابات الرئوية قد تؤدى الى الموت او الى فترة طويلة من النقاهة حتى في حالة الشفاء .

كان النجاح مع مريضة الدكتور (سندرسن) بعد (البنيسيلين) سريعاً جداً والشفاء تاماً! . . .

وكالعادة عندنا ، انتقد الطلاب الدكتور (سندرسن) فيما بينهم لانه اعطى البنيسلين الى زوجة احد الوزراء ولم يستعمله على مريض فقير! . . .(من الذى ينجو من الملامة عندنا مهما فعل)؟

اذكر كيف تجمعنا حول الدكتور (سندرسن) عندما جاء وهو يحمل (البنيسيلين) للمرة الاولى وكان في جردل فضى اللون مسدوداً تماماً وبداخل الجردل زجاجات (البنيسلين) مغطاة كلها بالثلج لكي يحمى المادة الثمينه التى تتلف اذا ارتفعت درجة الحرارة . كان سندرسن مزهواً بكونه اول من ادخل البنيسيلين الى المستشفى . نظر الينا ورفع الجردل عالياً وقال وهو يبتسم :

- هذا هو البنيسيلين! . . .

نظرنا نحن الطلاب الي (سندرسن) بذهول واعجاب وكأنه يحمل شيء مقدس هبط من السماء!

نعود الى الامراض الزهرية في العيادات الخارجية ، كان العلاج للامراض الزهرية طويلاً ومؤلماً ، بسبب عدم وجود (الانتى بيوتيك) أي مضادات الحياة .

❊ وكنا نحن الطلاب نظن كل شيء ملوث في هذه القاعة ، ولانمسك بقبضة الباب ان كان مغلوقاً ، بل ننتظر ان يفتح لنا الباب من الداخل! . . لم نرغب ان نلوث ايادينا! . ❊

كنا نحضر الامراض الجلدية مع الدكتور (جوبانيان) . وهو طبيب ارمنى عراقى يتكلم اللغة الانكليزية بلهجة الارمن وكنا نجد بعض الصعوبة في فهم كلامه لانه يتكلم بسرعة وبصوت خافت . اماعندالمرضى فقد كان موضع حب وتقدير .

الطبيب الذى اثار اهتمام الطلاب بشكل كبير هو الاستاذ الدكتور (هانس

هوف) ، استاذ (الامراض النفسية والعصبية) .وهو كما مر ذكره طبيب نمساوى يهودى غادر (فيينا) بعد ان اتحدت النمسا مع المانيافى سنة ١٩٣٨ ، وجاء الى بغداد ، حيث قابله الدكتور (سندرسن) واعجب بعلمه اذ كان طبيباً ممتازاً .

اصبح الدكتور (هوف) رئيساً لقسم (الامراض العقلية) في كلية الطب ورئيساً لمستشفى الامراض العقلية الذي كان قسماً من المستشفى الملكى آنذاك . وكان يشتغل مع (هوف) الدكتور (جاك عبودى) ، وهو يهودى وطبيب من الوجبة الاولى التى تخرجت من كلية الطب . الدكتور (جاك عبودى) من احسن الاطباء علماً وخلقاً ، اشتغل لمدة اربعين عاماً في بغداد ثم ترك البلد في السبعينات نهائياً ومات في الخارج .

طارت سمعة الدكتور (هوف) وصار على كل شفة ، خاصة بين نساء الطبقة الغنية من المتزوجات وهن في سن الشباب بحيث اصبح العلاج معه شأن من شؤون الوجاهة الاجتماعية . كنت اسمع عنه من هؤلاء السيدات اللواتى يتكلمن عنه بصورة نصف مكتومة بينهن ، لان الامراض النفسية كانت لاتحكى الا لصديقاتهن الحميمات . وكلهن يرددن القول عن مقدرة هذا الدكتور ، وكيف انه يكتشف كل ما يسبب لهن الضيق وعدم الرضى في حياتهن .

رأيت احدى قريباتى المسنات تأتى من كركوك لكي يفحصها الدكتور هوف ، ولم تكن تشكو من امراض نفسية بل كانت شكواها من الم في كتفها استعصى على التداوى منذ فترة طويلة ، وقد نالت الشفاء من قبل الدكتور هوف . كانت تقول بملئ قلبها :

- هذا الطبيب الماهر ليس يهودياً! . . انه مسلم عند الله! ، مسلم تماماً! . .

في المحاضرة الاولى دخل علينا الدكتور (هوف) وهو لايرتدى العباءة السوداء التى يرتديها الاساتذة بل كان مرتدياً الصدرية البيضاء الاعتيادية التى يرتديها الاطباء كلهم . كان رجلاً في منتصف العمر ذو صلعة واسعة ، متوسط القامة يميل الى السمنة ويرتدى نظارات سميكة ، وكان باسم الوجه دائماً ، ويتكلم اللغة الانكليزية بلكنة المانية واضحة . كان من حسن حظى معرفتى بهذه اللغة فلم اجد صعوبة في فهم كلامه .

بدأ في دروس (الامـراض النفـسـيـة) ولـم نعـرف شـيـئـاً عنهـا ، لأن دروس (الامراض العصبية) كانت للاستاذ (هاشم الوترى) الذي درسنا امراض الجهاز العصبى عن الدماغ والنخاع الشوكى وامراض الاعصاب ، وكلها معروفة لدينا .

الامراض التي كان يدرسها الاستاذ (هوف) هي (الامراض النفسية) ولا يوجد جهاز للامراض (النفسية) لكي ندرسه . الامراض النفسية كانت جزءاً من علم (الفلسفة) في الماضى ثم تطورت الى (السيكولوجى) ثم اصبحت من العلوم الطبية! . .

بدأ الدكتور (هوف) يتكلم عن (الفكر) وكيف يتطور المرء من الولادة الى البلوغ وحتى يصل الى دور النضج . بدأت افكر طبياً في (الدماغ) ، اين يقع (الفكر) في الدماغ وماذا تعنى كلمة (الفكر) نفسها؟ كل الاجهزة الاخرى في الجسم نعرف عنها بالضبط بلونها وشكلها ، ولكن اين يقع هذا (الفكر) الذى يتحدث عنه الدكتور (هوف) ، ما شكله ، واين حدوده؟ ان الجواب عليه يحتاج الى اجوبة مختلفة لم افهمها تماماً ، رغم ان الدكتور (هوف (كان يتكلم بصورة رائعة استحوذت على جميع الطلاب وانا منهم ، وكأنه ساحر ماهر! .

بدأ بموضوع (فرويد) ونظرياته في (التحليل النفسى) . يبدو ان (فرويد) اتى بأشياء يتعرض لها الشخص في سنواته الاولى من حياته ، وهذه تؤثر على كل ما يحدث له في السنوات التالية من عمره . والتداوى كان (بالتحليل النفسى) . ويستغرق التجليل النفسى ما بين الخمس الى السبع سنوات على شرط الذهاب خمسة مرات في الاسبوع لمدة ساعة واحدة في كل مرة! . .

والطريقة : يستلقى المريض على اريكة مريحة ويجلس الطبيب على كرسى فوق رأس المريض ويستمع الى مايقوله المريض من الكلام دون ان بسأله الطبيب ، وخلال هذه الساعة لايرى المريض وجه الطبيب لانه ينظر فقط الى امامه .

ولم يذكر لنا في أي موضع من الدماغ حدث فيه المرض ، واى مرض هو .

سألته عن مرض (الشيزوفرينيا أي انفصام الشخصية) ، ما هو؟ واين يقع الخلل في الدماغ؟ لم يكن هناك جواب لهذا السؤال . اضاف على سؤالى :

ـ في الكثير من الاحيان نفتح رأس المريض بعد موته لنرى المرض ، وعند

الكثير منهم يبدو الدماغ سليماً كأنه دماغ شخص طبيعي! . .

اندهش الدكتور (هوف) عندما كلمته باللغة الالمانية التى تعلمتها في سنوات الثانوية واصبح يشجعنى ان اذهب بعد التخرج الى (فيينا) للتخصص في الامراض العصبية والنفسية لانه يعتقد ان (فيينا) هي مركز هذه العلوم في العالم . واضاف :

- ولكن ذلك لن يحدث الا بعد ان يندحر (هتلر) ويخرج جبش الاحتلال من النمسا! . .

اما انا فلم اعلق على ذلك لانه كان خيالاً في نظرى . النمسا كانت جزئاً من المانيا الكبرى الآن و(هتلر) كان الزعيم الكبير! . .من يستطيع دحر هتلر؟

كان ذلك في سنة ١٩٤٢ عندما كان هتلر يحكم القارة الاوروبية .

في احدى المحاضرات ذكر :

- انه كان في (فيينا) وفى الاربعين من عمره اصبح استاذاً في كلية الطب هناك وتزوج المرأة التى احبها وانجبت ولداً جميلا وظن انه حاز على مايريد! . . ولكن انظروا الي الآن ، انا في الخمسين من العمر وفى بغداد ، وزوجتى وابنى في امريكا ، ولااعلم ماهو مصيرى! . .

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة حزينة .

لم اصدق نظريات (فرويد) منذ البداية ، ولم اتمكن من انهاء أي كتاب من كتب فرويد الى النهاية لأنها تصيبتى بالملل ، محشوة بكلمات سريرية طبية يصعب فهمها وحافلة بالاشارات الجنسية في كل المواضيع المختلفة . ان الكلام عن الجنس من الاشياء المهمة جداً في حياة الفرد ، ولكن الجنس لايدخل في جميع تفاصيل الانسان . اذا كان فرويد يشعر بتأثير الجنس عليه بهذه الدرجة ، فأن ذلك لايعنى ان الناس جميعاً يشعرون شعوره . (زلسوء الحظ لم اكن اعلم او يعلم غيرى من الطلاب بأن فرويد كان مدمناً على الكوكائين . لقد كان هو الذى ادخل هذه المادة الى الطب واستعملت اولاً كمخدر موضعي في عمليات العيون . لقد ادخلت مادة الكوكائين من البلاد الامريكية الى اوروبا واستعملها فرويد كمخدر موضعى وكان يستعمله عن طريق (الشم) وكان يطلب من اصدقائه استعمال

الكوكائين دون ان يعلم انها تؤدى الى الادمان . وقد ادت الى ثقب في انف فرويد وانف صديقه وهو طبيب أيضاً بسبب شم هذه المادة الخطرة)

جماعة (فرويد) اسبغت على نظرياته نوعاً من القدسية بحيث اصبحت يصعب التعرض الى مناقشتها ، خاصة في امريكا حيث اصبح التحلبل النفسى وسيلة سهلة لاجتذاب الاغنياء خاصة النساء وكسب الكثير من الاموال بواسطة الاستماع للمحلل للمريض ساعة كل يوم لسنوات عديدة .

وكأن الناس لاهم لهم في العالم سوى الجنس والجنس فقط! . .

في العلوم الطبية الحديثة فيما بعد الحرب العلمية الثانية ، انفتحت امامنا الانزيمات الدماغية التى كانت مجهوله ايام دراستنا وتطور موضوع الامراض النفسية واصبح علماً حقيقياً جديداً يتطلب معالجة المريض بأدوية تؤثر على المراكز المريضة في الدماغ .

بعد ان تخرجت من الكلية ، لم اتقدم للعمل في قسم مستشفى (الامراض العقلية) رغم الحاح الدكتور (هوف) . كان القسم المذكور جزء من المستشفى الملكى ويقع في خان تركى قديم مربوط في المستشفى ، وقد كان المكان متأخراً ومخيفاً وقذراً والمرضى اشبه بشحاذين ومن ذوياجنون! .

لم ازر خان الامراض العقلية الا مرة واحدة فقط ولكنها كانت تلك كافية لكي اتجنب زيارنه مرة اخرى! . . .

وقد تم فتح مستشفى جديد في منطقة (الكمالية) جنوبى بغداد بعد الحرب ، وكان المدير هو الدكتور (جاك عبودى) ، لان (هوف) غادر العراق وعاد الى بلاده واشتغل في فيينا وكان يساعد العراقيين الذين يتعالجون هناك . ومات في بلدته العزيزة فيينا! .

الدكتور سندرسن

اهتمامي بالدكتور (سندرسن) باشا بصورة خاصة كونه اصر على فتح كلية طب في بغداد رغم معارضة الجميع لذلك ، ولم يؤازره سوى شخص واحد فقط وهو الملك فيصل الاول .

ادى فتح كلية الطب في سنة ١٩٢٧ ،الى اعداد اطباء من العراق تخرجوا من هذه الكلية واشتغلوا في بلادهم بكل اخلاص وامانة .

الدكتور (سندرسن) دخل العراق سنة ١٩١٨ مع الجيش البريطانى كطبيب ، وكان عمره سبعاً وعشرين عاماً وهو من اسرة طبية سكوتلاندية . اشتغل هو وزوجته البريطانية (الزى) وكانت ممرضة في الجيش وتزوجها في سنة ١٩٢٠ . واثناء اشتغاله في الجيش اطلق اصدقائه عليه أسم (السندباد) وهو البحار المشهور في قصص (الف ليلة وليلة) . وكان الانكليز كلهم ، يسمونه بهذا الاسم .

في اثناء ثورة العشرين في العراق كان يشتغل في منطقة (الحلة) .

اشتغل في خدمة الحكومة العراقية بعد تتويج الملك فيصل الاول . وقد كتب كتاباً مثيراً اسمه (عشرة آلاف ليلة وليلة) يصف فيه ما جرى في العراق آنذاك بعد ان عاش هناك ستة وعشرون عاماً ، وعاد الى بلاده سنة ١٩٤٦ .

اكررمرة اخرى ان اهتمامى بأمره يعود لانه كان السبب في فتح كلية الطب في بغداد ولم يجد أحداً يؤازره في فتحها سوى شخص واحد فقط ، وكانت مؤازرته تعادل الكل في نظر الدكتور سندرسن وكان ذلك الشخص هو الملك فيصل الاول نفسه .

السنة كانت ١٩٢٦ وقد تقرر انشاء كلية الطب في بغداد وان يكون الدكتور سندرسن عميداً لها . لهذا السبب قرر سندرسن ان يعدل عن الذهاب الى بلاده وان يبقى في العراق . لمدة عشرين سنه اخرى . وهو يقول في كتابه :

لان الامر ينطوى على مطمح جذاب لا قبل لي بمقاومته . اصبحت عميداً منتخباً قبل افتتاح الكلية بسنة كاملة ، كذلك تم تعييني طبيباً في المستشفى العام الجديد ، حيث تم تحويل المستشفى التركى القديم الى مستشفى حديث ، اكثر جاذبية واوسع نطاقاً . . .

تركز اهتمامى الاول حول بناء كلية الطب . . . وكانت قطعة الارض التى اختيرت لذلك مجاورة للمستشفى الملكى ، وتوفر فيها مجال كبير للتوسع في المستقبل . . .كانت بناية الكلية خلال السنتين الاولين من الدراسة ، ذات طابق واحد وتتألف من عدد واسع من الغرف والمداخل وقاعات الاجتماع والدوائر

وقاعات المحاضرات والمختبرات والمكتبة والمخازن وما شاكل ذلك . . .وقد انجزت هذه المهمة الهائلة في مدة تقل اسبوعين عن التاريخ المحدد لافتتاح الكلية .

ومن الامور التى اثارت لدى الدهشة الكبيرة ، اننى منحت حرية العمل في كل امر يخص كلية الطب بأستثناء امر واحد ، هو عدم جلب الاساتذة من الخارج لمدة اثنى عشر شهراً من تاريخ الافتتاح ، ومن ثم فأن مثل هذا الامر يجب ان يتم بموافقة مسبقة من مجلس الوزراء .

وقد علمت فيما بعد ، بأن الشكوك كانت تراود اذهان بعض الوزراء حول عدم تأييدهم افتتاح كلية للطب في بغداد ، والتعويض عن ذلك بأرسال الطلاب للتدرب في الخارج . وطبقاً لهذا تقرر ان تكون كلية الطب الجديدة هذه خاضعة لفترة تحضيرية مدتها سنة واحدة ، ومن ثم يتم اتخاذ قرار عما اذا كانت ستواصل عملها ، او يتم اغلاقها .

لم يظهر أي شخص اهتماماً كبيراً بمشروع كلية الطب مثلما اظهره الملك فيصل . فقد كان يسألنى باستمرار عن التقدم الذى يحدث في المشروع . ولما اخذت البنايات شكلها ، كان جلالته يقوم بعدة زيارات الى موقع العمل ، وكان يتسائل عن الغرض من كل فراغ فيه .

وقد استمر الجدل بشأن تاسيس كلية الطب وعدم تأسيسها طوال الفترة التحضيرية من تاريخ الكلية . غير ان الاشاعات عن اغلاقها غدت نادرة وقد ثبت بأن تلك الاشاعات لم يكن لها من اساس .

وهكذا تم افتتاح الكلية طبقاً للتاريخ المحدد ، وهو شهر تشرين الاول , ١٩٢٧

وقد كان من حسن حظ كلية الطب ، ان يكون السيد (عبد المحسن السعدون) رئيس الوزراء في ذلك الحين لانه منحها الرعاية المادية والابوية الحنونة .

توافرت لي قطعة ارض جميلة خلابة المنظر تابعة لمديرية الاوقاف ، لغرض بناء بيتنا عليها . .وقد بنيت حسب توصيات معمار بريطانى . . .وهكذا ففى الوقت الذى كمل فيه بناء كلية الطب ، انتقلنا انا (والزي) زوجتى الى الدار الجديدة التى شيدناها ، واطلقنا على بيتنا الجديد هذا اسم (النخيل) وذلك بالنظر

لوجود ثلاثة انواع جميلة من النخيل في حديقة البيت الجذابة .

تم اجراء اختيار موعد الدخول الى الكلية ، وتعيين مجلس من الممتحنين ، واستمرت هذه الترتيبات مدة اربع سنوات ، وكان مستشار المعارف (مستر سميث) وزمرة من رجال المعارف ممن ايدوا قناعتى بأن كلية الطب ، وليس وزارة المعارف هي التى يجب ان يوكل اليها أمر قبول الطلبة في الكلية .

واثناء غياب (الستر سميث) طلبت وزارة المعارف بأن يكون لها الاشراف المطلق على الكلية ، لكن هذا الطلب جوبه بمقاومة شديدة الى درجة اننى هددت بالاستقالة من منصبى . واخيراً ، ونتيجة للتنازلات المتبادلة اصبح الامتحان التمهيدى (البكالوريا) من اختصاص وزارة المعارف ، ولكن اختيار الطلبة ظل تحت الاشراف المطلق للكلية .

تم انتخاب اثنى عشر مرشحاً للقبول في الكلية الطبية خلال السنة الاولى ، ثمانية منهم من المسلمين ، وثلاثة من اليهود ومسيحى واحد .

ولقد كان الطلاب اليهود اذكياء بصفة خاصة ، وكان من نتائج قبول هؤلاء الطلاب اليهود ، ان راحت الصحف المحلية تتهمنى بأنني (صهيونى! . .) .

اخذ الطلاب يرتدون ملابس خاصة لهم وهى سترة زرقاء غامقة وتحتها سروال رصاصى اللون ، وعلى الجيب الاعلى في ناحية اليسار رسم شعار لطلاب كلية الطب العراقية . وقد قامت (الزى) زوجتى برسم ذلك الشعار ، ويتألف من صورة نهرين يجريان ثم يلتقيان ، ويضم صورة افعى وكتاباً مفتوحاً ، وفى اسفل ذلك وعلى الجانبين صورة ثور آشوري . وقد تمت الموافقة بسرعة على قبول هذا لشعار .

انتهى كلام الدكتور سندرسن .

بعد سنوات ، اصبح الطالبات يلبسن سترة وتنورة باللون الرصاصى وبلوز بلون ازرق غامق مع وضع الشعار على الجيب الاعلى . وقد كان الطلاب والطالبات يفخرون بهذا اللباس! . . بالاضافة الى كونه عميداً للكلية ، كان الاستاذ سندرسن استاذاً في الامراض الباطنية . وهذا الدرس يبدأ في السنة الثالثة وبستمر الى السنوات الرابعة والخامسة والسادسة .

كان الدكتور سندرسن رجلاً طويل القامة حتى بين الانكليز ، اشيب الشعر يسير بخطى عسكرية منتظمة ويبدو باسم الوجه دائماً ، طلعته انيقة ارستقراطية وصوته في المحاضرة صوت (اوكسفوردي) فصيح . وكان يميل الى النكتة البسيطة اثناء المحاضرة ولم نسمعه يغضب معنا ابداً .

كان الاساتذة الانكليز الآخرين يسمونه (سندباد) فيما بينهم ، او (الباشا) أيضاً .

له سيارة (اولدموبيل) اهداها له الملك غازي بعد ولادة ابنه فيصل وكان الوحيد بين الاساتذة البريطانيين الذى لايسوق سيارته بنفسه ولديه سائق هندى يرتدى الملابس الاوروبية العادية ويضع على رأسه (الكاسكيت) في الشتاء وقبعة من الفلين الخاكى في الصيف .

كان الاستاذ يجلس في القسم الخلفى من السيارة ، على جهة اليمين ويفتح جريدة امامه لقراءتها اثناء السير ولا يلتفت بنظره الى الشوارع ، وكانت هذه عادة عند اطباء الانكليز في الماضى .

اما الاساتذة البريطانيون الآخرون فلم يكن لديهم سواق وكانوا يسوقون سياراتهم بأنفسهم . واذكر ان للدكتور (ستيسى) كان يخرج في المساء ويأخذ معه (الفراش) ويجلسه معه الى يمينه ، بينما في تلك الايام كان الخدم عندنا يجلسون الى الخلف . اما الاساتذة العراقيون ، فكان لكل واحد منهم سائق خاص ولم ار أي واحد منهم يسوق سيارته بنفسه .

كان من عادة المسز (سندرسون) ان تدعو جماعة من طلاب الصف الثاني الى بيتها لحضور حفلة شاى مرة كل سنة .

وعندما وصلنا السنة الثانية ، دعت الطالبات فقط لحفلة شاى ودعت زوجات الاساتذة الانكليز وكذلك المس (كينكستون) رئيسة الممرضات ، والرجل الوحيد الذى كان بيننا هو زوجها الاستاذ (سندرسن) .

كانت حفلة لطيفة تمكنا من معرفة زوجات الاساتذة وصاحبة الدعوة . وكانت مائدة الشاي في الحديقة لأن الوقت كان في الربيع ، وفوق المائدة اشكال جميلة من اطباق الكعك والكيك والفواكه والازهار .

شاهدنا شخصاً يجلس على كرسى بعيداً عنا وامامه لوحة يرسمها بالالوان الزيتية . كان ذلك هو الفنان المصور (فائق حسن) يرسم البيت (النخيل) من الحديقة . احطنا به وابدينا اعجابنا بالصورة التى كانت تقارب نهايتها ، ابتسم الرسام من تعليقاتنا ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة ، طلبت منه مسز سندرسن ان يشرب الشاي مع الجماعة ولكنه رفض ذلك .

كانت هذه الحفلة قبل حركة (رشيد عالى) . وكانت بغداد تعيش بصورة طبيعية كما اعتدنا .

بعد حركة(رشيد عالي) تبدلت الامور كثيراً ومن الجملة انقطعت المسز سندرسن عن دعوة الطلاب او الطالبات الى بيتها لان البيت قد نهب وسرق معظم اثاثه! . . .

اثناء حركة رشيد عالى لجأ الانكليز الى سفارتهم والى القنصلية الامريكية لمدة شهر واحد ، وعندما عادوا الى بيوتهم وجدوا بيوتهم منهوبه ومخربة تماماً .

في بيت سندرسن نسفت الخزانة وسرقت منها النقود والمجوهرات وجميع الستائر والسجاد الايراني الذي جمعوه تم جمعها خلال عشرين عاماً وكسرت القناني والصحون والرسوم من على الجدران ونهبت ادوات الحمام والمرافق الصحية وجهاز الراديو الجميل هدية الملك (غازى) الى زوجة سندرسن وسيارتها الصغيرة وبعثرت الرسائل والمجلات والصحف .

الا اننا بدأنا نحن الطلاب بعد حركة (رشيد عالى الكيلانى) نصف الدكتور (سندرسن) سراً بيننا بأنه (الجاسوس الاكبر) لبريطانيا عندنا . ولم نأسف لتخريب اثاث بيته ونهبها من قبل الجنود والضباط اثناء تلك الحركة لاهو ولا الاساتذة الانكليز الآخرين . هذه كانت قناعتنا آنذاك! . .وتبدو الآن قناعة خاطئة! .

عاد الاساتذة الانكليز بعد حركة رشيد عالى وكأن شيئاً لم يحدث بيننا وبينهم ، عادوا بعين الثقة بالنفس المأثورة عنهم ، وباهتمامهم الشديد لتعليم الطب . واصبح الدكتور سندرسن عميداً لكلية الطب مرة اخرى .

هنا يجب ان اضيف حادثة مع الدكتور سندرسن .

في كل هذه السنوات كانت الطالبات المسلمات يلبسن العباءة في الطريق ويخلعنها في داخل الكلية اما غير المسلمات ، فكن يرتدين القبعات الاوروبية .

كنت في السنة النهائية ، ومعي اختى (لمعان) لبسنا العباءة في نهاية الدوام في طريقنا الى البيت عصراً . بعد امتار قليلة وصلنا الى بناية الاشعة واذا بشخص طويل القامة يسير وراءنا ويضع كفيه على كتف كل واحدة منا ويقول :

ـ الى متى ستبقى هذه العباءة فوق رؤسكن؟ قال يخاطبنى :

ستكونين طبيبة في السنة القادمة ، وقال للمعان ، وانت كذلك . نظرت اليه وقلت له :

ـ سوف اخلعها ! . .

وصلنا البيت وكنت ولمعان نشترك في غرفة واحدة لنا فقط . جلست على الكرسى وقلت للمعان :

ـ سوف نخلع العباءة غداً! . . سوف اكلم والدي الآن! . .

كلمنا والدي وقلت له اننا سوف نسير في الطريق دون العباءة وان العميد اقترح ذلك علينا . نظر والدي الى طويلاً ولم يقل شيئاً! . . لاحظت انه قد ارتضى ذلك . عدنا الى الغرفة وقلت للمعان :

لا عباءة بعد الآن . . .

في اليوم الثانى تعجب الجميع قي البداية من (سفورنا) في الطريق ولكن بعد مرور سنة واحدة اسفرت الطالبات بالتدريج ولم نسمع عن ذلك أي شيء يذكر ،

قدم الدكتور سندرسن استقالته من الحكومة العراقية في ايار ١٩٤٦ . وكان لايزال يسكن في فندق (ريجنت بالاس) بعد سرقة ونهب بيته .

اقيمت له حفلة عشاء في الاوتيل نفسه وضمت عدداً من الاطباء ، وكانوا جميعاً من طلابه القدماء .

وقد حضرت الحفلة واستمعت الى الاطباء الذين القوا كلمات توديعية لشخص كنا نظن ان المستشفى لا يخلو منه . وسمى على سبيل المزاح بأسم (ابن سندر) العربى ، وأنه قريب من شخص (السندباد) في الف ليلة وليلة .

اذكر اشياء قليلة عما قال في تلك الليلة البعيدة قال :

- انه سعيد بأن يترك العراق وعدد الاطباء الذين تخرجوا من الكلية الطبية قد تجاوز الخمسمائة طبيباً وهذا هو كل ما كان يرجوه! . .

غادر الدكتور سندرسن وزوجته بغداد في سنة ١٩٤٦ وعمره ستة وخمسون عاماً .

وقد عاد الى بلاده بصحبة العائلة المالكة العراقية التى كانت تقضى الصيف في بريطانيا .

+ كان للدكتور سندرسن بيت جميل في الريف في الجنوب (اسكس) وقد دعيت مع بعض الاطباء العراقيين الى حفلة شاى فخمة اقامتها زوجته (الزى) الظريفة . رأينا الحديقته الواسعة والبيت الجميل والاثاث الانكليزي الفاخر وشاهدنا رسوماً زيتية عن بغداد معلقة على الجدران ، وبعض الادوات الفضية من صنع (الصابئة) في شارع النهر في بغداد وسيف جميل وبعض الخناجر العشائرية . ولكن ما جلب انتباهى واهتمامى كان في الحديقة الكبيرة حيث يجرى فيها نهر صغير اقاموا عليه جسراً خشبياً بديعاً وبقرب الجسر توجد (قفة) سوداء صغيرة من بغداد مربوطة الى الجسر بواسطة حبل قصير!

انها ترمز الى (نهر دجلة) وعهد القفف التى كانت تستعمل في بغداد .

كانت حفلة الشاي لطيفة مؤنسة مع عميدنا السابق وزوجته الكريمة .

هنا اقترح بعد هذه السنوات الطوال ، وزوال الاستعمار كما نعرفه من العالم ، ان ينصب تمثال للدكتور (سندرسن) في بناية كلية الطب في بغداد اعترافاً بفضله على ما قام به من ريادة وهمة عظيمة لتأسيس اول كلية للطب في العراق .

لقد تغلب على كل المشاكل والصعوبات التى كانت في طريقه في ذلك البلد المتخلف في عشرينيات القرن العشرين . يجب ان نشعر بالاخلاص والدين تجاهه الخدمة الهائلة التي قام بها من اجل يلادنا .

يجب ان اضيف ، ان الكلية التى انشأها الدكتور سندرسن في عهد الملك فبصل الاول وكان عميدها الاول ، ارسلت المئات العديدة من الاطباء العراقيين الذين غادروا العراق ، لاسباب كثيرة ومتعددة ، وانتشروا في العالم العربى والغربى

من بريطانيا واوروبا الى امريكا الشمالية والجنوبية واستراليا ونيو زيلندا ، وحصلوا على احسن المناصب الطبية ، ورفعوا رأس العراق عالياً! . .

الكلية الطبية في بغداد بحاجة الى ثلاثة تماثيل للاساتذة الكبار الذين خدموا هذه المؤسسة الكبيرة ، وهم الاستاذ سندرسن والاستاذ صائب شوكت والاستاذ هاشم الوتري .

وفاة الاستاذ براهام

كان الجراح البريطانى (نوئيل براهام) استاذ الجراحة في كلية الطب في بغداد ، وهوالذي قام بعملية جراحية للملك فيصل الاول في سنة ١٩٢٢ وازال له الزائدة الدودية التي كانت ملتهبة التهاباً حاداً ، وقدساعده الدكتور (سندرسن) في اجراء العملية .

بعد العملية انعم الملك على كل منهما بوسام (الحجاز) الممنوح من قبل ابيه (الملك حسين) ، بسبب عدم وجود اوسمة عراقية في ذلك الوقت .

بقى الجراح (براهام) في المستشفى الملكى ، وعندما فتحت كلية الطب كان هو استاذ الجراحة ومعه اطباء آخرون وكان الدكتور العراقي الماهر (صائب شوكت) الاستاذ المشارك معه .

في السنة الثالثة من الكلية بدأنا في تعلم فرع الجراحة ، ويستغرق هذا الفرع اربع سنوات أي الى السنة السادسة . كان الدكتور (صائب شوكت) يعطى المحاضرات (النظرية) في الجراحة ، وكان محاضراً كبيراً ، واسمه بين الموظفين والمرضى .

(صائب بك)

كان الاستاذ (براهام) يلقى علينا محاضرات الجراحة (السريرية) ، ولكن في الردهات الجراحية فقد كنا نتدرب مع الجراحين بدرجة (استاذ مساعد) او (مدرس) في الجراحة لمدة ساعتين كل يوم ونشاهد التغييرات المرضية على المرضى وطريقة معالجتهم اليومية واستجابتهم للعملية والدواء .

كان الاستاذ (براهام) في الخمسينات من عمره متوسط القوام ممتلئاً ذا وجه ابيض متورد مثل اكثرية الانكليز وذا رأس اصلع وعينين زرقاوين ويرتدي عوينات بيضاء ذات اطار ذهبي ، وكان صوته وكلامه لطيفاً مع الجميع . كنا نسمع من الجراحين الشباب في الردهات درجة حبهم واحترامهم للاستاذ براهام ، وقد كان جراحاً ماهراً! . .

اثناء الدرس كان يسأل عن بعض الاسماء الطبية واسمائها الاغريقية الاتية من قصص (الياذة هوميروس) يسألنا لماذا كانت هذه التسمية .

لم يكن الطلاب يعرفون أي شيء عن (هوميروس) وقصصه ، و(الالياذة) لم تكن في مناهجنا في المدارس . من ناحيتي ، فقد قرأت في مجلة (الرسالة) المصرية عن القصص الكثيرة عن حروب طروادة ومآسيها وكنت اعرف بعض التفاصيل عنها وهي من ترجمة الاديب المصري (دريني خشبة) .

سأل مرة عن معنى اسم كلمة (عضلة اخيل) وهي اسم العضلة الموجودة في نهاية عضلات الرجل في اسفل الساق وتمتد الى اسفل القدم ، ولم كان اسمها اخيل .

رفعت يدي واخبرته عن (اخيل) احد ابطال حروب طروادة التي غمرته امه وهو حديث الولادة بمادة سحرية تمنع دخول السهام الى جسمه وكانت تحمله من اسفل قدميه وبقيت تلك المنطقة من القدم المحل الوحيد في جسمه تنفذ منه السهام اليه .

سمي هذا القسم من القدم (عضلة اخيل) لذكرى هذه القصة .

وفي اللغة الانكليزية تستعمل كلمة (اخيل) لكل محل ضعيف في الدفاع عن موضع قوي متين .

ابتسم الاستاذ وتعجب بأن الشخص الذي عرف الالياذه في الصف كانت فتاة واحدة .

تعرض بيت الاستاذ براهام للنهب اثناء حركة (رشيد عالى) وانتقل من بيته الى اوتيل (مود) في نهاية شارع الرشيد من جهة الباب الشرقى ، وارسل زوجته وابنته الشابة الى انكلترا .

بعد اشهر قليلة بدأ عليه المرض ، وكنا في الصف الخامس . بدأ يسير بخطى بطيئه واصبحت محاضراته قصيرة . في آخر محاضرة له معنا ـ ولم يكن يعرف انها ستكون الاخيرة ـ انتبه الى بطء كلامه معنا وقال :

– انا مريض قليلاً ، ولكن لااحب ان ارى الطبيب يعالجنى كل يوم! . . يقال ان تفاحة في اليوم تبقى الطبيب بعيداً! . .لذلك آكل تفاحة في كل يوم وابقى طبيبى (سندرسن) بعيداً! . .

بعد ايام قليلة اعلن على جدار الكلية وفاة الاستاذ براهام ــ! . .ويبدو ان زوجته وابنته عادتا الى بغداد قبل وفاته .

في يوم الجنازة استعد الاطباء والطلاب والطالبات للذهاب الى خارج اوتيل (مود) حيث وقفنا في صفوف كل صف باربعة اشخاص . وكان الطالبات ومعنا الدكتورة (آنا ستيان) في المقدمة نتقدم عليهم ومعنا المسز براهام وابنته وزوجة سندرسن . ثم زوجات الاساتذة الانكليز والاساتذة انفسهم ، سرنا الى مقبرة الانكليز قرب ساحة الطيران ، وصلنا الى القبر وكان مفتوحاً . تحلقنا اطراف القبر وبدأ القس الانكليزى يتلو الادعية والصلوات وكان الانكليز يعيدون عليه بعض الصلواة السريعة .

كانت هذه اول مرة ارى فيها جنازة الدفن ، لان النساء المسلمات لايشتركن في جنائز الدفن ابداً .

رأيت انزال التابوت الى القبر بواسطة حبل في جهات الاربعة من التابوت ثم رأيت القس يرمى عليه حفنة من التراب ثم نثرت حفنة من التراب زوجته واخرى من ابنته . ورأيت عيون الدكتور (سندرسن) تلمع بسبب الدموع التى صعدت الى عيونه . اما زوجة الميت وابنته وزوجة سندرسن فقد بكين كثراً! . . .

وهكذا مات استاذ بريطاني خدم العراق كطبيب وكاستاذ ، وعلّم طلاب الطب العلوم الطبية الحديثة في هذه المدينة القديمة الخالدة وكان يفخر دائماً بما أنجزه هو ورفاقه من التقدم العلمى الحديث في بلاد الرافدين! . . .

حفلة تخرج

شاهدت اول حفلة تخرج للاطباء في سنة ١٩٣٨ .

كانت حفلة رائعة لاازال اذكر منها الكثير وكان العميد الدكتور (هاشم الوترى .

قرأنا على لوحة الاعلانات في الممشى ، بأن حفلة التخرج ستكون في يوم معين بعد الظهر ولن يكون هناك درس او محاضرة في الكلية ، وعلى الجميع لبس زى الكلية في ذلك اليوم . والحفلة ستكون في قسم الحديقة الايسر ، ولم يذكر قدوم الملك غازى للحفلة رغم ان الكلية الطبية الملكية قد رعاها الملك فيصل الاول منذ البداية! .

ولكننا سمعنا ان رئيس الوزراء السيد (جميل المدفعى) سيرعى الحفلة .

صفت الكراسى حول الحديقة وارتفعت الاعلام العراقية وللوحات الترحيبية على الاشجار والجدران في الكلية .

طلبوا من طالبات الصفين الاول والثانى ان نقوم باستقبال الضيوف ، وكنت مع صديقتى (أمت) في مدخل باب الحديقة . كان محل جلوس الضيوف على القسم الايمن من الحديقة ويقابله الجانب الايسر المعد لجلوس الاساتذة ، ووضعت كراسى في اول الحديقة تقع مابين الجانبين لجلوس المتخرجين .

شاهدت رئيس الوزراء يدخل ويستقبله العميد ويسير به الى كرسى الشرف ، وكان الاساتذة في بناية (دار الاشعة) ومعهم الاطباء المتخرجون ينتظرون ظهورهم الى الحديقة وكلهم يرتدون الزي الجامعي . وكانت هنالك فرقة من موسيقى الجيش تضفى على المكان بأنغامها الجميلة طابع السرور والمرح .

رأيت السيدة حرم جميل المدفعى سلمت عليها لأنني اعرفها جيداً وسرت معها الى الجانب الايمن من الحديقة بين الضيوف . وكان معظم الضيوف هم من آباء وامهات الاطباء المتخرجين . وكانت والدتى مدعوة لأنني كنت في لجنة المستقبلين ولى الحق في دعوة شجص واحد ، وانا اعرف محبة والدتى لحفلات مثل هذه الحفلة .

ظهر امامي رئيس المستقبلين الطالب في الصف الصف الخامس (معمر

الشابندر) ومعه شخص يلبس نظارات ويرتدى السدارة العراقية ، وقد حسبته مدعواً عراقياً .

واذا الدكتور معمر الشابندر يقدمني اليه ويقول :

- الدكتور (زكى مبارك) .

صافحت الدكتور زكي مبارك بترحيب كبير ولم يحدث ان اكلمه ثانية لان رئيس المستقبلين سار به بسرعة الى محل الضيوف ليضعه في كرسى في الصف الاول .

كنت اقرأ مقالات الدكتور زكى مبارك كل اسبوع في مجلة (الرسالة) وهو يكتب كتابه الحديث (ليلى المريضة في العراق) على شكل مقالات اسبوعية .

في الاسبوع اللاحق في (الرسالة) ذكر زيارته الى حفلة الكلية في (ليلى المريضة غى العراق) وذكر انه راى فتيات طالبات لايشبهن (ليلى) لانهن بيضاوات و(ليلى) سمراء! . . .

كان رئيس الوزراء جالساً في مكانه والموسيقى تعزف ، واذا بالاساتذة يخرجون من بناية الاشعة وهم يلبسون الزى الجامعى الاسود وعلى الرقبة ياقة كبيرة تتدلى الى منتصف الظهر لونها احمراً قرمزياً . تقدموا بأنتظام وجلسوا في اماكنهم قرب رئيس الوزراء وتبعم المتخرجون يرتدون نفس الزى الجامعي الاسود ولكن الياقة الكبيرة كان لونها اخضراً زاهياً وجلسوا في اماكنهم .

صفق المشاهدون للاطباء الجدد وللاساتذة وكان منظرهم مهيباً رائعاً .

القى الدكتور (اكرم القيماقجى) كلمة بأسم المتخرجين الجدد باللغة العربية وكانت لغته سليمة وعالية جداً . انه كان معلماً في احدى المدارس ثم انتمى الى كلية الطب ، وقد كان الاول في تلك السنة لانه فاز بعدد كبير من الجوائز .

الجوائز تأتى من احد الاساتذة عن درسه الخاص ، وتعطى للأول في ذلك الموضوع ، وهناك جوائز من شركة (النفط العراقية) ومن بعض البنوك تمنح للاول في موضوعات معينة . معظم الجوائز هي مجموعات لكتب علمية ثمينة او جوائز نقدية .

ثم تكتب اسماء المتفوقين في كل سنة على لوحات عالية معلقة على جدران

الكلية وكل جائزة عليها اسم المتخرج والسنه التى نال بها الجائزة وتكتب اسم مانح الجائزة في الاعلى .

بقيت هذه اللوحات على جدران الكلية لسنوات عديدة ولا ادرى ان كانت موجودة الى الآن! . . انها ذكرى عزيزة تعطى عمر الكلية وانجازاتها! . .

بدأ الاستاذ سندرسن يقرأ اسماء الخريجين الواحد بعد الآخر ، ويتقدم الخريج ويقسم يمين (ابوقراط) باللغة العربية وفيه بعض التحوير العربى ثم يأخذ الشهادة من رئيس الوزراء ويرجع الى محله . وبعد الانتهاء من اعطاء الشهادات وقف العميد الاستاذ (هاشم الوترى) وبدأ يقرأ اسماء الحائزين على الجوائز . وكان الدكتور (اكرم القيماقجى) اكثر من حصل على تلك الجوائز . وكان ابوه السيد (احمد افندى القيماقجى) حاضراً بين الضيوف ، وكان الاب فكهاً مشهوراً عند اصدقائه في بغداد ، حيث يجتمع اصدقاؤه القدماء في بيته ويسمعون ما جرى في بغداد من الحوادث ، ويعلق (احمد افندى) تعليقاته الظريفة . وقد اضفى نجاح ابنه في هذه الحفلة الكثير من الفخر والسرور للأب .

في نهاية الحفلة عادت فرقة الموسيقى الى العزف البهيج وانصرفنا وبقيت آثارها في الاذهان .

في السنة التالية لم نحتفل بالتخرج بسبب الحداد لوفاة الملك غازى في شهر نيسان

وقداعلنت الحرب العلمية الثانية بعد وفاة الملك بأشهر قليلة . ولم نحتفل في سنة ١٩٤١ بالتخرج بسبب حركة (رشيد عالى) في شهر مايس .

في ستة ١٩٤٢ كانت حفلة التخرج التالية وكنت طالبة في الصف الخامس .

اقيمت حفلة التخرج في جزء يقع على يسار بناية الكلية قرب حافة دجلة .

نصبت اخشاب فوق مسرح خشبى خاص امام المدعوين جيث لجلوس الاساتذة

وكان العميد الاستاذ (هاشم الوترى) . وكان محل جلوس الخريجين على القسم الايمن من المسرح الخشبي .

كان الاهتمام الكبير هو ان الوصى الامير (عبد الاله) سوف يقدم الجوائز الى المتخرجين الجدد .

وقد طلب من الطلاب الذين حازوا على الاولية في الصفوف الاخرى ان يتهيّأوا ويجلسوا على مقربة من الخريجين لكي ينالوا جوائزهم ، وكنت منهم! . .

لقد حصلت على الاولية في درس امراض (الصحة العامة) والاولية مع طالبة اخرى هي (امت الزهاوي) في درس (الطب العدلى) وبذلك استحقيت الدرجة الاولى في (المجموع النهائي) أيضاً تسلمت بطاقة الجائزة من سمو الوصي مرتين .

حضر الحفلة والدي ووالدتي كل بصورة منفردة والدي مع صديقه (احمد آغا كركوكلي زاده) ووالدتي حضرت وجلست في القسم المخصص للنساء في الصفوف الخلفية .

الحديقة واسعة كانت مليئة بالاعلام العراقية واللوحات الترحيبية بسمو الوصى وباهالى المتخرجين وبالعراق ، وكان عدد اصحاب الصحف كبيراً .

فرقة موسيقى الجيش كانت تعزف الالحان الجميلة المؤثرة التى تبعث الحياة والامل في النفوس .

دخلت مجموعة الاطباء الخريجين باثوابهم السوداء والياقات العريضة الخضراء ، ثم جماعة الاساتذة من العراقيين والانكليز بياقاتهم الحمراء القرمزية والذين استقبلهم الضيوف بالتصفيق الحار . بعد ذلك وقفت الموسيقى عن العزف فترة قصيرة ثم عزف السلام الملكى ، لوصول الوصى الى الاجتماع . صمت الجميع ووقفوا احتراماً لسمو للوصى .

القى العميد الكلمة الى الخريجين ، ثم بدأ ينادى اسماء المتفوقين ، اي من حاز على الاولية من الصفوف الاخرى ليتسلموا الجوائز من سمو الوصى ، وعندما وصل الصف الرابع نادى على العميد وتقدمت حيث نلت جائزة الاستاذ (ماكداول) وجائزة ثانية من الاستاذ (ملز) ، من سمو الوصى . وعندما نال طلاب الصفوف الاخرى جوائزهم ، بدأ الاستاذ العميد ا باعطاء الشهادات الى المتخرجين الجدد .

ينادي العميد اسم الخريج الذي يتقدم وبقسم قسم (ايبوقراط)، ثم يصافحه الوصى ويعطيه الشهادة. وكان الاول في تلك السنة الدكتور (سعاد اسعد نيازى) الذى حصل على اكثر الجوائز.

وكان والدي ومعه صديقه القديم السيد (احمد اغا كركوكلى زادة) فذهبت وصافحتهما. رأيت والدي باسماً فخوراً برؤية ابنته تأخذ جائزتين، ولكنه لم يعلق كعادته وحزت من السيد احمد آغا بالتبريكات والتهانى! . . .

اما والدتى فقد كانت في جزء آخر من الحديقة وقد قبلتنى عندما ذهبت اليها.

السنة الاخيرة (الستاجيير)

في الصف الخامس كانت الامتحانات كلها حول الدروس الفرعية من الطب الباطنى

والجراحة العامة وهى (الامراض العصبية والعقلية، الامراض الجلدية والزهرية وغيرها من الطب الباطنى وامراض العيون وامراض الاسنان والامراض البولية من الجراحة) وكانت الامتحانات فصلية كلها.

وكانت درجات الامتحان العالية بينى وبين طالب آخر هو (محمود الجليلى) في كل هذه الدروس هذه العام. واذكر بأن حصولى على الدرجة الاولى في (الامراض العقلية) افرحنى بصورة خاصة. وقد مدحنى الاستاذ (هوف) وطلب مني ان استعد للعمل في الامراض العقلية بعد التخرج.

كانت نتائج الامتحانات جيدة للطلاب واصبحنا كلنا في الصف النهائى. اصبح لدى كل طالب لقب (ستاجيير) أي طبيب تحت التمرين.

اخذنا عطلة لمدة شهر واحد في تموز على ان نعود الى العمل في شهر (آب). تقسمنا على العمل كل ثلاثة اشخاص في احدى الردهات في المستشفى الملكى اوفى مستشفى (العزل) وننتقل بانتظام طيلة هذه السنة لكي نشتغل في الردهات والاقسام كلها.

كان الطلاب الذين سوف اشتغل معهما هما (صبحي محمد نوري ولويس

شمعان) و اول محل اشتغلنا فيه هو (فرع اشعة اكس اوالرونتكن) مع الاستاذ (نورمان) البريطانى ، ومساعديه الدكتور (احسان القيمقجى) والدكتور (سلمان درويش) وهو من الاطباء اليهود ، ومعهم موظف صحى وهورجل معمم يلبس عمامة خضراء اللون تلتف حول طربوش احمر ويرتدى الجبة السوداء واسمه (السيد حسن) من منطقة (الكاظمية) وشكله يوحى وكأنه (بزاز) في السوق . وقد تعجبت من قابليات السيد (حسن) ومعلوماته الانكليزية وهو يتكلمها بطلاقة تتنافى وملابسه الشعبية ، وأحياناً كان يشرح لنا لوحات الاشعة والتخريبات الموجودة عند المريض ويستعمل اللغة اللاتينية أحياناً لكي يختصر من طول الجملة (كما يصنع الاستاذ نورمان) ، وكانت عدد معلوماته المستعملة في اللغة اللاتينية تفوق معلومات الكثير من الطلاب . اردت ان اسأله عن معلوماته في اللغة الانكليزية وقابلياته في علم الاشعة لكنني ترددت ان افعل ذلك .

الاستاذ (نورمان) كان فخوراً بعمل السيد (حسن) دون ان يهتم بشكله الشعبى .

كان الاستاذ (نورمان) يشرح لنا مانرى من لوحات الاشعة للمرضى الذين يأتون للمعالجة من ردهات المستشفى ومن المرضى من العيادات الخارجية ودار التمريض الخاص في ايام معينة ومعه بالتناوب ايام اخرى مع الدكتور احسان القيمقجى ومع ادكتور سلمان درويش . وداومنا مدة شهر كامل في دار الاشعة الى الساعة الواحدة ، ثم نقضى ساعتين بعد الظهر في المحاضرات .

اهم حادث حدث لدى للطلاب ، هو اننا في نهاية الشهر تسلمنا راتباً قدره عشرة دنانير هو راتب طلاب الصف النهائى . وكان راتب الطبيب قد هبط من خمسة وعشرين دينار شهرياً الى مبلغ واحد وعشرين ديناراً . كان راتبنا آنذاك اقل من منتصف راتب الطبيب المتخرج حديثاً .

فرح الطلاب بهذا الراتب ، وهواول درجات الاستقلال المادى من الاهل .

في البيت كان الوالد والوالدة في غرفتهما الصيفية ، اتيت اليهما ومعي لمعان اختي وأخي خلوق ، اتيت الى والدي وقبلت يده وسلمته الراتب الاول . ضحك والدي ضحكة سعيدة وقال :

- انها لك يا ابنتي . تصرفي بها كما تشائين! . . هكذا فعلت مع اعمامك عند تخرجهم قبل سنوات وكنت في منزلة الوالد لهم! . .

واذكر هنا بأنني اشتريت لكل اخوتي واخواتي هدية مناسبة وسررت جداً بتقديم اول هدايا مني اليهم ، وأنا الأبنة الكبرى! . .

بعد دوام شهر في دار الاشعة في المستشفى الملكى ، انتقلنا نحن الثلاثة الى مستشفى (العزل) الواقع في جانب الكرخ .

كنا نذهب بسيارة المستشفى الملكى لكي نصل الى مستشفى (العزل) في التاسعة صباحاً ثم نعود الى المستشفى الملكى بعد الظهر لحضور المحاضرات او الدروس الاكلينيكية (السريرية) .

رأينا ان الدكتور الاستاذ (عبد الهادى الباجه جي) يسكن في مستشفى (العزل) في بيت صغير جميل يشبه من الخارج الاكواخ الانكليزية ، وقد سكن الاستاذ هذا البيت عندما كان مديراً لمستشفى (العزل) وعندما انتقل الى التدريس في كلية الطب ، فضل البقاء في ذلك البيت الصغير مع زوجته الفرنسية ، ولم يكن لديهم اطفال .

كان مدير المستشفى آنذاك الدكتور (توفيق رشدى) ، وهو رجل طويل القامة ، عسكرى الشكل يسير بسرعة وبثقة . لكنه لم يهتم بتدريسنا بل ترك الامر الى الاطباء الاخرين . واذكر قوله لنا :

- ارحب بمجيئكم! . .وارجو ان تداوموا بانتظام . انا رجل عسكرى واود ان يكون كل شيء منتظماً! والاطباء هنا سوف يشرحون لكم الامراض السارية وعلاجها ، واذا احتاج الامر اسألونى! . .

ولم نسأله عن شيء ما! . . . وكنا نراه عن بعد ، او في سيارته التى كان يسوقها بنفسه .

شاهدنا الامراض السارية من الحميات ، وامراض الامعاء ، والجدرى ، والسل الرئوى وغيرها ماعدا (الجذام) الذى كان له مستشفى خاص في لواء (العمارة) كان التدريس سريرياً فقط حول المرضى والمستشفى لايحوى قاعات للمحاضرة .

كان مستشفى (العزل) بناية مكونة من طابق واحد بسيط مبنى على شكل

(بنكلة) كبيرة وبها ردهات منفصلة . وحولها حديقة كبيرة مليئة بالاشجار والشجيرات المنوعة والكثير من الازهار المحلية مثل ازهار (عباد الشمس) الصفراء الكبيرة المشعة ذات الطرة السوداء في مركزها والتى تبدو وكأنها عيون ذهبية ذات بؤبؤ كبير قاتم اللون وكأنها تطيل النظر الينا ، وشجيرات (الدفلى) التى تتفتح عن ارهار بيضاء ووردية وحمراء ، واشجار (الموز) الصغير وزهوره الحمراء والصفراء ، وزهور (الخطمى) او (الختمة) ذات الالوان المتعددة الفاتحة ، وورد (الجورى) الاحمر القرمزى وغيرها الكثير مم لااعرف اسمائها . وتجرى في هذه الحديقة الواسعة سواقى كبيرة تحيط نها اشجار التوت . كانت الحديقة وكأنها قطعة من الريف الجميل ، والاشجار والازهار تضفى منظراً خارجياً جميلاً يغطى على هذا المستشفى المنعزل وداخله الكئيب .

في الشهر الثالث انتقلنا من مستشفى (العزل) الى المستشفى الملكى لكي نشتغل في شعبة للجراحة هي ردهة (الامراض البولية) مع الدكتور (على البير) وهو من خريجى الوجبة الاولى في الكلية .

وكان (الدكتور علي) ملماً جداً في هذا الموضوع وجراحاً ممتازاً ، وكانت له ذاكرة عجيبة في ذكريات المستشفى والكلية وبغداد كلها . وكنا نستمع الى احاديثه الممتعة وقصصه الطلية . وكان من حسن حظنا نحن الطلاب انه بقى في المستشفى الملكى بعد ان نقلوا جماعة كبيرة من الاطباء الى مستشفيات اخرى ، بأعتبارهم كانوا مؤازرين لحركة (رشيد عالى) قبل سنتين .

في الشهر الرابع انتقلنا الى فرع (الولادة والامراض النسائية) وكان الدكتور (كروكشانك) الكندى الجنسية هو الاستاذ لهذا الفرع . و(كروكشانك) كان استاذاً لمدة سنوات في الجامعة الامريكية في بيروت ، وكانت احدى طالباته في بيروت الدكتورة (آنا ستيان) التى كانت تعمل بدرجة معاونة في كلية الطب .

كانت (آنا ستيان) طبيبة جيدة ومدرسة ناجحة جداً مع الطلاب . كنت اعاملها وكأنها صديقة حميمة .

الاستاذ كروكشانك كان يؤمن بأن المرأة الحامل الصحيحة البدن يجب ان تتلقى العناية الطبية اذا احتاجت اليها فقط ، والا فأنها تترك كما هي والطبيعة

تعينها بأمور لادخل للطبيب او المولدة بها ، وهو يكرر جملة مشهورة لديه :

- الحامل الصحية تترك وشأنها! . .لاتتداخلوا معها! . .

- وكانت لهجة الاستاذ (كروشانك) امريكية مثل ممثلى السينما ، بعكس اللغة البريطانية الصحيحة التى تعودنا عليها من الاساتذة الانكليز . كنا نعجب بلغة البريطانيين الواضحة الفصيحة ولكن اللهجة الامريكية للاستاذ كروكشانك تجعلنا نظن انه ممثل (مسن) من هوليود يلقى علينا المحاضرة .

كان يعتقد ان البنت يجب ان تتربى لتكون اماً صحيحة تبتهج بالامومة وتربية الاطفال . وقال انه كان برسل بناته وبنات اصدقائه الى الغابات الكندية لمدة سنة واحدة وهن في سن البلوغ لتقضى البنت هذه السنة بعيدة عن المدرسة ومتاعب الدراسة وتمضى ايامها بركوب الخيل والسباحة وتسلق الاشجار ، وتأكل اطيب الطعام ثم تعود بعد مضى هذا العام الى المدرسة لتكمل دراستها . وابنته المتزوجة كان يزهو بكونها زوجة جميلة مشرقة واماً صحيّة . .

شاهدته في بغداد ومعه صغرى بناته في سن الثانية عشر وكانت شقراء طويلة القوام تفوح صحة وحيوية كنا نشبهها وكأنها بداية لربيع جميل .

تعلمت كيف اجيب الاستاذ كروكشانك على اسئلته عندما يسألنى وانا افحص المريضة الحامل عما يجب عمله . كان جوابي :

- اذا كانت الحامل صحية وضغطها الدموى طبيعياً ، اتركها كما هي! . .

وكانت هذه جملته لنا دائماً ، ويرتاح من سماعها .

كانت محاضراته من اروع المحاضرات ويحضرها الطلاب بشوق وشغف .

طلب مني الاستاذ (كروكشانك) ان اشتغل في الولادة والامراض النسائية بعد ان اتخرج . الفرع كان ملذاً جداً وكنت اجيده ، ولكن التعب وساعات الانتظار الطويلة المملة ، والولادة في الليل جعلتنى اعتذر من هذا الموضوع ولو ان الناس كلهم كانوا يظنون ان هذا هو فرع البنات الطبيبات .

اثناء هذا الشهر كان علينا ان نبيت في المستشفى ونقوم بتوليد النساء في فترة المساء وفي الليل . وكانت هناك غرفة واحدة في (دار الاطباء) لكي نبقى فيها . وكانت العادة ان يبيت ثلاثة من الطلاب في كل شهر ولكننا كنا اربعة طالبات

قضيناها في غرفة واحدة ، كل جدار للغرفة امامه سرير .

كان هذا الشهر لطيفاً جداً وصرنا ونحن اربع طالبات في غرفة واحدة وكأننا في مدرسة داخلية .

في تلك الايام ، لم نهتم بما يهتمون به اليوم من ناحية التفرقة في الدين او القومية ،كنا اربع صديقات حميمات واحدة مسيحية ارمنية (آصتغيك طوقاتليان) واخرى يهودية (سمحة شينا) واثنتين من المسلمات (أمت الزهاوى) و(سانحة امين زكي) . كنا نعمل بالتناوب في الليل .

الطعام كان جيداً والطباخ يحضر مانريد وكنا نأكل وجبات الطعام في غرفة للمائدة مع الاطباء المقيمين هناك . في تلك الأيام ايام الشباب ، كنا نأكل مانشاء من مختلف الطعام ، ونأكل الكثير من المآكل الخفيفة بين وجبات الطعام الاصلية كالكيك (الكعك) في وقت الشاي والشوكولاتة والفستق والبندق دون حساب ، ومن دون ان يزيد منا الوزن ابداً! . .من منا كانت تفكر في وزنها الذى سوف يزيد عندما تصل الى متوسط العمر؟ كان متوسط العمر في مخيلتنا لايزال في الافق البعيد في محيط خارج عن الاذهان! . . .

كنا نذهب الى الردهة في الصباح لكي نشتغل مع الاطباء وبعد الدوام وفى الليل نشتغل مع الممرضات ونقوم بتوليد الاطفال دون دعوة الاطباء ، الا اذا حدث للمريضة صعوبة ، آنذاك نتصل بأحد الاطباء الكبار .

الولادة هي اجمل الاعمال الطبية لان النتيجة مفرحة والام بصحة جيدة والاهل فرحون بالطفل ويشكرونا دائماً . شاهدنا الفلاحات وشكرهن لنا ، ولما يلقين من الراحة والنظافة والعناية التى يرونها من الممرضات والاكل الجيد الذى يقدم لهن في السرير وكل ذلك بصورة مجانية! . .اين كل هذا من اكواخهن البسيطة والاعمال الصعبة التى يقمن بها بعد الولادة مباشرة! . .

كان اكثر مايهمنى ان تلد الام ولداً ، خاصة الطفل الاول لعلمى ان هذا مايريده الزوج والزوجة والاهل ، ولكن الاطفال الذين ولدتهم كانوا على الاكثر من البنات ، وكنت احسد زميلاتى لان اطفال مريضاتهن كانوا من الصبيان . وقد سموا ثلاثة من المواليد البنات بأسمى وكل ام تقول :

- سوف تصبح ابنتى دكتورة مثلك! . .

كانت كلمة (دكتورة) غريبة عليهن! . .ورغم ذلك احببنها كثيراً . امرأة تساعدهم في الولادة دون وجود رجل! . .

﴾ هنا اذكر حادثة ، كانت شقيقة احد الضباط الشبان ولدت بنتاً واسموها بأسمى . ولم اكن اعرف اسم ذلك الضابط . بعد سنوات طوال ، وحوادث جسام ، رأيت الضابط في سنة ١٩٥٩ في حفلة اقيمت للاطباء وحضرها (عبد الكريم قاسم) آنذاك . تقدم مني العقيد (ماجد محمد امين) المدعى العام للمحكمة العسكرية الخاصة محكمة المهداوي صافحنى وقال : انه سمى ابنة اخته سانحة على اسمك لانك ساعدتيها! . . ولكنك لاتتذكرين! . ﴿

في الشهر التالى انتقلنا الى شعبة (الامراض النسائية) وشاهدنا العمليات الكبرى والصغرى . وكانت العمليات خطرة بسبب عدم وجود عقاقير (مضادات الحياة) آنذاك ، وكان الجراح يستخدم مواد (السلفونامايد) منعاً للتعفن ، وهى عقاقير مفيدة في بعض الحالات ، ولم يكن لدينا احسن منها ، قد ابطل استعمالها بعد اكتشاف (مضادات الحياة) .

وكانت هذه الردهة كئيبة بمريضاتها وتحوى انواع مختلفة من الامراض الخطيرة كالالتهابات قي الدم ، والضغط العالي المفرط ، وامراض سرطانية في الرحم وغيرها ، بعكس ردهة الولادة التى بسودها الفرح والابتهاج بعد ولادة الاطفال .

في فرع الولادة والامراض النسائية كان مع الاستاذ (كروكشنك) اربعة اطباء مساعدين وهم : الدكتور (كمال السامرائى) والدكتور (فؤاد مراد الشيخ) والدكتورة (آنا سيتيان) والدكتور (انور القيماقجى) .

ترك الدكتور (كروكشانك) العراق بعد سنتين واظنه رجع الى بلاده في (كندا) . وقد اسف جميع طلابه وطالباته لذهابه .

اما الدكتور كمال السامرائى فقد تزوج من الانسة (رزينة الزهاوى) وهى ابنة عم زميلتنا (أمة الزهاوى) وكنا نعرف (رزينة) من ايام المدرسة . وقد نجح الدكتور كمال السامرائى في حياته الطبية نجاحاً كبيراً ، وبعد سنوات ، فتح

مستشفى للولادة ، (مستشفى السامرائى) في منطقة (العلوية) ، كما اصبح الاستاذ في شعبة الولادة والامراض النسائية في الكلية الطبية .

بعد العمل في شعبة الولادة والامراض النسائية انتقلنا الى شعبة (الجراحة العامة) ، وكان علينا ان نشتغل مع الجراحين اثناء العمليات الجراحية الصغرى مثل استئصال (الزائدة الدودية) او عمليات (الفتق) او (البواسير) ، اما في العمليات الكبرى ، فكنا نقف جنب الجراحين ونراقب العملية .

الجراح يتكلم بما يشاهد ويصف العملية اثناء عمله . والويل لمن يغضب الجراح اثناء العملية! . .ولذلك كان لكل من الجراحين اطباء مساعدون وممرضات متخصصات في العمليات الجراحية والكل يعرف مايريده الجراح الكبير اثناء العملية ، واصبحنا نعرف الجراح ومع من يشتغل! .

كنت اجد الجراحة وكأنها الطريقة الناجحة في العلاج أي (ابتر الجزء المريض وتخلص منه)! . ولكن العمل في الجراحة متعب جداً ويحتاج الى جسم قوى متين للقيام به . اما انا فقد كنت اشعر بتعب واعياء اذا شاهدت ثلاث عمليات في يوم واحد . درست الجراحة وفهمتها بسهولة واحببتها نظرياً ولكنني كنت واثقة بأنني لن اعمل في فرع الجراحة مطلقاً! . .

في تلك الايام كان الطبيب (المقيم الاول) الدكتور (كاظم شبر) ويسكن في (دار الاطباء) . وكنت اراه يقوم بعمليات مختلفة منذ الصباح والى بعد الظهر ، ويستمر في العمل الى ساعات متأخرة ليلاً دون ان يشكو التعب وكنا نراه اثناء اشتغالنا نحن في المستشفى ليلاً عندما كنا في شعبة الولادة .

كان استاذ الجراحة آنذاك الدكتور (مكداول) ، بعد وفاة الاستاذ الدكتور (براهام) في السنة الماضية .

انتقلنا الى (الشعبة الباطنية) في الشهرين الاخيرين . وكانت هذه الشعبة واسعة ومنقسمة الى اربعة اقسام القسم الاول برأسة الاستاذ (سندرسن) ، والقسم الثانى برأسة الاستاذ (هاشم الوترى) ، والقسم الثالث برأسة الاستاذ (ستيسى) ، والقسم الرابع برأسة الاستاذ (عبد الهادى الباجه جى) . توزع طلاب الباطنية الى هذه الفروع وكنا في القسم الثالث مع الاستاذ (ستيسي) ،

في هذا القسم الدكتور (مهدى فوزى) وهو احد خريجى كلية الطب كان الاستاذ المشارك مع الدكتور ستيسى ويليه الدكتور (عادل الدوغرمجى) وقد استقال الدكتور عبد المجيد القصاب من وظيفته في المستشفى بعد ان كان بشتغل في هذه الردهة قبل حركة رشيد عالي الكيلاني .

كان عملنا في الردهة هو فحص المريض لدى دخوله ، وكتابة تفاصيل دقيقة عن المريض في اوراق خاصة ، نسأل عن سن المريض ، واي الامراض انتابته في الماضى منذ الطفولة والى الآن ، ثم اعراض المرض الحالى وعلاماته ،مع نتيجة فحصنا للمريض والتشخيص ان امكن ، مع الفحوصات الطبية المختبرية والشعاعية وغيرها . وعندما يأتى الاستاذ الى المريض الجديد نقرأ ما شاهدنا وما فحصنا ، ويبدأ الاستاذ باكتشاف ما فات علينا من اعراض وعلامات في المريض ، ثم التشخيص وبعدها العلاج الطبى ، ومايأكل المريض وما يجب على المريض الامتناع عنه من اعمال او منعه منه .

ويمر الاستاذ يومياً على المرضى كلهم في الردهة لرؤية التغيرات في صحة المريض ، ويرى ان كان كل شيء على مايرام . ويستغرق ذلك من ساعتين الى ثلاث ساعات في الردهة وبعدها يزور بعض المرضى في دار التمريض الخاص ان كانوا من مرضا . ونحن نقوم بنفس الفحوص لمرضى دار التمريض الخاص العائدين للاستاذ .

كان تدريس الاستاذ (ستيسى) في الردنة من احسن والذ الدروس . وقد اشتغلت في مستشفيات في انكلترا وامريكا بعد ذلك فلم اجد من يفوقه في قابليته لتدريس الطلاب . وكانت تصرفاته نحو المرضى والممرضات وطلاب الطب لطيفة وحازمة وعلى جانب كبير من الادب الطبي والاجتماعي الجم! . .

اخذت الايام تجرى بنا نحو الامتحانات النهائية . وكنا نشعر اننا مقصرون في يالمراجعة ولن ننجح في هذه الحالة ابداً! . .وتبدلت منا الاطوار والتصرفات! . .

تغير تصرفى في البيت مع اهلى جداً . اصبحت اصر على السكون التام بعد فترة الغداء لكي اتمكن من النوم ظهراً واسهر في الليل . وكانت هذه اول مرة في حياتى ان انام بعد الغداء ، وكنت اظن ان النوم ظهراً هو للكبار في السن

وليس للشباب ، وفي البيت لا ينام وقت الظهر عندنا سوى الوالدين ، لذلك تعجب اخوتي واخواتي من اصراري على النوم ظهراً ، ولكنهم اظهروا استعدادهم للمحافظة على سكون البيت اثناء الظهيرة . والجميع في البيت يعجب لعدم خروجي خارج البيت عصراً مهما حدث ، اذ كنت ادرس وادرس دائماً ، واكرر بأنني احتاج للمراجعة! . .

وبالرغم من ان شهيتى للاكل كانت جيدة ، لكني فقدت الكثير من وزنى النحيل آنذاك وصرت اشبه ماكنت عليه ايام تخرجى من المدرسة الثانوية وزيارتى لكركوك في ذلك الحين وانا في سن السادسة عشرة من شابة تخطت سن العشرين منذ ثلاث سنوات وستتخرج من كلية الطب بعد اسابيع قليلة .

في الشهر الاخير قبل الامتحانات منعنا من دخول الردهات السريرية لكي لا نتعرف على المرضى ونعرف امراضهم قبل الامتحان .

اخيراً بدأت فترة الامتحانات النهائية . وكانت قاعة السينما الكبيرة محل جلوسنا للاجابة عن الاسئلة النظرية ويراقبنا واحد من الاساتذة ومعه بعض الاطباء . وجدت اسئلة الامتحانات معقولة تسهل اجابتها . كنت افتح ورقة الامتحان وأقرؤها بسرعة كبيرة لكي اجد نفسى بأنني اعرف الاسئلة لكي تطمأن نفسى من البداية وبعدها ابدأ بالاجوبة . كنت اقسم الوقت على الاسئلة بالتساوى تماماً ، وابدأ بالموضوع الذى اجيده اولاً .

لم اشاهد اياً من هذه الامتحانات صعباً ، بالرغم من الخوف الذي انتابنا جميعاً قبل الامتحان .

في الدروس السريرية يسالنا الاستاذ ان نقوم بفحص احد المرضى في الردهة ثم يسألنا عن نتائج الفحص امام المريض ويسأل ما شاء من الاسئلة الاخرى .

في تلك السنة دعوا لنا اطباء كباراً من الجيش البريطانى الذى كان في العراق وكان اشتراكهم في الامتحانات ذا مزية كبرى .

لقد اعجبوا بالطلاب الطب ان يشتركوا في الامتحانات النهائية كل سنة من الآن وصاعداً ، واصبح ممكناً لطالب الطب ان يسافر الى بريطانيا ويقبل بدخول الامتحانات البريطانية! . .

بالنسبة لنا نحن الطلاب فقد كان دخول اطباء انكليز كبار بملابسهم العسكرية ونياشينهم الجميلة والقابهم الغريبة مثل (بريكادير) وتعني (زعيم) عسكري او (كرنل) وتعني (عقيد) مع اساتذتنا كان لها اثر كبير في نفوس الطلاب ، خاصة لاننا سوف نحصل الشهادة ليس من اساتذتنا فقط بل من قبل اطباء كبار في الجيش وفي الجامعات الانكليزية أيضاً .

وكان بعض الاطباء البريطانيين يرتدون الملابس الاسكتلندية (بتنوراتهم) ذات المربعات وقبعاتهم السوداء ذات الريشة العالية ، وكان حضورهم يسترعي الانتباه والعجب والاعجاب من الجميع! .

ان الدول المغلوبة تكره الشعب الفاتح وقد غلبنا الانكليز مرتين ، وقد كنا ضدهم جميعاً ، ولكن ما هذا السحر الذي سحرنا به هؤلاء الاطباء العسكريون . لقد كان مجرد الكلام معهم وكأنه بيان اكيد للطلاب بأننا نفهم الطب وعلومه الكثيرة! . . هل سنصبح مثلهم في المستقبل؟ كان هذا ما يهمنا كل يوم نراهم فيه .

هؤلاء الاجانب ، في تلك الايام ، كان يفصلنا عنهم ثلاثة آلاف من الاميال كما تفصلنا عنهم لغتهم ودينهم وتقاليدهم ، من كان يظن ان عاصمتهم النائية البعيدة سوف تصبح عاصمة ثانية للعراقيين المهاجرين في نهاية القرن العشرين؟من كان يعتقد بأمكان حدوث ذلك؟

اذكر في بعض الاحيان ، كانت تأتي قطعات موسيقية بريطانية تعزف في الحدائق الواسعة ما بين قسم التمريض الخاص وبين الردهات المجانية ، للترفيه عن المرضى . وكان المرضى من الذين يمكنهم الخروج من الفراش يخرج لرؤيتهم ، كذلك الطلاب والطالبات والممرضات ، ويشترك الكل بالاستماع للموسيقى الجميلة . كانت جماعة الموسيقى البريطانيين مكونة من شباب شقر الشعور ، بيض البشرة ، يرتدون الملابس الخاكية ذات الحزام الابيض الناصع ، وهم يحيون الناس بصورة ودودة وبابتسام صريح وكأنهم في بلادهم . كانوا شخصيات بسيطة ولطيفة وقد احبهم المرضى واحبهم الطلاب ، رغم انهم يحاربون الالمان البواسل! . . الالمان الذي يحبهم العرب بسبب فلسطين وبسبب احتلال الحلفاء للبلاد العربية منذ الحرب الاولى .

كان الطلاب يتساءلون هل ينتصر هولاء الجنود على هتلر وجيوشه الجرارة؟

يبدو من الاخبار في هذه الايام ان جنود هتلر قد انسحبوا عن المدن الروسية الكبيرة مثل موسكو ولنينغراد (سان ببطرسبورج) الآن ، وستالينغراد (اسمها فولغا غراد الآن) ، ونزلوا من قمم القفقاس الى السفوح ، واضحى الكثير من الطلاب يرجحون كسب الحلفاء لهذه الحرب في النهاية .

انتهت الامتحانات ورأينا النتائج مكتوبة على اوراق بسيطة بيضاء علقت على احد جدران الكلية . كان الطالب (غانم عقراوى) هو الاول ويليه اثنان ، (سانحة امين زكى) و(محمود الجليلى) .

وجدت نفسى في وضع جيد جداً بالنسبة لدرجاتي العالية ، وقد طلب مني ثلاثة اساتذة ان اشتغل عندهم ، الاول الاستاذ النمساوى (هوف) ، رئيس قسم الامراض النفسية . كان هذا الفرع يعجبنى جداً ولكن بناءه القديم القذر كان في موضع مخيف منعزل عن المستشفى ، والمرضى يثيرون الرهبة في النفوس .

(كان هذا قبل ان يفتح المستشفى الجديد للامراض العقلية في منطقة الكمالية في جنوب بغداد) كما مر ذكره ، لذلك قررت عدم الاشتغال في هذا القسم رغم اهتمامى الكبير به .

وقد فاتحني الاستاذ (كروكشانك) لكي اشتغل في (الولادة والامراض النسائية) ، وكنت احب هذا الفرع كثيراً . ولكن الامر يقتضى ان اشتغل في الليل والنهار لساعات طويلة منهكة ، جعلتنى ارفض هذا الفرع . لذلك عندما طلبنى الاستاذ (ستيسى) ان اشتغل في الوحدة الباطنية الثالثة ، خاصة وانهم على وشك فتح ردهة جديدة للنساء وسأكون مسؤلة عنها ، وافقت حالاً .

بداية العمل

في سنة التخرج ، كان عدد الطبيبات الخريجات ستة . والعادة الجارية الى حد الآن بأنهن يشتغلن في (قسم الاولادة والامراض النسائية) . قر قرار اربعة خريجات وانا منهن ، ان نتعين في الاقسام الطبية حسب رغبتنا نحن وليس حسب رغبة الاخرين ، واذا كان الاطباء الرجال يشتغلون في الولادة والامراض

النسائية كما يشائون ، فلم لانتعين نحن حسب رغبتنا واهتمامنا كما يشاؤون الاطباء الرجال! . .

التعيين والعمل

تعينت ثلاث طبيبات في الاقسام الباطنية للمرة للاولى في المستشفى ، والرابعة تعينت في قسم الامراض الزهرية . ويبدو ان الامر صادف الرضى من قبل الاساتذة . وكانت الطبيبات انا في الشعبة الباطنية الثالثة مع الاستاذ ستيسي طلب مني الاستاذ أن أكون مسؤلة عن الردهة الثانية عند فتحها قريباً بعد اسابيع لانها ستكون للنساء ولم يكن للنساء ردهة باطنية في المستشفى سوى واحدة في الردهة الاولى التي يعود نصفهاالى الاستاذ (سندرسن) ، والنصف الثانى الى الاستاذ (هاشم الوترى) ، وكان المستشفى بحاجة ماسة الى ردهة نسائية اخرى اسمها (الردهة الثانية) وستكون بالمناصفة بين الاستاذ ستيسي حيث اشتغل انا ، والاستاذ (عبد الهادى الباجه جى) رئيس الشعبة الباطنية الرابعة وتشتغل معه الدكتورة (سمحه ساسون شينا) .

وتعينت الدكتورة (امت الزهاوى) في الشعبة الباطنية الاولى مع الاستاذ (سندرسن) وتعينت طبيبة رابعة من صفنا وهى (آصتغيك طوقاتليان) في قسم (الامراض الزهرية للنساء) لاول مرة مع الاستاذ (فتح الله عقراوى) .

طال انتظارى لفتح الردهة (الثانية) لمدة ثلاثة شهور ، وكنت اثناء ذلك الوقت اشتغل في الردهة التاسعة واقوم بفحص المرضى ، ومساعدة طلاب الصف المنتهى اثناء عملهم عندنا ، واقوم ببعض الفحوص في مختبر الاستاذ (ستيسى) لكي نحصل على بعض النتائج المختبرية التى نستطيع القيام بها في نفس اليوم دون ان ننتظر النتائج التى نبعث بها الى المختبر الكبير وتحتاج الى يومين اوثلاثة قبل ان تصلنا . كان طلاب السنة المنتهية يفحصون دم المريض والبول والغائط في المختبر الصغير داخل الردهة ويسجلون كل ذلك على اوراق المريض . .

كذلك كنت افحص مرضى الاستاذ (ستيسى) في دار التمريض الخاص واقوم بتسجيلهم واطلب من الممرضات ارسال دم وادرار المريض الى المختبر والى للاشعة .

في احد الايام خابرني مدير المستشفى بأن الاسرة والدواليب والاغطية وصلت الى الردهة الثانية من مخزن المستشفى ويجب ان احضر الى الردهة لكي اشاهد ذلك . دخلت الردهة الثانية وانا اشعر بالفخر وكأننى اؤثث بيتاً جديداً .

لم اتمكن من طلب أي من الاشياء لأن كل شيء وصل جاهزاً من مخزن المستشفى ، نفس الستائر كمافي الردهات الاخرى وعين المناضد والبطانيات الموجودة في الردهات كلها . فرحت بافتتاح الردهة الجديدة التى سأكون المسؤلة الوحيدة عن نصف المريضات فيها .

في الردهة ، كانت لنا الاسرة على جهة اليمين وعددها خمسة عشر سريراً ، وللاستاذ (عبد الهادي) الاسرة على يسار الردهة وله نفس العدد من اسرة المريضات .

سرني ان الدكتورة معه ستكون صديقتى وابنة صفى (سمحة شينا) . في تلك الايام كانت الصداقة شخصية لاعلاقة لها بالدين او بالمذهب .

كنت والدكتورة (سمحة شينا) نتبادل الخفارات الليلية ابقى انا شهر في المستشفى ثم اذهب الى البيت وتكون سمحة في الخفارة لمدة شهر آخر وهكذا قضينا الخفارات الليلية لمدة سنة .

المستشفى الملكي في ايامنا

كنت احب ذلك المستشفى القديم البسيط وافضله على البنايات الاخرى الجديدة التي اضيفت حوله مثل مبنى العيادات الخارجية وردهات حديثة للجراحة ، وبناية كبيرة للمختبر امام بناية الكلية ، ودار الاشعة ، وبناية مدرسة التمريض وغيرها .

شيدت البناية القديمة في بستان قرب نهر دجلة في منطقة العيواضية واطلق على البناية اسم (المجيدية) هو (والي) بغداد آنذاك على اسم الخليفة العثمانى (عبد المجيد) في القرن التاسع عشر . وقد شيد البناية لكي يتمكن من استضافة شاه بلاد العجم ، الذى اعرب عن زيارته الوشيكة الى العراق لكي يزور المراقد المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية .

وقد شيدت هاتان البنايتان واحدة مقابلة للاخرى .

البناية القريبة من النهر لكي تستضيف الشاه وحاشيته ، والبناية المقابلة لها وهي الاكبر حجماً لاقامة رجال الشاه وجنوده . والبنايتان مبنّيتان من طابق واحد فقط .

ويفصل بين البنايتين ممر عريض في البستان يمتد على طول البناء .

واثناء عملي هناك اصبح هذا الممر الكبير حديقة خضراء بين البنايتين فيها الازهار المختلفة تحيطها الاشجار العالية من النخيل واشجار النارنج واليوكاليتوس .

اصبحت الغرف في القسم القريب من النهر (دار التمريض الخاص) او (النرسنك هوم) .

اما الردهات المجانية فقد كانت في القسم المقابل لانها اكبر حجماً وغرفها كبيرة جداً وعددها احدى عشرة ردهة ، وكل ردهة واحدة تكفى ثلاثين سريراً أي خمسة عشر سريراً على جانبى الردهة ، وبين كل سرير مسافة المتر الواحد . ولكل مريض دولاب قرب سريره يضع فيه مايشاء وبستعمله كمنضدة صغيرة أيضاً .

وفي كل ردهة كبيرة توجد غرفة صغيرة نسميها(نصف مجانية) تضم اثنين من المرضى يدفعون اجور قليلة ، ويقوم على العناية بهم الاطباء والممرضات مثل المرضى الاخرين .

هذه الاحدى عشر ردهة ، كانت مقسمة الى سبعة ردهات للباطنية ، وردهتين للجراحية وردهة للولادة واخرى للامراض النسائية ، وغرفة العمليات الجراحية الكبيرة .

كان الاستاذ (سندرسن) رئيس الشعبة الباطنية الاولى وله الردهة الاولى (للرجال) ونصف الردهة الاولى (للنساء) ونصفها الآخر يعود الى الاستاذ (هاشم الوترى) وهو رئيس القسم الثانى في الباطنية وله الردهة (الثامنة للرجال) . وله كذلك الردهة الثالثة للامراض العصبية ، ورئيس القسم الباطنى الثالث هو الاستاذ (ستيسى) وله الردهة التاسعة (للرجال) ونصف الردهة الثانية وهى (للنساء) ونصفها الآخر هو للاستاذ (عبد الهادى الباجةجى) وله الردهة السادسة (للرجال) أيضاً .

وتوجد ردهتان الجراحة الردهة الرابعة للامراض البولية (للرجال) ويقوم بها الاستاذ (على البير) . والردهة الخامسة كانت للجراحة العامة مع الاستاذ (مكداول) .

اما الردهة العاشرة فكانت للولادة والردهة الحادية عشرة للامراض النسائية وكلياهما تعودان الى للاستاذ (كروكشنك) .

وتوجد في بناية حديثة بعيدة عنا الردهات الجراحية الاخرى من ردهة اثناعشر الى الردهة عشرون . مبنية على طابقين وتحوى على مدفئة بخارية تدفأ الردهات في ايام الشتاء ، وهذا لم يكن لدينا في المبنى القديم حيث تدفأ الردهات بالمدافئ النفطية . كانت الردهات الحديثة كلها للجراحة فقط ، وتحوى على على ردهة (لجراحة العظام) ، وردهة (لجراحة الانف والاذن والجنجرة) والبقية (للجراحة العامة) ، للرجال وللنساء .

حجرة العمليات الكبرى في قسم من بنايتنا القديمة . وهناك تجرى العمليات اليومية من الصباح الى المساء ، ولكل قسم جراحى يومه الخاص . والعمليات المستعجلة تجرى ليلاً او نهاراً .

وفى غرفة العمليات توجد شرفة واطئة للطلاب في درس الجراحة حيث يقفون فيها ، ويشاهدون العمليات من الاعلى وأحياناً يتكلم معهم الجراح اثناء العملية ويشرح لهم ما يجرى .

كان اطباء الباطنية قلما يذهبون الى الاقسام الجراحية البعيدة الا اذا وجد شيء مهم للذهاب ، ولا يأتى الجراحون الينا ، لان الكل مشغول بواجبه وعمله والطب عمل شاق جداً . وكنا نرى الجراحين يخرجون بملابسهم الجراحية من غرفة العمليات الكبرى ويقفون في الممر الطويل بعد ان يزيلوا اقنعتهم للراحة القصيرة بين كل عملية واخرى .

دار التمريض الخاص

كنت اذهب الى المرضى في دار (التمريض الخاص) ، لمرضى الاستاذ (ستيسى) ومرضى الدكتور (مهدى فوزى) وهو الاستاذ المشارك .

كنت استـمـتع بالمشى وهبـوط الدرج من ممرنا الطويل الذى يحـيط بكل الردهات باعمدته الخشبية القديمة وشبابيكه الواسعة لكي انزل الى الحديقة التى تقع بيننا وبين دار التمريض الخاص . الحديقة جميلة دائماً وخاصة اثناء وقت الظهر عندما يهدأ المكان اسمع صوت يمامة من اعلى النخل تشدو بصوت عذب يجعلنى انفصل عن جو المستشفيات لفترة قصيرة واكون في جو بستان حقيقي بعيد ومنعزل . وقلما كنت اصطحب أحداً وانا امر في هذا الممشى في الحديقة لئلا يؤثر كلامنا وبغطى على هديل اليمامة . وعندما اصل دار التمريض ، اجد امامى الممرضات بملابسهن البيضاء الناصعة وقبعاتهن البيضاء الصغيرة وكلهن يذهبن ويجئن بكل نشاط وجد ، انسى اليمامة وهديلها وابدأ بالعمل .

والى الآن لايزال شدو اليمامة وهى قليلة في شمال لندن حيث اعيش الآن ، يثير بي اللوعة الدفينة والحزن العميق الى تلك الايام الغائبة البعيدة .

الغرف هنا كبيرة واسعة وسقوفها عالية جداً ، يسكنها مريض واحد فقط ، فيها سرير واحد ودولاب صغير واريكة للجلوس وكرسى . في اكثر الاحيان اجد الغرفة مليئة بالضيوف خاصة اذا كانت المريضة امرأة ، مع باقات الزهور الجميلة وعلب الشكولاتة والفواكه . وكانت الممرضات لايشجعن جلوس المرضى الطويل ، وكانت للضيوف ساعات معينة للزيارة .

واذكر بعض الحالات التى انزعجت فيها ام المريضة والزوار معها عندما طلبت اليهم بكل لطف ان يتركوا الغرفة ويجلسوا خارجها حتى اتمكن من سؤال المريضة وفحصها ، خاصة وانا ازورالمريضة للمرة للاولى ، ولايكون معى الا الممرضة المسؤلة .خرجن من الغرفة وكأنما اهنتهن .

قالت الام : ان طبيبة شابة في سن اولادها اخرجتها من الغرفة! .

وكان على اعتذر لهن ، لأنني اعرفهن شخصياً .وهكذا تصالحنا .

ولكنني اصبحت كثيرة الحذر من الزوار والضيوف! . .

في دار (التمريض الخاص) دخل قريبى السيد الحاج (محمود رامز) وهو زوج عمتى وهو الذى منعها ان تدخل بيتنا لعدة سنوات اثناء دخولى كلية الطب .

حييته اولاً ثم فحصته وكتبت حالته الصحيه على ورقة المريض واجريت

بعض الفحوص المختبرية وكان راضياً عما يجرى وكان لطيفاً معي يضحك ويمزح . الصعوبة بدأت عندما بدأت اسحب كمية صغيرة بأبرة من الوريد في ذراعه ، ورغم محاولاتى الكثيرة ، لم اتمكن من ذلك ، مع ان الوريد عنده كان بارزاً واضحاً ، ولكنه يتحرك كثيراً مع الابرة لان (الحاج) كان نحيفاً وكبيراً في السن ، تعدو سنه على السبعين من العمر . كنت اسحب الدم لعشرات المرضى كل يوم دون أي صعوبة . شعرت بالخجل وتوقفت واخبرت الاستاذ (ستيسى) بهذه الصعوبه التى حدثت ، ومع من؟ (الحاج) نفسه! . . ضحك الاستاذ وسحب الدم بنفسه بكل سهولة . عندذلك تكلم الحاج وقال لي :

- هكذا يسحبون الدم! . .تعلمى! . .

(خرج الحاج محمود رامز) وعاش بعد ذلك الحادث اكثر من ربع قرن ، واظنه عتدما توفى ، يكون قد قارب سن المائة عام)

كان الاستاذ (عبد الهادى الباجةجى) وهو الاستاذ المسؤل عن النصف الثانى للردهة وهو من الطف من رأيت بين الاساتذة . تعلم الطب في فرنسا وكانت كلماته الانكليزية تميل الى اللهجة الفرنسية ولكنه بتقن الكلمات الطبية العربية ويفسر للطلاب الدرس السريرى باللغة العربية .

تعينت معه زميلتي الدكتورة (سمحة شينا) لكي تكون مسؤلة عن القسم الثاني من الردهة معي .

واثناء وجوده في الردهة معنا في غرفة الاطباء مع مساعده الدكتور (سامى حنا خياط) كنا نجلس لشرب فنجان من القهوة في غرفة الاطباء الجانبية ، وكان يشرح لنا اشياء طبية شاهدها في بغداد او في فرنسا بصورة طلية واضحة . وكان يعرف قصص (الملا نصر الدين) كلها وهو ما يسمونه (جحا) في مصر ، ويجعل القصة الطبية تنطبق وتتلائم على قصة ما يقوله (الملا نصر الدين) فنتعلم القصة الطبية ومعها قصة (الملا) المشهور .

كانت علاقة الاستاذ (الباجةجى) معنا ومع الطلاب كافة وكأنها علاقة ابوية رحيمة . وقد سرني ان الدكتورة معه ستكون صديقتى وابنة صفى (سمحة ساسون شينا) . في تلك الايام كانت الصداقة بيني وبينها شخصية لاعلاقة لها

بالدين او بالمذهب . كانت الدكتورة (سمحة) شابة متفهمة تمتاز بالرفق والصداقة والمسالمة وكنا على درجة من الالفة والمساعدة . وقد اشتغلنا ثلاث سنوات معاً ، لم يحدث بيننا ما يعكر علينا صداقتنا .

كنت على درجة كبيرة من الصداقة والولاء مع الدكتورة (سمحة شينا) اذ كانت متفهمة وذكية وتتسم نفسها بالرفق والطيبة والمسالمة .

ولا اذكر بأننا ، طيلة هذه السنوات قد تخاصمنا او زعلنا ولا مرة واحدة .

الابنية الطبية القديمة

ان هذه الابنية القديمة التى نعمل بها كانت اكبر مستشفى في العراق ومحل تدريس العلوم السريرية لطلاب الكلية الطبية في ذلك الوقت . شيدت هذه الابنية ، في القرن التاسع عشر في بستان قرب نهر دجلة اسموه (المجيدية) على اسم الخليفة العثمانى (عبد المجيد) ، من قبل (والى) بغداد انذاك . وقد بناه الوالى لكي يستضيف شاه بلاد فارس الذى اعرب عن زيارته الوشيكة الى بغداد لكي يزور المراقد المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية .

وقد شيدت حسب طلب (الوالى) بنايتان كبيرتان من طابق واحد الواحدة مقابل الاخرى ، البناية القريبة من النهر لسكن الشاه وحاشيته ، والقسم الثاني وهو الاكبر ، ليقيم به رجال الشاه وجنوده ، ويفصل بينهما جزء عريض من البستان طوله حوالى الستين متراً من البستان .

اصبح المكان مستشفى في ايام الحرب العالمية الاولى .

كانت الغرف في القسم القريب من النهر ، وعددها عشرة هي (دار التمريض الخاص) بدفع عنها المريض اجوراً قليلة وتخفض الى الثلث لموظفى الدولة . اما الردهات المجانية فتقد كانت في القسم المقابل لانها اكبر حجماً وغرفها كبيرة جداً كافية لردهات واسعة عددها احدى عشرة ردهة ، كل ردهة تكفى ثلاثين سرير أي خمسة عشر سريراً على جانبى الردهة . وبين كل سرير وآخر مسافة المتر الواحد . ولكل مريض دولاب قرب سريره يضع فيه مايشاء وبستعمله كمنضدة صغيرة أيضاً .

ومع كل ردهة كبيرة توجد غرفة صغيرة تضم اثنين من المرضى ويدفعون اجوراً قليلة ، ويقوم على العناية بهم الاطباء والممرضات مثل المرضى الاخرين .

هذه الردهات الاحدى عشرة ، كانت مقسمة الى سبع ردهات للامراض للباطنية ، وردهتين للجراحية وردهة للولادة واخرى للامراض النسائية ، وقسم خاص للعمليات الجراحية الكبيرة .

كان الاستاذ (سندرسن) رئيس الشعبة الباطنية الاولى وله ردهة (للرجال) ونصف الردهة الاولى (للنساء) ونصفها الآخر يعود الى الاستاذ (هاشم الوترى) وهو رئيس الشعبة الباطنية الثانية وله الردهة (الثامنة للرجال) والردهة الثالثة للامراض العصبية ، ورئيس الشعبة الباطنية الثالثة هو الاستاذ (ستيسى) وله الردهة التاسعة (للرجال) ونصف الردهة الثانية وهى (للنساء) ونصفها الآخر هو للاستاذ (عبد الهادى الباجةجى) وله الردهة السادسة (للرجال) أيضاً .

وتوجد ردهتان للجراحة الردهة الرابعة للامراض البولية (للرجال) ويقوم بها الاستاذ (على البير) . والردهة الخامسة كانت للجراحة العامة مع الاستاذ (مكداول) .

اما الردهة العاشرة فكانت للولادة والردهة الحادية عشر للامراض النسائية وكليهما تعود الى للاستاذ (كروكشنك) .

لقد بنيت بنايات عديدة حول هذا المستشفى القديم مثل العيادات الخارجية قرب الشارع ، وردهات عديدة للجراحة ، ومختبر البكتريولوجي ، ودار الاشعة ، وبناية مدرسة التمريض وغيرها .

ولكنني كنت احب ذلك المستشفى القديم البسيط الذى تعينت فيه وافضله على البنايات الاخرى الجديدة .

كانت الوحدات الجراحية الاخرى تقع في بناية حديثة وهي تضم ثماني ردهات من ردهة اثنا عشر الى الردهة عشرين . والبناية على طابقين وتحوى على مدفئة بخارية تدفأ الردهات في ايام الشتاء ، (وهذا مالم يكن لدينا في الباطنبة وكنا ندفأ الردهات بالمدفئة النفطية) . وتحوى هذه ردهة (لجراحة العظام) وردهة (لجراحة الانف والاذن والحنجرة) والبقية (للجراحة العامة) ، للرجال والنساء .

كانت حجرة العمليات حيث تجرى العمليات الجراحية في قسم من بنايتنا القديمة . وهناك تجرى العمليات اليومية من الصباح الى المساء ، ولكل قسم جراحى يومه الخاص . والعمليات المستعجلة تجرى ليلاً او نهاراً .

وفى غرفة العمليات توجد شرفة واطئة للطلاب في درس الجراحة حيث يقفون فيها ، ويشاهدون العمليات وأحياناً يتكلم معهم الجراح اثناء العملية ويشرح تهم ما يجرى .

كنا نرى الجراحين يخرجون بملابسهم الجراحية من غرفة الجراحة ويقفون في الممر الطويل بعد ان يزيلوا اقنعتهم للراحة القصيرة بين عملية واخرى .

عندما كنت اذهب الى قسم التمريض الخاص وا سير نحو الدرج المفتوح من ممرنا الطويل المغطى بسقف طويل والجانب المفتوح على الحديقة بشبابيكه العالية واعمدته الخشبية المرتفعة وانزل الى الحديقة التى تقع بيننا وبين دار التمريض الخاص واشاهد الحديقة المشرقة دائماً وخاصة اثناء وقت الظهر عندما يهدأ المكان واسمع صوت يمامة من اعلى النخل تشدو بصوت عذب يجعلنى انفصل عن جو المستشفيات لفترة قصيرة واصبح في جو بستان بعيد منعزل . وقلما كنت اصطحب أحداً وانا امر في هذا الممشى في الحديقة لئلا يؤثر الكلام وبغطى على هديل اليمامة . وعندما اصل دار التمريض ، اجد امامى الممرضات بملابسهن البيضاء الناصعة وقبعاتهن البيضاء الصغيرة وكلهن يذهبن ويجئن بكل نشاط وجد ، انسى اليمامة وهديلها وابدأ بالعمل .

ولا يزال شدو اليمامة في شمال لندن حيث اعيش الآن ، يثير بي اللوعة والحنين .

في (دار التمريض الخاص) وكنا تسميه (النرسنك هوم) دائماً ، كنت انتقل من المرضى المجانيين والفقراء الى مرضى على درجات اعلى اما من ناحية الغنى او التعليم او الاثنين معاً . الغرف هنا كبيرة واسعة وسقوفها عالية جداً ، يسكنها مريض واحد فقط ، بسرير ودولاب صغير واريكة للجلوس وكرسى . في اكثر الاحيان اجد الغرفة مليئة بالضيوف خاصة اذا كانت المريضة امرأة ، مع باقات الزهور الجميلة وعلب الشكولاتة والفواكه . وكانت الممرضات لاتشجع جلوس

المرضى الطويل ، وللضيوف ساعات معينة للزيارة .

واذكر بعض الحالات التى انزعجت ام المريضة وزائراتها عندما طلبت اليهن بكل لطف ان تتركنى وحدى مع المريضة التى ازورها للمرة الاولى ، والانتظار خارج الغرفة حتى اتم الفحص ومعى الممرضة تركت ام المريضة الغرفة مع ضيوفها يخرجن وهن يشعرن بالاهانة . كنت اعرف الام والضيوف وقد حاولت ان افهمها الامر . تصالحت معى الام ولكنها ظلت تقول :

- دكتورة في سن اولادى تطلب مني ان اخرج من الغرفة! . .

بعد ذلك تعلمت الحذر من اقارب المريض وضيوفه .

في دار (التمريض الخاص) دخل قريبى السيد الحاج (محمود رامز) وهو زوج عمتى الذى منعها ان تدخل بيتنا لعدة سنوات ثناء دخولى كلية الطب . دخل الآن وقد فحصته وكتبت حالته الصحيه واجريت يعض الفحوص المختبرية وكان راضياً عما يجرى وكان لطيفاً . الصعوبة بدأت عندما بدأت اسحب كمية صغيرة من الوريد في ذراعه ، ورغم محاولاتى الكثيرة ، لم اتمكن من ذلك ، مع ان الوريد عنده كان بارزاً واضحاً ، ولكنه متحركاً لان (الحاج) كان نحيفاً وكبيراً في السن ، يناهز السبعين من العمر ، وانا كنت اسحب الدم لعشرات المرضى دون أي صعوبة . شعرت بالخجل واخبرت الاستاذ (ستيسى) بهذه الصعوبه ، ومع من؟ مع (الحاج) الصعب نفسه! . . ضحك الاستاذ وسحب الدم بنفسه بكل سهولة . عندذلك تكلم الحاج وقال لي :

- هكذا يسحبون الدم! . . تعلمي! . .

(خرج الحاج محمود رامز) وعاش بعد ذلك الحادث اكثر من ربع قرن واظته ، عتدما توفى ، يكون قد وصل سن المائة) .

احسان رفعت

كان ابن خالي (احسان) يعتبر (الولايات المتحدة الامريكية) مدرسة الحضارة العظمى الحديثة في الغرب . ذهب اليها وهو في العشرين من عمره بعد ان درس في الجامعة الامريكية في بيروت لمدة سنة واحدة بعد ان اكمل الدراسة الثانوية

في بغداد . وأتى من امريكا وهو مملوء بدرر ولآلى الغرب . وكان يقول ان خلاص الشرق هو رهن التمكن من هذه الحضارة ، وان يعرف في مقوماتها الحقة من فكر وعلم وادب وفن . ويؤكد بان الشرق مفلس وان طراز ثقافته يجب ان يتغير . وبالرغم من اعجابه المطلق للثقافة الغربية ، كان يعيش بقلب عراقى ، ويشعر انه ابن اعرق الشعوب طراً ولن يدانيه أحداً من الشعوب الغربية في المجد الاصيل .

وكان يقول ان الحضارة الغربية كل لايتجزأ واننا لانستطيع الانتماء او الاختيار مثلما يقول البعض ان نأخذ جانبها المادي ونتجاهل عناصرها الثقافية والروحية ، وهذا الاتجاه الذى ادى الى اختلاط سبل الاصلاح الروحى وغياب المقومات الحقيقية للنهضة . وكان يكره الحدث الانفصامى العجيب من ان الناس تقتبس مظاهر التطورات الغربية في الاثاث والزينة والاغانى والافلام الجنسية ولكن من دون اهتمام مواز للاستفادة من فنون الغرب الرفيعة وفكره الحر وفلسفته .

كان يكرر دائماً ان حركة النهضة الاوروبية الحديثة بدأت منذ القرن الخامس عشرلم تتحقق بالاخذ بالعناصر المادية الظاهرة للحضارة والوقوف عندها ، وانما تحققت بفعل يقظة الفكر والمشاعر والتخلص من قيود الغيبيات والتزمت ، وبالاحتفال بالحضارات الكلاسيكية من عمارة ونحت وعلم وادب وفلسفة . وانهم قد استعانوا بالعلماء العرب وفلاسفتهم الذين استوعبوا الحضارات الكلاسيكية القديمة وقاموا بترجمتها ودراستها والتعليق عليها .

تزوجت صديقتى وزميلتى في الصف الدكتورة (امت الزهاوى) قبلنا جميعاً . وكان زوجها الكاتب الشاب (عبد الملك نورى) . كنا نعرف (عبد الملك) منذ سنين لانه ابن خال الزميلة الدكتورة (آمنه صبرى مراد) وكان يأتى لزيارة الكلية عندنا دائماً ، وهو من خريجى الجامعة الامريكية في بيروت .

قررت الدكتورة (امت) و(عبد الملك) بأنهما لن يحتفلا بالمراسيم المعهودة ، أي حفلة الزفاف والوليمة الكبيرة اثناء زواجهم ، اخبرتني بصورة حاسمة كعادتها :

– ان الزواج حادث شخصى! . . . هل تظنين بأنني سوف ارتدي فستان عرس ابيض ، واجلس على كرسى في حفلة كبيرة ويأتى الضيوف لكي يتفرجوا

علي وعلى مـا البس من جـواهر وحلي؟ لا لن اتبع هذه المراسـيم البـاليـة السخيفة! . . .

وافقت انا رأساً على ماقالت ، وكنت اعتقد نفس اعتقادها حول سخف هذه المراسيم القديمة ، وعلى رغم تلقيبي (بالبرجوازية) خاصة من قبل خطيبها ، كنت على اتفاق تام معها حول موضوع الغاء حفلة الزفاف .

لقد حققت (امت) ماقالت ، وذهبت الى دار جديدة مع زوجها في منطقة الاعظمية ، دون ان نعلم .

ويبدو ان والديها وافقوا على ذلك .

بعد ايام قليلة دعتنا (امت) الى زيارة بيتها[٣] . كنا جماعة الطبيبات والاطباء الذين نعرف بعضنا لسنين عديدة ، وعددنا حوالى العشرة اشخاص . الاجتماع كان ساراً جداً ومليئاً باخبار المستشفى والاطباء والمرضى . وكان زوجها يعرف الجماعة كلهم معرفة جيدة . كان الاجتماع وكأنه حفلة شاى بين جماعة اخوية لطيفة وليس دعوة الى عروسين جديدين .

كان ابن خالي (احسان رفعت) عائداً من بعثة حكومية حيث درس في اميركا لمدة خمسة سنوات وتخرج مهندساً في (النفط) ، وعندما ترك بغداد وسافر للبعثة الى امريكا كنت في سن الثالثة عشر وكان هو شاب في سن التاسعة عشر .

كان (احسان) محبوب أمي وخالاتي الخمس قاطبة ، وهن عماته طبعاً .

وهن مثلاً يحلفن بأولادهن أحياناً على العادة العراقية ، وهو قَسَم كبير لديهن ، لكنهن لايحلفن باحسان ابداً! . .انه الولد الوحيد الذي يمثل الوالد المرحوم . .!

وكان لجدي والد والدتي ثلاثة اولاد وستة بنات ، ابنه الكبير مات دون ولد ، والثاني انجب بنتاً توفيت وهي في حوالى السنه الرابعة ، وتوفي ابيها شاباً . كان

٣ ـ سافرت امت الى امريكا بعد سنوات قليلة بمفردها ، وكان زوجها سيتبعها ، ولكنه لم يحصل على الاذن بالدخول اليامريكا وبقي في بغداد ، وبعد فترة انفصلا ، وتم الطلاق وهي في امريكا ، وتزوجت طبيباً امريكياً معروفاً ، وعاشت في كاليفورنيا ، وانجبت ثلاثة اولاد .

احسان ابن ولده الثالث . وقد توفى والد (احسان) عندما كان احسان في سن الثالثة من عمره واصبح الحفيد الوحيد لجدى (صالح بك الهرمزى) من ناحية اولاده ، ولكن لديه عدد من الاحفاد والحفيدات من بناته .

وخالاتى لايذكرن اسمه الا ومعه شيء من عبارلت الحب الدينى او الشعبى مثل (احسان ،عمره الف سنة ، او احسان فدوة لعينه ، او كما يقول التركمان احسان عمره طويل انشالله) والكثير غيرذلك .

وكان يشعر بخجل قليل من جراء ذلك ، ولايجيبهن بشيء .

عند عودة احسان من امريكا طلبت الحكومة منه ان يشتغل في حقول النفط مع الشركة البريطانية (شركة نفط العراق) .

اثناء حركة رشيد عالى كان (احسان) يعمل في منطقة الشركة في (عين زالة) في لواء الموصل . وقد منع البدو من نهب وتخريب الشركة التى حاصروها بأعتبارها انكليزية . منعهم واخبرهم ان الشركة اصبحت راجعة الى الحكومة العراقية وعليهم المحافظة عليها وحمايتها . ولحسن الحظ ، اقتنعوا بكلامه ورجعوا الى ديارهم وبقيت الشركة كما هي .

في سنة ١٩٤٣ كان (احسان) يشتغل في بغداد في وزارة الاقتصاد لان مديرية النفط كانت هناك . لم يكن لديه مسكن خاص لذلك سكن عند عمته وهى خالتي وتسكن على مقربة من بيتنا في شارع الفضل . بدأنا نرى احسان اكثر ونتحدث معه طويلاً . وكان يجلس ويتكلم عن سنواته الخمس في امريكا ، في جامعة (كاليفورنيا) في مدينة (بركلى) ، مقابل الخليج الصغير عبر مدينة (سان فرنسيسكو) على المحيط الهادى . وكان يود الرجوع والعودة الى امريكا لدراسة الدكتوراه في هندسة النفط ، ولكن الحرب حالت دون ذلك ، وبقى في بلاده .

في ايام الجامعة في كاليفورنيا كان يتوقع ان يعود الى بغداد ليعمل على اساس تغيير الاشياء القديمة وادخال الامور الحديثة النافعة . وقد وجد بعد رجوعه الى بغداد ، انه لايملك أي نفوذ او مقدرة على تحريك اصغر الامور ، ولايسير الا حسب الامور المرعية . كان يشكو من خيبة مارآه في البلد من الفقر الدائم والجهل

والمرض والناس تعتبر هذه الامور وكأنها اشياء قدرية ازلية لاتتبدل الا بمرور الدهور الطويلة او او بحدوث معجزة .

أحياناً كان يسألنا نحن الفتيات ، اين نساء البلد الآن ، فيهن من تخرجن من مدارس وكليات ، وهو لايشاهد الا الرجال في كل الوظائف .وكان يكرر دائماً :

- متى اشاهد النساء يشتغلن مع الرجال! . .

كنت انا المتفائلة دوماً ، اتناقش معه وارى الصبح الجلي في الافق دائماً واقول ان العراق مهبط الحضارات القديمة ، وبعدها في العصور الاسلامية فيما يسمى القرون الوسطى المتخلفة عند الاوروبيين كنا اسياداً في العالم . ان هذا الوقت الحاضر هو بداية عصرنا الحديث ، واطلب منه ان يقارن العراق مع دول كلبنان وسوريا ومصر وليس مع امريكا .

بدأت اعجب بصراحته وعدم اهتمامه بآراء الناس . لم يكن يزدرى الناس او يهزأ بهم ، كان يعطف عليهم في نفسه من جهلهم الفاضح للعالم اللآخر أي عالم الغرب ، عالم العلوم والفنون والحروب . لقد اصبح يجد نفسه غريباً في عالمه القديم المتخلف ، وهو يزدرى التخلف ولا يريد ان يخضع له مرة اخرى .

لم ار منه أي حسد او غيرة من الناس . كان حسده هو وجود عالم آخر بعيد وسعيد لايدرى بما يحل في عالمنا البائس هذا .

كانت صراحته ، واهتمامه لنبذ الماضى وتخلفه ، وذوقه في الموسيقى والفنون التصويرية ، واناقته الفائقة في لباسه العصري الحديث ، واهتمامه الكبير بحقوق المرأة العصرية ، واعجابه من ناحيتى بموضوع الطب واهتمامي الكبير بالتاريخ والادب ادى الى الخطوبة ، رغم قوله في الماضى ، انه لن يتزوج وانه سيعود الى امريكا ليدرس ويأخذ الدكتوراه! . .

وافق الوالدان على الخطبة بسرور . لم يذكر والدي الخطبة والزواج امامى ابداً . كان يتكلم بالموضوع مع أمي فقط . استبشرت العائلة ، خاصة اهل والدتي لان العريس كان عزيزهم الغالي وتزوج من ابنة العائلة! . .

كان احسان خجولاً في بعض المواضيع . اعطته والدته خاتماً به ماسة بيضاء صافية جداً للخطوبة ، وهو ابدل صياغة الخاتم مع الجوهرجى الى صياغة عصرية

ووضع العلبة وفى داخلها الخاتم في جيبه وجاء الى بيتنا . وشعر بالخجل ان يقدمه الي بين الجماعة الكبيرة ، وفى لحظة قصيرة كنا في الغرفة بمفردنا ، وهى لحظة نادرة لان البيت مملوء بالاخوة والاخوات ، اعطانى العلبة وقال :

- لاتتكلمى عن الخاتم الا بعد خروجى .

وغادر البيت بسرعة .

اخرجت الخاتم بعد خروجه وشاهدته أمي واخواتى واعجبوا به .

قررنا ان نقيم حفلة (المهر) بيننا دون ان نخبر احداً خارج العائلة ، ثم نسافر الى مدينة (البصرة) لشهر العسل .

كنت لاازال ابيت في المستشفى كالعادة .

في يوم (المهر) تركت المستشفى بعد الظهر وذهبت مع والدتى ولمعان اختى من بيتنا فقط ، الى بيت (حسين الرحال) وزوجته (سعدية فتاح) وكانت هناك خالتي الكبرى وابنتها (امينة الرحال) وزوج امينة (يوسف جواد المعمار) ، واتى مع احسان قريب والدته (انور نجيب) واختاه (حسيبة ومديحة) . لم يكن هناك (وكيل) عنى لأنني كنت بنفسى هناك . لم يكن هناك لاوالدي ولااعمامي او اولاد عمتي . قدم (قاضى بغداد) ومعه كاتبان من المحكمة الشرعية .

جلسنا مع القاضى حول منضدة ، قدم احد الكاتبين دفتراً كبيراً الى القاضى ، فتح القاضى الدفتر وبعد قراءة بعض آيات صغيرة من القرآن الكريم ، بدأ يسألنا الواحد بعد الاخر اسئلة ، اجبنا عليها ورددنا ماقاله لنا . وكان حق المهر المتقدم (ديناراً واحداً) ومثله للحق المتأخر .

كانت هذه طريقتنا للقول ان الزواج هو ليس صفقة بيع . (كانت اختى الكبرى قد تزوجت بهذه الطريقة منذ سنة ١٩٢٦) .

طلب (احسان) من القاضى ان يضع حق (العصمة) في يدى . وقال ان ذلك سيشجع البنات على لحصول على حق (العصمة) ، ولم اطلب ذلك منه من قبل .

بارك لنا القاضى ، وشرب هو والكاتبين عصير البرتقال وسلموا وذهبوا بسرعة وببساطة .

لم توافق والدتي على هذا العقد البسيط ولكنها لم تقل شيئاً ، رأيتها تجلس بهدوء ولم تعلق على اي شى .

تناولنا عشاء لذيذاً في بيت الخالة وسمعنا بعض الالحان الموسيقية الغربية الراقصة وفي الساعة الحادية عشر مساء عدت الى المستشفى واوصلنى الى باب المستشفى في سيارة والدتي ولمعان واحسان ، وعادوا الى البيت[٤] .

لم اتمكن من كتمان الخبر عنهن ، ولم يعرفن بأنني كنت مخطوبة قبلاً ، اخبرتهم ان (العقد) قد عقد هذا المساء ، لأحسان ابن خالى! . . . بدأ سيل من الاسئلة والضحك وعدم التصديق وكيف تمكنت ان اخبئ هذه المعلومات عن الجميع! . . .

في اليوم التالى شاع الخبر في المستشفى ، وبدأ الزميلات والزملاء بتقديم التحيات والتهائى ، وقد لبست خاتم الخطبة لاول مرة في المستشفى في هذا اليوم .

خلال شهرين اشترينا مايلزم للبيت الجديد بصعوبة كبيرة بسبب ظروف الحرب . لقد اوقفت بريطانيا معظم الصناعات المدنية في بلادها واهتموا بصناعات الحرب بصورة ، وكانت معظم الاشياء تأتى منها .

اصبحت الاشياء الضرورية نحصل عليها بصعوبة كبيرة مع ان الحكومة كانت توزع على الناس الرز والشاي والسكر باسعار رخيصة ، وكانت معامل (فتاح باشا) تشتغل بدون انقطاع ، لصنع الاقمشة الصوفية للرجال والنساء وللجيش من هذه المعامل .

في ذلك الحين اذا ذكرنا ان معامل فتاح باشا وقلنا انها وطنية ، ترتفع الاصوات الاشتراكية امامنا بغضب قائلة :

– هل من الوطنية ان نملأ جيوب فتاح باشا؟ . الوطنية ان تملك الدولة رؤس

---

٤ ـ تزوجت ابنتي شيرين في سنة ١٩٧٦ في بغداد ولبست ملابس العرس البيضاء في حفلة كبيرة جميلة في اوتيل بغداد وكان عدد المدعوين حوالي خمسمئة من الرجال والنساء . كان ذلك ما ارادته ووافقنا جميعاً على ما ارادت .

كانت هناك اربع من الطالبات في الصف المنتهى يقمن بالخفارة الليلية واسرّتهن قرب سريري في السطح في شهر ايلول كنا صديقات ، وكن يتحدثن ويعجبن عن سبب تأخرى في العودة هذا المساء .

الاموال وتوزعها بالتساوى على الناس . .

لم نكن نتمكن من الرد عليهم .

ارتفعت اثمان الحاجيات كلها وكان علينا ان نشترى جميع اشياء البيت الجديد ، الاثاث والاسرة وادوات المطبخ والستائر وغيرها وكانت معظم الملابس الغربية الجاهزة تأتى الينا من فلسطين ، والملابس على جانب جيد من المودة الحديثة . اشتريت معظم ملابسى منها ، من بعض المخازن في (شارع النهر) من تجار من اليهود العراقيين كما كنا نشتري عادة في ذلك العهد .

وقد أستاجر احسان بيتاً في منطقة (العيواضية) سكن فيه بمفرده لفترة قصيرة قبل ان يحين موعد الزواج .

كان السفر خارج العراق صعباً اثناء الحرب ولكن السفر الى فلسطين وبصورة خاصة للتداوي في مستشفى (هداسا) فيمدينة القدس كانت تجري بسهولة إذ كانت فلسطين تحت الانتداب البريطانى منذ الحرب الاولى عندما دخل الى مدينة القدس الجنرال (اللنبي) ، وظلت تحت الانتداب البريطانى الى سنة ١٩٤٨.

قررنا ان نسافر الى البصرة في نهاية شهر تشرين الثانى . اتت زوجة خالى الكبير الذى قتل في قضاء (كفرى) قبل سنوات وكانت تعتقد ان (احسان) بمثابة ولدها ولم يكن لديها اطفال ومعها الصبية التى تربت عندها كعادتها دائماً ، وسكنت في البيت الجديد مع احسان ، انتظاراً لسفرنا الى البصرة ورجوعنا . وصممت ان تبقى فيه حتى نسافر ونعود من البصرة .

وقد بقيت مابين البيت وخفارة المستشفى الى يوم السفر حيث كنت في بيتنا . سافرنا بقطار المساء الى البصرة ولم يكن في توديعنا الا والدتى واختى لمعان وبعض افراد العائلة من اولاد خالتي وزوجاتهم .

رأيت قطار البصرة اجمل من قطار كركوك . الخدمة كانت من قبل موظفين وخدم من الهنود (لم تكن باكستان قد انفصلت عن الهند وكنا نسميهم هنود كلهم) . وكانت الملاحظات المكتوبة للمسافرين باللغات العربية والانكليزية والهندية .

الخدمة في مطعم القطار كانت رائعة وعلى الطراز البريطانى الاصيل ، والاكل كان شرقياً وغربياً . وقد تمسكوا بعادة ايقاظ المسافرين في الساعة السادسة صباحاً ، أي قبل الفطور بساعتين لتقديم الشاي مما ازعجنى ، من الذى يشرب الشاي في السادسة صباحاً؟ صرفنا العامل الهندى دون ان نأخذ الشاي . اما الفطور في المطعم كان انكليزياً ، أي كبيراً وشهياً ومتنوعاً .

وصلنا البصرة قبل الظهر وتوجهنا الى اوتيل (شط العرب) حيث حجزنا فيه غرفتنا .

كان اهتمامى للذهاب الى مدينة البصرة كبيراً ، كانت لدى في الماضى صديقة من البصرة في المدرسة المتوسطة وفى الثانوية وقد كانت تصف لي البصرة وكأنها مدينة (فنيسيا) التى قرأت عنها في الروايات ، وتصورت الناس يعيشون على شواطئ داخل الانهار الكثيرة وظننتها المدينة التى تخلو من السيارات والعربات والناس تسير على الماء بواسطة (الكندول) والزوارق .

هل سأجد (الكندول) في البصرة واسمع اغنية (عبد الوهاب) عنها هناك؟

ترى هل سأجد الناس لطفاء كرماء كما قالت صديقتى؟ . .

وفى ايام كلية الطب كان في الصف معنا ثلاثة طلاب من البصرة احدهم (صبرى عبد الاحد) وهو ابن الاسقف البروتستانتى في البصرة ، والآخر (يعقوب فرانى) ، والثالث اصله من لبنان تربى في البصرة منذ طفولته اذ كانت والدته معلمة من لبنان وتزوجت موظفاً بصرياً في وزارة المعارف وعاشت في العراق وابنها (امين جريدينى) ، كبر ودخل كلية الطب وتخرج وعاش في بغداد حتى وفاته .

كان هؤلاء الطلاب الثلاثة يعودون الى البصرة حتى في الاجازات القصيرة التي لاتتجاوز الثلاث ايام ، لكي يسافروا بنفس المساء لئلا يفقدوا من وقتهم في البصرة . وكانوا يسمون البصرة (حديقة الله) .

هذه القصص عن مدينة التى هي ثغر العراق الوحيد ، ولم ارها ابداً ، اثرت على خيالى جداً .

انها الميناء الوحيد لبلادنا المتخلفة! . . . هل ستصبح فينيسيا ثانية في خاطرى وانا لم ار فينيسيا ولكنني واثقة من جمالها وبهائها من الكتب والروايات! . .

ترى هل سأحب البصرة! . . .

كان (احسان) لايقول الكثير عن البصرة او غيرها ، وهو لم يرها من قبل . كانت افكاره كلها في (كاليفورنيا) تلك البلاد البعيدة السعيدة . وقد وافقنى على الذهاب الى البصرة لأنني اردت ذلك . وهو لايهتم بالماضى وعصوره ، ان اهتمامه الكبير بالحاضر وبالمستقبل القادم .

اخبرته بأن (البصرة) هي اول مدينة اسست بعد الاسلام في زمان الخليفة الثانى (عمر بن الخطاب) وتبعتها مدينة (الكرفة) التى اسسها (سعد بن ابى وقاص) بعد انتصار المسلمين في موقعة(القادسية) .

وذكرت له ان البصرة قدمت الى اللغة العربية وأحداً من اهم الكتاب العرب وهو (الجاحظ) . .قال انه يتذكر ذلك من دروس التاريخ في المدرسة .

وصلنا الى فندق (شط العرب) وهو يطل على ذلك النهر الواسع الكبير ، الذى هو مجموع النهرين دجلة والفرات وكان النسيم الدافئ يتلاعب بسعف النخيل في هذه المنطقة الاخاذة الخضراء . وقفت قليلاً اتامل اتساع هذا النهر وجلاله ، وملايين النخيل حوله . هذه بداية ارض السواد بالنسبة لعرب الصحراء القدماء ، ملايين النخيل المكتظة الرائعة هي اساس السواد لقبائل العرب للقادمين من الصحارى والقفار . والنخلة هي شجرتنا الوطنية الآن .

كنا نعرف قليلاً من الناس في البصرة ، ولحسن حظى كانت صديقتى الدكتورة (لطيفة لاوى) تشتغل في البصرة وقد ذاع اسمها بين العائلات البصرية وكانت محبوبة بين النساء في البصرة . وقد اتت الى الفندق مسرعة لتقول ان العشاء في بيتها هذه الليلة .

يبدو أن الفندق كان محل الراحة لضباط الانكلبز الكبار ومعسكراتهم في المنطقة . كان وجود بعض الانكليز في البهو يضفى الهدوء والسكينة على المكان ، والكل يتكلمون همساً كما يفعلون في النوادى الراقية في بلادهم ويقرأون الجرائد والمجلات .

طلبت مني الدكتورة لطيفة لاوى ان ازور مستشفى البصرة حيث تشتغل . ولكن الدعوات الى موائد الغداء والعشاء واوقات الشاي لم تترك لنا الكثير من

الوقت . وكان الجميع يطلبون مني ان ابتعد عن جو المستشفى والعمل ، واتمتع بالرحلات والدعوات .

تجولنا بالسيارة داخل البصرة وخارجها . اعجبنى جو البصرة الشتوى الدافئ المريح ، واندهشت من كثرة الانهار الصغيرة الجميلة التى تتفرع من شط العرب ، مئات منها ، والماء في هذه الانهار يتحرك بالمد والجزر كمياه البحار . هذه الانهار والاقنية الصغيرة تملؤها اعداد عديدة من الزوارق الصغار فبها الناس والبضائع ، اما القناة الكبرى بين العشار والبصرة ففيها زوارق طويلة جميلة على طيلة القناة ، والنخيل يملأ ضفاف كل هذه الانهار والنهيرات بصورة رائعة! . . وكان الماء في البصرة حلو عذب .

زرنا مدينة (الزبير) ورأينا قبر (الزبير بن العوام) وهو من اصحاب الرسول عليه السلام وزوج (اسماء) بنت ابو بكر . والزبير مدينة صحراوية جافة تختلف عن البصرة ومياهها ونخيلها . وهناك منطقة مليئة باشجار كبيرة بسمونها (اشجار الاثل) وهى اشجار تنمو في المناطق الصحراوية ويذهب اليها الناس للنزهة وتناول الطعام في الهواء الطلق .

كلك زرنا منطقة (السراجى) ويقع بها قصر (اغا جعفر) الجميل على النهر هناك . كان البيت خالياً ، ولم اكن اعلم بأن (مليحة) بنت (اغا جعفر) سوف تتزوج وأحداً من اعز اصدقاء زوجى هو ابن خالتها المهندس المعمارى (جعفر علاوى) بعد مدة سنتين .

ركبنا في باخرة مع جماعة من الاصدقاء سارت بنا اميالآ عديدة جنوباً في شط العرب وكان على الشاطئين غابة من النخيل ، وسرنا باتجاه (عبادان) ورأينا هذه المدينة من مسافة بعيدة . انها مدينة النفط في ايران! . .

من الاشياء التى احببتها واذكرها عن البصرة هي البيوت القديمة والشناشيلات البديعة التى تطل على الشوارع والازقة القديمة . انها صورة للبصرة المدينة الاسلامية الرائعة .

احببت اللهجة العامية البصراوية جداً ولكنتهم التى تميل نحو لهجة اهل الصحراء واحببت الاصطلاحات فيها ، وحتى اصوات الناس وتصرفاتهم فيما

بينهم ، ولم اسمع صراخاً او خصاماً في أي محل . لم اسمع الاالعذوبة واللطف والمسالمة ، انها بلد السكينة والطمأنينة . انها بلد لايجوع فيه احد . انها بلد يخلو من القحط وانعدام القوت! . .أو هكذا ترائى لي البلد بمياهه الغزيرة المنتشرة والسمك الوافر ، والتمور التى يزيد عدد انواعها على عدة مئات ، والبساتين الساحرة الظليلة التى تحيط بالبصرة .

احببت مدينة البصرة وسكان البصرة وصداقتهم وكرمهم ورقة طباعهم وانهارهم ونخيلهم في هذه المدينة الفيحاء .

بعد ايام قليلة اقترح (احسان) ان نرجع الى بغداد حيث نقضى ايام العطلة الباقية فيها ، خاصة واننى لم اسكن في البيت الجديد بعد ، واننا سنحتاج الى الكثير من الوقت لنرتب حاجياتنا هناك .

عدنا الى بغداد دون ان نخبر احداً الى ان وصلنا البيت في الصباح الباكر ، وخابرت بيتنا واصرت والدتى ان تدعونا على الغداء في نفس اليوم .

ذهبنا الى بيتنا وكانت والدتى واخواتى لايرغبون تصديق بأنني تركت بيت العائلة الى بيت آخر سوف يكون بيتي المقبل .

كان البيت الجديد لطيفاً ذو حديقة صغيرة . وكنا نعرف صاحب البيت وهو من مدينة كركوك وكان يكلم احسان باللغة التركية بلهجة كركوك . وكان القسم الخلفى للحديقة يقع على جدار المستشفى وراء مطعم كلية الطب وعلى مسافة من الردهات .

اخذت جماعات صغيرة من الاهل والاصدقاء تأتى لزيارتنا ولرؤية البيت الجديد .

كانت لدينا امرأة واحدة فقط تقوم بالطبخ والتنظيف ، وتسكن معنا في البيت ، وهى امرأة في منتصف العمر نعرفها لانها كانت تشتغل في بيتنا قبلا .وقد سرها عدم وجود اخرى معها في البيت وقالت انها تشعر ان البيت ملكها أيضاً .

القاهرة ـ الاتحاد النسائي العربى الاول

بعد رجوعنا من البصرة والى البيت الجديد بايام قليلة ، سمعت صوت التلفون واذا به صوت الست (امت السعيد) عميدة كلية الملكة عالية ، تخبرنى بأن وزارة الشؤن الاجتماعية ، ترغب ان اشترك للذهاب الى مصر كعضوة في اجتماع (الاتحاد النسائى العربى) الذى سيعقد في القاهرة خلال ايام قليلة ، واضافت ان القضية مستعجلة ويجب ان اعطى الجواب حالآ .

القاهرة! . . . هل استطيع ان ارفض الذهاب الى القاهرة؟

أخبرت الست امت ان تنتظر لكي اسأل زوجى ، وكان في غرفة اخرى .

سألته وانا اتوقع انه سيرفض ،

اذا به يقول :

– اقبلى الدعوة . . .ان هذه احدى الفرص النادرة ولن تشبه سفرة عادية! . . .انك في عطلة والناس تزورنا فقط للتهنئة بالزواج كل يوم بصورة رتيبة! . . .اخبرى الست امت بأنك قبلت الدعوة حالآ! . .

عدت الى التلفون وأخبرت ألست امت بقبولي الدعوة ، مع مزيد شكرى! . . .

القاهرة! . .وتدافعت في مخيلتى صور هذه المدينة! . . .

القاهرة! . . .كنت اراها ثلاث مدن مجتمعة في واحدة أي (اوكسفورد وموسكو وهوليود) كلها ممتزجة معاً في هذه المدينة العربية القديمة ، أي انها تجمع العلم والسياسة والسينما والفن في العالم العربيكله! . . لقد احتلت القاهرة اعرض مساحة في الوجدان العربى ، ولها منزلة لا تنافسها فيها عاصمة اخرى! . . .

لقد درسنا في المدرسة الكثير من الكتب المصرية ، وتعلمنا اشعار شوقى وحافظ منذ الطفولة ، ونعرف اخبار الملك فاروق واخواته الجميلات وزوجته الملكة فريدة ، واخته فوزية زوجة شاه ايران ، ونعرف اسماء طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وسعد زغلول وقاسم امين وتطلعنا الى صور الجامع الازهر الاهرام وابو الهول ونحب غناء ام كلثوم وعبد الوهاب وغير ذلك الكثير الكثير! . . .

و في ايامنا هذه ، ايام الحرب العظمى الثانية ، اجتمع في القاهرة اهم رجالات السياسة في العالم ، شرشل ، روزفلت ، ديغول ابن سعود . . .

ان مكانة القاهرة في العالم العربي كبيرة بحيث لا تنافسها مدينة عربية اخرى .

وها انا ذاهبة اليها! . . .

اخبرتني الست امت ان عددنا سيكون من ست عضوات موظفات يمثلن جمعيات نسائية مختلفة وهن :

الدكتورة سانحة امين زكى من وزارة الشؤن الاجتماعية . (طبيبة)

السيدة عفيفة رؤف عن وزارة المعارف ، وهي مديرة مدرسة ابتدائية .

السيدة مائدة الحيدرى عن(الفرع النسائى للهلال الاحمر) وهي معلمة في الثانوية .

الست سرية الخوجة عن جمعية حماية الاطفال وهي مديرة دار المعلمات الابتدائية

السيدة روز خدورى ، عن جمعية (بيوت الامة) وهي مديرة مدرسة متوسطة .

الست نزهت غنام ، عن (جمعية اخوان الحرية) وهى معلمة في كلية الملكة عالية .

كان الوفد يضم نساء في سن الشباب ، كنت في الرابعة والعشرين والبقية في حوالى الثلاثين من العمر دونها او فوقها بقليل . اربعة من العضوات كن متزوجات ما عدا (نزهت غنام) التى تزوجت بعد سنوات و(سرية الخوجة) التى لم تتزوج الى الاخير .

كانت السيدة المصرية الجليلة (هدى شعراوى) رئيسة الاتحاد النسائى في مصر منذ سنوات هي التي دعت الهيئات النسائية الى هذا الاجتماع . بعد ان قامت بجولة في ربوع لبنان وسوريا وفلسطين والاردن اثناء الحرب وتبلورت لديها فكرة عقد مؤتمر نسائى عربى في نهاية سنة ١٩٤٤ لتنسيق جهود المرأة العربية والعمل على تقرير حقوقها المدنية والسياسية . وكذلك درس الوضع في فلسطين آنذاك بعد تدهور الاحوال فيها والتى تشير الى اخطر العواقب .

ان تكوين جبهة من النساء العربيات بحيث يصبح لهن رأى مسموع في وضع النظم والتشريعات التى يراد بها حماية الامومة والطفولة ، وكذلك

التشريعات الجديدة بعد الحرب والتي ستخلق مستجدات اقتصادية واجتماعية كبيرة .

بحثت (هدى شعراوي) خلال سفرها في البلاد العربية مع زعيمات الحركات النسائية هناك الدعوة لعقد مؤتمر نسائى في القاهرة ، وقد قوبل ذلك بترحيب الهيئات النسائية وعضد الحكومات التى اتصلت بها . ولكن السيدة هدى شعراوي لم تأت الى زيارة العراق ، بل ارسلت بمذكرة الى السيد (تحسين العسكرى) وزير العراق المفوض في مصر انذاك ، رفعت فيها اجلالها الى حضرة صاحبة الجلالة الملكة (عالية) والدة الملك فيصل الثاني ووجهت لها دعوة شخصية لتشريف المؤتمر بحضورها ، الا ان بعض الاسباب الخاصة بالملكة عالية حالت يومذاك دون حضورها هذه الدعوة .

وصلت الينا الدعوة متأخرة ، وغادرنا بغداد خلال يومين فقط ، لكي نصل القاهرة قبل افتتاح المؤتمر بيوم واحدا! . .

اصبح واجبنا الآن زيارة جلالة (الملكة عالية) لكي نستأذنها بالسفر .

ذهبنا نحن العضوات الست الى قصر (الزهور) الملكى في منطقة (الحارثية) ، وكان القصر يبدو بعيداً عن بغداد معزولاً ، بسبب البساتين وعدم وجود بنايات في تلك المنطقة آنذاك .

كانت هذه المرة الثانية التى ارى فيها (الملكة عالية) . في المرة الاولى كانت قبل خمس سنوات عندما كنت طالبة في الصف الثانى من كلية الطب ، ذهبنا لتعزية الملكة بوفاة زوجها مليكنا الشاب (الملك غازى) ، وكان القصر مليئاً بالناس والزيارة مثقلة بالاحزان والاسى! . . .

اما الآن ، فأن القصر يبدو هادئاً يسوده السكون العميق! . . .

ساعدنا على الدخول من الباب الكبير جندي في الخارج ، واستقبلتنا امرأة قادتنا الى غرفة كبيرة حيث شاهدنا الملكة واقفة بمفردها ووجهها يطفح بابتسامة جميلة .

نظرت اليها ، فاذا بي امام سيدة شابة في حوالى الثانية والثلاثين من العمر صبيحة الوجه ، عريضة الجبهة ، رشيقة القوام ، متوسطة القامة تلبس ملابس انيقة

قاتمة اللون ، وشعرها الداكن اللامع مصفوف بعناية وجهها الابيض خال من المساحيق . لم تكن ترتدى أي مجوهرات او حلي .

رحبت بنا بصوت صاف جميل بلغة عربية عذبة فيها لكنة حجازية محببة .

جلست وجلسنا على كراسى حولها . سألتنا عن وظائفنا في الحكومة ، وسرت من ذلك . ثم قالت انها آسفة لعدم الذهاب الى المؤتمر ، ولكن الخير فيكم وان نساء البلاد العربية الاخرى سوف يشاهدن المرأة العراقية الحديثة ودرجة تقدمها .

نظرت الي وقالت :

- سوف يعجب بك الناس ، لانك طبيبة وتخرجت في كلية طبية عراقية! . .

ضحكت الملكة عندما اخبروها بأنني في شهر العسل! . .

قدمت احدى الخادمات القهوة التركية ثم الشاي والحلويات .

نظرت الى الاثاث في الغرفة ، كان مريحاً جميلاً ولكنه بسيط والستائر كانت على الطراز الانكليزى القاتم .

بقيت افكر بالملكة وهى تتحادث معنا ، وهذه عادتى عندما التقى بشخصية وهبها التاريخ مركزاً وجاهاً! . .

الملكة محجبة لاتظهر امام الرجال ، لا هي ولا امها ولا اخواتها الثلاثة! . .

انها ولدت في بيت (الاشراف) في الحجاز ، جدها الملك (حسين بن على) ، وهو اول من ثار من العرب المسلمين ضد الدولة العثمانية المسلمة اثناء الحرب العالمية الاولى ولقب نفسه (الملك حسين ملك العرب) ، ثم اضطر تحت ضغوط دولية والتنازل عن العرش الى ولده الاكبر الشريف (على) وهو والد الملكة عالية ، واخيها هو الامير (عبد الآله) .

فقد الهاشميون مركزهم في الحجاز في الحرب امام (ابن سعود) بعد تخلى حلفائهم البريطانيون عنهم ، وترك الملك (على) بلاده وذهب الى الاردن ، ثم استقر في بغداد هو وعائلته . وكانت الاميرة (عالية) صغيرة السن .

شهدت (عالية) وفاة عمها الملك فيصل الاول ، وتزوجت ابن عمها الملك

غازى على إثر ذلك ، وقد توفى والدها الملك (على) ودفن في المقبرة الملكية في بغداد .

ولد للملك غازي والملكة عالية ولدهم (فيصل) وكان عمره اربع سنوات عندما وفاة والده الملك غازى في حادثة سيارة في منتصف الليل ، واصبح الطفل (الملك فيصل الثانى) ملك العراق ، واصبح شقيق الملكة الامير (عبد الآله) الوصى على فيصل .

الملكة الآن ارملة في سن الشباب! . .وقد شهدت الكثير من تغيرات الدهر من تبديل الوطن! . .الزواج القصير! . .الترمل السريع! . . حركة انقلاب (مايس) ١٩٤١ عندما ارغمت تقريباً ترك قصرها والذهاب مع ولدها الى (اربيل) ، خروج اخيها من بغداد ، ثم الرجوع الى بغداد ورجوع اخيها الوصى مرة ثانية الى العراق .

والان ، هي منصرفة الى رعاية ولدها الملك الطفل! . .وكان الملك فيصل في التاسعة من عمره! . .

غادرنا القصر بعد ان قبلتنا الملكة قبلات وداع اخوية! . .

إنها سيدة جليلة وام حنون! . . .

ولكي نتمكن من الوصول الى القاهرة قبل افتتاح المؤتمر تحتم علينا السفر الى مصر بالطائرة الى مصر ، لان السفر كان بالسيارات عن طريق لبنان وبعدها الى مصر وذلك يستغرق اياماً .

في تلك الايام لم تكن الطائرات المدنية متوفرة للناس ، بل كانت كلها عسكرية ، او تعود الشركات الكبيرة كشركةالنفط وغيرها .

طلبت الحكومة العراقية من الجيش البريطانى المعسكر في العراق مساعدتنا للذهاب من مطار (الحبانية) الى مطار (روض الفرج) على نهر النيل في القاهرة ، وقد ساعدتنا السفارة البريطانية في ذلك الطلب من الجيش البريطانى .

في الساعة الرابعة من صباح يوم العاشر من شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٤ ، وكان اليوم شديد البرودة . اتى معي لتوديعى والدي وامى وزوجى واختى لمعان ووصلنا الى جسر (المأمون) ، خيث كانت السيارات تنتظرنا ، وكان

سرورهم لذهابى الى المؤتمر كبيراً وخاصة والدي! . .

ركبنا السيارات وانطلقنا عبر نهر دجلة غرباً باتجاه بحيرة الحبانية قرب نهر الفرات . كان الوقت قبيل الفجر وكانت السماء لاتزال حالكة السواد ، كنا جميعاً نضحك ونمزح طيلة الوقت . فجأة رأينا عشرات من عيون لامعة فوسفورية كأنها قطع من الالماس تلمع في الظلام دون ان نرى لها اجساداً في الليل .

لقد كانت قطعان من الخراف كثيرة ومتعددة تسير مع الرعاة في الصحراء .

يبدو أننى لم ار الحيوانات في الليل بهذه الاعداد الكبيرة . في بعض الاحيان كنت ارى عيون القطط في الظلام ، ولكن لم يزد عددها عن اثنتين او ثلاثة قطط ، لذلك لايزال ذلك المنظر الغريب بعشرات وعشرات من عيون براقة فوسفورية تتحرك في الظلام بصورة اخاذة من دون اجسام مرئية عالقاً بمخيلتى الى الآن .

بدأ فجر الصحراء بالظهور التدريجى ونحن نقترب من بحيرة الحبانية ، وكان منظراً رائعاً يصعب وصف بهائه والوانه! . .

رأينا طائرة كبيرة بعيدة في وسط البحيرة ، تبدو وكأنها طائر (الرخ) الذى شاهده (السندباد) في (الف ليلة وليلة) . ركبنا زورقاً بخارياً صغيراً على البحيرة لكي نتجه الى الطائرة الواقفة في وسط البحيرة .

كان ركوبنا الطائرة يعد شيئاً جديداً مثيراً في ذلك الحين .

الطائرة كانت مائية تسمى (الزورق الطائر او فلاينك بوت) ، وكانت تستعمل لكبار العسكريين البريطانيين اثناء الحرب . وداخلها يشبه صالوناً مريحاً في اوتيل فاخر . وقد اختفت هذه الطائرة منذ زمن ، وهم لايصنعونها الآن لانها طيارة باذخة تكلف الكثير! . . .

كانت مقاعد الطائرة موضوعة على شكل دائرى وامامنا منضدة واطئة ، جلسنا نتحدث كما لو اننا في جلسة عائلية مريحة جداً . والطائرة تتسع لعشرين شخصاً او اكثر . تقدم منا شاب انكليزى صغير السن اشقر الشعر يرتدى ملابس عسكرية بيضاء في غاية النظافة والاناقة وكأنه احد الممثلين في هوليود ، وقدم الينا الفطور . كان الفطور انكليزياً لذيذاً يشتمل على عصير البرتقال والشاي

والبيض والباسطرمة (سوسيج) وانواع مختلفة من الخبز وعدة انواع من المربيات والزبدة . ضحكت احدانا وقالت :

– هذه اول مرة ارى (نادلا) انكليزياً! . اكل الخدم الانكليز على هذه الدرجة من الاناقة ، ام في الجيش فقط؟

يبدو ان كبار الضباط يتمتعون بدرجة هائلة من الاحترام والعناية! . .

الطيارة لم تطر عالياً كما نرى الآن في الطائرات الحديثة . كنا نتمكن من رؤية ما على الارض من مناظر بسهولة . رأينا نهر الفرات وتعاريجه ، والبدو وبيوت الشعر ، وآثار المياه الجارية والجافة في الصحراء ، والارتفاع والانخفاض في الارض وكأننا ننظر الى اطلس الجغرافيا . بدت لنا معالم الصحراء جميلة وموحشة معاً في هذا الجو الشتائى المشمس .

بعد فترة ، اخبرنا القبطان اننا سنكون فوق قناة السويس . وقد كانت دهشتنا واضحة ونحن ننظر الى الممر المائى المشهور بين البحر الابيض المتوسط وبحيرة التمساح الى البحر الاحمر . وبعد فترة قصيرة رأينا نهر (النيل) الرائع تحيط به الاشجار بكثرة على الشواطى فقط ، ثم تصبح الارض قاحلة على الجانبين من وراء ذلك .

هبطت الطائرة في مطار (روض الفرج) المائى في وسط النيل .

ركبنا قارباً بخارياً لنصل الى الشاطئ . وكان النسيم نشطاً دافئاً والشمس ساطعة والسماء زرقاء صافية .

على شاطئ النيل في (روض الفرج) ، كانت بانتظارنا زوجات الدبلوماسيين في المفوضية العراقية قد شاركوا معنا كعضوات في المؤتمر وهن :

السيدة نظمية تحسين العسكرى ، زوجة الوزير المفوض العراقى في مصر .

السيدة زهرية خالد الجوربةجى ، زوجة السكرتير الاول .

السيدة مليحة ابراهيم فضلى ، زوجة القنصل العراقى السيد ابراهيم فضلى .

وهكذا اصبح عدد العراقيات تسع عضوات قي المؤتمر .

وكانت تصحبهن سيدات مصريات من الاتحاد النسائى المصرى وهن السيدات (سيزا نبراوى ، وامينة السعيد وحواء ادريس) .

ذهبنا جميعاً الى المفوضية العراقية في حي (الزمالك) .

دخلنا المفوضية وجلسنا على شرفة طويلة في الطابق الثانى وهى تشرف على البهو الداخلى للمفوضية في الطابق الاول ، واستلمنا اوراق الدعوات والبطاقات الى المحلات المختلفة ونحن باوج السرور والمرح ، واذا بشخص يمر من البهو الاسفل ، وهو انيق القوام ، عارى الرأس اشيب الشعر ،

سمع اصواتنا ورفع وجهه ونظر الينا ورأينا وجهه . وصرخت احدى العضوات :

- انه نورى باشا! . .

ابتسم قليلاً ، لوح بيده بسرعة دون ان يتوقف وسار الى غرفة كان يقصدها في الجانب الاخر من البهو .

قررنا ان تكون السيدة (نظمية العسكرى ، ام عدنان) رئيسة الوفد العراقى . وقد فرحت بالرآسة واصابها بعض الخيلاء ، لانها تتكلم العربية بلكنة تركية واضحة ، ولاظنها كانت تقرأ اللغة العربية الفصحى بسهولة . كانت السيدة (نظمية العسكرى) في حوالى الخمسين من العمر ، وهى سيدة مجتمع راقية ، وذات تربية تركية عثمانية عالية وهي لطيفة جداً مع الجميع . . .كان لها اربعة اولاد كبيرهم (عدنان) يقارب سنه الثلاثين وهو ضابط في الجيش العراقى ، و(كنعان) في سلاح البحرية في الجيش العراقى ، والولدان الاصغر (رافد وناهض) يدرسان في كليات مختلفة في مصر .

السيدة (زهرية خالد الجوربةجى ، ام وليد) ، ولها من الاولاد اربعة اصغرهم رضيع في الشهر الثالث من عمره وكبيرهم (وليد) في سن العاشرة . تعلمت هذه السيدة في مدينتها (الموصل) ثم درست اللغة الانكليزية مع معلمة درستهم في البيت . كانت سيدة مليئة باللطف والكياسة .

اما السيدة (مليحة فضلى) وكان اسمها قبل الزواج (مليحة راغب) ، كانت معلمة اللغة العربية في احدى مدارس بغداد الابتدائية قبل زواجها . تخرجت في دار المعلمات الابتدائية في بغداد ، وعندما كنت في الصف الرابع الابتدائى في مدرسة البارودية ، كانت هي في الصف المنتهى من دار المعلمات ، واتت كمعلمة

(في التطبيقات) لمدة اسبوعين في صفنا القديم .

سررت برؤيتها كثيراً وخاصة انها ذكرت ايام الدراسة البارودية القديمة! . .

الملكة فريدة

كان المؤتمر برعاية جلالة الملكة (فريدة) زوجة الملك فاروق الاول . كان للملك فاروق والملكة فريدة طفلتان صغيرتان الكبرى (فريال) والثانية (فوزية) ، وقد ولدت للملكة طفلة ثالثة قبل فترة قصيرة ، وسميت الطفلة (فادية) لأن الملك فاروق نجا من حادث سيارة قبل ولادتها بأيام ، في منطقة (القصاصين) في مصر ،

كان الملك والشعب المصري ينتظرون ولادة ولى للعهد لان الملك فاروق كان الابن الوحيد مع اربع شقيقات اصغر منه ، من والده المغفور له الملك فؤاد .

ذهبنا لزيارة للملكة (فريدة) في عصر اليوم الاول الى قصر (عابدين) الملكي .

لبسنا ملابس السهرة الطويلة ، وكان عدد الوفد العراقى تسع سيدات . وصلنا القصر ورأينا على الباب ثلة من الجنود المصرية تنتظر وصول الوفود النسائية آتية لزيارة الملكة . استقبلنا كبيرهم بكلمة ترحاب لطيفة كعادة اهل مصر .

دخلنا القصر القديم الباذخ بالنسبة الى ما نعرف عن بلادنا . رأينا الكثير من الخادمات الشابات في البهو الكبير وهن على مستوى عال من الاناقة والهندام . قادتنا احدى السيدات الى غرفة كبيرة مفروشة بالاثاث الفرنسى ، وحافلة بازهار مختلفة في اصص كبيرة وصغيرة ، وعدد من التصاوير الزيتية على الجدران . جلسنا فترة قصيرة الى ان اتت احدى وصائف الملكة تدعونا للدخول الى الصالة الملكية .

دخلنا الصالة واذا الملكة فريدة واقفة قرب كرسى كبير مذهب في نهاية الصالة وهى تبتسم ابتسامة عريضة . كانت تلبس مثلنا ملابس سهرة طويلة ، ولكن فسطانها كات يمثل ارقى درجات الاناقة والبذخ ، وترتدى مجوهرات تخطف الابصار بلمعانها في عنقها الطويل ، مع اساور واقراط وخواتم تلمع مع كل حركة من حركاتها ، وكأنها ملكة سحرية! . . . كان شعرها الاسود الجميل مفروقاً من

الوسط الى قسمين والقسم الاسفل من الشعر مرفوعاً الى اعلى ويلتف فوق الاذنين على شكل دائرة سميكة حالكة السواد! . . .

انها تشبه ملكة من ملكات اوروبا كما نراها في السينما! . . .

اين كل هذا من ملكتنا في العراق في (قصر الزهور) ، ببساطتها الانيقة وعدم وجود الجوهرات والحلى او الزينة في الوجه والعيون! . .

احترمت الملكة (عالية) وبساطتها ، ونحن نسمع دائماً ان (الاشراف لايحتاجون الى الجواهر والحلي! . .) .

لكن مظاهر البذخ والثروة استولت على ذهنى ، بحيث بدأت ارى القصر كما لوكنا في الف ليلة وليلة! . . .بدأت افتش عن (علاء الدين) وبساطه السحري! . . .

صافحنا الملكة إبتدائاً من الرئيسة (الست نظمية) ثم الاخريات ونحن نذكر اسمائنا لها . جلست الملكة على الكرسى وجلستا نحن بدورنا على كراسي كبيرة على الجانبين .

بدأت تسألنا عن العراق باللغة العربية . كانت لطيفة وودودة جداً وصوتها عذب ، ولكن لغتها العربية لها لكنة خاصة تجعلها تبدو كأنها فرنسية تتكلم اللغة العربية! . . التأثير الفرنسى الواضح يجعلها تبدو نصف اجنبية! . .

سرعان ما اختفى (علاء الدين) وبساطه السحرى العربي من مخيلتى! . .

سألت الملكة عن وظائفنا . وعندما سألتنى انا وقلت انى طبيبة ، تبرعت (سرية الخوجة) واضافت :

- انها في شهر العسل ولكنها رغم ذلك حضرت الى المؤتمر! . .

ضحكت الملكة وقالت :

- ماشالله! . .طبيبة ومتزوجة! . . ظننتك صغيرة على ذلك! . . اجبتها :

- ان لجلالتك ثلاثة اطفال ونحن بسن واحدة تقريباً! . .

اخذت تكلمنا ، وانا انظر اليها وافكر فيها! . . .كنت قد قرأت عنها الكثير من المجلات المصرية! .

ان اسمها الاصلي (صافي ناز) ويعنى باللغة التركية (الدلال الصافى)..!

وفى بيت عائلتها اسم (الدلع) عندهم هو (فافيت) . الملك فاروق يحب حرف الفاء ويتفائل به ، مثل ابيه الملك فؤاد ، الذى سمى ولده وبناته بحرف يبدأ بالفاء (فاروق وفوزية وفائزة وفائقة وفتحية) . وان الملكة (نازلي) ام فاروق احبت الصبية (صافي ناز) ودعتها مع بناتها الى سويسرا هي وامها لكي يراها فاروق عن قرب! . . وعندما تزوجها الملك ابدل اسم (صافي ناز) التركى باسم (فريدة) وسمى بناته الثلاثة (فريال وفوزية وفادية)! . . .

كانت الملكة (فريدة) جميلة ورشيقة وانيقة جداً وتبدو سعيدة وعمرها لايتجاوز العشرين بكثير ، لم نكن ندرى انها والملك سوف ينفصلان بالطلاق بعد ثلاث سنوات! . . .

قيل لنا بأن الملكة (نازلى) والدة الملك فاروق ، ذهبت مع بناتها الى الاسكندرية لان المؤتمر ليس تحت رعايتها ، وهيلن تحضره! . . لذلك لم نرها لا هي ولا بناتها الاميرات الثلاث . (ابنتها الكبرى فوزية كانت زوجة شاه ايران وهى في سن الملكة فريدة . وكانت الاجمل بين شقيقات فاروق الجميلات)

تناولنا القهوة والحلويات ، ثم استأذنت رئيسة الوفد ونهضنا . نهضت الملكة واقفة امام كرسيها المذهب العالى وتصافحنا معها الواحدة بعد الاخرى وهى تردد :

ـ مع السلامة . . نورتم مصر . . مع السلامة . .

بدأنا نسير باتجاه الباب الى الوراء في نهاية الغرفة ولكن وجوهنا نحو الملكة والباب خلفنا ، لاننا لانستطيع ان نستدير بظهورنا الى الملكة ، بدأنا نتراجع الى الباب بظهورنا ووجوهنا نحو الملكة وفى الوقت نفسه كنا ونحن نسير الى الوراء نسلم على الملكة بأيدينا بالسلام التركى القديم أي نضع يدنا اليمنى على الصدر ثم نرفعها الى الجبين ، وهى تحيينا بنفس التحية ، وقد تكررت التحية عدة مرات بينها وبيننا الى ان وصلنا الباب بظهورنا وخرجنا منه لحسن الحظ دون حدوث عثرات او وقعات بسبب ملابسنا الطويلة ونحن بالكاد نكتم ضحكنا ، ودون ان نعطى ظهورنا لصاحبة الجلالة! . .

كانت هذه التحية المتكررة الطويلة ونحن نستقبل الباب بظهورنا حركة

ارستـقـراطيـة لم نتـعـود على مـثلهـا في العـراق من قـبل اثارت فـينا الضـحك والتـعـجب! . . . ولكن ذلك لـم يخفِ تأثير الملكة اللطيف وجاذبيتـهـا القريبة من النفوس! . .

التغيير في مصر ١٩٥٢

اود ان اتكلم عـمـا حدث في مصر ، وتأثيره على مـا حـدث في العـراق بعد سنوات ستة .

ازداد المبلغ الذى كـان يعطى الى العـراق من شـركـات النفط . وكـان اهـم مـا حدث لنشاء وزارة الاعـمـار ، ورفع مـستوى الموظفين الى اعلى وسـميت هذه الزيادة (الزحف) .

لقد ارتفع عبد الناصر الى شخصية عالمية كبيرة . اذا تكلم في مصر تستمع اليـه الملايين من العرب ورغم ان كـلامـه كـان شـعـبيـاً وبسـيطاً ولكن اسلوبه كـان كالسحر بين الناس بسبب شخصيته النفاذة وبسبب امل الناس في الانتصار على يديه . والناس تفرح بالشتم ضد اليهود والامريكان والانكليز وهو بشتمهم علناً .

كنت اسمع (عبد الناصر) عندما يخطب ، وكان خطيباً ممتازاً على عامية لفظه يبقى الناس في الشوارع ساعات ليسـمعوا ما يقول . كان واثقاً من نفسـه واورث الثقة بين الناس . اته يلعب بألباب السامعين ويوجهم كما يشاء . العرب تنسحر بحـلاوة اللسـان والوعـود الجـمـيلة . كنت اعلم ان وعـوده ترضى الناس ونثيـرهم ولكنها تمضى كالاحلام! . . .

لم اصدق بأى كلمة من كلام عبد الناصر! ، ولم الوم الناس لمحبته!و وكنت افهم ان كلامى مكروه من الجميع!

القاهرة (اثنين) ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٤

كان افتتاح المؤتمرفى دار (الاوبرا المصرية) ، وكان اللباس لباس سهرة .

دخلنا دار الاوبرا وهي معجزة في البناء وكانت على اقصى درجات الفخامة والجمـال والذوق . قـيل انهـا تشبـه الاوبرا (لاسكالا) في ايطاليـا لان (الخديوى

اسماعيل باشا) ، جد الملك فاروق ، ارادها ان تكون مثل الاوبرا الايطالية ، وشيدت من قبل ايطاليين ، وهم الذين شيدوا مبانى القاهرة الضخمة مثل المتحف المصرى وفندق شبرد والكثير غيره . وقد طلب الخديوى اسماعيل البنائين الايطاليين لتمتعهم بالحس الفنى والجمالي العاليين ، وتأثرهم الشديد بفنون (الرنيسانس) أي عصر النهضة للاحتفال بافتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ .

لاتذكر عدد الطوابق في الاوبرا ولكنها كانت ما بين ستة او تسعة . والجدران والسقوف مرسومه بابدع الصور الزيتية مما يأخذ الفكر للمرة الاولى . ولم يكن هناك دار للاوبرا في أي بلد عربى آخر ، لذلك كان الاعجاب كبيراً بدار الاوبرا الرائعة بين جميع العضوات .

وقد اوفدت الملكة فريدة السيدة حرم (رشيد بك) لتحية المؤتمر الى المقصورة الملكية العالية ، ومعها حرم (علوبة باشا) وهى نائبة الرئيسة و(هدى هانم شعراوى) ، رئيسة الاتحاد النسائى المصرى . وعزفت الفرقة الموسيقية العسكرية ونهض الجميع وقوفاً لقدوم مندوبة الملكة .

لقد اجتمعت في المؤتمر النسائى العربى مئة مندوبة يمثلن مصر والعراق ولبنان وسوريا وفلسطين وشرقى الاردن ليبحثن في المطالبة بحقوق النساء) لم يكن هناك مندوبات من المملكة العربية السعودية او اليمن او مسقط ولا من السودان او اية دولة من شمال افريقيا) .

كانت هناك نساء من مختلف الجمعيات النسائية المصرية بالاضافة الى عضوات المؤتمر النسائى الاول مثل عضوات مبرة (محمد على) والفرع النسائى (للهلال الاحمر) ومبرة (الاميرة فريال) لحماية الاطفال وسيدات من (السيدات المسلمات) و رئيستهن سيدة اسمها (زينب الغزالى الجبيلى) وكانت ترتدى جبة طويلة بنية اللون تصل الى الحذاء وتشبه اردية الرجال ، وعلى رأسها قبعة غريبة تغطى الشعر كله . كانت السيدة (زينب) رقيقة الكلام وذات تصرف اجتماعى ممتاز . . ﴿ اظنها كانت قريبة من الكاتب الاسلامي ، سيد قطب ، ولم ندر انه سيحكم عليه بالاعدام في ايام جمال عبد الناصر .

وتعرفت على سيدات من الاسرة الملكية الخديوية يشتغلن في مختلف

المبرات والجمعيات النسائية . مثلاً الاميرة (شيوكار) وهى الزوجة الاولى للمغفور له الملك فؤاد ووالدة الاميرة (فوقية) ابنتها من الملك فؤاد أي اخت الملك فاروق غير الشقيقة . والاميرة (شيوكار) رئيسة (مبرة محمد على) النسائية ، وهذه الاميرة الغنية المسنة كانت في غاية الكرم والبذل لهذه المبرة الخيرية ولغيرها .

ورأينا السيدة (عائشة التيمورية) ، وسيدة من بلاد الاكراد في تركيا اسمها (روشن بدرخان) من عائلة بدرخان المعروفة باهتمامها بقضايا الاكراد .

كانت النساء يرتدين اجمل الحلي والحلل ولكن نساء الاسرة الحديوية كن اجمل المدعوات ، واذكر وجوه بعضهن اجمل من نساء هوليود في السينما ، ولااتذكر اسمائهن سوى اثنين من بنات عم الملك فاروق وهما شقيقتان الاميرات (خديجة حسن وعائشة حسن) ، وهن يشبهن آلهات الاغريق في الصورة! . . .

كذلك وجهت الدعوة الى عدد كبير من الرجال ، حضروا والكل بملابس السهرة السوداء ، منهم (نورى باشا السعيد) ، ورئيس وزراء مصر (النقراشى باشا) والسفير العراقى (تحسين العسكرى) ، واعضاء المفوضبة العراقية ، وكل الوزراء المصريين وزوجاتهم ، والسلك الدبلوماسى العربى وتعرفت على اشخاص من عائلة (طوسون) و(علوبة) و(بركات) ، والكثير غيرهم .

القاهرة

لم تكن اية مدينة عربية تضاهى القاهرة ، لذلك انصرفنا الى زيارة مناطقها ومغانيها وآثارها بلهفة شديدة واهتمام لايرتوى .

اعجبتنا في البداية سعة قصورها الباذخة وفخامة محتوياتها ، واناقة النساء وجواهرهن اللامعة الثمينة ، والرجال بهواياتهم العالية وتشجيعهم للموسيقى والمسرح والفنون ، واخيراً وليس اخراً ، عدد الخدم في القصور الكبيرة! . .

يسوؤني استعمال كلمة (خدم) عن عمال البيوت واعتذر عنها ، ولكن هذا ما كنا نسميهم آنذاك .

كان الخدم يقدمون من الجنوب المصرى والسودان ولهم لهجتهم الرقيقة وملابسهم الزاهية المختلفة رجالا ونساء . وكنا نراهم في الدعوات الليلية الكثيرة

في هذه القصور الرائعة في الحفلات وكأنها في قصور الروايات الخيالية والقصص .

في زمن كان الشعور بين الشباب في العراق هو حب الاشتراكية والمساواة بين الناس ، وانتشر هذا الشعور في زمن الحرب وارتفاع الاسعار والغلاء .

كانت مصر غنية جداً ، وقصور الامراء والاغنياء واصحاب الملايين فيها نقلتنا مؤقتاً الى حالة من الذهول والتيه والاعجاب بالثراء وما يوفره الثراء من امتيازات وفيرة وقابليات هائلة! . . .

نورى باشا السعيد في القاهرة ١٩٤٤

رأينا نورى باشا في اليوم الاول في المفوضية العراقية وكنا في الطابق الاول الذى يشرف على الطايق الارضى ، ورأيناه في الطابق الارضى ، رفع رأسه بعد ان سمع اصواتنا ، عرفناه رأساً وقالت احدانا :

ـ انه نورى باشا! . . ابتسم قليلاً واسرع ليدخل احدى الغرف في المفوضية .

في حفلة الافتتاح في تلك الليلة رأيناه وسلمنا عليه .

لقد حضر السيد نوري السعيد اول اجتماع في المؤتمر مع من حضره من المدعوين والاولى كانت ممثلة الملكة فريدة زوجة (رشيد بك) ومعها السيدة (هدى شعراوى) في المقصورة الملكية . وحضر رئيس وزراء مصر والالاف من المدعوين المصريين والعرب رجالاً ونساء احتشدوا في حفلة الافتتاح في دار الاوبرا المصرية .

وفي نهاية الحفلة الافتتاحية اتى (الباشا) نحونا باسماً وقال بأهتمام صادق بأنه اعجب بكلماتنا جميعاً وانه لم يكن يصدق ان السيدات العراقيات يحضرن اجتماعات كهذه ويبرزن بين الاخريات بهذه الدرجة .

في اليوم الثانى في المفوضية العراقية ، رأينا نوري باشا ومعه تحسين العسكرى وام عدنان زوجة تحسين .

بدأ (نورى باشا) يسأل عن اعمالنا وادركنا انه يعرف الكثير عن آبائنا . سألنى عن والدي وقال ان اباك تخرج قبلى بسنتين من الكلية العسكرية في استامبول . وسال عن عمى العقيد (محمد صالح) ، وهل لايزال يرسم الصور

الزيتيـة . وكنت ادرى بأنه استـاء من عـمى الذى رسـم (بروانة) من صـور زيتـبة ثلاثية طلبـها منه (بكر صدقى) بمناسبـة زواجـه من زوجتـه النمسـاوية . كـذلك سألنى عن زوج اختى (صبيح نجيب) الذى كان وزيراً مفوضاً في انقرة آنذاك .

ثم سأل (سرية الخوجة) عن عمها (رشيد الخوجة) وقال انهم اصدقاء منذ القدم وسألها عن مدرسة (دار المعلمات الابتدائية) التى كانت مديرتها .

وسال (مائدة الحيدرى) عن بعض اقاربها لان والدها كان متوفياً .

كذلك كلم (روز خدورى) عن عملها وعن زوجها ، وهو محام ومن جماعة جريدة (الاهالى) اليسارية . وسأل (نزهة غنام) عن عملها وعن والدها الصحافى المعروف السيـد (رزوق غنام) وسأل (عفيفـة رؤف) عن عملها وعن زوجـها (عبد الفتاح ابراهيم) وهو كاتب يسارى من جماعة (الاهالى) في ذلك الوقت . التفت الي وقال وقد اتسعت بسمته :

ـ الكل معلمات! هاى بس انت دكتورة؟ما هو اختصاصك؟ اجبته :

ـ اشتغل في الطب الباطنى ولم اختص بشيء بعد! . .

ـخبرينا عندما تتخصصين حتى نتداوى عندك! . .

كان السيـد نوري السعيـد يعرف في ذاكرته كل شيء عن اهلنا! . . وهو يرانا للمرة الاولى! . . افرحنا ذلك كثيراً .

في الايام الاولى كنا نرى نورى باشا والوزير المفوض تحسين العسكرى وافراد المفوضية الاخرين في الحفلات الليلة التى كنا نحضرها جميعاً . كان الحديث معهم قليلاً لاننا كنا في عجلة نزور الاماكن والمحلات المختلفة كل يوم على عجل . الى ان جلسنا معه في حفلة صغيرة ضمت اهل العراق فقط .

حدث ذلك في ليلة (كرسمس) عيد الميلاد عند اخواننا المسيحيين ، وكان المؤتمر قد انفض منذ ايام ، اقام فندق (الكونتنتال) ، وهو احد فنادق القاهرة الكبيرة ، حفلة ساهرة كبـرى لاعلاقـة لها بالمؤتمر . قـررت السيـدة (مائدة الحيـدرى) ، وهى احدى العضوات في المؤتمر ، بأن تدعونا نحن العراقيين الى حفلة فندق الكونتنتال في تلك الليلة! . .

كان اللباس (سموكنك) للرجال وللنساء ملابس سهرة طويلة .

دعت السيدة مائدة الى هذه الحفلة نورى باشا ، وتحسين العسكرى وزوجته ، وخالد الجوربةجى وزوجته ، وابراهيم فضلى وزوجته ، والبعض من عضوات المؤتمر ، لان عضوات اخريات من افراد المؤتمر سافرن الى الاسكندرية لرؤيتها .

وكانت (مائدة) هي نفس المعلمة اثناء دراستى في الثانوية ، حيث كنت اصف ضحكتها المرحة العميقة كأجمل ضحكة سمعتها في حياتى . كانت لاتزال تحتفظ بتلك البسمة المشرقة والضحكة الصافية وكأنها ضحكة طفل برئ! . . وكانت تستشيط غضباً اذا عارضها انسان ، كالطفل المدلل ، رغم كونها صارت اماً لطفلين صغيرين! .

جلسنا جميعاً حول مائدة كبيرة مستديرة وكان البهو الكبير لفندق (الكوننتنتال) مليئاً بالموائد الحافلة باناس من مختلف انحاء الدنيا ، وبالاضواء والمصابيح الملونة وشتى انواع الزهور الطبيعية الرائعة فوق الموائد ، والشرائط اللماعة المعلقة على الجدران والسقف ، واصوات الموسيقى الهادئة الجميلة من فرقة اجنبية يلبس افرادها ملابس بيضاء وذهبية جميلة .

كان الباشا في حالة جيدة جداً ، بما انجزته العراقيات في المؤتمر ، واخذ يتلاطف مع الجميع .

اخذت انظر الى هذا الشخص الكبير والمهيمن على العراق سواء كان رئيساً للوزراء او خارج الوزارة ، خاصة وان من احدى هواياتى النظر الى من يهمنى من الناس رجالآ اونساء او اطفالآ بل وحتى الاشجار السامقة والمناظر الطبيعية الغريبة كل هذه تثير انتباهى وتدهشنى! . . .

رجل في بداية الستين من عمره متوسط القامة اشيب الشعر جميل الشكل والصورة (رغم سنه) انيق في ملبسه ، جذاب في كلامه ، ذو عيون فاتحة تشع بالذكاء الحاد واليقظة ، متواضع ، طلق المحيا ، يبتسم كثيراً وملامح وجهه جذابة وصريحة ، يتكلم بصوت ذي بحة خفيفة لطيفة ، وكان مؤدباً جداً في احاديثه البغدادية الاصيلة ويتباطئ في انتقاء الالفاظ مع الاخرين وأحياناً يرفع كفه حول احدى اذنيه وكأنه يشكو من ضعف في السمع . وكان لقوة شخصيته السيد

الجليل بين جمعنا هذا! . . . لقد كنا جميعاً نستمع اليه ولا نريد ان يفوتنا شيء مما يقوله .

نظر الينا وقال :

- ان مارأيت من خطاباتكن في هذا المؤتمر هو غريب ورائع جداً! . .

بدأ (بسرية الخوجة) وقال :

ـ انك تحسنين القيادة مع الاخرين ، انك قائدة وزعيمة! . . تتكلمين بكل ثقة وكأنك تقولين الحقيقة الازلية! . . . ارى انك اذا سرت في أي طريق سوف تتبعك الكثيرات . كونى القائدة لهن . ان سيدة مثلك تستحق كل مساعدة واهتمام! . .

شكرته (سرُية) جداً ، وقالت سوف احقق ذلك انشالله بمساعدتك ياباشا!

نظر الى (مائدة الحيدرى) وهى مضيفتنا هذه الليلة وقال :

ـ هذه السيدة نقية صافية ، كأنها قطعة من الماس الابيض الناصع الذى لاتشوبه شائبة! . انها لاتعرف الكذب او الدجل ، تضحك من اعماق قلبها ويضحك معها الجميع ، تغضب فيغضب وجهها كله . انها قطعة من الالماس الشديد النقاء . ايعرف الناس ذلك عنك؟

اجابته مائدة ،

ـ باشا! . . لن انسى كلماتك هذه! . . وسوف اضع اقوالك على لوحة واعلقها على الجدار في البيت لكي يقرأها اولادى بعد سنوات طويلة . انها كلمات سوف احتفظ بها طول حياتى! . .

قالت مائدة ذلك مع ابتسامتها البريئة الجميلة! . .

التفت نحوى وقد اخبروه بأنني حديثة العهد بالزواج . كنت في ذلك الوقت شديدة الحياء مع الرجال الكبار في السن بسبب تربيتى البيتية ، رغم دراستى في كلية مختلطة . نظر الى وقال :

ـ هذه البنت لها ابتسامة خجولة مثل ابتسامة (الجيوكندا) في اللوفر . انها تسمع كل شيء وتبتسم دون ان تتكلم . انني لااعرف زوجك ، وكنت اظن اننى اعرف جميع اهل بغداد! . . سوف اخبره عندما اراه ان يحافظ على صورة (الجيوكندا) هذه ! . . لا تتبدلى ابداً! . . ثم اضاف بلهجة بغدادية اصيلة :

ـ عندمـا ارى زوجك في بغـداد سـوف اطلب منه ان يداريك مـثل الماي بالصـينيـة! . . وهى عبـارة تعنى عندنا في بغـداد ان الشـخص يجب ان يهـتم بالشخص الاخر وينفذ له ما يريد! . .

مع الاسف غلبنى الحياء الشديد وانا بين جماعة كبيرة فلم اذكر الا القليل من الشكر ، بالنسبة للطلاقة التى اظهرتها سرّية ومائدة معه .

بعد ذلك بدأ يتكلم عن النساء ، وكيف يساعدهن ان امكن .

ذكر اسم مغنية اسمها (جليلة العراقية) ولم اعرف عنها شيئاً ، وقال انها شكت اليـه محنتها ، والناس لايرغبون مساعدة هؤلاء النسوة ، ولكنه شجعها وساعدها ان تتزوج رجل كان يعرفها ، واختفت عن عالم الغناء والطرب والحياة الهابطة ، واصبحت تعيش في بيت شريف مع زوجها واطفالها . وقال :

- انا لااحبذ حياة الذل تحياها امرأة فقيرة ان كانت تروم حياة افضل! . .ان الله وحده هو الشاهد على الناس وليس البشر! . . .

- في ذلك الوقت والآراء الاشتراكية مستولية علينا جميعاً ، وكيف ان الحكومة اليسارية تقدم المساواة والعدل بين الافراد جميعاً النساء كالرجال من دون فروق بينهما

وكان كلامه يدل على جهله بهذه الآراء ، وانه ينتمى الى الاجيال السابقة وليس الى الوقت الحاضر ، وبالرغم من ذلك شعرنا ان حديثه كان ممتعاً وحساساً رغم كونه قديماً ومن الماضي! . .

اخذت انظر الى نورى السعيد نظرة اخرى! . . انه ورجاله ، رجال (فيصل الاول) ومن اتى معهم ، كانوا سبب الهدوء في البلاد ، وسبب الاعمار داخل البلد . هل كنا نريد الكلام الطائش الحالم ام كنا نريد العمل والانجاز! .

كانت بغداد في تلك السنوات مثل خلية نحل من كثرة مندوبى الشركات والمعامل الاجنبية .

كان الباشا في الحفلات الرسمية يحيينى بجمل تحية ويسأل :

- مالذى يبدل الماء؟ دليلاً على كلامى له في لندن ، بأن الماء يبدل الصخر مع الزمن الطويل! .

اجبته :

- باشا! . . العمل! العمل يبدل الصخر خلال ايام! . .وانا الآن اعتذر عن اقوالى في اوقات ماضية . الآن احب العمل السريع ، واكره الخطابات المثيرة والتى لاتنتج شيئاً .

ويظهر ان كلامى اعجبه ، واخذ يقول بعض الامور بسرعة كى يرى تأثيرها .

قال في احدى المرات (المراة تنال حق التصويت وفى المستقبل القريب تنال حق الانتخاب) . وكان السيد (على جودت الايوبى) واقفاً معنا ،

ومرة اخرى قال لي ان السيدة (سرية الخوجة) تعينت في الهيئه الدبلوماسية ، الاترين هذا تقدماً؟

وهكذا تغير وضعنا معه واصبحت اجد وجوده في الاجتماعات الكبيرة وكأنه علامة للعز العراقى ونفوذه ، ويفيض وجوده الفخر والفرح بين المدعوين .

وعندما علم الباشا ان السيدة المهندسة (ألين جودت) بنت لنا بيتاً جديداً ـ وكان هذا اول بيت نملكهـ ، واننا احببنا البيت جداً ،قلت له انشالله تزورنا فيه! . .

اصبح يحيينى في كل مرة على عادته : ـ هاى وين العزيمة! . .

وكل مرة اقل له ان يأمر فتحضر العزيمة! . . فيقول

ـ انا آكل فد لون واحد بس !

يقصد انه يأكل طعام واحد فقط ولايحب الاطعمة المتعددة .

وفى كل مرة يقول انه سيخبرنا عندما يأتي لزيارتنا . وكان معه السيد على جودت الذى وعدنا ان الى بيتنا مع الباشا .

وقد كان المصورون في الحفلات يصوروننى مع الباشا ومع (على جودت) ومع توفيق السويدي وغيرهم من الوزراء وكنت احتفظ بالصور للذكري ، ولكن الاستاذ (يحيى قاسم) نشر صورتى مع الباشا في جريدته (الحوادث) . وكنت شديدة الفخر بالصورة ، ولكن احدى من اعرف من السيدات همست لي على سبيل النصيحة :

ـ لاداعى لهذه الصورة في هذا الوقت! . .

كنت اظنهـا تحـذرنى من آراء الاخـرين الذين يكرهون النظام ، فلم اهتم

بكلامها! . . والحقيقة انها كانت تدرى بوجود حركة في الجيش ولاتدرى بالضبط ما هي ولكنها واثقة من وجودها! . .

وقد اخبرتنى بعد الثورة مباشرة وقالت : كنت اخاف ان تصبحى من الجماعة المكروهة! . . .

خابرنى مرافق الباشا العقيد وصفي طاهر وقال ان الباشا سوف يأتى الينا في اليوم الفلانى وعين اليوم بالضبط . خابرت السيدة (ام نزار) ادعوها وزوجها السيد على جودت وكذلك ابنه نزار وزوجته (الين) وقد وافق الجميع على الموعد .

بعد ايام قليلة خابر المرافق وقال ان الباشا سافر الى الخارج ولن يتمكن من المجى ، وهل تؤجلون الحفلة انتظاراً لرجوعه .

كان ذلك في صيف ١٩٥٨ ولم نر الباشا بعد ذلك! . . .

اللقاء الثانى مع الباشا بعد سنتين في لندن

كان هنالك اجتماعات في لندن للوزراء وقواد الجيش ومختلف الوفود من العراق . لم نكن نًعنى كثيراً بالسياسيين . كنا نظن هؤلاء الساسة اناساً لافائدة منهم ، ولاينتمون الى العصر الحديث! . . ونعتقد اننا فقط نعلم عن عصرنا الجديد! . كنا نظن ذلك ولكن في الحقيقة ، لم نكن نعرف عن السياسة شيئاً يذكر! . .

استلمنا دعوة من السيد (زياد العسكرى وزوجته علية) وهى صديقتى ، الى تناول طعام الغداء في بيتهم الجميل في مدينة (ميدنهيد) الواقعة على نهر (التيمس) غرب لندن . وكان معنا من المدعوين السيد (عبد الملك الخضيرى وزوجته فضيلة) والسيد (عبد المنعم الكيلانى وزوجته ساهرة) وكان هنالك السيد كنعان العسكرى ابن تحسين العسكرى .

وقد اخبرنا (زياد) ان الحفلة هي لخاله نورى باشا والسيد توفيق السويدى .

اخذنا ننتظر قدومهم باهتمام .

دخلوا وكلهم رقة ولطف مع الجميع ، خاصة نورى باشا الذى اخذ يتفكه مع

الجميع صغاراً وكباراً وضحك ولعب طويلاً مع ابنة زياد (نهلة) وكان عمرها لايتجاوز السنة الواحدة وكانت للباشا كلمات خاصة مع اعضاء السفاره لايفهمها غيرهم ، وعندما يراهم يكررها عليهم وهو يبتسم ، وتفرحهم من هذه النكات الى اقصى درجات السرور ، كيف لا والباشا يمازحهم ويتلاطف معهم بمودة ومرح! .

كان الطعام عراقياً لذيذاً ، تمتع به الجميع .

جلسنا نشرب الشاي بعد الغداء واذا بالباشا يبدأ بما سوف يحصل في العراق في القريب العاجل وهو مبتهج . ذكر بعض مشاريع الرى ومشاريع التعليم والصحة ، واضاف باسماً :

- كل شيء سائر الى الرقى وبسرعة! . .

وافق الجميع على ماقال الباشا ما عدا تلك الانسانة اليسارية التى هي انا ، اجبت :

- ان البلد لم تنمُ بالسرعة التى نريدها بعد هذا الزمن الطويل ، ولانزال نطلب الكثير! . .

واذا به يشتد قليلاً في كلامه ويقول :

- انظرى الى نفسك! . . هل كنت تجلسين وتناقشين الرجال الكبار قبل عشرين عاماً! . .اية امرأة كانت تفهم عن السياسة وغيرها في ذلك الوقت؟ الا تعدين ذلك من الرقى؟ هذا ينطبق على كل شيء في البلد . بغداد لم تكن مدينة ، كانت قرية كبيرة ليس فيها مدارس ولا مستشفيات ولا بنات يجادلن الكبار! . . . اليس هذا شيء بالنسية لك؟

وبدلاً من الاستماع الى بهذا الكلام اللطيف وشكره عليه ، اجبت :

- باشا! . .ان (الزمن) يغير كل شيء حتى الصخر يتغير بالريح والماء والامواج . نحن نريد شيء سريع ، حديث ، من عمل الانسان المتمدن المسرع في حضارته . نرفض ان نترك كل شيء للزمن! . .

بقيت انكلم في هذا الموضوع ، وانا اتصور مع نفسى ، اننى سوف افحم

رئيسيين للوزارة (واى رئيسيين كانا! . .) بمعلوماتى (البسيطة) الساذجة عن الاشتراكية! . . .

احتد (الباشا) قليلاً واجابنى بصوته المهذب المبحوح قليلاً :

- في الماضى اذا تكلم الصغير مع الكبير بهذا الشكل يكوّون يد الصغير بالنار لكي يتوب! . . . الصغير يتعلم من الكبير ولايتكلم! . .

اردت ان اجيبه بمعلوماتى (اليسارية!) لكي اقنعه بعيداً عن تربيته العثمانية القديمة ، واذا بي ارى السيد توفيق السويدى يميل رأسه الى الخلف لئلا يراه الباشا ، ويشير بحركة من رأسه ويده وهو يبتسم ان انهي الجدل .

لذلك ، ابتسمت لما قاله الباشا ولم اجبه بشيء ، وحولنا الموضوع الى الشاي العراقى الذى كنا نشربه وتأثير طعمه مع اضافة عطر (الهيل) اليه ، وضحكنا جميعاً وعاد الى الباشا هدوئه وصفائه المعهود .

ثورة الجيش المصري

في سنة ١٩٥٢ حدثت انقلاب عسكرى في مصر بقيادة اللواء (محمد نجيب) اطلق عليه اسم (ثورة) بعد ذلك ، لانهم ازاحوا الملك فاروق ، واعلنوا ابنه (الملك فؤاد) ملكاً وكان عمره ستة اشهر آنذاك . وبعد اشهر قليلة الغيت الملكية واصبحت مصر الجمهورية المصرية برآسة اللواء محمد نجيب .

كان موقف اليساريين من الشعب العراقى ودياً تجاه الجمهورية المصرية منذ البداية .

انا شخصياً تأسفت ليس فقط على الملك فاروق لانه ملكاً محبوباً عند العراقيين رغم مايشيعه عنه اليساريون وقد كانت صوره معلقة على جدران المقاهى وفى الدكاكين والحلاقين وفى الكثير من البيوت ، ولكن كون الانقلاب حصل من قبل ضباط الجيش .

شاهدت ان اصحاب الدكاكين في الاسواق ، والفراشون والخدم في المستشفى تحسروا على زوال فاروق .

سألنى فراش في المستشفى بحزن :

ـ هل يعنى هذا ان الملك فاروق لن يرجع؟ من يحكم مصرالان؟

اخبرته ان رجوع الملك صعب جداً . . .

الملك فاروق كان يحكم كما كان يحكم آبائه واجداده ، وكان يسمى (الملك الصالح) ، وقد فرح الشعب المصرى والعراقى بولادة ولى العهد لفاروق قبل اشهر قليلة من تنازله . وكنت قد قرأت ماكتبته الجرائد المصرية كلها حول الاحتفالات الهائلة ابتهاجاً بولادة ولى العهد! .

ـ ورحب زعماء مصر كلهم من مصطفى النحاس الى على ماهر الى الهلالى وكل الجرائد المصرية وجميع افراد الشعب المصري ، وكذلك ملوك العالم ورؤسائه ارسلوا برقيات التهنئة الى الملك فاروق! . .

وبعد الثورة نفى الملك فاروق مع عائلته والوليد الجديد الى اوروبا بمراسيم عسكرية وبملأ الاحترام . وكان رئيس الوزراء واللواء محمد نجيب قائد الثورة في وداعه على الباخرة المصرية (المحروسة) ، وذهب فاروق دون ان تسكب قطرة دم! . .

ظهر بعد ذلك ضباط لم يشعر بوجودهم من قبل في مصر! . . هل يجب ان يكون ذلك دافعاً للسرور والفرح!

بقيت افكر من هو محمد نجيب؟ ومن هو جمال عبد الناصر؟ . .

اهم احسن من مصطفى النحاس وعلى ماهر والهلالى وغيرهم؟لقد جلس هؤلاء الساسة القدماء في بيوتهم وسكتوا كأن الطير على رؤوسهم! . .

ان ثورة مصر ثورة بلا منافس وزعامة بلا اعداء . من الذى سيحكم مصر الآن؟

لم اقل شيئاً امام الاخرين ولكنني تشائمت من الخبر! . . .تذكرت (بكر صدقى) وانقلابه العسكرى ، وتذكرت حركة (رشيد عالى) ومصيرها والضباط الذين تركوا البلد وفروا الى ايران! . . .

بقيت اتابع مايجرى في مصر وكأننى اتابع اخبار بلدى نفسها! . . .وبقيت اذهب الى مصر لحضور مؤتمرات طبية او نسائية حيثما استطيع .

لقد كان ذهابى الى مصر في مؤتمرات طبية ونسائية والتدهور الذى حصل

في مصر ادبياً واجتماعياً ابدلت تفكيرى في بلاد مصر الثورية وجعلتنى اقدر رجال الحكم عندنا غى العراق . انهم اقدر من الضباط في ادارة الدولة طبعاً! . .

شكرت الله لان بلادنا سائرة الى الامام! . .

اخذت افكر في الاشخاص الذين يحكمونا ، والهدوء النسبى في البلد . لايزال الشعب يتكلم عن الوثبة والانتفاضة بين آن وآخر ، ولكن الوضع هادئاً وبغداد والعراق كله يكسب الكثير من التقدم والرقى .

والغريب ان كل الاشخاص الذين اتكلم معهم بهذه الامور كانوا على ثقة بأنني لاادرى ماذا اقول عن ثورة مصر .

ذهبت الى عدة مؤتمرات طبية ونسائية في القاهرة بعد الثورة ، وراعتى ما رأيت ، اهمال فظيع وقذارة واضحة في الاماكن الغالية والحكومية ، السيارات معظمها قديمة ومهترئة وتنفث الدخان الاسود في الشوارع وعندما مررت في مصر الجديدة لم ادرى بأنها (هليوبوليس) الباذخة ، بل رأيت الباعة والناس على الارصفة بأزياء رثة وفقيرة وكأن المنطقة منطقة حى بلدى فقير وشديد الازدحام والقذارة! . .

اما الخدمة في الاوتيلات الغالية فقد اصبحت بطيئة ساذجة كأن الخدم جائوا الى البلد قبل ايام قليلة . رأيت القاهرة كما لو كانت مدينة اخرى ، مدينه ارتدت الى الوراء خلال فترة قصيرة جداً . احزننى مارأيت ولم ادرى ما اقول عن هذه الظاهرة .

افهم ان تنتعش مناطق فقيرة ويعيش اهلها حياة افضل ، ولكن لم تتأخر المناطق الجميلة الراقية بهذا الشكل؟ هل نرتفع الى اعلى او نهبط الى اسفل لكي يتساوى الناس في حياة متأخرة بدائية نود ان تزول من على فقراء الناس .

كنت اود ان ارى مناطق القاهرة القديمة تنمو وتنتعش والناس تعيش على مستوى اعلى .

حفلات العشاء الرسمية كانت تشبه حفلة الفقراء اثناء الفاتحة . اين حفلات الوزراء والامراء في الماضي القريب؟

دخلنا جماعة من الاطباء الى بناية كبرى من دور الحكومة تلبية لاحد الوزراء

دخلنا الباب الكبير للبناية واذا بشخص لانعرف من هو يؤشر لنا الذهاب لاحد الصالات الكبيرة وفيها مائدة طعام كبيرة ، وبعض الناس الذين قدموا قبلنا ، قد بدأوا بتناول الطعام حال دخولهم القاعة دون كلام او تحية . قدموا الينا الخدم الاطباق واشاروا الينا ان نأكل . وكل من ينتهى من طعامه يسير الى الخارج نحو بيته دون ان يعلم من الذى سوف يشكره على هذه الدعوه! . .

اين الوزير صاحب الدعوة؟ الا ينتظر الناس وصول معظم الحاضرين واعطائهم بعض العصير قبل ان يدعوا الجميع الى قاعة الطعام؟

تكرر هذا في الحفلات الرسمية كلها! . .

ماذا حدث لاهل مصر؟ . هل صحيح ان (النهضة المصرية) حدثت في شهر يوليو ١٩٥٢؟ ولم يكن شيء قبلها! . . ذابت مصر قبل ١٩٥٢ كما تذوب قطعة ثلج! . .

اقول هذه الوقائع بعد مرور عشرات السنين عليها دون أي مبالغة اوتطوير .

في زيارة لاحد الاجتماعات الطبية ،اظهرت تعجبى من تدهور الامور الاجتماعية في كل المجالات في (القاهرة الجميلة) مع احد الاطباء المصريين وسألته عما حدث فيها . نظر نحوى بشدة وقال بصوت هامس ولكنه حازم :

ـ ما ذا حدث؟ زالت الملكية! . .الملكية خير ونعمة وبركة على الناس! . .ملكية محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة! . .والان يحكمنا اهل فرقة الاشارة! . .

تعجبت من هذا الجواب وكنت اظن الجميع بجانب الثورة ، ولم ادر ماهى فرقة (الاشارة) هذه .

سألت الدكتور عنها ، فضحك وقال بالطريقة المصرية المعهودة :

– ان فرقة الاشارة في الجيش لاتتكلم ، انها تعطى اوامرها بالاشارة والابواق العسكرية . هذه الحكومة تحكمنا بالاشارة لانها صماء لم تمارس الكلام الصحيح من قبل! . .

أاصبحت مصر صماء! . .

بقيت افكر في تاريخ مصر الحديث . محمد على جعل بلاده اقوى من

جيوش الامبراطورية العثمانية واصبح الخديوى على مصر والسودان منذ مايقارب المائتى سنة وكان جيش ولده ابراهيم باشا الذى لم يهزم في حرب في آسيا وافريقيا ولا في تركيا واوشك ان يدخل الاستانة لولا ان تجمعت اوروبا ضده وهزموه في جبال طوروس؟ لقد بنى القناطر الخيرية دون ان يوجد في مصر مهندس مصرى واحد في البلد . ولم يكن في مصر مدرسة ابتدائية او مصنع فأنشا الكليات واقام المصانع وبعث البعوث .

مات محمد على ودولته اقوى دولة في الشرق . وولده اسماعيل باشا الذى شق (قناة السويس) واوصل البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، ونقل اساليب الحضارة الحديثة من اوروبا الى مصر خلال اعوام قليلة ، (رغم ما جر ذلك على مصر من الديون) .

مصر بجامعتها وكتبها وصحافتها . مصر الادب والعلم والفن تربت على رجال يسميهم الضباط جواسيس وعملاء .

اصحيح ان مصر بدأت في زمن الثورة ، وقبلها لم يكن فيها احد بل قامت على الانتقام والتشهير؟

ماذا حدث لسعد زغلول والنحاس والنقراشى؟ كيف اصبح العديد من اهل مصر الكرام مشكوك في نزاهتهم وكفائتهم؟

هل يفوقهم الضباط في الكفائة والعلم او النزاهة؟

اهذا ما يحدث اذا حكم الشعب طغاة ، رغم قولهم انهم يحكمون لاعلاء الشعب الفقير .

ايكون الضباط محمد نجيب وجمال عبد الناصر وزكربا محى الدين وانور السادات بوجوههم الكئيبة واجوبتهم البسيطة في الصحف هم احسن من مصطفى النحاس والهلالى وغيرهم . اتكون الخطابة وشتائم الاستعمار والتهديد ضدهم هو ما يريده الناس؟ ايكون لباس (الزعيم) البسيط والاكل الشعبى هو مايطلبه الناس ، ام ان الناس تحكم على من يفعل الاشياء العظام ، وليأكل ماشاء من طعام ويلبس ما شاء من أللباس؟

بقيت اذهب الى مصر وارى ظاهرة التدهور ماشية اليالوراء .

التفت الى بلادى ومليكنا الشاب ، وولى العهد ، ومعهم الوزراء وفى المقدمة نورى السعيد والجميع يعرفون نزاهته المشهورة .

بدأ العراق برفع رواتب الموظفين ، ونتائج مجلس الاعمار واضحة وافتتح اربعة سدود على دجلة والروافد النهرية في مناطق الشمال الجبلية ،ولم نملأ لدنيا غناء مثل :

ـ احنه فتحنا السد العالى! . .

اصبحت ارى الشوارع الخديدة ومياه التصريف والمعامل الصغيرة والكثير غيرها منحة من نظامنا الثابت كما هو رغم تبدل الوزارات الكثيرة .

لا ، لن يبدل العراق رجاله ويجلب هذه الوجوه البسيطة الساذجة! . .ه

كان الراديو المصري يسف وهو يهجو العراق . كان احمد سعيد يتكلم بالاكاذيب بلسان الثورة العربية الكبرى . اصبح الكلام تهويشاً وسباباً ويغنى اناشيد اصبحت اكره سماعها وادير الراديو لكي اسمع شىء آخر . الناس يتحدثون عن احمد سعيد كأنه هو الحق الصريح . يصدقون ما يقول .

(بقيت مفترياته الى حرب للايام الستة ، في عهد العراق الجمهورى عندما كان يقول ان الطائرات الاسرائيلية تتساقط عل ارض مصر والحقيقة ان الطيران المصرى تحطم خلال ساعات ستة) . وقد تحكم احمد سعيد في انباء مصر خمسة عشر عاماً! . . كل ذلك برضاء سيده ورئيسه!

كان كلامه تهويش وكذب ومغالطة واستعداء الناس وخلط الكلام بالموسيقى ومزج الالحان بالبلاغات الرسمية .

لقد اخطئوا الى الاعلام العربى لافى مصر وحدها وانما في كل العواصم . وتحول الحديث بين البلاد العربية اليردح وسباب . اين الكلام في الماضى بين الوزراء العرب والكياسة والادب والاخلاق .

لقد سب رجالات العرب جميعاً من نورى السعيد والملك حسين واملك سعود والملك الحسن والبعثيين .

كانت الناس تقول انه يغار من نورى السعيد وسمعته في البلاد الغربية . لم اصدق ذلك أيضاً . كان اسم عبد الناصر كبيراً عالياً لايلحقه شيئاً كأنه اسه

شخص مقدس . ان ذيوع اسم العراق كان شيء يفرح العرب به ، ولكنه اين ذلك من مصر وكبر مركزها .

ان ذيوع اسم نورى السعيد في الاوساط السياسية العالمية وتعقيب مجلة (تايم) العظيمة الانتشار والصيت بنشر صورته على غلافهامع مقال مطول عنه قد زاد في حنق رجال السياسة العرب خاصة جمال عبد الناصركما زاد في حسد بلادهم لما اصاب العراق من مجد ورفاه . ولنورى السعيد من شأن لم يتسن لواحد منهم ان حصل عليه .

لقد اصبح نورى السعيد في السنين القليلة التى سبقت وفاته من الشخصيات السياسية العالمية خصوصاً بعد ظهور ميثاق بغداد وما سببه هذا الميثاق لديه . ان اسمه (ميثاق بغداد) هو شيء كبير رغم ان الدول الاخرى كلها اكبر من العراق . (تركيا ايران باكستان وبريطانيا) .

كل ذلك جعلنى اقدر مايجرى في العراق من التقدم والرقى ، واصبحت اكره الكلام السخيف الذى يردده البعض مثلا : كل شيء تفعله الحكومة لافائدة منه! . . نحن لانمدح أي شيء تقوم به الحكومة الغادرة المتهمة بخدمة الاستعمار .

مثلا : تفتح طرق جبلية طويلة ، الجواب انها طرق للمستعمرين اثناء حروبهم مع الاتحاد السوفييتى . اذا بنيت مراكز للشرطة في الجبال ، انها لحماية جنود الغرب اثناء الحرب القادمة . وهكذا دائماً مع من نعرف من الناس . حرب عوان على الحكومة! . .

اختلف الناس كلهم ضد كلامى هذا ولم يتفق معى الا زوجى الذى لم يستطيع سماع (احمد سعيد) وكان يغضب اكبر الغضب عند سماع كلمات الحب والاعجاب بمصر وعما اجرت ما يسميه الناس الاعاجيب في تلك البلاد! . . .

اما بعد (العدوان الثلاثى) ومن ثم تأميم قناة السويس ، اصبح (عبد الناصر) رجل العرب بلا منافس! . .

واصبح الناس لايستطيعون الكلام لانه : (لاصوت يعلو على صوت المعركة) .

وكان ذلك ماشجعنى وزوجى على الخوف على العراق وزيادة حبنا للملكية في بلادنا! . .

كنا نشعر بكراهية الجميع لما نقوله في بغداد ، واصبحت اطلب من زوجى ان يخفف من غلوائه ضد سياسة عبد الناصر لأنني كنت اخاف ان يحدث اشياء مؤلمه بيننا وبين اهلنا واصدقائنا! . . نعم بين الاهل والاصدقاء ولاذكر الاخرون .

بقيت اكره اناشيد (امجاد ياعرب امجاد) و(من المحيط الهادر الى الخليج الثائر ، لبيك عبد الناصر) الى هذا الوقت .

كان العراق في حالة من الضعف والتأخر رانت عليه منذ سقوط الدولة العباسية امام هجوم (هولاكو) المغولى . لذلك اندهشنا بما رأينا من آثار المدنية الحديثة في مصر .

لم يكن في جميع العراق قصر واحد او بناء يماثل او يقارب ماشاهدناه في قصور القاهرة ، او مسارحها الكثيرة وفنادقها العريقة ومصاعدها الكهربائية او مؤسساتها وجامعتها وشوارعها ، فلا عهد لنا بها كلها! . . .لقد سبقتنا مصر بأكثر من مئة عام! . . .

لم اشعر أي شعور من الغيرة والحسد بما لدى مصر من علامات الرقى وانعدام ذلك في بلادنا . . .

كنت اغبط مصر على ما هى عليه واتمنى لها المزيد! . .

بقيت اسائل نفسى ، لِمَ لم ينشأ كل الناس على هذه الدرجة من الرفاه والاطمئنان مثل اصحاب القصور هؤلاء ، ويعيش المرء يتطلع الى الاعلى دائماً ، بدلاً من الحياة من اجل لقمة العيش والسكن! . . .اهناك مجال في ذلك؟ في عالمنا هذا ، العالم الملئ بملايين الجياع والفقر . .كنت اريد الرفاه للجميع! . .

لم نر من مصر في تلك الرحلة سوى عالم الثراء والازدهار والنعمة ، وافرحنا ذلك وابتهجنا به . لقد كنا نزور الاماكن التى وقع عليها الخيار من لجنة المؤتمر . لم يكن لدينا أي مجال للذهاب الى اماكن لانعرفها ولا ندرى بوجودها . لقد رأينا الكثير من البؤس في بلادنا ، ونود الآن ان نرى الخير والغنى والثراء! . . .كنا ندرى عن وجود طبقات فقيرة كثيرة العدد في مصر ، ولكننا لم نرها آنذاك . .

(كان على ان ازور مصر عدة زيارات لكي اكنشف الصورة الاخرى من مصر بعد هذا التاريخ) .

اما الآن فلم نتصل بالمزارعين اوالعمال ، بل حتى لم نر الجامعة او اساتذتها ما عدا الاستاذ الكبير (لطفى السيد) في بيته عندما دعانا اليه .

وكان بيته (بيتاً) لطيفاً ، لاعلاقة له بالقصور . وكانت الدعوة للشاي للوفود . وقد اظهر فبها اعجابه بالمؤتمر النسائى العربى وخاصة لجماعة العراقيات اللواتى يحضرن هذه الاجتماعات وهو حضور حديث جداً! . . .

كان الاستاذ (لطفى السيد) من اقدر المناضلين في سبيل المساواة بين الرجل والمرأة منذ سنوات! . .

زياراتنا كانت تشمل الجمعيات النسائية مثل مبرة محمد على والهلال الاحمر ومبرة فريال وغيرها بالاضافة الى الاشياء التاريخية والمتاخف والقناطر الخيرية وحديقة الحيوان وجبل المقطم ، وكذلك زيارة الاسواق الراقية مثل (شيكوريل) و(عمر افندى) وغيرها حيث اشترينا اشياء حرمنا منها منذ بداية الحرب في بغداد .

زرنا الاهرام وابوالهول في الجيزة في صباح احد الايام ورأيت هذه الاثار التاريخية التى تعتبر من اهم علامات التاريخ الانسانى القديم . اثرت على لانها لاتزال شامخة قائمة ترتفع نحو السماء كما كانت قبل اربعة الاف سنه ، اين من هذه الاثار الجبارة الصخرية الهائلة ، اثار بابل الطينية الدارسة الغارقة في التراب وغبار الزمن! . . هنا نرى الاثار كما هي مرتفعة تسموا على السهول والوهاد ، في بابل يجب ان نتخيل التاريخ القديم من جدران مدفونة ودرجات طينية بسيطة وجنائن بابل الغائبة .

لم يكن عدد السواح مزدحماً حول الاهرام وأبي الهول ، الكثير من الناس يلبسون ملابس عسكرية انكليزية او امريكية ، واناس من مختلف انحاء العالم بسيرون في جماعات اما مع دليل او بدون دليل وكان الادلاء المصريين يتكلمون اللغة الانكليزية او الفرنسية او العربية بطلاقة ، والبعض من الادلاء يلبس بثياب شعبية رثة رغم انه يتكلم اللغات الاوربية مع الاجانب ، والذى يدل انه لم ينتمِ

الى مدرسة بل تعلم العربية الفصحى من الاساتذة المصريين واللغات الاجنبية من الموظفين الاجانب هناك

وشاهدنا على سفح هرم خوفو الاكبر بعض الشبان يتسلقون فوق الصخور للوصول الى القمة .

كان دليلنا المصرى يتكلم العربية الفصحى وهو بملابس جيدة ، وفسر لنا بعض الاخبار التاريخية عن اهرام (خوفو وخفرع ومنقرع) .

بعض العضوات في المؤتمر ركبن الجمل وأخذن الصور الفوتوغرافية . لم يكن لدينا الوقت لكي نركب الجمال كلنا ونتصور ونحن بهذا العدد الكبير .

لم نصعد الى قمة (هرم خوفو) من الداخل ، واظنه كان مغلقاً في ذلك الوقت . ولم يكن تمثيل (الصوت والضوء) موجوداً في ذلك الوقت في الاهرام .

اخذنا بعض الصور قرب أبي الهول وكان علينا ان نعود .

لقد كنا في عجلة دائمة في كل مكان زرناه ، لان الزيارات كانت تنتهى الا لكي نزور المحل التالى .

المتحف المصرى من اجمل مارأيت من المتاحف ، اقول ذلك بعد ان رأيت الكثير منها في عواصم غربية عديدة . ان اثار (توت عنخ امون) لايشبهها شيء في جمالها ومحافظتها على الشكل لانها نجت من لصوص المقابر الذين سرقوا معظم اثار الفراعنة الثمينة بعد دفنهم .

ادهشتنى الكتابة الهيرغليفية على اوراق البردى والتماثيل والصور والاثاث والادوات والزوارق والعربات وحلي النساء والالات الموسيقية وغيرها . هذه كلها استعملت في مصر المتحضرة في زمن كانت فيه اوروبا الشمالية تعيش في حالة الانسان القديم .

اما قاعة (المومياء) في القسم الاسفل من المتحف فأنها الدليل على ارتقاء الفراعنة في علم الكيمياء منذ تلك العصور ، اذ تمكنوا من الحفاظ على جثث الاموات لآلاف السنين . وقد وجدت انا بعض الامراض في اطراف بعض المومياء وعمرها آلاف السنين ولاتزال ظاهرة الى الآن .

ولاتزال اكفان المومياء في حالة جيدة لم تتطرق لها يد البلى .

كنا مدعوين ازيارة بساتين البرتقال في (انشاص) ، وبعدها نتناول الشاي هناك .

كانت البساتين مزروعة بطرق هندسية حديثة والاثمار البرتقالية بلونها الزاهي واريجها العطر تملأ المكان بجو ريفى رائع . وسرعان ما غص البستان بسياراتنا ونحن نتجه الى بناية كبيرة بسيطة مبنية على طراز ريفى اوروبى .

تركت السيارة قي البستان وقبل ان ادخل الى البناية رأيت سيارة صغيرة مفتوحة على مبعدة منا يقودها شاب بمفرده وهو عارى الرأس وذو شعر اشقر اللون ، ولم اتمكن من رؤيته جيداً ولكنني خلت انه يشبه الملك فاروق . ولكن ايقف الملك فاروق وحيداً في الحديقة من دون مرافق معه؟

دخلت الى البناية وتوزعت الجماعة الكبيرة على موائد الشاي الكثيرة والجميع وقوفاً نتناول الشاي . واذا بحركة قرب الباب حيث دخل الملك (فاروق الاول ملك مصر والسودان) كما كان يسمى آنذاك .

شخصت العيون الى الملك وتعالى التصفيق والهتاف . سلم على الجماعة القريبة منه اولآ ، وعندما سلم على قلت له : انا من العراق . اجابني قائلآ : ما شالله! . .

وتوافد الجميع للسلام عليه .

المزرعة هذه هي البساتين الملكية لزراعة البرتقال! . . .

كان الملك باسم الوجه مشرق الصورة وهو يشير علينا ان نستمر في تناول الطعام كما يفعل أي مضيف مع ضيوفه وهو بشبر الى المائدة :

ـ ما تاكلوا ليه؟ الطرابيزة مملوءه . ما حدش ياكل ليه؟

سمعت السيدة (امينة السعيد) تقول لي بذهول :

ـ انا راح اتجنن! . .الملك يضيفنا بنفسه! . .

هذا هو الملك فاروق! . .صوره في كل مقاهى ومخازن بغداد . في الطفوله كان طفلآ جميلاً هو واخواته الصغار . انه الآن شابٌ طويل القامة ، يميل الى البدانة ولكنه رشيق الحركة ، بشوش ذلق اللسان ذو صوت مؤثر لطيف .

كان في الرابعة والعشرين من العمر ، متزوجاً وله ثلاث بنات صغيرات

(فريال وفوزية وفادية) وكانت الكبرى الاميرة فريال في الخامسة من عمرها والاميرة فادية كانت مولودة حديثاً .

قضى الملك معنا حوالى الساعة سأل بعض العضوات عن اسماء الجمعيات التى يمثلنها وقال ان الجميع يؤيد المرأة مساواة المرأة مع الرجل في هذا الزمن ، ودعى لنا بالتوفيق والنجاح .

ترك الملك المكان والجميع في تصفيق كبير ودعوا الى الله ان يطيل عمره وان يمنحه صبياً .

من كان يظن ان لقب (ملك مصر والسودان) سيزول في الغد القريب ، ونبقى نتحسر على الوحدة العربية! . .

حديقة الحيوانات

كانت حديقة الحيوانات في مصر هي اول حديقة انشئت في زمن الخديوى اسماعيل ، في مدينة عربية . كنا نقرأ عن هذه الحديقة او نراها في الافلام المصرية .

شاهدنا الحديقة وهي مليئة بالاشجار الكبيرة ومقسمة الى اماكن معينة للحيوانات الموجودة . اذكر اننا رأينا قسم القرود اولاً رأينا الغوريللا والشمبانزى والبابون وانواع عديدة اخرى تصغرها حجماً . وكان الاطفال ترمي (الفستق السودانى) خاصة للقرود الصغيرة التي تتجمع لأكل الفستق ، والمنظر لطيف جداً .

رأينا الاسود والنمور والذئاب والضباع والفيلة . كانت هناك غزلان متعددة لها اسمائها . رأينا النعام والزرافة والدببة . وقد خاف الجميع من رؤية الافاعى السامة والافاعى الكبيرة التى تاكل البشر والحيوانات . ورأينا الطيور البديعة من الببغاء الملون والاسود الى طيور الحب والكنارى ثم الى النسور والصقور والبوم . وكانت الحيوانات تبدو نظيفة وصحية وتحت عناية دائمة .

تناولنا الشاي في جزيرة صغيرة يحيط بها الماء ، وهى مليئة بانواع مختلفة من الزهور بالواتها البراقة الحمراء والبيضاء والصفراء كالشمس المشرقة والزرقاء بزرقة البحار وبنفسجية ووردية بلون الفجر الجديد .

كانت المناضر اللطيفة تحيطنا في كل اطراف الجزيرة ، وكنا نتمكن رؤية المياء المحيطة بالجزيرة اينما جلسنا في هذه البقعة الساحرة .

بيت الاميرة شيوه كار

زرنا مبرة (محمد على) الخيرية في النهار وكانت الاميرة (شيوه كار) الرئيسة . رأينا المكان يعج بفقراء من النساء واولادهن ، ولكن ما ان اطلت عليهن الاميرة الا بدأ الهتاف بحياتها لمدة دقائق طويلة . يبدو بأن الاميرة كانت كريمة جداً مع النساء الفقيرات .

في المساء كنا مدعوات الى بيت (الاميرة شيوكار) نفسها في تلك الليلة .

لبسنا ملابس السهرة وتوجهنا الى قصرها ، وكانت الدعوة تشمل أيضاً دبلوماسى السفارة العراقية ، ونورى باشا السعيد .

في الطريق اسرت الى (مائدة الحيدرى) بأن الاميرة (شيوه كار) تحب العادات التركية وخاصة الاحترام بين الكبار والصغار ، واننا اذا قبلنا يدها ، وهى سيدة متقدمة في العمر ، سوف تقبلنا على الوجه .

كنت في ذلك الوقت لاازال تحت تأثير بيتنا وعاداته القديمة والاحترام الكبير بين الصغير للكبير ، ولم ار في الامر شيئاً غريباً ، وقلت (لمائدة) اننى لاازال اقبل يد ابى وامى واعمامى وخالاتى في الاعياد وغيرها . اجابت مائدة انها تفعل نفس الشئ مع اهلها الكبار في السن! . . غضبت علينا ثلاث من العضوات بيننا واستنكرن الامر . واحدة منهن وهى مدرستى في المدرسة الابتدائية (الست عفيفة) نظرت الي

وكأنني لاازال تلميذتها القديمة وقالت :

- لاتقبلى يد الاميرة العجوز يا سانحة ! . .انعود للتربية العثمانية القديمة! . .

دخلنا من خلال باب كبيرة حديدية الى حديقة واسعة جداً قبل الدخول الى البيت .

رأينا الاميرة شيوكار تقف في المدخل وقربها زوجها (الهامي حسين باشا) تستقبل الزوار . قبلنا يدها عند التحية (انا ومائدة وسرية) واذا بها تقبلنا على

الوجه بكل ترحاب وكأنها خالة عزيزة .

كانت الاميرة سيدة تجاوزت العقد السادس نحيفة متوسطة القامة ترتدي ملابس للسهرة طويلة من القماش الاسود ، وعلى عنقها وصدرها قلائد مجوهرات من الالماس والشذر ، وكانت تلبس اقراطاً وبعض الاساور من الالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ وكانت هذه الاحجار الكريمة تتألق تحت الانوار البلورية الرائعة في السقوف والجدران .

عندنا في بغداد ، تلبس النساء المثريات (الذهب) بصورة عامة ومعه المجوهرات الثمينه القليلة في الخواتم وبعض الاساور ، ومن كانت تملك خاتماً كبيراً من الالماس بحجر واحد كبير اسمه (تك طاش) من (البرللنت) تعتبر غنية جداً ولم يملك خاتم (الحجر الواحد) الا القلائل من النساء في بغداد . اكثر الاحجار الكريمة في العراق كانت من الؤلؤ والشذر والياقوت والالماس المسطح او (الفليلمنك) .

ولكن الذي رأيناه في قصور القاهرة من الاحجار الثمينة الكبيرة الحجم كالالماس والزمرد وبهذه الكثرة ، لم نر في بغداد شيئاً يماثله او يقاربه! . . .

وقف قرب الاميرة شيوكار زوجها يسلم على المدعويين ، وهورجل وسيم ، اصغر منها سناً بقليل وهو مثل زوجته من العائلة الخديوية واسمه (الهامى حسين باشا) وقد كان الزوج الخامس للاميرة شيوكار . في الماضي كانت شيوكار زوجة للملك (فؤاد) الاول ولها منه ابنة اسمها الاميرة (فوقية) ، وبعد ان طلق الملك فؤاد شيوكار ، تزوج (الملكة نازلي) وهي ام الملك فاروق واخواته الاربعة .

قصرالاميرة شيوكار كان اكثر القصور فخامة بين تلك القصورالباذخةالجميلة .

التأثير الايطالي للقصر كان واضحاً من استعمال الاعمدة في الداخل ، ويتمازج معه زخارف الاسلوب الاسلامي الهندسية والزخارف النباتيه على الجدران .

رأيت اثاث القصر وزيناته من اروع مايكون من الزينة ، سواء في صالة الجلوس الشاسعة ذات الاعمدة العالية والسقوف المرسومة والثريات البلورية الهائلة في السقوف والجدران . الغرف الكبرى كلها فيها ابواب اخرى تفتح الى صالات

كبيرة بحيث ترتبط الصالة مع صالات اخرى بدرجة حرنا في وصفها . كانت غرفة الطعام المجاورة للصالة التى نحن فيها ، تكفى لاستقبال مئات الضيوف وقوفاً! . . .

مع ان المائدة الكبرى في وسط الصالة تكفي لجلوس اكثر من خمسين شخصاً . رأيت شمعدانين اثنين يملآن المائدة الكبيرة على شكل ثعبانين من الذهب مطعمين بالاحجار الكريمة ويلتقى الثعبان بواسطة الذيل الى ذيل الثعبان الآخر في وسط المائدة ويتعرج كالامواج الى نهاية المائدة حيث يرتفع رأس الثعبان وفيه محلات للشموع الملونة الكبيرة والكثير من المجوهرات .

في نهاية الصالة يتدلى خزان كبير من الفضة الخالصة بسلسلة فضية من السقف الى مسافة متر فوق الارض وفيه حنفية فضية أيضاً لشرب العصير الموجود من ذلك الخزان .

رايت عدداً كبيراً من الخدم الشباب بوجوه مشرقة ، يرتدون الملابس البيضاء وكأنها ملابس عسكرية وازرار ذهبية من عصور اوروبية قديمة ، ويعتمرون الطربوش المصرى الاحمر على رؤوسهم ، ولكن الزر على الطربوش (البسكولة) كان من خيوط الذهب اللامع بدلا من لونه الاسود المعتاد . وكان منظر هؤلاء الخدم الشبان بملابسهم البيضاء والازرار الذهبية البراقة على الطربوش ، وهم يخدمون المدعوين منظراً لاازال اذكره الى الآن بوضوح وتعجب! . . .

ولا اعرف عدد هؤلاء الخدم البيض بالضبط ، ولكنهم لا يتجاوزون العشرين شخصاً .

اما البنات الخادمات وعددهن لايقل عن عدد الرجال الخدم ، فقد كن شابات يلبسن فساطين متشابهة طويلة ذات لون احمر وفوقها حزام عريض بلون ازرق غامق يمتد ويصل الى اسفل الركبة . وشعر الفتيات كان قصيراً ومرتب على آخر طراز! . . .

وهناك أيضاً خدم نوبيون يلبسون الشروال العريض مع بلوزات وياقات كلها بيضاء وكلها منشاة ، ويلبسون طربوش بزر اعتيادى (بسكولة) اسود اللون .

يبدو ان الاميرة شيوكار تتفنن في ثياب الخدم وتلبسهم الملابس الغريبة

الغالية! . .

كل شيء رأيته في القصر ، من البناء والاثاث والصور والتماثيل والمرايا والخدم واناقتهم ، يدل على الثراء والنعمة الهائلة ، والكرم الطائل على اصحابها انفسهم! . .

ان هذا الثراء الفاحش في بلد يعيش فقراؤه في اسفل درجات الفقر جعلني افكر طويلاً بأن الامور ينبغي ان تتبدل وبسرعة .

قصر الامير يوسف كمال

الامير يوسف كمال من ابناء عم الملك فاروق وهو من اغنى الامراء في العائلة الملكية المصرية وكان الامير صديقاً لنورى باشا ولتحسين العسكرى الوزير المفوض في مصر .

قرر الامير ان يدعو الوفد النسائى العراقى فقط مع نورى باشا السعيد واعضاء الهيئة الدبلوماسية العراقية الى دعوة شاى في قصره في منطقة (المطرية) خارج القاهرة .

اخبرنا (تحسين بك) أننا سنقابل الصياد الكبير من العائلة المالكة ، وان الامير مشهور بين جمعيات الصيد في العالم في سفراته البعيدة للصيد في انحاء افريقيا (السفاري) . والامير يكتب عن سفراته في مختلف مجلات الجغرافيا والصيد الاوروبية .

رأينا القصر من البعد بلون اصفر داكن (بيج) ، ثم وصلنا الى حديقة تحيط بالقصر ذات مماشٍ مفروشة برمل لونه وردى غامق جميل ، وهذا الرمل خاص فيه املاح معدنية تجعل لونه وردياً ، وهم يأتون به من الاسكندرية لفرش المماشي في الحدائق الخاصة! . .

ارتقينا سلماً رخامياً عريضاً ، وكان على الباب خادمان يرتديان الملابس الغربية والطربوش وهم في غاية الاناقة . اجتزنا الباب واذا بالامير (يوسف كمال)واقفاً يستقبلنا ومعه سيد آخر هو سكرتيره .

لم يكن في البيت غيرنا من الناس . ولم نشاهد الا اثنين او ثلاثة من

الخدم . وبدا القصر الكبير الباذخ شبه خال من الناس . . .

كان الامير في الخمسينات او الستينات من العمر ، يقارب عمره عمر نورى باشا وتحسين بك ، شعره خليط بين الاشقر والابيض وتبدو عليه علائم الصحة والنشاط . استقبلنا بحفاوة كبيرة .

كان الامير يتكلم اللغة التركية مع نورى باشا ومع تحسين بك ، ويتكلم العربية معنا بسهولة . ولكن ما جلب انتباهى وانتباه الاخرين ليس لغة الامير ، بل ما رأينا حولنا في داخل بهو القصر الكبير وسقفه ذي القبة العالية المستديرة من الحيوانات المحنطة ، . .عشرات وعشرات منها! . . .

كان في وسط الصالة الكبرى درجات تصعد الى الدور الثانى وعلى كل منها زرافة تنظر الى الاسفل . وفى الصالة حيوانات كاملة كما هي ، من وحيد القرن الى الاسود والنمور والضباع والقرود المختلفة . وفوق الجدران رؤس غزلان مختلفة تملأ كل جدران الصالة الواسعة . تذكرت لفترة قصيرة وانا ابتسم مع نفسي ، الغزلان والارانب والطيور التى كان يصطادها والدي واخوته في برارى بغداد! . . .

هذه الحيوانات في قصر الامير هي من غابات افريقيا السوداء اصطادها الامير على مدى فترة طويلة لانه كان يذهب الى الغابات الافريقية مع صيادين معروفين في العالم في الصيد .

لم اذكر له صيد عائلتنا (البسيط) في اطراف بغداد ولكنه رأى اهتمامى بالصيد وسؤالى عن اسماء المناطق البعيدة التى زارها .

غبطته في نفسى عن هذه الحياة الرغيدة التى عاشها وانصرافه الى هوايات بل اعمال جميلة ومفيدة .

اين نحن من هذه الحياة! . . كم عدد الاشخاص الذين عاشوا كهذا الامير في العالم! . .

كنت في شبابى احب السفر الى الغابات والجبال البعيدة ورؤية اقاليم لم يرها الا القليل وركوب الاخطار كما في الروايات والسينما ، لكنني لم اكن ارغب في قتل الحيوانات الوحشية ابداً! . .

دخلنا مكتبة الامير الكبيرة وشاهدنا الخرائط البحرية (العربية) والاوروبية

القديمة والحديثة وكلها معلقة على الجدران . تذكرت مكتبة والدي في البيت والخرائط الموجودة على جدرانها مع نفسي فقط! . .

ان مايملكه هذا الامير من الخرائط يبارى احسن المكتبات الجغرافية في العالم! . .

كان الامير يهدى بعض الحيوانات التى اصطادها الى متاحف الحكومة ، وكذلك يهدى نسخاً عن خرائطه البحرية للدولة . وقد وهب ادوات قديمة من قصره مثل المصابيح المملوكية والسيوف التركية للمتحف المصري .

لم يكن للامير زوجة الآن بعد ان طلق زوجته ، ولم يكن لديه اولاد يرثونه .

جلسنا في غرفة الطعام حول مائدة طويلة جداً ، جلس هو في الرأس وجلسنا حوله على الجهتين وكان عددنا يتجاوز العشرين شخصاً وبقى قسم كبير من كراسى المائدة فارغاً ، وجلس بعيداً في الرأس الآخر من المائدة سكرتيره . ضحكنا من السكرتير وقلنا كيف يسمع مايقوله الامير والمسافة بينهما تبلغ بضعة امتار! . . .

جلسنا لنتناول الشاي ونأكل الكعك وهو مستمر على وصف البلاد الافريقية النائية بصورة ملذة وجميلة وكان بودنا لو نسمع الكثير عن معلوماته الغريبة .

استأذنا من الامير الصياد وغادرنا قصره الواسع وحيواناته الغريبة والجميلة التى تحيط به وعدنا الى العالم الاصلى الذى نعرفه .

سهرة في قصر السيدة هدى هانم شعراوى الرائدة العربية

اود ان اكتب ما تقوله الجرائد عن القاب السيدة هدى هانم شعراوى :

زعيمة النهضة النسائية ورئيسة الاتحاد العربى العام ، وكيلة الاتحاد النسائى الدولى ، وحرم المرحوم على شعراوى باشا وكريمة المرحوم محمود سلطان باشا ووالدة محمد شعراوى باشا وشقيقة عمر سلطان باشا .! .

هكذا كان اسمها في بعض الصحف النسائية! . .

زرنا قصر السيدة هدى شعراوى منذ اليوم الاول ، وقضينا فترة قصيرة فقط لكي نسلم عليها .

كانت تشكو من بعض اعراض ارتفاع ضغط الدم العالى عندها . استقبلتنا جالسة على كرسى ويحيط بها السيدات (امينة السعيد وسيزا نبراوى وحواء ادريس وهن من كبار اعضاء المؤتمر النسائى المصرى) . وقد الححنا عليها ان تستمر بالجلوس عندما تركنا البيت بعد فترة قصيرة جداً لئلا نتعبها .

دعتنا الى قصرها ذات ليلة ودعت الوفود النسائية كلها ورئيس وزراء مصر النقراشى باشا ، ونورى باشا السعيد وعدد كبير من النساء وبعض الرجال من غير الوفود .

في نفس اليوم ، وقبل ان نذهب الى بيت هدى هانم بساعات ، اخبرتنا (سرية الخوجة) انها جلبت معها ملابس عراقية بزى (الهاشمى) الذى يلبس في الالوية الجنوبية عندنا خاصة بالبصرة ، وهى ترغب ان ترتديه في حفلة هدى هانم شعراوى . واذا بالسيدة (نظمية العسكرى) زوجة الوزير المفوض تحسين بك العسكرى اعترضت على ذلك ، وقالت ان لباس السهرة العادي هو ما يطلب منا ارتداؤه في المساء . وافقت (سرية) ولم تلبس الهاشمى العراقى وارتدت فستان سهرة مثلنا .

وصلنا الى قصر هدى هانم ، واذا بالسيدة (نظمية العسكرى ، ام عدنان) ، تلبس هاشمى عراقى وتسير فيه برشاقة . اذ يبدو ان كلام سرية عن الهاشمى ذكر السيدة نظمية بأن لديها مثله وقررت ان تلبسه هي دون ان تشاركها واحدة اخرى! . . .

قالت سرية ضاحكة :

– اننى بعمر (عدنان) ابن السيدة نظمية .

وهذه الحادثة اضحكتنا كثيراً ذلك المساء ، ولم يؤثر ذلك على حبنا وودنا للسيدة ام عدنان! . . .

قصر السيدة هدى شعراوى يختلف عن قصور افراد العائلة المالكة والقصور الكبيرة الاخرى . كان القصر كبيراً ، ولكن داخل القصر كان الطراز اسلامياً قديماً وكذلك الاثاث . الغرف لها سقوف منحنية والجدران والاثاث كله من الخشب المطعم بفسيفساء من العاج والصدف وكل القصر يبدو كقصر عثمانى يعود الى

احد وزراء السلاطين والجو حولنا شرقى ارستقراطي .

الخدم كانوا بملابس مصرية ذات سراويل وثياب بيضاء منشاة وطرابيش انيقة .

تناولنا طعام العشاء ، والناس كلها رجالاً ونساء في اجمل الملابس والحلل . كان الطعام لذيذاً والخدمة فائقة .

لكننا كنا نحن العضوات في حالة من الحزن لان هدى هانم كانت مصابة بارتفاع في الضغط الدموى وتشكو أحياناً من صداع ودوخة شديدة ولم تكن الادوية الطبية موجودة في ذلك الحين مثل الوقت الحاضر . جلست هدى هانم في كرسى واحد ولم تمشِ اوتعتنى بالضيوف . ذهبنا اليها للسلام عليها والدعاء لها بالشفاء العاجل .

وكانت قريبتهاالسيدة (حواء ادريس) والسيدة (سيزا نبراوى) والكاتبة الكبيرة (امينة السعيد) يحطن بها طيلة الوقت .

يبدو ان اهتمامها الكبير بالمؤتمر هذا اثر على الضغط الدموى المرتفع .! . .

كانت هدى هانم في سن الخامسة والستين ولا يزال وجهها جميلاً وابتسامتها مشرقة .

بعد العشاء جلست السيدة (ام كلثوم) تحت احد السقوف المستديرة (الطاق) واحاط الموسيقيون المصريون بها وكان معهم (سامى شوا) أيضاً وهو من بلاد الشام .

سرت بين الحاضرين تمتمات تدل على الرضى والسرور ، وهم يسمّون ام كلثوم (سومة)! . .

غنت السيدة (ام كلثوم) اغانى عديدة كانت تحوز على التصفيق والهتاف . . .في تلك الايام كانت الاغانى قصيرة ولذلك تنقلت (ام كلثوم) الى عدد كبير من الاغانى من شاعر الشباب (احمد رامى) وغيره للى الحان من اغانى افلامها .

كنت لاستسيغ غناء (ام كلثوم) في تلك الايام ، واسمعها وكأنها تغنى قطعة واحدة بنفس الصوت العالى وانما بكلمات مختلفة! . .

كنت احب اغانى (عبد الوهاب) منذ طفولتى ، منذ ان غنى (انا انطونيو وانطونيو انا) . بقيت لااهتم بغناء ام كلثوم حتى سمعت اغنية (انت عمرى (بعد اعوام طويلة في الستينات ، وهى من تلحين (عبد الوهاب) احببت الاغنية وبدأ حبى الى (ام كلثوم) يزداد ، بل اننى بدأت احب اغانيها السابقة التى كنت اعرض عنها في الماضي ، واصبحت من المعجبات بصوتها وغنائها الآن! . .

يجب ان اضيف هنا ان السيدة (ام كلثوم) رغم انها كانت لطيفة مع الجميع الا انها كانت ترحب وتستقبل العراقيات بصورة خاصة! . . .وفى كل مرة نذهب لسماع اغانيها في القاهرة ، تطلب ان نراها في فترة الراحة بين الاغانى ، دون ان تطلب ذلك من الوفود النسائية الاخرى! . . .

في اثناء هذه الدعوات كثر التعارف بيننا وبين العضوات الاخريات والسيدات المصريات بحيث اصبحنا نفتش عن بعضنا البعض في كل حفلة . وقد بدأ بعض الازواج يتذمرون ضاحكين من الصداقة التى حصلت بيننا وبين زوجاتهم وان الزوجات اهملن بيوتهن تماماً بسبب حفلاتنا وصداقاتنا! . .

ادت هذه الصداقة المتبادلة بيننا ، الى ان ادعو العضوات ان يقمن بزيارة الى بغداد في المستقبل القريب! . . .

ولكن (سرية) اسكتتنى خلسة ضاحكة :

– اين تدعين كل هؤلاء الناس عندنا ! . .في أي قصر وفى أي فندق؟الافضل ان نصمت عن الدعوات الى بغداد في الوقت الحاضر! . .

كانت هذه هي الحقيقة! . . في أي قصر او أي فندق كنا سندعوهن اليه؟ .في بغداد كان مجرد بيت بسيط مبنى على ضفاف دجلة يسميه الناس (قصراً) ، ولم يملك أي من اثريائنا مبنى يمكن ان نساويه بزاويه من زوايا قصور الامراء اوالاغنياء المترفين في مصر! . .

كانت الفنادق في بغداد قليلة وصغيرة ولم تكن لدينا السيارات الخاصة للضيوف والمرافقين كما هو الحال في القاهرة .

اتخذ المؤتمر قرارات قدمها الى حكومات تلك البلاد العربية . واسس اتحاداً نسائياً عربياً واتخذ له مكتباً دائماً في القاهرة .

وقد اهاب المؤتمر فيما يختص بالحقوق السياسية بالدول العربية لتعمل على مساواة النساء بالرجال تدريجياً ، وان تمنحهن خاصة حق التصويت في الانتخابات ، وان تعين النساء في نفسب الوظائف التى يشغلها الرجال .

وهناك قرار آخر يتعلق بالحقوق المدنية والشرعية ، ومن بين المسائل التى طالبن بها تقييد الطلاق حتى لايصيب النساء الاذى ، وكذلك تقييد تعدد الزوجات .

وفى قرار اخر طالبن بتعميم التعليم وجعله اجبارياً ، ووقف التعليم في روضات الاطفال والمدارس الابتدائية على المعلمات دون المعلمين .

كذلك وافق المؤتمر على قرار يؤيد حق العرب في ان يكون شعب فلسطين مستقلا يحكم نفسه بنفسه . وطالب المؤتمر أيضاً بوقف الهجرة الى فلسطين واهاب بجميع الشعوب العربية ان تمنع انتقال الأراضي التى يملكها العرب الى ايدى الاجانب .

وكان طلب الى المجمع اللغوي المصري والمجامع العلمية العربية ان :

ان تحذف نون النسوة من اللغة العربية .

اثار ذلك الكثير من التعليق في الصحف والمجلات المصرية .

وهذه هي اسماء اللواتى انتخبن للمكتب الدائم للاتحاد النسائى العربى الجديد :

الرئيسة ، السيدة هدى هانم شعراوى عن مصر .

والسكرتيرة ، السيدة امينة السعيد .

وكيلات عن الرئيسة :

السيدة نظمية العسكرى ، عن العراق ، والسيدة روز شحفة عن لبنان ، والسيدة زليخا الشهابى عن فلسطين ، والسيدة عادلة عبد القادر الجزائرى عن سوريا ، والانسة امليى بشارات عن شرقى الاردن .

مساعدات للسكرتيرية :

الانسة سرية الخوجة من العراق ، والدكتورة جمال كرم حرفوش عن لبنان ، والسيدة ساذج نصار عن فلسطين والسيدة فائزة العظم عن سوريا ، والانسة لولى

ابو الهدى عن شرقى الاردن .

اعلنت هذه القرارات في بداية سنة ١٩٤٥ .

كان لجهود هدى هانم شعراوي اثر كبير الى الاهتمام بحقوق المرأة .

انقضى على الوفد اسبوعان لم ننم خلالها الا قليلاً! . .كان لدينا إجتماع في الصباح والمساء والليل في زيارات لاحد القصور او لحفلة تمثيلية او لزيارة احد الاماكن المهمة . لم ترغب واحدة من المؤتمر العراقي الرجوع العاجل الى بغداد ما عداى! . .

إذ بعد قضاء الايام الجميلة هذه ، رغبت في العودة الى بغداد والى زوجى وهو بمفرده ، ودارى الجديدة! . . .

كنت اكتب الى زوجى كل ليلة قبل النوم بطاقة بريدية مصرية اكتب بها باختصار ما شاهدنا في ذلك اليوم وارسلها بواسطة بريد الاوتيل الى بغداد! . . .

لم تصل هذه البطاقات الى العراق الا بعد وصولى بغداد ببضعة ايام! . . .

الحياة الجديدة

(قضينا ثمانية عشر شهراً في بغداد بعد الزواج ، وقبل الذهاب الى لندن للدراسة) .

عدت الى العمل في المستشفى بعد الرجوع من مصر ، واشتغلت في نفس الجناح الثانى مع الاستاذ (ستيسى) ومساعده الدكتور (مهدى فوزى) . وبالاضافة ، كنت اساعد الاستاذ (ستيسى) في الدرس النظرى لموضوع (للفارماكولوجى) لطلاب الصف الثالث مرتين في الاسبوع .

كنت حريصة على العمل جداً والتذ بالقيام به ، وارجع اليبيتنا المجاور للمستشفى ، دون ان اشعر بالتعب او الحاجة للراحة بعد الغداء ، بل كنت اعتقد ان النوم بعد الغداء هي عادة لمن وصل منتصف العمر وبعده ، وليست للشباب! . . .

لم اصدق ان زوجى يحتاج الى النوم بعد الغداء لمدة نصف ساعة اوساعة في اليوم ، ويصحو بعدذلك ويشتد نشاطه بالتدريج ويصبح على اتم النشاط في

المساء خاصة اذا كان مع جماعة من اصدقائه .

كنت اشترك مع زوجي في سهراته وافضل ان نسهر في نهاية الاسبوع لأنني اشتغل في النهار ، وكنت اسأله ان يخرج في المساء بمفرده أحياناً دون ان يطلب مني اصطحابه ، وكان يرفض ذلك ويلح على الخروج واياه مع الاصدقاء العراقيين وزوجاتهم ، او مع اصدقائنا الاجانب . لم اكن اعرف سوى القليل من الاصدقاء والصديقات من ايام المدرسة او في كلية الطب .

تعرفت على اصدقاء زوجي وزوجاتهم وهم متزوجون حديثاً ، كلهم درسوا في انكلترا او اميركا ، ولاحظت اثناء الجدال والمناقشة بينهم انهم كانوا يخلطون اللغة العربية بكلمات انكليزية في معظم الوقت . وكان الجلوس معهم ممتعاً لانهم على درجة عالية من الثقافة العامة واحاديثهم كلها ممزوجة بالذكاء والظرف والفكاهة .

كانت مواضيعهم تدور على وضع البلاد الحالى ، في منتصف الاربعينات او الاوقات التى درسوا فيها في بلاد الغرب . كانوا كلهم يمقتون السياسة في العراق وكل شيء ينتمي اليها ، من الوزراء والنواب والتدريس والمدارس ، الى حالة العمال والفلاحين لتعسة ، والى المجتمع كله! . . نقدهم كان عاماً دون طرح مايمكن عمله من الاصلاحات . لم اسمع منهم حرفياً ماكانوا يفكرون به في مراميهم البعيدة . ربما كان ظنهم انهم اولىلا من الغير في كسب الوظائف الكبيرة والامتيازات الهامة ، لانهم كانوا الشباب الواعى الذى درس في الغرب! . .

لم اذكر أحداً يسألهم (هل على الشباب الواعى ان يزيح ما قبله!) .

كان هذا ماقاله والدي في احد الايام عن الشباب الحديث .

بدات افكر فيما قال والدي ، ان هذه الحماعة ، جماعة الشباب لو تم لها ما تريد ، ستصبح بعد سنوات ، الجيل القديم ، وسوف يطيح بهم الشباب (الواعى) الاتى بعدهم كما فعلوا انفسهم! . .

كنت استمع اليهم كثيراً ، ولا اتكلم الا القليل .

كانوا بعيدين عن عالمى الذى اعرف . كنت اراهم اكبر مني في العمر ،

يعرفون اشياء كثيرة لا اعرفها انا عن العراق او عن الحياة الغربية في بلاد بعيدة لم ارها! . . .

كنت ارغب ان ارى جماعتى انا من الاطباء والطبيبات واتكلم معهم واجادلهم كالسابق! .

جالس زوجى اصدقائى الاطباء المتخرجين الجدد من الفتيات والشباب في بيتنا ، وكان يقوم بدور المضيف معى في البيت . كان يرانا نشرب الشاي ونأكل كميات كبيرة من الكيك والحلويات المثلجة (الدوندرمة) ونستعيد احداثاً قديمة ، ونضحك منها كثيراً ، ونتكلم كثيراً عن المرضى في المستشفى وعن الاطباء الاخرين .

اصدقائى لم يسافروا الى البلاد الاوروبية ابداً ، ما خلا بعضهم ممن سافروا الى لبنان اومصر فقط .

كان زوجى يرانا وكأننا احداثاً نضحك ونلهو مثل طلاب الثانوية ، رغم انه كان يعجب باعمالنا في المستشفى واهتمامنا الشديد بالمرضى ، كان يستمع الينا ويشترك بكلامنا قليلاً ويضحك من أحاديثنا الضاحكة .

اصبحت بالتدريج افضل الذهاب مع جماعة زوجى ، ولاارى جماعتى الا قليلاً في المستشفى وكلنا هناك في شغل شاغل عما يجرى خارج المستشفى .

كان لزوجى اصحاب آخرون ، وكلهم من الاجانب البريطانيين والامريكان ، مثل جماعة (شركة النفط العراقية) التى ترتبط بوزارة الاقتصاد حيث يشتغل زوجى ويعرف الموظفين هناك .

هؤلاء كانوا يدعونا الى حفلاتهم في العشاء او في حفلات الكوكتيل . وكانت دعواتهم كثيرة ومسلية وذات فائدة عامة تفوق اهتماماتنا المحلية العراقية .

وهناك جماعة كبيرة اخرى من المفوضية الامريكية ادركوا ان زوجى درس في امريكا ويتكلم اللغة الانكليزية بلكنة امريكية واضحة ادت الى الصداقة بينهم ، وكان زوجى يهتم بدعوات الامريكان لانه درس في امريكا واحبها كثيراً ، احب علمها وعاداتها وطرق معيشتها ، واصبحت جزئاً من حياته .

اما انا فقد كنت اود لقاء الجماعات الادبية العربية اوالانكليزية ولم ادر كيف

واين القاهم في بغداد لم يكن فيها آنذاك اية اجتماعات ادبية اعرفها رغم محبتي الادب والشعر والمسرح والسينما .

كان زوجي لايميل كثيراً الى الادب اوالشعر اوالمسرح ، ولكنه يميل الى الموسيقى غربية وشرقية ، ويحب الرقص الغربي ويتقن الخطوات كلها من الفالز الى التانكو الى الفوكس تروت وغيرها . وقد تعلم العزف على الكمنجة اثناء الدراسة الثانوية . كان يميل الى استماع الموسيقى دائماً ، ولديه اسطوانات غربية كثيرة .

كان يحب السينما الامريكية والانكليزية جداً ، ولكنه لايحب المسرح الانكليزي ، ولا يطيق ان يرى الستارة تصعد وتهبط بين الفصول . اما المسرحيات المصرية وافلامها فلا تثير فيه سوى النعاس! . . وكان لايفهم اللغة المصرية الدارجة ابداً! . .بينما انا كنت افهم اللغة المصرية واقرأها في المجلات المصرية وفى السينما والمسرح وكنت ولازلت احب ان اسمع كلام المصريين واطرب لنكاتهم ودعاباتهم . كنت احب الشعر الانكليزى والمسرح ، والسينما الانكليزية والامريكية .

كان المعهد الثقافى البريطانى في الباب الشرقى ، ومديره المستر (اليوت) ومساعده الشاب المستر (سيمكوكس) الذى اخبرنا انه مدرِّس في اللغة اللاتينية .

قدمنا طلباً من جماعة صغيرة من الاطباء ان نشترك بالمعهد الثقافى البريطانى لدراسة اللغة اللاتينية لانها مرتبطة جداً مع اللغة الطبية . كان علينا ان ندرس هذه اللغة في سنوات الطب الاولى لعدم وجود مدرس في كلية الطب لكي يدرس اللغة اللاتينية آنذاك .

اصبحنا جماعة من عشرة اشخاص نذهب الى المعهد الثقافى البريطانى مرتين في الاسبوع ، وتعلمنا شيئاً من هذه اللغة (الميتة) ورأينا اثرها في لغة الطب واللغة الانكليزية بصورة عامة . استمرت الدراسة لاشهر قليلة ، بعدها انتقل المدرس الانكليزى المستر (سيمكوكس) الى البصرة لكي يفتح فرعاً هناك ، وانقطعنا عن دروس اللغة اللاتينية .

كنا نحضر المحاضرات في المجمع الثقافى البريطانى وكان يلقيها كتاب كبار وفى مختلف المواضيع واكثر هؤلاء المحاضرين هم ادباء وكتاب معروفين في

بلادهم ، وهم الآن في الجيش البريطاني تجندوا اثناء الحرب ولبسوا الملابس العسكرية ويعسكرون في بغداد او في طريقهم نحو ايران لان القوة العسكرية البريطانبة كانت مشتركة في العراق وايران واسمها (البايفورس) .

بواسطة المعهد الثقافي البريطاني استمعت الى محاضرات عن كبار الشعراء الانكليز مثل شكسبير وبيرون وشيللي وكيتس وغيرهم .

وقد طلب المعهد من اساتذتنا الانكليز في الكلية ان يحاضروا بمواضيع علمية مختلفة تمس الغذاء ، والصحة العامة والعدوى بين الناس .

كان رئيس المعهد الثقافي البريطاني المستر (توم مورى) وكان يسكن في بيت صغير ابيض اللون يسميه (الكوخ الابيض) مبنى على شاطئ دجلة في منطقة الكرخ ويحيط البيت حديقة جميلة فيها اشجار البرتقال والنارنج والنخيل وفى وسط الحديقة فسحة مغطاة بعشب اخضر مقصوص بعناية تامة .

كان المستر (مورى) يقيم في حديقته دعوات موسيقية يدعو اليها من يرغب في سماع الموسيقى الغربية .

وكنت ادهب لسماع الموسيقار الاستاذ (هرست) الذى اظنه كان من النمسا يحيى الحفلات الموسيقية الاسبوعية ، وتمتلئ الحديقة بالمدعوين من العراقيين والاجانب سواء كانوا في الدوائر المدنية او من افراد الجيش البريطاني .

وقد بقى الاستاذ (هرست) في بغداد حتى سنوات الستينات ، وقد درست ابنتى معه البيانو لمدة خمس سنوات عندما كان يدرس الموسيقى في المدرسة الامريكية الثانوية للبنات في المنصور في بغداد .

كان الضابط الموسيقار العراقى الرئيس (البير شفو) يقود أحياناً الفرقة الموسيقية البريطانية في حديقة (الكوخ الابيض) . وكان يلبس الملابس العسكرية العراقية بلون ابيض صيفى ويقود الفرقة بمهارة كبيرة .

وفى سنة ١٩٤٦ غادر (البير شفو) بغداد وتوجه الى لندن . وقد قام بقيادة بعض الفرق الموسيقية في (البرت هول) في لندن ، وبعد ذلك اختفى ، ولم نسمع عن اخباره .

وكان المعهد يشجع الفنانين العراقيين والبريطانيين لعرض صورهم في المعهد

في الباب الشرقى ، او في حديقة المستر مورى ، واذكر منهم السادة جواد سليم وفائق حسن واكرم شكرى وعطا صبرى .

واذكر رؤيتي للفنان الانكليزى (كنيث وود) ، من الجيش البريطانى ، وهو رسام معروف وصديق فناني العراق خاصة جواد سليم وفائق حسن ، وقد عرض رسوماً بصورة جديدة لم نرها من قبل في العراق ، اذ استعمل طريقة النقاط العريضة المسطحة في صوره ، وقد شاهدها الكثيرون وحاول بعض الفنانين تقليدها ، ونجحوا! . .

شاهدنا مسرحية انكليزبة قام بها جماعة من ضباط الجيش البريطانى والرواية مشهورة اسمها (حسن) او (الطريق الذهبي الى سمرقند) للشاعر الانكليزى (فليكر) . وهى تدور على قصة شعرية باللغة الانكليزية ، في بغداد القديمة في زمن (الف ليلة وليلة) ، عن جماعة من بغداد تذهب الى مدينة (سمرقند) خلسة ، وتبتعد عن ديكتاتورية الخليفة الذى يريد الحصول على ابنتهم الجميلة المتحررة! . وكانت االقصيدة الشعرية الانكليزية : (الطريق الذهبي الى سمرقند!) من اجمل ما سمعت من القصائد! . .

كانت الحفلة برعاية المعهد الثقافى البريطانى واقيمت في قاعة الملك فيصل الثانى واستمرت ثلاث ليالى . وقد حضرها الاجانب باعداد كثيرة وكذلك الكثير من الشبان والشابات العراقيين . وقد مثلت دور بطلة الرواية فتاة انكليزية جميلة جداً من الجيش البريطانى . واذكر ان السيدة (بوزويل) وهى زوجة الاستاذ بوزويل استاذ البيولوجى في كلية الطب مثلت دور احدى الجوارى في قصر الخليفة .

كانت المسرحية ناجحة جداً وصرف عليها مبالغ كبيرة لان الملابس ، والزينة ، والقصر ، والاضاءة كان على درجة عالية من الابداع والبذخ .

اذكر أيضاً ان تمثيلية (حلم منتصف الليل) لشكسبير مثلت في حديقة بيت السيد (طارق العسكرى) المسمى (قصر جعفر) واشترك السيد طارق معهم . الحديقة كانت على نهر دجلة في منطقة (الصرافية) وقد حضرها الكثير ممن يميل الى اشعار شكسبير ومنهم المستر (سكيف) مستشار وزارة المعارف آنذاك ، ودبلوماسيون من السفارة البريطانية والكثير من الضباط الانكليز الذين يستهويهم

المسرح وبعض العراقيين . وكانت امسية شعرية شائقة جداً . . .

وقد كانت هناك حفلات لمختلف الناس في بغداد لاازال اذكرها حدثت في الحديقة الغناء في قاعة (الملك فيصل الثانى) .

زواج الدكتور (كرجى ربيع) : كان الدكتور كرجى احد مدرسينا في كلية الطب . وكان الناس يعتبرونه من المع الاطباء . وقد كان حقاً طبيباً ماهراً في علمه الغزير وفى خلقه الكريم .

كانت الحفلة كبيرة باذخة والجو جميلا وقد دعا الدكتور كرجى ربيع عدداً كبيراً من اصدقائه ، من جميع الاديان ، الى الحفلة بينهم بعض الوزراء والنواب وخاصة الاطباء في حفلة مختلطة للرجال والنساء . وقد عقد عليهم الحاخام (ساسون خضورى) امام الجميع باللغة العبرية . وقد صفق المدعوون للعروسين في نهاية المراسيم وتمنوا لهم حياة سعيدة! . .

وهذا يدل على الصداقة والالفة بين العرب واليهود في تلك الايام البعيدة .

كان زوجى يفضل الدعوات والحفلات الاجتماعية الاجنبية او الدعوات مع العراقيين من اصحابه على جلسات الادب او قراءة الكتب الادبية والتاريخية . كان يفضل الدعوات الامريكية بصورة خاصة .

كنا نعتقد في تلك السنوات البعيدة ، ان العلافات بين العرب وامريكا بريئة لا تقوم على الاستعمار والاستغلال مثل الدول الاخرى امثال بريطانيا وفرنسا! . .

لم تكن اسرائيل قد ظهرت الى الوجود بعد! . . .لذلك كانت علاقة العراقيين مع امريكا هي علاقة صداقة ومودة! . .كنا نظنهم من اصدقائنا الاقوياء الابرياء! . . .وسبب ذلك كله هو الجهل ، والجهل وحده! . . لم نكن ندرى ما كان يدور في كواليس السياسة العالمية ضد البلاد العربية! . .

احببت النساء الامريكيات واختلطت معهن بسهولة بسبب بساطتهن وكلامهن الواضح الصريح . رأيتهن يتكلمن عن حياتهن بكل صراحة ، عن احوالهن المالية ومقدار الدراسة التى حصلن عليها دون أي مكابرة . ورأيت انهن يصفن والديهم بكل حرية ، ومن دون مجاملة هذه تقول ان امها عنيدة ، والاخرى تقول والدي يحب الاطفال ولكنه يحب النساء الجميلات واخرى تقول، ان عائلتها

كانت فقيرة ، ومواضيع لا نتكلم بها حول العائلة .

اين هذا من جماعتنا نحن! . . كل واحدة عندنا تضع اصلها فوق الناس جميعاً حتى لو كان اصلها فقيراً مجهولا ، وتقول انها غنية ، وتملك كل شيء واشياء كثيرة سخيفة أيضاً تدل على الجهل ، والفقر العقلي وعدم التفكير .

اعجبنى الحرية عند الامريكيات ، وكرهت الجبن النسائي الشرقي! . . .

اخذت اختلط مع الامريكيات وافضل دعواتهن واجتماعاتهن ، والعب التنس وامارس السباحة واحضرحفلات الشاي معهن .

قبل نهاية السنة الاولى من الزواج طلب الينا صاحب الدار ان ننتقل لان ابنه الاكبر سوف يتزوج ويحتاج الى بيتنا . انتقلنا الى بيت في الاعظمية .

البيت الجديد اعجبنا لانه كان واسعاً وله حديقة كبيرة . ولكن الصعوبة كانت اننا لم نملك سيارة . وهناك صعوبة في الحصول على مقعد في سيارة الباص في وقت دوام الصباح . وكانت السيارات الخاصة قد توقفت عن الدخول الى العراق طيلة سنوات الحرب ، وارتفعت اسعار السيارات الموجودة في البلد ارتفاعاً كبيراً .

رتبنا مع احد الاصدقاء وكانت لديه سيارة ويسكن قرب بيتنا ، وهو الصديق المرحوم (عبدالله احسان كامل) المهندس المعمارى في مديرية السكك ، واخذ يوصلنا الى المستشفى اولاً وثم الى وزارة الاقتصاد في حيث يشتغل زوجى في الباب الشرقى . اما اثناء الذهاب بعد الدوام ، فكنا نستعمل الباصات او التاكسى . وكان عدم وجود سيارة يزعجنى كثيراً .

في هذه الاثناء بدأت مبيعات كبيرة من (اللوريات) من الجيش البريطانى الى الجيش العراقى وكذلك الى المدنيين من الناس . اشترى الكثير من الناس لوريات للمزارعين ولوريات للحمل أيضاً واشترت الحكومة لوريات لدوائرها .

كان لدينا احد اقاربنا من كركوك وهو المعاون في الشرطة (فوزى الخطيب) ويشتغل في بغداد لحسن حظنا . اتى الينا بسرعة وذكر انه رأى سيارة صغيرة وحيدة في مقر مبيع اللوريات العسكرية البريطانى ، واذا قدمت الطلب بسرعة يمكننى الحصول على السيارة . كنا نعلم عدم وجود سيارات صغيرة ، رغم ذلك

ذهبت مع المعاون فوزى في نفس اليوم ومعى عريضة باللغة الانكليزية لكي اقدمها للموظفة المسؤولة . والمعاون فوزى اخبرها ان دكتورة عراقية تحتاج الى سيارة .

كانت الموظفة سيدة ارمنية عراقية تشتغل مع الكرنل (بليس) البريطانى وهو الموظف المسؤل عن هذه المبيعات . وكان الناس يسمونه (كرنل إبليس)..! و يتقولون عليه :

ـ اذا اسمه (ابليس) فكيف يساعد الناس؟

كانت السيدة الارمنية تتكلم اللغة التركية مع المعاون فوزى وهى تعرفه شخصياً في العمل .

قدمت الطلب للموظفة ، فقالت للمعاون فوزى باللغة التركية التى افهمها :

- هذه الفتاة ، اهى دكتورة حقاً! . . تبدو كطالبة في المدرسة!

وكان السبب هو ملابسى (السبورت) البسيطة وعدم استعمالى اية مساحيق على الوجه! . .اجبتها :

ـ انا دكتورة منذ اكثر من سنة كاملة! . .

ابتسمت السيدة ببساطة ووقعت على ورقتى امامها وقالت باللغة التركية :

ـ مبروك! . . اذهبي واستلمى السيارة الآن .

لم اصدق كلامها لصعوبة الحصول على السيارة في ذلك الوقت! . .

ابهذه السهولة ، وبدقائق قليلة اصبحت املك شهادة الحصول على السيارة! . .

استلمت السيارة رأساً من الكراج ، ومعى (المعاون فوزى) واخذناها الى البيت .

كانت سيارة (اوستن) صغيرة ذات سقف (تنتة) متحرك تكفى لاستعمال اربعة اشخاص اثنين في الصدر واثنين في الوراء ولونها عسكرى (خاكي) اصفر مبقع بالبنى كالوان ملابس الجنود .

اخذها زوجى ، وهو من عشاق السيارات لتبديل لونها العسكرى ، والوان مقاعدها . عادت الينا السيارة بعد ايام قليلة بلون رمادى فاتح جميل ومقاعد زرقاء وسقف متحرك ازرق اللون ، واصبحت سيارة سبورت تبدو جديدة يصعب الحصول

عليها في بغداد ! . .

كانت هذه اول سيارة اشتريتها بأسمى! . . . وهكذا انتهينا من التاكسيات والباصات! . .

في اجتماعاتنا بين الاصدقاء كنا نتبع ما يدور في البلد من الاحداث السياسية باهتمام شديد ونتناقش فيما بيننا . كان الحديث يدور بين الرجال عادة وانا اشترك معهم أيضاً ومعظم الزوجات العراقيات كن يشتركن بصورة قليلة في الاحاديث السياسية ، وكان الجو بيننا هو جو صداقة ومعرفة واحترام ، ولا اذكر ان أحداً استاء او نفر من هذه الاجتماعات ولا مرة واحدة!! . . .

كنا لانزال نفكر بما يجرى في البلد لكن جميع الشبان كانوا ضد الحكومة مهما عملت او ساعدت .

اتذكر بعض الشخصيات التي اثارت اهتمامنا .

الدكتور (سامى شوكت) وهو من الوزراء في السابق ، وقد كان من مؤسس حركة (الفتوة) في مدارس العراق من قبل الحرب العالمية الثانية والفتوة تشبه النظام النازى للشباب الهتلرى في المانيا ، واتخذ الدكتور سامى شوكت لنفسه لقب (حامى الفتوة) في العراق ، عندما كان في وزارة المعارف برتبة مدير عام ثم وزير للمعارف . استمرت حركة الفتوة في مدارس البنين لعدة سنوات ، ثم اوقفت بعد انتهاء حركة (رشيد عالى الكيلانى) في سنة , ١٩٤١

بعد الحرب ، اقدم سامى شوكت على تأليف حزب بأسم (البعث القومى) وتصدر معه صحيفة يومية بنفس الاسم . أخذ يقيم حفلات اسبوعية مع حزبه المتكون من صغار الشباب . كنا نقرأ صحيفته ونضحك من فقر المواد في تلك المقالات ، وكأنها مقالات في مدرسة ثانوية .

ولكن السيد (كامل الجادرجى) ، رئيس الحزب الوطنى الديمقراطى ، بدأ يرد على سامي شوكت بمقالات يومية في جريدة (صوت الاهالى) ، ويطلق على الدكتور سامي اسم (موزلي العراق)! . . وموزلى كان رئيس الحزب الفاشستى البريطانى قبل الحرب الثانية ثم حكم عليه بالسجن اثناء الحرب ، وانفض حزبه .

بدأ كامل الجارجى يشبه سامى شوكت بالبريطانى الفاشل (موزلى) ، ثم

جمع الجادرجى هذه المقالات على هيئة كتاب سماه (بعث النازية في العراق) .

و قد أدى ذلك الى انسحاب الدكتور سامى شوكت من السياسة الى النهاية! . .

وفي سنة ١٩٤٥ شكل السيد (توفيق السويدى) وزارته الثانية ، وكان استقبال الناس لهذه الوزارة جيداً ومتفائلاً . لقد رفع السيد السويدي القيود عن الصحافة ، واطلق المعتقلين السياسيين من معتقلات الفاو والعمارة ، وأمر باغلاق تلك المعتقلات ، ثم منح الشعب الفرصة لعمل الاحزاب السياسية .

تحمس الناس جداً لفتح الاحزاب واصبحت مادة لاحاديثنا رغم ان زوجى لايتمكن من دخول الاحزاب لانه موظف في الدولة ، واما من ناحيتي انا ، النساء لايدخلن الاحزاب السياسية! . .

كنت اتعجب من منع النساء من دخول الاحزاب المختلفة وعندنا يسمح للفراشين والخدم وغيرهم من الاميين دخول الاحزاب والانتخابات ، بينما لاتستطيع ذلك النساء المثقفات من الطبيبات والمعلمات وغيرهن .

بدأت الاحزاب بالظهور وكان عددها خمسة احزاب . التيارات السياسية كانت مختلفة جداً منها المتعصب للامجاد الغابرة والقومية العربية ، ومنها حركات تجنح الى اليسار وتدعو لاصلاحات اجتماعية اكثر من اهتمامها بالعواطف والمشاعر العربية . وهناك حركات يسارية صرفة تختلف باختلاف رؤسائها وتتجه الى الشيوعية والاتحاد السوفييتى .

كان زوجى وانا نحترم (الحزب الوطنى الديمقراطى) ورئيسه السيد (كامل الجادرجى) . والجادرجى رجل مثقف وعنيد ومعروف بين الشعب ، ولكن ينقصه التأثير على الاخرين . وقد استوزر مرة واحدة فقط مع (حكمت سليمان) اثر الانقلاب العسكرى في حركة بكر صدقى سنة ١٩٣٦ ،ثم استقال بعد شهور قليلة .

كنت قد رأيت السيد (كامل الجادرجى) مرة واحدة من قبل ،

ويشتغل مع الجادرجى في هذا الحزب شخصان لهما مركز محترم بين الناس وهما السيد (حسين جميل) والسيد (محمد حديد) . كذلك كان معهم في

الحزب المحامى (خدورى خدورى) وانا اعرفه وزوجته الدكتورة (روز خدورى) وهى مديرة لاحد المدارس المتوسطة ، وهى يسارية في تفكيرها ، والمحامي (قاسم حسن) هو من اصدقاء زوجى ومتزوج من دكتورة ايرانية اسمها الدكتورة (زليخا الاسدى) وكنت اراهما كثيراً وكانت الدكتورة (زليخا) يسارية تماماً ، وقليلة الكلام معنا لصعوبة كلامها فى اللغة العربية بينما كان زوجها ذرب اللسان مرح الحديث .

وكنا نعرف المحامى (حسين جميل) وزوجته السيدة (ثمينة توفيق) وهى ربة بيت . وقد تخرجت من دار المعلمات الابتدائية في بغداد وقضت سنة واحدة في الثانوية الامريكية في بيروت . واختها السيدة (بدور توفيق) زوجة المحامى (ناظم حميد) وهو عضو مهم في الحزب . والسيدة (بدور) مثل اختها (ثمينة) تماماً وقد تخرجتا من نفس الصف في دار المعلمات الابتدائية وقضتا سنة واحدة في الثانوية الامريكية في بيروت .

السيد (محمد حديد) . وهو من خريجى (المدرسةالاقتصادية في جامعة لندن) . لم اعرفه شخصياً ولكنى اعرف زوجته قليلاً حيث رأيتها في بعض (القبولات النسائية) في بيوت بعض الاقارب .

لم يكن أيّ من النساء في الحزب في ذلك الوقت ، ولكن الزوجات اللواتي اعرفهن كن في جانب ازواجهن دائماً ، وكن على جانب كبير من طلاقة اللسان والجدل العنيد .

تشكل حزب يسارى آخر بأسم (الاتحاد الوطنى) ويرأسه السيد (عبد الفتاح ابراهيم) وكان من خريجى الجامعة الامريكية في بيروت ثم درس في امريكا أيضاً . وكان يملك مطبعة في بغداد ، وزوجته السيدة (عفيفة رؤف) ، وقد علمتنى اللغة العربية في الابتدائية ، وقد كانت احدى اعضاء المؤتمر النسائى الاول الذى انعقد في القاهرة في السنة الماضية . يشتغل مع عبد الفتاح ابراهيم المحامي (ناظم الزهاوى) .

الحزب اليسارى الثالث كان برأسة السيد (عزيز شريف) الذى لم اره ابداً .

حزب (الاستقلال) ويرأسه السيد (مهدى كبة) مع السيد (فائق السامرائى) والسيد (صديق شنشل) . ولهم جريدة (لواء الاستقلال) . وهم من القوميين الذين

آزروا حركة (رشيد عالى الكيلانى) ودخلوا الى معتقلات (الفاو والعمارة) بعد انتهاء حركة الكيلانى بالفشل .

وحزب (الاحرار) هو حزب السيد (توفيق السويدى) و(عبد القادر باش اعيان) و(سعد صالح) و(كامل الخضيرى)وجريدتهم اسمها (صوت الاحرار) . وهى تمثل المبدأ الحر في السياسة والاقتصاد . ولم يعش هذا الحزب بعد استقالة توفيق السويدى الا قليلاً .

وكنت اعرف السيد (توفيق السويدى) لاتصالاته مع بعض افراد العائلة واحترم علمه الكبير بين افراد جيله من السياسيين .

لم نكن نقرأ الا صحيفة (صوت الاهالى) . كانت معلوماتى عن الاحزاب قليلة واسمع اخبارهم من الاصدقاء .

تعرفت كذلك على السيد (ذوالنون ايوب) بواسطة زوجته السيدة (نعيمة نديم العبيدى) ، وهى صديقة قديمة في العائلة ، ولم اعلم ان السيد ذوالنون هو حزبى كبير ، كنت اظنه كاتباً يسارياً يكتب منذ زمن في الجرائد والمجلات العراقية . ولم تعجبنى كتبه ومقالاته لا من الناحية الادبية ولا مواضيعها .

زوجته (نعيمه) تكتب رسائلها البسيطة الرقيقة بصورة تتفوق على زوجها (الكاتب) بكثير .

كان ذوالنون ايوب رجلاً طويل القامه يميل الى السمنة ابيض الوجه مثل الكثير من اهل الموصل اصلع الشعر قليل الكلام جداً ، وكنت اتصور ان الكتاب يكثرون الكلام او يقدمون بعض الاراء الجديدة اثناء الحديث ، ولكن في المرات القليلة التى رأيت فيها (ذو النون) لم اسمع منه عن أي موضوع او أي فكرة غريبة كانت او اعتيادية .

كان ذوالنون متزوجاً امرأتين في وقت واحد والزوجتان أنجبتا اولاداً في اوقات متقاربه في نفس السنة . وكان لزوجته (نعيمة) ولدين ، ولاادرى عدد اولاد الزوجة الثانية التى لم ارها .

عمي حسن فهمي

درس في المدرسة المدفعية في استانبول واشترك قي القتال قي جناق قلعة (غاسيبولي) وفلسطين في الحرب العالمية الاولى واشترك في الثورة العربية وقاتل في بادية الشام .

في العهد الملكي كان مدير مدرسة الشرطة ثم مدير الشرطة العام ومتصرف الدليم والحلة والديوانية وبغداد والدليم ثانية وكركوك حيث ادركته الوفاة .

وهو اقرب اقاربائي الى نفسي من الرجال والنساء في العائلة منذ الطفولة .

كان الوحيد الذى يضاحكنا ويلاعبنا وخاصة انا لأنني كنت الاكبر بين اطفال العائلة .

وقد دعانا انا ولمعان اختي الى (كربلاء) عندما كنت في سن العاشرة وقد بقينا لمدة اسبوع هناك ، وكان هو مديراً للشرطة في لواء كربلاء ذلك الحين وله ولدان صغيران فقط .

اذكره وهو متصرف في لواء الدليم ، ولم ازره في الوية الحلة والديوانية ولا في كركوك .

انجب ستة اطفال خمسة اولاد وبنتاً واحدة .

طلب عمي من الشاعر الكبير (معروف الرصافى) وهو صديق حميم له ، عند ولادةالبنت الوحيدة بعد خمسة اولاد ان يسمى البنت اسماً جميلاً وغريباً فسماها الرصافى (ميادة) . ولم نكن سمعنا بهذا الاسم من قبل في بغداد . سألت عمي عن ما يعنى به اسم (ميادة) ، وقد اضحكنا ماقال له الرصافى في المعنى :

- يعنى انها تمشى وتتبختر! .

وذكر له الرصافى الابيات من قبل (ابو العلاء المعري) :

ابكتْ تلكم الحمامة ، ام غنتْ على فرع غصنها الميّادِ

ويبدو ان الناس اعجبوا بهذا الاسم ، وفى نفس الشهر سميت بالاسم نفسه طفلتان من المولودات قرب بيت عمي وبعد ذلك انتشر الاسم في بغداد انتشاراً كبيراً .

بدأ عمي يتعلم اللغة الانكليزية مع معلم لبناني ، واخذ يختلط برجال من الانكليز بصورة اجتماعية ، خاصة من كانت له علاقة بالآثار او بالتاريخ . واخذ يدعوهم الى بيته ويدعونه الى بيوتهم واصبح يحسن اللغة كثيراً . اخذ يعجب بالانكليز وعاداتهم وهدوئهم وطريقة معيشتهم .

اخبرني بأنه في الحرب العالمية الاولى ، وكنا نحن مع الاتراك صفاً وأحداً فلم تجد البلاد منهم سوى المجاعات والقحط ، ثم دخل الانكليز العراق واذا البلد تضج بالعمل والمشاريع والاموال . وقال ان الانكليز لم يعتدوا على مساجدنا او بيوتنا او لغتنا في تلك الحرب . والان اشاركهم في حبهم للحرية وانا ضد هتلر والنازى على طول الخط! . . .

قال انه تعلم منهم معنى كلمة الحرية ، واشاد باخلاقهم المدنية المهذبة وبارك في سفور المرأة عندهم وتحررها ، وكان الجيش البريطاني الآن يحوى الاف النساء المجندات ، وقد كانت النساء المجندات يثرن في عمى الدهشة والاعجاب! . .

حدثني عن اشتراكه في معركة (جناق قلعة) كما يسميها العثمانيون ، والتي يسميها البريطانيون معركة (غاليبولي) ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، عندما كان عمي في سن العشرين فقط او دونها بقليل . هاجمت البحرية البريطانية الشواطئ التركية في منطقة (غاليبولي) قرب العاصمة استامبول لاحتلال ذلك الساحل لكي يدخلوا الارا ضي التركية .

الخطة كانت من قبل وزير البحرية البريطانية (ونستون تشرشل) ، اذ كان يظن ان البحرية البريطانية بمفردها كانت كافية للقضاء على جيش (الرجل المريض أي الدولة العثمانية)! . . . ولكن العثمانيين حاربوا ببسالة وبشدة ولمدة طويلة جعلت تشرشل يطلب ارسال افواج من الجيش البرى الى المنطقة لمساعدة البحرية التي ظلت في مكانها دون تقدم . وصلت فرق كبيرة من الجيش ، اكثرها من جنود استراليا ونيو زيلندة ، وكان لهؤلاء الجنود اسماً مركباً من استراليا-نيوزيلندة اسمه (انزاك) . وقد اسماهم العثمانيون (انجغ) وهي كلمة تعني في اللغة التركية (تقريباً) وكان الجنود والناس وفي الجرائد التركية تسميهم بازدراء كبير : (انهم يحاربون تقريباً)! . . .

الدولة العثمانية تعجلت بتخريج الطلاب من الكلية الحربية ضباطاً بسبب الحرب ، وعُين عمى ضابطاً في الجيش تحت قيادة (مصطفى كمال باشا) في منطقة (جناق قلعة) . واستمرت الحرب فترة طويلة حارب فيها الجبش العثمانى رجال البحرية البريطانية ومعهم الجنود الكثيرة العدد .

خسر الانكليز في هذه المعركة الكبيرة خسارة كبرى ، وانسحبوا الى بلادهم ، ولم يتمكنوا من الدخول الى بلاد الاناضول! . . .

على اثر ذلك استقال (تشرتشل) من الوزارة واختفى سياسياً لمدة ربع قرن .

اثناء نشوب الحرب العالمية التانية ، اصبح (تشرشل) وزيراً للبحرية ، مع رئيس الوزراء المستر (تشامبرلين) ، ثم ترأس الوزارة بعد استقالة تشامبرلين ، وادار الحرب كلها ضد قوى المحور .

اما في للامبراطورية العثمانية فقد ارتفع اسم (مصطفى كمال) في جميع ارجاء البلاد واصبح البطل الغازي ، وقاهر الانكليز! . .

والى الآن عندنا في بغداد ، لايزال الناس يصفون معركة (جناق قلعة) وكأنها رمز للنجاح والمجد! . . وينعتون من يدعى انه قام بعمل شيء كبير :

ـ مالذى فعله؟ هل فتح جناق فلعة؟

كان عمى (حسن) ضابطاً صغيراً في معركة (جناق قلعة) المشهورة! . . واشتغل مع (مصطفى كمال) البطل العثمانى المنتصر! . .

بعد سنوات الحرب الاولى خلع مصطفى كمال اسم ـ مصطفى ـ ولقب نفسه كمال اتا تورك! . .

وصف لي عمى الاكل القليل الذى يصيبهم في معركة (جناق قلعة) ، ويقول انه كان يضع الصمون العسكرى (القلاطة) الجافة في الماء لكي يتمكن من ازدرادها ، وكان هذا هو طعامهم الوحيد . لم يكن لديهم أي اكل آخر! . . . واخبرنى انهم عندما يأسرون جندياً انكليزياً كان اول عمل لهم ان يفتشوا عن حقيبة طعامه الذى يحوى على الشاي والسكر والبسكويت والشكولاطة وعلب الساردين او اللحوم مع اشياء اخرى من الاكل في تلك الحقيبته كنا لانراه الامع الضيوف! . .

الجندى العثمانى جائع ، والجندى البريطانى يحمل مختلف المآكل في حقيبته! . .

بعد بضع سنوات ، وكان عمى قد توفى ، رأيت كتاباً عن معركة (غاليبولى) تأليف الكاتب البريطانى المشهور (آلان مور) ، عن معركة الدردنيل وكان (مور) يحارب بجانب جيش (الانزاك) البريطانى .

المهم اننى قرأت وصفه عن الحياة في معركة (غاليبولى) ويصف (مور) الاكل الذى كانوا يأكلونه اثناء القتال ، وتذكرت عمى والجنود المسلمين الذين حاربوا وهم نصف جياع هناك ، واسمعوا ما يقول(مور) في كتابه :

كان الاكل جافاً ، مملاً ، متشابهاً! . . أي ازعاج ان نأكل نفس البسكويت والساردين واللحم من العلب ، والشوكولاتة ، كل يوم من دون أي تغيير! . . كنا نتعطش الى خضروات طرية خضراء والى الفاكهة الطازجة واللحم الجديد! . .

عمى كان يحكى قصصه بصوته الخافت اللطيف ، ويرفدها بالفكاهات المسلية بصورة اخاذة جداً وكنت اود ان لاينتهى من كلامه .

كان عمى طويل القامة ، ضخماً يميل الى البدانة وشعره اسود يميل الى الصلع ، ولكن في صوره في شبابه الاول يبدو انه كان ضابطاً رشيقاً وسيماً . وكان يحمل في جسمه ندبتين كبيرتين الاولى اصابته في (جناق قلعة) في ظهره ، والثانية في اسفل البطن اصابته عندما شارك مع الثوار العرب في جانب الشريف حسين بن على ضد الاتراك .

وكان يناقشنى في قضية الاشتراكية التى شاعت بين الشباب . وكانت طريقته في الكلام مسلية جداً ، لانه يمزج الكلام الجاد باشياء هزلية دون ان يضحك هو . اذكر من اقواله :

- ماهى المساواة الاجتماعية . نعم امام الله كلنا سواء وجميع الناس يحتاجون الى الطعام والسكن . هذا صحيح ولكننا لسنا متساوين مع البشر الاخرين ، لاعقلياً ولاجسدياً ، واننا لانضع الجهود والمسؤلية بصورة متساوية فكيف يتساوى البشر في المركز والمال؟ بعض الناس لديهم الذكاء وهو ما يدعوهم للاثراء والنجاح . انهم لايرضون بالنصيب والقسمة التى يملكونها . انهم يريدون الافضل

والاحسن! . . .انه الطمع الذى يدفع الناس الى امتلاك الكثير . نعم الطمع والمنافسة وهى ضرورية للتقدم بين الناس . سيكون عالمنا كئيباً اذا تساوينا في كل شيء . يجب ان يكون لدينا اهداف اخرى تدفعنا الى العمل . ان العمل هو امتع من أي متعة اخرى! . .

كان عمى يدعونا الى بيته في الرمادى ، زوجى احسان وانا واختى لمعان ، لكي نقضى عطلة نهاية الاسبوع . أحياناً يدعو اخاه (محمد صالح) وعائلته ، ويدعو جماعة من مختلف المغنين . منهم من الجنوب (حضيرى ابو عزيز) وجماعته ، او جماعة (الكاولية) أي الغجر . وأحياناً يدعو جماعة (جالغى بغداد) باعداد قليلة لانه يكره الازدحام في هذه الجلسات . واذكر اول مرة رأينا(عفيفة اسكندر) و(سليمة باشا) في بيته . لان وجود جالغى في بيتنا نحن مع والدي ، هو شيء لايخطر على بال احد! . .

لم بكن عمي يدعو والدي الى هذه الدعوات لان والدي لايستسيغ هذه الاغانى ولا هذه الاجتماعات ، وكذلك لان عمي ينظر الى والدي وكأنه ابوه الذى مات عندما كان عمر عمى خمس سنوات .

في احد الايام دعا عمى آمر القوة الجوية البريطانية من (الحبانية) ومعه السكرتيرات المجندات وبعض من الضباط العسكريين والملحق البريطانى في الرمادى ، الى حفلة عشاء في الحديقة . وبعد العشاء غنى بعض المغنين العراقيين اغانى متفرقة في ليلة مقمرة والهواء العليل يهب آتياً من فوق مياه الحبانية ونهر الفرات .

اعجبنى وجود الفتيات الضابطات بدرجات لفتننات وكابتن وميجر (أي الملازمة والرئيسة والمقدمة) وهن يلبسن الزى العسكرى للطيران بلونه الرمادى وعلاماته الفارقة . وكن على درجة من الفخر والكبرياء بمراكزهن في القوة الجوية! . .وكنت اتكلم اللغة الانكليزية معهن بدرجة (مفهومة) .

وفى احدى المرات ذهبنا الى بيت عمى في الرمادى لكي نلبى دعوة آمر القوة الجوية على حفلة غداء في بيته في الحبانية . دعونا زوجى وانا واختى لمعان ، وعدد من الانكليز المدنيين وزوجاتهم .

ذهبنا الى الرمادى ، الى بيت عمى ومن هناك الى الحبانية لزيارة البيت الكبير حيث يسكن قائد القوة الجوية وزوجته . وتعجبت من البناء الشامخ والقبة الكبيرة المشيدة فوقه .

قصر شاسع في منتصف الصحراء! . . .

كان البهو الداخلى الكبير والقبة تعلوه كأنه مدخل كبير لفندق ضخم ومفروش بمقاعد وارائك قليلة بالنسبة لحجمه وبينها مزهريات كبيرة . .

بعد ان جلسنا قليلاً اخذتنا احدى المجندات وهى برتبة كابتن وارتنا الافسام المختلفة من القصر الصحراوى الكبير .

كان القصر مفروشاً بفرش بريطانى تام في كل الحجرات مع ستائر جميلة على الشبابيك . الغرفة الكبرى تحوي على بيانو ، وعلى الجدران رسوم زيتية معلقة عن مناظر مختلفة من بريطانية .

الطعام كان جيداً رغم كونه انكليزياً ، يبدو ان الطباخ كان هندياً! .

واثناء خروجنا رأيت الشوارع اللطيفة والاشجار الجديدة التي تظهر مقدار اهتمام الانكليز باماكن معيشتهم ، وذوقهم في بناء الحدائق والاشجار والبيوت .

لقد تركوا معسكر (الهنيدى) او معسكر (الرشيد) في جنوب بغداد باجمل حال . والان اصبحت مدينة الحبانية الصغيرة الجديدة تلمع وتبرق في بادية الصحراء وكأنها جوهرة نادرة .

كان عمي مصاباً بداء السكر وقد تعالج عند الاستاذ ستيسي من قبل والان بدأ الاستاذ ستيسي يعالج (عمتى) المصابة بداء السكر أيضاً وكنت ازرقها بمادة (الانسولين) يومياً . وفى احد الايام كان والدي موجوداً هناك وقد عرفته على الاستاذ الانكليزى . سأل والدي الاستاذ ستيسي عن عملي في المستشفي وهو يبتسم . اجابه الاستاذ انني اعمل بصورة جيداً جداً ، بالطريقة الانكليزية المختصرة .

واذا بوالدي ينظر الي ويقول :

فسِّرى له مااقول ، وقال باللغة التركية (نقشنه مدح ايتمك ، نقاشه عائد عائدون .) أي : ان انت اثنيت على الصورة ، فالثناء يعود الى المصور نفسه! . .

ضحك الاستاذ كثيراً من هذا المديح المعقد ، وقد بقى يعيده علي امام زوجته واصدقائه لسنوات عديدة كلما كنت اذهب الى لندن لحضور المؤتمرات .

كان (عمى حسن) من القلائل الذى يختلطون بالانكليز ويدعوهم الى داره وهم يدعونه الى بيوتهم ويتناقش معهم في امور عديدة بعيدة عن السياسة ، كالتاريخ والآثار القديمة والرسم واشعار العرب والانكليز وكان عمي ذواقة في الشعر .

واذكر ايام كان متصرفاً للواء بغداد ، كان يقيم دعوات عشاء لقسم من اصحابه ممن يحسن اللغة الانكليزية ويدعو بعض الجماعات الانكليز وزوجاتهم ،

وكانت زوجته (ام قحطان) تحضر هذه الحفلات رغم ان معرفتها باللغة الانكليزية كانت محدودة جداً ولكنها كانت تسطع في هذه الحفلات بجمالها وحسن تصرفها واناقتها .

اتذكر خاصة المستر (سيتون لويد وزوجته) وقد كان هو المستشار في مديرية الاثار العراقية منذ ستة ١٩٣٩ . كان يتكلم مع عمى عن مختلف الاثار في مناطق عدة كانوا يشتغلون عليها . وكانت زوجة سيتون لويد (السيدة هايدي) الشابة ، تهتم بالاثار وترسم الكثير منها على لوحات زيتية صغيرة تحتفظ بها . وكان تربى حيواناً صغيراً من (النمس) ونسميه في بغداد (جريدى النخل) وتعامله كالكلب الصغير ، يلبس سلسلة معدنية حول عنقه وفى الطرف الاخر تمسك بنهاية السلسلة المسز لويد وتأخذ هذا الحيوان معها اينما تذهب .

وعندما ولدت مسز لويد ولدها في المستشفى الملكى في بغداد اخبرتها ان تحذر من الحيوان ولاتدعه يقترب من الطفل لان بعض الحيوانات تكون شديدة الغيرة من الاطفال .

قال (سيتون لويد) ان (ساطع الحصرى) اثناء اشتغاله في مديرية الاثار كان يهمل الآثار القديمة السومرية والبابلية ويهتم بالاثار الاسلامية ، وان الاهتمام يجب ان يكون متساوياً . وسألنى :

- الا تفخرين بأن اصولك في العراق تمتد الى اوائل التاريخ الانسانى المعروف؟

اجبته :

- ان التاريخ القديم حول الاثار السومرية والبابلية والاشورية تجعلنا نفرح بحضارتنا وقدمها السحيق في التاريخ ، ولكن الاثار الاسلامية هي جزء منا الى هذه اللحظة . انها ليست اثار ، انها هي مانعيشه اليوم! . . .

- كان عمى يدعو الى بيته (ستيوارت بيرون) ومعه السيدة التى تزوجها بعد ذلك وهى المستكشفة المشهورة (فريا ستارك) التى سافرت الى معظم الاقطار العربية وكتبت عنها الكثير .

كانت فريا ستارك سيدة في منتصف العمر لها شعر اسود حالك السواد اظنه كان مصبوغاً ، وبشرة بيضاء ناصعة وكانت تلقى معظم شعرها على جانب واحد من وجهها بحيث يغطى معظم ذلك الجانب واظنه القسم الايسر من وجهها . وكانت تتكلم بثقة واعتداد كبيرين . وكان عمى يحترمها كثيراً لكونها سيدة جريئة لاتخاف وتسافر على ظهور الخيل في الصحراء ، وهى أيضاً كاتبة مشهورة كتبت الكثير عن بلاد العرب .

واذكر بأنني تجادلت مع (فريا ستارك) في احدى الاماسى لانها ذكرت اللباس الاوروبى الذى يلبسه جماعة المتعلمين في البلاد العربية ، وقالت باسى :

- بعد فترة ليست طويلة سوف يلبس الناس نفس اللباس في جميع اقطار العالم وتختفى الفروق ، ويصبح العالم متجانساً بدرجة فظيعة . كم اكره التجانس! . . وانتم ايها الشباب الاتريدون ان تنظروا الى عالم مختلف حافلٍ بمناظر محلية شرقية هنا وغريبة هناك في العالم البعيد وتحتفظ الشعوب بتنوع الحضارات واختلافها؟

لاادرى لم غضبت من قولها . اجبتها :

- الانك تودين رؤية عالم مملوء بالوان شتى غريبة تبهجك وتثير اهتمامك لاتريدين ان نرتقى ونتقدم ونلبس كما يلبس المتحظرون . اتريدين ان نكون معرضاً للازياء يقف امامه الناس للتفرج! . . .ان آباءنا واجدادنا لبسوا الزى الاوروبى الشائع بين العالم المتمدن ، ولم يفكروا بأن هذا اللباس يدل على بلاد الشخص او إنتمائه للعرب او للكرد او الترك او العجم . المهم هو التفكير وليس

اللباس الخارجى . يجب ان نظهر كما يظهر الناس جميعاً! . .

(هكذا كانت افكارنا نحن الشباب! . . وانا ، كم كنت اكره القديم كله! . . وكأن الاشياء القديمه مومياء محنطه منذ قرون تكاد تسمم الانوف لقدمها ونتانتها . وكنت ارى آنذاك ان ننبذ كل القديم ونتحضرتماماً! .) .

كما قال الرصافي في شعره :

فوجهْ وجَهَ عزمك نحو آتٍ   ولا تلفتْ الى الماضين جيدا

لم يعجب كلامى هذا (فريا ستارك) ، لانها غيرت الموضوع بسرعة .

بعد سنوات طويلة بدأت اشعر درجة اهتمامها ومحافظتها على التاريخ الاقليمى لكل مناطق العالم ، وادركت ان ذلك من الامور الحسنة .

تعرفت على (ستيوارت بيرون) واعجبت بمعرفته اللغة العربية ، وكان يشتغل مع الجيش البريطانى ، ويعرف الكثير من الاسر العراقية . كان يتكلم اللغة العربية الفصحى بسهولة ويسر . ويلبس أحياناً الملابس العربية (دشداشة وعباءة خفيفة وعقال اسود وكوفية بيضاء) .

وقال انه يمتطى الحصان ويلبس الملابس العربية ويسير نحو مضارب العرب خارج بغداد . ويقول انهم يعرفونه كعربى منهم! . . .

انا اشك في ذلك لان صوته كان صوتاً انكليزياً واضحاً رغم كلامه العربى الصحيح ، يبدو ان العرب في الاكواخ كانوا يجاملونه بادعائهم انه عربي مثلهم .

كنت اعجب من احاديث المستر (بيرون) كلما كنت القاه ، لانه حديثه ممتع يجلب اسماع الحضور . كان يحب العرب ويشيد بلغتهم وتاريخهم واشعارهم في صوت مهذب جميل ، بينما لم استسغ اقوال (فريا ستارك) ، التي كنت اظن ان لهجتها كانت عدوانية تقريباً .

كان من اصدقائنا المستر (كريستوفر سكيف) مستشار وزارة المعارف ، وقد كان اديباً في اللغة الانكليزية ، ويحب مصر بصورة خاصة لانه عاش فيها سنوات يدرس الادب الانكليزى . كان يدعونا الى بيته مع الكثير من شباب الاساتذة الشبان الذين درسوا في بلاد الغرب .

بدأ لدي شعور ان الشباب الانكليزى اذا فهم ما تريده الشعوب يمكن ان يؤثر

على ما يجرى في بلاده وهي البلاد الديمقراطية القوية المنتصرة في الحرب .

فازت الامبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الثانية ولم اجد شيء يمكن ان يهددها في العالم كله . كانت تملك ربع الكرة الارضية ولن يقف في وجهها شيئاً بعد الآن! . . .انها امبراطورية راسخة وشاسعة وقوية جداً . ما حيلتنا نحن الامم الصغيرة امامها! . لن يبقى شيئاً سوى جعل شباب الانكليز ان يفهمون شعور البلدان الصغيرة ويعرفوا الاشتراكية والمساواة ويحكمون بالعدل والقسطاس ، يجب عليهم ان يفهموا تأثيرات الشعوب الصغيرة الاخرى في العالم ، وهكذا يصبح العالم محلاً متحضراً جديراً بالتمدن والرقى .

كان الكثير من الشبان الانكليز الضباط من خريجى جامعات اكسفورد وكمبردج وغيرها من الجامعات وكانوا من اثقف الشباب في البلاد الشرقية ، واهتمامهم بالامور السياسية شامل وواسع .

وانا لسذاجتى وقلة معلوماتى عن السياسة العامة في العالم الغربي كنت اظن ان الشباب العراقى المثقف يمكنه ان يؤثر على الشباب البريطانى بالكلام والمناقشة . كنت اتصور انهم سوف يسمعون آرائنا ويتأثرون بها وسيشرحون الامور للسياسيين في البرلمان في بلادهم . وكنت وزوجى واصدقاؤنا العراقيين نتمادى في الحديث والجدال معهم .

وكان عمى (حسن فهمى) يستمع الى جدالنا ومناقشتنا مع الانكليز . وكان يقول بصوته الهادى العميق وبطريقته الباسمة النصف هازله لنا :

- اتظنون ان الامبراطوريه تتبدل بحديثكم؟

- عندما سمعنا بإن حزب العمال البريطانى تغلب على حزب المحافظين في اول انتخابات البرلمان بعد الحرب ، شعرت ان العالم يسير الى الامام بسرعة واننا دخلنا في (عالم الغد! . .) وانه لكلامنا وانتقاداتنا مع الانكليز سوف يكون له الاهمية عندهم .

اذكر ان احد المسيحيين قال بفرح :

ـ الآن استطيع ان اتزوج الفتاة المسلمة التى اعرفها كما اريد! . . .لقد تبدل العالم الذى نعرف وتساوى الكل! . .انه عالم الغد! . . .

كنا نفكر في السياسة والمساواة في العالم ، وبعض الناس تفكر بما تريد حول الدين والزواج! . . .

ارسل لي عمى (حسن) جريدة (صوت الاهالى) بالبريد وهى تقول (لقد حكمت بريطانيا حكومة عمال في السابق! . ولم يحدث شيء غريب ابان حكم العمال السابق للمستعمرات وان رئيس الوزراء في حزب العمال المستر (رمزى مكدونالد) في ذلك الوقت اتخذ لنفسه بعد فترة قصيرة لقب (لورد) وانتقل من المجلس النيابى واصبح عضواً في مجلس اللوردات! . . .) .

لم يكتب عمى على الجريدة سوى خطوط حمراء على المقال وارسله الى بواسطة البريد من مدينة الرمادى فقط لكي ارى ان حكومة العمال الجديدة برآسة المستر (آتلي) ستكون كالحكومة العمالية السابقة .

فرحت لاهتمام عمى برأيى ، ولو كان ضد رأيه . وعندما رأيته قلت له بحماسة :

- العالم سائر الى الامام والامبراطورية البريطانية غيرتها الحرب واصبحت تدعو الى العدالة والمساواة كما يفعل الاتحاد السوفييتى! . . لكن بريطانيا اقدم من الجميع بديمقراطيتها القديمة التى تمتد الى القرن الرابع عشر منذ عهد (الماغنا كارنا) .

كنا في العراق في ذلك الوقت نتصور وجود ديموقراطية في الاتحاد السوفييتى الديكتاتورى تحت نظام ستالين الرهيب! . .

كان كل هذا في سنوات الاربعينات ، وكانت الامبراطورية البريطانية التى تحكم ربع الكرة الارضية . من كان يظن ان هذه الامبراطورية الهائلة ، التى انتصرت في وجه جيوش نابليون والقيصر ولهلم و(هتلر) ، ستزول في نهاية الخمسينات من دون حروب ، وتصبح في خبر كان! . .

عُين عمى (حسن فهمى) متصرفاً للواء كركوك . ولم نذهب لزيارته هناك . وقد اهتم به اقارب والدتى في كركوك ، اذ كانت زوجته الاولى التى توفيت ، اخت أمي التوأم! . . لم نتمكن من زيارته في كركوك ، بسبب وظائفنا واشغالنا . اخبرنى انه سوف يزور لندن لرؤية ولده (قحطان) الذى يدرس في بريطانيا .

في شهر نيسان ١٩٤٥ انعقد في (سان فرانسيسكو) في امريكا مؤتمر تأسيس منظمة (الامم المتحدة) . وقد مثل العراق وفداً يضم ارشد العمرى وزير الخارجية ويصحبه كل من نصرت الفارسى والدكتور محمد فاضل الجمالى والسيد عبد الجبار الجلبى (وهو صديق حميم لنا) .

وقد خول (الجمالى) حق التوقيع على الميثاق . واصبح العراق من الدول الاولى التى اسست ميثاق الامم المتحدة .

وبعد رجوع الوفد الى بغداد ، اقام السيد (آرمين ماير) الملحق الثقافى الامريكى ، حفلة جميلة حضرناها في اوتيل (مود) في شارع الرشيد على نهر دجلة ، ارتدى الرجال ملابس السموكنك الصيفية البيضاء ، وملابس السهرة للسيدات . كانت الحفلة كبيرة تضم رجال الحكومة والوزراء السابقين وجالية كبيرة من رجال السلك البلوماسى كافة . وكان الدكتور الجمالى هو نجم تلك الحفلة التاريخية . .وكانت تصحبه السيدة سارة الجمالى زوجته!

استقال السيد توفيق السويدى في صيف ١٩٤٦ وشكل الوزارة السيد (ارشد العمرى) للمرة الاولى . وعين الدكتور محمد فاضل الجمالي وزيراً للخارجية ،وسعيد حقى لوزارة الدفاع وعين صديق زوجى منذ ايام الدراسة في امريكا وهو السيد (بابا على) ابن الشيخ (محمود الحفيد) ، لوزارة الاقتصاد . وكان (بابا على) اصغر الوزراء سناً اذ لم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين . وعين الدكتور (عبد الهادى الباجه جى) لوزارة الشؤن الاجتماعية وهو احد الاساتذة في كلية الطب ، وهو رئيس نصف الردهة الثانية حيث اشتغل انا مع الدكتور (ستيسى) في النصف الاخر . وكنت اراه كل يوم حيث يأتى لزيارة قسمه في الردهة . والدكتور (عبد الهادى) من اشد الناس لطفاً وتواضعاً وتهذيباً . والطلاب يحبونه ويحترموه! . . السيد (ارشد العمرى) رئيس الوزراء الجديد كان أميناً للعاصمة بغداد لمدة طويلة منذ ايام طفولتى . وقد ابرز نشاطاً كبيراً في تخطط المدينة وانشاء الحدائق والميادين بالرغم من قلة الموارد وضآلة الميزانية .

وكنت على صلة وثيقة مع ابنتى ارشد العمرى السيدة (سعاد) زوجة السيد (ممتاز العمرى) والسيدة (سوزى) وزوجها السيد (زيور نشأت) .

وحدث اثناء تقلد السيد ارشد الحكم ان اضرب عمال النفط في كركوك في شهر حزيران مطالبين بزيادة اجورهم وتحسين احوالهم المعاشية . اجتمع العمال في بستان بضواحي كركوك اسمه (كاور باغى) . امر رئيس الوزراء الشرطة بضربهم بالرصاص وقتل وجرح عدد منهم ، واصبح الاضراب يسمى (مذبحة كاوور باغى) . كان (عمى حسن) المتصرف في لواء كركوك . وكنت غاضبة جداً لما حدث في المعركة والمذبحة في كاوور باغى ! . . سألت عمى عن التفاصيل ، قال ان القضية مبالغ فيها حداً ، ولا يذيعها الا المخربون واعداء البلد! . .

لم اعلم ، أأصدقه هو ، وهو المعروف عنه دائماً برحمته وعدالته ، ام اصدق ماتقول الجرائد اليسارية؟ (احتجت الى سنوات طوال لكي اشعر بما كان يحاك ضد العراق من قبل الاعداء والخونة! . .) .

قامت الوزارة بكبت حرية الصحافة وعطلت بعض الجرائد ومنها جريدة (صوت الاهالى) . واصاب الشباب الجنون والغضب لهذا العمل الديكتاتورى! . .

وقد حضرت حفلة كبرى في حديقة قاعة (الامانة) وكان رئيس الوزراء السيد ارشد العمرى حاضراً .

صافحنى وسأل عنى ، ثم سألته :

- لم عطلتم جريدة (صوت الاهالى)؟

عبس وجهه واجابنى :

- هذا اول سؤال سألونى عنه ابنائى في البيت! . . اليس لديكم حديث آخر؟

هكذا كان اهتمامنا بالحوادث السياسية ، نتحمس لها دون ان ندرى الحقائق الاصلية . مقالة واحدة جريئة في جريدة (صوت الاهالى) كانت كافية ان تقنعنا بما يجرى في البلد! . . .كنا نعتقد انها الجريدة الوحيدة التي نصدق اخبارها! . .وان ما تقوله الحكومة فهو اكاذيب وفساد لايجب ان نصدق كلمة منه! . . كل ما تفعل الحكومة هو خطأ مبين عند جماعات الاشتراكيبن والشيوعيين والقوميين وغيرهم . كنا نظن انهم على حق من دون ان نرى أي اشارة تدل على صدقهم سوى الكلام! . .

كان الكلام الفارغ والقاب التآمر والجاسوسية على اعضاء الحكومة هي البضاعة الوحيدة عند المعارضين! . .

لم نعلم بذلك الا بعد مرور سنوات من العمر ضاعت من ايادينا! . .

سألنى احد اقربائى الكبار سناً ، وقد برم من كلامنا وانتقاداتنا :

ـ الاتظنون ان المعارضين قد يكونون لصوصاً يسرقون اموال الدولة ان تمكنوا منها! . .

كان الجواب له :

- كلا! . . ان اللصوص هم فقط في الحكومة!

هكذا كانت الامور والافكار تسير بسطحية وسذاجة لم يستفد منها الا اعداء البلد . ولم نكن نعلم بوجودهم بيننا! . .

السفر الى لندن

في تلك الايام لم تكن لدينا في العراق جامعة ، كانت عندنا بعض الكليات مثل كلية الحقوق ، ودار المعلمين العالية وكلية الصيدلة وكلية الطب . كانت كلية الطب مرتبطة ادارياً بوزارة الشؤن الالاجتماعية خاصة في الامور المالية .

في سنة ١٩٤٦ كان رئيس الوزراء السيد (ارشد العمرى) ووزير الشؤن الاجتماعية الدكتور (عبد الهادى الباجه جى) ، وهو احد الاساتذة في الكلية ،

سمعنا ان الدكتور الباجه جى كان يكرر دائماً ان الاطباء توقفوا عن السفر الى البلاد الاوروبية والامريكية طيلة فترة الحرب ، وانه سوف يساعدهم في الذهاب الى الخارج للدراسة والاطلاع ، خاصة وان اطباء الجيش البريطانى الذين اشتركوا في امتحانات الطلاب ، ذكروا بأن مستوى الطلاب والاطباء العراقيين على درجة من الكفاءة تخول قبولهم للدراسة والعمل في المستشفيات البريطانية .

كذلك بدأ (المجلس الثقافى البريطانى) بارسال بعض الاطباء الى بريطانيا للدراسة ، وكان ضمن من سافروا على حساب المجلس الثقافى البريطانى الدكتور (كاظم شبر) وهو طبيب جراح ، والدكتور (ابراهيم الحيالى) والدكتور (عبد الجبار

العماري) وهم اطباء في الامراض الداخلية .

بدأت الطلبات الى الدكتور (الباجه جى) من اعداد كبيرة من الاطباء لاجل السفر الى الخارج ومنهم اطباء تخرجوا قبل سنوات عشر او اكثر مثل الاطباء مهدى فوزى ونجيب اليعقوبى واحمد عزت القيسى وسلمان فائق وغيرهم . وقد شجع الوزير الاطباء الاحدث سناً ، ان يواجهوه بأنفسهم لانهم يعرفونه شخصياً لتقديم العرائض للسفر الى الخارج ، واظهر تواضعه الابوى النبيل وخلقه الكريم في استقباله طلابه السابقين .

تحمست للفكرة وشاقنى الذهاب الى لندن او الولايات المتحدة للدراسة ولرؤية عالم الغرب .

كنت اظن ان الفكرة ستجد الاستحسان الكبير من قبل زوجى الذى يحب الحياة الغربية ويتمناها دائماً! . ادهشتنى برودته في الجواب . يبدو ان حياته الزوجية ومكانته كصاحب بيت لاول مرة في حياته ، وعملنا في بغداد ، وحياتنا الاجتماعية اللطيفة مع الاصدقاء والمعارف ، جعلته يعتز بالبقاء في بلدنا وعدم تبديل ذلك . عز عليه ان نغلق بيتنا الجديد ، ونبيع اثاثنا وسيارتنا الصغيرة لكي نذهب ونعيش بين اناس لانعرفهم ونبدأ بالدراسة من جديد! . .

لم اتنازل عن مطلبي والحجت عليه ان نبدأ حياة جديدة لمدة قصيرة لاتتجاوز العامين . تحمس قليلاً وبدأ يسأل الوزير في وزارته ان كان تغيبه عن الوزارة ممكناً .

كان الوزير في وزارة الاقتصاد صديقه القديم السيد (بابا على الشيخ محمود) وقد كانا معاً في الولايات المتحدة ايام الدراسة . لذلك لم تكن هناك مشكلة في سفرنا معاً . يسافر زوجى بإجازة دراسية ، وانا اسافر عن طريق (الايفاد) كالآخرين من الاطباء .

كنت اود ان نذهب الى الولايات المتحدة لمحبة زوجى لتلك البلاد ، ولكن الاستاذ (ستيسى) الذى اشتغل معه كان في لندن في العطلة الصيفية ، ارسل رسالة لي يقول فيها بأنني قبلت في مستشفى (هامرسمث) ، وهو مستشفى كبير ويقوم بتدريس الاطباء المتخرجين الذين يدرسون للحصول على درجة الاختصاص في العلوم الطبية الباطنية والجراحة .

لذلك قر رأينا زوجي وانا ان نذهب الى لندن ، ولم نتصل بالمستشفيات الامريكية .

زوجي لم يزر لندن من قبل ، وكان هذا سبب لاهتمامه بالسفر لزيارتها .

غادرنا بغداد قبل ان يعود الاستاذ (ستيسى) من لندن بيومين ، ولذلك لم اره لكي اسمع منه عن مستشفى (هامرسميث) ولا عن الاستاذ الذي سأشتغل معه .

فرح والدي بسفرنا الى لندن كثيراً ، والدتي اظهرت الاسف لابتعادنا عنها ولكنها دعت لنا بالنجاح والسلامة حيث نقيم . واضافت :

- لم اخترتم لندن بلاد الضباب! . .امريكا اجمل منها كما يقول الناس!

كانت الايام الاخيرة حافلة بالدعوات الكثيرة من مختلف الاقرباء والاصدقاء والكثير من الاجانب الاصدقاء أيضاً . وفى الايام الاخيرة كنا نود ان ننام فقط ، لتعدد الدعوات في النهار وفى الليل .

ثلاث من الدعوات التى لاانساها لحزنى عليها هي دعوة عمتى لنا ، ودعوة عمى (صبيح نجيب) زوج اختى الكبرى ودعوة (عمى حسن) الذى وعدنا انه سيزورنا في لندن ويزور ابنه (قحطان) الذى تخرج من الثانوية ويدرس الهندسة المعمارية في انكلترا .

ثلاث دعوات عائلية لا ازال اذكرها دائماً بأسى واسف لانني لم اشاهد اصحابها بعدها! . .

توفى عمى حسن فهمى بعد اشهر قليلة من سفرنا وكان عمره دون الخمسين عاماً ثم العمة وبعدها العم صبيح نجيب واعمارهم في الخمسينات .

كان خط السفر بالطائرة الى القاهرة حيث نبيت الليلة الاولى وبعدها تطير الطائرة الى جزيرة مالطا حبث نبيت الليلة الثانية ، وفى اليوم الثالث نصل لندن . تعجب الجميع من هذه السرعة الهائلة ، نصل من بغداد الى لندن في ايام ثلاث! .

ونبيت في القاهرة ثم في مالطا! . .

في يوم السفر ، في السادس عشر من شهر ايلول ١٩٤٦ من مطار بغداد القديم وكان يسمى (مطار المثنى) ، حضر جميع افراد العائلة ، الوالدان والاخوة والاخوات

وعمى (محمد صالح) وزوجته واولادهم السبعة ، وعمتى واولادها السبعة أيضاً ، واختى الكبرى واولادها الثلاثة وزوجها ، وبيت خالتي والبنات ، واعداد من الاقارب وصديقاتى ، والكثير من اصدقاء احسان من الدائرة بحيث اننا ملأنا القاعة ومحل الشاي وجلس قسم في الحديقة ، وكأننا في دعوة كبيرة .

ان السفر بواسطة الطائرات كان غريباً ثم غياب سنتين نقضيها بعيداً عن الاهل أثار الحزن في نفوس العائلة والاصدقاء . اخذت انظر الى تلك الوجوه العزيزة وهم رغم حزنهم يبتسمون ويعلقون بالكلام الرقيق ، اثاروا بي الالم والحزن رغم اهتمامى بالسفر وبما سأرى في البلاد الاجنبية .

كان الوداع طويلاً لتقبيل العائلة صغاراً وكباراً ، ثم اتجهنا نحو الطائرة البريطانية في المطار . لم يكن هناك خط جوى عراقى بعد . وكانت الطائرة هي الوحيدة الموجودة في المطار . اظن الطائرة كانت من طراز (داكوتا) وكانت خالية من أي زينة او ترتيبات خاصة ، كانت طائرة بسيطة لنقل الناس . تذكرت الطائرة المائية المسمات (المركب الطائر) اثناء الذهاب الى مصر قبل ثمانية عشر شهراً ، تلك الطائرة الفخمة والتي تحوى اجمل الاثاث واكثرها راحة وكانت خاصة بالضباط الكبار اثناء الحرب . انها اوقفت بعد الحرب لغلاء سعرها! . .

في سن الشباب ، كان كل شيء غريب يثير لدى الدهشة والاهتمام ، حتى بساطة الطائرة اثارت اهتمامى وبقيت انظر الى بساطة المقاعد واللون الخاكى الفاتح الذى يسود الجدران .

الطائرة كانت قادمة من الهند ، وهى تقف في محطات معينة لملئها بالبنزين . وكنا نحن العراقيين الوحيدين في الطائرة ، وكل الاخرين كانوا من الانكليز .

بدأت اشاهد معالم الصحراء في البادية ونهر الفرات الجميل وبيوت الشعر وحاولت ان اتكلم عنها مع زوجى وهو يعرف عن الصحراء كثيراً ، الا انه ارسل ظهر كرسيه الى الوراء واستغرق في نوم هادئ . لم اتركه ينام لأنني ظننت انه سوف يفتقد هذه المناظر الغريبة وحاولت ايقاضه . فتح عينيه وقال :

- هل تريديننى ان انظر الى الصحراء لكي ارى ماذا؟ اترين ان بيوت الشعر

والرمال تحيطها من العلامات اللطيفة المثيرة؟ لقد رأيتها دائماً ، ارجو ان تدعيني انام بعد ايامنا الاخيرة المتعبة! . .

واغمض عينيه وراح في سبات عميق .

سائني ذلك قليلاً لأنني وددت الاشتراك معه في رؤية هذه المناظر الجوية الجميلة ونحن نطير فوقها كالطيور . في المرة الاولى ذهبت الى مصر في الشتاء ، ورأيت مناطق مغمورة في مياه الامطار ونهر الفرات عالياً ، اما الآن في شهر ايلول ، كانت الصحراء جافة تماماً ونهر الفرات اقل ماء من قبل .

بعد فترة اخبرنا القبطان بالمكروفون بأننا على مقربة من قناة السويس . لم اتمالك نفسي وايقضت زوجي بسرعة وانا اهتف بأذنه :

- قناة السويس! . . يجب ان تراها! . .

فتح عينه واخذ ينظر من النافذة . رأينا القناة بشواطئها المستقيمة وفيها بعض البواخر باحجام مختلفة تذهب الى البحر الاحمر او تعود الى البحر المتوسط . وكان المنظر وكأنه صورة زيتية رائعة ومياه القناة بلون الفضة وزرقة السماء الصافية والبواخر البيضاء تبحر وكأنها لعب صغيرة للاطفال .

قال زوجي :

- ان المنظر كما تقولين جميل جداً! . . .

هكذا كنا دائماً ، انا اعجب وتدهشني الاشياء الغريبة وتبقى في ذاكرتي ، بينما كان (احسان) ، وكأنه رأى العالم كله ، ولايظهر دهشة او تعجب! . .

وقد اظهر اهتمامه من ان القسم الاخضر الكثيف المزروع حول شاطئ النيل ، يسير مع النيل طولاً ، اما في العرض فأن المزروعات تنتهي فجأة بأراضي صحراوية جرداء لااثر للزرع فيها . ان المزارع تمشي فقط مع النهر وبعدها صحراء قاحلة . ولولا وجود هذا النهر العظيم لاصبحت مصر مثل الجزيرة العربية . ولهذا سمى الفراعنة نهر النيل (النهرالمقدس) ، ويسميه المصريون (نهر الجنة) في اغانيهم واناشيدهم! . . وما عدا دجلة والفرات في بلادنا ، لم ار نهراً اجمل من نهر النيل في أي من البلدان الكثيرة التي زرتها! . .

وصلنا القاهرة واخذونا الى فندق جميل في منطقة مصر الجديدة اسمه

(هليوبوليس بالاس) . وهناك وجدنا بالصدفة الدكتور (نامق نادر) وكان يدرس علم الاشعة في القاهرة . اصر علينا ان نذهب معه الى البلد لكي نرى محل عمله في مستشفى القصر العينى .

في الطريق بدأت انظر الشوارع المصرية للمرة الثانية وانا اخاف ان اقول لاحسان اننى اعجب بالقاهرة وبناياتها ، لئلا يقول لي انتظرى حتى تري لندن ، واذا به يقول :

- ان بعض الشوارع وابنيتها تشبه مدينة (باريس)! . .

فرحت بمديحه للقاهرة وكأنه يمتدح مدينتى! . .

وصلنا المستشفى ورأيت قسم الاشعة وهنأت الدكتور (نامق) على عمله . بعدها طلب منا ان نذهب للمشاهدة الدكتور (محمود الجليلى) الذى كان يشتغل في قسم الطب الباطنى . وكانت مفاجئ لطيفة رؤية الدكتور محمود الذى كنت اتنافس معه في الدرجات العالية اثناء الدراسة في كلية الطب . كان يشتغل في قسم علاج (البلهارزيا) التى تفتك بالفلاح المصرى في ذلك الوقت . رأيت الدكتور محمود ينقل الدم بانبوب من وريد شخص الى وريد المريض في نفس الوقت والاثنان مضطجعان على سريرين متجاورين . كانت هذه طريقة قديمة لم ار مثلها في بغداد حيث كنا نأخذ الدم من الشخص الصحيح في غرفة ، ثم نعطى المريض الدم وهو في فراشه بالردهة والدم معلق في اعلى سريره .

قلت للدكتور محمود بفخر :

- ان طريقتنا في بغداد عصرية وطريقتهم في مصر قديمة!

بعد ذلك اصر الدكتور (نامق) ان يدعونا لقضاء السهرة ، لان سفرنا كان في الغد صباحاً .

كانت دعوة الدكتور (نامق) الى صالة (بديعة مصابنى) . ان الاسم في بغداد مشهور من الافلام والمجلات المصرية ، ولم اكن قد ذهبت الى حفلة ليليه شرقية من قبل . شاهدت حفلات في بعض البيوت في بغداد تقام بمناسبة عقد قران او حفلات الختان ، حيث تحضر المغنيات وعازفى الموسيقى في داخل البيوت .

كانت صالة (بديعة) كبيرة ومشهورة جداً .

شاهدنا بهو واسع فيه مسرح كبير وامامه الكثير من الكراسى والمناضد ومختلف انواع الناس من ذوى الملابس الاوروبية ومعهم نساؤهم ، الى مرتدى الملابس الشعبية وهم يحملون بأيديهم العصي ، ويضعون على كتفهم قماشاً يشبه بطانية صغيرة .

لم اكن اتمتع بالرقص الشرقى وتعرى الراقصات وملابسهن المثيرة ، لكن الناس رجالاً ونساء كانوا في حالة طرب للموسيقى ، يشجعون الراقصات بالتصفيق والهتاف بين الرقصات فقط ، لانهم اثناء الرقص لايهتفون . كانت الراقصات مراهقات صغاراً كما كنا في ايام الثانوية ، وكن اجمل بكثير من معظم راقصات بغداد اللواتى وصلن منتصف العمر (ما عدا عفيفة اسكندر الشابة) .

وفى ساعة معينه ظهرت شابة رشيقة نحيفة القوام جداً واخذت تتلوى كأفعى جميلة ، وتعالت اصوات الهتاف والتصفيق ورمى العصى في الهواء لفترة طويلة .

شاهدت امرأة في منتصف العمر هي (بديعة مصابنى) واقفة في البهو قرب المسرح وهى تصفق للراقصة وتضحك لها .

كانت الراقصة الشابة هي (تحية كاريوكا) واستقبلها الجمهور وكأنها كانت الاميرة شهرزاد في الف ليلة وليلة .

بعد سنوات عديدة رأيت تحية كاريوكا على المسرح في مصر وقد اصبحت ممثلة قديرة وقد زاد وزنها بما لايقل عن ثلاثة اضعاف وزنها في سنوات الاربعين وانقطعت عن الرقص واصبحت تمثل فقط .

في صباح اليوم التالى غادرنا القاهرة متوجهين الى جزيرة (مالطا) لقضاء ليلة هناك . طرنا فوق أراضي صحراوية قاحلة لم ار فيها أثراً للانسان . وكان ذلك سبباً لكي يغرق زوجى في نومه في السفر كالعادة .

وبعد فترة سمعت القبطان يقول :

- ها نحن نطير فوق منخفض (القطارة)! . .

اثارت كلمة (القطارة) في ذاكرتى ايام الحرب في شمال افريقيا بين الجيوش الالمانية والانكليزية وهي تتحارب في الصحراء بين مصر وليبيا ، وكنا نسمع عن

(منخفض القطارة) ، (وسيدى برانى) ، و(السلوم) وغيرها وهي تسقط بيد الجيش الالماني بقيادة الجنرال (روميل) بحيث تصورنا ان الجيش الالماني سوف يدخل البلاد المصرية ويخذل الانكليز ، ولكن انتصار الجيش البريطاني في معركة (العلمين) بقيادة الجنرال (مونتغومري) في هذه المنطقة التي نطير الآن فوقها ، ابدل الموقف وأخذ الجيش الالماني يتراجع الى الغرب بعيداً عن الحدود المصرية .

بعد ساعات قليلة نزلت الطائرة في ارض صحراوية يباب ، وتعجبت من الهبوط في هذه البقعة الخالية من كل شيء لا ماء ولا حيوان ولا أي نوع من النبات حتى النبات الصحراوى منه . هبطنا من الطائرة واذا بنا امام بناية من الحجر قرب المطار يصعب رؤيتها من الجو . دخلنا في البناية واذا بنا في مطعم جميل ، كراسى ومناضد مغطاة باغطية بيضاء شديدة النظافة وبه بار وجرسونات انكليز في سن الشباب بملابس صيفية انيقة يستقبلونا بأدب جم وابتسامة لكي نجلس على المائدة .

دخلنا الى الحمام لغسل ايادينا وترتيب شعرنا وتعديل قيافتنا لكي نجلس في المطعم الانيق . كان الحمام ابيض اللون وبغاية النظافة بحنفيات معدنية فضية اللون ، ومرايا ، مع الصابون المعطر واوراق لتنشيف اليد والسيفونات في المراحيض وكأننا في حمام احدى الفنادق الفاخرة .

جلسنا على المائدة كان لديهم معظم المشروبات والعصير والمرطبات . والغداء يحوى اللحم والدجاج والخضروات المطبوخة والسلاطة والحلويات . وكأننا نتناول الطعام في مطعم غربي كبير .

هنا ازداد اعجابى بما تفعل المدنية والحضارة في الارض! . . .

مطعم اوروبى جميل في الصحراء الافريقية بعيداً عن كل شيء ، وفيه كل ما يطمع نه الانسان من مأكل ومشرب وراحة وطمأنينه . لقد استعمل الانكليز المطار اثناء الحرب ، وابقوا عليه لاستعماله في خدمة الخطوط الجوية المدنية .

كان اسم المطار (العظم) لاننا لم نجد الا كلمة معلقة فوق الباب باللغة الانكليزية .

وصلنا جزيرة (مالطا) بعد الظهر ونزلنا في العاصمة (فاليتا) لكي نقضى

الليل ونسافر في صباح اليوم التالى الى لندن .

نعم ! . . كانت اعجوبة ان نصل من بغداد الى لندن خلال ثلاثة ايام فقط! . .

كان الفندق في (فاليتا) كبيراً ومبنياً من الصخر . والحقيقة وجدنا جميع الابنية مبنية من الصخر ، ويدل مظهرها على كون المدينة عريقة يمتد تاريخها طويلاً ، والسبب هو بناء الصخر القوي الذى يحافظ على الابنية لمدة قرون طويلة ، بعكس الحجر (الطابوق) الذى بنيت به مدننا في العراق والذى لايقاوم احداث الزمن .

كان عدد السيارات قليلاً جداً واكثر الناس تسير مشياً على الاقدام في شوارع مزدحمة . رأينا بعض الجنود وهم يلبسون ازياء عسكرية فاخرة ويسيرون جيئة وذهاباً بانتظام وهيبة امام بناية ضخمة لم ندر ما هي .

وجدنا الاسعار في المخازن رخيصة جداً ومعظم بضاعتهم انكليزية . يبدو ان الامبراطورية البريطانية ساعدتهم في شراء الغذاء والملابس والاحذية باسعار قبل الحرب ، لان هذه الجزيرة الصغيرة وقد ساعدت الانكليز اثناء القتال وتحملت الكثير من غارات الالمان الجوية دون تذمر اوخيانة بحيث سماها في الحرب المستر تشرتشل :

- مالطا! . . انها حاملة طائرات لا تغرق! . .

وقد اسعفتهم بريطانيا طيلة وقت الحرب بكل ما شاؤوا من البضائع بارخص الاسعار وبدون بطاقات تموينية ! . .

اشترينا احذية وبلوزات شتوية وثياب لاننا نعلم صعوبة الحصول على الالبسة في بريطانيا الا مع البطاقات التموينية رغم انتهاء الحرب ، إذ كانت (مالطا) البلد الوحيد الذى لم يجرب البطاقات التموينية .

بعد فترة العشاء في الفندق ، سمعنا شيئاً لم نكن نتوقعه ، رجلاً يتكلم بلهجة غريبة مع رجل آخر ثم قال كلمة : (رجلي) باللغة العربية واشار الى قدمه! . .

انصتنا الى حديث الاثنين لكننا لم نفهم منه شيئاً . سأل زوجى احد

الرجلين باللغة الانكليزية عن اللغة التى يتكلمون بها . فأجابه الشخص انها اللغة (المالطية) .

اخذنا نسأله عن اسماء اقسام الجسم وكان الجواب انهم يسمون الشعر والعين واليد والرجل وكل ذلك باللغة العربية بلهجة تقارب اللهجة اللبنانية ولكنهم يتكلمونها بسرعة كبيرة . ولم نتمكن من فهمها الا لما بدؤا يتكلمون ببطأ شديد .

واخيراً وجدنا اللغة عربية تماماً من حيث تركيب الجمل ومعظم الاسماء ما عدا اسماء قليلة يونانية او لاتينية . ومن جملة ما اضحكنى انهم سألوا عن اسماء الحيوانات وكانت متطابقة مثلهم ثم سألنى عن اسم الحمير فقلت الاسم (حمار) . فكان الجواب نحن نسميه بأسم آخر ، ولما سألت قال :

- نسمى هذا الحيوان (زميل) .

ضحكنا وقلنا لهم ان (الزمال) هو الاسم العامى للحمار في العراق .

ان نطق كلمة زميل يشبه نطق اهل لبنان لكلمة (باب) إذ تصبح عندهم (بيب) .

وهم يبدلون حرف (القاف) بحرف (الالف) مثل اهل لبنان .

ان اللغتين التركية والفارسية مليئتان تقريباً بالكلمات العربية الا أن لكل من هاتين اللغتين تركيبها الخاص ، ولكن الجمل في اللغة المالطية هي عربية تماماً واظن ان بالاستطاعة معرفة او فهم اللغة المالطية خلال المعيشة ايام قليلة في جزيرة مالطا! . . .

غادرنا جزيرة مالطا في صباح اليوم التالى واتجهنا الى مدينة (مارسيليا) في فرنسا للنزول فترة قصيرة للهبوط من اجل البنزين ، وهناك تناولنا الغداء .

لم اجد شيئاً جميلاً او غريباً في هذا الميناء سوى انه المدينه التى انشدت اغنية فيها (لامارسيليز) اثناء الثورة الفرنسية لاول مرة ، والتى اصبحت النشيد الوطنى الفرنسى الى يومنا هذا! . .

الوصول الى لندن

في الطريق الى مدينة لندن ، إنتابتني مشاعر متباينة ما بين الدهشة والفرح للذهاب الى العاصمة الكبيرة ، وبين عاطفة دفينة هي الكره لكل مايمت الى الامبراطورية البريطانية .

كان شعور الاعجاب والاحترام للانكليز ناتجاً عن مخالطتى لاساتذتنا الانكليز في الكلية الطبية ، وقبلها مديرتنا في الثانوية المركزية (المسز كندى) ، وبالاخير كما عرفتهم كأصدقاء لنا في بلادنا بعد التخرج والزواج حيث وجدت الانكليز رجالاً ونساء ، يمثلون التصرف المتمدن المهذب والاحترام للآخرين . بدأت افهمهم كأناس وكأصدقاء ، ولم يكن يباريهم احد ، لا في حالات الجد ولا الهزل . احببت ادبهم الاجتماعى وديمقراطيتهم الاصيلة . واكثر من كل ذلك احببت مركز المرأة لديهم ومكانتها في مجتمعها وحريتها ومساواتها مع الرجل .

فكرت في حالة بلادنا ، لقد اصبحت المرأة لاول مرة في تاريخنا الطويل تتساوى مع الرجل في التعليم وتتعادل معه في الراتب وفى مسؤليات الوظيفة ، ساءلت نفسي هل حدثت تلك المساوة للمرأة في ايام الجاهلية ام في العهد الاموى او العهد العباسى او اثناء حكم المماليك او في العهد العثمانى؟

لقد حدث ذلك بعد دخول الانكليز الى بلادنا وانتشار افكارهم المدنية الحديثة عن النساء بصورة عامة ، ثم قيام الحكم الوطنى وفتح مدارس البنات في جميع المدن . وانتشر بصورة خاصة بعد ان برزت اثناء حكمهم العراق العراق امرأة انكليزية تعمل مع الرجال الانكليز في سنوات العشرينات ، وهى امرأة كان يحترمها كل رجال الدولة العراقية تلك هي المس (جرترود بيل) ، او (الخاتون) كما كانوا يسمونها! . .

وكأمراة ، كان ذلك يدعونى الى الاعجاب والصداقة تجاه الانكليز وتأثيرهم على البلاد ، لقد اصبح وجود النساء الانكليزيات وهن سافرات يختلطن مع الرجال ويشغلن مراكز مهمة في الدولة بشائر الزمن الزاهى الحديث للنساء العراقيات واعجوبة فتحت الطريق المضئ الساطع امام النساء للخروج من خضوعهن وعبوديتهن بواسطة المدارس والتعليم! .

ولكن ، بالرغم من ذلك دخلت الامبراطورية البريطانية بلادنا بكامل القوة العسكرية وهيمنت على هذا الجزء من الامبراطورية الاسلامية أي العراق كبلد صغير وضعيف ، كما كانت تهيمن على ربع العالم في كل انحاء الارض من كندا في امريكا الى استراليا برمتها وجزيرة ونيوزيلندة الى شبه القارة الهندية كافة ، الى جنوبى افريقيا ومصر وفلسطين والعراق والكثير من الجزر الصغيرة في المحيطين الاطلسى والهندى .

لقد حارب والدي في الجيش العثمانى في الحرب العالمية الاولى ضد الحلفاء ، وكان ابناء الشعب العراقى وانا منهم ، نكره وجود الانكليز كغاصبين في بلادنا ونود الخلاص منهم بكل وسيلة .

كان هذا التضاد الكامن يثيرنى .

كنت احب الانكليز واحترمهم كشعب متمدن راقٍ اتى بالمدنية الحديثة الى بلادنا ، وبنفس الوقت اكره الامبراطورية البريطانية المسيطرة واتمنى لها الزوال! . .

زوجى أيضاً اعجب بالانكليز كاصدقاء متمدنين ادخلوا الحياة الجديدة علينا ، ولكنه كان معجباً من قبل بالحياة الامريكية التى عرفها من قبل ، باعتبار ان امريكا الغنية لايهمها استعمار الشرق وامتلاكه وكان يفضلها على جميع الامم الغربية الاخرى ويود لو اخذنا اسباب المدنية الحديثة من الامريكان وليس من الانكليز او غيرهم . ويعتقد ان الامريكان يتفوقون علي الانكليز في كل النواحى الجديدة والافضل التعلم منهم واللحاق بديمقراطيتهم .

هذه كانت افكارى وانا نصف نائمة في الطائرة في القسم الاخير من السفرة .

وصلنا اجواء لندن بعد الغداء مباشرة ، والشمس مشرقة . بدأت الطائرة تهبط بحركات دائرية بطيئة ودارت حول المدينة مرتين ، وانا انظر مشدوهة الى منظر من اجمل واغرب ما رأيته في حياتى! . . كنا نطير فوق ابنية وشوارع دون بداية اونهاية لها ، فيها من الاشجار والحدائق الصغيرة والكبيرة في طول المدينة وعرضها . سيارات صغيرة بحجم لعب الاطفال تسير في مختلف الاتجاهات ، والكثير من المياه الزرقاء اللامعة كأنها بحيرات صغيرة ومختلفة الاشكال في طول المدينة

وعرضها . الطائرة تهبط بهدوء بحركتها الدائرية وانا انظر الى اللوحة الارضية تحتنا بأعجاب منقطع النظير! . .

سمعت شخصاً واقفاً ورائى يتطلع من النافذة لكي يرى المدينة من الطائرة وهتف قائلاً باللغة الانكليزية بصوت عال متوتر مبهور :

– هذه لندن! عاصمة العالم! . .لن يشبهها أي شيء في جميع الدنيا! . . .

كان الرجل الانجليزى يتفوه بما كنت احس به في تلك اللحظة! . . .

لقد وصلنا الى عاصمة اكبر امبراطورية عرفها التاريخ! . .

نزلنا في مطار صغير به بنايات واطئة لها طابق واحد مسقوفاً بالطريقة الانكليزية البسيطة التى رأيناها تشبه بيوت الانكليز (البنكلة) في بغداد . لم يكن اسم المطار (هيثرو) معروفاً لنا آنذاك ، كان المكان لدينا هو مطار لندن . بعد ذلك علمنا ان المطار اسمه (مطار هيثرو) وقد افتتح قبل اشهر قليلة واصبح المطار المدنى الاول في لندن .

دخلنا في بناية من هذه البنايات الصغيرة وكانت اجراءات الدخول بسيطة جداً .

ركبنا الباص نحو محطة فكتوريا قي لندن ، وكان الجو رائقاً والشمس ساطعة ،

والبيوت والشوارع والاشجار جميلة ، والسماء بلونها الصافى الغريب جعلتنى اشعر اننى في فلم من (والت دزنى) في هوليوود بمدنه الخرافية العجيبة مثل (سندريللا والامير) او (اميرة الزهر الابيض) في فلم (سنوايت) الى ان وصلنا محطة فكتوريا ومعنا حقائبنا وأخذنا التاكسى وانطلقنا الى (كوينز كيت) قرب المفوضية العراقية في منطقة (كنسنكتون) حيث رأينا المبانى العالية المتلاصقة والناس والسيارات والباصات المتلاحقة . كان لدينا عنوان اخذناه من صديق في بغداد ، يشير الى شقة في الشارع المحاذى للمفوضية العراقية اسم الشارع (كوينس كيت تيراس) .

قرعنا الجرس واستقبلتنا امرأة بدينه هي مديرة البناية . استقبلتنا بلطف واعطتنا غرفة كبيرة بفراشين ودولاب كبير ومنضدة بمرآة كبيرة ، ومدفأة يجب ان

نضع فيها النقود المعدنية (الشلن) لكي تشتغل طيلة الوقت . وفي داخل الغرفة مغسلة كبيرة ومناشف للوجه . اما الحمام الكبير فأنه خارج الغرفة ويستعمله غيرنا أيضاً ، وكانت هذه الطريقة سائرة في معظم الشقق الاخرى ، وهذا ما ساءني ،

طلب مني زوجي ان نحمد ربنا على وجود غرفة كبيرة قرب السفارة الآن ، وننتظر حتى نجد شقة بحمام خاص ننتقل اليها .

كان الجو في شهر ايلول لطيفاً . الشمس مشرقة والنهار طويلاً جداً رغم حلول شهر ايلول لانهم كانوا يطيلون النهار للوقت الصيفى ساعتين في اليوم وهى عادة اتبعوها في وقت الحرب للاقتصاد في استعمال الضوء الكهربائى وبقيت لعدة سنوات بعد الحرب .

كانت لدينا ايام قليلة قبل ان ابدأ في الدوام في المستشفى لذلك ذهبنا في اليوم التالى الى المفوضية العراقية لكي نسجل اسماءنا كطلاب ، ولكي يدفعوا لنا رواتبنا في نهاية الشهر .

دخلنا المفوضية وكأننا دخلنا احد بيوت الاقرباء . كان القائم باعمال المفوضية السيد (امين المميز) وهو على معرفة قديمة ووثيقة مع اهل والدة زوجى اثناء الطفولة في محلة (جديد حسن باشا) . لم اكن قد رأيت السيد (امين المميز) من قبل ولكنه تلقانا بترحيب شديد واخذ يصف لي زوجى امامى عندما كان احسان صغيراً وامين يكبره ببضعة سنوات . واضاف اننا سوف نلتقى في بيته ونرى زوجته واولاده الصغار قريباً جداً .

الملحق العسكرى المقدم (حسن مصطفى) صديق آخر لاحسان يعرفه من بغداد ، ولم يكن المقدم حسن متزوجاً آنذاك . والملحق الجوى الرئيس (نافع عبدالله) وهو من اهالى كركوك ، اخبرنى ان زوجته هي السيدة (نعمت الحشمة) معه في لندن الآن ، وهى خريجة الثانوية المركزية في بغداد وكنت اعرفها من المدرسة وكانت تشتغل كمعلمة في الابتدائية في بغداد .

الملاحظ كان محاسباً في الكلية الطبية من قبل واعرفه من ذلك الوقت .

وكان القنصل هو صديق آخر لاحسان وهو السيد (خليل ابراهيم) .

وكان اصغر الجماعة سناً السيد (نجدة فتحى صفوة) وقد كان ملحقاً

دبلوماسياً وهو خريج جديد من كلية الحقوق ونحن على معرفة قديمة من بغداد لان والدتى صديقة لام (نجدة) وهى سيدة تركية من استانبول ، ويعرف والدي والد نجدة الاستاذ فتحى صفوة معرفة جيدة . وصل نجدة الى السفارة بعد فترة قصيرة

وكان مع السيد نجدة ملحق شاب آخر اسمه (احمد كاشف الغطاء) تعرفنا عليه في السفارة .

أحسسنا في المفوضية العراقية واعضائها الكرام وكأننا في بيتنا .

قضينا الايام الاولى في دوائر مختلفة حيث سجلنا اسماءنا واعطونا اوراقاً شخصية نحملها كما نحمل جواز السفر . لاادرى الى كم من المحلات والدوائر راجعنا ، لكنها كانت كثيرة .

اخذنا بطاقات التموين للملابس والاحذية بحيث نتمكن من شراء الملابس الشتوية الضرورية . ثم حصلنا على بطاقات الاكل وعددها مثل جميع افراد الشعب .

في كل هذه الدوائر كنا نجلس في صفوف طويلة جداً لاتنتهى ، فوق مقاعد متتالية مثل مقاعد السينما و(نحبو) من مقعد الى الثانى لمدة ساعة اوساعتين لكي نحصل على البطاقات الضرورية . اثار اهتمامى اننى لم اسمع كلمة من أي شخص بشكو من طول الصفوف او بطئها ، ومعظم الناس كانوا يقرأون الصحف او يشربون القهوة من اقداحهم الخاصة او يجلسون بصمت مطلق .

ان وجود هذه الصفوف الطويلة (الكيو) جعلت احسان يتذمر ويشكو منها حال خروجنا الى الخارج . وكان يسألنى ان كنا سنقضى ايامنا جالسين ننتظر في الصفوف الطويلة الى الاخير! . .

اما انا فلم أشك ولم اتذمر . كل شيء كان يبدو كلعبة غريبة مثيرة . كيف اتذمر من النظام والهدوء من دون وجود أي شخص مسؤل عن تنفيذ هذا النظام .

كان يشرد فكري الى بلدى ، تصورت ما الذى يحدث اذا اجتمع حشد بمئات من الناس في دائرة ضيقة في بغداد ينتظرون الحصول على البطاقة التموينية او الاوراق الضرورية الاخرى! . .

كان الفرق الهائل بيننا وبينهم يثير الضحك والعجب والدهشة لنا .

ذهبت الى مستشفى (هامرسمث) وعلمت ان الدوام يبدأ في التاسعة صباحاً ولاينتهى قبل الخامسة بعد الظهر . الطريق يقتضى ساعة واحدة للذهاب واخرى للاياب وهذا يعنى اننى اقضي عشر ساعات في اليوم في الدراسة ، واستخدم باصين اثنين للذهاب الى المستشفى ومثلها في الاياب واعود للبيت تعبة . وبعد العشاء ابدأ بالدراسة من الكتب والمحاضرات الى وقت النوم .

و يعنى اننى لاارى أي محل آخر سوى المستشفى لخمسة ايام في الاسبوع من الصباح الى المساء . وكثيراً ما كنت اذهب حتى يوم (السبت) صباحاً والذي هو يوم عطلة الى بعض المحاضرات المهمة واعود قبل وقت الغداء . كنا نقضى نهاية الاسبوع برؤية الاماكن المشهورة ، ونذهب في كل اسبوع الى محل مختلف .

وبالرغم من دوامى المزدحم في المستشفى ، وقراءتي الليلية المستمرة ، بدأت اشعر اننى احببت هذا البلد الغريب الهادئ من الاعماق! . . . احببت فيه حتى الجو البارد الثلجى الذى يغطيه في الشتاء وكان هذا اول شتاء عشناه في لندن .

اصبحت رغم اعجابى بالالوان الفاتحة البراقة التى نراها في شمس بلادنا الساطعة بدأ ضوء هذه الشمس الشمالية الباردة يسحرنى! . . . هذه الشمس الملتفعة بالغيوم ، كانت تشرق أحياناً ، واراها وراء غشاء عال شفاف يغطيها فتبدو ضعيفة نائية حتى لو كانت السماء صاحية تماماً . بل ان السماء نفسها تبدو بالوان غريبة ومختلفة عما كنت ارى في بلادنا ، وجعلنى المطر المستمر والغيوم الدائمة وضباب الصباح الكثيف وكل هذه الملابس السميكة والمظلات مع معاطف المطر في كل مكان ، اصبحت اشعر اننى اسير فوق القسم القطبى من الكرة الارضية! . .

واعجبنى هذا الشعور في السنة الاولى فقط لغرابته .

في ذلك الوقت لم يكن في المستشفى الكثير من الطلاب الاجانب ذوي الوجوه الملونة السوداء الزنجية او البنية الهندية بين الطلاب . كان معنا شخص واحد من الاطباء الهنود فقط وواحد مصري اسمر الوجه ولم يكن بيننا أي طالب من الزنوج ، اما الاخرون من الاساتذة والطلاب والطالبات فكلهم من الوجوه

الشقراء بأعين زرقاء اوفاتحة . كان الطلاب والطالبات على درجات مختلفة من العمر بسبب الحرب وقد رأيت اثنين من الطلاب بشعر نصفه ابيض .

رأيت الطالبات وهن طبيبات متخرجات مثلي ، تجاوبن معي وكأنهن يعرفنني منذ زمن . كنا نجلس معاً اوقات الغداء او فترة الشاي ونتحدث عما نشاء ، عن المرضى والعلاج الى حالة العالم ككل والى الملابس والاكل وغيرها .

الطبيب المصرى معنا كان شاباً بوجه شديد السمرة وشعر اسود مجعد اسمه الدكتور (عبد الوهاب البرلصى) ، وكانت لهجته المصرية تجلب لي الشوق الى بلادي والى البلاد العربية كلها . وكنا نتحدث عن البرد الشديد والامطار الكثيرة فيما بيننا . وكانت هذه السنة من أسوء السنوات برداً والتدفئة المركزية لم تكن منتشرة عندئذ كما هي الحالة الآن .

وأذكر انني عند الانتظار بين محاضرة واخرى كنت اسعى الى الشباك الذى لمحت منه شعاع ضئيل للشمس ينفذ الى القاعة لكي احس بدفئها وضوئها . واذا بالطبيب المصرى يأتى ليسألنى شيء عن المحاضرة السابقة ويقف بينى وبين شعاع الشمس في النافذة ، فقلت له بمزاح ان لايقف ويحجب اشعة الشمس من امامى ، واذا به وقد بدت عليه الحيرة الكبيرة يقول :

- هو في شمس؟فين الشمس ياحسرة! . .

رأيته على حق ، انسمى هذه الاشعة الشاحبة شمساً؟

في مستشفى هامرسمث يقوم الاساتذة بتدريسنا العلوم النظرية في قاعات المحاضرات ، ونقوم بفحص المرضى في الردهات مع الاساتذة . وهناك اساتذة آخرون يأتونا زواراً من مستشفيات اخرى وكل يلقى المحاضرة بالمواضيع التى يشتغل فيها ، واكثرهم من المشاهير في فرعه لذلك درسنا مع احسن الاطباء في الامراض الداخلية مثل اساتذة امراض القلب وامراض الرئة وامراض الاعصاب وامراض الجهاز الهضمى وغيره بالاضافة الى اساتذتنا في المستشفى الكبير .

يجب ان اذكر عن احد الاطباء الذي كان يزاملنا في المحاضرات معنا ، وهو هولندى الجنسية . يظهر انه كان يشتغل حول امراض الجهاز الكلوى في هولندة .

وقف امامنا والقى محاضرة طويلة وكان استاذ الطب الباطني في المستشفى عندنا يستمع اليه .

بدأ الطبيب الهولندي يرسم لنا على السبورة رسوماً بسيطة تتناول سحب الدم الى الخارج عند مرضى الكلى ، وتنظيف الدم خارج البدن بواسطة جهاز جديد رسمه على السبورة بطباشير مختلف الالوان ، ثم ارجاع الدم الى المريض بعد (تنظيفه) بواسطة الجهاز الجديد . وهكذا يتخلص المريض من المواد السامة في جسمه .

وقال ان المريض يجب عليه تكرار العملية مرة اومرتين في الاسبوع ويعيش بعدها طويلاً . واذكر كيف ضحكنا منه ومعنا الاستاذ في نهاية المحاضرة وقلنا ان ذلك مستحيل لاسباب كثيرة .

بعد مدة ليست طويلة تمكن الطبيب الهولندي من عمل جهاز لتنظيف الدم عند مريض الكلى واصبح مستعملا في جميع انحاء العالم .

سمعنا خلسة من بعض الاطباء ان اثنين من الاساتذة يقومون بتجارب جديدة على بعض المرضى ويدخلون انبوباً مطاطياً في شريان المريض ويدفعون به الى داخل قلب المريض لاجراء بعض الفحوص . كانت هذه العملية الاولى من نوعها في العالم .

لم يتحدث عنها الاساتذة علناً الى ان تمكنوا من اجراء الفحوص بنجاح ، وهكذا تطور الامر الى امكان اجراء العمليات الداخلية المعقدة للقلب والصمامات داخل القلب والشرايين الدموية .

كانت الدروس عندنا محاضرتين في الصباح الى االساعة الحادية عشرة تعقبها ساعتين في ردهات المرضى ، ثم ساعة واحدة لطعام الغداء . وبعد ذلك ساعة واحدة محاضرة نظرية يعقبها ساعتان للعمل في الردهات .

في شهر تشرين الاول انتهى الوقت الصيفي واخذنا نذهب صباحاً والوقت غائم مظلم ونحتاج الى الضياء الكهربائي من ساعة استيقاضنا صباحاً ونعود ليلا والسماء سوداء كالحة والمصابيح في الشوارع تضئ بنور قليل جداً كما كانت في ايام الحرب .

في المساء كنت وزوجي نأكل في مطعم ايطالى وراء المفوضية العراقية .

تسجل (إحسان) في (الكلية الامبراطورية) وكان دوامه مختلفاً عن دوامي . كان يذهب الى المكتبة ويشتغل هناك ويسأل ما يشاء من استاذه ، ولاتوجد لديه الا محاضرات قليلة .

لم يعجب احسان بعض الاشياء اليومية التي كان يعيشها في لندن ، ولم اكن الومه على ذلك . لقد كره لندن وجوها الشتوي الكئيب وشوارعها المظلمة والابنية السوداء القذرة والمقصوفة والتي لم تر أي عناية طيلة فترة الحرب . كانت السيارات تسير في وسط شوارع كثيرة تحيطها البيوت كلها مهدمة وخالية من الناس ذات ابواب متكسرة ، وشبابيك فقدت شكلها واصبحت ثقوب كبيرة في الابنية الخالية . المخازن الكبرى كان يعوزها الكثير من البضاعة ، والبطاقات التموينية ضرورية لشراء كل انواع الملابس ، ومعظم المأكولات .

المطاعم لاتترك لنا مجالا كبيراً لاختيار الطعام ، إذ نأكل ما هو موجود في المطعم ولانستطيع صرف اكثر من خمسة شلنات على الاكل في أي مطعم حتى في كبار الفنادق .

لم استسغ الاكل الانكليزى في المستشفى وان كان رخيصاً لايزيد عن شلن واحد للغداء وكنت اتناوله وانا شبه مرغمة . كنا نأكل العشاء في احد المطاعم الايطالية قرب الشقة . القوة الكهربائية تقطع بضع ساعات في النهار ، ولايبيع بائع السيكاير اكثر من عشرة سيكاير للشخص بعد وقوف طويل في (الكيو) . وأحياناً يجد الشخص نفسه بعد وقوف طويل دون سيكاير لنفاذ الموجود . كان زوجى مدخناً وكنت اتمنى ان يضيق بهذه المتاعب ويترك التدخين . لم اكن اشعر بالاسف لصعوبة الحصول على السيكاير ، اذ كنت ولاازال اكره عادة التدخين ، الا اننى كنت اشعر بصعوبة ذلك على زوجى .

كنا نقف في (الكيو) لمدة طويلة في البرد القارس او المطر لكي ندخل السينما .

وكان جو البلد مملوءاً بالكربون الاسود في الهواء بسبب استحمال الفحم ، وعندما نمسح انوفنا يصبح المنديل اسوداً فاحماً في تلك المنطقة من المنديل وكأننا

نمسح قطعة فحم داخل الانف . ونفس السواد الفاحم كنا نراه في اجسامنا في الحمام اثناء غسل الرقبة ، لان الاسفنجة تبدو سوداء بعد مسح العنق بالصابون .

كان زوجي يتذمر دائماً من هذه الاوضاع السيئة ، وكنت اسأله لم وافق على الذهاب الى لندن وكان بامكاننا ان نذهب الى امريكا كما فعل بعض الاطباء .

جوابه لي دائماً :

- لقد اخطأنا في ذلك! . .

كان زوجي يخرج مع اصدقائه العراقيون في المساء ، ويتركني اقضي وقتي في قراءة الكتب الطبية الكثيرة . كان معه صديق قديم يعرفه من ايام امريكا وهو السيد (صالح كبة) ، وبعد ذهاب صالح كبة كان احسان يخرج مع المقدم (حسن مصطفى) الملحق العسكري وأحياناً مع الصيدلي (عبد الصاحب بهية) وهو خريج كلية الصيدلة في بغداد ومرسل من قبل الدولة للدراسة العليا أيضاً . اما انا فلا اخرج الا الى المستشفى في ايام الاسبوع كلها واقضي وقت المساء بالدراسة ،

كنت اصر على رؤية المواقع التاريخية والمتاحف وحضور المسرحيات . لذلك كنا نخرج في ايام العطل الاسبوعية ونذهب الى احدى المحلات المشهورة . كنا نذهب بواسطة الباص او في قطار تحت الارض ، ونمشي المسافات الطويلة أيضاً ونتفرج على مايدور حولنا . لم نكن نشعر بالتعب من المشي لساعات طويلة في ذلك الوقت! . .

اعجبني من الناس هدوؤهم وانتظامهم ، وعدم الكلام في الباصات وفي قطارات تحت الارض ، تكون العربة حافلة بالناس والكل صامتون تماماً ، واكثرهم يقرأ الجريدة ولايحاول ان تلتقي عيونه مع الآخرين . يبدو ان الجميع مشغول بعمله وافكاره ، والتعارف في هذه المناسبات يبدو غريباً جداً بل ومستهجناً عند الانكليز! . .

اعجبني عدم استعمال المزمار في السيارات ، وهي الطريقة المستحبة عند سواق السيارات في بغداد! . . .

اعجبت كثيراً بالشرطة الذين كانوا يمشون المسافات الطويلة في الشوارع ،

ويجيبون السائل عن الطريق بمنهى الرقة وحسن التصرف . كنت احس كأنهم يعرفوننا شخصياً .

ولاجل مشاهدة مدينة لندن لم نذهب مع الباصات الخاصة بالسواح ولم نكن نعلم بوجودها ، بل كنا نسير بمفردنا الى المحلات المشهورة كما نريد ونجلس حيثما نشاء ونأكل ما نرغب من الاطعمة في المطاعم دون ان يكون معنا اشخاص آخرون .

في البداية ذهبنا الى (ترافالغار سكوير) وقررنا ان نسير في شارع (وايتهول) ونتجه الى كاتدرائية (ويسمنستر) لنرى داخلها ونرى دار البرلمان .

اول ما رأينا في هذه الساحة المشهورة التى يجتمع فيها الناس في المظاهرات والتجمعات السياسية وتلقى فيها الخطب الحماسية ، كان تمثال (نلسون) الشامخ وهو يعلو على جميع الابنية الضخمة حوله . يقف هذا التمثال في الوسط على عمود طويل طوله ٤٤ متراً عن الارض . وفى الرأس يقف الادميرال (نلسون) الذى هزم اسطول نابليون عندما كان في البحر الابيض المتوسط في معركة بحرية هي معركة (الطرف الاغر) او ترافالغار (اللغة الانكليزية) قرب اسبانيا في سنة ١٨٠٥ وزال عن بريطانيا الخوف من الاساطيل الفرنسية التى كانت تعزل البلاد الانكليزية عن الكثير من البضائع والاطعمة لسنوات عديدة .

اصيب الادميرال (نلسون) اثناء تلك الموقعة الحربية الهائلة بجراح ادت الى وفاته . ودخل الاسطول البريطانى المنتصر الى بلاده التى كانت رغم انتصارها الهائل ، في حالة حداد عميق على فقدان (نلسون) البطل المنقذ .

انجز تمثال نلسون بعد سنوات قليلة ووضع في هذه الساحة التى سميت بأسمه . يحيط بعمود نلسون اربعة اسود على الجهات الاربعة من الساحة وفيها حوض كبير .

واعداد لاتحصى من الحمام يغذيها الاطفال بالحبوب والخبز ، ويأخذ الناس صورهم مع نلسون واسوده وحمائمه في هذه الساحة الكبيرة .

وساحة ترافالغار محاطة بأبنية ضخمة على درجة كبيرة من الجمال والهيبة مثل (بيت جنوب افريقيا) و(بيت كندا) ، وطاق (قوس البحرية او آديمرالتي آرج)

الذى يؤدى الى شارع (بال مال) الذى يصل الى القصر الملكى (قصر بكينغهام) وهو قصر وبلاط الملك في لندن .

ورغم ذلك لايزال البلاط الملكي يحمل اسم (بلاط سان جيمس) وهوقصر ملكي آخر قريب من قصر بكنكهام .

من المشاهد التى اثارت دهشتى وعجبى هو وجود تمثال (لجورج واشنطن) في ساحة ترافلجار . جورج واشنطن هو الضابط عند الملك البريطانى في الدومنيون الامريكى قبل اكثر من مئتى عام ، وهو الذى قاد الجيش الامريكي الذي حارب جيش الامبراطورية البريطانية وربح الحرب وطرد الجيش البريطانى ، واعلن ان امريكا دولة جمهورية ذات استقلال تام ولاتخضع لملك بريطانيا! . .

قدمت الحكومة الامريكية هذا التمثال الى بريطانيا ، وقبلته الحكومة ونصبته في زاوية من الساحة الكبيرة! . . .

كم من الدول تتقبل تمثالاً للشخص الذى تغلب علي جيشها وتضعه في اكبرساحاتها! . .

سرنا باتجاه البرلمان في شارع وايتهول ، ووصلنا شارع (داوننغ ستريت) الجانبى وشاهدنا باب البيت رقم (عشرة) ، انه البيت الذي يسكن فيه رئيس الوزراء البريطانى منذ سنة ١٧٣٢ حيث اعطى الملك (جورج الثانى) البيت الى رئيس وزرائه (روبرت والبول) لكي يسكن فيه اثناء كونه رئيساً للوزراء . البيت يعود للدولة الآن ويسكن فيه رئيس الوزراء وعائلته طيلة مدة بقائه في هذا المركز .

لا يدل البيت من الخارج على السعة في داخله ، ولكنه في الداخل بيت كبير يقيم فيه رئيس الوزراء وعائلته في جانب منه ، وفيه مكاتب لموظفي رئيس الوزراء وفيه أيضاً صالات للدعوات والمآدب . وفي داخله يحوي الكثير من الصور الاصلية القديمة وصور لكل رؤساء الوزارات البريطانيين ، كما رأينا في المجلات .

كان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك المستر (كليمنت آتلى) رئيس حزب (العمال) ، وكان يحكم المجلس باكثرية كبيرة! . .

اما رئيس الحزب المعارض وهو حزب (المحافظين) فقد كان المستر(تشرشل) نفسه! . . الرجل الذى انتصر في الحرب ضد هتلر قبل سنة واحدة فقط ، ولكن

حزبه هزم بالانتخابات ، ودخل شرشل بطل الحرب العالمية الثانية مجلس البرلمان باقلية صغيرة كنائب في المجلس وكرئيس لحزب الاقلية لان اكثرية الشعب انتخبوا حزب العمال لرآسة الحكومة! . . .

كانت هذه الهزيمه هي ماحصل عليه المستر تشرشل من شعبه رغم انتصاره الكبير! . . . انها تشير أيضاً الى النظام الديمقراطى العتيد الذى يترك للاغلبية حق اختيار الحاكم ، بصرف النظر عن مكانة الفرد مهما كانت وبالرغم من ان الشعب بصورة عامة بقى يحترم ويقدر المستر تشرشل الى وفاته والى الآن! . . .

نعود الى سيرنا في شارع وايتهول ، حيث رأينا قبر (الجندى المجهول السينوتاف) وهو محل لشهداء الحربين العالميتين الاولى والثانية ويحتفل الملك والحكومة والشعب كله ومعهم جميع عضاء الكومونويلث كل سنة في الساعة (الحادية عشر) من يوم (الحادى عشر) من شهر (الحادي عشر) أي شهر نوفمبر ، يوم الهدنة بينهم وبين الالمان عام ١٩١٨ ويضعون اكاليل الورد على الجندى المجهول ابتداءاً من الملك والامراء ورئيس الوزراء ومئات ممن اشتركوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية رجالاً ونساء . ويشهد الاحتفال الالوف الكثيرة من الناس .

يرتدى جميع اهل بريطانيا الرجال والنساء وردة حمراء قانية اللون من ورد (الخشخاش) في ياقة ملابسهم لعدة ايام يخلعونها بعد اليوم الحادى عشر من نوفمبر . والناس يدفعون النقود لشراء هذه الورود والتى تذهب الى اهالى الشهداء .

السبب في لبس وردة الخشخاش ، هو ان محل المعارك الهائلة بين الالمان والحلفاء كان في البلاد الفرنسية حيث استشهد ملايين الشبان من الجهتين ، وبعد الحرب كانت ميادين المعارك الكبيرة حيث تنمو فيها في الربيع ورود الخشخاش كانت زهوره الجميلة القرمزية اللون تغطى المكان كل عام ، وكأن لم يدفن تحتها جيل كامل من الشباب وهم في زهرة العمر! . . . لذلك اصبحت هذه الوردة تمثل ذلك الجيل من الشباب الذى قضت عليه الحرب قبل الاوان بسبب الحصول على أراضي صغيرةلاتتجاوز كيلومترات قليلة يأخذها الالمان فترة قصيرة ويسترجعها الحلفاء لفترة قصيرة اخرى . . .

طلبوا مني ان ارتدى الوردة الحمراء مثلهم في المستشفى اثناء بداية شهر نوفمبر وان اتبرع بالنقود ، كنت اجيبهم بأن ابى وعمومتى حاربوكم في الحرب الاولى ومات من شبابهم آلاف كثيرة وكلهم كانوا شهداء في الحروب .

كنت ادفع مبلغاً بسيطاً من النقود لكي اساعد اهل الشهداء إذ لا يوجد فينا من لا يعطف على ضحايا الحرب اينما كانوا . .

رأينا بناية وزارة الخارجية الكبير امام محل الجندى المجهول .

وصلنا ساحة البرلمان وهناك اثار عجبى مرة ثانية رؤية تمثال (اوليفر كروموبل) مع بعض التماثيل للملوك والقادة في ساحة البرلمان! . . .ان كروموبل ثار على الملك (شارل الاول) من عائلة ستيوارت في القرن السابع عشر ، وتغلب كروموبل على جيش الملك ، وحكم على الملك بالاعدام واعدم . وقد حكم اوليفر كروموبل البلد مدة سنوات طويلة الى حين وفاته وحكم ابنه بعده لمدة قصيرة ، وعاد بعدها ابن الملك الذى اعدم ، بلقب شارل الثانى وبقي النظام الملكى الى الآن ! . .

والغريب ان تمثال الملك شارل الاول وهو الذى اعدمه كروموبل يقف في ساحة البرلمان نفسها حيث يقف تمثال كروموبل! . . .

يقال ان الملكة فكتوريا كان يؤلمها ان ترى تمثال كروموبل امامها قي الساحة اثناء دخولها البرلمان وقالت :

- كم اود لو استطيع تغطية هذا التمثال عندما ادخل البرلمان! . .

ولم تقل انها تريد ان تخلعه من مكانه .

ان كروموبل هو جزء من تاريخ بريطانيا ، وفى هذا البلد لايخلعون التاريخ كما نفعل في عالمنا الثالث! . . اين قبور الخلفاء العباسيين وقد حكموا بغداد لمدة خمسة قرون! . . القبر الوحيد الباقى هو قبر (هرون الرشيد) وهو قرب قبر الامام (علي الرضا) في المشهد في ايران .

ورأينا أيضاً تمثالاً للرئيس ابراهام لنكولن ، والكثير من الملوك .

شاهدنا ساعة (بيك بين) تقف عالية على برج طويل فوق مجلس البرلمان . وكنا نسمع صوتها أحياناً من بغداد بالراديو . نظرت الى الساعة بفرح وكأننى شاهدتها من قبل .

دخلنا كاتدرائية ويستمنسر قرب البرلمان وشعرت وكأني ارجع الى الوراء لمدة عشرة قرون طويلة! . . انها الكاتدرائية التى توج بها جميع ملوك بريطانيا منذ زمن (وليام الفاتح) ، ماعدا ملكين فقط وهما ادوارد الرابع وادوارد الثامن ، الذى تنازل عن العرش قبل التتويج في سنة ١٩٣٧ ، وقد دفن فيها جميع الملوك الى الملك جورج الثانى ، وبعدها بدأ الملوك يدفنون في كنيستهم في ويندسور .

عبرنا النهر فوق جسر (ويسمنستر) الى الصوب الجنوبى وعدنا على نفس الجسر لأنني تعبت من المشى الطويل . عند الرجوع شاهدت من جانب الجسر الجنوبى صورة للندن وهي من اجمل ما رأيت في لندن! . .

رأيت اول برلمان في العالم ، ببنائه الشامخ الهائل وصورته المنعكسة على مياه نهر التيمز ، والابنية الكبرى التى تبدو من شارع وايتهول وامام البرلمان والممشى على النهر (الامبانكمنت او سدة النهر) ونهر التيمز ببواخره وزوارقه والجسور الاخرى على الجانبين . اعجبت جداً بهذا المنظر التاريخى واقصد روعة بناء البرلمان ، وهو اول برلمان في العالم حكم البلاد منذ عهد (الماغنا كارتا) في القرن الرابع عشر والى الوقت الحاضر حكماً ديمقراطياً قلدته الدول الديمقراطية الاخرى واصبح المثل الاعلى للحكم في جميع انحاء العالم! . .

زرنا قصر (هامبتون كورت) وهو قصر الملك (هنرى الثامن) وهو الملك الذي تزوج وطلق ست زوجات خلال حياته وابدل الدولة من الكنيسة الكاثوليكية التابعة لبابا روما الى المذهب البروتستانتي بسبب عناد البابا ورفضه طلاق الملك من زوجته الاولى كاترين ابنة ملك اسبانيا .

يقع قصر هامبتون كورت في الجنوب الشرقى من لندن على نهر التيمز الى الغرب من منطقة (شلسي) في لندن . وقد بنى القصر في القرن السادس عشر لوزير الملك هنرى الثامن والوزير اهدى القصر الى الملك واصبح من اكبر وافخم القصور في اوروبا بعد ان اضاف الملك عليه اجنحة جديدة اخرى مما زاده جمالا وفخامة . تحيط القصر حدائق في غاية الجمال وتكثر فيها الغزلان والطيور .

رأينا مقر الملك وجناح الملكة ودهشت لرؤية مطبخ القصر الذى كان يطبخ فيه يومياً الطعام لاجل ١٢٠٠ من الذين يعيشون حول الملك .

ولايزال كل شيء في المطبخ كما كان عليه في السابق ، رأينا فيه محلاً لحفظ ٣٠٠ برميل من البيرة مرة واحدة ما عدا رفوف الشراب التى تستعمل في المناسبات .

في الحديقة رأينا (التيه الكبير) المسمى (ميز) في اللغة الانكليزية وهو لتسلية الناس حيث ندخل في مماشي بين الاشجار يصعب الخروج منها الا بعد لأي ، ويثير ذلك المرح والضحك بين الاصدقاء .

كان الملك هنري الثامن يذهب الى لندن بواسطة النهر ويستعمل الزوارق المذهبة كما شاهدنا في السينما .

رأيت الكثير من افلام الملك هنرى الثامن وزوجاته وابنته اليزابث .

الذى يهمنى من زوجات الملك هنرى الثامن هما امرأتان ، الزوجة الاولى والزوجة الثانية من زوجاته الست لاسباب تاريخية .

كانت زوجته الاولى الملكة (كاترين) الاسبانية وهى ابنة (فرديناند وايزابيللا) ملك وملكة الاسبان اللذين طردا ملوك (بنى الاحمر) وهم آخر ملوك غرناطة العرب من اسبانيا في القرن الرابع عشر ولهذا السبب يهمنى امرها .

تزوج الملك هنرى كاترين عندما كان في السادسة عشرة من عمره ، وكانت هي ارملة اخيه الاكبر ورزق منها باطفال لم يعش منهم سوى بنت واحدة (الاميرة مارى) .

رغب الملك هنري الثامن الطلاق من هذه الزوجة ، لكنها رفضت الطلاق لانها كاثوليكية وهذا المذهب يحرم الطلاق الا في حالات خاصة جداً . وقد آزرها البابا في روما وحرم طلاقها ، ادى ذلك ان الملك الشاب هنرى الثامن ان يخرج من المذهب الكاثوليكى ويعتنق المذهب البرتستانتى (الانكليكانى) الذى اجاز الطلاق .

تزوج الملك زوجته الثانية ، واصبح المذهب البروتستانتى هو المذهب الرسمى للبلاد الى يومنا هذا! . .

اما زوجته هنرى الثانية فهى الملكة (آن بولين) ، رزق منها بأبنة ثانية اصبحت بعد وفاة اختها الملكة (ماري) ابنة زوجة هنري الاولى ، بأسم (الملكة اليزابث)

الاولى ، واهميتها انها اصبحت اعظم الملوك والملكات في تاريخ بريطانيا كلها! . .

وتعتبر من بين الشخصيات النسائية العالمية المشهورة . وقد غيرت الجزيرة البريطانية الشمالية المنعزلة ، الى امبراطورية بحرية عظمى اخذت تتنافس مع الامبراطورية الاسبانية القوية آنذاك . بدأت بريطانيا تحكم الأراضي الامريكية الجديدة التى اكتشفها (كرستوفر كولمبوس) حديثاً ، ثم توسعت بسرعة ، وقوت من اسطولها البحرى القوى لكي تصبح البلاد بعدذلك الامبراطورية البريطانية التى لاتغيب عنها الشمس الى منتصف القرن العشرين! . .

لم تتزوج الملكة اليزابث ، وحكمت بقوة وعظمة وتجنبت كل الخطط ضد العرش بنجاح وكانت آخر الملوك من عائلة (التيودور) الملكية .

زرنا البرلمان وصعدنا الى شرفة الزوار ورأينا المستر (اتلى) رئيس الوزراء ويجلس امامه القسم المعارض اي (المحافظين) في الجهة الاخرى من المنضدة الطويلة وعرفنا منهم المستر (انطوني ايدن) وزير الدفاع اثناء الحرب . اثار تعجبي لما رأيت المستر ايدن جالساً وقد رفع رجليه الطويلتين لكي يسند اقدامه الى المنضدة الكبيرة وحيث يجلس اعضاء الحكومة امامه . إنهه شيء لانراه في البلاد الشرقية! . .

لم نجلس طويلا في شرفة البرلمان لان الحديث كان حول مواضيع داخلية لاتهمنا .

زرنا المتحف البريطانى الكبير وهو اكبر متحف في بريطانيا ، وواحد من اقدم واكبر المتاحف في العالم . زيارته تحتاج الى بضعة ايام طويلة لرؤيتها كلها .

رأينا الكثير من الآثار العراقية القديمة من المنطقة الشمالية في الموصل حيث آثار الاشوريين من منطقة نمرود ونينوى ورأينا الثيران برؤس آدمية واجنحة طيور (الثور المجنح) .

كذلك رأينا الاثار الكلدانية والبابلية ورأينا القيثارة البابلية عليشكل عنزة ذهبية .

لقد نقب المؤرخون الغربيون عن الاثار القديمه في بلادنا قبل ان يهتم بها اهل البلد . ففي العراق فتشوا عن الاثار منذ ايام العثمانيين وكان الناس يضحكون

منهم لصرفهم المبالغ الكبيرة للحصول على آثار قديمة بعضها مكسور ومهشم . كان الانكليز والالمان اول من نقب عن آثار العراق وعُرف العالم بها . كانوا ينقبون ويصرفون المال على العمال هناك ، ويملأون بواخرهم النهرية بالاثار العراقية التى لم يكن الناس تعرف قيمتها الحقيقة الا بعد سنوات عديدة .

رأينا في المتحف البريطانى (حجر رشيد) المشهورة الذي فتح الطريق للعالم الفرنسى (شامبليون) وهو من العلماء الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر . وقد استعصت على العلماء قراءة الكتابة الهيروغليفية الى ان تمكن شامبليون من حلها ، بواسطة حجر رشيد وكانت عليه كتابة هيروغليفية وفوقها كتابة يونانية لنفس الكلمات . تمكن على ضوئها من حل الكتابة المصرية القديمة وهكذا بدؤا بقراءة اللغة الهيروغليفية والكشف عن حضارة مصر القديمة .

زرنا حديقة الحيوانات وكانت اجمل بكثير في تلك الايام منها الآن . ولكن حديقة الحيوانات في قاهرة الملك فاروق كانت اجمل منها! . .

قضينا يوما كاملا في حدائق (كيو) المشهورة . وهى من اكثر الحدائق النباتية شهرة . فيها ١٢٠ هكتار من الحدائق والاشجار والبيوت الزجاجية لاشجار المناطق الاستوائية . وهى فوق كونها حديقة كبيرة عامة فان فيها مركز ابحاث زراعى وتفخر بكونها تملك اكبر المعارض الزراعية في العالم .

في هذه الحديقة قصر (كيو) الذى كان يسكنه الملوك في السابق . وهناك بحيرة بين الحدائق الشرقية والغربية وكذلك (باكودا او قمرية) قرب الباب اليابانى .

رأينا داخل غرف زجاجية كبيرة تحفظ من البرد اشجار استوائية كالنخيل واشجاراً جوز الهند واشجار اخرى تستعمل للزينة في البلاد الحارة ،

والغرفة (الدافئة) تضم الكثير من النباتات الاستوائية الخضراء .

تجولنا في (ريجموند بارك) الذى يغطى الف هكتار من الارض الخضراء وفيه الكثير من الحيوانات من الثعالب والغزلان المختلفة .

ليس للناس امتلاك الغزلان او الاوز العراقي(سوان) في بيوتهم او في مزارعهم ، انها من املاك التاج البريطاني ولها الحق قي المعيشة الحرة قي كل مكان دون ان يملكها احد .

شاهدنا في حدائق ريجموند حدائق منسقة وانواع الارهار الجميلة ، وكذلك برية كبيرة مفتوحة و(ودلاند) أي ارض باشجار كثيفة ،

والمحل يستخدم لمراقبة ودراسة الطيور والحيوانات .

رأيت حدائق لندن الكبيرة من حديقة سان جيمس الى كرين بارك الى غرين بارك ولكنني كنت اذهب الى حدائق هايد بارك ، وهى اكبر حدائق لندن ، بكثرة وكنا نستأجر زورقاً في بحيرة (السربنتاين) ونجدف بالمجاديف الرقيقة الخفيفة الوزن لفترات طويلة . كنت اقول ان التجديف في السربنتاين يذكرنى بالتجديف في نهر دجلة وكان ذلك يثير (احسان) ويضحكه ويقول :

- أى شيء يذكرك بدجلة؟ وقوفنا في الصف بين الناس لكي نأخذ الزورق بالترتيب؟ ام البرد الشديد الرطب في الجو؟ ام السماء الغائمة ام المطر المفاجئ؟ ومن الذي يجدف في نهر دجلة بايام باردة كهذه؟ ان هذا هو جو شتائنا في بغداد ، ولكن انتظرى مالذى سيحدث وقت الشتاء الاصلى! . . .

وقد كان الشهر في نهاية تشرين الاول .

على الرغم من شعورى بالبرد ورطوبة الهواء ، كنت احب تلك المياه الرمادية اللون والجسر الجميل عبر حوض (السربنتاين) والزوارق الملونة تحمل اناس بوجوه باسمة جذلى وملابس انيقة ، تضللهم الاشجار العالية بفروعها الكبيرة ، وتضفي عليهم تلك الغيوم الداكنة حيث يتخللها ضياء لامع ترسله شمس ضئيلة بعيدة ، وهذا الضياء يظهر بسرعة ويختفى بسرعة وكأنه صورة خيالية من صور (والت ديزنى) في السينما .

اعجبتنا ساحة الخطباء في حديقة (هايد بارك) في ايام الاحد . هناك يحضر كل من له قضية ويرغب في اعلانها على الناس . انها زيارة ممتعة وغريبة خاصة لدينا نحن ابناء الشرق الصامت .

رأينا الجموع حاشدة وكل خطيب له جماعة تؤيده او تقاطعه . شاهدنا بعض الزنوج من افريقيا وكان عددهم قليلاً في تلك الايام كل يتكلم عن بلاده ، وكذلك رجال دين بملابسهم السوداء وكلهم من المسيحيين كل يتناقش حول موضوع معين يتعلق بالدين .

سمعت شاباً يهودياً اجنبياً يتكلم عن فلسطين ـ وكان ذلك قبل تكوين دولة اسرائيل بسنة واحدة ـ . وعندما سأله احد الانكليز عن العرب وان فلسطين بلادهم منذ قرون عديدة اجابه اليهودى الذى لم ير فلسطين في حياته :

ـ لماذا تتكلم عن العرب؟ انهم (بدو) يعيشون في الصحارى ولن يطيقوا حياة المدن . نحن اليهود سوف نسكن في المدن ونعمرها ونبنيها!

تقدمت الي المتكلم اليهودى وقلت له :

- اننى عربية اتيت الى هذه البلاد قبل ايام قليلة ، هل ابدو كفتاة تعيش فيالصحارى كبدوية لم تر المدن قبلاً؟ انك لم تشاهد البلاد العربية ، لم تتكلم عن اشياءلاتعرفها! . .

وضج الواقفون بالضحك عليه .

هذه المرة الوحيدة التى تكلمت فيها هذا الكلام القليل في وسط الزحام .

رأينا الامير عبد الآله هناك مرة واحدة هناك وبعد التحية قال انه لم يسمع معظم كلام الخطباء لكثرة الزحام . اظنه اتى ليرى المحل الشهير فقط .

اصبحنا نحضر في ايام الاحد لفترة قصيرة ثم منعتنا اعمالنا عن ذلك .

زرنا متحف (مدام توسو) والتماثيل الشمعية لمختلف الناس من الملوك الى القواد السابقين والحاضرين . وقد بدأت هذه السيدة الفرنسية ايام الثورة الفرنسية حيث كانت تصنع من الشمع تماثيل الذين يموتون على الجيلوتين . وقد ابتدأت بالملكة (مارى انطوانيت) حال قتلها . ولايزال الاشراف المقتولون في الثورة محفوظين باسمائهم في دفاترها قبل اكثر من مائتين من الاعوام .

وبعدها زرنا محل ال (بلانيتيريوم) وهو جهاز يرينا حركات الشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم كما لواننا نشاهدها في سماء صاحية مثل سماء الصحراء .

كنت استمتع بالذهاب الى المخازن الكبرى وازور اقسامها في يوم السبت اذا كانت لدينا الفرصة ، ولااظن ان هنالك امرأة لاتهتم بزيارة مخازن الثياب والاثاث .

تعلمت اسماء المحلات التجارية في شارع اوكسفورد وشارع ريجنت ومخزن

(هارودز) وكان اغلى الجميع سعراً . كنت اذهب لكي ارى بضائع هارودز والطريقة الجميلة في عرض الاشياء ولكن اسعار البضائع وبطاقات التموين المحدودة كانت تمنعنى من اقتناء ما اشاء وكنا نقضي وقتنا (نتفرج) على معروضات هارودز .

كنت اشترى الملابس من مخازن مختلفة ، وكنت اجد المتعة من التفرج على هذه المخازن الكبيرة وترتيبها الجميل والحازم معاً ، ومعاملة البائعات لنا وملابسهن الانيقة ، كل هذا كان غريباً على ويثير اعجابى ودهشتى .

كنت اشترى معظم الملابس من المخازن الكبيرة مثل (باركر) في هاى ستريت كنزنكتون او في مخزن (سلفريدجز) في شارع اكسفورد او مخازن في ريجنت ستريت وكان احسان يرافقنى في شراء ملابسى ويهتم في اختيارها . كانت الاسعار رخيصة عند شراء الملابس التي تسيطر عليها الحكومة كما في وقت الحرب .

اما الملابس الاخرى والتي نعتبرها غالية الثمن وكان لها حد اعلى لاتتجاوزه . وقد اشتريت معطفاً من احسن انواع الصوف الاسكتلندي الفاخر بمبلغ عشرين باوند فقط واعتبرت ذلك اسرافاً مني .

ان عملي يعنى الكثير من الوقت في دوام منتظم طيلة الاسبوع ،ورغم ذلك لم اكن اشعر بأى نوع من التعب إذ كنت اخشى ان يمر الوقت علينا ونعود الى بغداد دون ان نرى الكثير من الاشياء التاريخية المهمة او المسرحيات الكبيرة اوالافلام .

من ناحية العمل ، عدت طالبة استمع الى الاساتذة وافحص مرضاهم وعلاجهم . لم يكن على أي نوع من المسؤلية سوى مسؤلية الطالبة ، ووجدت ذلك عملا سهلا . لامسؤلية لي مع المرضى . ادرس في الليالى ما سمعت عنه في النهار .

كان الويك اند أي عطلة الاسبوع هو يوم الخلاص من الدروس والعمل والانصراف الى رؤية الاشياء الجديدة في هذه المدينة الشاسعة الكبيرة . خلت اننا لن نرى الاشياء التى يجب رؤيتها في لندن! . .

في بعض الاحيان كنت اقضى ساعة او اكثر لحضور محاضرة في (الويك

اند) ايام السبت في مستشفى الامراض العصبية الكبير في (هايد بارك كورنر) وذلك يعنى ان الصباح ينتهى بسبب المحاضرة . لقد انتقل هذا المستشفى الكبير الى بقعة اخرى ، واصبح محله الآن فندق كبير اسمه (اوتيل لانزبدور) .

كنت اكتب رسائل الى الاهل حول زياراتنا في الويكند (عطلة نهاية الاسبوع) بعد كل زيارة . ان ما رأيته آنذاك كان جديداً على ويستحق ان اكتب لوالدي واخواتى عنه . وكنت اكتب الاشياء الطبية الى والدي واختى لمعان . وكانت بدورها تخرجت طبيبة تشتغل في مستشفى الاطفال في باب المعظم ، واخذت تسعى لكي تحصل على السفر الى لندن .

كانت تصلني الرسائل بانتظام من والدتي واخواتى الصغار وكنت التذ برسائلهم كلها .

رأيت الكثير من اطباء العراق في ذلك الوقت وخاصة طلاب وبنات صفى في الكلية مثل الاطباء غانم عقراوى وسالم الحيدرى وسمحة شينا وآمنة صبري مراد التي تخرجت بعدنا بسنتين .

رأيت صديقتي (امت الزهاوى) التى كانت في طريقها الى امريكا وقد توقفت في لندن لبضعة ايام ، وكان زوجها وهو الاستاذ (عبد الملك نورى) في بغداد ينتظر الاذن بالدخول الى امريكا . رأيت الاطباء الاقدم عهداً مثل الدكتور مهدى فوزى والدكتور احمد عزت القيسى وكان في طريقه من امريكا الى بغداد هو وزوجته ، والدكتور اكرم القيمقجى والدكتور كاظم شبر والدكتور محمود الهاشمى والدكتور عبد الجبار العمارى والدكتور سامى خياط وزوجته الدكتورة روز اللوس وغيرهم .

وكان الدكتور(ابراهيم اسعد) ابن عم المقدم حسن مصطفى الملحق العسكري يسكن في بيت حسن ومعه ابنة اخيه ومعها ابنته الصغيرة (رحاب) الى لا يتجاوز سنها السنتين .

كانت هنالك دورة قصيرة في مدينة (باث) في منطقة سومرست في الغرب ، عن امراض (الروماتزم) مع استاذ كبير في هذه الامراض ، وعن كيفية علاجها لمدة اربعة ايام .

أن مدينة (باث) كانت مركزاً لمعالجة الامراض المفصلية منذ ايام الرومان عندما

وجدوا المياه الحارة فيها ، أي قبل الميلاد ايام حكم (يوليوس قيصر) لبريطانيا .

وافقت على الذهاب الى (باث) ودفعت المصاريف ، واذا بدعوة من السيد (امين المميز) تدعونا للغداء على (قوزى) عراقى في بيته . اسفت جداً لان الدعوة تبدو لطيفة والجميع اصدقاؤنا ، وامين المميز معروف بحفلاته الجميلة هو وزوجته السيدة

(رفيعة) ، ولكن الحفلة تطابقت مع الدورة هذه .

وظل الاستاذ امين يقول لي :

ـ الذهاب الى باث احسن ، لو وجبة قوزي في لندن؟

ورغم اسفى على القوزى والجماعة اللطيفة ، غادرت مع جماعة الاطباء الى مدينة (باث) وتركت زوجى في لندن يستمتع بالقوزي في بيت المميز . .

سافرنا بسيارة كبيرة مريحة جداً ووصلنا خلال ساعات . كانت السفرة من اجمل ماتكون عليه السفرات علمياً واجتماعياً .

مدينة (باث) جميلة جداً من ناحية بنائها وشوارعها وميدانها الكبير . كانت تختلف عن لندن في كل شيء . انها صغيرة وقديمه ولكنها تحتفظ بجدتها ونظافتها وكأنها بنيت بالأمس وبهذا الطابع الخاص القديم .

تعجبت من هذه الدورة التى استغرقت اربعة ايام . حضرنا المحاضرات في الصباح ورأينا الحمامات الحارة التى يستخدمها المرضى وهم على اشكال في درجات مرضهم . قلت في نفسى ان المعيشة في هذا المستشفى من حيث الراحة والمياه الحارة والتمارين الرياضية التي يمارسها المرضى كل حسب مرضه يجب ان تفيد المريض حتى لو كان لايأخذ أي علاج داخلي .

رأينا الحمامات التى كان يستعملها الرومان وقد اصبحت الآن اماكن جميلة للتفرج عليها فقط .

في نهاية الايام الاربعة ، اقيمت حفلة عشاء كبرى وأعقبتها حفلة (البالو) لبسنا الملابس الطويلة لحضور العشاء و(البالو) .

اثناء العشاء بدأ الاطباء قربي يسألوني عن قضية فلسطين ، وكان معهم اطباء من اليهود . قضينا معظم وقتنا في جدل حول الموضوع .

بعد عودتى الى لندن وانا اقص على احسان جمال مدينة باث ، قال اننى اعجبت بهذه المدينه ولكن في المستقبل عندما اشاهد المدن الصغيرة في امريكا سوف تشاهدين الجمال العصري اللامع امام مدن قديمة اعجبت بها وهي مدن تنتمي الى ماضٍ سحيق في القدم .

كان يبالغ في كلامه معي عن اعجابه بما رأى في امريكا لانني كنت السبب في مجيئنا الى بريطانيا في ايام سنواتها العجاف .

ظننت مايقولة صدقاً ، ولكن بعد سنوات قليلة رأيت الولايات المتحدة ورأيت غيرها من البلاد ولاازال ارى ان مدينة (باث) هي من اجمل المدن الصغيرة التي شاهدتها .

ذهبنا الى برج لندن في شرق العاصمة لكي نرى البرج والتيجان الملكية .

وقفنا في صف كبير ثم بدأنا نتحرك ببطأ الى ان وصلنا الغرفة التى تحوى التيجان الملكية وجواهرها التى لاتقدر بثمن . كان لكل من التيجان اسم معين لاانذكره الآن ، رأينا الماسة الرائعة (كوهي نور) المشهورة التى وهبها احد المهراجات الهنود الى التاج البريطانى ، وسمعنا من الدليل اسماء للماسات الكبيرة الاخرى والتى نسيت اسمائها . كانت هذه الاحجار الكريمة باحجام واعداد لم ار شيئاً مثلها في حياتى حتى رأيت ، بعد مدة طويلة جداً ، الاحجار الكريمة عند اميرات المملكة العربية السعودية في احد الاعراس الملكية .

في تلك الايام كانت المملكة السعودية فقيرة جداً ، وكانت مصر هي الدولة العربية الغنية! . . ان هذا هو تداول الزمن! . . .) .

رغبنا الذهاب لرؤية منطقة (كرينش) على نهر التيمس في جنوب لندن ، ووقفنا في صف طويل على رصيف النهر قرب البرلمان ، وركبنا باخرة صغيرة تسير بين هذه المنطقة الى منطقة كرينش . امتلات الباخرة وهى (ماطور كبير مسقوف «اي ذو سقف) . وسرنا مع النهر الياالجنوب ومرت باخرتنا تحت (جسر البرج) وهو الجسر الاخير في لندن باتجاه البحر . كان اليوم غائماً كالعادة ولحسن الحظ لم

يكن هناك مطر . وصلنا ناحية (كرينش) وهي على الضفة الجنوبية من النهر ، ارتقينا سلماً عريضاً

ودخلنا حديقة كبيرة جداً وفيها شاهدنا بناء ضخماً بديعاً ذو اعمدة كثيرة . وهو يعود للبحرية البريطانية .

قال لنا الدليل سوف نشاهد العالم مقسوماً الى قسمين القسم الشرقي والقسم الغربي بواسطة خط (غرينتش) هنا في هذا المكان بالذات .

شاهدنا الخط الطولى (خط كرينش) وهو الذى يشير الى خط الطول درجة (صفر) في العالم ومن ثم تخرج درجات الطول الارضية حول العالم تقسم الساعات والاوقات على البلدان في الكرة الارضية ،

اسعدنى ان اقف في هذه النقطة فوق خط الطول وأضع إحدى قدمي على كل ناحية منه ، في وقت واحد ، كل قدم على جهة واحدة من خط كرينش واقول بدهشة :

- هوذا النصف الشرقي من العالم تحت قدمي اليمنى ، والنصف الغربي تحت قدمي اليسرى! . .

لندن

في نهاية سنة ١٩٤٦ اصبحت المفوضية العراقية سفارة في بريطانيا ، وتعين سمو الامير زيد بن الحسين ، الاخ الاصغر للملك فيصل الاول سفيراً للعراق في بلاط سانت جيمس في لندن .

كان الاهتمام في موظفي السفارة العراقية كبيراً بسبب قدوم الامير زيد كأول سفير في لندن . وقد سرتني القضية أيضاً لأنني اعرف عن الامير زيد الكثير لانه كان صديقاً قديماً لصبيح نجيب زوج اختى الكبرى .

في السفارة اضافوا موظفين كبار جدد اولهم السيد (عبد الملك الخضيرى) برتبة سكرتير اول . وكنت اعرف زوجته السيدة (فضيلة الخضيرى) من بغداد ، وكان معهم اولادهم الثلاثة ، الاكبر (هشام) وعمره حوالى عشر سنوات ويليه (سليمان) والاصغر (عصام) . كذلك تعين السيد (سيف الله خندان) برتبة مشاور

في السفارة ، وهو متزوج من سيدة نمساوية ، ولم يكن لديهم اطفال .

السيد (امين المميز) وكان يشغل رآسة المفوضية بضعة أشهر ويسكن في بناية المفوضية في الطابق الاعلى مع زوجته واولاده ، اخلى بناية المفوضية

وانتقل وعائلته الى شقة سكنية ، لكي يقيم الامير زيد وزوجته في البناية لان الامير زيد وزوجته يقيمون في اوتيل (كلاردج) منذ مجيئهم الى لندن ، ولم يكن يوجد آنذاك بيت خاص لسكن للسفير بعد .

بعد مدة قليلة سمعنا ان السيد (امين المميز) نقل من وظيفته في لندن ، وانه سيغادرنا الى واشنطن . اسفنا لذلك لان السيد امين وزوجته الجميلة (رفيعة ام ابراهيم) اصبحوا من جملة اصدقائنا الاحباء .

بقى امين المميز مدة من الزمن قبل ذهابه الىبغداد ثم الى واشنطن .

دعينا الى حفلة مرطبات بالسفارة لكي نلتقى بالامير السفير .

كانت الحفلة في بناية السفارة في الطابق الاول . استقبلنا السيد (امين المميز) واتجهنا الى حيث يقف السفير لكي يجرى التعارف .

كان الامير زيد يناهز الخمسين من العمر ، قوامه متوسط ويميل قليلاً الى البدانة . وجهه يشبه صور أبيه الملك حسين قائد الثورة العربية كما رأيته في الصور ، له عينان داكنتان حادتان ترى كل شخص في الصالة امامه ، شعره اسود اللون مع صلعة كبيرة في وسط الرأس ، وله ابتسامة ودودة كان يلقيها على المدعوين كافة . كان يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً اسود مخططاً بخطوط رمادية دقيقة ، رباطاً اسود اللون في العنق .

لما اتتنا الفرصة لنعرف انفسنا عليه ، عرفنى رأساً وقال :

-كيف حال صبيح؟ وكيف اختك بتول والاولاد؟

كان زوج اختى الكبرى (صبيح نجيب) مرافقاً للامير زيد في ايام الثورة العربية في الحجاز ، وقد اصبحا منذ ذلك الحين صديقين حميمين .

كانت لهجة الامير مخلوطة حجازية وعراقية وهو يتكلم بسرعة كبيرة . سألنى عن دراستى كطبيبة ثم سأل احسان عن عمله . سرنا نحن الثلاثة نحو زوجته الاميرة (فخر النساء) التركية ، وعرفنا عليها ، واعجبت الاميرة بطلاقة

(احسان) في اللغة التركية ، وكانت هي لاتجيد اللغة العربية ، وكلامها اللغة الانكليزية قليل وبسيط .

تزوج الامير زيد السيدة (فخر النساء) سنة١٩٣٤ في استامبول .

كانت الاميرة (فخر النساء) طويلة القامة بدينة بعض الشئ ذات شعر حالك السواد متموج اظنه كان مصبوغاً ، بيضاوية الوجه ولها عينان جميلتان واسعتان غامقتان اللون مكحولة بالكثير من الكحل الاسود ، ولها ابتسامة وضاءة مشرقة وهي ترحب وتتكلم مع الحاضرين . كانت تلبس فستاناً واسعاً طويلاً ينسدل ويغطى قدميها ، وترتدى قلائد كثيرة مختلفة تتدلى على صدرها ، واقراط طويلة في اذنيها واساور في معصميها . ولباسها هذا يدل على أنها رسامة وفنانة كما نرى في الغرب .

بدأت بالحديث معنا بلهجة سريعة وبلغة تركية لطيفة جداً . رأيتها تتكلم دون توقف تقريباً وبالكاد تصغى الى مانقول اليها ، ثم اكتشفنا بعد فترة انها كانت قليلة السمع لسوء الحظ ، ولذلك تتحدث مع الناس هي نفسها بدلاً من صعوبة الاستماع ليهم ، خاصة في الحفلات الكبيرة حيث يتكلم الكثير من الناس في وقت واحد .

تعلمنا ان نتكلم معها ببطء وبصوت واضح تماماً ، خاصة بعد ان نبهنا سمو الامير نفسه الى الصعوبة التى تعانيها زوجته في السمع .

بعد مدة قصيرة بدأ الامير زيد وزوجته يدعونا الى حفلاتهم الخاصة . وكنا نذهب بصحبتهم الى بعض المطاعم لتناول الغداء او العشاء معهم . وأحياناً نذهب الى المسرحيات وكانوا يميلون الى المسرحيات الموسيقية لان الاميرة تفهمها بسهولة .

كان الامير زيد يتكلم اللغة الانكليزية بطلاقة لانه درس في جامعة اوكسفورد لمدة ثلاث سنوات في كلية (باليول) في علم الزراعة وتخرج منها .

كان الامير يعرف القليل من اللغة الالمانية لانه كان الوزير المفوض في برلين لمدة تناهز ثلاث سنوات من ١٩٣٥ الى سنة ١٩٣٨ في ايام هتلر .

بدأت اسأل الامير زيد اشياء تاريخية حول الثورة العربية وعن ابيه واخوته

الامراء الثلاثة وعن (لورنس) الانكليزى الذى ساعد العرب اثناء تلك الثورة .

سر الامير من اهتمامى بتاريخ الثورة العربية ، وبدأ يتكلم كلما سألته ويعيش ذلك التاريخ ويغضب ويضحك من بعض قصص صغيرة مرً عليها ثلاثون سنة او اكثر . وكنا نعجب بقصصه واحاديثه عن الحجاز .

قال ان (لورنس) يبالغ في اهميته العسكرية في الثورة . وقال ان الاهتمام به انه كان يجلب ليرات الذهب من قائد القوات البريطانية في القاهرة الى الشريف حسين لكيتصرف على افراد جيش الثورة ولشيوخ العشائر في الحجاز لانهم اصبحوا مع الحلفاء وضد العثمانيين . وقال ان (لورنس) لم يقم بحركات حربية مهمه لانه لم يكن عسكرياً رغم ارتدائه البزة العسكرية البريطانية .

زوجته الاميرة فخر النساء كانت تعيد القصص من عالمها التركى . انها لم تر العراق الا لفترات قصيرة جداً ، وهى شد بدة الاعجاب بالملكة (عالية) والدة الملك فيصل الثانى . وقالت انها لم تتعلم اللغة العربية لان الامير زيد يتكلم اللغة التركية وكأنه واحد من ابناء استامبول الارستقراطيين لان والدته كانت تركية .

كانت الاميرة (فخر النساء) تناهز زوجها سناً وهى ابنة شاكر باشا سفير تركيا في اليونان قبل سنوات .

سألتها مرة واحدة عن ايام كانت هي مع زوجها الامير زيد في المانيا قبل الحرب بقليل ، وكان (هتلر) يوليها احتراماً خاصاً لانها رسامة ، وان (هتلر) يقدر الفنانون لانه فنان مثلهم . وقد كانت تذهب الى قصره في حفلات الشاي وتعرض عليه صورها . ثم اضافت بأسف :

- انه قائد وفنان ، لكنه افسد العالم! . .

الاميرة (فخر النساء) كانت متزوجة من كاتب تركى مشهور اسمه (عزت مليح) ولها منه ابنان وبنت واحدة وكان عمر البنت في هذا الوقت وهى الصغرى من اطفالها ، يتجاوز العشرين عاماً واسمها (شيرين) . وقد طلقت (فخر النساء) من الزوج الاول ، وتزوجها الامير زيد في استامبول سنة ١٩٣٤ ، وانجبت منه في سنة ١٩٣٦ ولداً وأحداً في مدينة برلين هو الامير (رعد) وكان عمره في ذلك الوقت احدى عشرة سنه ويدرس في مدرسة في لندن .

والدة الامير زيد (الاميرة عادلة) وهى زوجة الشريف حسين الثانية ، وهي تركية من استانبول وابنة حفيد الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا وقد تزوجها الشريف حسين بعد ان توفيت زوجته الاولى الشريفة (عابدية) ابنة عمه ، (وهى ام الملك على والملك عبد الله والملك فيصل وشقيقتهم الاميرة صالحة) .

ولد الامير زيد في استانبول هو واخته الاميرة (سارة) ويسمونها (سرّة) ، وقد تزوجت من السيد عطا أمين في سنة ١٩٣٣ وهو يعمل في زارة الخارجية .

كان الامير زيد في سن التاسعة من عمره ، عندما عين السلطان والده (الشريف حسين) اميراً لمكة . ترك الشريف حسين استانبول وذهب الى الحجاز ومعه زوجته واولاده وحاشيته . هناك تعلم الامير زيد الصغير اللغة العربية وتعلم الدروس الاخرى ككل الاطفال ، وكان يدرس في القصر مع عدة مدرسين .

كان اخوه الامير (عبد الله) يهتم بدروسه وخاصة في قواعد اللغة العربية وتاريخ الاسلام ، وكان الامير زيد الصغير يخشى دروس اخيه الكبير عبدالله لشدته ، ويتعلم الدروس منه باهتمام وحذر .

اخبرنا الامير زيد عن امور قديمة كانت تحدث اثناء طفولته وشبابه الاول . قال ان عائلته من الاشراف من فرع (ذوي عون) ، وكانوا يتنافسون على امارة مكة عند السلطان في استانبول مع اقاربهم الاشراف من (ذوى زيد) . وكانت امارة (مكة) تحدث بينهم بالتناوب تقريباً .

كذلك كان يصف لنا الغزوات بين العشائر وكيف تعود العشيرة الغازية وقد حصلت على بعض الاغنام او جمل واحد او اكثر ، وكيف كانت هذه الغزوات الصغيرة وما يتبعها من موت الافراد من الجانبين ، وما تثيره من الاحقاد بين العشائر تثير عجبه ، لانه تربى في سنواته الاولى بعيداً عن الصحراء في مدينة استامبول .

وعندما نشبت الثورة العربية في سنة ١٩١٦ عهد اليه ابوه ان يشترك في الثورة ، وان يحاصر قلعة (اجياد) ويستخلصها من الترك ، رغم صغر سنه ، وكان عمره حوالى ثمانية عشر عاماً . كانت قلعة (اجياد) تصب نارها على مكة وعلى قصر الامارة فيها . بعد شهر واحد سقطت اجياد بيد رجال الثورة العربية ، وكان الامير زيد البطل القائد فيها! . . .

كان يذكر لنا ايامه وهو طفل في مكة يعيش مع والديه . الجميع في القصر يخاطب والدته بلقب (خانم افندى) ومعناها (السيدة الكبرى) باللغة التركية . كان يرى والده ووالدته في الغرفة والاثنان معاً يقومان بلف العمامه البيضاء للوالد بحيث تبقى في مكانها اثناء خلعه لها داخل الغرف ، وقال انه كان يلذ له مساعدتهم على لف العمامة أحياناً! . .

والدته (الخانم افندي) كانت تضفى على القصر الطريقة التركية الكثيرة المجاملة والادب الكبير . والقصر من ناحية الأثاث والمفروشات والاكل ، كانت تركية في الغالب . كانت استانبول آنذاك البلد الذى يسعى الجميع تعلم الادب والمجاملة فيه من جميع انحاء الدولة العثمانية! . .

قال الامير انه كان يرى في حديقة الدار الخارجية البعيدة اقبية واطئة لها شبابيك صغيرة . انها كانت زنزانات لبعض المساجين ، وأحياناً كان يخرج مع ابيه الى الحديقة وحينما يرى المساجين من وراء الشباك الصغير (الشريف حسين) يسير في الحديقة ، يصرخون عليه :

- خاف ربك ياحسين ! . . طلعنا! . .خاف الله ياحسين! . .

البساطة العربية الاصيلة تجعلهم ينادونه (ياحسين) دون أي لقب او تعظيم .

كان الامير زيد يتكلم اللغة التركية الاستانبولية الخالصة ، وهى لغة جميلة ارستقراطية وكلما كان الشخص متعلماً في تلك الايام ، كلما يصبح كلامه التركى محشواً بكلمات عربية وفارسية وكلها تدل على مبلغ ثقافته وعلمه .

(بعد اعلان الجمهورية في تركية ، منع كمال اتاتورك تعليم اللغتين العربية والفارسية في المدارس ، وكانتا تدرسان في جميع المدارس قبلاً) .

كان الامير يحب الموسيقى التركية القديمة (ما قبل ثورة مصطفى كمال) ويحب الامثال التركية . ومثل كل الاتراك يعرف اخبار (الملا نصر الدين) المضحكة والتى يعرفها كل الاتراك وهى قصص تشبه احاديث (جحا) عند المصريين .

سألناه عن سبب لباسه رباط العنق الاسود دائماً ، اخبرنا انه لبس رباط العنق الاسود منذ ان توفيت والدته في جزيرة (قبرص) في سنة ١٩٢٩ ولم يرتد رباط عنق ملون الى الآن . اثناء وفاتها كان والده مريضاً ومنفياً في قبرص في

ذلك الحين ، والامير كان يعيش مع والده الشيخ الكبير .

بعد ان سافر (امين المميز) الى واشنطن تعين بدله السيد (عبد المنعم الكيلانى) الذى كان في واشنطن . وكان السيد عبد المنعم الكيلانى على معرفة قديمة مع زوجى . وكان أخوه الاصغر المقدم الطيار (سالم الكيلانى) منذ ايام المدرسة في نفس الصف مع احسان منذ الطفولة وكانوا من الاصدقاء . المقدم (سالم الكيلانى) كان يشتغل في دورة للطيران مع القوة الجوية البريطانية تحت اسم (سالم النقيب) وهذا اسمه أيضاً لانه ابن (النقيب عبد الرحمن الكيلانى) بدلآ من اسم (سالم الكيلانى) بسبب حركة رشيد عالى ، ولم يكن يرغب ان يفتح الموضوع مع اعضاء القوة الجوية البريطانية وحركة رشيد عالى كانت قبل سنوات قليلة فقط . السيد (عبد المنعم الكيلانى) وهو السكرتير التانى للسفارة ، والاخ الاكبر للمقدم (سالم) كان لايزال عازباً رغم ان عمره كان حوالى الاربعين . بعد فترة قصيرة ذهب الى بغداد من اجل الزواج وعاد ومعه العروس (ساهرة ابنة الدكتور سامى سليمان) . وهى نفس الفتاة الصغيرة التى اصطحبتنى ومعها فتاة اخرى (سالمة الخفاف) كانتا تحملان الورد للضيف الشهير ، عندما ذهبنا مع المعلمة (الست اليونور قمر)الى محطة شمالى بغداد لكي اقرأ للشاعر الكبير (رابندرانات طاغور) الكلمة الانكليزية في ذلك اليوم عندما كنت في الثانية عشرة من العمر .

كانت الشخصيات العالمية تتقاطر على لندن من كل انحاء العالم . وكنا نستلم الكثير من الدعوات التى تهم العراق او البلاد العربية او الاجتماعات التى تقام للوفود القادمة من العراق في طريقها الى امريكا ، مثل عقد الاجتماع العام للامم المتحدة .

لقد رأينا الكثير من الشخصيات العراقية الكبيرة ، كما كانت وفود الضباط العراقيين تأتي بأستمرار الى لندن .

رأيت الكثير من ضباطنا العراقيين في لندن يقدمون لاسباب مختلفة مثل الدراسة العليا ، او حضور امور عسكرية اخرى او للتداوى . وكان الملحق العسكرى المقدم (حسن مصطفى) شديد الاهتمام بهم ، ويدعوهم الى بيته دائماً . وكان يدعونا انا وزوجى مع افراد السفارة لهذه الدعوات . وقد رأينا بعض الضباط من

كانوا على صلة بعائلتى او من الاصدقاء . لااتذكر درجاتهم العسكرية بالضبط في ذلك الوقت . رأيت الزعيم (عباس على غالب) والرئيس محمود القيسى (وهم من اصهارنا) ، ورأيت الزعيم (عادل احمد راغب) وهو اخ لطالبة في المدرسة (فضيلة راغب) اعرفها منذ كنت في الثامنة من العمر . ورأيت (الزعيم رشاد الطائى) وهو يسكن قرب بيتنا ، وامه تزور العائلة عندنا كما لو كانت من اهل البيت . وقد ارسلت بعض الهدايا لاخواتى واخوتى في بغداد بيد الزعيم (رشاد) لكي يعطيها لهم ، وقد فعل ذلك مع اطيب شكرى وامتنانى .

رأيت ضابط طيار احترق وجهه بحادث طيران وكان الآن بصحة جيدة ويشتغل في القوة الجوية الملكية وهو المقدم الطيار (ناظم مشتاق) ، وكان وجهه مغطى بندبات الحروق القديمة الملتئمة .

رأيت الزعيم (غازي الداغستانى) وكان الضابط الوحيد الذى بتكلم اللغة الانكليزية بطلاقة واضحة وبلهجة تقارب اللهجة الانكليزية السليمة . وكان بملامحه الشقراء الشركسية وقامته الطويلة اقرب الى الاوروبيين منه الى العراقيين .

كذلك رأيت في بيت الملحق العسكرى رجلاً يلبس الملابس المدنية وقيل انه مقدم واسمه (عبد الكريم قاسم) . تصافحنا معه ولم يبد عليه أي شيء يسترعى الاهتمام ، كان نحيفاً طويل القامة ، وعلى شفته العليا شيء من الاعوجاج . تكلم كلمات قليلة مع المقدم حسن مصطفى ووقف قرب باب الغرفة بمفرده . قال (حسن مصطفى) وهو يبتسم مع عبد الكريم واحسان ، ان عبد الكريم كان معه في الكلية العسكرية وانهم اصدقاء ، والآن يطلب منه ان يعيره خمس جنيهات ، (وكانت في ذلك الوقت تفوق مثلها في الوقت الحاضر بأكثر من عشرين مرة .) . كان (حسن) يضحك منه ويقول لنا : اظنه يلعب في سباق الخيل ويخسر أحياناً . ثم التفت نحو (كريم) وقال ضاحكاً :

– شتريد ، قابل تربح دائماً؟ قبل يومين اعرتك خمسة جنيهات وخسرتها! . .

وكان حسن مصطفى يضحك معه ، وعبد الكريم قاسم كان غاضباً قليلاً .

في اليوم التالى كان السيد (سعيد قزاز) قادماً من امريكا ووقف في لندن لبضعة ايام وهو صديق قديم للعائلة ، يعرف والدي ، ولكنه صديق لعمى (حسن

فهمى) وللسيد (ناجى الهرمزى) ابن عم والدتى وزوج اختها ، والثلاثة اصدقاء منذ ايام الشباب .

دعونا السيد (سعيد قزاز) لتناول الغداء في احد الفنادق عليخطوات قليلة من السفارة العراقية .

جلسنا نحن الثلاثة ، زوجى وانا و(سعيد بك) كما كنا نناديه . رأينا شخص يمر عن بعد في بهو الاوتيل . قال احسان لسعيد بك ان هذا مقدم في الجيش وهو يعرفه ، هل ندعوه ان يتغدى معنا؟ واذا بسعيد بك يبتسم ويقول :

- دعنا نجلس ونتحدث عن جماعتنا في بغداد ، وهذا الشخص بالكاد نعرفه فكيف نتحدث اليه! . .ماذا نقول له؟

لذلك لم ندع المقدم (عبد الكريم قاسم) لكي يشاركنا الطعام ، وقضينا الوقت نتكلم عن اقاربنا واصدقائنا في بغداد! .

من كان يظن ان حياة السيد (سعيد قزاز) ستكون مربوطة بهذا الشخص الصامت النحيل ذي الشفة الملتوية الذى لم يعرفه احد سوى بعض الضباط في لندن .

لم ار عبد الكريم قاسم بعد ذلك لمدة عشر سنوات ونسيت وجوده تماماً .

زوجى كان يلتقى مع (عبد الكريم قاسم) أحياناً في لندن عندما يخرج مع (حسن مصطفى) في الليل مع اصدقائه ، واكون في البيت عادة اقرأ الكتب الطبية .

لم اسمع عنه اي شيء ابداً وكأنه لم يكن موجوداً بيننا ، وبعدها رجع اليبغداد .

بعد مرور عشرة سنوات سمع اسمه (احسان) على التلفزيون للمرة الاولى في صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ، يعلن انه اصبح الزعيم والقائد للجمهورية العراقية .

اما انا فلم اعرف من هو هذا الشخص في بداية الثورة ، الى ان بدأ احسان يجلب لذاكرتى الصور القديمة في لندن ، منها جلسة الغداء مع سعيد قزاز ، ثم الشخص الغاضب الذى يطلب من صديقه الملحق العسكرى (حسن مصطقى)

بعض الدين البسيط وحسن يمازحه ويضحك معه .

سمعنا بعد ذلك ان اسم الزعيم (حسن مصطفى) كان في اول قائمة المحالين على التقاعد بين العسكريين الكبار الذين اذاعوا اسماءهم في اول يوم للانقلاب العسكرى الذى سموه ثورة . وبعد ايام قليلة اذيع بأن زوجى مدير شؤن النفط العام في وزارة الاقتصاد ، قد احيل على التقاعد أيضاً .

حفلة الملحق العسكرى للامير عبد الاله

اقام المقدم (حسن مصطفى) حفلة عشاء في بيته بمناسبة قدوم الامير عبد الاله الى لندن ودعا الامير زيد وزوجته وجميع افراد السفارة العراقية وعدد من الضباط والملحق العسكرى الاردنى وزوجته وبعض افراد من ضباط الجيش البريطانى . وكانت حفلة منزلية جميلة تختلف عن حفلات الفنادق الكبيرة المألوفة في هذه المناسبات . وقد طلب (المقدم حسن مصطفى) ان يصل المدعوون نصف ساعة قبل وصول الاميرين عبد الاله وزيد .

كان الاستاذ الدكتور هاشم الوترى عميد الكلية الطبية حاضراً أيضاً . وعندما رآنى قال لي :

- ان الوصى سأل عنك مني وسوف تقابليه هذا المساء! .

لم ادر لم سأل عنى الوصى ولكن العبارة افرحتنى .

وصل الوصى والامير زيد والبيت ملئ بالضيوف . كان الامير عبد الاله في قمة شبابه طويل القامة تلوح على وجهه علامات الصحة وهو يمشي بخطوات سريعة رشيقة ويرتدى بزة ذات لون كحلى على جانب كبير من الاناقة والهندام وشعره مصفف باقصى درجات الاهتمام . تلقى تحيات الملحق العسكرى وهو يبتسم له ابتسامة ودية لطيفة ، وبدأ يتعرف بالناس .

ولما ان عرفه المقدم حسن بأسمى وجدته يتكلم معى ببساطة وكأنه يعرفنى من قيل . وذكر لي بأنه تكلم مع والدته في بغداد قبل نصف ساعة وانه سمعها تتحدث معه وكأنما الاثنان في مدينة واحدة! . .

وكان ذلك حدثاً غريباً في ذلك الزمن ان يتكلم الشخص من لندن الى بغداد ويستمع بهذا الوضوح! . . .

اخبرنى سمو الوصي بأن اخى (خلوق) يخرج مع جماعته لصيد (ابن آوى) وان خلوق فارس جيد .

تكلم الامير الوصى مع معظم المدعوين بكل بساطة وتواضع وكأنه واحد من الضباط الاخرين . وكان الضباط ينظرون اليه بالكثير من المحبة والاحترام ، وسمعته يتكلم ببساطة وارتياح عن الملك ودوامه في مدرسة (هارو) ولباس المدرسة الجميل والقبعة الخاصة الخاصة بتلك المدرسة .

اندفعت الى ذهنى ذكريات الملك غازي ، وكنت لاازال احفظ له في نفسى وكأنه مات بالامس فقط . كان الملك غازى احد تلاميذ مدرسة (هارو) في الماضي ، ايام كان ولياً للعهد قبل دخوله الكلية العسكرية في بغداد . سألت الوصى دون ارادتى :

- هل يتذكر الملك والده ياسيدي؟ لقد كان صغيراً عند وفاته! . .

اجاب الوصى بلهجة مخنوقة قليلاً :

- مرة واحدة فقط! . . . كنت احلق ذقنى في الحمام ، بعد وفاة الملك غازى ، دخل فيصل ورفع رأسه الي وقال :

- هذا ما كان يفعله ابى في الحمام امام المرآة! . .وبعدها لم يذكر فيصل اباه ابداً! . . .

رأيت الامير عبد الاله كثير الاحترام لعمه الامير زيد وكان عمه أيضاً يحترمه بصورة خاصة . وكل منهما يسمى الاخر بلقب (سيدى) قبل البدء بكلامه . اظهرت اعجابى لهذا الاحترام بينهم للامير زيد فيما بعد . ابتسم الامير زيد من كلامى ، وبدأ يتحدث عن قصة سابقة حدثت قبل اكثر من عشر سنوات ايام الملك غازى ، حيث تجرأ عبد الاله عليه وعلى الملك غازى نفسه بالغضب وارتفاع الصوت .

والقصة ان الملك غازى طلب من عمه الامير زيد ان يسأل عبد الاله عن سبب اعتراضه لزواج احدى شقيقاته من احد الضباط في الجيش ، وكان الضابط يلحف بطلبها دون ان يراها لان الاميرات كن متحجبات . الضابط كان يريد الانتساب الى العائلة المالكة طبعاً .

يبدو ان الملك غازى كان يعرف غيظ عبد الاله من هذا الموضوع ويضحك منه ، وترائى له ان يغيضه بواسطة عمه الذى لم يكن يدرى عن القضية من قبل . كان غازى يحب المسائل المسلية مهما كان مصدرها ، وعمل هذه على شكل مزحة او (قفشة) كما يقول المصريين ، بين عمه وبين عبدالاله . لذلك سأل الامير زيد عبد الاله عن هذه الخطبة ببساطة شديدة لانه لم يكن يعلم استياء عبد الاله من هذه النقطة الحساسة . واذا بالامير عبد الاله يصرخ في وجهه وفى وجه الملك غازى بشدة غير متوقعة ، صائحاً باللغة التركية :

ـ اوقفوا هذا الكلام قبل ان اتجرأ على اهانتكم! . . .

تعجب الامير زيد من هذا الجواب الغاضب العاصف واستاء جداً ، واما غازى فقد انفجر ضاحكاً بشدة وقوة .

قال لنا الامير زيد :

ـ انه غازى! . . يحب ان يضحك دائماً! . . وقد ضحك منا الاثنين! . .

وقال ان هذه كانت المرة الوحيدة التى سمع عبد الاله يصرخ في وجهه وفى وجه الملك .

ذكر الامير زيد هذه القصة وهو يهز رأسه بعجب! . .

كانت عادة الاشراف زواج البنات من بين اقاربهم الاشراف فقط ، والامير عبد الاله لم يرض عن زواج عمته (الاميرة سارة) اخت الامير زيد الشقيقة من احد موظفى وزارة الخارجية وهو السيد (عطا امين) ، ولاعن زواج الاميرة (راجحة) اخت الملك غازى من احد ضباط الجيش وهو (عبد الجبار محمود) .

تزوجت الاميرات اخوات عبد الآله الثلاثة من اقاربهم الاشراف ، الملكة (عالية) تزوجت الملك غازى ابن عمها ، وتزوجت (الاميرة بديعة) من الشريف حسين والاميرة (جليلة) من الشريف حازم .

وردتنا دعوة من السفير العراقى لحفلة كبرى في فندق (كلاردج) .

كنا نمر في البهو في الفندق رأينا الامير (عبد الآله) وهو يسكن في هذا الفندق ، يهبط برشاقة وخفة من اعلى السلم الكبير في نهاية البهو وهو يرتدى ملابس غامقة انيقة جداً ، ويقود بسلسلة في يده اثنين من الكلاب رائعى الشكل

لونهما ابيض مرقط بدوائر سوداء صغيرة من نوع (دالماشيان) . وكان الوصي يشبه صور الامير الوسيم في احد الصور الملكية الزيتية الاوروبية .

وقفنا للسلام عليه ، سلم علينا بلطف وقال :

- ما رأيكم بهذه الكلاب الجميلة؟

ثم اتجه قبلنا نحو الباب الذى يؤدى الى القاعة الكبرى في الفندق .

كم وددنا لو كان هنالك مصور يأخذ له صورته وهو يهبط الدرج ومعه الكلبين الجميلين وينشر الصورة في لندن! . . .

دخلنا الى القاعة الكبرى حيث اقيمت الحفلة .

سلمنا على الامير زيد والاميرة زوجته ، وبعض الاصدقاء والمعارف .

رأيت السيد نورى السعيد وصالح جبر والسير (كينهان كورنواليس) الذى كان ينهض ويتمشى ويسلم على الناس ، ثم يعود الى الجلوس حيث يجلس المستر (آتلي) رئيس الوزراء والسيد نوري السعيد وصالح جبر وغيرهم .

في تلك الايام كانت السيدات على درجات عالية من الاناقة في اللباس وجميعهن يرتدين القبعات الجميلة في حفلات الكوكتيل ، وكانت هذه الحفلات المحل الوحيد الذى تلبس فيه السيدات العراقيات القبعات . كانت القبعة تكلفنا ليس فقط اسعار كبيرة ، بل الكثير من البطاقات التموينية عند شرائها . كنت احرص على القبعات ولاارتديها في الايام الاعتيادية بل احتفظ بها لحفلات الكوكتيل فقط ، وفي الايام الاخرى كنت افضل عدم لبس القبعة .

عرفنى الاميرزيد بالمستر (ارنست بيفن) وزير الخارجية ، وكان شخصاً لطيفاً جداً وسلم على باهتمام وكأنه يعرفنى . سألنى اين تعلمت اللغة الانكليزية ، وتعجب من قولى اننى تعلمتها في بغداد . بدأ يتجادل معى عن بعض الامور السياسية وكان اصدقائنا العراقيون يستمعون لما كنت اقول للوزير الكبير ، في زمن كانت الامبراطورية البريطانية هي المنتصرة ، وكانت الشمس لاتغيب عن ممتلكاتها . ويبدو انه تحمس لكلامى عن فلسطين واستمر يتجادل معي لمدة غير قصيرة والبعض من اعضاء السفارة يستمعون .

في هذه الحفلة ، قال احد اعضاء السفارة بيننا همساً ، ان الوصى غضب جداً

لان السفارة العراقية تدعو الشريفة (مصباح) الى حفلاتها . وسمعت عن لسان احد الاصدقاء في الحفلة بأن الوصى قال انه سيطردها ان رأها تحضر ثانية الى الحفلات العراقية ، واشار هذا الصديق الى سيدة كانت في الحفلة ، ولم ارها من قبل ابداً . امرأة شقراء الشعر جداً ، طويلة القامة ، نحيفة رشيقة تشبه الانكليزيات وترتدى ملابس انيقة . لم اتمكن من الكلام معها ، واذكرها الآن بصورة باهتة وكأنها شبح مر من امامى على بعد .

ان الشريفة مصباح كانت حفيدة احد الشرفاء الذى عينه السلطان في استامبول في رتبة (شريف مكة) لكنه توفى بعد ايام قليلة في استامبول قبل ان يذهب الى مكة ، وقد عين السلطان (الشريف حسين) اميراً لمكة بعده .

كتبت الشريفة (مصباح) كتاباً عن حياتها وقالت ان أباها كان احق من الشريف حسين بذلك المنصب ، واشارت الى الشريف (حسين) بصورة مهينه اثارت الوصى ضدها .

تزوجت (مصباح) من شخص انكليزى اعلن اسلامه .

إن كتابها كتب باللغة الانكليزية ، وكتبت اسمها على الكتاب (صاحبة السمو الملكى الاميرة مصباح) .

في حفلة كبيرة اخرى في فندق (الدورشستر) ، شاهدت المستر (ارنست بيفن) وسلم علينا وكأننا اصدقاء قدماء ، واخذ يحدثنى احاديث ودية لطيفة وقال انه كان يعمل في الموانئ في لندن في ايام شبابه ، ثم اشتغل بالسياسة ودخل حزب العمال . ثم اضاف انه لايزال يعرف اغانى عمال الموانئ . واخذ ينشد بصوت واطئ جداً اغنية غريبة لم افهم منها شيئاً لانها كانت بلهجة العمال (الكوكنى) . وبينما كنت استمع اليه رأيت الامير عبد الآله واقفاً قربنا فقلت للامير :

- سيدى! . . هل ترغب ان تسمع اغنية من وزير الخارجية؟

نظر الامير الي وهو غير مصدق بقولي ، وطلبت من المستر (ارنست بيفن) ان يعيد الاغنية ليسمعها الوصى . ابتسم المستر بيفن واخذ يعيد على الامير في اذنه الاغنية بصوت خافت ، والوصى يحاول عبثاً ان يكتم ضحكته .

ويبدو ان المستر بيفن اراد ان يستزيد من الصداقة مع الوصى ، اذ بدأ يقص علينا احاديث مسلية حدثت له .

اذكر مما قاله لنا بأنه عاد الى البيت في وقت متأخر في الليل ، وعندما سمعت زوجته صوت اقدامه هتفت تقول :

- اهذا انت يا ارنست؟ فاجابها قائلاً :

- اوكنت تنتظرين شخصاً آخر؟

لما رأى المستر بيفن بعض موظفي السفارة العراقية تجمعوا حولنا ، ذكر لي وهو يبتسم ان الانكليز عرفوا عن النفط ووجوده في بلاد العراق ولولاهم لما كنتم تعرفون عن النفط شيئاً . انظرى الى بلادك التي يأتيها ثمن النفط من الشركات ، وهى تصرف على تمدين البلد ورفع مستواه . واضاف :

- نحن نتعب ونستخرج النفط ، ونشتريه منكم! . . اجبته قائلة"

- اتسمى هذا شراء؟ انه استحواز على النفط ، انكم تأخذون معظم كميات النفط ولانأخذ منه سوى اقل من القليل! . .

نظر الى الجماعة باسماً وقال :

ـ ان لها مفاهيمها الخاصة . لن تفهم مني او تستمع الي! . . .

كم اود الآن لو كنا نستمع اليه ونتعلم منه! . .

في بعض ايام الاحد ، كنا نذهب الى بيت صديقنا (زياد العسكرى) وزوجته الجميلة (علية محمد على محمود) وابنتهم الطفلة (نهلة) التى يقل عمرها عن السنة الواحدة ، وكانوا يسكنون في مدينة (ميدنهيد) الجميلة الهادئة على ضفاف نهر (التيمز) . كنا نزورهم مع اصدقائنا عبد الملك الخضيرى وزوجته فضيلة وعبد المنعم الكيلانى وزوجته ساهرة . نتناول الغداء ونشرب الشاي في بيتهم ونعود مساء الى بيوتنا في لندن . وأحياناً يزورنا بيت (زياد وعلية) لقضاء يوم الاحد في لندن عندنا او عند الاصدقاء الاخرين ونجتمع معاً للغداء .

كانت الشوارع والطرق سهلة المرور لان الحصول على البنزين كان لايزال بالبطاقات التموينية والكثير من الناس لايملكون البطاقات الكافية لصرفها ايام عطلة الويك اند . وكان للدبلوماسيين عدد كبير من البطاقات يفوق ما عند الناس

الاخرين فلم يكن هناك صعوبة في تمضية السفرات اطراف لندن في ايام الاحاد .

في شهر رمضان طلب مني الامير زيد ان اذهب وازور الملكة عالية في بيتها في منطقة (ستين) في يوم عيد الفطر . كان ذلك ماكنت ارغب فيه خاصة واننى رأيت الملكة مرتين قبل قدومى الى لندن مرة بعد وفاة الملك غازى والاخرى قبل السفر الى القاهرة . كان للملكة تأثير كبير في نفسى عند رؤيتها في بغداد لشخصيتها القوية وتواضعها الجم ، وحديثها الشيق واهتمامها الكبير في تربية الملك الصغير .

طلبت صديقتى (علية) زوجة زياد العسكرى أنها تود زيارة الملكة معى أيضاً ، خاصة وان امها كانت على علاقة مع الملكة والاميرات منذ زمن ، وانقطمت الصلة بعد ان استوزر ابوها السيد (محمد على محمود) في وزارة رشيد عالى الكيلانى الاخيرة .

في اول يوم من ايام العيد ذهبنا (علية وانا) ، الى قصر الملك في منطقة (ستين) .

لا اتذكر التفاصيل كلها في هذا الوقت ولكن دخلنا حديقة جميلة مفتوحة باشجار عالية ويحيط البيت اماكن في الحديقة تحوي الكثير من الازهار المختلفة .

فتح الحارس لنا الباب ودخلنا الى بهو حيث استقبلتنا فتاة قادتنا الى غرفة هناك وما ان جلسنا دخلت علينا الملكة عالية والاميرة (عابدية) اختها الاكبر . وقفنا للملكة والاميرة وتبادلنا القبلات معهن . كانت الغرفة كبيرة وتشرف على الحديقة ، ومفروشة بأثاث جميل وبسيط ومريح .

رأيت ان الملكة (عالية) والاميرة (عابدية) يلبسن ملابس بسيطة ووانيقة . لم تلبس احداهن أي من المجوهرات او الزينة الجذابة او الملونة .

شاهدت على الجدار صورة زيتية للملكة وهى تلبس قلاده وسوار وخاتم ويبدو انها كانت كل المجوهرات التى تملكها الملكة كما قيل لي بعد ذلك .

جاءت الفتاة الشابة بصينية فضية جميلة وفيها الشاي والاكواب والكعك والكيك ، وقدمت الكوب الاول الى الملكة ثم الينا . وجلسنا نتحدث عن الحياة في لندن . سألتنى الملكة عن عملى كطبيبة وهل انا مرتاحة منه ، واخبرتها اننى

احب عملي جداً وانني استمتع بكل يوم وكأنه اليوم الاول ، وقد كان ذلك صحيحاً .

ثم سألت الملكة (عالية) عن والدتها واخوتها بدون اضافة أي شيء أخر . ادى الكلام البسيط مع (عالية) الى ارتياحها الكبير ونسيان الماضي وحركة رشيد عالى الفاشلة .

استجمعت شجاعتي وسألت الملكة بأننا سمعنا ان سمو الوصي قد خطب فتاة مصرية . ضحكت الملكة وطلبت من الفتاة الشابة ان تجلب صورة الخطيبة الجديدة .

رأينا الصورة وكانت لفتاة جميلة رشيقة تبدو طويلة القامة ، فقلت :

- ان العروس جميلة ، ياستي! . حلوة جداً! . . فأجابت الملكة :

- خللي اخلاقها تصير حلوة . هذا مانريد! . .

فأجبناها انا وعلية ، انشالله يكون كل شيء بخير ورفاه .

كان شتاء ١٩٤٧ من اسوء السنوات من ناحية البرد الشديد وقلة في الفحم الحجرى الضرورى للتدفئه مع وجود البطاقات التموينية مثل ايام الحرب . شعرت كأن بريطانيا تجمدت كلها لمدة بضعة اشهر . كان الفحم الحجرى قليلاً واغلقت عدة مراكز كهربائية واخذت البلاد ترتجف من جراء بؤسها وحاجتها والبؤس هنا طبعاً بمستوى الحياة الغربية ولبس كبؤس بلاد الشرق .

كنا نشترى اللحم والجبن والزبد ودهن الطعام والحليب والبيض كلها كانت توزع علينا بالكوبونات التموينية مثل جميع الناس . سمعنا ان بعض المطاعم كانت تطبخ لحم الخيل وتبيعه للزبائن . كذلك صفحات الجرائد كانت قليلة لاتزيد عن اربع صفحات فقط بسبب قلة الخشب المستورد لصنع الورق من الخارج ، والبنزين منع استعماله الا في حالات خاصة . هذا بالاضافة الى شراء الملابس بالكوبونات . وقد ادت هذه المصاعب الى خفض سعر الاسترليني بالنسبة للدولار الامريكي اذ كان الباوند الانكليزي يعادل اربعة دولارات وثمانين سنتاً اصبح الآن يساوي دولارين وثمانين سنتاً .

ازداد عدد العمال العاطلين وتضاعفت الجرائم وكثرت الى حد بعيد .

ومع هذا كانت الامبراطورية البريطانية ممتدة حول العالم وكان لها جيش كبير ، وبحرية هائلة وجهاز طيران مدرب احسن تدريب وكان عدد القوات المسلحة يتجاوز المليون والنصف من الافراد .

لقد فقدت هذه الامبراطورية الكبيرة الكثير من اجل الانتصار في الحرب الاخيرة ، من قواها العسكرية والصناعية والتجارية وغيرها .

اخذت الامبراطورية تشعر بالصعوبات مع البلاد الاخرى التى تحتلها مثل بلاد الهند التى تطالب بأستقلالها واليونان المحتلة والمعارك بين اليهود المسلحين الآن وبين العرب ، وبدأت تشعر ان الولايات المتحدة يجب ان تشارك في هذا العبء الثقيل .

كنا نقرأ هذه الحوادث كل يوم ونعلق عليها . كنا نظن ان الامبراطورية لن تتخلى عن الهند ابداً! . .وانها لن تخرج من بلادنا ومن مصرا! . .وكان ذلك يثير بي شعور الكره الشديد للاستعمار! . .

كنت احب هذا البلد ومافيه ، واكره استعماره لنا وللعالم! . .

الشقة الجديدة

فتشنا عن شقة واسعة ووجدناها في المنطقة الشمالية في شارع كبير تحيط به الاشجار من الجهتين اسمه (ورويك آفنيو) شقة كبيرة ومريحة تحوى غرفتين كبيرتين للنوم وغرفة كبيرة جداً للجلوس وغرفة للطعام وحمام كبير ، ومغسلة وتواليت قرب الباب للضيوف .

الاثاث كان لطيفاً وغرفة الجلوس فبها ابواب بينها وبين غرفة الطعام تفتح وتغلق حسب الرغبة وكل باب تغطيها مرآة كبيرة واحدة من الارض الى السقف في جهة غرفة الجلوس فقط ، وعدد هذه الابواب ذات المرايا اربعة . اما في جهة غرفة الطعام فأن الابواب يغطيها خشب اسود صقيل . عندما نقفل هذه الابواب تعكس المرايا غرفة الجلوس وتبدو وكأنها اكتسبت طولا آخراً على طولها الواسع فتبدو شاسعة .

وبدأنا ندعو الاصدقاء الى بيتنا . واعجبتهم الشقة كثيراً .

دعونا ابن عمى (قحطان حسن فهمى) ليزورنا ويقضى معنا عيد نهاية الاسبوع لانه كان يدرس في ويلز . وقد زارنا مرتين واستانسنا بوجوده . وعندما زارنا في المرة الثالثة كنت قد استلمت برقية من خال قحطان وهو الزعيم (بهاء الدين نورى) وفيها ينعى لنا وفاة عمى (حسن فهمى) أبي قحطان! واعقبتها رسالة من امل اختى الصغرى تصف لي التفاصيل المؤلمة .

توفى عمى في مدينة كركوك اذ كان هو (المتصرف) هناك ، وجلب جثمانه الى بغداد! . . .

لقد فقدت (عمى حسن) أبا قحطان ، وكان هذا العم اقرب الاقرباء الى نفسى منذ الطفولة! . .

شعرت وكأن شيئاً مهماً في نفسى قد غادرنى .

لقد وعدنا عمى المجئ الى لندن لكي يرى قحطان ابنه ويرانا! . . .

جلسنا مع قحطان وبكينا الفقيد العزيز وتكلمنا عنه طيلة الليل .

لم اتمكن من الذهاب الى المستشفى في اليوم التالى . . .كنت لااقوى على الحركة اورؤية الناس .

بعدها وردت رسالة طويلة من اختى (لمعان) من بغداد ، وهى تقص على ماحدث بالتفصيل عن موت عمى . الموت كان سريعاً بسبب مرض السكر الذى كان يشكو منه منذ سنوات ، وبعض التفاصيل عن جلسة الفاتحة للرجال والنساء ، وزوجته التى لم تصل الاربعين من عمرها ، والاولاد وكلهم في المدارس في بغداد ما عدا (قحطان) الاكبر الذى يدرس في بريطانيا وهو الاكبر وعمره عشرون عاماً . كان سن الولد الاصغر (الهام) الخامسة من عمره فقط .

وقد كتب الى الدكتور (ستيسى) ، وكان يداوى عمى اثناء وجود ه في بغداد ، كتب رسالة قصيرة لتعزيتى وذكر انه حضر الجنازة وذهب الى (مقبرة الاعظمية) وشاهد المئات من المشيعين من كبار المجتمع وصغارهم .

كان عمى يعرف كل الناس! . .

فقدت العم العزيز وهو في الثامنة والأربعين من عمره فقط .

سفرة الى الشمال

كان الوقت صيفاً ووقت اجازة لي ولزوجى من الدراسة ، وقد اقترحتُ ان نسافر مع صديق عراقى وزوجته لنذهب معاً لمدة اسبوع نقضيها في منطقة البحيرات في مقاطعة (كمبرلند) في الشمال الغربى من انكلترا ، وبعدها نذهب لزيارة سكوتلاندة .

لقد سمعت عن منطقة البحيرات وجمالها منذ زمن بعيد من مختلف الصديقات والمعارف الانكليز .

اثار اسم منطقة (البحيرات) الانكليزية في كمبرلند ذكريات بعيدة ، عن المدرسة الثانوية في بغداد ومعلمتنا الامريكية التى طلبت منا حفظ القصيدة الجميلة عن الشاعر الانكليزى (جون وردزورث) حول النرجس الاصفر (الدافوديل) ، والتى تبدأ بقوله :

- تجولت ، وحيداً كغمامة . . .

وبعدها رأى نفسه قرب البحيرة وتحت الاشجار وامامه كما يقول :

- عشرة آلاف نرجسة صفراء تتحرك وترقص رقصة سحرية سريعة! . . .

وقالت لنا المعلمة ان الشاعر الكبير كان من سكان منطقة البحيرات الانكليزية ويسكن قرب بحيرة (درونت وترز) في قرية صغيرة . وها نحن في طريقنا الى هذه القرية لأننا حجزنا في فندق قرب بحيرة (دروينت وتر) في كمبرلند ، وهي المنطقة التي قال عنها الرسام البريطانى المشهور (كونستابل) :

- انها من اجمل ما رأيت في حياتى! . . .

علمتنا نفس المعلمة في الثانوية ، اغنية اسكتلندية حزينة اسمها (لوخ لوموند) وقالت ان كلمة (لوخ) في اللهجة الاسكتلاندية تعنى (ليك او بحيرة) ، وسنأتى على ذكرها عند الكلام عن سكوتلاندة .

سافرنا مع الصديق العراقى (س) وزوجته (هيلين) الكندية بسيارتهم . هيلين كانت شابة في العشرين فقط من عمرها ، قدمت من (كندا) الى لندن من اجل بعثة دراسية من بلدها لكي تدرس التمثيل في (الرويال اكاديمى للفنون التمثيلية) ، وهو المعهد المشهور في عالم التمثيل الانكليزى كله ، والذى اخرج

احسن الممثلين البريطانيين منذ سنوات عديدة . .

كانت هيلين ذكية وجميلة وسريعة الخاطر وحلوة الكلام ، وهي طويلة القامة ذات لون ابيض ناصع وشعر املس طويل بنى اللون وعيون شديدة الزرقة واسعة وتحيطها اهداب سوداء طويلة ، وملامحها كلها جذابة ورقيقة ولائقة جداً للتمثيل على المسرح .

كانت هيلين بسيطة جداً في ملابسها رغم اناقتها الطبيعية وقلما استعملت المساحيق على وجهها الطفولى النضير . كنت قد رأيتها قبلا واعجبت بتصرفها وكلامها .

كان علي هيلين ان تنتظر تخرجها قبل ان تتزوج لان الطالب او الطالبة تفقد البعثة اذا تزوجت اثناء الدراسة ، لذلك تزوجت الزواج الاسلامي دون ان تخبر الاوساط الكندية .

كان زوجها شديد الاعجاب بها ، وقد كانا في الاشهر الاولى من الزواج .

في ذلك الوقت لم تكن الشوارع الحديثة العريضة جداً (الهاي وي) موجودة في البلاد . كانت الشوارع على ثلاث درجات الاولى (ألف) وتكفى سيارتين ذهاباً ومثلها لالاياب ، ودرجة (ب) وتكفى سيارة واحدة للذهاب وتقابلها سيارة للاياب اما الدرجة الثالثة فهى شوارع صغيرة ضيقة تكفى لمرور سيارة واحدة ونكاد نلمس الاشجار على الطريق ، بحيث اذا اتت سيارة اخرى في الجهة المعاكسة نقف لها لكي تمر بسلام . وكانت هذه الطرق الضيقة من اجمل ما نرى وهي تشق الطرق بين الاشجارالكبيرة التي تغطيها على الجانبين ، والمناظر التى تحيطها تجعلها تبدو كأرض خيالية خاصة بقصص الاطفال الساحرة .

اتجهنا في يوم مشمس ، الى الطريق الشمالى المؤدى الى منطقة (كمبردج شاير) ، وسرنا في مناطق خضراء زراعية وتحيط بها الاشجار الباسقة المختلفة ، وكانت الخضرة في الحقول تختلف من لون الزيتوني القاتم الى الاخضر الفاتح الى اخضر مصفراً لامع كأن الشمس ترعاه بصورة خاصة ، وهنا وهناك قطعان البقر بالوانها البيضاء والبنية والسوداء وكلها جميلة ومطمئنة ونظيفة جداً ، والغنم الوادع من ذوى الذيول بدلاً من الألية في مؤخرة الظهر ، وكذلك الخيول الشماء

المنتشرة في المزارع ، كلها بهية الشكل جميلة المنظر ، يضفى وجودها على الحقول جمالاً واماناً ورونقاً .

كنا سائرين بصورة سريعة باتجاه الشمال ، رأينا شرطى يلوح لنا لكي نقف في الطريق بسبب اصطدام سيارتين في الطريق . اوقفنا السيارة ورأينا افراد الشرطة حول السيارتين ، واذا بي ارى الاستاذ الدكتور (ماكمايكل) استاذ الطب الباطنى في مستشفى هامرسمث وهو المستشفى الذى انتهيت من الدوام فيه في بداية تموز وقد اصدمت سيارته مع سيارة اخرى ، وكان مع الاستاذ زوجته وثلاثة اطفال صغار . سلمت على الاستاذ وزوجته . كان الاستاذ وعائلته في الطريق الى (دونكاستر) ومنها الى سكوتلاندا . والان قد اصطدمت سيارته بشكل فظيع حيث لا يمكن سياقتها ، ولكن لحسن الحظ لم يُصب احد بأذى بسبب هذا الاصدام .

سمعنا الاستاذ يرغب في الذهاب الى مدينة (دونكاستر) لكي يطلب المساعدة ، وكنا على بعد يزيد عن الثلاثين ميلاً عن دونكاستر .

رأيت صديقنا العراقى صاحب السيارة ، يصر على ان يأخذ الاستاذ وزوجته واطفاله الى دونكاستر بسيارته ، وجعلنا ننتظر في هذه البقعة الى ان يعود . والصديق لم يكن يعرف الاستاذ قبلاً ، ولم اسأله لانا ولا الاستاذ ان يوصلهم! . . .

وقد استغرق ذهابه ومجيئه ساعة ونصف تقريباً قضيناها ونحن ننتظر في احد المقاهى في الريف .

كان تصرف الصديق ومساعدته للاستاذ من المكارم العراقية المعروفة التى تدهش الاجنبى! . .

سرنا متوجهين الى الشمال والغرب باتجاة منطقة (كمبرلند) وبدأت المناظر تتغير بالتدريج اذ اصبحت الأراضي جبلية عالية ووديان واسعة كانت تذكر زوجى وصديقنا (س) ببعض المناظر في شمال العراق ولم اكن قد رأيت شمال العراق الجبلى العالى آنذاك ، لان الذهاب الى المناطق الجبلية العراقية لم يكن مأموناً بسبب وجود الملاريا هناك ، ولندرة الخدمات الفندقية ، وكان اتجاه الناس في

العراق السفر نحو لبنان بفنادقه الجبلية اللطيفة واسواقه الكثيرة .

كـان هذا مـدار حـديثنا ونحن نتـجـه نحـو الشـمـال ونرتقى هذه الأراضي البعيدة . أخذنا نتسائل متى يصبح الشمال في العراق عندنا مثل لبنان . كانت صاحبتنا (هيلين) تنصت الى حديثنا وتسأل الاسئلة الكثيرة عن بلادنا وعن لبنان ومصر وغيرها . كان حديثنا وهى تصغى الينا وكأننا نعلمها جغرافية الشرق الاوسط التى كانت تجهلها تماماً! . . .

اتجهنا الى منطقة بحيرة (وندرمير) . كنت بشوق الى رؤية هذه المنطقة لأنني قرأت المسرحية المشهورة لاوسكار وايلد (مروحة الليدى ويندرمير) وانا طالبة في كلية الطب ، ولم تكن القصة عن هذه البحيرة ، بل كان اسم امرأة في القصة ، ولكن الاسم سحرنى منذ زمن طويل منذ قرائتى القصة

وشعرت اننا سنكون ضيوفاً عند شبح الكاتب اوسكار وايلد! . . .وكان حديثى مع هيلين عن اوسكار وايلد وعن الشاعر وردزورث ، لان زوجى وصديقه (س) لايهمهم الشعر كثيراً . .

حجزنا في فندق شمال وندرمير على بحيرة اسمها (دروينت وترز)

كان الفندق كبيراً فخماً وفيه اعداد كبيرة من السواح اكثرهم من بريطانيا نفسها .

كانت غرفتانا في الطابق الثانى . وغرفتنا كانت كبيرة بها حمام واسع وشرفة تطل على حديقة وراء الفندق وخلف الحديقة وادٍ كبير فيه صخور واشجار مختلفة ويمتد الى مسافة بعيدة .

دخلنا بهو الطعام للعشاء وكانت البهو فخماً من ناحية الموائد والصحون والاقداح البلورية وادوات الفضة من الشمعدانات وادوات الاكل الثمينة ، ولكن الطعام كان ، كالعادة ، لا يثير الاهتمام أبداً رغم كونه يصل الينا وهو موضوع فوق منضدة متحركة من الفضة الخالصة يدفعها (النادل) الذى يرتدى الثياب الرسمية الكاملة وفوق المنضدة الفضية اوعية فضية كبيرة أيضاً تتألق تحت المصابيح الكهربائية .

تعودنا على ذلك الطعام ولم يتذمر (احسان) من شيء! . . .

اوينا الى غرفنا بعد العشاء مباشرة للنوم بعد تلك السياقة الطويلة بالسيارة .

في الصباح تناولنا الفطور في غرفتنا وهى عادة احبها اذ تجعلنى اشعر اننى في يوم عطلة! . . .

زلنا الى الطابق الاول الى البهو الكبير والساعة تقارب العاشرة ، واذا بهيلين وزوجها تناولوا الفطور في قاعة الطعام الكبيرة . وقد طلب (س) من اصحاب او إدارة الاوتيل ان يجهزونا باربع دراجات هوائية تبقى معنا لنرى المنطقة كما نشاء حتى نغادر المكان .

اسعدتنى مشاهدة المنطقة بواسطة الدراجات الهوائية وليس بواسطة السيارة .

قضينا معظم اوقاتنا ندور على ضفاف البحيرة المحاطة بالجبال العالية البعيدة ، وجبال اوطأ منها واقرب الى ساحل البحيرة ، وكل الجبال مغطاة بالاشجار .

بحيرة (دروينت وترز) ، بحيرة جميلة وفى منتهى الهدوء والسلام ، فيها جزر صغيرة تبدو خضراء ساكنة وقلما يسمع صوتٌ لبشر فيها . كنا نصعد الهضاب غير العالية وننزل في وديان قليلة العمق . البحيرة الكبيرة يمخر عبابها الكثير من المراكب والقوارب والسفن الشراعية الملونة باشرعة ذات الوان مختلفة من الاحمر والبنفسجى الى الاصفر والاخضر ، وهذه الالوان اللطيفة تضفي على البحيرة مظاهر الاطمئنان والنعمة والجمال .

كنا نجلس وقت الغداء ونأكل السندويش الذى نجلبه من الفندق .

في احد الايام تناولنا وجبة الغداء في الفندق ، وبعدها خرجت الى شاطئ البحيرة وهو في القسم الخلفى من الفندق ووجدت ست أو سبع فتيات صغار في حوالى سن العاشرة من العمر يسبحن في البحيرة ويطلقن الضحكات الطفولية اللطيفة .

كانت الشمس مشرقة في ذلك اليوم من (تموز) . سألت احدى الفتيات عن الماء اجابت انه بارد ولكنه يصبح دافئاً بعد فترة قصيرة من الدخول فيه . اسرعت الى غرفة الملابس وارتديت ملابس السباحة ودخلت الماء بسرعة وانا اضحك مع الصغيرات ، ولكن ما ان مسنى الماء الا وشعرت اننى في ماء مثلج كأنه قطع من الجليد التصقت بي وشعرت تماماً ماذا تعنى كلمة الزمهريرا! . . . احسست اننى اذا

لم اخرج من الماء سوف اتجمد واصبح قطعة جليد . مددت يدى الى احدى الفتيات وهى واقفة خارج الماء لكي تساعدنى في الخروج لأنني فقدت القابلية للحركة تقريباً . ساعدتنى الطفلة وجلست على احد الكراسى وتغطيت بنشفة كبيرة وانا تحت الشمس ارتجف من البرد فيشمس تموز! . . . ارتديت ملابس سميكة وانا اقول : لن ادخل في هذه البلاد للسباحة مطلقاً! . . .

ولم اجرب السباحة مرة ثانية في هذا البلد ابداً! . . .

قر رأينا ان نسافر الى سكوتلاندة لأننا شاهدنا المنطقة حوالى البحيرة (درونتواترز) بشوارعها وابنيتها وكنيستها ، ولم نكن نعرف أحداً من اناسها .

توجهنا نحو ادنبرة العاصمة الاسكتلندية التى طالما سمعنا عنها ايام الدراسة في الكلية الطبية في بغداد .

في ذلك الوقت كانت سكوتلاندة تدخل الى بريطانيا من النقود الصعبة اكثر من أي بلد آخر بواسطة بيع الويسكى الاسكتلندى الى الخارج ، وخاصة الى الولايات المتحدة . والويسكى الاسكتلندى هو اعلى درجات الويسكى في العالم ، وله انواع مختلفة كلها مطلوبة ومرغوبة في جميع ارجاء العالم . وقد اقدمت الولايات المتحدة وايرلندا على تقطير الشعير على الطريقة الاسكتلاندية بنجاح في بلدها ، ولكن الويسكى الاسكتلندى يتفوق على الجميع ، والسبب هو طبيعة الارض التى تختلف من بلد اليآخر بمياهها واملاحها .

اخبرت (هيلين) ان هذا السبب في اختلاف تمورنا العراقية عن التمور في البلاد الاخرى ، رغم ان التمور العراقية تم زرعها في كالفورنيا بنجاح ، ولكن التمور العراقية تبقى الاحسن طعماً . واظن ذلك ينطبق في بلادنا على نوع خاص من انواع البرتقال من مدينة بعقوبة والكمثرى من شمالى العراق والتين الاصفر ، ولايوجد ما يماثلها في البلاد الاخرى . انها ارض العراق بمائها وتربتها وخصوبتها! . .

كنت اظن ان سكوتلاندا هي المنطقة الشمالية من بريطانيا . لم اكن اعلم ان اهلها يعتبرونها جزءاً يختلف عن اجزاء الجزيرة البريطانية وسمعت الكثير من بعض الاسكوتلانديين يعتبرون بلادهم شيئاً آخر خاصاً منعزلاً ومنفصلاً عن

المناطق الاخرى ، إذ كنت اقرأ أحياناً كلمات (سكوتلاندة ، الى الابد! .) او (بلادى سكوتلاندا! . .) مكتوبة على الجدران أحياناً اومنقوشة على بعض الموائد البسيطة في مطعم المستشفى وغيره وكأنها بلاد اخرى .

سألت احد الاطباء عن ذلك ، وكان انكليزياً ، واذا به يبتسم ويقول :

- كلام فقط! . . ان اول شيء يقومون به هو التوجه نحو انكلترا . انهم لا يستطيعون العيش في بلادهم! . .انها بلادفقيرة .

وهى الحقيقة . الكثير منهم يتوجه الى المناطق الانجليزية للعمل ولجمع الثروة . انطلقنا شمالا الى أراضي يسمونها (نورث اوف ذى بوردر او شمال الحدود) وهى سكوتلاندة ، أي كما نسمي (الشمال) في المناطق الجبلية في بلادنا .

اختفت الوان المبانئ في جدران البيوت اللطيفة الملونة في الجنوب ، واصبح لون الابنية مثل لون الاحجار المستعملة في البناء دون وجود جدران ملونة تحيط قي البيوت او في الوان الشبابيك والابواب ، والالوان هذه تضفى الكثير من البهجة والرواء في المناطق الريفية الانكليزية .

ان الفرق بين مستوى المعيشة بين الشمال والجنوب كان واضحاً بارزاً . .

قطعنا مدناً صغيرة ورأينا انهاراً كثيرة وعبرنا جسوراً حجرية قديمة ، كذلك تناولنا الطعام في مطاعم ريفية نظيفة واكلنا وجبات لذيذة من اعداد نساء سكوتلانديات يقمن بادارة معظم تلك المطاعم .

لم اكن ادرى صعوبة فهم اللهجة الاسكتلندية قبلاً . في الماضي كنت اسمع اللهجة الاسكوتلاندية في بغداد وفى لندن وكنت افهمها بسهولة لانها كانت لغة انكليزية ذات لكنة خاصة وتشديد على حرف (الراء) ، ولكنها كانت واضحة جلية . اما هنا ، كان الكلام لغة خاصة سريعة غريبة لم اسمعها قبلاً . حتى صديقتنا الكندية (هيلن) لم تفهمها جيداً . طلبنا منهم ان يتكلموا ببطء معنا لكي نفهمهم .

اخذنا نتجول ولم يكن معنا دليل ، كنا نسير حسب رغباتنا ولم نكن نعرف الكثير عن هذه البلاد النائية والتى تقارب سواحلها الشمالية المنطقة القطبية! . .

بدأت التحدث مع هيلين عن انطباعاتى الماضية عن سكوتلاندة وانا في بغداد .

تذكرت اشياء قليلة متقطعة عن هذه البلاد تعلمتها في بغداد في ايام الدراسة الثانوية ، علمتنا مدرستنا (مس سميتون) الامريكية وهي من اصل سكوتلاندى ، علمتنا اغنية لطيفة وحزينة عن بحيرة سكوتلاندية اسمها (بحيرة لوموند الجميلة أي بونى لوخ لوموند) وذكرت ان اسم (لوخ) بحرف الخاء العربية ، يعنى (بحيرة) في سكوتلاندة مثل كلمة (ليك) الانكليزية ،ومعنى كلمة (بوني) تعنى (جميلة) .

كانت هلين ، تعرف هذه الاغنية كما اعرفها انا وقالت ان كل الاطفال الناطقين بالانكليزبة يتعلمون هذه الاغنية منذ الطفولة كما يتعلمها أباؤهم واجدادهم من قبل .

والاغنية هي حول جندى يذهب للقتال يموت بعيداً عن اهله ويقول لحبيبته :

انه سيرجع الى بلده قرب البحيرة (لوخ لوموند) ، وسوف يصل الى البحيرة قبل الجنود الآخرين ، لانهم يسيرون باتجاه البحيرة بطريقين مختلفين ، هم يمشون على الطريق (الاعلى) وهو يمشي على الطريق (الاسفل) الى البحيرة ، ولكنني لن التقي مع حبيبتي على شاطئ لوخ لوموند الجميلة ابداً .

المعنى ان الطريق الاسفل هو طريق الموت وهو سائر الى القتال .

احببت الاغنية في وقتها في المدرسة وعلمتها لاخواتى واولاد عمى وكنا نغنيها معاً في البيت .

كذلك رجعت بخيالي الى بغداد أيضاً ، عندما كان والدي يستمع الى الراديو واراد ان يطفئه ، واذا بي اسمع اغنية (لوخ لوموند) تنبعث من الراديو ، فهتفت صائحة :

- لاتطفئ الراديو يا بابا . هذه اغنية سكوتلاندية اعرفها! . .

اخذ والدي يغالب ضحكته ويقول بتعجب :

- اهي كذلك؟ يبدو ان جدك كان سكوتلاندياً! . .

تظرت اليه ولم اجب . كنت ارغب في الاستماع الى الاغنية . ترك والدي

الراديو لاستمع للاغنية ونهض من مكانه وهو يبتسم :

ـ انت! . . ماذا يهمك من جدك؟

وكنت ابتسم بصمت .

وبعدها تذكرت الرقصة الاسكتلندية التى تعلمناها في الثانوية من (المسز كندى) المديرة ، حيث لبسنا التنورات القصيرة ذات المربعات الكبيرة والثنيات الكثيرة في احدى الحفلات في المدرسة ، ورقصنا رقصة (وليمة كوردون) الاسكوتلاندية .

واخيراً تذكرت الاستاذ (دوغلاس) الذى درس في الكلية الطبية وهو جراح كبير في الجيش البريطانى اثناء الحرب ، واللباس الذى كان يرتديه أحياناً بالتنورة ذات المربعات والجوارب البيضاء والقبعة الصغيرة باشرطتها السوداء ، والجيب الجلدى على جانبه ، وكان ينتمى الى عشيرة (دوغلاس) ، واتذكر كم كان يثير اعجاب الطلاب وتعجبهم من لباسه العسكري الغريب! . .

وصلنا مدينة ادنبرة مساء وكان الجو صاحياً والشمس لاتزال عالية في السماء بسبب الوقت الصيفى المضاعف ، والذى يؤثر طوله على شمالى البلاد اكثر من الجنوب ، وقد كانت الشمس السائرة باتجاه المغيب تضفى لوناً رائعاً من البهاء والبهجة على هذه المدينة القديمة .

سرنا في الشارع الرئيسى (شارع الامراء) وهو شارع كبير ، الابنية مبنية على حافة واحدة من الشارع بينما ترتفع الجهة المقابلة بصخور كبيرة الى ذروة عالية من بركان خامد ، وفوقها حصن قديم هو (قلعة ادنبرة) المشهورة والتى يقيمون عليها الاستعراضات العسكرية كل سنة .

وصلنا فندق (المحطة) الكبير وهو فندق فخم ذو طوابق عديدة ومفروش باثاث جميل . قررنا ان نرتاح بعد سفرتنا الطويلة ونشاهد المنطقة في الغد .

اخذت كراسة صغيرة عن البلد من اهل الفندق واويت الى الغرفة لكي اتعلم عادات البلد واخباره . رأيت ان الناس هنا يسمون بلاد سكوتلاندة (التاج) لبريطانيا العظمى . تذكرت انشودة قديمة سمعتها وانا لم ابلغ السادسة من العمر عن الموصل ومكانتها (كالتاج) في العراق ولم افهم معناها في ذلك الوقت :

لست ياموصل الأ ، دار عــز وكـــــرامةْ
انت فردوس العراقْ ، حبـــذاً فيك الاقامةْ
انت بدرٌ هو شمسٌ ، انت (تاجٌ) ، هو هامةْ! . .

قرأت أيضاً ، ان البلد كانت تسكنه قبائل في شمال المنطقة ، يحارب بعضها البعض منذ قرون مثل القبائل العربية والكردية في بلادنا . وقد ابطلت هذا العادات منذ زمن بعيد ولكن القبائل بقيت محتفظة بالوان ازيائها ذات المربعات (التارتان) التى ابتدأت منذ القرن الثانى عشر ، وان كل قبيلة تلبس لونها فقط ، والى الآن نرى الالوان على التنورة ذات المربعات (التارتان) وعلى ربطات العنق وكلها منسوجة من مربعات تختلف من عشيرة الى اخرى بحيث يعرف الشخص اصل الاخرين من الوان ملابسهم .

الملكة (فكتوريا) عاشت في سكوتلاندة واحبت الناس وعاداتهم ، وادخلت (التارتان) أي لباس المربعات كما هو في ملابس الجيش العسكرية للاسكوتلنديين ، وهم في الوقت الحاضر يختالون في استعراضات الجيش البريطانى بنظامهم الرائع ومزاميرهم الجميلة وانغامهم العسكرية والوطنية والعاطفية .

من المآكل في بلاد سكوتلاندة ، طعام (البوريدج) من حبوب (الشوفان) يأكلونه في الصباح ، وهو يشبه طعام (الهريسة) من الحنطة عندنا في العراق ويضعون عليه الحليب والسكر قبل تناوله ، بينما نضع الدهن الحار والسكر على الهريسة عندنا . والبوريدج لذيذ مثل الهريسة .

السمك متوفر عندهم وانهارهم مشهورة باسماك (السولمون) وكذلك اسماك اخرى لذيذة ولكننا لم نكن نأكل السمك في الفطور كما يفعلون . اللحوم هي لحوم البقر والغزلان ، ولحوم الطيور خاصة لحم (الدراج) ولهم مواسم معينة في صيده . ولم اتمكن من ان اكل السجق (المقانق) المسماة (هاجز) لأن شكله جعلنى اتجنب تذوقه .

يجب ان اضيف كلمات عن توحيد التاجين الانكليزى واسكوتلاندى بعد وفاة الملكة اليزابث الاولى .

توفيت الملكة (اليزايث) الاولى سنة ١٦٠٣ وكانت ملكة انكلترا فقط ، وهى آخر من حكم من ملوك عائلة (تيودور) الملكية ، ولم يكن لديها اولاد لانها لم تتزوج .

في سكوتلاندة كان ملوك عائلة ستيوارت يحكمونها . والاسرتان متصاهرتان فيما بينهم .

ورث عرش انكلترا بعد وفاة الملكة (اليزابث) ملك سكوتلاندة جيمس السادس من آل ستيوارت ، واصبح اسمه (جيمس الاول) ملك البلدين في عام ١٦٠٣ ، وبذلك وحُد الملك التاجين معاً للمرة الاولى وانتقل من ادنبرة وعاش في لندن .

بعد مئة عام ، في زمن الملكة (آن) وهى من آل ستيوارت وحدت (البرلمانين) الانكليزى والاسكوتلاندى في سنة ١٧٠٧ واصبح البرلمان واحداً فقط (للمملكة المتحدة) . ومقر البرلمان في لندن .

بعد وفاة الملكة (آن) ، ورث عرش المملكة المتحدة آل (هانوفر) ، من المانيا وكان الملك (جورج الاول) اول ملوك هذه الاسرة ، لم يكن يتكلم كلمة واحدة باللغة الانكليزية ، وهو الجد الاكبر للملك (جورج السادس) الملك الحالى .

(جورج السادس هو والد الملكة اليزابث الثانية) .

اصبح الكثير من الشعب الاسكوتلندى يحن الى رجوع عائلة ستيوارت الى الحكم ضد آل (هانوفر) . وكانت هناك معارك صغيرة بين البلدين آخرها كانت مع سليل عائلة ستيوارت الامير شارلس ، (الامير شارلس الجميل او بونى برنس شارلي) كما يسمونه . وكان هذا الامير يعيش خارج البلاد . وقد عاد الى سكوتلاندة ونظم جيشاً ليحارب الملك في ايام الملك (جورج الثانى) ، ليسترجع التاج الى اسرته آل ستيوارت .

تعلمت كذلك ان العشيرة التى يكرهها الجميع في الماضى ، هي قبيلة (كامبيل) . وهى القبيلة التى اشتركت مع الجيش الانكليزي ايام الملك جورج الثانى ملك المملكة المتحدة ، وحاربت منافسه الامير المحبوب (بونى برنس شارلي) .

وقد انهزم الامير شارلس ستيوارت امام الجيش الانكليزى الكبير في سنة ١٧٤٥ ، وهرب وسافر متخفياً الى جزيرة (سكاى) في اقصى الشاطئ الغربى لاسكوتلاندة ،

وفى فيلم سينمائى بريطانى ، رأيت قصة الحرب الاخيرة هذه ، وكيف كان الاسكوتلنديون كلهم يسندون الامير ما عدا قبيلة (كامبيل) التى تآزرت مع الملك . وكيف دخل القائد الانكليزى ومعه الاسكتلندى المتحالف معه من (كامبيل) ، الى البيت حيث كان الامير شارلس (الجميل) يقيم فيه مع سيدة عجوز غنية تنتمى الى عشيرة مكدونالد) وكان الامير متنكراً ، يرتدى ملابس امرأة خادمة . وكيف ان (كامبيل) عرف الامير رأساً رغم الملابس النسائية التى كان يرتديها ، ولكن دمائه الاسكتلندية الاصيلة جعلته يقول للجنرال الانكليزى :

- ارى امرأتين في البيت فقط . . . .

وهكذا غادروا البيت ، ونجا الامير شارلس! . . .

وقد فر الامير الى جزيرة (سكاى) بسرعة ، ومنها الى فرنسا ثم ايطاليا ولم يعد بعدها الى بلاده . وقد اصبح اسطورة في سكوتلانده لفترة طويلة حيث كان الناس تنتظر رجوع (البرنس شارلس الجميل) في اغانيهم وفى قصصهم يوماً بعد يوم .

تجولنا في مدينة ادنبرة واطرافها ، وشاهدنا البحيرة (لوخ لوموند) التى طالما وددت رؤيتها منذ زمن .

(لوخ لوموند) هي اكبر بحيرة عذبة في بريطانيا . ويحيط بالبحيرة بيوت جميلة ذات حدائق مزدهرة وفى البحيرة قوارب بحجوم مختلفة ،وطيور رائعة تطير فوق البحيرة بسكون وهدوء ، والمنطقة يكسوها الامن والطمأنينة الشاملة .

رأينا المناظر الطبيعية تتبدل وتبهر العين باختلافاتها السريعة ، اذ شاهدنا تلال كثيرة ووديان لاينمو فوقها الاشجار ولكنها مغطاة بعشب احمر فاتح اللون اسمه (هيذر) ، مما يجعل للمناظر صورة خلابة من الوان العشب الوردي والارجواني على طول البصر .

دخلنا في وديان منعزلة خالية من الناس وتحوى اشجار عالية ، ورأينا بحيرات

صافية متألقة في ضياء الشمس ، وسماء تثير الاعجاب بتغيرها المستمر الدائم ، والتقينا بافراد تلوح على تصرفاتهم وحركاتهم انهم من ذوى الشخصيات القوية المتحدية .

الكثير من اسماء العائلة في سكوتلاندة يبدأ بكلمة (ماك) وتعنى (ابن) مثلا (ماكدونالد) تعنى (ابن دونالد) و(مكداويل) ابن داويل .

الاسكتلنديون قوم ذو بأس ، اشداء ، ذوو شخصيات قوية ، وهم من احسن المحاربين كجنود ، وكذلك كمستكشفين عالميين شجعان اشتغلوا في المحلات الخطرة والنائية ووضعوا الخرائط والكتب الكثيرة .

وهم يفتخرون بأنتمائهم ، وقوانينهم ، وتربية مدارسهم ، والامتثال للاعراف الخلقية ، والعمل الشاق ،و يفخرون ان منهم (جيمس وات) اول من اخترع الماكنة البخارية ، و(الكسندر غراهام بيل) مخترع التلفون ، و(آدم سمث) الاقتصادى الاول ، و(جيمس سمبسون) اول من استعمل الكلروفورم كمخدر في الجراحة و(الكسندر فلمنك) الذى اكتشف البنسيلين ، ومن المستكشفين الاوائل (روبرت سكوت) مكتشف القطب الجنوبى و(ليفينغستون) المبشر بالدين المسيحى بين زنوج افريقيا وبنفس الوقت هو مكتشف اعالى نهر النيل وكذلك اعالى نهر الكونغو .وقد كان المكتشف الاوروبى الاول الذى رأى شلالات فكتوريا لاول مرة .

ومن الانجازات الثقافية مؤلفات الكاتب (السير ارثر كونان دويل) الذى ابتدع شخصية (شرلوك هولمز) الذى اصبح من اشهر الشخصيات في الروايات البوليسية في العالم . والكاتب (روبرت لويس ستيفنسون) وله قصة من اجمل القصص للاطفال (الجزيرة المسحورة) (جزيرة الكنز) (Treaseer Island) والقصة النفسية الغريبة (الدكتور جيكل والمستر هايد) وهذه القصص رأيناها في الافلام السينمائية . والكاتب السر والتر سكوت وكتاباته الكثيرة ، وله تمثالٌ كبيٌر في شارع الامراء يشبه تمثال الامير (البرت) في كنسنكتون امام بناية (البرت هول) في لندن .

كانت ايامنا في هذه العطلة قصيرة وكان علينا الرجوع الى لندن . وكنت آسفة جداً لاننا لم يكن لدينا دليل سياحي كما كان لي في باريس .

تركنا ادنبرة واتجهنا نحو الطريق في شرق البلاد باتجاه نورثامبلاند وبعدها الى لندن دون ان نتوقف في الطريق وقد قضينا ليلة في فندق صغير في يوركشير وعدنا بسرعة الى بلدتنا لندن .

بعد وصولنا الى لندن وصلت اختى (لمعان) اذ حازت على موافقة للسفر بايفاد حكومى الى لندن للدراسة في فرع الاطفال في مستشفى (كريت اورموند ستريت) . وكانت لمعان حافلة بالنشاط والثقة تتوقع الكثير من دراستها في المستشفى ومن المعلومات التى ستحصل لديها في هذه البلاد الجديدة الغريبة .

استأجرنا شقة كبيرة في (ايرلس كورت) تحوى على ثلاث غرف نوم وغرفة كبيرة للجلوس وغرفة طعام ومطبخ كبير وحمام واسع وحمام للضيوف قرب الباب الخارجى وكل ذلك بسعر شهرى لااتذكره اليوم اظنه لم يزد عن خمسة عشر باون شهرياً ، لكي نعيش نحن الثلاثة معاً . واصبحت الغرفة الثالثة للضيوف من الاقرباء في (الويك اند) مثل ابن عمى الملازم (زيد) وهو يدرس الهندسة في مدينة لافبورو وكذلك ابن عمى الاخر (قحطان) وهو يدرس في جامعة ويلس الهندسة المعمارية . وكانت لنا في باريس ابنة الخالة المحامية امينه الرحال وزوجها المحامى (يوسف المعمار) ويدرسان القانون في باريس . وقد اتوا لزيارتنا في نهاية الصيف .

وصل الى لندن من الاطباء الدكتورة (امت الزهاوى) ، والدكتور(غانم عقراوى) والدكتور(سالم الحيدرى) والدكتورة (سمحة شينا) وهم ممن تخرجوا معى في نفس السنة . غانم عقراوى استقر في لندن للدراسة ، اما سالم الحيدرى فأنه ذهب الى امريكا لدراسة فرع الولادة والامراض النسائية هناك وكذلك الدكتورة سمحة شينا .

الدكتورة امت الزهاوى سافرت الى امريكا ولم يتمكن زوجها (عبد الملك نوري) الخروج معها من العراق لاسباب سياسية . بقيت (امت) في امريكا ، ثم انفصلا بالطلاق . تزوجت امت الزهاوى طبيباً امريكياً اسمه (نيولاند) اعلن اسلامه ولم ترجع الدكتورة امت الى العراق بل بقيت في امريكا .

اتتنا اخبار من مصر تذيع ان ملك مصر فاروق الاول طلق زوجته الملكة

فريدة ، وكذلك طلق الشاه محمد رضا بهلوى زوجته الامبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق في عين الخبر .
بهتنا واسفنا جميعاً لهذه الاخبار السيئة ، وتمنينا لهم مستقبلاً افضل .

العمل في مستشفى مدلسيكس في لندن

قابلت اللجنة في فرع (الفارماكولوجى) في كلية الطب التابعة لمستشفى (مدلسكس) لكي يتم قبولى للعمل مع الاستاذ الدكتور (كييل) .
لحسن الحظ وافقت اللجنة على قبولى رأساً وعلى رأسها الاستاذ (كييل) نفسه .

كنت اذهب للدوام في مستشفى (مدلسكس) يومياً من محطة (ايرلس كورت)الى محطة قطار (اكسفورد سركس) في اوكسفورد ستريت . وهى اقرب محطة الى هذا المستشفى الكبير في شارع (مورتيمر) .
الاستاذ (كييل) استاذ علم (الفارماكولوجي او العقاقير الطبية) شخصاً لطيفاً جداً في حوالي الخمسين من العمر ، ويشتغل معه طبيبان شابان وشابة دكتورة وكلهم من الانكليز ، وكان يتصرف معنا وكأنه الاخ الاكبر لنا .
المختبر حيث نقوم بالتجارب على الحيوانات كبير ويحوى في الطابق الاعلى منه غرفة كبيرة تضم اقفاصاً مختلفة من الفئران البيضاء وخنازير غينا الصغيرة وقطط وكلاب وطائفة من القرود الصغيرة . ويعتنى اثنان من المساعدين بالحيوانات ومراقبة طعامها واقفاصها .
كان موضوع الاستاذ (كييل) آنذاك هو البحث عن علاج جديد لمرض (الاسما او داء الربو) ، والتجارب كانت كلها على القطط .
بدأت بالعمل معهم رأساً . وكان يحزننى منظر القطة الكبيرة السمينة وشعرها النظيف اللامع عندما نضعها على منضدة التشريح بعد تخديرها ونربط ارجلها ونبدأ بالعمل . لحسن الحظ ان القطة لم تشعر بأى الم او خوف بسبب المخدر . ولكن كل قطة كانت تنتهى بالموت في نهاية العملية! . . .
وعندما رأيت اول قطة للاشتغال عليها اسفت لجمالها وعيونها الصفراء

الواسعة ولونها الابيض المرقط بلون الحناء وذيلها الطويل . فما كان من الاستاذ الا ان يبتسم ويقول :

- سوف تتعلمين على ذلك ، والا لن تكون امامنا بحوث! . . .

كانت القطط تأتى من (ايرلندا) لأن الحصول على قطة سائبة في لندن كان من المستحيلات ، حيث تتمتع كل قطة في العائلة كما لوكانت الطفل الاصغر في البيت! . .

كنا نشتغل على مادة كيماوية جديدة من جماعة (الانتى هيستامين) لمعالجة مرض الربو . نعطى القطة مادة تجعل القصيبات عندها تنقبض كما يحصل في مرض الربو ، ونزرق في وريد القطة المادة الجديدة التى نشتغل عليها مثل مفيرامين أي الآنتيزان والدايفتهايدراين أي البنادريل وغيرها مما يجلبه اصحاب الادوية الطبية ، والقطة المخدرة تخديراً عاماً ، نلاحظ من الاحهزة المختلفة التى تنبأنا بارتفاع الضغط الدموى واتساع القصيبات الهوائية للقطة قبل البدء بالتجربة . بعدها نزرق الدواء الجديد في وريد القطة ونشاهد ما يحدث في القصيبات وما يحدث في الضغط الدموى لكي نرى اقل جرعة يمكن ان تؤثر على القصيبات الهوائية .

والعملية طويلة وتستغرق الاسابيع او الشهور . وكنا نشًرح قطة واحدة في اليوم . ونحتفظ بالقصيبات الرئوية للقطة بعد موتها ونشتغل على ذلك باستعمال المادة على القصيبات مباشرة بعد ان نجعل القصيبات تنقبض ثم نضيف المادة لنرى ان كانت القصيبات تتفتح ام لا .

اثناء العمل كنا نشتغل طيلة النهار كل يوم ، ونتوقف في حالتين اثناء العمل وهى في الساعة العاشرة والنصف صباحاً حيث تصل لنا كؤس القهوة . نوقف العمل بايقاف السلك الكهربائى الذى يشتغل على جسد القطة لمدة مؤقتة وهى على مائدة التشريح ، ونغسل ايادينا ونجلس لكي نشرب القهوة ونأكل قطعة بسكويت معها ونعود للعمل خلال نصف ساعة . وفى وقت الغداء نوقف العمل مرة اخرى مؤقتاً ، وقبل ان نذهب الى قاعة الحمام ، نمشط شعورنا ونغسل ايادينا ونزيح الصدرية البيضاء ونعلقها في المختبر ونذهب الى قاعة الطعام لمدة ساعة واحدة للغداء .

يجلس الطلاب على احد جوانب الغرفة ويجلس الاطباء كل مع جماعته واستاذه في نهاية القاعة . قيمة الاكل ومعه القهوة لايتجاوز الشلن الواحد! . . .

والشلن كان سعره مثل الخمسين فلس في بغداد ، اما الآن فأن الشلن اصبح خمسة بنسات! . .

دعانا الاستاذ كييل الى بيته لكي يعرفنا بزوجتة ، وكان لديه ثلاثة اولاد صغار .

اصبحنا اصدقاء مع الاستاذ كييل وزوجته ودعوناهم الى شقتنا ، ومدحوا الاكل العراقى اللذيذ .

كانت جماعة الاطباء من قسم الفسيولوجى على صداقة مع قسم الفارماكولوجى عندنا . كان استاذ الفسيولوجى (سامبسون رايت) الاستاذ المعروف ومؤلف كتاب (مختصر الفسيولوجى) الذى يقرأه جميع الطلاب في كليات الطب . وكان الاستاذ (سامبسون رايت) يتصرف وكأنه اهم شخص في الكلية بعكس استاذنا (كييل) الذى كان ودوداً وقليل الكلام .

الاستاذ (سامبسون رايت) استاذ الفسيولوجى كان قصير القامة ، اصلع الشعر ويلبس عوينات كبيرة ، وكان يهودياً . ولما علم اننى من العراق بدأ يتكلم عن موضوع فلسطين اثناء وقت الغداء ، (وكان ذلك قبل ان يعلن عن دولة اسرائيل باشهر) ويسألنى بطريقة لطيفة مازحة كيف اتصرف اذا ما اعلنوا عن دولة اسرائيل . كنت اجيبه بأن هذا الشئ سوف لن يحصل! . . لاننا سنحارب! . . كل امة العرب ستحارب اي دولة طارئة ونوقفها عند حدها! . .

كنت اتكلم بكل مشاعرى وعواطفي مثلما نتكلم في المدارس والكليات وكذلك في جرائدنا ومجلاتنا .

كان (سامبسون رايت) يضحك من كلامى ويصفني بأنني جريئة جداً! . .

في احد الايام اثناء الطعام جلس الاستاذ (سامبسون رايت) امامى على نفس مائدتنا ، واخرج من جيبه برتقالة كبيرة رماها نحوى في الهواء عبر المائدة وقال :

- هذه البرتقالة لك!

تمكنت من استلام البرتقالة من الهواء ووجدت مكتوب عليها : من تل

ابيب! . . واذا بي دون ان افكر بما سأعمل ، ارمى البرتقالة نحو الاستاذ (سامبسون رايت) مرة اخرى ، وانا اقول :

- لااريدها! . . ولحسن الحظ التقط الطبيب المجاور له البرتقالة واعطاها له . ظل الاستاذ يلقبنى بلقب العربية الجريئة! . . رغم ذلك ، كان الاستاذ (سامبسون رايت) لطيفاً كريماً معى طيلة هذه المدة .

في هذا الوقت العصيب عندنا نحن العرب ، واذا النقاش يشتد في الجرائد والمجلات الانكليزية والى البرلمان نفسه حيث تناقش النواب بحدة وعصبية حول الازياء النسائية الجديدة والتى نشر عنها صاحب الازياء الفرنسى المشهور (كرستيان ديور) حيث ابرز الملابس النسائية بحيث تصل التنورة الى الكاحل وسمى هذا الزى (النيو لووك او الزي الجديد) .

ثار اعضاء مجلس العموم من اجل التقشف وقلة القماش في البلاد ، وطالبوا النساء ان يهملن هذه (المودة) المؤذية ويمتنعن عن شراء هذه الملابس . وتعجبوا كيف تتمكن فرنسا من القبول بهذا الموضوع في زمن كهذا الزمن .

قلت في نفسي ، كان يجب علي النواب ان يقنعوا شخصاً واحداً هو كرستيان ديور بدلا من محاولة اقناع النساء! . . . .

كانت ملابس النساء قصيرة قبل الحرب بالكاد تغطى الركبة ، وبقيت قصيرة الى نهاية ١٩٤٧ ، وكنا نظن انها الطريقة العصرية للعمل بشيء من السرعة والراحة ، وان الملابس الطويلة اختفت ولن تعود ابداً .

بدأت الجرائد اليومية والمجلات النسائية تتحفنا كل يوم بالملابس الطويلة ذات التنورات العريضة والتى تستهلك الكثير من القماش وهو قليل ومحدود .

كنا لانزال نشترى الملابس بواسطة (الكوبون) وعدد الكوبونات محدود ، ولم نكن ندرى كيف نبدل الملابس جميعها ونلبس الملابس الطويلة . هل ستتمكن معامل الاقمشة من ايجاد هذه الملابس الطويلة ، والكل في حالة تقشف في الطعام والملابس مثل ايام الحرب تماماً .

قررنا جماعة العراقيات ان نهمل الموضوع ونلبس ملابسنا قصيرة كما هي .

بعد ايام قليلة بدأت بعض عارضات الازياء الجديدة من الفتيات يلبسن

الملابس الطويلة الجديدة ويسرن في شوارع اوكسفورد ستريت وريجنت ستريت وفى بعض الفنادق الفخمة في حفلات الكوكتيل مما جعلنا نشعر وكأننا اناس من الريف لانعرف عن الموديلات الجديدة شيئاً! . .

اسرعنا جميعاً كل حسب مقدار الكوبونات لديها واشترينا الملابس الطويلة الانيقة واصبحنا لانطيق رؤية ما عندنا من ملابس كنا نلبسها قبل اسابيع قليلة ونجدها لطيفة ومناسبة جداً! . .

أخذت بعض النساء يضفن قطعاً من اقمشة أخرى تضاف الى اسفل التنورة لتصبح طويلة . وتبدل شكل الاحذية وشنطات اليد للنساء واصبح الشغل الشاغل للانيقات من النساء هو تغيير مظهرهن الخارجى بشكل سريع . واستطيع ان اقول ان الزى الجديد اضاف على الجميع مظهراً انيقاً لم يروا مثله منذ سنوات طوال .

واصبح اسم (كريسيان ديور) معروفا في كافة انحاء العالم .

الملك جورج السادس والاميرة اليزابث

مشينا مشية طويلة في (وايتهول) الى ميدان (ترافالغار) ، واجتزنا الى اليسار تحت الطاق الكبير (طاق الادميرالتى او وزارة البحرية) وسرنا في طريق شارع (مول) الذى يؤدى الى البلاط الملكى أي (قصر بكنكهام) . والشارع مستقيم وعريض جداً وفى نهايته ينتصب القصر الملكى وقد اتيناه لنراه من الخارج .

امام القصر ، يوجد ميدان مستدير فيه نصب الملكة فكتوريا الذى اقيم لها بعد وفاتها في سنة ١٩١١.

يبلغ ارتفاع النصب حوالى خمسة وعشرين متراً ، يمثل الملكة فكتوريا جالسة في تمثال من المرمر الابيض معمول من قطعة واحدة فقط ، ويحيط باسفل ذلك التمثال تماثيل اربعة ، واحدها يمثل (الخير والاحسان) ، والثانى يمثل (الحق) والثالث يمثل (العدالة) والرابع يمثل (التقدم) . وكل تمثال من هذه التماثيل الاربعة يشبه بملابسه واحدة من القارات الأربع التي كانت الملكة فكتوريا تحكم فيها وهي امريكا وآسيا وافريقيا واستراليا! . . .

قصر بكنكهام بنى سنة ١٨٠٣ واصبح البلاط الملكي للملكة فكتوريا في سنة ١٨٣٧ . فيه من الغرف ٦٦١ غرفه ، يحتوي على غرف الحرس وموظفى البلاط ، بالاضافة الى غرف النوم والجلوس للعائلة الملكية ، وغرف كبيرة للمناسبات الرسمية . ويحتوي أيضاً قاعة (فكتوريا) للصور طولها ستة وسبعين مترا ويحتوي الصور الكلاسيكية المشهورة مثل صور (رمبرانت وفاندايك) والكثيرغيرهم .

وهناك قاعة الطعام الرسمية الكبرى ، وكذلك غرف الاستقبال الرسمى القاعة (الخضراء) والقاعة (البيضاء) حيث يستقبل الملك السفراء ، وغرفة (العرش) ، وفيها عرشان للملك والملكة وفوق العرشين سقف عالٍ جميل .

قرأت عن كل ذلك من قبل ، واجتذبتنى الصورة التاريخيّة للعائلة المالكة البريطانية .

كانت الملكة فكتوريا في سن الثامنة عشرة عندما اصبحت ملكة بعد الملك (وليام الرابع) ، وكانت لاتزال تنام في نفس غرفة والدتها الالمانية الشديدة الحزم . وعندما سألتها امها عما تريد الآن وقد اصبحت ملكة في هذا اليوم كان جوابها الاول :

- اريد ان استقل بغرفتى! . . .

تزوجت فكتوريا احد اقاربها (الامير البرت) وهو المانى في نفس عمرها ، من عائلة (ساكس كوبرغ كوتا) ، ولهذا الاسم اهمية لاننا سنذكره مرة اخرى .

كان الامير البرت يتكلم مع الملكة باللغة الالمانية فقط! . . .

كانت العلاقة بين الملكة الشابة وزوجها حميمة جداً ، وكانوا يحبون الاطفال ، وقد انجبت الملكة تسعة منهم ، ستة ابناء وخمسة بنات ، وحكمت ثلاثة وستين عاما اي انها حكمت معظم القرن التاسع عشر وماتت في سن الواحد والثمانين في سنة ١٩٠١ ودفنت في كنيسة ويندسور .

الملكة فكتوريا كان لقبها (ملكة) بريطانيا في ذلك الحين ، وباقتراح من رئيس وزرائها (دزرائيللى) منحت لقباً اضافياً هو (امبراطورة الهند وممتلكات ما وراء البحار)! . .

في زمن فكتوريا ، اصبحت لندن المركز العصبى لاكبر واغنى امبراطورية عرفها العالم . وكانت فكتوريا ملكة وامبراطورة تحكم ربع مساحة العالم! . . .

وفى زمن فكتوريا انتقل العالم انتقالا تاريخياً هائلاً ، بواسطة العلم والاختراعات المذهلة التى تحققت في عهدها ، فالملكة ، التى كانت في طفولتها تسافر بالعربات او على ظهور الخيل لانها الطريقة الوحيدة منذ بدء التاريخ ، وتقطع البحر للذهاب الى فرنسا بالسفن الشراعية لعدم وجود غيرها ، عاشت لتركب المراكب البخارية وتسافر بالقطار سنة ١٨٥٠ من بلدة واخرى ، لان لندن اصبحت كالشبكة مربوطة بالقطار مع المدن الاخرى! . . وكذلك شاهدت فكتوريا قطار (تحت الارض) ، واخترع في زمانها الكهرباء والتلفون! . .

كان عهدها عهد انتقال العالم القديم الى عالم الاختراع والعلم والصناعة والتجارة الواسعة .

في عالم الطب ، اخترعت في المختبر عقاقير تستعمل للتخدير الطبى في الجراحة للمرة الاولى ، منها (الغاز الضاحك) والايثر والكلوروفورم . وقد طلب بعض رجال الدين عدم استعمال المخدر اثناء الولادة لان ذلك ضد الدين في التوراة الذى يقول للمرأة : (ستلدين اولادك بالالم والعذاب) ، ولكن الملكة فكتوريا استعملت الكلوروفورم اثناء الولادة ، واعلنت ان استخدامه مفيد للامهات ، واسكتت بذلك السنة رجال الدين وتطرفهم .

كذلك ظهرت شخصيات كبيرة اثرت على التفكير العام للناس منهم العالم الكبير

(شارلس داروين) صاحب كتاب (اصل الانواع) ونظرياته عن النشوء والارتقاء ، وجداله الكبير مع رؤساء الدين والكثير من المتعلمين والكتاب .

زوجت فكتوريا بناتها الى العائلات المالكة في اوروبا مثل عائلة (رومانوف) في روسيا وعائلة (هوهنزلرن) في المانيا والى ملوك الدنمرك واسبانيا واليونان . وبعد فترة من الزمن اصبحت الملكة (فكتوريا) جدة القيصر الروسى نيكولاي الثانى ، وجدة قيصر المانيا وليام الثانى ، وغيرهم من الملوك والامراء . وقد حكمت فكتوريا ، ثلاثة وستين عاماً مجيدة لها ولبلادها .

وعندما ماتت كان اسمها قد اطلق تخليداً لذكرها في مختلف القارات من (بحيرة وشلالات فكتوريا) في افريقيا ، الى منطقة وصحراء في استراليا ، وجبال في نيوزيلند ، ومناطق في كندا وفى الكثير من الجزر الصغيرة المنتشرة في المحيطات .

وفى بريطانيا ، نجد في لندن ، محطة فكتوريا ، وشارع فكتوريا ومتاحف بأسمها ، اشهرها (متحف فكتوريا والبرت) ، وكذلك في اماكن كثيرة في المدن البريطانية الاخرى .

زوجها الامير (البرت) ، لاقى الكثير من اهمال الطبقات الارستقراطية والجرائد والمجلات في زمانه ، ومعاملتهم له كزوج للملكة فقط . كان يتكلم اللغة الانكليزية يلهجة المانية صعبة تشق على الانكليز ، ولكن بعد سنوات ، ادركوا اهتمامه بالفنون والموسيقى واهتمامه بتعليم (الشعب) تلك الفنون . اسس متحف (كريستال بالاس) وهى حديقة دافئة مغطاة بالزجاج تضم مئة الف قطعة من النبات من مختلف ارجاء الارض .

نجح المشروع اذ شاهده مليوناً شخص ، وبثمن ذلك المشروع الناجح ، افتتح البرت متحفين آخرين واحد (للفنون) وهو متحف (فكتوريا والبرت) والثانى (متحف العلوم) في لندن .

(كريستال بالاس احترق عام ١٩٣٩ ولم يبق منه الا الاسم فقط) .

بدأ الشعب يقدر الامير آلبرت بعد موته! . . واطلقوا اسمه على شوارع كثيرة في لندن ، وبني جسر جديد في لندن على نهر التيمس (جسر آلبرت) بعد وفاته وكذلك نصبوا تمثال البرت امام قاعة البرت الملكية سنة ١٨٧١ في حديقة هايدبارك بعد موته . ويمثل التمثال الامير البرت يحمل بيده الكاتالوك (للكريستال بالاس) الذي افتتحه في سنة١٨٥١ . ويبلغ ارتفاع التمثال ٥٢ متراً وتحيط به التماثيل تمثل آسيا اوروبا افريقيا واميركا .

الامير آلبرت هو الذى ادخل العادات الالمانية الى بريطانيا حول الاحتفال في وضع شجرة صنوبر والزينة في البيوت والمخازن في عيد كرسمس . والان نراها في كل البيوت والمخازن وفى الشوارع العامة في عيد الميلاد .

تزوج البرت في سن العشرين ، ومات وعمره ٤٢ سنة بسبب مرض التيفوئيد .

ارتاعت الملكة عليه وبقيت ترتدى ثياب الحداد الى ان ماتت بعد اكثر من اربعين سنة حيث توفيت في سنة ١٩٠١ .

بعد وفاة فكتوريا توج ابنها الاكبر ، البرنس اوف ويلس ، بأسم الملك (ادوارد السابع) وكان في الستين من عمره .

واصبح الملك (الخال) لمعظم ملوك اوروبا! . . .

حكم عشر سنوات ، وعند وفاته سنة ١٩١٠ حضر الملوك والامراء الاوروبيون كلهم لتشييعه ومعظمهم يمت بصلة قرابة عائلية قريبة جداً منه .

وبعد وفاته اصبح ابنه (جورج دوق اوف يورك) ملكاً وامبراطوراً باسم (جورج الخامس) .

في زمن طفولتى في بغداد ، كنت اتعلم اسماء الملوك ، واسماء البلدان المختلفة من الاطلس الجغرافى ومن الجرائد والمجلات ، كنت ارى صوراً للملك (جورج الخامس) وهو يلبس الملابس البحرية وله لحية قصيرة تحيط بوجهه وكان (ملكاً لبريطانيا وامبراطوراً للهند والدومنيونات وراء البحار) ، وكان اعظم الملوك شأناَ على وجه الارض .

كان اعجابى كبيراً عندما رأيته في السينما ، ومعه الملك (فيصل الاول) في عربة ملكية في لندن وهو يقوم بالترحيب بملك العراق ، بمناسبة دخول العراق الى منظمة (عصبة الامم) ، عام ١٩٣٢ .

كان الملك جورج الخامس ملكاً عفيفاً في حياته الزوجية ، مع زوجته (الملكة مارى) وكان مهتماً بتربية اولاده ، وكان له اربعة اولاد وبنت واحدة .

اثناء الحرب العالمية الاولى ، وبريطانيا تحارب الالمان ، كان قيصر المانيا ابن عمة الملك جورج . وبالنظر لكره الشعب البريطانى الالمان آنذاك ، اضطر الملك جورج ان يبدل اسم العائلة المالكة من اسم (ساكس كوبرغ بوتا) وهو اسم جده الامير (آلبرت) زوج الملكة (فكتوريا) ، الى اسم (ويندسور) الانكليزى . كذلك ابدل القاب اقاربه النبلاء الذين يعيشون في بريطانيا وهم من اولاد وبنات الملكة

فكتوريا ، خاصة وان اقاربهم الالمان في المانيا يحملون نفس اللقب الالمانى ويحاربون بجانب الالمان ، لذلك ابدل الملك اسماءهم الالمانية الى القاب انكليزية .

ان اهم ما يعنينا فيها هو لقب الامير (باتنبرغ) وهو من احفاد فكتوريا وقريب الملك جورج ، وكان وزيراً للبحرية الملكية البريطانية ، ابدل الملك لقبه وترجمه الى لقب (ماونتباتن) والاسم يعنى (جبل باتن) باللغة الالمانية وماونت تعنى نفس الشئ باللغة الانكليزية ، وانعم عليه بلقب كبير آخر هو (المركيز ملفورد هيفن) الانكليزى بدلاً من امير (باتنبرك) . وكان امير باتنبرك والد للادميرال اللورد ماونتباتن ، وجداً للامير (فيليب) الذى تزوخ الاميرة اليزابث ولية العهد .

والدة الملك جورج السادس ، (الملكة مارى) ، وهى زوجة الملك جورج الخامس كانت الآن سيدة تقارب الثمانين من عمرها وتعيش في قصر (كلارنس هاوس الملكى) قرب قصر بكنكهام .

كانت تظهر في الثلاثينات مع زوجها جورج الخامس في السينما والصحف في العربة الملكية او في السيارة المفتوحة وهى ترتدى احسن ما يمكن لبسه من الملابس الغالية والجوهرات الثمينة .

في شبابها كانت خطيبة ولى العهد الامير (البرت دوق اوف كلارنس) ، أخي جورج الخامس الاكبر ، ولكنه توفى قبل الزواج ، وكأن الاقدار ارادت هذه الكونتس ، وهى من اقربائهم ، ان تصبح ملكة بريطانيا في كل الاحوال ، اذ اصرت الملكة (فكتوريا) على (الكونتس مارى) نفسها ان تتزوج الاخ وقد اصبح والياً للعهد ، خطيباً لها! . . وافقت الكونتس مارى وتزوجت من اخيه وقد كان الزواج ناجحاً! . .

رأيت (الملكة ماري) مرة واحدة في شارع (هاى ستريت كنزكنتون) في سيارة (رولز رويس) سوداء تجلس في وسط المقعد الخلفى ومعها سيدتان تجلس وحداهن على يمينها والاخرى على يسارها من الحاشية الارستقراطية كمرافقات دائميات لها . كانت الملكة العجوز ترتدى ملابس بلون ازرق فاتح جداً وقبعة بنفس اللون ، وكانت المرافقات لها يرتدين ملابس غامقة اللون . ويقال اذا ارتدت الملكة ملابس

بلون غامق فترتدى السيدتان ملابس فاتحة اللون ، لكي تبدو الملكة الوالدة امام الجميع بشكل واضح امام اعين الناس .

بعد وفاة جورج الخامس سنة ١٩٣٦ ترك وراءه اربعة امراء واميرة ، كلهم متزوجون ولهم اولاد ما عدا الابن الاكبر ولى العهد (ادوارد ، البرنس اوف ويلس) الذى كان عازباً ، اعلن عن الملك ادوارد التامن خلفاً لوالده حال وفاة الملك جورج الخامس كما هي العادة عندهم ، (مات الملك ، عاش الملك) .

بقي الملك ادورد على العرش بضعة اشهر ينتظر قبل تتويجه ملكاً في الكنيسة .

كان الملك (ادوارد) معبود الجماهير بصورة لم يرها الناس في الشعب البريطانى لا من قبله ولابعده . لقد احب شخصاً وأحداً هو البرنس (ادوارد) منذ حداثته .

كان الامير ادوارد البطل المجلى للشباب في بلاد الغرب ، وبالنسبة للشابات ، كان الزواج بهذا الامير حلماً سحرياً لاميرات اوروبا وبنات نبلائها واشرافها .

تخرج الامير ادوارد من المدرسة البحرية الملكية والتحق با لاسطول الملكى ، وكان شديد الوسامة شجاعاً جسوراً في جميع شؤن الرياضة والصيد والمغامرات والاسفار في غابات افريقيا الموحشة وفى كندا الباردة وثلوجها التى لا تنقطع في فترة الشتاء ، وكان أيضاً شديد الاناقة ، يرتدى احدث واجمل الملابس وتبدو وكأنها صنعت له فقط ، وكان الشباب لارستقراطى يحاكيه فيما يرتدى ويلبس ملابس تشابه ملابس وقبعات واحذية مثل الامير .

قبل تتويجه في الكنيسة ، اعلن الملك انه يرغب ان يتزوج امرأة امريكية مطلقة مرتين ، وازواجها الاثنين احياء! . . .

صدمت الكنيسة والحكومة والعائلة المالكة والشعب كله بهذا النبأ رغم حبهم وولائهم الشديد للملك! . .

في ذلك الوقت كان الرجل المطلق اوالمرأة المطلقة ممنوع رسمياً من دخول البلاط الملكى ، فكيف بهذه المرأة المطلقة الامريكية ذات الزوجين ، ان تصبح ملكة عليهم؟

في العائلة المالكة كانت والدته ، وزوجة اخيه الثانى (دوقة يورك التي اصبحت ام الملكة اليزابث الثانية في المستقبل) ، اشد الجماعة ضراوة في رفض الزواج ، واعلنت دوقة يورك انها لن تتنازل وتنحنى امام (هذه المرأة! . .) اذا تزوجها الملك .

يبدو ان العشيقة الامريكية سمعت بهذا الكلام واخذت بين اصدقائها ، تسمى دوقة يورك (الطاهية الاسكتلندية) ، رغم كون دوقة يورك هي ابنة ارقى نبلاء سكوتلاندة وزوجة لابن الملك جورج الخامس! . . .

من الافراد القلائل الذين وافقوا على زواج الملك من عشيقته الامريكية كان المستر تشرشل! . . ولكن ذلك كان قبل الحرب ولم يكن لتشرشل حينئذٍ يحتلّ ذلك المركز الكبير بين افراد الشعب .

بعد ايام قليلة رفض الجميع هذا الزواج وذهب المستر بولدوين رئيس الوزراء الى بيت الملك واخبره :

– التاج! . . او هذه السيدة يا صاحب الجلالة! . .وارجو ان يكون الجواب سريعاً! . .

اذاع الملك تنازله عن العرش بواسطة الراديو ، وكان النص بسيطاً ومحزناً . ومن جملة ما قال :

وجدتً من المستحيل ان استمر في عملى من دون الحصول على المساعدة والاهتمام والحب من المرأة التى احبها .

بهذه الكلمات ، تنازل الملك الامبراطور ادوارد الثامن في سنة ١٩٣٦ عن اكبر عرش في العالم! . . . وهذه كانت المرة الوحيدة في تاريخ بريطانيا ان يتنازل ملك بريطانى عن عرشه برضاه! . . .

قيل ان المستر تشرشل كتب هذه الكلمة المعبرة للملك لكي يذيعها على الراديو ، ولكن الملك السابق اعلن ان باستطاعته الكتابة بنفسه! . .لكنه لم يذكر ان تشرشل لم يشترك في الكتابة! . .

اذاع الملك تنازله عن العرش الذى انتقل الى اخيه الاصغر (الدوق اوف يورك) والذى سمى بأسم الملك (جورج السادس) .

انعم الملك الجديد على اخيه الملك السابق، بلقب صاحب السمو الملكى (الدوق اوف ويندسور) . وغادر الملك السابق البلاد، وتزوج السيدة الامريكية التى يحبها في فرنسا .

كان الملك في سن الثانية والاربعين، وكانت السيدة المذكورة (المسز سمبسون) في سن الاربعين وعلى درجة متوسطة من الجمال .

بعد زواجها من الملك السابق حصلت على لقب (دوقة ويندسور) ولكنها لم تمنح لقب (صاحبة السمو الملكى) مثل زوجها ! . . .

اذكر في ذلك الوقت ماقالته (والدتى) في بغداد وكانت معجبة بالامير (برنس اوف ويلز) اثناء قراءتها عنه في الجرائد والمجلات :

- في بلادنا، عندما تصل المرأة سن الاربعين نقول فاتها قطار الزواج . فكيف تمكنت هذه المرأة القبيحة، بمطلقيها الاثنين، ان تختار اعظم عرش على وجه الارض! . . كانت والدتي في سن السابعة والثلاثين ولها ستة اطفال وبانتظار الطفل السابع . واذكر بهذه المناسبة أيضاً مقالة قرأتها في مجلة الرسالة (لاحمد حسن الزيات) اشاد بما فعله الملك وقال :

- ان الملك ادوارد اثبت ان الحب يمكن ان يعلو على الجاه والسلطة! . . .

أي سلطة! . . واي جاه! . .

كنا نفتح الاطلس الجغرافي، واذا ربع العالم ملون باللون الاحمر وهو (لون الامبراطورية البريطانية) على جميع القارات آسيا وافريقيا وامريكا واستراليا، ويملك كل ذلك (ملك)، يسكن في جزيرة صغيرة تقع في شمال العالم الاوروبى ومفصولة بالبحر حتى من قارتها الاوروبية! . . .

في بغداد احبت جماهير الشباب الملك العاشق وتمنت له حياة سعيدة .

وقد كتب له احد الموظفين العراقيين واسمه (عبد الله الحاج)(٥) برقية قال فيها :

---

٥ ـ عبد الله الحاج : لبناني كان يعد مساعداً لرئيس الديوان الملكي، ثم مدرساً في دار المعلمين، ثم عاد الى لبنان واصبح نائباً في المجلس .

- في نظرى انا الانسان البسيط ، لقد اصبحت رجلاً اعظم! . .

وقد كتبت بعض الجرائد العراقية عن هذه البرقية بصورة هزلية وخاصة جريدة (حبزبوز) .

هنا يجب ان اضيف انى شعرت وانا في ذلك الوقت في مدينة لندن ، ان الملك ادوارد الثامن اصبح بالنسبة للناس نسياً منسياً . اختفت كل علائم المديح والثناء او حتى الانتقاد واصبح شخصاً غريباً لاعلاقة لهم به سواء عاش سعيداً ام لا ، كشخص لم يعرفونه من قبل! . .

ولم يسمح للملك السابق بالمجئ الى بلاده لكي يعيش فيها ، وبقي يعيش في فرنسا مع زوجته .

اصبح الدوق اوف يورك ملكاً وامبراطوراً باسم (جورج السادس) سنة ١٩٣٦ .

هنا يجب ان اضيف ان ملوك بريطانيا ينتمون الى الملوك السابقين منذ عهد الملك (اجبرت) الذى كان ملكاً في القرن التاسع الميلادى . أي ان الملك جورج السادس ينتمى الى العرش منذ مدة تزيد عن احد عشر قرناً! . . وهوأيضاً الملك جورج السادس الملك الواحد والاربعون منذ عهد وليام الفاتح ستة١٠٨٧ .

زوجة الملك (الملكة اليزابث) وهي من عائلة ارستقراطية من اسكوتلاندا ، ولهما ابنتين هما الاميرة (اليزابث) في سن العاشرة ولاميرة مرغريت روز وعمرها ستة سنوات عندما توج ابوهما ملكاً .

تخرج الملك من المدرسة البحرية الملكية مثل اخوه الاكبر ، ووصل الى العرش بصورة لم تدر بخلده او بخلد أي شخص آخر . وكان يصغر اخاه الملك السابق بسنتين فقط .

كان الشعب يعرف عن الملك الجديد القليل بالنسية لاخيه الاكبر المشهور . وكان الملك الجديد خجولا ، يتلعثم بالكلام وينفر من الخطابات الرسمية وكان شديد التعلق بزوجته وابنتيه .

وقد اظهرت له زوجته كل انواع المساعدة والود وجعلت وظيفته الملكية اسهل عليه منذ البداية .

في اثناء الحرب اكتسب الملك والملكة حب واعجاب الشعب بسبب التأثير

الكبير الذى كان يبدو عليهما وهما يهرعان لرؤية البيوت والمحلات المقصوفة حال انقضاء الغارات الجوية! . . .

في ايام الحرب رفض الملك ان يترك البلد ويعيش في الخارج في كندا مثلاً اثناء الحروب الجوية ، وشارك الشعب مصاعب الحرب وآلامها ، ورفضت زوجته الملكة بأن ترسل الاميرات اليخارج البلد بعيداً عن القصف الجوى ، واعلنت انها ستبقى ومعها الاميرتان في البلد! . . .

كانت الاميرة اليزابث في سن الثالثة عشرة واختها في العاشرة عندما اعلنت الحرب وارسل الالوف من الاطفال البريطانيين الى كندا والولايات المتحدة للأمن والسلامة .

وعندما قصفت الطائرات الالمانية قسماً من قصر بكينكهام ، قالت الملكة لمخبرى الصحف :

- الآن لاأشعر بالخجل امام الذين ذاقوا القصف الجوى! . . .

امـا الآن ونحن في لندن ، كنا نرى الملك جـورج السـادس وزوجـتـه الملكة اليزابث وابنتيه الكبرى الاميرة اليزابث وتبلغ من العمر عشرين عاماً والصغرى الاميرة مارغريت روز وعمرها ستة عشر عاما في الصور وفى اخبار السينما . وهم يعيشون في البلاط الملكى الرسمى في قصر (بكنكهام) في لندن .

في اثناء العطل تغيـرالعائلة المالكة محل سكناها من قصر بكينكهام الى ثلاثة قصور ملكية اخرى ، إذ يقضون عطلة الكرسمس (عيد الميلاد) في قصر (ساندرنكهام) في منطقة نورفولك في شرق بريطانيا ، وايام عطلة (ايستر أي عيد القيامة) في قلعة (وندسور) ، اما عطلة الصيف فأنهم يقضونها في قصر (بالمورال) في اسكوتلاندة . ويبدو انهم لايغيرون المنهج هذا ايام عطلهم ابداً .

ان قلعـة (وندسـور) الاثرية و(قـصـر بكنكهـام) تعـود للدولة ، امـا قـصـر (ساندركـهام) وقصر (بالمورال) فأنها من املاك الملكة فكتوريا ، وبذلك تعود الى الملك دائماً .

ولية العهد الاميرة اليزابيث

الاميرة اليزابث ولدت عام ١٩٢٦ وكان جدها جورج الخامس ملكاً ، وعمها البرنس اوف ويلز والياً للعهد ولم يخطر ببال احد ان هذه الابنة ستكون وريثة للعرش .

الاميرة اليزابث كانت الثالثة في الخط الملكى بعد عمها ادوارد الثامن ووالدها الدوق اوف يورك . ولكن حياتها تبدلت بعد تنازل عمها عن العرش واعتلاء والدها مكانه ، واصبحت هي ولية العهد لابيها .

عندما اعلنت الحرب كانت اليزابث في الثالثة عشرة واختها الاميرة مارغريت في التاسعة . اثناء الحرب ، رفضت الملكة ان تترك البلد مع بناتها بسبب القصف الجوى ، واعلنت انها ستبقى ومعها ابنتاها الاميرات مع الملك في لندن . وقد ذاقوا القصف الجوى كله ، وكان الملك والملكة اول من يقصد المحلات القصوفة حال توقف القصف في لندن .

اما الاميرتان فقد عاشتا سنوات الحرب في قلعة (وندسور) القريبة من لندن ، وهناك أكملن دروسهن في العلوم المدرسية وركوب الخيل والسباحة وغيرها .

وعندما بلغت الاميرة اليزابيث الثامنة عشر قبل نهاية الحرب ، اصرت ان تلبس الملابس العسكرية وتشتغل مع المجندات في الجيش ، وبقيت مع المجندات حتى وقت النصر . وقد رأيناهم في السينما في بغداد الملك والملكة والاميرتين يحيون الشعب البريطانى يوم النصر وهم على الشرفة الملكية ومعهم المستر تشرشل ، وكانت الاميرة اليزابيث بالملابس العسكريةعلى الشرفة تحيى الجماهير مع والديها ، واختها مرغريت وكانت في الخامسة عشرة من العمر .

عند وصولنا الى لندن كانت الاميرة اليزابيث ولية العهد ، دون الحادية والعشرين من العمر وكان هذه السن هي (سن الرشد) آنذاك . (اصبح سن الرشد الآن سن الثامنة عشر) .

اثناء وجودنا في لندن كانت العائلة الملكية مدعوة الى سفرة في جنوبى افريقيا التى كانت جزءاً من الامبراطورية البريطانية الشاسعة ، والسفرة لمدة عشرة اسابيع .

في ذلك الوقت سيكون ميلاد الاميرة اليزابيث الحادى والعشرين وهو سن الرشد آنذاك ، والعائلة المالكة ستكون في مدينة (كيب تاون) في جنوبى افريقيا ، لكي يفتتح الملك البرلمان الموحد في كيب تاون ، وقرر الملك ان تصحبه ابنته اليزابيث في ذلك الافتتاح .

قبل السفرة هذه ، تساهلت الحكومة في قضية الكوبونات مع العائلة المالكة وسمح لهم بالحصول على اقمشة من الحرير والساتان للملابس ، وكذلك في اخراج المجوهرات الملكية ليظهروا بالابهة التى يقتضيها مركزهم كملكة واميرات لدولة عظمى خرجت منتصرة في الحرب .

وكانت هذه اول سفرة للاميرات خارج البلاد .

اخذنا نشاهدهم ، في الجرائد والسينما يرتدون الملابس الجديدة في الباخرة ورأينا الاميرات يرقصن على ظهر الباخرة ويلعبن العاباً مدرسية مع ضباط البحارة كما يلعب طلاب المدارس مثل لعبة الكراسى ولعبة جر الحبل وغيرها .

في يوم ميلاد ولية العهد ، القت الاميرة اليزابيث كلمة اذيعت بالراديو على جميع العالم ، قرأتها بطلاقة من دون الاستعانة بالكلام المكتوب ، قالت فيها ، وصوتها مخنوق بالعاطفة الجياشة في نفسها :

- اعلن امامكم بأن حياتى كلها ، طويلة كانت ام قصيرة ستكون مكرسة لخدمتكم وخدمة الكومون ويلث الامبراطورى الذى ننتمى جميعاً اليه . ولكننى لن املك القوة لهذه الخدمة بدون مؤازرتكم ومساعدتكم ، كما اطلب منكم ذلك الآن .

وانا اعلم ان مؤازرتكم موجودة دائماً ، وستقدم لي بصورة ثابتة ، لاتنضب ولاتنتهى! . . حفظ الله كل من يرغب المشاركة في هذه الخدمة! . .

وقد اذاع الراديو وهتفت الجرائد والمجلات لهذه الكلمة ، وبقوا يستعيدونها لمدة طويلة .

بعد ايام قليلة من رجوع العائلة المالكة الى لندن من سفرة جنوب افريقيا ، اعلن من قصر (بكنكهام) ، خطوبة الاميرة اليزابيث الى احد الامراء من اقاربها وهو (الامير فيليب) اليونانى . لم يكن الامير فيليب يونانياً بل كان من احفاد

الملكة فكتوريا ، وابن اخت للورد (ماونتباتن) وهو ادميرال في الاسطول البريطانى وهو من اولاد عمومة الملك .

كانت الاميرتان تنادي الادميرال اللورد (ماونتباتن) بكلمة (العم ديكى) ويعاملونه كعم آخرلهما . اما الامير (فيليب) فلم يكن معروفاً كواحد من افراد العائلة المالكة امام الناس .

عائلة الامير (فيليب) المالكة في اليونان كانت منفية خارج اليونان ايام كان الامير فيليب في سنوات الطفولة الاولى ، ثم توفى والده ، وذهبت والدته الاميرة (اليس) الى اهلها في المانيا ، وارسلت ابنها الصغبر (فيليب) الى اخيها الادميرال (اللورد مونتباتن) الى بريطانيا ليعيش معه .

اللورد ماونتباتن عاش كبريطانى هو وابوه الامير (باتنبرك) الذى خدم أيضاً كادميرال في الاسطول البريطانى وكان وزيراً للبحرية ايام الحرب العالمية الاولى .

نفيت عائلة الامير فيليب من اليونان في سنة ١٩٢٣ وعمر الامير سنتان فقط . وكان الامير فيليب اليونانى يعيش مع خاله (اللورد ماونتباتن) وعندما انتهى من الدراسة الثانوية في مدرسة داخلية في سكوتلندة ، دخل الكلية البحرية وتخرج ملازماً منها . اثناء الحرب العالمية الثانية حارب في اسطول الشرق الاقصى مع خاله الادميرال ماونتباتن .

احدثت الخطبة هذه تأثيراً بهيجاً ساراً عند ابناء الشعب وقابلتها الصحف والمجلات بأقصى درجات الاغتباط والسرور .

وقد اعلن ان الامير فيليب ابدل لقبه بلقب خاله واصبح يسمى الملازم (فيليب ماونتباتن) وابدل جنسيته اليونانية الى الجنسية البريطانية ، رغم انه حارب في اثناء الحرب بجانب بريطانيا ، وكذلك ابدل مذهبه الدينى الشرقى ودخل المذهب البروتيستانتى الانكليكانى .

تكلم خاله (الادميرال ماونت باتن) في الصحف وقال ، ان الملكة (فكتوريا) هي جدة جد الامير (فيليب) مثل ما هي جدة جد الاميرة اليزابيث نفسها .

وقد كان اللورد ماونتباتن وراء هذا الزواج الملكى ، الذى لقى التفاهم والحب مع الاميرة ولية العهد .

وقد قدم الامير فيليب للاميرة خاتماً من والدته يحوى على الماسة بثلاث قراريط .

كتبت الجرائد كلها ان الزواج لم يتم بواسطة زواج الاهل كما يحدث في الاسر المالكة وانه زواج مبنى على الحب بين الاثنين! . . ماعدا الجريدة الشيوعية آنذاك (الديلى وركر) كتبت بأن الزواج كان سياسياً لجلب اليونان نحو الكتلة الغربية! . . .

قال المستر تشرشل :

- هذا العرس سيكون بداية لدخول الالوان الزاهية على حياتنا الكئيبة التى سادت منذ الحرب! . .

وكان يكفى النظر الى الخطيبين لنرى دلائل الحب والغبطة على وجهيهما . اصرت الملكة وأبنتها الاميرة اليزابيث على زواج كبير باذخ الابهة ، بعكس الملك الذى كان يرغب بزواج عائلى بسيط . انتصرت الخطيبة وامها واخذت الاستعدادات لزواج كبير جداً وأن يتم بعد اربعة شهور .

قيل في الجرائد ان القطعات العسكرية سوف تشترك في الزفاف . بدأت تظهر في الجرائد النياشين العسكرية اللامعة ومعها الملابس الحمراء القانية والخيوط الذهبية الجميلة ، وكذلك ملابس الفرسان بخيولهم الرائعة وقبعاتهم ذات الريش الطويل وسيوفهم اللامعة وانطقتهم الارجوانية والتى كانت مخبأة طيلة سنوات الحرب ، كلها اخذت تخرج من ادراجها وتتهيأ لزواج الاميرة! .

كنا نمزح انا وإحسان واختى لمعان واصدقائنا ونحن نقرأ الجرائد ونسمع الراديو يذيع كل ما يتعلق بالزواج الملكى ، ونحن نقارن (الزواج الاشتراكى البسيط) الذى عقدناه في بغداد وسعادتنا به .

كنا نتمنى للاميرة وزوجها اطيب التمنيات بالسعادة .

انهم يمثلون قمة الهرم في هذا الصرح الديمقراطى الراسخ القديم .

طلبت الاميرة من الخياطين والخياطات الذين خيطوا فستان العرس ان يبقى زى الفستان وشكله سرياً الى يوم العرس وان يمتنعوا عن وصفه مع أي احد من الناس او في الجرائد .

قيل ان الفستان واشغال الزينة احتاجت عشر آلاف لؤلؤة وقطع كريستال صغيرة اشتغل عليها عشرة طرازات وخمسة وعشرين خياطة لمدة شهرين . كان طول برقع العروس خمسة عشر ياردة فيه مئة ميل من الخيوط المنسوجة .

والغريب عندنا الآن ، ان الاميرة تلقت ثلاثمئة وستة وثمانين زوجاً من جوارب النايلون ،لان النايلون كان قليلاً جداً في اسواق لندن في ذلك الوقت! . . . .

واتت الهدايا من الحكومات المختلفة ومن افراد الشعب وصل عددها الفين وستمئة وستة وستين من بينها حصان مشهور ، فرو نادر من (المنك) ، كؤوس كريستال من تشيكوسلوفاكيا كؤوس ذهبية لادوات القهوة ، جهاز تلفزيون (كان التلفزيون نادراً) ولم نكن قد رأيناه ، وقطعة ماس وردية بحجم اربعة وخمسين قيراط لايوجد مثلها في العالم ، ومزرعة وغابة للصيد في (كينيا) يافريقيا ، وغير ذلك من الهدايا الثمينه .

سمعنا اخبار العرس الملكى من الراديو ثم شاهدنا الصور في الجرائد والسينما .

في موكب العرس سارت ثماني عشر عربة تجرها الجياد الكريمة .

من بين الضيوف ستة ملوك وست ملكات ، سبع اميرات ، ، امير بدرجة (وصي) ، راجا هندى واحد ، ولى عهد واحد وواحدة ولية عهد ، اربعة عشر من (الدوقات) الرجال ، واحدى عشرة من (الدوقات) النساء ، سبعة من الاشراف بدرجة (كونت) ، ست (كونتيسات) واحد عشر (فايسكونت) .

كل هذا العدد من السيدات ادى الى وجود سبعة وستين تاجاً مذهباً كانت في الحفلة .

قالت زوجة احد السفراء المدعوين :

– المجوهرات في تلك الحفلة كانت تبهر البصر! . . حبست انفاسى في هذا الاجتماع الكبير . لقد اخرجت النساء المدعوات مجوهراتهن من البنوك ، وا صبحت تيجان الالماس تلبس وكانها قبعات عادية . دوقة (روتلاند) غطت كل رآسها بالالماس وتقول انها ورثته من جدتها! . . . امرأة تلبس عمامة من الؤلؤ كل

لؤلؤة منها بحجم (الكرز) ، وهناك سيدة تضع فوق كتفها شال يتدلى منه الزمرد كانه عناقيد عنب .

وفي يوم الزفاف قال رئيس اساقفة كنتربرى :

- انه سيزوج الاميرة كما يزوج أي فتاة قروية في هذا اليوم في كنيسة ريفية في قرية بعيدة في الوديان ، واقوم بنفس الصلوات واعطها نفس البركة! . .

قال ذلك رئيس اساقفة كنتربرى ، ولكن ، في الحفلة كانت هناك اثنى عشر كعكة كبيرة جداً في حفلة الاستقبال وبينها كعكة بطول تسعة اقدام وهى التى قطعها الامير (فيليب) بسيفه! . . .

في خلال يومين امسى الامير المعدم ، الذى يتقاضى ثمانية جنيهات اسبوعياً كملازم في البحرية الملكية قد اصبح من النبلاء بدرجة واسم ومركزتسمح له ان يضع الخيوط المذهبةعلى ياقته في ثيابه البحرية ، واصبح لديه خادم خاص ، وسكرتير ، ومرافق ، وبيت في (كلارنس هاوس) الملكى وله راتب سنوى بخمسين الف باون ، وقصر لقضاء الوقت في الارياف والعطل وايام الويك اند (العطلة الاسبوعية) .

قبل الزواج بيوم واحد ركع الامير (فيليب) امام الملك ، الذى انعم عليه بوسام (الكارتر) وهو اعلى وسام يمنح من قبل الملك ، ويلبس مع الوسام الحزام الازرق والنجمة المثمنة .

ان الامير (فيليب) ، خسر الاسم اليونانى ولقب امير وجنسيته اليونانية ومذهبه المسيحى اليونانى .

لكنه حصل على ثلاثة القاب بريطانية اكبرها (دوق ادنبرة) ، ويخاطب بأسم (صاحب السمو الملكى) (والدوق) عادة يسمى (صاحب السمو) فقط .

قضى العروسان جزءاً من شهر العسل في قصر اللورد ماونتباتن الجميل ثم اكملوا الشهر في قصر (بالمورال) في سكوتلاندة .

بعد اشهر قليلة اذيع من قصر (بكنكهام) ان الاميرة اليزابث حامل وتنتظر الولادة في شهر نوفمبر ، وسوف تنقطع عن حضور الحفلات الرسمية .

استبشرت الجرائد والمجلات بهذا الخبر وبقينا نرى الاميرة باثوابها الجديدة

للحامل وكيف تبدو وماذا تأكل والجميع يتوقع قدوم صبيٍ للاميرة! . . .

في ١٤ نوفمبر ١٩٤٨ علق اعلان ملكي على الباب الحديدى خارج قصر بكنكهام يعلن ان الاميرة اليزابيث ولدت ولداً! . .

ارتفعت اصوات الناس بالهتاف والاغانى خارج القصر لساعات طويلة تلك الليلة الى ان اعلن الشرطى الذي يقف قرب تمثال فكتوريا بالمكروفون ان يخففوا الاغانى والهتاف .

تحول الناس الى ترافلكار سكوير قرب النافورة الكبيرة ووجهت المصابيح الكهربائية في النافورة الى اللون الازرق لان الطفل كان صبياً . (اللون الوردى هو لون ولادة البنت في هذه البلاد) . وكان اول من زار القصر لرؤية الاميرة هي (الملكة مارى) ام الملك وجدة الاميرة .

ارسلت البرقيات حالا الى جميع اطراف الامبراطورية والكومونويلث وبريطانيا لرفع العلم البريطانى وتزيين الاماكن العامة واخذت الاجراس تقرع في كل كنائس الامبراطورية حول الارض ، واطلقت كل باخرة في الاسطول الملكى البريطانى في جميع المحيطات والبحار التحية للولادة الملكية .

محطات الراديو في كل الولايات المتحدة الامريكية اوقفت برامجها حالا لكي تذيع اعلان الولادة بتلك الدقيقة . وكتبت كل جرائد امريكا مشيدة بالخبر السعيد على الصفحة الاولى منها .

وفى البرلمان خطب رئيس الوزراء العمالى المستر (اتلى) مرحبا بالامير الصغير وتبعه رئيس المحافظين المستر تشرشل ، (وحياالابوين في هذا اليوم المشرق والامير الصغير الذى ولد في هذا العالم الملئ بالعواصف والزوابع) .

بعد فترة اعلن ان الطفل في قصر (بكنكهام) انعم عليه بأسم رباعى وهو (شارلس فيليب آرثر جورج) ، وعمد على الطريقة المسيحية الانغليكانية من قبل رئيس اساقفة كنتربرى بماء من نهر الجوردان (نهر الاردن) في حضور الملك والملكة وبعض الاقارب كما رأينا في الصور .

وهكذا ادخل (البرنس شارلس) الحديث الولادة ، الى الكنيسة الانكليكانية والتى سيحميها دائماً في مستقبل ايامه وفقاً لاحكام وتقاليد البلاد .

قبل نهاية شهر حزيران ١٩٤٧ وصلتني رسالة من بغداد تطلب مني حضور اجتماع طبى يعقد في مدينة (زوريخ) في سويسرة في بداية تموز . وصلت الرسالة قبل المؤتمر بثلاثة ايام فقط ، وطلب مني ان اذهب واحضر الاجتماع .

قبلت الدعوة رأساً واخبرت السفارة بذلك .

اسعدنى ان اذهب الى هذا البلد الصغير الجميل المشهور ، والذى يتجه نحوه السواح في جميع فصول السنة ولكن بصورة خاصة في ايام الشتاء الباردة للتزلج على الثلج . كان الجو دافئاً ربيعياً ،وسويسرة جميلة في جميع الفصول .

قبل سفرى من لندن اتصل المحامى الشاب (عبد الله البستانى) بزوجى واعطاه رسالة راجياً ان احملها الى اخته (رفيعة) التى كانت تقيم مع زوجها الاستاذ المصرى (مصطفى كامل) في مدينة (زوريخ) .

كانت اخته طالبة في السنة الاولى في كلية الحقوق في بغداد في سنة ١٩٤٠ ، وتزوجت من الدكتورالمصرى الذى كان استاذاً في الكلية ، وتركت كلية الحقوق وغادرت العراق معه الى مصر .

ودعني زوجي في محطة فكتوريا وسافرت بالقطار الى مدينة (فولكستون) الساحلية على بحر المانش لكي اعبر البحر الى مدينة اوستند البلجيكية ، واذهب من هناك بالقطار الى مدينة (زوريخ) في سويسرة .

كنت الوحيدة من العراق في ذلك المؤتمر الاوروبى .

البحر كان هائجاً بصورة خفيفة والباخرة كانت كبيرة ولون البحر رمادياً . لم اشعر بغثيان او بقئ ولكنني امتنعت من الذهاب الى المطعم في وقت الغداء ، لأنني عفت عن الاكل بعد عبور البحر وليس لي رغبة في ان ارى الطعام امامي! .

وصلنا (اوستند) وشعرت بدوار خفيف ، ولكنى اخذت القطار الى زوريخ .

في القطار كنت نصف نائمة ونحن نمر بين أراضي خضراء وبيوت ملونة وابقار واغنام فوق التلول وفى الوديان الى ان وصلنا زوريخ .

في المحطة بدأت اشعر بالجوع بعد استراحة القطار .

كانت محطة زوريخ صغيرة جداً بالنسبة لمحطات لندن ، ولم يكن بها سوى القليل من الناس بعكس محطات لندن وازدحامها وضوضائها المستمرة . المحطة كانت نظيفة وزاهية والجو صاحياً مشرقاً . وضعت الحقيبة في مستودع الحقائب وقررت ان اتناول بعض الطعام قبل ان اذهب الى الفندق . كان المطعم مفتوحاً وامامه كراسى اضافية وضعت في الممشى خارج المطعم .

شاهدت الموائد مغطاة باغطية بيضاء منشّاة والازهار في كل مكان .

جلست على مائدة وطلبت نوعاً من السمك ومعه البطاطا والخضار . كنت في سن اتمكن من تناول ما اشاء من الاطعمة دون خوف من السمنة ، إذ كنت اتناول ثلاث وجبات في اليوم ما عدا وجبة الشاي الكبيرة عصراً ولم ازد عن خمسة وخمسين كيلو ابداً .

اتى (النادل) بصينية تحمل اناء كبير معدنى فضى اللون مستطيل الشكل وضعه امامى . رفعت الغطاء واذا بسمكة كاملة تكفى لاثنين على الاقل وحولها البطاطا المقلية والمسلوقة وخضار مستحضر بعناية كبرى ووضع امامى انواع من الخبز الحار والبارد وماء بارد (مثلج) ـ الماء المثلج لم يكن يعرفه الانكليز آنذاك في المطاعم ـ وكانت الملاعق والاشواك والسكاكين مزينة وتبدو غالية الثمن مما لانراه الا في المطاعم الفخمة في لندن .

اين انا من مطاعم لندن اذا طلبنا الخبز كنا نفقد الشوربة بدلها ، ونشرب الماء دافئاً تقريباً وكنت اتجنب الماء في مطاعم لندن ، واشرب الشاي بدلاً منه مع الطعام .

بعد ذلك قدم لي صحن الحلوى وكان صحناً عميقاً كبيراً يحوى قطعة كبيرة لذيذة من الكيك (جاتو) وفوقها مقدار كبير من ايس كريم الشوكولاتة . وبعدها القهوة بالحليب . وعلى المنضدة امامى ، صحن كبير يحوى بعض الفاكهة المنوعة التى لم اتمكن من تناولها لان الاكل كان كثيراً .

كان حمام المحطة على درجة من النظافة المفرطة والذوق ، من المناشف الورقية الجميلة الى الصابون الملون . كل الاشياء الصغيرة التى رأيتها تدل على بلد ينعم بالخير العميم .

ان سبب هذا الوصف للاكل في المحطة هو مارأيته من تقشف في مطاعم لندن لمدة سنة واحدة من الطعام البعيد عن الذوق او اللذة حتى في ارقى الفنادق المشهورة في انكلترا ، عندما نخرج من اجل وليمة ، ويأتى الاكل في اجمل الاوعية الفضية واجمل ادوات المائدة والاقداح البلورية والشمعدانات الفضية الخالصة ، نجد الاكل قليلاً والخضر تبدو كأنها قديمة واذا طلبنا الحساء يمنعونا من اكل الخبز . اما في المطاعم الاعتيادية فأننا نفقد جمال الفضة والشمعدانات اللامعة ، ونأكل ما تقدمه لنا الفتاة التى تخدمنا . وفى المستشفى ، حيث اتغدى كل يوم تقريباً ، فالحالة اسوء لاننا لا نأكل الا مايطبخ يومياً للجميع .

في بريطانيا كنا نأكل بواسطة الكوبونات ، اما في سويسرة شعرت انني اعيش في بلد مملوء بالخير والنعمة .

ذهبت الى الفندق الذى تسكن به السيدة (رفيعة اسماعيل البستانى) مع زوجها الاستاذ المصرى (الدكتور مصطفى كامل) .

في الطريق لاحظت ان الابنية والشوارع كاملة لم يتخرب منها شيء ، وكل الاشياء تبدو وكأنها تحت صيانة مستمرة ، التماثيل في الشوارع ، والكنائس الكبيرة ، والرموز القديمة ، والمخازن كما رأيتها من الخارج . انها مثل بيت باذخ ينعم بالغنى والابهة . سألت نفسى : ماذا فعلت الحرب بالامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس؟

ان المستوى العام في سويسرة يبدو اعلى بكثير منه في بريطانيا! . .

وصلت الى الفندق الذى لااتذكر اسمه الآن ورأيت السيدة رفيعة البستانى .

السيدة (رفيعة) تركت بغداد وذهبت الى مصر مع زوجها منذ سبع سنوات .

كنت اعرف (رفيعة) قليلاً في بغداد ، لأنها كانت في نفس الصف في كلية الحقوق مع ابنة خالتي (امينة الرحال) وكنت اراهما معاً . سمعت كذلك ان شقيقين من اخوان (رفيعة) نزعت عنهما الجنسية العراقية واخرجوا خارج العراق اثناء حكم (بكر صدقى) ، واظن ذلك كان اول حادث نزع (الجنسية) عن شخص عراقى ، وقد حدث ذلك منذ اكثر من عشر سنوات باعتبارهم هنوداً في الاصل تجنسوا بالجنسية العراقية . وقد سكنت عائلتهم العراق من قبل الحرب العالمية الاولى .

رفيعه وزوجها اظهروا اللطف والاهتمام الكبير بقدومى ، وشكرتهما على ذلك وبقيت في نفس الفندق قربهما .

لاحظت بعد فترة قصيرة ، ان (رفيعة) تتعب كثيراً اذا مشت بصورة سريعة او لمسافة طويلة . اخبرتنى انها مريضة بالقلب منذ الطفولة في بغداد ، لذلك لم تكن تخرج الآن من الفندق الا قليلاً ولا تذهب الا للاماكن المجاوره للاوتيل . اسفت جداً لمرضها خاصة لان وجهها كان مشرقاً باسماً لايدل على المرض وملابسها انيقة جداً ، وكان زوجها الدكتور مصطفى يوليها العناية الكبيرة طيلة الوقت .

حاولت جهدى ان لااسأل (رفيعة) عن اخوانها وكانت قليلة الكلام عنهم سوى قولها ان واحداً منهم يعيش في باريس وهو (يوسف) والاخر في الشام وهو (عبد القادر) .

وجدت (رفيعة) في زوريخ ، وكذلك شقيقها (عبدالله) في لندن على درجة عالية من التهذيب الاجتماعى والدماثة ولطف الكلام ، والحديث مع رفيعة ومع زوجها الدكتور مصطفى كامل كان حديثاً لايمل .

كنت اعرف عنهم من بغداد انهم من الهند في الاصل ، وابوهم اسمه (اسماعيل مستان) ، وانه جاء من الهند واشتغل في بغداد مع السيد (عبد الله الكيلانى) وهو والد السيد يوسف الكيلانى الذي يعمل في وزارة الخارجية آنذاك .

ان السيد عبد الله مستان سمى ثلاثة من اولاده العشرة باسماء اولاد السيد عبد الله الكيلانى الثلاثة أي (عبد القادر ويوسف ورفيعة) ، وقد سميت عائلتهم باسم (بستانى) بدلا من (مستان) لان الناس في بغداد عربوا اسم والدهم واصبح اسمه (الحاج اسماعيل البستاني) بدلا من مستان .

ان اولاد الحاج البستانى كلهم تلقوا شهادات عالية واشتغلوا في وظائف مختلفة بنجاح تام .

كذلك تعرفت على صديقهم العراقى (محمود كنونة) وزوجته السويسرية . كان محمود لايزال يدرس في جامعة زوريخ . وقد دعانا محمود للعشاء في بيته ،

حيث اكلنا الطعام العراقى وتمتعنا بالحديث عن بغداد واخبارها .

حضرت الاجتماع الطبى وكان يدور حول الامور الصحية والاهتمام بالمدن الجديدة بعد الحرب وكذلك بالمدن التى تهدمت بتأثير القصف والغارات الجوية . كنت انا بعيدة عنها ، ولكنى شعرت بالفرح لوضع اسم العراق بين هذه الامم الاوروبية . في ذلك الوقت كان مجرد وجود شخص من البلاد النائية كالعراق يثير الانتباه بين الاعضاء خاصة اذا كانت امرأة وطبيبة . والان اصبح كثرة وجود الاجانب وخاصة من بلادنا مشكلة في البلاد الاروبية! . .

اثناء فترات الطعام والحفلات كان اسئلتهم عن العراق ودرجة تقدمه ، وعدد النساء اللواتى يشتغلن في الطب وسائر الوظائف الاخرى . كانت ايام المؤتمر لطيفة مؤنسة تعلمت منها الكثير عن الاجانب من غير البريطانيون . كنت اتكلم اللغة الالمانية البسيطة مع الاعضاء من سويسرة والنمسا ورأيت طبيبين من المانيا تركوا بلدهم اثناء حكم النازى وعاشوا في سويسرة .

اظهروا العجب لمعرفتي اللغة الالمانية البسيطة والتي تعلمتها في المدرسة في بغداد! . .

رأيت مدينة زوريخ واطرافها وأعجبت بها جداً . اعجبت بشوارعها العريضة الشديدة النظافة والبيوت الجميلة والكنائس القديمة الجميلة وزينتها الباقية بعد قرون طويلة وكأنها بنيت قبل سنوات قليلة والعمارات الكبيرة الخالية من السخام الاسود الذى يجلل الابنية كلها في لندن ، احببت سياراتهم الملونة التى تبدو كلها جديدة لامعة بصرف النظر عن عمر السيارة ، وكذلك الباصات ذات اللون الازرق والابيض ، واعجبت باناقة الناس رجالا ونساء .

وتعجبت من المصارف والبنوك الكثيرة التى تؤمن بالسرية التامة للجميع .

المدينة مبنية قرب بحيرة زرقاء هادئة تمخر فبها المراكب الكبيرة والصغيرة ، وتحيطها الاضوية الملونة في الليل وانعكاساتها في البحيرة وتبدو وكأنها مدينة خيالية .

المخازن صغبرة وانيقة وتحوى احسن البضائع واغلاها . رأيت ويالفرحى ، الملابس تشرى بدون كوبونات . اشتريت بعض الملابس الصوفية ومعطفاً للمطر ذا

قبعة وهو اخضر اللون انيق جداً ولم ار مثله في لندن ، لكن الاسعار الغالية منعتنى من شراء الكثير . كنت في عمر اجد لذة عظيمة وفرحة كبيرة في شراء الملابس .

بضائع لندن ، لولا الكوبونات ، كانت ارخص من البضائع السويسرية بكثير .

قرات في دفاتر السياحة ان الشبان قي سويسرة ، يتركون عملهم ثلاثة اسابيع في السنة لاداء الخدمة العسكرية وان الجيش السويسرى على درجة عالية جداً من الكفاءة العسكرية الجيوش الاوروبية الكبرى . يقال ان (هتلر) لم يهاجم سويسرة اثناء الحرب بسبب معرفته قوتها العسكرية رغم حجمها الصغير ، ويعلم انها تملك تفاصيل كثيرة وعديدة عن كيفية نسف الانفاق في الجبال ، والحروب صعبة جداً في المناطق الجبلية العالية .

انتهى اجتماع المؤتمر وجمعت الملاحظات عن المؤتمر لكي ابعثها اليبغداد من لندن .

قررت رؤية ما استطيع من سويسرة ، هذه البلاد الجبلية الجميلة والثرية وازور بعدها مدينة باريس ، (مدينة النور) لكي اراها عياناً ، إذ كنت دائماً اراها في خيالى فقط .

ذهبت في اليوم التالى وحجزت على سفرة طويلة بسيارة (باص) تبدأ من مدينة زوريخ ، وتنتهى عند مدينة جنيف قبل مغادرتى البلاد السويسرية .

لم يكن احد من الاصدقاء معى في هذه الرحلة . كنت مع جماعة من الرجال والنساء وكلهم اجانب . لم اشعر بأى قلق او خوف . شعرت بأنني اتذوق معالم المدنية الحقيقية كما اريدها ان تكون في عالمنا هذا .

من كان يظن ان تجلس فتاة عراقية في العشرينات من العمر وحدها في باص في سويسرة مع جماعة اجانب ، وتشعر بكامل الاطمئنان وهى تتسلق اعالى جبال الالب! . . .

قبل ثلاثين سنة فقط ، لم تكن المرأة تخرج من بيتها الا للضرورة القصوى محجبة ، تتعثر في مشيتها ، ولا تسير وحيدة في الطريق ابداً ، بل دائماً بصحبة اناس من بيتها ، وها انذا مع جماعة من الاجانب ، لا اعرفهم من قبل ، واشعر

بامان واطمئنان وكأنني بين اهلي! . . .

لم اعلم عن الحال في بعض البلاد العربية ، ولا المستقبل البعيد عندما ابدل الخميني حرية المرأة القليلة وحكم على النساء بعدم السفر الا مع احد المحارم! . .

رأينا مدناً عديدة وتسلقنا الجبال العالية حيث القمم منها لايزال مغموراً بالثلج . كانت الجبال كلها مغطاة بالاشجار العالية الكثيفة من فصيلة الصنوبر ، والانهار تجرى في وديان عميقة بين الجبال لانها شقت طريقها الى الوديان منذ اجيال سحيقة . ورأينا البحيرات منتشرة في جميع المناطق بين الوديان وفوق الجبال ، حيث اشتد عجبى عندما رأيت بحيرة عالية في ذرى جبال الالب الشاهقة ، ورأيت لدى وصولنا الى هذه المرتفعات الكبيرة تضاؤل طول اشجار الصنوبر واعدادها بحيث تقل هذه الاشجار تماماً وينعدم وجودها في القمم ، وتصبح خالية من الاشجار ولايوجد فيها الا الصخور الكبيرة ، يبدو ان الارتفاع الهائل يوقف نمو الاشجار لشدة البرد هناك . بقيت احدق بالقمم الصخرية الجرداء وحولنا مئات ومئات من القمم الخالية من كل اثر للنبات . شعرت وانا انظر الى هذه الذرى المرتفعة الخالية ، وقممها التى لاتنتهى والتى تناطح السماء ، وكأننى اقف على سقف العالم! . .

هبطنا من ذلك العلو الطبيعي الشامخ وانا اشعر بقوة دماغ الانسان الضعيف الصغير الذى قهر الجبال وارتقى الى اعلاها براحة تامة وسيارة مدفئة وطعام وافر! . . لقد شاهدت الكثير من الجبال في الشرق والغرب وكلها جميلة ، ولكن سلسلة جبال الالب فاقت في نظرى كل ما شاهدته من الجبال بكل ماتحوى من الجمال الطبيعي والبشرى .

هذا البلد ذو اللغات المختلفة الأربع ، البلد المنغلق جغرافياً والمنفتح دولياً والراقى عقلياً ، والذى انتج اكبر عدد من الحائزين على جوائز (نوبل) في العالم! . . .

بدأت تظهر الاشجار الصغيرة بالتدريج كلما هبطنا ، واسترجعت طولها السامق ولونها الاخضر وظلالها الداكنة العميقة ، وانا من عشاق الاشجار الكبيرة القديمة .

مررنا في مدينة (برن) العاصمة وهى قريبة جداً من الأراضي الالمانية ورأينا نهر الراين ، النهر الذى تفخر به المانيا في اشعارها الوطنية ، انه اصغر بكثير من نهر دجلة وقد رأيته يجرى بين ضفاف صخرية قوية لاتشبه سواحلنا الرملية على شواطئ نهرى دجلة والفرات .

كنا نأكل وجبة الغداء أحياناً في اعلى الجبال في مطاعم خشبية ملونة ذات شرفات صغيرة ، وهناك اكلت وجبة الجبن الحار المائع مع الخبز أي (الفوندو) السويسرية لاول مرة واعجبتنى كثيراً واصبحت من الوجبات المفضلة لدى . ولم اتناول ابداً طعام (التارتار ستيك) وهي لحم مفروم بالبهارات ويؤكل غير مطبوخ! . .

في اعالي الجبال الشاهقة ، رأينا رعاة البقر بقبعاتهم ذات الريشة الطويلة وابواقهم الكبيرة التى تلامس الارض لطولها ، وهم ينفخون الاصوات الرنانة العذبة الخاصة بهم ، لكي يرشدوا البقر اليهم . كانت الابقار من اجمل ما رأيت بالوانها واحجامها الكبيرة وكأنها تعلن للناس جمال الجبال والطمأنينة والنظافة والموسيقى .

فكرت بابقارنا واغنامنا لمدة قصيرة ، ثم امتلكت افكارى وقلت لنفسى :

ـ تمتعى بما تشاهدين! . . سوف نرى امثال هذه الابقار في المستقبل في بلادنا . ان ماحصل هنا يمكن ان يحصل عندنا! .لامستحيل لمن يجتهد! . .

كانت افكارى واسعة وآمالي كبيرة جداً بما سيحصل في بلادنا في المستقبل القريب الزاهر! . . .

مررنا بمدينة (مونترو) و(ولوزان) بسرعة ووصلنا (جنيف) حيث قضيت هناك ليلة واحدة . ومن شباك الفندق رأيت الأراضي الفرنسية عبر بحيرة جنيف (الليمان) . وفي سواحل هذه البحيرة الشاسعة تنتشر المقاهى والابنية الكبيرة والصغيرة ، والمراكب الصغيرة تنقل الركاب بين ضفتى البحيرة او الى القسم الفرنسى الواقع على الليمان .

سويسرة هي اغلى بلد سياحي للتزلج على الثلوج ، وبلاد الجبال الرائعة والبحيرات الزرقاء الصافية والنظافة المفرطة والبشر المتمدن وهي أيضاً بلد الساعات المشهورة والبنوك المثقلة بالمال من جميع جهات العالم .

هذه البلاد الجميلة لم يكن لديها لغة واحدة للتخاطب . كان الكلام يتغير حسب المنطقة ، مدينة زوريخ وجوارها المانية ومنطقة جنيف ولوزان فرنسية والاماكن التي تجاور ايطاليا تتكلم الايطالية ولهم لهجة رابعة اسمها (رومانا) يتكلمها القليل منهم .

ان اختلاف اللغات لم يؤثرعلى الحياة في سويسرة بل انهم يعيشون عليارقى مستوى في اوروبا ، ولم تشترك سويسرة في أي من حروب اوروبا الكثيرة واحترمت الدول حياد سويسرة لعدة اجيال . لم تحاول بلاد المانيا اوفرنسا او ايطاليا ان تدخل المناطق التي تتكلم بلغتها اليها قسراً .

في بلادنا نستطيع احترام اللغتين العربية والكردية ونحن اهل بلد تجمعنا فيه الجوار والتزاوج ووحدة الدين الحنيف .

غادرت جنيف صباحاً بالقطار واتجهت نحو باريس بلد النور .

باريس

وصلت باريس وانا اتوقع وجود شخص عراقى تعرفه السيدة رفيعة في سويسرة واخبرته ان يستقبلنى في المحطة ويساعدنى لكي اصل الفندق ، وانا لا اعرف الشخص هذا ولاهو يعرفنى . جلست على كرسى المحطة انتظر ، وانصرف المسافرون ، اتى الشاب العراقى نحوى بتلكّوء وخَجَلْ ، وتكلم معى باللغة الفرنسية وسألنى ان كنت عراقية . اجبته باللغة العربية وقال انه صديق السيدة رفيعة وزوجها الدكتور مصطفى كامل . توجهت الى فندق اسمه (لوتيسيا) في القسم الايسر من باريس حيث سجل اسمي فيه بعد تلفون السيدة عفيفة له من زوريخ . .

فرأت ان اسم (لوتيسيا) ، هو اسم قديم لمنطقة في (الجزيرة) في نهر السين قبل ايام المسيحية . في القرن الاول للميلاد وصل الرومان الى شمال بلاد (الغال) أي فرنسا الآن ، وشاهد يوليوس قيصر ان قبيلة (باريسي) تسكن (في الجزيرة) في منطقة (لوتيسيا) ، وقد ابدل يوليوس قيصر اسم المنطقة وسماها (باريسي) بعد ان اخضع بلاد (الغال) كلها .

كان فندق (لوتيسيا) كبيراً ومبناً على طراز القرن الماضى بنقوشه وزينته وشبابيكه واثاثه . وتعجبت من الاسانسور (المصعد الحديدى القديم المصبوغ باللون الاسود والذهبي وهو يشبه القفص الكبير ومفتوح من الاعلى ويسير ببطأ الى اعلى والى اسفل .

اثناء الحرب العالمية الثانية اعلنت الحكومة الفرنسية لحسن الحظ ان باريس مدينة مفتوحة ، لذلك لم تعانِ اياً من القصف الجوى الشديد التى عانته لندن وسائر المدن البريطانية .

وقد سرني ان ارى باريس كما هي ، وكما وصفها الكتاب الكثيرون على مُر القرون الماضية ، العاصمة التاريخية القديمة كما قرأت عنها وانا في شرخ الصبا .

في ذلك الوقت ، كنا نحن الشباب في العراق نقدس كلمة (ثورة) ، ونعجب بالاصلاحات التى قامت بها الثورة في فرنسا ، بالرغم من اعمال الارهاب المروعة ، التى قام بها حزب (اليعاقبة) وهو حزب العنف والاعدام . اذ اعدم (روبسبير) طاغية الثورة ، مايقارب الفي شخص على المقصلة خلال ستة اسابيع فقط ، بعد محاكمات قاسية وقصيرة ، والعوام في باريس كانت تهتف لكلمة (الاعدام وإعدم) كأنها تهتف في عرس! . الى ان سقط (روبسبيير) واعوانه وساروا صامتين الى المقصلة بعد الحكم عليهم ، لكي يلاقوا الموت انفسهم ، وينتهى الارهاب الفظيع! . .

في بلادنا آنذاك وفى معظم البلدان العربية المجاورة كان الشبان يهتفون لقدوم الثورة كما كان القدماء يهتفون للفردوس الاعلى . كان الظن عندنا ، ان الثورة ستكون السبب في تحول اجتماعى كبير يغير طبيعة الناس والبلسم الشافى لعالمتا المتخلف الذى سينطلق صاعداً كنجم باهر الى التقدم السريع .

في ذلك الوقت كنت واثقة ان ما حدث في فرنسا في عهد الارهاب من الجرائم والقتل قبل قرنين من الزمان لن يحدث مثله في القرن العشرين ، وأن الحقوق الانسانية ستبقى مصانة للجميع .

كم كنت واهمة وبسيطة جداً ، عندما ظننت ان الشعوب في عصرنا هذا قد تمدنت وتحضرت! . . . رأيت بعد سنوات ، ما تعنى اسطورة الثورة في بلادى ، من

غياب الامن والاعتداء على العزل من الناس وسحل الناس احياء واموات في الشوارع وحوادث الموصل وكركوك كانت افظع من الموت على المقصلة الفرنسية ، و(محكمة الشعب) التى شاهدناها وعشنا خلالها في بلادنا بعد سنوات عديدة من هذه الرحلة جعلتنى امقت سماع كلمة (الثورة) ، كما لم امقت مثلها شيئاً . . .ولكن ذلك كان سيحدث في المستقبل البعيد . كنت لاازال في سنة ١٩٤٧!. .

كنا نظن ان الثورات تفتح ابواب السجون وتطلق المفكرين الاحرار الخائفين وتصغى الى آرائهم وخططهم . لم نكن ندرى آنذاك ان الثورات عادة تفتح الباب امام سجون رهيبة اكبر واعتى مما كان قبلها وتقتل وتنكل بالكثير من المذنبين والابرياء ، وتطلق الطغاة ليتحكموا بالناس وبالقوانين . اما مفكرينا بعد ثورتنا ، أي (النوابغ) الذين اعطتهم الثورة الحرية للكتابة في الجرائد وتأليف الكتب فلم نسمع منهم سوى الشتائم واللعنات لشعوب معينة ولكل من لايحمل آرائهم في الجرائد والكتب ، وكانت افكارهم هي اصداء لكتاب جرائد الاتحاد السوفييتى وتابعيه ، ولا يملكون غيرها . . .

نعود الى باريس بعد الحرب العالمية الثانية ، وكلمة (الثورة) في بلادى ، لاتزال تبدو مثل شيء رائع جديد . شعرت اننى اشاهد فرنسا ، البلاد التى علمت لاوروبيين جميعاً معنى الحرية والمساواة والاخاء! . . من هذه البلاد انطلق النشيد الفرنسى البطولى الرائع (لامارسيين) يهتف بأعلى صوته بهذه الاراء الجديدة لاوروبا كلها ويلغى الطبقات بين افراد الشعوب ، وصارت فرنسا اول موطن للاحرار في العالم .

وقد ادخلت فرنسا بواسطة علمائها وكتبها ، الى العالم العربى النائم في الجهل والتخلف منذ قرون ، ادخلت الى مصر بدايات العلوم والادب والفلسفة الحديثة عندما دخل نابليون الى مصر في بداية القرن التاسع عشر . ولهذا السبب اعجبت بفرنسا وحضارتها منذ طفولتى! . .

ان كلمة (باريس) كان لها وقع الموسيقى في اذنى قبل ان اراها! . . .
والاذن تعشق قبل العين احيانا! . .

كنت اتشوق لرؤية باريس مدينة الكتاب العظام ، امثال فكتور هوغو والكسندر دوماس الاب والابن وموباسان ، واناطول فرانس اميل زولا والشعراء امثال لامارتين ودوميه والرسامون القدماء الكلاسيك والانطباعيون والكثير غيرهم .

وقد وصف الكتاب باريس كأمراة جميلة! . .

وصفها الكاتب (توفيق الحكيم) في احد كتبه بشعر مترجم عن الفرنسية :

باريس غادة شقراء ،

باريس ملكة الدنيا! . .

كما كان المغنى الفرنسي (موريس شفالييه) يغنى قطعة اصبحت على لسان الناس في يغداد تعلمتها وانا صبية صغيرة :

احب باريس بملا قلبى ،

كما يحب المرء عشيقته .

ترى هل سأحب باريس في الحقيقة كما احببتها في الخيال؟

اسرعت اطلب من سكرتير الفندق الاشتراك في رحلات يومية سريعة لرؤية المدينة . كان الشهر في تموز ، والجو دافئاً لطيفاً وملابسنا صيفية والمدينة تموج بالناس .

في الباص جلست في الطابق العلوى المفتوح لكي ارى مدينة (الضياء والنور) كما يسميها الفرنسيين . وكان الدليل يتكلم الانكليزية .

بدأنا نمر على احياء وابنية وكنائس لكل منها وقع معين في نفسى قبل رؤيتها بسنين عديدة . كان الدليل يتكلم ويشرح لنا المناطق والشوارع . واهتمامى الكبير دائماً هو بالاشياء التاريخية النى اعرف شيئاً عنها قليلاً او كثيراً .

مررنا من (الحى اللاتينى) واسمه يدل على ان الطلاب في العصور الوسطى كانوا يتكلمون اللاتينية فيما بينهم في هذا الحى ، وكانت هذه اللغة دليل على ثقافتهم وعلمهم . ومدرسة (السوربون) وهى مركز للفكر في الحي اللاتينى منذ العصور الوسطى ، وبقيت كمركز (للفكر) وللكتابة الى الآن . وكانت واحدة من مدارس اللاهوت في القرن الثالث عشر .وقد اهتم بها الكردينال (ريشيليو) في

القرن السادس عشر وجدد بنائها .

في ايام الثورة الفرنسية اغلقت الحكومة الثورية (السوربون) كمحل دراسة وهكذا اهملت الكلية .

في زمن (نابليون) الذى كان يهتم بالعلوم والفنون ، اعاد فتحها وتنظيمها مجدداً واصبحت مثل زمن (ريشيليو) موطناً للفكر الفرنسى الى هذا الوقت! . .

في داخل السوربون يرقد جثمان الكردينال (ريشيليو) في قبر مزخرف وجميل .

سرنا بعد السوربون الى (البانتيون) او مقبرة الخالدين .

بناها الملك (لويس الخامس عشر) مجدداً ، اكراماً للقديسة (سنت جنيفيف) بعد ان شفى من مرضه . وعندما اغلقت الثورة الفرنسية الكنائس والغت الدين ، وابدلت اسماء الكنائس وسمتها باسم (هيكل المعقول) واهملتها بصورة عامة .

في سنة ١٨٨٥ استخدمت كمقبرة لعظام الناس واصبح اسمها البانتيون (مقبرة الخالدين) لان البناء يشبه بانتيون روما القديم . وهى الآن مقبرة لكبار العظماء من السياسيين ورجال الحكم والمفكرون ممن تذكرهم بلادهم الى الابد ، ومن بينهم فولتير ، وروسو ، وفكتور هوغو ، واميل زولا وغيرهم .

لم نصعد الى القبة العالية للبانتيون ولكن الدليل قال ان النظر الى باريس من هناك هو من اجمل المناظر .

مررنا على كنيسة (الانفاليد) التى بنيت في زمن لوبس الخامس عشر أيضاً ، وهى من اجمل الكنائس في باريس . وهنا يجب ان اذكر ان الملك لويس الخامس عشر كان سيئ السمعة لاتخاذه عشيقة معروفة بأسم مدام (دي بومبادور) عاشت مع الملك في قصر فرساى ، رغم وجود زوجته الملكة سنوات عديدة الى ان توفيت في سنة ١٧٦٤ وكانت مدام (بومبادور) سيدة فنانة حقاً اثرت على الحياة الفنية في فرنسا تأثيراً كبيراً في زمن كانت باريس هي العاصمة الاوربية الكبرى .

قد قال (كازانوفا) :

- ان المرء (يعيش) فقط عندما يحيا في باريس ، اما في المحلات الاخرى فأنه (ينمو) كالنبات! . .

لقد فتحت في زمن مدام (ديبومبادور) صالونات باريس للمفكرين من اصحاب العلم والادب وكانت تشجع (مونتسكيو) الكاتب الشهير على الكتابة ، وتتراسل مع (فولتير) بالرسائل ، وجعلت الملك يهتم بتزيين عاصمته بالتماثيل والابنية الجديدة مثل المدرسةالحربية وميدان الكونكورد والانفاليد . ولها ذوق كبير بالفنون الجميلة واشتغلت مع الكثير من الرسامين واهل الصناعات اليدوية خاصة الخزف الصينى النفيس وتملك نقشات خاصة بها في الخزف الصيني الذى انتشر بعد ذلك الى البلدان الاخرى . واهتمت بتربية دود القز لاجل الحرير الفرنسى الذى اصبح لايجارى في البلاد الاوروبية .

(الانفاليد) والكلمة تعنى (دار المرضى) . وهو مستشفى عسكرى ومحل لراحة الجرحى من الجنود منذ عهد لويس الخامس عشر ومن هنا جاء اسمه . القسم الكبير منه اصبح الآن متحفاً عسكرياً يضم العدد الهائل من ادوات الحروب المدافع القديمة والحديثة شتى آلات الحرب النارية والسيوف ، فيه قسم لايزال يستعمل كمستشفى الى الآن . في الماضى كان يسوعب ستة الاف مريض يدخلون اليه .

في سنة ١٨٤٠ عادوا بجثمان الامبراطور نابليون الذى توفى في جزيرة (سانت هيلانة) النائية بعد عشرين سنة من وفاته ، ودفن في الانفاليد ، واصبح المكان محل عبادة نابليون .

وللدخول الى قبر نابليون مراسيم خاصة لم أجد ما يماثلها في أي مكان آخر .

قال لنا الدليل بأن الكلام داخل القبر غير مسموح به ، واننا سنقف في شرفة تعلو على القبروهذا يعنى اننا سنحني رؤسنا من الشرفة لرؤية القبر أي اننا سنحيي الامبراطور بإحناء الرؤس في حضرته صامتين ، وطلب من الرجال خلع قبعاتهم ومسكها بأيديهم قبل الدخول الى رمس نابليون .

دخلنا في صمت عميق ورؤس الرجال عارية واطرقنا الى القبر برؤس محنية في ضريح محارب من اشهر المحاربين في التاريخ .

قبة ضريح نابليون مستديرة والقبر مغطى بالرخام اللامع فوق ما تبقى من

القائد العظيم الذى غطت شهرته الآفاق . ويحيط بالقبر ذو القاعة المستديرة ، تماثيل جميلة لملائكة يقفون على شكل دائرة وكل ملاك يحمل اسم معركة من معاركه الشهيرة مثل معارك (مارنجو واوسترلتز وينا) وغيرها . الصمت المطبق هنا يدل اننا نقرأ اسماء المعارك التى تحملها الملائكة حول الضريح .

(آثارنا تنبيك عن اخبارنا! . .) .

ان هذا الرمس الرائع يمثل مقدار التحية والاحترام لنابليون في بلاده ، لأنه بني بعد وفاته بسنوات عديدة .

كان نابليون يحب العلم والفن كما رأينا في بلاده وفى مصر ايام المماليك . وهو من شرع (قانون نابليون) الذى ظل نافذاً لسنوات ولا يزال من أهم مصادر التشريع .

اثرت علي زيارة فبر نابليون تأثيراً كبيراً! . . .

الانكليز يعتقدون ان نابليون شأنه شأن (حكم الارهاب البغيض) ، هو من نتائج الثورة الفرنسية واضرارها ، والثورة هي التى انجبت شخصاً غازياً مغروراً استولى على الكثير من البلاد الاوروبية ، وقد اعطته بريطانيا ما يستحق! . .

حيثما سرنا بالشوارع كنا نشاهد برج ايفل العالى امامنا . الابراج العالية اصبحنا نشاهدها في معظم العواصم والبلدان الكبيرة ، ولكن برج ايفل الذى افتتح في سنة ١٨٨٩ كان اعلى بناية في العالم في ذلك الوقت .

هذا البرج العالى الذى نراه في كل صور باريس تقريباً قد اصبح رمز (باريس) في المجلات والكتب السياحية . ارتفاعه ٣٠٠ متراً وقد بنى احتفالاً (بالثورة الفرنسية) التى مرت عليها مئة سنة آنذاك . وهو بناء مشبك من الحديد شيده المهندس (ايفل) . كان الناس في باريس يمقتون النظر اليه ، وسماه الكاتب (موباسان) :

- قطعة بربرية فظيعة! . .

وتمنّى الناس في باريس ان يختفى البرج بعد الاحتفالات . ولكن الناس تعودت عليه واصبح الآن رمز باريس في الصور والاعلانات ، والمصعد في البرج الآن يرتفع اكثر من مئة الف مرة في السنة لكثرة الناس . ومقدار المنظر الشامل

العريض (البانوروما) الذى يحيط به في يوم مشمس يبلغ ٦٥ كيلومتر حول باريس كما قال الدليل .

والبرج يحوى مطاعم ، ومحلات لبيع تذكارات باريس ورسومها .

رأيت الشانزليزية وتعجبت من رؤية المقاهى الكثيرة والكراسي على الارصفة ، والناس في زحمة مؤنسة اليفة . ان الجلوس على الارصفة امام المقاهى هي عادة غريبة بالنسبة الى لندن لرطوبة جوها وامطارها في ذلك الوقت ، انها تشبه عادة المقاهى في بلادنا في فصل الصيف ، والقياس مع الفارق طبعاً .

الشانزليزية هذا هو الشارع العريض الواسع ، والذى يسميه الفرنسيون (اجمل شارع في الدنيا) وهو محل اجتماع الشعب في جميع الاحوال . افتتح ايام الثورة الفرنسية ، واصبح الشارع الذى يتمشى عليه الناس في ايام الاحاد والعطل . وهو أيضاً محل الاجتماعات الشعبية حيث يخرج الناس في هذا الشارع في ايام الاضرابات والمظاهرات والاحتجاج على الحكومة .

بقيت انظر الى الناس ، رجالا ونساء في هذا الشارع العريض المليئ بالبشر ، لم ار أي اثر من الاناقة الباريسية المشهورة . كانت ثياب الناس قديمة ولاتدل على الاهتمام بالموضة او الاناقة . لابد وان البلد يشكو من القلة في الاقمشة او ربما غلاء اسعارها . كان الناس في لندن بالنسبة الى باريس يلبسون ملابس اجمل واشد اناقة من اهل باريس بصورة عامة .

بدأت افكر بهذا الشارع ، الشانزليزية من تاريخ عسكرى حافل .

اجتاز هذا الشارع الجنود البروسيون عند دخولهم باريس بعد انتصارهم في حرب ١٨٧٠ على جيوش نابليون الثالث ، ومشت الجيوش الالمانية المنتصرة عليه ، وكان معهم وزيرهم الجبار (بسمارك) ، وقد اعجب بالشانزليزية بدرجة انه طلب ان يفتتح شارع مثله ، عندما عاد الى برلين .

كذلك مرت على هذا الشارع جنود (هتلر) بعد انتصارهم في سنة ١٩٤٠ وعلقوا العلم الالمانى فوق قوس النصر! . .

واخيراً مرت الجنود الفرنسية نفسها تحتفل على هذا الشارع في سنة ١٩٤٤ عندما ترك الالمان باريس بعد هزيمتهم في الحرب .

مركز مدينة باريس . فتح في زمن نابليون وانتصاراته ، ثم تبدل الاسم بعد دحر نابليون وقيل انه للثورة . ارتفاع القوس خمسون متراً عن الارض وعرضه ٤٥ متراً على ميدان (الايتوال) او النجمة لان عند قاعدة القوس تنفتح شوارع واسعة عددها اثناعشر على شكل نجمة وتدخل الى المدينة في اتجاهات مختلفة ومنظمة .

والقوس مغطى بزخارف وصور مختلفة لمواقع عسكرية لنابليون وقواده .

في سنة ١٩٢٠ وضع جثمان الجندى المجهول في اسفل القوس واشعل تحته (اللهب الخالد) الذى لاينطفئ ، وهو للجنود الذين قتلوا في الحرب العالمية الاولى ، وبعدها في الحرب العالمية الثانية .

مررنا على ميدان (الباستيل) الذى بنى كسجن في القرن الرابع عشر .

في بداية الثورة الفرنسية اقتحم الثوار السجن الكبير في ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ ولم يكن فيه من السجناء سوى اناس في عمر متقدم وعددهم اقل من اصابع اليد . انتزع الثوار السلاح والذخيرة من السجن وقتلوا المدير الذى فتح لهم بوابة السجن وداروا برأسه في المدينة واعلنوا عن ثورتهم .

وقد هدم الثوار بناء السجن كله ، واصبح المكان ميداناً كبيراً واستعملوا احجاره لبناء (النافورة) في الكونكورد .

وقد اصبح هذا الميدان مركزاً للثوار وفى كل سنة يحتفل الناس في هذا المكان احتفالاً كبيراًفى ١٣ تموز ويقضون المساء بالرقص والموسيقى .

ميدان الكونكورد الجميل وهو (محل المقصلة او الكيلوتين) ايام حكم الارهاب .

فتح هذا الميدان في زمن لويس الخامس عشرسنة ١٧٥٣ وسمى باسم ميدان الملك . في اثناء الثورة الفرنسية في سنة ١٧٩٢ ازيل تمثال لويس الخامس عشر ووضع جهاز (مقصلة) جديدة سميت بأسم الدكتور (غيوتين) الذى اخترع هذه الالة الرهيبة ووضعوها في (ميدان الثورة) من اجل اعدام) المعارضين في الداخل) كما سماهم اعضاء حزب (اليعاقبة) المتطرف .

وقد اعدام في هذا المحل الكثير من الناس منهم الملك لويس السادس عشر وبعده زوجته مارى انطوانيت والكثير من طبقة الاشراف ثم آخرين من غير الاشراف ثم اعضاء من حزب (الجيروند الثورى) المعتدل ، ثم تبعهم اعضاء من حزب اليعقوبيين المتطرفين انفسهم مثل (دانتون) و(كاميل ديمولان) مما دعى (سات جوست) وهو من اعتى اقطاب حزب اليعقوبيين ، ان يقول :

- الثورة تأكل وتلتهم ابنائها! . .

وقد اعدم سانت جوست هذا مع (روبسبيير) وكبار حزب اليعقوبيين في سنة ١٧٩٤ وسط عاصفة من اللعنات والشتائم من قبل الشعب ، وانتهى بذلك حكم الارهاب .

اما الآن ، اصبح اسم هذا الميدان الكونكورد او (الانسجام) . وقد اضيفت الي الميدان المسلة المصرية من (طيبة) والنافورة الكبيرة واصبح من اجمل الميادين في باريس . .

دخلنا البناية التى حوكمت فيها الملكة مارى انطوانيت ، (محكمة الشعب) التى قال لنا الدليل بأن كلامها عن (اطعموا الشعب الكيك بدلاً من الخبز) هو كلام قيل عن لسان الملكة ايام الثورة! . . وذكر لنا انهم اخذوا منها ابنها الصغير (ولى العهد) ، ووضعوه في بيت اسكافي شرس (ليتربى) هناك ، وكيف اختفى ذلك الطفل ولم يره احد بعد ذلك ، ولكن اسمه بقي في كتب التاريخ (لويس السابع عشر) والملك الذى اعقب والده الملك لويس السادس عشر اصبح اسمه (لويس الثامن عشر) .

كانت قصة الامير الصغير تبعث الالم في النفس دائماً .

شاهدت في باريس منطقة يسكنها بعض المعارف من العراقيين وكانت منطقة متأخرة قذرة ذات شوارع ضيقة قلما تدخلها الشمس . والشقة التى رأيتها تشبه بيوت الفقراء من اهالى البيوت الصغيرة . في الداخل رأيت في الحمام وبعض الادوات من طشت وأوان قديمة تشبه بيوت بغداد القديمة التى لم ار ما يشابهها في البيوت او الشقق الاوروبية . سألت بكل ما استطيع من دبلوماسية كبيرة عن اسم هذه المنطقة ، كان الجواب :

ـ ان المنطقة فقيرة ، وهذا هو كل ما نتمكن عليه .

وكان الاب العراقى والام الفرنسية والولد الصغير كلهم من ذوى اللطف والبشاشة ، والأبوان على درجة عالية من الثقافة والتعليم . وقد وعدوا ان يذهبوا بي الى قصر (فرساى) غداً للاحتفال بالرابع عشر من تموز وهو يوم سقوط الباستيل قبل ما يقارب قرنين من الزمن .

في ذلك اليوم ذهبنا بسيارة كبيرة الى فرساى ، وتجولنا داخل القصر وفى حديقته الشاسعة الممتدة حول القصر من جميع الجهات لمسافات بعيدة .

كان اليوم صيفياً دافئاً وطويلاً استمرت الشمس واصيلها الصاحى لمدة طويلة في المساء . وشاهدت الالوف من الناس حضروا ليتمتعوا بعطلة هذا اليوم ويشاهدوا الالعاب النارية الجميلة التى بدأت في المساء واستمرت فترة طويلة . وكانت فرق الموسيقى تعزف انغاماً بهيجة مفرحة ، والاطفال يهتفون كلما شاهدوا الانوار الملونة ترتفع في السماء وتنفجر كأنها عشرات النيازك تنفجر الواحدة بعد الاخرى كأن السماء تعبر عن فرحتها بعيدهم .

قصر فرساي

في سنة ١٦٧٠ بنى الملك لويس الرابع عشر قصر فرساى وخرج من قصر اللوفر في باريس سنة ١٦٨٣ الى (فرساى) ، خارج باريس ، وبقى في هذا القصر ولم يرجع الى قصر اللوفر بعدذلك .

صرف على القصر الجديد مبالغ طائلة واصبح البلاط الملكى ، واضطر الاشراف الى ترك حصونهم في اقطاعياتهم ، او قصورهم في باريس ، لكي يكونوا في خدمة الملك ينالوا الوظائف المهمة ، إذ يجب ان يقيموا في فرساى حول الملك ، والا يصبح امرهم نسياً منسياً . هكذا تغلب الملك على حكم الاشراف واقطاعياتهم القوية النائية واصبحوا من حاشية الملك وفرسانه .

القصر كبير جداً وكان يسع عشرين الف من الوزراء والاشراف والفرسان والموظفين ايام الملكية . ويحيط بالقصر شرفات رائعة وشوارع طويلة وبحيرات جميلة وخلوات خضراء بين الاشجار .

أخذ الملك لويس الرابع عشر يمثل الملكية المطلقة بكل معانيها . واصبح اسمه الملك (الملك الشمس) . وهو الذى قال عن نفسه ﴿ انا المملكة ﴾ .

في غرفة نوم الملك ، ينهض لويس الرابع عشر من نومه صباحاً والحاشية حوله ، يلبس ملابسه امامهم ، ثم يبدأ الاجتماع معهم في (صالون ابوللو) .

وكانت الملكة تنجب اولادها في غرفة نومها في القصر والحاشية تشهد ذلك ، لمعرفة جنس الطفل اولآ ، وكذلك لكي لايبقى مجال لوضع شبيه محله اثناء الوضع .

حكم بعد لويس الرابع عشر حفيده الملك لويس الخامس عشر ، وعاشت معه عشيقته (مدام دي بومبادور) في فرساى كما مر ذكره ، واعقبه ، الملك (لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت) . وعندما تزوج لويس الصبى ، ايام الملك لويس الخامس عشر ، من الصبية (مارى انطوانيت) ابنة الملكة ماريا تيريزا ملكة النمسا ، ضحك الملك على شباب العروسين وقال :

- ان مجموع عمر العروسين معاً لا يزيد عن سن الثلاثين! .

في داخل القصر توجد صالة كبرى رائعة في جمالها اسمها (صالة المرايا) طولها ٧٣ متراً وفيها سقوف وجدران عالية وعليها اجمل الرسوم والصور وفيها ١٧ شباك و١٧ مرآة يحف بها الضياء من كل جانب والثريات التى تنير الصالة تجعلها صالة يحف بها السناء والنور .

وقد وصف القصر الكاتب الشهير (فولتير) :

- انه مزيج من القبح والعظمة في وقت واحد! . .

يجب ان اضيف اننى لم اشاهد به سوى العظمة والفخامة! . . .

بعد الثورة الفرنسية واعدام الملك والملكة واعلان الجمهورية سكن في القصر نابليون مع زوجته الثانية الامبراطورة (مارى لويز) .

بعد هذا التاريخ بأكثر من مئة عام ، في صالة المرايا هذه تم عقد معاهدة صلح (فرساى) الجائرة بين الحلفاء وبين المانيا بعد نهاية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩٢٠.

كنيسة نوتردام

تذكرت قصة (احدب نوتردام) الشهيرة قصة الكاتب (فيكتور هوغو)، عندما دخلت هذه الكنيسة التي بنيت منذ القرن الثاني عشر واكملوها بعد قرن تقريباً. كانت مملوءه بالتماثيل وصور القديسين.

اثناء الثورة ابدلت اسماء جميع الكنائس الى اسم (هيكل المعقول)، وكسروا تماثيل الملوك والملائكة والقديسين واستعملوا هذه الكنائس لغايات شتى.

اعاد (نابليون) في سنة ١٨٠٤ لكنيسة نوتردام مركزها الكبير عند تتويجه امبراطوراً على البلاد في هذه الكنيسة من قبل (البابا) نفسه. حضر (البابا) الى باريس ثم الى الكنيسة لتتويج نابليون في هذه الكنيسة بيديه، لكن نابليون رفع التاج بنفسه ووضعه على رأسه، أي توج نفسه بنفسه، والبابا ينظر اليه بصمت!..

يقال ان البابا لم يظهر غضبه، ولكنه قال لاتباعه بعد ذلك:

- ان نابليون بدا له بعد لبس التاج وكأنه صورة من يوليوس قيصر الوثنى!..

البابا يعنى ان القيصر عاش ومات في زمان الوثنية قبل المسيح، ونابليون يشبهه شكلا وتصرفاً!..

والحقيقة ان البابا كان على حق، لان صورة نابليون بعد ان لبس التاج اثناء التتويج بدا بالفعل، يشبه صور المحارب العظيم يوليوس قيصر!..

بعد انتهاء زمن نابليون اهملت الكنيسة مرة اخرى لسنوات، الى ان طلب الكاتب الكبير (فكتور هوغو) من الملك (لويس فيليب) العناية بالكنيسة القديمة الاثرية من جديد.

واثناء دخول جيوش (هتلر) المنتصرة الى باريس اثناء الحرب العالمية الثانية رفعت الكنيسة الزجاجات الملونة من على الشبابيك ووضعوا عليها الارقام وغطوها في اكياس من الرمل لحفظها اثناء الحرب.

وفي العهد الحالي عادت الكنيسة الى رونقها السابق وجلالها القديم.

متحف اللوفر

قصر الملوك القديم الذى بدأ ببنائه الملك (فليب اوغسطوس) كحصن في القرن الثانى عشر ، ثم سكنه الملوك واصبح القصر الملكى في باريس الى زمن لويس الرابع عشر الذى بنى وسكن قصر فرساى واهمل اللوفر .

وقد فتح اللوفر للناس في الثورة الفرنسية واصبح متحفاً عام ١٧٩٣

في الماضى كان الملوك يحركون التاريخ ، ومن اسماء الملوك تعلمت التواريخ القديمة . ولهذا اثار متحف اللوفر الذكريات القديمة حول فرنسا وخاصة اتصالاتها مع العالم الاسلامي .

(شارلمان) وكان امبراطوراً للكنيسة الرومانية المقدسة في بداية القرن التاسع وهو الذى عاصر (هرون الرشيد) وكانت بينهما مراسلات وهدايا . واسمه موجود في كتب التاريخ عندنا ، وكان ذلك قبل بناء قصر اللوفر بقرون ، ولكنني تذكرت اسمه عندما زرت هذا المتحف .

وفى نهاية القرن التاسع اصبح (الكونت دى باريس) اول ملك لفرنسا وجعل مدينة (باريس) عاصمته . ومن هنا يبدأ تاريخ فرنسا كمملكة .

الملك (فيليب اوغسطوس) وحّد باريس واطرافها من المقاطعات في القرن الثانى عشر وبنى السور حول باريس وفتح جامعة للدراسات وكذلك بنى حصن (اللوفر) في باريس على الجهة اليمنى وكذلك بنى (الباستيل) . وقد اصبح اللوفر القصر الذى سكن فيه الملوك بعد ذلك .

وقد اتفق هذا الملك (فيليب اوغسطوس) مع ملك انكلترا (ريشارد قلب الاسد) للقيام بالهجمة الصليبية الثالثة لمدينة (القدس) ولهذا السبب كنت اتذكر اسمه .

يحذف :

انتصر الانكليز على الفرنسيين في بلادهم في القرن الخامس عشر ، وقد خلد القصة شكسبير في تمثيليته الشعرية (هنرى الخامس) . توج الملك هنرى ملك انكلترا ملكاً لفرنسا في كنيسة نوتردام .

وقد حاربت الشابة (جان دارك) مع الجانب الفرنسى ضد الانكليز وتغلبوا

عليهم في النهاية . وقد احرق الانكليز هذه المحاربة الفرنسية الشابة بعد محاكمة جائرة ، واتهموها بأنها ساحرة .

وقد رفع البابا المركز الدينى (لجان دارك) الى مرتبة القداسة في ١٩٢٠ واصبحت تسمى (القديسة جان دارك) . وتمثالها المذهب موجود في باريس ، ويزوره السواح دائماً .

في ايام المدرسة كنا نحن الطالبات نحب ونمجد (جان دارك) لانها (فتاة) ولكونها وطنية في بلادها .

واثناء حكم الملك (فرانسوا الاول) ملك آل (فالوا) في القرن السادس عشر ، بلغت فرنسا اوج ازدهارها وعظمتها . سكن في قصر (اللوفر) الذى اعاد تجديده وزينته ، واصبح القصر مجمعاً للفرسان والشعراء والرسامين حول الملك . واهتم الملك بالفنون الجميلة وزين اللوفر بصور الرسامين العظماء الذين اتوا من ايطاليا واسبانيا ، منهم الرسام الخالد (ليونارد دافنشى) الذى رسم (الجيوكندا او الموناليز) وهى موجودة في متحف اللوفر الى الآن ، وغيره من الرسامين الكبار مثل رفائيل وسللينى وتيتيان ، وقد زين القصرعلى الطريقة الايطالية واصبح (اللوفر) قصراً زاهياً ومهيباً ويفوق كل القصور الاوروبية بما يحوي .

كان الملك (فرانسوا) على علاقات حسنة مع الخليفة السلطان (سليمان القانونى) وجرت بينهم معاهدة حول السفن في البحر الابيض المتوسط . وكان سليمان القانونى ثانى (الخلفاء العثمانيين) بعد والده السلطان سليم الاول .

كان سليمان القانونى اول من حكم البلاد العربية بعد ان طلب العرب منه ذلك .

بقيت انظر داخل متحف اللوفر وانا افكر بالتاريخ الفرنسى ابن فرانسوا الاول الملك هنرى الثانى وزوجته الايطالية المتسلطة الملكة كاترين دى مدسيس المشهورة في قصص التاريخ بجواسيسها وسمومها وكهنتها وساحرها الكبير الذى كان يرشدها هو (نوسترداموس) ، الذى نسمع عنه الى الآن في الجرائد والتلفزيون . (قيل ان نوستراداموس في كتابه القديم تكلم عن صدام حسين في حرب الخليج سنة ١٩٩١ وقد صدقه بعض الناس) .

و(مـذبحـة سـان برتولميـو) المذهبـيـة حيث قـتل الكاثوليك ٣٠٠٠ من البروتستانت (١٥٧٢) .حدثت في زمن (شارل التاسع) حفـيد فرانسوا الاول ولايزال الفرنسيون يحتفلون بهذا اليوم الى الوقت الحاضر! . . .

بعد وفاة هنرى الثالث لم يكن له وريث من ال (فالوا) فانتقل العرش الى أل (بوربون) الملك هنرى الابع اول ملوك البوربون وتبعه الملك لويس الثالث عشرفى بداية القرن ي كتابه القديم .

وبعد ذلك برز الملك الشاب لويس الرابع عشر (الملك الشمس) الذى بنى قصر فرساى وترك قصر اللوفر ولم يسكن باريس بعدها . وقد مات اولاده وحفيده وصار على العرش ابن حفيده لوبس الخامس عشر في الخامسة من عمره . وكانت باريس عاصمة اوروبا آنذاك . بصالوناتها الادبية الى المفكرين الجدد امثال ومونتسكيو وفولتير وروسو .

هؤلاء كانوا الكتاب الاوائل الذين تكلموا في الديمقراطية وفتحوا اعين الناس على ذلك . وان فولتير ذهب الى لندن وجلس في البرلمان البريطانى وتعلم منهم معنى كلمة الديمقراطية حيث كان لبريطانيا البرلمان الاول في العالم . كذلك تعلم منهم مونتسكيو الحكم الديمقراطى . وتعود الديمقراطية الى بريطانيا من ايام القرن الرابع عشرعندما عقدوا (الماغنا كارتا) اربعة قرون قبل ان يكتب الفرنسيين كتبهم ومقالاتهم .

قرأت الكثير عن الثورة الفرنسية واسماء الاشخاص الذين قاموا بادوار فيها . من الملك لويس السادس عشر وزوجته (مارى انطوانيت) النمساوية ابنة الامبراطورة (ماريا تيريزا) ، الى (لافاييت) وجماعة (الجيروند) الى جماعة (اليعقوبيين) من امثال (دانتون ومارا وروبسبيير) الذين بدأوا بقتل الملك والملكة والاشراف اولا ثم تحولوا الى قتل الكثير من الثوار ثم اندادهم الى ان جاء دورهم أيضاً وانتهى الارهاب .

(نابليون) ومجيئه الى مصر وفتح باب النهضة الاوروبية الى الشرق العربى . ثم فتوحاته الكبرى ثم تحطيم جيشه في روسيا نابليون مع زوجته الاولى جوزفين وزوجته الثانية مارى لويس النمساوية . ثم وفاته في جزيرة شبه مجهولة في

اعماق المحيط الاطلسى الجنوبى . واخيراً نابليون الثالث وعلاقته مع خديوى مصر ، وفتح قناة السويس وحضور زوجته الامبراطورة (اوجينى) الى مصر لمشاهدة الاحتفال بفتح القناة .

قرأت الكثير من كتابات واشعار وقصص فرنسا . كانت باريس متمركزة في خيالى وكأنها هي اوروبا ولا يوجد ما يضاهيها! . . .

لقد احببت المدينة الرائعة بشوارعها العريضة ابنيتها الحديثة والقديمة ومطاعمها اللذيذة ونهر السين الهادى ومراكبه وقواربه وجسوره الجميلة باضويتها اللامعة والتماثيل المقامة عليها . رغم اني رأيت باريس تشكو من اثار الاهمال الذى لحقها في فترة الحرب .

احببيها بالنسبة لماضيها ولحريتها الحاضرة ولكتابها العظماء وشعرائها الكبار ، ومن اجل لغتها الثرية الجميلة .

لقد رأيت الكثير من العواصم والمدن الكبيرة وكلها تحوى آثار الماضى الجميل والحاضر الراهن ، وقد احببت معظم تلك العواصم .

ولكن هنالك عاصمتين فقط دخلتا قلبى منذ اليوم الاول لرؤيتى لهما الاولى هما مدينة (القاهرة) الساحرة في الشرق ، ومدينة (لندن) ذات التاريخ الديمقراطي الاول ومدينة الحرية والسلام في الغرب .

العودة الى لندن

بدأت العمل في كلية الطب في مستشفى مدلسكس مع الاستاذ (كييل) استاذ علم (العقاقير والتداوى) في الكلية . كانت بحوثه في المختبر علاج مرض (الاسما اي الربو) في القطط وتأثير ادوية جديدة على القصيبات والحويصلات الرئوية عند القطط وهى تحت التخدير التام اثناء اصابتها بنوبات الربو المختبرية .

كنت في اوج نشاطى . اذهب من شقتنا صباحاً في منطقة (ايرلز كورت) الى مستشفى (مدلسكس) في شارع (مورتيمر) وهو يوازى شارع (اكسفورد) من ناحيته الشرقية . . .اكنت اشتغل على بحوث (الربو) على القطط اثناء النهار في المستشفى ، وفى الليل اقرأ مواضيع الطب الباطنى في البيت .

وفى صباح كل يوم سبت احضر محاضرة في الامراض العصبية والعقلية في مستشفى (سان جورج) في هايد بارك كورنر ، (وقد اصبح هذا البناء فندقاً كبيراً اسمه فندق لانزبره منذ سنوات) .

كانت اختى لمعان تداوم في مستشفى (كريت اورموند ستريت) وهو اهم مستشفى تعليمى للاطفال في بريطانيا وقد اهتمت بدوامها بدرجة كبيرة .

كنا نقضى معظم ايام نهاية الاسبوع بالخروج الى اماكن مختلفة وتصحبنا اختى لمعان ، وأحياناً يصحبنا اولاد عمى (زيد وقحطان) اثناء وجودهم في لندن .

او اصدقاؤنا في السفارة العراقية ، وهم (عبد الملك الخضيرى وزوجته) و(عبد المنعم الكيلانى وعروسه) ، ونذهب أحياناً الى بيت (زياد العسكرى) وزوجته علية في بيتهم اللطيف في مدينة (ميدنهيد) ، الجميلة على نهر (التيمس) ، او يأتوا هم الينا في لندن لزيارتنا ، او قد نذهب جميعنا في سياراتنا الى قرى جميلة مختلفة في الريف البديع الهادئ .

اشترينا سيارة صغيرة تكفى اربعة اشخاص من طراز (موريس) كنا نستعملها في عطل نهاية الاسبوع فقط بسبب ندرة البنزين . اثناء الدوام كنت استعمل قطار تحت الارض لاصل الى محطة قريبة من المستشفى هي محطة (كوج ستريت) في شارع (توتنهام كورت رود) . اما لمعان اختي كانت تذهب بالباص الى مستشفى الاطفال .

احببنا سيارتنا الصغيرة الجديدة . كنا نخرج في (الويك اند) وكأننا طلاباً في الجامعة ونتصرف كطلاب شباب يملأ قلوبنا عاملان هما حب العلم ، وحب الحياة .

كانت حياتنا مفيدة وملذة وجميلة ! . .

كما يحدث في القصص شعرت بشيء يصيبنى بالتدريج . بدأت اشعر بالرغبة الى النوم وفقدان الشهية خاصة اثناء المساء . في الصباح اشعر بتحسن واداوم بصورة اعتيادية . كانت هذه هي اعراض الحمل الاولى .

قلقنا في البداية بسبب اشغالنا ، ثم شعرنا بالسعادة ، لأننى نشأت في بيت كبير حافل بالاطفال . اما احسان ، وهو الوحيد في طفولته ولا يعرف شيئاً عن

الاطفال ، فقد اسعده الخبر جداً! كان قد مر على زواجنا ثلاث سنوات ، ولم نكن نرغب في وجود الاطفال في هذا البلد النائى ، ولكن الامر افرحنا معاً .

قررت في نفسى بأنني لن اتكلم عن الحمل مع صديقاتى الى ان اصل الشهور الاخيرة ، واننى سوف احاول ان اتغلب على الاعراض الجسمية هذه وابدو طبيعية اثناء الشهور الاولى دون ان اخبر أحداً من الناس ، خاصة وانا اكره الشكوى الى الاخرين .

كنت طبيبة ، وصدقت ما كان يقوله الاساتذة والكتب الطبية عن اعراض الحمل في ذلك الوقت ، إذ توصف هذه الاعراض الى اسباب نفسية لاعلاقة لها بالحمل! . . .

صدقت هذه النظرية في ذلك الوقت ، وكنت اظن ان اعراض الحمل هي نوع من الدلال وجلب الانتباه الى النفس ، والمرأة القوية تتمكن من مقاومة الاعراض هذه .

رأيت الآن كم كنت على غلط كبيرا! . .

ان المسألة هي هورمونات الجسم التى تتبدل اثناء الحمل تبدلا كبيراً وقد تصيب بعض النساء باعراض قليلة في الاشهر الاولى ثم تخف او تزول بعد الشهر الثالث وهؤلاء النساء يجب ان يشكرن حسن طالعهن ، ولكن بعض النساء يشعرن باختلافات كبيرة في الطعام والنوم واختلاف الضغط الدموى والكثير غيرها مما يغير اسلوب الحياة طيلة شهور الحمل ، وكنت واحدة منهن مع الاسف .

بدأت اشعر في ساعات المساء بأنني مريضة تماماً ولاارغب ان ارى أي شخص ، ولااتمكن من صد الغثيان والقي الشديد ، إذ بات الجوع عندى يؤدى الى الغثيان ، والاكل يؤدى الى القي! . . .

الغثيان حالة لايشبهها حالة اخرى تجعل المرء يكره كل الروائح وكل الطعام بل وكل شيء . واشتد عندى الاحساس بالشم ، كنت اشم بعض الاشياء قبل دقائق مما يشمه الاخرون ، وما اشمه من الروائح يزعج معدتي ويثير الغثيان .

ازدادت افرازات الغدد اللعابية بحيث كنت اضع علبة معدنية كبيرة

للتخلص من اللعاب الذى يملأ فمى وحنجرتى بمادة لعابية صافية تثير الغثيان من جديد .

هذه الاعراض تقل اثناء النوم كثيراً . لقد اصبح النوم الكثير شيئاً لااستطيع منعه .

اما في وقت الصباح ، فقد كانت الامور اخف بكثير من اوقات المساء وبقيت اداوم كالعادة ، ولكن الاستاذ (كييل) لاحظ التغيير الكبير الذى اصابنى خاصة الغثيان ، واضطررت ان ا خبره بالامر وطلب مني الراحة لمدة شهر واحد اقضيها في البيت .

شعرت ان الامومة متعة كبرى ولكن الحمل اصبح كابوساً كبيراً علي .

كنت مريضة جداً كل يوم لمدة خمسة اشهر! . كنت التذ بالحياة الاجتماعية التى كنا نعيشها ولكنى الآن اكره ان ار الناس بسبب المرض . يأتى بعض الاصدقاء لزيارتنا في المساء وانا في الفراش لااستقبل أحداً مطلقاً . وقد هبط الضغط الدموى عندى الى درجة كنت اجد القيام من الكرسى الى كرسى آخر مشكلة صعبة .

كنت في جدل داخل نفسى مع الطبيعة البشرية التى بدأت اكرهها . . . لم فرضت الطبيعة ، عملية الحمل على المرأة ان تكون بهذه الصعوبة! . . لم فرضت علينا اشهر طويلة ضائعة لا نستطيع تعويضها ، تستهلك حوالى السنة من الشباب في كل مرة ، وشباب الانسان قصير جداً؟

لم كان الحمل عبئاً ثقيلاً كهذا؟ اين سأجد ايامى الضائعة المريضة؟

عرف الاصدقاء ما كنت ارغب ان اخفيه وكثرت التلفونات والاسئلة الكثيرة . زوجى ولمعان اختى كانوا يتلقون التلفونات عوضاً عنى .

كنت اقرأ الجرائد اليومية والكتب الطبية وانا في فراشى .

في شهر نهاية شهر ايلول دخلت المستشفى للولادة . وكانت الولادة سهلة وطبيعية . استعملت نوع من الغاز لمدة بضعة دقائق قليلة قبل الولادة مباشرة وكنت اضع القناع على وجهى في كل فترة الم ، ثم ازيله بعد اختفاء الالم . انها مساعدة عظيمة للأم .

ولدت طفلة لطيفة الشكل رأيتها لمدة دقائق بعد الولادة ، اثم خذوا الطفلة ولم يجلبوها قربى . بقيت اسأل عنها واطلب رؤيتها دون ان اعرف السبب .

بعد فترة اتى الطبيب وقال ان الطفلة تشكوا من وجود فتحة في (المري) الاعلى لانه مفتوح على الشريان الشزن (القصبة الهوائية) ولا نستطيع تغذيتها الا بعد اجراء عملية جراحية لسد هذه الفتحة .

وافقنا على اجراء العملية دون تردد .

اتوا بالطفلة وهى في مهد صغير ، وضعوها قربى لمدة دقائق قليلة كى اراها قبل العملية . نظرت اليها .

كم هي جميلة! . .شديدة البياض ويعلو رأسها زغب قليل اشقر اللون وعيون كبيرة مفتوحة . انها تشبه اخوتى الصغار بالوانها الشقراء! . .

لم يكن على وجهها أي دليل للمرض . كانت تبدو مليئة بالصحة ولا تشبه الجنين الحديث الولادة . رأيتها تشبه صور الملائكة في الرسوم .

اخذتها الممرضة الى غرفة العمليات .

سائلت نفسى : هل سأرى هذا الجسم الصغير والمحيا الملائكى مرة اخرى؟

اتت الممرضة بعد ساعة او ساعتين واخبرتنى اننى فقدت طفلتى اثناء العملية . . . .

هكذا ذهبت طفلتنا الاولى . . .

لماذا خلقت هذه الطفلة؟ولم ماتت؟

رجعت الى البيت وانا ابكى . وبكى معى زوجى ولمعان اختى .

وكنت ابكى وحدى اثناء الليل لمدة اسابيع طويلة .

كتبت الى اهلى ماحدث واتتنى الرسائل منهم جميعاً ، والكل غمرهم الاسف والحزن على وفاة الوليدة التى لم ولن يروها .

لم اكن ابكى امام الاخرين ولكنهم لاحظوا حزنى الكبير وبذلوا الكثير لكي اخرج من زاوية الاسى والاكتئاب ، كل الاصدقاء ، اصدقائنا العراقيون ، والاستاذ (كيبل) والاطباء الاخرون . واظهرت زوجة الامير زيد الاميرة (فخر النساء) الحنان والمحبة بدرجة كبيرة كما لو كنت ابنتها . وزارتنا مراراً في البيت

وفى كل مرة يمتلا البيت بالزهور الجميلة التى تجلبها معها .

اما زوجى احسان ، وهو خجول في اظهار عواطفه امام الاخرين ، كان يتكلم بصورة طبيعية مع الاصدقاء ولكنه ، في كل مساء يجلس في غرفة النوم ويصف الطفلة ووجها وشعرها وعيونها ونبكى معاً طويلاً .

كان الاطباء الانكليز في المستشفى يسألوننى عما سيحدث حول تقسيم الاراضي في فلسطين كل يوم وقت الغداء .

كنت اذكر لهم وانا واثقة من ان التقسيم لن يتم لان الارض هي ملك العرب الذين سكنوا الارض مع الموجات السامية الاولى ولغتهم هي اللغة العربية وان فلسطين هيالقسم الجنوبى من بلاد الشام الذى يشمل سوريا ولبنان وفلسطين والاردن . كنت اظن ان العالم يعرف هذه الحقيقة ولا لزوم لتكرارها ، ولكن اكثر الناس هنا لايعلمون ذلك .

كانت لي الثقة التامة بقوة البلاد العربية (وخاصة الجيش العراقى) الذى كنت اظنه اقوى الجيوش العربية واخذت اردد بينى وبين نفسى اغنية وطنية فلسطينية اسمها (موطنى) فيها بيت يقول عن ارض فلسطين :

كل شبرٍ من ثراها ، دونه حبل الوريد! . .

لم اكن اعرف ألا القليل عما يدور في الجبهة وكنت في حيرة كبيرة . بدات اسأل موظفى السفارة عما يعرفون عن الحالة وكان الجميع في حماسة كبيرة والكل يريد الاشتراك مع الجيش ولأى تضحية في سبيل فلسطين ، دون ان يكون لديهم طريق واضح .

وردت رسالة طويلة من بغداد من الطيار (سالم الكيلانى) الى احسان يقول فيها انه حاضر للقتال . وينهى الرسالة بكلمة :

(كل شيء يهون من اجل فلسطين ! . .)

كنت افكر مالذى تفعله المرأة العراقية في هذا الشأن . ليس هنالك عمل لها كطبيبة بين رجال الجيش وهذا مستحيل في زماننا .

امتلأت نفسى احباطاً وكآبة . حتى مهنتى ووظيفتى لااستطيع القيام بها من اجل الجيش .

سمعنا أخبار القتال ، وعن الهدنة المؤقتة وانتقال الافواج والفرق العسكرية العراقية الى الأراضي الاردنية . سمعت ان ابن خالتي وهو ضابط في الجيش برتبة رئيس (غازى النفطجى) وهو من كركوك ، قد ذهب الى الاردن مع فرقته وهو مسرور بهذا الشرف لانه سيكون بين افراد الجيش الذى سيدافع عن فلسطين الى ضد الاستعمار البريطانى والصهيونى .

ارسلت والدتى الرسائل حول (انتصارات) الجيش العراقى كما كانت تعتقد . لم اجدها تهتم بالاخبار العامة بقدر اهتمامها بقضية فلسطين ، تكتب وكأنها جندى في الجيش المحارب . وكانت تقرأ الجرائد وتنتقد الاوضاع وتتحمس وتبكى أحياناً كما تقول في رسائلها .

سمعت كذلك ان عضوات من الهلال الاحمر الفرع النسائى سافرن الى الاردن وسافرت معهن الملكة (نفيسة) ام الامير (عبد الاله) ومعها ابنتاها (الاميرة بديعة والاميرة جليلة) ، وكانت تصحبهم من الهلال الاحمر سيدات اعرف قسماً منهن مثلا السيدة سعاد العمرى والسيدة ممدوحة الفارسى والسيدة ماجدة الحيدرى وعضوات اخريات ، وقد قضين الوقت في منطقة (اريحا) لمساعدة الجيش المحارب .

كذلك ذهبت السيدة (مديحة الجميل) زوجة العقيد (غازى الداغستانى) وشاهدت الكثير من الفرق المسلحة العراقية منتشرة لحماية أراضي الاردن الشقيق . وقد اصيب زوجها العقيد غازى الداغستانى بجرح في جسده أنذاك .

قرأت في المجلات المصرية ان الاميرات المصريات شقيقات الملك فاروق لبسن الملابس العسكرية وذهبن مع الهلال الاحمر المصرى لمساعدة الجرحى .

في الشهور الاخيرة في لندن كنت ادافع عن فلسطين بالكثير من الحماسة الشديدة مع الاطباء هناك ، وكنت واثقة ان اسرائيل لن تتأسس في الأراضي الفلسطينية العربية ، واكرر الكلام امام جماعتي في اوقات الطعام .

ولن انسى ما قاله لي طبيب يهودى بريطانى في مطعم الكلية بعد ان انتهينا من الطعام والكلام عن فلسطين وقمنا لنرجع الى المختبرات . اوقفني الطبيب اليهودى لوحدى وقال :

ـ استـمـعى الى مـا اقـول لك ، ولا ادري لـم تقلقين هكذا؟انا وانت من الشـرق! . . اوروبا ذهبت شذر مـذر منذ انتهـاء الحرب ولن تسترجع قـوتها القـديمة ابداً . والجنود الامـريكان سـيـرجعـون الى بلادهم ولـن يهـمـهم شيء ، كـمـا كـان شـأنهـم قبل الحرب . ان الامـريكان يكرهون اوروبا! . . ابتـهجى! . . لقد بدأ عـصر بزوغ) النجمة من الشرق) وستكون العاصمة للعالم كله! . .

استمعت اليه وكأنه يقول لي لاتقلقى بشأن فلسطين ، بل تمتعى بما سيأتي بها العالم القادم الحديث! . .

رأيت كلامه غريباً معى انا العربية! . . . لذلك اجبته وانا ابتسم بسخرية :

ـ اتظن ان (تل ابيب) ستكون العاصمة للعالم كله في المستقبل؟

اجابنى بثقة رجال الدين المتعصبين :

ليست تل ابيب ، بل (اورشاليم) . وانا لااقول ذلك ، ان هذا ما قاله الله! . . .

اورشـاليم (القـدس) كـانت مـدينة عـربيـة منذ اجيـال ولاتزال عـربيـة ، بينمـا كانت (تل ابيب) مدينة جديدة اسسها اليهود في بداية القرن العشرين .

لم اصدق ما سمعت! . .

هذه الكلمـات قـالهـا لي طبـيب يهـودى بريطانى في نهـاية سنوات الاربعينات في القرن العشرين .

العودة الى بغداد ، وبيوت الاهل الحزينة

عدنا الى بغداد بعد سنتين في اول يوم من شهر كانون الثانى .

كم تغيرت الاحوال في العائلة عندنا خلال غيبتنا القصيرة هذه! . .

رأيت العائلة كلها في حداد عميق بسبب وفاة ثلاثة من اقاربنا في غيابنا .

رأيت والدي وهو الرجل الثابت العسكرى المؤمن ، رأيتـه يرزح بسبب فـقدان اخيـه الاصغـر (حسن) ، وابن خاله وزوج ابنتـه الكبرى (صبيح) ، وفـقدان اختـه الوحيدة (عمتى امينه) الحبيبة ، وسجن ولده (خلوق) الطالب في كلية الحقوق .

والدتى ترتدى السواد بسبب ضياع اقاربنا الاعزاء ، وكـانت كذلك في حالة حزن شديد لان ابنها الاكبر وعزيزها الرياضى البطل (خلوق) ، كان محكوماً عليه

بالسجن بسبب اشتراكه في مظاهرات بغداد في (الوثبة) ضد معاهدة بورتسموث ، وقد كان من اشد المتظاهرين بروزاً وقيادة في المسيرات الشعبية .

وكانت تبدو رغم لونها الابيض الوردى ، وكأنها شاخت قليلاً ولم يكن سنها قد تجاوز السادسة والاربعين . رأيت الكبر والحزن بصورة واضحة في عينيها الواسعتين الداكنتين وكذلك ظهور بعض الشيب في شعرها الاشقر القصير المسدل .

اختى الكبرى (بتول) ترتدى السواد لانها فقدت زوجها (صبيح نجيب) قبل اشهر قليلة ، احزننى منظر اختى الكئيب واولادها الاعزاء وقد فقدوا والدهم الحبيب وهم في دور المراهقة . كنت احبهم كما احب اخوتى الصغار تماماً وكانوا يبادلوني هذا الحب .

اخبرنى اولاد اختى عن وفاة والدهم الفجائية نتيجة نوبة قلبية حصلت في مزرعتهم في اليوسفية ، وكيف اشتركت البنات الاثنين في موكب الجنازة مع الرجال في سيارتهم الى مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني .

اختى تبدو شاحبة في الثوب الاسود ، وقد اهملت جميع مواد الزينه على وجهها ، وانعدمت ضحكاتها المرحة الكثيرة ، وهى التى كان لا يمكنها كتمان ضحكها السريع معنا جميعاً ، وقد ظهر بعض الشيب أيضاً في شعرها الاسود القصير .

لم تكن قد بلغت الاربعين من عمرها بعد! . . .

اولادها الثلاثة ابنتان وولد واحد ، (بثينة) في سن التاسعة عشر وقد دخلت (كلية التربية) و(سهيلة) في سن الثامنة عشر دخلت كلية الطب ، وهن الآن يرتدين الثياب السوداء ، واخوهم (زهير) وهو في سن السادسة عشر يدرس في الثانوية في كلية فكتوريا في مصر .

اصرت (بتول) اختى الكبرى ان نبقى في دارها الكبيرة لفترة من الزمن لنكون معها . لم نكن نملك بيتاً ، لذلك بقينا معها رغم بعد المسافة عن اشغالنا ، وعن بيت والدي .

زوجة عمى (حسن فهمى) واسمها (ام قحطان او خالة وجيهة) ترتدى

السواد بسبب وفاة زوجها . عمرها مثل اختى (بتول) ، رأيتها وقد تغير وجهها الجميل المرح الى وجه صامت كئيب ، وتبدل مزاحها المفرح بين الاهل والاصدقاء واصبحت لاتأتلف مع الناس الا قليلاً . تذكرتها في الماضى ، كان لها دائماً اكبر اجتماعات (القبول) بين نساء بغداد .

كان لديها ستة اطفال خمسة اولاد وبنتاً واحدة هي (ميادة) وكان اكبر الاولاد (قحطان) يدرس في بريطانيا الهندسة المعمارية بعد ان تخرج من الثانوية .

غابت (عمتى امينة) من العائلة واصبح بيتها ، بيت الحاج (محمود رامز) شبه خالٍ وهى السيدة اللطيفة التى يزورها الاقارب كلهم ويأنسون معها . رأيت بناتها الثلاث يرتدين السواد ومعهم زوجة اخيهم (سعدون) وهى شابة سورية .

إبنة عمتى الكبرى (فضيلة) ، تزوجت وهى تلبس السواد الى يوم العرس الصامت ولم يذهب معها الا اقرب النساء اليها دون ان تخبر اياً من صديقاتها .

اصبحنا ، انا واحسان ندخل من بيت حداد ونغادره الى بيت آخر يعادله حزناً . وفوق هذا كله ، كنت اشعر بأسى عميق في داخلى بسبب فقداننا طفلتنا في لندن .

عدت الى محلى في كلية الطب والمستشفى الملكى ، وعاد (احسان) الى قسم النفط في وزارة الاقتصاد . كنا ننزل في الصباح في السيارة مع ابنتى اختى (سهيلة وبثينة) للذهاب الى اعمالنا ، اذ كنا ننتظر وصول سيارتنا (الموريس ماينر) من لندن والتى شحنناها قبل سفرنا .

بعد ايام قليلة جداً ، ونحن في السيارة صباحاً في شارع الرشيد نسير باتجاه المستشفى الملكى ، رأيت في ساحة الشورجة (شيئين) طويلين في الشارع معلقين ويغطيهما قماش يشبه (الكونية) . لم ادر في البداية الا بعد ثوان بدت طويلة .

انهما جثتان لمشنوقين في الشارع العام في وقت الفجر وظلا في وضعهما لكي يراهم الناس في الصباح . ثم رأينا جثة اخرى مشنوقة في باب الدفاع ومغطاة بنفس الطريقة .

اثار هذا المشهد في نفسى مشاعر مرة حزينة وكأننى اعود الى العصور القديمة وانا القادمة من بلاد التسامح والانسانية! . .

كنت اظن ان الشنق (العلنى) ، هو من آثار الماضى القديم السحيق ، وليس من القرن العشرين .

لقد كانت الجثث المشنوقة هي لشيوعيين ثلاثة هم (فهد ، والشبيبى ، وشخص يهودي) لا اتذكر اسمه .

في المستشفى وجدت الاطباء يشعرون ما اشعر به عن الشنق العلنى ، وكان يهمسون بكلامهم باصوات خافتة .

عدت الى نفس محلى السابق في الردهة الباطنية الثالثة وكذلك في قسم (العقاقير الطبية والتداوى) في كلية الطب . ولكن الاستاذ ستيسى لم يكن معنا! . . لقد انهوا عقده في السنة الماضية وخسره طلاب الكلية الطب وخسرته المستشفى ، إذ كان من احسن الاساتذة علماً وتدريساً ، والاطباء الذين درسوا على يده ، يذكرونه يالاحترام والتقدير دائماً .

والان وبعد مرور سنوات طويلة ورؤيتى الكثير من الاساتذة الاطباء في الخارج ، اقول بأن الاستاذ (ستيسى) ، كان ممتازاً في علمه وفى محاضراته للطلاب ، وقد ترك بغداد بعد ان اشتغل اثنتي عشرة سنة وقضى سنوات الحرب فيها ، ولم يجد من يكرمه (بوسام الرافدين) كما فعلوا مع اساتذة اجانب آخرين فيالماضي ، او حتى من يكرمه بحفلة وداعية كبرى كما يفعلون فى البلاد الاخرى! . .

السبب كان الغيرة البشرية ورغبة شخص آخر في الحلول محله .

في لندن عين الدكتور (ستيسى) استاذاً في كلية الطب في مستشفى (سانت توماس) وهذا المستشفى هو واحد من احسن كليات الطب في بريطانيا .

رأيناالاستاذ (ستيسى) في لندن وكنا مع الدكتور (غانم عقراوى) والدكتورة (سمحة شينا) قبل رجوعنا من لندن ودعوناه على العشاء . اثناء الطعام سألنا عن دراستنا في لندن ومعيشتنا هناك ، ولم نسمع منه لوماً او تنديداً بأى احد من بغداد ابداً . بل قال وهو يبتسم :

- لقد بقيت مدة طويلة في بغداد! . .

وقد ساعد الدكتور ستيسى العراقيين عند الاشتغال على نيل الكتوراه في

كليات طبية بريطانية لسنوات عديدة قبل وفاته . توفى في سنة ١٩٧٤ وقد قارب سن السبعين ، وكان لايزال يقوم ببحوث عن العقاقير التى تأثر في الدماغ الى قبل وفاته باشهر . وقد نعاه الدكتور (سندرسن) في جريدة التايمس اليومية وكان سندرسن في حوالى التسعين من العمر .

بدأت اشتغل كما في الماضى مع الدكتور (مهدى فوزى) في درس (العقاقير الطبية) وفى الردهة الباطنية الثانية وكان الطبيب الشاب الذى يشتغل في الجناح الثانى مع الدكتور مهدى فوزى هو الدكتور (سالم الدملوجى) الذي تخرج بعدي بثلاث سنوات .

في الايام الاولى ونحن نطوف بالمرضى في الجناح الثانى ، سألتنا امرأة دخلت الجناح كمريضة جديدة واذا بلهجتها تجلب نظرى ، لم تكن عراقية ، بل كانت امرأة من فلسطين لاجئة في العراق . اصبت بما يشبه الصدمة الكهربائية . الجميع في بغداد تعلموا على وجود الفلسطينيين كلاجئين ، ماعداى انا القادمة الجديدة! . . .

لاجئة من فلسطين؟ وامتلأت عيناى بدموع لم ارد ان يشاهدها الطلاب والاستاذ ، درت ظهرى ودخلت الغرفة الجانبية وامتلكت نفسى قبل ان يرانى احد! . .

كان على ان ازور بقعة حزينة اخرى وهى السجن الموجود في العيواضية لكي ارى اخى(خلوق) سجين احداث (الوثبة) التى حدثت ضد وزارة السيد (صالح جبر) عندما عقد معاهدة بورتسموث مع الوزير البريطانى الذى كان متعاطفاً مع العراق والعرب وهو (ارنست بيفن) .

نجح اعداء العراق في مظاهرات (الوثبة) في الغاء هذه المعاهدة قبل ان يعرفوا ماهية الموضوع وسقطت وزارة صالح جبر وحل محله (السيد الصدر) رئيساً للوزراء .

حدثت الوثبة ونحن في لندن! . . .

ذهبت الى السجن وحدى . دخلت الفناء الداخلى واعطيت اسمى ، ثم مشيت خلف جندى هناك . دخلنا ما يشبه فناء دون سقف وعلى الجهة اليمنى مم يحجزه حاجزاً عالياً من الحديد يمتد من الارض الى سقف الغرفة ورأيت جماعة

كبيرة في هذه الممر يلبسون ملابس السجن ويتحدثون .

نظرت الى الحاجز الحديدى واذا بين جماعة المسجونين يقف (خلوق) اخى قرب السياج وهو يرتدى ملابس السجن البيضاء المقلمة بالازرق وعلى معصميه قيود الحديد وكذلك على قدميه .

كنت اتوقع أي شيء ماعدا هذه القيافة الرهيبة! . .

لم اتمكن من الكلام لأنني اختنقت بالعبرات وبدأت اضغط على شفتى لئلا ابكى بصوت عال . واذا بخلوق ينظر الى بشدة ويقول :

- ماهذا؟ اضبطى نفسك! . . انت القوية الثابتة! . .

جعلته يتكلم لفترة الى ان امتلكت نفسى وبدأت اسمعه . تكلمنا معاً بعض الوقت .

كنت دائماً ضد مايعمل خلوق من المسيرات والمظاهرات . لم اكن اؤمن بما يؤمن به من الاشياء السياسية ابداً . وكنت دائماً اسخر بما كان يقول على طريقة الاخوة في البيت وانا الاخت الكبيرة وكان يصغى أحياناً لما أقول له . في هذه المرة كنت ضده على طول الخط بشدة ، لكنه انتزع اعجابى رغماً عنى بموقفه الراسخ الثابت في السجن الرهيب .

شاهدت قوامه الطويل السامق وكأنه السهم في ثباته . كان خلوق الآن في اجمل ايام شبابه ، وسيم الوجه ذو شعر اسود كثيف ورأيته بطوله الفارع ورأسه المرفوع الى اعلى وكأنه جندى بطل اتى من معركة حاز فيها البطولة والفخر ، برغم ملابس السجن المخيفة والقيود الحديدية على الرسغين والقدمين . كان ينظر بفخر الى القيود الحديدية على بدنه .

بدا لي بشكل ممثل جميل من بلاد السينما يمثل دور المسجون .

سمعت ان الجواهرى نظم في قصيدة عن السجناء هؤلاء وفيها بيتين عن خلوق شخصياً حيث يقول :

سلام على مثقلٍ بالحديدْ ويشمخُ كالقائد الظافرِ

كأن القيود على معصميه مفاتيح مستقبل زاهرِ

(عند خروج خلوق من السجن ، علق السلاسل الحديدية التى كان يلبسها

على الحائط في حجرته لمدة طويلة وكأنها جائزة اخرى مع الكؤس والمداليات الكثيرة التى حاز عليها في مسابقات متعددة! . .) .

واود ان اثبت ما اقول عن خلوق في السجن ، اعيد بعض الكلمات من رسالة اليَّ من عراقية اعرفها منذ ايام الدراسة ، وهى من خريجات كلية الحقوق في بغداد ، ولم ارها منذ تخرجنا في الاربعينات! . . .

لقد رأت خلوق مرة واحدة في السجن سنة ١٩٤٩ لمدة دقائق فقط ، ثم سمعت بوفاته قبل اشهر قليلة سنة ١٩٩٦أي بعد اكثر من خمسة واربعين عاماً على رويتها له في السجن انقل منها بعض السطور إذ تقول :

شاء قدرى ان اكتب لكم بمناسبة حزينة جداً على نفسى . . . عن وفاة شقيقك خلوق رحمه الله .

كنت احلم ان اعود الى العراق واتحرى اخباركم لاسيما وأن صورته التى لم تفارق خيالى قد حفرت ذكرى عميقة ومثيرة جداً في خاطرى لن أنساها ابداً .

اما عن الذكرى فلقد كنت في صيف ١٩٤٩ قد عدت الى بغداد . . . واعتقلت فور وصولى .

وفى يوم استدعانى مدير السجن للتحقيق ، كنت اقطع الطريق بين سجن النساء وغرفة المدير في ساحة يطل عليها سجن الرجال كما يبدو ، سمعت صوتاً ينادى أسمي بقوة ، التفت ، فاذا بي أرى شاباً فائق الجمال والعنفوان ، وراء حاجز من قضبان حديدية وفى قدمه ترتبط سلسلة من الحديد وتنتهي بكرة كبيرة من الحديد ووراءه يقف مجموعة من الشباب . رجعت الى الحاجزوقلت له :

- من انت؟

قال لي بحماسة وقوة :

- لاتخافي! انت لاتعرفينني .

قلت له :

- ماسمك؟

- قال :

- - خلوق امين زكي! . .

قلت :

- اذن انت شقيق سانحة ولمعان كيف حالهم؟

وهنا تدخل الشرطى وقال : ممنوع! وقادنى الى غرفة المدير .

كان ما آلمنى انني لم اذهب لزيارته . . . تركت بغداد مرغمة واقمت في لبنان الى الآن .

تزوجت هذه السيدة في لبنان ولم تعد الى العراق بالرغم من بعدها القاسى وولعها بوطنها العراق .

بعد سنوات طويلة ، وقبل وفاة خلوق في ١٩٩٥) في لندن ، ذكرته ونحن نبتسم سائلة عن (المستقبل الزاهر) الذى كان يحلم به الشاعر الجواهري في قصيدته . لم يجب خلوق على سؤالي .

بغداد بعد سنتين

بدأت اشعر ببعض الفروق الظاهرة فى بغداد اثناء غيابى عنها .

رأيت الكثير من النساء يمشين سافرات وخاصة طالبات المدارس . كانت عندنا البنت تتحجب وهى في حوالى الثالثة عشرة ، واذا بي ارى الطالبات في المدارس المتوسطة والثانوية معظمهن سافرات وقد اعتاد الناس على ذلك .

رأيت بنات عمى وكن في الثانوية والمتوسطة سافرات وهو نفس العم الذى كان يطلب من أمي ان تلبسنى الجوارب الطويلة وانا في سن التاسعة ، وهو الذى طلب ان ارتدى العباءة وانا في سن العاشرة . ان ابنته الكبرى تداوم في كلية دار المعلمين العالية وابنته الثانية في الثانوية سافرة وهى في السادسة عشر! . . .

انتشرت فكرة الرياضة بين البنات ورأيت الكثير منهن اعضاء في الناديالاولمبي في منطقة الاعظمية والنادى مختلط للجنسين .

كذلك رأيت اعداد من البنات يقدن السيارات بأنفسهن وكانت هذه العادة قليلة جداً من قبل .

اهو تأثير رؤية المجندات الانكليزيات اثناء دخولهم بغداد وبقائهم في البلد لمدة تفوق عن الخمسة سنوات وهن يشتغلن بالجيش الذى انتصر في النهاية؟ لقد

كان الاطباء وطلاب الكلية يمتدحون النساء الجنديات .

ام ان ذلك تأثير وجود دولة اسرائيل الجديدة والشعب العراقى بدأ يدرك ان الامة تحتاج قوة الرجال والنساء لمحاربتها ، وكانت الكتب والجرائد تكتب ان اسرائيل تجند النساء؟ ام ان ذلك من تأثير الكلام والكتابة عن المرأة لمدة تقارب الثلاثين عاماً؟

اظنه كان تأثير كل ذلك معاً! . . .

تبدل مركز المرأة بصورة تدريجية عند الناس دون ان يصرخ بنا رئيس الدولة بقوانين جديدة صارمة كما فعل (اتاتورك) في تركيا .

سمعت ان الضباط الشبان في الجيش الآن يصرون على الزواج بزوجة تشتغل في سلك التعليم لكي تعينه في المعيشة .

رأيت كل من اعرفهم من الاطباء والاصدقاء والموظفين يمتلك سيارة خاصة ، وذلك لاتساع البلد ودخول السيارات بكثرة وابتياع السيارات بالاقساط . وكانوا يسوقون سياراتهم بأنفسهم ، على عكس سنوات الثلاثينات كانت السيارات الخاصة قليلة وتشمل اناس من اصحاب القدرة المالية على شرائها مثل التجار والمزارعين الاغنياء وموظفى الدولة الكبار وكان لكل واحد من هؤلاء سائق خاص .

رأيت اصدقاء احسان وقد تزوج معظمهم . المهندس (جعفر علاوى) تزوج ابنة خالتة (مليحة اغا جعفر) ولهم الآن طفل اسمه (سعد) وهو في الاشهر الاولى من عمره . (خليل الداغستانى) عاد من انكلترا ومعه زوجته الانكليزية (مارجرى) الشقراء اللطيفة المهذبة ، ولم يكن لديهم اطفال ، (محمد الرحال) رجع من انكلترا ومعه زوجته الانكليزية (كيتى) وطفلتهم الجميلة (ديانا) وعمرها حوالى السنتين . (قاسم حسن) عاد من ايران ومعه زوجة ايرانية اسمها (زليخة الاسدى) وهى طبيبة ، ولديهم طفلة صغيرة اسمها (شهرزاد) .

كان هؤلاء الرجال اصدقاء زوجى ، اما انا فقد وجدت نفسى بين زوجات اجانب لم ارهم من قبل ما عدا (مليحة) التى كنت اعرفها قبل ان تتزوج واصبحت من اقرب الناس الي ، وبقيت كذلك الى الآن .

لحسن الحظ ، وجدت من اصدقاء الطفولة جماعة قديمة عادت الى العرق مؤخراً واصبحت من اقرب اصدقائي وهو (نزار على جودت) ، عاد الى العراق ومعه زوجة امريكية (ايلن) تخرجت في الهندسة المعمارية مثل زوجها (نزار) من جامعة (هارفارد) في امريكا . وكان لديهم ولدان صغيران ، الكبير عمره سنتان واسمه (كميت) والصغير في عامه الاول واسمه (زيدون) . وعادت معهم اخت نزار ، (سلوى) وقد تزوجت من الدكتور (عدنان الباجةجى) ولديهم طفلة اسمها (ميسون) . وكذلك عاد شقيق نزار الاصغر (نمير) ولم يكن متزوجاً ،

رجعوا الى بلادهم بعد سنوات من الغربة دامت اربعة عشر عاماً قضاها والدهم سفيراً في لندن وباريس وواشنطون . ذهبوا طلاباً صغار وعادوا وقد تزوج الكبيران منهم واصبح لهم اطفال صغار .

انست الى (ايلن) بوجهها اللطيف الباسم وقامتها الطويلة الرشيقة ولباسها البسيط الانيق والى كلامها المنطقي الحر ، وتعليقاتها الجريئة وكنت واحسان نتفق على ماتقول تقريباً بكل شيء وكنت اشعر كذلك بحبها للعراق وتعلقها به منذ مجيئها . وكنا لانمل احاديثنا معها . وقد دامت صداقتنا قوية الى الآن .

وكان ايضاً (خلدون الحصرى) وقد تزوج (امل رشيد عالى الكيلانى) واخت خلدون (سلوى الحصرى) ، وكنا نراهم معنا دائماً .

ان المسالة التى جعلتنى اتعلق وافرح برجوعنا الى بلادنا ، هي الدفء والصداقة التى شعرت بها بين الاقارب والصديقات . حيثما ذهبت ارى الترحيب الشديد والضحكات السارة الودودة والسؤال عن سفري الى البلاد البعيدة وكيف اوحشهم غيابى ، هذه الصديقة تريد ان تجلس قربى ، والاخرى تجلس امامى مباشرة والكل يستمعون الى ما اقول ووجوههم باسمة وشفاههم ضاحكة .

كنت اقول للجميع وانا صادقة : ان رؤية هذه الوجوه العزيزة تعادل كل ما رأيت! . . .هذه الحرارة والصداقة لانراها عند الانكليز لا مع اصدقائهم ولا مع افراد العائلة بينهم . ان القادم من السفر يصل الى لندن والترحيب به يكون لطيفاً ومؤدباً وكأنهم رأوه بالامس فقط! . . .

ارجو ان يبقى في قلوبنا الدفء وتبقى الصداقة الشرقية دائماً! . . .

عدنا الى العمل ، والى الحياة الاجتماعية الكثيرة ، واذا بي اشعر باعراض في جسمى عرفتها هذه المرة رأساً . الغثيان المزعج والقي ، وشعور التعب الشديد والرغبة النوم .

متل الاعراض القديمة في ايام لندن .

لماذا تمتزج الرغبة في ولادة طفل ، مع الشعور المرضى بالقئ والاحساس بالكآبة ؟ .

هل سأخسر سنة اخرى من عمرى واعود مريضة وكئيبة لمجرد رغبتى في طفل؟

كنت وزوجى نرغب في انجاب طفل اوطفلة خاصة بعد فقدان طفلتنا الاولى ، وان ذلك سيسعدنا ، ولكن هذه الاعراض الهضمية والاكتئاب الكبير هي اشياء لااطيقها ابداً . لن اتحمس لاى شيء مهما كان هاماً ، ومعدتى بهذه الدرجة من التلبك والغثيان! . .

كانت هذه الاعراض تزيد في المساء وتخف في الصباح ولكنها لاتزول ابداً .

واول من رأتنى اتقيأ ، كانت الطباخة وهى نفس الطباخة السابقة التى كانت لدينا قبل السفر .

رآيتها تنظر الى وانا اتقيأ في الحمام وبدلا من ان تشعر معى بالالم لما احس من الم القئ ، رأيتها تنظر الى وتبتسم ، وكأنها ترى شيئاً مفرحاً .

اتت والدتى بعد قليل واذا بالطباخة تقول لها ماحدث وامى لاتزال عل عتبة الدار . تبادلت والدتى الابتسام مع الطباخة واتت نحوى وهى تقول :

- عالخير عالخير انشالله! . . .انشالله ولد هذه المرة! . .

ساءلت نفسى دون ان اتكلم :

- اين هي البنت يا أمي ، لكي تطلبين الولد الآن! . . .

بعد فترة خفت الاعراض قليلاً ، وكنت اداوم في الصباح في الكلية واعود الى البيت للراحة بعد الظهر . وتحسنت في الشهر الرابع وبدأت أحياناً اخرج في

المساء لزيارة الاصدقاء نظراً لالحافهم الشديد واجلس نصف صامتة معظم الوقت .

عادت اختى (لمعان) من لندن ومعها شهادة (الدبلوم) في امراض الاطفال ، ورجعت الى مستشفى الاطفال في باب المعظم وكان الدكتور (عبدالله القصير) مديراً للمستشفى الذى رحب بقدومها واعطاها ردهة لتشتغل فيها ، وكذلك تقوم بتدريس طلبة الكلية الطبية .

وقد فرحت لوجودها لتكون اثناء الولادة قربى .

كانت الولادة في يوم دافئ في منتصف شهر تشرين الثانى وكنت ارتدى الملابس الصيفية ، دخلت المستشفى الملكى في الساعة الثانية بعد الظهر وكانت غرف الولادة مشغولة كلها ما عدا واحدة لحسن الحظ كانت خالية ، واصبحت غرفتى .

فحصتنى الدكتورة (خالدة القيسى) وكانت الطبيبة المقيمة في الولادة ، وقالت ان كل شيء على مايرام ولم تستدع الدكتور (كمال السامرائى) اوالدكتورة (آنا ستيان) للمجئ الى المستشفى للولادة .

كانت اختى لمعان معى طيلة الوقت ، هي وامى . وفى الممشى خارج الغرفة كان احسان ينتظر الطفل ومعه بتول اختى الكبرى .

اعطتنى الدكتورة نفس قناع الغاز الخفيف لكي استعمله بنفسى عند الالم وارفعه بعد زوال الالم . نفس المخدر الذى استعملته في لندن .

كانت الولادة طبيعية وسهلة والحمد لله! . . .

فتحت عينى بسرعة خلال ثوان بعد الولادة ، واذا بامى تنظر الى الطفل ووجهها عابس قليلاً . خفت جداً من شرٍ مستطير وسألتها : ما الخبر؟

ضحكت أمي وقالت :

- انها بنت سمراء! . . .

طلبت رؤية الطفلة واذا بطفلة كبيرة تبكى بصوت عال ورأيتها حلوة جداً .

سألت أمي لماذا كانت عابسة قبل قليل فأجابت ضاحكة :

- لان الطفلة سمراء .

كانت والدتى تفخر بأن اطفالها كلهم من ذوى البشرة البيضاء ، وثلاثة من

اولادها لهم عيون زرقاء وستة لهم شعر اشقر واثنين فقط كان لون شعرهم بنياً .

لم نكن طفلتى سمراء ولكنها اسمر افراد العائلة ، وكان عندنا شاب اسمر واحد وهو ابن عمى زيد صالح زكي .

اتى افراد العائلة مهنئين . الكل يتعجب من لون ابنتى الحنطى وانا اتحدى الجميع واقول انها اجمل من اولادهم كلهم .

كذلك اتى الاطباء والطبيبات للتهنئة .

اصبح لشيرين كمية كبيرة من مجوهرات الاطفال على شكل اسورة وقلائد ذهبية قسم فيها آيات من القرآن الكريم او كلمة (ماشالله) وغيرها . وكلها موجودة الى الآن مع شيرين .

الدكتور (محمود الجليلى) وهو ابن صفى ، اهداها عربة صغيرة وردية اللون ذات حزام ليسندها وعجلات تستخدمها عندما تستطيع الجلوس لوحدها .

زارنى الدكتور (احمد عزت القيسى) استاذ الطب العدلى ، وطلب مني ان ابدأ بالكتابة عن الطفلة واجعل ذلك بداية لمفكرة يومية جديدة تسير معى طيلة حياتى . راقتنى الفكرة وبدأت اكتب بضعة اوراق ، ولكن لسوء الحظ ، لم استمر على الكتابة ، بل اهملتها تماماً .

اتعجب الآن كم من الاوراق كنت سأكتب لو بدأت كما طلب مني الاستاذ (القيسى) ، وداومت الى هذا اليوم! . .

سمينا ابنتنا (شيرين) وهو اسم سهل عندنا وبسيط في اللغات الاجنبية كلها ، واعجب بهذا الاسم الجميع ، ما عدا الدكتور (جلال عزاوى) ، الذى زارنى في المستشفى ، وسأل عن اسم الطفلة وقال :

- ليش شيرين؟ سميها اسماً عربياً! . اجبته :
- الاسم جميل الوقع ، وأنه ليس شائعاً بين الناس .

وقد انتشر الاسم بعد ذلك بين اصدقاء صفى من الاطباء حيث سمى الدكتور سالم الحيدرى والدكتور غانم عقراوى ابنتيهما شيرين ، وكذلك احد افراد عائلتى .

خرجت من المستشفى بعد ستة ايام واذا الجو بارد جداً بعد مرور يوم ممطر واحد ابدل الجو الدافئ ، الى فصل الشتاء خلال فترة قصيرة جداً .

اخذت اجازة لمدة شهرين لكي اعتنى بالطفلة ، واتت لدينا شابة دون العشرين لاتعرف أي شيء عن الاطفال اسمها (سعدية) . علمتها ما اريد لها ان تتعلم عن العناية بالطفلة . كنت اطلب منها مشاهدة ما اقوم به مع الطفلة دون ان تمسها ، وتدريجياً جعلتها تقوم بعمل واحد في اليوم للطفلة وانا اراقبها .

علمتها تبديل الملابس وكيف تغسل ملابس الطفلة وتكويها ، وكيف تحمل الطفلة في اسابيعها الاولى . الشئ الوحيد الذى بقيت اعمله بنفسى هو حمام الطفلة اليومى لان الفصل شتاء . واثناء عودتى الى الى الدوام كنت أؤجل حمام الطفلة حتى اعود للبيت واقوم بحمام شيرين بنفسى ، الى ان حل فصل الصيف واصبحت اسلمها لسعدية لكي تغسلها في البانيو الصغير وانا اراقبها الى ان اصبحت سعدية متمكنة من السيطرة على استحمام وتنشيفها الطفلة بسرعة والباسها ملابسها بسهولة .

في الاربعين يوماً الاولى كان غذاء الطفلة هو حليب الام فقط . . ثم اخذت بالتدريج اعطاءها الحليب المجفف مرة في اليوم ، وازداد بالتدريج الاسبوعى ، الى ان وصلنا الى وجبتين من الام واحدة في الصباح والثانية في الليل الى الشهر السادس . وبدأت اعطيها بالتدريج شوربة ثم القليل من البيض وهكذا .

اصبحت (سعدية) مثالاً للمربية كما كنت ارغب ، وهى لا تعلم عن الاطفال سوى ما علمتها انا .

كانت سعدية فوق مزاياها خجولة وقليلة الكلام جداً . وكانت هذه من اهم المزايا لدي .

بقيت لدينا(سعدية) لمدة تسع سنوات وقامت بتربية ابنى أيضاً الى ان تزوجت وغادرت البيت .

كانت شيرين طفلة مثالية ، كثيرة الضحك والبشاشة ، قليلة البكاء ، تحب ما نعطيها من الحليب والاكل وتنام جيداً . وكان نموها طبيعياً في الجلوس والمشى ونمو الاسنان وتعلم الكلمات الاولى .

وقد اقمنا يوم ميلادها الاول حفلة في بيت والدي في الوزيرية حسب اصرار والدتى ، وقد حضر الكثير من افراد العائلة كباراً وصغاراً . وغنى لها الجميع اغنيات مختلفة ، ورقص لها البنات الصغار رقصات لطيفة ولاادرى ما شعرت به شيرين في هذا البيت الذى امتلأ بالناس ، ولكنها بدت ضاحكة مسرورة تحاول ان تغنى مع الاخرين باصوات طفولية عالية .

عدت الى الدوام وكنت اترك (شيرين) مع المربية (سعدية) ومعها الطباخة الاولى التى هي جدة (سعدية) ، لذلك لم يكن هناك مانشكو منه ، من التعارض بينهما . وكانوا يقيمان معنا في المنزل ويذهبن الى بيتهن يوم الخميس بعد الظهر ويرحعن الجمعة مساء .

ان السنوات الاولى للاطفال هي اجمل السنوات بالنسبة للابوين ولا يعادلها شيء اذا كان الطفل صحيح البنية . والطفل الصغير هو ملكنا لسنوات قصيرة جميلة تمر بسرعة ، ثم يكبر ، ويصبح الضيف العزيز في البيت الى ان يتزوج ويغادرنا! . . .

خطب الدكتور (سالم الدملوجى) اختى لمعان . وقد كانت لديهم عيادات متجاورة ومعهم عيادة الدكتور (داود سلمان على) في نفس العمارة . وكان الدكتور سالم يشتغل معى في نفس الردهة الثانية في المستشفى الملكى .

وعندما تقرر ارسال اهله لخطوبة لمعان من والدي ذهبت مسرعة الى بيت والدي في الوزيرية لكي استمع مايقولون في الخطوبة بين الرجال فقط .

اقفلت باب غرفة الطعام المجاورة لغرفة الضيوف وجلست على كرسى قرب الباب المقفل لاسمع الحديث .

حضر ابو الخطيب السيد فاروق الدملوجى ومعه اخواه الدكتور عبد الله الدملوحى والعقيد توفيق الدملوجى وثلاثة آخرون من اهلهم . لم يكن الدكتور سالم معهم .

سمعت اشياء من قبل ابو سالم حول ابنه واهتمامه بالعمل وانه كان الاول في صفه . واضاف عمه معالي الدكتور (عبدالله) بعض الاشياء الاخرى وكلها ترفع من شأن (سالم) وتقدره . ثم سمعت والدي يصف زواج ابنة الرسول فاطمة

الزهراء من الامام على . تعجبت من ذلك ونحن في خطوبة سالم ولمعان .

يبدو ان ذلك مايذكره والد العروس في هذه المناسبة . قرؤأ الفاتحة واعطيت لهم الشربات .

كانت الجلسة شبه رسمية تخللها بعض الفكاهات والايات القرآنية القصيرة .

في ايام الجمعة كنا نرى الاهل اذ نتغدى معهم ومعنا (شيرين) ونرى عدد من اولاد وبنات العم واولاد وبنات الخالة دائماً في بيت والدي ، وكانت شيرين الطفلة المدللة من الجميع .

احتفظنا كذلك بأصدقائنا القدماء الذين نراهم في امسيات ممتعة في بيتنا او في بيوتهم .

في بغداد ، زاد عدد الموظين في السفارة الامريكية بصورة كبيرة وكنا نراهم في حفلات الكوكتيل والعشاء وفى نادى (العلوية) ، حيث كنا اعضاء في النادى . وهذا النادى كان بريطانياً-عراقياً وان كان عدد العراقيين في النادى قليلا في ذلك الوقت ، اكثر العراقيين من المسيحيين اذ يفضل من تكون زوجته عضوة مع زوجها .

كان نادى العلوية يهتم بالعاب الرياضية للاعضاء ، وكان يحوى حوضين للسباحة واحد للاطفال الصغار والاخر للكبار ، وفيه ساحات للعب التنس ومناضد للعبة تنس المنضدة . وفيه مطعماً كبيراً يقوم بالخدمة في اوقات الاكل الثلاثة كل يوم ، وفى يوم الجمعة يكون الغداء خاص من (رز الكارى الهندى) اللذيذ بكل مقوماته الغذائية الاخرى مثل الخل والبصل والخبز المفتت وغيرها ، ويقوم بخدمة المطعم رجال اقوياء اصلهم من قرى الشمال في الموصل ، تعودوا على الخدمة على النظام البريطانى الهادئ ، وكانوا يلبسون الملابس البيضاء النظيفة ومعها قفازات بيضاء ناصعة .

ويوجد في النادى قاعة اجتماع كبيرة وفيها مسرح في نهاية القاعة وتقام هناك حفلات سينمائية تتبدل كل اسبوع ، وفى شهور الصيف تقام حفلات السينما في الحديقة الجانبية الكبيرة .

ويوجد كذلك (بار او مقصف) يشبه بارات نوادى لندن الراقية في هدوئه

وسكونه . ولكن النادى لايملك جمال الاثاث وفخامته كما في نوادي لندن ، الاثاث محلى من صنع بغداد ، ولكن حسن التنظيم ، والخدمة الراقية التى يقدمها النادى عالية جداً من جميع الوجوه .

يشمل الهدوء الكبير حديقة النادى الكبيرة المظللة باشجار اليوكاليبتوس العالية .

في المناسبات الانكليزية تقام حفلات عشاء ورقص تتفق مع اعيادهم ومع تقاليدهم ، مثلا ، هذه حفلة لعيد الميلاد واخرى لرأس السنة وحفلات ايام الصيف في الحديقة وعلى المسبح .

وكنت احب حفلة يوم (سانت اندرو) يقوم بإجرائها الاسكوتلانديون ويرقصون رقصاتهم الجبلية المرحة . انها تذكرنى بالرقصات التى تعلمناها في المدرسة من المديرة (المسز كندى) لذلك كنت اشارك في الحفلات .

كنا نذهب الى النادي في المساء لمدة ايام قبل يوم العيد الاسكوتلاندى للتدريب على الرقصات المختلفة قبل الحفلة لنتعلم الخطوات بصورة مدروسة ومتقنة . ان الاعضاء لايرغبون ان تقع في الحفلة اغلاط بسبب عدم التدريب .

كنت واحسان العراقيين الوحيدين الذين تدربنا معهم على هذه الرقصات .

كان وجودنا اثناء الرقصات الاسكوتلاندية مما يثير الاعجاب او التعجب من جانب اخواننا العراقيين والعراقيات وهم قلة صغيرة في هذه الحفلات .

اذكر المسز فاضل جمالى وكانت مع زوجها الدكتور فاضل في الحفلة تعجبت من رؤيتنا بين الاسكوتلانديين في هذه الرقصات المختلفة على ساحة الرقص البيضاء المرمرية في الحديقة . ان هذه الرقصات اسكوتلاندية لايعرفها لا الامريكان ولا الاجانب الاخرين .

واذكر الدكتور فاضل الجمالى قال لنا ونحن نرجع الى مائدتنا :

- احسان! . . اشو صايرين (سكوج)؟

في فصل الصيف كنا نأخذ (شيرين) وعمرها بضعة شهور لكي تجلس او تخوض في الحمام الصغير الذى لايعلو عن القعر اكثر من قدم واحد . ولاادرى متى تعلمت شيرين السباحة لانها بدأت تسبح بنشاط في الحوض الكبير بعد ان

تلبس الانبوب المطاطى حول البطن تحت مراقبتنا عندما كان عمرها يقل عن العام الاول .

لم يكن للامريكيين نادى كهذا في بغداد ، ولذلك انتمى الاعضاء الامريكيون وزوجاتهم واولادهم الى نادى العلوية . كذلك كنت ارى المندوب الفرنسي والايطالى والاسبانى وزوجاتهم كاعضاء ، لكن النادى كان نادياً بريطانياً تماماً في قوانينه وادارته .

ازداد عدد الموظفين في السفارة الامريكية في بغداد وفى دوائر اخرى وأستاجروا البيوت الكثيرة في جنوب بغداد وفى الكرخ ، واخذوا يقيمون الدعوات في بيوتهم . كانت بيوتهم مؤثثة بأثاث امريكي وعلى جانب كبير من الذوق العالى والعناية المستمرة في البيت من ناحية النظافة والتنسيق . كانت الاخشاب والابواب تلمع في بيوتهم وكأنها جلبت في ذلك اليوم من المخزن . اثاث البيوت كلها كان امريكيا يجلبه الشخص من بلاده عند مجيئه الى بغداد .

كان الاثاث فاخراً واحسن بكثير من اثاث الانكليز في بيونهم . .وانا لااتكلم عن السفارات واثاثها وهى كلها فاخرة ، انما اتكلم عن بيوت اعضاء السفارة .

كان للسفارة الامريكية ملحق عسكرى بدرجة كولونيل ومعه مساعده بدرجة ميجر وكذلك ملحق جوي وملحق بحرى كل منهما بدرجة كولونيل ومعهم معاونيهم الاصغر سناً . عناوينهم العسكرية كانت مثل الانكليز تماما من الملازم الى الجنرال .

وكانت لديهم ملحقون صحفون وملحق علاقات عامة والكثير من السكرتيرات والسكرتيريون .

كان الامريكان في النادى وفى الحفلات واثناء عملهم في قسم النفط في وزارة الاقتصاد يأتلفون مع (احسان) بسرعة لانه يعرف بلادهم ويتصرف مثلهم بصورة طبيعية ، ومنذ اللقاء الاول معه يبدأ هو والجميع بنداء احدهم للآخر بالاسم الاول وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن طويل ، وكنت احب ذلك .

لقد وجدت الامريكيات في بساطتهن الطبيعية وضحكهن المرح وملابسهن

المريحة الانيقة وكرمهن الكبير مع الخدم ، اقرب الى ذوقى من الانكليزيات رغم سكنى في انكلترا واختلاطى مع الكثير من الانكليز .

كانت حفلات الامريكان بسيطة وملذة ومرحة .سواء كانت في الايام الاعتيادية او في احتفالاتهم .

في ايام اعيادهم في ميلاد المسيح وفى رأس السنة وفى (يوم الشكر للرب او ثانكس كيفينك) في تشرين الثانى حيث كانوا يدعون بعض العراقيين الشباب ممن تعلم في بلادهم وبذلك كنا نعود الى عالم الغرب ودنياه .

كذلك كنت احب الحفلات (الريفية) الامريكية بصورة خاصة حيث يلبس الجميع ملابس الفلاحين الامريكيين ونجلس في الحديقة علياكوام من القش بدلا من الكراسى ويكون الرقص ريفياً مرحاً وجميلاً .

اما في المآدب الرسمية فاللباس كان رسمياً تماما اذ يرتدى الامريكان بدلات (سموكنك) ، وتردى النساء ملابس السهرة الامريكية وكانت اجمل بكثير من ملابس الاجنبيات الاخر .

بصورة عامة كانت الحفلات مع الانكليز يسودها الكلام والنقاش حول مايدور في العالم بينما تسود حفلات الامريكان الانس والراحة . وكنت اميل الى الاثنين معاً ، ولكل واحد مزاياه .

هكذا كنا نعيش في بغداد ، عالمنا العراقي مع الاهل ومع الاصدقاء وفى العمل ، كما كنا نعيش في عالم غربي مع اصدقائنا الاجانب ، وكنا نحب العالمين معاً! . .

وكان معظم الاصدقاء يغبطوننا علي ذلك .

الاصدقاء العراقيين الذين كانوا يختلطون بالاجانب اذكر من اصدقائنا هم ، نزار على جودت وزوجته الامريكية ايلن ، وزياد العسكرى وزوجته علية بنت محمد على محمود وممتاز العمرى وزوجته سعاد العمرى ومنذر فتاج وزوجته سهيلة وزيور نشأت وزوجته سوزى (فروزان) العمرى ومحمد المخزومى وزوجته سانحة وجزمى سليمان وزوجته بلقيس وعبد الجبار الجلبى وزوجته وجيهة وأحياناً الدكتور فاضل الجمالى وزوجته سارة .

اما في حفلات الكوكتيل فيزيد عدد العراقيون بكثير ونرى الكثير من الاصدقاء والمعارف من مختلف الدوائر الحكومية والاطباء والمحامين وغيرهم .

بدآنا نسمع ان معهد (العلاقات العامة) الواقع في شارع الرشيد قرب ساحة الامين اخذ يبعث افراداً من دوائر مختلفة لزيارة امريكا لمدة بضعة اشهر لرؤية العمل هناك ومشاهدة الامريكية من قبل جماعات لم يزوروا امريكا قبلاً .

كان الشخص الامريكى المسؤل عن الدائرة (المستر كناده) ، وكنا نراه في الدعوات . وكان المستر كنادة شخص طويل القامة نحيلاً قليل الكلام ، يشبه اهل السويد او النرويج يلبس عوينات غامقة ، وقيل ان لديه مرض في عيونه .

اذكر اثنين ممن ذهبوا الى هذه السفرات وهما الوزير السيد (سعيد قزاز) ، وهو صديق قديم لعائلتنا ، وكذلك صديقتى (سعاد ارشد العمرى) زوجة السيد ممتاز العمرى ، وغيرهم .

في احد هذه الحفلات سألنى المستر (كناده) عما اذا كنت اود الذهاب الى امريكا لزيارة بعض المستشفيات وكليات الطب ، وهو يعلم اننى ادُرس في الكلية الطبية . واضاف انه لا يمكنه ان يرسل زوجى معى لانه درس في امريكا ، والدعوات هي فقط لمن لم يزر امريكا من قبل .

اصابتنى الدهشة والذهول . ايسألنى هذا الامريكى الطويل النحيل الذى قلما يتكلم ، إن كنت اود الذهاب الى امريكا! . .

لقد قضيت الخمسة سنوات منذ زواجى والى الآن وزوجى لايتمنى سوى الاشياء الامريكية في العلم واللباس والعادات وكل شيء! . . ودائماً يكرر :

- ان الاحسن موجود هناك في امريكا! . . .

وكنت اضحك من اعجابه الشديد بامريكا ، واكرر ما يقوله الانكليز باستهزاء عن الامريكان :

- نعم! نعم! ان كل شيء في امريكا هو (الاكبر) و(الاحسن)! . . اليس كذلك؟

زوجى يرد على :

- بأن هذه هي الحقيقة! . كل شيء في امريكا هو الاكبر والاحسن في

العالم بطبيعة الحال . الجو احسن ، والبيوت اجمل ، والجامعات الكبرى ارقى ، والمستشفيات احدث ، وفيها اجمل النساء في العالم! . . ثم يضيف :

- فقط طعامنا الشرقى يمتاز عن طعام الجميع في الغرب او في الشرق الاقصى! . .

والان يطلب مني المستر (كنادة) ان كنت اود الذهاب الى تلك البلاد الساحرة! . .

طلب مني المستر (كناده) الذهاب الى دائرته في الصباح . ذهبت واستلمت منه اوراقاً لكي املئها واقدمها اليه ، وطلب مني ان انتظر جوابه ، لانه سيبعث بأسمى الى واشنطن وينتظر الرد منهم .

مرت ايام طويلة نسيت خلالها قضية السفر تقريباً واذا بالبريد يصلنى بورقة بسيطة تقول ان المعهد يدعوك للذهاب الى الولايات المتحدة لمدة اربعة اشهر تبدأ في شهر حزيران وتنتهى في بداية تشرين الاول ، والذهاب سيكون بطائرة ك .ل .م الهولندية لان لم تكن هناك طائرات امريكية ولا طائرات عراقية .

اصابتنى النشوة الكبيرة . هل سأذهب وارى تلك البلاد البعيدة المسحورة؟ .

اريد ان ارى ما يذكره زوجى عن تلك البلاد ، بصورة دائمية لاتنقطع! . . .

كذلك كلام (ايلن) وزوجها (نزار) عن العالم الجديد ، ومعلماتنا في الماضى وثقافتهن كلها امريكية ، واهم من كل ذلك هوليود وافلامها التى سيطرت على افكارنا لاكثر من عشرين عاماً .

هل سأرى نيويورك وناطحات سحابها ، وواشنطن والبيت الابيض ، وسان فرنسسكو وجسورها الخيالية ، ولوس انجليس وستوديواتها الكثيرة وممثليها وممثلاتها الكبار؟ (مايو كلينيك) المشهور و(جون هوبكنز) والمستشفيات الاخرى . وارى افراد الشعب الامريكى (النزيه البرئ والمثرى) صديق كل الشعوب! . . .

هكذا كنا نحن العرب في منتصف القرن العشرين نعجب بالامريكان دون ان نخشاهم لانهم اغنياء ومتمدنون بعيدون عن الاستعمار والامبريالية الاوروبية .

وكان هذا على رغم انهم كانوا اول دولة توقع على قبول اسرائيل وطناً في فلسطين العربية في الامم المتحدة وتبعها الاتحاد السوفياتى مباشرة .

اما عن معلوماتى عن عصابات شيكاغو والقسوة والقتل مع الهنود الحمر ، فأنها زالت واصبحت من الماضى السحيق ، والان كل شيء بأحسن حالة . كان ذلك مايتكلم عنه زوجى ومعه نزار جودت وزوجته الين الامريكية . كنت اصدق اقوالهم جميعاً ، وارى الامريكان في بغداد ولاارى احسن منهم تصرفاً وكلاماً ، واقول ليتنا كنا مثلهم .

(سلوى جودت) ضحكت من اعجابى الكبير بامريكا وذكرت بأنني سأرى الكثير بصورة مختلفة ولم اصدق كلامها . (الين) زوجة اخيها اخبرتنى ان (سلوى) لايعجبها العجب .

والان سوف اذهب لكي ارى امريكا بنفسى! . .

كنت كمن حصل فجأة على يانصيب كبير! . . . سأذهب مدعوة الى بلاد صناعية متقدمة متمدنة ، تملك كل شيء ولاعلاقة لها بأستعمار بلادنا ولادخل لها في اراضينا! . .

اسرعت لاخبر والدي بالخبر . فرح والدي جداً وكذلك أمي ، لكنها اضافت ووجهها حزين :

ـ هل يمكنك فراق الطفلة الصغيرة؟انا لاابدل فراق طفلة بهذا العمر بجنة الخلد! . . اجبتها :

ـ سوف اتركها في بيتكم هي و(سعدية) معها الى ان اعود! . .

فرح الجميع بما قلته لأن (شيرين) كانت معبودة الكل في ذلك البيت من والدي الى الاخوة والاخوات كلهم . يحبونها جميعاً حباً جماً ، لان البيت خال من الاطفال الصغار ، واخى الاصغر كبر واصبح عمره يناهز الرابعة عشر وفى المدرسة المتوسطة ، وافراد بيتنا جميعاً يعشقون الاطفال الصغار ، وكانت شيرين شديدة التعلق بهم .

لذلك اخذوا يستعجلون ذهابى لكي تذهب شيرين اليهم ،

احسان وعدنى ان يمر على(شيرين) كل يوم لكي يراها وتراه يومياً اليوم رجوعى .

كانت (ايلن) وزوجها (نزار) اكثر الجماعة تحمساً لذهابى اليامريكا . اعطتنى

(ايلن) بضعة عناوين في امريكا لكي اتصل بهم ، ومنهم اخواتها الثلاثة واخوها .

كثيرات من صديقاتى اسائتهم رغبتى في الذهاب وتركى الطفلة لمدة شهور ، وكنت اشعر بالذنب ولااتمكن من الاجابة امامهم . كان ذنبى امام ابنتى كبيراً! . .

اثنتان من صديقاتى العراقيات اذكر اقوالهما معى تماما .

قالت واحدة لي في بيتها بلهجتها الموصلية الشديدة وهى تبتسم :

- مستحيل ان اعمل ذلك مع أطفالي! . .

الاخرى قالت لي في بيتى بصوت خافت بلهجة مدينة الكاظمية :

- انا ماقدر! انا اموت اذا اترك طفل صغيروارائي! . .

+ ولكن ما حدث مع هؤلاء الاتنين بعد رجوعى من امريكا جعلنى اضحك منهن كثيراً . قدمت لازواجهن الدعوة للذهاب الى امريكا كل بصحبة زوجته . اسرعت كل من الصديقتين الى الذهاب الى امريكا وتركت (معزز) ولداً عمره شهور قليلة ولدته بعد ولادة بنتين قبله وكانت تزهو به ، بل سافرت ولم تقل : مستحيل ان تتركه! .

اما (وجيهة) فقد تركت ابنتها وهى في الشهور الاولى من عمرها دون ان تقول :- انا اموت! . . وماقدر اترك طفل صغير ورائي . .

هل كانت تسافر والدتي التى لامتنى ، لو اتتها الظروف بهذه السفرة؟من يدرى! . .

اجل كنت شديدة الرغبة في الذهاب رغم ماكان يحز في نفسى من الالم لمفارقة طفلتي الصغيرة لاربعة شهور طويلة . ولايعرف هذه العاطفة الا الامهات اللواتى يبتعدن عن اولادهن الصغار .

لحسن الحظ كنت اعلم تعلق شيرين الشديد في (بيت جدو) كلهم ، وادرى تماماً عن تعلقها بي وتعلقى انا بها! . . .

ستكون هذه الرحلة جميلة ولكنها موحشة أيضاً .

سأضع فؤادى في بغداد يبقى مع طفلتى الصغيرة الى ان اعود .

بعد رجوعنا من لندن كان الاجتماعات الاخوية مع مجموعات اصدقائنا من اجمل الاشياء ، وكانت لنا جماعات مختلفة من الاصدقاء ، وكنا نودهم جميعاً .

كنت أانس مع اصدقائنا نزار جودت وزوجته (الين) بقوة لان عاداتهم تشبه ما ارغب به من التصرف . كنا شباب يملئنا حب العمل والثقة الكبيرة بمقدراتنا وقابلياتنا مثل شباب الجامعة! . . . وبالرغم من اننا كنا موظفين كالالوف من امثالنا في الدولة ، ولم يكن لدينا أي نفوذ او سلطة او مال كثير ، وكنا بالكاد نعيش على المستوى الذى نرغب فيه ، ولكننا كنا نتكلم عن العراق وما يجب صنعه لتحسين وتبديله الى مستويات راقية ، وكأننا من ارباب الملايين واصحاب النفوذ ونتكلم عن بلاد تشبه البلاد الامريكية في بداياتها الاولى بعد استقلالها عن بريطانيا! . . . كان الاتفاق يسودنا في معظم الامور ، ويخيم علينا المرح والنكات بصورة مستمرة حتى ونحن نتناقش في امور جدية .

كنا نحلم بتبديل الامور بسرعة وبقوة ، امور كانت تبدو ولاتزال مستحيلة في العراق! . . إذ كان كلامنا عن الحرية والتعليم والسياسة الديمقراطية .

كنت انظر الى المستقبل المشرق ، وهو (عالم الغد) الذى كنت انتظره ، حيث الابواب كلها مشرعة امام الشباب العراقي المثقف الجديد والذى سيفيض على البلد بالمعرفة والعلم! . . .

كنت لاازال في داخلى شابة صغيرة متحمسة دون العشرين من عمرها! . . . رغم ان عمرى الآن قد قارب الثلاثين .

لم اكن انظر الى مستقبلي آنذاك ، مستقبل ولادة ثلاثة اطفال ومسيؤلياتهم الكبرى ، ثم والاصابة بمرض معدى خطير حدثت بالتتابع خلال ستة سنوات متوالية ، حيث تبدل حماس الشابة المتطلعة الى المستقبل الزاهر ، الى شخصية امرأة اخرى ، امرأة اكبر سناً بكثير ، امرأة واقعية لاعلاقة لها باحلام مستقبل خيالى غبر منظور! . . .

اعود الآن الى بيت نزار والين ، الى حيث كنا نتجادل ونتناقش وننتقد كل ما لايعجبنا من الامور .

كان بيتهم من بيوت موظفى السكك الحديدية في قسم الكرخ من بغداد . شيدت معظم هذه البيوت بعد الحرب العالمية الاولى بعد دخول الجيش البريطانى الى العراق وتنظيمهم السكك الحديدية .

كانت منطقة بيوت موظفى السكك الحديدية تشبه قرية صغيرة جميلة خضراء ، ذات شوارع قليلة ومستقيمة ، وعلى البيوت مسحة غربية لانها لاتشبه بيوتنا البغدادية المعروفة ، البيوت مبنية من (اللبن) أي احجار (الطين الاحمر) الغير مفخور لانه ارخص من استعمال الطابوق . البيوت على شكل (بنكلة) او بيت من طابق واحد به غرف متجاورة بشكل مستقبم ، الغرف كبيرة وتفتح كل غرفة على الاخرى بأبواب بينها ، وأمام الغرف وورائها طارمة طويلة فوقها سقف بارتفاع سطح البيت ، وعلى هذه الطارمتين تنفتح شبابيك الغرف على الجهتين . وكان في سقف كل غرفة مراوح كهربائية للصيف ، ومدافئ في جدار الغرف تحترق بالخشب اثناء الشتاء ، وللمدافئ مدخنة ترتفع الى سطح البيت كنا نسميها (بادكير) بالعامية البغدادية . ويحيط بكل بيت حديقة واسعة .

الحدائق كلها عامرة بالورود الملونة والشجيرات المختلفة خاصة شجيرات (الدفلى) التى تحيط اسوار كل حديقة من الداخل والخارج وتغطى المنطقة كلها بازاهيرها البيضاء والوردية والحمراء! . . يسكن هذه البيوت موظفي مديرية السكك الحدبدية ، اكثرهم من البريطانيون وبعض العراقيون وقليل من الهنود .

ان هذه المنطقة تشبه قرية صغيرة منعزلة عن المدينة ، وفيها نادى جميل للموظفين . يحوى النادى على حوض للسباحة ، وصالة كبيرة للحفلات وللسينما ، وغرفة فيها طاولة كبيرة للعب البليارد الانكليزى أي (السنوكر) بسطحها الاخضر الغامق واخشابها المتينة الراسخة تعلوها الاضوية المركزة يغطائها الاخضر والتى تنير الطاولة اثناء اللعب . كانت هذه اللعبة (السنوكر) مرغوبة من الجميع . واتذكر اسماء بعض الاصدقاء العراقيين الذين كانوايلعبونها مثل : المهندس عبدالله احسان كامل وخليل الداغستانى وشاكر ابراهيم ،وحازم الحيدرى ويوسف ياغجى ومحمد الرحال ، وكنت ارى أحياناً صباح نورى السعيد وناظم الحيدرى وغيرهم والكثير من الانكليز الذين يشتغلون في السكك ، وكنا نذهب كضيوف . كان احسان يلعب معهم البليارد في النادى ، وكانت اللعبة رجالية لم ار النساء تلعبها . وكنا النساء تجلس اطراف الطاولة لمشاهدة اللعبة وهى ملذة جداً حتى لمن يتفرج فقط . كما توجد كذلك طاولات للعب تنس الطاولة (البنك

بونك) ، وهناك سوقاً خاصاً لشراء الاشياء اليومية دون الذهاب الى اسواق بغداد .

كان صديقنا نزار جودت يشتغل في مديرية السكك الحديدية منذ سنة ١٩٤٧ كمهندس معمارى متخرج من جامعة (هارفارد) الامريكية الشهيرة في مدينة بوسطن ، وزوجته (الين) الامريكية هي الاخرى مهندسة معمارية تخرجت من نفس الجامعة المشهورة . (الين) لم تكن تعمل كمهندسة ، لان لها طفلين صغيرين الكبير في السنة الثانية والاصغر دون السنة الواحدة في سنة١٩٤٩ .

قبل ان استرسل بالحديث عن نزار والين ، يجب ان اذكر شيئاً عن والد نزار ، (السيد على جودت الايوبى) ، وهو من كبار الساسة في العراق ، والذى كنت اجله واحترمه بدرجة كبيرة .

اشتغل السيد على جودت مع الملك فيصل الاول منذ بداية تأليف الحكومه العراقية الحديثة سنة ١٩٢١ ، قبل ذلك كان ضابطاً في الجبش العثماني .

السيد على جودت من مدينة (الموصل) ، درس في بغداد في الثانوية العسكرية ، وسافر الى الكلية العسكرية في استانبول وتخرج سنة ١٩٠٦ وعاد الى بغداد . والدي تخرج في سنة ١٩٠٤ قبل السيد على جودت بسنتين ، وقد كانا في نفس الزمن في الكلية في صفوف مختلفة) .

اشترك الضابط على جودت في الحرب العالمية الاولى وحارب ضد الانكليز في العراق في بداية الحرب ، وقد أسّره الانكليز في البصرة وارسل الى الهند . هناك تطوع في جيش الثورة العربية وسافر الى مكةّ والنحق بالثورة العربية مع الملك حسين وانجاله .

عندما توج الامير فيصل ملكاً على سوريا كان معه (اليوزباشى على جودت) والكثير من الضباط العراقيين ، وقد عينه الملك حاكماً عسكرياً لمديبة حلب ، وهناك تزوج على جودت من فتاة جميلة من حلب اسمها (نازك تحسين) . وقد ولد ابنهم (نزار) في مدينة الشام سنة ١٩٢٠ في ايام الملك فيصل .

بعد ان اخرج الفرنسيون الملك فيصل من سوريا ، التحق على جودت مع فيصل في (جدة) وعاد معه الى البصرة ، وحين توج فيصل ملكاً على العراق في بغداد ، كان على جودت من بين ضباطه الكبار .

تولى السيد على جودت مراكز ادارية كبيرة ، ثم اصبح وزيراً سنة ١٩٢٣ وتولى وزارة الخارجية مرات عديدة وعين رئيساً للديوان الملكى ،

في وزارة السيد ياسين الهاشمي الاخيرة ، تعين السيد على جودت وزيراً مفوضاً في لندن ، وبقى مدة سنتين ، ثم انتقل وزيراً مفوضاً الى باريس وبقى ثلاثة سنوات .

وفى سنة ١٩٤٢ عين سفيراً في واشنطن وكان اول دبلوماسى عراقى يصبح سفيراً في الولايات المتحدة ، وبقى هناك ستة اعوام . وعاد الى العراق وترأس الوزارة للمرة الثانية سنة ١٩٤٩ .وفى سنة ١٩٥٧ الف الوزارة للمرة الثالثة .

بقي السيد على جودت مخلصاً للنظام الملكى في العراق الى النهاية ، ولحسن الحظ كان اثناء ثورة ١٩٥٨ خارج العراق ، ونجا بذلك من التوقيف والسجن ومحكمة المهداوي .

عاد الى بغداد مع زوجته لفترة قصيرة اثناء الزمن العارفي ، ولكنه عاش مع زوجته افى بيروت ، وتوفى فيها سنة ١٩٦٩ .

كنت وزوجى نزور السيد على جودت وام نزار في بيروت اثناء ذهابنا هنالك في الصيف وهم في شقة في الطابق السابع . في احد الايام ذهبنا اليهم واذا المصعد الكهربائى لايشتغل . (طلب مني احسان ان نرجع فأجبته اننى اتمكن من الصعود اذا ارتقيت السلالم ببطأ . كان ذلك بعد رجوعى من سويسرا بعدة سنوات) . ارتقينا الدرجات الكثيرة يهدوء وتمتعنا برؤية ابو وام نزار وتعشينا معهم عشاء عراقياً لذيذاً طبخته ام نزار بنفسها ، وكان الضيف الاخر معنا صديق ابو نزار من ايام الدراسة العسكرية ، وهو السيد (تحسين على) الذى كان صديقاً حميماً لوالدي وصهره . (السيد عدنان ابن تحسين على كان متزوجاً من اختى عادلة) .

لم يتبدل ابو نزار بعد الثورة عما كان عليه ، وبقى الى الاخير يتصرف بنفس التصرف الاجتماعى النبيل والتواضع الكبير بصوته الدافئ الودود ، كان صورة نادرة للاعتدال الرفيع المهذب والبعد عن المبالغة والشطط في حياته السياسية الطويلة ، وكانت معاملته لزوجته ولاهلها ولاولاده من ارقى واجمل مايكون عليه التصرف العائلى .

كان هذا الرجل المعتدل الجليل ، صورة واحدة مما فقدنا من رجالات العراق بعد ثورة ١٩٥٨,

رأيتهم بعد سنوات في لندن وقد اشتروا جزء من بناية مخزن قديم لوضع البضائع فيه على النهر ولايحوى على غرف وانما على محلات لخزن الصناديق .

عدلوا المكان الى غرف متعددة وبنوا الفوف المختلفة في الغرف وكانت غرفة الجلوس تطل على النهر واشترت الين الموائد والكراسى الانكليزية القديمة وهى عادة من احسن الاخشاب والتى يندر ان يستعمله النجارين الآن ، تشترى الكرسى القديم الفخم او المائدة الكبيرة التى تكفى اثناعشر شخصاً برجل مكسورة بسعر بخس ، ويشتغل علي ذلك نزار بالنجارة الماهرة وتصبح قطعة الاثاث قطعة لا تليق الا بسيد او سيدة على درجة من الثراء . ويجدون في ذلك لذة كبرى ، العمل النجاري والاثاث الجميل المتين والسعر البخس . رأيت الكثير من اثاثهم في لندن بعد سنوات تبدو كبيت مؤثث غالى الثمن .

نعود الى صديقنا نزار . درس نزار في المدرسة المأمونية الابتدائية في بغداد ، وذهب الى (كلية فكتوريا) في الاسكندرية ، وعندما اصبح والده وزيراً مفوضاً في لندن ذهبت معه العائلة والاولاد ، وكان نزار يافعاً في سن الخامسة عشر .

امضى سنوات عديدة بلغت اثناعشر عاماً في لندن وباريس وامريكا وعاد الى بغداد بعد ان تخرج مهندس معمارى من جامعة هارفارد الامريكية الشهيرة ومعه زوجة امريكية تخرجت مثله من جامعة هارفارد في الهندسة المعمارية أيضاً . توظف نزار في مديرية السكك الحديدية في بغداد ، وسكن في احد بيوتها في (الكرخ) ، والبيت كان بيتاً حديثاً صغيراً ، مبنياً من الطابوق لان مديرية السكك تركت البناء (باللبن) الرخيص ، واخذت تشيد الدور الجديدة بالطابوق او الاسمنت . وقد بنى المهندس البريطانى (هيرست) الموظف في دائرة السكك عدة بيوت ومنها البيت الذى سكنه المهندس نزار والذى كان يسكنه (هيرست) من قبله . اضاف نزار غرفة وحمام على البيت الصغير ، وصبح البيت يحوى على ثلاثة غرف للنوم ، وغرفة للجلوس وغرفة طعام وكراج .

اعجبت بطريقة تأثيث بيتهم هذا ، وهو يختلف عن كل البيوت الاخرى .

سحرتنى البساطة المتناهية في الاثاث والذوق الكبير الذى يسود البيت كله .

كانت الكراسى قليلة ومريحة في غرفة الجلوس ، وفى الغرفة شباك كبير واحد يمتد من السقف الى الارض بين الغرفة والحديقة ، ويشمل عرض الشباك الواسع من غرفة الجلوس الى غرفة الطعام المجاوره .

وجلبت نظرى بقوة الستائر المعلقة على هذه النافذة الواسعة التى تمتد من سقف الغرفة الى الارض والى غرفة الطعام ، وهى من قماش قطنى ابيض اللون ، من ارخص انواع القطن ، نسميه في بغداد (خام الشام) ، ولايستعمل كستائر ابداً وانما كبطانة للستائر ، ولكن سعة القماش و(قرنصته) في الاعلى ، وطريقة تعليقه جعلته يبدو شيئاً جذاباً! . .

وقد فرشت على ارض غرفة الجلوس قطعة كبيرة من جلود الماعز الاسود مخيطة ببعضها بحيث تغطى ارض الغرفة كلها من (الجدار للجدار) على الطريقة الاوروبية . وبالرغم من اعجابى الكبير للسجاد الايرانى الفاخر ، وجدتنى انظرالى الارض المفروشة بجلد الماعز الاسود والى الستارة القطنية الواسعة البيضاء ، وكأننى ارى احد الصور في مجلة للبيوت الغربية الحديثة! . . .

كانت (الين) هي التى رتبت البيت على هذه الصورة البسيطة الجميلة بمؤازرة زوجها نزار الذى تاثر تأثيراً كبيراً بالاسفار الطويلة التى عاشها في الخارج ومنذ سن مبكرة ، كانت تصرفاته الاجتماعية غربية امريكية ، لكنه كان يشعر بأنه جزء لايتجزأ من العراق! . . .

كان نزار نشيطاً لايحب الجلوس اوالكسل ، ولكن أعماله الفردية كانت تجعله يتصرف كما يريد في ساعات الراحة . كان شغوفاً بأعمال نجارة الخشب وكان يقضى ساعات طويلة في زاوية النجارة في بيتهم ، لكي يصنع موائد صغيرة اوادراج للكتب حسبما يتطلب البيت ذلك . وكانت مهارته كنجار عالية جداً .

وقد كان نزار ميكانيكياً يصلح سيارته بنفسه في البيت دون ان يأخذها الى كراج السيارات . وكان لديه حفرة عميقة خاصة تقع تحت السيارة في كراج البيت يشتغل فيها ، وأحياناً كنا نمر عليهم يخرج نزار من الحفرة في الكراج من تحت السيارة لابساً ملابس العمل وقد تلطخت ملابسه ويديه بالزيت الاسود ، وخلال

خمسة دقائق يدخل الحمام لدوش سريع ويخرج لابساً ملابسه الاعتيادية .

كان ذلك يثير العجب عند الاصدقاء ، إذكيف يقوم بتصليح السيارة بنفسه وهو ابن رئيس الوزراء! . .

وقد كان نزار قليل الكلام بصورة عامة ، لايتكلم عن اعماله الهندسية ولا في النجارة او تصليح السيارة اوغيرها ، زوجته (الين) ، كانت تميل الى لبس الملابس البسيطة والمريحة دائماً ، وملابسها تلائمها لأنها تحسن التوافق في الالوان بذوقها الفني اللطيف ، وكذلك لانها طويلة القامة ونحيفة القوام تلائمها الازياء مهما كانت ، ولها شعر قصير بني اللون ووجه مريح لاتخلو منه البسمة ولا النوادر اللطيفة . لم ارها ترتدى من الحلي والمصوغات الا القليل جداً ، رغم ان معظم النساء من اصحاب الفنون الجميلة ، يبالغن في ارتداء الملابس الغريبة والحلى الكثيرة والشعر الطويل المتهدل . كنا نقول دائماً ان حضور(الين) وحده ، بذكائها وشخصيتها ، هو بحد ذاته كاف لها ، ولا تحتاج الى اضافة حلي او مجوهرات او أي اشياء اضافية على ملابسها .

(الين) محدثة بارعة ترى وتتحدث عن كل ما يجرى امامها وما تسمع به ، وتلمح القابليات الفنية للاصدقاء بسرعة ونحاول تشجيعهم على قدر ما تستطيع ، ولها معرفة برؤية وتقييم الاثاث القديم مهما كان عمره ، وتعلم ان كانت قطعة الاثاث هذه تستحق العناية ام لا ، وعندما يعجبهم الشئ يبدأون عليه معاً ، وبأيديهم المنشار والازميل والدهان والاصباغ الى ان تعود قطعة الاثاث الى مايريدونها عليه! .

وقد رزقوا طفلين خلال سنتين . وكان نزار يقول انه يود ان يولد له اثناعشر طفلا وان هذين الطفلين هما البداية فقط! . . .

احببنا صحبة الين ونزار واحبونا بدورهم ، وكنا نقضى معظم ليالينا معاً! . . .

وقد اصبحت الين وما زالت ، من احسن واحب ما تعرفت عليه من الصديقات! . .

الذى يدعو الى الاسف انهم الآن يعيشون في امريكا هم واولادهم الاربعة واحفادهم .

اراهم في فترات قصيرة متباعدة ، ونتكلم بالتلفون وبالانترنت أيضاً .

لنزار اخ اصغر منه بستة سنوات هو (نمير) ، الذى كان معنا في المدرسة المركزية للبنات ، وكان في الصف الاول الابتدائى وكنت في الصف السادس .

رجع نمير من امريكا ، ويعيش في بيت والده في شارع (العسكرى) ، ولم يتوظف . وبدأ يكتب عما يحدث في العراق آنذاك ، باللغة الانكليزية ويرسل ذلك الى مجلات وجرائد في امريكا . وكانت تصل اليه رسائل تشجيع وتحثه على الكتابة اليهم .

كان نمير ذكياً فطناً في الكلام وفى الكتابة ، ويضفى على الجو لوناً حافلاً بالمرح والتسلية .

ومن اصدقاء نزار منذ عهد الطفولة كان (خلدون الحصرى) .

وجدت خلدون يحمل الحقد الكبير على الحكومة بسبب اسقاط الجنسية العراقية عن والده السيد ساطع الحصرى بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلانى ودخول الانكليز الى العراق .

خدم السيد ساطع الحصرى العراق منذ تشكيل المملكة العراقية وهو صاحب كتاب (القراءة الخلدونية) التى تعلمت بواسطته القراءة في سن الرابعة من العمر ، وعلمته لأولادى في البيت وتعلموا القراءة وهم في سن الرابعة) .

وكان (ابو خلدون) كاتباً قومياً متحمساً ، وكان ابنه خلدون يشاطره الحماس والشعور القومي .

تخرج خلدون من الجامعة الامريكية في بيروت ونال شهادة (ب .ع .) ورجع الى بغداد وتعين في وزارة المالية . لم يكن يحب عمله كثيراً ويميل الى الكسل . بقي دائماً يتوقع نظاماً قومياً جديداً وعالم عصرى حديث ، ولكنه كان لايتكلم عن هذا الموضوع الالماماً وبكلمات سريعة مقتضبة .

تزوج خلدون من (أمل) الابنة الرابعة للسيد رشيد عالى الكيلاني حديثاً ، وكان يميل الى (رشيد عالى) وحركته اثناء الحرب في العراق ضد الانكليز . . .

كانت زوجة خلدون (امل) واخواتها الاربعة يذهبن دائماً الى الرياض في المملكة السعودية لزيارة والدهم المحكوم بالاعدام في العراق ، والذى يعيش في

(الرياض) عند الملك عبد العزيز آل سعود منذ انتهاء الحرب ، متى شئن ، وبعدها يرجعن الى بيوتهن الجميلة في بغداد . كانت هدايا الملك عبد العزيز لكل من تتزوج من بنات رشيد عالي الخمسة ، سيارة جديدة ومبلغاً لتشييد بيتاً للسكن في املاكهم في منطقة (الصليخ) في بغداد .

كان لرشيد عالي ولداً وأحداً اصغر من البنات الخمسة سماه (فيصل) ، على اسم الملك فيصل الاول ملك العراق آنذاك .

رشيد عالي الكيلاني هو الذى خلع الامير عبد الآله عن الوصاية على الملك فيصل الثانى في سنة ١٩٤١ ، وجعل شخصاً آخر من الاشراف أيضاً ، وهو (الشريف شرف) وصياً على الملك فيصل الثانى .

والان تعيش بناته في بغداد ، مع ازواجهن الموظفين عند حكومة العراق ، رغم ان الامير عبد الآله عاد الى بغداد وصياً على الملك ، ولم يعترض على ذلك ابداً .

امل الكيلاني كانت شابة في مقتبل العمر ، سعيدة لعودتها الى بغداد بعد زواجها من خلدون ،إذ انها تركت بغداد وهي صغيرة في سن الثانية عشر ، مع والدها ، حيث عاشت العائلة سنوات عديدة في المانيا في ايام الحرب وبعدها في بيروت وفي المملكة السعودية .

(امل) فتاة على جانب كبير من التهذيب الاجتماعى والكياسة التامة ، انيقة الشكل ، تحب وتشترك في الكلام الجاد وأيضاً مع المزاح اللطيف ، ولا اظنها نطقت كلمة سوء على أي احد من الجماعة . وجودها كان يظفي الكثير من المسرة واللطف على هذه المجموعة .

اخت نزار الوحيدة (سلوى) وهى الوسطى بين اخويها وتصغر اخيها نزار بسنتين ، وهى متزوجة من الدكتور (عدنان الباجةجى) وهو موظف دبلوماسى في وزارة الخارجية له مستقبلاً واعداً في وزارة الخارجية بسبب علمه وثقافته وتصرفاته الاجتماعية العالية . تخرج عدنان من الجامعة الامريكية في بيروت بدرجة (ب .ع) ، ثم نال شهادة الدكتوراه من امريكا .

كان عدنان وزوجته وطفلتيه خارج العراق في معظم الاحوال . وكنا نراهم كثيراً عند مجيئهم الى بغداد .

في ايام الصيف ، كان السيد على جودت وزوجته ام نزار يذهبون خارج العراق للاصطياف . وكان نزار يقيم حفلات عشاء لبعض الاصدقاء في حديقة والده الكبيرة ، وهى على ضفاف دجلة تماماً . وكانت تلك الدعوات لطيفة اذكرها الى الآن ، طابعها حماسة الجدل والتطرف مع النكتة الضاحكة الظريفة او الغضب أحياناً على كل ما كان يحدث في البلد من الناس والوقائع . كنا نتناقش ونتحمس دائماً ، ونحن نواجه اشباح النخيل الداكنة على الشواطئ ، ودجلة بلون الفضة تحت بدر بغداد الساحر! . .

رأيت الكثير من النواحى المختلفة في العالم ، ودهشت من معالم ارضنا ، هذا الكوكب الجميل الرائع ، ولاأظن ان منظراً في العالم يفوق في تأثيره على كما كان يؤثر في الماضي ، وفى خيالي الآن ، مثل نهر دجلة في النهار اوفى الليل! . .

شربنا ماء دجلة خير ماء   وزرنا أشرف الشجرالنخيلا! . .

كنا نذهب مع نزار وايلن ونمير الى محلات قريبة من بغداد في ايام الخميس او ايام الجمعة لتناول الافطار الصباحي . نذهب أحياناً في الساعة السادسة صباحاً في الصيف الى منطقة (ابو غريب) القريبة ، لتناول الفطور وأحياناً ندعو بعض الاصدقاء معنا . كان نزار يملك حافلة صغيرة جاء بها من امريكا تربط وراء سيارته ، وفى الحافلة مقاعد مريحة وحمام صغير ومطبخ ، وكنا نملأ المطبخ بما شأنا من الطعام لكي نفطر كما نشاء قبل بداية الدوام الحكومى بكثير ، وكنا جميعأموظفين ، ونعود الى اعمالنا يملئنا النشاط والفرح من بعد هذا الفطور اللذيذ في البراري الجميلة .

أحياناً كنا نذهب الى بحيرة الحبانية في النهار في ايام الجمعة حيث نقضى الوقت بالسباحة وطهى الطعام للغداء والتمتع بيوم بعيد عن بغداد ومشاغلها الكثيرة .

في احد الايام ، ذهبنا مساء الى الحبانية وكان معنا الصديق القديم (بابا على الحفيد) و(عبد الجبار الجلبى وزوجته) ، ونمير ، وخلدون الحصرى وزوجته امل . كنا نتوقع امسية جميلة قرب هذه البحيرة الوادعة ، ولكن حدث مالم يكن في حسابنا .

كان الجو صافياً ، والقمر بدراً جميلاً رائعاً وضيائه يغمر البحيرة وسواحلها بضياء فضي لامع يشبه ضياء الملائكة في الافلام ، والكل يتحدثون احاديث شيقة جميلة .

يبدو ان الجو تحول فجأة ، ولم نشعر الابالبعوض يهاجمنا باعداد هائلة بدرجة لم ار مثلها في حياتى لاقبل الحادثة ولابعدها . كان البعوض يدور حولنا كما تدور حبات الرمال خلال عاصفة رملية شديدة في هذا الجو الصافي ، غمر البعوض وجوهنا ورؤسنا وايدينا وكل اجسامنا ، وكان صوت البعوض عالياً يرن في الاذنين باصوات مزعجة قبيحة دون انقطاع . لم نستطع ان نرجع والجو بهذه الحالة لانه كان يشبه عاصفة رملية شديدة سببها ملايين البعوض! . . .

بقينا تحت وطأة البعوض لمدة نصف ساعة او اكثر ، واذا الهواء يتغير فجأة ، واذا بافواج البعوض تطير بعيداً عنا بنفس الطريقة الفجائية التى هاجمتنا نها ، ولم ندر ما حدث سوى ان الجو تغير لسبب ما ، وعادت اليه الهواء العليل والرائحته الطيبة والبدر الزاهى .

صديقنا (بابا على) اصر على ان نذهب عنده الى مدينة السليمانية في موسم العيد القادم بعد ايام قليلة ، وقال ان جو السليمانية لايحوى هذه البعوض! . .

افرحتنى هذه السفرة لأنني لم اكن قد رأيت منطقة السليمانية من قبل .

رغم ان احدى خالاتى قضت اربعة سنوات مع زوجها الذى كان حاكماً في سليمانية (شاكر الهرمزى) ودعتنا مراراً ، وخالة ثانية عاشت سنتين في السليمانية وزوجها (ناجى الهرمزى) متصرف في السليمانية . كان ذلك ايام الدراسة لدينا . في تلك الايام كان والدي يمنع سفر والدتى لزيارة اخواتها بسبب وجود اطفال صغار عندنا في العائلة ، كان مجرد الذهاب لايام قليلة خارج بغداد من المستحيلات عندنا . رحلة كركوك السفرة الوحيدة التى وافق عليها الوالد ، اثناء سفره هو الى اوروبا ، حيث تركنا نذهب الى كركوك ، مسقط رأس والدتى .

تحمسنا نزار والين وأنا للذهاب الى سليمانية لانهم مثلي لم يزوروها قبلاً .

احسان كان لايستحسن السفر الى المناطق داخل العراق ولايرغب عن بغداد

بديلاً ويقول :

- بغداد هي سيدة المدن ، لماذا نذهب الى محل آخر؟

لكنه اثناء السفر يستمتع بالرحلة جداً ويصبح وكأنه صاحب الفكرة ، ويكون من اشد الناس اهتماماً برفاق السفر وراحتهم .

كانت السفرة لمدة ايام العيد فقط ، وقد اصبحت من امتع الرحلات! . . .

كان مضيفنا (الشيخ باباعلى ابن الشيخ محمود) ونحن لانسميه الشيخ ابداً ، بل (باباعلى) فقط ، لانه عاش طويلاً خارج العراق واصبح غربياً في تصرفاته وعاداته بصورة عامة .

باباعلى هوابن (الشيخ محمود الحفيد) وهو اكبر شيوخ الاكراد في منطقة السليمانية ، من اكراد منطقة (برزنجة) ، وينتمى الى الجماعة (القادرية) الدينية ، واصله (سيد) من السادات العلويين ، وكلمة (الحفيد) تعنى انه حفيد (كاكة احمد الشيخ) الذى كان شيخاً كبيراً بين الاكراد وكان له تأثيراً دينياً عميقاً على القبائل الكردية كلها ، وبسبب ذلك ورث عنه حفيده (الشيخ محمود الحفيد) مكانة تشبه القداسة عند الاكراد! . . .

بعد الحرب العالمية الاولى وسقوط الدولة العثمانية ، وتبوأ الملك فيصل الاول ملكاً على عرش العراق ، اخذ (الشيخ محمود) اقامة ادارة كردية في مدينة السليمانية على امل تنفيذ معاهدة (سيفر) التي نصت في موادها على اقامة دولة كردية واعلن نفسه (ملكاً) على كردستان في سنة ١٩١٩ .

غير ان الحكومة البريطانية تراجعت عن وعودها في معاهدة (سيفر) وهددت الشيخ محمود بوجوب الخضوع لطاعة الحكومة البريطانية ولسياستها التي قررت الحاق كردستان بالعراق الذي كان بعد الاحتلال البريطانى عام ١٩١٧ يدار من قبل عدد من ضباط الانكليز . لم يخضع الشيخ محمود لهذا الطلب فارسلت الجكومة البريطانية جيشاً تضمن عدداً من افواج الهنود (السيك) لاحتلال مدينة السليمانية . اضطرت الادارة الكردية في السليمانية توقيف عدد من ضباط الانكليز الذين كانوا موجودين في المنطقة التي كانت تحت سيطرة الانكليز ووضعت هؤلاء في موقف بناية القشلة .

وهنا تبرز سيدة من الاكراد هي (حفصة خان النقيب) ، وهي زوجة (الشيخ قادر) اخو الشيخ (محمود) الاصغر ، اذ طلبت عدم إهمال الوضع مع الاسرى الانكليز في القشلة ، وقالت انهم اسرى حرب وقررت ان ترسل لهم من دارها الطعام المناسب يومياً مع توصية للمسؤلين في القشلة بوجوب العناية بهؤلاء الاجانب الى ان تنجلى الامور .

بقى الانكليز يحترمون (حفصة خان) بنت شيخ عارف النقيب من ابناء عم (الشيخ محمود) ، وكان جدها هو (كاكة احمد الشيخ) نفس جد الشيخ محمود ، وهى متزوجة من ابن عمها الشيخ قادر ولم ينجبا أي طفل .

في الحرب ضد الانكليز خسر الشيخ محمود الحرب ، والقى القبض عليه وحكم بالاعدام ، ثم ابدل الحكم الى السجن في بلاد الهند ، وقد عاش في سجن الهند سنتين .

اضطر الافراد الموالون للشيخ محمود الهجرة الى كردستان ايران ثم ارتحلوا الى الأراضي التركية حيث كانت صعبة جداً فتوجهوا نحو الأراضي العراقية الى ان صدر امر بأعفائهم والعودة الى السليمانية .

وكانت (حفصة خان) معهم في كل هذه المصاعب والمآسي حيث تركت بيتها واملاكها وتوجهت مع سيول المهاجرين الى ايران ثم تركيا ثم الرجوع الى السليمانية .

اعاد الانكليز الشيخ محمود من منفاه في الهند الى السليمانية ، بسبب تهديد مصطفى كمال .

عاد الشيخ محمود الى مناوئة الحكومة العراقية لكن الجيش العراقي تمكن من ايقاف حرب الشيخ محمود ، بعد ان اخذ الجيش منطقة (راوندوز) والجهات المحيطة بها وسيطرت بذلك حكومة العراق بسهولة .

كان من اقاربنا واصهارنا عدد من الضباط في الجيش العراقى في هذه الحرب) .

القى القبض على الشيخ محمود ، وارسل الى بغداد منفياً ، لايستطيع الذهاب الى المناطق الكردية! . . .

سكن الشيخ محمود في بغداد لسنوات عديدة ومعه عائلته ، وادخل اولاده الى المدارس الحكومية ، وكان لديه ولدين وبنتاً واحدة .

الولد الاكبر الشيخ (رؤف) ، والولد الاصغر الشيخ (باباعلى) صديقنا ، وكان اسم إبنة الشيخ محمود (حلاوة) خان ، ولم تكن من عادات الاكراد ارسال البنات الى المدارس في ذلك الوقت .

ولد (باباعلى) سنة ١٩١٤ ، وعاش في بغداد بعد نفي والده اليها في سنوات العشرينات ، ودخل مدرسة (الفضل) الابتدائية حيث خلع الملابس الكردية في المدرسة وارتدى الملابس ا لاعتيادية مثل الاولاد الآخرين وتعلم اللغة العربية .

سافر الى الاسكندرية للدراسة في كلية (فكتوريا) ونال شهادة الثانوية .

عاد الى بغداد وطلب منه والده ان ينتمى الى الكلية الطبية في بغداد ، وقد قبل فيها ودرس السنة الاولى فقط ، بعدها قرر ان يترك دراسة الطب ، وحصل على البعثة الحكومية من وزارة المعارف ، وسافر الى جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك .

هناك درس (الاقتصاد السياسى) ونال الشهادة من الجامعة وعاد الى بغداد .

اثناء الدراسة في امريكا كان يذهب الى جامعة كالفورنيا في العطل الصيفية ونشأت بينه وبين إحسان صداقة متينة دامت الى الاخير .

اصبح (باباعلى) وزيراً للاقتصاد في وزارة السيد ارشد العمرى في سنة ١٩٤٦ للمرة الاولى .

نعود الى يوم سفرنا . كان النهار رائقاً في بداية الصيف والجو دافئاً جميلاً . استعملنا سيارة واحدة لاربعتنا سارت بنا الى كركوك ومنها الى السليمانية . لم نتوقف في كركوك للسلام على اقربائنا لانهم لايتركونا نذهب قبل ان نقضى معهم ساعات طوال للتحيات واكل وجبة طعام على الاقل ، لذلك سرنا الى السليمانية رأساً .

ترتفع أراضي السليمانية حوالى تسعمائة متر عن سطح البحر ، وتحيط بها الجبال العالية من كل الجوانب . في الطريق ، اخذنا نتحدث عن شخص من

الشقات اسمه (خلا بيزة) الذى كان يقطع الطرق في الجبال ويسرق المسافرين او يقتلهم ، وقيل انه يسكن اصعب الكهوف في الجبال ويهاجم الناس كلما استطاع الى ذلك سبيلا . كنا تقرأ عنه في الجرائد اليومية ، وكانت الحكومة تبذل جهدها لكي نلقى القبض عليه ، ولكنه اختفى في الكهوف وحيداً ، في الجبال العالية قرب مدينة السليمانية .

تحدثنا عن (خولا بيزة) ومالذى يمكننا عمله ان هاجمنا في الطريق الجبلى هذا ، ونحن نضحك وأن كنا ننظر بقلق الى الجبال العالية التى تحيطنا وهى تبدو خالية من الناس! . . .

استقبلنا (باباعلى) في مدخل السليمانية وسرنا الى بيته . ان الطرق تشبه طرق مدينة كركوك .

في البيت ، طلب بابا علي مني ومن (ايلن) ان ندخل الى قسم (الحرم) من البيت لكي نسلم على السيدات .

احسان ونزار بقيا في قسم الرجال الذى نسميه (الديوخانة) .

كان مساحة البيت متوسطة الحجم ، والبيت بسيطاً ، مبنياً بالحجارة المحلية يشبه البيوت في كركوك ، وكان فناء البيت مفتوحاً مثل كل بيوتنا القديمة في العراق ، والبيت مبنى من طابقين . صعدنا الى الطابق الثانى بواسطة درج صخرى بسيط لايتصل بالجدران يشبه درج عمال البناء الخشبى . ودخلنا الى غرفة جلوس في الطابق الثانى رأساً من نهاية الدرج ، ولهذه الغرفة ثلاث حيطان فقط وسقف ، وهى غرفة للجلوس للنساء . من هذه الغرفة نجد ابواب لغرف اخرى محيطة بجانبى الغرفة الاولى ، وهى غرف للنوم .

وفى غرفة الجلوس وكانت مفروشة بأرائك وكراسى شاهدنا اربعة سيدات .

نهضت السيدات الشابات الثلاث من مكانهن واتوا نحونا للسلام ولكن باباعلى اخذنا الى السيدة الكبيرة وهى والدته السيدة (بهية خان) زوجة الشيخ (محمود الحفيد) . وقفت السيدة وسلمنا عليها ورحبت بنا ترحيباً كبيراً بلغة عربية تميل الى اللهجة الكردية بوضوح .

السيدات الشابات الثلاث وهن السيدة (رشادة خان) زوجة (بابا على) وهى

اصغرهن سناً ، والسيدة (مليحة خان) زوجة الشيخ رؤف اخو بابا على الاكبر والثالثة (حلاوة خان) وهى اخت بابا على وابنة الشيخ محمود .

ابتسمت لرؤية (رشادة خان) التى كنت اعرفها قبل ان تتزوج ، وهى الآن زوجة (باباعلى) الذى كان معقد امل الزواج عند اكثر البنات الاكراد منذ رجوعه من امريكا ، وكنت اسمع الكثير منهن من تدعى أنها على وشك الزواج منه! . .

تزوج باباعلى من (رشادة) خان ، ابنة الشيخ (حبيب) ، من عائلة الطالباني وهى عائلة كردية دينية من كركوك من قبيلة (زنكنة) ، وتملك هذه العائلة جامع كبير و(تكية) دينية على الطريقة نقشبندية في مدينة كركوك ، ولهم أيضاً (تكية) اخرى في بغداد امام وزارة الدفاع في محلة (الطوب) .

درست (رشادة خان) الدراسة الابتدائية واكملت المدرسة المتوسطة في مدينة كركوك .

لم يكن في كركوك مدرسة ثانوية للبنات ، ولم يبعث بها اهلها للدراسة في بغداد ، إذ لم تكن الدراسة العالية للبنات مألوفة في الالوية خارج بغداد .

تزوج باباعلى من رشادة الطالبانى في سنة ١٩٥٠ وانتقلت بعد زواجها الى مدينة السليمانية وسكنت في بيت العائلة مع والدة باباعلى واخاه الشيخ رؤف وزوجته ، واخته حلاوة خان .

الوالد (الشيخ محمود) ، كان يسكن في احدى القرى التى يمتلكها خارج السليمانية ، مع زوجته الثانية وابنه منها واسم الولد الاصغر (الشيخ لطيف) .

كانت رشادة الطالبانى شابة جميلة حنطية اللون نحيفة القوام ذات شعر كستنائى وعيون دعجاء واسعة ، وتعلمت من المدرسة الكلام باللغة العربية بطلاقة مع وجود لهجة كردية خفيفة اثناء كلامها ، وتعلمت اللغة الانكليزية من المدرسة أيضاً . وكان صوتها دافئاً رقيقاً . رأيتها لا تلبس الملابس الكردية بل ملابس اعتيادية مثلنا ، ولاتلبس الا القليل من المجوهرات البسيطة ، كانت تشبه طالبة في المدرسة رغم انها كانت ام لطفل حديث الولادة اسمه (دارا) .

اما الشابة الاخرى (مليحة خان) زوجة الشيخ رؤف اخو باباعلى الاكبر فقد كانت من الاكراد أيضاً ، وكانت ترتدى الملابس الكردية الجميلة الملونة والكثير

من الجوهرات الذهبية حول عنقها واساور في يديها الاثنين والخواتم بفصوصها اللامعة من الشذر والياقوت والزمرد وكذلك على العمامة الصغيرة المربوطة حول شعرها وعليها السلاسل الذهبية المزدانة بالجوهرات .

كانت مليحة خان بيضاء جميلة الوجه لاتكاد تفارق البسمة شفتيها . لم تتمكن من الكلام باللغة العربية بسهولة ولكن بشاشتها ومظاهرها تدل على انها تتمتع بحياتها في السليمانية بصورة سعيدة واضحة . احببت وجهها المشرق الباسم .

سألت رشادة خان لم لا تلبس ملابس الاكراد الجميلة ، اجابت انها تلبس الملابس الاعتيادية في بيت اهلها ، وكذلك في ايام الدراسة .

الحقيقة ان الملابس الكردية على جمالها معقدة ، لان الفساطين طويلة تصل الى الكعبين ولها الكم الطويل الذى يفوق طوله ذراع المرأة ويربط نهايتى الاكمام ببعضهما يعقدة ثم توضع العقدة الى الوراء على الكتفين ، ، ويلبس تحت الفسطان ، شروال طويل يصل الى كاحل القدمين ، وفوق الفسطان جاكيت بدون اكمام ، وذلك فقط لملابس الصيف! . . .في الشتاء يلبسن الجاكيتات الثخينة فوق كل ذلك .

ان اللباس الكردى رغم جماله وزهوة الوانه يصبح ثقيلا بوزنه ، خاصة اذا لبست معه الجواهر والذهب وهى ضرورية لنساء الاكراد .

لذلك كانت رشادة خان ، خفيفة الحركات وسريعة في مشيتها .

لم يعترض باباعلى على ارتداء زوجته في السليمانية اللباس الغربى الشائع في عالم المدن العراقية الكبرى وفى المدارس العراقية كلها ، وبقيت بملابسها الاعتيادية . اما شقيقة باباعلى (حلاوة خان) كانت تلبس الملابس الكردية والحلى الذهبية على عادة الاكراد . لم تكن (حلاوة خان) متزوجة .

اما الام كانت ملابسها الكردية كلها تميل الى الالوان الغامقة وتلبس بعض الخواتم فقط .

كنت اترجم مانتكلم الى (ايلن) التى كانت مأخوذة يغرابة الامور هنا عما رأته في بغداد .

اهدتنا (رشادة خان) لي ولايلن ملابس كاملة للمرأة الكردية احتفضنا بها في الشنط مع ملابسنا الاخرى ، وكان علينا ان نلبسها هناك ولو لفترة قصيرة ، ولكن ذهابنا الى سفرات خارج السليمانية جعل الامر على جانب من الصعوبة لان هذه الملابس ذات الطبقات المتعددة ، تعيقنا عن الحركة السريعة .

كان الشيخ محمود يسكن في قرية خارج السليمانية ولايأتى الى المدينة ومن يرغب في زيارته يذهب الى القرية ليراه . لقد قضى سنوات عديدة منفياً في بغداد ، بعد ان اخمدت حركته في الجبال في العشرينات ثم غادر يغداد في سنة ١٩٤١ بعد انكسار حركة رشيد عالى الكيلانى ، وسافر الى السليمانية بكل بساطة دون ان يعيقه احد .

هنالك ترك الشيخ محمود امور السياسة ، وعاش فى احدى القرى التى يملكها (قرية كلة) مع زوجته الثانية وابنه منها الشيخ لطيف وهو الولد الاصغر في العائلة .

سألت رشادة خان عن سيدة من الاكراد كبيرة السن معروفة جداً في كردستان وكنت قد رأيتها مرات قليلة في بغداد منذ ايام الدراسة واسمها (حفصة خان) تلبس الملابس الكردية دائماً . وهى زوجة عم باباعلى واسم زوجها (الشيخ قادر) . والشيخ قادر كان على العكس من أخاه الشيخ محمود ليس لديه الرغبة او السلطة على الناس . كان يملك الأراضي ويعيش منها بهدوء .

أخذت زوجته القوية ادارة الأراضي والتحكم بالفلاحين كما تشاء ، واصبح عندها الشعور بالسلطة كالرجال وتعاقب من تشاء من الفلاحين في اراضيهم وتخاطب الموظفين الكبار وتطلب منهم ما تشاء . كنت اسمع ان المتصرف الجديد وهو اكبر شخصية ادارية في البلد ، يذهب الى بيت (حفصة خان) ليسلم عليها عندما يصل الى السليمانية .

ولا يجرأ أي ملاك أراضي ان يثير غضب حفصة خان لانها لاتنسى ذلك وتعاقب من يخطئ بحقها على الطرق العشائرية المعهودة . سمعت انها ترسل الفلاحين لحرق حقول من يسيئ اليها ، ثم ترسل أحداً من جانبها يعزى مالك الارض بخسارته! . . .

في الصباح ، اقترح باباعلي الذهاب الى منطقة (قرة داغ) وهى منطقة جبلية عالية بين السليمانية وكركوك . وكنا ثلاث سيارات الاثنين الباقيتين ركبهما اصدقاء باباعلى من الاكراد وكان البعض يرتدى اللابس الكردية . باباعلى كان يلبس الملابس الاعتيادية كما يفعل في بغداد .

لم تصحبنا (رشادة) بسبب وجود طفلها الحديث الولادة .

لم يكن الطريق مخيفاً رغم ارتفاعه الكبير بل كان جميلاً . شعرت وكأن هذه القمم الصخرية العالية وهذه الوديان الخصبة تحيينا وترحب بنا .

كانت شجيرات الكروم الصغيرة ، واشجار الجوز واللوز والبلوط بديعة ، والانهار الصغيرة الصافية تجرى فوق الحصى وكأنها لجين شفاف ، والارض الخضراء وجموع الغنم تمشى بعيداً مع رعاة صغار لايتجاوز اعمارهم السادسة او السابعة من العمر .

لاحظت مناظر غريبة بين اطفال الجبال ، ان الطفل يدخن السيكارة وهو بهذه السن الصغيرة . كنت اتمنى ان اقف امام الطفل وأخذ السيكارة منه واذكر له عن مضارها . اظنه سوف يعتقد اننى انا الغريبة الاطوار لانه يدخن مع اهله وعلى رضاهم! . .

كنا نسير في وادى قرب الجبال ولما وصلنا قرة داغ توقفنا . فرشنا البسط ووضعنا عليها بعض البسط للجلوس . كان قرار الجميع ان يصعد من يرغب في صعود الجبل الى القمه ويبقى من لايرغب الصعود ويكون الغداء بعد نزول المتسلقين من الجبل .

بقيت جماعة في المكان ومنها (ايلن) لم ترغب الصعود الى القمة لانها كانت في الاشهر الاولى من حملها الثالث . وبقيت في مكانها مع افراد من الجماعة ،

اما انا ذهبت صاعدة نحو الجبل وكنت واثقة من تمكنى الصعود رغم كونى لااعرف عن تسلق الجبال شيئاً .

صعد(باباعلى) الجبل بسرعة وكأنه يسير على ارض مستوية ومعه احسان ونزار وبعض الاخرين . لحقتهم انا بسرعة ، ولكن بعد فترة بدأت اشعر بضربات

قلبى تزيد . وقفت قليلاً واذا بالبقية التى تسبقنى على الجبل ، طلبوا مني الرجوع . ولكن الوقوف لحظات قليلة جعلتى اشعر بأنني استطيع الصعود . هتفت بهم :

ـ اصعدوا وسوف الحق بكم .

بعد ذلك توقفت مرتين او ثلاثة لفترات قصيرة استجمع فيها انفاسى السريعة ، وبعدها كنت اصعد الجبل بنشاط .

صعد الجميع الى القمة ، واخذوا يرقبون صعودى ، وقد بلغت القمة بعدهم بقليل . هتف الجميع بوصولى بسرعة خاصة باباعلي الذى كان يشك ان تصعد امرأة من بغداد الجبل مثلما صعدوا .

اجلت نظرى على الجبال حولى . كنا في سقف العالم . لم ار حولى الا القمم العالية والوديان العميقة . لم يكن هناك اثر لبشر آخر . منظر شامل عريض في كل الاتجاهات . شعرت بصغرنا وضآلتنا امام هذا المدى الواسع ، وجائتنى آية من سورة لقمان : (انك لن تبلغ الجبال طولآ! . .)

سمعت نزار يقول للآخرين ان وعلا ابيض اللون او (الايبكز) في اللغة الانكليزية موجود في هذه الاشجار في الجبال وكان يطلب منا ان لا نتحدث باصوات عالية لئلا ينصرف عنا الوعل الابيض . وكان يصيخ بأذنه طيلة الوقت ليسمع مشية الوعل او ربما لكي يراه بنفسه .

كنت واقفة خلف صخرة كبيرة ، وانا استجلى جمال الطبيعة في هذه السلسلة من الجبال . واذا اسمع انهم يفتقدونى وانا خلف الصخرة . سمعت احسان ينادينى فلم اجبه عمداً للمزاح . وسمعته يسأل باباعلي ان كانت في هذه الجبال الكهوف التى يسكنها الشقى (خولا بيزا) . سمعت باباعلى يضحك بقلق ويقول :

– نعم ان (خلا بيزة) قريب من هذه المنطقة! . . .

رأيت من بين الصخور احسان يدور وينادينى بأعلى صوته ، خرجت من وراء الصخرة واجبته ، وضحك الجميع عندما خرجت من مخبئى وراء الصخرة االكبيرة .

قررنا النزول من الجبل لان وقت الغداء قد حان ، وكان النزول سهلا وسريعاً

ووصلنا الى ايلين والجماعة الاخرون ، من دون ان نشاهد لاوعلا ابيض ولاوعلا اسود ، يبدو ان الوعل الابيض الكبير كان من مخيلات نزار! . .

وبهذه المناسبة اخبرنا باباعلي عن حيوان صغير اسمه (ستون مارتن) في هذه المنطقة وله فروة جميلة تشبه فراء (المنك) المشهور . اثار ذلك الحديث (ايلين) التى كانت تتأثر بكل فكرة جديدة ، وظلت تتكلم مع باباعلي عن انشاء (مزرعة) لتربية هذا الحيوان وبيع فرائه في العراق والى البلدان الاوروبية والامريكية . وقد اهتم باباعلى بالامر وبدأوا يفكرون بالمشروع . ولاادرى ماذا تم من هذا الامر لأنني لم اسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

في المساء ، جلسنا في قسم الرجال للعشاء وكان معنا ثلاثة من الضيوف الاجانب واحد هولندى واثنين من الانكليز .

واحد منهم فقط اذكره جيداً وهو (ويلفريد ثيسيجر) الكاتب الانكليزى المشهور الذى كتب عن اجتيازه للربع الخالى في المملكة العربية السعودية .

اندهشت من هذا الرجل الذى تخرج من جامعة اوكسفورد ، وكان غنياً ميسوراً لايحتاج ان يعمل في مؤسسة لكي يعيش . قضى سنوات طويلة من عمره في الجزيرة العربية ، وعبر صحراء الربع الخالى مرتين . ونشر ماكان يجده عن الصحراء نفسها وعن رجال البدو ، ويرسل ذلك الى (المجلة الجغرافية البريطانية) ، وحاز على عدد من الجوائز والمداليات من هذه المؤسسة المشهورة الجليلة .

جلست بالقرب منه وسألته عن معيشته في الربع الخالى . قال انه كان يلبس ملابس العرب ويعيش مثلهم يأكل ويشرب الماء ولبن الجمال مثلهم ، وقال ان الحياة مع البدو جميلة جداً . وقال انه كان يعود لبلاده لفترات قصيرة ثم يرجع بعدها للصحراء . انه لايحب الحياة في المدن وهو لم يشتغل مع اية من الحكومات لاعربية ولاانكليزية .

كان الرجل طويل القامة ، نحيلاً ، لونت شمس الصحراء وجهه بلون برونزى داكن ، يتكلم بلهجة انكليزية مثقفة راقية ، ولكن كان في وجهه شيء يذكرنى بوجه الجمل! . . .

سألته ، مالذى يفعل في شمال العراق بين القبائل الكردية؟ اجاب انه

يبحث عن ازهار شقائق النعمان او الخشخاش باللون الازرق قيل انها موجودة في كردستان ، وقال انه لم يعثر عليها حتى الآن . اما انا فلم اسمع في حياتى عن شقائق النعمان لونها ازرق! . .

سألته ان كان يعجب بالأراضي الجبلية وقبائل الاكراد ، اجاب انه معجب بكرم اهالى العشائر الكردية معه كثيراً ، ويحترم شجاعتهم وبأسهم ثم سكت قليلاً واضاف :

- انما مع البدو العرب اشعر بأنني واحد منهم! . . عشت معهم طويلاً ، اتكلم لغتهم والبس لباسهم . وقاسمتهم السرور والحزن وشاركتهم الرضى والغضب .

هكذا كان شعور الانكليز الذين عاشوا بين البدو كلهم ، يبدو ان هنالك رابطة خفية تربط بين الانكليزى المثقف وبين البدو اولاد الصحراء! . . . ارى ذلك في كل كتاب اطالعه عما كتب الانكليز عن البدو في جميع الاحوال وهم يعلمون بأن البدو لن يقرؤا كتبهم! . . .

لااظن ان الكتاب الانكليز كتبوا بهذه الطريقة عن أي شعب آخر .

انه يشبه العشق مع البدو ، البدو بذكائهم السريع وبساطتهم الفطرية! . . .

داخلني شيء من الغيرة والحسد من هذا الكاتب الثري ، الذى تخرج من احسن جامعة في بريطانيا وتصرف في حياته كما شاء له ان يتصرف ، اذ لم يحتاج مادياً الى احد ، ولا احتاج الى سلطة او مركزاً مهماً ولم يتوظف عند احد ، ولم يكن متزوجاً ، احب السفر والصحراء ، وعاش في صحراء جزيرة العرب وعبر (الربع الخالى) في اسوء ايام الشدة ، ايام حيث لم تكن هناك أي وسيلة لمساعدة البدو او غيرهم كما هي الحالة في الوقت الحاضر . هذا الشخص عشق الصحراء واحب البدو وشاركهم حياتهم القاسية بمنتهى الرضى ، وكتب الكتب القيمة عن كل ذلك .

وقد قدمت له بلاده ما يستحق من الرفعة والتكريم والجوائز لأعماله وكتبه القيمة! . . كان يذهب لبلاده لفترات قصيرة ، وينكلم في الجمعية الجغرافية البريطانية عن آخر اعماله ، وتقدم اليه الجوائز العالية ويستلمها بأغتباط ، ثم يدير وجهه عن الجميع ، ويرجع الى عشيقته الصحراء! . . .

لم احسده على المعيشة في الصحراء او مع البدو ، لأننى اعرف قساوة هذه الحياة وصعوبتها ولا يعجبني ان اعيشها ، ولكنني حسدته على الحرية الرائعة التى مكنته من المعيشة كما يشاء ويهوى! . . .

كم من الناس يشعر بأنه يملك جزأ من هذه الحرية! . . .

بعد رؤيتنا له ، ذهب سيثيجر الى الاهوار العراقية في الجنوب وكتب كتاباً حافلاً عن الناس في الاهوار ، بيوتهم ، طعامهم ، عاداتهم وكرمهم اليه وهو الغريب ، وكذلك عن انواع الطيور التى تعيش في الاهوار وانواع النباتات . لم يدخل العراق منذ سنة ١٩٥٨ .

الولايات المتحدة

لقد كان السفر من بغداد الى امستردام وهناك نبدل الطائرة للوصول الى نيو يورك . كانت السفرة امامى طويلة وكنت بمفردى .

بدأت افكر بالبلاد الامريكية التى اقصدها ، وكانت معلوماتى عنها قليلة .

أنها البلاد التى اكتشفها (كريستوفر كولمبوس) القبطان الايطالى الذى اشتغل في الاسطول الاسباني عند الملكة (ايزابيلا والملك فرديناند) . وهما ملوك اسبانيا الذين طردوا (بنى الاحمر) آخر امراء العرب من غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر ، وكانت اسبانيا آنذاك ، دولة عظيمة في اوروبا لها اساطيل بحرية وجيوش قوية .

اخذت كتب التاريخ تنعت هذه الفترة كبداية للعصور الحديثة .

كان (كولمبوس) يعتقد ان الارض كروية الشكل ، وانه إذا ابحر في المحيط الاطلسى غرباً بسفنه الثلاث الاسبانية سوف يصل الى الهند عن طريق الغرب .

بعد رحلة بحرية طويلة في المحيط الاطلسى ذاق فيها كولمبوس وبحارته الامرين ، وصل جزيرة (باهاما) ولما شاهد السكان الاصليين ظن انهم هنوداً واطلق عليهم اسم (الهنود الحمر) ، وبقى هذا الاسم يلاحقهم الى الآن .

اميركا بلاد الديمقراطية الحرة ، وبلد المساواة والثراء

منذ سن العاشرة تعلمت من المعلمات اللبنانيات ، وهن خريجات الجامعة الامريكية في بيروت الاعجاب بامريكا ، وتعلمت اسماء الشعراء من لبنان الذين هاجروا الى امريكا والتأثير الكبير الذى ادخله شعرهم الحديث على الادب العربى .

تذكرت اسماء جبران خليل جبران وايليا ابو ماضى وميخائيل نعيمة وامين الريحانى وغيرهم .

وقد وصلتنا الافلام السينمائية من امريكا وفتحت علينا عالم غريب وجميل يشبه الاحلام الروائية ، في قصص التاريخ القديم والحديث وقصص الروائع الغرامية والقصص البوليسية والحربية وغيرها مما جعل ابناء جيلنا الواعي ينتبه ويحاول تغيير عاداتنا القديمة الضارة . كنت اشعر بشيء من الارتباط الكبير بهذا البلد الحر الديمقراطى الذى لايستعمر البلاد الاخرى .

وقد اضاف زواجى من شخص درس في امريكا واعجب فيها ، واصبح يجد كل شيء فيها ارقى مايكون في العالم .

اما عن سماعي بماكان يقال عن قتل الهنود الحمر في الماضى ، وكذلك عن العصابات الفظيعة في شيكاغو قديماً ، ظننتها اصبحت من الماضى البعيد ، وان امريكا هي الآن بلاد الحرية والمساواة والثراء الطائل .

كنت اشعر في ذلك الوقت ، كما لو اننى ذاهبة الى بلاد راقية تتفوق على جميع البلدان الاخرى .

وصلنا (امستردام) وابدلنا الطائرة الى طائرة اخرى امريكية حلقت بنا الى ان توقفنا مرة اخرى في مدينة (بانكر) في ارلندة . وبعدها قضينا ساعات طوال لعبور المحيط الاطلسى وانا شبه نائمة . وصلناالى الساحل الكندى في نيوفوندلاند في مطار (كاندر) وتوقفنا لمدة ساعة او اكثر .

خرجت من غرفة المطار لكي ا تمكن من رؤية هذا المحل . كنت وحيدة والركاب جلسوا جميعاً في غرفة المطار .

رأيت الغابة النى تحيط بالمطار ذات اشجار عالية وكثيفة جداً وفى وسطها

بحيرة . شعرت بإحساس غريب من الوحشة بدرجة لاازال اشعر بها الى هذا اليوم عند ذكراها .

انا في طبعى احب واعشق الاشجار الكبيرة الباسقة ، وارى كل شجرة منها وكأنها تخبرنى عن جيل طويل عاشته الشجرة ، هذه الكائنة الخضراء العالية الناظرة الى السماء دائماً ، والمتعة الفائقة التى تضفيها على الناظرين . اما اللون الاخضر فهو لونى المفضل .

لكنني شعرت في هذه المنطقة وكأن اللون الاخضر كان كثير جداً ازعجنى واحزننى بشكل غريب . رأيت الاشجار العالية تقارب بعضها البعض وكأنها جدار حاجز امام عيونى ، اشجار صامتة خرساء دون طيور او حيوانات ، تخفى الافق وتفصلنى عن كل شيء ، وعلى جذوع هذه الاشجار تنمو نباتات متسلقة بشكل كثيف جداً بحيث كان من المستحيل رؤية جذوع الاشجار ، كلها كانت مغطاة باللون الاخضر ، ولم اتمكن من رؤية مابين الاشجار العملاقة ، لأن الاشجار الصغيرة والطفيليات بكل اشكالها ، سدت للرؤية . البحيرة كانت مغطاة بانواع النباتات المائية على سطحها وضلال الاشجار العالية فوقها ، بحيث لم ار سوى اللون الاخضر بكل الوانه الغامقة والفاتحة ، وتحت الاغصان شاهدت الظلال بلونها الرصاصى الداكن .

شعرت وكأننى في سجن لونه اخضر! . . .

كرهت المنطقة هذه ، وشعرت بالفرح بأننا سنغادرها قريباً .

طرنا ساعات قليلة وسمعنا الكابتن يقول بأننا نطير فوق نيويورك وسوف نهبط بمطار (ايدلوايد) وكان قد افتتح حديثاً للطيران الدولى بعد ان كان لديهم مطار واحد في نيويورك اسمه (لا كوارديا) اصبح لديهم اثنان واحد للطيران داخل امريكا والاخر للطيران الدولى .

كم كانت المطارات التجارية قليلة في ذلك الوقت! . . .

نظرت من نافذة الطائرة وشاهدن ابنية اعتيادية على الارض ، ولم ار أي اثر لناطحات السحاب وهى ماكنت اود رؤيته من الجو . كانت ناطحات السحاب هي العلامة المميزة للمدن الامريكية الكبرى مثل نيويورك وشيكاغو وسان

فرنسيسكو . ولم تكن المدن الاوروبية الكبرى التى رأيتها تحوى هذه الابنية الشاهقة العلو آنذاك .

اخبرنا الكابتن بأننا خارج المدينة .

كان علي الذهاب الى واشنطن رأساً لكي ارى البرنامج هناك . اسرعت بالتاكسى الى المحطة الكبيرة . رأيت بائع الجرائد وامامه رزمة كبيرة من الصحف . وكان اليوم يوم الاحد . طلبت الجريدة واذا البائع يعطينى رزمة الجرائد الكبيرة كلها من امامه مرة واحدة . قلت :

- جريدة واحدة فقط! . .

فقال البائع :

- انها جريدة واحدة! .

- في الماضى قرأت عن عدد الصفحات في جرائد يوم الاحد في نيويورك قبلا ، ورغم ذلك ادهشتنى الجريدة بعدد صفحاتها الكثيرة .

في المحطة لم ار الاممشى ذو سقف واطئ يقودنى الى الامام دون ان ارى شيئاً آخر ، ومعى حمال الامتعة واذا بي اجد نفسى في نهاية الممشى في باب القاطرة رأساً . (مثل الدخول الى الطائرات الكبيرة الآن) .

وصلت واشنطن في يوم الاحد ولم يكن هناك أحداً في انتظارى . خابرت السفارة العراقية (ولم تكن تعلم بمجيئى لأنني موفدة من فبل الولايات المتحدة) . لم يكن هناك أي جواب ، انهم في عطلة نهاية الاسبوع . خابرت بيت السفير وكنت اعرف السيد عبد الله بكر وزوجته السيدة فاطمة ، اجابتنى فتاة بأن السفير وزوجته خارج البيت . سألتها ان كانت تقترح على فندق الى الغد لأنني اتيت من بغداد ولااعرف عن هذه البلدة شيئاً . فقالت انها لاتستطيع مساعدتى .

خابرت المستر (آرمن ماير) من دفتر تلفون المحطة . وأرمن ماير صديق لاحسان زوجى من ذ مدة طويلة في بغداد . (وهو الذى اقام الحفلة للوفد العراقى لدى عودته من ليك سكسيس بعد انتماء العراق الى الامم المتحدة .) اتى (ماير) بنفسه ومعه موظف شاب يشتغل بهذه الامور وخلال دقائق قليلة اوصلونى الى فندق لطيف . شكرتهم وقلت بأنني لن احتاج مساعدتهم لأنني اعرف اين اذهب في

الغد لان العنوان لدى من بغداد .

في الصباح الباكر ذهبت الى الدائرة في العلاقات العامة لكي اقابل الشخص المسؤل والذى سينظم لي سفرتى كلها .

اخبرت الشخص بأنني اشتغل في (علم مفردات الطب وعلم التداوى) في كلية الطب في بغداد وكذلك ادرس الطلاب الدروس السريرية في الطب الباطنى في الردهات .

طلب مني ان ابدأ في واشنطن لكي اتعلم المكان ويكون باستطاعتهم مساعدتى قبل ان اذهب الى المدن الاخرى ، كذلك اعطاتى اسماء الستشفيات وكليات الطب المختلفة وانه سيكتب رسالة رسمية للمستشفى لكي اداوم هناك واعيش في بيوت الاطباء ، ونفقات السفر مدفوعة وسيكون سفرى كله بالقطار على حسابهم .

رأيت البقاء في محل واحد لمدة اربعة اشهر طويل جداً ، وانا ضيفة وهم يقومون بتهيأة جميع الاشياء الضرورية وانا اود ان ارى اكثر مايمكن من هذه البلاد الشاسعة والمختلفة من شمالها الى جنوبها ومن الشرق والى الغرب ، انها فرصتي الوحيدة لكي ارى الكثير في فترة قصيرة! . .

ما كنت اظن انني سأرى هذه البلاد مرة اخري! . .

طلبت ان ابدأ بواشنطن العاصمة ثم اسافر الى ولاية في الجنوب ، ومنها الى كاليفورنيا في اقصى الغرب على المحيط الهادئ وبعدها الى بلاد المورمون في ولاية (يوتا) ومنها الى شيكاغو وثم الى مينوسوتا وبعدها الى بوسطن واخيراً الى نيويورك ضحك الطبيب المسؤل وقال ان السفر الكثير هذا متعب جداً . اجبته :

- انني لن اتعب من السفر! . . .

«كم كنت مخطئة في ذلك! . .»

وافق الطبيب على كلامى وفى نفس الدقيقة كتبت السكرتيرة المنهج اعطتنى ماذكرناه في الدقيقة التى انهينا فيها كلامنا! . . هذه السرعة في العمل لم اشاهد مثلها من قبل! . .

اضاف الطبيب ، يجب ان اكون في ولاية كاليفورنيا خلال فترة في شهر آب

لان جماعة المدعوين الى امريكا ستحضر الى حفلة رسمية كبرى في منطقة (وادي يوسمتى) . لم اكن ادرى ماهى جماعة المدعوين ولااعلم ما هي منطقة وادي يوسمتى! . . كنت شابة واود رؤية العالم! . . كنت اظن ان الدنيا عامرة بالاشخاص الذين يرغبون اصلاح العالم .

ورغم سنواتى وامومتى كنت بسيطة عاطفياً كما كنت في دور الصبا الغرير ، واتمنى ان تتبدل امور بلادنا الى الرقي والعلم بين عشية وضحاها .

طلب مني الدكتور كذلك ان اتلقى مكالمة تلفونية من احدى السيدات اللواتى يرغبن في مقابلة الاشخاص من البلاد البعيدة . واعطاني اسم السيدة .

في ذلك المساء حضر السيد (حكمت سامى سليمان) وهو موظف في السفارةالعراقية وصديق قديم مع زوجي ، وهو ابن الدكتور (سامي سليمان طبيب العيون والابدان) ، ومعه زوجته الالمانية الشقراء لكي نتعشى في فندق (شورهام) الفخم في واشنطن .

كان الفندق كبيراً باذخاً والمطعم لايقل عن الفنادق الكبرى في لندن من ناحية الاثاث الفاخر والادوات الفضية الجميلة في قاعة الطعام ولكنه يمتاز جداً عن الاكل الانكليزى بكون الطعام كان كثيراً ولذيذاً ومنوعاً بحيث يندر ان ننهى الاكل كله .

اما درجة فخامة الملابس بين ضيوف الفندق فقد كانت على درجات عالية من الملابس الفاخرة والحلى الثمينة للنساء وملابس الرجال صيفية الالوان مع قيافة كاملة من الاقمشة الغالية . قال السيد حكمت ان الجماعة تمثل اغنياء البلد وطبقاته العليا . انهم يمثلون الاغلبية الكبيرة من هذا الشعب الحر النشيط ، المليء الابتهاج والمرح والثقة بالنفس اينما يكون . ان بعضهم يمثل الصعود من الحضيض الى القمة من دون أي اعتبارات خاصة وكأنهم في ارض الميعاد ، يدفعهم التفائل المفرط الذى لايقهر .

حدثت زوجة السيد جكمت سليمان بما استطيع باللغة الالمانية فانفرجت اسارير وجهها رأساً واصبحت تكلمنى وكأنها تعرفنى منذ زمن . وكانت تفهم القليل من اللغة العربية . اما زوجها السيد حكمت فقد كان يتحدث طيلة الوقت

عن كراهيته للانكليز وقال انه سيكرههم الى آخر عمره .

وقد اشتغل السيد حكمت في المانيا اثناء الحرب مع رشيد عالى الكيلانى عندما هرب من بغداد في سنة ١٩٤١ ولكنه يشتغل مع الحكومة الآن! . .

أخبرت زوجته بانني سأزورها في بغداد واتعلم منها المزيد من اللغة الالمانية .

(سمعت وانا آسفة ان الزوجين انفصلا بالطلاق وان السيد حكمت رجع الى بغداد وتزوج من فتاة عراقية) .

في اليوم التالى خابرتنى السيدة (فاطمة) زوجة السيد عبدالله بكر السفير العراقي في واشنطن ، وارسلت سيارتها الى الفندق .

لقد اقامت حفلة صغيرة لاجل وصولي الى امريكا ، لكي نتناول الغداء في بيتها ودعت بعض الاصدقاء والصديقات .

كان بيت السفير جميلاً تحيطه حديقة لطيفة والمنطقة والدور حواليها كلها مغطاة بالاشجار المختلفة كأنها غابة بنيت تحتها المساكن الجميلة . كان المدعوون كلهم من اصدقائى .

رأيت الصديقة السيدة (بديعة افنان) وابنتها (فروغْ افنان) ويعني اسم فروغ باللغة الفارسية (الفجر) وكانت (فروغ) معنا في المدرسة المركزية في بغداد ورأيتها بعد ان تخرجت وعادت الى بغداد ، والان هي متزوجة من السيد (سيسيل حوراني) البريطانى ـ اللبنانى ، وكان تعيش معه في تونس وهما الآن في اجازة .

(فروغ) ابنة السيد (حسين افنان) الموظف في ايام الملك فيصل الاول وينتمي الى الدين (البهائى) ، وامها (بديعة) تركية (مسلمة) وابنة اخ السيد ساطع الحصرى ، وزوج فروغ (سيسيل) مسيحى! . وقد ولدت فروغ ابنتها بعد اشهر قليلة ، ولا اعلم ما كان من امر دين الطفلة! . . .

اخذت فروغ تتكلم عن (شيء) يقال انه بدأ في هذه الايام وان الشباب يستعملون مواد مخدرة من الكوكائين وغيره . ضحكنا جميعاً ونحن نعرف مبالغات (فروغ) اللطيفة مع الاصدقاء ، ولم نهتم بالموضوع . لم نكن ندرى بأن ذلك (الشئ) الذي تكلمت عنه فروغ كان صحيحاً وكان البداية المخيفة

لاستعمال المخدرات للشباب بصورة كبيرة كما قرأنا بعد ذلك بسنوات .

كانت معنا في الغداء (هند تحسين قدرى) التى تزوجت من امريكى اعلن اسلامه ، و(سرّية الخوجة) التى كانت تشتغل في نيويورك . سررت جداً بلقاء سّرية واخبرتها اننى سأزورها في نيويورك في الخريف الاتى قبل رجوعي الى بغداد .

سألتني السيدة (فاطمة بكر) عن حفلة عرس ابنتها (وداد) التى تزوجت السيد (خليل المفتى) في بغداد فبل سفري بايام قليلة ، وقد اقيمت الحفلة في بيت (سعاد وممتازالعمرى) وكنت وزوجى مدعوين اليها .

فرحت السيدة فاطمة عندما اخبرتها ان المدعوين للعرس اعجبوا بالعروس وكم كانت تبدو صغيرة ورقيقة وجميلة .

بدأت الدوام في كلية الطب في جامعة (هوارد) في واشنطن ، وهى الجامعة الخاصة بالطلاب الزنوج .لأننى تعجبت ان يكون للزنوج جامعة وكلية طب ومستشفى تعليمى!

يجب ان اراها لكي اصدق ذلك! . .

جامعة (هوارد) الجامعة التى فتحت في سنة (١٨٦٧) للزنوج في هذا البلد . لاول مرة اشاهد امامى الخدم والموظفين والاطباء والممرضات كلهم من الزنوج . وقد استقبلنى الاستاذ في الطب الباطنى باقصى السرور وذكر لجماعة الاطباء الشباب والطلاب اننى ازورهم وانا من بلاد بعيدة جداً! . . . اظهر الجميع ترحيبهم بزيارتى التي اخبرتهم انها ستكون لمدة قصيرة .

كان كل شيء في الاجتماعات الطبية على مستوى عال ولايختلف عن الكليات الانكليزية الاخرى . شاهدت المختبرات ودار الاشعة ، واكلت من المطعم في المستشفى وكان اكلهم امريكى تماماً .

صور من واشنطن

في عطلة نهاية الاسبوع كنت على موعد مع السيدة التى تبرعت ان اشهد واياها بعض المعالم المهمة في العاصمة الفيدرالية هذه أي واشنطن .

وصلت الى الفندق الذي اسكنه سيدة في الثلاثينات من عمرها رشيقة انيقة تقود سيارة ذات لون ازرق فاتح من نوع (بونتياك) .

تعارفنا بسرعة وفي السيارة التي سارت في داخل البلد كانت السيدة تؤشر لي عن الاماكن المشهورة او تتوقف عندها لفترة قليلة لكي اراها جيداً .

قالت السيدة سنذهب اولآ الى بيت (جورج واشنطن) في منطقة (ماونت فرنون) ، وبعدها نذهب الى بيتها لتناول طعام الغداء ثم نذهب بعدها الى المدينة .

كان بيت واشنطن في منطقة (ماونت فرنون) في ولاية (فرجينيا) المجاورة على ضفاف نهر (البوتوماك) الكبير الذى يقارب نهر دجلة في عرضه . ولم اسمع بأسم هذا النهر من قبل ، والاسم باللغة الاسبانية يعنى (النهر) .

اخبرتنى السيدة ان ولاية (فرجينيا) تسمى (ام الرؤساء) لكثرة ما ولد فيها من الرؤساء الاوائل وكبار رجالاتهم ، منهم واشنطن وجفرسون وماديسون وجيمس منرو وباتريك هنرى وروبرت لي قائد جيش الجنوب في الحرب الاهلية الامريكية وودرو ويلسون والكثير غيرهم . ان فرجينيا هي بلد التاريخ بالنسبة للامريكان! . . .

ذهبنا اولا الى ماونت فرنون على ضفة البوتوماك وشاهدنا بيت الرئيس (واشنطن) وهو البيت الذى سكن فيه بعد ان انتهى من رآسة الجمهورية لمدة دورتين . واصبحت العادة ان لايترأس أي رئيس مدة اكثر من دورتين .

كان البيت بيتاً ريفياً من القرن الثامن عشر تحيط به حديقة جميلة فيها ابنية لبيوت الزنوج الذين كان يملكهم رغم اعتقاده بالمساواة! . . . وكان (قبره) موجود في هذه الحديقة أيضاً .

والرئيس الوحيد الذى حصل على اربعة دورات متتالية هو الرئيس فرانكلين روزفلت اثناء الحرب العالمية الثانية ومات اثناء الدورة الرابعة .

اسس مهندساً فرنسياً مدينة (واشنطن) في فسحة من الارض بين ولايتي فرجينيا وماريلاند ، سنة (١٧٨١) بعد انتصار الامريكان على الجيش البريطانى وسماها المهندس (منطقة كولومبيا او دستكرت كولومبيا) وسميت (واشنطن) ، وفى سنة ١٨٠٠ واصبحت العاصمة الفدرالية للولايات المتحدة كلها .

في المدينة نصب تذكاري كبير هو (نصب واشنطن) الذي بني في القرن التاسع عشر ، وهو على شكل مسلة عالية بيضاء اللون ، وارتفاعها٥٥٥ قدماً ، وهى اعلى بناية في العاصمة كلها ، ويمنع ان يتجاوزها ارتفاع أي بناية اخرى في مدينة واشنطن ، وبذلك تخلو العاصمة من الابراج العالية التى تسمى (ناطحات السحاب) .

هناك (تذكاراً) كبيراً جداً (لابراهام لنكولن) على الجهة المقابلة من بناء الكونكرس يشبه معبد اغريقى ويحيط بتمثال (لنكولن) الكبير وهو جالس ، ستة وثلاثين عموداً من المرمر لانه حكم البلد وكانت عدد الولايات المتحدة ستة وثلاثين ولاية . (عدد الولايات المتحدة الآن خمسون ولاية) .

الابنية في مدينة واشنطن مختلفة ، منها ابنية على الطراز الرومانى ، اوالاغريقى القديم وكذلك ابنية وكنائس من الطراز الانكليزى في زمن الملكة فكتوريا .

الشوارع متوازية تماماً ، من الشمال والى الجنوب عليها اعداد رقمية ، والشوارع التى تسير من الشرق والى الغرب تتبع الاحرف الهجائية ، والحصول على العناوين في غاية السهولة بسبب الشوارع المتوازية . ويدخل في العاصمة شوارعا كبيرة عرضانية تسمى (آفينيو) .

رأيت (البيت الابيض) ، هو بيت رئيس الولايات المتحدة منذ سنة ١٨٠٠ ، ويقع على واحد من الشوارع العرضانية وهو شارع (بنسلفانيا آفينيو) رقم ١٦٠٠

مررنا من امام البيت الابيض ، والبيت من طابقين وامام البيت اعمدة ترتفع من الارض الى نهاية الطابق الثانى . ويحيط بالبيت الابيض واطرافه حدائق جميلة يمكن رؤيتها من الشارع .

سمعنا ان الرئيس (هارى ترومان) سوف يمر الآن من (بنسلفانيا آفينيو) للذهاب الى حفلة رسمية . نزلت وصاحبتى لكي نقف في محل يسمح لنا مشاهدة الرئيس على الرصيف ووقفنا في الصف الاول . بعد دقائق قليلة مر امامنا الرئيس ترومان بسيارة مفنوحة كبيرة ، وسمعت احد الواقفين قربنا يهتف له :

- هالو هارى! . . (بصوت وكأن رئيس البلاد صديقه الشخصى) .

واذا بالرئيس يلتفت نحوه ويحييه باسماً .

لم يكن من عاداتنا او عادات غيرنا مناداة اكبر شخصية في البلاد بأسمه الاول في الشارع العام وهو على بعد المترين منه فقط! . . .

وهكذا رأيت ترومان اول شخص يؤيد قضية تقسيم فلسطين في الامم المتحدة .

شاهدت بناية (الكابيتول) وهى اهم بناية في واشنطن مبنية فوق تل الكابيتول . وقد وضع (جورج واشنطن) في سنة (١٧٩٣) حجر الاساس وتم تشييدها لمدة سبع سنوات .

اثناء حرب الاستقلال مع بريطانيا في سنة ١٨١٤ تخرب الكابيتول تماماً ، ولكن اعيد بنائه واستغرق ذلك خمسة سنوات .

الكابيتول وهو دار (البرلمان) حيث يجتمع به اعضاء الكونكرس وفيه المجلس (النيابى) ويضم (نواب الولايات) كلها ، كل ولاية حسب عدد السكان فيها ويكون الاجتماع في القسم الجنوبى من الكابيتول ، و(مجلس الشيوخ) وهو المجلس الاعلى ويمثل كل ولاية شيخين فقط في المجلس ، ويكون الاجتماع في القسم الشمالى من البناية . وعند اجتماع النواب او الشيوخ يرفع العلم على احدى البنايتين .

ويمكن زيارة الكونكرس اثناء انعقاده بعد الحصول على تذاكر خاصة .

والكونكريس يحوى اكبر مكتبة في العالم كله ، فيه ملايين الكتب والمخطوطات والخرائط والصور .

بعد هذه الجولة الممتعة أخذتني السيدة الى بيتها لتناول طعام الغداء .

كان البيت جميلا مبنى من الخشب من الخارج ولونه مصبوغ باللون الاخضر مع اطارات الشبابيك مصبوغة باللون الابيض . ويحيط بالبيت حديقة واسعة . وقد استقبلنا في الباب صبى في حوالى العاشرة من عمره هو ابن هذه السيدة . جلسنا قليلا واذا بالام تقول ان ابنها يرغب ان يسألنى بعض الاسئلة عن العراق . تعجبت من ذلك لان الجميع يقولون ان الناس لاعلاقة لهم بالعالم الخارجى .

ضحكت الام من دهشتى وقالت انها طلبت من ابنها ان يقرأ عن العراق من

الانسكلوبيديا الخاصة بالاطفال من يوم امس وانه سر من قرائته .

سألنى الصبي عن العرب وعن الاكراد وعن النهرين العظيمين وعن اشتراكنا في الحرب العالمية الثانية والكثير مما لااتذكره . ولكن ما بقى في ذاكرتى انه سألنى عن (منطقة الحياد) بيننا وبين السعودية رأها على الخارطة ، ولم يفهم عنها شيئاً . بدأت بالشرح القصير لئلا يضيق الطفل من هذه المعلومات . ام الطفل اجابت بأن الولد مشغوف بالعالم الفسيح وأنه سوف يدرس التاريخ ويجوب العالم كله بعدما يتخرج! . .

كان اعجابى بالطفل شديداً وقلت له ان يأتى مع امه ويزورنا في بغداد بعد الانتهاء من الدراسة .

اجابت الام وهي تبتسم :

- ان ذلك يستغرق اثنا عشر عاماً! . . .

قلت لها :

- اذا عشنا سنتلاقى في العراق .

هل كنت ادرى ان زيارة الامريكان الى بغداد ستصبح خلال اعوام قصيرة من المستحيلات ، وكل من يصادق امريكياً يصبح عميلاً للغرب وصديقاً للامبريالية! . . .

قدم لزيارتى بعض الامريكان ممن كنت اعرفهم في بغداد ودعونى الى بيوتهم وكانوا مثالاً للترحيب والرقة ولن انسى ذلك ، منهم الملحق العسكرى وزوجته (اورسوللا) وقد كان الآن يشتغل في وزارة الدفاع في البناء الكبير الذى طالما قرأت عنه في المحلات (البنتاكون او المخمس) . طلبت منهم ان ازور البنتاكون فقال ان الامر سهل جداً وسوف اذهب مع زوجته في الغد لارى المكان ونتناول الغداء هناك .

في الصباح وصلنا اورسوللا وانا ، بناية (البنتاكون) في ولاية فرجينيا . وقفنا في زاوية بعيدة عن البناء لان البنتاكون محاط بارض كبيرة جداً هي ارض وقوف السيارات ولم اكن قد رايت محطة وقوف سيارات بتلك السعة من قبل! . . . قلت لصاحبتى :

- سوف نمشي ميلاً لنصل الى باب البناية! . .

(البنتاكون) هووزارة الدفاع ، اي الدائرة التى تمثل اكبر قوة عسكرية في الارض كلها . انها بناء على شكل مخمس مبنى على الاضلاع الخمسة فقط ، بخمسة طوابق ، وداخل المخمس فسحة خالية .

طلبت السيدة زوجها بالتلفون واتى ووجهه ضاحكاً مستبشراً وهو يلبس ملابسه العسكرية وقال اننى ساشاهد جزء من ضلع صغير واحد من البنتاكون ، وكل الاضلاع تتشابه فيما بينها .

رأيت غرف تستعمل كدوائر وقاعات واسعة بها خرائط معقدة عما يجرى في العالم في جميع البلاد من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب بمصابيح ملونة ، وامام كل بلد الساعة التى هو فيها ، فالذى ينظر يدرى الحوادث العالمية كلها بنظرة ثاقبة سريعة وبأى ساعة من اليوم . وهذه اشياء ليست سرية بل يراها الجميع .

كان هنالك محلات للاكل واخرى لشرب القهوة والشاي ومحلات لشراء اشياء اخرى شخصية من ملابس بسيطة ومأكل ومعلبات وغيرها . قلت لمضيفى ان الشخص الذى يشتغل هنا يتمكن من شراء كافة الاشياء في البنتاكون دون الذهاب الى المخازن الخارجية الاخرى .

قضينا اكثر من ساعة لرؤية قسم بسيط جداً من ضلع واحد من هذا المخمس الكبير! .

تناولنا الغداء في احد المطاعم في البنتاكون وكان الطعام امريكياً بحتاً أي قطعة لحم مع الخضروات والبطاطا يتبعها حلوى وقهوة .

اثارت سهولة زيارة البنتاكون تعجبي واعجابي بالنظام الديمقراطي الامريكي .

في احد الايام وانا اتمشى بمفردى في شارع عريض في واشنطن شعرت بالحر الشديد يصيبنى بصورة سريعة . وانا كعراقية ، اعرف ما هو الحر القائض في صيفنا واتحمله دون شكوى ولكن هذا الحر كان شيئاً آخر غريب ، احسست بأنني لن استطيع المشى بعد وسوف اسقط على الارض . رأيت بناية صغيرة عليها كلمة (الهواء مبرد) ، اسرعت نحوها لكي ابلغها قبل ان يغشى علي ، دخلت وارتميت

على احد الكراسى . اتى نحوى (النادل) لكي يسألنى عما اطلب . لم اتمكن من الكلام! ، اشرت اليه بيدى ان ينتظر . ارتحت بضعة دقائق قبل ان اتمكن من النطق ، وطلب قدحاً كبيراً من عصير البرتقال المثلج . انعشنى ذلك وطلبت سيارة (تاكسى) للذهاب بسرعة الى فندقى القريب .

كان ذلك بسبب رطوبة الحر الخانق الذي لم اعتاده من قبل .

لم اشعر بهذا الحر الشديد الداهم الا مرة واحدة بعد مرور عشرات السنين حدثت لي في مدينة (جدة) في السعودية بسبب الحر الرطب الذى لم نعتاده في العراق .

شاهدت التفريق بين البيض والسود عندما ذهبت مع جماعة لكي ارى للمرة الاولى لعبة (البيس بول) التى يعشقها الامريكيون .

(لم افهم لعبة البيس بول الامريكية ابداً ، ومثلها لاافهم لعبة الكريكت في بريطانيا الى الآن! . . .) .

في الملعب جلسنا في جهة واحدة يجلس فيها البيض فقط وامامنا في القسم المقابل من الساحة كان لجلوس السود فقط . كان عدد الناس من السود يفوق عدد البيض لان محل جلوسهم كان اكبر بكثير .

في الباصات كان البيض يجلسون في الكراسى الامامية ويجلس السود في المقاعد الخلفية . وفى المراحيض العامة ينفصل المكان واحد للبيض والآخر للسود .

اما في المطاعم فقد كان الانفصال تاماً أي يمنع دخول السود في مطاعم او فنادق البيض بصورة مطلقة . وكانت المدارس منفصلة تماماً بين البيض والسود .

تذكرت بغداد ومدارسها حيث كان هناك طالبات قليلات من السود في المدرسة وكانت المعاملة لهم واحدة والصداقة بين البيض والسود كانت متساوية .

ولكن في (الولايات الجنوبية) في امريكا بلاد الحرية والمساواة هل يستطيع أحداً من البيض رجلا كان او امرأة ان يخرج ويتناول الطعام مع شخص اسود؟كان ذلك مستحيل في الولايات الجنوبية كلها! . .

دعتنى السيدة (بديعة افنان) الى حفلة موسيقية في الهواء الطلق تقام على ضفة نهر (البتوماك) . وبالرغم من حرارة الجو في النهار جاء المساء بنسمات باردة

ونحن قرب النهر ولحسن الحظ كانت معى سترة صيفية لأنني سرعان ما اصاب بالزكام اذا ماجلست في الهواء البارد دون جاكيت ، وكان ذلك في شهر حزيران ، ولا اظن اننا نحتاج الى ستره للوقاية من نسمات باردة تأتي الينا في شهر حزيران في بغداد .

انورث كارولينا

كان لدى تذاكر سفر في القطار من واشنطن الى كارولينا الشمالية وبعدها نخترق القارة الكبيرة عبر الولايات الجنوبية الى كاليفورنيا على المحيط الهادئ غرباً ، وبعدها اعود الى الشرق عبر الولايات الشمالية الى نيويورك على المحيط الاطلسي . ان المسافة ما بين نيويورك وكاليفورنيا تعادل المسافة ما بين بغداد ولندن . وكانت هذه المسافات الهائلة تسحرني تماماً .

وصلت مدينة(درهام) في نورث كارولينا وذهبت الى جامعة (ديوك) .

الجامعة شيدت من قبل شخص اسمه (ديوك) وعلى نفقته الخاصة ، وهذا مايحدث في امريكاعند الكثير من الاثرياء . كانت عائلة ديوك فقيرة ، اشتغلت واثرت ثراء كبيراً جداً اذ هم اذ اصبحوا اصحاب مصانع السيكاير في تلك المقاطعة الكبيرة كلها . وكانت هذه الجامعة هي احدى ما قامت به عائلة ديوك من مآثر .

ابنية الجامعة شيدت بالصخر ومبنية على الطراز الغوطى القديم وتشبه ابنية جامعات اوكسفورد وكمبرج في بريطانيا وتبدو وكأنها مشيدة منذ القرون الوسطى . والجامعة انشأت في القرن التاسع عشر في سنة ١٨٣٨ .

ان منطقة مبانى الجامعة ، بحدائقها المزدهرة الكبيرة واشجارها العالية السامقة التى تحيط بها ، تضفي منظراً بهياً رائع الجمال على الجامعة! . . .

دخلت الى المكتب وكانت السكرتيرة تنتظرنى ، وقابلتنى بالابتسام وبترحاب كبير . واعطتنى مفتاح الغرفة التى سأسكن فيها ثم نادت على طبيبة شابة عرفتنى بها وقالت انها تسكن في الغرفة المجاورة .

كان اسم الطبيبة (كارولين بيكر) . وكانت شابة شقراء يملأ انفها وخديها النمش الاحمر أخذتني الى الغرفة وقالت انها سوف تساعدنى على معرفة المكان

وعلى الدوام في الردهات الباطنية . واضافت انها تحب بريطانيا وسوف تسافر في القريب لرؤية تلك البلاد .

انها فتاة تنتمى الى اصول بريطانية والمانية ولكنها عاشت في الجنوب ولهجتها كانت جنوبية بطيئة يصعب فهمها بسهولة ، وقالت انها ستعلمنى لهجة الجنوب وانها اجمل بكثير من لهجة الشمال! . .

ان اللهجة التى تعلمناها في الافلام الامريكية كانت لهجة الشمال بصورة عامة ، ما عدا فيلم (ذهب مع الريح) حيث كان عن الجنوب .

ذكرت (كارولين) ان ثلاثة مدن في كارولينا الشمالية تحوى جامعات علمية للبحوث والصناعة وهذه المدن هي (درهام) حيث نسكن ، و(رالي) و(جابل هل) . تعجبت من اسماء هذه المدن ، كلها اسماء انكليزية بحتة! . . .

اخبرتنى كارولين الكثير عن المستشفى والاطباء واعمالهم وبحوثهم وعرفتنى على الكثير منهم ، وبدأت اشتغل معها في الردهات الباطنية من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر ، كما زرت دوائر الاشعة والمختبرات المختلفة وحضرت المناقشات الطبية الاسبوعية ودعيت مع كارولين الى بيوت البعض من الاطباء للتعرف على عائلاتهم ولرؤية بيوتهم .

أحياناً كانت تأخذنى بسيارتها ونتجول في تلك البقاع الخضراء واشجارها العالية ولم اكن ادرى ان لهم جبال كبيرة تمتد الى الشمال ، اذ كنت اعرف عن جبال (روكى) في غرب البلاد والتى درسنا عنها في الجغرافيا . ذكرت كارولين ان الجبال اسمها (ابالیشیان) وجبال (اوزارك) ومنها فرع يسمى جبال (سموكي) وكان الجميع يغنى أنذاك اغنية : (على قمم جبال سموكي) وقد علمتنى كارولين هذه الاغنية العذبة .

ذهبنا الى السوق واشتريت بنطلوناً ازرق اللون (بلو جينز) ومعه قمصان ذات مربعات وقبعة تشبه قبعات البيسبول واحذية (لوفر) المريحة ، وحذاء من اللونين الابيض والاسود مما تلبسه الطالبات في الكليات كلها .

وقد تعلقت بهذه الملابس بل اصبحت لااروم ارتداء غيرها بعد ساعات الدوام وكانت هذه الملابس البسيطة لاتلبس اثناء الدوام .

في احد ايام عطلة نهاية الاسبوع ذهبت مع كارولين بعد الغداء مباشرة بسيارتها ونحن نلبس البنطلون الرياضى القصير والبلوز الابيض ، وعبرنا ومعنا السيارة على عبارة في البحر الى منطقة على خليج صغير في المحيط الاطلسى . هنالك تعشينا في مطعم بسيط يعزف فيه شاب الة الاكورديون ويغنى بعض الشباب معه .

كان صاحب المكان يعرف الدكتورة كارولين وانها طبيبة في مستشفى (ديوك) ، لذلك احضر لنا مائدة لطيفة في زاوية جميلة . كان الطعام لذيذاً والجوداخل المطعم ودوداً واخوياً . وعزف الشاب على الاكورديون اغاني امريكية محلية تصحبه جماع الشباب حوله وكأنهم في حفلة موسيقية في الجامعة .

عدنا الى المستشفى بعد منتصف الليل في ليلة فضية مقمرة .

طعام العشاء يبدأ عندهم في ساعة مبكرة حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر وكان هذا في نظرى ، والشمس لاتزال عالية في السماء وكأننا نتعشى في وقت الشاي عندنا في بغداد .

في احد الايام وانا واقفة في صف الانتظار (الكيو) في مطعم المستشفى ، رأيت الرز بين الاكل لاول مرة ، وافرحنى رؤية طعامنا العراقى المفضل ، وطلبت الرز بدلا من البطاطا ، واذا بها تعطينى الرز بملعقة واحدة من كماشة الصغيرة نستعملها عادة لنقل مربعات الثلج ، ووضعتها على حافة الصحن . كانت كمية الرز بقدر لقمة واحدة فقط للعراقيين! . . .

خرجت مع كارولين لكي تريني بعض مناطق المدينة ومررنا ببيوت الزنوج وانا اتخيل البيوت الحقيرة التى سأمر خلالها . وجدت البيوت تشبه البيوت البسيطة الاخرى التى يسكنها البيض ، تحيطها حدائق صغيرة ورأيت في شرفات بيوتهم امام البيت اراجيح للكبار في جميع البيوت ، وفي الحديقة دراجات للاولاد ذات عجلتين او ثلاث عجلات ، وعلى سطح كل بيت عمود كهربائى للراديو مثل بغداد في تلك الايام . ورأيت في اراجيح الشرفات حيث تجلس نساء معظمهن بدينات يرتدين ملابس صيفية فاتحة ويتسلين بالكلام ويشربن الكوكا كولا ، ورأيت امام معظم البيوت سيارات خاصة . شاهدت كل ذلك عند مرورنا في الشوارع .

قلت لكارولين : اننا لانسمى من يملك البيت والاثاث الصيفى في الحديقة ولعب الاطفال والدراجات والسيارات فقراء في بلادنا .

اجابت كارولين :

- ان الكثيرين منهم يفكرون بالسكن في مناطق البيض ، والمساواة في المعاملة . والكثيرات من الخادمات الزنجيات يذهبن لتنظيف البيوت وهن في سياراتهن الخاصة! . . .

احببت في المناطق الجنوبية شرب الشاي المثلج والقهوة المثلجة . انهم يشربونها باقداح زجاجية طويلة خاصة ومزركشة بصور جميلة استوائية في مناظرها والوانها الجميلة ، وهم يشربون الشاي المثلج مع الحليب او بدونه ، وأحياناً يضعون مع الشاي اعشاباً منعشة تضفى على الشاي طعماً خاصاً .

اصبحت اشرب الشاي المثلج كل يوم في اوقات العصر . اما الشاي العادى فلم استسغه لانه يأت وهو ملفوف في ظروف صغيرة من الورق . وكانت هذه اول مرة ارى الشاي مع الورق يوضع في كأس الشاي! . .

(لم ادر ان الشاي الملفوف سيصبح طريقتى في شرب الشاي بعد سنوات! . .) .

في عطلة نهاية الاسبوع ، اتت ابنة عم كارولين ، وهى تسكن في مدينة قريبة اسمها (رالي) ، وطلبت من كارولين أن تقضى عندها (الويك اند) . كنا على الغداء في المستشفى ، واذا بكارولين تناولنى مفتاح سيارتها بكل بساطة وطلبت مني ان استعمل السيارة في غيابها لانها ستذهب مع ابنة عمها لمدة يومين .

انا لم اسألها عن السيارة او حاجتى اليها .

اصابتنى الدهشة الكبيرة! . . . من الذى يعطى السيارة في بغداد بهذه السهولة لشخص اجنبى ، وانا عرفت كارولين منذ فترة قصيرة فقط ، وانا اجنبية غريبة! . . وكارولين كانت شابة تعيش براتبها فقط! . . اهى الثروة في البلد تؤدى الى تصرفات كهذه تدل على النعمة والرخاء .

ان اخلاق اهل الجنوب الامريكي تشابه اخلاق اهل (البصرة) من ناحية الكرم الطبيعى عندهم .

عـادت كـارولين بعـد يومين واعطيتـهـا السـيـارة مع شكرى الجـزيل لأننى استعملت السيارة لزيارة المناطق القريبة من المستشفى لرؤية المدينة وما جاورها . لم ارد الذهاب الى مناطق بعيدة بسيارة لا املكها .

اخبرتنى كارولين ، ان ابنة عمها ستسافر ومعها زوجها في سيارتهم الى لوس انجليس في كـاليفورنيا ، وهى تعلم اننى سأذهب الى كـاليـفورنيا خلال ايام قليلة كـما اخبـرتـهـا ، سألتنى لم لاأذهب معـهـمـا وارى البلد من الشـرق الى الغـرب بالسيارة ، وبنفس الوقت اساعدهم في سياقة السيارة التى تستغرق ستة ايام حتى نصل الى لوس انجليس .

فكرت مع نفسى ، ان اجور القطار (مـدفـوعـة) من واشنطن ، وهى لدي في الشنطة ، كلها من هنا الى كاليفورنيا والى نيويورك في نهاية السفرة ، واننى سانام في قطار مريح من درجة (البـيـرث) وهو قطار للنوم ليـلاً به باب تقـفل في الليل وستائر حول الفراش ، ويتغير الفراش ويطوى اثناء النهار للجلوس في مقعد كبير ووثير في كل السفرات الى ان اعود الى نيويورك بعد حوالى ثلاث اشهر . وسادفع مصاريف الطعام في القطار على حسابى . والطعام في القطار فاخر جداً .

اما اذا سـافـرت بالسـيـارة ، يجب ان ادفع اجـور النوم في الفنادق . امـا اجـور البنزين فلن يطالبونى بالاشتراك معهم .

شـجـعـتنى كـارولين باننى لن ارى في القطار مـايرونه في الطريق ، لاننا سنتوقف للغداء ثم العشاء وثم النوم في الفنادق (الموتيلات) الغريبة التى تتبدل دائماً بين ولاية واخرى وسوف استمع ما يقصه علي اقاربها الاثنان وهما من اهل البلد ، عن هذه البلاد الكبيرة الواسعة وسوف اتعلم الكثير من ذلك .

سألت عن عدد الايام الذى يستغرقه الذهاب الى كاليفورنيا فكان الجواب ستة ايام .

شاقتنى السفرة جداً وقررت ان اتنازل عن السفر بالقطار واذهب بالسيارة مع اقارب كارولين ، هذه الزميلة التى شملتنى بصداقتها ولطفها طيلة الايامى معها وكأننا نعرف بعضنا منذ عهد طويل .

وفى يوم السفر حضر الزوجان ، وكـانا صورة جميلة عن العائلة الامريكية

الجنوبية ، لهما الشكل الرياضى الجميل والتصرف الطبيعى البسيط . كانا بنفس عمرى وعمر كارولين .

اسم الزوجة (دونا) وتشتغل سكرتيرة ، والزوج (روبرت) وهو جراح في مستشفى في مدينة (رالى) القريبة . أخذوا حقيبتي الكبيرة والصغيرة . قلت لهما اننى سأرتدى ملابس (البلو جينز) والقمصان ذات المربعات اثناء السفر . (كنت اتصور هذه اجمل ملابسى كلها! . .) ، اجابوا كلهم ان ذلك مناسب لاننا نسير غرباً والقسم الغربى مشهور بالبساطة في كل شيء ، بعكس عادات اللباس اثناء السفر في القسم الشرقى من البلاد إذ يقتضى السفر لبس ملابس انيقة .

+شكرت كارولين مرة اخرى واخبرتها اننى ساتراسل معها لنبقى على اتصال . (وقد بقينا على اتصال لمدة سنوات انقطعت بعد انقلاب تموز ١٩٥٨)

ركبنا السيارة واتجهنا نحو الغرب وقيل لي :

ـ ها ان الولايات المتحدة امامك كلها! . . .

كان الجو دافئاً صيفياً مريحاً .

قررنا ان الشخص يسوق من الساعة السادسة صباحاً الى العاشرة ، ثم يتبادل الشخص الاخر للسياقة الى الثانية بعد الظهر ويجلس في المقعد الخلفى للراحة او النوم بينما يجلس الاثنان الاخران الى الامام ، وبعد ذلك يذهب السائق الثانى الى المقعد الخلفى ويأتى الشخص الاول الى الامام وهكذا ، ونتوقف في السادسة مساء .

كنا نقف للغداء في الساعة الثانية عشرة ظهراً ، وللعشاء في السادسة مساء ، وكنا ننزل في (موتيل) للنوم المبكر . (الموتيل هو فندق لاشخاص مع سيارتهم)

في الصباح نفطر في الموتيل ونستأنف السياقة في الساعة السادسة صباحاً . وكنا ننام في الساعة الثامنة مساء او قبل ذلك لكي نستيقض باكراً .

الغرف كانت لشخصين واحدة لزميلتى وزوجها اما انا فكنت استأجر الغرفة وادفع اجور غرفة ذات سريرين رغم كونى واحدة . وهذا انطبق على في جميع الموتيلات اذ دفعت اجرة مضاعفة على الغرفة ولكن الفطور يحسبونه فطوراً وأحداً لحسن الحظ . اظنها طريقة تجارية للكسب .

في كل غرفة لها حمام كبير (بدوش) فقط من دون البانيو ، وكان هذا في المستشفى أيضاً ، وينطبق على معظم الجامعات والمستشفيات وهى عادة طيبة صحية انظف بكثير من استعمال البانيو .

خلال كل يومين نقف في كراج لغسل وتنظيف السيارة بكاملها وتبديل بعض الاشياء التي تستهلك اثناء السفر الطويل ثم تملأ السيارة بالماء والبنزين . وقد استرعى ذلك وقوفنا ثلاث مرات لتنظيف السيارة خلال السفرة ، وفي كل مرة كان يجرى الفحص الدقيق على السيارة بسبب المسافات التى قطعناها .

كانت المسافة ثلاثة آلاف ميل من مدينة (درهام) في كارولينا الشمالية الى (لوس انجيليس) في كاليفورنيا . (مثل المسافة بين بغداد ولندن بالسيارة) .

كنت شديدة الفرح بهذه السفرة وكأننى اصبحت جزءاً من الكشافة في المدرسة وهى اشياء كنت احلم بها فقط في بلادنا . انها حصلت معى لحسن الحظ ، رغم تأخرها لسنوات عديدة .

انها السفرة التى كان زوجى يود ان أقوم بها لكي ارى (العالم الجديد) الذى يحبه ويشتاق اليه دائماً .

السفر ثلاثة الاف ميل بالسيارة من كارولينا الشمالية الى كاليفورنيا

بدأت الحرب الاهلية بين الولايا ت المتحدة ،حيث حاربت الولايات الجنوبية الزراعية ضد الولايات الشمالية الصناعية حول منع نظام الرق في امريكا ، والمتبع في الولايات الجنوبية كلها ، اكثر من اربع سنوات في سنة ١٨٦١ لكي تنفصل الولايات الجنوبية عن الشمال ، في زمن الرئيس (ابراهام لنكولن) . حاربت الجهتان حرب ضروس ، وفازت الجيوش الشمالية ، واعلن الرئيس (لنكولن) المحافظة على وحدة الولايات كلها ، وابطل نظام الرق في البلاد .

(داومى بصحيفتين فارغة ليأتى الموضوع عن السفر)

السفر ثلاثة آلاف ميل بالسيارة من كارولينا الشمالية الى كاليفورنيا

دخلنا مدينة اسمها (ناشفيل) وهى العاصمة في ولاية تنيسسى ، ولكل (ولاية) عاصمة محلية للحكم ، وأن مدينة واشنطن هي العاصمة الفدرالية

لجميع الولايات . مدينة (ناشفيل) هي المركز الموسيقي للزنوج واسمه ٠(الموسيقى الزرقاء) وأيضاً موسيقي (الجاز) .

اخذت (دونا) تفسر لي ما نرى . ان المناطق الجنوبية كلها ، كانت بلاد الهنود الحمر ابناء البلاد الاصليين ، وانهم طردوا منها بالقتل والتشريد في القرن الثامن عشر وقبله . وقد سكن هذه البلاد الاوروبيين ومعظمهم من اهل سكوتلاندة وايرلندة والكثير من الاسبان والفرنسيين .

لاحظت ان كل ولاية تحمل (صفة) خاصة او كنية ، والناس تضع اسم الكنية على الواح السيارات الخلفية مع رقم السيارة .

ولاية (تينيسى) كنيتها ولاية (اللاجئين) . وكانت كارولينا الشمالية تحمل كنية (ولاية الشفاء) .

سرنا في تينيسي الى مدينة اسمها (ممفيس) ، والاسم هو من ممفيس المصرية القديمة على ضفاف النيل . المدينة ، اكبر من العاصمة ناشفيل ، وقد اسسها الرئيس (اندرو جاكسن) سنة ١٨٣٠ لانه ينتمى الى هذه الولاية .

في هذه المنطقة بدآت منظمة (الكو كلوس كلان) بين السكان البيض ، وهى منظمة تعاقب الزنوج الذين بدأوا يعتدون على البيض بعد تحرير الزنوج في الحرب الاهلية ، والعقوبة هي شنق الزنجى من قبل اعضاء هذه الجمعية على الاشجار سراً وفى الليل دون الذهاب الى المحاكم الشرعية .

يرتدى اعضاء جمعية (الكوكلوس كلان) ملابس بيضاء عريضة ويخفون وجوههم بقناع ابيض اثناء القاء القبض على الزنجى الجانى اثناء شنقه على احد الاشجار .

ولايزال قسم من هذه الجمعية تشتغل بالخفاء في مناطق الولايات الجنوبية الى الآن! . .

رأيت نهر (المسيسبى) الكبير وهو من اكبر ا نهار العالم . وشاهدت تربة الارض ولونها بنى غامق وكأن التربة مزجت بلون الشيكولاتة بسبب الاملاح التى تحويها . ان مجرد النظر الى لون هذه الاراضي البنية اللون يدل على خصوبة تلك الارض . شاهدت اعداداً كبيرة جداً من الزنوج يشتغلون في الحقول .

الولاية مشهورة كما قلت بموسيقى الزنوج (الجاز) ، وزراعة القطن ، وتعدين الالومنيوم . وفيها الكثير من محلات القمار والملاهى الليلية .

مررنا بمدينة صغيرة جلب اسمها نظرى (شاتانوكا) ، سألت الجماعة عن هذا الاسم الغريب فقيل انه اسم هذه البقعة من الارض في لغة الهنود الحمر وان الكثير من الجبال والبحيرات والانهار احتفظت بأسماء الهنود الحمر . وكانت (شاتانوكا) هذه قرب نهر (المسيسيبى) ، واسم هذا النهر هو من لغة الهنود الحمر أيضاً .

اثناء مرور السيارة بين المدن الصغيرة في الطريق ، شاهدت التشابه الكبير بين تلك المدن . ففى كل مدينة ، ارى نفس المطاعم الصغيرة ونفس الصيدليات التي يسمونها (مخزن الادوية) التى تبيع ليس الادوية الطبية فقط ، ولكن الكثير من الاشياء الاخرى للبيت وبعض الملابس البسيطة من قمصان الى اربطة عنق واحزمة وحلي للنساء توضع بالقرب من الباب الداخلى ، ولديهم اطعمة للاكل السريع مثل (الهامبوركر والهوت دوكس) .

في هذه المدن الصغيرة رأيت اجمل المباني لديهم هي كنائسهم التى يتفننون في بنائها وجمالها . لم نتمكن من زيارة هذه الكنائس ، كنا نراها من الخارج فقط .

في الطرق البعيدة الخالية خارج المدن ، كنت ارى اقوال عن المسيح معلقة على لوحات كبيرة جداً بحيث يمكن قرائتها من السيارات من مسافات بعيدة مثل : (المسيح يحبك) (المسيح يحميك) .

والزنوج بصورة عامة شديدى التعلق بالكنيسة ، وفى الجنوب لهم كنائسهم الخاصة .

لحسن الحظ ، كانت (دونا) وزوجها يجيبان اسئلتى باهتمام مع التفاصيل الكثيرة . وكما كانوا كثيرى الاهتمام ببلادى وبلاد الشرق الاوسط كله ، لذلك كنا نتبادل الاسئلة والاجوبة طيلة الوقت .

دخلنا ولاية (آركنسو) وكنيتها (بلاد الفرص) .

عاصمة الولاية (لتل روك) وهى المدينة التى ولد فيها الجنرال (ماك آرثر)

بطل الحرب العالمية الثانية في جبهة الشرق الاقصى حين دخل اليابان بعد القاء الطيـارون الامـريكيـون اثنتين من القنابل الذرية على مـدينتبن يابانيـتين همـا (هيروشيما وناغازاكى) لاول مرة في التاريخ .

مررنا في مـدينة (لتل روك) في اركنسـو . المدينة تحوى النفط داخل اراضيـها ، وهى مشـهورة أيضاً بموسيقى الزنوج ، ويوجد داخلهـا حـمامـات معدنيـة . ومنظر جبال (الاوزارك) يضفى الجمال والهيبة على هذه الولاية الصغيرة .

كنا لانقف في الطريق الا للغـداء والعـشـاء لان رحلتنا طويلة جـداً وايامنا قصيرة لا نستطيع صرفها على رؤية المدن في طريقنا .

كانت المناظر التى تستهوينى هي الاشيـاء الطبيعية من انهار متعرجة على سطح الارض ، اوانهار عـميـقة غـارقـة في اعـمـاق الوديان الصـخـرية السـحيـقـة ، وكذلك البحيرات الزرقاء الكبيرة والصغيرة والجبال الشاهقة التى ترتقيها السيارة وتهبط منها ، والسيارة تبدو بحجم الحصى الصغير بين الصخور الهائلة .

كذلك كنت احب رؤية السهول المستوية الخصبة تمتد لمسافات شاسعة تغطى الوف والوف من الأراضي اليانعة الخضراء .

كنت افضل ذلك اكثر من رؤية داخل المدن الصغيرة والتى تتشابه كثيراً .

بعـد مـرور يومين اوقـفنا السيـارة في كـراج لكي تفـحص من جـديد وتدهن ويتبـدل ما تحـتـاج من الاشيـاء في الماكنة لأننا سـرنا بهـا سـتمـائة مـيل . وكـانت السيارة قد فحصت وغسلت وتبدل الدهان فيها قبل السفر مباشرة أي قبل يومين فقط .

يحرص اهل الكراجات على بدأ العمل رأساً لكي يسلمونا السيـارة خلال ساعة . يفحص احد العمال اسفل السيارة وآخر يفحص المقدمة وصبى ينظف المقـاعـد وارضيــة السـيـارة وبلمع زجـاج الشـبـابيك ويملأ البنزين ويبـدل الماء في الرادياتر ، بحيث تصبح السيارة خلال كل يومين لامعة ونظيفة كأنها خرجت من مخزن السيارات الآن للبيع .

كان العمال اذكياء في عملهم ، مؤدبين ، ويجيبوا على اسئلتنا عن الطريق او عن السيارة بلطف وبابتسامة .

بدأت ارى بعينى ما كان يذكر زوجى عن دماثة العمال في الكراجات وفى غيرها .

وهذا ما رأيته من اصحاب الموتيلات كلهم . لم نر أحداً يعكر علينا السفر طيلة هذه المدة .

كان اكثر ما يزعجنى هو النهوض في الخامسة صباحاً للفطور واستئناف السفر في الساعة السادسة . ولكن بعد خمسة دقائق من النهوض من الفراش ، انسى النعاس واكون بحالة جيدة جداً .

دخلنا ولاية (اوكلاهوما) ، وهى ولاية اخرى اخذت من الهنود الحمر بالقوة ، واسكنوا فيها فقراء البيض في اطراف الولاية قرب الجبال القريبة منها .

الولاية كنيتها هو (الولاية المستنبطة او سوونر ستيت) بالانكليزية . لان الناس اخذوا الارض مجاناً دون شرائها ، أي هم استنبطوها او خلقوها .

بعد اوكلاهوما ، دخلنا ولاية (تكساس) ، وهى اكبر ولاية في الولايات المتحدة كلها . كنية الولاية (ولاية النجم الاوحد) . تذكرت الافلام المسلسلة عن تكساس وعن (الفارس الوحيد من او لون رينجر) من تكساس ايام كنا طلاباً .

دخلنا القسم الشمالى من تكساس وكان الجو حاراً جافاً شبيهاً بجو بغداد في الصيف وخاصة الارض كانت مستوية تماماً كما في بغداد .

هذه الولاية هي من اغنى الولايات بسبب النفط الكثير الذى تحويه . النفط المستخرج في الولايات المتحدة يصبح ملك صاحب الارض نفسه! . .

اخبرت اصحابى بأن النفط في بلادنا يعود الى الدولة ويصرف على البلاد كافة لحسن الحظ ولا يعود الى اشخاص او اناس معينين .

في تكساس رأيت الكثير من الرجال يرتدون القبعة الكبيرة من نوع (ستيتسون) التى يلبس مثلها الممثل (جون وين) في افلامه . رأيت معظم الرجال طوال القامة يدل مظهرهم على الصحة والقوة ، والكثير منهم يمتطون الجياد .

(تكساس) ، كانت في الماضى جزأ من بلاد المكسيك وتعود ملكيتها الى اسبانيا ، وفى بداية القرن التاسع عشر اجبر (نابليون بونابارت) الاسبان ، ان يسلموا (تكساس) الى بلاده فرنسا . بعد اندحار نابليون في معركة (ويلنكتون) ،

باع الفرنسيون أراضي (تكساس) الى الولايات المتحدة ، واصبحت الارض ولاية امريكية في ١٨٤٥.

اثناء الحرب الاهلية الامريكية كانت ولاية (تكساس) تحارب بجانب الولايات الجنوبية ضد الولايات الشمالية .

بعد تكساس دخلنا هضبة ولاية (نيو مكسيكو) ولقبها (ارض السحر) وعاصمتها (سانتا في) وتقع في اعلى منطقة في الولاية ، على ارتفاع سبعة آلاف قدم . لكننا لم ندخل (سانتا في) البعيدة العالية ، بل توجهنا نحو مدينة اسمها (البوكركي) ، وهى اكبر من العاصمة (سانتا في) ، وقد تعجبت من اسم المدينة وكأنه اسماً عربياً ، إذ تذكرت اسم (البوشبل) عندنا في العراق .

في هذه الولاية تقع مدينة (لوس آلاموس) الشهيرة ، مدينة البحوث الامريكية عن القنابل الذرية وطرق استعمالها ! . . كانت لوس آلاموس بعيدة عن طريقنا ، لذلك لم نشاهد منها شيئاً! . .

خبرتنى (دونا) ان الناس في (نيو مكسيكو) تقص على القادمين الجدد قصصاً حول (السحر) الموجود في الولاية ، وعن اناس يظهرون في الليل فقط ويختفون في النهار تماماً ولا يعرف الناس عنهم شيئاً سوى سحناتهم الغريبة وقابلياتهم الكبيرة الغريبة! . .

وهى تشبه قصص الجن والسعلاة في قصصنا القديمة .

وصلنا ولاية (اريزونا) ولقبها ولاية (الخانق او المضيق العظيم) ، وعاصمتها (فينكس) ، وهى مدينة عالية أيضاً تحيطها الجبال ، وكانت الى الجنوب من طريقنا فلم نتمكن من رؤيتها .

في هذه الولاية تكثر البحيرات الكثيرة ، وفيها الافاعي ذات الاجراس وهى افاعي سامة .

(الهنود الحمر) يسكنون هذه المنطقة بأمر من الحكومة في مناطق خاصة بهم! . . .

والناس البيض هنا من ذوى الاصل الاسبانى . واهل البلد يلعبون لعبة اسبانية قديمة هي لعبة (الروديو) الخطرة ، وهى ركوب الثيران ومحاولة البقاء على

ظهر الثور اطول مدة ، قبل ان يرميهم الثور على الارض . ويتبارى الناس في هذه اللعبة المميتة التى تؤدى الى الموت او التشويه الخطير .

رأينا منجماً كبيراً للنحاس لا يبعد كثيراً عن طريقنا وشاهدنا فيه على البعد مناجم صغيرة تنفجر هنا وهناك ، وكنا نرى الغبار يرتفع مع كل انفجار على طول المنجم . شاهدنا السيارات واللوريات وعربات قطار سريع صغير يشتغل فقط للمنجم ورأينا المعدنين من مسافة بعيدة . هذه اول مرة ارى منجماً فوق سطح الارض ، كنت اظن المناجم آبار عميقة مظلمة تحت سطح الارض .

رأينا نبات الكاكتس (الصبير) باشكال وحجوم مختلفة ترتفع الى علو كبير كأنها اشجار كبيرة غريبة وتمتد لمسافة اميال طويلة . لم يكن بين نبات الصبير أي نبات آخر ، والارض قاحلة لاينمو فيها شيء آخر غير الصبير .

ولاية اريزونا مشهورة بعدد الطيور فيها بحيث تتفوق على الولايات الاخرى كلها . والناس تقصد هذه الولاية في اشهر الشتاء عادة للتمتع باشعة الشمس والسماء الصافية ورؤية الطيور ودراستها ، وخاصة محل طير (الطنان او الطير الذبابى) الجميل وهذا الطير صغير جداً . وهو الطير الوحيد الذى يطير الى الامام والى الخلف! . . ، ويأتى الناس أيضاً لمشاهدة ودراسة الصبير الغريب ، ولرؤية تعدين النحاس ، ومشاهدة لعبة (الروديو) الخطرة وغيرها .

اثناء الغداء كنا نتوقف لنرى دكاكين الهنود الحمر في ولايتى (نيومكسيكو وفى اريزونا) على طريقنا . شاهدنا الكثير من بضائع الهنود الحمر من قبعاتهم العالية ذات الريش الطويل الى احزمتهم الجلدية وخناجرهم ، الى فساطين النساء ومعاطفهن والشرائط الملونة والحلي الفضية من اسورة وقلائد وخواتم جميلة مشغولة باحجار الفيروز الزرقاء ، وكذلك اربطة للعنق وشنطات جلدية . شاهدت قبعات رجالية من الخوص المحبوك جيداً وحول منطقة الرأس رباط من افعى من ذات الاجراس ميتة ، وعند حركة الرأس ترسل مفاصل الحية صوتاً معيناً مع حركة الرأس وذلك يجعل للقبعة سعراً غالياً .

لحسن الحظ لم نر من هذه الافاعى السامة الا الميتة فوق القبعات في المخازن .

الولاية حافلة في داخلها بآثار قديمة ومباني عن الهنود الحمر ، ولم نتمكن من رؤيتها لأننا لم نخرج عن سيرنا عن طريق السيارات .

اتجهنا الى منطقة صحراوية تقع على طريقنا ، انها منطقة رملية كبيرة جداً اسمها (الصحراء الملونة) . نزلنا من السيارة ورأينا سيارات كثيرة واقفة على حدود هذه الصحراء الخالية من أي اثر للحياة .

قالت (دونا) ان هذه الصحراء هي ما يصورونه في السينما عن الصحراء الكبرى ، ولو ان بعض الافلام سجلت في الجزائر وصحراء المغرب .

رأيت الناس كلهم مشغوفين بالصحراء ، وصوروها من جميع الجهات بالات التصوير الكثيرة ، وجماعتى لايودون الرجوع الى السيارة وترك الصحراء الرائعة .

لقد سحرتهم الارض الخالية من الحيوان والنبات .

كانت الصحراء جميلة جداً وشمس العصر تبدو ككرة من النور اوالنار وتؤثر على الوان الصحراء التى تتبدل من منطقة الى اخرى ، وتصبح الوانها ما بين الاصفر والوردى والابيض ، ومحلات بعيدة تبدو زرقاء او رصاصية اوبنية فاتحة اوغامقة حسب لون املاح التربة ولهذا السبب سميت (الصحراء الملونة) .

لقد انست برؤية الصحراء الشاسعة . انها جزء مني! . .

في اليوم التالى اتجهنا نحو منطقة على نهر (كولورادو) الذى يشق طريقه بين الصخور الهائلة لمشاهدة السد العظيم الذى بنى في عهد الرئيس (هوفر) ويسمى (سد هوفر او سد بولدر) . ان هذا السد الهائل احيا مناطق عديدة حوله .

بنى هذا السد في عام ١٩٣٥ وكلف ١٧٥ ملايين دولار لكي يعطى المنطقة الماء والكهرباء . وقفنا على جسر السد ونظرنا الى الاعماق لكي نرى النهر الكبير منحدراً تحيط به صخور شقها النهر منذ آلاف وآلاف السنوات بحيث اصبح ارتفاع الجوانب على النهر مقدار ميل واحد ، ومقدار(عرض) هذا الخانق العظيم هو عشرة اميال! . .

كان منظر النهر الغائر العميق رائعاً ومخيفاً في نفس الوقت! . .

الولاية القادمة كانت (نيفادا) ، وتلقب (بولاية الفضة) .

في وقت الغروب ، دخلنا مدينة لم اسمع بها من قبل اسمها (لاس

فيكاس) . كان قرار الاصدقاء ان نبيت في هذه المدينة لأنها مدينة غريبة لاتشبه المدن الاخرى . هذه المدينة هي مدينة القمار في امريكا مثل (مونت كارلو) في اوروبا .

كانت المدينة تلتمع كلها بالوان كهربائية براقة في الشوارع والمخازن والمطاعم وكأن المدينة كلها في عرس كبير .

نزلنا في فندق كبير لنقضى ليلتنا . كان الفندق يلتمع بالكهرباء والاضوية الملونة ، مع انغام موسيقية خفيفة تسمع من داخل الفندق .

كان الفندق من الفنادق الغالية ، رأيت النساء يرتدين ملابس السهرة او الكوكتيل والرجال يلبسون ملابس انيقة بالوان فاتحة في هذا الجو الصيفى الجميل . انهم جماعة الاغنياء يقامرون في مدينة (لاس فيكاس)! . .

ابدلنا ملابسنا البسيطة الى ملابس مناسبة للمكان ، وتناولنا طعام العشاء ثم دخلنا القاعة الكبرى في الفندق . وانا لاادرى عن لعب القمار شيئاً . كنت اتفرج على ما يدور واراقب الناس وهم يقامرون . في البداية كنت اراقب الاشياء باهتمام ولكن بعد فترة معينة صار الامر لايثير مني الا عدم الاكتراث . لعبت مع الجماعة بنقود قليلة خسرتها كلها ولم آسف عليها بل ارتحت من قضية اللعب وابطلته وبقيت اتفرج على دونا وزوجها ، الذين وجدا اللعب مسلياً بعد سياقتنا الطويلة لعدة ايام .

يبدو اننى اكره القمار والربح الذى يأتى بسبب الحظ فقط ، من دون المهارة او اجادة الحلول العقلية . لم العب هذه اللعبة الا مرة واحدة بعد عشرين سنة في لندن ووجدتها لاتثير اهتمامي .

في (لاس فيكاس) ، كان لعب القمار ليس فقط في المحلات المعينة على الموائد الخاصة ، انه حول المرء اينما يستدير ، مثلا على مائدة الطعام جهاز صغير للقمار ، كذلك في محلات بيع البنزين وموائد القهوة والشاي ، وعند بائع الجرائد ، وحتى في الحمامات في الفنادق في كل منها آلة صغيرة للقمار! . .

احسست كأننى مدعوة الى دعوة غنية باذخة ، ولكنى لااعرف افرادها ابداً . تفرجت على ملابس النساء الجميلة والحلي الفاخرة ، والاموال التى تدور بينهم

على موائد القمار ولكني لم احسدهم على حياتهم هذه .

آثرت ان اذهب الى غرفتى لكي انام .

في اليوم الثاني وصلنا ولاية (كاليفورنيا) ولقبها (الولاية الذهبية) ، وعاصمة الولاية هي (ساكرمنتو) ، البلدة التى لم اسمع اسمها من قبل .

تسمى ولاية كاليفورنيا الولاية الذهبية بسبب اكتشاف الذهب في سفوح جبال (سييرا نيفادا) واندفاع الناس نحو كالفورنيا في القرن التاسع عشر للحصول على الذهب من تلك الجبال .

يبدو ان الذهب قد نضب من كاليفورنيا منذ نهاية القرن التاسع عشر .

في ايام الدراسة المتوسطة تعلمنا اغنية من قبل المسز فاضل الجمالى عن عمال الذهب واسمهم (التسعة والاربعين) ويقصدون بها العمال من معدني الذهب في سنة ١٨٤٩ في كاليفورنيا ، والاغنية اسمها (كليمانتاين) . وهى اغنية مشهورة جداً يعرفها الجميع في امريكا وبريطانيا وكل الناطقين باللغة الانكليزية .

اخيراً ، وصلنا الى مدينة (لوس انجبليس) في كاليفورنيا . هذه الولاية التى اسمع عنها دائماً من زوجى ، انها حيث درس فيها قسماً من دراسته في الجامعة ، ويصفها بأنها بلاد الربيع (الدائم) حيث لايصل اليها لا الصيف الشديد ولاالشتاء القارص .

كلمة (لوس انجليس) الاسبانية وتعنى (بلد الملائكة) انها تحوى منطقة (هوليود) حيث الشركات السينمائية المشهورة مثل (مترو كولدمين ماير وبارامونت وفوكس) وغيرها ، وغطت افلامها العالم كله منذ بداية العشرينات .

انها المدينة التى يسكنها (اجمل) الناس قاطبة ، اتوا من جميع اقطار العالم الى (هوليود) ، المدينة الحديثة الساحرة التى بنيت من اجل التمثيل السينمائى فقط! . .

انا في لوس انجليس الآن! . هل سأشاهد فيها مالم اشاهد سابقاً في البلاد الاخرى؟ . .

رأيت الجو الربيعى الدائم في (لوس انجليس) ويا لروعى ، ملوثاً بضباب دائم يلتف حول المدينة دائماً .

اين الجو الفردوسى الذى وصفه لي احسان دائماً؟ الجو دافئ لطيف ، ولكن الشمس تبدو من وراء طبقات من ضباب عال وكثيف .

الشوارع عريضة جداً وبعض البيوت تشبه بيوت البحر المتوسط والازدحام في داخل المدينة كبير .

سرنا في الضواحى ولم اشاهد أحداً يمشي على قدميه! . . . الناس تركب السيارات بشتى انواعها واشكالها ، وكل السيارات تبدو جميلة تلتمع في الطريق .

الايوجد هنالك من يسير على قدميه في هذه المدينة؟

ذهبنا الى بيت اقارب (دونا وزوجها) وهم أيضاً في سن الشباب ولهم طفل صغير في نحو السابعة من عمره . احتفوا بي وكأنهم يعرفونى من قبل . والحفاوة عادة جميلة رأيتها بين الامريكان بشكل لايماثلهم فيه احد . تناولنا طعام الغداء عندهم وكان طعاماً لذيذاً .

سمعت الكثير منهم عن البلد والناس ، وكان الحديث حافلا بالاشياء المسلية الجميلة . اقترحوا بأننا سنذهب الى ناحية (سانتا مونيكا) القريبة للسباحة في البحر . اخبرتهم اننى اعرف سانتا مونيكا من قبل لرؤية صور زوجى بسبح في شواطئها .

سانتا مونيكا على المحيط الهادئ! . . .في الماضى ، كنت ار المحيط الهادئ على الخارطة فقط ، وكأنه نهاية العالم ولم اكن ادرى اننى سأراه ام لا .

لم يخطر في بالى آنذاك اننى سأرى امريكا والمحيط الهادئ عدة مرات في المستقبل!

انتقلت الى اوتيل قرب بيت اقارب (دونا) بعد ان شكرتهم اجزل الشكر .

في الصباح اتصلت بصديقة عراقية قديمة اعرفها منذ الطفولة الاولى (بديعة الجميل) . انها تدرس في الجامعة منذ خمسة سنوات في(لوس انجليس) وهى جزء من الجامعة الكبرى في (بركلى) في منطقة سان فرانسيسكو .

ذهبت مع (بديعة) لرؤية الكلية ، في منطقة (وستود) ، ومعنا الطالب (وسام الزهاوى) ابن استاذى الدكتور شوكت الزهاوى ، وكان وسام يدرس في نفس الجامعة أيضاً .

، المشهورفي هوليود حيث يشاهد المرء آثار الممثلين والممثلات
وعة في سمنت الرصيف بشكل (كف او قدم) او الاثنان معاً
نما الكبار ومع الرسم اسم الممثل او الممثلة من (كريتا كاربو
ول لومبارد وجوان كرافورد وكلارك كيبل وكارى كوبر وروبرت
كثير غيرهم . شعرت بالفرح لرؤية اسماء الممثلين والممثلات
السينما لمشاهدة افلامهم كلما استطعنا الى ذلك سبيلاً في

سينمائى الجزء الاكبر من ثقافتنا العامة حول الناس في البلاد
لابسهم وعاداتهم ، وكنت احب السينما اكثر من أي شيء
ن فأنا لااعرف اسماء الممثلين والممثلات الجدد ، ولايهمنى ان

ا الثلاثة الى الحى الصينى في لوس انجيليس ، واذا بنا في
ى الصين نفسها ، مخازن ودكاكين كثيرة ملونة بالالوان

صينية يديرها الصينون ، ويلبسون الملابس الصينية واكثرها من الساتان اللماع للنساء وعليها نقوش مختلفة . ان المنطقة الصينية كبيرة واكبر من منطقة (سوهو) الصينية في لندن . شعرت نفسى في وسط الصين ، وقد احببت هذا الشعور .

احببت في الصينين وجوهم المستديرة وشعرهم الاسود المسبل ، وعيونهم الصغيرة المائلة ، والهدوء الذى يسود الحى والناس ، والجو كله يوحى بالزينة والنظافة .

تناولنا طعام العشاء في مطعم صيني وكان لذيذاً جداً .

بعدها تجولنا في المخازن واشتريت يعض الثياب (البلوزات) الصينية من قماش الساتان وبعض الحلي البسيطة .

في صباح الغد ، كنت استعد للذهاب بالقطار بعد الظهر الى سان فرانسسكو . تبرعت الصديقة (بديعة) ان نذهب من بيتها معاً للغداء في مطعم قرب محطة الحديد ، وبعدها اسافر بالقطار الى سان فرانسسكو .

قبل الخروج من البيت حملت حقيبتي الصغيرة والكبيرة معاً ، مدت (بديعة) يدها لمساعدتى لحمل الحقائب الى السيارة . اعطيتها الحقيبة الصغيرة مجاملة ، وحملت انا الحقيبة الكبيرة ، وكانت سيارتها امام الشقة مباشرة . فتحت بديعة الصندوق الخلفى للسيارة بالمفتاح ووضعت الحقائب واغلقت الصندوق .

اتجهنا نحو المحطة وجلسنا في مطعم مكسيكى واكلنا هنيئاً . في باب المحطة فتحنا الصندوق لاخراج حقائبى فاذا بي ارى الحقيبة الكبيرة فقط . سالت بديعة عن الحقيبة الصغيرة فقالت :

ـ اية حقيبة؟

ذكرتها اننى اعطيتها الحقيبة الصغيرة ، ولكنها لم تضع الحقيبة في الصندوق ، وكدت افقد شعورى! . .

الحقيبة الصغيرة تحوى الباسبورت والنقود وجميع بطاقات السفر المدفوعة من الآن الى نهاية السفرة ، وكذلك فيها الرسائل والمكاتيب الى مختلف المستشفيات في سفرتي كلهاولا اتمكن بدونها ان اتحرك . لقد سلمتها لبديعة في باب الشقة لانها ارادت ان تساعدني في حمل الحقيبة من الباب الخارجي الى السيارة لمدة

خطوات قليلة فقط . والان هي لاتدرى ماذا حل بهذه الحقيبة .

قلت لها وانا اتكلم كمريضة على وشك الاغماء :

- لنعد الى شقتك وسوف اخبر الشرطة .

ولكن ماذا أقول للدائرة التى دعتنى الى هذا البلاد؟ ااقول لهم اننى اضعت الحقيبة وانا في الشهر الاول من السفرة؟

رجعنا الى البيت وانا لا ازال شبه مريضة! . .

نزلنا امام الشقة واذا بالحقيبة السويسرية الصغيرة لاتزال على درج البناية الخارجي في الشارع امام الشقة ولم تمتد يد الى اخذها! . . . لقد وضعتها بديعة على الدرج ونسيتها! . . وبعد مدة طالت اكثر من ساعة نعود ونجدها في مكانها! . . لم اصدق عيني! . .

لم اقل لبديعة أي شيء آخر . مادام الامر انتهى بدون ضرر مالفائدة من الكلام؟ يكفى اننى وجدت حقيبتى! . .

عادت الى ثقتى بنفسى واصبحت امرأة تملك جواز السفر وتملك مقداراً من النقود ، وتملك الرسائل والمكاتيب الضرورية . احسست باننى انسانة اخرى من جديدة! . . .

في صباح الغد ركبت القطار وتوجهت الى مدينة سان فرانسسيكو .

ذهبت الى مستشفى الجامعة في سان فرانسيسكو . طلب مني السكرتير ان اسكن مع الطبيبات اللواتى يشتغلن في المستشفى هناك ، لكنني طلبت ان اسكن في منطقة بعيدة في ناحية (بركلي) في (بيت الطلاب) (الانترناشينال هاوس) الكبير في الجامعة .

مدينة (بركلى) الجامعية على الشاطئ الآخر من الخليج امامنا معنى ذلك ان اذهب الى المستشفى يومياً في سان فرانسسكو واعود الى بركلي حيث اسكن . والسبب لهذه السفرات اليومية ، ان زوجى عاش في بيت (الطلاب) في بركلي في سنوات دراسته ، وله ارتباط عاطفى كبير بهذه المؤسسة ، وطلب مني ان اسكن هناك لكي اشاهد جمال المكان واحبه مثل ما شاهده هو واحبه في الماضى .

وافق السكرتير وقال ان الجامعة امامنا تماماً عبر الجسر . كان الجو جميلا

فقلت للسكرتير اننى افضل ان اعبر الجسر مشياً لكي اتمتع بمنظرالبحر .

ظننت ان الجسر طوله لايزيد عن طول الجسر على نهر دجلة ، وكنت احب المشي كثيراً .

اجابتى السكرتير ضاحكاً :

ـ ان طول الجسر حوالى ثمانية اميال على الخليج فقط ، والسيرعلى الجسر ممنوع في كل الاحوال! . . .

عبرت الجسر بالتاكسى فوق واحد من اكبر الجسور في العالم واسم الجسر (جسر الخليج او بي بردج) . كان الجسر عريض جداً ، يكفى ثلاث سيارات ذهاباً ومثلها اياباً ، ويمتد فوق جزيرة صغيرة اصطناعية بنيت من اجل اقامة اعمدة للجسر في وسط البحر . لم ار امامى سوى السماء الصافية فوقنا اثناء العبور ، وشعرت كما لو اننى اطير فوق هذا المضيق الساحر .

اخبرنى السائق ان اشاهد جزيرة اخرى بعيدة عن الجسر وهى جزيرة طبيعية اسمها (الكا تراز) فيها سجن من اشد السجون في البلد يسكن فيه اعتى المجرمين منهم (آل كابونى) المجرم الشهير الذى مات في ذلك السجن .

سجن (الكاتراز) كان يبدو بصخوره البيضاء وابنيته الغريبة وكأنه جزيرة طبيعية جميلة وليس سجناً مخيفاً! . . .

وصلنا الى نهاية الجسر وكانت بناية الجامعة تبعد حوالى الميل او اكثر عن الجسر .

ذهبت الى السكرتيرة واعطتنى غرفة في القسم النسائى للجامعة .

كانت الغرفة جميلة بين غرف كثيرة متشابهة ، وبين كل غرفتين حمام واحد لطالبتين فقط . كانت الحمامات بيضاء مريحة وشديدة النضافة .

في بيت الطلاب تعرفت على احدى الطالبات في كلية الطب تشتغل في مستشفى سان فرانسيسكو صباحاً وتعود مساء الى بيت الطلاب في جامعة بركلى .

وعندما علمت بدهابي الى مستشفى سان فرانسيسكو في صباح كل يوم والعودة الى دار الطلاب مساء تبرعت ان اذهب معها الى المستشفى ثم نعود مساء

الى بركلى كل يوم دون ان اطلب منها ذلك .

كانت الفتاة جميلة وانيقة وتبدو من تصرفاتها انها تنتمى الى طبقة مثقفة وغنية من الناس . اخبرتها اننى من العراق . واذا بها تخبرنى انها من اصل يهودى من روسيا .

تعجبت الآن من مساعدتها لي وهى تعرف من أي بلاد انتمى . .

تعجبت كذلك من جمالها البارع ولم اكن ادرى ان لليهود هذا الجمال الغربى الاشقر والانف الصغير والعيون الزرقاء وكأنها من اسكندنافيا .

اصبحت اذهب معها كل يوم ، ورفضت ان اشاركها مصروف البنزين بقولها انها تصرفه كل يوم سواء كانت بمفردها ام معى! . .

في المستشفى ، داومت بقسم (الامراض الباطنية) مع الاستاذ وجماعته من الاطباء الشباب ، طلب مني ان اقوم بفحص عدد معين من المرضى واكون مسؤلة الى ارسالهم الى الاشعة اذا كان ذلك ضرورياً واراقب فحوص المختبر وغيرها . رأيت من الجميع المساعدة والصداقة .

شاهدت بعض الاشياء التي تعجبت منها وتدل على بساطة الامريكان الغريبة . كنت اشتغل مع دكتورة الباثولوجي بسبب مريض كنت اعالجه في الردهة . كانت الدكتورة في نهاية الاربعينات من العمر ، طويلة القامة ومملوءة القوام . كنت انظر اليها كما كنت انظر للاساتذة في المستشفى .

اخبرتها اننى اشتغل مع الاستاذ (فلان) استاذ الطب الباطنى منذ ايام . واذا بها تطلب مني ان نذهب معاً الى قاعة الطعام للغداء فقبلت شاكرة .

اثناء الطعام ، اخبرتنى ان الاستاذ هذا هو زوجها وانهما منفصلان عن بعضهما ، وطلبت مني ان اتكلم معه بشأن القضية وانها ، أي زوجته ترغب في الصلح معه والسكن واياه! . .

لم ادر ماذا اقول وانا طبيبة شابة غريبة ، قادمة من اقصى العالم لفترة قصيرة ، كيف اجرأ ان افتح الموضوع مع الاستاذ وهو يعاملنى كما لو كنت تلميذته؟ .

لاادرى ماذا قلت لها ، سوى اننى بدأت اتحاشى الذهاب الى مختبرها الا وانا مع جمع من الاطباء . وهكذا تخلصت من الاندماج بقصة غريبة بين اساتذة كبار

اكاد لااعرف عنهم شيئاً .

اتصلت بصديقتى القديمة (امت الزهاوى) وكانت تزور سان فرانسيسكو ، واتفقنا على امسية للعشاء في المدينة ، ووعدت انها ستوصلنى الى محلى في (بركلي) بعد العشاء .

تركت البناية في بركلى وعبرت الجسر الطويل مع جماعة من الطلاب وطالبات من بركلى دون ان اعرفهم من قبل وكلهم يعبر الجسر للذهاب الى سان فرانسيسكو .

المدينة (سان فرانسيسكو) مبنية على تلال سبعة ،وتبدو جميلة جداً في هذا الجو الصيفى حيث تبقى السماء صاحية الى ساعات طويلة في المساء وكان وقتنا في الساعة الخامسة مساء . رأيت الترام الارضى القديم يصعد ويهبط في شوارع هذه المدينة والكل يفخر بهذا الترام العتيق ، ولا يرغبون تبديله يل انه اصبح جزئاً من تاريخ هذه المدينة نراه كلما نشاهد سان فرانسسكو في السينما او التلفزيون .

رأيت الصديقة القديمة (امت) ومعها رجل طبيب قدمته بأسم (جون) وقالت انه زوجها التى تزوجته بعد ان اعلن اسلامه . وكان معها أيضاً اخيها (وسيم) وهوشاب دون العشرين من العمر ، يدرس في جامعة (بركلى) وكنت اعرفه منذ طفولته في بغداد .

كانت (امت) كما هي في بغداد بسيطة في ملابسها ولم ارها تلبس الحلي ، او تستعمل تواليت الوجه . وكان زوجها رجلا مهيباً في طلعته ، اشقر اللون يميل شعره الى الصلع . اما (وسيم) فقد كان نفس الصبى الاسمر النحيف ذو الشعر الاسود المجعد ، قليل الكلام ، مؤدباً وودوداً .

المطعم كان من اجمل مارأيت وكأننا في منطقة استوائية تشبه جزر (هوائي) . في وسط المطعم ، حوض كبير جداً من الماء ، يسير به قارب فيه مغنين من جزيرة (هوائى) يرتدون ملابسهم المحلية ، والقارب يسير في بطآ على الحوض الكبيرة ثم يعود . وتتبدل الالحان من واحدة الى اخرى بصورة شجية .

جدران المطعم مغطاة باشجار زاهية وورود خلابة ، وفى سواقى الحوض تماسيح صغيرة حية تسبح في الماء . كانت اجواء المطعم تتغير بالتدريج ، طيلة الوقت .

بدأنا بسماء صافية وشمس مشرقة واشجار فيها الببغاوات الملونة والطيور الصغيرة وهذه الطيور حية كلها ،ثم تحولت هذه الاجواء بالتدريج الى سماء غائمة وبرق ورعود وبهطول المطر الشديد على الحوض ، ثم يتغير الجو مرة اخرى وترجع السماء الى صحوها البديع . واثناء ذلك تتغير الموسيقى من انغام جزيرة (هوائيى) وموسيقى قيثارها اللطيف ، الى اصوات الرعد واضواء البرق وهطول الامطار الشديدة والخفيفة ومختلف من الالحان والانغام الاخرى . سمعنا اغان جميلة كنا نسمعها معاً في بغداد مما اثار (امت) وذكرياتها عن بغداد وعن الماضى .

بدأنا الكلام مع امت وكأننا لم نفترق الا بالامس . سألنى زوج (امت) عن اسرائيل وعن ما يدور في البلاد العربية ، وكان يبدو مهتماً بالموضوع .

في النهاية ، اوصلونى الى محلى في (بركلى) .

لم ار (امت) الا بعد سنوات طويلة في بغداد .

وصلت الي الدعوة التى سمعت عنها في واشنطن قبل شهر . انها تدشين لسد في نهر (سان واكيم ريفر) في ولاية كاليفورنيا ، وسوف نرى السد ، ونمر في وادى (يوسيمتى) الجميل الذى يقصده الناس من داخل وخارج البلاد ونبيت ليلة في الوادى المشهور . والدعوة كانت موجهة من قبل وزير الداخلية في واشنطن الذى سيحضر بنفسه لافتتاح المشروع .

رأيت حوالى الخمسون او اكثر من الضيوف من النساء والرجال في الفندق الكبير حيث اجتمعنا في سان فرانسسكو ، وكان الضيوف من الايطاليون والبلجيكيون والهولانديون ومن الهند وباكستان وجزيرة سيلان وعدد من زنوج افريقيا ولكن الاكثرية كانت من اليابانيون نساء ورجال . اندهشت من صغر اجسام اليابانيون يسيرون بيننا وكأنهم اطفال صغار . لقد كنت انا الوحيدة من البلاد العربية كلها! . .

رأيت اثنين من الاطباء الانكليز المدعوين الذين قابلتهم في مستشفى (هامرسمث) في لندن قبل ثلاث سنوات . سلمنا على بعضنا وشاهدت من ملابسهم القديمة توحى بأنهم لايزالون يعيشون تحت نظام بطاقات ايام الحرب . . . لم اكن اعلم بأن احد هؤلاء الاطباء الاثنين سيكون له شأن كبير بعد سنتين فقط

من الآن ، عندما تسلق قمة إفرست لاول مرة في التاريخ ، مع المتسلق الجبلى المشهور (هيلارى) . وقد شاهدت صورهم في الافلام السينمائية في بغداد .

في صباح اليوم التالي ركبنا الباص الكبير الفخم ومعنا وزيرالداخلية ، وانطلقنا جنوباً . شاهدنا منطقة زراعية حافلة باشجار العنب . ورأيت ارائك العنب صغيرة جداً بالنسبة لما اعرفه عنها في شمال العراق . تذكرت اشجار عنب بساتين (تازة خرماتو) الكبيرة في كركوك ، وكذلك اريكتنا العالية في بيتنا القديم والقمرية الكبيرة الخضراء اللون التى كانت تحملها ، والعناقيد البيضاء المتدلية منها .

اشجار العنب هنا شجيرات صغيرة جداً لايزيد طولها عن القدمين واوراقها قليلة ولكنها تحمل عناقيد عديدة وكبيرة في الشجرة ، وكل شجرة فيها عمود صغير يسندها لتبقى واقفة . شاهدت في المماشى وبين الاشجار مدفئات كهربائية بين مدفئة والاخرى مسافة معينة منظمة ، ويبلغ عدد هذه المدفئات الكثير . انها تدفئ الجو للاشجار في الشتاء عندما يبرد الجو! . .

سرنا في منطقة جبلية فيها صخور عالية جداً رمادية اللون ، ومنها صخرة هائلة على اليمين من الطريق قال الوزير انها صخرة اسمها (الكابيتان) وهى تعتبر اكبر صخرة في العالم ، حجمها اربعة آلاف قدم . . .

دخلنا في منطقة كبيرة بها اشجار لم نر مثل طولها او كبر جذوعها من قبل! . .

انها اشجار (الريد وود او الاشجار الحمراء الجبارة) واسمها عند الهنود الحمر (سيكويا) . تنمو الشجرة الى ارتفاع هائل يصل الى ثلاث مئة قدم .

رأيت في احدى الاشجار الكبيرة شق كبير وعريض داخل جذعها الداخلى بدرجة ان السيارة تدخل في الجذع بسهولة وتنفذ منه الى الجهة الاخرى ، والشجرة تنمو حية خضراء! . .

(كان لزوجى صورة مع سيارته في داخل جذع هذه الشجرة اخذت سنة ١٩٣٩) .

طلب الوزير من المصور ان يصور كل جماعة لوحدها للذكرى ، فصور اليابانيون على حدة ثم الهنود والباكستان ثم زنوج افريقيا . لم ادر اين اصور نفسى

وانا من (آسيا) ، ولكني لااشبه اليابانيون ولا الهنود ولا الزنوج ، كنت الوحيدة من البلاد العربية . طلب الوزير مني وهو يبتسم ، ان اتصور مع المجموعة الاوربية بسبب ملابسى الغربية والوانى المتوسطية .

وصلنا وادي (يوسميتي) ونزلنا في فندق كبير اسمه (أهوانى) في قلب وادى يوسميتى . كان الفندق الكبير وادواره الخمسة كلها من خشب الريدوود أي من (السيكويا) فقط! . . اخذت المفتاح الى غرفتى وكانت في الدور الخامس . كان المصعد من جذوع خشب الاشجار الكبيرة الحمراء . ارضية الممر مرصوفة من هذه الجذوع بصورة متقنة بحيث نمشى على الممر بكمال الاتزان ، والغرفة وجدرانها وسقوفها كانت من جذوع هذه الاشجار الضخمة ، وكل جذع في الجدران ، يبدأ من اسفل الفندق الى السطح الاعلى بجذع واحد فقط ، ولم يستعملوا أي مادة لبناء هذا الفندق الضخم غير جذوع الاشجار هذه . حتى اطارات النوافذ والمرايا والصور في الفندق هي من هذه الجذوع الكبيرة .

في تلك الامسية اقيمت حفلة عشاء كبيرة من قبل وزير الداخلية في القاعة الكبرى . رحب بنا الوزير قبل الطعام بكلمة لطيفة . وكانت حفلة العشاء رسمية ولكنها لطيفة جداً .

انتقلنا بعد العشاء الى شرفة كبرى تحيط بقاعة الطعام ، ونحن ننتظر مشاهدة شيء غريب في منتصف الليل لاندري ما هو . رأينا على الجهة المعاكسة امامنا ، صخور هائلة ترتفع امام الوادى والفندق مئات من الاقدام ، والفندق في اسفل الوادي .

في منتصف الليل ظهر ما يشبه شلال من النار المشتعلة من على رأس الجبال المعاكسة امامنا ويهبط الى اسفل الوادى كشلال من اللهيب . . . كان المنظر اخاذاً سحرياً يشبه حلم ملون من احلام عالم العجائب والسينما .

استمر المشهد لمدة تزيد عن نصف ساعة ثم اخذت النار والجمر تقل شيئاً فشيئاً الى ان انقطعت تماماً .

في الصباح وبعد الفطور في غرفتى ، نزلت الى الطابق الارضى وخرجت الى الحديقة التى تحيط هذه البقعة الجبلية البهية .

شاهدت في الحديقة حنفيات ماء كثيرة لا ادرى ما عددها منتشرة على ارض العشب الاخضر الكبير ، وكلها تنثر الماء في الحديقة الزمردية باقواس مائية ترتفع الى اعلى ثم تنزل ، والشمس تسطع فوق كل هذه الاقواس المنثورة بحيث اصبح لكل منها قوس قزح صغير يحيط بها وكنت اقف بين هذه الاقواس القزحية حولي وانا ذاهلة! . .

سائلت نفسى : ماذا؟ اانا بين هذه (الاقواس القزحية) الارضية الكثيرة ، والورود الجميلة من الزنبق الى الجيرانيم الى القرنفل والكثير غيرهم حولي وفوق رأسى هذه الاشجار الجبارة العالية السيكويا . التى تعمر لعدة قرون .

اين انا من صحراء بلادى؟

اين انا من صديقتى (لبيبة النائب) التى ماتت ظمأ في الصحراء بين بغداد والفلوجة وهى ابنة ثمانية عشر عام؟

لماذا تداهمنى اخبار بغداد في مخيلتى اينما اذهب! . . .

(يوتا) ولاية المورمون

وصل القطار من سان فرانسسكو الى ولاية (يوتا) مدينة المورمون .

كنت ارغب رؤية هذه البلاد منذ ان قرأت عنهم منذ سنوات عديدة وعن دينهم . المورمون ديانة مسيحية اسسها (نبي) يسمى (جوزيف سمث) ، الذى ولد في ولاية (فيرمونت) على الساحل الشرقى من الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٨٢٧ اتاه الوحى بأنه اتى نبياً بعد المسيح ، وانه قد عثر على اوراق الانجيل الاصلية في القرن التاسع عشر وفى امريكا! . . .

كتب كتابه المقدس في سنة ١٨٣٠ وأمن البعض بهذا الدين والتفوا حول (جوزيف سمث) كنبياً لهم .

عانى المورمون من االاضطهاد الشئ الكثير ، وسجن (جوزيف سمث) ، ثم قتل في معركة مع الغوغاء في سنة ١٨٤٤ .

وقد تزعم المورمون من بعده حواريهم الكبير (بريكام يونك) .

اضطر المورمون في سنة ١٨٧٤ الى الهجرة سراً من بلادهم في بنسلفانيا

بسبب اضطهاد الناس لهم بسبب ممارسة تعدد الزوجات الممنوعة في المحكمة العليا الامريكية . وقد قطعوا اكثر من الفين ميل غرباً ، بالعربات والخيول ولاقوا الصعوبات العظيمة ليصلوا الى ارض بعيدة صحراوية لايضطهدهم فيها احد حتى وصلوا الى أراضي نائية هي (منطقة البحيرة المالحة الكبرى) تبعد عن الساحل الشرقى اكثر من الفى ميل .

عند ذلك وقف بريكام يونك وقال كلمته الشهيرة :

ـ هذا هو المكان ! . . .

ترجلت الجماعه كلها ، لتسكن قرب البحيرة المالحة ، وسمى المكان (خلية النحل) حسب تعاليم المورمون .

تزوج (بريكام يونك) سبعة عشر امرأة! . .

عمر المورمون المنطقة وزرعت الأراضي الخالية واصبحت حقول واسعة مثمرة .

ولما استولت الدولة على الأراضي اسمت المقاطعة (يوتا) وهو الاسم الذي اطلقه الهنود الحمر على المنطقة من قبل .

طلب المورمون من الحكومة منح ارضهم لقب (ولاية) لتكون كالولايات الاخرى ، ولكن الحكومة رفضت طلبهم ستة مرات متتالية بسبب المحكمة العليا الامريكية .

الى ان جاء يوم ، رأى احد المورمون الكبار رؤية بأن (الرب) طلب منه ان يستجيب المورمون الى الحكومة ويبطلوا تعدد الزوجات! . . .

كان ذلك في سنة ١٨٩٠ واصبحت (يوتا) ولاية اخرى في الولايات التحدة في ١٨٩٦ وكانت الولاية الخامسة والاربعين ، ولقب الولاية (بي هايف) أي (خلية النحل) .

توافد اناس آخرين من غير المورمون للعمل والمعيشة في (يوتا) بعد ان اكتشف فيها النحاس بكميات كبيرة ، وبعدها النفط ، قرب نهر (العذراء) ، ولكن القسم الاكبر من الناس فيها هم من المورمون .

وصلت الى العاصمة اي (مدينة البحيرة المالحة او سولت ليك سيتى) بشغف شديد وتوقع كبير! . . لكنها بدت امامى من محطة القطار كمدينة تعيش

في وسط الصحراء ، وتحيطها جبال جرداء تشبه جبال حمرين القاحلة في العراق ، ولكنها اعلى بكثير من جبال حمرين .

سائلت نفسي بشدة :

- هل سأعيش اسبوعاً في الصحراء مع المورمون وزوجاتهم ، في جبال جرداء قاحلة مثل جبال حمرين؟ . .

ولكني ما ان شاهدت داخل مدينة (سولتليك سيتي) وانا في طريقي الى (مستشفى الجامعة) ، حتى بدت المدينة لي بحق ، من اجمل المدن في الولايات المتحدة ، بشوارعها المضللة بالاشجار وحدائقها الغناء الكبيرة والبيوت الجميلة والابنية العالية الرائعة وهندستها الفخمة كلها تدل على مستوى راق جداً في البناء والمعيشة .

كانت المدينة من انظف ما رأيت من المدن الامريكية .

في المستشفى ، تعرفت على الدكتورة التي ستساعدني لمعرفة المستشفى وقاعات المحاضرات والمختبرات ، وكانت هي من المورمون ، وكانت اطباعها مثال اللطف والمودة الامريكية التي رأيتها طيلة المدة .

المورموني يهتم بشدة بعائلته واولاده ، وجميعهم يدين بطاعة رجال الكنيسة بشكل تام . ويمنع مذهب المورمون عادات التدخين وشرب الكحول وشرب الشاي والقهوة . والكنيسة محافظة تجاه المرأة ولا تسمح للنساء باتخاذ مراكز قيادية فيها! . . .

في داخل الكنيسة يمنع النساء من لبس الملابس القصيرة ، كما يمنع الرجال من تربية اللحى .

والكنيسة لا تسمح للزنوج بالاشتراك فيها ، وللسود كنائسهم الخاصة بهم فقط .

طلبت من الدكتورة يوماً ان تساعدني على رؤية المدينة ، واستجابت لي بسرور .

في السيارة ، سألتها عن تعدد الزوجات في الوقت الحاضر ، إذ يبدو انهم يكتمون ذلك الموضوع الحساس . اخبرت صاحبتي انني من البلاد الاسلامية ،

وتعدد الزوجات موجود لدينا فلابأس ان اسمع عن عادات المورمون .

اخبرتنى ان التعدد ممنوع منذ ان اصبحت (يوتا) احدى الولايات الامريكية ، والرجل يتزوج زوجة واحدة فقط ، ولكن بعض الرجال ممن يعتقد بالتعدد يتزوج سراً اذا وافقت الزوجة الاولى وكتمت الامر ، ولكن ذلك قليل جداً ، لان الزوجة على الاكثر ، لا توافق على البقاء مع رجل له امرأة اخرى . .والعقوبة هي الحبس لمن يتزوج امرأة ثانية . . .

المورمون يبشرون بدينهم للآخرين ، ويسافرون الى البلاد البعيدة لهذا الغرض . وتسمى المرأة التى تسافر للتبشير (الاخت) والرجل يسمى (الاخ الاكبر) ، والتبشبر يستمر لمدة ثمانية عشر شهراً .

سألت من صاحبتي زيارة المعبد الكبير الذى يسمى (التابرناكل) أي الهيكل .

ذهبنا الى (ساحة الهيكل) التى يسورها جدار عال ابيض اللون ، ارتفاعه خمسة عشر قدماً ودخلنا بناية كبيرة شامخة مبنية من الحجر هي معبد (التابرناكل) .

في داخل التابرناكل كانت جماعة من السواح يتفرجون على البناء ومعهم دليل يشرح بعض التاريخ المورمونى .

اراد الدليل ان نشاهد هندسة المعبد وبنائه المحكم . طلب منا ان نسكت تماماً ثم رمى بدبوس صغير على الارض . سمع الجميع سقوط الدبوس الصغير في هذه البناية الهائلة وهو يسقط على الارض! . .

بعد المعبد ، ذهبنا لرؤية تمثالاً كبيراً (لبريكام يونك) الذى قادهم الى هذه البلاد ، بعد سفرهم السرى الطويل الخطير من الساحل الشرقى .

شاهدت التمثال الكبير (لبريكام يونك) قرب البحيرة رافعاً ذراعه عالياً وتحت التمثال جملة مكتوبة :

- هذا هو المحل! . .

كان الجو حاراً جافاً ، اصرت صاحبتى ان نذهب الى البحيرة للسباحة . وكانت تقول وهى تضحك :

- اننا لن نغرق حتى اذا لم نحرك ايدينا ، لارتفاع نسبة الملح في الماء .

دخلنا البحيرة وكان الماء لطيفاً دافئاً يغرى بالسباحة .

هذه البحيرة هي من اشد البحيرات ملوحة في العالم بعد (البحر الميت) في فلسطين! . . .

التقيت في المستشفى بطبيب من العراق اسمه (عبد العزيز الاسدى) ، وهو شاب في العشرينيات من العمر . انه الشخص العراقى الثانى الذى شاهدت منذ ان تركت مدينة واشنطن .

وكان العراقى الاول الذى رأيت لمدة دقائق قليلة الدكتور (هشيار شمدين) رأيته في سان فرانسيسكو ، وهو من العراقيين الاكراد في شمال الموصل ووالده (شمدين اغا) عضو في مجلس الاعيان . لم يرجع الدكتور هشيار الى العراق ثانية . اما عبد العزيز الاسدى فقد عاد الى بغداد بعد سنوات واشتغل معنا في كلية الطب في فرع (مفردات الطب) .

وصلتني دعوة للاشترك في عشاء للاطباء والطبيبات والممرضات في البرية أي (بيكنك) ، بين الجبال التى تحيط المدينة ويسمونها مضائق او خوانق (كانيون) . سألت عن السبب للذهاب الى هذه الجبال القاحلة ، قالت صاحبتى سوف ترين في تلك الجبال الجرداء محلات جميلة .

ذهبنا من الساعة الرابعة بعد الظهر والشمس عالية في السماء والجو لايزال حاراً . انهم يتعشون فيالساعة الخامسة كما ذكرت قبلاً .

كان عدد الاشخاص يزيد عن مئة شخص .

ذهبنا بالسيارات الى الجبال ونزلنا في بقعة مخفية بين الجبال ، وهى واحدة من (الكانيون) ، او الخانق . رأيت المحل تحت الجبال القفراء مملوء بالاشجار الباسقة وانهار صغيرة جارية ، والارض نظيفة معتنى بها . رأيت تحت الاشجار جذوع من الشجر مقصوصة لاستعمالها كمقاعد وموائد للاكل .

كان الجميع يعرفون محلات الجلوس واماكن شواء اللحم والمآكل التى سوف تطبخ وغيرها . ان هذه الاماكن الجميلة المخفية تحت الجبال تبدو وكأنها جزء من بيوتهم .

في المساء اسبغ البدر الكامل ضوئه الفضي الساحر على الوادى ، وبدأ النسيم يهب عليلاً ندياً كأنه الضيف العزيز بعد حر النهار .

اخذ الجيع يغنى الاغانى الوطنية والشعبية واغانى الزنوج الطروبة والمحزنة والكل مجمعون بأن بلادهم هي خير بلاد في الدنيا! . .

انهم فرحون ببلادهم ورقيها ، ونحن لا نجد ان نفرح الا بماضينا السحيق في القدم!

تذكرت قول الشاعر معروف الرصافى :

وهل ان كان حاضرنا شقياً   نسود بكون ماضينا سعيدا؟

تركت (يوتا) الولاية اليقظة النشيطة التي تملئها آمال الماضى ونجاحه الدؤب الممتزج باحلام مستقبل زاهر يبدو في جميع اعمال وانشطة المورمون واناشيدهم بعد ان استودعت من جماعتي الصغيرة الوداع .

شاهدت الى الآن ثلاث جامعات ، جامعة (للزنوج) في واشنطن ، وجامعة من بلاد (الجنوب) في كارولينا الشمالية ، والآن اودع جامعة (سولت ليك ستى) في بلاد المورمون .

الطريق الى الساحل الشرقى

القطار الامريكى من افخم القطارات في العالم في السرعة والراحة والاكل اللذيذ . العمال في القطار واكثرهم من الزنوج ، يحضرون رأساً عندما نضرب لهم الجرس . لقد اعطيت لي بطاقات السفر بالقطار في واشنطن ، من درجة (بوث) وهو المقعد الكبير في النهار والذي يصبح فراشاً للنوم في الليل ويقوم العامل بانزال الستائر الخاصة حول المسافر للنوم براحة وامان .

اضفت انا على المبلغ وابدلت (البوث) الى غرفة (المقصورة) واسمها(كومبارتمنت) وهى غرفة صغيرة لي فقط ، للجلوس بالنهار ثم تفتح ليلاً ليصبح المقعد فراشاً وثيراً والباب يقفل بالمفتاح من الداخل .

وقد استعملت (الكمبارتمنت) في القطار طيلة اوقات السفر لعدة شهور الى ان وصلت نيويورك في ايلول في النهاية .

كنت الآن متجهة الى ولاية (مينوسوتا) لزيارة المستشفى الكبير هناك لمدة ثلاثة ايام .

شاهدت الحقول والأراضي الشاسعة وكأنها بحار خضراء رائعة تتموج مع النسيم ، انها مزارع للقمح والذرة وتمتد لمئات ومئات من الاميال ، ويصعب وصف سعة هذه الأراضي الزراعية المترامية اذ انها تحتاج الى مشاهدتها بالعين لكي تصدق .

بدت لي هذه الأراضي الشاسعة وكأنها لاتنتهى .

كنت اتناول الطعام في القطار في المطعم الواسع ، وكان الاكل فاخراً جداً مثل المطاعم المشهورة في المدن الكبيرة وبنفس الاسعار .

مر القطار بأراضي ولاية (كانساس) ثم ولاية (نبراسكا) .

في ولاية (كانساس) ولدت (اميليا ايرهارت) الطيارة الامريكية الشهيرة التى حاولت الطيران حول العالم ثم اختفت وطيارتها في موقع لايزال مجهولاً الى الآن وكان ذلك في سنة ١٩٣٧ .

في ولاية (نبراسكا) ظهرت الاغنية الامريكية الشعبية الجميلة :

- بيتنا ، في المراعى! . . (هوم اون ذى رانج) .

هذا النشيد ينشده جميع الامريكان من رئيس الجمهورية الى اطفال المدارس ، والكل يجد النشيد وكأنه يغنى بيته السعيد! . . .وقد تعلمت هذا النشيد من ايام الدراسة في الثانوية في بغداد .

كان القطار يقف في المحطات الكبيرة في الطريق لفترات قصيرة . شاهدت جماعة كبيرة من الجنود يركبون قطارنا في محطة ولاية (نبراسكا) .

اثناء فترة العشاء في المطعم ، في الساعة الخامسة مساء والشمس عالية في السماء . رأيت المطعم حافلاً بجنود شباب لاتتجاوز اعمارهم العشرين سنة او دونها . جلست على مائدة ومعى امرأة ورجل في منتصف العمر ، وكنا نحن الثلاثة فقط في ملابس مدنية .

اما الموائد الاخرى فقد ملئها الجنود الشباب كل اربعة على مائدة . كان الجنود يبتسمون ويضحكون وكأنهم ذاهبون اليحفلة . سأل الرجل احد الجنود الى محل

سـفـرهـم ، واذا بهم جنود ذاهبـون الى (كـوريا) الجنوبيـة للحـرب ضـد (كـوريا) الشمـالية الشيوعية . اعجبت بأنتظامهم ومرحهم وكأنهم ذاهبون الى سفرة في داخل بلادهم! . . .

سألنى الرجل الذى كان يجلس على نفس المائدة عن بلادى ، وهل اشتركت بهذه الحرب مثل دول اوروبا الغربيـة كلها وتركيا . ذكـرت له ان البـلاد العـربيـة امتنعت من الاشتراك في هذه الحرب لان الولايات المتحدة واوروبا الغربية صوتت بجانب اسرائيل في الامم المتحدة دون ان تعبأ باصوات البلاد العربية .

نظر الى الرجل الكبير وقال :

ـ انظرى كيف يطيع الشباب عندنا امر الحكومة ويلبسـون ملابس القتال وهم يضحكون! . . .الا يدهشك ذلك . . . . هذه هي امريكا! . .

ثم نادى على المشرف في المطعم وطلب منه ان يسقى كل الاولاد ويقصد الجنود كأساً من البيرة . وكان عددهم لايقل عن اربعين شخصاً! . .

كـان ذلك الرجل احـد اصحـاب الملايين في ولاية (نبراسكا) وقـد اعـجب بالجنود الشباب ونظامهم وسقاهم البيرة على حسابه .

شكره الجنود وصفقوا له وغنوا له اغنية : (هي از اجولى كود فيلو) أي (شكراً للشخص الكريم! . .) وكأنه كان والدهم او مديرهم في المدرسة! . .

قضيت يومين في القطار لكي اصل الى بلدة صغيرة في ولاية (ميناسوتا) وهى مدينة (روشستر) لرؤية (مايو كلينيك) الشهير . مينوسوتا هي ولاية (الالف وخمسمائة بحيرة) وكنية الولاية هي ولاية (النجم القطبى) .

الولاية تحوى الكثير من الناس من اصول اسكندنافية . ويبدو ان الاصل الاسكندنافى محـتـرم جـداً في الولايات المتـحـدة مـثل الاصل الانكليـزى والاسكوتلاندى . ويأتى بعدهم الشعوب الاوروبية الغربية مثل الالمان والفرنسيين والهولانديين ثم الاوروبيين الاخرين ، واخيراً تأتى الشعوب الشرقية! . . .

ذهبت الى (مايو كلينيك) الذائع الشهرة والذى يذهب اليه الاطباء والمرضى من جميع الولايات المتحدة ومن العالم كله . كـانت زيارتى لاتستغرق اكثر من ثلاثة ايام فقط لرؤية المستشفى .

في اليوم الاول تلاقيت بمحض الصدفة بالدكتور (طالب الاسترابادى) وكنت اعرفه منذ ايام الدراسة في الكلية الطبية وتخرج بعدى بسنتين مع اختى (لمعان). الدكتور(طالب) كان ينظم الشعر في المناسبات في ايام الكلية، وكان يحفظ اشعار كثيرة لشعراء معروفين، وهو الآن يشتغل في شعبة الطب الباطنى في مايو كليتيك. ساعدنى الدكتور (طالب) في مشاهدة المعهد المشهور وزرت المختبرات ودار الاشعة وحضرت محاضرات في التشخيص السريرى. وبعدها شاهدت فيلماً عن تاريخ المعهد وكيف اسسه اخوان شقيقان. كما شاهدت اشياء اخرى قديمة محفوظة في متحف هذا المعهد الطبى الشهير.

(الدكتور طالب الاسترابادى عاد الى بغداد واشتغل في فرع الفسيولوجى في كلية الطب في بغداد).

غادرت (روشستر) ووصلت بالقطار الى مدينة (ماديسون) عاصمة ولاية (ويسكونسن)، لزيارة طبيبة نرويجية شابة تعرفت عليها في سان فراتسيسكو وهى تعلم اننى ذاهبة الى (مايو كلينيك) ومن ثم الى (شيكاغو)، وذكرت ان مدينة (ماديسون) هي على الطريق وطلبت مني ان ازورها لكي ترينى البلدة. كان والد هذه الطبيبة صيدلى في مادبسون، وامها مدرسة.

(ويسكونسن) لها كنيتها كالعادة، ولاية (البادجرز) او حيوان (الغرير) وهو حيوان لبوني صغير ذو فروة ويعيش تحت الارض، واهل البلد كان فيهم الكثير من (المعدنين) الذين كانوا يشتغلون تحت الارض، تركوا ولاياتهم واتوا الى هنا بسبب رخص الأراضي. وسموا الولاية ولاية (الغرير)، وقد وجدوا في هذه الارض المزارع الصالحة والغابات الكثيفة والكثير من البحيرات المتجاورة.

والعاصمة هي (ماديسون) وتقع بين بحيرتين جميلتين هما (بحيرة مانونا وبحيرة ماندوتا). وفيها كذلك نهرين كبيرين يالاضافة الى نهر الميسسبى الكبير.

اخبرتنى عذه الصديقة بأن عدد الالمان كبير جداً مثل الاسكندنافيين. وانهم ادخلوا صناعة البيرة الالمانية التى اصبحت البيرة المفضلة في البلاد، ومدينة (ميلواكي) اشتهرت بالبيرة (شلتز)، حيث نرى الاعلانات عنها في الجرائد وعلى الجدران:

- شلتز! . . البيرة التى جعلت ميلواكى مشهورة! . .

شاهدنا ابنية بناها المهندس العالمى المشهور (فرانك لويد رايت) وهو من مدينة (ماديسون) . ورأينا بناية الكابيتول المحلى الجميل .

الولاية مشهورة بالحليب والاجبان والزبدة ، كذلك بصنع الورق وصنع الاجهزة الميكانيكية بالاضافة الى البيرة الالمانية (شلتز) .

عند المساء تناولنا العشاء في مطعم جميل من الخشب يشبه بناء سكندنافي ، وتناولنا قطع من لحم الاستيك المشوى وكانت القطع كبيرة بشكل لم اتمكن ان آكل نصفها . وكنت في ذلك الوقت املك شهية كبيرة! . . .

اخبرتنى صديقتى النرويجية ، وهى تضحك ، ان الشعب النرويجى يتميز عن شعوب اسكندنافيا الاخرى كالسويد والدنمرك ، بكونه يعتقد انه احسن وانبل من الجميع! . . ضحكت من قولها وذكرت لها اننا نرى ان اهل العراق هم اقدم شعب ، بدأ حياته المدنية في هذا الكوكب الارضي منذ عهد (السومريين) القدماء والى هذا الزمن! . ولم تكن صاحبتى تعلم عن ذلك شيئاً! . . .

ذكرت لها الكثير من الاناشيد المدرسية عن بلاد الرافدين (العراق) منها :

بلاد العراق ميدي فخاراً على الوجود
فقد كنت مهد آدم وفردوسه المتمم

واخبرتها اننا نفتخر بكوننا اول شعب منذ بداية التاريخ اسس الاستقرار في القرى والمدن ، وتعلم الكتابة قبل الفراعنة وقبل الصين .

ولكن اعود في نفسي الى شعر معروف الرصافى :

وهل ان كان حاضرنا شقياً نسود بكون ماضينا سعيدا؟

شيكاغو

كان الجميع يذكرون مدينة (سان فرانسسكو) وكأنها اجمل ما خلق الله من المدن ومن جملتهم زوجى! . . . انها ميناء بحرى جميل دون شك .

اما عن مدينة (شيكاغو) وهى اكبر مدينة في ولاية (الينوى) فلم اسمع عنها شيئاً لطيفاً ابداً . وكنت اتوقع ان ارى مدينة كبيرة صاخبة ومزدحمة ، حسب

معلوماتى عنها من الكتب والمجلات . كنت اعلم ان شيكاغو مشهورة في جامعتها ، وعلى درجة عالية في العلوم المختلفة مثل الهندسة المعمارية والعلوم الطبية وفى الادب خاصة الشعر ، وعلم الاجتماع .

ان ولاية (الينوى) صبحت ولاية فيسنة ١٨١٨ وعاصمتها مدينة (سبرينكفيلد) ، اما كنية الولاية فهى (بلد لنكولن) بأسم (ابراهام لنكولن) الرئيس اثناء الحرب الاهلية ، وقد قدمت (الينوى) الكثير من التضحيات في هذه الحرب من اجل وحدة البلاد ، ومن اجل تحرير العبيد في الولايات الجنوبية .

وقد ارغمت الحكومة الهنود الحمر سكان المنطقة الاصليين على الانتقال من منطقة (الينوى) الى مناطق في غرب نهر الميسسيبى .

ازدهرت الولاية واصبحت صناعية تنتج الفولاذ ، والمكائن الزراعية والسيارات وتصدر واللحوم والمشروبات الروحية .

مدينة (شيكاغو) مبنية على بحيرة (مشيغان) الكبيرة . واسم شيكاغو في لغة الهنود الحمر يعنى (بلد الاكتاف العريضة) .

شيكاغو من اكبر المدن التى رايتها في امريكا ، وهى مدينة تجارية كبرى وتقع على البحيرة الكبيرة (مشيغان) التى تشبه البحر لسعتها ، وهى من اجمل البحيرات ، وبواسطة البحيرة والا نهر والقنوات اصبحت شيكاغو متصلة بحراً بمدينة نيويورك والى البحرالكاريبى في الجنوب .

من مدينة (شيكاغو) بدأت ناطحات السحاب ترتفع لاول مرة في امريكا ، وفيها الآن ابنية هائلة تناطح السحاب في جميع اطرافها ، مع شوارعها العريضة الواسعة واسواقها الفخمة ، ومطاعمها الجميلة المتنوعة باجوائها المختلفة الباذخة .

و قد ظهرت في شيكاغو أيضاً اضرابات عمالية كبيرة دامت الى ما بعد الحرب العالمية الاولى .

في العشرينيات من القرن العشرين وبسبب تحريم الكحول في الولايات المتحدة ، ظهرت في(الينوى) عصابات لبيع الكحول المحرم وادت الى فساد كبير في ادارة الولاية ، الى ان سيطرت الحكومة على هذه العصابات في سنة ١٩٣٠ وقضت عليها .

في المستشفى ، اشتركت في شقة مريحة جداً ذات غرفتين واحدة لي والاخرى لطبيبة شابة تشتغل في البحوث الباثولوجية منذ زمن .

اتصلت بابنة اختى (سهيلة صبيح نجيب) وهى البنت الصغرى لاختى (بتول) وكانت تدرس الطب هناك من مدة سنتين . وكانت فرحتى كبيرة لسماع صوتها ، اذ كانت من اعز الناس عندي! . .

كنا نجتمع انا و(سهيلة) في المساء ونقضى الساعات معاً . شاهدتها كما كانت في بغداد في كامل الصحة والحيوية .

سهيلة ، كانت الاولى في امتحان الباكلوريا في ثانوية بغداد . كانت تحب العلوم والفلسفة وتجيد العزف على (البيانو) بدرجة ممتازة كما كان يقول عنها في بغداد الموسيقار الاستاذ (هرست) . في الرياضة حازت على كؤس الاولية في لعبة التنس والبنك بونك والسباحة .

سهيلة كانت ممتازة في (العلم) (والموسيقى) (والرياضة) وكنا نفخر بها جميعاً! . . .

(اقول ذلك والاسف ملأ فؤادى لاننا فقدنا سهيلة بعد سنوات قليلة في بغداد) .

في مستشفى شيكاغو ، اثارت دهشتى البحوث والنشاط الهائل في المستشفى رغم انى قد شاهدت احسن المستشفيات ومختبرات البحوث . رأيت شيكاغو على القمة في البحوث العلمية . انهم يشتغلون وكأن ورائهم شياطين السرعة تسابقهم ، والكل في منتهى النشاط والاهتمام .

لو طلب مني ان اختار مستشفى للبحث والعمل في الولايات المتحدة لاخترت شيكاغو رأساً دون أي تردد .

تعارفت على زميلتى في الغرفة واذا بها شخصية لطيفة وودودة جداً اسمها (جين) . في الصباح كانت تذهب الى مختبرها قبل ذهابى باكثر من ساعة حسب دوامها .

اخبرتها بأنني احب النوم في الصباح وسوف احضر فطورى لدى استيقاضى بعد ذهابها .

ولكنها في الصباح اتت الى فراشى وقدمت لي صينية تحوى البيض المقلى ومعه صوصج وقدح من عصير البرتقال والقهوة والكوب والسكر والخبز المحمص .

قفزت جالسة في فراشى وانا اشعر بخجل من ذلك . لم ادر هل اشكرها او الومها على هذا العمل اللطيف . واذا بها تقول :

- لم افعل شيئاً من اجلك! . . انا اقلي البيض والصوصج واعمل القهوة واحمص الخبز كل يوم . اليوم طبخت لشخصين ، هيا تناولي الفطور وانت في فراشك . ولكن اغسلى القدح والصحن والشوكة والسكين لأنني ذاهبة اليالمستشفى الآن! . .

ودعتنى باسمة واتصرفت بسرعة .

واخذت تقوم بهذه المهمة طيلة ايامى معها . وبدلا من النهوض صباحاً لمعاونتها كنت ابقى في فراشى واستمتع بالفطور في الفراش وهى لم تطلب مني مساعدتها! . .

نشاطها كان نشاط جماعة مستشفى شيكاغو وحيويتهم! . .

في اليوم الثانى او الثالث فتحت (جين) دولاب ملابس قرب فراشها ورأيت رفوفاً كبيرة اربعة اوخمسة فبها ملابس كلها حياكة من البلوزات الصوفية وعلى رف أخر جاكيتات صوفية قسم باكمام طويلة وقسم باكمام قصيرة او بدون اكمام كل على رف ، وكان عدد البلوزات والجاكيتات كبيراً ومن جميع الالوان الغامقة والفاتحة والملونة بالوان عديدة . الامريكيات بصورة عامة يبتعن الملابس والاحذية وادوات الزينة كثيراً ، وقالت لي (جين) :

- سوف يبرد الجو فجأة . انت اتيت في زمن الصيف واذا احتجت فجأة الى استعارة شيء من هذه الملابس الصوفية الدافئه افتحى الدولاب والبسى ما تريدين منها في حالة عدم وجودى . لاتقلقى! . . ان الغسيل سهل في الماكنة ولن اتعب يدى بشيء .

كرم متناه من طبيبة شابة ان تجلب لي فطورى الى الفراش كل يوم ، وتفتح لي دولاب ملابسها لعلنى احتاج شيئاً بصورة مفاجئة ومن دون ان اطلب منها ذلك .

نحن نفعل ذلك مع الصديقات الحميمات وليس مع ضيفة جديدة سوف تتركنا بعد ايام! . . .

هذه البساطة والثقة بالنفس والمودة الطيبة جعلتنى احب هؤلاء الناس وكأنهم اطفال كرماء . . .

كان الجو دافئاً وملابسي الثخينة والمعطف كانت موجودة في حقيبتي ولا احتاج الى ملابسها ، لكن لطفها كان جميلاً .

في احد الايام ذهبت لمشاهدة عملية جراحية يقوم بها الجراح الكبير (دراغشتيت) حول معالجة قرحة المعدة المزمنة بازالة احد الاعصاب في المعدة ، والعملية كانت بأسم هذا الجراح نفسه لانه هو الذي قام بها لاول مرة . كنا نقرأ عن هذه العملية الجديدة في المجلات الطبية ، ورغبت ان اراه وهو يقوم بها .

دعانى الاستاذ لحضور العملية ولبست ملابس العمليات الجراحية واوقفنى جنبه قرب المريض ومضى في العملية المعقدة وهو يفسر لي ما كان يقوم به .

(هذه العملية لاتجرى الآن لاكتشاف الحبوب الطبية والتى تؤخذ بواسطة الفم وتؤدى الى نتائج احسن وابسط من العملية) .

بعد العملية طلب مني الاستاذ الجراح ان اتعشى في داره تلك الليلة وسوف يرسل ابنه في المساء الى الشقة بالسيارة للذهاب عندهم .

كانت امسية ودية مرحة مع بعض الاطباء والاصدقاء وكانت زوجة الاستاذ تقدمنى الياالجماعة وكأنها تعرفنى منذ زمن طويل .

كان اصل الاستاذ وزوجته من بلاد السويد . اخذ يرينى بعض الصور على الجدار ويتكلم عن (بلاده البعيدة) ويقصد بلاد السويد ، ولم يكن يدرى عن العراق شيئاً ، قلت له :

ـ هل اتكلم انا عن (بلادى البعيدة) ، ولكن من اين ابدأ؟ من العصور الوسطى او من بلاد بابل او في بداية التاريخ البشرى؟

ضحك الاستاذ واشار الي بيده وقال للجميع :

– ان بلادها (قديمة! . . قديمة! . . قديمة! . .) كانت دول كبرى متعددة ، وعاشت في فترات مزدهرة على مر العصور التاريخية! . .

ـ كانت بلادنا لاتزال ضمن المجهول عند الامريكان بصورة عامة ، ورؤية احد منا كان يثير الاهتمام والتساؤل بين الآخرين .

خابرني الاستاذ (جاسم الخلف) وزوجته (لمعان شاكر) .

ان عائلة لمعان شاكر اصدقاء قدماء مع عائلتنا . وكانت (لمعان) تنادى احسان زوجى بلقب (آبي احسان) الذى يعنى باللغة التركية الاخ الاكبر ، واخوانها الثلاث ينادونه بذلك وهم (الدكتور عدنان شاكر ، واخوته كنعان وعرفان) ، وتناديني بكلمة (آبلا سانحة) وتعنى الاخت الكبرى . كانت لمعان شاكر اصغر مني باربعة سنوات ،

تكلمنا عن اخيها الدكتور عدنان شاكر وطفلته الصغيرة (ندى) وحسنها الطفولى البديع وكأنها احدى الملائكة في الصور الدينية الكلاسيكية .

بعد سنوات اصبحت الطفلة (ندى) فتاة رائعة الجمال في سن الشباب وقد تزوجت السيد نمير قيردار ، وصورهم تظهر في المجلات الاوروبية وهم يستضيفون الامراء من اصحاب العروش وكبار الشخصيات .

اما الاستاذ (جاسم الخلف) فقد كان استاذاً للجغرافيا في دار المعلمين العالية في بغداد وقد تخرج من الجامعة في شيكاغو . والان عاد الى الدراسة للحصول على شهادة الدكتوراه . كنا نعرفه من بغداد اذ كنا نراه في حفلات ودعوات الاجانب ، وكان يتكلم الانكليزية بكل طلاقة .

لبيت الدعوة على العشاء عندهم ، وكانت لمعان قد ولدت ابنتها الاولى قبل شهر واحد فقط واسم الطفلة (مي) . كان الطعام العراقى عندهم شهياً ، خاصة بعد اسابيع طويلة لم اذق خلالها سوى الاكل الامريكى فقط .

تزوجت لمعان من جاسم حديثاً قبل سنة في مدينة شيكاغو . كان جاسم متزوجاً من ابنة عمه بعد ان عاد من امريكا للمرة الاولى ، وعائلته تعيش في المنطقة الجنوبية من العراق ، ولديه طفلين صغيرين من زوجته الاولى .

سافر جاسم الى شيكاغوللمرة الثانية ، وهناك تزوج لمعان ، وهى خريجة دار المعلمين العالية في بغداد ، وكانت تدرس للحصول على شهادة (ام . أي .) في التعليم .

والطفلة (مي) هي ثمرة هذا الزواج الجديد .

كانت علامات السعادة تسود العائلة . تمنيت لهم اطيب التهانئ واحسن الامنيات .

حان وقت وداع مدينة شيكاغو ، وكان اصعب مافيه توديع (سهيلة) العزيزة هناك التى قضيت الكثير من اوقات الراحة معها نخرج ونتكلم ونأكل سوية .

ذهبنا معاً الى المحطة ، بكينا نحن الاثنتين في المحطة وضحكنا من دموعنا .

في القطار الى بوسطن بدأت اشعر بالتعب من هذه الاسفار السريعة وفهمت ما قاله لي الطبيب في واشنطن في اول يوم وصولى الى هناك عندما كان ينسق الجدول لزياراتى ، وطلبت منه ان ارى ذلك العدد الكبير من الولايات والمدن المختلفة ، والمسافات الشاسعة التى على ان اقطعها ، وذكر لي بحق ان السفرة ستكون متعبة! . . . لم اصدق كلامه ، واخبرته ان السفر سوف لايتعبنى! . . .

كنت اظن ان هذه هي سفرتى الاولى والاخيرة الى امريكا ويجب ان ارى معظم هذاالبلد الكبير .

(لم اكن ادرى اننى ساسافر الى امريكا اثنى عشر مرة بعد هذه السفرة! . . .)

شعرت بالملل من رؤية الوجوه الجديدة التى اراها لايام قليلة فقط ، والاسئلة المتشابهة عن العراق ، وبرمت بالتفسير الدائم ان العراق (ايراك) هو(ميزوبوتيميا) وهو ليس (ايران) أي بلاد فارس! . . . وهما بلدان مختلفتان! . . ثم سؤالهم عن لهجتى التى تميل الى اللهجة البريطانية (الجميلة) وانا اعلم انها للمجاملة فقط لانهم لايميلون الى اللهجة البريطانية منذ ايام استقلالهم عن بريطانيا ! . . .

بدأت اشعر بتعب من السفر المستمر ، والاسئلة المتشابهة التى لم اعد اطيق سماعها! . .

هل على ان اعلم الامريكان مالايعرفون عن الشرق؟ثم ، من قال اننى علمتهم شيئاً يذكر؟

كم ارغب ان ينقضي الشهر القادم لكي اعود الى بلادى ، الى بيتى ، الى طفلتى التي كبرت بضعة اشهر ، اريد ان ارى زوجى واعيش في بغداد! . .

نيوانكلند او الولايات الشرقية

قيل لي مراراً ان الناس تزور نيوانكلند لرؤية التاريخ (القديم) في الولايات المتحدة .

أي عالم (قديم) سوف ازوره ، ومن انا؟هل انا بنت (العالم الجديد)؟

ام انا بنت (العوالم) القديمة والامبراطوريات الكبيرة الزائلة؟

لعل ذلك الملل كان سببه التعب من رؤية اشياء عديدة مختلفة في وقت قصير ، والرغبة في الرجوع الى الوطن بفارغ الصبر .

وصلت الى مدينة (بوسطن) في ولاية (ماساجوسيت) وهى ولاية من الولايات الستة في شرق الولايات المتحدة التى تسمى (نيو انكلند او انكلترا الجديدة) . والامريكيون يسمون هذه الولايات الستة (بلاد التاريخ) وهى : ماساجوسيت ورود ايلند وكونيكتيكت وفرمونت ونيو هامبشاير ومين .

انها الولايات التى لايذكر زوجى عنها الا القليل لانه لايعرفها جيداً ، وحبه لامريكا كان لكاليفورنيا الحديثة والجريئة .

وصلت الى (بوسطن) وهى عاصمة ولاية (ماساجوسيت) . ولقب الولاية (ولاية الخليج بي ستيت) .

وقد اتبت لزيارة هذه المدينة المشهورة بثقافتها وتاريخها في الولايات المتحدة .

بعد دخولى الى غرفتى الجديدة والتعرف على جماعة المستشفى تلقيت نداء تلفونياً من احدى صديقات (نزار والين جودت) .

اتت لزيارتى ، وهى شابة طويلة القامة جداً ولها شعر اسود وكان يصحبها زوجها الاشقر مثل اهل السويد . وكانا يعملان في الهندسة المعمارية .

بدأت اقضى اوقات الفراغ معهم ورأيت الكثير من بوسطن واطرافها وتعلمت الكثير عن تاريخ البلد منهم .

علمت ان الامريكيون يأتون الى (نيو انكلند) من كل حدب وصوب لرؤية مدنها وابنيتها القديمة ومكتباتها ومتاحفها ومعاملها ، انها تضم تاريخهم الاوروبى القديم! .

كذلك يأتى الناس من اجل الرياضة ، وركوب السفن ، اولرؤية مناظر

الصخور الكبيرة اوالبحيرات الباردة ، اويتسلقون جبال (الابلايشين) التى تمتد في كافة الولايات السته الاخرى ، البعض يأتى لدراسة التاريخ والثقافة العامة .

انها تمثل قطعة من اوروبا القديمة! . . .

اما بالنسبة للزوار الاوروبيين فى بوسطن ، فلديهم الاحساس ان هذه المنطقة ثابتة ورزينة اذا قورنت (بالنشاط المحموم) الذي يسود مدينة نيويورك اوشيكاغو ، او(ارض الزهو والفخر) في ولاية تكساس ، او بلاد (الشياكة والاناقة) في كالفورنيا .

تعلمت أيضاً بعض التفاصيل عن نيوانكلند .

بعد اكتشاف كولمبوس لامريكا ، قدم القرصان والبحارة الانكليز بكثرة الى هذه الأراضي واعلن (جون كابوت) الانكليزى ان الارض تخضع لملك انكلترا (هنرى السابع) وذلك في نهاية القرن الخامس عشر ، واطلق على الاراضي اسماء انكليزية مثل اسماء مدنهم في انكلترا تماماً . ولايزال احفاد جون كابوت يعيشون كالامراء في بوسطن الى الآن! . .

في بداية القرن السابع عشر اصبح لقب هذه الارض (نيوانكلند) . واخذ رجال البحرية والقرصان الانكليز عند رجوعهم الى بلادهم ، يشيدون بقابليات الارض الجديدة مما شجع الناس على الذهاب الى العالم الجديد .

في سنة ١٦٢٠ وصلت ما يسمونها (سفينة الحجاج) واسمها (ماى فلور) ، وتحمل ١٠٢ رجلا من انكلترا من (البيوريتانس او المتطهرين) الذين هربوا من من بلادهم في ايام (اوليفر كروميل) لاسباب دينية ، وتوجهوا نحو امريكا ورسوا في شبه جزيرة (كيب كود) في ماساجوزيت .

في الوقت الحاضر ينظر الامريكيون الى هؤلاء (الحجاج) والسفينة (ماى فلور) وكأنهم من القديسيين الاوائل ، والرجوع في اصل أي من الامريكان الى (حجاج ماي فلور) ، هو اقصى ما يتمناه الشخص من شرف ورفعة! .

بعد استقرار الحجاج ، زاد عدد المهاجرين وانتشروا بسرعة .

وفى القرن الثامن عشر توسعت اعمالهم وخاصة في بناء السفن على سواحل نيوانكلند كلها ، بسبب كثرة وجود الاشجار الكبيرة الصالحة لبناء السفن

للبحرية الملكية ، وبعدها تعددت الصناعات والاعمال الاخرى وتحسنت الحالة المادية عندهم تحسناً كبيراً .

في سنة ١٧٥٩ تمكنت بريطانيا من دحر الجيش الفرنسى في كندا واستولت على المنطقة كلها وكل الأراضي شرق نهر المسسيبى وعقدت معاهدة باريس مع فرنسا حول هذا الموضوع .

(لم ينس الفرنسيون هذه الهزيمه حتى الوقت الحاضر! . . وقد ذكرها الجنرال ديغول وهو رئيس الجمهورية الفرنسية في سنوات الستينات من القرن العشرين عندما زار كندا وطلب من اهل منطقة كوبيك الكندية ان يستقلواعن كندا والمملكةالمتحدة! .واحدث ذلك شعوراً سيئاً في بريطانيا) .

كانت البلاد كلها مستعمرة للتاج البريطانى ، ولم يكن لديهم نائب واحد في البرلمان الانكليزى وكانوا يدفعون الضرائب .

بدأت القلاقل والاضرابات بسبب الضرائب في المنطقة .

بوسطن كانت المدينة التى اعلنت التحدى على القيود والضرائب المفروضة على الشاي القادم من بريطانيا في سنة ١٧٧٣ حيث رمى الامريكان صناديق الشاي الانكليزى كلها في ميناء البحر ويسمى ذلك العمل (حفلة شاى بوسطن) .

بعدها بدأ القتال مع الجيش الانكليزى لمدة سنوات وانتهت بفوز الامريكان بقيادة الجنرال (جورج واشنطن) ، واعلنت هذه الولايات الاستقلال عن بريطانيا في مدينة فيلادلفيا في سنة ١٧٧٦ ، وكان جورج الثالث ملك بريطانيا حينذاك .

واول دولة اعترفت باستقلال امريكا ، هي فرنسا بطبيعة الحال! . .

وقد نحت الفنان الفرنسى باتولدى تمثال الحرية في فرنسا لمدة عشر سنوات ، وارتفاع التمثال ١٥١ قدماً وجلبه بحراً الى الولايات المتحدة ووضع في جزيرة صغيرة في ميناء نيويورك وافتتح في سنة ١٨٨٦ واصبح اهم علامة في نيويورك .

نيو انكلتد بدأت في بناءحضارنها بسرعة بعد ذلك .

طلبت ان ازور جامعة (هارفارد) الشهيرة حيث تخرجت منها الين وزوجها نزار

في الهندسة المعمارية ، وهذه الجامعة هي اقدم واشهر جامعة في الويات المتحدة .

دهشت للشبه بين مدينة بوسطن ومدينة لندن ، الشوارع ، والبيوت ومداخن المدافئ في البيوت بصورة خاصة تشبه لندن الى حد كبير ، ولكن ينقصها ابنية لندن المشهورة . انها درجة ثانية من لندن! . . . يبدو ان الناس تتعلق بالطبقات القديمة الاجتماعية في بوسطن ، وكلما كانت العائلة قديمة يزداد الاحترام لها مثل ابناء العالم القديم . بعض العائلات القديمة الغنية يمتد نسبها الى القرن السابع عشر ويتصرفون بطريقة ارستقراطية باذخة .

قيل لي ان المليونير السفير (جوزيف كندى) سفير امريكا في لندن اثناء الحرب العالمية الثانية ، كان يساعد جامعة هارفارد مادياً وادخل اولاده فيها . وله ابن متخرج من هارفارد اصبح عضواً في مجاس الشيوخ ، والاب يعمل المستحيل لجعل ولده هذا (جون كندى) رئيساً للجمهورية . شاهدت صور جون كندى الذى كان يبدو بشعره الاشقر وضحكته الصبيانية المرحة كأنه طالب من طلاب الجامعة رغم ان عمره كان يقارب الخامسة والثلاثين .

اتصلت مع اخوات (ايلين جودت) واخوها ، ان ايلين اشدهم ذكاء وشخصية .

قضيت معظم الوقت في زيارة الجامعة التى احببت ابنيتها القديمة الفخمة بمطاعمها البسيطة ومخازنها المتنوعة وكان شباب الطلاب والطالبات واعدادهم الكثيرة يجعل المحيط يبدو وكأن لايوجد شخص هرم في المدينة .

وكان معظم الطلاب في ذلك الوقت ، يقصون شعورهم بحيث لايزيد طول الشعر عن ملمترات قليلة ويمشون بخطواتهم الواسعة وهم لايلبسون الا (التي شرت). لم ار احد من الطلاب يربى شعره بحيث يغطى اذنيه . كان الشعر الطويل لايزال في المستقبل الآتى .

في الليالى كنت اذهب الى العشاء في المطاعم الامريكية او المطاعم الاجنبية كالصينية والهندية والتركية . في احد الامسيات ذهبنا الى مطعم صغير جميل مشيد في ساحل المحيط الاطلسى . اخبرت الاصحاب انه على الجهة المقابلة لهذا البحر المحيط ، وقف (عقبة بن نافع) قبل اكثر من الف عام وقال مخاطباً ربّه :

ـ لولا هذا البحر لمضيت مقاتلا فى سبيلك .

يبدو ان ماضينا القديم جزء منا لايتجزأ! . . .

نيويورك المدينة وهى في ولاية نيويورك .

في بداية القرن السابع عشر اثناء استيلاء الاوربيون على أراضي الهنود الحمر في السواحل الشرقية من امريكا استولى الهولنديون على الأراضي قرب نهر الهيدسون في سنة ١٦٢٤ وسموا المدينة (نيو امستردام) ، وفى سنة ١٦٦٤ استولى الانكليز على هذه الارض وطردوا الهولنديين وابدلوا اسم نيو امستردام الى (نيويورك) .

واسموا الولاية أيضاً باسم (نيويورك) . ان مدينة نيويورك الهائلة هي ليست العاصمة للولاية نيويورك ، بل ان العاصمة للولاية هي مدينة صغيرة اسمها (اولباني) ولم اسمع بأسمها من قبل ، وكنية ولاية نيويورك هي (امباير ستيت أي الولاية الامبراطورية) .

في ايام الحرب الاهلية اشتركت ولاية نيويورك بجانب (ابراهام لنكولن) مع الولايات الشمالية ضد الولايات الجنوبية .

مدينة نيويورك هي المدينة الكبرى التى يعتقد كل الامريكيين بأنها عاصمة العالم كله ، وهى عندهم ارقى مكان في الدنيا! . . .

في هذه المدينة ولد الرئيس (ثيودور روزفلت) ، والرئيس (فرانكلين روزفلت) وزوجته (اليونور روزفلت) . وفيها تقع بناية الامم المتحدة ، وشارع وال ستريت المالي ، ومن نيويورك بدأت الدعوة والنجاح في قضية المساواة السياسية للمراة .

انها المدينة التى يسكنها سبعة ملايين من الناس من كل لون وجنس ، وهى محصورة في البحر .

في نهاية القرن التاسع عشر ، ولكى تسع الاعداد الكبيرة من الناس داخلها ، بدأوا يقيمون ابنية مرتفعة عالية بشكل لم ير مثله الناس من قبل ، على طوابق عديدة ، وسميت هذه الابنية الهائلة الشامخة (ناطحات السحاب) ، واصبحت اعجوبة في العالم .

ان نيويورك هي اكثر المدن ازدحاماً في الولايات المتحدة إذ تحوى المحلات

التاريخية والكنائس الضخمة والمتاحف المتنوعة والمسارح الراقية ومخازن ومطاعم لاتحصى . ويحيط بين الولاية وبين الولايات التى تجاورها حقول واسعة واشجار كثيفة . وهي قريبة في حدودها الشمالية من الشلالات الهائلة (شلالات نياغرا) على الحدود الكندية على نهر نياغرا .

يذهب معظم العرسان لقضاء شهر العسل قرب هذه الشلالات الهادرة .

حاول الجميع تشجيعى للذهاب الى الشلالات . لكنى لم اتمكن من زيارتها هذه المرة .

بدأت الدوام في مستشفى (برسبتاريان) واعطتنى السكرتيرة شقة تعود الى المستشفى ، في الطابق الثالث تشرف على نهر الهيدسون وامامى الجسر الجميل الممتد بين مدينة نيويورك و(نيو جرزى) ولا يفصلنا عن النهر سوى شارع عريض جداً اسميته انا شارع (الكورنيش) لان السير وسياقة السيارات على ذلك الشارع هو نزهة جميلة للناس . هنا يمنع تشييد بيوت تحجب منظر النهر عن الناس .

كانت غرفتى في شقة كبيرة جداً اكبر من جميع الغرف التى سكنتها في هذه السفرة ومؤثثة باثاث جميل ، ويبدو انها للضيوف الاجانب ، لآننى كنت اقتسم هذه الشقة الكبيرة مع دكتورة اخرى تزور الولايات المتحدة وعجبت لان الدكتورة كانت المانية شابة تزور امريكا للمرة الاولى ولما تعارفت عليها رأيتها تشبه الشباب الهتلرى بشعرها الاشقر وعيونها الزرقاء وانفها الصغير وقامتها الرياضية الممشوقة .

يبدو ان العداء مع المانيا بدأ يخف منذ انتهاء الحرب وهاهم الآن يدعون الالمان الى بلادهم! . . . والسبب يعود الى الثراء الامريكى الهائل! . . ، ان البلد يموج بالضيوف من جميع اقطار العالم! . . .

رأيت الالمانية مهتمة جداً برؤية البلاد في النهار وفى الليل ولم يهمها الدوام في الردهات المرضية كثيراً . اخبرتنى انهم شاهدت الامرين في بلادها اثناء الحرب وبعدها والان ترغب ان ترى العالم الثرى وكيف يعيش في النهار وفى الليل .

اخبرت الالمانية بأنني قضيت اكثر من ثلاث اشهر في امريكا ، وانا ارغب في الرجوع الى بلادى .

تساءلت الالمانية بدهشة :

ـ ما هذا الكلام؟ الحياة في الشرق الاوسط ، ام المعيشة في هذه الجنان الجميلة الثرية؟ان الحياة في المانيا صعبة جداً ، اما هنا ، لايبدو انهم يحتاجون الى الضروريات . ان لديهم كل شيء! . .وانت تذكرين رجوعك الى الشرق الاوسط؟

لم اذكر لها ، اننى اكتفيت من رؤية الاشياء الغريبة ، واود الذهاب الى عالمى القديم ، الى عالمى النائى! . . .

(سرية الخوجة) قدمت لرؤيتى ، وأخذتني في نزهة حول نيويورك . كذلك فعلت صديقتى (هند تحسين قدرى) ورأيت الكثير من معالم نيويورك .

هذه هي المدينة التى اسماها الهولنديون (نيو امستردام) في القرن السابع عشر ، وابدل الانكليز ذلك الاسم وسميت (نيو يورك) .

كان ازدحام الناس هائلا في الشوارع الكبرى والكل يمشي بسرعة فائقة على الارصفة كأن الجميع على موعد تأخروا عنه .

شاهدت (سان باتريك كاثيدرال) الكاتدرائية البديعة ، وتفرجت في مخازن (فيفث افينيو) الشارع الباذخ ، وفى روكفللر سنتر صعدت مع (هند) الى اعلى بناية في ناطحات السحاب آنذاك أي بناية (امباير ستيت) ارتفاعها ١٤٥٤ قدم ورأيت مدينة نيويورك من الاعلى ودخلنا في السنترال بارك الجميلة ، وفى الليل ذهبنا لرؤية (تايمس سكوير) وفى النهار سرنا بالسيارة في منطقة (هارلم) وهى منطقة الزنوج في المدينة .

تجولنا في مطاعم نيويورك ومخازنها . ورأيت قطار تحت الارض مرة واحدة . قطار تحت الارض في لندن يتفوق عليه بالنظافة وجودة المقاعد .

لاادرى ماذا جرى ولكنى لم اشعر بشيء تجاه هذه المدينة العظيمة . كان كل شيء فيها كبير وجيد وراق جداً في الاماكن التى زرتها ، ولايوجد مثل هذه المدينة في العالم . وقد اثار دهشتى الخليط الهائل من الشعوب والاقوام التى تسكن فيها ، ولكنها لم تحرك بي شعور الاعجاب العميق او الاهتمام الكبير .

اهو التعب من السفر المستمر ، ام ان نيويورك الهائلة لم تثير بي حباً يذكر! . . . لقد قال عنها احد الكتاب : ـ انها (بابل من الدرجة الثالثة) .

وبابل كانت العاصمة الكبرى العصور الاولى من التاريخ! . . .

قضيت اليلة الاخيرة في بيت الصديقة سرية الخوجة واكلنا عشاء عراقياً بسيطاً ما كان الذه! . . ثم قضينا الليلة بدون نوم تقريباً نتكلم عن بغداد وما حدث اثناء غيابى عنها . بدأنا من يعض من نعرف من النساء والبنات وانتهينا عن مقتل الملك عبدالله ملك الاردن وان ابنه الامير طلال توج ملكاً على الاردن . وكذلك عن مقتل رياض الصلح رئيس وزراء لبنان .

قلت لسرية :

ـ هل سأعود ولا اسمع سوى فلان قتل فلان؟ . على الاقل لم اسمع عن شخص قتل شخص آخر بسبب السياسة . انهم ينتخبون الساسة بالانتخاب الحر .

هذا ماكنت اعتقد ان يفعل الناس في البلاد الديمقراطية قبل نصف قرن من الزمان .

في طريق الرجوع الى العراق وانا في الطائرة الهولندية فوق الاطلسى في سنة ١٩٥١.

هل احببت هذه البلاد الجبارة التى استضافتني لمدة اربعة شهور؟

الجواب ، نعم احببت هذه البلاد الشاسعة ، الكبيرة ، المختلفة والجميلة واعجبت بشعبها الجديد وهو الخليط والمزيج من جميع شعوب العالم بكل الوانه وجنسياته . .

احببت عندهم التفاؤل المفرط الذى لايقهره شيء . احببت عندهم الايمان بقدرة الفرد الفقير الصعود من الحضيض الى القمة دون أي اعتبارات خاصة من المركز الاجتماعى .

احببت فيهم لغتهم الانكليزية وقوانين النظم الانكليزية الديمقراطية التى يتفوق بها الانكليز منذ عهد (الماغنا كارتا) ، والتى غرست المساواة والحرية والتسامح الدينى وتعايش الملل المختلفة في جو من الوئام .

احببت فيهم المساواة التامة ، والثقة المفرطة بالنفس ، وانتشار المدارس والجامعات في جميع الولايات . احببت فيهم روح المرح والابتهاج والمراهقة المستمرة ، احببت فيهم الانتاج الصناعى العظيم في الكهرباء والتلفون والافلام

السينمائية . احببت فيهم حبهم للفنون الجميلة من الموسيقى الكلاسيكية الى موسيقى الرقص باشكاله الى اغانى الزنوج الافريقية ، وحبهم للتصوير والنحت والمسارح والسينما . احببت فيهم ميلهم الى الثراء والبذخ وكذلك الكرم الكبير واعمال الخير في النوائب والمحن التى تصيب الانسان ، حتى في البلاد الاخرى خارج بلادهم .

احببت الحرية المطلقة التى يتمتعون بها بحكم القانون الذى ينصاعون اليه من رئيسهم الى الصعاليك .

احببت منهم عدم استعمار الشعوب الضعيفة كما فعلت الدول الاوروبية .

وكأمراة اعجبتنى الحرية المطلقة التى حازتها الامريكية وعدد الفتيات في الجامعات يعادل عدد الفتيان . وقد ساهمت المرأة كالرجل في تنمية البلاد منذ البداية دون ان تجلس وتنتظر انعام الرجل عليها .

كنت احب رؤية الخادمات الزنجيات يقدن سياراتهن الخاصة للذهاب الى المحل الذى يخدمن فيه وهن يلبسن الملابس الانيقة . وكذلك بيوت الزنوج التى رأيتها من الخارج في المناطق الجنوبية وحدائق تلك البيوت عامرة بالاشجار والاراجيح والسيارات ودراجات الاطفال بما لانراه الا في بيوت الناس من الطبقة الوسطى المرفهة في بلادنا آنذاك .

كان الشئ الوحيد الذى لم اطيقه هو فصل البيض عن الزنوج في الولايات الجنوبية في الباصات والمطاعم والمدارس في ذلك الوقت .

هذا كان انطباعى عن الولايات المتحدة في الزيارة الاولى لها في منتصف القرن العشرين .

كان على ان انتظر سنوات اخرى لكي اتعلم الفرق بين الشعب الامريكى الساذج سياسياً ، وبين السياسة الامريكية التى بدأت بالتداخل والانقلابات العسكرية الكبيرة في جميع البلاد العربية وفى الشرق الاوسط كله وما حدث من جراء تلك الانقلابات .

العودة من امريكا

عدت الى بغداد في الثامن من شهر تشرين الاول . وكان في استقبالى احسان زوجى وجماعة صغيرة من الاهل والاصدقاء والدي ولمعان اختى وزوجها سالم وخلوق اخى ونزار والين وجعفر علاوى ومليحة وخليل الداغستانى وزوجته بعض من الاصدقاء الامريكان . كنت اعلم ما كان يشعر به والدي في ذلك الوقت . كان يلح دائماً ان الفتاة يجب ان تتلقى نفس المعاملة الفتى وها هو يرى ابنته تسافر الى اقصى العالم بسبب العلم وتعود الى بلادها بمفردها! . .

ذهبنا الى بيت والدي في الوزيرية لرؤية شيرين واخواتي عادلة وامل وخوتى مأمون ورجاء .

رايت شيرين قد كبرت خلال الشهور الاربعة وطال شعر رأسها وهى تنظر لي بتعجب . لم تظهر لي اية معرفة . حاولت ان آخذها الي ولكنها لم تعرفني وبقيت ملتفة في ذراعى والدتى . وكم كان لقاء والدي واخواتي واخواني جميلاً! . .

خلوق اخى خرج من السجن وعاد الى البيت والى الدوام في كلية الحقوق .

في غيابى تزوجت اختي لمعان من الدكتور سالم الدملوجى دون أي حفلة او اجتماع . سافروا الى الموصل لمدة اسبوعين فقط وعند العودة اخذا يعيشان مع اهل الدكتور سالم في بيت والديه السيد فاروق الدملوجى وعقيلته في محلة العيواضية ومعهم اثنان من اخوان سالم الاصغر منه سناً .

بعد عشاء خفيف شعرت بنوتة نعاس شديد .

(الجيت لاك) كان تأثيره كبيراً . تركت شيرين ومربيتها سعدية في بيت والدي لهذه الليلة وذهبت الى بيتنا وقضيت ثمانية عشر ساعة في النوم! . . .

في مساء اليوم الثانى اتيت بشيرين ومربيتها الى البيت . ولم يكن والدي في البيت أنذاك . سمعت والدتي تكلمني وقالت :

- ان والدك ، وهو يحب الاطفال الصغار كثيراً ، اصبح متعلقاً بشيرين ولايطيق فراقها ، لم لا تتركين شيرين عندنا ، وفى السنة القادمة انشاء الله ، ترزقون بطفل آخر! . . .

هذا الكلام جعلني احظن ابنتى بسرعة واذهب الى السيارة وانا ابتسم بخوف وكأنني خفت ان تمنعنى أمي!

في اليوم التالى ذهبت لجلب بعض ملابس شيرين ، رأيت والدي يتجاهلني ويدخل بسرعة الى غرفته دون تحية لي .

هل اترك ابنتى عندهم وهى زهرة بيتنا وجميع أمالنا تدور حولها؟

عدت الى عملى في الكلية . وذهبت للسلام على العميد الدكتور هاشم الوترى ، الذى اكن له تقديراً كبيراً . استقبلنى بحفاوة واخذ يسألنى عن الولايات المتحدة . اجبته انها اجتماعياً عالم آخر عنا ، ولكن من ناحية العلم ، لقد اصبح العلم وأحداً الآن ، والكل يستقون منه! . . . والسبب في جوابى ، اننى سمعت انتقاده لي بعد ان عدت من لندن قبل سنتين حيث اخبرته عن المسافة العلمية بيننا وبينهم ، وانه استاء من جوابى واخبر لمعان عن ذلك قائلاً :

- الم نعلمكم كل هذه العلوم في الكلية؟

في هذه المرة ، وجدته قد ارتاح من جوابى الحالى .

سافرت (اديبة) ابنة عمى صالح زكي وهى خريجة كلية المعلمين الى امريكا للمصول على درجة (الماستر) . وقد ودعناها جميعاً والدها والعائلة في المطار . وكم فرحت لرؤية عمي والدها كان في مقدمة المودعين ليرسل ابنته الشابة الى امريكا بمفردها وهي اصغر مني باربعة اعوام فقط .

تذكرت الماضي وما كان عمي والدها يحاول منعي من اللعب وارتداء الجوارب القصيرة وانا في سن التاسعة فقط .

كم تبدل العراق خلال سنوات قصيرة! . . .

كذلك سافرت اختي الصغرى(امل) الى امريكا لكي تحصل على شهادة (الماستر) في الادب الانكليزى .

(عادلة) اختى اكملت دار المعلمين العالية واصبحت مدرسة في احدى المدارس المتوسطة .

عدنا الى حياتنا الاجتماعية الواسعة مع الاصحاب والاقارب .

تعرفنا في نادى (العلوية) على فتاة امريكية جميلة جداً اسمها (بوني)

وكانت تعيش مع عائلة امريكية لمدير النقطة الرابعة في بغداد ، وللعائلة ثلاثة اطفال ولدان وبنت وكان الولد الكبير في الثانية عشرة من العمر ويليه اخوه ثم البنت التى كانت في سن الثامنة . كانت (بوني) المعلمة والمرافقة للاطفال .

كنا نلتقي مع العائلة في نادى العلوية .

سألتني السيدة الامريكية والدة الطفلة ، عن وجود حبة حمراء صغيرة على خد الطفلة الايمن وان الحبة تكبر في حجمها بالتدريج .

شخصت الحبة ، أنها (الاخت) البغدادية التى تصيب الاطفال عندنا وسببها طفيلى ينتقل بواسطة الذباب . وعدت الام ان اذهب معها الى استاذ العلوم الجلدية الدكتور (جوبانيان) لمداواة الحبة قبل ان تكبر . والدواء في ذلك الوقت هو زرق مادة حول الاخت لكي تمنعها من الانتشار ثم يقتل الطفيلى في محله .

اتت الي الطفلة ليست مع والدتها وانها مع (بونى) الى المستشفى وذهبنا الى الدكتور جوبانيان الذي حقن اطراف الحبة بالزرقة المطلوبة . (اختفت الحبة في محلها بعد حوالى ثلاثة اشهر وتركت ندبة صغيرة بحجم رأس الدنبوس) .

اصبحنا نعرف (بونى) الامريكية وكنا نراها كثيراً في نادى العلوية .

كان احد اصدقاء احسان القدماء الدكتور (نديم الباجةجى) وهما في وزارة الاقتصاد وكان الدكتور (نديم) المدير العام في تلك الوزارة لمدة سنوات . وقبل مدة قصيرة شكل نورى باشا السعيد وزارته وادخل نديم الباجةجى وزيراً للاقتصاد .

كان نديم عضواً في نادى العلوية وكان يأتى للسباحة . تعرف على (بونى) وكانت تجلس معنا دائماً .

كان نديم اعزب ، لانه كان متزوجاً ابنة عمه (ساجدة الباجةجى) الجميلة وله منها ولده اسمه (طلال) وكان عمر ابنه لايتجاوز الرابعة عشرة في ذلك الوقت . وقد تم الطلاق بين نديم وزوجته قبل بضع سنوات .

تزوج نديم زوجة اخرى من لبنان اسمها (فادية ابراهيم) اتت كراقصة الى بغداد وكنا في لندن آنذاك ، وقد انفصلا بالطلاق أيضاً بعد فترة قصيرة وله منها ولد اسمه (شاكر) ، كان عمر الولد حوالى السنتين ويسكن مع امه في بيروت .

كان نديم قليل الكلام يختلط بالقليل من الاصدقاء ، وفى الوزارة كان حسب قول احسان اكثر الموظفين عملا يشتغل من الدقيقة الاولى والى آخر دقيقة ، حيث يخرج معه جميع الموظفين سوية .

يبدو ان العلاقة بين نديم وبين بونى تطورت الى الخطبة . رغبت (بونى) بدعوة كبيرة للعرس . وزعت بطاقات الدعوة باسم زوجي (احسان رفعت) والدعوة في بيت نديم الكبير في منطقة المسبح .

بهد ان عقدوا عقد الزواج قبل الحفلة بيوم واحد في احتفال بسيط في بيت نديم مع اخويه ونحن الاثنين .

اشترت (بوني) من مخزن (القناطر) في الباب الشرقى من شارع الرشيد ثوباً جميلاً ازرق اللون ارتدته اثناء الحفلة ووقفت مع زوجها تستقبل المدعوين من الجنسين .

حضر من اهل نديم أخواه (نعيم) والدكتور (عبد الرحمن) وبعض الوزراء اذكر منهم السيد علي جودت الايوبي وعقيلته وابنه نزار وزوجته الين ، والدكتور عبد المجيد القصاب وغيرهم حوالى الستين شخصاً . وكان اكثر الجميع مرحاً المهندس (مدحت على مظلوم) لانه هو الذى هندس هذا البيت الجميل لنديم .

ابدى الجميع اعجابهم بالعروس الجميلة الرشيقة والبيت الفخم والحديقة الكبيرة العامرة بمختلف الازهار والاشجارالباسقة .

كانت بونى تعشق الحياة الاجتماعية . وقد تعرفت على الكثير من العراقيين والامريكان والانكليز واصبحت مع احسان الدافع الكبير للزيارات والدعوات . وكنا نذهب الى نادى العلوية للسباحة في ايام الحر ونلعب التنس أيضاً ونحضر الحفلات الساهرة في النادى .

في تلك الايام كانت لدى عيادة طبية في شارع الرشيد لفترة قصيرة في جامع مرجان ثم انتقلت الى عيادة اخرى فى منطقة الكنائس في شارع الرشيد أيضاً . كنت اشتغل في الكلية والمستشفى الملكى ثم اعود الى البيت للغداء واللعب مع ابنتى وأحياناً كنت أضعها ورائى على سرج الدراجة الهوائية واطلب منها ان تمسكنى ونذهب الى مسافات قصيرة اطراف المنطقة . ولم تظهر شيرين

الخوف ابداً من وجودها فوق الدراجة معي .

كنت اود ان اكون قربها اكثر من ذلك ، ولكن احسان كان يحسب الوقت الذي كانت تقضيه معنا (والدتي) في الماضى حيث نرجع الى البيت بعد الظهر نحن أطفال والدتي تقضى الصباح في البيت وتنظم اشغالها ونحن في المدرسة ، في وقت العصر تخرج مع صديقاتها تزورهم ويزرنها في القبولات النسائية لمدة ساعتين وتأتي الى البيت اثناء غياب الشمس ، نتعشى معها ثم نؤي الى غرفنا . كان يسألني لم ارغب في قضاء الوقت مع الطفلة اكثر من هذا .

كنت اقضي معظم ساعاتي خارج البيت في المستشفى صباحاً ، وفي العيادة عصراً وفى الليل في الاجتماعات والحفلات وكنت لااميل الى ذلك .

كنت اشكوا من احسان ومحبته للحياة الاجتماعية المستمرة ، لأنني كنت احب وجودي في البيت حيث ارتدي ما اشاء والعب مع ابنتي فترات طويلة واطالع الكتب والمجلات .

كان احسان يقضي بعض ليالي الخميس مع اصدقائه في نادى المحامين ، وكنت اشعر ان بقائى في البيت هو اجمل من أي وليمة . وكان ذلك يثير احسان جداً لانه يتصور ان نعمة الاجتماعات هي للراحة ونسيان حوادث النهار الكثيرة .

تتويج الملك فيصل الثاني

في شهر مايس سنة ١٩٥٣ بلغ جلالة الملك فيصل الثانى الثامنة عشرة من عمره ،وقد استمر عهد الوصاية رسمياً اربعة عشر سنة وكان الوصي عليه خاله سمو الامير عبد الآله .

جلسنا(بونى وانا) في شرفة عيادتي في منطقة الكنائس في (رأس القرية) في شارع الرشيد لكي نرى موكب الملك يمر من الشارع وهو يسير من قصر الرحاب في الكرخ متوجهاً نحو مجلس الامة في جانب الرصافة . كان اليوم يوم عطلة للمدارس ودوائر الحكومة كلها . كان شارع الرشيد مزيناً بالاعلام وسعف النخل واقواس مليئة بالاضوية الملونة والاغصان والازهار .

اصطف جنود من الجيش العراقى على طرفى الشارع ومن خلفهم الناس وهم

في اشد حالات السرور والفرح وقد كانوا ينتظرون هذا اليوم منذ سنوات طويلة .

وصلت العربة الملكية تجرها الخيول وشاهدنا الملك فيصل الثاني يرتدى بزة المشير بصفة كونه قائد الاعلى في الجيش ومعه الامير عبد الآله وهو يرتدى البزة العسكرية نفسها . وفى مقدمة العربة فصيل من الحرس الملكى بالبستهم الرسمية ممتطين الجياد الجميلة . وفصيل آخر من الحرس الملكي على نفس الجياد خلف العربة الملكية .

وكان الالوف من الناس رجالاً ونساء مصطفين على قارعتى الطريق يصفقون ويهتفون للملك الشاب . وتبع ذلك جموع كثيرة في سيارات يمثلون المدارس والنقابات المختلفة والكثير من مختلف الناس .

تم التتويج بصورة رسمية امام مجلسي الاعيان والنواب وكانت شرفة المجلس مكتظة بالمدعوين من البلاد العربية والبلاد الاخرى مع السفراء ورجال السياسة والدين . واشتركت وفود اثنين وثلاثين دولة ومثل بريطانيا الدوق غلوسستر عم الملكة اليزابث

والامير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية ، وابن الآغا خان وهو شاب كان في مدرسة هارو مع الملك اثناء الدراسة والكثير من رؤساء البلاد .

سألتنى (بونى) عن دراسة الملك ولم اكن اعرف التفاصيل ، فهو درس في لندن في مدرسة (هارو) المشهورة ورأيت صوره وهو يرتدى قبعة القش التى يرتديها كل الطلاب في تلك المدرسة ، وان والدته الملكة (عالية) عاشت معه في لندن ، وبعد وفاتها قبل سنتين كانت خالته الكبرى الاميرة (عابدية) تعيش وتنام معه في نفس غرفة النوم لترعاه دائماً لان الملك كان مصاباً بداء (الربو) منذ الطفولة .

أخبرت (بوني) ان والدته الملكة عالية توفيت في سنة ١٩٥٠ وكانت في سن التاسعة والثلاثين وانها قدمت الى بغداد قبل الوفاة وماتت في بغداد . وقد حضر الملك الى بغداد وشارك في تشييع جثمانها ثم واصل دراسته في كلية هارو واكمل دراسته في تشرين الاول ١٩٥٢

في لندن كان الملك يدرس مع اساتذة من العراق العلوم واللغة العربية والتاريخ العربى . وفى ايام العطل كان يدرس في بغداد . وتعلم من كبار القضاة

القوانين العراقية وامور القضايا الداخلية والعشائرية . كذلك كان يدرس اللغة الكردية ثلاث ساعات في الاسبوع . واصبح يفهمها بدون مترجم .

كان الملك يهتم بالمطالعة ويتذوق الموسيقى كما يحب السباحة وله هوايات في الفروسية والرسم والميكانيك ، ومن يعرفه يقول انه كان هادئ الطبع جم الادب دائم الابتسام بعيداً عن التهور لم ينجرف قط الى مغريات الشباب ومساوئه . لم يدخن ولم يشرب الخمر قط .

وحسب قول الامير(زيد) ان الملك يحب اقربائه جداً ، وكان رفيقاً دائمياً مع الامير (رعد ابن زيد) منذ الطفولة وكان صديقاً للملك حسين .

وفى نفس يوم تتويج فيصل الثاني احتفل بتتويج الملك حسين في الاردن .

عاشت (بونى) ستة اعوام في بغداد حياة سارة مرفهة الى انقلاب ١٩٥٨ حيث كنت خارج العراق للاصطياف ، وقد رفضت الرجوع الى بغداد ، ثم انتهى الامر الى الطلاق . وقد ولد لهما طفل اسمه (علي) في سنة ١٩٥٤ وعاش مع امه في الخارج .

ايران

في صيف سنة ١٩٥٣سمعت خبراً مثيراً جداً ، ان طائرة صغيرة نزلت في مطار بغداد بصورة فجائية ، يقودها شاب ومعه فتاة واحدة وقد اخبر اهل المطار بأنه هو الشاه (محمد رضا بهلوى) شاه ايران ومعه زوجته الملكة (ثريا ..!(صعق موظف المطار للخبر ، وخابر وزارة الخارجية رأساً ، وكان الوقت عصراً وبعد الدوام الرسمى ، كان هناك احد المسؤلين وهو السيد (عبد المنعم الخطيب) الذى اتصل بوزير الخارجية السيد (شاكر الوادى) واخبره بالحادث الغريب . اتصل الوزير بقصر(الرحاب) بيت الامير عبد الآله وحيث يسكن الملك معه بعد ان ترك الملك السكن قي (قصر الزهور) منذ وفاة والدته (الملكة عالية) .

اهتم الملك والامير بالامر اهتماماً كبيراً ، وذهب وزير الخارجية ومعه بعض الموظفين واستقبلوا الشاه والملكة ثريا استقبالآ ودياً ، واظهروا له كل المجاملات

والتكريم الملكي ، وذهبوا بالشاه وزوجته الى (قصر الزهور) الذى اصبح قصراً ملكياً ينزل فبه كبار ضيوف الملك .

يبدو ان الشاه وزوجته هربا خلسة من قصر الشاه في طهران بسبب اشتداد القلاقل والاضطرابات التى كانت تدور في المجلس النيابى في ايران منذ مدة بين (الدكتور مصدق) رئيس الوزراء ، ومن ورائه من رجال الدين والشعب بصورة عامة ، وبين (الشاه محمد رضا) حول النفط الايرانى الذى تستخرجه وشركة النفط البريطانية منذ سنة ١٩٠٨.

كان رئيس الوزراء الايرانى يصر على تأميم النفط في ايران ويتكلم ضد الشاه بخشونة امام المجلس الايرانى . الشعب العراقى كان يسمع الاخبار من ايران ، ويؤيد الدكتور (مصدق) ويدعو له بالنجاح ، لان أي عمل ضد الشركة البريطانية كان يحظى بتأييد الشعب العراقى كافة حتى دون ان يفهم التفاصيل .

قلت في نفسى :

ـ ذهب فاروق في السنة الماضية وهاهو الشاه يتبعه! . . ان الملوك في البلاد الشرقية في طريقهم الى الزوال! . . وظننت ان الشاه لن يرجع بعد! . .

كذلك ظن سفير ايران في العراق ، لانه احتج على الحفاوة الملكية بالشاه وزوجته ، ورفض ان يزور الشاه ، وسماه (الشاه المطرود! . .) .

بدأت افكر بما اعرفه عن ايران جارتنا الشرقية ، ودار بي الخاطر الى الماضى البعيد .

كنت في سن العاشرة من عمرى عندما سمعت في درس التاريخ عن (بلاد فارس او بلاد العجم) ومليكها الذى يسمى (الشاه رضا خان) ، من قبل معلمتنا الشابة (صبيحة الشيخ احمد داود) .

كان كلام المعلمة عن الشاه بصورة خاصة . اخبرتنا ان والد الشاه (رضا خان) كان يشتغل في خدمة الاصطبل للشاه القاجارى السابق كسائس للخيول الملكية ، وان ابن السائس واسمه الاصلي (رضا ميرزا) دخل الجيش واصبح ضابطاً يشتغل في جيش الشاه القاجارى ، واصبح مهماً في الجيش واتخذ اسم (رضا ميرزا خان) لنفسه .

كانت بلاد فارس بحالة فوضى كاملة بعد الحرب العالمية الاولى ،

واخبرتنا كيف استولى (رضا ميرزا خان) على الجيش اولاً ، وثم استولى على البلد كله ، عندما كان الشاه القاجارى في سفرة الى اوروبا ، وكيف أمر (رضا ميرزا خان) خلع الشاه القاجارى ، ونصب نفسه شاهاً على بلاد العجم . كان الحديث بصورة سطحية جداً تناسب الطالبات ، واضافت المعلمة ، ان رضا خان كان امياً تعلم القراءة في سن الاربعين بعدما اصبح ضابطاً .

اتخذ الشاه (رضا خان) لنفسه لقباً جديداً ، اذ اطلق اسم (بهلوى) على اسرته ، وهو اسم اللغة التى كانت كانت سائدة في البلد قبل الاسلام ، وكذلك ابدل اسم البلاد كلها من (بلاد فارس) الى (ايران) لأن الفرس (آريون) ، ونحن العرب (ساميون) ، لم نفكر بما تعنى هاتين الكلمتين آنذاك ولكننا وجدنا الامر مضحكاً ملذاً كأنه قصة في (الف ليلة وليلة) ، اذ كيف يعزل ابن سائس الخيل الشاه القاجارى ، ويجلس على العرش نفسه ، ويصبح ملكاً لايران! . .

لم اتعلم الشئ الكثير عن ايران فيما بعد ، لان اهتمامى الكبير اثناء الطفولة والصبا ، كان في اوروبا ، والحياة الاوروبية المتحضرة ، وليس في البلاد الشرقية المتأخرة والتى تحتقر النساء! . .

بدأت اشاهد صور الشاه (رضا خان) في الجرائد والمجلات . كان الشاه رجل في سن الكهولة ، طويل القامة ذو وجه عابس وعيون نارية نفاذة ، وشوارب كبيرة منتصبة فيها الكثير من الشيب ويلبس قبعة غريبة الشكل اسمها (بهلوية) ، وهى تشبه قبعات الجيش الفرنسى في الصور والتعبير على وجه (رضا خان) في صوره كان مخيفاً! .

كان الشاه في بلاده قوياً طاغية ، يحكم ايران بيد من حديد .

ويقال انه كان اشد جشعاً من الملوك قبله ، وقد استولى على ثرواتهم وعلى اراضيهم .

كان اسم زوجته (تاج الملوك) وهى من عائلة افرادها من ملاكى الأراضي ، تزوجها عندما اصبح ضابطاً في الجيش .

كان ابنه الاكبر (محمد رضا) في سن السادسة من العمر عندما توج (رضا

خان) نفسه ملكاً سنة ١٩٢٥ ، واصبح (محمد رضا) والياً للعهد ، وله شقيقة توأم اسمها (اشرف) واخوة آخرين . وقد تزوج الشاه رضا خان زوجة ثانية على زوجته الاولى من سيدة من اسرة القاجار الملكية السابقة وله اولاد منها .

كان الشاه (رضا بهلوي) شديد الاعجاب بالرئيس التركى (مصطفى كمال باشا) او (اتا تورك) كما اسمى نفسه بعد سنوات ، ويميل الى اصلاحاته في الجمهورية التركية الحديثة ، ويود ان يسير على ذلك الطريق .

كان الاثنين يملكان الوطنية الجارفة لبلادهم ، وهجومهم ضد العادات الدينية العامة في حياة للناس . (اتاتورك) كان يبغي ان ينفصل عن الماضى العثمانى ويركض بأتجاه اوروبا التى تحتقر الاتراك ، لكن الشاه رضا خان ، حافظ على الملكية ، وكان يفخر بالتاريخ القديم لبلاده ويزهو بالاشياء المعمارية القديمة التى لها تاريخ طويل في ايران ، عندما كان الاتراك لايزالون رعاة في اواسط آسيا .

اهم ماعمل الشاه رضا خان لبلاده هو تأثير الحكومة والقوانين على البلد ، وبداية جيش كبير وقواد عسكريون على الطراز الحديث . وقد شجع سفور المرأة لاول مرة في بلاد فارس وفتح الجامعة في سنة ١٩٣٠ .

في سنة ١٩٣٩ سمعنا من اخبار مصر ان ولى العهد الايرانى الشاهبور (محمد رضا) تقدم لخطوبة الاميرة فوزية وهى كبرى الشقيقات للملك فاروق ملك مصر .

كانت الاميرة (فوزية) صبية في سن السابعة عشر ، جميلة جداً كما نبدو في الصور ، مثل كل شقيقات فاروق الاربعة ، وكان (محمد رضا) في سن التاسعة عشر . يبدو ان الشاه (رضا بهلوى) بعد ان تزوج زوجة ثانية من القاجار وهى العائلة المالكة السابقة ، بدأ يخطب الآن لابنه اميرة مصرية من اسرة مالكة عريقة هي اسرة الخديوى (محمد على باشا) ، الجد الاكبر للملك فاروق ملك مصر! . . .

بدأنا نقرأ اخبار الخطوبة من الجرائد المصرية بكل شغف ، خاصة جماعة الفتيات الاحداث لآن اخبار مصر في ذلك الوقت ، وخاصة عن الملك فاروق الشاب وشقيقاته الجميلات كانت اخبار تثير الاهتمام الشديد بين الفتيات في ذلك الوقت! . .

رأينا صور الخطوبة في الصحف المصرية ، وبدا الفرق واضحاً بين الاميرة الجميلة الانيقة ، الواثقة من نفسها ، وبجانبها الشاهبور (محمد رضا) الذى كان يبدو خجولاً ومضطرباً وبعيداً عن الوسامة ، خاصة بانفه الطويل المقوس وعدم معرفته اللغة العربية! . . .

وبعد فترة شاهدنا صور العروس وام العروس الملكة (نازلى) وبناتها ، الاميرات الصغيرات يسافرن الى طهران لحضور حفلة الزواج .

كنا معشر الفتيات في بغداد ، نخاف على فوزية ولقائها مع حماها الشاه المخيف كنا نضحك عندما نتصور انها لن تستطيع الكلام مع ذلك العجوز الطاغية .

يبدو ان الشاه احسن استقبالهم جميعاً رغم كلام البنات في بغداد! . .

وخلال سنة ولدت للعروسين بنتاً اسموها (شاه ناز) اظنه يعنى في اللغة العربية (دلال الملوك) .

اثناء الحرب العالمية الثانية كان الشاه (رضا خان) على اتصال مع الالمان خاصة بعد سقوط فرنسا في صيف ١٩٤٠.

حدث بعد الانتهاء من فشل حركة رشيد عالى ودخول الجيش البريطانى الى العراق ، قامت جيوش المانيا الهتلرية بغزو روسيا سنة ١٩٤١ ووصلت جحافلها بسرعة هائلة الى المدن الروسية الرئيسية .

عند ذلك دخلت القوات البريطانية الى ايران من الجنوب والقوات الروسية من الشمال ، واحتلوا ايران عسكرياً خلال ايام معدودة ، وارغموا الشاه (رضا خان) التنازل عن عرش ايران الى ابنه باسم الشاه (محمد رضا بهلوى) .

ارسل الانكليز (رضا خان) وعائلته الى جنوبى افريقيا ، ومات الشاه السابق هناك بعد فترة قصيرة . دفن جثمان الشاه السابق في القاهرة في مسجد (الرفاعى) ثم نقل الجثمان بعد الحرب الى ايران .

اما (فوزية) زوجة الشاه واخت الملك فاروق فأن الشاه طلقها في سنة ١٩٤٨ وكنا في لندن في ذلك الحين .

بدأنا نقرأ الآن بعض الامور عن الوضع السياسى الحالي في ايران من الجرائد والمجلات .

سمعنا ان الشاه محمد رضا تعرض الى محاولة اغتيال في قصره سنة ١٩٤٩ .

تزوج الشاه للمرة الثانية سنة ١٩٥١ من فتاة اسمها (ثريا اصفندياری) ، ابوها ایرانی من قبيلة (الباختيار) في جنوب ايران وامها المانية . يبدو ان العروس الجديدة ورثت محاسن الخلقة الشرقية والغربية لانها كانت في صورها على غاية الجمال ، وكان الشاه سعيداً ويرغب ان يصبح لديه ولداً منها .

بدأنا نقرأ اخبار ايران باهتمام عظيم عندما سمعنا ان رئيس الوزراء الايرانی الدكتور (مصدق) كان برغب في تأميم النفط وان الشعب الايرانی يؤيد مصدق .

الدكتور (محمد مصدق) ينتمى الى عائلة ثرية من ملاكى الأراضي الواسعة من جهة والده ، ووالدة مصدق هي من اسرة القاجار الملكية .

درس (مصدق) في فرنسا وتخرج في سنة ١٩١٤ دكتوراه في القانون السياسى .

وقد ترأس الدكتور محمد مصدق الوزارة الايرانية بعد اغتيال رئيس الوزراء السابق الجنرال (رازمارا) من قبل جماعات دينية متطرفة . تخرج (رازمارا) من كلية (سان سير) العسكرية في فرنسا ومات وعمره دون الخمسين .

انتخب المجلس الدكتور مصدق لانه كان بطل الساعة في تأميم النفط ، وكان الحماس القومى والدينى قوياً للغاية .

كان مصدق يمثل الجناح السياسى في ايران وكان هناك الجناح الدينى الذى يتزعمه (آية الله الكاشانى) . وكانت جماعة اخرى متطرفة اسمها (فدائيين اسلام) يرأسها شاب دون الثلاثين من عمره اسمه (نواب صفوي) وكانت وظيفة (فدائيين اسلام) عقوبة الموت لمن يهين الاسلام . وكان هنالك طبعاً حزب (تودة) الشيوعى الكبير في ايران .

كنا نقرأ عن (الدكتور مصدق) ونتحدث عنه جميعاً في العائلة وكذلك مع الاطباء في المستشفى . قيل عنه انه متحدثاً ساحراً مع ان عمره بلغ السبعين ، يجيد تحريك العواطف كما يشاء . يبدأ الكلام بهدوء عن الشعب وآلامه ، ثم ينفعل غضباً ، ثم ينفجر بالبكاء ثم السعال الشديد ثم ينهار تماماً ويقدمون له الماء

والمنعشات . وبعد قليل يسترجع وعيه ، وينجح في الوقوف على قدميه لكي يواصل كلامه ثم يغلبه التأثر نعد دقائق قليلة ويعود الى البكاء والسعال وفقدان الوعى لفترة قصيرة .

في احدى المرات ، ظهر بملابس النوم في المجلس! . . . ورغم ذلك كان الشعب الايرانى والعراقي أيضاً يعجب به وبعاطفته الصادقة .

اخبرت والدي في احد الايام وهو يمتدح الدكتور مصدق ، ان هذه العواطف المتغيرة الحادة وفقدان الوعى لدقائق قليلة ثم استرداد الوعي والعودة الى الموضوع السابق بهدوء في البداية ثم الغضب ثانية يدل على ان الشخص يشكو من خرفاً يسير ببطأ في دماغه .

لم يعجب والدي هذا الكلام وظن اننى اتهجم على مصدق ، مع اننى كنت احترم مصدق وشجاعته . ولكنى كنت افكر من الناحية الطبية على الخرف ، والتأثيرات العاطفية الحادة والبكاء السريع وفقدان الوعى ، وعدم الاهتمام بلبس الملابس الملائمة وغيرها .

أصدر الدكتور مصدق قرار تأميم النفط في ابريل ١٩٥١ ووقعه الشاه في شهر مايو وتوقفت شركة البترول من دفع التزاماتها للخزانة الايرانية مما ادى الى عدم صرف رواتب الكثير من الموظفين . يبدو ان مصدق لم يهتم بقضية المعيشة ورواتب الموظفين ، او ربما لم يفكر بها! . . .

في نهاية تموز توقف تكرير النفط كلية ، وذهب مصدق بنفسه الى مجلس الامن ليعرض القضية ، وكان ذلك عندما كنت انا في كاليفورنيا في سنة ١٩٥١ عندما تكلم مصدق في هيئة الامم .

شاهد الناس بكاءه وسعاله وانهياره في مجلس الامن عدة مرات . وفى امريكا لاتمر هذه المشاهد الغير مألوفة دون الاستفادة منها في الاسواق ، وسرعان ما اجتاحت السوق مناديل وعليها اسم مصدق للبكاء ، لم ار المناديل بنفسي وقيل لي انها بيضاء وكبيرة وتتحمل الكثير من البكاء بسهولة . وطلبوا مني ان اشترى المناديل لان الدكتور مصدق هو من (بلادى) وبقيت اردد لهم :

– بأن ايران هي ليست (ايراك أي العراق) ، واننى لم اسمع عن رجال

السياسة في العراق البكاء اثناء خطاباتهم في المجلس! . . .

فكرت بكل هذا ، وانا اقرأ بأن الشاه الهارب والملكة ثريا بدأوا يزورون المراقد المقدسة في العراق بدأ بمدينة النجف لزيارة الامام (على) وبعدها مدينة (كربلاء) لزيارة الامام (الحسين) عليه السلام ، ثم الى الكاظمية لزيارة الامام (موسى الكاظم) والامام (محمد الجواد) ، وثم الى مدينة (سامراء) لزيارة الامامين (على الهادى وحسن العسكرى) عليهم السلام جميعاً .

بعد ايام قليلة غادر الشاه والملكة ثريا بغداد الى روما . ويقال ان السفير الايرانى في (روما) رفض زيارة الشاه هناك باعتبار ان الشاه كان مطروداً! . .

بعد ذلك سمعنا ان مليونيراً من اليهود ايرانى الجنسية ذهب الى الشاه في روما ، وقدم له صكاً مفتوحاً ليأخذ الشاه منه ما يشاء .

في تلك الايام وشاه ايران في روما كان العيد الكبير عندنا على الابواب .

سفرة سرسنك ١٩٥٣

قررنا السفر مع الاصدقاء نديم الباجةجي وزوجته (بوني) الامريكية ، والتي طلبت من ان ترى معالم من العراق خارج بغداد في ايام العيد القادم . وكنت اشجعها على ذلك لكي نرى سرسنك المصيف الصغير في شمالي الموصل .

كنت اسمع عن سرسنك من الجرائد العراقية ، لانها القرية التى اتخذهاالامير عبد الآله مصيفاً له وبدأ بتشيد بيت جديداً له هناك .

كان الامير عبد الآله صياداً ماهراً ويحب اصطياد الطيوروالحيوانات الجبلية وكان كذلك يقضي شهر رمضان للصيام هناك .

والامير يعرف القرويين في الجبال شخصياً ويزور قراهم ويحضر أحياناً حفلاتهم واعراسهم ويدخل كنائسهم ، والاكثرية هناك من الطائفة المسيحية ويتكلمون لسانهم الخاص من اللهجات السامية القديمة .

كانت ايام العيد قليلة ، والذهاب الى سرسنك يستغرق يوماً بكامله للذهاب ومثله للرجوع الى بغداد وكنا كلنا موظفين في الحكومة! . .

كان لدى شركة نفط العراق طيارات صغيرة لنقل موظفيهم يومياً الى الموصل

وكركوك ، والشركة مرتبطة بوزارة الاقتصاد ، لذلك طلب وزيرالاقتصاد السيد نديم الباجةجي ومعه مدير شؤن النفط العام زوجي احسان ان نذهب الى الموصل في احدى هذه الطائرات اقتصاداً في الوقت ، رغم انهما يكرهان الركوب بهذه الطائرات بسبب صغر حجمهاالذي لايوحي بالثقة لدى الركاب .

اسم الطائرة هذه (دوف) أي الحمامة بسبب ضآلة حجمها .

في المطار دهشنا انا وبوني من صغر حجم الطائرة ، ورأينا الامر غريباً يستحق التجربة . اثناء الطيران شعرت وكأننا نطير ونحن داخل احد اوكار الطيور! . .اخذنا نسمي الطائرة (عش اللقلق) . كانت طائرة الحمامة لاتحوي الا كراسي بسيطة فيها مشد للجسم ، وهي خالية من كل وسائل الراحة اوالزينة داخل الطائرة! . .انها طائرة اقتصادئة تستعمل للاسفار القصيرة للموظفين .

نزلنا في المطار في الموصل واخذنا السيارة وتجهنا نحو الفندق الى سرسنك .

سارت السيارة شمالآ وتبدلت الارض واصبحت جبلية خضراء عالية ذات وديان واسعة بين الجبال . كانت المناظر مختلفة عن المنطقة الجبلية التى رأيناها في اطراف سليمانية .

سمعت (بوني) تقول :

– انظروا الى وجوهكم التي اصبحت طلقة ومرحة منذ الآن . ان المكان يبدل تصرفاتنا . ان الاقامة الطويلة في بغداد بالرغم من مناظر نهر دجلة الجميل تؤدي الى الملل . هناك لانرى الا الاراضي المستوية قي اطراف بغداد وذلك يجعلنا نمل من رؤية تلك المناظر بعد حين . انطروا ، ما اجمل هذه الجبال العالية! . . .

في الطريق الى الفندق رأينا الواحاً خشبية كبيرة مكتوب عليها اوقات الامتناع هن صيد الطيورفي اشهر معينة من السنة للحفاظ على الطيور لئلا تندثر .

قال سائق السيارة ان الامير عبدالآله شاهد جماعات من الناس يصطادون الطيور في اوقات بيوضها وقد فهموا معنى منع الصيد الموقت في السنة وانهم الآن يخضعون باهتمام لاوامر الوصي ويلتزمون في صيد الطيور والمحافظة عليها ، وهذه الالواح الخشبية منتشرة في محلات بعيدة بين الجبال .

لاحظت الاولاد الاكراد الصغار مرة اخرى قي سن السادسة او السابعة وهم

يدخنون السيكاير مثلما رأيتهم في منطقة السليمانية قبلا . بدأت اتمنى لو ان الامير يحاول ان يجعل الآباء الاكراد بمبادرة من رجال الجوامع والكنائس لنصح الاولاد ضد التدخين لعلهم يطيعونه كما اطاعوا رأيه في العناية بالطيور! . . .

وصلنا الفندق وهو في واد واسع جميل مشيد بشكل عصرى بسيط يتألف من طابق واحد على شكل صف من الغرف المتشابهه لاادرى عددها الآن ، وامام الغرف حديقة جميلة مليئة بالازهار الجبلية والمغروسة وفيها كراسٍ عديدة لجلوس اهل الفندق . وفى نهاية الحديقة ، ترتفع الارض عالياً نحو الجبال وهى مغطاة باشجار كثيرة ويبدو جميلا كقطعة من الصور .

غرفتنا كانت واسعة وهي لشخصين وتحوي سريرين ودولاب ملابس ومرآة كبيرة وكرسيين وبها حمام صغير .

تناولنا العشاء في غرفة الطعام الكبيرة وآوينا باكراً الى النوم .

في الصباح وبعد الفطور ، اخذنا نحن الاربعة نتسلق الجبل المطل على الفندق ، وصعدنا مسافة طويلة وكنا نتحدث اثناء جلوسنا على الصخور للراحة ، شاهدنا الانهار الصغيرة الصافية ومياهها الشديدة البرودة تنبع من اعماق الجبل وتبدو بلونها الفضي اللامع تحت اشعة الشمس الدافئة وكأنها انهار الجنان تجري فوق صخور صغيرة مختلفة الالوان ، مغسولة ابداً بهذا الماء العذب الرقراق إذ بدت الانهارالصافية النقية كمعجزة من معجزات الطبيعة والصخور الصغيرة الملونة وكأنها احجار كريمة لاتثمن! .

رأينا الكثير من الاشجار المختلفة كالبلوط والسرو والجوزوانواع اخرى من الاشجار .

عشقت بوني هذه المنطقة الجبلية واخذت تردد :

- لم لانبني بيتاً لكل منا بين هذه الجبال الرائعة ونمكث بها في الصيف! . .

كان الجواب لدى زوجها وزوجي ان الهدوء جميل لفترة قصيرة وبعدها يصيبنا الملل والسأم . ان السكن في الجبال هو في جبال لبنان ، حيث الراحة والسكون في الجبل وبيروت وبحرها ومطاعمها واسواقها كلها دانية قريبة ، هناك لن نحس بالسأم! . .

نزلنا الى الفندق لاجل الغداء وكان الفندق لايحتوي على أي شيء آخر للتسلية ، لم يكن فيه احواض للسباحة ولا ساحات تنس ولا حتى طاولات للعب تنس الطاولة (البنك بونك) لذلك كانت العاب الورق هي التسلية الوحيدة للنزلاء . رأينا الجميع يلعبون الورق على مناضد عديدة ، صغاراً وكباراً لعدم وجود أي تسلية آخرى .

وكنا نحن الاربعة لانلعب الورق ابداً . وقد اتينا لنستمتع بالجو الجميل والجبال العالية والهدوء .

رأيت حوالي سبع عائلات من بغداد ومعها بنتان وكانوا يملأون الفندق ، وكنت اعرفهن جميعاً وكان الجميع من امهات وبنات واطفال يلعبون الورق .

كان عدد البنات الشابات كبيراً ، وكن جميلات ومثقفات ومن عوائل معروفة .

كان الملك وولى العهد وبعض من افراد العائلة المالكة من النساء في غرف في جانبية من الفندق ، لان البيت الملكي لم يكن قد تم بناؤه تماماً ولم يكن جاهزاً للسكن بعد .

كان الملك والامير عازبين في ذلك الوقت . الملك فتى في التاسعة عشر من عمره ، والامير عبد الأله طلق زوجته الثانية (فائزة الطرابلسي) المصرية ، وكان عمره حوالي الاربعين سنة ، ولكنه يبدو بقامته الرياضية ووجهه الوسيم وكأنه في سن الثلاثين او اقل ، وعندما رأيت العدد الكبير من البنات الصبايا في الفندق ، خطر في بالى بأن خطبة ملكية قد تحدث في هذا الفندق! . . .

وقد صح ما كنت اتمنى حدوثه لان احدى السيدات التي اعرفها جيداً هناك اسْرت الي ان الامير عبد الأله يبدي اهتماماً خاصاً بواحدة من الفتيات الجميلات ، رغم ان والدتها كانت تلازمها طيلة الوقت هناك . افرحني ذلك الامر جداً ، وكنت متشوقة ان اسمع بحدوث الخطبة هناك! . . .

بعد فترة قصيرة ظهر الملك وولى العهد من غرفهم وجلسوا في الحديقة ، وكان يجلس معهم نورى باشا والدكتور فاضل الجمالى .

كنا على مسافة بعيدة من الملك وجماعته ، شاهدناهم يتكلمون باهتمام كبير

بينهم ، وهمسنا ضاحكين بيننا بأن حديثهم لابد وانه يدور عن ايران وتأميم النفط والشاه الهارب مع زوجته الى الى روما .

في اليوم التالي ، ونحن نتناول الغداء سمعنا انباء مثيرة في الراديو بان انقلاباً عسكرياً حدث في ايران وان الجنرال (زاهدي) رئيس اركان الجيش الايراني اسقط حكومة الدكتور مصدق ، وأن الشاه محمد رضا سيعود الى طهران وايران مضطربة جداً! . .

فاجأتنا الاخبار المهمة هذه ، واخذنا نفكر بايران جارتنا الشرقية . واذا بصاحب المطعم يخبرنا ان الملك والامير ومعهم نوري باشا والدكتور فاضل الجمالي بعد سماعهم اخبار ايران ، غادروا الفندق في دقائق معدودة وتوجهوا الى بغداد في الحال في طيارة خاصة .

وعلى الرغم من علمنا بأن (مصدق) وفشله الفظيع في سياسته ضد الشاه وضد شركة النفط ، اسفنا نحن الاربعة بسبب ولاء مصدق نحو بلده ومركزه عند الشعب الايراني بعد ان حكم مدة ثلاث سنوات! . .

كان ذلك اليوم هو نهاية العيد عندنا ، واخذت جماعات النساء وبناتهن يسرعن الرجوع الى بغداد .

ولم نسمع قيام أي خطوبة لا من قبل الملك ولا من قبل الامير .

رجعنا بالطائرة الصغيرة (الحمامة) الى بغداد وسمعنا ان الشاه عاد الى طهران وأنه كلف الجنرال (زاهدي) ان يشكل الوزارة في ايران .

اما(مصدق) ، كنت اظن انه سوف يكف عن السياسة بعد فشله ويبقى في بيته محترماً ، ولكن هذه الامور لاتحدث في البلاد الشرقية ، الشخص الفاشل له حسابه السريع الحاسم مهما كان مركزه والعقوبة هي السجن او الاعدام! . .

وقد حكم على (مصدق) بالسجن لمدة خمس سنوات واصيب اثناءها بالشلل . قضى المدة في السجن ثم مات بعد اطلاق سراحه بفترة وجيزة .

وقد احرق بيت مصدق وازيلت آثاره بالجرافات لئلا يبنى ويصبح قبلة للمعارضة في المستقبل ، وقتل وزير خارجية مصدق (حسين فاطمي) بالشارع ، كما قتل طلاب ومتظاهرون في الشوارع أيضاً .

قرأنا الكثير في المجلات الامريكية من ان وكالة المخابرات الامريكية (سي .آي . ايه .) خططت لرجوع الشاه من روما ونجحت بسهوله رغم وجود الشاه في الخارج . وكان (كرميت روزفلت) هو المسؤل عن هذه العملية واصبح بعد نجاحه ضد مصدق شخصاً كبيراً جداً في وكالة المخابرات الامريكية .

اتذكر مقابلتي لكرميت روزفلت في احدى الحفلات وكنا ندري انه في مركز كبير لانه من عائلة روزفلت وله شخصية نافذة . لم نتعرف على عمل كيرمت روزفلت الا بعد فترة طويلة ، حيث قرأنا اسمه مقروناً باعمال (سي .آي . ايه .) في المجلات الامريكية بعد ان تقاعد عن عمله .

اما ما حدث للسفير الايراني في بغداد الذي رفض مقابلة الشاه اثناء مروره في بغداد ، فانه غادر العراق ولم يستطع الرجوع الى بلاده ، وكان ذلك أيضاً هو ما حدث للسفير الايراني في روما الذي رفض بدوره مقابلة الشاه باعتبار الشاه كان مطروداً! .

والمليونير اليهودي الايراني في روما ، وهو الذي قدم للشاه الهارب الصك الخالي موقع بأسمه ليتصرف به الشاه كما يشاء ، ادخله الشاه المجلس النيابي وبقي عضواً فيه الى ان جاء الخميني الى ايران سنة ١٩٧٩ وابعده .

وقد كتبت عنه الجرائد والمجلات الامريكية الكثير .

في وقت العصر رأيت جماعات من بغداد ، زوجة جمال بابان وابنتها واولادها ، زوجة محمد على محمود (ام علية) ومعها بناتها الثلاث وولديها ، زوجة السيد على كمال ومعها ابنتيها وابنها ، صبيحة عباس ومعها ابنها وابنتها ، والسيدة فخرية زكى .

كان الجميع يلعبون الورق ويتمتعون بالنسيم العليل بعد حر بغداد .

وكانت بين النزيلات فتيات شابات جميلات ومثقفات ومن عوائل معروفة .

وقد كتبت عنه الجرائد والمجلات الامريكية الكثير .

في وقت العصر رأيت جماعات من بغداد ، زوجة جمال بابان وابنتها واولادها ، زوجة محمد على محمود (ام علية) ومعها بناتها الثلاث وولديها ، زوجة السيد على كمال ومعها ابنتيها وابنها ، صبيحة عباس ومعها ابنها وابنتها ،

والسيدة فخرية زكى .

كان الجميع يلعبون الورق ويتمتعون بالنسيم العليل بعد حر بغداد .

وكانت بين النزيلات فتيات شابات جميلات ومثقفات ومن عوائل معروفة .

وقد كتبت عنه الجرائد والمجلات الامريكية الكثير .

في وقت العصر رأيت جماعات من يغداد ، زوجة جمال بابان وابنتها واولادها ، زوجة محمد على محمود (ام علية) ومعها بناتها الثلاث وولديها ، زوجة السيد على كمال ومعها ابنتيها وابنها ، صبيحة عباس ومعها ابنها وابنتها ، والسيدة فخرية زكى .

كان الجميع يلعبون الورق ويتمتعون بالنسيم العليل بعد حر بغداد .

وكانت بين النزيلات فتيات شابات جميلات ومثقفات ومن عوائل معروفة .

طفلة ثالثة

كانت المدة مابين ١٩٥٣ والى ١٩٥٥ سنوات تعب شديد بالنسبة الي .

كانت ابنتى شيرين في الثالثة من عمرها ، ولم اود ان اراها تكبر وحيدة وفكرت ان وجود اخ او اخت لها سيجعل حياتها اجمل لان الاطفال الوحيدين يتعلقون بالابوين بدلاً من اللعب والتفاهم مع الاخوه . وبالرغم من متاعبى الكثيرة في ايام الحمل قررنا ان يكون لنا طفل آخر ويكون الاخ او الاخت لشيرين .

كان ذلك بالرغم من الاشهر التسعة التى سأقضيها شبه مريضة بسبب الغثيان والقى والكسل وكره الطعام وشرب الشاي وجميع الروائح للأكل والطيب ورائحة السيكاير التى عانيتها مرتين .

اذكر ان للدكتور (علي كمال) استاذ الامراض العصبية والعقلية في الكلية ، شاهدنى في المستشفى وعلي آثار الكسل والخمود الفكرى تعجب، من التغيير طرأ علي وقال :

– ما هذا؟ لقد حدث معك تبديل في الشخصية! . . انك شخص آخرا . .

وقد كنت حقاً شخصاً آخر طيلة الحمل .

وصلت نهاية الشهر الثامن وكنت راضية لان المدة انقضت تقريباً .

في احدى الامسيات ، وكنت في ملابس النوم اقرأ كتاباً ، خابر الصديق جعفر علاوى وقال انه وزوجته مليحة يدعونا على العشاء في نادى المنصور وقد دعى الصديق عبد الجبار جلبى وزوجته وجيهه فقط وكرر رجاءه بحضورى ، والدعوة صغيرة ولن يكون معنا احد آخر .

طلبت من احسان ان يذهب بمفرده ويعود كما يشاء لأنني ارغب في النوم مبكرة .

لاادرى مالذى جعل احسان يصر على بطريقة لطيفة للذهاب معه ، رغم اعتراضى الكبير . لم استطع احتمال اصراره ، ابدلت ثيابي ، للذهاب الى نادى المنصور. كان بيتنا في منطقة العلوية جنوب بغداد استأجرناه قبل بناء بيتنا الجديد بشهور ، ونادي المنصور في منطقة الغرب من بغداد في جهة الكرخ .

وصلت السيارة بنا الى شارع (الرشيد) قرب مخازن اوروزدى باك ، وعبرنا النهر على جسر (فيصل الاول) لان الجسر المعلق لم يكن موجوداً آنذاك ، ووصلنا النادى .

رحبت الجماعة بوجودى لأنني كنت اتحاشى الخروج في الليل آنذاك .

كانت الجلسة لطيفة جداً والحديث مع هؤلاء الاصدقاء كان كالعادة ، حميماً صادقاً ذكياً ، رغم اننى لم اتكلم الا نادراً ، لكنى كنت استمع اليهم والتذ بتعليقاتهم رغم الغثيان في معدتي .

في منتصف الليل غادرنا النادى كل بسيارته . سرنا نحن على طريق (السدة) وهو طريق يعلو على الارض على الجانبين في طريقنا الى الجسر .

كنا على السدة ونسير بسرعة كعادة احسان في السياقة ، واذا بالسيارة تقف بصورة فجائية ، اذ تمكن احسان ان يخفف من سرعتها فلم تنقلب ، ولحسن الحظ لم تكن ورائنا سيارة اخرى .

نظر الى احسان وهو مذهول وقال :

ـانت بخير . . .لاتخافى! . . نحن بخير . . اتركى السيارة وسنذهب بتاكسى الى البيت .

انا لم اكن خائفة بمعنى الخوف الطبيعى ، ولكن قلبى كان يخفق بسرعة شديدة جداً اذهلتنى . خفقان شديد من دون الشعور بالخوف! . . . احسست ان الطفل الكثير الحركة في هذا الوقت ، قد تحرك حركة واحدة سريعة ثم لم يتحرك بعدها ابداً! . . .

اجبت احسان بهدوء قائلة :

ـ لم اتأذ من شيء ، وانا لست خائفة! . .

لكن قلبى كان يخفق بسرعة هائلة . انه شعور لم يصادفنى قبلاً .

كان شعورى الغريزى يدل على حدوث شيء كبير في جسمى! . . .ولكن تفائلى الموجود دائماً ، منعنى من الشكوى ، خاصة لعدم وجود الم في بدنى . ظننت ان الحادث قد مر من دون شرا! . .

في الطريق استوقفنا سيارة تاكسى ، وكنت في حالة سكوت تام الى ان وصلنا البيت .

اثناء الليل لم اشعر بحركة الجنين . نمت بهدوء في الليل ، وفى الصباح لم اشعر بحركة للجنين ، ولكنني كنت على عادتى كل يوم . لا اشكو من الم في جسمى .

بعد يومين وجدت نفسى قد ازددت نشاطاً ، واختفى الغثيان وزال التورم من القدمين .

ذهبت الى صديقتى الدكتورة (لميعة البدري) واخبرتها ما حدث ولا اشكو من شيء سوى ان الجنين لايتحرك . انصتت الى البطن لسماع قلب الجنين ثم قالت :

– انها تسمع قلب الجنين بصورة بطيئة . واضافت ، انك تبدين بصورة جيدة جداً . سوف تشتد حركة قلب الجنين . لاحاجة لك بالراحة او البقاء في الفراش .

اعادت كلماتها الامل الى قلبى ، وظننت كل شيء على مايرام .

بعد يومين او ثلاثة بدأت اتذوق الطعام والتذ به كالماضى واشرب الشاي الذى اكرهه اثناء الحمل واصبحت حركاتى اخف من قبل ، ولايزعجنى شيء سوى عدم حركة الجنين .

ذهبت الى الدكتور كمال السامرائى واخبرته القصة كما حدثت . استمع الى قلب الجنين وقال :

- لم اسمع صوت قلب الطفل . . .سننتظر ونرى ما يحدث . ستكون الولادة طبيعية . لاتخافى! . .

رجعت الى البيت وأنا اكرر في ذهنى :

ـ لاصوت لقلب الجنين! . .الولادة طبيعية! . .لا تخافى! . .

لاتخافى! . . لم اكن خائفة على نفسى ،كنت خائفة على الطفل الذى حان ميعاده الا قليلاً! . .

لم اخبر أحداً ، لااحسان المتفائل ولاامى التى كانت تنتظر صبياً بفارغ الصبر! . .

اخبرت اختى لمعان فقط ، وكنا نتحدث عن الامر بالخفاء بيننا ،وكأننا نتحدث عن سر عميق! . . .

بعد يومين ، ظهرت اعراض الولادة ، خابرت احسان ولمعان وامى وذهبنا الى المستشفى الملكى وكان الوقت عصراً بعد الدوام الرسمى .

اتت الدكتورة (فاطمة الخرسان) وكانت الطبيبة المقيمة . لم نحتاج الاتصال بالاستاذ كمال السامرائى لان الولادة كانت سهلة طبيعية ومعنا الدكتورة فاطمة الخرسان .

سمعت الدكتورة فاطمة تقول لوالدتي وانا نصف مخدرة اثناء الولادة :

- لابأس! . الام بخير! . . الجنين ميت ، انها طفلة! . . لديكم طفلة . في السنة القادمة تلد ولداً انشالله! .

بهذه البساطة تحدثت عن الموضوع! . . رفعت رأسى لكي ارى ابنتى ، وكانت لاتزال قرب الفراش ، رأيتها تشبه شيرين تماماً! كاملة! لطيفة! .

طلبوا مني ان لاانظر اليها لئلا اتألم! . .

اتألم! . . اننى شعرت وكأننى فقدت جزء من كيانى ومن روحى في تلك الايام..!

مرور الزمن يجعل المرء يسلو وينسى ، بعد مدة طويلة ، والا لما عاش البشر مع

احزانه! . .

كنت اشعر ان ما حدث لي هو ضربة شديدة لااستحقها! . .للمرة الثانية افقد طفلة كاملة جميلة بعد مرور اشهر طويلة بحالة شبه مرضية تحملتها والنتيجة كانت لاشئ! . . .

كانت احزانى كبيرة وعميقة بشكل لايوصف .

كنت لاازال في المستشفى بعد الولادة عندما عادت اختى الصغرى (امل) من امريكا وقد حصلت على الماستر في الادب الانكليزى ومعها زوجها (عبد الرسول الاسترابادي) الذى حاز على الماستر في الهندسة وأتوا لزيارتي في المستشفى الملكي .

اتت ابنتي (شيرين) لترانى ولم يخبروها عن الامر . غضبت من رؤيتى نائمة في هذا المكان الغريب وظلت تلح على ان اذهب الى البيت وارقد في فراشى! . .

غادرت المستشفى بعد ثلاث ايام ومعى ملابس الاطفال الصغيرة التى اخذتها معى باعتبار ان تحدث معجزة ويعيش طفلي ويلبسها! . .

لم ادر ماذا اقول لشيرين عندما عدت الى البيت ، لقد وعدتها من قبل بأننا سيكون لنا طفلا وكانت تسميه (النونو) ، وذلك لكي تتهيأ لملاقات الطفل وقد اسعدها ذلك رغم عمرها الصغير .

وضعت شيرين في حظنى وجلسنا على كرسى كبير وقلت لها :

– ان (النونو) لن يأتى الينا . انها بنتاً صغيرة وقد ذهبت . ولن نراها! . .

يبدو انها فهمت ما اقول وظنت الامر مزحة ، لانها وضعت يدها الصغيرة علي وقالت :

– سوف يأتى ، سوف يأتى! . .

كررت عليها الكلام بأن (النونو) لن يأتي ، واذا بها تبكى وتقول :

– عندنا نونو . عندنا نونو! . .

اخذت ابكى معها بكل ما في قلبى من حزن ويأس! . .

مرت بي فترة حزن عميقة لم يساعدنى فيها لا الخروج لرؤية الناس ولا القراءة ولاالعمل .

وعندما نخرج في الامسيات كنت اتخيل تلك الليلة المشؤمة واكرر كلامى مع احسان :

- لم الححت على بالخروج رغم ارادتى؟ .ماذا جنيت من الذهاب؟ الطفلة كان الآن عمرها شهر او شهرين .

وبعدها ابكى بشدة! . .وكان احسان يبكى معى أحياناً ، وأحياناً يحاول عبثاً ان يهدئنى .

اخبرت أمي على بكائى في الليل واذا بها تستشيط غضباً :

ـ ماذا لو انك او زوجك اصطدمتم وحصل لكما شيء! . .ان الطفلة كانت لكما الضحية احمدى ربك على نجاتكم! . .لا تدعى الحادثة تؤثر على حياتكما .

بعد فترة شهور قصيرة ، داهمنى الغثيان والقى . يجب ان انسى الطفلة التى لم تر الحياة! . .

مررت بالاشهر الطويلة شبه مريضة ولكن دون اعتراض او تذمر . كنت اريد ان انسى ماحدث! . .

انتقلنا الى البيت الجديد الذى بنته (الين جودت) ولم يهمنى بنائه بسبب حالتى النفسية! . . بعد فترة قصيرة في شهر كانون الثانى ذهبت الى مستشفى (كمال السامرائي) ، وولد لنا صبي جميل الصورة ، ملأ قلبينا فرحاً وسروراً .

فرحت والدتى به لانه كان ولداً وهو ما كانت تصبوا اليه ، ولان لونه شديد البياض متورد ، وله عيون شهلاء فاتحة وشعر اشقر قليل على رأسه .

دخلنا البيت الجديد بفرح ومعنا ابننا (احمد) . وضعنا الطفل في مهده ونحن باسمين ضاحكين ، ولكن اول خاطرة خطرت على بالى :

ـ لو بقيت الطفلة لكان عمرها سنة وشهرين الآن! . .

سفرة طبية الى طهران

كانت كلية الطب في بغداد على علاقات جيدة مع كليات الطب البريطانية في انكلترا وفى سكوتلاندة منذ ايام الحرب العالمية الثانية ، حيث اخذ الاطباء

الاساتذة البريطانيون الذين يعملون مع الجيش البريطانى ، يشتركون في امتحانات الصف النهائى في كلية الطب كأساتذة خارجيين . وقد ساعد ذلك خريجى كلية الطب عندنا على السفر والاشتراك في مختلف المستشفيات الطبية البريطانية ودخول الامتحانات هناك .

بعد الهدنة والسلام بين الدول المتحاربة ، غادر العراق الجيش البريطانى واطبائه معه .

اخذت كلية الطب العراقية تدعو الاساتذة البريطانيين لمدة شهر اواكثر ، للتدريس ولمشاهدة الامتحانات عن كثب . كانت النتائج جيدة جداً في امتحانات الطلاب العراقيين في سنواتهم الاخيرة في الكلية مع الاساتذة الخارجيين .

بدأ الاساتذة البريطانيين يأتون بدعوات الى كلية الطب عندنا ، وأحياناً كانوا يأتون بدعوة من المعهد الثقافى البريطانى إلذي كان يدعوا الاساتذة البريطانيين من مختلف فروع الطب كالجراحة او الامراض الباطنية او الامراض العصبية والعقلية او الامراض المعدية ، وكان مجيئهم يبعث النشاط والاهتمام عندالاطباء في المستشفى التعليمي وعند الطلاب أيضاً .

لاحظت ان الاطباء البريطانيون يظهرون الكثير من الاهتمام بالاثار العراقية القديمة ، بدئاً من زيارة المتحف العراقى الذى اسسته المس (بيل) في العشرينات ، وبعدها زيارة المحلات الأثرية نفسها ، وكانت تدهشنى معلوماتهم الكبيرة عن الآثار العراقية . اظنهم كانوا يقرأون عن آثار العراق قبل مجيئهم ، إذ رأيت الجميع يسألون عن بابل وآشور وسومر وأكد واور والوركاء والكتابة المسمارية وعن نمرود والحضر في الشمال ، واشياء اخرى لم يكن الكثير من العراقيين الاطباء يعرفون عنها كثيراً . وكذلك كانوا يسألون عن المدن الاسلامية في العراق مثل بغداد القديمة والبصرة والكوفة وسامراء .

قال لي احد الاساتذة انه يعتقد ان كل (تل) خارج المدن العراقية لابد وانه يحوى كنزاً من الآثار القديمة! . . .

شاهد الاطباء البريطانيون مختلف الآثار في الشمال والجنوب مع اطبائنا ، وكان يصحبهم عادة شخصية من موظفى الآثار الكبار الذين يسرهم اهتمام هؤلاء

الاجانب بآثارنا القديمة .

في ربيع سنة ١٩٥٥ تقرر ان يعقد مؤتمر طبى بريطانى في كلية الطب في جامعة (طهران) العاصمة الايرانية يحضره بعض الاطباء البريطانيين بدعوة من المعهد الثقافى البريطانى في ايران .

طلب المعهد الثقافى البريطانى في بغداد من الجمعية الطبية العراقية ان نسجل اسمائنا اذا اردنا حضور هذا المؤتمر ، وسيكون السفر والاقامة كل على حساب الاطباء العراقيون طبعاً ، ولكننا سنكون اعضاء زائرين بدعوة من المعهد البريطانى في ايران الذي سوف يحجز لنا الاقامة في الفنادق الجيدة ، وحضور الزيارات المتعددة التى تكون جزئاً لايتجزأ من هذه المؤتمرات القيمة .

دعى المعهد الثقافى البريطانى ثلاثة من الاساتذة الكبار من لندن وادنبرة وهم الاستاذ (دنلوب) وهو استاذ فرع التداوى الطبى في جامعة (ادنبرة) ، وهو احد اطباء ملكة بريطانيا اثناء وجودها في الصيف حيث تقضى هي وعائلتها عطلة الصيف في قصرها (بالمورال) في سكوتلاندة في كل عام .

الاستاذ الثانى كان عميداً لكلية الطب في جامعة ادنبرة ، والاستاذ الثالث كان البروفسور (مكدونالد كريشلى) عميد مستشفى الامراض العصبية الملكى في لندن .

واشترك في المؤتمر اساتذة بريطانيون من كلية الطب في بغداد مثل استاذ (امراض الصحة العامة) في كلية الطب في بغداد واسمه (مايكل كريشلى) وهو الاخ الاصغر للاستاذ مكدونلد كريشلى ، ومع الاستاذ مايكل كريشلى زوجته الدكتورة (دوروثى كريشلى) التي تشتغل في الامراض النسائية في بغداد ومعها صديقتها الدكتورة مارى والتى لااذكر اسمها(الكامل) ، والتي قدمت من لندن لهذا الغرض .

واشترك كذلك استاذ بريطانى آخر هو استاذ (التخدير الطبى) في قسم الجراحة في الكلية الطبية في بغداد ، كما اشترك عدد من الاطباء والطبيبات من العراق اذكر من بينهم الطبيبات الدكتورة (آمنة صبرى مراد ، وصبيحة الدباغ) وانا . ومن الاطباء الدكاترة (عبد الرحمن الجوربةجى محمود الجليلى وخالد

ناجى وعلاء الدين الخالدى) وغيرهم .

سافرنا في طائرة خاصة للاطباء فقط ، وكانت الطائرات آنذاك اصغر من طائرات (الجت) العملاقة التى نستعملها الآن .

اثناء السفر وقف الدكتور (علاء الخالدى) الذى يحلو له الضحك والفكاهة مع الاخوان وقال انه سوف يعلمنا بعض الكلمات الفارسية بواسطة كتاب صغير يحمل في اليد اسمه (كيف تتعلم الفارسية في اسبوع) .

بدأ في الكلام عن الطعام وقال اذا دخلنا مطعماً في ايران ، كيف نطلب منهم اللحم المشوى مثلاً لكي يفهمونا؟

- الجواب بالفارسية اطلبوا (كباب)! . .

ارتفعت اصوات الضحك من المسافرين . ولما هدأ الضحك قال :

- اذا اردتم شراء العندليب الفارسي الجميل في السوق؟

- قولوا في الفارسية : بُلبُل (بضم حرفي الباء)

ماذا تقولون لسائق التاكسى ان اردتم الذهاب والرجوع الى الاوتيل؟

- قولوا نذهب (خري مري)! . .

وظل الدكتور (علاء) يقرأ الكلمات الفارسية لنا ، مثلا رسم (الكاريكتور) في الجريدة اسمه (شلولو) واذا كلمت شخص مسن في الطريق فقل له (عمو). . اخذ الضحك يعم الجميع لأن الكلمات والتعابير العامية في بغداد مليئة بكلمات ايرانية نستخدمها كل يوم ، ولم نكن نعرف اصلها .

كانت هذه الكلمات العامية المألوفة اول صفات التشابه الكبير بيننا وبين ايران . مناظر الأراضي الايرانية من الطائرة ، تشابه مانراه في ارض القمر بالتلسكوب ، انها جبال ووديان متصلة وكلها خالية جرداء لااثر للاشجار فيها . انها (هضبة ايران) وهى جارتنا الشرقية .

كان سرورى كبيراً لقرب وصولنا الى هذه البلاد التى عرفت عنها الكثير من دون ان اراها . انها بلاد الف ليلة وليلة الساحرة (وشهرزاد) المحدثة الحسناء التى انقذت فتيات البلد في قصصها الغريبة التي استولت على قلب الملك شهريار قاتل الصبيات العذارى! . .

لم اتوقع ان اجد قصصاً في زماننا هذا ، ولكن حدوث تلك الحكايات في هذه البلاد في الماضى يدل على إن الناس كانت تدرك وتصف الكثير من الاخلاق البشرية المختلفة الغريبة ، وكتاباتهم عن الحب والكره والانتقام والكآبة والغيرة والحسد والاحتيال والجشع وغيرها هي من علامات المظاهر المدنية المتطورة ، عالم العواطف المتشابكة الذى يصيب السكان في المدن الكبيرة ونوازعها المتعددة بين الفقراء والاغنياء وبين الرجال والنساء وبين الشيوخ والشباب ، وكم هي بعيدة كل البعد عن قصص البادية العربية البسيطة مثل قصص المعلقات في الجاهلية والاسلام ، وقصص مجنون ليلى وجميل بثينة وعنترة العبسى وعبلة ، وسيف بن ذى يزن وغيرهم .

ان هذه القصص كتبت قروناً عديدة قبل ان يكتب (شكسبير) قصصه .

وصلنا مطار طهران واذا المدينة الكبيرة محاطة بجبال عالية الذرى مغطاة بالثلج في قممها وتضفي اشعة الشمس الدافئة على الجو العام للبلد الصفاء والجمال .

انقسمت جماعتنا الى قسمين ، قسم نزل في فندق طهران الكبير في العاصمة ، والقسم الاخر وانا منهم ، ذهبنا الى فندق خارج طهران اسمه فندق (دربند) لأنه مبنى على جبل اسمه (دربند) وهو يعود الى الشاه محمد رضا .

هذه المرة الاولى اسمع ان الاوتيل يعود الى الملك نفسه! . . . قيل ان الشاه ورثه عن والده الشاه (رضا خان) الذى كان يملك الاملاك الكثيرة والأراضي الشاسعة بعد ان صار ملكاً للبلاد .

كان فندق (دربند) من اجمل ما رأيت من الفنادق من الخارج خاصة درجات الفندق المرمرية العريضة البيضاء التي تمتد على عرض الفندق كله ، رأيت نفسى وانا ارتقى الدرج الابيض الجميل وكأننى اصعد لرؤية احد اباطرة الرومان القدماء كما نراهم في السينما .

اشتركنا انا والدكتورة صبيحة الدباغ في غرفة كبيرة واسعة فيها سريران يغطيهما اغطية بيضاء ناصعة وفى الغرفة شبابيك عريضة تطل على حدائق الفندق ووراء ذلك جبال عالية خالية من الاشجار ، تبدو وكأنها تحرس المدينة .

كان الثلج يغطى قمم الجبال العالية البعيدة ويعكس نور الشمس ويضيف على بهاء اللوحة الطبيعية الجميلة التى تحيط (بطهران) وكانت تبدو رائعة وغريبة! . .

دخلت الى الغرفة فتاة شابة فهمنا من اشاراتها وكلامها الفارسى الذى لم نفهم منه شيئاً ، انها ستقوم بخدمتنا في هذه الغرفة . سمعت شيئاً في لهجتها جعلنى اسألها ان كانت تتكلم اللغة التركية ، واذا بها تقول انها من (اذربيجان) وكلامها في بيتها هو اللغة التركية . كانت لهجتها تشبه التركية كما يتكلمها اهل (كركوك) في العراق تماماً . يظهر ان تركمان كركوك واهل اذربيجان من نفس العشائر التركية التى قدمت من (ما وراء النهر) من الشرق الاقصى في الماضى واستوطنت في ايران والعراق .

تصورت الفتاة وهى تكلمنى وكأننى في كركوك مع اقرباء والدتى! . .

كانت طهران المعروفة من القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر مدينة صغيرة يعيش بها اشقياء يعيشون على اللصوصية والسلب والنهب في بيوت مخبوئة تحت الارض . في القرن الثانى عشر بعد ان خرب المغول مدينة (ري) ، بدأ العمران يظهر علي طهران وزادت مساحتها .

في زمن الصفوي (طهماسب) شيد فيها الابنية وغرس الحدائق والكروم واصبحت مركزاً تجارياً مهماً .

في القرن الثامن عشر نشبت الحرب بين الصفويين و(آل قاجار) الذين يحكمون في عاصمتهم (تبريز) ، وتم فتح طهران على يد (محمد خان القاجاري) وجعلها عاصمة له وسمى نفسه شاه البلاد كلها .

كبرت المدينة منذ ذلك العهد ، وعندما استولى (رضا خان) على الحكم في العشرينات من القرن العشرين ، توسعت طهران كثيراً وفى سنة ١٩٣٩ اصبح عدد السكان فيها نصف مليون . والآن اثناء زيارتنا كانت تحوى مليوني نسمة .

اجتمعنا في الصباح في احد قاعات الجامعة وبعد الترحيب من قبل استاذ ايراني كبير في الجامعة ذكر لنا ان المحاضرات ستكون في الصباح في هذه القاعة وبعد الظهر نشاهد مستشفى كلية الطب وماتحويه من المختبرات ودار الاشعة وغيرها .

بدأ المحاضرات الاستاذ مكدونلد كريشلي وهو عميد مستشفى الامراض العصبية في جامعة لندن . كنت اعرف الاستاذ في ايام الدراسة في لندن حيث كنت اذهب في ايام السبت صباحاً وهو يوم عطلة عندنا ، اذهب لاحضر محاضراته القيمة في مستشفى الامراض العصبية الملكى في (مستشفى رويال ناشينال) .

وكانت مع الاستاذ صور واشرطة عن المرضى وعن الاورام في الرأس . ثم تبعه الاستاذ (دنلوب) واعطانا مجمل ما اكتشف في عالم الطب في الخمسين سنة الاخيرة .

ان الرحلات الى الاماكن البعيدة تضفى الكثير على المحاضرات الطبية . كنا نلتذ بالمحاضرة الجديدة في بغداد ، ولكن السفر الى بلاد بعيدة يضيف على المحاضرات قيمة كبيرة تبقى في الذاكرة مدة طويلة .

تكلم احد الاساتذة الايرانيين عن امراض جلدية هناك ، وبالرغم من اهمية المحاضرة كنا نحن العراقيين نحاول عدم الابتسام وهو يتكلم اللغة الانكليزية بلهجة فارسية واضحة تشبه كلامهم باللغة العربية في بغداد ولهجتهم الاعجمية الخاصة .

ذكرت لجماعتنا بعد ذلك ، اننا أيضاً نتكلم الانكليزية بلهجة عربية واضحة وانا واثقة ان الايرانيين يجدون لهجتنا مضحكة أيضاً .

بعد الظهر خرجنا مع بعض الاساتذة الايرانيين لكي نطوف في اقسام من كلية الطب في جامعة طهران . شاهدنا قاعات المحاضرات والمختبرات الكثيرة ،

رأينا القسم الحيوانى وحيوانات التجارب وهى اكبر مما يوجد لدينا في كلية الطب في بغداد . ولكن ما أن رأينا اسماء مختبرات الكيمياء والفيزياء ، إلا وبدأ الاطباء العراقيون يغصون في ضحكات عميقة مكتومة ، سأل عنها الاطباء البريطانيون لأنهم لم يجدوا هناك مايضحكهم . تطوع احد العراقيين وهو يضحك ان اسم المختبر باللغة الفارسية هو (كرخانة) وهم يكتبون (كرخانة فيزياء) و(كرخانة كيمياء) وكلمة كرخانة في العامية البغدادية تعنى (المبغى او بروثيل في اللغة الانجليزية) وها اننا نرى بروثيل كيمياء وبروثيل فيزياء في الجامعة! . .

اثار ذلك ضحك الاطباء البريطانيون السبعة كلهم .

ثار ضحكنا مرة اخرى عندما وصلنا قسم الامراض النسائية ورأينا اسم الطبيب الايرانى الذى يقوم بالعمل هو (دكتور زنانة) أي طبيب الامراض النسائية اصر احد من الاطباء العراقيين انه سيكتب رسالة الى صديقه الاستاذ الدكتور كمال السامرائى المختص بالامراض النسائية ويكتب على ظرف الرسالة (الاستاذ الدكتور زنانة) في المستشفى التعليمى الملكى! . . . ولكنه لم يجرأ على ذلك في النهاية! . .

يبدو ان كلمة زنانة تعنى الاشياء النسائية في اللغة الفارسية ، وعندنا في بغداد تستعمل فقط لرجل جبان يخاف من الاعمال الرجالية الصعبة ويتصرف كالنساء . وكلمة (مردانة) الايرانية تعنى عندنا في بغداد ، الرجل الشهم الشجاع الكريم المحترم .

اخذنا نفسر ذلك للاساتذة الانكليز الذين تعجبوا من التأثير الكبير للغة الايرانية على عامية بغداد ، واخبرناهم ان اللغة العربية تأثيرها اكبر على اللغة الفارسية الصحيحة بسبب انها لغة القرآن الكريم .

أثناء الرجوع الى الفندق ، وقف السائق ليضع البنزين في السيارة فرأيت جملة كاملة كلها عربية تقول :

- استعمال دخانيات مطلقاً ممنوع ايست .

أي ان جملة بخمسة الفاظ اربعة منها باللغة العربية ما عدا كلمة (ايست) في النهاية .

ونقلنا ذلك الى الاساتذة الاجانب .

وفى اليوم الثانى كان الصباح للمحاضرات والمناقشات .

بعد الغداء ذهبنا الى السوق البلدي داخل طهران . وهو سوق مسقف يشبه سوق الكاظمية عندنا ، ولكنه كبير جداً وكأنه مدينة داخل مدينة . كانت الدكاكين مصفوفة مثل اسواقنا ومقسمة الى حوانيت تبيع حوائج متشابهة ، هذه المنطقة تبيع الاقمشة وتلك تبيع الملابس الجاهزة واخرى للمصوغات والذهب والفضة واهل السجاد والسراجين للخيل والندافين والكثير غيرهم . وكنا نسير في

شوارع وازقة ضيقة تنفتح كل واحدة على الاخرى مثل اسواقنا القديمة في بغداد . رأيت اصحاب الحوانيت في السوق على جانب كبير من اللطف والتحيات المهذبة ، واذا وقفنا امام الحانوت يطلبون منا الجلوس على وسادة فيجانب الحانوت (مثل اصحاب الحوانيت في السوق عندنا في بغداد) . لم اسمع اصوات عالية ابداً ، الكل يتحدث بلطف وباصوات خافتة اثناء البيع والشراء ، المهم ان يعلم المرء كيف يتعامل معهم في الشراء ، لأنهم ينزلون اسعارهم بالتدريج ، وانا لم اتعلم ذلك لا في الماضى والى الآن ، وكنت اترك الامر لمن يكون قربى من جماعتنا ، لأنني في بغداد لم اذهب الى السوق (الكبير) بمفردى ابداً ، بل اذهب دائماً برفقة قريبة او صديقة تعرف كيف تتكلم مع البائع .

حصل لي في السوق شيء ضحكت منه . طلبت حذاء (شبشب) ينسج من الخيوط المتينة فقط على كعب جلدى وهو من مصنوعات ايران المعروفة ، ويصنعون مثله في المناطق الكردية عندنا .

واستعملت كلمة (بابوج) لكي يفهم قصدى ، عرف الرجل اننى اطلب حذاء ولكنه لم يعرف أي حذاء . استعملت كلمات مثل (طكاكية ونعل) فلم يفهم . وهنا مر رجل يلبس الحذاء الذى اريد فقلت لصاحب الدكان :

- هذا هو الحذاء! .

نظر صاحب الدكان الى حذاء الرجل وقال لي :

- هذه كيوة! .

دهشت من نفسى لأننى نسيت ان اذكر (الكيوة) التى نستعملها في كلامنا العامي في بغداد أيضاً .

اشار الرجل الى ناحية من السوق حيث يمكن ان اشترى (الكيوة) ، وكانت هذه الشباشب معلقة في باب الدكان اكثرها من الخيوط البيضاء المتينة وقسم منها منسوج بخيوط من الحرير الملون . اشتريت منه عدة ازواج للهدايا الى بغداد .

كنت كعادتى ارسل البطاقات البريدية الى زوجي ، والى بيت والديَ حيث يقرأها اخواني واخواتي . في الفندق سألت عامل الاوتيل عن البريد ، فقال ان دائرة البريد قريبة من الاوتيل واستطيع الذهاب اليها مشياً بدقائق قليلة .

سرت الى البناية الصغيرة وراء الفندق ومعي الرسائل ، رأيت الباب مفتوح والمحل فارغ لايوجد فيه احد ولكني وجدت شباكاً قرب الباب ونظرت خلاله . رأيت امرأة تبدو (فقيرة) في ملبسها مرتدية عباءة سوداء قديمة اخذت تنظر الي ، حييتها وقلت لها كلمة (بوسطة! . .) ، واذا بها تنبه بيدها رجلاً نائماً على فراش على الارض وعليه غطاء . فتح الرجل عينيه ونهض واقفاً وكان بالقرب منه طفل نائماً على نفس الفراش . فهم الرجل قصدى واعطانى الطوابع . لم يكن الرجل يلبس ملابس خاصة بالبريد بل كانت ملابسه قديمة وظهرت العمامة على رأسه بعد ان لفها ، قذرة وعتيقة .

لم نكن نرى عندنا في العراق موظف بريد بهذه القيافة بل انهم يلبسون ملابس خاصة تشير الى مهنتهم في البريد والموظف عندنا يبيت في داره مع زوجته واطفاله وليس في دائرة بريد رسمية! . . .

ان القصة قديمة جداً منذ الخمسينات من القرن العشرين ، ولكنني كنت اود ان اقارن العراق مع البلدان القريبة منا مثل لبنان وسوريا ومصر وايران .

رأيت البريد والتلفون والشرطة اعلى مستوى في العراق منها في كل هذه البلاد المجاورة من ناحية اللباس والانتظام والدقة! . .

ذهبنا لزيارة (الري) التى كانت مدينة مهمة قبل العاصمة طهران إذ كانت العاصمة في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ميلادي ، وقد انكمشت بعد ان هاجمها المغول ودمروا ابنية الساسانيين والاخميديين واصبحت مدينة صغيرة وهى الآن جزء من طهران .

شاهدنا في (الري) مقام (امام زاده عبد العظيم) من اقارب الامام الرضا (رض) .

وفى المقام قبة ذهبية وحوض في وسط الحضرة والمنائر مزينة بالفسيفساء .

بعد الانتهاء من ايام المؤتمر الثلاث ، كنت والدكتورة (صبيحة) في الفندق واذا بسيارة تقل الدكتورة (آمنة صبرى مراد) ومعها الدكتور (خالد ناجى) والدكتور (علاء الدين الخالدى) وكانت السيارة تعود لصديق الدكتور خالد في طهران اعطاها الى خالد لكي يشاهد طهران بنفسه ، وكان الدكتور خالد يستعمل

السيارة بكل بساطة ولم يساله احد اذا كانت لديه رخصة سيارة في ايران ام لا .

ذهبنا الخمسة بالسيارة وتوجهنا في الطريق الصاعد الى قمة الجبل .

كان الطريق جميلا بجباله البعيدة التى لاتزال تحمل الثلج في قممها والاشجار الكبيرة تحيطنا ويجرى قربنا نهر صغير ينزل زلالا صافياً الى الاسفل .

وصلنا الى مبنى في الجبل يشبه مطعماً او مقهى صيفى وكان الوقت في بداية شهر نيسان والجو البارد لايوحى للناس بالذهاب الى هذه الاماكن الجبلية ، وقد رأينا في المكان القليل من الافراد . اوقفنا السيارة ودخلنا باب مفتوح على حديقة جميلة فيها من الاشجار الجوز والكستانة والبلوط وغيرها مما لانعرف اسمائها ورأينا في منتصف الحديقة حوض للماء الراكد الذي لايرتبط بالنهر الصغير النازل من شقوف الجبل ، وكان في القسم الايمن من الحديقة غرف ذات ابواب صغيرة يسكنها حارس المكان ومن يشتغل معه .

جلسنا على كراسى بسيطة من الخشب وامامنا طاولات صغيرة وطلبنا من النادل الايرانى الشاي وبعض الكعك . وبدأنا نتحدث عن جمال المكان وقلنا مثل هذا المكان في جبال لبنان يصبح المكان المرغوب عند الجميع ، وتسائلنا لم لانسمع الكثير عن محلات طهران الجميلة هذه ، وبينما كنا نتكلم ، انتبه احدنا وقال :

- ان النادل غرف بعض الماء من الحوض الراكد بواسطة ابريق قديم وسار بالماء نحو المطبخ! . . .

ولكى نتأكد من ظننا هذا ، نادينا على الخادم وسألناه لم لايصنع الشاي من ماء الحوض؟ فاجاب على الفور :

- ان الماء على النار وانه من ذلك الحوض الراكد ، وسوف يصنع لنا الشاي بسرعة .

اخرج الدكتور خالد بعض النقود الايرانية واعطاها للخادم وقال :

- اننا سنعود بسرعة من دون شرب الشاي .

تعجب الخادم من الكلام ، ولكننا نهضنا بسرعة لمغادرة المكان قبل ان يحضر لنا الشاي من مطبخه . واثناء مرورنا نحو السيارة نظر الدكتور (علاء) من شباك في البناية وصاح علينا :

ـ انظروا ، رجل نائم في تابوت! . . .

تظرنا من الشباك واذا برجل مسن يضطجع في ما يشبه التابوت الخشبى الابيض ومغطى بلحاف كبير وتحت (التابوت) مدفئة من الجمر الاحمر تدفأ الرجل الراقد الذى بدأ يتطلع الينا بوجه غاضب من رؤيته الوجوه الغريبة تشاهده من الشباك .

اسرعنا الى السيارة وتحركت بنا الى الفندق .

اين هؤلاء العمال من عمال الفنادق في لبنان؟

الحجز على الطائرة في طهران

بعد الانتهاء من المؤتمر ، قررنا البقاء ايام قليلة في ايران قبل الرجوع الى بغداد ، قرر البعض السفر الى مدينة (اصفهان) في الجنوب ، وقسم قرر السفر الى الشمال نحو بحر قزوين . ورغم تطلعى الى رؤية (بحر قزوين) والذى يسمى أيضاً (بحر الخزر) ، فضلت السفر الى (اصفهان) المدينة العريقة والتى يقال عنها في ايران ، (اصفهان نصفي جيهان! . .) أي اصفهان هي نصف العالم! . .

قلت في نفسى : ـ أن البحر هو البحر ، وهو جميل دائماً ، سواء كان البحر الابيض المتوسط او بحر قزوين! . . لكن (اصفهان) هي مدينة حافلة بالتاريخ ، وهى اقدم من طهران العاصمة ، ويجب زيارتها! . .

ذهبنا الى دائرة للطيران في طهران وقررنا السفر الى اليوم التالى الى اصفهان ، وافق الموظف على ذلك . في اليوم التالى خابرنا الدائرة واذا الموظف يتكلم معنا وكأنه لايعرف عن سفرنا شيئاً . نزلنا بالسيارة من الفندق الى الدائرة بطهران ، واذا الموظف لايدرى ان كنا سنسافر ذلك اليوم ام لا ، مع انه كتب في دفتره الكبير اننا سنسافر في الغد يصورة اكيدة .

انتظرنا الى الغد ، وخابرنا الموظف مرة اخرى ،كان الوضع مثل الامس والموظف في حيرة لايدرى ان كنا سنسافر او لا ، وطلب منا ان نحجز على اليوم التالى . من منا يطمئن على ركوب طائرة لايعرف صاحبها ان كانت ستسافر في الغد ام لا؟

تركنا الدائرة دون كلام ، وذهبنا الى محل للسيارات تعمل مع اطباء المؤتمر ، وطلبنا سيارة للذهاب الى اصفهان في الصباح . قيل لنا ان الطريق يستغرق ثمانى ساعات جنوباً من طهران الى (قم) وثم اصفهان . وافقنا على ذلك والسفر على الارض مهما طال هو احسن من ركوب طائرة لايعرف صاحبها عن اوقاتها شيئاً! . . .

تحركنا من الفندق في وقت الفجر . كان السائق من اهالى منطقة اذربيجان ويتكلم اللغتين الفارسية والتركية مما جعل الكلام معه ممكناً وكنت انا الوحيدة التى تتكلم شيئاً من اللغة التركية .

كانت السيارة من نوع(شوفرلية) وبحالة جيدة جداً ،

في سيارتنا كنا خمسة اشخاص ، الدكتورة صبيحة الدباغ وانا من العراقيين ، ومعنا الاستاذ مايكل كريشلى وزوجته الدكتورة دوروثى وصديقتها الدكتورة الانكليزية . في ذلك الوقت كانت مقاعد السيارات الامامية عريضة وتحمل شخصين اثنين قرب السائق جلس فيهما كريشلى وزوجته والى الوراء جلسنا صبيحة وانا والدكتورة الانكليزية واذكر اسمها الاول فقط (مارى) لأنني نسيت اسمها الكامل .

كان الطريق ممهداً للسيارات ولكنه غير مبلط ، ويمر بين جبال عالية جرداء فاتحة اللون تحت اشعة الشمس ، وكنا نرى بعض السيارات والباصات الصغيرة تروح وتجئ في الطريق وهى محملة بالكثير من الناس وبعضهم يجلس فوق السيارة كما يحدث عندنا عندما يسافر القرويون من محل الى آخر ومعهم السلال الكثيرة مليئة بالفواكه والخضر او الدجاج الحى في اقفاص ، وعلى ناصية السيارة فوق محل السائق من الخارج كنا نرى كتابات مثل (سفر بخير) او كلمات فارسية للدعاء في السفر ، وعندما تمر السيارة قربنا ، نرى المسافرين يحيونا باياديهم بصورة ودية .

وكذلك شاهدنا قوافل كبيرة للنقل على ظهور الجمال والخيول نراها على البعد كصور خيالية .

تبعد مدينة (قم) حوالى مئة ميل جنوب طهران وهى المدينة المقدسة الثانية

في ايران لأن فيها ضريح (فاطمة المعصومة) وهى اخت الامام (علي الرضا) الامام الثامن عند الشيعة الاثناعشرية ومزاره في مدينة (مشهد) في الشمال في مقاطعة خراسان .

في القرن التاسع الميلادى توفيت (المعصومة) في الطريق وكانت ذاهبة الى اخيها الرضا (رض) ، وكانت عند وفاتها صغيرة في سن الطفولة ، دفنت في (قم) ، واصبح الضريح مزاراً كبيراً ، ومدينة (قم) مدينة دينية .

في زمن الشاه (عباس) الاول الصفوى ، في القرن السادس عشر الميلادى بني ضريح (المعصومة فاطمة) مجدداً واصبح مزاراً للناس مثل مزارات (النجف وكربلاْ) ، وصارت مدينة (قم) مركزاً للدراسات الدينية تسمى (الحوزة) ، او حلقة المريدين الذين يدرسون الدين ، ويذهب اليها المسلمون الشيعة من كل اطراف العالم ،

وبها أيضاً مثوى لمن يختار ان يدفن هناك .

توقفنا في (قم) واكلنا وجبة الغداء . قيل لنا ان الماء مر الطعم ، ويجب استعمال ماء من الزجاجات اسمه (آب علي) .

دخلنا المزار . رأيت الناس يرحبون بدخول الزوار الاوروبيين الى الجامع ، وذلك شيء لايحدث في العراق حيث يمنع دخول الاجانب الى الجوامع والمراقد المقدسة .

نزعنا احذيتنا قبل الدخول الى المزار كالمعتاد .

شاهدنا جامع (المعصومة فاطمة) في قم مزيناً بأيات من القرآن والفن المعماري الذي يعتبر من روائع الفن الفارسى الجميل ، فيها القبة الذهبية الرائعة ، والمنائر المزركشة بالفسيفساء الجميلة ، والجدران المقوسة ذات الروازين ، والسقوف العالية المزركشة بالمرايا المتلألئة .

سألتنى الدكتورة (دوروثى كريشلى) انها كانت تظن ان ثلاث مدن وهى (مكة والمدينة) هي مدن الاسلام الدينية وكذلك مدينة (القدس) القبلة الاولى التى صلى اليها المسلمون ، وفيها معجزة الاسراء بالنبي (صلعم) الى المسجد الاقصى .

قلت لهم ان المذهب الشيعى يضيف مدن اخرى مقدسة هي (النجف) وفيها

ضريح الامام علي (رض) و(كربلاء) وفيها مرقد الامام الحسين(رض) والكاظمية وفيها مرقد الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد (رض) ، وفى سامراء مرقد على الهادى وحسن العسكرى (رض) ومغارة (المهدى المنتظر) وكلها في العراق ، وهنا في ايران (المشهد) الذي دفن به الامام علي الرضا (رض) ، ومدينة (قم) وفيها ضريح (فاطمة المعصومة) اخت الامام الرضا (رض) والذى اعطى المكان هذه القداسة والهيبة الدينية .

وعندما بدأوا يسألونى عن الفروق بين المسلمين قلت لهم ان المذاهب الاسلامية تختلف فيما بينها في التفاصيل ولكن الجميع يأتمرون باحكام القرآن تماماً ، والاختلاف المهم ظهر بعد وفاة الرسول بسبب من يتولى الخلافة .

الشيعة الاثناعشرية وهم شيعة العراق وايران والهند وغيرها ، يعتقدون بان الخليفة الاول كان يجب ان يكون الامام (علي ، رض) ومن بعده اولاده وعددهم اثناعشر ويسمونهم (الأئمة المعصومين) ولهم منزلة القداسة عند الشيعة .

طائفة السنة اعترفت بخلافة الخلفاء الثلاثة بعد وفاة الرسول قبل مبايعة على بن ابى طالب (رض) الخليفة الرابع .

تلوت للاطباء الاجانب اسماء الائمة الاثناعشر التى حفظتها بالترتيب منذ سن العاشرة حيث كنت احب حفظ الاسماء التاريخية ، ومن دون ان يطلب مني ذلك في المدرسة .

مات الخلفاء الراشدون قتلا ما عدا الخليفة الاول ابا بكر الصديق . وكذلك مات الائمة الاثناعشر قتلا او سماً ، ما عدا آخرهم الامام المهدى المنتظر ، اختفى ، وسيعود حسب العقيدة الشيعية يوماً ليملا الارض بالعدل والامان .

طابت للاطباء الانكليز الثلاثة حكاية التاريخ الاسلامي لهم بهذه الصورة المختصرة ، وسألوا عن الملك (فيصل الثانى) واخبرتهم انه من سلالة الامام الحسن بن على بن ابى طالب وهو ثانى الائمة ، ولقب سلالة الحسن هو كلمة (الاشراف) تضاف على اسمائهم ، واولاد اخيه الامام الحسين لقبهم (سادة) .

كانت اسئلة الانكليز لاتنقطع عن تاريخ الاسلام! . . وكنت التذ جداً بهذا الامر ، ولحسن الحظ كانت الدكتورة صبيحة تساعدنى في استرجاع القضايا

التاريخية لانها تحب تفاصيل التاريخ الاسلامي وحوادثه .

اخبرت الاطباء الانكليز كيف ظهر من بلاد فارس رجال برزوا في العلم والشعر والادب والطب والفلسفة والموسيقى ، كلهم رجال تربوا على الديانة الاسلامية وانتجوا ما يفخر به التاريخ الاسلامي والعالم كله .

بعد سنوات طويلة من هذا التاريخ ، في منتصف السبعينبات من القرن العشرين ، سمعت الشاه (محمد رضا بهلوى) في التلفزيون البريطانى وهو يفتخر باسماء الرجال القدامى من بلاده . لاحظت ان جميع واكرر (جميع) من ذكر من الاسماء كانوا من العهد الاسلامي الذين يفتخر العالم الاسلامي بهم في مشارق الارض ومغاربها في العلم واللغة والفنون ولم اسمعه يذكر اسم رجلا وأحداً من رجال فارس ما قبل الاسلام لانهم لايضاهون الفرس الذين برزوا في العصر الاسلامي الزاهى .

كان هناك الكثير من الشعوب الاخرى دخلت الاسلام وخدمت الثقافة الانسانية مثل الاتراك والمغول كما برز علماء في مصر والاندلس ، وكلهم من ابناء تلك الامبراطورية الاسلامية الشاسعة ، ولكن العدد الكبير من العلماء والادباء كان من بلاد فارس الاسلامية كما تدل على ذلك أسماؤهم .)

غادرنا مدينة (قم) واتجهنا الى (اصفهان) وهى مدينة تاريخية اقدم من طهران العاصمة .

اصفهان هي زينة البلاد الفارسية ودرة فارس القديمة . وتعتبر من اجمل المدن الاسلامية في العالم . وقد وصفها احد شعراء ايران بجملة :

- اصفهان نصفي جيهان أي اصفهان نصف العالم ،

بسبب جمال مساجدها وبيوتها وحدائقها الغناء وجسورها القديمة الرائعة واسواقها الكبيرة .

احببت مدينة (اصفهان) حال دخولنا اليها! . .

ازدهرت اصفهان في زمن الصفويين في القرن السادس عشر بعد ان طرد الشاه عباس الاول العثمانيين من بلاد فارس وكانوا قد احتلوا أراضي كبيرة من البلاد ، وجعل اصفهان عاصمته الجميلة ، واستمرت كذلك لمدة مئة سنة الى ان

اجتاحها (الافغان) ، وانتقلت العاصمة الفارسية من اصفهان الى (شيراز) وثم الى طهران . ولاتزال الابنية منذ زمن الشاه عباس موجودة في اصفهان .

وتشتهر في اصفهان صناعة السجاد الفاخر وهو من احسن السجاد في العالم .

دخلنا المدينة وكان الجو رائقاً والمدينة تبدو مفتوحة للداخلين فيها . اوصلنا سائق السيارة الى مبنى فيه اقواس واعمدة وقال ان هذا هو الفندق الوحيد الجيد في المدينة . ولم يكن لدينا حجزاً في الفندق اتى عامل الفندق وقال بأعتذار ان الفندق يحوى على جماعة من زوار ايران الاجانب ، والفندق مملوء تماماً ولانستطيع ان نأخذ شخصاً وأحداً! . .

تبرع شخص آخر وقال هناك فندق آخر قريب واخذنا نحن الخمسة الى بناية اخرى لكي يرينا الغرف . كانت الغرف من اسوء ما رأينا في حياتنا ، الملاآت قذرة ورائحة الغرفة عفنة ، جعلتنا نسرع الى الخارج وكأننا نعدو من مكان موبوء بالطاعون!

ان هذه ليست (نصف جيهان) ، انها محل موبوء لاعلاقة له بنصف العالم! . .

عدنا الى الفندق الكبير واتصل الدكتور (كريشلى) بالتلفون ، وتكلم مع اسقف انكليزى يشتغل في اصفهان .

بعد دقائق قليلة جاء الاسقف يسوق سيارته بنفسه ، ويلبس ملابس سوداء مع ياقة بيضاء وهو رجل في منتصف العمر لطيف الشكل ابيض الوجه بعيون زرقاء طيبة وصوت ودود . القى التحية علينا جميعاً وكأنه يعرفنا من قبل .

كنا خمسة اشخاص الدكتور كريشلى وزوجته الدكتورة دوروثى وصديقتها الدكتورة مارى والدكتورة صبيحة الدباغ وانا . سرنا بسيارتنا وراء سيارة الاسقف ووصلنا الى بيت من طابقين تحيط به حديقة في منطقة خارج المدينة ويبدو وكأنه بيتاً ريفياً . حمل كل منا شنطته وصعدنا الى الطابق الاول . اشتركنا صبيحة وانا بغرفة ، وكريشلى وزوجته بغرفة ، والدكتورة مارى بغرفة صغيرة لوحدها .

كانت غرفتنا بسيطة جداً كأنها غرفة في كوخ بها سريرين ، وعلى كل سرير

فراش نظيف مغطى باغطية بيضاء ناصعة منشاة ومكوية بعناية . هذا ما اردناه! . .

وكان هناك دولاب للملابس ومنضدة عليها (ابريق) كبير فخارى ملون ، وقربه اناء لغسل الوجه . لم يكن في البيت مياه جارية وكان الماء يستخرج من بئر قرب الباب الخارجى وتملأ الفتاة التى تشتغل في بيت الاسقف الماء وتغليه في المطبخ وتصعده الى الاعلى بدلوصغير ، وكانت مناشف الوجه نظيفة مكوية والصابون الانكليزى (لوكس) متوفر . كانت الفتاة في حوالي السادسة عشر من العمر وتلبس ملابس قروية نظيفة يملأ وجهها الابتسام الخجول معنا . يبدو ان العمل في كنيسة الاسقف يجلب لها الخير لانها كانت صحيحة الجسم وردية الوجه ، وكانت ترتدى سلسلة حول عنقها بها صليب صغير .

النظافة هو ما اسميه المدنية الحقيقية! . . غرفة بسيطة في بيت يخلو من مجارى الماء ولكن الغرفة تحوى الاثاث النظيف ، والماء المغلى من البئر موضوع في ابريق فخارى جميل! شكرت الاسقف في نفسى من كل قلبى . لقد انقذنا! . . .

بعد راحة قليلة جلسنا على المائدة للعشاء وكان الطعام انكليزياً بسيطاً شوربة ثم قطعة صغيرة من اللحم مع البطاطا واللهانة والفاصوليا الخضراء المغلية ثم شيء من الحلويات . وقضينا الامسية بكلام مع الاسقف حول المعيشة هنا . قال انه يحب المكان ولم يجد أي صعوبة للمسيحيين هناك . وقال ان المسيحيين بمذاهبهم المختلفة والارمن وغيرهم وكذلك اليهود يعيشون بأمان مع المسلمين .

كان المبيت في هذه الغرفة البسيطة مريحاً جداً ، وطعام الفطور كان انكليزياً من الصوصج والبيض والتوست وعصير البرتقال والقهوة وكأننا في لندن . عجبت من الانكليز ، يذهبون الى اقصى العالم ولكنهم يفضلون طعامهم الانكليزى ويحافظوا على لباسهم ويمارسوا العابهم الرياضية حيثما كانوا ، في بلادهم ، ام في العراق او في ايران او في مجاهل افريقيا .

اخبرنا الدكتور (كريشلى) ان الاسقف لايعتاش من الضيوف القلائل الذين يسكنون بيته في حالات نادرة مثل حالتنا الآن ، وانه سوف يطلب منا فقط ثمن اكلنا واستعمالنا الاغطية والمناشف النظيفة . وكان المبلغ زهيداً جداً بالنسبة للفنادق! .

خرجنا لرؤية المدينة هذه ، المدينة ذات الجو المشمس والهواء النظيف الصافي .

رأيت الحدائق الكبيرة والصغيرة التى تحوى الشجيرات والازهار بانواعها المختلفة ، والتى ذكرتنى بحدائق الماضى في بغداد ، ذكرتنى بازهار بيتنا القديم في بغداد حيث كان عندنا حديقة داخل البيت نسميها (بقجة) فيها شجرة رمان واشجار الموز وشجرتين من (الاخلامور) ، والدفلى البيضاء والحمراء وكرمة عنب على قمرية ومعها شجيرات الليف المتسلقة وورد النيلوفر المتسلق ، وعلى الارض سنادين فيها ورود (الناز ناز) ، وورد الداودى وشجيرات (ازهار الشمس) الصفراء الكبيرة (شمسي قمر) وغيرها وكانت والدتى شديدة العناية بها! . . خلت اننى ارجع الى ايام طفولتى واعترانى الحنين والشوق الى الماضى ، الى ماض قد زال! . .

شاهدت في اصفهان ما يمثل القرون الوسطى الاسلامية الزاهية بكل نفائسها وروائعها! . .

زرنا قصر (جلستون) أي قصر (الاربعين عمود .) وهو من قصور الشاه (عباس الصفوى) بني في القرن السابع عشر (م) .

دخنا القصر من باب واسع الى فسحة شاسعة مفتوحة وفيها حوض كبير وقرب الحوض اعمدة خشبية ملونة عالية تنعكس في ماء الحوض بشكل جميل عددها عشرون عموداً ، ولكن بانعكاسها في الماء يصبح عددها اربعين عمود ، ولذلك سمي القصر (جلستون) ، ورقم (اربعين) يكن له الناس الاحترام والاعجاب في هذه البلاد كما هي الحالة عندنا في العراق .

رأيت في اسفل كل عمود يوجد رأس اسد وهو رمز الصفويين ، وترتفع الاعمدة عالية وفوقها سقف مزركش باخشاب جميلة . دخلنا الى الغرفة الكبيرة المزينة بالفسيفساء على الجدران والسقوف . في جدار كبير في الغرفة شاهدنا رسوماً بالفسيفساء ترمز الى معارك معروفة عندهم ، مثلا (الشاه اسماعيل) يحارب الازبك ، والسلطان (محمود) الغزنوى يحارب على فيل كبير ضد (نادر شاه) . وعلى جدار آخر رأينا صورة لا تدل على الحرب بل على احتفال كبير ، وهى صورة الشاه (عباس) يستقبل الملك (نادر خان) الذى يزوره من تركستان ، وحولهم جوقة كبيرة من عازفى الموسيقى والراقصات .

في السوق رأيت بعض الصور الدينية واستغربت من ذلك ، في العالم الاسلامي لايصورون النبى ولا الصحابة ابداً .

رأيت صورة كبيرة في احد الحوانيت لرجل مهيب الطلعة بلبس جبة سوداء ويعتم بعمامة سوداء ويحيط بالعمامة هالة من النور ويمسك بيده كتاباً كبيراً . ظننت الصورة للامام (على رض) وسالت الرجل عنها . لم يفهم الرجل من كلامى سوى كلمة (علي) فقال بلغته وبلهجة احترام كبير :

- هذا هو النبى محمد وبيده القرآن الكريم . انظرى هنا ، هذا هو الامام علي! . . .

شاهدت صورة كبيرة اخرى لرجل اصغر سناً من صورة النبى ، شاب وسيم الوجه يرفع رأسه بكبرياء أصيلة ويرتدى جبة خضراء اللون وعلى رأسه عمامة خضراء أيضاً وبيده سيفاً يضعه على كتفه . انها صورة لرجل محارب شجاع .

ولادرى الى الآن ، لم لَمْ اشتر هاتين الصورتين الجميلتين! . . . ربما لكبر حجمها لان طول الصورة متر ونصف وعرضها متر ومرسومة على ورق مشمع ومحاطة باطار عريض .

في بغداد لم نتعود على رؤية هذه الشخصيات الاسلامية المقدسة في صور! . .

ذهبنا مع الاسقف الانكليزى ومعنا رجل قس ايراني مسيحى من الارمن . اخبرنا القس الارمني ان الشاه (عباس الاول) احترم الارمن وقدر اعمالهم الفنية والتجارية واحترم دينهم ولكنه اسكنهم في منطقة بعيدة عن المسلمين . وعند دخول الافغان الى اصفهان ذبحوا الارمن بقسوة .

سرنا خارج البيوت ودخلنا بناية بسيطة لايدل شكلها على شيء من الخارج ولكنها كانت الكنيسة التى يشتغل فيها القس الايرانى . كانت الكنيسة محاطة بحديقة حولها تحوى الازهار والشجيرات مزروعة بطريقة هندسية جميلة لان الايرانيين لهم ذوق خاص بزراعة الحدائق الغناء والزهور المتنوعة .

الكنيسة في الداخل مزركشة باشكال غريبة من الفسيفساء والتماثيل الصغيرة البارزة من الجدران والسقف . رأينا صور المسيح ع ، والعذراء مريم

والشمعدانات الفضية والشموع والمقاعد ومسرح القس العالي وغيره ، وكان في الكنيسة عمود خاص عال فيه ناقوس كبير .

قال القس ان الناس تعترف بأهل الكتاب ولايوجد اضطهاد للمسيحيين او اليهود .

شاهدنا جسراً كبيراً مبنى على ثلاثة وثلاثين قوساً (او طاقاً) ويعطى للمدينة منظراً رائعاً ، وقد بنى في ايام الصفويين . النهر وفوقه الجسر كان نهراً عريضاً ولكنه كان جافاً خال من الماء! . ذكرنى ذلك بنهر كركوك في العراق وهو النهر الذى يفيض ايام قليلة في كل عام وبعدها يصبح جافاً يابساً .

هناك احدى عشر جسراً في اصفهان لم نتمكن من رؤيتها كلها .

في السوق شاهدنا عمال الستائر القطنية الرخيصة التى نراها في اسواقنا في بغداد ، وهى تشير الى القواد الايرانيين القدماء في حروب مع الاعداء او في مجالى الفرح والسرور ومعهم الراقصات واصحاب الفنون في الموسيقى . وتحت الصور كلمات شعرية قليلة باللغة الفارسية تدل على فحوى الصورة .

اشتريت بعض الاوانى الفضية الصغيرة وكلها مزركشة وعليها كتابات . اشترت الجماعة الانكليزية الصور الصغيرة المطبوعة على العاج والعظام والصدف ومحاطة باطارات صغيرة من الفضة وهى على شكل قلائد وخواتم اوصور صغيرة توضع على الجدار والصور كلها جميلة وتدلنا على شكل اللباس القديم في بلاد فارس .

شاهدنا الكثير من السجاد الفاخر في طهران واصفهان واشترى بعض الاطباء سجاجيد صغيرة يسهل حملها . وليس هنالك ابهى من سجاجيد ايران في جميع انحاء العالم . نراها في صور قصور الملوك والرؤساء وفى الابنية المترفة الغنية والمتوسطة .

عندنا في بغداد يتباهى الاصدقاء فيما بينهم عند شرائهم سجادة ايرانية فاخرة . بعد انقضاء ستة ايام جميلة في ايران حان وقت العودة .

رجعنا بنفس السيارة من اصفهان الى طهران ، ومن هناك التقينا بالجماعة العائدة من بحر قزوين وعدنا الى الوطن خلال ساعات قليلة بطائرة بريطانية .

كنت من ايام الطفولة والى الآن احب مشاهدة خرائط (الاطلس) الجغرافية واقضي معها فترات طويلة أتأملها دون ان يصيبني الملل . كنت اظن انني اعرف جغرافية الجزيرة العربية بصورة جيدة ، لانني اعرف اسماء الدول والامارات كلها ، وصحراء الربع الخالي وجبال السروات ، واعلم ان في الجزيرة احر بحرين في العالم وهما (البحر الاحمر) من الغرب ، و(الخليج الفارسي او خليج البصرة) من الشرق والذي اصبح يسمى الخليج العربي واشياء اخرى .

وفجأة وجدت نفسي في سنة ١٩٥٦ ، بأنني اجهل تماماً اسماء بعض الامارات العربية في الخليج العربي الواقعة في جنوب البحرين والاحساء والقطيف وكأنها غير موجودة لدي ، إذ اكتشفت انني لا اعرف اسم امارة (قطر) ولا اسم الامارات الاخرى في جنوبها .

كنت اعرف بلاد عمان وعاصمتها (مسقط) في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب منذ ايام الدراسة ، واعرف خليج (هرمز) المشهور ، ولكن الاراضي في جنوب البحرين والاحساء كانت مجهولة عندي .

رأيت هذا الجهل كان يشمل اهلى ومعارفي عندما لم يعرفوا اسم (قطر) عندما سألتهم عنها . واذكر ان اختى لمعان وزوجها سالم وبعض الاطباء وسألوني :

ـ والان ، اين تريدين الذهاب! . .واين هي قطر؟

كانت هذه الامارات الجنوبية غير معروفة عند الكثير من الناس .

من كان يظن انه بعد اربع سنوات يبدأ السباق للذهاب الى دول هذه الامارات الجنوبية (المجهولة) عندي ، ويصبح مثل الذهاب الى بلاد الذهب في كالفورنيا واستراليا من قبل الاوروبيين في القرن التاسع عشر ، وتصبح السفرة بالنسبة لنا الآن سهلة مثل الذهاب الى لبنان في الماضى .

السبب في معرفتي لأمارة (قطر) هو زيارة مدير شركة النفط في (إمارة قطر) ومعه زوجته الى بغداد ، ولا اذكر اسمه اواسم زوجته في الوقت الحاضر ما عدا

اسمه الاول (آنكوس) ، وكان صديقاً قديماً لزوجي ويزوره في مكتبه ويتحدثان عن النفط ، وقد رأيتهما في لندن من قبل بضعة مرات .

كنا في حفلة ، ودار الحديث مع زوجي عن النفط واعماله في امارة (قطر) . عرض علينا (آنكوس) زيارة (قطر) لايام قليلة لكي يرى احسان المكان وارى انا البلد . لم اكن قد زرت الجزيرة العربية من قبل ، كانت زيارتي للبصرة هي نهاية معلوماتي عن جنوب العراق ، لذلك سررت بهذه الزيارة جداً ، ولكن اين هي (قطر) هذه؟

اشار مدير النفط الى خريطة الجزيرة العربية على الجدار ، وقال

- انها هذه الارض التي تشبه أصبع الابهام في داخل الخليج .

بدت الامارة على الخريطة كبيرة ونائية في الشاطئ الغربي للخليج ، جعلتنى اشعر برغبة كبيرة لرؤيتها وكأنني سوف اسافر الى جزء غريب في العالم .

شعرت بالخجل من جهلى لجغرافية البلادالعربية وكنت اظن ان معلوماتي وافية من قبل ، خاصة امام هذا الشخص الاجنبى الذى يتكلم عن هذه البلاد وكأنها جزء من بلده .

كانت بريطانيا تسيطر على الخليج آنذاك سيطرة تامة وكأنه بحيرة بريطانية! . .

اخذت اسأل المدير عن (قطر) واحوالها ، وراق له اهتمامي الكبير بالموضوع ، اما احسان فلم يهتم بزيارة مراكز البترول المختلفة التى رأى الكثير منها ، وكان يقول لي دائماً :

- انها كلها متشابهة ، حيثما اذهب ارى صحراء قاحلة ، وآلات استخراج النفط وبيوت المهندسين والنادي لديهم . ثم يضحك ويقول كلمته المأثورة : بغداد ست البلادا! . .

لكنه كان يدرى اهتمامى بالسفر الى اماكن غريبة ، ويسخر من ذلك قليلاً بيننا ويقول :

- بأنني ارغب بالذهاب حتى الى هضبة التبت او سهول سيبريا! . .

وافق احسان مع المدير ان نذهب لمدة خمسة ايام فقط الى (قطر) .

قال المدير انهم سوف يسافرون الى بريطانيا لقضاء عطلتهم الصيفية قريباً لذلك يجب ان نسافر الى قطر خلال ايام قليلة .

كان ذلك اثناء عطلة كلية الطب الصيفية عندنا .

شعرت بأنني سأكون اول عراقية تزور منطقة نائية من الخليج وشعرت بفخر كبير ، وكأنني مستكشفة اقوم بزيارة بلاد مجهولة عند الآخرين ! . .

بعد ايام وصلت الى بغداد جماعة من تركية لاجراء المباحثات حول النفط وفتح مجرى آخر للنفط العراقي لكي يصب في ميناء تركي ، وأضطر احسان الى البقاء في بغداد من اجل ذلك ، وقال لي ، انه سيلغي ذهابنا الى قطر .

في تلك الليلة رأينا المدير الانكليزى وزوجته في وليمة ، واظهرنا لهم الاسف لعدم الذهاب الى قطر ، واذا بزوجة المدير اللطيفة تدعونى للذهاب بمفردى لكي ارى هذه الامارة العربية على الخليج بعد ان رأت اهتمامي الكبير بتلك الزيارة خاصة وانا في عطلتى الصيفية . وذكرت ان ابنتهم سوف تحضر بعد ايام قليلة لتقضى فترة قصيرة معهم في قطر ثم تعود الى لندن ، وقالت ان حضورابنتها سوف يملأ المكان بالحركة والنشاط .

كان الوقت ملائماً جداً للسفر لان كلية الطب بدأت بالعطلة الصيفية كما ذكرت سابقاً .

ووافق زوجى على رحيلى القصير وقال هازلآ :

ـ إذهبي وشاهدي جزءاً من الربع الخالي واخبريني عن جماله وبهائه! . .

سافرت في طائرة صغيرة تعود لشركة النفط الى مدينة البصرة ، وهناك ابدلت الطائرة بأخرى صغيرة أيضاً واتجهنا جنوباً نحو الساحل الجنوبى الذى يقابل ايران . كانت الطائرات الصغيرة لا تطير عالياً كطائرات (الجت) العالية التي نراها اليوم ، وكنت ارى الارض وما عليها بسهولة .

بعد فترة قصيرة اختفت اشجار النخيل الكثيرة الجميلة المحيطة في منطقة البصرة وبدأت الأراضي من الطائرة تبدو خالية ، ليس فيها سوى الرمال الجافة .

لم اشاهد على الارض أياً من الناس او الحيوانات او النبات ، لم ار سوى رمال جافة خالية تملأ الارض تحتنا لمسافات طويلة جداً .

بعد فترة وجدت الارض تقترب منا بسرعة وكأنها تصعد نحو الطائرة ، نظرت في الصحراء الكبيرة الى الاسفل ، لم اجد بيتاً او نخلة اوحيوانات او أي معلم من معالم الحياة . قلقت بعض الشي ، وظننت اننا نهبط في الصحراء بصورة إضطرارية في ذلك الجو الحار اللاهب . جلست صامتة انتظر مالذى سيحصل ، الى ان هبطنا على الارض واذا بكوخ من الحجر صغير جداً بحيث لم اره الا بعد نزلنا من الطائرة

هذه البقعة الصغيرة اليابسة الصامتة هي المطار! .

نزلت من الطائرة وانا اتلفت ، واذا بفتاة جميلة تلبس فسطاناً صيفياً بسيطاً وتبدو به كممثلة في السينما . تذكرت وجهها في لندن قبل سنوات قليلة فياحدى حفلات شركة النفط وناديتها :

ـ هيزل! . . وكان ذلك اسمها .

نظرت الى وتذكرت شكلى وتعانقنا كالصديقات .

كانت (هيزل) طالبة في كلية الدراما في لندن (رادا) المشهورة عندما رأيتها ، وهي الكلية التي يبعثون اليها الطلاب والطالبات من كل الناطقين باللغة الانكليزية في جميع اطراف العالم للحصول عل شهادة للتمثيل منها ويبدو ان (هيزل) حصلت على الشهادة من الكلية .

كان مع هيزل والداها وسلموا على بكل ترحيب . ركبنا السيارة لمدة نصف ساعة نسير على رمل ناعم نظيف يخلو من أي اثر للنبات . في العراق ينمو العاقول الشوكى في الصحراء على الاقل ، اما هنا ، فالعاقول لا وجود له ولو وجد ، لكان يبدو نباتاً اخضر حياً في هذه الرمال البيضاء الخالية من الحياة .

سرنا الى بيوت المهندسين في وسط الصحراء ووقفنا امام بيت كبير هو الفندق للشركة حيث سأسكن ، وتقابله بناية (النادى) على بعد امتار قليلة .

كان اسم المنطقة (ام سعيد) .

دخلت الفندق ثم الى غرفة كبيرة مبردة فيها الفراش الوثير ودولابٌ كبير للملابس ومرآة كبيرة وفيها حمام لطيف ابيض اللون . طلبت مني الجماعة ان ارتاح قليلاً ، لانهم سيذهبون الى بيتهم وهو مقابل الفندق تماماً ، ونجتمع في

النادى المجاور لبيتهم في الساعة السابعة لحظور حفلة كوكتيل هناك ، وبعدها نتعشى في بيتهم .

علقت ملابسى في الدولاب ثم تمددت على الكرسى الكبير للراحة .

في الساعة السابعة ، ابدلت ملابسى وخرجت من الباب الخارجي الى النادي امامنا ، خرجت من الجو الرطب المبرد داخل الفندق وانا اتأمل ان يأتي نحوي نسيم البحر الجميل في الخارج .

ولكني شعرت وكأننى لم (اخرج) خارج الفندق ، وانما (دخلت) في حمام تركى هائل يغطيه البخار الحار في الهواء الخارجي كله . واحسست بنفس شعور الضعف والهبوط كما حدث لدى في مدينة (واشنطن) قبل سنوات ، يبدو ان الهواء بدأ يهب من الجنوب ويغطي المنطقة كلها ببخار عميق . احسست بنفسى يضيق ، وانا ابنة العراق الحار جداً في الصيف ، لم يصادفني هذه الضيق في التنفس والهبوط في بغداد ابداً

بدأت افهم التغني عند اهل البادية في ريح الصبا! . . اين انت ياريح الصبا العليل؟

اسرعت نحو النادى لكي اصله بسرعة رغم ان اقدامي كانت تغوص وترتفع اثناء المشى كما لو كنت اخوض في هذه الرمال البيضاء الى حد مفاصل القدمين ، وكان سيري بطيئاً ، والنادى امام الفندق تماماً . دخلت الباب الكبير وارتحت بالهواء المكيف في الداخل ، قبل ان ادخل الردهة الكبيرة للنادى .

في الردهة ، كان الجميع نساء ورجالا وقوفاً يتحدثون ، والكل يلبس الملابس الخفيفة وبدت النساء انيقات بملابس الصيف الفاتحة الملونة . كان الخدم من الهنود بملابس بيضاء ناصعة وعمامات على رؤوسهم وهم يقدمون المرطبات واطباق الطعام الخفيفة ، بملء النظام والسكون .

سألت نفسي : هل انا في لندن ، ام في بلاد من اراضينا العربية التي كنت اجهلها؟

كانت حفلة الكوكتيل وكأنها وليمة انكليزية في بغداد او في لندن . الملابس الصيفية الفاتحة والجميع يشربون المرطبات الباردة ويتكلمون عن حوادث

اليوم . وكان الخدم الهنود يقدمون المرطبات والساندويج بالخيار البارد الرقيق الذى لايعرفه سوى الإنكليز ، والصوصج وبعض المعجنات وكأننا في اوتيل الدورشستر او اوتيل سافوي في لندن .

كان الجميع يتحدثون عن لعب التنس اوعن لعبة السنوكر اوالسباحة في البحر وعن صيد الاسماك . رأيت بعض الصور على الجدران في صور لاناس وهم يمسكون السمك الذى اصطادوه لاسماك تفوقهم طولاً .

تعـرفت على بعض المدعـوين وكنت احـدثهم وانا افكر ، هؤلاء الناس ، استخرجوا النفط من هذه الارض اليابسة الجرداء ويقيمون في بيوت ونواد مريحة باردة يتناولون طعامهم الانكليزي احسن مما في بلادهم ويلعبون العابهم الرياضية ويلبسون الثياب الجميلة ويقرأون جرائدهم ومجلاتهم ويشاهدون افلامهم كما تعرض في بلادهم . انهم يعيشون الحياة الارستقراطية في هذه البلاد البعيدة كما لايمكنهم ان يعيشوها في بلادهم .

أنهم ابناء الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس! . . .

كنت اتكلم وابتسم مع الجماعة ولكن في نفسي كنت وحيدة افكر : الم نملك امبراطورية هائلة لقرون عديدة؟ ماذا حصل لها؟

انها سلكت مصير الامبراطوريات القديمة العظمى في العالم ، وزالت مثلهم امام حربنا ضد المغول! . .

وبعد فترة طويلة اصبحت كل الجزيرة العربية ما عدا (مسقط) جزءاً من الامبراطرية العثمانية لمدة اربعة قرون الى قبل اقل من اربعين عاماً ، وقد زالت تلك الامبراطورية العثمانية العجوز مثلما زالت امبراطوريات النمسا والمانيا وروسيا القيصرية بعد الحرب العالمية الاولى! .

ماذا حل بنا الآن؟

نظرت الى الانكليز ومرتبتهم الرفيعة بين الامم الآن ، وحسدتهم في ذهني! . .

لم يخطر ببالي آنذاك ، انني اشاهد آخر سنوات الامبراطورية البريطانية التي حكمت البحار لمدة فاقت الثلاث مئة عام! . . لم ادرى انها تسلك مصير

الامبراطوريات القديمة وستزول مثل ما زالوا قريباً جداً وامام اعيننا! . . .

بعد حفلة الكوكتيل ، تناولنا العشاء في بيت المدير وكانت معنا صديق المدير وزوجته وهي سيدة في الاربعينبات من عمرها نحيفة جداً شقراء وذات عيون زرقاء ضاحكة ، لبقة الكلام تثير الضحك بكلماتها السريعة وتعليقاتها الذكية . انها تعرف حاكم قطر وزوجاته واهله معرفة جيدة ، ولما رأت اهتمامي بالبلد ، طلبت مني ومن (هيزل) ، ان نرافقها في الغد ، في مدينة (الدوها) حيث تسكن ثم نذهب معها لكي نرى اصدقائها . كان اسم السيدة (الكساندرا) ويسمونها (آليس) .

لم اسأل ما هي مدينة (الدوها) لانني لااعرفها ، ولكن الاسم كان غريباً في اذني . قيل انها (العاصمة) للامارة فقلت نعم بصوت خافت لئلا يفضحني جهلي .

لم استطع ان (اترجم) كلمة (الدوها) باللغة الإنكليزية الى اللغة العربية في ذهني ابداً ، ظننت ان الكلمة هي (الضحى) ، او ربما انها من لغة قديمة جداً ولم اسمع بها من قبل؟

في اليوم التالي سرنا بالسيارة الى العاصمة (الدوها) التي لاتبعد كثيراً عن (ام سعيد) حيث نسكن ، وفى الطريق قرأت اسم العاصمة باللغة العربية على لوحة ترحب بالقادمين ، وإكتشفت ويا خجلي! . . انها (الدوحة! . .) التي لم استطع قراءتها باللغة الإنكليزية لانني لم اسمع بوجودها من قبل! . . .

في الدوحة ذهبنا الى بيت السيدة (آليس) ، التى ستأخذنا الى بيت الشيخ . رأينا السيدة واقفة في فسحة امام بيتها ومعها شابان من اهل البلد في سن الثامنة عشر او العشرين ينتظرون قدومنا ، وآليس تسقى شجرة واحدة فقط كانت موجودة في حديقتها ، والشجرة كانت من (اليوكاليبتوس) ، وكانت شجرة ضعيفة الجذع باغصان قصيرة واوراق نصف حية ، وقد شدت السيدة حبلاً قصيراً حول الشجرة لكي تمسكها اثناء هبوب الريح لأنها لاتتحمل ذلك ، وكان طول الشجرة يفوق طول السيدة بحوالى قدم واحد وكانت صاحبتها تسقي الشجرة من ماء الشرب . لم تكن هنالك سواقى او حنفيات للماء .

كانت هذه الشجرة هي الشجرة الوحيدة في الحديقة! . . . وكانت صاحبتها سعيدة بها لانها زرعتها عندما كانت الشجرة صغيرة والان ، قد كبرت الشجرة واخذت صاحبتها تعرضها على اصدقائها واصحابها بسرور وفخر! . .

رحبت (آليس) بنا ، واخذت تفرجتنا على اوصاف شجرتها كعادتها وكيف انها تنمو وتكبر . وقالت :

ـ انظروا الى المنطقة ، اترون هناك أي اثر لاشجار اخرى! . . .

ضحكت في نفسي من امرأة بريطانية ، ابنة الغابات والرياض والحدائق في بلادها ، تشعر بالفخر من نمو شجرة واحدة نصف عليلة! . . لكنني اخبرتها عن نجاح زرع الشجرة وهنأتها عليها .

يبدو ان الناس في هذه الامارة كلها لا يعنيها عدم وجود النخيل والاشجار . اظن ان الاشجار ليست في قاموسهم! . .

عرفتنا السيدة على الشابين العربيين ، وهما يرتديان الملابس العربية وهي دشداشة بيضاء ناصعة وكوفية بيضاء على رؤوسهم وفوقها عقال اسود ، من دون عباءة . يبدو انهم من اخوان الشيخ حاكم قطر وانهم يسكنون مع اخ آخر لهم ومعهم اخواتهم . كانت لهجة الشابين سهلة الفهم تميل قليلاً الى لهجة البصرة عندنا ، انهم تعلموا في المدرسة واللغة الفصحى سهلة عليهم .

كانوا يتكلمون مع أليس بملء الاحترام ، وباللغة الانكليزية التى تعلموها في المدرسة . يظهر انهم يقدرون ان النفط والاموال في البلد سببها هؤلاء الاجانب الذين استخرجوا النفط وفتحوا باباً جديدة على بلاد الصحراء هذه .

قال الشاب الاكبر لآليس : هيا الى بيتنا لكي نقدم لكم الساندويش! . .

ركبنا نحن الثلاث سيدات مع الشابين في سيارة (مرسيدس) وكان احد الشابين يسوقها . وصلنا الى بيت كبير ذي جدار عالٍ . دخلت السيارة من الباب الذى يجلس بعض الرجال في بابه الى فسحة كبيرة جداً مكشوفة وارضها مرصوفة بالكاشي ، ورأيت سيارات عديدة تقف امام الجدران ، اظن العدد كان لايقل عن أربع عشرة سيارة ، ظننت نفسى في محل للسيارات . كان هذا كراج بيت اخ الامير الحاكم .

دخلنا الى البيت ومعنا الشابان ، وكان البيت الكبير مكشوفاً في الداخل ، وصعدنا على درج الى الطابق الاول الى شرفة فيها مقاعد وكراسى اجنبية لطيفة وسيدتان ومعهما فتاة في سن الثانية او التالثة عشرة .

كانت هذه اول مرة اشاهد النساء يلبسن هذه الملابس الغريبة ، لان وجوه السيدتين كانت مغطاة بقناع اسود صلب كأنه من ورق المقوى يمتد من الجبين الى الوجه وفيه فتحتان للعيون وهو يغطي الانف بقسم بارز من القناع الى اعلى حول الانف كله وينزل الى الشفة العليا وعلى بقية الوجه كله . لم نر من وجوه النساء شيئاً ، وكانت رؤسهن مغطاة بقماش اسود فلم نر منه الا اطراف الشعر المرسل الى اسفل . اما الملابس فأنها من طراز ثوب اسود واسع وتحته ثوب آخر ملون وفوقه قلائد من الذهب على الصدر واسورة وخواتم ذهبية وفيها احجار كريمة ملونة حمراء كالياقوت او خضراء كالزمرد او زرقاء بلون الشذر .

كانت الفتاة الصغرى تلبس مثل ملابسهن ولكن بحلى قليلة ولم تكن ترتدي القناع .

رحبت السيدات بنا اجمل ترحيب ولكنى كنت اجد صعوبة في فهم كلامهن . كن يتكلمن بسرعة واصواتهن تخرج من الحنجرة وبنبرة عالية تشبه اصوات الطيور ، وكُنّ يتكلمن سوية في وقت واحد . اخبرتهم اني من العراق رحبوا بي ثانية وبدأن الكلام معي ، وهن لايعرفن اللغة الانكليزية ، بوقت واحد وباللغة العربية :

- **هل انت دكتورة ، وهل انت متزوجة ، واين زوجك ، هل عندك اولاد ، لماذا لاتأتين لكي تشتغلى عندنا ، واسئلة عديدة اخرى .**

ثم تلمسن قماش فسطانى ، وكان من القطن الانكليزى لونه ازرق فاتح ، وسألن ان كان هذا من بغداد .

اجبتهن على اسئلتهن الكثيرة وكنا نضحك ونمزح ، واخبرتهن انني احب ملابسهن الحريرية الملونة وفوقها الثوب الاسود الشفاف ، والحلى الكثيرة الجميلة .

كانت الاختان تسألاني السؤال بعد الآخر بوجوه باسمة وكنت ارى ذلك يبدو تحت القناع ، في حين كان الشابان يتكلمون بلغة انكليزية لابأس بها مع

هيزل وآليس . وجدت ان الشابين عبسوا قليلاً عند سماع كلمة العراق . يبدو انهم لا يعرفون عن العراق اشياء حسنة . قال واحد منهم بشدة ، انهم يسمعون اذاعة القاهرة ولا يسمعون اذاعة بغداد ، وابتسم بسخرية خفيفة وذكر اسم نورى السعيد! . .

اثارتني اللهجة ، هل اصبحت بغداد تثير السخرية عند ابناء هذه القرى المنسية؟

تداركت نفسي لانني انا الضيفة هناك ولم ارد ان اترجم ذلك الى اللغة الانكليزية ، اجبتهم بلين مصطنع :

- ان اذاعة بغداد ضعيفة ولاتصل الى هنا كاذاعة كالقاهرة .

كان جوابهم ، شيئاً يشبه اننا لانستمع الي بغداد في جميع الاحوال ، وسألني اكبر الاخوين :

- من تريديني ان استمع ، لنوري السعيد ، ام استمع لعبد الناصر؟

تجادلنا بالكلام اللطيف عن البلاد العربية ومصر والعراق . اخبرتهم ان اسم عبد الناصر ارتفع كثيراً منذ ان اشترى الاسلحة من الاتحاد السوفياتي ومن دول اوروبا الشرقية . ظن الشباب العربي ان مجرد هذه الصفقة في الاسلحة وكأنها صفعة في وجه المستعمرة ، بريطانيا . ولذلك نسى الشباب اهمية مصر كلها من بداية القرن العشرين ، ونسوا ان الثورة المصرية التي كانوا يمجدونها ، كانت ثورة ضباط ، وكان رئيسها الاول محمد نجيب ورفاقه الضباط .

نسى الناس كل ذلك ، وأخذوا يستمعون كل ليلة الى (احمد سعيد) يصوته المتهدج واخباره عن البلاد العربية الاخرى وبصورة خاصة عن العراق ، واتخذوا من عبد الناصر صورة للبطل الذي غاب من سماء العروبة قروناً عديدة .

اصبح العراق مكمن الخطر عند مصر وليس اسرائيل ، ولم يبق شيء سيئ في قاموس احمد سعيد لم يذكره عن العراق وسياسته .

وكان شباب العالم العربي يصدق كل ما يقوله احمد سعيد! . . .

شخصياً لم يحركني ذلك او يستثرني ابداً ، وقلما كنت استمع لصراخ احمد سعيد . وكنت اعلم ان عبد الناصر كان سائراً الى مجد خادع وانا استمع

الى خطاباته الطويلة ، ومعاركه الكلامية ، وهو يقف على الشرفة يحدث الناس ويثير بهم الحماسة والفخر والوهم .

كنت اقول ان الضحكة ستكون لمن يضحك في النهاية! . .

كنت ادرى ان بلادنا تسير على طريق مستقيم الى الرقى والعلا دون ضجة ، مع ان كل اهل العراق يحبون مصر وهي البلد العربي الكبير الذي ندعو له بالنجاح والعلى والمجد . كنت واثقة ان الناس بعد حين سوف تشهد التحسن السريع في العراق وتكف عن مهاجمته وتصبح اذاعة (احمد سعيد) في خبر كان .

كم كنت واثقة من ذلك رغم ان الشباب العربي كان يعبد عبد الناصر! . .

اخبرني احد وزرائنا في بغداد يوماً :

- لاتقلقي من اجل العراق! . .ان الزمن بجانبنا! . .

وصدقت ذلك من اعماق فؤادي! . .

لم اكن اعلم ان العراق يقف داخل شبكة هائلة محكمة تنوي افتراسه اولاً وبعدها افتراس الشرق الاوسط كله .

هل ياترى سوف اعرف من الذي سوف يضحك في النهاية؟

ان ذلك كان في حكم الغيب! . . .

تناولنا الغداء الكبير على مائدة وكراسي وادوات الاكل الفضية .

كانت المائدة تحوي كميات كبيرة من الرز والخروف المشوي والدجاج والخضروات المطبوخة ثم الحلويات اللبنانية والفواكه .

قالت (آليس) للشابين هل هذا هو (الساندويج) الذى وعدتنا به؟

ابتسم الفتى وقال ان (آليس) تطلب منا تقديم الساندويج . ثم اردف نحوي باللغة العربية :

ـ ما تعرفين يا دكتورة ، انحن نقدم ساندويج للضيوف؟وانت تفدين الينا من بغداد للمرة الاولى؟

كانت آليس قد اخبرتهم بمجيئنا الى الدوحة ، وها هي الضيافة العربية باجلى مظاهرها! . .

كانت الاخت الكبيرة في البيت هي (موزة) الاخت الغير متزوجة وتعيش مع الشيخ الذى هو ابن عمها وزوج اختها الاصغر . قال احد الشابين ان موزة هي رئيسة البيت ، وماتراه موزة يحصل في البيت . كانوا يتكلمون عن موزة بحب وفخر وكأنها راعية الجميع .

سألت الاخت الصغيرة لم لاتلبس القناع ، اجابت لانها صغيرة . قلت لها :

- ان عدم لبس القناع في البيت يعنى انك تسيرين (سافرة) في وسط بيتك! . .

رأيت الاختين تحدثان بعضهما والاقنعة على وجوههن . قلت على سبيل المزاح لموزة :

- متى ترين وجه اختك؟

اجابتني جواباً غريباً ، وهو انهن لم تريا وجه بعضهن البعض منذ مدة طويلة وهن في بيت واحد! . .

سألت موزة ، ان كانت اختها تزيل القناع عندما يرجع زوجها الى البيت ، اجابت موزة :

- انها لاتزيل القناع . الم اخبرك بأنني لم ارها منذ مدة طويلة .

سألتها ، متى يرى الزوج وجه زوجته؟

اجابتنى بسرعة : لا ادرى . يجوز انها ترفع القناع داخل غرفتها امام زوجها ، اما انا فلم ار وجه اختي منذ زمن! . .

أذهلتني المسأله ، اختان في بيت واحد ولاترى الواحدة اختها ابداً الا من خلال القناع؟

لاحظت انني افهم الكلام مع موزة اسهل بعض الشئ من الكلام مع اختها التى تتكلم بصورة سريعة جداً ، ولذلك كان كلامي مع موزة على الاكثر .

وكانت الاختان على صداقة كبيرة بينهما ، تطيع الاخت المتزوجة اختها الكبرى (موزة) وتحنو موزة على الاخت الصغرى كما ذكرت .

لحسن الحظ كان الشابان يتكلمان باللغة الانكليزية مع الضيفات حين كنت اتحدث مع الاختين عن الملابس والاقنعة .

رأيت من النوافذ ارضاً غير مبنية ويحيط بها جدار كبير . قيل لي ان هذه البناية كانت قصراً جديداً دشنه الملك (سعود) ملك المملكة العربية السعودية عند زيارته الى قطر حديثاً ، وعندما غادر قطر امر الحاكم ان يهدم القصر الكبير . والسبب هو كيف يسكن شخص آخر في القصر ، وقد سكنه الملك سعود؟

هكذا شيد قصراً فخماً لاقامة شخص واحد واتباعه ، ثم هدم لان لايوجد شخص يعادل الملك سعود ان يعيش فيه! . . .

كان احترامهم وطاعتهم للملك سعود لاتعرف النهاية! . .

دار هذا في خاطرى وانا انظر الى القصر المتهدم ، في هذا البلد الذى كان الى سنوات قليلة من افقر البلاد في العالم ، اصبح يبني القصور ويهدمها ارضاء لعواطف بدائية بسيطة لاتدرى ماذا تفعل! . .

ان الحاكم هو من (آل ثاني) وهم حكام قطر ، وهم الموالون لآل سعود ويتبعون نفس المذهب السنى (الحنبلي) مثلهم الوهابين .

ان المذهب السني ينقسم الى اربعة اقسام كل حسب الامام الذى يتبعه ، والمذاهب هي الحنفية والشافعية ، والمالكية والحنبلية . وكان المذهب (الحنفي) ، هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، ومعه المذاهب الثلاثة السنية الاخرى المنتشرة في العالم الاسلامي .

ان المذهب الحنبلي وهو الذى يتبع الأمام احمد بن حنبل منتشر في الجزيرة العربية .

في القرن الثامن عشر (ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) في قرية (العيينة) وكان والده قاضى القرية وهو على المذهب (الحنبلي) ،فنشأ عليه . في سن العشرين ارتحل الى البصرة طلباً للعلم ثم الى بغداد .

وقد رأى (الشيخ محمد) ، ما اصبح عليه المسلمون من تخلف وبعد عن الاسلام في ايامه الاولى ، وقرر أن الاسلام الصحيح يجب ان يؤخذ من القرآن والحديث ، ونهج منهج الامام ابن حنبل وذلك ان مااختلف عليه الائمة كلهم يهمل ، وما اجمعوا عليه من الاحاديث يؤخذ . وقال ان الايمان الصحيح يجب يقترن بالعمل الصحيح ، وان الاعتقاد وحده لايكتمل الا اذا اقترن بالعمل

ونبذ الشيخ ما اعتبره بدعاً دخلت على الدين ، كالطرق الصوفية والتشفع بالاولياء ، وأقامة النصب والقباب وزيارة القبور . ودعا الى الزهد بالدنيا وابتغاء الآخرة والى التقشف والعبادة والتقى والورع والى الابتعاد عن البذخ والترف وعن ملذات الحياة . بدأ الشيخ دعوته في العيينة وغادر الى (الدرعية) مركز آل سعود قرب مدينة الرياض ، فرحب به شيخها (محمد بن سعود) ، وقام باتباع ما امر به الشيخ ، وتم الاتفاق بين الرجلين وتوثق التحالف بين زواج اولادهم وبناتهم .

ودعوة محمد بن عبد الوهاب تجمع لدى الرئيس السلطتين الدينية والسياسية وعلى هذا كان (محمد ابن سعود) الامام الاول لعائلة آل سعود .

في الوقت الحاضر اخذوا يتمتعون في منازلهم واعمالهم باحدث الاختراعات الغربية الحديثة ولكنهم يرفضون مدنية الغرب واصبح الصراع الصامت بين المعتقد السلفي الذي يدعو له رجال الدين عندهم ، وبين حياة الترف التي يحيونها كبيراً جداً .

في اليوم التالى سررت من قول هيزل بأننا سنذهب الى (البحرين) في هذا النهار ، إذ كنت ارغب في مشاهدة أي امارة من الامارات العربية .

تذكرت الآية الكريمة : ﴿مرج البحرين يلتقيان . .بينهما برزخ لايبغيان . .يخرج منها اللؤلؤ والمرجان . .﴾

في مياه الخليج قرب البحرين ، توجد مياه عذبة تندفع الى اعلى من داخل مياه البحر المالحة كبرزخ عذب ، والصيادون يعرفون وجودها ويستعملونها كماء عذب . وفي البحر يوجد اللؤلؤ والمرجان ، هل هذه الينابيع العذبة هي ما ذكر في القرآن الكريم في سورة الرحمن . .

هذا ما سمعته عن البحرين ومياهها العذبة في البحر .

البحرين جزيرة عربية معروفة منذ التاريخ القديم ، وفي مياهها يوجد احسن انواع اللؤلؤ ، وهو مطلب الامراء والاغنياء في العالم . في الوقت الحاضر ، اصبحت ولحسن الحظ ، دولة عربية اخرى تنتج البترول مصدر الثروة والثراء! . . .

ذهبنا انا وهيزل وآليس الى المطار ، وركبنا طائرة الشركة الصغيرة وتوجهنا الى البحرين شمالاً . كانت آليس قد زارت البحرين مرات عديدة من قبل ، ولكننا

هيزل وأنا ، كانت الرحلة شيئاً جديداً سار بالنسبة لنا .

وصلنا مطار (المنامة) بسرعة لان جزيرة البحرين تقع مقابل امارة قطر . اخذنا سيارة الشركة وتوجهنا الى النادى . اعجبت بالمدينة ، وكان منظر النخيل بديعاً خاصة بعد قحط وانعدام الاشجار في قطر . رأيت المدينة تشبه البصرة بعض الشيء ، ولكن الميدان كان منسقاً والسيارات تسير بنظام تام .

تناولنا الغداء في نادى الشركة ، وكان المكان انكليزياً في اثاثه والطعام كان يحوي الكثير من الاطعمة الهندية ، بالاضافة الى الطعام الانكليزي . كان طعام (الرز بالكاري) على الطريقة الهندية هي الوجبة التي تمسك بها البريطانيون منذ زمن واصبحت من اغذيتهم المرغوبة . وقد فضلنا نحن الثلاث طعام الرز بالكاري .

بعد الغداء ، ذهبنا بالسيارة الى منطقة السوق ومعنا سائق عربى من اهل البلد ليدلنا على الحوانيت هناك . كان السوق مغطى بسقف يحميه من الشمس مثل اسواق بغداد ، ولذلك كان ضوء السوق اقل بكثير من ضوء النهار المشمس الحار في الخارج . الحوانيت تشبه حوانيت السوق في بغداد ولكنها اصغر في المساحة . كان اصحاب الدكاكين يبيعون السلع المختلفة من الاقمشه الى الاحذية الى الملابس الجاهزة والكثير غيرها ، كما لاحظت بأن معظمهم من الايرانيين من ملابسهم وعمائمهم وصورهم الدينية الموضوعة على الجدران .

قال السائق لي بالعربية :

- اكثرية السوق من الشيعة الايرانيين! . .

وهو نفسه كان شيعياً عربياً من البحرين .

ان اهل البحرين خليط من الشيعة والسنة ، باكثرية شيعية ، لكن الشيخ الحاكم هناك ، يتبع المذهب السني وهو من (آل خليفة) .

وجدت كذلك في سوق البحرين ، العديد من اصحاب المخازن والحوانيت من الباكستانيين أيضاً ، وهم يقومون ببيع البضائع من بلادهم من الاقمشة والاحذية والحلي الرخيصة وادوات معدنية من النحاس والبرنز والحديد .

لباس الناس في الشوارع كان من الدشداشة البيضاء والكوفية التي قد تكون بيضاء ناصعة او مرقطة كما نسميه في العراق (يشماغ) وهو اما بين

الابيض والاسود او بين الاحمر والابيض .

رأيت الشوارع مرتبة والناس يسودهم الهدوء بصورة عامة .

سرنا في السيارة على شاطئ البحر ورأينا بعض الابنية والبيوت الكبيرة .

كانت (آليس) معنا وهي تعلم الكثير عن الخليج . أخبرتني ان في مياه الخليج المالحة ينابيع ماء حلو ، وهذا الماء يمكن جمعه والشرب منه . اخبرتهما عن الآية القرآنية الكريمة .

لم اصادف أحداً من العراق في هذه الساعات القليلة لاننا تركنا المنامة بعد ساعات قليلة وعدنا الى قطر .

سفرة يوم في البحر

خرجنا في صباح اليوم التالي واتجهنا الى شاطئ البحر وكان معنا ، ام وأبوها هيزل (آنكوس) وبعض المهندسين وزوجاتهم واطفالهم والكل يبدون كأنهم في جمعية رياضية مسافرة الى البحر . ركبنا زورقاً بخارياً كبيراً اتجه الى باخرة راسية بعيداً تنتظر وصولنا . ارتقينا درج الباخرة الى اعلى ،

شاهدت الخليج واذا به مخطط بشكل كأنه قطعة ارض مقسمة بصورة هندسية تقريباً فوق الامواج الهادئة في ذلك اليوم ، في كل منطقة اعمدة واشارات في البحر عليها عمق المكان واين هو من المحل التالي . شعرت وانا اسير فوق البحر ، وكأنني اعرف هذا الخليج من قبل باقسامه المختلفة المنسقة الواضحة وانا ابحر للمرة الاولى على سطحه . اهكذا يرتب وينسق البحر! . .

رأيت كذلك عدداً كبيراً من البواخر البعيدة بأشكالها واحجامها المختلفة ، والجو كان دافئاً مريحاً لايشبه جو الشاطئ الحار الرطب .

كنا على باخرة كبيرة ومريحة فيها الكثير من كراسي البحر الطويلة للجلوس وتأمل الامواج .

لم اعرف ماذا اسمي هذا الخليج الذى يمتد امامي واسعاً ، دافئاً ومشمساً ، (خليج فارس) كما سماه المؤرخ اليوناني(هيرودتس) الذى صحب الاسكندر الكبير من مقدونيا الى الشرق ، ام (خليج البصرة) كما كان في ايام العثمانيين ، ام

(الخليج العربي) كما سماه جمال عبد الناصر . قيل ان الشاطئ الشمالى للخليج وهو جزء من ايران تسكنه اكثرية عربية .

تذكرت كلمة قالها شاه ايران في مجلة التايم الامريكية بغضب عن اسم الخليج :

(ان الخليج اسمه الخليج الفارسى في الخرائط منذ زمن الاسكندر الكبير أي قبل المسيح ، والآن اسمع ان العرب يحاولون اعادة تسميته . هل لهذا العمل من سبب سوى فتح الجدال والغضب بين ايران والبلاد العربية)؟

لم اذكر هذا الامر للجماعة معي ، وابقيته في نفسي .

جلست بالقرب من هيزل وابويها واخذت احدث والدها عن الخليج ، وكان يعرف الكثير عن اشياء لااعرف عنها شيئاً .

شاهدت ان (آنكوس) أبا هيزل ، تغير شكله اللطيف الذى كان عليه في ولائم بغداد ، واصبح ذا وجه صارم مع المهندسين ، يقول الشئ لهم بحزم ويدرى بأن ذلك سيحدث كما يريد .

اخذ (آنكوس) يتكلم بقوة عن الخليج ويقول ان بريطانيا جعلت من الخليج منطقة آمنة للجميع ، واستمر يخبرني اشياء اخرى عن الخليج وبريطانيا .

كانت للبرتغال قواعد في سلطنة (عمان) والخليج منذ القرن السادس عشر ، ويبدو اثرهم لدى اهالي البصرة حيث الناس تصف الاجنبي بأسم (بورتكيشي) الى الآن .

اصبحت للخليج اهمية كبرى بالنسبة للامبراطورية البريطانية منذ ان استعمرت الهند وسيطرت على البحار المؤدية الى طريق الهند كلها .

ان اهتمام الدولة البريطانية بسلامة المواصلات للبريد والتجارة وتأمين وصول البضائع من البحر الى موانئ الخليج لتتوزع منها في اقطار الشرق الادنى أي الجزيرة وسوريا والعراق وايران ويقتضى تأمين سلامة السفن والقضاء على القرصنة الهائلة خاصة قرب مضيق هرمز .

احتلت السفن البريطانية تلك السواحل وصالحت تلك الامارات المتقاتلة فيما بينها بالقوة وبالحزم وسمت تلك الامارات (الشاطئ المتصالح) .

وقد عم الامان ذلك الشاطئ ، واصبحت السيطرة على مياهه بنفس القدر الذى كانت بريطانيا تسيطر على المناطق الاخرى من الخليج .

سمعت احد المهندسين يخبر (آنكوس) عن رجوع شخص عربى معين الى واحة (البريمى) القريبة ، واذا بي (آنكوس) يتكلم بلهجة آمرة مع اثنين من الانكليز في الباخرة قائلا :

- أرفض وجود هذا الشخص في البريمي ويجب ان يرحل بسرعة خلال يومين! . لانريد أي هيجان على الشاطئ هذا! . .

كان ذلك الرجل العربي يدعو الى ان البريمى من املاك المملكة العربية السعودية ، وكان (آنكوس) يرفض ذلك بشدة .

شعرت انذاك ، ان اليد القوية البريطانية حولتهم من التخلف والقرصنة والقتال على مسافات صغيرة من الارض بينهم ، الى حياة مدنية جديدة تتفاهم بالكلام والمنطق .

رأيت البعض من الرجال قد القوا الشباك في البحر لصيد السمك ، وبقوا ينتظرون حركة الشبكة بين حين وآخر . كانت صيد الاسماك شيء لم اشاهده كثيراً من قبل الا في ساحل دجلة في الاعظمية . رأيت بعضهم قد اصطاد سمكات وضعوها في صندوق ثلج ، وكان من يصطاد سمكة يريها الى الجميع بفخر والجميع يضحكون . رأيت شخصاً اصطاد سمكة كبيرة هائلة كان الرجل طويل القامة ، ورفع السمكة بواسطة الشص الى اعلى ليرينا حجمها ووزنها . قال انها لن تدخل صندوق الثلج بسبب كبرها وسوف يحافظ عليها بوضع الثلج فوقها لكي يأخذها الى بيته .

طلبت (هيزل) ان ننزل الى البحر للسباحة . قلت لها انني لست سباحة ماهرة في البحر ومعظم سباحتي كانت في مسابح النوادي وأحياناً قليلة في نهر دجلة في مناطق منعزلة ، وفى بيروت ، وكنت قد قررت ان لااسبح في بريطانيا ومياهها الثلجية حتى في ايام منتصف الصيف لديهم الى الاخير .

نزلنا الى البحر مع هيزل وامها وآليس ، وكان الماء لذيذاً دافئاً جميلاً .

انتهينا من السباحة وتسلقنا الدرج ووصلنا الى غرفة لتغيير البستنا ثم جلسنا

في زاوية بعيدة في الفئ نتكلم . واذا بأبي هيزل (آنكوس) يأتى نحونا ضاحكاً وقال :

- هل اعجبتكم السباحة ، ان هذا المكان يوجد فيه كواسج ويبدو ان الكواسج تتجنب البواخر .

نظرت الى (هيزل) ورأيت وجهها يشحب مثلى . صاحت على والدها :

- لم لم تقل ذلك قبل نزولنا الى البحر؟

اجاب مبتسماً ببروده الانكليزي :

- ان الخليج فيه الكواسج وكل الناس تدري بذلك ، ولكن الكثير من الناس يسبحون فيه رغم ذلك .

قضينا اليوم الاخير في بقعة صغيرة على البحر ، يجتمع فيها النساء والاطفال الانكليز لان الرجال كلهم في العمل . كان الساحل الصغير خالياً تماما من كل شيء ، ليس فيه اناس او بيت او خيمة ، وكانت الرمال على الساحل بيضاء نقية تغسلها الامواج دائماً .

اخذنا معنا في السيارات كراسى من القماش تطوى ، وشمسيات ملونة لتمنع الشمس وجلسنا الكبار والصغار في ملابس البحر نسبح او نشرب الكوكاكولا والليمونادة . وكان غدائنا ساندويج من اللحم الخفيف والخضر .

نظرت حولى ، انحن في بلاد الخليج العربى ام نحن في بقعة دافئة من امريكا ننعم بالاطمئنان والامان .

لم اشاهد اياً من العرب رجالا او نساء ، هل انا في بلاد العرب ام في بلاد الغرب؟ ..

انني بين اناس يعترفون بتساوي الحقوق بين الرجال والنساء ، حيث لا يأخذ الرجال كل الحقوق والامتيازات ولا يترك للمرأة سوى الرضوخ والخنوع .

يبدو انه من المستحيل ان تأتي النساء العربيات للسباحة والاستجمام في سواحلهم الجميلة هذه! . . .

تركنا المكان ومعنا الكراسى والشمسيات التى اتينا بها ، واصبح الساحل خالياً مرة اخرى . لم يبق فيه الا الرمال النقية البيضاء ، وزرقة ماء الخليج ، هذا

الخليج الذى يحمل الاسماء العديدة! . . .

اثناء العودة الى بغداد كنت افكر بما رأيت .

ان العراق والمملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر ، كلها تحوي الذهب الاسود ، النفط .

هل ادار الاله العظيم وجهه نحو العرب مرة ثالثة ليستعيدوا مجدهم الماضي؟

لدينا دوران عظيمين من الماضى القديم ، رغم حاضرنا المحزن .

كنا اول الحضارات القديمة في ادوار التاريخ الاولى سومر ، وأكد ، وبابل وآشور ، ثم اضمحلت تلك العهود السحيقة وحكمتنا بلاد فارس والرومان مئات السنين قبل الاسلام ، ونسى الناس حضاراتنا القديمة وقد اصبحت تحت اتربة الزمن .

بعد الف سنة من ذلك التاريخ المنسي ، ظهر نبي عربي واحد في مدينة صحراوية في اقصى الجزيرة العربية ، وفي مدة تقل من مئة عام امتدت كلمته الاسلام من اسبانيا غرباً الى حدود الصين شرقاً تحكمها عواصم عربية من المدينة المنورة ثم الشام وثم الى بغداد ، وحملت هذه الحضارة الايمان والعلوم والفنون .

قضت غزوات المغول على بغداد وعادت البلاد الى الجهل والتخلف لمدة قرون ، خاصة بالنسبة لتقدم الحضارة الاوروبية الحديثة ، وعاد العالم ينسى حضارتنا الاسلامية ويرمي بلادنا بالتخلف والتعصب

واصبح العالم الشرقي نسياً منسيا مرة اخرى! . .

اما الآن ، وفي هذا الزمن الحالي ، اشعر ان كنوز الارض قد فتحت علينا ومن داخل اديمنا وتربتنا .

هل سيفتح الذهب الاسود الباب للرقي من جديد علينا ويرفع مستوانا كالماضي؟

هل هذا هو الدور الجديد لكي نستعيد امجاد الماضى؟ان النفط ثروة تستخرج من دون قتال اوحروب او امبراطوريات ، ثروة تنبثق من الارض ، ارضنا ، وتباع في الاسواق العالمية وتشرى! . .

(لماذا نخاف ، والزمن بجانبنا) كما قال لي احد الوزراء العراقيين في بغداد .

كنت في الطائرة العائدة الى بغداد اكرر بفرح عميق في نفسي :

ـ الزمن بجانبنا! . . لاخوف على العراق! . . نحن نملك عظمة الماضي وسنستعيد المستقبل! . .

نحن نملك الذهب الاسود! . .

كنت كعادتي ، اتابع اخبار مصر ومايدور فيها مثل معظم العراقيين ، وكنت اقرآ المجلات المصرية كل اسبوع .

ذهب الرئيس محمد نجيب ، اول رئيس جمهورية لمصر واختفت آثاره ، واصبح جمال عبد الناصر الرئيس بعده في سنة ١٩٥٤

قال احد الكتاب ان ثورة مصر ثورة بلامنافس ، وانتفاضة بلا معارض! . . .

لقد ترك الملك فاروق مصر ، وكانت اغنى البلاد العربية ، كان خليج العقبة في عهد فاروق تحت سيطرة مصر ولم يكن يسمح للبواخر بالمرور الى اسرائيل ، وقناة السويس ومنطقة سيناء تحت سيادة مصر .

وكانت القاهرة من اجمل المدن! . . .

والان هل تحسنت مصر تحت القيادة العسكرية؟

لم اجد ما يثير اعجابي بحكومة الثورة المصرية سواء تحت حكم محمد نجيب او البكباشي جمال عبد الناصر ، لكنى كنت اهتم باخبار مصر ، واعتبرها البلد العربى الاكبر .

قرأت عن قانون الاصلاح الزراعى واعجبت به ، ولكنني لم احبذ بقاء السلطة العسكرية في البلد . ضباط الجيش يسيطرون على كل امور البلد ، ومعرفتهم قليلة بالامور المدنية .

في العراق لم يهتم الناس بعبد الناصر كثيراً حتى بدأنا نقرأ عن شرائه الاسلحة من الكتلة الشرقية . بهرت هذه الانباء انفاس العالم العربى ، اذ بدا عبد الناصر امام جميع العرب وكأنه يتسلح لكي يسترجع الأراضي الفلسطينية! . .

ارتفعت صورة (جمال) في مخيلة العرب كلهم . أنه البطل القادم! . . .

اصبح عبد الناصر هو الكل في الكل . اختفى محمد نجيب كما اختفت اسماء السياسيين القدماء من مصر كلها امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد

زغلول وطلعت حرب وانطوى ذكر مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد وفؤاد سراج الدين ونجيب الهلالى وغيرهم ولم نعد نسمع عنهم .

موضوع بناء السد العالى على النيل في جنوب مصر . بواسطة مساعدة الحكومة الامريكية لمصر مادياً ، ولكن بعد مباحثات ومناقشات لمدة من الزمن ، رفض وزير الخارجية الامريكى المستر (دالاس) اعطائهم الاموال لبناء السد . الامر الذى جعل عبد الناصر يغضب ويعلن تأميم قناة السويس بصورة دراماتيكية في تموز ١٩٥٦ ..

اصبح عبد الناصر بعد قرار التأميم لقناة السويس معبود البلاد العربية كلها (من المحيط الهادر ، الى الخليج الثائر ، لبيك عبد الناصرا . . .) كما كان يذيع (احمد سعيد) وهو مذيع (صوت العرب) من القاهرة في تلك الايام! . . .

ابتدأت اذاعة (صوت العرب) شتم حكومة العراق ورجاله بسبب صداقتهم مع الدول الغربية وخاصة بريطانيا في تعليقاتها اليومية وتذيع التهم الجنسية على وزراء العراق الكبار وتؤلف المسرحيات والاغاني الكاذبة عليهم .

منعت الاذاعة العراقية جرائد مصر من دخول العراق بسبب شتائمها وعدائها المقيت لحكومة العراق .

الناس في العراق كانوا ضد بريطانيا منذ احتلالها للعراق سنة١٩١٧ ويويدون من يقف في وجهها . وكان عبد الناصر هو ذلك الرجل .

اصبحت اذاعة صوت العرب التافهة وصوت احمد سعيد هي الصوت الوحيد الذي يسمعه ويصدقه الناس من المغرب الى بغداد والخليج العربي .

كنت وزوجى نقرأ الجرائد الانكليزية مثل التايمز والايكونومست والسبكتيتر في بغداد وكذلك مجلة (تايم) الامريكية ونعلم مايدور في بلاد الغرب عن شراء الاسلحة من الاتحاد السوفييتى ، وعن قناة السويس وتأميمها ، وكان زوجى يشعر ان عبد الناصر على وشك ان تلحقه هزيمة تصيب البلاد العربية كلها .

كان ذلك يثير النقاش الكبير والغضب الهائل مع اصحابه وكنت احاول ان اخفف من تشائمه وغلوائه في الكلام خاصة مع الآخرين واطلب منه ان يتكلم معى في البيت ونحن لوحدنا فقط ، ولكن ذلك كان عبثاً! . .

انه لايستطيع امساك لسانه عما سيحدث في مصر وتأثير ذلك على العراق .

كان يشعر ان العراق ، وقد نال الزيادة من واردات النفط وبدأ يصرف على مشاريع مجلس الاعمار ، وكل الاشياء تسير بهدوء سريع الى الاحسن دون ان نصرخ بالعالم عما يجرى في البلاد .

كان زوجي هو الوحيد الذى انتقد عبد الناصر علناً وبغضب جارف بين اصدقائه .

كان يردد :

- الأجل بناء سد كبير على النيل اقام عبد الناصر الدنيا واقعدها؟ واربعة سدود كبرى كانت تقام في العراق في ذلك الوقت ولم يسمع بها الناس .

- كنت اعلم انا ، ان عبد الناصر لن يعمل المستحيلات بخطاباته على الهواء ، ولكنى لم افصح عن ذلك للاخرين خوفاً من تقديسهم لعبد الناصر ، القائد العظيم وزعيم العالم العربى كله! . .

لقد اصبح الزعيم الذى طال غيابه من حياتهم لبضعة قرون .

اصبح عبد الناصر لدى الناس صلاح الدين الايوبى او خالد بن الوليد ، وكل ذلك بسبب تأميم قناة السويس بخطابة حماسية للجمهور العربى من شرفته! . . .

كنت بالرغم من انني لااصدق خطابات عبد الناصر ، كنت استمع الى تلك الخطابات الطويلة ، البسيطة ، الشعبية التعابير ، والتذ بسماعها! . . كان لعبد الناصر صوتاً جميلاً مؤثراً ورناناً ، والناس اخذت تعبد صوته وكأنه اغنية موسيقية كالسحر يفتن به الجمهور ، ويتكلم ساعتين او ثلاثة ساعات والناس تطلب المزيد .

قال احد الاصدقاء بحماسة جارفة : انه يخطب ويهدد الانكليز والامريكان! . . الله يحفظه ويخرب بيت اعدائه .

لم يدر بخاطر احد ان يسأل هل التهديد والخطابة الحماسية فقط هي كافية امام العدو؟

بقي الناس كلهم ، عندما يخطب عبد الناصر ، يهرعون بالملايين الى الراديو لسماع صوته وكأنه حصل على الفوز المبين! . .

في هذه الاشهر وقبل فترة قليلة من تأميم قناة السويس ، وبعد ولادة ابنى احمد ، صرت اشعر بأنني انتهيت من الولادة والاطفال وخاصة عندى بنت وصبي وكنت اشعر بغاية الفرح لوجودهما ، ولن امر بدور الحمل الصعب القاسى مرة اخرى .

عدت الى العمل والى الحياة الاجتماعية المزدحمة خاصة مع اصدقائنا ومعارفنا العراقيين والاجانب الذين زاد عددهم في البلاد بصورة واضحة .

كانت الدعوات متصلة وكنت اتضايق من كثرتها . كنت احب الحياة الاجتماعية بصورة معتدلة ، كما كنت احب قراءة الكتب والمجلات في البيت ، والتذ باللعب مع اطفالي ، وأحياناً اميل الى الوحدة في البيت لوقت قصير . زوجي يحب اجتماعات الكلام والنقاش مع اصدقائه ، ويحب الولائم الغربية كلها ، الجدية الهادئة كما الموسيقية الراقصة ويلتذ بلعب التنس والسباحة في النادي ويطلب مني ان اشاركه وكنت افعل ذلك .

في بعض ليالي الخميس ، كان يجتمع مع اصدقائه القدامى في نادى المحامين في منطقة العيواضية . وكنت اعتبر ذلك المساء عطلة ممتعة في البيت ، اتعشى مع الاطفال ثم يلعبون بفراشي فترة ، وبعد منامهم ابدأ بقرائة كتاب او مجلة وانام مبكرة واصحو مبكرة في الصباح .

بدأت اراقب وزنى باهتمام ، ورأيت انه لم يرجع الى ما كان عليه من قبل .

لقد زاد وزنى عن الستين كيلو وهو وزن لم يحصل لدى من قبل ابداً! . . .

اثارنى ذلك وقررت ان اجعل وزنى يتناقص بسرعة ، ولن اصبح من البدينات الشرقيات . ان الكثير من صديقاتى الاجنبيات ، كنَّ بالرغم من الولادات ، في اوج الرشاقة والصحة . والغريب ان معظمهن كن يتناولن الطعام بشهية ويأكلن الكثير من الحلويات العربية بعد الوجبات دون ان يؤثر ذلك على وزنهن .

قررت ان اقلل طعامى الى درجة تقارب من الصيام لفترة قصيرة لعلى استرجع وزنى السابق .

بدأت آكل برتقالة واحدة مع كوب للشاى في الفطور ، وشورباء للغداء فقط ، واثناء العشاء اتناول قطعة صغيرة من اللحم والخضروات فقط ، من دون تناول البطاطا او الرز او الخبز ، رغم اننى ذات شهية كبيرة واعتبر الطعام اللذيذ من ملذات الحياة! . .

كنت اشتغل صباحاً في الكلية والمستشفى وبعد الظهر في العيادة ، ونخرج في الليل للحفلات والدعوات وانا على هذا (الريجيم) أي الحمية القاسية . وكان اكثر من شجعنى على هذه الحمية الشديدة هو زوجى . ولم اذكر لاحد بأنني قللت طعامى .

بدأت فساطينى وثيابى تتسع على شيئاً فشيئاً ، وانا بغاية الفخر بذلك .

اول من لاحظ ذلك كانت والدتى وكانت تكره النحافة والضعف . قالت بسخرية :

- انك تبدين وكأنك رجعت الى سن السادسة عشر عندما كنت نحيفة وهزيلة فبل الدخول الى كلية الطب ، وهل يعادل فقدان الوزن اضاعة رونق الشباب؟

كانت والدتى تفضل الوجه النابض بالصحة ، والجسم المملوء قليلاً .

لم اهتم بانتقادها ، كنت فخورة بأنني اصبحت في وزن خمسة وخمسون كيلو وأننى سوف اتوقف عندما اصل الخمسين كيلو . داومت على طعامى القليل ولم اشعر بالجوع .

ذات يوم رأنى الاستاذ هاركريفزالانكليزى في الردهة في المستشفى وقال :

- انك تفقدين وزنك بسرعة ، هل تشعرين بشيء؟

اجبت وانا فخورة :

- اننى اقلل من الطعام . لاشئ غير هذا! . . .

لم اشعر بأنني هدمت وبيدى انا ، بناية قوية هي جسمى المسكين! . . .

كنت اشعر بالفخر للنحافة والرشاقة التى عادت الي كما كنت في وقت الصبا! . .

صادفت هذه التطورات في حياتي قي صيف ١٩٥٦ في ذات الوقت الذي أعلن فيه عبد الناصر تأميم قناة السويس .

بدأت عندى علامات النزلة الصدرية مع السعال . لم يهمنى ذلك ، كنت على يقين من اننى قوية اتحمل شبه الجاعة هذه ، وداومت على الحمية . زاد السعال يالتدريج السريع دون وجود أي الم في الجسم . كان السعال غريباً علي وقد اقلقنى كثيراً .

ذهبت الى دار الاشعة في المستشفى وكان الدكتور احسان القيماقجى المدير هناك . اخذنا اشعة للصدر واذا بالدكتور ينظر الى الاشعة ويقول :

- في القسم العلوى من الرئة اليسرى علامات بداية وجود السل الرئوى ويجب ان تتوقفى عن العمل تماماً وابدأى بالعلاج .

جمدت في مكانى وكأن صاعقة اصابتنى! . . لم ادر كيف اشكر الدكتور واغادر الغرفة .

لم اخبر أحداً في المستشفى بل اخذت سيارتى (الفولكس واغن) الصغيرة ، وتوجهت وحيدة صامتة نحو البيت .

في الطريق بدأت افكر :

كيف ادخل البيت ولاقبل أطفالي على العادة؟ماذا سأقول لشيرين وهى السادسة من عمرها ، واحمد الطفل وعمره يتجاوز السنة الواحدة بقليل . ماذا اقول لسعدية المربية الشابة؟

قررت ان لا اخابر احسان في الدائرة تلفونياً بل انتظرت قدومه لئلا يضطرب في طريقه إلى البيت .

عاد الى البيت واخبرته ماذا حدث ، ولم يصدق ذلك! . . .

ظل يردد عدة مرات وكأنه يهذى :

- كنا في الليلة الماضية في دعوه لطيفة ورجعنا الى البيت في منتصف الليل وانت لا تشكين من شيء . مالذى حدث وانقلبت علينا الدنيا رأساً على عقب؟

خابرت اختى لمعان وزوجها الدكتور سالم . اتوا رأساً من بيتهم في الصليخ . ظل (سالم) يرددعلى ان السل الرئوى اصبح مثل نزلة صدرية طويلة ويزول تماماً اذا عولج منذ البداية .

كان الدكتور سالم على علم بتداوى هذا المرض (بالانتى بيوتكس) أي

مضادات المرض لانه يشتغل في الامراض الصدرية ، وكنت ولمعان نعلم أن هذا الداء الفظيع الذى كان يقتل الشباب والاطفال دون رحمة في الماضى ، يمكن معالجته في هذا الزمن بالانتى بيوتيكس (الستربتومايسين) .

فقدت والدتى في ايام شبابها اخوة واخوات من اهلها بهذا المرض وكانت تخاف من اسم السل الرئوى بشدة! . .

كان الخبر كبيراً على والدي واخواتي واخوتي .

اما احسان فقد سحقه وجود هذا المرض ، وانصرف عن تناول الطعام . لقد توفى والده الشاب بسبب هذا المرض وكان عمر احسان ثلاث سنوات ولا يذكر عن والده شيئاً . وقد حدث ذلك وأمي صبية في سن الرابعة عشر في بيت والدها . وماتت اختها التوأم خالتي (رمزية) وانا طفلة صغيرة واذكرها كخيال .

قررنا ان لا نقول للوالدة عن المرض الا في يوم سفرى .

كنت اود ان اسافر بأقرب فرصة لان العدوى بين الكبار قليلة جداً ، والخوف هو اصابة الصغار! . . اخبرت شيرين بأنني لااتمكن من تقبيلها وطلبت منها ان لاتدخل فراشى في الصباح كما تحب ان تفعل كل صباح ، واخبرتها عندما اشفى ، يعود كل شيء الى ما كان علية . يبدو انها فهمت شيئاً من كلامى وبدأت تأخذ احمد بعيداً عنى وتلعب معه في غرفتها . كذلك اخبرنا المربية (سعدية) بأن (احمد) يجب ان يبقى بعيداً عنى ، ولم يكن ذلك سهلا لانه يرغب ان يجلس في حضنى دائماً وانا العب واغنى معه ومع شيرين .

كان لدينا صديق عراقى اسمه (يوسف ياغجى) وكان متزوجاً من امرأة سويسرية اسمها (فيوليت) وهى من عائلة ميسورة يشتغل ابوها بالتجارة في جنيف . فيوليت اصرت على الزواج من العراقى (يوسف) الذى تخرج من كلية في لندن في الاقتصاد ، حيث تقابلا ، رغم معارضة والدها السويسرى الثري . اذ قال لابنته بعد تعرف على (يوسف ياغجى) :

–ياابنتى ، انه شاب لطيف ووسيم ومدلل ، لأنه الصبى الوحيد في عائلته في بغداد ، ولكنه مخلوق لصرف المال لا لجمعه! . .

والأب كان تاجراً كبيراً ،وكان يوسف ياغجى مبذراً يصرف بسخاء كبير .

اصرت (فيوليت) على الزواج من يوسف وعاشت في بغداد .

قبل سنتين اصيبت (فيوليت) بنفس المرض ، وذهبت لمدة اشهر للتداوى في سويسرة ، ثم عادت بعدها متشافية وبصحة جيدة ، وانجبت طفلا جميلا .

كنا نعرف (ام فيوليت) اذ قدمت الى بغداد لزيارة ابنتها من قبل وهى تشبه (دوقة) انكليزية بقيافتها وتصرفاتها الارستقراطية المهذبة . كانت تتكلم هي وابنتها فيوليت باربعة لغات اوروبية! . . .

خابرنا يوسف وفيوليت واتصلوا بالأم في جنيف ، التى اتصلت في الفندق في الجبل وتأكدت من وجود مكان في الجبل حيث كانت فيوليت تتعالج فيه من قبل .

بقيت افكر في اولادي . والدهم سيبقى معهم ، ولدينا (سعدية) المربية التى اعتنت بشيرين وبأحمد وسكنت معنا منذ ولادة شيرين والى الآن ، ولدينا طباخ ، وفلاح يقوم بدور الحارس في الليل ويسكن في غرفة في الحديقة .

وقد قررت اخواتى زيارة الدار كل يوم لرؤية الاطفال .

اختفى من ذهنى ما كان يحدث من حوادث حول تأميم قناة السويس واحتفال الناس بذلك ، لم يبقى أي شيء يهمنى في السياسة او غيرها .

اين انا الآن من قناة السويس مؤممة او غير مؤممة! . .

كنت افكر في أطفالي الصغار اذا ما سائت حالتى ومت وتركتهم من دون ام في هذه السن الصغيرة .

كان احسان يقول ماذا تعنينى السياسة كلها اذا ما فقدناك انا والاولاد؟ . .

ولكنه كان متفائلاً بما قال لنا سالم بأن المرض اصبح نزلة صدرية طويلة تزول بالتداوى اذا ماكان المرض حديثاً .

لا اتذكر هذه السفرة جيداً لأنني كننت في حالة بائسة بسبب مرضى وبعدى عن اولادى الذين لم اقبلهم قبل ذهابى! .

سافرت وحيدة لأنني لم استطع ان اترك الاولاد دون والدهم وكنت رغم يأسى واحزانى قادرة على السفر وحدى دون مساعدة لااشكو من شيء سوى السعال .

سافرت الى بيروت لقضاء ليلة اسافر بعدها الى سويسرا في الغد كما تفعل الطائرات في تلك الايام . وجدت في الطائرة صديقنا السيد (محمد المخزومي) وهو زوج صديقتي (سانحة امين زكي) الثانية ، وكنا نشترك بهذا الأسم الغريب (سانحة) . كان محمد المخزومي يعلم بمرضي ، وقد اظهر كل العناية معي في الكمرك ثم ايجاد تاكسي وغيرها .

قضيت الليلة في اوتيل (سان جورج) وكأنني سجينة! . . .

وصلت (جنيف) في اليوم التالى ، واستقبلتنى (ام فيوليت) في المطار ودعتنى الى بيتها حيث شربنا الشاي ، ثم ذهبت بي الى فندق صغير جميل قرب نهر(الرون) .

في الماضى كنت ارى نهر الرون جميلاً صافياً ينساب بين الصخور والاشجار ، وهو يخرج من بحيرة الليمان في جنيف ويستمر في جريانه الى فرنسا . في هذا الوقت لم ار لا النهر وجماله وامواجه او الناس حوله . كنت في شبه غيبوبة تشبه التخدير او المنام . كنت ارجو ان استيقظ من هذا الكابوس المخيف واعود الى طبيعتى! . . .

ذهبت مع (ام فيوليت) الى الدكتور الذى طلب ان تجرى بعض الفحوص على الصدر رغم اننى جلبت معي افلام اشعة الصدر من بغداد .

بعدها بيومين سافرت بالقطار اولا ، ثم ابدلت الى (التلفريك) الذي يصعد الجبل ووصلنا الى قمة الجبل واخذت التاكسي الى فندق (اطلانطا) الذي يقع في قمة شاهقة في جبال الالب تشرف على وادي عريض عميق جداً بين صخور كبيرة وفى اعماق الوادى ، يجرى نهر (الرون) من المانيا الى سويسرة وفرنسا قبل ان يصب في البحر الابيض المتوسط .

كان الجميع يسمي هذه البناية (فندق اطلانطا) وليس (المصح) ، هو لايختلف عن أي فندق آخر ، ويحوي ثلاث طوابق ، الطابق الارضي وهو كالسرداب لم اره في البداية ، وفوقه الطابق الاول وفيه غرفة كبيرة للجلوس ، وامامها غرفة الطعام والغرفتين تطلان على الشبابيك الكبيرة امام الجبال والوديان . وهناك المطبخ وغرف اخرى . اما الطابق الثاني فيحتوي على غرف متعددة للنزلاء ،

كل غرفة لشخص واحد فقط . اعطيت غرفة جميلة بها جدار زجاجي كبير يصل من السقف الى الارض مع باب يفتح على شرفة خارجيه خاصة بهذه الغرفة فقط وهي تطل على الوادى الكبير ،

داخل الغرفة سرير مريح يحاذى الجدار ، ودولاب للملابس لتعليق الثياب وداخله مجرات لوضع الملابس الداخلية والجوارب وغيرها ورفوف على الحائط لوضع الكتب ، والراديو . وامام الفراش توجد مائدة للمريض لتناول الطعام وهو في فراشه وتستعمل للكتابة أيضاً . وكرسى كبير واحد وباب صغيرة تؤدى الى حمام صغير يحوى بانيو ومغسلة لغسل اليد ومرحاض .

الشرفة التي تطل على الخارج تحوي أيضاً سرير كامل آخر للنوم في الهواء الطلق في الايام الصاحية ، وكان للشرفة سقف مغطى بقماش قطني ثخين يشبه قماش الخيمة لكي يحفظ السرير في اوقات المطر والثلج ، وفى الايام الاعتيادية يفتح هذا السقف اثناء النهار . أي كان لدي سريرين للنوم الواحد داخل الغرفة ، والثاني في الشرفة .

رأيت امامى منظراً لايوصف لجلاله وجماله وسعته التى تمتد الى آلاف الاميال عبر وادى الرون العميق وهو يجري فوق الصخور بين صفين من الجبال العالية الموازية لجبالنا ، والتى كنا نراها بعيدة امامنا عبر الوادي . كنت انظر الى الوادي الكبير امامنا ولا اتمكن من رؤية مياه النهر بسبب بعد المسافة بيننا وبين مجرى النهر البعيد .

لقد شق نهر (الرون) هذا الوادي العميق عبر قرون طويلة جداً بين الجبال العالية .

في هذا الوادي الكبير نشاهد بعض البيوت والطرق من بعيد تدل على وجود قرى صغيرة منتشرة في اطراف الوادي .

اتت المديرة ، اي الممرضة اللطيفة المهذبة وتكلمت باللغة الفرنسية ثم بالالمانية لكي افهم وهى تؤشر على الجبال البعيدة وراء الوادى :

ـ انظرى! . . هذه القمة الشاهقة بين القمم الاخرى والتى تغطيها الثلوج انها قمة جبل (ماترهورن) في فرنسا وهو اعلى جبال الالب كلها! . .

يبدو ان الجبال البعيدة التى تواجهنا كانت في اراضي فرنسا ، وهذا الجبل العالى الذى يغطيه الثلوج هو الماترهورن الشهير الذى يتسلقه محبى تسلق الجبال كل سنة .

اما الجبال الاخرى فكانت مغطاة بالاشجار الكثيفة ولا ينزل الثلج عليها في اشهر الصيف . ان ثلوج قمة (الماترهورن) هي ثلوج السنة الماضية وان قمته لاتخلو من الثلج حتى بالصيف .

اعطتنى الممرضة قائمة الاكل وقالت :

- كل يوم اطلبى مايعجبك من الطعام لليوم التالى .

وغادرت الغرفة .

ما ان بقيت بمفردي حتى ارتميت على الفراش ابكى من كل قلبى .

لااريد جبال الالب ، ولاالقمم الشاهقة ولا الماترهورن! . .

اريد فقط بيتى واولادى وزوجى واهلي وبلادى! . . .

عادت الممرضة ومعها فتاة بيدها صينية تحمل الشاي والكيك ، ورأتنى ابكي وانا اعلق صورة (لشيرين) واخرى (لاحمد) على الحائط قرب فراشى .

لم تقل شيئاً فقط طلبت مني ان اشرب الشاي ، ثم نظرت الى صور الاطفال وقالت باللغة الالمانية :

- يالهم من اطفال جميلين . سوف تعودين لهم بسرعة! . . .

اخبرتها باننى اتكلم القليل من اللغة الالمانية ولااعرف اللغة الفرنسية .

كل السويسريون يتكلمون ثلاث لغات الالمانية والفرنسية والايطالية . منطقتى كانت فرنسية . لااحد يتكلم اللغة الانكليزية .

في اليوم الثاني نزلت مع الممرضة بواسطة المصعد الى محل الفحص والأشعة في غرفة كبيرة في الطابق الارضى الاسفل وهو ما يشبه السرداب عندنا ، ورأيت الطبيب للمرة الاولى . كان رجل ذو شخصية مؤثرة جداً عمره يتجاوز الخمسين ، طويل القامة متين الشكل ويؤثر على المرضى كلهم كما رأيت ، بسبب تصرفاته الهادئة المتفائلة وابنسامته الواثقة دائماً .

تكلم معي باللغة الالمانية الصحيحة ، ويسمونها (الالمانية العالية هوخه

دويتش) ، لأن اهل سويسرة لهم لهجة عامية خاصة بكلامهم في اللغة الالمانية ، ولكن القراءة والكتابة هي باللهجة الالمانية الصحيحة ، الامر الذي يشبه كلامنا الشعبي في العراق الذى يختلف تماماً عن الكلام الشعبي في مصر وسوريا وغيرها من البلاد العربية ، ولكن الكتابة والقراءة هي بالعربية الصحيحة .

سمعت اللغة الالمانية السويسرية ولم افهمها ، بدت لي كأنها لغة جديدة خشنة الصوت .

فحص الطبيب رقوق الاشعة معي ، وتناقشنا حولها ، ثم أخذ اشعة جديدة بجهازه في غرفة الفحص . اظهرت له مخاوفي عن المرض ليس بسببي بل بسبب اطفالي الصغار الذين يحتاجون امهم ورعايتها وحبها .

سخر الدكتور من مخاوفي وقال :

- إن المرض في البداية فقط ، وهو ناتج عن الصيام عن الطعام . والآن سوف تأكلين طعام جبال الألب ، وتصبحين اقوى مني بعد اشهر قليلة .

ثم مد يده واضاف ممازحاً ، انه على وشك مراهنتي على ذلك! . .

ابدل كلام الطبيب ووثوقه من الوضع المرضي لدي معظم شعوري البائس الحزين .

شعرت انني سوف ارجع الى بغداد وارى الاولاد مرة اخرى! . . .

بعد ذلك طلب مني ان اطيع المطالب القاسية التالية :

ـ ان ابقى في السرير طيلة الوقت ، اتناول الطعام وانا في الفراش ، ولا اتحرك الا لغسل الوحه واليدين في الحمام اعود بعدها رأساً الى السرير .

وتأتى عاملة الشعر من القرية لغسل شعري مرة في الاسبوع وترتيبه .

الدواء آخذه وانا في فراشى مرة كل يوم عن طريق الابر تحت الجلد ، وثلاثة ايام بالحقن الوريدية في الدم وحبوب عن طريق الفم في كل يوم والممرضة ستقوم بذلك .

لم يقرر المدة التى سأمضيها نائمة في السرير وقال نبدأ بشهرين اولاً ، وبعدها كل شيء يسير حسب تطور المرض .

قال ان علاجى ان اتلقى (الانتى بيوتيك ستربتومايسين) ، والجأ الى الراحة

التامة في الفراش ، استمع الى الراديو واقرأ الكتب والجرائد ، ولا اذهب ابعد من الحمام اليومي او المسافة القصيرة من السرير في الغرفة الى السرير الآخر في الشرفة . وقال انه سيأتي مرة في الاسبوع لينظر الصدر قي اشعة رونتكن لكي يرى مقدار التطور في المرض .

على الرغم من شعوري بالتفائل بعد حديثه الاول ، كان كلامه الأخير مثل الحكم على بالسجن الرهيب! . . . كنت الى الآن اتمتع بالحركة التامة ، واتيت من بغداد لوحدى بالطائرة دون شكوى او الم ، والآن يطلب مني ان ابقى في السرير كالمشلولة ، آكل في السرير واستمع الى الراديو وأقرأ الكتب والجرائد وكل ذلك في السرير! . .

انه يقول ان ابقى اشهر قليلة في السرير ، ولكن ليس هنالك في جسدي ما يؤلمني ام يضايقنى .

ان هذه الاشهر القليلة ستكون سجناً ابدياً! . .

ناقشته قليلاً ، فأسكتني وقال :

- ان مناقشتي له تشبع العناد ولا تشبه كلام دكتورة في الطب . ان الراحة التامة في السرير لها اهمية كبرى بقدر التداوي بالعلاج الطبي! . .

اخبرته آنذاك ، انني سأقوم بما ذكر لي من الراحة التامة حرفياً ولن احاول تغيير أي شيء من الوصايا الصحية التى ذكرها لكياشفى واعود الى اولادى! . . .

بدأت بالحياة الجديدة المحزنة . اصبح السرير هو ملجأي الوحيد للأكل والقراءة وسماع الراديو! . . .

التداوي بالأدوية الطبية قلل من شعوري بالوحدة الكبيرة لأنني اصبحت في حلة نعاس دائمية ، وبدأت احب البقاء في السرير ، اقرأ واستمع الى الراديو وانام طويلاً .

كنت املأ عيني بجمال الجبال واشجارها والقرى الصغيرة البعيدة في الوادي الواسع امامي وانا في السرير على الشرفة ، كنت ارى أحياناً الطائرات الصغيرة تطير فوق الوادي وهي تحت مستوى فندقنا المبني على قمة تعلو عن المجال الجوي الذى تطير به الطيارة فوق الوادي . والطائرات الصغيرة كانت تستعمل اما

للاعمال الزراعية في مزارع الوادي ، او انها لبعض الشبان الذين يتعلمون الطيران في بعض نوادي الطيران .

كنت اعجب ان تكون شرفة حجرتي على الجبل في محل اعلى من الطائرات! . . .

اما طائرات (الجت) التي تمر علينا وهي تطير عالية في الجو الشاهق السامق ، فهي تشق الفضاء بصورة مرتفعة جداً فوق مستوى الجبالـويتبعها الضباب الفضى اللون الذى يشبه عباب البواخر في البحار . كنت افكر بالصحة والسلامة لهؤلاء الطيارين الشجعان ، واقارن حالتي المريضة بهم ، واغبطهم على ارتفاعهم الهائل وقدرتهم الفائقة ، وأشعر بالوحدة الشديدة رغم جمال المكان الذي ابدع الله تصويره .

هل كان على ان اجلب المرض الى جسمى القوى الصحيح؟ ولأجل ماذا؟

كنت اشعر بالوحدة والوحشة تشتد كل بضعة ايام دون سبب واضح ، رغم ان الممرضة تأتي الي مرتين او ثلاث في اليوم ومثلها الفتاة الايطالية الشابة التي تنظف الغرفة والفراش ، وكذلك تأتي عاملة الشعر لتغسل شعري مرة في الاسبوع وتصففه بعد ان ينشف . ان غسل الشعر بنفسى اصبح مجهوداً وممنوعاً علي! . .

اصبحت مطيعة لكل ما قاله الطبيب حرفياً لكي اشفى واعود الى بغداد! . .

تعودت على الراحة التامة في السرير! . . نسيت نشاطى في الماضى وبدأت بحياة جديدة وغريبة! . .

تصلنى جريدة (الحوادث) من بغداد وصاحبها (يحي قاسم) الصديق القديم لاحسان ، وهى تصل يومياً بانتظام ولكنها تصل متأخرة يومين او ثلاثة فقط ، الى هذه القرية البعيدة .

كذلك اشتركت بجريدة التايمس اللندنية اليومية . وكنت استمع الى الاذاعة البريطانية مرتين واحدة في الصباح واخرى في المساء ، ولاذعة القاهرة كل مساء .

كان احمد سعيد مدير اذاعة (صوت العرب) التى كانت تذيع اخباراً ومسرحيات واشعار معظمها ضد العراق . واصبح العراق العدو الاكبر لاذاعة مصر بدلاً من اسرائيل في راديو صون العرب! . . .

اما الاذاعة السويسرية او الفرنسية او الالمانية فلم اكن استمع لها بسبب جهلي اللغة .

كانت تأتينى من بغداد رسائل كثيرة وكنت اشكو من قلتها . كنت اود ان تأتى رسالة كل يوم . وكان يكتب الى زوجى ووالدتى واخواتى وكان الدكتور سالم يكتب لي كثيراً عن المستشفى الملكي وكلية الطب ، وتحوى رسائله القصص الى تثير الابتسام والمرح ، وكذلك تصل رسائل من صديقاتى خاصة صديقتي (اديبة ابراهيم رفعت) وكانت قد اصبحت مديرة لدار المعلمات الابتدائية في بغداد . وكنت التذ برسائل والدي القليلة . كان يكتب بخطه الجميل ، ويطلب مني ان ارى الجبال الشاهقة الجميلة والنجوم في السماء وتغيراتها وقال ان الشهور القليلة من الوحدة في هذا العالم الجميل سوف تكون بداية لعالم غريب وجديد وملذ لم اعرفه من قبل! . . .

تلقيت من (المسز سارة فاضل الجمالي)رسالة رقيقة جداً اخبرتني عما يجري في بغداد وعن جمعيتها لأنني كنت الطبيبة لجمعيتها (جمعية رمزي) للاطفال المعاقين في بغداد . كذلك رسالتين من سمو الامير (زيد) وزوجته الاميرة (فخر النساء) كتبتها هي باللغة التركية بالحروف العربية . كذلك اتتنى رسائل من اساتذة بريطانيين رسائل تحمل التشجيع وارسل قسم منهم دواوين شعرية لشيللى ووردزورث وبايرون .

كنت اتناول الفطور صباحاً وبعدها انتقل الى السرير الثانى في شرفتى الصغيرة اذا كانت السماء صاحية ، وكانت الفتاة الايطالية الى تحافظ على نظافة الغرفة ، تضع كيسين ماء حار قرب القدمين مرتين في اليوم صباحاً ومساء سواء كنت في سرير الغرفة او في سرير الشرفة لشدة البرد . وعندما تجدني اقرأ الكتاب اوالجريدة وانا في سرير الشرفة ، تضع هي الكيسين تحت اقدامى والبس قفازات ثخينه لان البرد يكون قارساً لااتمكن من مسك الكتاب او الجريدة بدونها . وعند المساء تبدل الكيسين وتضع كيسين جديدين بماء حار جديد في الفراش ، واول شيء تصنعه في الصباح هو تغيير الاكياس . كان كلامى مع هذه الفتاة تقريباً بواسطة الاشارات ، لانها لاتعرف الا اللغة الايطالية ، وكانت فتاة لطيفة الشكل ،

وتجلب لي الطعام اربعة مرات في اليوم ، وتأتى بالبريد اليومي وتقوم بتعديل الفراش مرتين يومياً .

الطبيب يزور الاوتيل مرة في الاسبوع في يوم الجمعة . وهذا اليوم هو اهم يوم عندنا . تأتي الممرضة وتساعدني على لبس الروب لكي انزل بواسطة المصعد الى القسم الاسفل من البناية حيث غرفة الطبيب وجهاز الاشعة . لم يكن لدى أي الم ، والسعال الذى اصابنى توقف تماماً منذ بداية العلاج بالانتى بيوتيك . كان الطبيب يفحصنى بالاشعة ليرى التأثير على المرض كل اسبوع .

طلب مني الدكتور ان اسمن قليلاً ، رفضت ذلك وقلت :

- لقد مرضت بسبب ازدياد وزنى ، والان وقد تخلصت من الوزن الزائد تريدنى ان استرجع الوزن؟ يعنى ذلك ان ارجع الى الوزن الزائد ومعه المرض الذى اصابنى؟ لن استرجع أي وزن ، وسأبقى كما انا! . . .

اجاب الطبيب ان زيادة قليلة تعنى ان الجسم في حالة الشفاء بدون شك .

لم اجب الطبيب ولكنى قررت ان لاآكل الا اللحوم والسمك والخضروات وامتنع عن الحلويات كلها والبطاطا ولاأكل الا القليل من الخبز صباحاً مع الفطور . وفطورى يحوى القهوة مع الحليب وقطع متعددة من الخبز مع المربى والزبد ، على الطريقة الفرنسية . وكنت استعمل قطعة خبز واحدة فقط من (الكرواسان) الفرنسى فقط مع القليل جداً من المربى من دون الزبد رغم شهيتى الكبيرة .

كنا نتناول طعام الغداء في الثانية عشر ، وفي الرابعة بعد الظهر نتناول الشاي ، والعشاء في الساعة السادسة مساء . كنت انام في الساعة العاشرة مساء ، واستيقض مبكرة في الصباح ، واستمع للأذاعة البريطانية حتى يجئ الفطور في الساعة الثامنة ، وبعدها تصل جريدة (الحوادث) العراقية والتايمس اللندنية . استمع لأذاعة (صوت العرب) المصرية والأذاعة البريطانية في المساء .

لم اتمكن من التقاط الأذاعة العراقية ابداً لضعفها! . . .

بعد مرور اربعة اسابيع ، شاهد الطبيب الأشعة الصدرية ، وقال لي باسماً :

- ان المرض سائر في طريق التحسن بدون شك ، وعليك البقاء في السرير كالحال الحاضر لكي يستمر ذلك التحسن .

فعلت كما قال الطبيب بطاعة تامة! . .

وفي شهر تشرين الاول اتى احسان لزيارتي ، وكان في سفرة سريعة الى لندن يشأن يتعلق بامور النفط في دائرته . وعاد عن طريق سويسرة لكي يراني في الجبل . اخبرت الممرضة ان زوجي سوف يأتي الى الفندق لليلتين فقط وحجزت له غرفة مجاورة الى غرفتي . كنت لاازال في دور عدم ترك السرير طيلة الوقت .

كانت لحظة مجيء احسان الى الغرفة وأنا طريحة الفراش ، بعيدة عن الاطفال والأهل جعلتني ابكي بشدة ولمدة طويلة وقت مجيئه دون ان اقول حرفاً وأحداً! . .تركنى ابكي دون ان يتكلم لأنه كان على وشك البكاء ، الى ان تمالكت نفسي .

اخذ يتكلم عن اطفالنا وأنهم في كامل الصحة ، شيرين تنتظر عودتي الى بغداد واحمد بدأ ينطق بكلمات لطيفة غير مفهومة ، وأخبرني عن أهلي والأصدقاء الاخرين .

جلبوا لاحسان طعام العداء في غرفتي وتناولنا الطعام معاً وهي اول مرة اتناول الأكل مع شخص آخر منذ دخولى الفندق قبل ما يقارب ثلاثة شهور .

ذهب احسان الى القرية ماشياً بعد الغداء ، وارسل طاقات كثيرة من الورود والازاهير الجميلة المتنوعة الرائحة والألوان . وصلت الزهور من مخزن الورد قبل ان يعود احسان من القرية ، وقد وضعتها الممرضة في عدة مزهريات حوالي الغرفة .

سمعنا معاً اذاعة غريبة في اللغة العربية تشتم جمال عبد الناصر ، ويصف المذيع العربي عبد الناصر بالشيوعية بالعربية المصرية ويسمى عبد الناصر (جمالوف) . ولم نعلم من كان يذيعها . لم تتناول الأذاعة البريطانية في اللغتين العربية والإنكليزية أحداً بالسباب وظلت تذيع الأخبار بالكثير من الحشمة والهدوء .

كنت استمع الى الأخبار باهتمام شديد ، ولكن بالنسبة لمرضي والتداوي الطبي كان اهتمامي اقل جداً مما كنت عليه اثناء حالتي الصحية القديمة . لقد نقصت لدى احاسيس الفرح واحاسيس الغضب بسبب ضعفى ، ولكن احاسيس الحزن بقيت كما كانت عميقة ومؤثرة .

في اليوم التالى ، واحسان في القرية يتمشى لشراء المجلات الإنكليزية ، كنت استمع الى الاذاعة من القاهرة سمعت صوت عبد الناصر يتكلم بلهجة الخوف والوجل عن قصف مصر بالطائرات ، ويقول :

- ان مصر لم تقم بأى نشاط معادى للدول الأخرى ، لماذا هذا القصف لمصر واسرائيل هي المعتدية؟

لم افهم شيء سوى ان القاهرة قد قصفت! . .

دخل احسان ووجدني ابكي امام الراديو وقلت له :

- لقد قصفوا القاهرة! . .

بقيت فترة لاادري ماذا اقول وانا الممددة في الفراش! . . .

انقطعت اذاعة مصر بسبب القصف الجوي الذى اصابها .

بعد يومين اعلنت بريطانيا انها ستتوقف عن القتال وتعود ادراجها ، بسبب طلب ذلك من قبل الرئيس الامريكي أيزنهاور اولآ وبعده الرئيس خروشوف رئيس الاتحاد السوفييتى الذى هدد بريطانيا .

لم اكن ادرى آنذاك ان الاعتداء الثلاثى على مصر قد كان بداية تفكك الامبراطورية البريطانية التى حكمت بحار العالم لمدة تقارب الثلاثة قرون! . . .

تقابل احسان مع الطبيب وشكره على العناية الفائقة في الفندق ، واخبره الطبيب ان الصور في الاشعة تسير نحو التحسن السريع .

غادر احسان الفندق في صباح اليوم الثالث . انه موظف في الدولة ، والاطفال في بغداد ينتظرون رجوعه! . . كان سفر احسان محزناً وكئيباً لنا معاً .

عدت وحيدة منفردة مرة اخرى! . . .

قضيت ايامي استمع الراديو واقرأ الجرائد عن الاعتداء الثلاثى على مصر . سمعت عن استقالة الوزير (انطونى نتنك) من وزارة انطونى ايدن احتجاجاً على الحرب مع مصر .

بعد فترة قليلة استقال انطونى ايدن رئيس الوزراء نفسه لاسباب صحية وذهب الى امريكا للراحة وللاستجمام . ومنحته الملكة لقب لورد ، واصبح هارولد مكميللان رئيساً للوزراء في بريطانيا .

سمعت في الراديو عن ميلاد (سير ونستون شرشل) الثانى والثمانون وقد ارسلت اليه من مدينة لندن كعكة كبيرة عليها ثمانون شمعة صغيرة وشمعتين كبار .

كنت لاازال اتابع اخبار ذلك السياسى العظيم العجوز بأهتمام كبير .

في بداية شهر تشرين الثانى وبعد سفر احسان باسبوعين ، فحصنى الطبيب يوم الجمعة كالمعتاد ، وقال لي باللغة الالمانية وهو يبتسم بارتياح :

- يبدو ان المرض قد توقف الآن وارى علامات الشفاء ظاهرة! . .

وقال بأمكانى لبس ملابسى الاعتيادية قبل ساعة الغداء والنزول الى الطابق الاول لتناول طعام الغداء فقط مع الآخرين ولمدة ساعة واحدة كل يوم ، وبعدها العودة الى السرير مرة ثانية الى اليوم التالى . انزلي للغداء غداً لمدة ساعة ولن تناولي الغداء في السرير بعد الآن! . .

لم اصدق قوله من فرحي! . . .كان كلامه لي كأنه موسيقى سماوية! . .

صعدت بالمصعد الى غرفتى وانا ارتجف سروراً ، وبالكاد تمكنت ان اكتب رسالة الى زوجي اخبره بالحدث العظيم ، ولاحت لي بغداد امامي ومعها أطفالي وبيتي واهلي وبلادي! . .

في اليوم التالى قبل الغداء لم ادر ماذا البس من الملابس . قضيت ثلاثة اشهر في ملابس النوم فقط . ابدلت ملابسى بتردد ، ونزلت الى غرفة الطعام بواسطة المصعد . رأيت مائدة صغيرة قرب الشباك وعليها كرسى واحد بين الموائد الاخرى . كان كل شخص يجلس الى مائدة له فقط . رفع الجماعة اياديهم ترحيباً بقدومي ، وقد فرحت لرؤية الوجوه الباسمة المرحبة .

اخذت اتناول غدائى في غرفة الطعام كل يوم واجلس في الغرفة الكبيرة لمدة ساعة ثم اعود الى غرفتي والسرير وابقى فيه الى وقت الغداء في الغد . كان الطعام في غرفة الاكل شيء عظيم بالنسبة لي! . . بعد ذلك بفترة طلب مني الدكتور ان اخرج بعد الغداء واذهب الى القرية في اعلى الجبل واتمشى لمدة ساعة كل يوم قبل وقت الغداء ، وكانت الثلوج تغطى المنطقة .

تبرعت احدى الفتيات اللواتى عرفتهن في الفندق ، وهى تأتى الى الفندق كل سنة للراحة والاستجمام ، تبرعت ان تساعدنى على شراء ملابس شتوية وافية لهذا الجو البارد الثلجي ، عندما ذكرت لها ان الطبيب منحني الرخصة للخروج .

في ساعات قليلة ذهبت الفتاة الى السوق واشترت ملابس كثيرة اتت بها الى .

كان مما اشترته ملابس داخلية صوفية سوداء اللون تصل الى الكعبين وتلتصق بالجسم تماماً مثل البنطلون الملاصق للجسم ، ذكرنى ذلك بملابس والدي الصوفية البيضاء اللون كان يرتديها ايام الشتاء وفوقها فانيلة صوفية بيضاء ، وكنا نحن الاطفال نسمي هذا اللباس سراً بيننا عندما يخلع الوالد ملابسه الخارجية ، انه يلبس مثل ملابس الفرسان في السينما ، وكان والدي لايخلع هذه اللابس الداخلية حتى في وقت النوم تبقى تحت الدشاشة (القفطان) . والآن اصبح عندى ملابس (الفرسان) الضرورية في هذا الجو البارد وفوقها ارتدي بنطلون اعتيادي اسود اللون من قماش صوفى سميك ويرتبط بالقدم بشريط مطاطى فوق الجواريب الصوفية . وفوق ذلك بلوزات صوفية سميكة جداً وقفازات جلدية مبطنة بالصوف وقبعة صوفية سوداء تلتصق على الاذنين لتمنع البرد الشديد عنهما ، مع حذاء طويل (جزمة) بلون اسود مبطنة بالفرو وفوق كل ذلك المعطف الاسود من جلد الخراف الآسيوية الذى جلبته معى .

عندما رأيت نفسي بهذه الملابس في المرآة شعرت انني اشبه الرهبان الفرنسسكان ذوى الأردية السوداء! . . .

كان نزول الثلج من الايام المزعجة في الجبل ، إذ يصبح الجو قاتماً عبوساً يشبه ايام عواصف الغبار الشديد قى بغداد . أحياناً لانكاد نرى ما حولنا الا بصعوبة ، ونضطر على فتح الاضوية الكهربائية ونحن في رابعة النهار . كنت اسد شباك الشرفة واجلس اقرأ تحت الضوء الكهربائى إذ لايمكن الخروج الى الشرفة في هذا الجو .

في بعض الاحيان يهطل الثلج لمدة يومين او ثلاثة ايام نصبح كالسجناء لا

يمكننا الخروج الى خارج الفندق . بعد ذلك يعقب ذلك الثلج الصحو ومناظره الرائعة التى لايشبهها شيء في هذه الدنيا! . .اميال واميال من الجبال البيضاء والوديان والاشجار المكللة بالثلوج تغطيها سماء زرقاء لا حد لصفائها ، وجو رقراق لايحوي سوى الهواء الصافى ، وشمس قوية ساطعة طيلة النهار ، ويستمر ذلك ايام صاحية عديدة . اين هذا الجو الصاحي والشمس اللامعة في منتصف الشتاء ، من ايام المطر والغيوم التى تخيم على ارض المدن الاوربية؟

كنت اشاهد امامى قمم جبال شماء تسير الى نهاية ما ارى في الافق ، ويكتسى وادى نهر (الرون) العريض بغطاء جليدي ابيض لايمس ببياضه او نقائه أي شيء آخر على وجه البسيطة ، وتختفى من امامي الشوارع والبيوت والسيارات كلها ، لقد غطاها واحتضنها الثلج الناصع ، والشمس تشع على المشهد الباهر بنورها اللامع الازلي .

تنقطع السيارات في اثناء هطول هذه الثلوج الكبيرة المتراكمة ، ولكن ما ان ينقطع الثلج الا وتظهر يد العمال الماهرين الذين يفتحون الطرق للناس بسرعة كبيرة . تأتى اللوريات الكبيرة وهى تسير على عجلات تحيطها السلاسل الحديدية وتكنس الثلوج من وسط الشوارع وترميه على جانبى الطريق . تنفتح الشوارع بسرعة وتصبح محاطة بجدران ثلجية عالية على جانبى الطريق ، وتبدأ السيارات وعربات الثلج بالمسير .

ارتديت ملابسى السوداء الجديدة وخرجت بعد طعام الغداء وحدى وسرت الى اعلى الجبل ببطأ . وصلت القرية في اعلى الجبل ، ورأيت شارع القرية القصير ومطاعمها الصغيرة وحوانيتها الانيقة . وقفت امام محل لبيع الساعات المختلفة من الثمينة جداً الى الرخيصة وساعات للاطفال على اشكال ميكى ماوس وحيوانات اخرى ، وساعات كبار قسم منها برقاص غريب هلى شكل رجال عظماء من الماضي او قديسون لااعرف اسمائهم او طيور ورؤس آدمية تخرج رأسها كل ربع ساعة وتصدح بأغنية مرحة ثم تختفى . شعرت كأن رأسى يدور من حركة الساعات الكثيرة رغم اعجابى بها .

اما مخازن الازهار فتشبه حديقة ورود صغيرة بين الحوانيت والمخازن هذه .

والناس تسير في الشارع بملابس رغم اناقتها والوانها ، تشبه ملابس الاسكيمو ، والاطفال الصغار وهم يشبهون الملائكة في الرسوم القديمه بملابسهم الملونة الجميلة وهم يتزحلقون على الشارع والارصفة . ظننت نفسى وكأننى اصبحت (أليس في بلاد العجائب) بعد ذلك الحبس الطويل في الفندق .

بقيت انظر الى كل هذه الاشياء واتمعن بها لمدة طويلة وكأننى لم ار مثلها من قبل! . .

اشتريت كتاب عن تعليم اللغة الفرنسية بدون معلم من مكتبة القرية الصغيرة ، وكان اسم الكتاب (لنغوافون) ، وبدأت ادرس اللغة لوحدي في غرفتي صباحاً الى وقت الغداء .

وجدت البداية صعبة جداً بالنسبة لتعلم اللغة الالمانية . كانت لدينا في المدرسة معلمة المانية قديرة جعلتنى احب اللغة الالمانية كثيراً في الماضي ، ولكنني انزعجت من الكتابة الفرنسية والكلمات ذات الحروف الكثيرة التي تكتب ولا تقرأ! . . طلبت من احدى السويسريات ان تبدأ تعليمى مرتين في الاسبوع وادفع لها راتباً . وهذه الشابة السويسرية كانت مريضة قبل مدة وشفيت من المرض وتأتى كل سنة في الشتاء لتقضى عطلتها هنا في هذا الفندق الجميل . والغريب ان اكثر اهل الفندق مثلها ، اتوا للعطلة للفندق دون أي علاج الآن لأنهم شفوا من المرض ويأتون لقضاء العطلة هنا! . .

والسبب ان جو هذا الفندق لايدل على المرض ابداً . المريض الذي حاز على الشفاء يلبس الملابس الاعتيادية ويخرج الى القرية والى القرى الاخرى للترفيه عن نفسه ، اما المريض ، فأنه يبقى في غرفته الخاصة ولا يراه الآخرون الى ان يحصل على الشفاء حيث يرتدى ملابسه الاعتيادية ويأكل في مطعم الفندق او يلعب البريدج او غيره ، ويخرج الى القرية كما يريد .

كان للفندق جو مرح وود بين النزلاء وكأنه فندق للراحة .

تعرفت على البعض من النزلاء .

كان احد هؤلاء قس لبنانى كاثوليكي في حوالى سن الاربعين ، يأتى كل سنة الى الفندق وقد تعافى من مرضه منذ سنوات وهو يحب المنطقة وأناسها

ويأتي للعطلة كل سنة . وكان يتكلم اللغة الفرنسية وكأنه احد ابنائها حسب قول المرضة . كلامي معه كات باللغة العربية طبعاً وبلهجة لبنانية تامة لانه كان لا يفهم اللهجة العراقية الاصلية لو تكلمت بها معه . ولكنني تعلمت لهجة لبنان من ايام الدراسة ولذلك كنت افهم كلامه واتكلم معه بكلام يقارب العربية الفصحى وكان يفهم ما اقول .

كان هذا القس مثقفاً ومهذباً واخذ يسألني الكثير عن الدين الأسلامي . ولم يكن يدرى ان في القرآن الكريم سورة (مريم) العذراء والدة المسيح (ع) ، خاصة ان لمريم العذراء مكانة القداسة عند الكاثوليك ، وقد افرحه الخبر كثيراً .

هناك آخرين في الفندق من مختلف البلاد الاوربية فتاة من فرنسا ورجل انكليزى في منتصف العمر وثلاثة رجال من سويسره وشابة تلميذة صينية تدرس في الثانوية ، وفتاتين من اليونان واحدة منهما كانت ابنة شخص غني جداً يقوم ببيع النفط مثل (اوناسيس) وكان صديقاً له . لم يكن الناس على معرفة باوناسيس آنذاك ما عدا من يشتغل بامور النفط ، وكنت اعرف اسم اوناسيس من زوجى بسبب زيارات هذا الشخص الى السعودية ونقله النفط بواسطة بواخره الكبيرة .

هؤلاء كانوا في صحة جيدة يقضون العطلة في الشتاء في هذا الفندق .

قلت في نفسى :

- اذا خرجت من هذا الفندق متعافية ، فلن اعود اليه مرة ثانية! . .

بدأت دراسة اللغة الفرنسية يومياً واحببتها بالتدريج ، كنت اعلم انها لغة جميلة لان كل من يعرفها يتحدث بجمالها ويقال ان استيعابها لمعاني الكلمات المكتوبة يتفوق على اللغات الاوروبية الاخرى .

كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في المعاهدات بين جميع الدول الاوروبية في الماضي ، والآن تغلبت عليها اللغة الانكليزية التي اصبحت اللغة الثانية في معظم الدول في العالم .

بعد مرور شهرين على دراستى اللغة الفرنسية ، لقيت الدكتور في مقابلته الاسبوعية لي وكنت اتكلم معه في اللغة الالمانية . وجدت نفسى اتكلم معه

باللغة الفرنسية اسهل من كلامى باللغة الالمانية .

تعجب الدكتور من ذلك وقال انك تعلمت الفرنسية بعد قدومك الى هذا الفندق والان تتكلمين بها! . .

أجبته اننى اجد الفرنسية اسهل لانى اسمع الجميع يتكلم بها يومياً .

بعد فترة اشتريت قصة (مدام او كاميليا) باللغة الفرنسية من مكتبة القرية ، وكنت اعرف هذه القصة الشهيرة تماماً لأنني قرأت ترجمة (غادة الكامليا) للمنفلوطى وانا في سن العاشرة ، وكذلك شاهدت الممثلة (فاطمة رشدي) تمثل هذا القصة في نفس ذلك الوقت في بغداد ، وفى سنوات الثانوية قرأت الترجمة الاصلية من بين كتب والدي ، وبعد ذلك ، وانا طالبة في كلية الطب رأيت الفلم السينمائي الامريكي لهذه القصة وقد مثلته الممثلة (كريتا كاربو) .

قلت لنفسي ، اذا تمكنت من قراءة القصة كلها ، المعنى اننى التذ بقرائتها .

اخذت اقرأ القصة ببطأ شديد ، وكنت التذ بالقراءة تماماً ، حتى اكملتها كلها .

سرني ذلك كثيراً ، وجعلنى اجرأ واشتري قصة فرنسية اخرى من تأليف (انطون موروواه) وهي قصة لم ارها من قبل ، اظن اسمها كان (اوراق الخريف) ، قرأتها كلها وفهمتها بلذة وشغف .

ازدادت جرأتي على القراءة باللغة الفرنسية ، واشتريت كتاباً مترجماً من اللغة الانكليزية الى اللغة الفرنسية ، من تأليف (دوقة وندسور) أي مسز (سمبسون) ، وهي السيدة الي تنازل الملك البريطاني (ادوارد الثامن) عن عرش اكبر امبراطورية في العالم قبل عشرين عاماً ، لكي يتزوجها عندما عارض المجلس البريطاني وعائلة الملك ذلك الزواج .

الكتاب اسمه (القلب له اسبابه) ، وكان الكتاب جديداً لم اره من قبل . قرأت الكتاب وفهمته كله ، ولكن قرائتي كانت تسير ببطأ كما ذكرت .

تحسن كلامى باللغة الفرنسية واصبحت قادرة ان اشتري الأشياء من السوق ، واتكلم مع الممرضة بسهولة واقرأ الجرائد والمجلات الفرنسية ولو بصورة بطيئة ، ولكني كنت اجد الصعوبة في فهم كلام الفرنسيين وهم يتكلمون بسرعة مع

بعضهم ، او الاستماع الى الراديو الفرنسي والمناقشات او الجدل او الهزل فيما بينهم .

تكلمت مع (ام فيوليت) السيدة اللطيفة الي استقبلتني في جنيف وحجزت لي غرفة في هذا الفندق المريح ، وطلبت منها ان تأتي لتتناول الغداء معي في الفندق .

وصلت السيدة العجوز الأنيقة النشيطة من جنيف بالقطار وصعدت الجبل العالي ، وكانت تعرف المكان منذ اصابة ابنتها بهذا المرض . سلمت على الممرضة وهي تعرفها ونظرت الى اطراف المكان وقالت :

ـ المكان لايزال جميلاً .

تناولنا الغداء معاً وقد استمتعت بالزيارة ، وعندما ذهبت الى غرفتي للقيلولة الضرورية ، بقيت هي في غرفة الجلوس تلعب (البريدج) مع القس اللبناني واثنين آخرين ، (البريدج هي لعبة تقوم على اربعة اشخاص) . نزلت في وقت الشاي وشربناالشاي سوية . رجعت السيدة في المساء الى جنيف وقالت ان الزيارة كانت ممتعة! . .

اخبرتها ان بوسعها المجئ كلما رغبت في الزيارة لانها لاتستطيع المجئ الا لزيارة شخص في الفندق . اخذت هذه السيدة اللطيفة تأتي كظيفة لدي للغداء معي ، ثم تلعب البريدج مع الجماعة مرة او مرتين في الاسبوع ، وكنت آنس بحضورها . كانت سيدة مثقفة وانيقة جداً ،وتعرف ما يدور في العالم من حوادث وتعلق عليها بذكاء . كانت لغتها الأم اللغة الالمانية ولكنها تتكلم الانكليزية معي بكل طلاقة .

حاولت السيدة ان تعلمني لعبة (البريدج) وهي لعبة ذكية تحتاج الى التفكير ، تعلمت القليل منها ، ولعبتها مع جماعتها عدة مرات ولكني نسيت البريدج عند رجوعي الى بغداد .

كانت معنا فتاة يونانية ثرية جداً كما اسلفت ، وكان والدها يتعامل مع بواخر النفط في البلاد العربية وكان له اسماً معروفاً في آثينا وسموا الشارع الذى كان يسكن به على اسمه . وكانت الفتاة شديدة الزهو بمنصب والدها في بلاده ،

واسمها (هلين) في الرابعة والعشرون من عمرها ، جميلة رشيقة وسمراء لونها مثل الوان اهل البحر المتوسط ، درست في لندن وتتكلم الانكليزية بكل طلاقة . كانت لاتزال تحت المعالجة ولا يسمح لها بالخروج الا الى القرية المجاورة على مسيرة عشر دقائق صعوداً الى القمة المجاورة . كانت هلين تملك سيارة صغيرة مفتوحة تسع شخصين فقط من نوع (مرسيدس) حمراء اللون تفتح سقفها في الايام الصاحية وكنت اذهب معها بالسيارة أحياناً الى القرى البعيدة ، ونشرب القهوة معاً .

في غرفة الطعام كانت مائدتي ومائدة (هلين) متجاورة ، واصبحنا صديقتين .

لقد فقدت هيلن والدها قبل مدة قصيرة وترك لها مبلغاً كبيراً من المال ، وكانت تميل اليالاسراف وصرف المال على اشياء كمالية . وكان لها اخ اكبر منها قليلاً ، يأتي ليراها . رأيته وهو يترك الفندق بعصبية لانه رأى اخته تدخن السيجارة سراً ، وقد منعها الطبيب من التدخين . كانت هذه الفتاة تتصرف مع نصائح الدكتور وكأنها تلميذة شقية في المدرسة تعاند المعلم ويفرحها ذلك .

وهناك فتاة صينية صغيرة السن في حوالى الثامنة عشر تدرس في مدرسة امريكية في سويسرة وكانت في صحة جيدة ، اتت الى هنا لترتاح في نفس الفندق الذى تعالجت فيه من قبل ، وكانت تتكلم اللغتين الفرنسية والانكليزية بكل طلاقة . احببت فيها ذكائها وهدوئها وخجلها اللطيف ، وبسبب معرفتها اللغة الانكليزية كنت اتكلم معها طويلاً ونذهب الى القرية معاً للتمشى وشرب القهوة .

كنا نصعد معاً الى قمة الجبل العالى جداً الذي يقابلنا في القسم الآخر من الوادى الذي يفصلنا عنه واسم القمم العالية هناك (الجبل الاوسط ، لا مونتان مويان) لان هناك قمم اعلى منه في منطقة اخرى . الطريق الى الجبل الاوسط هو ركوب الاقفاص الكهربائية الى تسير من جبلنا الى الجبل الاوسط على اسلاك كهربائية متينة جداً . كنا نجلس في قفص زجاجي كبير يسع اربعة اشخاص للجلوس منفردين ونربط الحزام حولنا ، ونصعد في سكة كبيرة من الاقفاص الزجاجية الأخرى ، نحو قمة الجبل ، ثم يعبر القفص نحو الجبل الأخر بصورة

افقية ونكون معلقين بالاسلاك الكهربائية فقط وتحتنا فراغ مخيف يمتد الى ارض الوادى تحتنا ، وتبدو الارض عميقة وبعيدة في اسفل الوادي الكبير . بعدها نبدأ بالصعود الى الجبل الاوسط ، وعندما نصل قرب القمة يقل حجم الاشجار الكبيرة ، ويقل عددها حتى تصبح شجيرات صغيرة مبعثرة بين الصخور . بعدها تنعدم الشجيرات تماماً بعد ان نقارب القمة وتبدو الجبال بلونها الرصاصي الاجرد ولا نرى الا الملايين من الصخور العارية التى تغطى قمم الالب الشاهقة .

في اعلى الجبل نترك القفص الزجاجى ونخرج فوق الصخور . وهناك نجد المطعم الخشبي الجميل الوحيد هناك ، ومختلف السواح يأكلون او يتفرجون او يصورون بالكاميرا ، صوراً لاجمل ما خلق الله من بهاء في هذا الكون الغريب الجميل .

في داخل المطعم ، يوجد الذ الطعام والشراب الحار والبارد ، يقدمه فتيان وبنات من القرى بوجوههم الوردية الصحية وملابسهم الجبلية البديعة وقبعاتهم الطويلة الملونة وكلامهم اللطيف الجميل .

كنت اسائل نفسي :

ـ اهناك مساواة في العالم؟ اين نحن من هذا العالم الراقى المتمدن! . . .

في احد الايام خابرني الطبيب بصورة فجا ئية لكي اراه في غرفة الفحص ولم يكن ذلك اليوم موعداً لفحصي . نزلت الى الطابق السفلى ورأيت الطبيب ومعه شخصين في سن الكهولة ، لم ارهما من قبل . قال الطبيب وهو يبتسم :

ـ هؤلاء من العراق ، من ابناء بلدك! . .

لم اعرف هويتهما ولكني سررت لرؤيتهم المفاجئة كثيراً . كان احدهم السيد (صالح جبر) ، رئيس الوزراء العراقي السابق في سنة ١٩٤٧ ايام معاهدة بورتسموث ومظاهرات (الوثبة) الجاهلة التي اضرّت البلد .

كان السيد صالح جبر يشبه صوره في الجرائد والتلفزيون ، قصير القامة اسمر اللون ذو شعر اسود قصير ، وكان معه رجل آخر طويل القامة ، بديناً بعض الشئ عرفني به السيد صالح جبر وكان يناديه بلقب (شيخ) ، وهو احد شيوخ الحلة الكبار وكان يرتدي ملابس اوروبية .

بعد التعارف طلب مني السيد صالح جبر ان اساعد الشيخ من ناحية اللغة مع الطبيب ومع الناس في الفندق ، لان الشيخ لا يعرف أي لغة اجنبية . شعرت ان الامر هو واجبي واقوم به بكل سرور .

زار الفندق السيد صالح جبر مرتين او ثلاثة ، وكان يبقى ليأكل الغداء مع الشيخ ، ثم يقضي فترة قصيرة وينزل بعدها الى جنيف . اخبرني السيد جبر انه كان يعرف عمي المرحوم (حسن فهمي) معرفة جيدة واخذ يتحدث عنه بكلام طيب .

رأيت السيد صالح جبر ، رجلاً ذكياً متحدثاً ، لبق اللسان ، عالى التهذيب ونشيط الحركات .

وقد رجع السيد صالح جبر الى بغداد بعد ايام .

منع الطبيب شيخنا العراقيالصعود على الجبل الاوسط ، بسبب مرضه الصدري .

كان الشيخ رجل ظريفاً مهذباً بكل معنى الكلمة من ناحية لباسه الاوروبى الانيق ، وطريقة تناوله الطعام في غرفة الاكل معنا ، وتصرفاته مع الناس الآخرين . كات شخصاً هادئاً واثقاً من نفسه ، يمثل شخصية (شيخ) القبيلة برزانته وبشاشته وكبريائه الطبيعية! . . وكنت احترمه كثيراً .

بدأ الجميع يحبون الشيخ ويحترمونه ، واخذوا يسألوني عن ثروة الشيخ ونحن جالسين في قاعة الجلوس ، أجبتهم بأننا لا نسأل عن هذه الاشياء بيننا ، كما هي الحالة بينهم . ثم سألونى ، كم زوجة لديه ، قلت ان هذا الموضوع شخصى ولن اسأل الشيخ عنه . ثم سأل احدهم كم من الخدم لديه في بيته؟سألت الشيخ عن هذا السؤال ، وكان جوابه لنا :

- انهم ليسوا خدمي ، بل انا خادمهم! . . .

اثار هذا الجواب الاعجاب والاستحسان من الجميع! . . .

كنا في الايام الصاحية نخرج الى القرية المجاورة او الى القرى البعيدة ونرى الناس بملابس تشبه ملابس الاسكيمو ولكن بالوان مختلفة وازياء جميلة . أحياناً كنا نستأجر عربة خشبية كبيرة تتسع لستة اشخاص او اكثر ، ولا تسير على

عجلات وانما على خشب معقوف لكي تتمكن من التزلج على الثلوج ، والعربة ملونة بالوان القوس قدح وفيها اجراس قرب السائق وتسير وكأنها ذاهبة الى حفلة عرس او مهرجان . وكنا نرى على قمم الجبال المتزحلقين وهم يصعدون الجبل بالقفص الكهربائى وينزلون من الجبل باقصى سرعة ممكنة الى قعر الوادى .

كانت هذه الرياضة الممتعة أي التزحلق على الجبال ، ممنوعة علينا في الفندق ، لأن التزحلق رياضة عنيفة على الجسم كله ، وخاصة على الرئتين .

رأيت (هيلين) الشابة اليونانية ، تخرج خلسة بسيارتها المرسيدس الحمراء المكشوفة ، ومعها ادوات التزحلق (سكينك) واختفت عنا اثناء وقت الغداء ، ولم نرها الى وقت المساء .

ذهبت للتزحلق على الجبل! . .

يبدو انها كانت ماهرة بهذه الرياضة قبل ان يصيبها المرض ، ولكنها الآن تضر مرضها المتأصل منذ اكثر من سنتين . اصابت هلين حمى خفيفة من جراء هذه الرياضة العنيفة ، واصبحت تقضى ايامها في الفراش .

وهي لو كانت طفلة صغيرة لأنبها الطبيب على هذا التصرف الخطر ، ولكنه لايتمكن من منع امرأة شابة تخرج خلسة للتزحلق وهى تدرى مرضها وخطورته . كنت الومها في نفسى على هذا التصرف الضار بها ، وبنفس الوقت كنت ادرى ما تقاسيه هذه الشابة الرياضية المدللة من حياة مملة بسبب هذا المرض الوبيل الذى يحتم الحياة البطيئة الكسولة اثناء المرض .

اما انا فلم اتزحلق في الجبل من قبل في (السكينك) ، ولا ارغب فيه الآن! . .كنت اغبط من ارى من الاصحاء وهم على قمم الجبال للتزحلق ، ولكنى كنت اعد الايام كل يوم ، لكي اشفى واعود الى بيتي واطفالي . لذلك امتنعت عن كل رياضة متعبة ، ما عدا المشى الى القرية المجاورة . كنت لا أريد أي شيء سوى الرجوع الى بغداد! . . .

كل جمال الثلوخ الناصعة والجبال العالية ومتعة رؤية التزلج ، لاتساوى في نظرى يوم واحد اسعد به في بغداد بين اولادي وفى بيتي! . . .

ما اقوى البشر مع الصحة التامة ، وما اضعفه في المرض الوبيل! . . .

و الآن انا اتناول الغداء والعشاء في غرفة الطعام كالناس الاصحاء وارتدي الملابس الاعتيادية ، واتمشى الى القرى المجاورة . كان هذا تحسن كبير بالنسبة لي! . . .

اصبح كلام الطبيب حول التحسن في الاشعة الصدرية في كل اسبوع ينزل علي كأنه الوحي! . .

أحياناً كنت اسائل نفسي ، ان كنت سأرى شارع الرشيد مرة اخرى؟ .او اشاهد نهر دجلة بضفتيه ونخيله! واتذكر اغنية (الجندول) لعبد الوهاب في مدينة (فنيسيا) وهو يتسائل :

هاجتْ الذكرى ، فأين الهرمانِ؟

اين ماء النيل؟ اين الضفتانِ ! . . .

نعم ، كنت اتذكر اين الكرخ ، واين الرصافة! . . .واين القوارب والزوارق! . .

كنت اريد ان ارجع الى اطفالي الصغار اضمهم واقبلهم دون الخوف من العدوى .

اكد علي الطبيب انه لن يرسلنى الى بيتي قبل ان يتأكد من انتهاء العدوى والشفاء التام . وقال مراراً اننى اذا حافظت على صحتي من ناحية الاكل والراحة ، استطيع ان ارجع الى البيت مع الاطفال كما في الماضى واقبلهم واضمهم الي دون خوف .

اتى عيد الميلاد المسيحيوهم يحتفلون به ويتهيأون اليه قبل شهر او اكثر ، كما نتهيأ للعيد في شهر رمضان ، ويشترون الهدايا ويرسلون بطاقات التهنئة . في الفندق عندنا ، وضعوا شجرة عيد الميلاد في زاوية من غرفة الجلوس ونثروا عليها الاضوية الملونة وصور الملائكة الصغار والورود والاشرطة ، وعلقوا على جدران قاعة الطعام والمدخل والباب الخارجي كذلك الاشرطة الملونة والورود وصور الملائكة ومصابيح صغيرة كهربائية على شكل خيوط طويلة تحيط بالجدران والابواب كلها .

في يوم ولادة المسيح (ع) كان العشاء شهياً فخماً ، ارتدت الممرضات والعاملات اجمل ملابسهن لتقديم العشاء . كان هناك حساء ، وديك رومي

محشي ، وخضروات وبطاطا ، ويتبعها حلويات العيد . وبعدها تأتي الحزورات او الفوازير والالعاب الصغيرة داخل اوراق جميلة ملونة وارتدينا قبعات ورقية غريبة مما يسبغ على الحفل جو السرور والمرح . ثم بدأوا يغنون اغاني عيد الميلاد وكنت اعرف معظمها منذ سنوات باللغة الانكليزية ، وكانت هي نفس الاغانى انما باللغة الالمانية .

ان الالمان في المانيا والنمسا نظموا اجمل الاغانى والموسيقى العالية (الكلاسيك) في قارة اوروبا . يبدو ان الانكليز ترجموا هذه الاغانى الى لغتهم مع الاحتفاظ باللحن الالمانى كما هو .

غنيت معهم بصوت خافت الاناشيد باللغة الانكليزية .

اثارت ليلة الميلاد الحزن الكبير في فؤادى ، لاننا في بغداد كنا نقضيها مع اصدقائنا الاجانب المسيحيين ، ونسمع ونغنى هذه الاغانى نفسها ، والان اسمع الاغانى وانا بعيدة وغريبة ، وفى قمم جبال الالب النائية وباللغة الالمانية! . . .

ان الزينة في عيد الميلاد كما تبدو الآن في بريطانيا ، هي من جملة ما ادخله الامير البرت (الالمانى) زوج الملكة (فكتوريا) قبل اكثر من مئة سنة على بريطانيا .

لقد علم الامير (آلبرت) الانكليز وضع شجرة الميلاد الصنوبرية في البيوت والمخازن وتزيينها بالاضوية والشموع ، وقد ترجموا الاغانى الالمانية الجميلة التى يتغنون بها في هذه المناسبة الدينية الى اللغة الانكليزية .

تستمر الزينات الكهربائية والشرائط الملونة في مكانها لمدة اسبوع الى ما بعد رأس السنة الجديدة ، اي الى الليلة الثانية عشر بعد ليلة الميلاد ، ثم تزال من مكانها .

بعد اسبوع ، في ليلة رأس السنة ، آخر ليلة في سنة ١٩٥٦ ، اقاموا لنا عشاء فرنسياً فاخراً ، يحوى على (الكافيار) ومعه الخبز الفرنسى بالثوم ، ثم كوكتيل (الافوكادو) ثم سمك (السالمون) ، ثم البط المحشى والخضروات والبطاطا وحلويات لذيذة وانواع الفواكه .

الحفلة كانت هادئة قليلة الصوت ، بالنسبة لحفلات رأس السنة الصاخبة عادة ، والسبب يعود الى ان الجميع لا يرغبون في احتفال صاخب بسبب المرض

الذى مر بهم ، وكان عددنا لايتجاوز العشرين شخصاً .

بعد الطعام وفى غرفة الجلوس ، بدأوا بالقاء اسئلة على الحاضرين للتسلية . كان السؤال الموجه نحوى :

ـ لم يشبه العلم السويسرى علم الصليب الاحمر؟ (العلم السويسرى احمر اللون وبه صليب ابيض ، وعلم الصليب الاحمر ، ابيض اللون وبه صليب احمر) . لم اعرف الجواب! . .

الجواب ان رجلاً سويسرياً كان يشتغل في جمعية خيرية لمساعدة الجرحى في حرب (سافرينو) في سنة ١٨٥٩ وراى الكثير من الجرحى يموت بالنزيف او غيره بسبب عدم وجود اشخاص للعناية بالمصابين ، وكان الموت بين الجرحى يفوق عدد القتلى في الحرب . انشأ هذا الشخص السويسرى المحب للخير جمعية (الصليب الاحمر) لاجل مساعدة جرحى الحرب ، وجعل الشعارالعلم السويسريمقلوباً! . . .

انتشرت الجمعية في كل البلاد الاوروبية بأسم جمعية (الصليب الاحمر) ، وفي اللاد الاسلامية جمعية (الهلال الاحمر) بدأت في ايام الدولة العثمانية .

الجمعية اصبحت في الوقت الحاضر ، منظمة دولية للعناية بجرحى الحرب ولاسعاف ضحايا الفيضان والحرائق .

في منتصف الليل تماماً ، غنى الجميع نشيد الوداع للسنة الذاهبة والفرح يقدوم السنة الجديدة .

وهذه هي الليلة الوحيدة التى اطلنا الجلوس الى منتصف الليل! . .

كنت لاازال ارى الطبيب مرة في الاسبوع ولكنه بدأ يفحصنى مرة كل اسبوعين ، بسبب التحسن السريع الذى شاهده . ضحكت من كلمة (التحسن السريع) وانا اراه يسير بخطوات لم ار ابطأ منها! . .

طلب مني الدكتور ان اخرج مرتين في اليوم ، مرة قبل الغداء واخرى بعد الظهر على ان اعود في الساعة الخامسة مساء لان العشاء في الساعة السادسة .

كنت اتمشى في القرى وحدي او مع الفتاة الصينية ، ونراقب المتزحلقين من الجبال ، وأحياناً نركب العربة الخشبية الكبيرة ذات الحصان الكبير ونزور بعض

القرى . وأحياناً نستأجر مقعد صغير اسمه (سليدج) بالانكليزية وهو بحجم دراجة صغيرة وله مقبض (سكان) صغير ، ويكفى لجلوس شخص واحد اواثنين يجلس الواحد وراء الآخر وليس له عجلات بل ارجل مستديرة مرتبطة الواحدة بالاخرى تشبه ارجل كرسى جرار ، وهو ينزلق على الثلج بسرعة .

كنت اخاف ان انزل وحدى في هذا المقعد الصغير وكانت الفتاة الصينية اشجع مني لانها تعودت عليه من قبل ، كنت اجلس ورائها وادعها تمسك السكان ونهبط بسهولة على الثلج الى ارض وادى صغير ، ثم نرتقى الجبل بالمشي البطي للعودة .

كانت هذه النزهة جميلة ولاتؤدى الى التعب . بعد فترة بدأت استعمل (السليدج) هذا بمفردى واشعر بفخر وكأنما قمت برياضة ماهرة ، وهى رياضة بسيطة يقوم بها الاطفال! . . .

فحصنى الطبيب آخر مرة وقال انه لايرى اثراً للمرض! . .وقال انه سوف يبعثنى الى مستشفى كبير في مدينة (برن) العاصمة ، لاخذ صور عديدة للصدر لنرى ان كنت ستغادرينا قريباً! . .

لم اقل شيئاً ولكنى لم اصدق كلامه لشدة فرحي .

اكد الطبيب على مرة اخرى بأنه لن يسمح لي بالرجوع الى بغداد الا بعد ان يتأكد من الشفاء التام بسبب أطفالي الصغار .

ارسلنى الطبيب الى مستشفى كبير في العاصمة السويسرية (برن) ، وهناك اخذوا مقاطع عديدة للصدر بالاشعة ، وعدت الى الفندق فيالجبل وسوف يأتي جواب الاشعة بعد يومين .

لم استطع ان انام في تلك اليومين! . .

هل شفيت حقاً من مرضى وسأعود الى بغداد؟ ام سأبقى بين هذه الجبال الراسية التى اصبحت لاارى فيها الا قمماً بيضاء جليدية باردة! . .

لااريد شيئاً سوى الرجوع الى بغداد! . .

وصلت الاشعة الاخيرة من مستشفى (برن) ومعها تقريراً يبشرنى بالشفاء والرجوع الى أطفالي بسلام! . .

قال الطبيب :

ـ اخبرتك ان مرضك كان حديثاً وبسيطاً! . . عودي البلدك كما تشائين! . .ثم اضاف ممازحاً ، ماذا تعلمت في هذه الاشهر السبعة في هذا الفندق؟

اجبته قائلة :

ـ قرأت ثلاث كتب باللغة الفرنسية التى كنت اجهلها ،وتعلمت ان اتزحلق على الثلج بالمقعد الخشبى الصغير (السليدج) وانزل الى الوديان الصغيرة! . .

كنت في حالة نشوة لم اصدقها . لقد شفيت من المرض الوبيل بواسطة الادوية الحديثة وسأعود الى أطفالي وبلادى! . .

اضاف الطبيب :

ـ متى تريدين الرجوع؟ بأمكانك تقبيل الاطفال ويأتون ويلعبون في فراشك بسهولة كالماضى ، ويجب ان تنامى بعد الغداء لمدة ساعة في اليوم لعدة اشهر . وغادرى بغداد في ايام الحر الشديدة في الصيف الى محل لطيف مريح . ويجب ان تأخذى اشعة للصدر كل ثلاث اشهر . امنعك من السهر الزائد ، ولاتلعبى التنس . السباحة البطيئة من دون تعب مسموحة . لك الحق بالرجوع الى هذا الفندق كما تشائين على الرحب والسعة . وبامكانك البقاء هنا اسبوع او شهر ، متى ترجعين؟

اجبته :

ـ اعود الآن! . . في هذا اليوم! . . رغم شكرى وامتنانى لكم جميعاً والذى لااستطيع ان افيكم حقه ، ولكن بغداد هي مطلبى ومرادى! . .

لم استطع النوم في تلك الليلة أيضاً! . .

هل سأكون في الغد ، في بلدى بين اطفالي وزوجي واهلي! . .

خابرت (ام فيوليت) في جنيف وطلبت منها ان تحجز لي في الطائرة واننى سأكون عندها في جنيف في الغد .

في اليوم الثانى كنت في جنيف ، وعندى محل بالطائرة وخابرت زوجي عن موعد وصولى الى بغداد .

كانت العودة الى بغداد بصورة بسيطة بعد سويسرة . كنت اختلط مع اولادى

بصورة طبيعية .طلب مني الدكتور في سويسرة ان امتنع عن السهر وان اكون في الفراش في منتصف الليل .

بدأت اخرج واعود قبل منتصف الليل لمدة سنة وان اتمدد في الفراش بعد الغداء لمدة ساعة عليالاقل واشرب شاى العصر وانا في الفراش وبعدها انهض والبس الملابس الاعتيادية . وفى المساء تعلم الاصدقاء على اننا نترك الحفلة قبل منتصف الليل ،

وفى الايام الساهرة مع الاجانب حيث تمتد السهرة الى بعد منتصف الليل ، كنت اطلب من احسان ان يأخذنى الى البيت ويعود وحده الى اكمال الحفلة الى الاخيركما يحلوله .

طلب مني الدكتور ان افحص الصدر بالاشعة مرة في كل شهر لمدة سنة ، للتأكد من أن المرض قد زال تماماً . وكنت افحص عند صديقنا الدكتور (نامق نادر) كل شهر ولحسن الحظ ، كانت النتائج الشهرية جيدة تماماً . داومت على الفحص بالاشعة مرة كل شهر لمدة سنة كاملة .

الشيخ أحمد عجيل الياور

في ايام الربيع سنة ١٩٥٧ دعانا الى مضيفه في البادية الشيخ احمد عجيل الياور شيخ مشايخ شمر القبيلة الكبيرة التى تمتد من العراق الى سورية والسعودية . والشيخ الشاب (احمد) هو ابن المرحوم الشيخ عجيل الياور الذى توفى منذ فترة قصيرة وكان صديقاً للملك فيصل الاول .

درس الشيخ احمد في المدرسة الابتدائية ثم دخل الى كلية بغداد الامريكية في منطقة الصليخ وهى مدرسة ثانوية يدرس بها الآباء اليسوعيون وهم على مستوى راق جداً في العلم . والتدريس باللغتين العربية والانكليزية على مستوى عال .

الشيخ عجيل الياور توفىٰ وابنه (احمد) طالب في كلية بغداد . اصبح احمد (الشيخ احمد) ولقبه (شيخ مشايخ شمر) . خلع احمد الملابس الاوروبية وأخذ

يلبس الملابس العربية طول الوقت سواء كان مع رجال القبيلة في الشمال ، او في بغداد او في حفلات السفارات الاجنبية .

يذكر صديقنا (منذر فتاح) وكان صديق احمد في كلية بغداد ، توفى الشيخ عجبل الياور وغادر احمد ابنه المدرسة وبعد اسابيع قليلة كانت حفلة تخرج الطلاب . دعي احمد الى الحفلة . ويقول (منذر) دخل احمد بالملابس العربية وعلى كتفه عباءة بيضاء مطرزة باللون الذهبي فوق الكتف وحول المعصمين ، وعلى رأسه الكوفية البيضاء الناصعة وفوقها العقال الاسود . واذا بالاباء الجزويت يستقبلونه بكل احترام كما يستقبلون شيخاً كبيراً وأجلس مع الضيوف الكبار وكان قبل اسابيع قليلة تلميذاً في المدرسة كالتلاميذ الاخرين .

كان الشيخ (احمد) مثال الجنتلمان في تصرفاته ، طويل القامة اسمر الوجه باسم الثغر يلبس ملابس بيضاء ناصعة البياض وفوقها عباءة عربية بأكمامها الذهبية على القبة والكتفين . وفوق رأسه الكوفية البيضاء والعقال الاسود

وكان في الحفلات الكبيرة يتنقل بين الناس وكأنه صورة وسيمة لشيخ عربى يجمع في تصرفاته السمو والوجاهة مع التواضع اللطيف والحديث الودود .

كنا نسميه (ابو عجيل) لانه متزوج ابنة عمه ، وعجيل هو طفله الاول وعمره حوالى ست سنوات .

كان الشيخ احمد يتكلم اللغة الانكليزية بطلاقة ويذهب لزيارة البلاد الاوروبية اثناء فصل الصيف . وكانت الجاليات الاجنبية تدعوه وترحب به الى حفلاتها وكان يحب هذه الدعوات ويستجيب اليها .

تزوج الشيخ احمد زوجة ثانية من فتاة المانية جميلة ، وكان يأخذ زوجته الالمانية معه الى الحفلات في بغداد ، وله منها بنت واحدة عمرها حوالى السنتين

دعاناالشيخ احمد مع قسم من اصدقائه الى مضيفه في البادية غرب مدينةالموصل ، وهم جماعة من الاصدقاء العراقيين والاجانب واذكر من العراقيين (منذر فتاح وزوجته سهيلة الباجة جى) ومنذر كان في الصف نفسه مع احمد في كلية بغداد ، والدكتور (نديم الباجةجى وزوجته الامريكية بونى) ، (ونزار جودت وزوجته ايلن) ، (وزياد العسكرى وزوجته علية محمد علي محمود) ، (وقيس

العسكرى وزوجته نرمين مظفر) و(زيور نشأت وزوجته سوزى العمرى) ، وكان معنا دبلوماسيون من السفارة البريطانية ومن السفارة الامريكية مع زوجاتهم . استقبلنا الشيخ احمد في البادية وسارت السيارات كلها نحو مضيفه .

بقينا هناك ثلاثة ايام ، وكانت هذه الرحلة جميلة وغريبة تختلف عن غيرها من الرحلات .

كنت اتصور خيم البادية كالتى رأيتها من قبل ، بسيطة وسهلة ولا تحوي الا القليل من الاشياء الضرورية ، وكذلك رأيت الخيام التي تستعمل للجنود ، وهى خيام بسيطة أيضاً ، ولكنني رأيت الآن خياماً جميلة لم ار ما يماثلها من قبل .

الخيام كلها بيضاء اللون ، رأيت خيمتين كبيرتين واسعتين جداً وبقربها خيام اصغر بكثير منصوبة بصورة منظمة وعلى خطوط مستقيمة قرب الخيمتين الكبيرتين وكان عدد الخيم الصغيرة يتجاوز الخمسة عشر او العشرين خيمة .

رحب بنا احمد واشار لنا ان ندخل واحدة من احدى الخيمتين الكبيرتين وكان باب الخيمة مفتوحاً . رأيت داخل الخيمة مبطناً بالقطيفة الحمراء وفى القسم الاسفل وعلى الباب حبلان كبيران من خيوط مذهّبة تلمع على الجانبين . وفى داخل الخيمة عشرات من الكراسى مرصوفة الواحد قرب الآخر لكي تسع الجميع . وكان عددنا يزيد عن الثلاثين شخصاً . جلسنا وشربنا القهوة العربية واكلنا بعض التمر ثم طلب منا الذهاب الى خيامنا .

كانت هذه الخيمة الكبيرة تمثل بذخ البادية وابهتها .

سرنا الى الساحة الكبيرة حيث الخيم الصغيرة ، وكانت لكل زوج وزوجته خيمة خاصة وكأننا في احد الفنادق .

الخيمة مفروشة بسريرين اثنين كل واحد على جانب من الخيمة ، وفى الخيمة مغسلة لغسل اليد والوجه ودوش لغسل الشعر . وكل المياه موجودة في خزانات مائية كما في البيوت ، ومحل لتعليق الملابس مستدير لتعليق عدد من الملابس حوله .

ان هذا يختلف عن العادات في البادية حيث ينام الرجال كلهم في خيمة واحدة ، والنساء كلهن في خيمة اخرى .

اما الخيمة الكبيرة الاخرى فأنها خيمة الطعام . وكان عشاؤنا الرز والقوزى والدجاج باعداد كبيرة جداً لان ما يبقى من الطعام يقدم الى رجال القبيلة .

في اليوم الثانى اخذ الرجال يصطادون بعض الطيور او يتبارون كل حسب قابلياته في اصابة بعض الاشارات والصخور . وكانت السنة خصبة في مادة (الكمأ) ويمكن الحصول على الكمأ من الحفر على سطح الارض كلما نجد ارتفاعاً . أحياناً كنا نجد الكمأ وأحياناً نرى روث الخيل مدفوناً في الارض .

طلب منا احمد ان نذهب نحن النساء ونسلم على (الحريم) . كانت اخت احمد هي السيدة الكبرى في المكان وكانت سيدة شابة في منتهى الجمال . أهدتنيٍّ الى ملابس عربية جديدة ، ارتديتها واحسست بالراحة في الحركة . رأيت ابن احمد ، (عجيل) وكان في السادسة من عمره يشبه اباه تماماً ، وكان يزهو بثياب عسكرية اثناء العيد .

لحسن الحظ كان هناك بعض الجمال قرب المخيم وعلى ظهورها . . . شجع البعض من السيدات بركوب الجمل للمرة الاولى وكنت واحدة منهن إذ لم اركب الجمل من قبل ابداً .

الصعوبة كانت في ركوب الجمل وهو جالس وبعدها ينهض بصورة فجائية غريبة عندما يطلب منه صاحبه الاعرابي بالقيام ، لان الجمل ينهض بنصف جسمه اولا ويبقى النصف الثاني على الارض وثم ينهض الجمل كله بسرعة كبيرة ويجب على الراكب ان يعرف ذلك ويتمسك بالجمل اثناء نهوضه لئلا يتعرض للسقوط من فوق الجمل . اصبح ذلك موضوع تسلية لنا . اخذت الجمال تدور بنا امام الخيام ومعنا الجمّال الذي كان يشجعنا على ان لا نخاف .

وكان لباسي الثوب العربي الطويل الواسع بدلا من الثوب الاعتيادي الضيق حافظ على ركوب الجمل بصورة مريحة وهي الملابس التي اهدتها الي اخت الشيخ احمد .

ذهبنا الى الموصل لساعات قليلة قبل الرجوع الى بغداد ، وفي الموصل بينما كنا نسير في احد الشوارع ذكر(احسان) ان هذا الجامع هو جامع النبى (شيت) وكان على يسارنا . اثارت الجملة انتباهي ، لان جامع النبي شيت كان امام بيتنا

في الموصل قبل اكثر من ثلاثين سنة .

نظرت الى اليـمين ورأيت البـيت القـديم الذى عـشنا به لمدة سنتين ، كـان لايزال في محله على هضبة صغيرة تعلو عن الشـارع . رأيت الباب لايزال أسـود اللون ولكن البيت يبدو اصغر مما كنت اتصوره .

فرحت برؤية البيت وكنت اتمنى ان اوقف السيارة واتسلق التل الصغير واطرق الباب وادخل الى البيت لاراه ثانية بعد كل هذه السنوات الطوال! . . .

كـانت والدتى تحب ذلك البيت كـثيراً! . . . وددت ان اشـاهد البـيت واخبـر أمي عنه! . .

لكنني لم انطق بكلمـة واحـدة ، ولم اصـعـد الى البـيت القـديم ، وسـارت السيارة بطريقها ولم ار بيت الطفولة مرة اخرى!! . . .

لبنان

في بداية العطلة الصـيـفـيـة لسنة ١٩٥٧ قـررت حـسب اشـارة الطبـيب السويسرى ان اقضى العطلة الصيفية مع الاولاد في لبنان ومعنا المربيـة الشـابة (سعدية) .

حجزنا في (اوتيل سيدرز او الارز) ، في مدينة (برمانا) المطلة على بيروت . كـان الفندق حسب قول (ايلين جودت) التي تعرفه من قبل ، من احسن واهدأ الفنادق .

سافرنا بالخطوط الجوية العراقية وكـانت الاجور مخفضة لموظفى الحكومة واطفالهم الصغار وكانت اجور المربية اكثر مني .

فرح الاطفال لركوب الطائرة وكان احمد في سن الثانية وبضعة شهور من عمره وشيرين في السابعة من عمرها .

في الطائرة ، كانت معي صديقتي العزيزه (مليحة) زوجة المهندس المعماري جعفر علاوي صديق العائلة القديم . وكـان مع مليحة اطفالها الاثنان ، ابنها (سعد) واخته الصغرى (جيهان) وهما في اعمار تقارب اعمار اطفالي .

في الطائرة جلس (احمد) ابني و(جيهان) علاوّي الصغيرة في كراسي

متجاورة ونحن بجوارهم نتكلم ونلاحظ الاطفال . لاحظنا ان احمد يشكو من زكام خفيف .

كان الزمن حوالى ساعتين الى مطار بيروت .

النهار كان مشمساً ولطيفاً عندما وصلنا مطار بيروت . كان المطار يموج بشتى انواع من الناس ، واول ما جلب انتباهي هو وجود الجرائد والمجلات المصرية عند بائعى الجرائد مع الكثير من المجلات الامريكية والانكليزية والفرنسية التي يبدو انها تباع بشكل واسع .

توقفت لكي اشترى المجلات المصرية التى كانت دخولها الى العراق ممنوعاً منذ فترة طويلة بسبب شتائمها وسبابها اليومى للعراق ، مع ذلك كنت احنق لمنعها عنا ، ليس بسبب شتائم مصر الظالمة المقيتة ، بل لانني احب كتاب الجرائد والمجلات المصرية التى تكتب عن الادب والفنون وسياسة البلدان في العالم ، وقد كنت اظن ان الشتائم سوف لاتهم العراقيين ، لانها كاذبة وأحياناً سخيفة ، إذ كانت بعض الجرائد المصرية تخوض بانباء شخصية عائلية عن افراد كبار من الحكومة العراقية التى لااظن ان الفرد المصري العادي يهتم بها او حتى يفهم ماتحويه من الخبر ، كان الاهتمام لاستثارة الشعب العراقى ضد حكومته ونظامه . لم اكن اعلم سوى القليل عن هذا الخلاف المحموم بين بلدين عربيين كانا قبل ثورة الضباط في مصر على أحسن الاحوال ، يحترم المصريون اهل العراق ويبادلهم العراقيون المحبة والتقدير .

مرت فى رأسي مثل لمح الخاطر ، وانا انتظر الخط الطويل لتفتيش الكمرك ، كيف انى في بغداد رأيت السيد (خليل ابراهيم) مدير الدعاية العام في حفلة غداء وكانت معه زوجته السيدة (افتخار الوسواسي) وهي مديرة في احدى مدارس البنات ، وهي من صديقاتي ، وقد اظهرت استيائي للسيد (خليل) بسبب منع الجرائد المصرية دخول العراق بصوت خافت قليلاً ، لئلا يسمعنا المدعوون الآخرون ، وكان جواب السيد خليل حاسماً :

– ماذا يتعلم شعب العراق من هذه الجرائد المصرية سوى الدجل والكذب والتهجم على العائلات العراقية المعروفة! . . وهل تظنين ان المقالات والروايات

المصرية الحالية هي بمستوى المقالات القديمة التي كنا جميعاً نترقب وصولها الى العراق بلهفة وكانت تباع حال وصولها تقريباً؟ان جرائدهم في هذه الايام لا تستأهل القراءة! . .

لم يقنعني جوابه . كنت اعلم ان عدم دخول الصحف المصرية الى العراق يؤثر اقتصادياً تأثيراً سيئاً على الصحف المصرية كلها ، باعتبار العراق آنذاك كان هو السوق الكبير خارج مصر الذى يشتري الجرائد والمجلات المصرية بكثرة ، وكان منعها في العراق يعز علي .

طلبت من السيد (خليل) آنذاك ادخال الجرائد والمجلات المصرية وغيرها ، والناس سوف تعرف الصحيح من الكذب ، وبهذه الطريقة تنفتح عيون الناس للتفكير وفهم الحقائق! . .

وبعدها سألته بشيء من الاستهزاء ، ان يرشدني الى جرائد ومجلات عراقية يمكن ان تقوم مقام صحافة مصر! . . .

كنت لاازال تحت تأثير الوضع الديمقراطي المصرى القديم الذى نشأت عليه وتعلمت منه الكثير في الماضي . لم ادرك تماماً بعد ، ان الصحافة المصرية الحرة قديماً لم تكن قد امت بعد ، ولكنها قد اصبحت تحت تأثيرات عسكرية صارمة لاتؤمن بغير آرائها ومعتقداتها ، وهي تنبع من شخص واحد يظن انه هو الذى سوف يحكم العرب ويعيد لهم ماضيهم المجيد بالخطابة والكلام .

كنت اعلم ان الكلمة كانت لعبد الناصر في طول البلاد العربية وعرضها ، وهو الذى امم قناة السويس وارغم الانكليز على الخروج من مصر . وكان هذا صحيحاً ومن حق مصر . .

ولكن لم هذا الالحاح على العراق وعلى الملك وولي العهد وجميع السياسيين العراقيين الكبار بحيث اصبح بعض الناس يعتقدون ان تخريب العراق وتقويض عرشه هو طريق عبد الناصر المفتوح الى اسرائيل .

الم يخطر ببال الناس ان سيطرة الجيش على مصر ، ستكون القوة الدافعة الى الوراء وياللأسف؟ . .

اما عبد الناصر ومستشاروه ، من يدري ، قد تكون هذه رغبتهم الحقيقية ، اي

تمويه الحقائق وسد التفكير الصحيح امام العرب! . .

كم كنت واثقة من أن تجربه المملكة العراقية من المشروعات الكبيرة في البلاد ستكون السد الواقي امام تعزيز العراق وحمايته ، وكنت اعتقد حينئذ ، ان الجيش العراقي هو حامي الحمى للمملكة العراقية الناهضة .

لذلك قلت للصديق مدير الدعاية العام وزوجته ونحن نتكلم بصوت خافت في تلك الحفلة : افتحوا الصحف الخارجية ، اجعلوا الناس تقرأ وتفهم! . . .

كنت في نفسي لا اخاف من شتائم مصر ولا من لعناتها .

بقيت افكر بهذا الموضوع الذي يشغلني حتى ونحن نترك مطار بيروت .

في بيروت ، بقيت (مليحة) واطفالها في البلد حيث يوجد مسكن والدها القديم في حي (الصنايع) في بيروت وهناك نشأت في طفولتها وصباها .

ركبنا نحن في سيارة اجرة وصعدنا الى بلدة (برمانا) في الجبل حيث وصلنا فندق (سيدرز) او فندق الارز . .

دخلنا في باب كبير الى حديقة الفندق الكبيرة في فسحة مزروعة بالحشيش الاخضر فيها مماشى من الحجر بين الباب وبناية الفندق . رأيت في الحديقة الكبيرة اشجاراً عديدة عالية من بينها خمس من اشجار الارز الجميلة ، ولوجود هذه الاشجار جرت تسمية المكان . رأيت تحت الاشجار كراسى وتخوتاً خشبية ذات وجوه لطيفة ملونة . استقبلنا صاحب الفندق وهو شاب من برمانا نفسها ، يلبس ملابس صيفية من بنطلون وفوقه قميص ابيض انيق من دون سترة او رباط العنق . رحب بنا واشار الى احد الخدم ان يحمل الحقائب الى غرفتينا ، الاطفال في غرفة مع سعدية ، وانا بغرفة مجاورة .

كنت اتوقع مجئ (احسان) اثناء العيد القادم الى بيروت .

بعد راحة قليلة جلست مع الاطفال وسعدية في الحديقة وبدأت اشرح لهم جمال الاشجار العالية وخاصة اشجار (الارز) واخبرتهم عن اسم المكان . كانت شيرين تسمعني باهتمام كبير وتسأل يعض الاسئلة البسيطة ، احمد الصغير كان ينطق بكلمات قليلة فقط ، وسعدية المربية تسمع ولاتتكلم الا القليل كعادتها دائماً .

اتى صاحب الفندق الشاب الذى لااذكر اسمه الآن ، ومعه اخته الشابة الجميلة التى عادت من شهر العسل في روما قبل مدة قصيرة وجلسوا معنا . اعاد كلمات الترحيب بنا وتعلم اسماء الاولاد . اخته كانت تسكن الآن في الفندق مع زوجها في الصيف وبيتها الجديد في بيروت .

ان الفندق كان يعود الى سيدة بريطانية اسمها (مس لتل) ، كانت تشتغل في التبشير للدين المسيحى . عاشت بهذه البناية لسنوات طويلة وسمته (السيدرز) بسبب اشجار الارز في الحديقة التي كانت نادرة في هذه المنطقة ، وكانت تنمو في شمال لبنان فقط . بلغت السيدة الانكليزية سن الشيخوخة وماتت ودفنت في (برمانا) ، واشترى هذا اليت الكبير والد هؤلاء الاصحاب ، وجعله فندقاً ، ولما كبر الوالد (تقاعد) عن العمل هو وزوجته ، واصبح اولاده يقومون بادارة الفنددق . وقد وسعوا الفندق باضافة غرف اخرى وحمامات وغيرها ، واصبح من اهم الفنادق في برمانا من ناحية جماله وهدوئه وطعامه . وقد راق لي في الامسيات صوت صراصير صغيرة تعيش على الاشجار العالية وتصدر اصوات تشبه اصوات الطيور ليلاً . وفى بعض الليالي يكثر غنائها بصورة مستمرة .

احببت كذلك الشارع الجبلي الجميل خارج الفندق ، وتعودت ان امشى صباحاً في ذلك الطريق المتموج الذاهب الى برمانا ، وكنت ارى تماثيل وصور تمثل السيد المسيح وامه السيدة مريم العذراء في زوايا صخرية محفورة على الجبل ، ويكللها الناس بالازهار والرياحين والشموع ، الى ان اصل المدينة الصغيرة (برمانا) ، بابنيتها الحجرية وشوارعها الضيقة وحوانيتها البسيطة . وتوجد سينما في بلدة برمانا كنا نذهب اليها في المساء ، ويسهل الرجوع منها الى الفندق بواسطة التاكسى او مشياً على الاقدام اذا كنا جماعة .

كانت منطقة برمانا كلها محاطة باشجار الصنوبر من مختلف اشكاله ولكن الاكثر كان من نوع المسمى (المظلّة) لانه لايرتفع كثيراً فيه جذع واحد وتنتشر اغصانه في اعلى الشجرة بمستوى عرضي تقريباً مثل مظلة او شمسية . وهذه الاشجار موجودة في اعالي الجبال وفى اعماق الوادى ومنظرها يوحى بالدفئ والخصوبة والجمال .

من الفندق نشاهد الارض بيننا وبين بيروت ونرى منظراً جميلاً من قمم ووديان يقل ارتفاعها عن مستوى برمانا بالتدريج الى ان تصل بيروت ، كلها مغطاة بالاشجار الصنوبرية الجميلة . والطريق بيننا وبين بيروت يتلوى كالافعى الهائلة ويحمل السيارات الصاعدة والنازلة طيلة الليل والنهار .

في الليالي كان المنظر الى بيروت يبدو سحرياً غريباً لم ار اجمل منه ليلاً ، إذ لانرى شيئاً سوى الوف الأضواء القوية والضعيفة والملونة ممتدة على ذلك الوادي الواسع تلمع من بيوت وابنية تبدو سوداء مظلمة لانراها ، والطريق الى بيروت يحمل سيارات لانرى سوى اضوائها من والى مدينة بيروت الساهرة حتى الصباح .

كان الامن رائد البلد ، وكل اهل لبنان بصورة عامة ، مثل سواق السيارات والخدم واصحاب المخازن والحوانيت والناس عامة يلاطفون المصطافين في الجبل وفى السوق وفى الفنادق .

كانت لبنان (سويسرة) البلاد العربية بحق! . . .

في اليوم الثانى رأيت صديقتى (مني) زوجة (فيصل الدملوجى) شقيق سالم الدملوجى زوج اختى لمعان ، ومعها اولادها الصغار الاربعة . و(مني) لبنانية الاصل ، وبيتها في بغداد مقابل بيتنا في ساحة (ميسلون) بمنطقة العلوية ، واولادنا الصغار يلعبون معاً دائماً .

بعد ايام قليلة رأيت علامات الحمى على احمد ابني . بعد ان فحصته وجدت في انحاء بدنه بقع حمراء قليلة ولكنني عرفت ان الحمى بداية لمرض (الحصبة) الذى يصيب الطفل مرة واحدة في العمر .

اخبرت صاحب الفندق بالامر فطلب مني ان اسكت ولا اخبر احداً ، وقال انه سيهتم باكل (احمد) الذي يصل اليه الى غرفته ويبقى احمد في فراشه ونقوم انا وسعدية المربية بالعناية به . طلب منا ان لانتكلم عن المرض لئلا يسمع نزلاء الفندق الآخرون ويمتنع الناس عن النزول في الفندق ان كان لديهم اطفال . ان بقاء احمد في غرفته وانعزاله هي الطريقة الوحيدة لعدم اصابة اطفال آخرين .

كانت اصابة الحصبة خفيفة لحسن الحظ ، ولكن العناية التامة للمريض

يجب ان لاتقل عن مدة ثلاثة اسابيع على الاقل! . .

اتصلت بي صديقتي (مليحة علاوي) من بيروت واخبرتني ان (احمد) ابني نقل الحصبة الى ابنتها (جيهان) لانهما جلسا معاً بالطائرة ولعبا سوية وكانت علامات الاصابة بادية على احمد .

بعد اسبوع من اصابة احمد بالحصبة ، بدأ يتشافى بسرعة ، ظهرت الحمى والبثور الحمراء على جلد شيرين وكذلك نفس الاعراض الاخرى (للحصبة) ، والطفلين يسكنان في نفس الغرفة .

كنت اتناوب مع سعدية على العناية بهم . حمدت ربي بأن المرض بدأ وانا معهم طيلة الوقت ، وليس اثناء الدوام في بغداد . كنت انا الطبيبة المعالجة لاولادي ، ولحسن الحظ كانت الحصبة خالية من اعراض جانبية اخرى ، ولذلك لم أحتج الى طبيب اطفال اخصائي لمساعدتي .

كانت (مني) تزورني في الفندق في ايام الصباح ونشرب القهوة اللذيذة تحت الاشجار ونشعر وكأننا في بغداد .

اخبرتني (مني) ان خالتها(وداد قرطاس) تسكن في بيت قريب من الفندق ، وهذه السيدة كانت معلمة في بغداد في المدرسة المركزية منذ سنوات طويلة ايام كنت في الصف الخامس الابتدائي ، وكان اسمها (وداد خوري مقدسي) قبل زواجها . كانت للست (وداد) ، شقيقة اسمها الست سلمى خوري المقدسي تدير مدرسة تقع على الجهة المعاكسة لفندق سيدرز ، وفي هذه المدرسة تسكن (مني) واولادها اثناء عطلة الصيف في بغداد ، حيث يقضون الصيف في برمانا إذ تخلو المدرسة من الطلاب ، وتكون الست سلمى مع (مني) واطفالها .

اما السيد (فيصل الدملوجي) زوج (مني) فقد بقى في بغداد لانه كان نائباً في المجلس النيابى العراقي .

ذهبت مع مني لزيارة خالتها الست وداد النى تسكن في بيتها القريب من الفندق مع زوجها واولادها .

السيدة وداد كانت تشتغل مع جمعيات نسائية عديدة ، وتكتب في الجرائد والمجلات ولها سمعة جيدة جداً في الاوساط النسائية في لبنان . .

في مقابلتي مع السيدة وداد رأيتها سيدة جميلة كما كانت في الماضي قبل اكثر من ربع قرن ، رحبت بي كثيراً ، ورأيتها على بيّنة مّما يحصل في العراق من اخبار واحداث ، وقالت ان الدكتور (فاضل الجمالي) يزورها كلما اتى الى بيروت ، وكذلك الكثير غيره من رجال وزارة المعارف في بغداد اذكر منهم االدكتور (عبد الحميد كاظم والدكتور محمد ناصر) ، وكثيرغيرهم من رجال المعارف ممن لااتذكر اسماءهم الآن .

لم تتذكرنى السيدة وداد وقد رأتنى وانا طفلة في العاشرة من عمرى في الصف الخامس الابتدائى ، والان انا طبيبة في السابعة والثلاثين من العمر ! . . .

لم تصدق بأنني اذكرها من ايام بغداد . . .قلت لها انك علمتينا اناشيد غربية الالحان جميلة ، باللغة العربية ولاازال اذكرها! . . كان للست وداد صوت جميل في الكلام وفي غناء الاناشيد المدرسية ، لاازال اذكره الى الآن! . . .

كان الحديث واياها متشعباً ومثيراً وممتعاً جداً ، وقد زرتها مرات عديدة .

رأيت اولادها الثلاثة وابنتها ، صغاراً في المدارس .

توفيت السيدة وداد في سن السبعين ودفنت في (برمانا) .

لقد تزوجت ابنتها(مريم) ، البروفسور (ادوارد سعيد) الكاتب الفلسطيني الامريكي المعروف الذي استاذاً في جامعة كولومبيا في نيويورك .

زارتنى صديقتى (سعاد العمري) مع زوجها السيد (ممتاز العمري) وابنتها (لباب) وولدها (امجد) ، وكانوا في فندق قريب من فندق (السيدرز) ، وقد احبوا حديقة فندق السبدرز وكنا نشرب القهوة في الصباح او نتغدى سوية . كان ولدها (امجد) بعمر ابنتي شيرين وكانوا في صف واحد في المدرسة . اما ابنة سعاد (لباب) ، وكانت تتجاوز الخامسة عشرة من العمر ، والناس هنا كانت تظن انها اخت سعاد الصغرى وليست ابنتها .

كانت سعاد تعلم اننى لا اجيد (المساومة) مع اهل السوق لتنزيل الاسعار اثناء الشراء وهي تجيد ذلك بسهولة . اخذنا ننزل الى اسواق بيروت بالتاكسى ، ورأيتها تتعامل مع اهل المخازن بكل سهولة وكأنها تملك المخزن! . . .

يبدو ان كل مخازن بيروت وحوانيتها خاضع للمساومة! . . .

اشترينا انا وسعاد بضعة اثواب من سوق الطويلة ومن بعض المخازن الكبيرة .

اصبحت على جانب من الصداقة مع صاحب الفندق الشاب واخته المتزوجة حديثاً والتي كانت تساعده على ادارة الفندق .اخذ يحدثني عن جماعة كانت معنا في الفندق وهي سيدة عجوز ومعها ابنتاها ، وكنت قد تعرفت على العائلة واعجبني سلوكهن وتصرفاتهن ، وكن يتكلمن الفرنسية بينهن بطلاقة وكأنها لغتهن ، مثل اهل الفندق أيضاً . يظهر ان العائلة كانت غنية ومعروفة ، ويبدو ان صاحب الاوتيل الشاب بدأ يتقرب نحو الام ليحوز على رضاها لكي يخطب البنت الصغرى وكانت اجمل الاختين .

دعوت له بالنجاح ، واخذت اراقب تصرفات الام معه . رأيتها تتصرف بحذر واهتمام معه ومع اخته ومع والديه العجورين . كنت في نفسي ادعو لهما بالسعادة والفرح .

تعرفت في الفندق على السيدة (دنيا مروة) وأخيها الصحافى (كامل مروة) المشهور صاحب جريدة (الحياة) .

الحياة هي الجريدة التي لاازال اقرأها الآن يومياً ونحن في القرن الحادي والعشرين .

تعرفت على زوجة كامل واولادهم . كانت معرفة السيد كامل عن العراق وافرة وممتعة ويبدو انه يعرف الكثير من رجالات العراق معرفة جيدة جداً .

اخبرته ان زوجي ومعه حماعة من بغداد سوف يصلون بيروت في ايام عيد الاضحى ، واصر على رؤيتهم حال وصولهم .

وصل من بغداد زوجي ونديم الباجةجي وزوجته وزيور نشأت وزوجته سوزي العمري ، وهي اخت (سعاد العمري) الصغرى ويوسف ياغجي وزوجته السويسرية فيوليت ، ونزلوا في فندق اكسيلسيور في بيروت ، ما عدا زوجي احسان الذى نزل معنا في فندق سيدرز في برمانا .

فرح الصغيران شيرين واحمد برؤية والدهم في الفندق ولحسن الحظ كانت الحصبة قد ذهبت وكانوا يضحكون مع والدهم ويلعبون .

وقد طاب (لاحسان) جمال الفندق واشجاره وطعامه .

عرفت احسان على السيدة وداد قرطاس والسيدة دنيا مروة التي اخبرت اخاها (كامل) بأن الاصحاب العراقيين قد قدموا .

دعانا السيد كامل مروة الى غداء في بيروت ، اجتمعنا قبل الغداء في مكتبه . هناك رأينا مع اصدقائنا العراقيين صحفياً لبنانياً يبدو أجنبياً بلونه الاشقر وقامته الطويلة وملابسه الغربية الانيقة ، لاذكر سوى ان اسمه الاول غربي واسم العائلة عربي ، وكان يتكلم الانكليزية بطلاقة رغم كلام اهل لبنان باللغة الفرنسية ، وكان يبدو انه يعمل مع الصحفيين الامريكان الذين يترددون على بيروت آنذاك .

تناولنا طعام الغداء اللذيذ في احد المطاعم اللبنانية القريبة من البحر .

في احدى الامسيات ، وقبل رجوع الجماعة الى بغداد زرنا محلاً جميلاً اسمه (الكاف دي روا) أي (سرداب الملك) باللغة الفرنسية ، وهو مرقص في فندق (اكسيلسيور) ، مبني تحت الفندق مباشرة ، وله باب خاص وسلالم تنزل الى صالة خاصة تحت الارض ذات سقف مقوس كالطاق تعلوه الاضواء الخافتة ، والمحل مضاء بشكل خافت لطيف ، وهناك موائد صغيرة وفوق كل مائدة ضوء احمر صغير جداً خاص بالمائدة .

كانت هناك جوقة موسيقية تعزف من فوق مسرح واطئ لكي يراهم الجميع والانغام كانت انغام راقصة حديثة وقديمة . والراقصون تركوا ما يقلقهم خارج هذا المكان اللطيف وكانوا يرقصون بفرح وشغف مع الموسيقى .

تناولنا طعام العشاء وكان يقوم بالخدمة رجال يرتدون الملابس البيضاء الناصعة باربطة عنق واحزمة حمراء اللون ويطوفون على الناس بصوان فضية براقة تلتمع بالرغم من الضوء الخافت .

كانت ليلة جميلة للعشاء والموسيقى والرقص الى ساعات متأخرة من الليل .

لقد وجدت (الكاف دي روا) في ذلك الوقت من اجمل ما رأيت في البلاد العربية .

بعد ايام قليلة عاد احسان مع الجماعة الى بغداد ، وكان حزن الاطفال على وداع والدهم كبيراً . حاولت ان اخبر شيرين ان والدها والآخرون يعودون الى

وظائفهم في بغداد ، وانني موظفة أيضاً وبغداد والعراق هي بلادنا وموطننا وسوف نعود الى بغداد قريباً .

قبل عودتنا الى بغداد ، سمعت خبراً مفرحاً ، ذلك أن صاحب الاوتيل الشاب ، قد حاز على رضا البنت وامها وان الخطبة الرسمية ستعلن قريباً .

غادرنا الفندق ، وانا اكرر على صاحبه الشاب واخته بأننا سنراهم في العام الآتي أي صبف ١٩٥٨ !

لقد اتينا الى الفندق مرة اخرى مع الاطفال ، وكان ذلك في صيف ١٩٥٩ والدنيا غير تلك الدنيا! .

وكان هناك بضعة اشخاص من الامريكان منهم الميجور (ولبير ايفلاند) الذي كان في بغداد لمدة سنتين مساعد الملحق العسكري الامريكي وكنا نعرفه جيداً في بغداد لانه عاش سنتين فيها ، وكنا ندعوه (بيل ايفلاند) وهو تصغير لاسم ويلبير ، ومعه زوجته (مارج) الشقراء الطويلة القامة والصديقة الفكهة الودود .

رأينا (بيل) بملابس مدنية وقال انه صمم على البقاء والعمل في البلاد العربية . وقد كان يحب العرب ويتكلم اللغة العربية التي تعلمها في امريكا بصورة جيدة ، والشخص الذى درسه اللغة العربية هناك ، عراقي من بغداد اسمه (يعقوب شماس) .

في بغداد كنت اكرر على (مارج) زوجة (بيل) كفكاهة نضحك منها سوية ، بأنني لم ار في حياتي رجل يعتنى بملابسه كزوجها (بيل) ، لانه يبدو بقامته الطويله وملابسه الانيقة كأنه صورة (موديل) للبيع في مخازن الرجال للالبسة الامريكية ، بحيث يتفوق على ملابس الممثلين في هوليود ، كنت اقول لزوجته كيف يتمكن من الجلوس ويحافظ على هيئته التى تشبه الصور باناقتها الكاملة .

كنت اعتقد في نفسي ، انه يبالغ في الحفاظ على هيئته واناقته بدرجة كبيرة مفرطة بحيث لاتليق الا بالممثلين .

تقابلنا هنالك مع رجال ونساء من الامريكان شاهدناهم للمرة الاولى ، احدهما رجل وزوجته واسم الرجل (مايلز) وزوجته التي لاتذكر اسمها الآن ،

والاخر اسمه (آيك) ولم يكن معه زوجة . كان الجميع يسودهم المرح والصداقة والكل ينادي الاخر باسمه الاول على الطريقة الامريكية .

عرفنا ان اسماء الامريكان الكاملة (مايلز كوبلاند) و(جيمس آيكلبركر) ، وهم يشتغلون في شؤن النفط ولهم مكتب في بيروت . سمعت من حديثهم المرح ، انهم اصدقاء شاه ايران وجمال عبد الناصر . وكنا في العراق نعرف في ايام ثورة الضباط في مصر ، ان السفير الامريكي (كافرى) كان مع الضباط الثوار في ليلة الثورة ، ويقال انه اشار على الضباط ان يرسلوا الملك فاروق الى المنفى باحترام محاطاً بالتقاليد العسكرية ، وكان مع الملك السابق فاروق ، ابنه الرضيع الملك (احمد فؤاد الثاني) ، الملك الجديد لمصر . .!

وكنا نعلم ان (جمال عبد الناصر) على ود مع الامريكان حسب اخبار الصحف ، وكانت الصداقة مع امريكا تلقى القبول عند الناس باعتبار ان امريكا قوية وغنية ولاترمي الى استعمار البلاد الاخرى كما فعلت الدول الاستعمارية الاوروبية .

رأيت هؤلاء الامريكان يعرفون ثورة الزعيم (حسنى الزعيم) في سوريا سنة ١٩٤٩ ، وعن ايران ورجوع الشاه الى بلاده بعد سقوط الدكتور مصدق . وكانوا يتكلمون بملآ الابتهاج والابتسام يعلوا وجوههم ، وكأنهم لا يصدقون ان النجاح كان يتم بتلك السهولة ، كانهم كانوا يتحدثون عن فوزهم السريع في لعبة كرة القدم! . .

كان (مايلز كوبلاند) يبدو بقامته الطويلة الممتلئة قليلاً ، ونظارته البيضاء السميكة وملابسه القطنية الامريكية الخفيفة وكأنها من قماش نسميه (الكريشة) في بغداد ، وضحكاته العالية الصبيانية وكأنه رجل قدير يملك احد المصانع او المخازن الشهيرة ، يملئه الفرح لمقابلة الناس الجدد ، ويحب الاصدقاء والحفلات ويضحك ويبتهج مع الجميع ، وهو يبدو فخور بعمله في لبنان وبزوجته واطفاله الثلاثة .

اما الشخص الاخر المسمى (جيمس آيكلبركر) ويدعونه (آيك)وكان قبلاً موظفاً شاباً في وزارة الخارجية الامريكية ، فقد كان طويل القامة انيق الملابس يملك

بشرة اهل الشمال المتوردة وعيون زرقاء ويرتدى نظارة سميكة ، وكان صوته معتدلا ، ولهجته الامريكية راقية ومهذبة جداً ، يتكلم يشئ من الخجل القليل ، ويتصرف كما لو كان استاذاً شاباً في جامعة عريقة .

في ذلك الزمن ،كان اعجابي بالامريكان كبيراً جداً ، كنت اشعر بالحاجة الى تعلم مدنيتهم وعلومهم الى بلادنا بطريقة سريعة ، ويقابل ذلك ماكنت اشعر بالكره والاشمئزاز من عاداتنا القديمة المتخلفة وتقاليدنا البائسة كلها ، خاصة من ناحية جهل النساء ، النساء الذين يعانين الذل والضعف كطبقة من درجة ثانية في بلاد هي نفسها تنتمي الى العالم الثالث! . . .

كنت ارغب ان تتحرر البلاد العربية اجتماعياً ، بعد قرون طويلة من التدهور والانحطاط ، منذ هجوم المغول على اراضينا ، الى انعدام وصول النهضة الاوروبية الى يلادنا المتخلفة .

كنت ارغب آنذاك ، ان يعيش في بلادنا هؤلاء الامريكان بيننا كشركات ومهندسين وموظفين ويضيفون على البلاد مسحة عاداتهم الحرة الجيدة . كنت اود ان يفتحوا المدارس الامريكية في العراق ويرفعوا من مستوى التعليم عندنا .

كنت اظن ان امريكا لاتريد الاستعمار ، وسكناهم معنا وبهذا العدد الكبير في العراق والبلاد العربية الاخرى سيؤدي الى تحسن العلاقات السياسية والاجتماعية بين العرب وامريكا .

لم اكن ادري انهم من مؤازري الصهيونية وانهم ضد البلاد العربية .

ان الاستخبارات والجاسوسية لم تخطر لي على بال في تلك السنوات من الخمسينات . كنت اعلم ان اسرائيل تتجسس على البلاد العربية ، ولكن امريكا ، بلاد العم سام (المصلح) ، لم يخطر على بالي انه يتجسس علينا ، نحن البلاد الضعيفة .

في ذلك الوقت لم اكن اعرف حتى اسم (السي أي ايه) ، تعلمت هذه الجملة بعد مدة قصيرة من المجلات والجرائد .

كنت افكر بالجاسوسية كما رأيتها في فلم (ماتاهاري) منذ سنوات ، عن اناس يشتغلون في الظلام ويسرقون الكتب والمعاهدات السرية ويستخدمون

الراقصات الجميلات اوالخونة من السكرتاريين لاجل ذلك . وكنت احب رؤية افلام الجاسوسية في السينما لانها مثيرة ، ومخيفة وتشد الناس اليها! . . .

في اليوم التالي دعا كوبلاند الجميع الى بيته في بيروت . هناك رأينا اولاده وكان الكبير في سن الثانية عشر والاخر في العاشرة وبنتاً في سن الثامنة . كانت زوجته لايبدو عليها الاهتمام بما يجري من الامور السياسية بل كانت تهتم بالعائلة وبصديقاتها وحفلاتها .

لم يحضر كامل مروة وزوجته لانه قال انه لايقضي امسياته في بيروت ابداً بل يذهب الى بيته مبكراً . حضرت معنا سيدة مصرية صحافية شابة اسمها (خيرية خيرى) ، وقد تزوجت بعد فترة شخصاً من كبار الصحفيين في مصر! . . .

بعد سنوات من هذا الحادث اعلن (مايلز كوبلاند) تقاعده عن العمل في (السي آي ايه) ، والف كتاباً مثيراً الهب اهتمام الناس اسمه (لعبة الامم) . وقد ترجم الكتاب الى العديد من لغات العالم .

كنت في لندن في احد ايام الصيف في الستينات وسمعت مايلز كوبلاند يتكلم لمدة ساعة واحدة على التلفزيون البريطاني عن كتابه هذا .

من كان يظن ان هؤلاء الناس من ذوي الضحك والمرح والنكات ، والذين لا يعرفهم احد سوى اصدقائهم ومعارفهم ، انهم هم الذين غيروا سوريا ، وارجعوا ملكاً هارباً من بلاده الى عرشه في ايران ، وخلعوا ملكاً قوياً عن عرشه في مصر واسلموا السلطة الى يد ضابط بكباشى مجهول لايعرفه احد ، حبث سيطر على العالم العربي (من المحيط الى الخليج) كما تقول اذاعته وصحف بلاده ، والذي اجرى الضغط الكبير على العراق الملكي ، وقتل ملك شاب برئ مع جدته العجوز وخالته الهادئة البعيدة عن ما يجري في البلد وخاله الامير عبد الآله المكروه من قبل الناس بسبب مقتل الملك غازي . وانهاء عهد زاهر كان يسير العراق نحو الرخاء والعلم والثراء .

انهم يؤيدون او يزيحون ملوك كبار وكأنهم يلعبون لعبة رياضية . لقد كان رجال الشرق بالنسبة اليهم كأنهم اطفال يغيرونهم كما يشائون او كما يشاء من دربّهم على هذا الطريق ، واسخى عليهم لكي يحكم الشرق الاوسط اناس اقوياء

على ابناء بلدهم ضعفاء امام العدو! . .

وبعده كتب (بيل ايفلاند) كتابه (حبال من الرمال)، بعد ان تقاعد، وانه كان في استخبارات الجيش الامريكي وهي ادارة اخرى غير السي أي ايه . كان بيل ايفلاند يقف بجانب العرب، ولذلك لم يحصل على ما يريد .

صلاح الدين وشقلاوة ١٩٥٦

كنت اسمع عن مدينة (شقلاوة) في الشمال وفندق صلاح الدين المشيد في اعلى جبل بيرمام، وكنت اود السفر لايام قليلة لرؤية المكان، ولكن احسان كما نوهت قبلاً، لايود ان يبدل بيتنا في بغداد لنذهب الى قرى ونواحي صغيرة لا في شمال البلد ولا في جنوبه، ولذلك كنت اتحاشى الكلام عن السفرات والدخول في مناقشات طويلة مللت منها .

بدأ الصديق (زيور نشأت) وزوجته (سوزي العمري) يلحّان علينا ان نذهب سوية لقضاء ايام العيد القادم الى شقلاوة وفندق (صلاح الدين) ومعنا الدكتور نديم الباجةجي وزوجته (بوني) الامريكية التي كانت تود ان ترى الانحاء المختلفة من العراق . اصبحنا خمسة اشخاص نود السفر ضد احسان الذي يتمرد على السفر، وقد وافق أخيراً على رأي الاكثرية .

سافرنا في سيارتين انا واحسان بسيارتنا الفورد المفتوحة التى تحمل شخصين، وسيارة اخرى تحمل اربعة اشخاص وهي سيارة (زيور نشأت وزوجته سوزى العمرى) ومعهم نديم الباجةجي وزوجته بوني الامريكية . خرجنا في الصباح الباكر عن طريق بعقوبة الى كركوك .

توقفنا في مدينة كركوك للسلام على الاهل ومعنا رفاقنا الاربعة وذلك يعنى ان نتغدى معهم كالعادة . وكانت فرصة لكي ترى (بوني) بيوت اهل كركوك القديمه الواسعة والمبنية من الحجر المحلي .

بعد الغداء توجهنا الى (اربيل)، المسافة بين كركوك واربيل حوالى ٩٣ كيلومتراً .

دخلنا مدينة اربيل التى اراها للمرة الاولى ورأينا القلعة القديمة . واربيل تعتبر

ثاني اقدم مدن العالم المسكونة بعد مدينة دمشق العاصمة السورية اذ سكنها البشر بصورة مستمرة . وقد ذكرها السومريون في كتاباتهم وكذلك البابليون والآشوريون .

(الاسكندر الكبير) حارب (داريوس) ملك الفرس في اراضي اربيل ، وقتل داريوس وانهارت جيوشه واستولى الاسكندر على المنطقة ووصل الى بابل واندفع نحو الهند وافغانستان . عاد الاسكندر بعد ذلك الى بابل وهناك توفي بسبب مرض الملاريا ، وكان في الثلاثينات من عمره بعد ان لعب دوراً تاريخياً كبيراً .

لم ندخل داخل قلعة اربيل بل شاهدناها من الخارج . تركنا سياراتنا عند صاحب كراج في اربيل يعرفه (زيور) وركبنا سيارة كبيرة كلنا ، مع سائق اتفقنا ان يبقى معنا طيلة الوقت أي ثلاثة ايام .

توجهنا من اربيل الى جبل (بيرمام) وارتفاعه ١٠٩٠ متراًعن سطح البحر . وفى قمة جبل بيرمام يوجد فندق (صلاح الدين) نسبة الى السلطان صلاح الدين الايوبي الكردي الاصل ، والذى حارب الصليبيين وانتصر عليهم في موقعة (حطين) الشهيرة في عام ١١٨٧ .

كان الفندق لطيفاً ومريحاً .

في الصباح رأينا الكثير من اهل بغداد والموصل يقضون ايام العيد في هذا الفندق . اذكر من جملة المصطافين السيد (خليل كنة) وزير المعارف وزوجته السيدة (هاجر العسكري) في الفندق .

وكانت مائدتهم قرب مائدتنا في المطعم وتبادلنا السلام واياهم .

وهذه اول مرة اتعارف فيها على السيد خليل كنة ومع زوجته ، ولكنه كان يعرف الرجال معنا وكانوا يعرفونه جيداً .

رأيت خليل كنة في حالة انشراح وود معنا جميعاً ، يتحدث مع الجميع ويحاول ان يستجيب الى النكات والقفشات التي كان يجيدها (زيور نشأت) ويعمل على اجابته عليها .

كان جميع من يعرفه يصفه بالخشونة والتعالي والغرور . لم تبد عليه هذه الصفات اثناء لقائنا به .

السيد خليل كنة ، من الاعضاء الكبار في حزب (الاتحاد الدستورى) حزب السيد نوري السعيد ، وسنه يقارب الخمسين سنة ، متخرج من كلية الحقوق في بغداد .

كان قصير القامة اسود الشعر يميل جسمه الى الامتلاء ، وكانت زوجته (هاجر) اصغر منه بكثير ، وهي جميلة الوجه ولطيفة الكلام ولاتتحدث الا قليلاً ، ولم يكن لهم اطفال .

كنا نعرف ان خليل كنة كان من القوميين المتطرفين واشترك مع رشيد عالى في سنة ١٩٤١ وتعرض للاعتقال بسبب ذلك ، وكان من مؤسسي حزب (الاستقلال) المعارض لنوري السعيد . في سنة ١٩٤٦ تزوج السيد خليل كنة (هاجر) بنت السيد عبد الهادي العسكري ، وكانت السيدة (نعيمة) زوجة السيد نوري السعيد عمة العروس . سمعنا انه قد استقال من (حزب الاستقلال) بعد زواجه ودخل حزب (الاتحاد الدستوري) حزب نوري السعيد .

وقد استوزر مع السيد نورى السعيد سنة ١٩٥٠ ، وبعدها اصبح من الشخصيات الكبرى في الحزب وقيل انه اصبح الشخص الثاني بعد الرئيس .

رأيته خليل كنة فخوراً بمستوى فندق (صلاح الدين) وقال ان الرقى السريع سوف يشمل الفنادق الاخرى في كل البلد ويشمل ذلك المدارس والمستشفيات والمزيد من سدود الانهار والجسور ، ، وسوف يرى كل ذلك منتقدونا! . . .

كان يقصد بذلك حكومة مصر واذاعة احمد سعيد .

يبدو ان تعاليه وخشونته التي اشتهر بها بين الناس ، لاتبدو الا في القضايا السياسية مع الذين يختلف معهم بالرأي ، لأنه كان معنا مثالاً للطف والصداقة .

في الصباح نزلنا من جبل بيرمام واتجهنا الى (شقلاوة) وهي على ارتفاع ٩٦٦ متراً وشقلاوة تتميز بقمم الجبال العالية التي تحيطها من جميع اطرافها ، وهي بلدة جبلية مفتوحة فيها بساتين تتخللها المياه الجارية ، واشجار كثيفة على الجبال ، وتنمو فيها اشجار اللوز والجوز والرمان والسرو ومختلف الفواكه الجبلية .

اتجهنا الى (كلي علي بك) وهو نهر عميق طوله حوالى العشر كيلومترات ويبعد ٦٠ كيلومتراً من مدينة شقلاوة ، ولكي نصل اليه يجب ان تسير السيارة

فوق شق صخرى في طريق ضيق جداً رأيته لا يتّسع لاكثر من سيارة واحدة فقط لكي نمر عليه او هكذا بدا لي ، ولحسن الحظ مرت سيارتنا على الطريق دون ان تأتي سيارة اخرى من الجهة المعاكسة . كنا نسير بين الجبل الشاهق من جهة ومن وادى منحدر جداً على الجهة الثانية . ادرت وجهي نحو الجبل لكي لاارى الوادى الكبير على يسارنا ونحن نقطع المنطقة الضيقة .

الطريق الباقى كان ممتعاً حقاً ونحن نصعد القمم ونهبط الوديان . وكنا نرى السيارات تحمل ارقام بغداد مليئة بالعائلات والاولاد وكنا نعرف الكثير من الناس في هذه السيارات التى نراها على البعد ويرونا وكنا نؤمى بايدينا اليهم ويومئون الينا . رأيت الكثير من الاطباء وعائلاتهم كما شاهدت الجماعة اصدقاء يعرفونهم ونردد (هذه سيارة فلان وهذه سيارة فلان) وكأننا في شارع في بغداد! . . .

كان عجبي وفرحي العميق لرؤية اهل بغداد بهذا العدد الكبير ، يتجولون في هذه الجبال التى كانت قبل سنوات قليلة فقط جبالاً خطرة يتجول فيها اللصوص وقطاع الطرق ، والان يملؤها هذا الاطمئنان والهدوء ، وكأننا في جبال لبنان او جبال الالب .

هل ستصبح هذه الجبال الجميلة الشاهقة محلات للتزحلق في الشتاء ، ومحلات للاصطياف في الايام الحارة في الصيف؟

يبدو اننا قد بدأنا بالحياة المدنية ، وسوف نرى التغيرات والتحسينات السريعة ، وتصبح اللصوصية وقطاع الطرق في الجبال من قصص الماضي! . .

ان البلاد يسودها الامن والنظام ، واصبحت بلاداً مدنية عصرية ، واختفت العصابات واللصوص! . . كانت هذه النقطة السارة الاولى التى طبعتها هذه السفرة في ذاكرتي الى الآن! . .

اما ما اضحكنى واقلقتى فهو ماقاله سائق السيارة لنا في الطريق ، انه لم ير الجبال من قبل وهو من اهالى الجنوب ويشتغل في بغداد واراد ان يزور الجبال فتطوع للذهاب معنا ولم يشك احد منا بأنه لم ير الجبال في حياته قبلاً والان اصبح سائقاً في الجبال والوديان .

اما الشئ الثانى الذى سرني بهذه السفرة الصغيرة ، فهو ما رأيت في مركز

احدى النواحي النائية هناك . شاهدنا بناية محترمة من الحجر بطابق واحد ، يرفرف عليها علم البلاد ، وكان (زيور) يعرف الموظف هناك .

لااتذكر الآن ان كانت هذه البناية مقراً لمدير للناحية هناك .

نزلنا من السيارة وسلمنا على الموظف ، واجابنا بلغة عربية واضحة تشوبها اللكنة الكردية ، واظهر السرور لرؤيتنا بين الجبال .

في المكتب شاهدت رسم الملك فيصل الثاني معلقاً على الجدار وشعار الدولة العراقية وخارطة للمملكة العراقية وطاولة الموظف والكرسى وما فوقها من المحابر واوراق العمل كلها ، خلت انني في دائرة في بغداد! . . .

شربنا هناك القهوة التي قدمت لنا حسب العادة المتبعة .

سرني وطمأنني ماشاهدت في هذه الدائرة النائية حيث الحديث بين الموظف الكردى الانيق الشكل وبيننا وكأننا ابناء بلد واحد يسير نحو التماثل والتشابه في تدبير شؤن المملكة الواحدة .

نظرت الى صورة الملك الشاب . لقد اصبح حقاً ملك العرب والاكراد والشيعة والسنة والتركمان والمسيحيين واليهود والصابئة واليزيديين والأرمن وكل من انتمى الى الوطن العراقي .

كان هذا شعوري العميق آنذاك ، وظننت ان هذا الشعور هو الذى يسيطر على الناس في هذا البلد الذى حباه الله بالغنى والثراء الذى بدأت تبدو ظواهره على بلاد ما بين النهرين القديمة الحديثة! . . .

كم تبدو لي الآن تلك الاحاسيس ساذجة وبسيطة وخادعة كحلم من احلام الصيف! . .

الايام الاخيرة

عند عودتي من سويسرة في آذار ١٩٥٧ كانت بغداد تبدو هادئة بصورة عامة ، لم يكن هناك مظاهرات او اضطرابات . اخبروني عن المظاهرات الصاخبة في بغداد وخروج الناس الى الشوارع وقت العدوان الثلاثي على مصر ولم اكن هناك .

كانت مصر قد امت قناة السويس وخرج الجيش البريطاني من مصر بعد اكثر من ثمانين عاماً من الاحتلال البريطاني لمصر ، واصبح جمال عبد الناصر النبي الجديد عند العرب .

في البيوت وبين الاصدقاء والمعارف باختلاف اجيالهم واعمالهم ، كان الحديث عن مصر (وقوتها العسكرية) التي اوقفت دولتين امبراطوريتين ومعهما اسرائيل لكي يتمكنوا على الجيش المصري! . . .ويبدو أن الناس نسوا السند الكبير الذي قدمه الرئيس الامريكي (آيزنهاور) ، وكذلك رئيس الاتحاد السوفييتي السيد (خروشوف) بإنذار دول الاعتداء الثلاثى على الخروج من مصر .

الدولة الوحيدة التي رفضت الانسحاب غير المشروط بعد العدوان الثلاثي على مصر كانت اسرائيل التي طلبت (فتح خليج سينا) امامها وبناء ميناء (ايلات) قرب ميناء العقبة لدخول وخروج السفن من البحر الاحمر الى اسرائيل ، وكان لها ما ارادت! . .

ذلك لم يذكره (احمد سعيد) في اذاعته او تذكرها الصحف المصرية آنذاك! . .ولم يعرف او يهتم بذلك احد من العراقيين اوغيرهم من العرب! . . .

اما بريطانيا وفرنسا فقد انسحبتا بطريقة ذليلة من مصر .

ولابد من القول ان موقف الحكومة العراقية البارد تجاه العدوان الثلاثي اثار الضباط والطبقات المثقفة وكانت كالشرارة التي اشعلت يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ .

صادق المجلس النيابي على ميثاق بغداد ، وواصلت مصر التحريض الصريح ضد الحكومة العراقية . لم يكن هناك مجال للمعارضة داخل العراق ولكن اكثرية الشعب العراقي كان بجانب جمال عبد الناصر واذاعة احمد سعيد المهيجة للجماهير العربية رغم اكاذيب وسخف تلك الاذاعة .

في بغداد حكم على السيد (كامل الجادرجي) وهو رئيس الحزب الوطني الديمقراطي بالسجن لمدة ثلاث سنوات بجريمة الطعن بالحكومة واشاعة اكاذيب عنهامثلاً أخبار ملفقة عن الموافقة على تصدير النفط العراقي الى اسرائيل عن طريق فتح انبوب النفط من العراق الى حيفا ، وكذلك استخدام الطائرات البريطانية لمطار الحبانية في ضرب القوات المصرية اثناء العدوان الثلاثي على

مصر ، وكانت هذه الاخبار كلها كاذبة وملفقة! .

سجن السيد (كامل الجادرجى) بقرار من المحكمة بسبب هذه الافتراء والطعن بالحكومة ، رغم تبرع عدد كبير جداً من المحامين للدفاع عنه .

كانت الدولة العراقية تملك مطار الحبانية منذ ثلاث سنوات عندما غادرت القوة الجوية البريطانية ذلك المطار وفقاً لنصوص ميثاق بغداد ، واستلم الجيش العراقي مطار الحبانية بطريقة عسكرية مهيبة ولم يبق أي قوة عسكرية بريطانية في العراق منذ ذلك الحين .

الكتل السياسية الاخرى في العراق كانت تباشر نشاطها السياسى ، وبرز اسم (الجبهة الوطنية) التى احتوت كل احزاب وتكتلات المعارضة السياسية في جبهة واحدة ، هدفها كان واضحاً ، لاسقاط النظام القائم بكامله كما تبين فيما بعد .

في سنة ١٩٥٧ اتحدت جمهوريتي مصر وسوريا باتحاد سمي (الجمهورية العربية المتحدة) وقوبل هذا الاتحاد بحماسة كبرى ، وحمل الناس سيارة جمال عبد الناصر على اكتافهم اثناء زيارته لدمشق وكأنه نبي جديد هبط عليهم من السماء!

ان حكومة العراق بذلت الكثير لتهيئة الاجواء للاتحاد بينها وبين سوريا ، وهما بلدين متجاورين وكان الاتحاد بينهما اقرب بكثير من الاتحاد مع مصر من نواحي كثيرة .

كان الجميع يصر على ان الامير(عبد الآله) يطلب القيام بعمل عسكري يساعده الدكتور محمد فاضل الجمالي من اجل الحصول على عرش له في سوريا ولم نكن ندري من اين حصلت هذه الاشاعة ، ولكن الجميع كان يبدو موقناً بها وسمعناها مراراً وتكراراً! . .

كنت اسمع هذه الانباء حولي في كل الاماكن بين الاصدقاء وبين الاطباء وفي المجتمعات النسائية وبين الطلاب في الكلية . رغم ذلك كنت واثقة بالجيش وولائه للملك وللمملكة .

اعترض امامي احد الاطباء في المستشفى قائلاً :

- ان سوريا بلاد مستقلة! . . وللعراق روابط ومواثيق مع بريطانيا ، هل يرغب اهل سوريا المستقلة بدخول بمواثيق مع الدول المستعمرة كالعراق؟

قال احد اصدقائنا الوزراء امامنا همساً :

- ان دول (حلف بغداد) حاولت دفع العراق للقيام بالاعمال العسكرية للاتحاد مع سوريا ، ولكن نوري السعيد كان ضد هذه السياسة وكذلك السيد علي جودت . كما كان الكثير من الاخرين متطيراً منها . وقد عرض على السيد (عبد الوهاب مرجان) ارسال قطعات عسكرية الى سوريا ، ورفض ذلك رفضاً قاطعاً وقال انه يتخلى عن الوزارة ولا يستجيب للطلب! . . .

حاول العراق تكوين حلف عربي آخر واعلن في ١٤ شباط ١٩٥٨ تكوين (الاتحاد العربي الهاشمي) بين القطرين الشقيقين العراق والاردن .

اصبح الملك فيصل الثاني ملكا لهذا الاتحاد العربي ، وينوب عنه الملك حسين عند غيابه ، وقد تم تشكيل ٣ وزارات في القطرين وزارة (للاتحاد العربي) ، والثانية الوزارة العراقية والثالثة الوزارة الاردنية . ثم برزت فكرة لا بل اقتراح لدعوة الكويت للانضمام لهذا الاتحاد بعد ان يعلن استقلالها ويصبح اميرها نائباً ثانياً لرئيس الاتحاد العربي .

الحكومة البريطانية عارضت هذا المشروع بشدة . ويعتقد البعض ان موقف بريطانيا هذا كان من الاسباب التي مهدت لأحداث ١٤ تموز ١٩٥٨ .

اعتبر الناس المعارضين ان هذا الحلف العربي وكانه ضد الجمهوربة العربية المتحدة اي (جمهورية عبد الناصر) الجديدة . استقبل الشعب العراقي هذا الاتحاد بكل فتور وبرود ومعارضة ، وقد سمعت انا بعض الجماعات تضحك من هذا (الاتحاد) وكأنه مهزلة ومحاولة للتشبه بالجمهورية العربية المتحدة .

الناس كلها في العالم العربي كانت تحت تأثير جمال عبد الناصر وترغب ان تدخل تحت حماه ورعايته هو ، ولا رأي الا له ولا كلمة الا لما يقوله! . .

ارسل عبد الناصر تهنئة الى الى الملك فيصل الثاني بمناسبة الاتحاد مع الاردن . هل كان يعرف ان ايام (الاتحاد) قد غدت معدودة؟

كان الجميع في العراق يقف ضد رجال الحكم القائم وكأنهم اعداء وعملاء

وجواسيس للغرب ، مهما قاموا به من مشاريع ومدارس وجسور وطرق في الجبال وخزانات المياه وغيرها ، ويقدس عبد الناصر كما لو انه كان اسطورة سطعت على العرب جميعاً! . . .

كان (احسان) زوجي ، الشخص الوحيد بين جماعتنا الذي لايقبل بما يحصل عندنا ، ويكره اذاعة القاهرة و(احمد سعيد) وسيده بشدة ، وكان ذلك يتعبني كثيراً . كنت ارجوه ان يتكلم كما يشاء امامي في البيت ، لكي يرتاح من الغضب الهائل الذي كان يحس به ، لعله يسكت ونحن بين الناس ، ولكن من دون فائدة! . . .

كنت اخشى عليه من ان تحدث معارك يدوية بينه وبين اصدقائه الاخرين رغم كونهم جميعاً من الشخصيات المسالمة الرزينة في العادة ، لانني كنت اجدهم في فورات من الغضب من كلام أحسان لم ار مثلها لامن قبل ولامن بعد . لحسن الحظ لم يحدث شيء من ذلك اكثر من الكلام! . .

كل هؤلاء الاصدقاء اعتذروا منه بعد سنوات طويلة في ١٩٦٧ عندما ذهبت القناة وسينا والقدس والجولان .

ايلول سنة ١٩٥٧ (قبل الانجابتر السابق)

قدم السفير الايطالي دعوة الى السيد نديم الباجةجي وزير الاقتصاد والى زوجي احسان رفعت وهو مدير شؤن النفط العام ، الى حضور اجتماع في مدينة (ميلانو) ، لامور تتعلق بشؤن النفط ، وكانت الدعوة في شهر ايلول وتشمل الزوجات أيضاً .

سرني الخبر وصممت ان ارى يعض المحلات التاريخية قي مدينة روما هذه المرة رغم قصر المدة فيها ، لانني كنت في روما مع احسان من قبل ثلاث سنوات ونحن في طريقنا من المانيا الى بغداد وامضينا في روما يوماً ونصف يوم فقط ، قبل العودة الى بغداد ولم اشاهد شيئاً في روما . إذ كانت الطائرات في تلك الايام ، تقف في العواصم المهمة ومن السهل تغيير وقت السفر في هذه العواصم ، ولم يكن هناك طائرات (جيت) تطير مسافات طويلة من مدينة معينة واحدة الى

اخرى . بل كانت الطائرات تشبه الباصات في الجو ، تقف مرتين اوثلاث مرات في مدن مختلفة . لذلك قررنا الوقوف في روما لمدة يوم ونصف لرؤية المدينة ، وأصدقاؤنا في روما وهم السيد (عبد الملك الخضيري) القائم بالاعمال وزوجته صديقتي (فضيلة) ، ومعه السيد (خليل الداغستاني) وزوجته الانكليزية (مارجري) اللطيفة .

ما ان وضعنا الحقائب في الفندق ، الا وجدنا انفسنا في سيارة (عبد الملك) الكبيرة التي وسعتنا جميعاً ، وانطلق الى محل عال على جبل بالقرب من روما . كانت المنطقة جميلة جداً بعد جو المانيا وهولندا الخريفي ، والمطعم كان شهيراً بطعامه اللذيذ وجوه الجميل ، ودار بيننا الكلام عما يحدث من الامور المختلفة . وعند المساء تعشينا في مطعم آخر في المدينة . ولم نكد نرى المدينة .

في ظهر اليوم التالي غادرنا روما ولم ار منها شيئاً سوى الفندق والمطاعم وبعض الشوارع بهذه الساعات القليلة .

في السفرة الحالية دعانا السفير الايطالي ان نقضي اسبوع في ايطاليا ، يومين في روما ، ثم نذهب الى مدينة (ميلانو) حيث الاجتماع لمدة ثلاثة ايام ، وبعدها الى مدينة فنيسيا ليومين آخرين أيضاً .

كانت السفرة في منتصف ايلول لذلك تمكنت من الذهاب لان الدراسة في الكلية تفتح في نهاية ايلول واستاذنا الانكليزي وافق على ذهابي ، وهو موجود ويداوم في الكلية .

كان الاقرباء والاصدقاء يضحكون من سفراتي القصيرة ويسمونني (بنت بطوطة) . وكنت اقول هذا مالم يصنعه معي والدي عندما كنت صغيرة .

والدي كان يبتسم ويقول :

- سافري الآن كما تريدين! . . . انك تحبين السفر! . .

اطفالنا سوف يقضون الاسبوع في بيت والدي . وكانوا يحبون الذهاب الى بيت (جدو) ومعهم المربية (سعدية) ، وهم يلقون رعاية خاصة من الجميع .

في الطائرة ، كنت افكر في ايطاليا التي سمعنا عن ضعفها العسكري اثناء الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لقوة المانيا وجبروتها .

فكرت في زعيمها (موسوليني) ونهايته التعسة حبث مات مشنوقاً من قبل الايطاليين انفسهم في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكيف ابدل الشعب مملكة ايطاليا التي كان يحكمها الملك (فكتور عمانؤيل) وعائلته ، والآن اصبحت جمهورية .

كعادتي دائماً ، بدأت اعيش تاريخ الرومان . سافرت بفكري الى روما القديمة ، المدينة الخالدة ، عاصمة العالم القديم ، روما التي تؤدي اليها كل الطرق ، رومامدينة التلال السبعة التي لايكفيها العمر كله لاكتشافها ، هذا ماتقوله الكتب عنها في بلاد الغرب .

كان اول ملك لروما هو (روميولوس) في سنة ٧٥٣ ق . م . وتقول اساطيرهم انه كان ابن الكوكب (المريخ) .

اصبحت البلاد جمهورية في القرن الثالث ق . م . وبعدها اصبحت الامبراطورية الرومانية التي حكمت اجزاء مهمة في العالم لقرون عديدة . في زمن يوليوس قيصر امتدت الامبراطورية الى الغرب نحو شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا) والى بلاد الغول (فرنسا) ثم الى بريطانيا الجزيرة النائية في شمال اوروبا التى دخلها يوليوس قيصر بنفسه . وقد حكم الرومان اراضي انهار الراين والدانوب والبلقان وبلاداليونان الى البحر الاسود والى اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ومراكش .

في سنة ١٠٠ ق . م . كان البحر المتوسط (بحر الروم) بحيرة رومانية! . . .

تذكرت قصيدة الشاعر السوري سليمان الأحمد (بدوي الجبل) في البحر المتوسط (بحر الروم) ، يوم مأتم الملك غازي في بغداد سنة ١٩٣٩ :

ايها البحرْ ، بعض تيهك   واذكرْ زمنا بيننا قديم العهودِ
لست للروم ، انت للملك الـ   ـطفل نضار في تاجه المعقودِ
ايها البحرْ ، انت مهما افترقنا   ملك آبائنا وملك الجدود!

والمجد لبطل اليرموك خالد بن الوليد! . . الساحل الجنوبي والشرقي لبحر الروم (البحر المتوسط) يسكنه الآن العرب والمسلمون من بلاد المغرب الاقصى الى سوريا الى القسطنطينية (استانبول) .

يالنسبة لمؤرخي الغرب ، هناك ثلاثة رجال هم اعظم القواد العسكريين في تاريخ العالم كله ، وهم (الاسكندر الكبير) المقدوني من ٣٥٦ الى ٣٢٣ ق.م . و(يوليوس قيصر) في روما ١٠٠ الى ٤٤ ق . م . وهما قبل ميلاد المسيح ، والثالث هو نابليون بونوبارت الذى اتى بعدهم بأكثر من تسعة عشر قرناً ومات في القرن التاسع عشر .

فتح يوليوس قيصر (١٠٠ ـ ٤٤ ق .م .) قائد الرومان العظيم معظم القارة الاوروبية ومنها بريطانيا وآثاره كثيرة هناك . ذهب الى مصر ، وله من ملكة مصر كليوباترا ولدٌ اسمه (قيصرون) .

في زمن يوليوس قيصر سمي اسم احد شهور السنة باسمه (يوليو) أي شهر تموز .

بعد مقتل يوليوس قيصر في الكابيتول في مؤامرة اشترك بها كل الشيوخ الاعضاء ، ومنهم (بروتس) وهو الذي تبناه القيصر ورباه منذ الطفولة واصبح احد الاعضاء في مجلس الشيوخ ، مد القيصر يده الى بروتس لكي يحميه من طعنات الاعضاء الشيوخ ، واذا (ببروتس) يطعنه بالخنجر مثل الاعضاء الآخرين ، وقال يوليوس آنذاك كلمته المعروفة عن تلك الطعنة التي فاجئته :

ـ حتى انت يا بروتوس! . .

وقد خلد ذلك شكسبير في مسرحيته (يوليوس قيصر) . اعقبه اكتافيوس وانطونيوس اللذان حكما معاً الاول في الغرب والثاني (اطونيوس) في الشرق وقد حكم مصر مع (كليوباترا) بضع سنوات ومات معها في مدينة الاسكندرية .

وقد خلده شكسبير بمسرحية (انطوني وكليوباترا) . كلا المسرحيتين لاتزلان تمثلان على المسارح والسينما الى اليوم .

وخلد الشاعر (احمد شوقي) كليوباترا وانطونيوس بمسرحية شعرية جميلة اسمها (مصرع كليوباترا) ، وقد درستُ هذه المسرحية في المدرسة الثانوية في الصف الرابع الادبي ، ولاازال احفظ الكثير منها! . .

(القيصر اكتافيوس) سمي بأسم الامبراطور (أغسطوس) التي تعني (المبجل) ، وقد كان هو اول امبراطور لروما ، (٢٧ ق .م .ـ ١٤ ب . م) . وقد اطلق اسمه على

شهر آخر من شهور السنة اسم (أغسطوس) أي شهر آب . وقد اعاد تنظيم الجيش وتعيين الولاة ، وقال قبل وفاته :

- اتيت لروما وهي مبنية بالحجارة ، وتركتها وهي مبنية بالرخام! . . .

هنالك منطقة في الالب لايوحد فيها الا الرخام الايطالي الابيض المشهور .

بعد اغسطوس ، حكم الامبراطور (طايبريوس) ، وقد سافر الى بلاد الشام وسميت البحيرة (طبرية) بأسمه .

(نيرون) الطاغية وغيره ولاتزال اسماؤهم في كتبنا الى الوقت الحاضر . كان نيرون يتفرج مع جموع غفيرة من الناس على السجناء المسيحيين عندما يرميهم الحراس الى الوحوش الضارية في ملعب روما (الكولوسيم) .

انتشرت المسيحية ببطئ في ايطاليا بعد ان وصلها القديس (بطرس) والقديس (بولس) في القرن الاول الميلادى الى ان عمت القارة الاوروبية كلها .

كان الامبراطور(قسطنطين) اول امبراطور (مسيحي) في روما ، وقد هجر روما في سنة ٣٣٠ الى مدينة (بيزانطيوم) على ضفاف مضيق البسفور بين آسيا وافريقيا واصبح اسم المدينة (القسطنطينية) المشهورة في التاريخ على اثر ذلك وبعدها كانت عاصمة الدولة العثمانية المسلمة لمدة اربعة قرون .

في سنة ٧٧٤ اعاد البابا ليوالثالث اسم (روما عاصمة العالم) حين توج (شارلمان) امبراطور للكنيسة الرومانية المقدسة التي عاشت الى القرن الخامس عشر .

كم قرأت عن ايطاليا في ايام الصبا عن الاميرة فوستا وأل بورجيا وأل مديتشى ومدينة فنيسيا ، كتب من تأليف (ميشيل زيفاكو) وترجمة (طانيوس عبدة) .

سكن في روما المليون والنصف من الناس اثناء الامبراطورية ، وكانت حافلة بالمعابد الرخامية والقصور والحمامات العامة ، والاقنية المائية ، وكانت بها مسارح ومحلات تسلية ومكتبات .

انتهت تأملاتي التاريخية القديمة عندما وصلنا الى مطار روما الحالية .

استقبلنا شخص ايطالياً كبيراً يشتغل في قضايا النفط ، وقال بأنه سوف

يرافقنا في روما والى مدينة ميلانو أيضاً .

نزلنا في فندق كبير لااتذكر اسمه الآن ، وكان يسكن في هذا الفندق الملك (سعود) ملك المملكة العربية السعودية .

اعطيت لنا شقة كبيرة خاصة فيها غرفتان كبيرتان منفصلتان ويفصل بين الغرفتين صالون واحد للجلوس والراحة لنا فقط . كانت اثاث الغرف والصالون من الطراز القديم من الخشب المذهب والفراش مغطى بالاغطية الحريرية الزاهية اللون ومطرزة بخيوط ذهبية والمرايا مؤطرة في اطارات مذهبة جميلة . وعلى الجدران صور من الماضي لرسامين قدماء من ايطاليا ، مع راديو وتلفزيون ، ولكل غرفة حمامها الواسع الجميل .

خرجنا في الصباح في جولة حول المدينة . رأينا (الكولسيوم) الاثري وهو الملعب الكبير للرومان القدماء ، ورأينا اعداد السواح الكثيرة وهم يحملون آلات التصوير لأخذ صور الكولسيوم من جوانب متعددة حوله .

بني الكولوسيوم الملعب العظيم في ٧٦ ب . م . على شكل دائرة كبرى تحيط بها الاقواس الكبيرة وهي مبنية على اعمدة من الصخر . الملعب يكفي لجلوس خمسين الف شخص لرؤية مسابقة العربات الحربية واحيانا لرؤية بعض الحيوانات الضارية . وعندما افتتح دامت الحفلات مئة يوم نهارا وليلا ، ونحر حوالي خمسة الاف رأس من الماشية في ذلك الاحتفال الكبير .

كان الاسرى والعبيد في روما يتبارون ويتقاتلون وهم بالعربات ، والناس تتفرج على القتال وموت الاسرى امامهم وكأنهم في عيد ، كما نراهم في السينما .

في داخل الكولوسيوم كانت الرمال تغطي ارض الملعب الواسع او الميدان حيث يجلس الاشراف والجنود على درجاتهم امام الامبراطور .

ويختلف جلوس الناس في الاعياد والحفلات حسب طبقاتهم وهم طبقة (العوام) ويجلسون على الارض ، وطبقة تجلس في الشرفات وهي لكبار (العسكريين والمدنيين) ، ثم شرفة (الامبراطور) الخاصة حيث يجلس مع الامبراطور ضيوفه والشيوخ في المجلس .

ان نيـرون الطاغيـة (ولد سنة ١٧ مـيـلادية ومـات سنة ٦٨) كـان يرسل المسيحيين امام الحيوانات الضارية في الكولوسيم لكي تفترسهم الحيوانات على مشهد من الناس التي تتفرج بفرح وسرور على ذلك .

لقد قام القديس (بطرس) والقديس (بولس) بالتبشير الى الدين المسيحي في روما كدين جديد ، وقد قتلا في روما في زمان نيرون الطاغية . القديس (بطرس) صلب ورأسه الى الاسفل لكي لا يشبه صلبه صلب المسيح عليه السلام .

اثناء الحريق الكبير سنة ٦٤ م . لم يكن (نيرون) في روما ، بل كان في مدينة (آنزيو) ، ولكن الناس اذاعوا ان الحريق كان من (نيرون) لانهم كانوا يكرهون ذلك الطاغية واصبح الجميع يعتقد ذلك .

وقد شاهدت قبل سنوات احد الافلام السينمائية ، (نيرون) وقد احرق روما ثم جلس في شرفة قصره يعزف العود ويشاهد المدينة تحترق امامه! . . وهو في الحقيقة لم يكن في روما بل في مدينة أخرى! . .

الويل لمن يكرهه شعبه! . .

عدنا الى الفندق مساء ، وشاهدنا بعض الاشخاص يرتدون الملابس العربية في الفندق . قال السيد الايطالي ان الملك (سعود) ملك المملكة العربية السعودية استأجر طابقين كاملين بكل حجراته من الفندق لكي يسكن فيه جميع مرافقيه واصدقائه! . . .

ضحكنا فيما بيننا وقلنا :

- العرب في البادية عادة ، يفضلون النوم جميعاً في خيمة واحدة ، ولكن عدد مرافقى الملك لا يكفيه النوم الا في طابقين كاملين .

كانت اخبار التبذير الكبير تصل الينا عن الامراء السعوديين وكنت اظن ان الناس تبالغ في هذه الامور ، الى ان رأيت الكثير من ذلك بعد سنوات عديدة . ما الذي يمنع المرء اذا امتلك الثروات الطائلة من البذخ والاسراف؟

في الصباح سمعنا ان احد هؤلاء العرب كان يشكو من الم اصابه اثناء

الليل وسمعه احد المسؤلين في الفندق يئن ويتأوه . لذلك فتح المسؤل الباب عليهم لكي يجلب لهم طبيب اذا اقتضى الامر ، لكنه وجد جماعة صغيرة مجتمعة في غرفة احدهم ولم يكن هنالك مريض! . . .

يبدو ان احدهم كان يغني الغناء الصحراوي المحزن الذى يشبه الانين وجماعته يستمعون اليه ، واهل الفندق ظنوا انه مريض يأن ويتأوه! . .

قضينا الليلتين مدعوين للغداء والعشاء والرقص ، نستيقظ في ساعة متأخرة في الصباح ، نقرأ الجرائد حتى بحين موعد دعوة الغداء وبعدها للتجوال عصراً لفترة قصيرة حتى يحين موعد العشاء . .

كنا نحب الاكل الايطالى والاطعمة التي كانوا يهيؤنها بمهارة ، (السباكيتي والمعكروتي والرافيولي) وغيرها والقهوة اما ان تكون سوداء قوية ، او مع الحليب الحار ذي الرغوة العالية (كابوجينو) او قهوة امريكية .

في الليلة الاولى ذهبنا الى مطعم فخم بأثاثه وسقوفه واضوائه الخافته التي تضئ المكان بصورة غريبة كالصور القديمة . قيل لنا اننا سنأكل (باسطا فريدريكو) ولادرى ان كنت اتذكر الاسم جيداً ، لان صاحبنا الايطالي معنا اخبرهم اننا ضيوف اجانب مدعوون من بلاد بعيدة .

قبل البدأ بالطعام سمعنا صوتاً يقول : والان ، باسطا فريدريكو! . .

شاهدنا الضوء يخفت قليلاً ، وساد الصمت في المطعم ، وظهر (فريدريكو) بنفسه ، رجل متوسط العمر بدين بعض الشئ شعره يغلب عليه البياض وهو يدفع عربة فضية لامعة ، وعلى العربة صحن كبير بيضوي الشكل من الذهب الخالص مملوء (بالباسطا) فقط من دون اضافة أي شيء اليه ، ومعه شوكة كبيرة وملعقة من الذهب . قدم (الباسطا) لنا وملأ صحوننا بلمعقة وشوكة الذهب! . .

كان ذلك يعني تقديراً كبيراً للضيوف! . .

رأيت بعد فترة الكثير من ادوات الاكل الذهبية وصحونها واوعيتها في مختلف القصور الكبيرة التي زرتها . معدن الذهب ، يعني الغنى والبذخ وجمال الحياة الميسورة ، لكنني شخصياً افضل اثناء تناول الطعام الجيد وشرب الشاي في الصحون الفضية الخالصة على الذهبية في هذه القصور .

لم يكن الناس في بغداد تستعمل اواني الذهب في ذلك الوقت! . .

كنا نعتقد نحن الشباب في العراق ان الثراء في بلادنا يجب ان يصرف على رفع وتحسين حالة الفقر والتدهور عند فقراء الناس ، وليس على من يملك من المال ويبذره امام الآخرين حباً في البذخ والجاه .

غادرنا روما دون أن نشاهد (الفاتيكان) ، عاصمة البابا ببناياتها الرخامية وكنائسها الشهيرة ، ورسومها الخالدة ولم نزر مقابر تحت الارض في روما ولا الكثير من المشاهد التاريخية بسبب قصر المدة .

ميلانو ، العاصمة الاقتصادية لايطاليا ومدينة الاعمال . انها بورصة اسعار الاسهم المالية لايطاليا وبها اكثر النقابات والشركات واكبر كثافة للصناعة هناك .

كما ان ميلانو تعني اسلوب الترف والاناقة والازياء والابداع الفني في عملها وفي لعبها وهي مدينة الثراء والبذخ في ايطاليا ، وقد اصبحت الآن عاصمة الازياء الجديدة للنساء والرجال مثل مدينة باريس . كذلك انتشرت اشكال السيارات الفائقة الجمال التي تصدرها ميلانو وتقلدها العواصم الصناعية الاخرى .

ولمدينة ميلانو مركز كبير للموسيقى العالمية وبها صالة فخمة للاوبرا (لاسكالا) ، وهي الصالة التي بنيت على مثالها صالة الاوبرا في القاهرة في زمن الخديوى اسماعيل .

وفي ميلانو سينعقد الاجتماع حول البترول في هذه السنة ،

خيل لنا انا و(بوني) زوجة الدكتور نديم ، اننا سوف نتجول ونرى المدينة كما نشاء اثناء اجتماعاتهم في الصباح ، ولكن ذلك لم يتهيأ لنا ، إذ كنا مدعوات لحضور دعوات الغداء والعشاء وعلينا ان تكون على اهبة الخروج حال حضور السيارة الينا . كانت دعوات الغداء كلها خارج المدينة على مقربة من احدى البحيرات الجبلية التي تقع في منطقة توسكاني ، وكانت المسافة بعيدة للذهاب والعودة ، وعندما نعود الى ميلانو والى غرفنا نرتاح قليلاً ثم نستبدل ملابس النهار بملابس العشاء .

كانت البحيرات في منطقة توسكاني من اجمل ما شاهدت في حياتي ،

وهي تمتد بين جبال الالب ونهر(البو) ، وهي كثيرة العدد يأمها الناس من جميع جهات العالم . اذكر من اسمائها بحيرة (كومو) وبحيرة (ماجوري) وبحيرات اخرى صغيرة عديدة كلها في غاية الجمال والروعة .

في اليوم الثالث والاخير كنا مدعوين الى محل قرب احدى البحيرات الجميلة حيث تضللها جبال الالب وممر (سامبلون) الى سويسرا ، الجزيرة كبيرة رائعة الجمال ، بمياهها الخضراء الزرقاء الصافية والتي تعكس الصور على الشاطئ الآخر للاشجار والبيوت الصغيرة القليلة المتباعدة ، وكأنها المرآة البلورية .

دخلنا بناية كبيرة وجلسنا حول مائدة كبيرة جداً . وكانت الاضواء والثريات تضيئ الصالة بصورة جميلة . رأيت اقمشة الكراسي الحريرية يبدو عليها كما لو انها هناك منذ زمن طويل .

ان الاثاث كله كان يستعمله نابليون اثناء حكمه لايطاليا وهو (جنرال) في السابعة والعشرين من عمره قبل ان يسافر الى مصر . وقداحتفظ اهل ايطاليا بالمكان كما هو دون تغيير ، حتى الاقداح البلورية مكتوب عليها حرف (النون) نسبة لاسم الجنرال نابليون .

قيل ان نابليون اثناء سيطرته على ايطاليا اذاع في جيشه ، ان الجيش الفرنسي هو ليس جيش قتل وسبي ، ولا هو جيش لصوص ، بل يجب على جيشه ان يتعلم احترام اهل البلاد ، وان فرنسا الآن لاتحتل البلاد الاخرى بل تنشر دعوة (الحرية والاخاء والمساواة) في اوروبا وعلى هذه الدعوة التي يقوم بها جيش فرنسي عظيم لايحتوي جنوده على افراد من القتلة واللصوص! . . .

كان هذا القول هو الاول في العالم حيث يمنع قائد الجيش جنوده من السبى والقتل! . .

وهكذا انتشرت اخبار نابليون بين الشباب الاوروبى آنذاك بأنه كان يحارب من اجل الحرية ، وهو ضد الاقطاع وحكم الطبقات والعبودية . وقد كتبت عنه الكتب الكبيرة وسجل (بيتهوفن) لنابليون السيمفونية الثالثة ، لكن بيتهوفن عاد واختار للسيمفونية اسماً آخر هو (هيرويكا) ، وذلك بعد ان اصبح نابليون امبراطوراً .

نظرت الى الصالة الكبيرة التاريخية وتطلعت الى الجدران الجميلة والسقف البديع . هل كان نابليون يكتب رسائله الغرامية الى زوجته (جوزفين) وهي في باريس من هذا المكان الرائع؟ ان رسائله اليها هي من اروع الرسائل العاطفية .

السفرة القادمة كانت الى فنيسيا

شاهدنا البيوت والقصور القديمة والاشجار في الحدائق وعلى الجبال الخضراء ، وكان الجو دافئاً وبهيجاً ، والمطاعم ومحلات شرب الشاي كلها تحوي نضارة وجمالا ، والناس بالبستهم الجبلية ورقتهم معنا نحن السواح اضافت كلها الى روعة المناظر .

ان ايطاليا هي بلاد العطل الصيفية الرائعة! . . .

على الرغم مما رأينا ، ان هذه البلاد الجميلة بها براكين عديدة اذكر منها ثلاثة ، (فيزوف وسترومبولى واتنا) ، وكلها براكين حية تنفجر بنيرانها وحممها وتغطي المدن والقرى والأراضي .

هل العالم مملوء بالحلو المر دائماً؟

شاهدنا المدن الصغرى في طريقنا ، بجمالها وازهارها وأسمائها البديعة التي نسيتها الآن ولكني اتذكر اسم مدينة (فيرونا) طبعاً ، حيث قصة شكسبير (روميووجوليت) الخالدة . وكل من قرأ او شاهد روميو وجوليت يتذكر هذه القصة دائماً وكأنها حقيقية . .

قيل لنا ان هناك عائلتين اسمائها تتشابه أسماهما مع اسماء العائلتين قي القصة ، ولكن لم يكن بين العائلتين اي عداء كالذي شاهدناه في المسرحية ، ولم تحدث قصة من هذا النوع في مدينة (فيرونا) ابداً! . .

ان قصة (روميو وجوليت) خيالية ومن روائع شكسبير الشاعر المبدع! . .

تناولنا الغداء في مدينة (فيرونا) الساحرة والتي يطلق عليها اسم (بيكولا روما) ، اي روما الصغيرة ثم تجولنا بالسيارة ورأينا قصر اسمه (قصر جولييت) يؤمه السواح . في القصر شرفة جولييت الخيالية الجميلة تحيطها الاشجار والازهار وهي

الشرفة التي تسلقها روميو الى غرفة جولييت في القصة . ويوجد في القصر تمثال من البرونز لجولييت . وهناك أيضاً (قبر) لجولييت ، ولكننا لم نشاهد القبر .

ان جوليت الخيالية تعيش بقصرها وشرفتها وتمثالها وقبرها ، هل توجد فتاة اخرى حقيقية عاشت وماتت ولها كل هذه الاثار الحية الرائعة لذكراها! . . .

لاادري كم من المرات شاهدت (روميو وجولييت) على المسرح او في السينما او على التلفزيون ، لكن اذا عرضت مرة اخرى على التلفزيون غداً سأشاهدها أيضاً . انها احدى درر شكسبير الخالدة! . .

فنيسيا او البندقية

فنيسيا ، انها مدينة كتاب (عشاق فنيسيا) القصة التى قرأت عنها في ايام الصبا! . .

كتب القصة (ميشيل زيفاكو) وترجمها (طانيوس عبدة) وكان الكتاب من كتب والدتي التي تعرف كل تفاصيل القصة .

أن فنيسيا أيضاً هي (عروس البحر وحلم الخيال! . .) كما نظمها الشاعر (على محمود طه) وغناها (محمد عبد الوهاب) في سنوات الاربعين من القرن الماضي .

كانت (فنيسيا) منذ القرن العاشر جمهورية بحد ذاتها ، يحكمها رئيس لقبه (دوج) ومعه (مجلس العشرة) الذي يتكون من عشرة اشخاص من الاشراف الارستقراطيين يحكمون الجمهورية بيد من حديد . اصبحت فنيسيا مدينة تجارية مهمة لها بحرية قوية وسلطة على البحر الابيض المتوسط تحسدها عليه البلاد الاخرى .

من فنيسيا خرجت اول حملة صليبية في بداية القرن الحادى عشر .

ومنها خرج الايطالي (ماركو بولو) في القرن الثالث عشر وسافر الى الصين والتقى بالخان الكبير (قوبلاي خان) ، ثم عاد الى بلاده بعد عشرين سنة ، وكتب رحلته التي تعد من اشهر الرحلات في العالم! . .

وقد رأيت فلماً سينمائياً عن رحلة ماركو بولو وقرأت كتاباً صغيراً عن القصة .

عند سقوط (القسطنطينية) بيد الاتراك في القرن الخامس عشر سيطرت الدولة العثمانية على حركة المرور في البحر الادرياتيكي ، وكانت سفن فنيسيا تتحارب مع سفن الاتراك .

رأيت فنيسيا فأذا الكثير من ابنيتها مخربة بتأثير المياه التي تحيطها والناس في ايطاليا تخشى ارتفاع المد اليها واغراقها تماماً .

فقدت فنيسيا ايام قوتها الماضية الآن ، ولكنها كمدينة لم تفقد ميزاتها الاستثنائية ، بل بقيت كظاهرة فريدة في العالم يأتي الناس الى رؤيتها من جميع الاقطار .

وضعنا حقائبنا في زورق بخاري سريع ووصلنا الى فندق كبير على القناة الكبرى .

هذه المدينة ، فنيسيا ، تطفو على البحر وشوارعها كلها قنوات من مياه البحر ، تسير القوارب والمراكب المختلفة عليها ، وقرب الشوارع المائية ازقة ضيقة للمشى فقط . المدينة لاتدخلها السيارات مطلقاً بل تسير على الماء بواسطة الزوارق والمراكب المختلفة ولانسمع سوى كلام الناس واصوات اقدامهم في الازقة الضيقة ، وضربات المجاديف على الماء ، وأحياناً اصوات غناء من الزوارق . اختفت من آذاننا اصوات السيارات وهديرها .

ركبنا زورقاً صغيراً لكي نشاهد المدينة الداخلية ، كانت الشوارع والاقنية ملتوية قريبة من دور الناس بحيث يمكن بيع بعض البضائع كلها من الزوارق الى البيوت . مناظر البيوت جميلة ولكن الريح كانت ساكنة ورائحة المياه ورائحة الاسماك قوية نتنة في الجو .

طلبنا الرجوع الى الفندق ، الى فندقنا الكبير الذى يطل على القناة الكبيرة .

كانت كل الفنادق التى نزلنا فيها فخمة ومريحة وباذخة . ولكنني احببت هذا الفندق بصورة خاصة والسبب هو المنظر الجميل الذي كنا نراه من نوافذ غرفتنا ، لان القصور القديمة امامنا على البعد على الشاطئ الآخر تبدو بجمالها وابنيتها القديمة الفخمة بنوافذها وشرفاتها والعدد الكبير من البواخر والقوارب والزوارق يجعل المنظر كحلم غريب .

في المساء والشمس لاتزال عالية ، تجولنا على القناة الكبيرة في الطريق الى البحر . وكان صاحب المركب يشير الى القصور الكبيرة ويذكر اسماء من سكن هنالك في الماضي . كان الهواء يهب من ناحية البحر جميلاً دافئاً واصوات غناء البعض من ملاحي الزوارق كان ملائكياً حالماً حزيناً .

سار المركب البخاري بجهة من القناة وعاد بنا من الجهة الاخرى لكي نشاهد الضفتين وكان الظلام قد اطبق . القصور كانت جميلة قبل المساء وجميلة اثناء الليل بكل اضوائها وشرفاتها ونوافذها .

في صباح اليوم الاخير قبل الرجوع الى بغداد كنا في كنيسة سان مارك الكبرى وهي قلب المدينة ، وتحيطها الاعمدة الرخامية القديمة والتماثيل ويملأ الاف الحمام الساحة وسطوح الابنية الكبرى .

رأينا كنائس كثيرة من الخارج . يبدو ان بقايا (القديس مارك) نقلت من الاسكندرية في القرن التاسع لان احد الباباوات رأى حلماً بان سانت مارك سينقل الى فنيسيا . اصبح المكان كاتدرائية للقديس . الكنائس مليئة بما سرقوه من القسطنطينية وهم في طريقهم الى الحروب الصليبية .

جلسنا امام احد المقاهي لنشرب القهوة بعد التجوال في الكاتدرائية ، واذا باحسان يعود ومعه نسخة من التايمس اللندنية وفيها خبر جعلنا نشهق فرحاً .

اعلن عن خطوبة الملك فيصل الثاني على الاميرة (فاضلة) ، وهي اميرة مصرية والدها الأمير (محمد علي) من احفاد الخديوى محمد علي الكبير مؤسس مصر الحديثة ، ووالدتها الاميرة (هانزادة) ابنة الامير (عمر فاروق) بن السلطان العثماني عبد المجيد .

شاهدنا صورة الاميرة (فاضلة) في الجريدة تبدو شقراء جميلة ممشوقة القوام في السابعة عشر من عمرها .

كنا جميعاً ننتظر اليوم الذي يتزوج به الملك (فيصل الثاني) وهو الولد الوحيد حفيد فيصل الاول وابن غازي الاول الذي لم يحزن الشعب العراقي على وفاة احد كما حزن على فقدانه! . . .

بهذا الخبر المفرح للعراق عدنا الى بغداد .

خطوبة الملك فيصل الثاني

خطب الملك فيصل الثاني في ايلول سنة ١٩٥٧ اميرة مصرية تركية هي الاميرة (فاضلة) بنت الامير (محمد علي) وهو من احفاد (محمد على باشا (الكبير مؤسس مصر الخديوية ، ووالدتها هي الاميرة (هانزادة) ابنة الامير عمر فاروق بن الخليفة العثماني السلطان عبد المجيد .

قيل ان الملك كان سعيداً جداً بالخطوبة ، والعرس سوف يكون في صيف ١٩٥٨ ، في القصر الملكي الجديد .

شاهدت في قصر الملك الجديد من الخارج شرفة كبيرة تطل على الشارع امامه ، ورأيتها مثل شرفة قصر بكنكهام في لندن وان الملك فيصل والملكة الجديدة سيحيون الناس من تلك الشرفة في المستقبل القريب! . . .

بدأت افكر كما هي عادتي دائماً بهذه الشرفة الملكية ، ستكون للملك شرفة خاصة يحيي الناس منها كما رأيتهم يفعلون في بريطانيا بلاد الملكية القديمة . كنت اريد ان تسير مملكة العراق كما تسير المملكة البريطانية ، وربما نصبح مثلهم خلال فترة غير طويلة . كانت الديمقراطية البريطانية المثل الاعلى للديمقراطيات في العالم في نظري آنذاك .

اخذت افكر ، هل سيكون لنا اذن قصر تاريخي من الآن ، وسيجمع اخبار الدولة العراقية الحديثة مع تواريخ ملوكها وملكاتها لمدة اجيال عديدة مقبلة؟

ان قصر (ويندسور) في بريطانيا تجاوز عمره الالف عام ، هل سيكون لنا قصر قائم بعد مئات من السنين؟

هل سينسى الناس نهب القصور وتقويضها بعد كل ثورة او انقلاب؟ ان قصور الملك (فاروق) واسرته لاتزال في مكانها ، حتى الاثاث لم تمتد اليه يد . القصور بقيت لمصر ولمن يحكم مصر ، ولكن اين قصورنا القديمة منذ العهد العباسي قبل اكثر من الف سنة والى يوم دخول المغول الى بغداد؟ . .

الملكة (اليزابث) في بريطانيا يمتد تاريخ اسرتها الى الف سنة ، هل سنبدأ بذلك الآن في العراق؟

ان الملك فيصل الثاني تمتد اصوله الى النبي محمد (ص) وتمتد اصول الرسول الى (عدنان) جد العرب .

كم من الناس تمتد اصوله الى كل هذه الحقبة الطويلة من الماضي؟

شعرت ان بلادنا تمر بعهد ازدهار لم تشاهد مثله منذ اجيال طويلة وأن العراق سيصبح جنة الشرق الاوسط من جديد! . . .

كنت اترقب ذلك منذ سنوات ، وقد حان الوقت الآن! . . .

قال جميل صدقي الزهاوي :

أتعــــود بعد تصرم ونفاد — أيــــام بغداد الى بغداد
كانت محطاً للعلوم واهلها — وقرارة للمــــجد والامجاد
ايام بغــداد تضئ جميلة — فتلوح مثل الكوكب الوقاد

وقال الاخطل الصغير في سنة ١٩٣٦

قولي لشمسك لا تغيبي — وتكــبدّي فلك القلوب
بغـــداد . .يا وطن الجهاد — وموضع الادب الخصيب
حتى اذا طــــلع الرشيد — وماج في الافق الرحيب
صهر القرون وصـــاغها — تاجاً لمفرقـك الحبـيب

لم اكن ادري انني وقد تجاوز عمري الثلاثين بسنوات ، أنني لاازال اعيش في احلام الصبا! . . كنت لاازال احلم ان يصهر القرون هارون الرشيد من جديد ويضعها تاجاً على مفرق بغداد الحبيبة! . . .

قدمت الاميرة (فاضلة) ومعها والدتها الى بغداد لكي نراها للمرة الاولى . كان القصر الملكي الجديد لم ينته تماماً اكمال بنائه ، لذلك نزلت الاميرات الضيوف في قصر (الزهور) .

كانت والدة الاميرة (فاضلة) هي الاميرة (هانزادة) وكنت اقرأ عنها وعن اختها الاميرة (نسل شاه) في جرائد مصر الملكية عن جمال الاختين الاخاذ وملابسهن النفيسة التى تزيد من جمالهن ورشاقتهن ومركزهن في مصر! . .

سمعنا ان السيد نوري السعيد رأى الاميرة فاضلة مع امها ، وظن ان الام (هانزادة) هي خطيبة الملك لجمالها ، وانه قال :

- انها جميلة جداً ، ولكنها تبدو اكبر من الملك! . .

لاادرى لم لم ار الاميرة (فاضلة) عندما قدمت الى بغداد وقد احتفلت بها الجمعيات النسائية المختلفة . في حفلة (الاتحاد النسائي) الذي كانت ترأسه السيدة (آسيا توفيق وهبي) ، وكانت والدتي من العضوات في هذا النادي ، ولحسن الحظ اخذوا صوراً للعضوات مع الاميرة وكانت والدتي معهن . وقد تصافحت أمي مع فاضلة ومع امها هانزادة .

قالت والدتي انها لم تر اجمل من هانزادة الام الشابة ، وانها اعجبت بالاميرة العروس لانها شقراء ممشوقة القوام وصغيرة السن وكانت متزنة ومهذبة جداً في تصرفاتها . واضافت والدتي قائلة : انها تشبه نبعة غضة من الريحان!

سافرت الاميرة وامها مع الملك الى الاماكن المقدسة في كربلاء والنجف . وقابلهم الشعب بكل مظاهر الحفاوة والترحاب .

في كلية الطب والمستشفى الملكى ، كنت اسمع نبذاً عن الضباط في الجيش من بعض الاطباء . كان يشتغل معي طبيب شاب تخرج حديثاً وكنت اراه ذكياً نشيطاً يراقب الحالة السياسية في البلد اكثر من اهتمامه بالطب . وكان يملؤه الاعجاب والحب (لجمال عبد الناصر) ، ذلك الساحر الذي سيطر على الناس حبه وتقديسه .

كان الدكتور الشاب قومياً متحمساً وذكر لي ان الضباط في الجيش اصبحوا كلهم ضد الوضع الحكومي القائم . اجبته ان الضباط الكبار كلهم بجانب الحكم الملكي ، ابتسم وقال ان الضباط الاصغر سناً كلهم ضد الملكية ويقدسون ما فعل جمال عبد الناصر في مصر .

ضحكت في داخلي ، ان الضباط الكبار هم الذين يديرون الجيش ، والملك محبوب من الجميع ، والناس كلها رحبت بخطوبته . لم اهتم بالموضوع ، لان قضايا انتقاد الحكومة لاتنتهي خاصة في العراق! . . .

في ذلك الوقت لم اكن قد سمعت بحزب (البعث العربي الاشتراكي) . اخبرني عنه الطبيب الشاب نفسه وقال انه ينتمي اليه ، وقال ان الحزب تكون في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية .

لم اجد في ذلك شيئا يثير الاهتمام الكبير لدي .

وفي احد الايام رأيت شخصا يزور الطبيب الشاب عندنا ويستقبله هذا بملأ الحفاوة وعرفني عليه ، سلمت على الضيف واسمه (فؤاد الركابي) ، وبعد ذهاب الضيف ، اخبرني الدكتور الشاب انه من حزب (البعث العربي الاشتراكي)

نسيت اسم الشخص واسم الحزب بعد ذلك .

كنت اظن ان الناس عندنا يتكلمون عن الاشياء الي تدور في نفوسهم من دون تفكير عميق .

كنت استمع لكلامهم ولكن لااعيره اهتماماً خاصاً إذ سمعت الكثير من امثاله على مر السنوات ، وفى نفسى كنت اكرر قولي دائماً ، ان يحفظ الله العراق من الشقاق والنفاق .

تذكرت الضيف الشاب عندما ذكرني به طبيبنا بعد اسابيع قليلة عند اندلاع ثورة ١٤ تموز لان الشخص اصبح احد الوزراء في وزارة عبد الكريم قاسم . قلت للطبيب الشاب بشيء من الهزل :

ـ اصبحت يا دكتور الآن في مركز كبير . يبدو ان الثورة تميل الى حزب البعث .

كان معنا شخص آخر يشتغل معنا بالمختبر بدرجة موظف صحي ، وكان شخصاً محترماً من الجميع لتصرفاته الرزينة وادبه الجم ويدير المختبر بكل اهتمام وثقة . في بعض الاحيان كان يشترك في الكلام عن الوضع في البلد ، وكان لديه اصدقاء ضباط يعرفهم من ايام المدرسة من اقاربه وجيرانه القدماء .

ذكر لي يوماً ان احد اصدقائه الضباط وكان يدير الدبابات التي دخلت بغداد لضبط احدى المظاهرات ، قال له :

– انه يتمكن من احتلال بغداد بالدبابات بكل سهولة! . .

تعجبت من هذا القول وقلت في نفسي هل اصبحت بغداد تحتاج الى احتلال من قبل جيشها؟

احتلال بغدادا! . . كانت كلمة غريبة لم اسمعها الا في كتب تاريخ ١٩١٧ عندما احتل بغداد الجنرال (مود) ، والناس يسمونها سنة (سقوط بغداد) . .!

كانت كذلك بعض عناصر الشباب تتحدث عن انسحاب القوات البريطانية من منطقة الحبانية في سنة ١٩٥٣ ، وأن ذلك عزز مركز الجيش الذى كان يتخوف من ضربة بريطانية كما فعلت في ثورة الجيش سنة ١٩٤١ ، والان قد اخليت الحبانية من الطيران البريطاني واصبحت مركزاً عسكرياً لطيران الجيش العراقي ، لذلك لم يعودوا يخشونها كالسابق .

بدأت اسمع من الاصدقاء ان نجاح ثورة الجيش المصري ضد الملك فاروق ، والحركات العسكرية في سورية ونجاحها ، والمظاهرات عندنا ودخول الجيش في زمن المظاهرات الى بغداد والاتصالات التى كانت قائمة بين بعض الضباط وعبد الناصر لم تكن بعيدة عن الضباط في جيشنا ، خاصة اثناء العدوان الثلاثى على مصر . ولكن كل ذلك لم يحرك بي الشعور بالخوف من المستقبل ، كان شعوري دائماً هو الاطمئنان الواثق بالعراق ومستقبله الزاهر الرفيع! . . .

واذكر جملة قالها لزوجي احد الضباط الكبار وقد كانا في المدرسة الثانوية معاً:

ـ ماذا يقصدون من ادخال الجيش الى العاصمة بعد المظاهرات ، انهم يفعلون ذلك لحفظ مراكزهم فقط! . . . ان بغداد تغلي بالحقد والكره للنظام الحاكم كله ، وهم يضعون الجيش في الانذار ، ماذا ينتظرون؟ الا يدركون ان الجيش هو جزء من الشعب يتحسس ويشعر كما يشعر الآخرون ، هل يظنون نحن سماسرة وقالها بكلمة عامية (بذيئة) ، هل نتحرك كما تريد الدولة من دون احساس اوشرف؟

بعد ايام قليلة كان لدينا في البيت حفلة عشاء ، والمدعوون كانوا من اصدقائنا العراقيين والاجانب وكنت اقف مع اثنين اوثلاثة من الضيوف ، سمعت الباب يفتح ودخل العقيد الملحق العسكري الامريكي وزوجته ومعه مساعده بدرجة مقدم وزوجته وكانوا من جملة المدعوين . تقدمت نحوهم للسلام واذا بهم يتكلمون بصوت واحد وبعصبية ودهشة وتوجس ، :

– عدنا من منطقة الحبانية لمشاهدة مناورات قرب الحدود الغربية وكان الملك والامير عبد الأله والسيد نوري السعيد ، يشاهدون كتائب مدفعية الميدان وهي

تطلق نيرانها ، وسقطت احدى القنابل على بعد ياردات من الملك والامير...!

اخافني وادهشني القول . سألت عما فعل الملك والامير آنذاك .

قالوا ان الامير عبد الآله كان غاضباً جداً ، وقد غادروا المكان جميعاً بسياراتهم بسرعة . اثار ذلك القلق والكلام الكثير بيننا طيلة ذلك المساء .

هل كان الامر غلطة ، ام انها مقصودة؟

في داخلي كنت اشعر ان ما وقع كان غلطة غير مقصودة . . .الجيش يحب الملك بقوة .

تناقل الناس الحادث خاصة الصحف المصرية واذاعة (احمد سعيد) .

قيل ان التحقيق العسكري لم يسفر عن ادانة احد .

انها رميات خطأ من مدفع مجهول! . .

كان لدينا اقارب ضباط في الجيش ، وكنت لا اراهم كثيراً الا في الاعياد الدينية في بيت والدي لفترة قصيرة ، ونكون مع جماعة من اقارب آخرين مما لايدع المجال للكلام بامور مهمة ، لذلك لم اسألهم عن موضوع المدفع والقنبلة في المنطقة الغربية .

كانت رميات خطأ من مدفع مجهول! . .

في احدى الحفلات الرسمية (لميثاق بغداد) في بهو الامانة حيث كان الرجال يرتدون لباس السموكنك والنساء بملابس السهرة .

شاهدت السيد نوري السعيد ورؤساء الوزارات السابقين والوزراء والمجلس النيابي والهيئات الدبلوماسية ورأيت (اللورد جليكو) وهو عضو في حلف بغداد في تلك الحفلة وكذلك المستر (انطوني نتينك) مدعواً كضيف يزور العراق ، (انطوني نتينك) هو الوزير في وزارة (انطوني ايدن) اثناء الاعتداء الثلاثي على مصر ، وقد احتج على ضرب مصر وقدم استقالته من الوزارة وقبلها رئيس الوزراء حالا ، ولم يعد (انطوني نتينك) الى السياسة منذ ذلك الحين .

كنا زوجي وانا نسلم على الاصدقاء والمعارف وزوجاتهم واذا بصديقنا السيد (سعيد قزاز) وزير الداخلية يقف امامنا وسألني بعد السلام علينا بصوت واطئ وهو يبتسم :

- لقـد زارني والدك في الوزارة وطلب مني ان اسـاعـد اخـاك (خلوق) على السفر خارج العراق لانه يريد ان يكمل دراسة الحقوق في دمشق .

كـان السـفـر الى خـارج العـراق بالنسبة لمن عليـهم الشك بالميول اليسـارية يتطلب موافقة وزير الداخلية .

واضاف وهو يبتسم :

- هل تتكفلين بأن اخاك سوف ينهمك بالدراسة ويترك السياسة الى ان يتخرج على الاقل! . .

اقول الآن بعد كل هذه السنوات ووفاة اخي (خلوق) منذ عدة اعوام بأنني لم اكن اعلم بامور (خلوق) السياسية ابداً ، كنت اعرف انه يساري الميول كمعظم الشباب ، وكنت اظن ان ما يقوله امامي في البيت هو للهزل والسخرية واغاظتي انا ، كما يفعل الاخوة فيما بينهم ، وهو قد سجن بعد (الوثبة) لقيامه بالمظاهرات مع الطلاب ، عندما كان طالباً في كلية الحقوق ، وكنت في لندن آنذاك .

قلت لسعيد بك ، ان ما يقوم به خلوق مجهول بالنسبة لي ويجب ان تسأل والدي لان خلوق يعيش في بيته ويعرف عنه الكثير وليس لي دخل في هذا الموضوع لان خلوق لايستشيرني في شيء مطلقاً .

وكان ذلك هو عين الحقيقة .

اثار ذلك الكلام خلوق عندما سمع به وسألني :

- هل تخليت عني؟ اجبته :

- ليس لدى أي تأثير عليك ، فكيف تريد ، وانا موظفة في الحكومة ان اتكفل بتصرفاتك؟الا يكفيك وضع اسم والدي وهو بسن الشيخوخة ، في قائمة (انصار السلام) وكيف اثار ذلك نوري باشا على حين شاهدني في حفلة وعاتبني على ذلك . لن اكون مسؤلة عن تصرفاتك التي اجهلها جهلاً تاماً! . .

سافر اخي(خلوق) الى دمشق للدراسة ودعوت له في نفسي ان ينسى السياسة ويندمج بالعلم . لم اكن ادري انه كان يشتغل مع العقيد (رفعت الحاج سري) وكان يأتي ويذهب بين سورية والعراق وهو يلبس الملابس العربية كرجل من الصحراء .

في احدى المرات رأيت رجلا بالملابس العربية بالقرب من بيت والدي ولم اعرف انه كان خلوق لأنني لم انظر الى وجهه خاصة وانه اطال شواربه لاول مرة . (عد الثورة كان يتباهى بأنني لم اعرفه بالملابس العربية وكنت اعيد عليه الكلام بانني لم انظر وجهه أصلاً) .

اخبرني أطفالي بزيارة رجل بملابس عربية الى بيت (جدو) وان الرجل يحبهم ويقبلهم .

عاتبت أمي ان تسمح لشخص اعرابي غريب بتقبيل اطفالي . اجابت والدتي ضاحكة :

- ان الرجل هو خال (نعمان) وهو الولد الذى كانت تقوم برعايته في بيتها منذ سنوات .

اصررت عليها ان تمنع تقبيله لاطفالي ، فلم تقل شيئاً سوى ان الرجل نظيف في ملابسه . قالتها وهي تبتسم .

كان ذلك الرجل الاعرابي هو خالهم (خلوق) الذي كنت اظنه يدرس في دمشق! . .

هكذا بقيت علاقتي مع خلوق الى النهاية ، نتجادل بالنكته والسخرية والزعل وكأننا لانزال مراهقين مثل ايامنا في بيت الوالد ، حتى بعد ان اصبح لدينا اولاد كبار . كان لديه القابلية ان يجعلني اضحك من كلامه حتى وانا ساخطة عليه ضحكاً لا استطيع كتمانه ابداً .

والى الآن لاازال استرجع البعض من كلامه واضحك من جديد! . .

سمعت أمي تتكلم مع احدى القريبات وكان لها ابن في السجن بتهمة الشيوعية وسمعت المرأة تقول :

- سوف يخرج من السجن قريباً سباع واسود لم نر مثلهم من قبل وسوف تتغير احوال البلاد .

لم اكن اهتم بهذا الكلام وظننت انه حزن الام على ولدها السجين .

اخواتي كن في بيوتهن مع اولادهن ، اختي الكبرى بتول لها ابنتاها المتزوجتان وولدها زهير يدرس في امريكا . اختي لمعان زوجة الدكتور سالم

الدملوجي وعندها ولدان كبيرهما في سن الرابعة من العمر ، (وعادلة) زوجة السيد (عدنان تحسين علي) وتسكن في بيوت السكك بالكرخ ولها ابنتان الكبيرة في السنة الثانية والصغرى عمرها اشهر قليلة . وامل الشقيقة الصغرى كانت في الكاظمية في بيت السيد محمود الاسترابادي والد زوجهاالسيد (عبد الرسول الاسترابادي) الذي كان في امريكا عندما عادت قبله امل ، ولامل ورسول ابنة واحدة عمرها اقل من سنتين .

الامير زيد

كان الامير زيد يأتي الى بغداد في الصيف ليكون نائباً للملك ، عندما يصطاف الملك والامير عبد الآله في تركيا او في لندن ، ولاتصحب الامير زيد زوجته المصورة الفنانة الاميرة (فخر النساء) لان الحر يؤذيها وهي بدينة ، وتفضل ان ترسم الصور اثناء فصل الصيف في اوروبا .

كان للامير زيد اخت هي الاميرة (سَرة) زوجة السيد (عطا امين) وكانت علاقته بها متينة وكان يزورها او يخابرها تلفونياً كل يوم .

كان الامير زيد يأنس برؤية احسان زوجي اذ كانوا يتكلمون اللغة العربية والتركية ويضحكان على الاشياء ذاتها ويشربان معاً ويأكلان معاً المآكل المتشابهة ، منذ ايامنا في لندن والى الآن .

وقد زارنا الامير زيد في دارنا في بغداد عدة مرات اثناء قيامه بنيابة الملك في سنوات الصيف .

وأذكر في احد الايام طلب منا تناول الغداء في البلاط في احد ايام الجمعة ومعنا (شيرين) ابنتنا وكانت في سن الخامسة من العمر . وقد قدم الامير ليرة ذهبية واحدة الى شيرين ابنتنا وقال انه حصل عليها من اخته (الاميرة سارة) ، وهذه الليرة تعود الى عهد والده الملك (حسين بن علي) ملك الحجاز ، ومكتوب على الليرة (عبده وابن عبده الحسين بن علي ، وتاريخها سنة ، ١٩١٩) اتزال شيرين محتفظه بهذه الليرة العربية الاثرية والتي اصبحت ملكاً للتاريخ! . . .

تناولنا طعام الغداء في البلاط هناك واخذنا بعض الصور الفوتوغرافية .

في بعض الاحيان يخابر الامير زيد شخصياً الى بيتنا ويطلب من (احسان) المجئ الى البلاط ايام الجمعة للغداء معه ، وبعدها يعود احسان الى البيت الينا عصراً . .

اخبرنا سمو الامير زيد عن وجود مطعم (الامباسي) على نهر دجلة على السدة في منطقة المسبح وكنا نرتاده مع اصدقائنا من العراقيين او الاجانب . كان المحل فخم أجميلاً يقارن بالمطاعم اللبنانية من الدرجة الاولى ، وصاحب المطعم (آرتين) وهو شخص ارمني من تركية كان له محل راق في استانبول ، وكان الامير زيد يعرف آرتين منذ ايامه في استانبول .

طلبنا من الامير زيد ان كان باستطاعته تشريف مطعم الامباسي بزيارته معنا للعشاء . وافق الامير واتى بسيارته الى بيتنا ثم ركب في سيارتنا وسرنا الى المسبح تتبعه سيارته . كانت الحديقة مضيئة اضاءة خافتة والمكان هادئاً بموائده العديدة . ما ان جلسنا حتى هرول نحونا (آرتين) وهو صاحب المطعم القصير القامة مرتدياً ملايس السموكنك الصيفية كعادته ، وهو يكاد يعدو وسلم على الامير وكان يعرفه من استانبول وهو لايصدق عينيه . طلب منه الامير ان يجلس معنا لفترة قصيرة وكاد (آرتين) يقع على الارض من الشكر للامير .

كان كلامهم باللغة التركية ، سأله الامير عن محله في اسانبول فاجاب آرتين :

- ياسيدي تركت محلي في استانبول . انا الآن اعيش في العراق منذ سنوات وقد حصلت على الجنسية العراقية . والان اود ان اعيش في هذا البلد واموت فيه . لن اجد مكان اعيش به احسن من هذا البلد الكريم! . . .

قال هذا الكلام من صميم قلبه وكأنه على وشك البكاء .

كانت الموسيقى الهادئة والجو العليل ووجود الامير زيد بدماثته وذكائه وديمقراطيته العربية وبآدابه التركية القديمة يفضي على المكان جواً غريباً عالياً ، جو من الشهامة والنبل الكريم .

في ليلة كان القمر بدراً ، دعا الدكتور نديم الباجةجي الامير (زيد) الى حفلة تضم اصدقاء من العراقيين والاجانب الى بستانه في (الددوية) على ضفاف

دجلة للذهاب الى البستان بواسطة زورق بخاري كبير من منطقة المسبح .

كانت ليلة جميلة من ليالي البدر التام على نهر دجلة استغرقت حوالى الساعة الواحدة للوصول جنوباً الى البستان الذي كان يلتمع بالاضوية على الاشجار ، وقضينا الوقت بالحديث المؤنس وكان عشاؤنا السمك المسقوف .

كان السيد (زيور نشأت) يتكلم مع الامير عن ذكرياته المؤنسة في استانبول حيث درس ، والامير يضحك من تلك الذكريات .

ولا انسى مجيئ الامير زيد لزيارتي في البيت وانا مريضة قبل ان اسافر الى سويسرة في سنة ١٩٥٦ .

واثناء بقائي في الفندق في سويسرة للتداوي ، كانت كارتات التحية وأحياناً بعض المجلات تصلني منه ومن زوجته الاميرة (فخر النساء) بصورة مستمرة .

في صيف ١٩٥٧ قرأ علينا سمو الامير زيد ورقة كتبها له الامير(عبد الأله) تقول بأن اخ الدكتورة سانحة هو (خلوق) وهو شيوعي معروف .

وقد آلمت هذه الورقة الامير زيد وهو يعرفنا منذ سنوات معرفة وطيدة ، لانها بدت وكأنها عتاب من ابن اخيه اليه .

كان الامير زيد يدري عن مودتنا له شخصياً ، وكذلك عن بعدنا عن الشيوعية . وقال بنوع من الغيظ :

- انه لايحتاج ان يساعده أية جماعة لكي يعرف اصدقاءه من اعدائه .

وكم كان على صحة ويقين معنا! . .

بقينا نحافظ على وده واعجابنا به الى النهاية .

قلت له في ذلك الحين بأنني لا اعرف عن اخي خلوق واموره في السياسة ، وقلت له ان الشباب يميل الى الافكار اليسارية بصورة عامة منذ ايام الحرب العالمية الثانية . ثم اضفت عن نفسي بانني كنت ولاازال اقدر المساواة والاهتمام بالعمال والفلاحين جهد طاقتي ، ولكنني اقدر الحرية بكل معانيها دائماً ، ولذلك لم انجذب الى الاتحاد السوفييتي ابداً ، ولا اجد الحياة عندهم كما ارغب ان اعيشها رغم عدم زيارتي الى روسيا ، ولكن ما كنت اقرأه عنها كان ضد ما كنت اريد . كانت ديمقراطيتي التي ارغب فيها هي ديمقراطية الغرب مثل بريطانيا وفرنسا

والولايات المتحدة واتمنى ان نسير على الطريق التي يسيرون عليها .

كان الامير يعلم ذلك طيلة الوقت .

عادت الى ذاكرتي حادثة وقعت في سنة ١٩٥٤ وكنت اشتغل مع استاذ (مفردات الطب) البريطاني الاستاذ (كراهام) الذي كان يعرف اتجاهي الديمقراطي الغربي . سمع الاستاذ (كراهام) من صديق بريطاني يشتغل في السفارة البريطانية يقول بأنني شيوعية حسب قول (بهجت العطية) . ولان الاستاذ كراهام كان واثقاً من بعدي عن الشيوعية قرر ان يخبرني بما سمع .

اهاجتني هذه الحادثة كثيراً! . . كيف انجوا من هذا التلفيق والكذب؟

قررت ان اذهب الى (بهجت العطية) لرؤ يته وهو لايعرفني! . . .كانت ابنته طالبة في كلية الطب .

ضربت التلفون حالا وانا في المستشفى الى السيد بهجت العطية . جاوبني رأساً . اعطيته اسمي وطلبت رؤيته الآن ، فقال بكل ادب :

- تفضلي الآن! . .

كان دائرته في عقد النصارى داخل شارع الرشيد قرب صيدلية (فتو) ، والبناية هي بيت بغدادي قديم . دخلت الى غرفته فصافحني واقفاً وباسماً وطلب لي القهوة وسألني عن والدي واجبته عن ذلك . كان مهذباً في كلامه وفي صوته وفي شكله .

ثم بدأت بالحديث وانا ابتسم قليلاً :

- ابو ليلى ، سوف اتكلم بسرعة لانني مشغولة وانت مشغول . لم تقول عني انني شيوعية؟انت تعرف اخبار الناس كلهم ، هل لديك دلائل علي بأنني انتمي الى أي حزب كان ، من ايام الدراسة والى العهد الحاضر؟

رأيت الحيرة الكبيرة وبعض الشحوب على وجهه فقلت

- هل لديك دلائل ضدي ام ان السبب هو اخي(خلوق)؟ كيف يدافع البرئ عن نفسه اذا اتهم خطأً؟

اجاب بخجل :

- نعم لقد تكلمت مع والدك بشأن خلوق ، وانا اعرف والدك منذ ثلاثين

عاماً ومن اجله لااضايق خلوق كثيراً .

وبدأ يتكلم عن اشياء متشابهه لااذكرها الآن . سألته مرة اخرى ان كان لديه أي دليل ضدي .

عرفت انه خجل من سؤالي واراد ان يتكلم بكلام آخر . ثم قال لي بأنه لايملك ضدي شيئاً ولاداعي ان اقلق من هذا الامر واعتبري الموضوع كأنه لم يحدث .

انصرفت عن مكتبه وهو يزيد من الثناء والشكر لمجيئي .

لاادري مالذي قال السيد بهجت العطية للشخص البريطاني عن زيارتي له ، ولكنني اخبرت الاستاذ كراهام بما حدث .

مالذي دعا شخصاً مثل (بهجت العطية) ان ينشر عني الاحاديث المغلوطة عند الوصي وعند الشخص البريطاني في السفارة وهو الذي اخبر الاستاذ كراهام عن انني كنت شيوعية دون أي دليل؟

يبدو ان الامير عبد الآله عاد من لندن في سنة ١٩٤٧ ، ويظهر ان شخصاً ذكر له ان اخي خلوق امين زكي (شيوعي) وان اخواتي في الكلية كانوا يخرجون بالمظاهرات في الوثبة .

كنا آنذاك في لندن زمن (الوثبة) ولا اظنهم خرجوا الى أي مظاهرات اخرى .

اراني الامير زيد ورقة عبد الآله تقول انهم شيوعيون . اصابني ذلك الالم الشديد وسألت الامير زيد هل يعتقد ذلك؟اجاب انه بعرفنا من سنوات ويعرف افكارنا وميولنا .

قررت ان اخطو خطوة في هذا ال شأن .

لقد لامني نوري باشا في احدى الحفلات عن توقيع والدي اسمه مع انصار السلام بسبب تإثير خلوق والان يرميني الامير عبد الآله بنفس السبب ، وقد اخبر الامير زيد وتحسين قدرى بذلك .

دعانا السيد تحسين قدرى الى العشاء في بيته مع الامير (زيد) والدكتور نديم الباجةجي وزوجته الامريكية (بوني) باعتبار ان الامير زيد يفضل الاجتماعات القليلة لكي يتكلم ويمزح كما يشاء .

رأيت هذا العشاء فرصة ان يدعو السيد تحسين قدري الامير عبد الآله لتناول العشاء معنا ويقول له عن لساني :

(ولا تزر وازرة وزر أخـرى) . قل له اننا مـدعـوون الى بيـتك . واطلب منه ان يشرفنا بحضوره .

في تلك الليلة اخبرني السيد تحسين قدري انه قام بما يلزم واذا جاء الامير عبد الأله فهذا دليل جيد ، لانه مدعو على العشاء عند جماعة آخرين وسيأتي عندنا بعد ذلك العشاء .

في الدعوة الصغيرة هذه في بيت السيد تحسين قدري ،كان الرجال يلبسون ملابس العشاء (سموكنك) البيضاء ، والنساء بالملابس الطويلة . تناولنا العشاء وجلسنا نشرب القهوه ، واذا بالامير عبد الأله يحضر وهو يرتدي ملابس السموكنك الصيفية ، وبدا انيقاً كعادته . صافحنا جميعاً وانحنى على يد عمه الامير زيد وقبلها ، فقبله الامير زيد على جبينه .

بدأ الكلام وكان الامير عبد الآله اكثرنا حديثاً . بدأ يحزرنا عن الحرب العالمية الثانية وهل نتذكر ما حدث في السنة الفلانية من الحرب ومن هو ماكآرثي وكان الامير زيد يذكر الوقائع والاشخاص كلها وقد مر عليها اكثر من عشرة اعوام . اما السيد تحسين قدري فلا اظنه تذكر شيئاً بل كان يضحك ويقول :

- لم تسألوني؟اقرأوا ذلك في الكتب! . .

واتذكر سؤالي للجميع عن اول سورة نزلت في القرآن الكريم فكان الامير عبد الآله هو الوحيد الذي عرفها وهي سورة (اقرأ) .

أظهر الامير عبد الأله اعجابه بملابس احسان السموكنك ، وكانت امريكية جديدة ، واظهر اعجابه بمعلوماتي عن القرآن الكريم فأجبته انني درست الثانوية فرع ادبي وكان علينا ان تقرأ القرآن الكريم ونحفظ يعض سوره وقد حفظنا سورة الحجرات وسورة الاحزاب .

غادر البيت الامير عبد الآله دون ان يفتح موضوع الشيوعية .

التفت الي السيد تحسين قدري بعد خروج ولي العهد وقال :

- يبدو انه اقتنع بذلك وحضر ليراكم .

حجزت للسفر الى لندن خلال العطلة الصيفية للذهاب والرجوع لمدة ستة اسابيع ، وكنت افضل دائماً ان اسافر في وسط تموز واقضي شهر آب كله وارجع في نهايته ، وقد قررت ان يبقى الاطفال ومربيتهم في بيت والدي الى ان اعود ، ويسافر احسان الى لندن لمدة اسبوعين في شهر آب ، ونعود معاً .

خابرت الموظف في شركة (توماس كوك) وكان يعرفني من سفراتي المعتادة بواسطة شركتهم وحجزت ليوم ١٣ تموز وانجزت تحويل الدنانير العراقية الى باونات سترليني واصبح كل شيء جاهزاً للسفر .

دعانا احد اصدقائنا وزوجته قبل سفري بايام الى دعوة كبيرة على زورق بخاري في النهر في ليلة ١٤ تموز ، وكان القمر بدراً . اعتذرت انا لانني ذاهبة الى لندن ولكن (احسان) لبى الدعوة لأنه سيكون موجوداً في بغداد . في ذلك المساء اجتمعنا في نادي العلوية مع يوسف ياغجي وزوجته وزيور نشأت وسوزي زوجته ، والدكتور نديم الباجةجي وكانت زوجته (بوني) قد سافرت الى ايطاليا قبل ايام للاصطياف ومعها ولدها (علي) وعمره اقل من ثلاثة اعوام ، على ان يتبعهم زوجها في الاسبوع الاخير من آب .

حاولت الجماعة اقناعي بالبقاء يومين فقط لكي احضر الحفلة . قلت ان ذلك يجعلني ابقى في شهر الحر الشديد ايام اخرى بدلا من الذهاب الى البلاد الباردة . بدأ احسان يسخر من محبتي الى مدينة لندن وقال :

- هل تجدين في لندن هذه الحفلات الجميلة ايام البدر التام . سوف تكونين في غرفة صغيرة في فندق ، وتحضرين اجتماعاً مع جمعية (مفردات الطب والتداوي) وتأكلين اكل الانكليز المعهود . هيا! . اجّلي سفرك يومين وسافري يوم ١٦ تموز فتأنسين بالحفلة هذه ، ثم سافري بعدذلك الى لندن الممطرة الرمادية اللون! . . .

ابتدأ الضحك من الجميع على لندن وجوها ، الى ان وافقت على البقاء الى يوم الدعوة في الرابع عشر من تموز ، وفي الصباح ابدلت تاريخ سفري من يوم ١٣ تموز الى يوم ١٦ تموز .

وكم حمدت الله على تأخير سفري وبقائي في بغداد الى يوم الثورة! . . .

كنت سأجن حتماً لو تركت بغداد يوم ١٣ تموز وسمعت عن تلك الثورة في لندن بعدها بيوم واحد! . .

في صباح يوم ١٤ تموز اتى الطباخ (منصور) الينا مبكراً كعادته دائماً وطلب من (سعدية) المربية ان تدق الباب على غرفتنا لايقاضنا وهو شيء لم تفعله (سعدية) من قبل . اسرع احسان بلبس البنطلون والقميص وخرج من الغرفة ليعرف السبب لايقاظنا في الصباح الباكر ثم اتى الي ليقول وبيده الراديو الصغير :

- انها ثورة عسكرية .

سمعت الراديو يذيع عن الجمهورية العراقية بصوت عال منكر ، وظننت الامر هي اذاعة من خارج العراق تذيع لارباك الحالة عندنا .

كرر احسان قوله :

- ان راديو بغداد هو الذي يذيع هذه الاخبار! . . .

استمر صراخ الصوت العالي في الراديو يعيد نفسه ويذيع قيام الجمهورية العراقية بقيادة الزعيم الركن (عبد الكريم قاسم) ويدعو الناس للمشاركة بالهجوم على قصر (الرحاب) وقصر نوري السعيد ودكها دكاً .

سألني احسان ان كنت اتذكر اسم (عبد الكريم قاسم) من ايام لندن في الاربعينات ، لم اذكره لمرور عشرة اعوام على ذلك التاريخ ، ولم اسمع عن اسم عبد الكريم قاسم طيلة هذه السنوات ابداً .

ذكرني احسان انه الشخص الذى استعار خمسة باونات من العقيد (حسن مصطفى) لكي يقامر على سباق الكلاب في لندن وكيف ان حسن مصطفى سخر منه وكأنهما طلاب في المدرسة وهم اولاد الصف الواحد بالكلية العسكرية . كذلك انه الشخص الذي لم يدعه السيد (سعيد قزاز) الى مائدة غدائنا في لندن لئن معرفتنا به قليلة جداً .

بشيء من الصعوبة تذكرت ذلك الضابط النحيل ، الطويل القامة ذو الشفة الغريبة تحت شاربه الرفيع .

اتصل بنا تلفونياً الدكتور (نديم الباجةجي) و(يوسف ياغجي) وبيوتهم قريبة الى بيتنا قائلين بأنهم قادمون الينا . وبعد دقائق اتى الينا السيد (عبد القادر رشيد) وهو موظف كبير في شركة النفط العراقية .

امتلأت الغرفة بالناس ونحن لاندري ماذا نفعل .

لم اتمكن من الاتصال تلفونياً مع بيت والدي في الوزيرية في شمال بغداد . لقد قطعوا التلفونات البعيدة واصبحت كل منطقة تكلم البيوت المجاورة لها فقط .

سمعنا من التلفزيون ان الامير عبد الآله قد قتل ، ولم يذكروا شيئاً عن الملك ، ولا عن مقتل نساء العائلة المالكة .

سمعنا ان قصر نوري السعيد هجم عليه الشعب ، وهجموا على السفارة البريطانية ، الى ان وصلت الى السفارة النجدة العسكرية .

سمعنا في التلفزيون ان قائمة كبيرة تحوي كبار ضباط الجيش والطيران قد احيلوا على التقاعد .

كان طباخنا (منصور) يستمع الى ما يجرى في راديو صغير في المطبخ . بدأ يبكي عندما سمع ان اللواء (غازى الداغستانى) احيل على القاعد و(منصور) تربى في بيت (داود بك) أخي غازي الاكبر ، وكان يعرف العائلة كلها منذ طفولته ، وفي بيتهم تعلم الطبخ التركي اللذيذ .

اتى الينا اخي (خلوق) ولم اكن قد رأيته منذ اشهر طويلة ، إذ كنت اظنه يدرس في دمشق ، وكان يلبس ملابس الخاكي العسكرية من دون ان تكون له رتبة على كتفه ، ورأيت ان له شارباً للمرة الاولى ومعه فتى من بيتنا ربته والدتي وهو طفل صغير وكان يسير مع خلوق وكأنه مرافق له . اسم الولد (نعيُّم) بالتصغير ، وقد اسماه خلوق الآن (نعمان) .

وكان اول ما قاله خلوق وقد جلس على اريكة صغيرة في الهول قرب الباب :

– تمت الثورة . خلصنا! . . .

امسكت بشاربه الجديد وقلت له :

– هل اشتغلت معهم في هذه العملية وانت بهذا الشارب؟ لم يجب على سؤالي .

لم يقل ان الحركة كانت عسكرية فقط! .

يبدو ان خلوق كان يلبس الملابس العربية والعقال ويروح ويجيء بالسيارة بين بغداد ودمشق حاملاً معه اسلحة . كان يشتغل مع العقيد رفعت سري .

غادر البيت بسرعة ومعه نعمان .

في المساء عاد خلوق الى بيتنا ، وكنت اظن ان الملك حيّ لاننا لم نسمع عنه في الاخبار ابداً ، سألت لخلوق :

- اخبرني عن الملك؟اين هو الآن؟

واذا بوجه خلوق يرتدي سحنة آسفة حزينة ويقول :

- مات الملك! . . مات مع خاله! . .

- ثم اخبرني عن وفاة وسحل الكثير من الوزراء الكبار ، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً ، لان الغوغاء والرعاع قد قتلوا اجانب وعرباً من بلاد اخرى وسحلوا جثثهم ، باعتبارهم وزراء من العهد الملكي .

وسمعنا ان القتل قد اصاب الكثير من الوزراء العرب وهم لم يكونوا الا وفوداً من يلاد اخرى ومنهم الاردنيون (ابراهيم هاشم وخلوصي الخيري) وغيرهم من خبراء المان واجانب آخرون يزورون العراق للعمل .

في ذلك المساء بكيت الملك وخاله لمدة طويلة . بكيت هذه المأساة الدامية البربرية التي لطخت اسم العراق على مرور الازمان .

اهكذا يفعلون باولاد الشريف الحسين بن علي وفيصل الاول وابن الملك غازي محبوب الشعب ، وهم من اسس العراق الجديد؟

اتعود الى هذه البلاد مأساة الحسين (ع) سبط النبي الكريم (ص) الذي استشهد في كربلاء قبل اكثر من الف سنة؟

الم يسمع الضباط عن كيفية مغادرة الملك (فاروق) لمصر قبل سنوات قليلة ، وكيف ودعه رئيس الجمهورية الجديد (محمد نجيب) الى الباخرة ويصحب فاروق زوجته واولاده وكيف عزف النشيد الوطني المصري اثناء وداعه؟

انها تصرفات متمدنة عصرية! . . هل بات يحكمنا الرعاع والغجر في العراق؟

لم نكن ندري ماذا حل بالنساء من عائلة الملك ، الملكة نفيسة وهي جدة الملك وام الامير عبد الاله ، وخالة الملك الاميرة (عابدية) ، و(هيام) زوجة الامير عبد الأله . كنت اظن ان قتل الرجال لا يشمل معه قتل النساء ولابد وانهن في مكان آمن .

من كان يظن ان النساء البعيدات عن جميع الامور السياسية سيقتلن من قبل ضابط متوحش ، وكنا نسمي الجنود في اناشيدنا المدرسية في الماضي بأن الجندي العراقي هو أبيُ ووطنيُ دائماً .

انحن حقاً خير امة قد اخرجت للناس؟ من سيصدق ذلك بعد الآن . . .

سألت خلوق عن قصائد الشاعر (مهدي الجواهري) الذي اصبح من دعاة الثورة وهو الذي كتب القصيدة التي امتدح بها الملك فيصل الثاني قي عيد ميلاده قبل اشهر قائلاً :

ته ياربيع بزهرك العطر الندي بصنوك الزاهي ربيع المولد

وهو الذي قال في الامير عبد الآله :

عبد الأله وليس عاباً ان أرى عظم المقام مطولا فاطيلا

يا ابن الذين تنزلت ببيوتهم سوُر الكتاب ورتلت ترتيلا

شدت عروقك من كرائم هاشم بيض نمين خديجة وبتولا

واذا بخلوق يغضب من قولي هذا والح علي ان لااذكر هذا القول امام أي من الناس لان الوضع هو ثورة كاسحة تشمل العراق كله وليس هناك من يدعي عكس ذلك .

في اليوم التالي وانا شبه مريضة بسبب المأساة الدامية ، سمعنا على التلفزيون ان السيد نوري السعيد قد هرب من داره واختفى ، وهناك جائزة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يعثر عليه .

فرحنا بنجاة شخص كبير واحد من هذه العاصفة الهوجاء .

بعد ساعات سمعنا على التلفزيون ان نوري السعيد قد قتل في شارع في منطقة البتاويين من قبل العقيد (وصفي طاهر) مرافقه السابق . ثم سمعنا عن سحل جثته في شوارع بغداد . وقد قتلت معه سيدة كبيرة من عائلة معروفة كانت

تساعده على الهروب وهي السيدة (بيبية الاسترابادي) والدة السيد عبد (الرسول الاسترابادي) زوج أختي الصغرى (أمل) .

ذهبت في اليوم الثالث للثورة الى بيت والدي في الوزيرية .

رأيت اختي (امل) ومعها طفلتها زينب وعمرها سنتان وقد تركت بيت زوجها في الكاظمية وأتت وطفلتها الى بيت والدي في الوزيرية ، اخبرتنا عما رأت قي بيت اهل زوجها الحاج محمود الاسترابادي وهي تهمس لي والى (لمعان) و(عادلة) كيف انها سمعت صوت نوري السعيد يتكلم في سرداب بيت الاستربادي قبل أن يفر من البيت بمساعدة السيدة بيبية الاسترابادي .

أخبرتنا اختي (أمل) بأنها لم تجرأ على النزول الى السرداب لتراه لانها كانت خائفة جداً بسبب ابنتها الصغيرة ، ولكنها سمعت بعض الكلام من السرداب . سمعت والد زوجها الحاج محمود الاسترابادي يقول له :

ـ يا باشا! لم عينتم الامير عبد الآله وصياً على فيصل . الا تدري بأن الناس كانت تشك به في قضية موت الملك غازي؟ .

فاجابه نوري السعيد ، بأنه اقسم على وصاية عبد الأله لان اخته الملكة (عالية) واخت الملك غازي الاميرة (راجحة) أقسمتا ان ذلك هو ما اراده الملك غازي اثناء حياته .

وبعد ذلك تساءل : أين (وصفي)؟

ووصفي هو (وصفي طاهر) المرافق له منذ فترة طويلة .

كان نوري السعيد يتوقع ان يصل اليه (وصفي) لمساعدته! . .

اسرعت امل وطفلتها معها الى بيت والدي ، وبذلك نجت من القبض عليها عندما قدم الجنود الى بيت الاسترابادي والقوا القبض على الاب الحاج محمود واولاده الثلاثة ، عبد الامير والدكتور طالب ومظفر الاسترابادي ، وكان ابنه المهندس عبد الرسول الاسترابادي زوج اختي أمل ، في اميركا .

لقد سمعت الكثير عن السيدة (بيبية) زوجة الحاج محمود الاسترابادي ودورها المشرف في هذه الثورة . انها السيدة التي حاولت مساعدة السيد نوري السعيد على الهرب من دارهم وقد قتلت من قبل المرافق وصفي طاهر عندما اطلق

النار على السيد نوري السعيد في احد الشوارع في الباب الشرقي . قيل ان نوري السعيد اطلق الرصاص على نفسه قبل ان يطلق عليه النار مرافقه وصفي طاهر وهوالذي كان نوري السعيد ينتظره بفارغ الصبر في بيت الاسترابادي لكي يساعده على الهروب .

سمعت عن السيدة (بيبية) انها تعادل الملايين من العراقيين الذين لم يجرأوا جرأتها ولم يكن لهم هدوئها في تنظيم الهرب في تلك الايام الفظيعة .

قال والدي امامنا :

- هذه السيدة يجب ان يقام لها تمثال في المستقبل! . . .

في اليوم الثاني حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً دخل علينا الدكتور (نديم الباجةجي) بعد ان زار بيت والدته التي تسكن قرب بيتنا . ما ان جلس حتى سمعنا جرس الباب ، فتح الباب احسان فسألوا ان كان نديم الباجةجي عندنا ، لأن طباخ الدكتور نديم اخبر الضابط ان نديم يزورنا في بيتنا حسب طلب الدكتور نديم منه .

نهض الدكتور نديم وقال انا نديم! .

قال له الضابط :

- امشي معنا! . . . بصوت رسمي جامد . لم يكن الضابط مؤدباً ولا فضاً .

كانت لدينا غرفة صغيرة قرب الباب فيها محل لغسل اليد ومرحاض . طلب الدكتور نديم الدخول اليها ووافق الضابط . دخل نديم الحمام الصغير واغلق الباب .

واذا بي ارى الجندى يخرج مسدسه بسرعة ويقف مسمراً وكأنه سوف يطلق النار . خفت ان يحصل ضرب رصاص وقتل في بيتنا فقلت :

- سمح له الضابط باستعمال الحمام لماذا تشهر مسدسك؟

سمعت الضابط يصرخ به :

- ارجع المسدس الى محله! . . .

لم اكن ادري ان الشخص الذي يلقى عليه القبض ويدخل خلف باب مسدود ، يتحضر له الجندي بالمسدس لان الشخص قد يخرج اليه وبيده سلاح! . .

ادرك الضابط بأنني لم افهم حركة الجندي وسلاحه ولذلك منعه من اشهار مسدسه امامنا .

قلت للضابط وهو يخرج من البيت ومعه الدكتور نديم :

– يقال ان الناس يعتدون على المتهمين في الشوارع .

اجاب الضابط بغرور :

– انا! . . والجنود معي! . . من الذي يعتدي؟

غادر الدكتور نديم البيت خلال دقائق معدودة ولم ندر الى اين اخذوه .

ذهبنا احسان وانا بعد الظهر من ذلك اليوم الى بيت والدة نديم الحاجة (سليمة الباجةجي) لكي نخبرها بما حصل . وكانت رغم شيخوختها وصغر حجمها ، مثالا كبيراً على الصبر والتحمل وكانت تعرف ما يدور في البلد بدقة واهتمام .

طلبوا من جميع الموظفين العودة الى اشغالهم . لم يكن لدي اشغال بل كنت في العطلة الصيفية ، ولكنهم حرموا السفر الى الخارج على الناس جميعاً ، ما عدا بعض افراد من الثورة .

داوم احسان في دائرته وبعد يومين وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ، كنت ارتاح بعد الاكل كما نصحني الطبيب السويسري ، واذا احسان يدخل الغرفة ويقول :

– اتى الجنود ليأخذونني .و سوف أخذ معي البيجاما وشفرة الحلاقة .

نهضت بسرعة الى باب البيت ورأيت البيت مطوقاً بالجنود من جميع اطرافه .

خرج احمد ابني الصغير ورائى وبدأ يلعب بمسدس الجندي الواقف قرب الباب الخارجي ، ضحك الجندي وشرح له كيف يصوب المسدس .

سألت احد الجنود :

– اين الضابط؟

كان الضابط خارج باب الحديقة وقد اتى الي مسرعاً . قلت له :

– مساء الخير ، تفضل بالدخول اود ان اسألك بعض الأسئلة .

قال الضابط بنبرة ادب :

ـ دكتورة ، انني جئت لانني اعرف الاستاذ احسان ولم اود ان يأتي احد غيري ليأخذه الى وزارة الدفاع .

صافحه احسان . جلس الضابط على الكرسى وقدمت له (سعدية) المربية عصيراً . وطلبت منها ان تقدم العصير لكل الجنود في الخارج .

قال الضابط :

- ان احسان سيواجه احد الضباط في الدفاع من اجل قضية بسيطة يعود بعدها الى البيت مباشرة .

كنت اعلم ماهو القصد من (قضية بسيطة) . هكذا اخذوا جميع المعتقلين الى السجن .

قال احسان لي :

- إذن لاضرورة لحمل البيجاما وادوات الحلاقة معه . قلت له :

- خذها معك! . . هكذا يأخذون كل المتّهمين .

التفت الي الضابط مستغرباً من اقوالي .

قلت للضابط :

- انني اصدق ما تقوله لنا ، ولكن اعلم انهم يأخذونه الى وزارة الدفاع . ان احسان في بيته وهو يداوم في الدائرة ، ويحضر متى شاءوا له الحضور ، فلماذا يرسلون الجنود والسيارات ليطوقوا بيته لكي يحضر؟

نهض الضابط بعد كلامي الى التلفون واتصل بوزارة الدفاع وطلب الضابط المعين . يبدو ان الضابط الكبير ذهب الى البيت واخذ محله ضابطاً آخر ، ولم يكن الضابط الثاني يدري ما طلب الضابط الذى كان قبله .

اعاد عليه ضابطنا في البيت ما قلت له ، وقال ان السيد احسان في البيت وهو يداوم في مكتبه يومياً . هل تريده اليوم؟ يبدو ان الضابط الآخر لم يدر ما يقول ، فأجاب اذا كان في بيته اتركه الآن وسوف نستدعيه عند الحاجة .

رجع الضابط الى الغرفة وقال باحترام :

- احسان بك ما يريدونك اليوم! . . .

قبل وجه احسان وقبله احسان أيضاً . بعد ان عرفت انتهاء الامر بخير وانهم لن يأخذوا احسان ، جلست على الكرسي وسالت الدموع من عيني دون ان ادري ، انها دموع الانتهاء من الغمة والخوف .

ذهب الجنود وضابطهم وبقى احسان في البيت .

كان امام بيتنا بيت السيد (عزالدين الملا) نائب لواء اربيل ، وكان قد اعتقل قبل يوم بعد ان قال لهم الضابط انه سيعود بعد نصف ساعة ، وانتهى بالسجن مع الآخرين . كانت زوجة السيد (عزالدين الملا) تراقب ما حدث مع الجنود من نافذة بيتهم وهي خائفة .

اتت الى بيتنا بعد مغادرة الجنود ، ورأت علامات البكاء على وجهي . ضحكت وقالت :

ـ رأيت الجنود تحيط البيت كله وكنت خائفة وانتظر ان يخرج (احسان) معهم ، واذا بي ارى زجاجات العصير تدور على الجنود والضابط يدخل البيت بكل ادب ، واحمد ابنك يلعب مع الجندي . بعدذلك رجع الجنود وضابطهم وبقي احسان في بيته . وانت تبكين الآن! . . افرحي وابسمي ، ولسوف اشرب الشاي عندكم احتفالاً بذلك! . .

كان علي ان ابتسم وافرح لان زوجي بقي في بيته ولم يعتقل! . .

كانت لمعان اختي اكثر الناس اهتماماً بنا . وكانت تأتي يومياً لزيارتنا .

بعد ايام قليلة احيل احسان على التقاعد .

بقي احسان في البيت وهو راض جداً للابتعاد عن جو الوظيفة الخانق الجديد .

ذهبت لرؤية والدي . كان الوالد في اواخر ايامه . في الخامسة والسبعين من عمره وكنا نرى تلك السن كبيرة جداً . كانت والدتي وهي في سن الخامسة والخمسين ، تشاهد التلفزيون وتقرأ الجرائد بومياً ، وتتفق مع خلوق ولدها الاكبر في كل شيء .

اما انا فقد شعرت وكأن خيمة كبيرة كانت تغطينا نحن العراقيين وتمنع عنا الشر قد زالت من فوق رؤوسنا وتركتنا في العراء تحت رحمة المطر والزوابع .

مـالذي سـيـحـدث بنا في العـراق مع هذه الجـمـاعـة العـسكرية الطاغية؟ . .كنت اشعر انني نصف مريضة طيلة الوقت .

والدي نصحني ان لااحزن واتألم كثيراً مما حدث بسبب مرضي قبل سنتبن وقال :

- من يدري عن الثورات ونتائجها؟ قد تؤدي الثورة الى اشياء جيدة انشاالله .

استفزني هذا الكلام وقلت :

- ان من يسحل جثث الاموات في الشوارع لايجيد ادارة دولة بل يجب ان يكون مكانه السجن امام الله وامام القانون .

خاف والدي من كلامي وتعصبي بسبب مرضي وطلب مني ان اسافر بعيداً لكونه يخاف ان اتفوه بما يمس الحكومة الجديدة .

منعت الثورة السفر الى الخارج عن جميع الناس .

كذلك استفزني ابن خالتي (صلاح الدين النفطجي) من كركوك عندما اتى الى بغداد مع جماعة (التركمان) ليعلنوا ولاءهم للثورة ويطالبوا(بحقوقهم! . .) التي لاادري من امسكها عنهم في الماضي ، إذ كان اخوه الاكبر (ابراهيم النفطجي) نائباً عن كركوك قبل الثورة .

قال صلاح الدين الي : لا تحزني يا سانحة ، من يدري؟ قد تكون الثورة فاتحة خير للبلاد انشاءالله! . .

قلت له بحدة وغضب :

- ماذا تعني كلمة انشالله! . .ثورة تسحل الاحياء والاموات في الشوارع وتكون فاتحة خير؟ ماذا حدث بعقلكم يا جماعة؟

لم نكن ندري ان الذكرى الاولى للثورة ستكون مصحوبة بمجزرة كركوك وان اخ صلاح الدين الآخر (قاسم النفطجي) مات بعد أن سحل حياً هو وابن عمه (علي النفطجي) في تلك الحوادث الدامية .

اصبح البلد وكأنه تحت امر جمال عبد الناصر واحمد سعيد مذيع القاهرة ، واذا قيل لهم من اذاعة مصر ان الثورة هي قومية ومفيدة وضرورية للعراق ، فمن يتمكن من قول عكس ذلك .

اصبحت اكره سماع الاناشيد المصرية من الاذاعة مثل (الله اكبر فوق جيش المعتدي) و(امجاد ياعرب امجاد) وكأنها اناشيد لعصابة تقتل وتسحل الناس ثم ترفع اسم الله عالياً بين الناس البسطاء .

اصبح السفر الى الخارج ممنوعاً على الناس ، ولكننا كنا نسمع عن رجال الاحزاب مثل الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال والماركسيين والكثير من الوزراء الجدد خاصة (عبد السلام عارف) نقرأ عنهم غادين رائحين الى عاصمتي الجمهورية العربية المتحدة الاقليم الجنوبي وعاصمته القاهرة والاقليم الشمالي وعاصمته دمشق يستوحون من عبد الناصر الوحي والالهام ، والعراق على وشك ان يصبح (الاقليم الشرقي) وعاصمته بغداد قريباً .

اهتم خلوق بقضية سفري الى الخارج دون ان اطلب ذلك منه ، واخذ جواز سفري الى صديقه العقيد (رفعت الحاج سري) في وزارة الدفاع وعاد به الي جاهزاً للسفر وهو يقول :

- باستطاعتك السفر الآن . واحذري ان لاتطعني بالثورة في الخارج! . . . اجبته :

- كيف اطعن بالثورة وسوف اعود الى بغداد بعد اسابيع؟

حولت الدنانير من صديقنا السيد (صالح كبة) مدير بنك الرافدين .

في يوم السفر شاهدت في المطار شخصاً اسود اللون ذا شعر اشعث قصير يسألني عن الاغراض التي اضعها في حقيبة السفر بلهجه مصرية . وكان معه ضابط عراقي عرفني وسلم علي ودون ان يفتشني قال :

- مع السلامة يا دكتورة! . .

وصلت الى لندن في يوم الأحد في منتصف شهر آب ، وكان النهار مشمساً دافئاً . ركبت باص المطار للنزول الى منطقة فكتوريا في لندن لكي احجز غرفة في احد الفنادق . لم تكن لندن قبل اربعة واربعين عاماً بهذه الدرجة من الازدحام .

في الطريق من المطار الى لندن ، رأيت الناس في مرح ولعب ولهو كما يحدث في ايام الشمس في صيف لندن . شاهدت على جانبي الطريق شباباً يلعبون كرة القدم في ساحات كبيرة وآخرين يلعبون (الكركيت) وشباب بملابس

صيفية على الدراجات الهوائية وفتيان وفتيات يتمشون في نواحي عديدة بين الاشجار والبيوت ، ومن دون شعوري انهمرت الدموع من عيني دماً لاينقطع ، ماذا جرى ببلادنا؟

اينعم الناس بما تعطيه الطبيعة من محاسن ومباهج بينما يقبع ابناء بلدنا في قواقع مخيفة في حكومة عسكرية قتلت اعضاء الحكومة السابقة واصبحت تعيش تحت البيان رقم (واحد) والبيان رقم (اثنين) وتسمع الاناشيد المصرية الدينية الكاذبة التي تهدد جيش المعتدي وتدعي الامجاد والسيادة للعرب ، وقد قتلت ملكاً رفع راية الاستسلام البيضاء للسفر هو وخاله وزوجة الخال وجدته العجوز وخالته؟

ثم تقتل سياسياً كبيراً السن بذل سنواته كلها لخدمة العراق ، ولا تمنح هؤلاء الاموات حتى الرقاد في قبر معروف بل تذبحهم كما تذبح الخراف؟

هل سأستبدل حبي واخلاصي للعرش ، الى اشخاص اقسموا الاخلاص للعرش بقواتهم المسلحة ثم خانوا كل ذلك واصبح (حاميها حراميها) .

لايزال الامر يملؤني مرارة كلما ذكرته الى الآن وبعد مرور اكثر من اربعين سنة .

حصلت على فندق صغير في شارع جانبي من اكسفورد ستريت مواز الى بوند ستريت .

خابرت صديقتي (سلوى الحصرى) التي كنت اعلم انها في لندن ، اتت مسرعة نحوي وجلسنا في غرفة الاستقبال تسألني كيف تمكنت من الخروج . تكلمنا طويلاً واظهرت مشاعري الحزينة امامها .

اتصلت بسلوى الحصرى وكنا نسميها سلوى العسكري بعد ان تزوجت من السيد (نزار جعغر العسكرى) . لقد كانت على علاقة وثيقة مع الاميرة المرحومة (عابدية) شقيقة الامير عبد الآله والتي تولت العناية بالملك فيصل بعد ان توفت الملكة عالية ، وكانت سلوى تزور الاميرة عابدية في اغلب الاحوال وسمت سلوى ابنتها الثانية (عابدية) على اسم الاميرة ، ولكنها اصبحت مقربة جداً من القوميين ويعدهم البعثيين بسبب والدها السيد ساطع الحصري .

كانت سلوى تدري ان والدها السيد (ساطع الحصري) هو الآن بجانب الثورة لأن الحكومة العراقية انتزعت عنه الجنسية العراقية في سنة ١٩٤١ بعد حركة رشيد عالي وجعلته يترك العراق .

وقد اعيدت الجنسية العراقية للأستاذ (ساطع الحصري) مع حقوق التقاعدية المتراكمة في عهد وزارة فاضل الجمالي عام ١٩٥٣ـ١٩٤٥ .

كان ساطع بك يعيش في مصر وألف الكثير من الكتب عن القومية العربية .

يبدو ان سلوى اخبرت من تعرف من العراقيين عن وجودي في هذا الفندق قبل وصولها الي ، وخلال فترة قصيرة وسلوى جالسة معي ، اتى السيد (عطا امين) والسيد (ضياء جعفر) وغيرهم من العراقيين وابتدؤا معي بالاسئلة عن فلان وفلان وانا اخبرهم عما اعرف وانا لاعرف الا القليل .

سألني السيد (ضياء جعفر) عن خاله الحاج (محمود الاسترابادي) وهل هو حي اوميت ، فقلت له ان الحاج محمود واولاده الثلاثة (عبد الامير والدكتور طالب ومظفر) كلهم في السجن .

وكان السيد ضياء يدري ان بيت الحاج محمود الاسترابادي هو آخر بيت لجأ اليه السيد نوري السعيد رئيس وزراء الاتحاد الهاشمي بين العراق والاردن . وكان عمرالسيد نوري السعيد ينوف على السبعين عاماً .

اخبرت السيد ضياء جعفر عن اختي (امل) وكانت تسكن مع ابنتها الصغيرة زينب في بيت الحاج محمود الاسترابادي والد زوجها وزوجته السيدة (ببية) ومعهم اولاد الحاج محمود الثلاثة عبد الامير والدكتور طالب ومظفر الولد الاصغر وكان يزور اهله في العراق عندما اعلنت الثورة .

خافت (امل) على ابنتها الصغيرة ذات السنتين عندما سمعت ان نوري باشا كان عندهم ، وضعت ابنتها في سيارتها وانطلقت من منطقة (الكاظمية) الى بيت والدي في منطقة (الوزيرية) ولم تذكر لاحد ما سمعت في السرداب سوى اخواتها سراً . وامل لاتدري كيف دخل الباشا الى بيتهم . .

لم اعلم ان كان السيد ضياء جعفر قد سمع عما حدث في بيت خاله ام لا ، لانه كان يقول القليل والقليل جداً وكانت صورته حزينة وبائسة .

قبل ان يذهب السيد (عطا امين) سألته عن الامير(زيد) . اجاب ان زوجته الاميرة (فخر النساء) كانت في جزيرة (اسكيا) الايطالية في بيتها الجديد وهو لايدري اين الامير زيد . كنت اعلم انه يدري اين هو صهره الامير زيد ولكنه لا يود اعطاء ذلك العنوان الى احد . رجوته ان شاهد الامير زيد ، ان يخبره عن مكاني .

ذهب الزوار وصعدت الى غرفتي . بعد دقائق اخبرني عامل التلفون هناك شخص في الصالون يطلب رؤيتي . اخبرته انني آتية حالاً . نزلت الى الصالون واذا الامير زيد واقفاً في الصالون .

شعرت نفس شعور الالم الذي اصابني في التاكسي من المطار الى لندن . انهمرت الدموع من عيوني ولم اتمكن من ان اخطو خطوة واحدة . بقي الامير ينظر الي ويقول :

- لاتبكي يا ابنتي لاتبكي ! . .

تمالكت نفسي وصافحت الامير ، وجلسنا على احدى الارائك . . .كان الامير مثل الاخرين في لندن يعلم كل ما جرى ولكنه بدآ يسألني :

- هل قتلوا الملكة نفيسة أيضاً؟ وعابدية؟ واولاد صغار أيضاً؟

جلس جلسة طويلة ثم نهض قائلا انه سيسافر الى بيته الجديد في جزيرة (اسكيا) الجزيرة الايطالية الصغيرة حيث زوجته (فخر النساء) وابنه الوحيد الامير (رعد) وهو شاب في سن ابن عمه الملك فيصل الثاني . يبدو ان شراء هذا البيت انقذ حياته لانه طلب من الملك ان يأذن له بالذهاب اليها في هذا الصيف ووافق الامير عبد الآله على البقاء في بغداد في الصيف كنائب عن الملك .

اتصلت باستاذي القديم (ستيسى) وقد اصبح استاذاً لمفردات الطب في كلية الطب في مستشفى (سانت توماس) وهو يقابل البرلمان على الجهة الثانية من النهر . وزوجته كانت استاذة في كلية طب مستشفى (مدلسكس) قرب توتنهام كورت رود في لندن .

دعانى للعشاء في بيتهم ورأيت معهم ابنته (جيلين) من زوجته الاولى ، التى تربت في بغداد وكنت اعرفها طفلة هناك ، اصبحت الآن في الثالثة والعشرين من

عمرها ، ورأيت ابنه من زوجته الثانية (هلين) وعمر الولد ثلاث سنوات فقط .

ابتسمت جيلين لي وقالت :

- لو كنت تزوجت قبل ثلاث سنوات لكان ابني بعمر اخي الصغير! . . .

- سأل الاستاذ (ستيسي) عن بغداد وعن الاطباء هناك وكان يعرفهم وأحداً واحد ، اما كزملاء له في كلية الطب واما كطلاب اثناء دراستهم في الكلية .

رأيته شديد الاسف لما حل بالعراق . كان يحب الكلية وايامه في بغداد التي استمرت اثنتي عشرة سنة وقد اصبح الدكتور ستيسي طبيباً للملك فيصل الثاني بعد مغادرة الدكتور سندرسن لبغداد .

كنت ارغب ان يكتب الناس عن بغداد والعراق والايام السعيدة الماضية لذلك سألت ستيسي لم لايكتب مذكراته عن بغداد؟

اجاب انه ينوي ان يفعل ذلك اثناء زمن التقاعد لانه الآن مشغول من الصباح الى المساء وينام في وقت مبكر بسبب التعب .

كان ستيسي في سن الثالثة والخمسين من عمره الآن ويشتغل بنشاط عجيب .

+لسوء الحظ توفى الدكتور ستيسي وهو لايزال يشتغل وينشر في المجلات الطبية بعد تقاعده في كلية الطب واصبح يعمل في شركة ادوية طبية الى سنة ١٩٧٤ اذ اصابه السرطان وخسرنا شخصاً مهماً يحب العراق ويساعد الاطباء القادمين حديثاً الى بريطانيا ، وخسرنا مذكراته وتاريخه في العراق . مات من العمر في التاسعة والستين .

سمعت وانا قي لندن ان محكمة عسكرية تشكلت في بغداد واخذت تحاكم رجال العهد الملكي وقيل ان رئيس المحكمة شخص مضحك في شكله وكلامه .

كنت اقول مع نفسي برارة :

- من الذي يحاكم من؟

في نهاية شهر ايلول صار علي ان اعود الى بغداد وفي داخلي شعور وكأنني اعود الى محل غريب لااعرفه . اخبرت احسان عن موعد رجوعي . حضر احسان

لاستقبالي في مطار بغداد بمفرده من دون الاطفال او الأهل .

في الطريق اخبرني بأن والدي مريض في الفراش ، ويقوم بمعالجته الدكتور (سالم) ، وانه يستنشق الاوكسجين بواسطة قناع خاص ، والافضل ان نذهب الى بيت والدك الآن قبل الذهاب الى بيتنا .

اتجهنا نحو الوزيرية الى بيت والدي ورأيت والدتي واخواتي واخواني كلهم ما عدا (امل) التي سافرت الى امريكا ، كلهم في البيت حوله .

أخذتني أمي الى غرفة الوالد وكان نائماً في الفراش وعلى وجهه قناع صغير مرتبط بأنبوب للاوكسيجين .

همست أمي في اذن ابي بأن (سانحة) عادت من لندن وهي هنا لرؤيتك .

واذا بأبي يقعد في فراشه بسرعة ووجهه محمر من تأثير الاوكسجين وقال لي بحماس باسماً :

- الحجيّة تقول لي دائماً ، اهتم بأبنتك سانحة! . . .

وكانت هذه آخر عبارة قالها ، لانه ارتد مضطجعاً على ظهره ولم يفه بكلمة بعدها . والحجية او (الحاجة) هي زوجة خاله (بهية خان) ام صبيح نجيب وكان يحترمها كثيراً اثناء حياتها ، ولكنه قد عاد الآن بذاكرته الى الوراء لان الحاجة توفيت قبل ثمانية عشر عاماً! . . .

قررنا ان ندعه ينام لكي يستمد القوة للكلام غداً . غادرنا الى بيتنا .

كان فرح الاطفال كبيراً برؤيتي . لم نخبرهم عن مرض (جدو) . اعطيتهم بعض الهدايا لهم وللمربية .

في صباح اليوم التالي اسرعنا الى بيت والدي لان الوالد قد قضى في الصباح الباكر .

في المدخل رأيت عمي (محمد صالح زكي) هناك وكان عمره قد جاوز السبعين واقفاً قرب الباب . انفجر بالبكاء حالما رآني ، ولم اره يبكي من قبل .

كانت أمي تندب زوجاً عاشت معه اربعين عاماً واطرافها اخواتي وازواجهن واخوتي .

كان اخي خلوق يدير مايجري ومعه ابن عمتي (سعدون محمود رامز) الذي

دعا رجال الدين الذين يقومون بغسل الميت وتكفينه .

رأيت ضابطاً في الحديقة بملابسه العسكرية فقلت لخلوق همساً :

- ماذا يفعل هذا الضابط هنا؟

كنت اظن وجود الضابط بيننا هو دليل على الخوف والحذر . اجاب خلوق ان الضابط من اصدقائه هو (لطفي طاهر) جاء ليساعده .

قلت في نفسي أنه الاخ الاكبر للعقيد (وصفي طاهر) ، مرافق السيد نوري السعيد والذي اطلق النار على السيد السعيد والسيدة بيبية زوجة اليد الحاج محمود الاسترابادي في ايام الثورة الاولى ! . .

رأيت نخبة بسيطة من جيل الوالد واصدقائه اذكر منهم فقط الآن ، السيد عبد العزيز القصاب والسيد محمود رامز واولاده جميعاً والسيد احمد آغا كركوكلي زاده وحسين الرحال ومحمد الرحال واولاد عمي جميعاً وجماعات صغيرة لا اعرفها .

بعد فترة قصيرة رأيت الشارع من النافذة الامامية وشاهدت فرقة موسيقية للجنود ومعهم الطبول المكللة بالسواد والآلات الموسيقية العسكرية وسيارة عسكرية مفتوحة لحمل الجنازة .

بعد الانتهاء من مراسيم الغسل والكفن وضعوا والدي العزيزفي تابوت ورفعوه الى السيارة ووضعوا العلم العراقي فوق التابوت وجلس مع سيارة التابوت اخواني خلوق ومأمون وبدأ الجنود يمشون مع ضربات الطبول الحزينة واصوات الصنوج المعدنية .

ان الضابط (لطفي طاهر) اخو (وصفي طاهر) هو الذي رتب تشييع والدي العسكري تشييعاً عسكرياً مهيباً .

كان الدفن في مقبرة الامام أبي حنيفة في الاعظمية .

في تلك الايام الحزينة كان ذلك فضلاً كبيراً استحق الامتنان والشكر للتشييع العسكري للوالد الحبيب ، خاصة عندما كانت جثث الناس تسحل في الشوارع قبل اسابيع قليلة ولكنني كنت اتلوى غضباًوعاراً لجثث الشهداء الكرام التي سحلت في الطريق قبل شهرين فقط .

لم اذكر ذلك لاحد في ذلك الوقت ، ولكني لاازال اشعر بالخزي والعار لاعمال همجية لااظنها تنسى على مدى الدهور .

هذه الطبول الحزينة والمشية البطيئة للجنود جعلتني اشعر انني اودع ليس فقط والدي وانما اودع تاريخي كله . اودع مملكة مزدهرة قامت بعد ماض مظلم منذ ايام هولاكو والى ايام الدولة العثمانية ، ماض ظننت بانه مضى ولن يعود ، ولكنه عاد ، ووقف امامي كتاريخ منكر غريب لا اريد ان اعرفه .

هل نستطيع ان نبدل التاريخ؟ . . .

ملف الصور





السيد أمين زكي (١٨٨٤ ـ ١٩٥٨)



سانحة أمين زكي ١٩٤٤
بمناسبة تخرجها من كلية الطب ـ بغداد



لمعان أمين زكي بمناسبة تخرجها من كلية طب بغداد
سنة ١٩٤٦



عادلة أمين زكي ـ خريجة كلية المعلمين
فرع اللغة الانكليزية



أمل أمين زكي
(دكتوراه في الأدب الانكليزي ـ جامعة اريزونا) ١٩٧٨



بتول أمين زكي
زوجة صبيح نجيب العزي سنة ١٩٢٧



بثينة صبيح نجيب العزي ـ ابنة أختي الكبرى بتول ـ مديرة اعدادية التجارة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٧)

سهيلة صبيح نجيب العزي ابنة اختي
الكبرى بتول (ابنتها الثانية)





أديبة صالح زكي خريجة كلية المعلمين
بغداد (١٩٤٧/٢/٢٧)



نبيلة صالح زكي تخرجت من كلية الصيدلة
بغداد (١٩٥٥)



ميادة حسن فهمي المدفعي.. الصورة أخذت في واشنطن سنة ١٩٦٠ عند أحد أشهر المصورين في المدينة وعمرها آنذاك ٢٣ سنة



شيرين (ابنة سانحة) اثناء التخرج من كلية الطب بغداد (١٩٧٤)



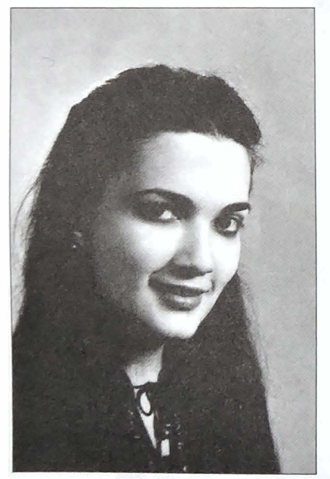
ميسون سالم الدملوجي (ابنة أختي لمعان) تخرجت من Architectoral Association في لندن



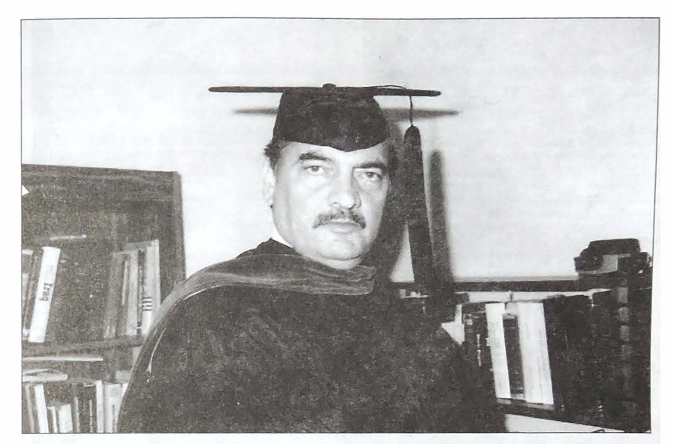
زينب الاسترابادي (ابنة أختي أمل)
١٩٨٤/٥/٦



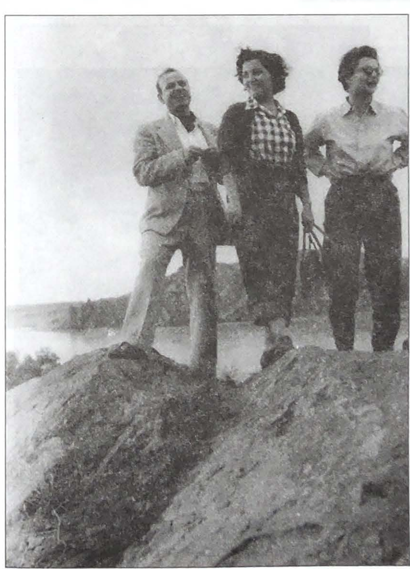
سانحة أمين زكي أيام الخطوبة (بغداد ١٩٤٣)



سلوى عدنان تحسين علي ابنة (عادلة) أمين زكي
وحفيدة السيد أمين زكي



مأمون أمين زكي في ملابس الدكتوراه من جامعة (Canada Calgery)



صدور ديالى (آذار ١٩٥٣)
مع بوني الباچه چي

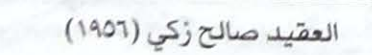


الوالدة في العشرينات
بعد قص شعرها الطويل (١٩٢٧)

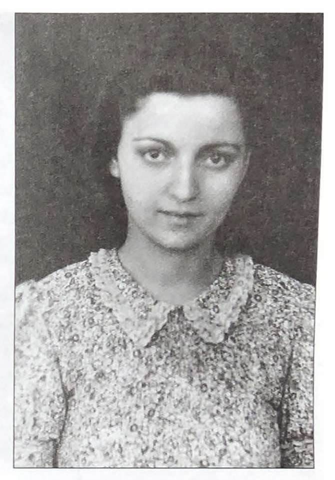


سانحة أمين زكي في الثالثة من عمرها (١٩٢٣)





العقيد صالح زكي (١٩٥٦)



سانحة في كلية الطب ـ الصف الرابع
(١٩٤٠/١١/٨)



ابني أحمد احسان رفعت وعمره ثمانية عشر شهراً
(بغداد ١٩٥٦)



عمي محمد صالح زكي في بداية الحكم بالعراق



أمينة الرحال (بيروت ١٩٣٧)



وفيقة حبيب الخيال وكاملة يوسف وموزلي ناوي ومارسيل حردون
الجالسات: أمينة يوسف، سانحة أمين زكي، بوران أحمد، وبدور سمعان (١٩٣٣/٢/٨)



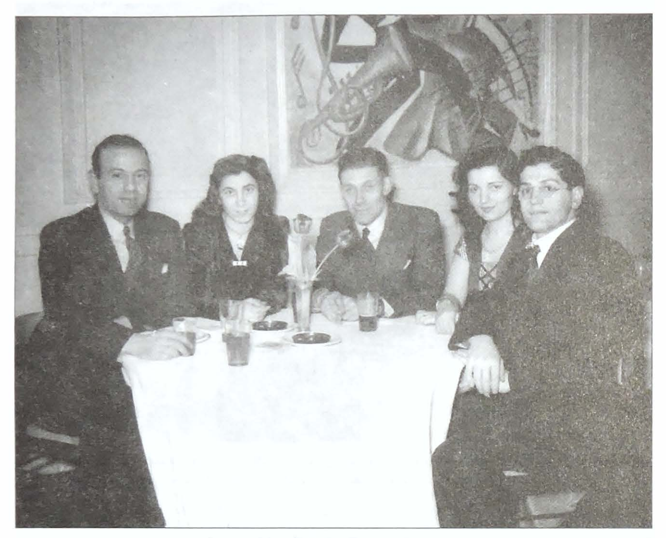
د. لطيفة لاوي ود. سانحة أمين زكي في البصرة (١٩٤٤)



في بيتنا ١٩٥٧
د. سانحة أمين زكي، د. سالم وأمينة الرحال



الست أمت سعيد مديرتنا في الثانوية
وأصبحت عميدة كلية البنات (كلية الملكة
عالية) ـ ١٩٣٠



لندن ١٩٤٨ ـ حفلة عشاء للاستاذ (سنيسي) مع الأطباء
من اليمين: د. غانم عقراوي، وسانحة أمين زكي، وسمحة شيتا، والسيد احسان رفعت



شيرين وعمرها ٦ سنوات
١٩٥٦



بهو الأمانة.. اسبوع الاعمار.. بعض الضيوف: بهاء الدين باشا نوري (سفير العراق في الأردن) رفيق عارف (رئيس أركان الجيش) زوجة مدير شركة نفط العراق (ليدي تود) ـ بغداد (١٩٥٧)



زينب وفيصل رسول الاسترابادي



احسان رفعت أيام الخطوبة (بغداد ١٩٤٣)



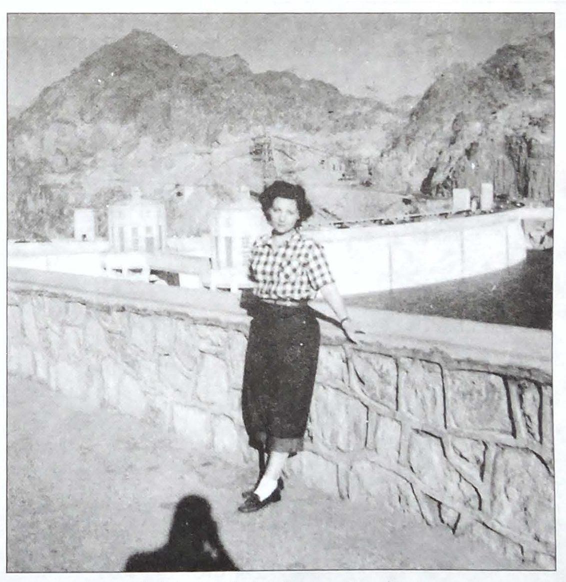
الوالدة فوزية صالح الهرمزي (بغداد ١/٩/١٩٤٠)



حسن فهمي المدفعي (الأكاديمية العسكرية)
ونوري ثابت (حبزبوز)
وهو خال خالد القصاب (١٩٢٦)



مطعم الأمباسي (تموز ١٩٥٦)
احسان وسانحة مع جعفر علاوي وزوجته مليحة



سانحة أمين زكي في سد (بولدرادم) على نهر كولورادو



مع سهيلة واحدى الطبيبات سهيلة ابنة أختي الكبرى (٢٥ آب ١٩٥١)



بيت جان دي سير الملحق الفرنسي
حفلة بالو تنكرية (آذار ١٩٥٧)
احسان بالملابس اسبانية، وسانحة
بملابس بلاد الألب



احسان رفعت، وسانحة أمين زكي، وبوني الباچه چي (سفرة الى سامراء ـ آذار ١٩٥٣)



بهو أمانة العاصمة (٢٣ شباط ١٩٥٦)
حفلة رئيس الوزراء بمناسبة مرور سنة على ميثاق بغداد مع نوري باشا رئيس الوزراء، والسفير التركي في بغداد مظفر كوكسنن باشا، ود. سانحة أمين زكي



السيد بابا علي الشيخ محمود وزوجته السيدة رشادت خان الطالباني بعد مرور سنوات طويلة على زواجهما



جنيف ١٩٣٦
بتول مع أولادها بثينة، سهيلة، وزهير
والمربية



عيد ميلاد شيرين (نوفمبر ١٩٦٣)
من اليمين: سانحة أمين زكي، د. سالم الدملوجي، مأمون أمين زكي، خلوق أمين زكي، واجدة الهرمزي.
الأطفال: من اليمين: عمر سالم الدملوجي، سعد سالم الدملوجي، احمد احسان رفعت، شيرين احسان رفعت
والدة الدكتور سانحة تجلس قرب أحمد



حفلة مستر (كنادة) في بغداد ـ الجمعية الأمريكية العراقية (ديسمبر ١٩٤٩)



مع ابنة أخي سهيلة صبيح نجيب



آيتن الرحّال وزوجها مصطفى البحراني (بغداد)



مطعم الأمباسي.. مع نائب الملك سمو الأمير زيد وصاحب المطعم كريكور ـ بغداد (اكتوبر ١٩٥٥)



مع بوني الباجه چي زوجة الدكتور نديم ـ سرسنك (آب ١٩٥٣)



اربيل ـ استراحة السكك.. عطلة عيد الفطر
سانحة أمين زكي، احسان رفعت، سوزي العمري، بوني الپاچه چي
(مايو ١٩٥٦) تصوير نديم الپاچه چي



صورة المرحوم حسن فهمي علي المدفعي أثناء تسنمه وظيفة ومنصب مدير الشرطة العام في ثلاثينيات القرن العشرين في العراق
(مرسلة من هشام المدفعي)



بهو الأمانة ـ حفلة رئيس الوزراء ـ مرور سنة على ميثاق بغداد ٢٣ شباط ١٩٥٦
نوري باشا والى يمينه د. سانحة أمين زكي والى يساره السيدة (ام الحارث) زوجة السيد عبد المجيد محمود



احسان رفعت، وسانحة أمين زكي، وبوني الباچه چي (أربيل ١٩٥٦)



نوري باشا وعلي جودت الأيوبي ومعهم د. سانحة أمين زكي
بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (آذار ١٩٥٧)



حفلة جمعية حماية الأطفال (بغداد ١٩٥٧)
احتفالاً بالأميرة (فاضلة) خطيبة الملك فيصل الثاني وأمها الأميرة (هانزادة) ابنة السلطان الخليفة عبد العزيز
عن يمين الخطيبة المسز سارة الجمالي
الواقفات من اليسار: والدتي، السيدة فوزية زوجة أمين زكي، قربها ماري مدحت، واحدة لم أعرفها، بالوسط شهبال فاضل، وما قبل الأخيرة السيدة صبرية الهرمزلي ابنة عم والدتي



بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (بغداد ـ آذار ١٩٥٧)
بهاء الدين نوري (سفير العراق في الاردن) والفريق رفيق عارف (رئيس أركان الجيش)



بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (بغداد ـ آذار ١٩٥٧)
من المدعوين: بهاء الدين نوري (سفير العراق في الاردن) وخليل ابراهيم (مدير الدعاية العام)



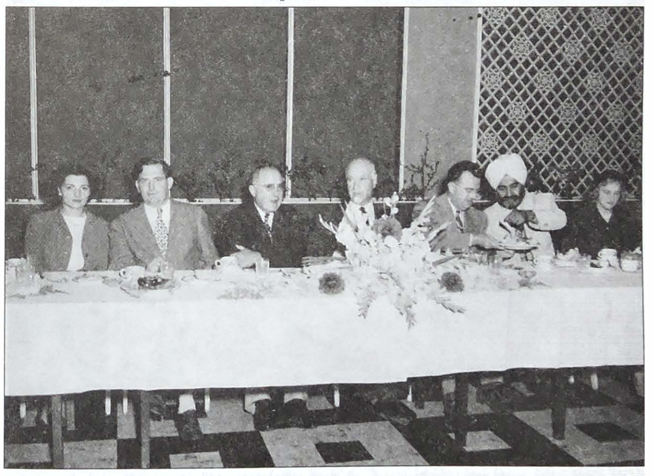
بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (بغداد ـ آذار ١٩٥٧)
مع فخامة السيد توفيق السويدي (وزير الخارجية) ومعالي بهاء الدين نوري ومعالي ابراهيم الشابندر وعقيلته في انتظار وصول سيارتنا بعد الانتهاء من الحفلة



بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (بغداد ـ آذار ١٩٥٧)
نوري باشا السعيد يودع ضيوفه بصفته رئيساً لمجلس الوزراء والاعمار. يظهر في الصورة: د. سانحة أمين زكي، ضياء جعفر (وزير الاعمار)، بهاء الدين نوري (سفير العراق في الأردن)، احسان رفعت (مدير شؤون النفط العام)، جان دي سير (شركة النفط الفرنسية) والدكتور صائب شوكت الى اليسار

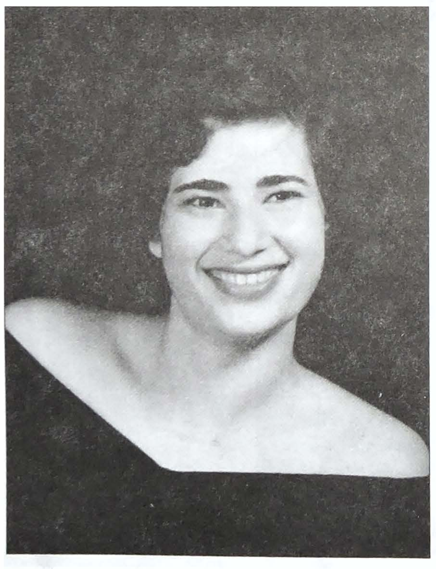


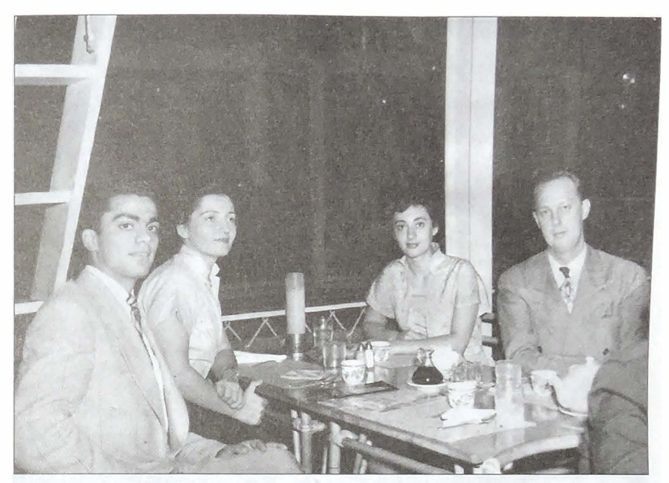
بيت السفير التونسي ـ بغداد ١٩٥٥
السيدة هاجر زوجة خليل كنة، والسيدة ملوك ضياء جعفر، والسيدة ناهدة الشابندر، والسيدة زوجة السفير، وسانحة أمين زكي



حفلة في اوتيل (اهواني) ـ كاليفورنيا


حفلة في اوتيل (اهواني) ـ كاليفورنيا (حزيران ١٩٥١)


سهيلة صبيح نجيب ابنة أختي
الكبيرة (شيكاغو ـ ١٩٥١)



امت الزهاوي مع زوجها (نيولند) أخاها وسيم (سان فرنسيسكو ١٩٥١)
تزوجت امت الزهاوي مستر نيولند بعد ان تم طلاقها من زوجها العراقي عبد الملك نوري



الاستاذ الجراح الكبير دراغ شتيت
(شيكاغو ١٩٥١)



ملك غنام ـ أول طبيبة في كلية الطب (١٩٤٠) تستلم الشهادة من يد الوصي على العرش الأمير عبد الاله
من اليسار: اللواء أمين زكي، وحسام الدين جمعة، والوصي عبد الاله، والسيد باقر سركشك،
وابراهيم عاكف الآلوسي



ابنة عمتي فضيلة محمود رامز
في المدرسة المركزية أمام بناية الداخلي
(بغداد ١٩٣٥)



احسان رفعت بعد الكلية العسكرية ١٩٤١



طلاب في كلية الطب (١٩٤٠/١/٣٠)
سانحة أمين زكي، وأمت الزهاوي، ووجيه زين العابدين، ونجيب شكري، وسعدي السامرائي، وضفيك طوقاليان، وفخري السمري



في صباح يوم حفلة توزيع الشهادات للصف المنتهي
الخميس ١٩٣٨/٤/٢١
الطالبات: سانحة أمين زكي وأمت الزهاوي



مأمون الصغير يحمل على ايادي سعاد جميل المدفعي
وسانحة أمين زكي ولمعان وسلمى جميل المدفعي
(١٩٣٨)



احمد الشماع يستلم الجائزة الثانية في مباراة التنس على كأس الدكتور صائب شوكت ويقف جنبه أنور القيمقچي
ما الذي جعلنا نضحك ونصفق بهذه الجلسة يا ترى؟
سانحة وقربها سهام شوكت (الصغير) ابن صائب شوكت (١٩٤٠/٥/٢٢)



قاووش رقم (٥) للجراحة (١٩٤٠/١/١٠)
الطلاب والطالبات مع الدكتور أكرم القلمچي
الممرضة نجيبة، ووجيه زين العابدين، وأمت الزهاوي، وسانحة أمين زكي



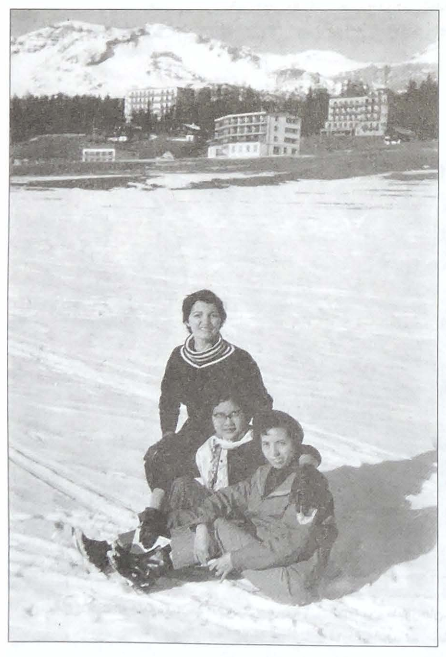
كلية الطب (١٩٣٩/٢/١٠)
الطالبتان سانحة أمين زكي وآمنة مراد



في ابان الحرب العراقي ـ البريطانية عندما لبست الخاكي.. وكانت أيام لم أكن لأظن ان أثرها سيمحى بهذه السهولة وعلى كلٍ لولا النسيان..
سانحة وخلوق ١٩٤١/٥/٢٥



الصف الثاني (ناقص اثنين من الطلاب) ١٩٣٩/٢/١٥
بمناسبة سفر الدكتور كندي بعد انتهاء عقد خدمته، وقد سافر الدكتور هندرسن
بعد تاريخ هذه الصورة بشهر وعشرة أيام



مونتانا ١٩٥٧



كلية الطب (١٩٤٠/١/٣٠)
الدكتور أكرم القيماقجي والدكتور صبيح الوهبي (طلاب في الكلية)
من اليمين: فخري الشنوي، سانحة أمين زكي، أمت الزهاوي، نجيب شكري، وأحمد الشماع



الصف الثالث (١٩٤٠/٢/١٥)
ما ان وقفنا للرسم حتى رأينا العميد داخلاً فرجوناه للوقوف فابتسم قائلاً: اشو انتو بس تاخذون رسوم!
الدكتور طبوزخان على يسار د. صائب شوكت
من اليمين: أمت الزهاوي، سانحة أمين زكي، وجيه زين العابدين، طبوزخان، نجيب شكري، احمد الشماع، سعدي السامرائي وحربي دلي



قاعة التشريح (١٩٣٩/١/٢٠)
أمت الزهاوي، عبد القادر وهبي، وسانحة في الفصل الثاني من السنة الثانية



الموصل ١٩٥٧
مضارب شمر: د. سانحة مع (عجيل) أبن الشيخ أحمد العجيل الياور



علية العسكري في حفلة بحديقة نديم الباچه چي قرب النهر في (الردوية) (نيسان ١٩٥٨)

الموصل (آذار ١٩٥٧) ـ مضارب شمر آن بطلر (انكليزية)، قيس العسكري، سانحة أمين زكي في مضارب أحمد عجيل الياور



في الصف الثاني ١٩٣٩/١/٢٠
طلاب مع سانحة أمين زكي وأمت الزهاوي وطالب عبد القادر وهبي الخزرجي (أخو الشاعرة عاتكة الخزرجي)



سانحة أمين زكي في مضارب الشيخ احمد العجيل الياور
الموصل (آذار ١٩٥٧) مضارب شمر
في الملابس العربية ووراءنا خيمة لمضارب شمر



سانحة أمين زكي في الصف الرابع في الكلية
بمزرعة عمي فضلي أبو منذر
(اليوسفية ٤/١١/١٩٤٠)



جماعتنا في ردهة رقم واحد مع الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي والدكتور ناجي مراد مدخل باب النرسنك هوم



سانحة أمين زكي وعبد القادر وهبي الخزرجي والبير صباغ في الصف الثاني ١٩٣٨/١/٢٠



في عطلة الصف الثالث (ايلول ١٩٤٠)
أمام بيت عمي صالح زكي ـ العقيد
الفنان ـ على الشط



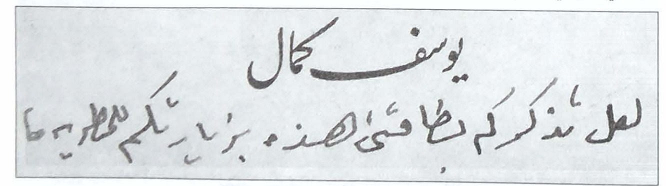
ملك غنام أول فتاة دخلت كلية الطب ١٩٢٣ مع الدكتور صائب شوكت (١٩٤٠)



الليدي دراور ـ انكليزية اشتركت في المؤتمر النسائي الأول في القاهرة كمستمعة (١٩٤٤)



سرية الخوجة (القاهرة ١٩٤٤/١٢/٢٨)



يوسف كمال

لعل تذكركم بطاقتي هذه بزيارتكم للمطرية

بطاقة الأمير يوسف كمال يوم زيارتنا الى (المطرية)



الأهرام ١٩٤٤/١١/١٥
من اليسار: سانحة وليما ابو الهدى ومائدة الحيدري



أنشاص بيت الملك فاروق (كانون الثاني ١٩٤٤)
سانحة أمين زكي وعلى اليسار روز خدوري وعلى اليمين نزهت غنام



حديقة القناطر الخيرية ـ القاهرة ١٩٤٤/١٢/١٦
الحجت على ركوب (القارب).. لم يوافق احد سوى مائدة.. النهر الصغير يشبه صورة رائعة ويظهر الفلايكي والعسكري



انشاص مع تهاني ووفية (بيت الملك فاروق في الريف)
من اليسار: الثانية نزهت غنام، سانحة أمين زكي، تهاني (مصرية)، سرية الخوجة، مائدة الحيدري، ووفية (مصرية)



حديقة الحيوانات: ليما ابو الهدى، نزهة غنام، اميلي ، وسانحة أمين زكي، وسريّة الخوجة



حسن فهمي وولده قحطان (طفله الأول)
سنة ١٩٢٨



معبد الشمس مع اميلي وسانحة وليما ابو الهدى



سانحة أمين زكي ليلة مغادرتي القاهرة (١٨/١٢/١٩٤٤)



ستوديو مصر (١٩٤٤/١٢/١٥)
من اليمين: ليما ابو الهدى، مائدة الحيدري، سانحة أمين زكي، وسلمى العمري



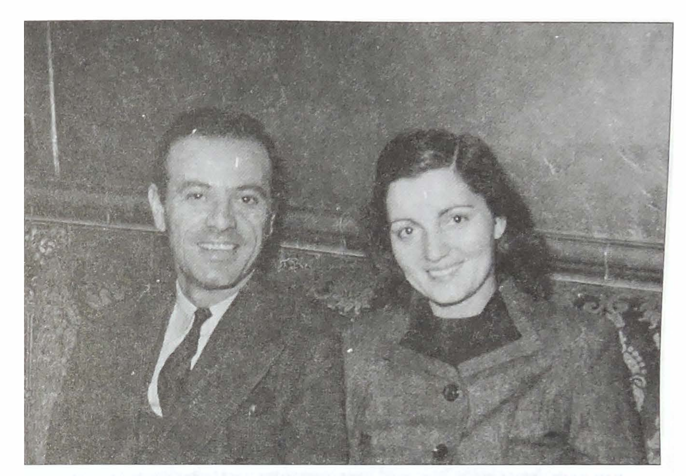
أفراد من المؤتمر العربي النسائي الأول ـ القاهرة ١٩٤٤



بعض العضوات في المؤتمر النسائي الأول بالقاهرة (قرب أبو الهول: ليما وجميلة وايلي ١٩٤٤/١٢/١٥)



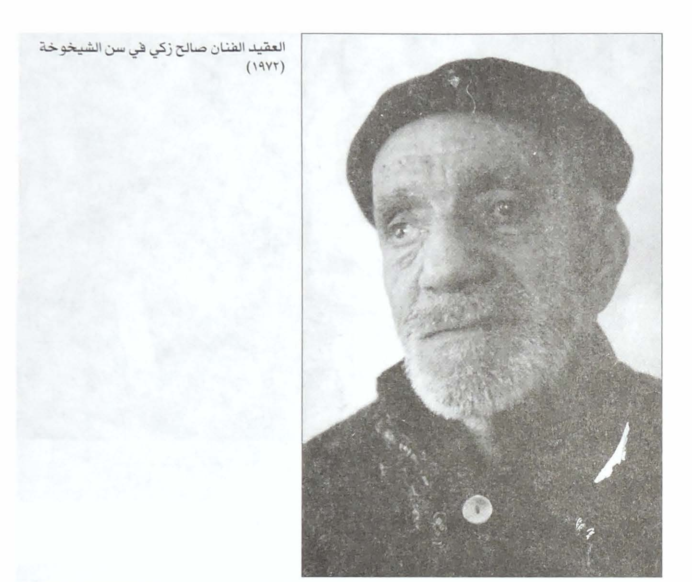
الأميرة فخر النساء زوجة الأمير زيد (لندن ١٩٤٨)



د. سانحة أمين زكي مع زوجها احسان رفعت (لندن ١٩٤٧)



ابراهيم النفطچي نائب كركوك
(البرلمان ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)



العقيد الفنان صالح زكي في سن الشيخوخة (١٩٧٢)



في المدرسة المركزية (بغداد ١٩٣٥/١١/٢٩)
من اليمين: صبيحة الشيخ داود وناهدة الحيدري



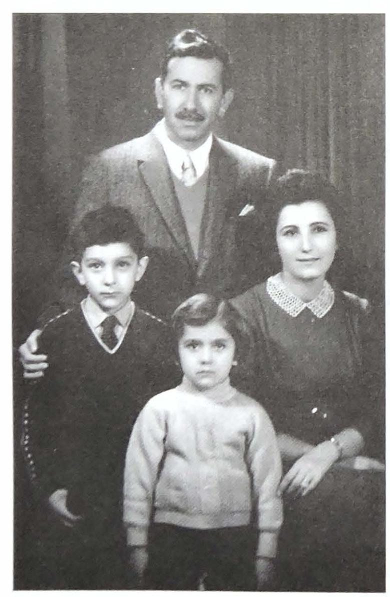
السيد بابا علي الشيخ محمود وزوجته السيدة رشادت الطالباني وأولادهم الثلاثة
(١٩٦٥/٣/٢٦)



احسان رفعت، وسرداري القائم بأعمال
ايران، وضياء جعفر وزير المالية
(آذار ١٩٥٨)



السيد بابا علي الشيخ محمود وزوجته السيدة رشادت الطالباني (بغداد ١٩٥٣)



السيد بابا علي الشيخ محمود وزوجته
السيدة رشادت خان الطالباني وأولادهما دارا
وجوان (١٩٥٩/١/١٢)


سانحة أمين زكي والين زوجة نزار جودت في بيت بابا علي بملابس الأكراد مهداة من السيدة رشادت


سانحة أمين زكي (امستردام ١٩٥١/١٠/٨)



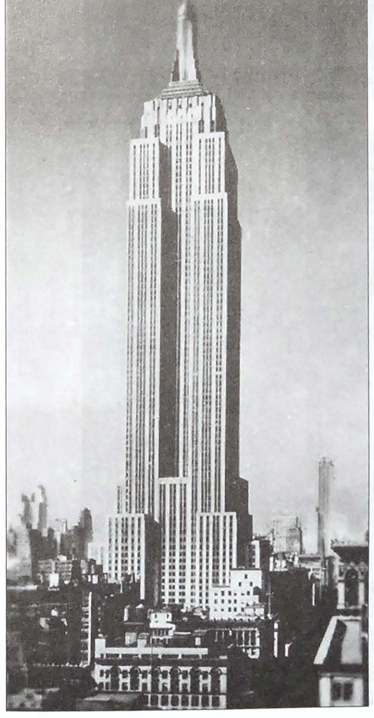
سانحة أمين زكي بملابس كردية مهداة من قبل السيدة رشادت زوجة بابا علي (نيسان ١٩٥١)



بغداد ـ البلاط الملكي (١٩٥٥/٩/٢٠)
مع نائب الملك سمو الأمير زيد وشيرين الطفلة
الصورة أخذت من قبل احسان رفعت



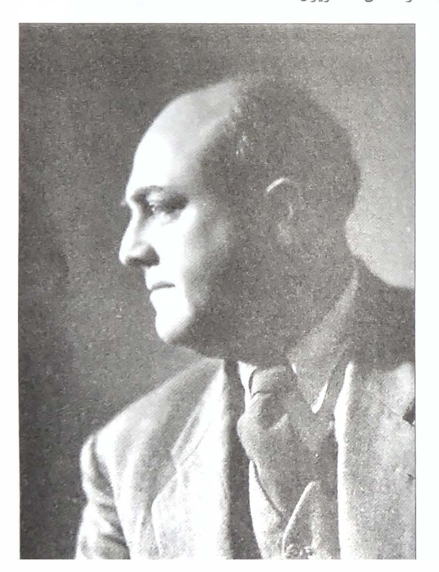
بهو أمانة العاصمة ـ اسبوع الاعمار (آذار ١٩٥٧)
بعض السيدات الحاضرات: السيدة ببيه الازري، ود. سانحة أمين زكي، ووجيهة الچلبي، والهام الچلبي، ورئيفة علاوي، وأم الحارث زوجة عبد المجيد محمود



بناية الامبراطور في نيويورك



في بيت القائم بالأعمال عبد الله بكر، مع زوجته أم وداد وزوجة أحمد الفارسي
واشنطن ٢٥ حزيران ١٩٥١







سانحة أمين زكي بملابس كردية مهداة من قبل السيدة رشادت زوجة بابا علي (نيسان ١٩٥١)



بيت السفير عبد الله بكر.. وفي الصورة: أحمد الفارسي، وأم وداد زوجة السفير، وسانحة، وهدى عبد الله بكر، وساجدة الفارسي (واشنطن ١٩٥١/٦/٢٥)



سانحة أمين زكي مع هند تحسين قدري
كان تحسين قدري رئيس التشريفات الملكية



نيسان ١٩٥٧ في مزرعة الدودية.. حفلة حضرها من اليسار: السيد انطوني نتنك (الوزير البريطاني الذي استقال من وزارة انطوني ايدن أثناء العدوان على مصر)، وسانحة أمين زكي، مسز بطلر، وجان دي سير، وأحسان رفعت



مع ليدي راين زوجة السفير البريطاني (آذار ١٩٥٧) بهو أمانة العاصمة ـ افتتاح اسبوع الاعمار
من اليمين: د. سانحة أمين زكي، والسيدة الهام الجلبي، والسيدة وجيهة الجلبي، وليدي رايت



بيت أختي أمل (١٩٩١)
من اليسار: أمل مع زوجها رسول استربادي وسانحة وفي الوسط زوجة ابنهم فيصل السيدة جوليت (أمريكية)



أحمد ابني عمره سنة واحدة



والدتي السيدة فوزية مع خلوق أمين زكي وعمره سبع سنوات (بغداد ـ حزيران ١٩٣١)



السيدة بدرية درويش (أم احسان)



الوالد أمين زكي (١٩٢٩)



خالتي الكبرى (شفيقة) أم حسين الرحال وأمينة الرحال



خالي رفعت صالح الهرمزي وهو أبو زوجي احسان
رفعت وجد ابنتي شيرين وابني أحمد (١٩١٥)



البنات في ملابس رواية (milk) وأنا في دور الهولندية مع أمينة يعقوب (بغداد ١٩٣٣/٢/٨)
بدور سمعان (يابانية)، كاملة يوسف (ايطالية)، بدران احمد (تايلاند)، مارسيل حردون (دار السلام)، أمين يعقوب (هولندي)، رفيقة حبيب (عربية)، قدرية جمال (عراقي ـ نزار)، جميلة حياوي (عراقية ـ سنان)، موزلي ناوي (الدكتور) وصالحة جوزيف



بملابس رقصة العلم الخضراء بعد حفلة الجمعية العربية (١٩٣٣/٧/١)



حسين الرحال (بغداد)



سانحة ولمعان أمين زكي (١٩٣٥)



من اليمين: الجالسون: أمين زكي (والدي)، وأم قحطان (زوجة حسن فهمي ـ خالة والدي)، وقحطان ومعه زهير صبيح نجيب الصغير وقربه بتول أختي الكبرى. أما الواقفون: أحمد مختار (أخي الأكبر)، حسن فهمي، وصبيح نجيب وأولادهم (١٩٣٣)



والدي أمين زكي يرتدي الطربوش
(الموصل ١٩٢٤/١٢/٢٥)



بنت خالتي سنية الرحال (أم خلدون)
(بغداد ١٩٢٧)



الرمادي (١٩٤١)
عمي حسن فهمي المدفعي وهو متصرف لواء الرمادي استقبل الامبراطورة (فوزية) زوجة الشاه الأولى وهي أخت الملك فاروق ملك مصر. وفي حضنها ابنتها (شاهناز وبجانبها شقيقة الشاه التوأم (أشرف الملوك)
عمي يقف وراء الأميرتين



يوم العيد (١٩١٧)
الجالسون من اليمين: الخال عزت الحاج حبيب العزي، الوالد محمد أمين زكي، الطفلة فاطمة البتول، الطفل أحمد مختار، الرضيع محمد هاشم في حضن والده
الوقوف: فضلي نجيب العزي ومحمد زكي



عادلة وأمل أمين زكي (١٩٣٥)



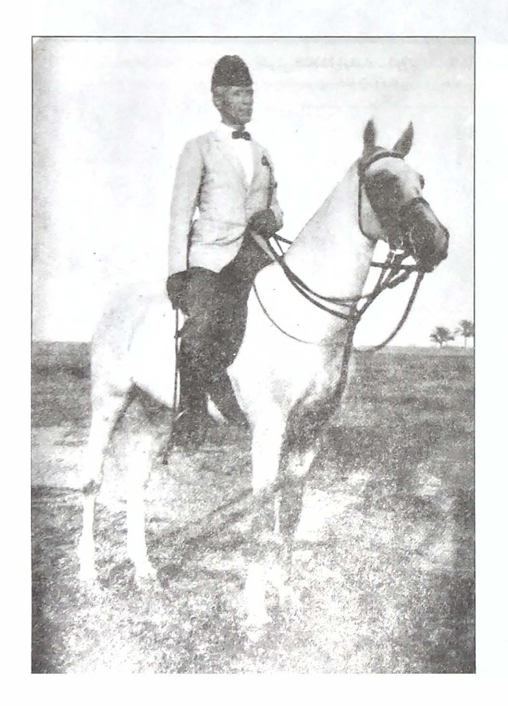
عادلة أمين زكي



السيد تحسين علي (أحد وزراء العهد الملكي) في أيام الدولة العثمانية وهو صديق والدي منذ ذلك الوقت وقد تزوج ابنه عدنان من اختي عادلة أمين زكي



أمينة، وفهيمة و(نبيهة) في بيت النفطچي (١٩٣١/٩/٩)





أخوتي الثلاثة (بغداد ـ الوزيرية ١٩٥٧)
من اليمين: خلوق، ومأمون، ورجاء



الوالد
(لندن ١٩٢١)



سانحة أمين زكي قبل الذهاب الى كركوك (١٩٣١)





والدي أمين زكي في ملابس الجيش العثماني (١٩١٧)



حفلة غداء (شباط ١٩٥٨)
هواية تسلق الأشجارظلت
تلاحقني منذ الطفولة



لندن (١٩٤٣)
سانحة أمين زكي مع زياد العسكري وزوجته علية محمد علي والسيد نزار العسكري



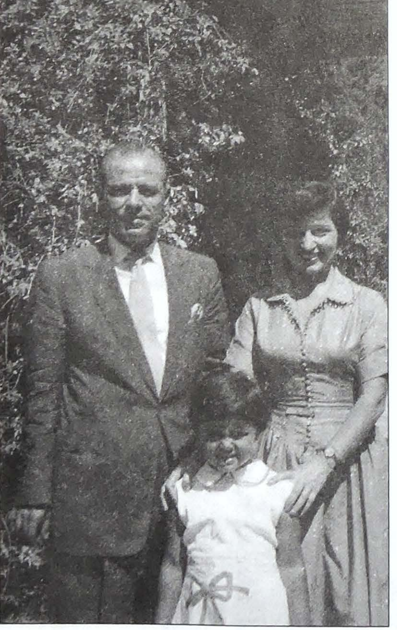
د. أمت الزهاوي في طريقها الى امريكا مع د. سانحة أمين زكي ولمعان أمين زكي (لندن ١٩٤٨)



مع احسان و(بوني) زوجة نديم الباچه چي في سرسنك (آب ١٩٥٣) كنت حاملاً أربعة أشهر



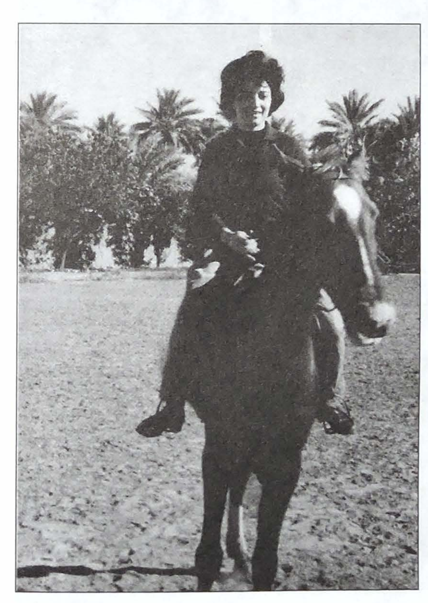
د. سانحة أمين زكي (لندن ١٩٤٧)
صورة لتصوير جواد سليم وهي الآن في بغداد



بغداد (١٩٥٥/٩/٢٠)
البلاط الملكي ـ التصوير أخذ من قبل سمو الأمير زيد
سانحة واحسان وابنتهما شيرين



نورية أخت العقيد حسن مصطفى مع ولدها حسام علي غالب (لندن ١٩٤٧/١٠/١٠)



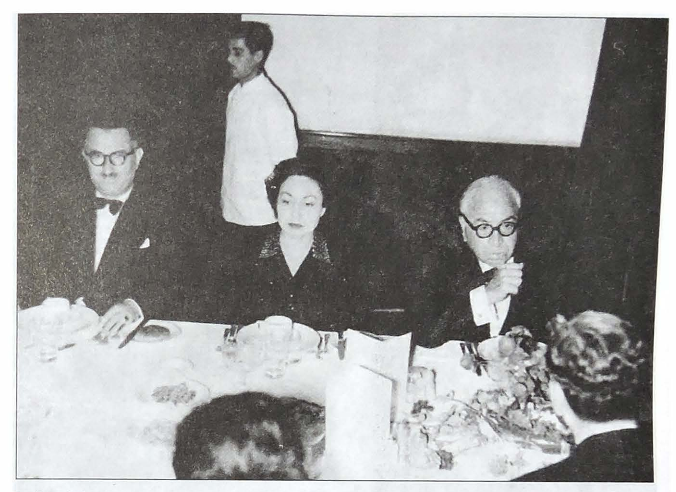
سانحة أمين زكي (شباط ١٩٥٣)



صورة عائلية: سانحة أمين زكي واحسان رفعت وزيد صالح زكي ولمعان أمين زكي (لندن ١٩٤٨)



سانحة أمين زكي وزوجها احسان رفعت
(لندن ١٩٤٨)



من اليمين: توفيق السويدي رئيس وزراء العراق ود. سانحة أمين زكي ومحمد فاضل الجمالي وزير الخارجية



في مدينة (توركي) في منطقة
(ديفون) بانكلترا (١٩٤٧)
د. سانحة أمين زكي تمثل العراق
في مؤتمر طبي



(لندن ١٩٤٨)
ميدان ترافلكار مع: السيد عبد الملك الخضيري وزوجته الست فضيلة والأولاد الثلاث
والسيد عبد المنعم الكيلاني وزوجته ساهرة سامي سليمان، ود. لمعان أمين زكي، واحسان رفعت،
ود. سانحة أمين زكي، والملازم زيد صالح زكي



في احدى المناطق القريبة من لندن مع المقدم حسن مصطفى الملحق العسكري في لندن
من اليمين: احسان رفعت، وانتونيا، وسانحة أمين زكي، والمقدم حسن مصطفى



مغني تركيا الشهير في حفلة منير نور الدين (١٩٥١)
من اليمين: الدكتور أحمد سهيل، احسان رفعت، سانحة أمين زكي،، زوجة خليل الداغستاني الأولى (انكليزية)،
الدكتورة زليخا الأسدي، قاسم حسن وخليل الداغستاني



الأطباء في مستشفى هامرسمث (لندن ١٩٤٧) ـ أطباء في مستشفى هامر سمث للدراسة العليا
الدكتور (البرلصي) من مصر واقف في الصف الأخير الى اليمين
بعد سنوات أصبح وزيراً في زمن جمال عبد الناصر



من اليسار: احسان وسانحة ومعهم السكرتير الأول عبد الملك الخضيري وزوجته فضيلة ود. لمعان أمين زكي
(لندن ١٩٤٨)



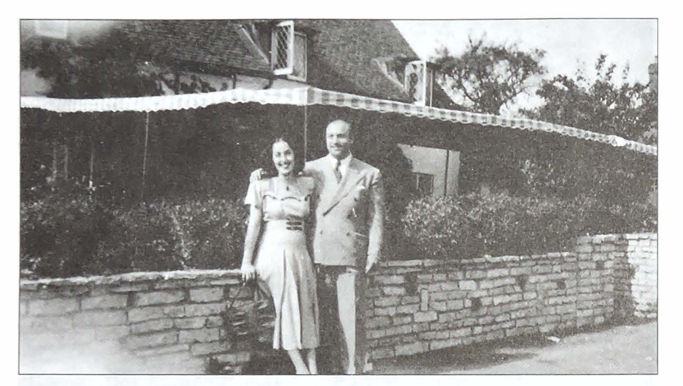
احسان رفعت ونديم الباچه چي
في شوارع لندن (بيكادلي)
١٩٤٧



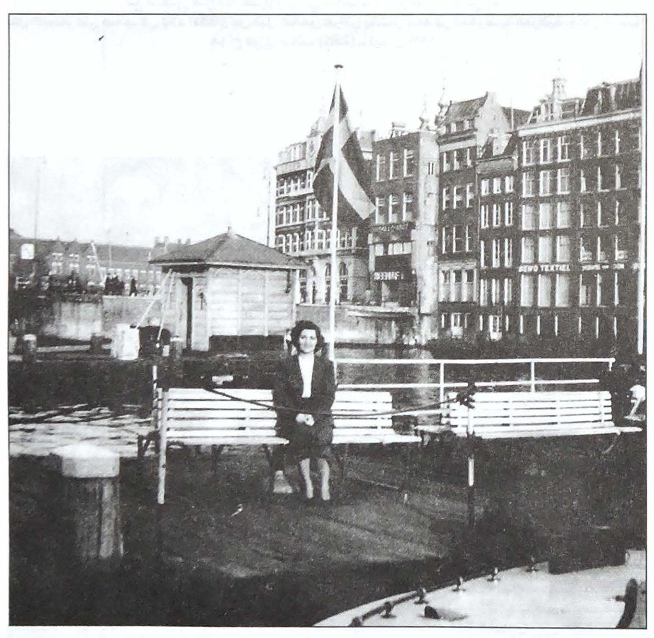
باريس (١٩٤٧) الى اليسار سانحة أمين زكي



باريس (١٩٤٧)
قرب كنيسة نوتردام



السكرتير الأول في السفارة العراقية عبد المنعم الكيلاني وزوجته ساهرة سامي سليمان (لندن ١٩٤٨)



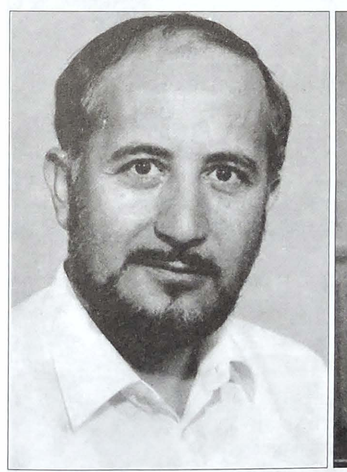
في الطريق الى بغداد بعد الرجوع من امريكا (١٩٥١/١٠/٨)



مع الدكتور فتح الله عقراوي وعلي صائب سكرتير الخارجية في بغداد
قتل الاستاذ علي صائب في بلاد الأفغان من قبل شخص عراقي يشتغل معه في المفوضية العراقية، وعلي صائب هو أخ فوزي صائب (كاكة) ـ نيسان ١٩٥٤



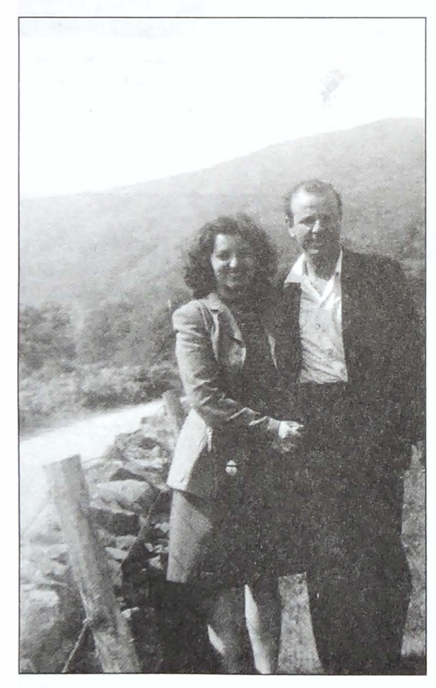
الأصدقاء: زياد جعفر العسكري وزوجته علية محمد علي محمود وابنتهم الطفلة نهلة (لندن ١٩٤٨)



مجدي الخطيب



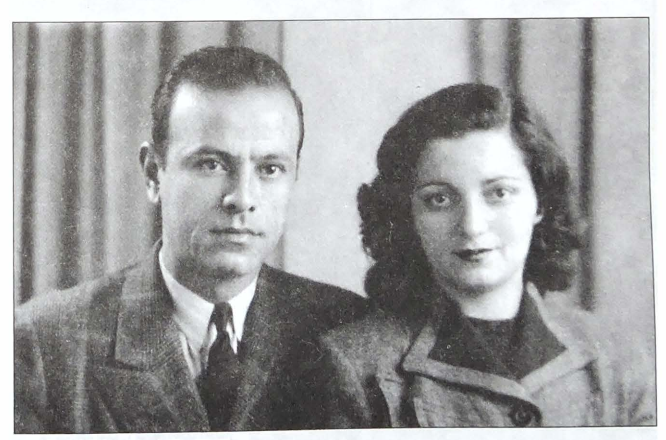
جريدة «البلاد» تكرم (ابراهيم المازني) في نادي المحامين ببغداد عصر ١٤/١/١٩٤٥



في منطقة مدلاند في شمال انكلترا
د. سانحة أمين زكي وزوجها احسان رفعت (آب ١٩٤٧)



مع الاستاذ علي صائب سكرتير الخارجية في بغداد (نيسان ١٩٥٤)



سانحة أمين زكي واحسان رفعت (لندن ١٩٤٦)



الأطباء: الأستاذ بيتي استاذ الفارماكولوجي بالصدرية البيضاء، واحسان قيماقچي، وعبد المجيد القصاب أبو السدارة. أما الطلاب العراقيون فهم: فخري الشنوي، وآمنة صبري مراد، وسانحة أمين زكي، وفيضي الزهاوي (١٩٤٠/١٢/٢٨)



في مؤتمر نسائي بلبنان (١٩٤٩)
من اليمين: مديحة الاثري، د. سانحة أمين زكي، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان، ود. أديبة ابراهيم ومائدة الحيدري



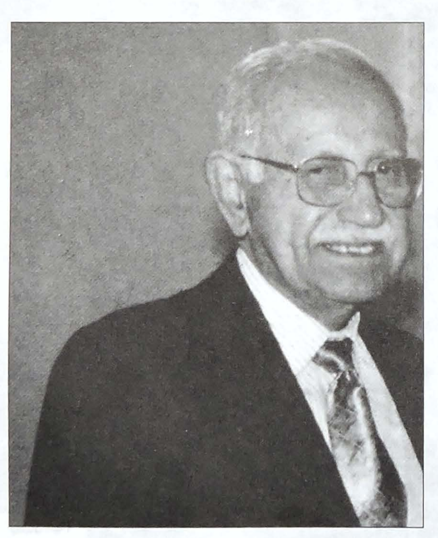
حفلة كوكتيل (لندن ١٩٤٨)
الدكتورة سانحة أمين زكي والمقدم حسن مصطفى الملحق العسكري في لندن، واحسان رفعت



حفلة كوكتيل (لندن ١٩٤٨)
الملحق العسكري في لندن المقدم حسن مصطفى والبعض من المدعوين والعراقيين
من اليمين: احسان رفعت وزوجته الدكتورة سانحة



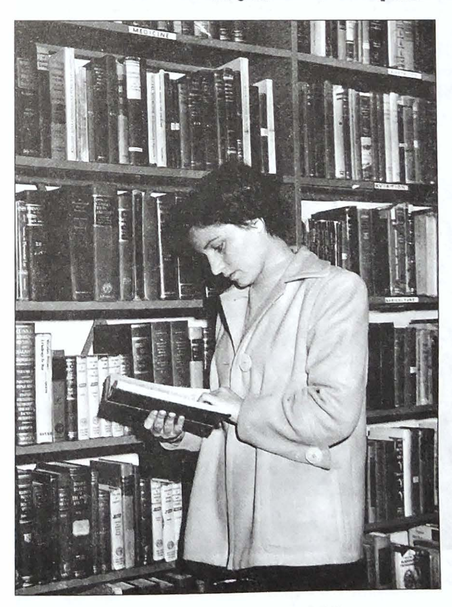
شهادات الثانوية المركزية ـ الصف الأدبي ١٩٣٦
الواقفات: فاطمة محمود، ومولي ناوي، ومارسيل حردون، وسانحة أمين زكي، ومارسيل خليفة، ونعيمة ساسون، وفيوليت صوراني، والمسز كنيدي، وعزيزة الياس، وفتاة أرمنية (آزنيق)



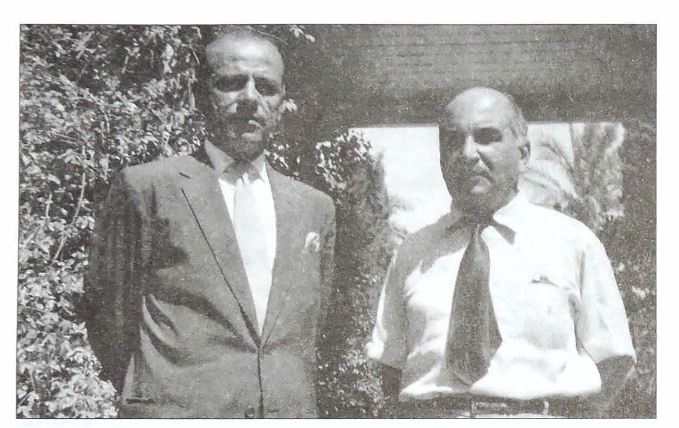
السيد عبد الغني الدلي

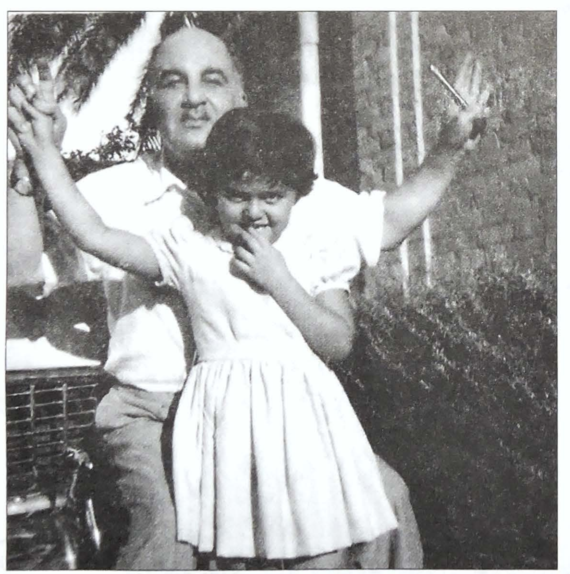


حفلة كوكتيل (لندن ١٩٤٧) من الملحق العسكري المقدم حسن مصطفى للضباط العراقيين في لندن
من اليسار: ملحق الطيران (نافع) وزوجته نعمت الحشمة، والعقيد عادل أحمد راغب، والعقيد نايل محمود،
وزوجة أحد الضباط الانكليز، والمقدم حسن مصطفى الملحق العسكري في لندن، واحسان رفعت وزوجته وهي
سانحة أمين زكي ،أحد الضباط الانكليز مع زوجته



بغداد ١٩٥١
قبل السفر الى امريكا بقليل


البلاط الملكي ـ بغداد (١٩٥٥/٩/٢٠)
نائب الملك سمو الأمير زيد مع احسان رفعت


البلاط الملكي ١٩٥٥
سمو الأمير زيد مع شيرين



بغداد ـ مطعم الأمباسي (١٥/١٠/١٩٥٥)
د. سانحة أمين زكي مع سمو الأمير زيد والشريف محمد أمين وتحسين قدري باشا



سانحة أمين زكي وعلية
زوجة زياد العسكري
واحسان رفعت
(لندن ١٩٤٨)



اربيل ـ استراحة السكك ـ في عطلة عيد الفطر (مايو ١٩٥٦)
احسان رفعت، وسانحة أمين زكي، وبوني الباچه چي (امريكية)



العقيد صبيح نجيب العزي
مرافق الملك فيصل الأول،
ومن ثم مع الأمير زيد



زوجي احسان وسالم الدملوجي زوج اختي لمعان (بغداد ١٩٥٦/٩/١٩)



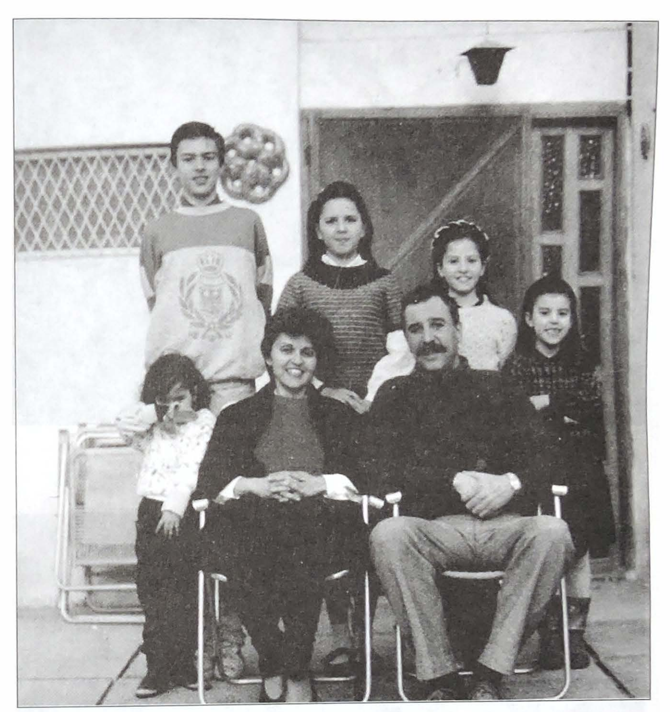
محمود بابان، واحسان رفعت، وزياد العسكري في حفلة غداء (نيسان ١٩٥٨)



حفلة في السفارة العراقية (١٩٤٨)
الأمير زيد مع شاكر الوادي ورئيس أركان الجو البريطاني مع زوجته وابنته



عدنان تحسين علي،
زوج أختي عادلة



أحفادي الخمسة (بغداد)
جعفر وسعاد وزهراء وبيداء وهند مع أمهم شيرين ووالدهم جواد شبر

المحتويات





المؤلفة في سطور

- ولدت في بغداد
- تخرجت من الثانوية المركزية للبنات
- دخلت كلية الطب في بغداد كاول فتاة مسلمة، وتخرجت سنة ١٩٤٣
- تعينت في كلية الطب، وتزوجت من المهندس احسان رفعت ١٩٤٤
- دراسات عليا في لندن في قسم (مفردات الطب) عودلت بـ M.S.C ونشرت بحوث في (ادمان المخدارت)
- استاذة في (مفردات الطب) في كلية الفارماكولوجي (علم عقاقير الطب)
- سافرت الى لندن في اجازة دراسية سنة ١٩٧٢م
- تقاعدت في سنة ١٩٧٦م، واصبحت استاذة مشاركة مع الدكتور (يوركستون) في مستشفى (فريان) FRIEN HOSPITAL للامراض العقلية
- اشتغلت على مرض (الشيزوفرينيا) لمدة ستة سنوات، كما نشرت سبعة ابحاث في المجلات الطبية البريطانية والسويدية
- اشتغلت في جدة المملكة العربية السعودية لمدة خمسة سنوات
- طبيبة اختصاصية في مستشفى الملك فهد العسكري في الامراض العقلية
- تعيش في بريطانيا الى الآن
- عضوة في الجمعيات الآتية:
  - الجمعية الطبية العراقية وخمس جمعيات انسانية واجتماعية
  - الهلال الاحمر الفرع النسائي
  - رمزي للاطفال المعاقين
  - خريجات الجامعة
  - المؤلفين والكتاب
  - اعمار الشمال للبناء في كردستان

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116



Email: al_hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

